پلوتارخ

السِّيَر

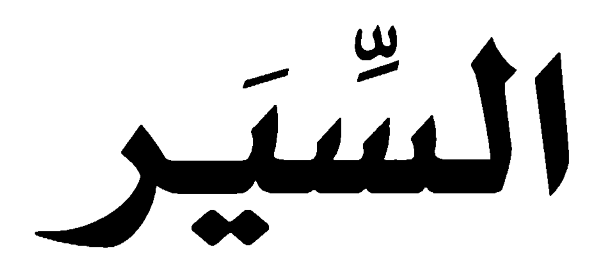
الجزء الثاني



ترجمة: جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

پلوتارخ



السِّيَر

الجزء الثاني

ترجمة: جرجيس فتح الله

دار آراس للطباعة والنشر

منشورات الجمل

أريستيدس

ARISTIDES

٥٤٠–٤٦٨ ق.م

كان أريستيدس ابن ليسيماخوس، من قبيلة أنطيوخيس Antiochis ومدينة ألوبيكي Alopece. وقد اختلفت الأخبار في موضوع ثرائه فقال بعضهم إنه قضى حياته في فقرٍ مدقع، وترك ابنتين أبقاهما فقرُهما عازبتين مدةً طويلة[1]. ولكن ديمتريوس الفاليري يخالف غالبية المؤرّخين فيقول في كتابه «سقراط» Socrates إنه يعرف حقلاً في فاليروم مُسجّلاً باسم أريستيدس، وهو مدفون فيه. وكدليل على ثرائه يقدّم أولاً: تولّيه منصب «أرخون إيپونيموس» Archon Eponymus[2] الذي ناله باقتراع «حبّات الفاصولياء»، وهو وقْف على أعلى الأُسر الغنيّة التي تُسمّى پنتاكوزيوميديمني Pentacosiomedimni، ويعرض ثانياً نفيه دون محاكمة الأمر الذي لم تجر العادة بفرضه على المواطنين الفقراء بل على أولئك الذين ينحدرون من كبريات البيوتات، فتعرّضهم مقاماتهم العالية للحسد والكره، ويقدّم ثالثاً وأخيراً ما تركه في معبد باخوس من محامل أواني مثلّثة الأرجل تقدمةً لفوزه في إخراج تمثيلية درامية، ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، وقد نُقش عليها العبارة التالية: «قبيلة

---

(١) ومع هذا فبالنظر إلى قانون صولون لم يكن يترتّب على العروس أن تأخذ إلى بيت الزوجية من جهاز غير ثلاثة أثواب، مع أثاث منزلية قليلة جداً ذات قيمة زهيدة انظر سيرة صولون). يذكر پلوتارخ هذا لا احتراماً منه للثروة وإنما لأنّ الطبقة التي ينتسب إليها المواطن تحدَّد بحسب ثرائه وما يملكه من مال، حسب ما تمليه قوانين صولون.

(٢) يقوم حساب تقويم الأثينيين بحكم الأراخنة (ج. أرخون) كما يحسبه الرومان بحكم قناصلهم. ولهذا الغرض يُختار واحد من الأراخنة التسعة بالقرعة وهو من أغناهم ويطلق عليه اسم «أيپونيثين» فيدوَّن اسمه في السجلات العامة. فمثلاً قام ديمتريوس الفاليري بتعيين كساندر أرخوناً على أثينا بعد سنوات قليلة من وفاة الإسكندر الكبير. وقد شُرّف لحكمه العادل خلال عشر سنوات باقامة ثلاثمائة تمثال له [پليني التاريخ الطبيعي ٣٤: ٦. و[ڤارو باقتباس نونيوس ١٢] إلاّ أن الأثينيين حكموا عليه بالموت أخيراً، وكان قد هرب إلى مصر. ثم إنهم حطّموا جميع تماثيله.

أنطيوخيس هي الفائزة. أريستيدس تكفّل بالنفقات. التمثيلية التي مُثّلت هي لأرخيستراتوس Archestratus. ومع ما يبدو في منطق هذه الدلائل من قوةٍ فإنها أقلّها أهميّة.

فالدنيا كلّها كانت تدري مثلاً أن إيامنناداس دَرَس وعاش حياته وهو مُعدم لا يملك شَرْوى نقير، وأن أفلاطون الفيلسوف أحيا الحفلات الفخمة، كحفلة الموسيقيين النافخين بالناي، وحفلة غناء الديثيرامب Dithyramb(*) وهو فقير، وأن ديون السيراقوزي هو الذي تكفّل بدفع نفقات حفلات الأخير منهما، وأن پيلوپيداس هو الذي اهتم بمعيشة إيامنناداس. فأخيار الناس لا يسمحون لأنفسهم بأخذ هدايا من أصدقائهم في أية عداوة متأصّلة لا يمكن رَأْبُها، في حين يرون في من يقبلها ليكتنزها بدوافع بخلٍ وحرصٍ وضيعاً مسخطاً، هؤلاء الأخيار لا يترددون قطّ في مكافأة حب الرفعة والتسامي الخالصَين.

ويوضح پانيتيوس Panætius[٣] أن ديمتريوس كان مخدوعاً في هويّة صاحب الاسم المحفور على مَحامل الآنية. فمن الفترة التي ابتدأت بحروب الفرس وخُتمت بنهاية حرب الپيلوپونيسوس وردنا شخصان باسم أريستيدس كانا قد أنفقا على إخراج تمثيليات وفازا بالجائزة، ليس بينهما ابن لليسيماخوس، بل كان والد أحدهما يدعى كزينوفيلوس Xenophilus، أما الثاني فقد عاش في وقت متأخر جداً عن عصر أريستيدس صاحب السيرة، كما يدلّ عليه شكل الكتابة التي لم يبدأ استعمالها إلاّ منذ عصر إقليدس Euclides[٤]. ووجود اسم المؤلف أرخيستراتوس هو بحدّ ذاته برهان آخر، إذ لم يذكره كاتب قط في أثناء حروب الفرس. بينما أورد ذكره عدّة كتّاب في زمن حرب الپيلوپونيسوس، قائلين إنه شاعر درامي. إن حجج أنيتيوس تستدعي تأمّلاً فيه كثير من التدقيق.

(*) Dithyramb: نوع من الغناء الإغريقي يؤدّيه جوقٌ ويمتاز بألحانه الصاخبة [م. ت].

(٣) من رودس. معلّم رواقي المذهب شهير جداً. ومن تلاميذه سكيپيو وليليوس. وقد صحب الأول إلى مصر. على أنه لم يكن من أولئك الرواقيين الذين أخذوا بالمنطق الشائك والمتعصب الذي يميز تلك المدرسة. وكثيراً ما كان يستشهد بأفلاطون وأرسطو وكزينوقراطس وثيوفراستوس ويكيارخوس وغيرهم من أساطين الرواقيين.

(٤) إقليدس المقصود هنا هو حواريّ من ميغارا كان واحداً من تلامذة سقراط. وقد نزل أفلاطون ضيفاً في داره عند وفاة الفيلسوف بالسّم وكان له من العمر ثلاثون عاماً. سبق سميّه المهندس الإسكندري المشهور بتسعين عاماً.

أمّا موضوع النفي بدون محاكمة، فكلّ إنسان كان معرّضاً له إذا ارتفع به صيته أو نسبه أو بلاغته إلى ما فوق المستوى الاعتياديّ. حتى أنه تناول دامون معلّم پيركلس لأن مداركه العقلية بدت تفوق المدارك العاديّة. وأكثر من هذا ما يذكره إيدومينيوس Idomenus من أن أريستيدس لم يُنصَّب أرخوناً على طريقة الاقتراع بحبّات الفاصولياء، بل بالانتخاب الحرّ الشعبي. وإذا كان قد ارتقى المنصب بعد معركة پلاطيا Plataea كما ذكر ديمتريوس نفسه[٥]، فإن شهرته العظيمة وانتصاره في الحرب هما اللذان زكّياه لتسنّم منصب شغله آخرون لثرائهم العريض. على أن ديمتريوس كان متلهّفاً بلا جدال على جبّ صفة الفقر لا عن أريستيدس وحده، بل عن سقراط أيضاً، كما كان حريصاً على نفي صفة الشرّ عنهما، ويخبرنا عن ثانيهما أنه كان يملك داراً خاصةً، فضلاً عن سبعين «مينا»[٦] وضعها بالربّا شركةً مع كريتو Crito.

كان أريستيدس صديقاً ونصيراً لكلستينس Clisthenes وهو ذاك الذي تولّى شؤون الحكم بعد طرد الطغاة[٧]، وباحتذائه مِثالَ بليكورغوس اللقيديموني وإعجابه به أكثر من أي سياسيّ آخر، انحاز إلى المبادئ الأرستوقراطية في الحكم. وكان تميستوكلس ابن نيوكلس خصمه منحازاً إلى عامة الشعب. ويقول بعضهم إنهما نشأ وربيا معاً منذ نعومة أظفارهما، وكانا على طرفي نقيض دوماً في كل عملٍ لهما أو قول، سواء في مواطن الهزل أو في مواطن الجدّ. وفي أوّل منافسة لهما سرعان ما برهن كل واحد منهما على اتجاهات طباعه الخاصة، فأحدهما كان متخفّراً مغامراً ماكراً متحمّساً لكل شيء سريع الاقتبال له، أما الآخر فكان رزيناً وقور الطبع موطن النفس على السيّر بعدلٍ، غير متسامح في سوء أدب وخداع أو تدليس حتى في لهوه ولعبه. ويقول أرسطون الخيُوسي إن أوّل منشأ للعداوة التي بلغت الغاية هي قضية حُبّ. إذ تنافسا على محبّة ستسيلاووس السيوسيّ الجميل، فخرق جموح عواطفهما كلّ الحدود، ولم يُلقيا

---

(٥) يخطئ ديمتريوس في هذا، لأن أريستيدس لم يُنصَّب أرخوناً بعد معركة پلاتيا التي وقعت في السنة الثانية من الأولمبياد الخامس والسبعين. وقد وجِد اسم أريستيدس في قائمة أراخنة السنة الرابعة من الأولمبياد الرابع والسبعين أي قبل معركة ماراثون بعامٍ واحدٍ. كما وجِد في قائمة السنة الثانية من عين الأولمبياد أي قبل معركة پلاتيا بأربع سنوات.

(٦) خلا أن سقراط في دفاعه عن نفسه أمام قضاته صرّح بأنه نظراً لفقره لا يمكنهم تغريمه أكثر من «مينا» واحدة.

(٧) هؤلاء هم آل بسستراتيندي الذين طُردوا في السنة الثالثة من الأولمبياد الثاني والسبعين. وقد حمل كلستينس حفيد الطاغية سيكيون الاسم نفسه.

بالعداوة جانباً عندما أفلت شمس ذلك الجمال الذي سبّبها بل انتقلت بهما إلى ميدان السياسة والشؤون العامة، حتى لكأن عاطفة الحب تلك لم تكن إلاّ حافزاً وتمريناً. وعلى هذا انضمّ تميستوكلس إلى إحدى الجمعيات الشعبية فزوّدته بقوة لا يستهان بها. ولما عتب عليه أحدهم بقوله إنه لو ظلّ على الحياد لرقّي إلى منصب الحاكم، ردّ عليه قائلاً:

«بودّي أن لا أجلس على منصّة تلك المحكمة التي تأبى على أصدقائي من الشعب حقاً يزيد على ما تمنحه غريباً عن الوطن».

إلا أن أريستيدس سار وحيداً على الدرب الذي اختطّه لنفسه - إن جاز لنا القول - فقد كان يكره في المقام الأول مسايرة شركائه في أعمال السوء، أو أن يسبّب لهم إحراجاً بامتناعه عن تحقيق رغباتهم وتلبية مطالبهم. وأراد في المقام الثاني أن يلتزم جانب الحذر بعد ملاحظته أن كثيراً من الناس جَرّأتهم مناصرةُ اصدقائهم لهم على الاعتداء والشرّ. ووجد الاستقامة في العمل والأمانة في القول هما الضمان الأمثل الأوحد للمواطن الصالح.

وعلى ايّة حال اتخذ تميستوكلس عدة خطوات خطرة ضدّ أريستيدس وعارضه ووقف عقبةً في سبيل كل نشاط يبديه، فاضطر هذا إلى مقابلته بالمثل دفاعاً عن نفسه من جهة، وحَذَراً من نفوذ خصمه المطّرد الزيادة بمساندة الشعب له من جهة أخرى. ورأى الأفضل له أن يتغاضى عن بعض الفوائد المادية العامة للخصم، لكيلا يكون بنزوله عنها بالقوة سبباً في تغلّبه ووصوله إلى السلطة العليا في كل الشؤون. وبكلمة أدقّ قام يوماً يعارض تميستوكلس في إجراءات مفيدة اقترحها هذا، ففاز عليه. ولم يتمالك نفسه من القول معقّباً على ذلك وهو يغادر الجمعية:

«لن تعرف أثينا سلاماً إلاّ إذا أرسلتنا أنا وتميستوكلس إلى الباراثوم Barathum(*)».

وفي مناسبة أخرى كان يدافع عن وجهة نظره في اقتراح قُدّم للجمعية العامة، وكانت آراؤه تنال مساندة تدريجية رغم المعارضة الشديدة وثورة النفوس عليها، ولم يدرك فساد رأيه وخطله إلاّ في اللحظة التي هَمّ فيها رئيس الجمعية بوضع الاقتراح في التصويت، فبادر إلى إسقاط رأيه وسحب معارضته. وكثيراً ما كان يدفع أشخاصاً

(*) حُفرة عميقة يُقذف إليها المحكوم عليهم بالموت. انظر (سپيداس وهارپوقراص).

آخرين لعرض لوائحه القانونية، حتى لا ينبرى تميستوكلس لمعارضتها مدفوعاً بروح التحزّب والتحامل ضدّه، كُلّ ذلك في سبيل المصلحة العامة.

وكان جَلَده في تحمّل كل التقلّبات السياسية يثير أعمق الإعجاب. فلا التكريم يصيبه بالزهو، ولا سوء الحظّ يفقده هدوءه واتزانه. وكان يرى أن الواجب يقضي عليه بوقف نفسه على خدمة بلاده مترفّعاً عن الغُنم الماديّ، مستنكفاً عن الشهرة والمجد نفسه. واتفق يوماً أن ألقيت أبياتٌ لأسخيلوس في المرسح تتعلّق بأمفياروس : Amphiaraus

«إذ ليس لأنه يبدو عادلاً، بل لأنه يهدف إلى العدل فعلاً، ومن أعماق تربته الدفينة ينمو حصاد الحكمة، والرأي الحصيف».

فشخصت أنظار كل المتفرّجين إلى أريستيدس كأن هذه الفضيلة قد اختصّ بها هو وحده.

وكان بطلاً من أبطال العدالة لا يلين عزمه. وكانت وقفته ضِدّ مشاعر الصداقة والمحاباة بمستوى وقفته ضدّ الغدر والضغينة. فقد روي عنه أنه كان يترافع قضائياً في تهمةٍ أُلصقت بشخصٍ كان من أعدائه، ورفض الحكام بعد سماع أقوال الادّعاء أن يستمعوا إلى دفع المتّهم، وباشروا فوراً في إصدار القرار بحقّه، فهبّ أريستيدس من مجلسه مسرعاً وشاركه في الالتماس بإفساح مجال الدفاع عن نفسه مستفيداً من القانون. وفي مناسبة أخرى كان يحكم بين المواطنَين متخاصمَين، فقال أحدهما لأريستيدس إن خصمه عدوّه وقد سبّب له أذى كثيراً، فردّ عليه أريستيدس:

«الأحرى بك يا صاح أن تحدّثني عما سبّب لك من أذى، فالقضية التي أحكم بها هي قضيتك، وليست قضيتي».

وانتُخب أمينَ عائدات الخزانة العامة، فأمكنه أن يثبت أن المديرين السابقين والمديرين المعاصرين قد امتدت أيديهم إلى أموالها، ولاسيما تميستوكلس

«المعروف جيداً بأنه رجلٌ كُفء. إلاّ أن أنامله كانت حُرّة جداً!»

ولذلك حرّض تميستوكلس بعض الناس على أريستيدس واتهموه عندما سَلّم حساباته، وتسبّبوا في إدانته بجريمة سرقة أموال الشعب، كما ذكر أيدومينيوس. لكن كبار القوم وأفاضلهم[٨] استنكروا الأمر جداً فلم يُكتف بإلغاء الغرامة التي فرضت عليه بل عادوا إلى إسناد الوظيفة عينها اليه. فتظاهر بندمه على تصرّفاته السابقة، وزاول عمله

---

(٨) تدخّل مجلس الأريوباغوس من أجله.

بكثير من الإهمال والتراخي، فآض مقبولاً من أولئك الذين دأبوا على نهب الخزانة، لإغضائه عنهم، وإعفائهم من تقديم حساب دقيق. فبدأ أولئك الذين أتخمتهم السرقة من الأموال العامة بمدح أريستيدس وحمده، وتوجّهوا إلى الشعب يحرّضونه على انتخابه أمين الخزانة العامة ثانيةً. وعندما بلغ الأمر حَدّ الاقتراع قام أريستيدس يؤنب الأثينيين قائلاً:

«عندما أنجزت عمال وظيفتي باستقامة واخلاصٍ كوفئت بالإهانة والتجريح، أما الآن فلأني تركت للصوص الشعب الحبل على الغارب، وسمحت لهم بمزاولة عملهم الدنيء، أُعتبر وطنياً مثالياً وموضع مدحٍ وإجلال. إني الآن أشدّ شعوراً بالخزي والعار مني عندما أُدِنتُ في الماضيَ. وأنا أرثي لحالكم الذي ترون فيه الامتنان من رجال السوء أجدر بالمدح من المحافظة على الأموال العامة».

قال هذا وبدأ يفضح السرقات المرتكبة فكمَّ أفواه أولئك الذين أشادوا به وناصروه، إلاّ أنه كسب ثناءً صادقاً حقيقياً من أفاضل الناس.

أرسل داريوس القائد الفارسي داتس Datis بحجّة معاقبة الأثينيين لإضرامهم النار في سارديس(٩)، في حين كانت نيّته الحقيقية إخضاع كلّ بلاد الإغريق لسلطانه، فنزل في ماراثون وتوغّل في البلاد وعاث ما طاب له. وكان مليتاديس أبرز اسم بين القادة العشرة الذين عيّنهم الأثينيون لإدارة الحرب، إلاّ أن المكانة الثانية كان يحتلّها أريستيدس سمعةً ونفوذاً. وعندما ثنّى على اقتراح مليتاديس بدخول المعركة رحجت الكفة(١٠). وكان كل قائد يتولّى القيادة العامة يوماً واحداً يليه الآخر في اليوم التالي وهكذا. ولما جاء دور أريستيدس سلّم القيادة لمليتاديس، مثبتاً لزملائه القادة أنه ليس مما يخلّ بشرف المرء أن يطيع ويتّبع خطى عقلاء الرجال وأكفائهم، بل هو النُبل وحُسن الإدراك نفسه، وبهذا فلّ من غُراب المنافسة، ووصل بهم إلى قبول الرأي الواحد الذي هو خير الآراء، ومثبتاً مليتاديس في مركز القيادة غير المجزّأة، أو

(٩) قبل تسعة أعوام أو عشرة. وقد كان وصوله في العام ٤٩١ ق.م.

(١٠) هيرودوتس [٦:١٠٩] كان القادة على خلاف شديد في الرأي، بعضهم يحبّذ القتال، وبعضهم لا يرى ذلك. ولما وضح هذا المشكل لملتيادس توجّه إلى كاليماخوس الأفيدين وهو بمنصب بوليمارخ وسلطة مساوية لسطلة القادة الآخرين وأظهر تحبيذه للدخول في المعركة فوراً. لعل أريستيدس ساعد أيضاً كاليماخوس المتردد لاتخاذ قراره هذا.

المعرّضة للانتقاص، فقد أخذ كل منهم ينزل عن يومه في القيادة لمليتاديس، ويتلقى الأوامر منه فحسب(١١).

وفي أثناء الحرب كان الضغط على أشدّه في الجبهة التي يحتلّها القسم الرئيس من قوات الأثينيين، وظلّ البرابرة زمناً يضيّقون الخناق على قبيلتي ليونتيس وأنطيوخيس منها بصورة خاصة. وقاتل تميستوكلس وأريستيدس هناك جنباً لجنب ببسالةٍ، إذ كان أولهما ليونتياً، وثانيهما أنطيوخياً. وبعد أن ألحقا الهزيمة بالبرابرة ودفعا بهم إلى سفنهم أدركا أن العدوّ لن يتجه إلى الجزر، وأن قوة الريح وموج البحر يدفعانه نحو أتيكا، فلخوفهما من استيلائهم عليها وهي مجرّدة من أسباب الدفاع، بادرا إليها مسرعين بقوات تسعٍ من القبائل وبلغوها في اليوم نفسه(١٢). وترك أريستيدس مع قبيلته في ماراثون لحراسة الأسلاب والأسرى ولم يخيّب رأيهم فيه. فقد أبى على نفسه أيّة رغبة في امتلاك شيء من أكداس الذهب والفضة وكل أنواع الحلل والأواني النفيسة التي غُنمت، وغير ذلك مما لا يمكن عدّه في داخل الخيام، ولم يدع أحداً يقربها، اللّهم ما خرج دون علم منه كما فعل كالليّاس Callias حامل المشعل(١٣). إذ يبدو أن أحد البرابرة ألقى بنفسه على قدميّ هذا الرجل متوهّماً أنه ملك، من شعره الطويل وعصابة رأسه(١٤)، فأقامه فأخذه هذا بيده وأراه مقداراً كبيراً من الذهب ملقى في بئر. إلاّ أن كاللياس وهو من أشدّ الرجال غلظة وقسوة أخذ الكنز وقتل الرجل لئلا يبلغ عنه. ولهذا منح الشعراء الهزليون أسرته لقب لاكّوبلوتي Laccopluti أو المُغتنين من البئر مشيرين إلى الموضع الذي وجد [كاللياس] الذهب فيه.

بعد هذا مباشرةً، عُينّ أريستيدس أرخوناً، وإن قال ديمتريوس الفاليري إنه تولاها قُبيل وفاته، على إثر معركة پلاطيا. على أننا لا نجد ولا اسماً واحداً لشخص يدعى

---

(١١) ومع هذا لم يدخل المعركة إلى أن حان يومه الرسمي لتولّي القيادة العامة. فعل ذلك كي لا تقدح شرارة حسدٍ خفية في نفس أي جنرال ويتعمدون الكسل والتراخي في تأدية واجباتهم.

(١٢) بين ماراثون واثينا حوالي أربعين ميلاً وتلك مسافة سَير تكاد لا تصدّق لجنود خاضوا قبل قليل معركة طاحنة كهذه المعركة.

(١٣) «حاملو المشاعل» أشخاص خُصّوا بخدمة الآلهة وحفظوا أقدس الأسرار. ويسهب پاوسنياس [١ :٣٧] في وصف الفرح العظيم والسعادة الكبرى التي تغمر المرأة الأثينية حين تجد أخاها أو زوجها أو ابنها يتقلد هذا المنصب على التوالي. والظاهر أن كالّياس هو ابن عم لأريستيدس.

(١٤) الكهنة والملوك يحيطون جباههم بعصابة أو يطوّقونها بتاج. ومما هو جدير بالذكر هنا أن السلطتين الزمنية والروحية كانتا تجمعان في واحدٍ في العصور الغابرة.

أريستيدس من بين أسماء عديدة جداً وردت في سجلّ خلفاء كزانثيپيدس Xanthippides وهو الأرخون الذي حدثت في غضون سنة تولّيه هزيمةُ ماردونيوس Mardonius في معركة پلاطيا. في حين نجد اسم أريستيدس مدوّنا مباشرة بعد اسم فينيپوس Phænippus وهو الأرخون الذي حقق الأثينيون في غضون فترة حكمه انتصارهم في ماراثون.

وكان عدله أكثر ما يحبّ عامة الشعب من سجاياه، لطبيعة العموميّة والاستمرار فيه، لذلك فاز - رغم فقرة المدقع وخصاصة منبته - بلقب «العادل» وهو أعظم ما يلقّب به الملوك والآلهة. إن الملوك والطغاة على كل حال لا يستهويهم نِشدان هذه الصفة قط، وإنما يسرّهم أن يلقّبوا بمحاصري المدن Poliorceti والفاتحين Nicanor وذوي الصواعق Cerouni. بل أحب بعضهم أن يشار إليهم بالنسور والصقور، ملتمسين لأنفسهم كما يبدو الشهرة المتأتية من السلطة وأعمال العنف لا النابعة من الفضائل والخصال الحميدة[١٥]. مع أن الروح الإلهية التي يريدون أن يقارنوا بها أنفسهم ويتشبّهوا بها تمتاز كما هو مفروض بأشياء ثلاثة هي: الخلود، والسلطان، والفضيلة. وأشرف الميّزات الثلاث وأقدسها هي الأخيرة. لأن العناصر والفضاء تتميّز بالوجود الأبدي، والزلازل، والصواعق، والعواصف، والطوفانات فيها سلطان عظيم وقوة، أمّا في العدالة والمساواة فلا شيء يُسهم إلاّ بوساطة العقل والمعرفة التي تنبعث من كلّ ما هو قُدسيّ. وعلى هذا الأساس فهنالك أنواع ثلاثة من المشاعر يشعر بها الناس عادة تجاه الإله: سعد حظّه، والخوف منه، والتكريم له. فهم يعتبرونه محظوظاً مُنعَماً عليه لأن الموت والفساد لا يتطرقان إليه، وخوفهم وارتعابهم منه متأتّيان من حَولِه وقوّته، إلاّ أنهم يحبّونه ويكرمونه ويعبدونه لعدالته. ومع استقرارهم على هذا الاتجاه فإنهم يشتهون، ويطمحون إلى، الخلود الذي لا تستطيعه طبيعتنا الأنسيّة، ويرغبون في ذلك السلطان الذي كان القسم الأعظم منه تحت تصرف «الحظّ» ورهن إشارته. ولكنهم يضعون الفضيلة في آخر قائمة ما يطمحون إليه غباءً منهم وحُمقاً، وهي الصفة الإلهية الطيّبة الوحيدة التي كانت في متناول يدنا حقّاً، ما دامت العدالة تجعل حياة ذلك الذي يعيش في بحبوحةٍ وسلطان ونفوذ أشبه بحياة الآلهة، في حين يمسخه الظلم وحشاً.

---

(١٥) بالاسم الأول تسمّى ديمتريوس المقدوني. وبالاسم الثاني والثالث تسمّى سلوقيّو سورية. وبالاسم الرابع والخامس تسمّى ملكان متأخّران في أنطاكية.

ولذلك سعد أريستيدس بالحب المتأتّي من لقبه في مبدأ الأمر، ولكنه غدا محسوداً به على تمادي الزمن، ولاسيّما عندما بث تميستوكلس إشاعة بين الشعب خُلاصتها أن أريستيدس بإقراره وتصريفه شؤون الحكم كلّها سِرّاً أهدر حُرمة المحاكم القضائية كلّها وعطّلها، وهو يريد التمهيد سِرّاً لإقامة حكم فردي يكون فيه ملكاً دون مساعدة قوى الحرس الوطني. زد على هذا أن زهو الشعب بنفسه الذي ارتفع كثيراً، واشتداد ثقته بها للنصر الأخير، رافقه حتماً شعور بالكره تجاه كلّ من تمتّع بشهرةٍ وسُمعة تفوق العادة. فتقاطر المواطنون من كلّ المدينة وحكموا بنفي أريستيدس من غير إدانةٍ قضائية، ساترين نقمتهم على سُمعته بغطاء الخوف من طغيانه.

فقد كان النفي دون إدانة لا يُعتبر عقوبة عن عمل جُرميّ، وإنما يقال عنه ظاهرياً إنه كسرٌ لشوكة العظمة المفرطة وقمعٌ للسلطان المتجبّر، لكنه في الباطن تلطيفٌ وتنفيس رقيق لمشاعر الحقد والحسد فلا يُحال بينها وبين شفاء غليلها بايقاع أذى ممكن احتماله وهو الإبعاد عن الوطن عشر سنين، إلاّ أن الشعب تخلّى عنها بعد أن صارت تُفرَض على الوضعاء والسفلة الأوغاد. وكان هيپربولس آخر من نُفي بلا محاكمة.

قيل إن السبب في نفي هيپربولس هو هذا: كان نيقياس وألكيبياديس صاحبَي أكبر نفوذ في المدينة وهما من حزبين مختلفين. وفيما كان الشعب يهمّ بالاقتراع على النفي، الذي يصيب واحداً منهما بلا ريب، تقاربا فيما بينهما ووحّدا حزبيهما واحتالا على نفي هيپربولس. وكان من نتيجة ذلك أن الشعب شعر بالإهانة كأنما لحق بهذه العادة تحقيرٌ وازدراء لإنزالها إلى مستوى نفي هيپربولس فتخلّوا عنها وأبطلوها. وكانوا يقومون بها على النحو الآتي (موجزاً): يأخذ كل مواطن «أوستراكون» Ostracon أي فخّارة، أعني كسرة من إناءٍ فخّاريّ، ويكتب عليها اسم المواطن الذي يريد نفيه ويحملها إلى موضع ما في الساحة العامة محاطٌ بقضبان خشبية. ويقوم الحكام في أول الأمر بإحصاء كل القطع فإذا كانت تقلّ عن ستة آلاف لا يتمّ النفي. ثم تُفرز الكُسر بحسب الأسماء، ومن وجِد اسمه في أكبر عددٍ منها نُفي لمدة عشر سنين، مع السماح له بالتمتّع بأمواله. قيل بينما هم يكتبون الأسماء على قطع الفخّار كان مواطن أمّي ريفي زريّ الهيئة يقف إلى جانب أريستيدس دون أن يعلم من يكون، وظنّه مواطناً عادياً إذ طلب منه أن يكتب على قطعة الفخّار الخاصة به اسم أريستيدس. فعجب وسأله هل نالته أذيّة من أريستيدس هذا؟

فأجابه المواطن: «كلاّ أبداً، حتى أني لا أعرفه، إلاّ أني انزعجت من سماع لقب «العادل» يطلق عليه، أينما حللت».

قيل إن أريستيدس لم يردّ عليه بشيء ولكنه أعاد القطعة إليه بعد أن كتب اسمه عليها كما طلب منه. وعند تركه المدينة رفع يديه نحو السماء ودعا أن لا تدفع الأثينيين الحاجة يوماً ما وتضطرهم إلى تذكّر أريستيدس، وهو عكس الدعاء الذي نُسب إلى أخيل[١٦].

وعلى أية حال فلم تمرّ ثلاث سنين حتى أقدم الأثينيون على إلغاء القانون الخاص بالنفي، وأصدروا مرسوماً بعودة جميع المنفيين والمبعدين على أثر توغلّ جيوش أرتحشستا في شمالي وبويوتيا ووصوله أتيكا، يحدوهم بالدرجة الأولى خوفهم من انحياز أريستيدس إلى العدوّ، وإفساده كثيراً من مواطنيه وضمّهم إلى معسكر الفرس البرابرة. ولقد أخطأوا كثيراً في الحكم على الرجل وظلموه، فقد كان قبل صدور مرسوم العفو يعمل بحماسةٍ على تشجيع الإغريق وإثارة عاطفة الدفاع عن حرية الوطن في أنفسهم. وبعدها عندما عُيّن تميستوكلس قائداً عاماً مطلق الصلاحيات لم يتردّد في إسداء العون له بكلّ الطرائق في ميادين القتال، وفي معرض النصيحة. فجعل من ألدّ عدوّ له في الدنيا أشهر الرجال وأعلاهم مجداً بوضعه الاستقلال الوطنيّ فوق كل اعتبار. فقد كان أفريبياديس يداعب فكرة التخلي عن سلاميس[١٧] عندما خرجت سفن العدوّ ليلاً إلى البحر وطوّقت الجزر وأقفلت البرزخ الضيق، ولم يعلم أحدٌ كيف تمّ هذا.

وما إن شعر أريستيدس بذلك حتى بادر فوراً إلى الإقلاع من إيجينا، وأفلت مخترقاً أسطول العدوّ دون أن يتنبه إليه. وبلغ خيمة تميستوكلس فناداه فخرج إليه فبادأه أريستيدس بالكلام:

– لو تمتعنا يا تميستوكلس بأي إدراكٍ، لوجب علينا في هذه اللحظة بالذات أن

---

(١٦) (الإلياذة ١: ٤٠٨ – ٤١٠) إذ توسّل بوالدته كي تؤثّر على جوبتر لترجيح كفّة الطراوديين كي يُلحقوا الدمار بمواطنيه. إذ كان يجد أنها الطريقة الوحيدة التي ستنبّههم إلى ضعف قيادتهم فيبادروا إلى إزالة آثار الظلم الذي لحق به، بل تمادى واشتطّ فدعا إلى أن يتمّ القضاء على الإغريق وأعدائهم إلى آخر رجل بيد بعضهم بعضاً وأن لا يبقى في قيد الحياة غيره وغير باتروكليس ليقوما بدكّ أسوار طروادة [الإلياذة ١٦: ٧٩ – ١٠٠].

(١٧) لم يشأ أفريبيادس أن يترك برزخ كورنث ليكون قريباً من الجيش في البرّ. إلاّ أن تموستوكليس وجد بوضوح من الرؤية أنه في إمكانهم الوقوف بمواجهة الأسطول الفارسي في مضايق سلاميس. وهو بهذا يكون قد أنقذ نفسه من خطر التفوّق العظيم الذي يحققه الأسطول الفارسي عليه. ذلك لأن خليج كورنث كان مفتوحاً للبحر (هيرودوتس ٨: ٥٧ و ٥٨).

نتناسى خصومتنا الصبيانية التافهة؛ ألا دعنا ندخل في منافسةٍ شريفة سليمة القصد، فلنبتار في مجال محافظتنا على وطن اليونان. لك الحكم والقيادة ولي الرأي والدعم حتى وأنا أعلم يقيناً بأنك الوحيد الذي توصّل إلى خير الأراء، وهو ضرورة الاشتباك مع العدوّ في المضايق. ولقد رأيت العدوّ بعينك على هذا، وإن كان أصحابنا يعارضونك. وها إن البحر يكاد يغطّيه أسطوله من خلفنا ومن حولنا ولا سبيل لنا إلاّ أن نُثبت أننا رجال بأسٍ وقتال شتنا أم أبينا، بعد أن أقفلت في وجهنا طرق الفرار.

فأجابه تميستوكلس:

- ما كنت لأدعك تستظهر عليّ يا أريستيدس وانا مختارٌ، في مثل هذه المناسبة العصيبة، وسأعمل جهدي للتفوّق عليها بأعمالي، متأثراً خطى هذه البداية الطيبة.

ثم إنه كشف له عن خطته التي دبّرها للإيقاع بالبرابرة[١٨]، وطلب منه أن يعمل لإقناع يوربيادس بجدوى رأيه، ويبرهن له أنّ الخلاص بلا معركة هو من المستحيلات، لأنه أكثر إيماناً به من الآخرين. وفي مجلس الحرب الذي عقده قادة الإغريق نوّه كليوقريطوس Cleocritus الكورنثي بأن أريستيدس لا يوافق على خطة تميستوكلس بدليل صمته المطبق. فقال أريستيدس إنه ما كان ليصبر على الصمت إلاّ لأن رأي تميستوكلس هو الأفضل، وإن سكوته الآن ليس مبعثه عدم الرضا أو المعارضة بله الموافقة والرضا عينه.

وفي أثناء انشغال القادة بهذا وجد أريستيدس أن پسّتاليا Psyttalia[١٩] الجزيرة الصغيرة الواقعة داخل المضايق مقابل سلاميس ممتلئة بقوّات عدوّة، فركب سفنه الصغيرة مع نخبة من أشجع قومه وأشدّهم إقداماً، ونزل ساحلها واشتبك في معركة ضارية مع البرابرة وفتك بهم عن آخرهم إلاّ قبضة من أبرز رجالهم أخذهم أسرى. وكان بينهم ثلاثة أولاد لسانداوس Sandauce أخت الملك، فبعث بهم إلى تميستوكلس في الحال، وقيل إنهم ضُحّوا قُرباناً لباخوس الملقّب «أومستوس» أي «الناهش»، تحقيقاً لنبوءة، وبإشارة من يوفرانتيدس الكاهن المتنبّئ. وأبقى أريستيدس رجاله شاكي السلاح حول الجزيرة لإنقاذ من يدفعه الموج إليها من أصحابه، ولكي

---

(١٨) كانت الحطّة تقضي بدسّ شخصٍ يضلل العدوّ بالزعم أن الإغريق يتأهّبون لترك سلاميس. فإذا رغب الفرس في القضاء عليهم بأسرع ما يمكن فعليهم أن يهاجموهم قبل إقلاعهم. [انظر سيرة تميستوكلس. وأيضاً هيرودوتس ٨: ٥٧].

(١٩) معركة سلاميس: ٤٨٠ ق.م.

لا يفلت من يده رجل واحدٌ من العدوّ. فإن القتال يُتوقّع أن يكون على أشدّه بالقرب من ساحلها، وقد صحّ ما توقّع ولهذا أقيم النصب التذكاري للمعركة في تلك الجزيرة.

بعد المعركة أراد تميستوكلس استطلاع رأي أريستيدس فقال له إنهما أنجزا عملاً طيّباً لكنّ هناك عملاً أعظم وأضخم منه ينتظرهما، وهو إبقاء «آسيا» أسيرة «أوروبا»، وذلك بالإبحار فوراً إلى الهللسپونت (البحر الأسود) وقطع الجسر الذي يربط ما بين القارتين. وما كاد أريستيدس يعي قوله حتى صاح به أن لا يفكر في مثل هذا العمل مطلقاً، بل أن يلتمس وسيلةً لإخراج الميديين من اليونان بأسرع ما يمكن لئلا يضطرّهم اليأس إلى شقّ طريقهم عنوةً بجيشهم اللّجِب الجبّار عندما يُقطع عليهم خطّ الرجعة، وتُقفل أمامهم أبواب الانسحاب. فأخذ برأيه وأرسل إلى ملك الفرس أسيره أرناكيس الخصيّ ليبلغه عن لسانه بأنه نجح في تحويل الإغريق عن نيّتهم في الإبحار إلى الجسور، تحدوه في ذلك الرغبة الخالصة لسلامته.

فخاف أرتحشتا العاقبة وأبحر فوراً إلى الهللسپونت، إلاّ أنه أبقى مع ماردونيوس أصلح قطعات جيشه وكانت تبلغ نحواً من ثلاثمائة ألف. وأثبت هذا القائد أنه خصم عنيدٌ يُخشى جانبه فقد وضع ثقته في مُشاته وأخذ يكتب للإغريق ما جرى في هذا السبيل:

- لقد قهرتم في البحر رجالاً تعوّدوا الحرب برّاً، ولم يحذِقوا مسك المجاذيف. والآن ها هي ثسالي أمامنا، وكلها سهول منبسطة، وتلك بطاح بويوتيا، لتكونن ميداناً لذوي البأس الصناديد من المشاة والخيّالة لا أصلح منه ولا أرحب.

على أنه أقدم على إرسال خطابات ووفود في السِرّ إلى الأثينيين بأمر الملك يعدهم فيها بإعادة بناء مدينتهم. ودفع مبالغ طائلة من المال لهم، وبجعلهم سادة الإغريق، إذا خرجوا من هذه الحرب[٢٠]. وعلم اللقيديمونيون بالمفاوضة فدفعهم خوفهم من قبول الأثينيين بها إلى إرسال وفد يعرض على حلفائهم نقل زوجاتهم وأولادهم إلى سپارطا مع تعهّدهم بالنفقة لهم وضمان معيشتهم. وكان الأثينيون يمرّون بمحنة شديدة بعد خراب مدينتهم وبلادهم فلما سمعوا أقوال السفراء علناً أجابوا بردٍ مستوحى من اقتراح أريستيدس يستأهل أعظم التقدير والإعجاب. قالوا: إنهم لا يعتبون على أعدائهم إذا ظنّ هؤلاء أن كل شيء يمكن شراؤه بالمال، لأنهم لا يعرفون شيئاً ترتفع قيمته عن

(٢٠) عُرضت هذه المقترحات عن طريق الإسكندر المقدوني التي ضمّنها خطبةً له أجاب عليها الوفد السپارطي [هيرودوتس المرجع السالف ١٤٠، ١٤١].

المال، أما اللقيديمونيون فهم متألمون منهم، لحصر اهتمامهم بفقرهم ومهنتهم التي يرزحون تحتها الآن فيعرضون عليهم أرزاقاً ومؤناً، دون أن يذكروا بسالتهم وعزيمتهم الراسخة في القتال لأجل قضيّةٍ عامة. نطق أريستيدس بهذا ثم أمر بإدخال السفراء إلى مَحلّ الاجتماع، وأوصى مواطنيه أن يقولوا للوفد اللقيديموني بأن كل ما هو فوق الأرض وتحتها من كنوز لا يعدل حرية اليونان عند الأثينيين. ثم أشار لسفراء ماردونيوس إلى الشمس وقال:

«سيبقى مواطنو أثينا ما بقيت هذه الشمس ثابتةً في مسارها، يواصلون حربهم مع الفرس في سبيل البلاد التي أضحت خراباً والمعابد التي دنّسوها وأحرقوها».

وزاد مقترحاً إصدار مرسوم يوجب على الكهنة فرض عقوبة الحِرْم الدينيّ على كلّ من يخرج عن الحلف اليوناني، أو يبعث بمناديه إلى الميديين.

ولما قام ماردونيوس بغزوٍ آخر لأتيكا، نزح الأهالي مرة أخرى إلى جزيرة سلاميس. فأرسل أريستيدس موفداً إلى اللقيديمونيين، وراح يؤنّبهم لتأخّرهم عن نجدة أثينا وتخلّيهم مرّة أخرى عنها لتقع في أيدي البرابرة. وطلب مساعدتهم للإبقاء على الجزء الذي لم يقع بعد في يد الأعداء من بلاد اليونان. وعلى أثر سماع «الإيفوري»[٢١] ذلك عمدوا إلى اقامة مهرجان رياضي طوال ذلك اليوم احتفاء به وعطّلوا فيه بوصفه يوماً مقدّساً (كانوا وقتئذ يُحيون عيد الخُزامى Hyacinth)[٢٢] متظاهرين بعدم الاكتراث وبالانشغال باللهو والمرح. ولما جنّ الليل جرّدوا خمسة آلاف سپارطي منتقىً، يقوم على خدمة كل واحدٍ منهم سبعة من «الهيلوت» وأمروهم بالسير في غفلةٍ عن الوفد الأثيني. ثم عاودوا أريستيدس اللوم والعتاب، فقالوا له هازئين: إما أنه معتوهٌ أو حالِمٌ، لأن جيشهم وهو الآن في أوريستيوم Oresteum، يتقدم لملاقاة «الغرباء» كما يسمّون الفرس. فأجابهم أريستيدس أن مُزاحهم هذا في غير محلّه، وعليهم أن يخدعوا أعداءهم بذلك لا أصدقاءهم. وهذا ما يذكره أيدومينيوس. أما اقوال أريستيدس فلا تعزى إليه بل إلى سيمون وكزانثيپتوس. وهما اللذان أرسلا وفداً.

---

(٢١) أرجأوا إجابتهم من يوم إلى يوم حتى أفادوا من عشرة أيام أكملوا خلالها بناء الجدار عبر المضايق ليؤمّن حمايتهم من البرابرة.

(٢٢) هي ثلاثة أيام عند السپارطيين أولها وآخرها يقضونهما في حداد على موت هياسنت، ويقضى الأوسط كعيد حافل بالبهجة والأفراح وتُمارس فيه كل أفانين الطرب واللهو. [انظر سيرة نوما].

ثم انتُخب أريستيدس جنرالاً عسكرياً، فعاد إلى پلاطيا يقود ثمانية آلاف مقاتل أثيني، وهناك انضّم إليه پاوسانياس Pausanias، القائد الأعلى لجميع قوات اليونان، بكلّ القوات السپارطية التي يقودها، ثم تقاطرت عليهما كل القوات اليونانية الأخرى. وكانت مضارب جيش الفرس ممتدة على طول ضفاف نهر آسپوس Aspus وعددهم هائل، حتى أن المعسكر لم يكن يتسع له. فلجأوا إلى تكديس أثقالهم ومعظم حاجاتهم الثمينة في ساحة مربّعة مسيّجة يبلغ طول ضِلعها عشرة فُرلنغات (حوالي ٢٠٠٠ يارد).

وتنبّأ تيسامينوس Tisamenus[٢٣] من الاليسي لپاوسانياس ولكلّ الإغريق بأن النصر سيكون من نصيبهم أن لم يبادروا العدوّ بالهجوم واتخذوا موقف الدفاع. إلاّ أن أريستيدس لم يقنع بهذا وبعث يطلب الوحي من دلفي، فكان جواب الإله: أن الأثينيين سيقهرون أعداءهم إن هم توجّهوا بالدعاء والضراعة لجوپتر ولجونو الكيثيروني Cithæron، ولپان، ولحوريات سفراجيتيدس Sphragitides[٢٤]، وتقديم القرابين للأبطال أندروقراطس Andeocrates وهيپسيون Hypsion وأكتيون Actaeon وپولييدوس Polyidus، شريطة أن يخوضوا غمرات الحرب ضمن تخومهم في سهل سيريس إليوسينيا Ceres Eleusinia، وپروسپرين. فزادت حيرة أريستيدس بهذه النبوءة، لأن الأبطال الذين أشير عليه بالتقريب لهم كانوا من زعماء الپلاطيين، ولأن كهف حوريات سفراغيبتدس كان يقع في قمة جبل كسيثرون من الجهة المواجهة للشمس الغاربة في وقت الصيف. وفي هذا الموضع، على ما يذكره الرواة، كان يوجد معبدٌ لاستنزال الوحي، وقع كثير ممن يسكن المنطقة تحت تأثيره، وأُطلق عليهم اسم نيمفولپتي Naympholepti أي الذين حلّت فيهم أرواح الحوريّات. أمّا بخصوص سهل سيريس إليوسينيا ومسألة ضمان النصر للأثينيين إذا جرى القتال في بلادهم فكان يقتضي عودتهم من حيث أتوا ونقل الحرب إلى أراضي أتيكا بالذات.

---

(٢٣) تنبّأ العرّاف تيامينوس بانتصارات خمسة. وكان اللقيديميون يريدون أن يجعلوه عرّافاً خاصاً بهم فطلب منحه المواطنة السپارطية فأبوا عليه ذلك أول الأمر. وباقتراب الفرس منهم عدلوا عن رأيهم ومنحوه هذا الامتياز هو وأخاه إيفياس.
وهو حدث بسيط قد لا يستدعي ذكره. إلاّ أن هذين الشخصين كانا أوّل من فاز بهذا الامتياز في تاريخ سپارطا.

(٢٤) سُمّيت حوريات الجبل «كيثيرون» بهذا نسبة إلى كهف في الجبل يعرف بهذا الاسم (سفراكيديون) وربما أطلق على أولئك الذين اعتادوا الذهاب إليه للتأمل واستنزال الوحي [انظر باوسنياس ٩ وهيرودُتس ٩: ٦٩].

وفي تلك الاثناء رأى أريْمنيستوس Arimnestus قائد الپلاطيين في الحلم أن جوپتر المخلّص سأله عما اعتزمه الإغريق فأجابه:

- غداً يا مولاي سنزحف بجيشنا على اليوسيس، وهناك نقاتل البرابرة طبقاً لما أوحى به أپوللو.

فرد عليه أبو الآلهة قائلاً:

- إنهم يخطئون خطأً مُبيناً، لأن المواضع التي ورد ذكرها في النبوءة تدخل كلها ضمن حدود پلاطيا.

ولو بحثوا لوجدوها هناك.

هذه الرؤيا الواضحة بمعانيها تبدت لأريْمنيستوس فما إن استيقظ حتى أرسل بطلب المعمّرين من قومه وأكثرهم معرفة وتجربة. وقصّ عليهم الأمر وناقشهم فيه. فظهر بالنتيجة أنه يوجد معبد قديم جداً يدعى «معبد كيريس إليوسينيا، وپروسپرين» بالقرب من هيساي Hysiae عند قدمة جبل كيثيرون. فأخذ أريستيدس اليه، وتبيّن أنه أفضل موضع لتعبئة جيش المشاة لأن المنحدرات التي هي في لحف جبل كيثيرون تجعل السهل الذي ينتهي بصعودٍ حتى المعبد غير صالح لحركات الخيّالة مطلقاً، كما كان يوجد في الموضع نفسه معبد أندروقريطس يحيط به الأيك الظليل. ولأجل تحقيق شروط النبوءة كلها توصّلاً للنصر، اقترح أريمنيستوس أن تُزال حدود بلادهم المتصلة بأتيكا ويُمنح هذا الجزء من الأرض للأثينيين حتى يكون قتالهم عن الآغريق في داخلية بلادهم فعلاً، فلم يُبد الپلاطيون أية ممانعة.

ذاع أمر هذا الجود والشهامة واشتهر، حتى أن الإسكندر بعد استيلائه على كلّ ممالك آسيا راح يعيد بناء أسوار پلاطيا، وأمر أن ينادي منادي الألعاب الأولمبية بأن الملك خصّ المدينة بهذا الإنعام تقديراً لنُبل أهلها وسموّ روحهم في تنازلهم عن جزء من بلادهم بكلّ رحابة صدر في أثناء الحرب مع الميديين، وقاتلوا بكلّ تفانٍ في صفوف الإغريق.

ونازع التيجيانيون الأثينيين على مركز الشرف وطلبوا أن يكون موضعهم في المعركة الميسرة، بعد أن وُضع السپارطيون في الميمنة كما جرت به العادة. وراحوا يتشبّثون بمزاعم عديدة حول مآثر أجدادهم وأسلافهم. واستنكر الاثينيون هذا الادعاء وثار سخطهم فانبرى أريستيدس قائلاً:

«الموقف الحاضر لايسمح بالتفاخر مع التيفيابتين بالشجاعة وشرف المحتد.

لكن اسمعوا قولنا أنتم أيها السپارطيون، وأنتم أيها الإغريق جميعاً، إنّ

موضع المعركة لا يجرّد المرء من الشجاعة، ولا يكسبه إياها. ونحن سنجاهد بصمودنا وبلائنا الحسن في الموضع الذي يصيبنا بألاّ نُلحق عاراً بماضينا ومآثرنا السالفة. لم نأت هنا للألعاب مع أصدقائنا، بل لنحارب أعداءنا. جئنا لنشيد بأمجاد أسلافنا، بل لنسلك سلوك ذوي البأس. وستثبت هذه المعركة قيمة كل مدينة وكل قائد وكل جندي بسيط للإغريق».

وبناء على هذا الكلام قرّر مجلس الحرب الأعلى إعطاء الحكم لصالح الأثينيين، ووضِعوا في الجناح الأيسر.

كان القلق يسود كل بلاد الإغريق، ولاسيما وضع الأثينيين غير المستقرّ. فقد أفقرت الحرب بعض ذوي الأسر الراقية الغنية، وزالت مظاهر نفوذهم ومنازلهم الرفيعة مع ثرواتهم، فاتفقوا مع آخرين ما زالوا محتفظين بنفوذهم وغناهم، واجتمعوا سِرّاً في منزل (پلاطيا) ليأتمروا على نظام الحكم الديمقراطي ويزيلوه، وبعد نجاح مؤامرتهم هذه يسلّمون بلاد الإغريق للبرابرة، ويُجهضون القضيّة الكبرى. وسادا للغط والاضطراب المعسكر، وأمكن استمالة عدد كبير من الرجال. ووقف أريستيدس على المؤامرة، وكانت الظروف التي تمر بالبلاد عصيبة دقيقة، فقرّر أن يضع حداً لهذا، وأن لا يكشفها كشفاً تاماً. ولأنه كان يجهل كم سيبلغ عدد المتهمين الذين سيطاولهم الاتهام، ولرغبته في وضع حدٍ للعدالة يتفق والمصلحة العامة، لم يقبض على أكثر من ثمانيةٍ بين مساهمين كثيرين، وكان ثمّ اثنان من الرؤوس الأكثر إجراماً: أيسخينيس Æschines اللامپري Lampria وأجيسياس Agesios الأخارني فأطلقا ساقيهما للريح وهربا من المعسكر. ثم عفا عن المقبوض عليهم، وبذلك أتاح فرصة ندم مشجعة للذين لم يُفتَضح أمرهم، معتبراً الحرب التي سيخوضونها أعلى محكمة يتطهّرون بها من رجس جريمتهم بإظهار نواياهم المخلصة الطيبة إزاء الوطن.

بعد هذا[٢٥]، رغب ماردونيوس في امتحان شجاعة الإغريق بإرسال خيّالته بأجمعها للهجوم وكان يعتقد أنه متفوّق بهذا السلاح تفوّقاً ساحقاً. وكان الإغريق قد

---

(٢٥) جرت موقعه پلاتيا في ٤٧٩ ق.م أي بعد موقعة سلاميس بسنةٍ واحدة. وكان هيرودوتس في ذلك الزمن صبياً في العاشرة أو التاسعة استقى تفاصيله عنها - وهي تختلف عن رواية پلوتارخ - من أشخاص كانوا فيها وخاضوا غمارها. ويقول ما يُستفاد منه أن ما ذكره پلوتارخ إنما وقع قبل أن يترك الإغريق المعسكر في «إيريثري» إلى معسكرٍ آخر حول پلاتيا وقبل أن يتنازع الأثينيون والتيگياني.

اتخذوا مواقعهم في قدمات جبل مسيپرون، ومتحصّنين في مواضع صخرية منيعة ماعدا الميغاريين. هؤلاء، ويبلغ عددهم ثلاثة الآف، قد ضربوا خيامهم في السهل المنبسط فألحقت بهم الخيّالة أضراراً بليغة بهجومها عليهم من جميع الجهات واختراق صفوفهم. فعجّلوا بطلب النجدة من پاوسانياس لأنهم عجزوا وحدهم عن صدّ العدد الكبير من البرابرة. وأُبلغ پاوسانياس بذلك، وشاهد خيام الميغاريين تكاد تحجبها موجات من الرماح والسهام المقذوفة، وهم يتقهقرون كتلةً واحدةً إلى فسحة ضيقة. فحار في أمره ولم يدر كيف ينجدهم بلوائه المؤلف من اللقيديمونينين ذوي الأسلحة الثقيلة. فاقترح على القادة والضباط المحيطين به أن يعملوا من نجدة الميغاريين مباراة في البسالة واطّلاب المعالي، وأودع المسألة إلى اختيارهم. فأحجم الجميع إلاّ أريستيدس الذي اضطلع بالمهّمة للأثينيين وأرسل أولمپيودوروس Olympiudorus أشجع ضباطه الصغار بثلاثمائة من الصفوة المنتقاة وبعض رماة السِهّام، فتهيّأ فوراً وصال على العدوّ. وما إن لحق ماسيستيوس Masistuis قائد الخيالة الفارسية عِلمٌ بذلك حتّى ألوى عنان جواده واتجه إليهم. وماسيستيوس هذا رجل ذو بأس نادر المثال، وهيكل جبّار، وصورة حسنة جذابة. وتمكن الأثينيون من صّد الهجمة والاشتباك معه. وحمِيَ وطيس القتال إلى آخر حدٍ حتى لكأن مصير الحرب كلّها متوقف عليه، وأن الطرفين يحاولان كسبها هنا. وأصيب جواد ماسيستيوس بطعنةٍ فرمح راكبه فسقط على الأرض وتعذّر عليه القيام لثقل دروعه، وأدركه الأثينيون وصاروا يهوون عليه بضرباتهم دون جدوى لأن سائر بدنه مصفّح بالدروع، حديداً ونحاساً وذهباً ولاسيما صدره ورأسه وأطرافه، إلاّ أن واحداً منهم قضى عليه في النهاية بطعنة مرّت من فُتحة خوذته، فترك بقية الفرس جثته وهربوا. ولم يُعلم مقدار نجاح الأثينيين من كثرة عدد القتلى لأنهم لم يفتكوا بعددٍ كبيرٍ، بل بالحزن الذي أبداه البرابرة. فقد حلقوا شعورهم وجزّوا نواصلي خيلهم وبغالهم لموت قائدهم وملأوا السهل نواحاً وعويلاً. فقد خسروا قائداً يفوق ماردونيوس أعظم قادتهم بمراحل - سواء في الشجاعة أو في السلطة.

وبعد معركة الفرسان هذه أحجموا عن القتال فترة طويلة لأن العرّافين تنبّأوا من القرابين بالنصر للإغريق وللفرس إن اتخذوا موقف الدفاع، وتنبّأوا بالعكس إن لجأ أي فريق إلى الهجوم. وأخيراً عيل صبر ماردونيوس. فقد نفدت أرزاقه ولم يبق له إلاّ ما يكفي لأيام معدودات. بينما كانت قوات اليونانيين تزداد باطّراد بما ينضمّ إليها باستمرار، فقرر أن يخرج من سُباته فيعبر نهر آسپوس عند الفجر ويفاجئ الإغريق من

حيث لا يتوقعون. وأنهى بخطته هذه إلى رؤساء عسكره ليلاً. وفي حوالي نصف الليل تسلل فارسٌ إلى معسكر الإغريق وطلب من الخفراء أن يستدعوا أريستيدس الأثيني إليه. فجاءه حالاً فابتدره قائلاً:

- أنا الإسكندر ملك المقدونيين! جئت راكباً الأهوال والمخاطر العظام مدفوعاً بالنوايا الطيبة التي أكنّها لك لئلا تحلّ بكم نكبة من هجوم مباغت بتصرّفكم في القتال تصرّفاً سيئاً. غدا سيدخل ماردونيوس معكم في معركةٍ مضطراً بسبب قلّة أرزاقه، لا أملاً بالنصر أو اعتماداً على الشجاعة؛ فقد منعه العرّافون من القتال لأن القرابين والوحي لم تكن تبشر بخير، والجيش قد تردّت معنوياته وعمّه السخط؛ فالضرورة ترغمه على تجربة حظّه في القتال أو البقاء ساكناً واحتمال أقسى حالات الجوع والحرمان.

وبعد أن أنهى الإسكندر أقواله أوصاه أن يتذكره ولاينساه وأن لايذكر شيئاً لأحدٍ. إلاّ أن أريستيدس قال إنه ليس من المناسب إخفاء الأمر عنِ پاوسانياس لأنه القائد العام، وسيحتفظ بالسّرِ ولا يُعلم به أحداً غيره حتى ختام المعركة. ولكن إذا عُقد لواء النصر للإغريق فلا شكَّ في أن من حق الإغريق كافةً أن يعلموا بحُسن نيّة الإسكندر تجاههم وعطفه عليهم. وبعد هذا امتطى ملك المقدونيين جواده وانصرف. وعاد أريستيدس إلى خيمة پاوسانياس وأبلغه بما جرى، ثم بعثا بطلب أمراء القطعات الآخرين وأبلغاهم بوجوب تنظيم الجيش على خط القتال.

وهنا يقول هيرودوتس المؤرخ إن پاوسانياس تكلّم مع أريستيدس طالباً منه الانتقال بالأثينيين إلى الجناح الأيمن من الجيش بمواجهة الفرس، (إذ إن فائدتهم ستكون أكثر لأنهم كانوا أعرف من غيرهم بأساليب حرب الفرس وأكثر خبرة بها. وكذلك للمعنويات التي بثّتها انتصاراتهم الماضية في نفوسهم) وأن يأخذ هو الجناح الأيسر حيث سيقوم الإغريق الميديزنگ» Medizing بهجومهم. وعَدّ كل قادة الأثينيين هذا إهانة وتدخّلاً من پاوسانياس لأنه نقلهم وحدهم من محلّ إلى محلّ كالهيلوت الكثيرين، ليواجهوا قوة العدوّ الكبرى في حين ترك بقية قطعات الجيش ثابتةً في أماكنها. إلاّ أن أريستيدس قال إنهم على خطأ مبين. فإن كانوا قبل فترة قصيرة جدّاً قد نازعوا التيجيانيين على الميسرة، واغتبطوا كثيراً عندما فضّلوا عليهم واختصّوا بها، فكيف يمتعضون عندما ترك لهم اللقيديمونيون الميمنة وهو ما يقرب التنازل لهم عن قيادة الجيش، وبأي وجه يتظلمون من كسبهم شرفاً كهذا ولا يعدّون قتالهم لا لبني قومهم وذويهم، بل للبرابرة وغيرهم ممن هم أعداؤهم الطبيعيون، غُنماً لهم وتكريماً؟

وعلى أثر ذلك تبادل الأثينيون المواضع مع اللقيديمونيين بكل سرور وأخذوا يتبادلون أحاديث التشجيع والحماسة كقولهم إن العدوّ لا يُهاجِم الآن بأسلحة أفضل وقلوبٍ أقوى مما حارب به معركة مراثون، ونشّابهم هو هو، ومعاطفهم المطرزة وذهبهم هي نفسها، وكذلك أجسامهم الرقيقة وأدمغتهم الضعيفة لم تتغيّر: «ونحن ما زالت عندنا أسلحتنا وأجسامنا نفسها، وشجاعتنا المتعاظمة بانتصاراتنا. وإننا لا نقاتل كالآخرين دفاعاً عن أنفسنا فحسب، وإنما نقاتل لأجل ذكريات سلاميس ومراثون، حتى لا يُنظر إليها كأنها انتصارات لملتياديس، أو للحظ، بل انتصارات شعب أثينا».

ولهذا خفّوا سراعاً ليتّخذوا مواقعهم الجديدة في المعركة. ولكن الثيبيين الذين اطّلعوا على هذا التغيير من أحد الفارّين أسرعوا لإبلاغ ماردونيوس به. فقام هذا - إمّا خوفاً من الاثينيين أو رغبة منه في الاشتباك مع اللقيديمونيين - بتحويل قطعاته الفارسية مقابل الجناح الآخر، وأمر بوحدات الإغريق التي تخدم في جيشه أن توضع بمواجهة الأثينيين. ولوحظ هذا التغيير من الجانب الثاني، فاستدار پاوسانياس على عقبيه واحتلّ الميمنة ثانيةً. وقام ماردونيوس أيضا باحتلال الميسرة من جيشه ضد اللقيديمونيين كما كان في الأول. وهكذا مَرّ اليوم بدون اشتباك.

بعد هذا أجمع رأي الإغريق على نقل معسكرهم إلى مسافةٍ أبعد ليسيطروا على موضع يؤمّن لهم حاجتهم من الماء، لأن الينابيع القريبة منهم دمّرتها الخيّالة الفارسية وعكّرتها. ولكن الليل أدركهم والضبّاط يتوجهون نحو الموضع المعيّن لعسكرتهم، إلا أن الجنود لم يكونوا مستعدين للسير وراءهم وتكتّلوا معاً، وما إن تركوا المتاريس والاستحكامات الأمامية حتى اندفعوا نحو پلاطيا. وحصلت فوضى واختلال عظيم أثناء تفرّقهم لضرب خيامهم في رقاع مختلفة من الأرض. وشاء القدر أن يتخلّف اللقيديمونيون عن الباقين رغم إرادتهم. فقد أعلن أومفراريطس Amomphraretus وهو رجل باسل مقدام كان يلتهب حماسة إلى القتال منذ زمن طويل، وينقم على تأخيراتهم المتعددة وتأجيلهم، ووصف نقل المعسكر فراراً وهزيمة لا غير؛ أعلن هذا أنه لن يترك موقعه وسيبقى مع سريّته لصدّ هجوم ماردونيوس؛ فأقبل عليه پاوسانياس وقال له إنه يفعل ذلك إطاعة للقرار الإجماعي الذي اتخذه الإغريق نتيجة الاقتراع. فرفع أومفراريطس صخرة كبيرة وألقاها عند قدمي پاوسانياس وقال:

«أشهدتك بهذه! أما أعطيت صوتي إلى جانب المعركة؟ هل شاركتُ أحداً من الرجال في مقرراتهم ومقترحاتهم المتّسمة بالجبن؟».

ولم يدر پاوسانياس ما يفعل في تلك الساعة إلاّ أن يبعث إلى الأثينيين الذين كانوا

ينسحبون فيأمرهم بالبقاء معه. ثم انطلق هو وبقية الجيش إلى پلاطيا مؤملاً أن يحمل أمومفراريطس على احتذائه.

وفي تلك الأثناء انبلج الصبح. وكان ماردونيوس يعلم بمغادرتهم معسكرهم. فأمر بتهيئة جيشه للمعركة ثم حمل على اللقيديمونيين بضجة وصياحٍ عظيمين كما هي عادة البرابرة كأنهم يريدون سحق الإغريق سحقاً وهم في عملية الانسحاب، لا أن يشتبكوا معهم في قتال، يحاول كلا الجانبين ألاّ يكون البادئ فيه. إلاّ أن المعركة وقعت فعلاً إذ إن پاوسانياس توقف عن الانسحاب عندما رأى ما يحصل وأمر الجميع أن يتخذوا نظام المعركة. إلاّ أنه نسي أن يُصدر الأمر إلى الإغريق عموماً إمّا لأن غيظه من أمومفراريطس أطار صوابه، وإما بسبب صولة العدوّ المفاجئة. ولهذا لم يعودوا حالاً جملةً واحدة إلى مساعدتهم، بل بسرايا وفصائل قليلة العدد متتابعة متباطئة بينما كان القتال قد نشب. وباشر پاوسانياس بتقديم القرابين إلاّ أنه لم يجد دلائل مشجعة فيها. ولهذا أمر اللقيديمونيين أن يلقوا بتروسهم عند أقدامهم وأن يتبعوا وينفّذوا تعليماته بهدوء، وألاّ يقاوموا العدوّ أبداً. وبينما هو يُقرّب ثانية هجمت خيّالة الفرس وجُرح بعض اللقيديمونيين. وفي هذا الوقت أصيب كالليكراتس بسهم، وكان على ما قيل أجمل رجلٍ في الجيش، وفيما هو يُحتضر قال إنه لا يأسف علَى موته لأنه جاء من بلاده ليبذل حياته دفاعاً عن اليونان، بل يأسف لأنه يموت بلا قتال. وكان الموقف صعباً في الواقع، واحتمال الرجال عجيباً، لأنهم تركوا العدوّ يهجم عليهم دون أن يحاولوا مقابلته وصدّه وتحمّلوا الجراح والقتل التي كان العدوّ يوقعها في صفوفهم منتظرين فرصتهم المناسبة مِن آلهتهم وقائدهم. ويقول بعضهم بينما كان پاوسانياس منهمكاً في تقريبه ودعائه على مسافة بعيدة من خط المعركة حمل عليه بعض الليديين فجأة وعبثوا بقرابينه ونهبوها، ولم يكن پاوسانياس ورفاقه يحملون سلاحاً فقابلوهم بالسياط ومحارك النار والعصي وطردوهم. ويقوم الناس في سپارطا إلى يومنا هذا بجلد الأولاد بالسوط حول المذبح تقليداً لهذه المعركة، ومن بعدهم الاحتفال الليدي كذلك.

وضاقت نفس پاوسانياس بهذه الأمور، فترك الكهنة مستمرين في القرابين أحدها بعد الآخر، والتفت نحو المعبد والدموع في عينيه ورفع يديه إلى السماء متضرّعاً إلى «جونو صيثيرون» وغيره من آلهة الپلاطين الكبار الشفعاء، قائلاً إن لم يكن النصر مقدّراً للإغريق، فدعهم لا يموتون قبل أن يحققوا مأثرة، وأن يثبتوا بأعمالهم لعدوّهم أنه يقاتل رجالاً ذوي بأس، وجنوداً رضعوا لِبان الجندية. وبينما كان پاوسانياس يقوم

بدعواته على هذه الشاكلة ظهرت بشائر طيّبة في القرابين وتنبّأ العرّافون بالنصر. فسرى الخبر، وإذا بجحفل المشاة اللقيديموني يهبّ فجأة كما ينهض وحش هائل ويشبّ على قدميه متحفّزاً للمعركة. وأدرك البرابرة أنهم يواجهون بهم رجالاً حلفوا على القتال حتى الموت، فرفعوا تروسهم المنسوجة من الأغصان لحماية أبدانهم وراحوا يفوقون سهامهم على صفوف اللقيديمونين، لكنّ هؤلاء حافظوا على رصانة «فلانكسهم» وحملوا حملة صادقة على العدوّ وأطاروا تروسهم من أيديهم ووجّهوا أسنّة رماحهم إلى الصدور والوجوه، وصرعوا منهم عدداً كبيراً. ولم يسقط هؤلاء دون أن يثأروا لأنفسهم، ولم يظهروا ما يدلّ على جبنٍ، فقد كانوا يقبضون على رؤوس الرماح بأيديهم العارية ويكسرون قناها، واستخدموا سيوفهم استخداماً مؤثراً. وصالوا بسيوفهم العريضة منها والمعقوفة وانتزعوا التروس من أيدي اللقيديمونيين وتشابكوا معهم بالأيدي، وظلوا يقاومون أمداً طويلاً.

بقي الأثينيون وقتاً مليّاً لا يأتون بحركةٍ، منتظرين مقدم اللقيديمونيين. فلما سمعوا ضجيج القتال العظيم، وعندما جاءهم - على ما قيل - رسول من پاوسانياس يحمل إليهم أنباء ما يحدث، خفّوا سراعاً إلى نجدته. وبينما هم يقطعون السهل نحو مصدر الضجة إذا بهم يلتقون بالإغريق المنحازين إلى صفوف الأعداء، وعندما أثبتهم أريستيدس، ابتعد عن قطعاته مسافة كبيرة وصاح يستحلفهم بالآلهة الحارسة الإغريقية أن يتخلّوا عن الحرب ولا يكونوا عقبة أو عثرة لأولئك الذين يتجهون إلى معونة المدافعين عن بلادهم. ولما وجد أنهم لا يلقون بالاً على ما يقول، وأنهم اخذوا يستعدون للمعركة، صرف النظر عن نجدة اللقيديمونيين حالياً، والتحم بهم وكانوا يعدّون خمسة آلاف. ولكن ما لبث معظمهم أن تخاذل وتقهقر، كما أطلق البرابرة سيقانهم للريح أيضاً. وقيل إن أشد القتال كان مع الثيبيين وفي ذلك الوقت كان رؤساؤهم وأكثر ذوي النفوذ فيهم منحازين إلى جانب الميديين، متحمّسين لهم، وقد جرّوا معهم الشعب خلافاً لرغبته، لأن الحكم الذي ساد ثيبة آنذاك كان حكماً أوليغارشياً.

كانت صفحات المعركة إذن كما يلي: في المبدأ هزم اللقيديمونيون الفرس، وتمكن سپارطي اسمه أريمنيستسوس[٢٦] من قتل ماردونيوس بصخرة شجّت رأسه تحقيقاً لنبوءة في معبد أمفياروس Amphiarsus نُقلت له. فقد بعث ماردونيوس

(٢٦) في بعض النسخ يُكتب دیامنسُّس Diomnestus. ومن جاء ذكره في المتن هو قائد البلاتيين.

للغرض المذكور رجلاً ليديّاً وبعث بآخر كاريّ إلى كهف تروفونيوس[٢٧] Trophonius. وأجاب كاهن المعبد ثانيهما بلغته الخاصة. أما الليدي فبينما كان نائماً في معبد أمفياروس[٢٨] خُيّل له أن كاهناً عرّافاً يقف منتصباً أمامه يأمره بالرحيل وعندما رفض ذلك دفع بصخرة كبيرة فوق رأسه فظن أن الضربة قتلته. تلك هي الحكاية.

ولنعد الآن إلى المعركة: دفع اللقيديمونيون المنهزمين إلى داخل حيطان الخشب المحيطة بمعسكرهم، وبعد قليل هزم الأثينيون الثيبيين وقتلوا ثلاثمائة من أبرز وأرفع رجالهم مقاماً في ساحة القتال نفسها. وعندما بدأوا يولون الأدبار وردت الأنباء بأن البرابرة محاصرون داخل معسكرهم. وبهذا أعطى الأثينيون فرصة النجاة لهؤلاء الإغريق بسيرهم لمساعدة اللقيديمونيين في الحصار، وكان هؤلاء قليلي الخبرة والمهارة في اقتحام التحصينات. فقاموا هم باقتحامها واستولوا على المعسكر[٢٩] وأوقعوا بالمغلوبين مقتلةً عظيمة، إذ لم ينج مع أرطباز Artobozus إلاّ أربعون ألفاً من أصل الثلاثمائة ألف على ما قيل. وكانت خسارة الجانب الإغريقي ألفاً وثلاثمائة وستين فقط[٣٠]، بينهم اثنان وخمسون أثينياً، كلهم من قبيلة أيانيتس Æantis وقد قال عنهم قليديموس Clidemus إنهم فاقوا الجميع شجاعة. ولهذا السبب اعتاد رجال هذه القبيلة أن يقدّموا القرابين إلى «حوريات سفراجيتيدس» بمناسبة النصر كما نصّت عليه النبوءة، وتُصرف نفقاتها من الخزانة العامة. وقُتل من اللقيديمونيين واحد وتسعون ومن

---

(٢٧) بالقرب من مدينة ليباديا في بويوتيا فوق دلفي. كان ماردونيوس قد أرسل لاستخارة لا هذا المعبد وحده، بل كل المعابد في البلاد. فقد كان قلقه شديداً بخصوص نتيجة الحرب [المرجع السالف ١٣٥ و ١٣٣].

(٢٨) هو أمفياراؤوس الذي ابتُلع هو وعربته حَيّاً أثناء حرب الزعماء السبعة ضدّ ثيبه. كان لديه معبد وعرافة في أوربوس في أتيكا على حدود بويوتيا. كان مفسّر أحلام لا يشقّ له غبار في أثناء حياته وبعد موته صار يرسل نبواته عبر الأحلام والرؤى. لذلك كان طالبو الاستخارة في معبده يستلقون نائمين على جلد كبش ضحّوا به له.

(٢٩) الغنائم أكثر من أن تُعدّ وتُحصى. فهنالك كمّيات كبيرة من الأقداح والأوعية والمعاضد والحليّ وكلّها إمّا من الذهب أو من الفضة. والآرائك الثمينة وكل أنواع الأثاث. وقد أعطي پاوسنياس عُشر الغنيمة برمّتها.

(٣٠) اتضح لأرطباز سوء فعلة ماردونيوس وشعر بما سيحلّ به من نكبات. فبعد أن أبلى أحسن البلاء في المعركة انسحب في الوقت المناسب بأربعين ألفاً كانوا تحت قيادته. فبلغ بيزنطيوم سالماً ومن ثم عبر إلى آسيا. وفيما عدا هؤلاء لم ينجُ غير ثلاثة آلاف آخرين [هيرودوتس ٩: ٣١ - ٦٩].

التيجيانيين ستة عشر. والمرء يستغرب حقاً علام استند هيرودوتس في قوله إنهم وحدهم اشتبكوا بالعدوّ ولا أحد غيرهم، لأن عدد القتلى وأنصابهم تشهد بأنّ النصر كان بمجهود الجميع وإسهامهم عموماً. ولو كان الباقون قد وقفوا كالمتفرّجين بينما خاض رجال المدن الثلاث غمار المعركة وحدهم لما نقشوا على المذبح هذه الكتابة:

«قُدّم هذا المذبح العمومي من اليونان الحرّة إلى جوپتر حارس الأحرار.
عندما دحر الإغريقُ الفرسَ في ساحة القتال بقوّتهم وشجاعتهم».

خاضوا هذه المعركة في اليوم الرابع من شهر بيودروميون حسب التقويم الأثيني، وفي اليوم السابع والعشرين من شهر پانيموس Panemus حسب التقويم البويوتي. وفي هذا اليوم من كل عامٍ يقام اجتماع للإغريق في پلاطيا. وما يزال الپلاطيون يقدّمون قرابين النصر إلى «جوپتر الحرية». أما عن اختلاف الأيام فلا غرابة في الأمر، فمبدأ الأشهر يتفاوت حتى في أيامنا هذه التي امتازت بزيادة معلوماتنا الفلكية ودقّتها.

وبعد أن أبى الأثينيون أن ينزلوا للقيديمونيين عن شرف ذلك اليوم، وأبوا عليهم إقامة نصب تذكاري، باتت الأمور على شفا جرف هار من الانقسام والخلاف بين قوات اليونان المسلّحة، لو لم يهدّئ أريستيدس الحالة ويقنعهم بترك الأمر إلى قرار الإغريق كافة. وقد بذل في ذلك جهداً عظيماً لتسكين الخواطر وتبادل الرأي مع القادة ولاسيما ليوقراطس Leocrates وميرونيدس Myronides. فلمّا بدأوا يتداولون في الأمر أعلن ثيوجيتون Theogiton الميغاري أن شرف النصر يجب أن يُمنح لمدينة أخرى إذا أرادوا تجنّب الحرب الأهلية. ونهض بعده كليوقريطوس Cleocritus الكورنثي فخيّل للناس أنه يريد أن يطلب «الغُصن» للكورنيثين (لأن كورنث جاءت في التقدير بعد سپارطا وأثينا). لكنه لدهشة الجميع أدلى برأيه في اختصاص پلاطيا بهذا الشرف. واقترح ازالة أسباب الخصام بإعطائها الجائزة والشرف لأن تقليدها هذا المجد لن يكون مكروهاً من أي طرفٍ. فبادر أريستيدس لإعلان قبوله نيابةً عن الأثينيين، وتبعه پاوسانياس عن اللقيديمونيين. وبهذا تمّ رأب الصدع. فأخرجوا ثمانين تالنتاً للپلاطيين، الذين أنفقوها على بناء معبد لمينرڤا مع تمثال وزيّنوه بصور وتهاويل، ما زالت إلى يومنا هذا تُبهر الناظر، لاحتفاظها بروعتها. على أن كلاً من اللقيديمونيين والأثينيين أقام لنفسه ايضاً نصباً تذكارياً خاصاً. وعندما استخاروا في كيفية تقديم القرابين أجاب أپوللو بأن عليهم تكريس مذبح خاصٍ لـ«جوپتر الحرية»، وأن لا يقربوا شيئاً إلاّ بعد إطفاء النيران في كلّ البلاد، لأن البرابرة قد دنّسوها، وإشعال نار طاهرةٍ في المذبح العمومي بدلفي. فباشر حكام الإغريق فوراً بحمل كل ذي نار على إطفائها. وتعهّد يوخيداس الپلاطي أن يأتي

بالنار بأسرع ما يمكنه من معبد الإله وانطلق إلى دلفي. وبعد أن اغتسل وتطهر وظفر رأسه بتاج الغار أخذ النار من المعبد وأسرع يعدو نحو بلاطيا فوصلها قبل مغرب الشمس، منجزاً في يوم واحدٍ قطع مسافة قدرها ألف فرلنغ (١٠٠٠٠٠ يارد تقريباً) وحيّا أهل مدينته وقدّم لهم النار، ثم سقط ولفظ روحه بعد قليل. فدفنه الپلاطيون في معبد ديانا يوكليا وخطّوا على ضريحه العبارة التالية:

«جرى يوخيداس نحو دلفي ثم عاد منها في يوم واحد».

ويعتقد معظم الناس أن يوكليا هي ديانا ويطلقون عليها هذا الاسم. إلاّ أن بعضهم يقول إنها بنت هرقل من ميرتو Myrto بنت مينويتوس Menoetus وأخت پاتروكلس Patroclus. وبموتها عذراءَ عبدها البويوتون واللوكريون. وأقاموا مذبحها وصورتها في ساحتهم العمومية. ويقدّم القرابين لها العرسان من كلا الجنسين قبل الزواج[٣١].

ودعي إلى اجتماع لعموم الإغريق. واقترح أريستيدس إصدار قانون يقضي أن يُعقد اجتماع سنوي في پلاطيا يحضره نواب وممثلون من رجال الدين عن جميع الدول الإغريقية. وأن يحتفل كل خمس سنواتٍ بإقامة ألعاب الحرية (إليوثيريا Eleutheria). وأن يُطوّع الإغريق كلهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رامح وألف فارس وأسطول قوامه مائه سفينة، على أن يُعفى بعض الپلاطيين من المساهمة فيه، ويبقوا وقفاً على خدمة الآلهة وأن يقدموا القرابين لخير بلاد اليونان، فصودق على اقتراحه. وتعهد البلاطيون بتقدمة القرابين السنوية عن روح من قُتل ودُفن في ذلك الموضع وما زالوا يقومون بذلك بالمراسم التالية:

في اليوم السادس عشر من شهر ميماكتيريون Memacterion (وهو شهر «الألكومينس» Alalcomenes عند البويوتيين) يبدأ الموكب بالمسيرة وقت انبلاج الصبح ويتقدّمه بوقيٌّ ينفخ نفير الهجوم ثم يتبعه عدد من العجلات موقرة بالمُرّ وقلائد الزهر ويأتي بعدها ثور أسود ثم مجموعة من الشبان الأيفاع الأحرار بالولادة يحملون القرابين المائعة من خمرٍ وحليب في أوعية كبيرة ذات مقبضين، وجراراً مليئة زيتاً ودهاناً. ولا يُسمح لمن كان في أية حالة من حالات الرقّ بالمساهمة في هذه المراسم لأن الرجال ماتوا دفاعاً عن الحرية. وبعد هذا يأتي كبير حكام پلاطيا وهو بثياب الأرجوان في تلك المناسبة (في غير ذلك من المناسبات لا يسمح له لا بلمس الحديد،

---

(٣١) مبدأ قانوني: تقديم أُضحية قبل الزواج إلى ديانا «ذات الخبر السارّ» دليل على أن سعادة الزواج تتوقف إلى حَدّ بعيد على التمسّك بعُرى الخُلق الرفيع.

ولا بارتداء ثوبٍ ملوّن خلا الأبيض) ويحمل وعاء ماء يؤخذ من دائرة سجلات المدينة ويسير شاهراً سيفاً بيده إلى وسط المدينة حيث تقوم الأضرحة، ويستقي ماءً من الينبوع فيغسل الأساطين[٣٢] ويدهنها بالزيت، ويضحّي بالثور وهو ملقى فوق كومة من الخشب ويصلّي لجوبتر الأرضي[٣٣]، ويدعو أولئك الشجعان الذين ماتوا دفاعاً عن بلاد اليونان إلى المأدبة وإلى قربان الدم. وبعد ذلك يمزج وعاءً خمراً ويصبّ شيئاً منه لنفسه ويقول:

«إني أشرب نخب أولئك الذين فقدوا حياتهم في سبيل استقلال اليونان».

وتحرص پلاطيا على إقامة هذه المراسم إلى يومنا هذا.

ولحظ أريستيدس أن الأثينيين يرغبون في الحكم الديمقراطي حال عودتهم من الحرب إلى المدينة. وقدّر أن الشعب يستحق الاعتبار والاحترام بسبب ما أبداه من بسالةٍ، كما كان من الصعوبة بمكان معارضته ومجابهته بالقوة وهو شاكي السلاح قويّ، ذو معنوياتٍ عالية لما أصابه من نصرٍ، فأصدر مرسوما يقضي بمساهمة كل مواطن في الحكم، وأن يُنتخب الأراخنة من الشعب بالاقتراع. وعندما قال تميستوكلس للأثينيين في الاجتماع العام أن لديه نصيحةً لهم لايستطيع إعلانها جهراً، وهي ذات فائدة عظيمة جداً لأمن وسلامة المدينة[٣٤]، عينوا أريستيدس وحده ليسمعها منه، وليقوّمها لهم. فأسرَّ إليه بنيّته وهي إشعال النار في مستودعات سلاح الإغريق، وبذلك يكون الأثينيون سادة بلاد اليونان المطلقين. فعاد أريستيدس إلى الجمعية وقال: ليس ثمّ أكثر فائدة من نصيحة تميستوكلس وخطته، كما ليس هناك أكثر ظلماً منها. فأقفل الأثينيون الباب في وجه نصيحة تميستوكلس وأمروه بأن يعدل عنها. هكذا كان حُبّ العدل مغروساً في نفوس الشعب. وتلك هي الثقة التي أودعوها في أريستيدس.

وأُرسل إلى الحرب بزمالة كيمون[٣٥] ضد البرابرة. فلاحظ أن پاوسانياس وغيره

---

(٣٢) يظهر من ملاحظة كاليماخوس أن العادة قضت بإقامة أساطين صغيرة فوق الأضرحة ليقوم أصدقاء الميت بسكب العطور عليها وتزيينها بعقود من الزهر. ويبدو أن الدفن جرى بعد العمل بشهر واحد لأن شهر ميماكتيرون يأتي بعد بويدوميون في السنة الإغريقية.

(٣٣) هو پلوتو ولديه مارس أيضاً، كجوبتر السماوي. وإلاّ فإنه يستدين رسول الآلهة من أخيه. كذلك يوجد مارسان اثنان كما يوجد جوپتران. إلاّ أن قيادة الأرواح في الظلمات السفلى هي من واجبات مارس في قسم منها. ومارس يخدم جوپتر في السماء.

(٣٤) كان ذلك قبل معركة پلاتيا في الزمن الذي طرد فيه كيخسرو من آسيا. انظر سيرة تميستوكلس.

(٣٥) بعدها بثماني سنوات.

من القادة السپارطيين مكروهون من سائر الحلفاء لغطرستهم وصرامتهم. فتمكن من استخلاص القيادة العليا من يد اللقيديمونيين لا بالسلاح ولا بالسفن أو الخيّالة بل بالسياسة الحكيمة واللجوء إلى مبدأ المساواة والعدل. فبالرقّة والرعاية التي كان يبديها لهم، وبروح التجرد وعدم الانحياز التي كان يبديها كيمون في الحملات العسكرية متأثراً خطى زميله، عُزّزت مكانة الأثينيين عند سائر الإغريق وزادت باستبداد پاوسانياس وأنانيته. إذ كان هذا القائد السپارطي يعامل قوّاد الحلفاء وضبّاطهم معاملة خشنة فظّة. وكان يفرض على الجنديّ البسيط عقوبة الجلد بالسوط ذي الشُّعَب، أو يوقفه تحت مرساة حديد يوماً بأكمله. ولم يكن يسمح لأحد أن يأخذ قشاً لفراشه أو علفاً لحصانه أو الاقتراب من ينابيع الماء قبل أن يصيب السپارطيون ما يريدون منها، إذ كان المراسلون والخدم يقفون بسياطهم لمنع كل من يدنو. وراح أريستيدس مرّة يشكو الأمر لپاوسانياس وينبّهه بلطف فقال له متجهّماً إنه مشغول ولم يكترث به. وكان من نتيجة ذلك أن أمراء البحر والجنرالية الإغريق ولاسيما الخيوسيين والساموسيين واللسبيين جاؤوا إلى أريستيدس وطلبوا منه أن يكون جنرالهم، ويتولّى منصب القيادة العليا للاتحاد الذي كان يريد التخلّي عن قيادة السپارطيين منذ امد طويل وينضمّ إلى الأثينيين. فأجابهم أنه يرى فيما يقولون ضرورةً وعدلاً، إلاّ أن إخلاصهم ووفاءهم يتطلّب تمحيصاً بعملٍ ما، بحيث يكون من المحال أن يعود الجميع إلى تغيير رأيهم هذا. وعلى هذا الأساس اتفق أوليادس Ulaides الساموسي، وأنتاغوراس Antagorass الخيوسي على إدراك سفينه پاوسانياس في بيزنطيوم وجعلاها بينهما أثناء ما كانت تمخر عُباب البحر في المقدمة. وعندما لمحهما پاوسانياس ثار ثائره وراح يهدّدهما حانقاً بأنه لن يلبث أن يلقّنهما درساً في أنهما لا يعرّضان سفينته للخطر بل بلادهما.

فطلبا منه أن ينصرف عنهما ويشكر آلهة الحظّ التي قاتلت عنه في پلاطيا، وأن الإغريق احتراماً لذلك أحجموا حتى اليوم عن إيقاعهم به العقاب الذي يستحقه، والخلاصة أنهم خرجوا كلهم وانضموا إلى الأثينيين. وهنا ظهرت عظمة روح اللقيديمونيين وروعتها. فعندما أدركوا أن عظمة سلطانهم أفسدت نفوس جنراليتهم نزلوا بملء اختيارهم عن القيادة العليا، وامتنعوا عن إرسال أمثالهم إلى الحروب، واختاروا مواطنين امتازوا بالعدل والحيدة والحرص على اتّباع تقاليدهم أكثر من السيطرة على كلّ الإغريق.

كان الإغريق يدفعون حتى في فترة قيادة اللقيديمونيين مبالغ معيّنة لإدامة الحرب.

وقد رغبوا في أن يتمّ تقدير الإعانة الواجبة على مدينة ومدينة، واستعاروا أريستيدس من لاثينيين وسلّموه القيادة، ليقوم بتدقيق أحوال البلاد وعوائدها وفرض الجعالات على ساس قابلية كل مدينة وإمكاناتها. ومع تلك السلطة العظيمة التي مارسها على بلاد لإغريق وإشرافه على كل شؤونها فانه ذهب فقيراً وعاد وهو أكثر فقراً. ففضلاً عن أن فرضه الضريبة كان عادلاً وبدون تحيّز فإنها كانت موضع رضا الجميع وقبولهم. وكما كان الأوائل يحتفلون بعصر زُحَل احتفل حلفاء أثينا بعصر ضريبة أريستيدس، وأطلقوا عليه اسم «عهد اليونان السعيد». لاسيما بعد أن تضاعفت الجباية في غضون فترة قصيرة جداً، وأصبحت بعد زمنٍ ثلاثة أضعاف. وكان المبلغ الذي فرضه أريستيدس قد حدّد بأربعمائة وستين تالنتاً. أضاف إليها پيركلس ما يقارب ثلثها. ويقول ثوكديدس إن د دخل الأثينيين من إعانة حلفائهم في بداية حرب الپيلوپونيسوس بلغ ستمائة تالنت. لاّ أن الديماغوغيين بعد وفاة پيركلس رفعوها شيئاً فشيئاً حتى أبلغوها ألفاً وثلاثمائة تالنت، لا لأن تكاليف الحرب زادت، ولا لما طرأ عليها من مفاجآت وتقلّبات في سيرتها الطويلة ونجاحاتها القليلة، بل بسبب إغرائهم الشعب بالإنفاق على الكماليات ووسائل اللهو وأماكن التسلية بإسرافٍ عظيم، وبإقامة التماثيل وبناء المعابد. لذلك كانت السمعة العالية المستفيضة التي نالها من جرّاء جباية هذه الإعانة هدفاً لسخرية تميستوكلس بقوله إنها ليست تقديراً لرجل بل لصندوق مفعم بالمال. قال هذا رداً (وإن يكن مطابقاً) على عبارةٍ جارحة تفوّه بها أريستيدس. فمرّةً ذكر تميستوكلس أن أعلى مزيّة يجب أن تكون في الجنرال هي أنه يدرك ويعلم مسبقاً بكلّ ما سيتخذه العدوّ من تدبير. فعقّب أريستيدس على هذا بقوله:

«هذا في الواقع ضرورة لازمة يا تميستوكلس، إلاّ أن أسمى ما يجب أن يمتاز به الجنرال هو أن تُرفع يداه عن المال».

وحمل أريستيدس دول الإغريق على القسَم بألاّ يخرجوا عن الاتحاد. وحلف هو يمين نيابة عن الأثينيين. وألقى بأوتاد حديدية في البحر بعد أن حمّاها بالنار إلى درجة الاحمرار، وأعقبها باللعنات على كل حانث بيمينه[٣٦]. لكن عندما آلت الأمور في أثينا

---

[٣٦] وتفسير العمل هو كالآتي: «مثلما تنطفئ النار في هذه القطع الحديدية بلحظةٍ كذلك ستنطفئ أيام كلّ من يخلّ بهذا العهد». وإنك لتجد تطبيقات عديدة لهذه العادة عند الأقدمين ولاسيما عند الفينيقيين عندما أرادوا تحاشي جيوش أرپاغوس قائد كورش فتركوا بلادهم وأسّسوا مدينة مارسيليا في فرنسا في العام ٥٣٩ ق.م.

إلى حالة تستدعي مجيء يد أقوى إلى الحكم طلب من الأثينيين تحويل مغبّة الحنث باليمين على عاتقه وقيامهم بما يرونه مناسباً للظروف. وعلى العموم فإن ڤيوفراستوس يحدثنا عن أريستيدس بأنه كان عادلاً بكلّ ما في الكلمة من معنى في شؤونه الخاصة وشؤون مواطنيه. إلاّ أنه كان في المسائل العامة كثيراً ما يعمل وفق ما تمليه مصلحة بلاده وسياستها. وهو ما يُلجئه أحياناً إلى انحراف عن العدالة انحرافاً ليس بالقليل. وقد ذكر عنه في أثناء مناقشةٍ على اقتراح الساموسيين برفع الخزانة العامة من دلوس ونقلها إلى اثيناً خلافاً لرغبة الاتحاد أنه قال: «إن المسألة لا تتفق ومبادئ العدالة في الواقع إلاّ أنها ذات نفع من الناحية السياسية».

وقُصارى القول أنه بعد أن وطّد أريستيدس دعائم سلطان مدينته على هذا العدد العديد من الناس بقي هو مُعدَماً لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً، وظلّ دائماً معتزّاً بالمجد المتأتّي من فقره أكثر من اعتزازه بانتصاراته. وهو ما تكشف عنه الحكاية التالية: كان كاللّياس حامل المشعل يمتّ إليه بصلة القُربى وقد اتهمه خصوم له بقضية كبيرةٍ. فبعد أن تعرّضوا قليلاً لموضوع التهمة، انحرفوا عنها ووجّهوا إلى القُضاة الأقوال التالية:

«أنتم تعلمون منزلة أريستيدس ابن ليسيماخوس الرفيعة عند سائر الإغريق. كيف تتصوّرون حالة أسرته في البيت عندما ترونه يبدو في المحلات العامة بمعطف مهلهل بالٍ؟ أليس من المحتمل أن رجلاً كهذا يخرج بحالة مزرية متعرّضاً للبرد، لا بدّ أن يكون في حاجةٍ إلى الطعام وغيره من ضروريات المعيشة؟ وها هو ذا كاللياس أغنى الأثينيين، لا يفعل شيئاً لإغاثته وزوجه وأولاده في فقره، مع أنه ابن عمّه، وقد استفاد منه في ظروف كثيرة، وكثيراً ما جنى الفائدة من نفوذه عندكم».

وأدرك كاللياس أن القضاة قد تأثروا بهذا كثيراً، واشتد تحاملهم عليه. فطلب أريستيدس شاهد دفاع له، ليشهد على المرّات العديدة التي قدّم له فيها الهدايا المختلفة، وإلحاحه عليه بقبولها، فكان يرفض قائلاً إن اعتزازه بفقره ألْيَق له وأحفى به من اعتزاز كاللياس بغناه، ما دام هناك كثير من الناس يسيئون أو يحسنون التصرّف بأموالهم، في حين يصعب بعض الشيء أن يصادف المرء ذلك الذي يستطيع احتمال الفقر بروحٍ نبيلة، ولا يخجل من الفقر إلاّ أولئك الذين وقعوا فيه رغم أنوفهم.

عندما وضع أريستيدس هذه الحقائق دفاعاً عن كاللياس لم يبق سامع إلاّ وفضّل أن يكون فقيراً كأريستيدس، لا غنياً ككاللياس. هذا ما دوّنه لنا إيسخينوس تلميذ سقراط.

إلاّ أن أفلاطون قال إن أريستيدس هو الوحيد الجدير بالتقدير من بين كل الرجال المشاهير في اثينا، لأن تميستوكلس وكيمون وپيركلس ملأوا المدينة بالأبهاء والأعمدة والنفائس وغير ذلك من العبث، لكن أريستيدس قاد حياته العامة بالحكم على أسس العدل. لقد أظهر اعتدال طبعه بصورة واضحة جداً بالسلوك الذي اتخذه حيال تميستوكلس فمع أنه كان خصماً له في كلّ أعماله ومشاريعه وسبباً في نفيه رأيناه، عندما سنحت له فرصة الثأر منه عندما اتهمته المدينة، لم يحمل له مَوْجِدَة. وظلّ وحده ساكتاً لا يفعل شيئاً بينما كان ألكميون وكيمون وكثيرون غيرهما يستابقون في اتهامه والانتقاص منه. ولم يكن إحساسه بالانتصار على عدوّه في ميدان الخصومة أكثر من حسده له في حالة مجده وسؤدده.

قال بعضهم إن أريستيدس توفّي في بونطس Pontus في أثناء رحلة تتعلق بالمسائل العامة. وقال آخرون إنه توفّي في أثينا بعد عمر مديد كان فيه موضع تجلّة واحترام مواطنيه. إلاّ أن قراطيروس Craterus[٣٧] المقدوني يروي عن موته الحادثة التالية: بعد نفي تميستوكلس زادت جرأة الأوشاب ووقاحتهم وبرز منهم عدد من المفترين واتهموا خيرة المواطنين وأوسعهم نفوذا وعرّضوهم لنقمة الجماهير، التي ملأتها قوّتها وسعود حظّها فخراً فيها. وكان بين هؤلاء المتهمين أريستيدس الذي أُدين بالرشوة بناء على اتهام ديوفانطس Diophantus الأمفيطروپي Amphitrope له بأنه أخذ مبلغاً من الأيونيين عندما كان محصّلاً للغرامة. ولمّا كان عاجزاً عن دفع الغرامة وقدرها خمسون «مينا» فقد أبحر إلى أيونيا وتوفّي فيها. إلاّ أن قراطيروس لا يقدّم دليلاً خطياً على ما يزعمه. لامن قرار إدانته، ولا من مرسوم الشعب. وإنْ كانت العادة المتسامح بها عموماً قد جرت بتدوين هذه الروايات فقط على أساس الاقتباس دون ذكر المرجع. والكتّاب كلهم تقريباً، حين يتكلمون عن سوء أفعال الشعوب حيال قادتها وزعمائها، يجمعون الوقائع معاً فيتحدثون عن نفي تميستوكلس وغرامة پيركلس وحبس ملتياديس وموت پاخيس Paches في قاعة المحكمة إذ نجع نفسه فوق المنصّة على أثر إدانته. هذا إلى جانب أمور عديدة مشابهة لها وأنهم يضيفون إلى ما سبق نفي أريستيدس، لكنهم لا يذكرون شيئاً عن إدانته قضاءً.

فضلاً عن هذا ما زال ضريحه قائماً في فاليرم وقد بُني كما يقال على نفقة المدينة،

---

(٣٧) عاش فترة قصيرة بعد أريستيدس ويظنه موشيوس [تاريخ الإغريق ٣] الرجل الذي رافق الإسكندر الكبير إلى الشرق. توفّي أريستيدس عام ٤٦٧ ق.م.

لأنه لم يترك ما يكفي لسدّ نفقات جنازته. وذُكر أيضاً أن بنتيه زوّجتا على نفقة الدولة وبمسعى من الپريتانيوم أي مجلس الدولة، وأن المدينة مهرت كلاً منهما بائنة زواج قدرها ثلاثة آلاف دراخما. ومنح الشعب ابنه ليسيماخوس هِبة من المال قدرها مائة مينا ومائة إيكر من الأرض الصالحة للزراعة. كما أمروا له بناءً على اقتراح ألكيبياديس بأربعة دراخمات يومياً[٣٨] إضافة إلى ما سبق. ثم إن ليسيماخوس هذا ترك ابنة تدعى پوليكريته Polycrite، يقول كالليستينس Callisthenes إنّ الشعب صوّت ايضاً على منحها إعانةً للطعام تساوي ما يُمنح للفائزين في الألعاب الأولمبية[٣٩]. الا أنّ ديمتريوس الفاليري وهيرونيموس الرودوسي، وأرسطوكزينس الموسيقيّ، وأرسطو الفيلسوف (إذا كانت رسالته «في النّبل» تُعتبر من كتاباته حقاً)، يذكرون أن ميرتو حفيدة أريستيدس عاشت مع سقراط الفيلسوف، الذي كانت لديه زوج أخرى كما هو معروف، فقد أدخلها بيته زوجةً بعد ترمُّلها[٤٠] لإملاقها ولافتقارها إلى ضروريات الحياة. إلاّ أن پانيتيوس يُفنّد هذا بالبراهين القاطعة في كتابه عن سقراط. ويقول ديمتريوس الفاليري في كتابه عن سقراط إنه عرف شخصاً اسمه ليسيماخوس هو ابن بنت أريستيدس لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً اعتاد الجلوس قريباً مما يطلق عليه اسم إياخيّوم Iaccheum ومعه زيجٌ لتفسير الأحلام يعتاش منه. وبناء على اقتراحه وبمسعى منه صدر مرسوم شعبي يقضي بصرف مبلغ نصف دراخما[٤١] يومياً لأمّ هذا الرجل[٤٢]

---

(٣٨) ربما بدا هذا الراتب التقاعدي بسيطاً تافهاً، لكنه كان يعني مبلغاً كبيراً في ذلك الوقت. ويخبرنا أخارتينس الأرسطوفاني [ج١ : ٢، ٦٥] أن السفير كان يصرف له دراخمان يومياً. وهذا الشاعر في الواقع يتكلم عن سفير أرسل إلى بلاد فارس. والسفير المرسل إلى هذا البلاط يكون واثقاً أنه سيعود غنياً.

(٣٩) هؤلاء الذين يصرف عليهم في الپريتانيوم من الخزانة العامة إنما يتسلّمون ارزاقاً محدّدة طوال أيام حياتهم.

(٤٠) كيركوبس: كان قد حرّم تعدّد الزوجات في أثينا. لكنه استنّ قانوناً في عهد سقراط يعطي حق المواطنة الأثينية للأولاد المولودين من المخصبات وخارج الرباط الزوجي. وكان السبب هو تناقص عدد السكان. على أن هناك عدداً من المؤرّخين يستبعدون ذلك.

(٤١) أي ثلاثة أوبولات (ج. أوبول). كانت المعيشة رخيصة جداً في أثينا آنذاك كما أوضحنا في سيرة صولون.

(٤٢) هذا البطل قام مع هرموديوس بتوجيه الضربة الأولى لطغاة أسرة بسستراتيدي بقتله هيپارخوس أحد أبناء پسستراتوس في العام ٥١٣ ق.م فقام الابن الآخر الذي نجا وهو هيپياس بقتلهما في الحال. وقد بقي هذا في الحكم أربع سنين ثم طرده الأثينيون.

وخالته من الخزانة العامة. ولما بلغ ديمتريوس نفسه منصب الحاكميّة قرر تخصيص دراخما واحداً لكلّ من المرأتين يومياً. وليس بعجيب أن يهتم أهل أثينا بالناس الذين يعيشون في المدينة إلى هذا الحد؛ فقد فعلوا أكثر من هذا عندما سمعوا أن حفيدة أرسطوجيتون Aristogiton تشكو حالة عسرٍ شديدٍ في جزيرة لمنوس بحيث لم يخطبها أحد، فجاؤوا بها إلى أثينا وزوّجوها برجلٍ شريف النسب ومهروها بحقلٍ في پوتامُس Potamus. لقد قدّمت أثينا وما زالت إلى يومنا هذا تقدّم البراهين المماثلة على إنسانيتها وكرمها. ولهذا كانت جديرة بالاحترام والإجلال الذي تتمتع به الآن.



سقراط



باخوس

ماركوس كاتو

MARCUS CATO

(Porcius)

٢٣٤-١٤٩ ق.م

قيل لنا إن ماركوس كاتو وُلِد في توسكولوم Tusculum، وإنه نشأ وعاش في بلاد السابين حيث ضيعة والده حتى انصرف إلى الشؤون العسكرية والسياسيّة. وتشير الاحتمالات كلّها إلى أن نسبه لم يكن عريقاً وأن أسلافه يكتنفهم الخمول التام. وهو نفسه يثني على أبيه ماركوس ويصفه بحميد الخصال وبالجنديّ الشجاع. ويذكر عن جدّ أبيه أيضاً أنه نال جوائز حربية كثيرة، وقد قُتل تحته خمسة خيول وصُرفت له قيمتها من الخزانة العامة تقديراً لبسالته. وكان من عادة الرومان أن يطلقوا على الرجال الذين لا يمتّون بنسب عريق، لكنهم بلغوا مراقي الشهرة والنجاح بمسعاهم اسم الرجال الجدّد[1]، أو حديثي النعمة. ولم يكن كاتو ينكر ذلك عندما يصفونه بهذا في أيّ تكريم رسميّ يحوزه أو منصب حكومي يتقلّده، بيد أنه لا يني يؤكد أن أسلافه عريقون جداً في مجال الشجاعة والأخلاق الفاضلة. ولم يكن اسمه الثالث كاتو أصلاً بل بريسكوس Priscus على أنه لُقّب بكاتو فيما بعد لكفاءاته. لأن الرومان يطلقون صفة كاتوس Catus[2] على كل شخص حاذق مجرّب. وكان مورّد الوجه، أشهل العينين. والشاعر الذي نظم الأبيات التالية بنيّة سوءٍ جعلنا نرى:

«بورشيوس Porcius الذي لا يفتأ يصيح في كل مكان بعينيه الشهلاوين
وشعره الأحمر وبنابيه[3] الحادّين المرهفين يصعب أن تسمح له هيكاته

(١) قُصر حق التصوير Jus imaginam على رجال الدولة الكبار. فلا يُنصب تمثال أو تُعلّق صورة لغيرهم. ومن كان أسلافه من هؤلاء عُدّ ضمن طبقة النبلاء. ومن كانت صورته وتماثيله وحدها معلّقة اعتُبر «رجلاً جديداً». ومن هو ليس من هذين عُدّ وضيع المولد Ignble. وهذا ما يقوله أسكونيوس. لكن لا يبدو منسوباً إلى النوع الثالث رجلٌ تقلّد منصباً عظيماً كمنصب القنصلية، لأن تماثيله أو صوره ليست منصوبة. فمن الممكن أن يكره ذلك كاتوا الذي كان ينفر من عرض صوره.

(٢) كلمة كاتوس Catus اللاتينية تعني «البعيد النظر» ولعله الأول الذي حمل هذا اللقب.

(٣) يقول أحد الشعراء فيه إنه كان «بانده ختنس» وهي كلمة إغريقية معناها «من لا يقف في سبيله =

Hecate، حتى بعد موته، بدخول مملكة جهنم!».

ووُهِب منذ حداثته بدناً قويّاً متيناً بالدوام على العمل اليدويّ، والعيش باعتدالٍ، والخدمة في الجيش. ويظهر أنه نال حظاً متساوياً من القوة والصحّة. واستغلّ ومارس قوة عارضته في الأنحاء المجاورة والقرى الصغيرة. فعنده أن الفصاحة تلي في الأهمية قوة البدن لمن يتطلّع إلى حياة أرفع من حياة الخمول والبساطة. ولم يكن يأبى التوكل عن كل من يقصده، وعُرف منذ مطلع حياته بأنه محامٍ جيد. ولم يلبث أن اشتهر خطيباً قديراً.

وأخذ عمق شخصيته وقوتها يتضحان شيئاً فشيئاً وأكثر فأكثر لمن يهمّه أمره، وراحت مواهبه تبحث عن منطلق لها في الأمور الهامة، والأماكن القيادية في عالم السياسة. ولم يكتف بالامتناع عن تقاضي أجورٍ عن أتعاب المحاماة والرأي القانوني، والمرافعات، وإنما كان لا يعلّق كبير اهتمام على المكانة والشهرة التي يصيبها من تلك المعارك القضائية، وكان يريد على ما يبدو أن يُبرز نفسه في ميدان القتال الحقيقي. وبدا صدره وهو في عنفوان شبابه مغطى بالندوب التي رسمتها عليه أسلحة العدوّ. وقال إن أول معركة خاضها ولم يتجاوز عمره السابعة عشرة. كان ذلك عندما بلغ هنيبعل أوج عظمته وقوته، وراح يعيث في إيطاليا حرقاً وتخريباً[٤]. كان في قتاله يكيل ضربات صاعقة ويقف ثابتاً في محله لا ينكص خطوة إلى الوراء، وينظر إلى خصمه نظرة حادّةً جريئة، ويفاجئه بصياحٍ راعدٍ تهديدي، ويعلّل موقفه هذا للآخرين أن أسلوبه الفظّ ذاك يشيع الرعب في الآخرين أكثر من رهبة السيف نفسه أحياناً. وكان في المسيرات يحمل كل سلاحه ويمشي، ولا يوكل لخادمه إلاّ حمل المؤونة والطعام. وقيل إنه لم يغضب منه ولم ينتهره قطّ أثناء إعداده طعام الغذاء والعشاء بل كان غالباً ما يساعده ويزامله في الطبخ عند خلوّه من الواجبات العسكرية. ولم يشرب طوال خدمته في الجيش غير الماء القُراح إلاّ إذا كان شديد العطش فإذ ذاك يمازجه بقليل من الخلّ[٥] وقد يتعاطى شيئاً زهيداً عندما يبلغ به الإنهاك غايته القصوى.

= شيء» ويضمن هذا التعبير اللاتيني يستخدم اسمه الثاني Porcius تورية باستبداله بـ Poreus أي خنزير، لاشتهار هذا الحيوان بالعناد.

(٤) إذا عزونا هذا إلى السنة التي نشبت فيها معركة كاني (٢١٥ ق.م) فسيكون ميلاد كاتو في العام ٢٣٢ ق.م.

(٥) ميزة الخَلّ هو خفضه حرارة الجسم ولذلك فإنّ العمّال يُسقون منه أثناء الحصاد.

وصادف أن الدار الريفية الصغيرة العائدة لمانيوس كيوريوس[٦] Manius Curius (وهو القنصل الذي دخل دخول ظافرين ثلاث مرّات) كانت قريبة من حقله، فأخذ يتردد إليها كثيراً ويتأمّل في صغر مساحتها وبساطتها وخلوّها من أي زخرف. وكوّن في رأسه فكرة عن رجل عُدّ من أعظم عظماء الرومان أخضع أشدّ الشعوب مِراساً وتعلّقاً بالحرب، لا بل طرد پيروس Pyrrhus من إيطاليا، وهو الآن بعد مواكب ظفر ثلاثة قانعٌ بفلاحة هذه القطعة الصغيرة من الأرض، والعيش في كوخ بسيط. هنا وجده سفراء السامينين Samnites يسلق اللّفت في زاوية من المدخنة فقدّموا له هدية من الذهب. إلاّ أنه صرفهم عنه بهذا القول: إنه راضٍ بعشائه هذا وليس بحاجة إلى الذهب وهو يرى قهر من يملكون الذهب أشرف من مُلك الذهب نفسه. بعد أن يتأمل كاتو في هذه الأمور يقفل راجعاً ويروح يعيد نظره في حقله وخدمه وشؤون بيته، ويزيد من عمله وينقص من مصروفاته الزائدة.

كان كاتو الشاب جندياً في جيش فابيوس ماكسيموس عندما استولى على تارنتوم. وكان يساكن شخصاً يدعى نيارخوس Nearchus يعتنق الفلسفة الفيثاغوريّة، فرغب في أن يطّلع على شيء من عقيدته وسمع منه المبادئ التي كان أفلاطون ينادي بها أيضاً. إن اللذة هي طعم الشرّ الأساسيّ، والجسم هو بليّة الروح الرئيسة... وإن تلك الأفكار التي تفصل الروح عن الجسم وتأخذها وتنأى بها عن نوازعه هي التي تطهّرها وتحرّرها. فازداد تعلّقاً وحبّاً بالزهد والتقشف، باستثناءٍ واحدٍ وهو عكوفه على دراسة اليونانية عندما تقدّمت به السنّ على ما قيل. وقد استفاد من فن الخطابة من ثوكديدس قليلاً، وكانت فائدته من ديموستينس أكثر، وقد عمد إلى تَوشِية كتاباته بكثير من الأقوال والحكايات اليونانية بل كان يخلط عباراته وجمله بالكثير المترجم منها حرفياً.

كان يوجد رجل من الطبقة العليا، ومن أوسع الناس نفوذاً بين الرومان، يدعى ڤاليريوس فلاكّوس Valerius Flaccus. عُرف هذا بنفاذ بصيرته في استشفاف النبوغ وهو في براعمه، وباهتمامه الكبير بتغذية هذا النبوغ وتعهّده بالنموّ. وكان على ما يظهر يملك عقاراً ملاصقاً لملك كاتو، وكان خدمه يحدّثونه عن الأسلوب الذي يتبعه في حياته، كيف أنه يشتغل بيديه، ويخرج في معظم الأيام صباحاً سائراً على قدميه إلى

(٦) مانيوس كيوريوس دنتاتيوس نال موكبَي نصر في أول فترةٍ قنصلية لتغلّبه على السابين والسامنيت وانتصر على بيروت في قنصليته الثالثة ثم نال «ترحيباً حماسياً» للنصر الذي حققه على اللوكانيين.

المحاكم لمساعدة من هم في حاجة إلى مشورته. وكيف يعود إلى البيت في أيام الشتاء فيلقي فوق كتفيه عباءة خشنة[٧]. وكيف يشتغل بين خدمه وعمّاله صيفاً، وليس عليه شيء من الثياب، يجالسهم ويأكل من خبزهم ويشرب من خمرهم. ولم يكن هؤلاء الخدم في معرض حديثهم عن مزاياه الطيّبة الأخرى كحُسن معاملته ورقّة طبعه ينسون ترديد بعض الحِكَم التي ينطق بها. فزاد إعجاب ڤاليريوس به ودعاه إلى العشاء، وبات متأكداً من سمّو خُلقه وحميد خِصاله التي أشبهت نبتةً لا تحتاج إلى غير التشذيب وأرض أفضل لنموّها، فألحّ عليه حتى أقنعه بخوض غمار حياة السياسة في روما فانتقل إلى العاصمة. ولم يلبث أن كسب بمرافعاته القضائية كثيراً من الأصدقاء والمعجبين، إلاّ أن ڤاليريوس كان يكبر عَضُدٍ له في صعوده؛ فقُلدّ أولاً منصب التريبيون العسكري، ثم عُيّن بمنصب الكويستور أي «أمين بيت المال». ولما اشتهر أمره وبرزت شخصيته راح يتقلّب في أرفع المناصب القيادية بزمالة ڤاليريوس نفسه. فغدا قنصلا معه، ثم عُيّن «چنسوراً». على أنه اختصّ بفابيوس ماكسيموس من دون أقدم الشيوخ ولصق به، لا لغرض الإفادة من سعة نفوذه، أو تكرّماً بشخصه، بل لأنه وجد في أسلوب حياة هذا الرجل وأخلاقه المثل الأعلى الذي يحتذيه. ولهذا لم يتردد في معارضة سكيپيو الكبير - الذي كان آنذاك شاباً - عندما طاب له أن يتحدّى سلطان فابيوس. ومع أنه استهدف لحقد وخصومة سكيپيو. فقد رافقه بحكم «أمانته لبيت المال» إلى صقلية. فوجده يسرف في النفقات ويوزّع المال على الجنود بلا حساب جرياً على ما طُبع عليه من سخاء. فأغلظ كاتو له القول، ونبّهه إلى أن الإنفاق الكثير ليس أدعى الأمور إلى الاهتمام بحدّ ذاته، وأن الخطورة هي فيما ينجم عنه من إفساد الجنود واستسلامهم لحياة الترف بمنحهم أسباب تعاطي اللذائذ واللهو العابث. فردّ عليه سكيپيو أن لا ضرورة تدعوه إلى أن يكون أمين بيت مالٍ حريصاً إلى هذه الدرجة (وهو كما يرى منطلق إلى الحرب بأسرع ما تدفعه أشرعة سفنه)، وأنه ملزم أمام الشعب بتقديم الحساب عن أعماله الحربية لا عن الأموال التي ينفقها. فترك كاتو صقلية عائداً، وشنّ مع فابيوس حملة على سكيپيو في جلسة علنية لمجلس الشيوخ، متهماً إياه بتبديد الأموال الطائلة، وقضائه أوقاته بعبثٍ صبياني، في مباريات مصارعة وتمثيليات هزلية، كأنه ليس في حرب بل في عطلة. ونجح في حمل المجلس على إرسال عدد من تريبيونات الشعب للتحقيق وإرسال سكيپيو إلى روما في حالة ثبوت صحة التهم. إلاّ أن

---

(٧) رداء، «بتّة» قصيرة مستقيمة تغطي الكتفين فقط.

سكيبيو، باستعداداته وبالنصر الذي كان يتوقّعه، وبتبيّنهم أنه يعيش عيشة طيبة لا غير مع أصدقائه عندما لا يوجد ما يشغله من المهام، وأن ترفه وسخاءه لم يجعلاه مهملاً في الأمور الهامّة الدقيقة، جبّ عن نفسه التهمة وبادر إلى الإقلاع عن صقلية إلى ميدان الحرب فوراً.

وتعاظم نفوذ كاتو بفضل بلاغته حتى اشتهر بلقب «ديموستينس الرومان» إلاّ أن أسلوب حياته كان مداراً لأكثر الحديث عنه وأدعى إلى اشتهاره. ذلك لأن إتقان الخطابة كوجه من وجوه التربية والتثقيف كان غاية دراسية عامة لكلّ الشبّان، الا أنه يندر جداً أن تجد شخصاً يطبّق المبادئ الغابرة في العمل الفعلي والجهد اليدويّ، أو يفضّل تناول العشاء الخفيف، أو إعداد فطوره من طعام لا يرى النار، أو يتعشّق ارتداء ثياب الخصاصة والعيشة المنزلية البسيطة، أو يوجّه مطمحه إلى الاستغناء عن وسائل الترف والنعيم لا إلى حيازتها.

كانت الحكومة عاجزة عن الاحتفاظ بطهرها ونقائها بسبب ما بلغته من العظمة والسؤدد. ولاتساع دائرة أعمالها ودخول كثير من شعوب العالم تحت سيطرها كانت مضطرة إلى قبول كثير من العادات المزيجة، والتسامح في طرائق عيش حديثة. لذلك كان لإعجاب الجميع بكاتو سببه الوجيه، فهم يرون الآخرين غارقين في الشهوات وقد تخنّثوا بما نهزوا من اللذات بينما حقق الرجل انتصاره على الاثنين معاً. فسواء في عزّ شبابه، وعنفوان رغبته في السلطان والشهرة، أو عندما تقدّم به العُمر وشاب فوداه بعد توليه القنصلية ودخوله في موكب النصر، كان في الحالتين أشبه ببطلٍ فائز من أبطال الألعاب الرياضية لا ينقطع عن ممارسة تمارينه، ويبقى محافظاً على طرائق عيشه إلى الاخير. ويقول كاتو عن نفسه إنه ما لبس يوماً حُلّة من الثياب تزيد قيمتها عن مائة دراخما، وإنه لما كان جنرالاً وقنصلاً لم يتعفف عن شرب الخمر الذي يتناوله مرؤوسوه وعمّاله، وقال إن اللحم أو السمك الذي يشتريه لغدائه من سوق اللحم لم يكلّفه قط أكثر من ٣٠ أسّاً asses، وكل هذا كان في سبيل الجمهورية ليخشوشن بدنه ويقوى على الحروب.

وكان قد ورث قطعة سجّادٍ بابليّة مطرّزة فباعها لأنه لا يوجد كوخ ريفي واحد من أكواخه التي يسكنها وهو مجصّص الجدران. ولم يشتر عبداً زاد ثمنه عن ألفٍ وخمسمائة دراخما، لأنه لم يكن يقبل على العبيد المخنّثين الحسني الصورة، بل كان ينشد عمالاً أشداء كفوئين، وسائسي خيل ورعاة بقر، يمكنه أن يبيعهم ثانيةً عندما يتقدم بهم العُمر، لكيلا يُطعم أفواهاً لا فائدة من أصحابها.

فهو بكلمة مختصرة لا يعدّ ما يزيد عن اللزوم كسباً. ويرى أنه إذا ما باع ما لا حاجة له به بفلس واحد، فقد حصل على ثمن طيّب. وكان يشتري حقولاً للبذار والجني، لا أراضي للرعي والإرواء.

قد يرى بعض الناس في هذا ما يشبه البُخل، إلا أن بعض الناس لا يرون فيه بأساً ويستحسنونه منه كأنما أخذ على نفسه الحرمان وفرض عليها التقتير لأجل تهذيب الآخرين وحثهم على هذا النهج... إنها لعَمري وفي اعتقادي لنفسٌ مفرطة في الحرص والإمساك تلك التي تعتصر العمل من الخدم كأنهم حيوانات بهيمة، ثم تنبذهم نبذ النواة ليباعوا وهم في أراذل العمر. انها لطبيعة كزّة أن تظنّ بأن لا علاقة أو صلة بين إنسان وإنسان إلا إذا كان فيها بعض الكسب. ونحن نرى أن للعطف أو للإنسانية ميداناً أرحب من ميدان العدالة المجرّدة، فيه تمارس عملها ونشاطها. إن القانون والعدل وفقاً لنواميس الطبيعة لا يطبّقان إلاّ على البشر إلاّ أنه يمكن نشر إحساننا وطيبتنا في دائرة تشمل المخلوقات التي لاعقل لها، وأعمال كهذه إنما تصدر من طبيعة رقيقة سمحاء مثلما ينبجس الماء من ينبوع ثرّ. ومما لا جدال فيه أن واجب ذي القلب الرقيق أن يحتفظ حتى بالخيول والكلاب الهرمة، وأن لا تكون عنايته بها قاصرة على وقت نفعها له، بل تمتد منذ أن تكون امهاراً وجراءً حتى تنفُق.

عندما بنى الأثينيون الهيكاتومبيدون Hecatompedon أطلقوا البغال التي قامت بأشقّ الأعمال فيه ترعى وتتواثب حُرّةً. وقالوا إن واحداً منها تقدّم من تلقاء نفسه يعرض خدمته فساير بل استبق أزواجاً منها كانت تجرّ عجلات صُعداً إلى الأكروپوليس كأنه يريد تشجيعها وتحميسها للجرّ بقوة. فصوّت الأثينيون على اقتراح يقضي أن يبقى هذا البغل متمتّعاً بحريته على نفقة الدولة حتى يفطس. وإن قبور خيول كيمون التي فازت في السباقات الأولمبية ثلاث مرات، ما زالت شاخصةً إلى يومنا هذا بالقرب من ضريحه. ودفن كزانيثپوس الشيخ كلبه الذي سبح خلف سفينته حتى سلاميس عند خروج الناس من اثينا، دفنه على قمّة جرفٍ ما زال يُسمّى «قبر الكلب»[٨] إلى يومنا هذا. وهناك كثير من الناس دفنوا كلابهم التي ربّوها.

ليس لنا أن نعامل المخلوقات الحيّة كما نعامل الأحذية والأواني القديمة فنلقي بها خارجاً عندما تبلى أو تنكسر لفرط الاستعمال. ومن الواجب على المرء أن يعوّد نفسه بادئ ذي بدء على هذا الميل إن لم يكن لغرضٍ ما سوى لدراسة العمل الإنساني

---

(٨) باللاتينية Cynos Sema.

وتطبيقه ليكتسب المرء طبعاً عطوفاً جذاباً. وأما عن نفسي فلن أقدِم قط على بيع الثور الذي يجرّ عربتي بسبب تقدّمه في السنّ، فما قولك باستبدال إنسان هرم بائس بقطعة نقد تافهة وطرده خارج موطنه وإبعاده عن المحل الذي عاش فيه طويلاً وحرمانه شكل الحياة الذي تعوّده ولاسيما عندما لا يكون فيه نفع للبائع أو للشاري. ومع هذا فإن كاتو كان رفيعاً عندما ترك حصانه رمز الانتصارات والمجد بعد أن ركبه في حروبه وفي فترة قنصليته، لئلا يُحمّل الخزينة العامة نفقات شحنه إلى روما! ولنترك لكلٍ رأيه الخاص في هل أن مثل هذه التصرفات تُعزى إلى عظمة نفسه أم إلى صغارها؟

أمّا عن خُلقه العموميّ وضبطه لنفسه فهو وأَيْمِ الحق يستحق أعظم الإعجاب. ففي أثناء ماكان قائداً للجيش لم يأخذ أكثر من ثلاثة بوشَلات من القمح شهرياً لنفسه ولمن هم في معيّته، وما لم يزد عن بوشل واحد ونصف بوشل من الشعير علفاً لدواب الحمل الخاصة به. ولما تولّى حكم سردينيا Sardinia كان الفرق الذي حققه في اقتصاده النفقات لا يصدّق. فقد اعتاد أسلافه الحكام أن يطلبوا من الخزينة العامة خياماً وأفرشة وثياباً ويتقاضوا من الدولة مبالغ طائلة للأرزاق والطعام لأفواج كبيرة من الخدم والحشم والأصدقاء. ولم يكن يُقدم على عمل مهما كان إذا كلّف بيت المال مبلغاً، فتراه يسير ماشياً على قدميه ولايستخدم وسيلة نقل عند زيارته المدن لا يصبحه في جولاته غير ضابط شرطة بلديّ، يحمل رداءً له وكأساً لتقديم القرابين. ومع أنه كان يبدو لمرؤوسيه وعمّاله متساهلاً زاهداً كان يظهر صرامة لاتلين وحزماً في كل ما يعود إلى عدالة الدولة. وكان متشدداً دقيقاً فيما يتعلق بقوانين الجمهورية. ولذلك لم يَبدُ الحكم الروماني أكثر مهابة ورهبة وأكثر تسامحاً وليناً مما بدا وقت إدارته شؤونه.

وكان في حديثه ما يحمل على الظن أنه يقصد به نوعاً من غايةٍ، فهو أنيس إلاّ أنه عنيف، شيّق لكنه مسيطر، هزليّ غير أنه صارمٌ، قويّ الحجّة إلاّ أنه حادّ؛ كسقراط حسب وصف أفلاطون: «يبدو لمن حوله ظاهرياً لا أكثر من شخص بسيطٍ فيه ثرثرة وعناد، أمّا في باطنه فهو رجل مفعم بالجد مكتنز المادة، يمكنه أن يفجّر الدمع من عيون مستميعه ويمسّ شِغاف قلوبهم». ولذلك فأنا لا أدري ما الذي حمل بعضهم على القول إن أسلوب كاتو يشبه كثيراً أسلوب ليسياس Lysias. وعلى أية حالٍ فلنترك الحكم في تلك الأمور للناس الأكثر وقوفاً وتمييزاً بين مختلف الأساليب الخطابية في اللغة اللاتينية. ولننتقل إلى إثبات بعض أقواله المأثورة، فرأينا - وهو ليس كما يظن البعض - أن أخلاق المرء تنضح من أقواله أكثر مما تنمّ عنها صورته بكثير.

أراد مرّة أن يحمل عامّة الرومان على العدول عن مطالبتهم العاجلة اللجوجة بالمال

وإلحاحهم بتوزيع القمح، فاستهلّ خطابه فيهم بقوله: «إنها لمهمّة شاقّة أيها المواطنون أن يتوجّه المرء بخطابه إلى البطون التي لا آذان لها!». وفي معرض تأنيبهم على إيغالهم في الأخذ بأسباب البذخ والترف قال لهم:

«من الصعب جداً المحافظة على كيان مدينة تباع سمكتها بثمن أعلى من ثمن ثورها». ومن أقواله المأثورة: «إن الشعب الروماني يشبه الأغنام الواحدة منها لا يسلس لها قياد، فإذا اجتمعت في قطيع لم تتردد في اتباع قائديها... كذلك أنتم، تسلسون قيادكم عندما تكونون كتلةً واحدة لأولئك الذين لا تفكرون في اتباع نُصحهم وأنتم أفراداً». وقال في حديث له عن سلطان النساء: «الرجال عادةً يقودون النساء، ونحن نقود كلّ الرجال، والنساء تقودنا». وهذا القول في الواقع مقتبس من تميستوكلس حين كان ابنه يشتطّ في طلباته العديدة عن طريق أمّه قال تميستوكلس:

«إن الأثينيين أيتها الزوج يحكمون اليونان، وأنا أحكم الأثينيين وأنت تحكمين، وابنك يحكمك. فدعيه إذن يقصد في استخدام سلطانه هذا ما دام قادراً - وهو في حالته هذه من السذاجة - على أن يفعل أكثر مما يستطيعه الإغريق مجتمعاً».

وله قول آخر وهو: «إن الرومان لم يقفوا عند حدّ تسعير كذا وكذا من الأصباغ الحمراء، بل سعّروا قيمة كذا وكذا من العادات والتقاليد... فكما أن الصبّاغين يصبغون غالباً الألوان الألطف والأقرب إلى الذوق، كذلك الشبّان فهم يثابرون على تعلّم ما هو أحبّ إلى نفوسكم، والتخلّق بما هو أقرب إلى ذوقها». وقال لهم مرّة على سبيل التأنيب: «عندما تُجلّون وتُعظّمون لفضائلكم وأدبكم، فاحذروا أن تتغيّر حالكم إلى الأسوأ، أما إذا كانت تلك العظمة متأتيةً من الرذيلة وسوء الخلق فعليكم أن تتغيّروا إلى الأحسن. فبهذه فقط تكونون عظماء حقاً بقدر ما تريدون».

ويقول أيضاً عن أولئك المتشبّثين بمناصبهم الكارهين تركها: «هؤلاء كما يبدو لا يعرفون الطريق ما داموا عاجزين عن السير بدون أدلاّئهم الذين يقودونهم فيها».

وعتِب على المواطنين لأنهم يعيدون انتخاب عين الرجال حكاماً فقال: «من هذا يبدو لي إما أنكم لا تضعون في الحكم قيمة كبيرة، وإمّا ترون أن اللائقين بالحكم قلّة ضئيلة».

وقال عن عدوّ له يحيا حياة العار والرذيلة: «إن دعاء أمّ هذا الرجل بأن تتركه وراءها في الحياة إنما هو لعنة له لا بركة». وقال مشيراً إلى رجل باع أرضاً تقع على ساحل البحر كان قد ورثها عن أبيه: «لقد كان عمله هذا مظهراً معبّراً عن دهشته من كونه أقوى من البحر نفسه، فما جرف البحر بكثير من الجهد والمشقة استنفده هو شرباً

بكثير من اليُسر». واستقبل مجلس الشيوخ الملك يومينيس Eumenes بكثير من الحفاوة والفخفخة عند زيارته روما وتنافس وجهاء المدينة ومبرّزوها على التقرب منه. وبدا كاتو ينظر إليه بريبة وحذر. وسمع أحد القريبين من الضيف يقول له متزلّفاً إن الملك طيب جداً كثير الحبّ للرومان. فعلّق كاتو على العبارة قائلاً: «قد يكون الأمر كذلك لكن هذا الملك الحيوان هو نوعٌ من أكلة لحوم البشر بطبعه»[٩].

وتلك حقيقة لا مراء فيها، فليس بين الملوك من يمكن مقارنته بإپامنونداس، أو پيركلس أو تميستوكلس أو مانيوس كيوريوس، أو هميلقار الملقّب بباركاس Barcas.

وكان يردد القول أن أعداءه يحقدون عليه لأنه يرى من واجبه أن ينهض مبكراً يومياً قبل بزوغ الشمس لينكبّ على تصريف شؤون البلاد مهملاً شؤونه الخاصّة. ويخبرك أيضاً أنه يفضّل أن يُحرم المكافأة عن عملٍ حسن يؤديه على أن يعاني عقوبة عن عمل سيّئ أتاه، وأنه لقادر على أن يصفح عن كلِ مذنب، إلاّ نفسه.

كان الرومان قد بعثوا بوفد إلى بيثينيا مؤلف من ثلاثةٍ، أوّلهم مصاب بداء النقرس، وثانيهم قد أُجريت في رأسه عملية قصّ عظام الجمجمة trepamed. والثالث لا يفضل المعتوه بكثير. فعقبّ كاتو على ذلك ضاحكاً: «إن الرومان أرسلوا وفداً بلا أقدام ولا رأس ولا قلب». وقوبل اقتراحه بخصوص المنفيين الأخائيين[١٠] بمعارضة سكيپيو بسبب پوليبيوس ونجم عن ذلك مناقشة طويلة حامية في مجلس الشيوخ بعضهم يحبّذ عودتهم، وبعضهم يحبّذ إبقاءهم فنهض كاتو واقفاً وأدلى ببيانه هذا:

> «أسنبقى هنا جالسين طوال اليوم وكأن لا عمل لنا إلاّ شحذ قرائحنا وكدُّ أدمغتنا لنقرر هل يجب أن يقوم الناس هنا بحمل هؤلاء اليونانيين الهرمين إلى قبورهم، أم النّاس في أخائيا؟».

وبعد أن فاز اقتراح عودتهم بالتصويت بدا بعد أيام قلائل وكأن أصدقاء پوليبيوس كانوا يريدون أن يتقدموا إلى المجلس باقتراح آخر لاعادة حقوق وامتيازات هؤلاء المنفيين التي كانت لهم في أخائيا، وأقبلوا على كاتو تحدوهم هذه الغاية لاستطلاع رأيه في الموضوع، فأجاب باسماً:

---

(٩) هذه المزحة مأخوذة من عبارة وردت في الإلياذة (١ : ٢٣١) «الملك الذي ينهش في الناس».

(١٠) كان الأخائيون قد دخلوا في مفاوضات مع ملك الفرس لتسليم بلادهم إليهم. إلاّ أن تدبيرهم انكشف فقُبض على ألفٍ منهم وأرغموا على العيش مبعدين في إيطاليا حيث مكثوا سبع عشرة سنة. ولما صدر مرسوم بإعادتهم (من مجلس الشيوخ بناء على اقتراح پوليپيوس أحدهم وتكريماً له) لم يكن قد تبقى منهم غير ثلاثمائة. [ليڤي ٣٩ : ٣].

«ما أشبه پوليبيوس بيوليسيوس. بعد أن نجا من عرين سيكلوپه Cyclope، كأنه يريد أن يعود إليه ثانيةً لأنه نسيَ قبّعته وحزامه هناك».

وتعوّد أن يردد أيضاً أن حكماء الناس يستفيدون من أغبيائهم أكثر مما يستفيد الأغبياء من الحكماء. لأن الحكماء يجتنبون أخطاء الأغبياء في حين يستنكف هؤلاء عن تقليد أعمال الحكماء الجيدة. وهو يقرّ أيضاً أنه أكثر ميلاً وانجذاباً إلى الشبّان الذين يحمرّون خجلاً ممن يصفرّون. وأنه لم يرغب قطّ في جنديّ يحرّك يديه كثيراً في أثناء السير ويحرّك قدميه كثيراً في أثناء القتال أو أن شخيره أعلى من صياحه. وسخر من رجل بدين بطين قائلاً: «ما الفائدة التي تجنيها الدولة من جسم رجلٍ استحوذ كرشه على كل ما بين لُهاته وحَقوَيه؟» ورغب شخص غارق في ملذاته وشهواته أن يتعرّف به فاعتذر منه بقوله إنه لا يعاشر رجلاً سقفُ حلقِه أكثر إحساساً من قلبه. ويقول أيضاً إن روح العاشق تحيا في جسم آخر. وإنه لم يأسف في حياته كلّها إلاّ على ثلاث: الأولى ائتمانه امرأة على سِرٍّ، والثانية سفره بحراً في حين كان يستطيع السفر برّاً، والثالثة قضاؤه يوماً كاملاً دون أن يكون لديه إرادة على القيام بعمل هام. وتوجّه بالقول إلى رجل شيخ أقدم على عملٍ دنيء:

«أيها الصديق، إن الشيخوخة نفسها فيها من العيوب ما يكفي، فلا تُضِف إليها عيب الرذيلة».

وخاطب تريبيوناً عُرف بأنه يدسّ السُّم للآخرين، حين زادت لجاجته واحتدم في أثناء تقديمه لائحةً يريد أن تسنّ قانوناً، صاح به قائلاً:

«رويدكَ أيها الشاب، فلست أدري أيهما أفضل، أشربي ما تخرجه يداك، أم تصديقي على لائحة تقدّمها؟».

وقدح فيه شخص يحيا حياة بذخٍ ودعارة فقال له:

«ليس ثمّ تكافؤ بينك وبيني. فأنت تُطيق سماع الكلام البذيء بسهولة، مثلما تلفظه. أما أنا فكرهي في لفظ مثله يعادل عدم اعتيادي سماعه».

ذلكم هو أسلوبه في التعبير عن أفكاره، تجده واضحاً في مأثور أقواله.

انتُخب قنصلاً مع صديقه وصفيّه ڤاليريوس فلاكّوس، ووقع من نصيبه حكم ذلك الجزء من إسبانيا الذي يطلق عليه الرومان صفة «الأدنى». وهنا بينما كان منشغلاً في إخضاع بعض القبائل بالقوة، وضمان ولاء الأخرى باللين والحسنى، بوغت بجيش جرّارٍ من البرابرة يهجم عليه، وبان ماثلاً خطرُ طرده من البلاد طردة غير مشرّفة. فطلب

من جيرانه الكلتيبيريين Caltiberians المعونة عليهم، فاشترطوا عليه أن يدفع لهم مائتي تالنت أجراً على المساعدة. فضجّ الكلّ واستنكروا نزول الرومان إلى مستوى وعد البرابرة بمكافأة على معونتهم. فردّ كاتو قائلاً: «ليس في هذا ضرر أو عار فإن نحن انتصرنا دفعنا لهم من جيب العدوّ، وإن حلّت بنا الهزيمة لا يبقى من يطالب بالمكافأة ولا من يدفعها». على أنه انتصر انتصاراً ساحقاً وربح المعركة، وبعدها حالفه الحظ وراح ينتقل من نصرٍ إلى نصرٍ. حتى قال پوليبيوس في غضون قيادته هناك: هُدِمت بيوم واحد أسوار كل المدن التي تقع على هذا الجانب من نهر بيتيس Baetis[(١١)]، وكان أغلبها آهلاً بأقوام محاربة. ويذكر كاتو بالذات أن عدد المدن الإسبانية التي استولى عليها يزيد على عدد الأيام التي قضاها هناك. وليس هذا القول مجرّد مبالغةٍ وتباهٍ إذا كانت الفترة التي قضاها تبلغ أربعمائة يوم[(١٢)]. ومع أن الجنود غنموا أسلاباً كثيرة جداً فقد وزّع على كل واحدٍ منهم باونداً واحداً من الفضة قائلاً: «إن عودة الكثرة من الرومان إلى بلادهم ومعهم فضة لهو خير من عودة قلّةٍ ومعهم ذهب». ويؤكد هو بالذات أنه لم يضع يده على شيء مما اغتنم غير ما أكله وشربه. ويستطرد قائلاً: «ليس لأني أعيب على أولئك الذين يريدون الإفادة من هذه الأسلاب، لكنيّ أفضّل منافسة أشجع الناس في شجاعتهم على منافسة أغنى الناس في ثرواتهم، أو أطمعهم في أموالهم». ولم تكن أنفته هذه قاصرة على نفسه بل تعدّتها إلى خاصّته وأقرب من في معيّته. وكان لديه خمسة من الخدم في الجيش، أحدهم پاكوس Paccus الذي ابتاع ثلاثة صبيان من الأسرى لنفسه وما إن أدرك أنّ سيده علم بالأمر حتى شنق نفسه خوفاً من مثوله أمامه. فباع كاتو الصبية وقيّد بدل بيعهم إيراداً للخزينة العامة.

كان سكيپيو الكبير عدوّاً له وكان يرغب في أن يضع أمامه العقبات وهو يُصرّف كل الأمور بنجاحٍ ودراية، فعمل على أن يتسلّم مقاليد الحكم في إسبانيا وأفلح في أن يكون خليفة له هناك: فأسرع إلى البلاد لينهي فترة حكم كاتو. فعاد هذا إلى الوطن بعسكر قافلةٍ يتألف من خمسة ألوية Cohort وخمسمائة خيّال. وهزم وهو في طريق العودة

---

(١١) كانت الرهبة من مجرد ذكر اسمه قد ضمنت له مهابة واحتراماً عظيماً في كل أقاليم ما وراء نهر ابرو (إيبروس). وكان قد كتب رسائل خاصة إلى عدد من قواد مدن محصّنة يأمرهم فيها بهدم حصونهم دون تأخير موكداً لهم أنه لن يعفو عن أي أحدٍ يتلكأ في تنفيذ أمره. فقام كل قائد بهدم أسوار مدينته وأبراجها معتقداً أن الأمر قد صدر له وحده [ليڤي ٣٤:١٥].

(١٢) هذا العدد هو أكثر اتساقاً وموافقة لقائمة بطليموس الذي حسب المدن وغيرها في إسبانيا القديمة بثلاثمائة وثمانين، في حين كانت مائة وأربعاً وثمانين بحساب (پليني).

اللاچيتان Lacetanious[١٣] وأخذ منهم ستمائة من الجنود الهاربين وأمر بقطع رؤوسهم جميعاً. ويظهر أن عمله هذا أسخط سكيپيو وكان موضع استنكاره. فعلّق كاتو (متظاهراً بالحطّ من نفسه على أسلوب السخر) بقوله:

«إن روما لتزداد عظمة عندما يأبى أرفع الرجال صيتاً وأعلاهم شرفاً النزول من مقام البطولة الأول للخاملين المغمورين، وعندما يقوم عامة الناس (وهو منهم) بمنافسة أشرف الناس وأعرقهم محتداً ومولداً، في ميادين البطولة».

وعندما صوّت مجلس الشيوخ على إقرار أعمال وإجراءات كاتو في إسبانيا وعدم إحداث أي تغيير فيها، تأثر حكم سكيپيو هناك؛ فلا هدف له ولا غاية، وإنما بطالة وكسلٌ، فانخفض رصيده أكثر من كاتو بكثير. وظل كاتو مع هذا متمسّكاً بأعنّة الفضيلة لا يرخي قبضته عنها كما قد يفعل كثيرون ممن لا يناضلون لأجل الفضائل بحد ذاتها، قدر ما يناضلون في سبيل المجد الزائل، أولئك الذين بلغوا أرفع المناصب كمنصب القنصلية، ومُنحوا شرف موكب النصر، تراهم يقضون بقيّة حياتهم في كسل وتعاطي مسرّات الحياة، ويبتعدون عن الحياة العامة وينفضون أيديهم من السياسة. لكنه وهو الذي منح شرف موكب النصر كان كمن دخل معترك الحياة السياسية لأول مرةٍ، متعطشاً للمجد والشهرة من معين منصب آخر فيبذل فيه أقصى مجهوداته كأنه في أول انطلاق له. وإلى جانب هذا فإنه ما انفكّ يبذل خدماته لمواطنيه وأصدقائه على الصعيد العام ولم يتخلّ لا عن مهنة المحاماة ولا عن الجندية.

رافق طيباريوس سميرونيوس معاوناً ورئيس أركان له عندما سار إلى ثساليا والدانوب[١٤]. وزامل مانيوس أچيليوس Manius Acilius بمنصب «تريبيون» في حربه مع أنطيوخوس الأكبر في بلاد اليونان. وكان أنطيوخوس قد اوقع رعباً في قلوب الرومان لم يوقعه بهم أحد غيره باستثناء هنيبعل. فقد أعاد السيطرة الأولى على آسيا كلها تقريباً وأخضعها لحكمه، أي كل ما كان تحت سيطرة سلوقوس نيقاطور Seleucus Nicator وأخضع أقواماً محاربة عديدة من البرابرة. حتى استبدّت به الرغبة في مقارعة الرومان كأنهم آخر من بقي جديراً بقتاله. ولهذا عبر من آسيا متذرّعاً بحجّة

---

(١٣) قبيلة قطالونية صغيرة تعيش بالقرب من سفوح جبال البرينيه.

(١٤) في السنة التي عقبت قنصليته. إن الامثلة على التواضع والتنازل عند القادة والقناصل لا تحصى في تاريخ الرومان. وفي اليونان نزل إپامنانداس بعد أن أشغل عدة مرات منصب (بيوتارخ) إلى قبول وظيفة شرطي صغيرة جداً، ونهض بأعباء وظيفته هذه بغيرة وجديّة تجلان عن الوصف.

ظاهرها مقبول هي تحرير اليونانيين. ولم يكن اليونانيون في الواقع بحاجة إلى تحرير، إذ لم يمرّ زمن طويل على تحررهم من ربقة الملك فيليب والمقدونيين، ونيلهم استقلالهم وممارستهم حقوقهم وتطبيق شرائعهم وفقاً لهواهم بفضل الرومان وسماحتهم(١٥). فغلت مراجل الثورة في اليونان كلّها وعمّت الفتنة وأفسدتهم الآمال التي بثّها في نفوسهم رؤساء المدن وزعماؤها بمساعدة الملك لهم. وتمكن تيطس فْلامنينوس Titus Flamninus (كما دوّنا في سيرته) من قمع كل محاولات المحرّضين على العصيان دون صعوبة تُذكر. وأخضع كاتو الكورنثيين من سكان پاتروي Patroe وأيجيوم Ægium وقضى ردحاً من الزمن في أثينا. وثمّ خطبة له قيل إن نصّها ما زال موجوداً كان قد ألقاها على الأثينيين باللغة الإغريقية، عبّر فيها عن إعجابه بفضائل الإغريقيين القدماء واحترامه لها، وبيّن أنه جاء وهو يطفح سروراً لمشاهدة جمال مدينتهم وعظمتها...

إلاّ أن هذا الخبر مختلَقٌ من أساسه. لأنه تكلم مع الأثينيين عن طريق مترجم لا لجهله اللغة اليونانية، بل لأنه كان يقصد إظهار اعتزازه بلغة بلاده، والاستخفاف بأولئك الذين لا يعجبهم شيء إلاّ إذا كان مكتوباً باليونانية. ومازح پرستيميوس ألبيتوس الذي كتب تأريخاً باللغة اليونانية وطلب لنفسه إعانةً على مجهوده هذا، قائلاً: «لا شكّ أنه يستأهل الإعانة لو أن تأليفه قد فُرض عليه فرضاً صريحاً بموجب مرسوم أمفكيتوني!».

ويقول كاتو إن الأثينيين أُعجبوا بسرعة كلامه وحماسته، لأن المترجم كان يتأخر كثيراً في ترجمة ما يقوله مع اختصار شديد، ويزعم أن كلمات الإغريق تخرج من شفاههم عموماً بينما تنبع كلمات الرومان من قلوبهم.

كان أنطيوخوس قد احتلّ بجيشه سائر الممرّات الضيّقة حول ثرموپيلي، ثم إنه أضاف متاريس وموانع جدارية إليه فزاد من مناعة الموقع الطبيعية وعسكر فيه متوهّماً أنه فعل كل ما يجب فعله لتحويل اتجاه الحرب عنه إذ كان الرومان والحق يقال قد بلغوا حَدَّ اليأس في إمكانهم اقتحام الممرّ. إلاّ أن كاتو راح يقلّب في ذهنه موضوع المسافة التي قطعها الفرس في الماضي والدورة التي قاموا بها للوصول إلى هذا الموقع بالذات. ثم تقدّم ليلاً بقسم من الجيش، وفيما هو يُصعّد المرتفع ضلَّ الدليل (وهو من الأسرى) سبيله وطفق يروح ويغدو على غير هدىً في ممرّات وشِعاب غير مطروقة شديدة

---

(١٥) أعلن تيطس كوينتكيتوس فلامينيوس استقلال اليونان في أثناء الألعاب الاستمية العام ١٩٦ ق.م.

الانحدار، فشاع الخوف في نفوس الجنود وخارت عزائمهم. وأحس كاتو بالخطر، فأصدر أمراً بالوقوف حيث هم وأخذ معه شخصاً يدعى لوچيوس مانليوس Lucius Manluis وهو خبيرٌ لا يشقّ له غبار في تسلّق الجبال، فتقدّما سويّاً بغاية الصعوبة، مستهدفَين لأعظم الخطر في ذلك الليل الحالك الذي خلا من ضوء القمر، يجوسان خلال شجر الزيتون الجبليّ والصخور الوعرة المتحدّرة الزلقة، لا تلتقي أبصارهما إلاّ بالظلام والمهاوي، حتى عثرا على شِعب صغير ظنّاه يؤدي بهما إلى الأسفل حيث يقوم معكسر الأعداء. وهنا وضعا بعض العلامات على عددٍ من[16] القمم البارزة التي تتوّج جُبيل كالليدرومون Calledromon. ثم كرّ كاتو راجعاً ليقود الجيش نحو الشِعْب الذي اكتشفاه مهتدياً بالعلامات حتى بلغوه فتوقفوا قليلاً. وما إن بدأوا السير حتى غابت آثار الشعب واختفت في منحدرٍ فضاقت بهم النفوس وركبهم خوف جديد، ولم يدركوا أنهم كانوا على مقربة من العدو. ثم أخذ الصبح ينشر قليلاً من الضياء، وترامت إلى أسماعهم اصواتٌ، ثم تبدّت لهم خنادق الإغريق وحرس المقدمة يحتلون أسفل الصخرة. هنا أوقف كاتو قواته، وأخبر جنود فيرموم[17] Firmum دون البقية بأنه يريد أن يكلمهم كلاماً خاصاً فقد عهدهم في الماضي مخلصين توّاقين إلى القتال في كل حين. فجاؤوا واتخذوا مواقعهم حوله في صفوفٍ متدانية، فوجّه إليهم الأمر التالي:

- إني لأرغب في اقتناص أسير واحدٍ من العدوّ لأستخلص منه بعض المعلومات عمن يقوم على حراسة الممرّ؛ كم هو عددهم وما هي خطتهم وبأيّ نظام واستعداد سيقابلوننا؟

ثم استطرد يقول:

- على أن عمليتنا الوشيكة يجب أن تمتاز بكثير من الخفّة والجرأة. علينا أن نهجم مثل هجمة الأسد وهو يثب على حيوان شديد الحذر والنفار.

وما إن أنهى قوله حتى انحدر الفيرميّون من أعالي الجبل وفاجأوا الحرس بغتةً وعلى غفلةٍ منهم فأوقعوا الهلع في نفوسهم وفرّقوهم أيادي سبأ، وأسروا واحداً منهم وجاؤوا به إلى كاتو فعلم منه أن بقية القوات معسكرة في مضيق، وهي ملتفة حول الملك، وأن الربايا في أعلى القمم هي نخبة من جنود الإيتوليين يبلغ عددهم ستمائة.

---

(١٦) الجبال الواقعة إلى شرق مضايق ثرموبيلي تسمّى (أوتا Œta وأعاليها يطلق عليها اسم كاليدروموس. وفي قدمة الجبال طريق عرضه ستون قدماً [ليڤي ٣٦: ١٥ وسترابو ٩].

(١٧) مستعمرة رومانية في پيكينه.

فاستهان كاتو بعددهم الضئيل، واعتمد على عامل المفاجأة، فانتضى سيفه وحذا جنوده حذوه وحملوا عليهم بين الصراخ ودويّ الأبواق. فما شاهدهم العدوّ ينحدرون عليه من القمم حتى ولّى الأدبار والتحق بالقسم الأكبر فأوقع الفوضى في صفوفهم وأخلّ بنظامهم. وعندما كان مانيوس زميله يقتحم الاستحكامات في الأسفل، ويدفع بزخم قواته خلال الممرّات الضيّقة، أصيب أنطيوخوس بحجرٍ حطّم أسنانه، ولم يتحمّل آلامه الشديدة، بل ألوى عنانه وهرب. ولم تصمد أي وحدة من جيشه أمام صولة الرومان بسبب وعورة المسالك وكثرة المستنقعات ذات الأغوار العميقة والمنحدرات الصخرية الحادة التي كانت تتلقّف في احشائها كل من تزلّ به القدم. كما أن الفارين أخذوا يتدافعون بالمناكب ويتزاحمون على تلك الممرات الضيقة فيُهلِك بعضهم بعضاً ناهيك بخوفهم من سيوف الرومان وضرباتهم القاصمة.

لم يكن كاتو كما هو معروف عنه يزهد في أي مديح يوجّه إليه، وندر أنه اقتصد أو أمسك عن التفاخر بعمل بطولي أو مأثرة حققها، إذ كان مؤمناً بأن حب المديح طبيعة ملازمة لجلائل الأعمال. لذلك كنت تراه بعد هذا النصر وقد تاه عجباً وانتفخ زهواً وذكر عن نفسه قائلاً إن من رآه في ذلك اليوم يطارد الأعداء ويصرعهم مستعدٌ للتأكيد بأن كاتو لم يكن مديناً لوطنه قدر ماكان وطنه مديناً له. ويضيف إلى قوله هذا أن مانيوس القنصل أقبل عليه رأساً وهو ثمِل بخمرة القتال، واحتضنه مدة طويلة حتى امتزج عرق جسميهما، ثم صاح قائلاً: إنه والشعب الروماني كافة لعاجزان عن مكافأته بما يعدل بطولاته!

وأُرسل إلى روما عقب المعركة ليكون الرسول الذي يحمل لها أنباء النصر، فواتته الريح وبلغت به برنديزيوم، ومنها وصل تارنتوم في يوم واحدٍ. وأنجز رحلة أمدها أربعة أيام أخرى ليصل روما ويتحفها بأولى أنباء النصر، فأفعم المدينة غبطة وملأها بقرابين الشكر وغرس في قلوب الشعب الإيمان بإمكانهم السيطرة على كل برّ أو بحر يريدون.

هذه على وجه التقريب كل أعمال كاتو العسكرية العظيمة. وبانتقالنا إلى ميدان السياسة والأعمال المدنيّة يطالعنا أولاً برأيه في واجب الدولة، فيقول إن من أهمّ واجباتها هو تعقُّب المجرمين ومحاكمتهم وإدانتهم. وقد ترافع بالذات ضدّ الكثيرين واتهّم كثيرين وساعد الآخرين على تهيئة أسباب اتهامهم، بل تمادى إلى حد دفع وتحريض بعضهم على الشكوى، كما دفع آل پتيلي Petilii إلى اتهام سكيپيو، غير أنه عجز عن تحطيمه، إذ وقف نُبل أسرته، وجبروت عقله الحقيقي، حائلاً دون ذلك، وأمكنه أن يطأ التهم التي وجّهت إليه بقدميه.

وأخيراً كّف كاتو عن التعرّض له. بيد أنه انحاز إلى صف متهمي أخيه لوشيوس ونجح في استصدار حكم بإدانته وفرض غرامة باهظة جداً يدفعها إلى الدولة، فعجز عن دفعها وكاد يزجّ به في السجن لو لم يتخلص من الغرامة بإلغاء الحكم عندما تدخل تريبيونات (مفوّضو) الشعب لصالحه، وبعد كثير من الضجة واللغط.

وقيل أيضاً إن كاتو لقي مرّةً في الساحة العامة شاباً تمكّن من فضح وهتك سُمعة عدوٍّ لأبيه المتوفى، فأقبل عليه مصافحاً وقال له: «هذا ما يجب أن نقدّمه قرباناً لموتانا، لا أن نُقدّم حُملاناً ومعِزاً بل دموع خصومهم، وأحكاماً بإداناتهم». بيد أنه لم يسلم هو من الاتهام أثناء ممارسته الشؤون العامة. ولو أن قدمه زلّت به أقل زلة وأعطى خصومه أصغر حجةٍ لاستُهدف لخطر تقديمه إلى القضاء. ويُروى أنه سَلِم من خمسين تهمة على أقل تقدير. أهمُّها وهي الأخيرة منها تهمة ألصقت به وهو في السادسة والثمانين من العمر، قال عنها قولته الشهيرة جداً: إنه لمن الصعب عليه وهو الذي عايش جيلاً من الناس أن يدافع عن نفسه الآن أمام جيلٍ آخر. ولم تكن هذه آخر وقفةٍ له أمام القضاء إذ تقدم بعدها بأربع سنين - وله من العمر تسعون عاماً[١٨] - باتهامٍ لسرڤيليوس غالبا Serviluis Galba، وعلى هذا نرى أن حياته العملية امتدت لتستغرقَ ثلاثة أجيال بشرية كاملة، مثل نسطور أن جاز لنا القول. فقد رأيناه يخوض في خصومات عديدة حول شؤون الدولة مع سكيپيو الأكبر، ووجدناه يواصلها مع سكيپيو الأصغر، الحفيد المتبنّى لأولهما، والابن الحقيقي لپاولوس الذي قهر پرسيوس والمقدونيين.

بعد مرور عشر سنين على تسنّم كاتو منصب القنصل، عاد يرشّح نفسه لوظيفة «الچنصور» وهو بمثابة نهاية التكريم وشرف الخدمة وأرفع منصب مدنيّ في الدولة إن صح القول، فمن بين السلطات الكثيرة التي أنيطت بصاحبه سلطة التحقيق في حياة كل إنسانٍ وسلوكه الشخصي. فقد كان الرومان يرون أنه لا يجمل بأن يترك الحبل على الغارب للمواطن، يتزوّج من يشاء ويربّي أطفاله وفق هواه، ويقيم المآدب ومجالس

(١٨) پلوتارخ لم يكن هنا دقيقاً ففي مبدأ السيرة يقول إن كاتو لم يكن يبلغ من العمر ١٧ عاماً عندما بدأت انتصارات هنيبعل تتوالى في إيطاليا ثم يعلمنا بالأخير أنه توفّي في بداية الحرب الفيونية الثالثة. على أن معركة كانّيّ حصلت في ٢١٥ ق.م. والحرب الفيونية الثالثة بدأت في ١٤٨ ق.م وعلى هذا الأساس لا يكون كاتو قد تجاوز الخامسة والثمانين عندما وافاه الأجل في العام ١٤٧ ق.م. وهذا ما يؤيّده شيشرون (الخطب ٢). انظر أيضاً پليني في تاريخه ٢٩: ١٠.

الراح كما يشتهي، إلاّ ويكون للدولة كلمة فيه، لأن مصلحتها تقضي بالتحقيق والتدقيق منه عن سلوكه وأخلاقه التي هي أسرع بالظهور في مثل هذه الأمور علناً وفي وضح النهار. ولهذا اختاروا اثنين من الباتريشيين، وواحداً من العامة، لوظيفة الرقابة والتقويم والعقاب، إن اشتطّ أحدٌ في حياة اللذة والتهتّك، أو حاد عن السلوك العام المعتاد في البلاد، ويطلق على القائم بأعباء الوظيفة اسم «چنصور». ولهم صلاحية مصادرة حصان من راكبه، وطرد أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ لا يعيش عيشة لائقة، أو يخرق حدود النظام العام. ومن واجباتهم أيضاً أن يحدّدوا ثروة المواطن، وأن يدوّنوا في سجلّ خاص صفة أخلاق المرء وزمن مولده، هذا إلى جانب صلاحيات أخرى كثيرة.

لذلك عارض نقباء الأشراف وزعماؤهم في ترشيح كاتو وأثاروا بدافع سخطهم طبقة الپاتريشيين الذين عدّوا رفع أشخاصٍ لا أصل نبيل يدعمهم إلى أعلى درجة من السلطة والتكريم بمثابة سُبةٍ وعارٍ لشرف الكل.

أمّا من كان يدرك شرّ أعماله، ومدى خرقه قوانين البلاد، وامتهانه مقدّساتها، فقد سرى الخوف في نفسه من صرامة الرجل الذي لاشكّ في أنه سيكون قاسياً غير مساوم. فقلّبوا الأمر من شتّى وجوهه واجتمعت كلمتهم على تقديم سبعة مرشحين ضدّه. فراحوا يغرون الشعب ويمنّونه بشتّى الوعود ويعلّلونه بأطيب الآمال حتى لكأن الشعب يريد حكماً متهاوناً سائباً يسرح فيه الأشرار ويمرحون. أما كاتو فناقضهم في الدعوة لنفسه، ولم يعد الشعب بتسامح أو ليونة، بل هدّد فاعلي الشر بسوء المصير علناً وأوضح نيّته بصراحة من منبر الخطابة، قائلاً إن المدينة بحاجةٍ إلى تطهير شاملٍ عام. وناشد حكمة الشعب وإدراكه بألاّ يختار الأرحم والأرقّ من الأطباء، بل أشدّهم صرامة وغلاظة، وإنه هو الطبيب المنشود من طبقة العامة، وڤاليريوس فلاكوس من طبقة الپاتريشيين، وإنه لمتأكد بأنهما سيقومان بعمل طيب معاً، وسيقطعان أوصال التهتك والترف وحرقها كما كانت نهاية أفعى الهيدرا hydra. وزاد قائلاً إن بقيّة المرشّحين لا ينشدون الفوز بالوظيفة بدافع حُسن القصد، فهم يخشون من سيمارس واجباتها وفقاً لقواعد الحق والعدل، كما هو واجب.

وكان الشعب الروماني شعباً عظيماً حقاً، جديراً بعظماء الرجال زعماء له وقادة، إذ لم يخشَ صرامة كاتو ولا قطوب وجهه وجهامته، وأبى انتخاب ذوي الوعود الخلاّبة والوجوه الصبوحة الباشة المستعدّين للقيام بكلّ شيء في سبيل فوزهم. وانتخبوه مع ڤاليريوس فلاكوس أي أنهم عملوا بنصيحته التي قدّمها لهم وهو مرشح، كأنما كان حائزاً سلطةً فعلية للأمر والنهي قبل انتخابه!

وكان من أوّل أعماله تعيين صديقه وزميله لوشيوس ڤاليريوس فلاكوس رئيساً لمجلس الشيوخ، وطرد عددٍ من الأعضاء بينهم لوشيوس كوينتوس الذي تولّى منصب القنصل قبل سبع سنين. وهو أخٌ لتيطس فلامنينيوس قاهر الملك فيليب وهذا بحد ذاته شرف يعلو شرف القنصلية. وكان سبب طرده من المجلس كما يلي: كان يرافق لوشيوس في سائر قياداته التي أوكلت له شابٌ غُرانِقٌ في مَيعة الصِّبا، وقد تعلّق به ومنحه سلطات هامة وجعل له مكانة عنده تزري بمكانة أعزّ أصدقائه وأدنى أقربائه. واتفق أن عُيّن (لوشيوس) حاكماً بصلاحية قنصل، في أحد الأقاليم الرومانية فلم يفارقه الشاب. ومرّة كانا في مجلس شراب فراح هذا يغرق لوشيوس كعادته بفيض من الملق والمداهنة بين الكأس والطاس. ومما قاله أنه شديد الحبّ له إلى حد أنه كان في روما عرضٌ للمصارعين «وأنا لم أشاهد عرضاً كهذا في حياتي وكنت عظيم الشوق لحضوره ورؤية رجلٍ يُقتل فيه، إلاّ أني تركت ذلك وخففت إليك بأسرع ما أمكنني». فأراد لوشيوس أن يعوّض له إيثاره وصدق عواطفه وقال مطيّباً خاطره: «لا عليك بهذا ولا تكتئبنّ فبإمكاني تدبير الأمر لك». وأمر أن يؤتى إلى المأدبة حالاً بأحد المحكومين بالموت مع جلاّدٍ وفأس. وسأل الشاب أيريد مشاهدة تنفيذ حكم الموت فأجاب الشاب «بلى». فأمر لوشيوس الجلاد بقطع رقبة المحكوم. ذكر هذه الحادثة عدة مؤرخين. وجعل شيشرون كاتو يرويها بلسانه، في كتابه الموسوم de Senectute. إلاّ أن ليڤي يزعم أن المحكوم كان جندياً غاليّاً هارباً من الخدمة، وأن لوشيوس هو الذي قتله بيده، ولم يمت بفأس الجلاّد. وهذا أيضاً ماورد في خطبة كاتو.

خلّف طرد لوشيوس من المجلس أثراً عميقاً في نفس أخيه فاستأنف القرار للجمعية العمومية. وطلب أن يتقدم كاتو من جمهور الشعب ليدلي بالأسباب التي حملته على إصدار قراره. ولما بدأ يروي حادث المأدبة عجّل لوشيوس[١٩] بإنكارها أصلاً، إلاّ أن كاتو تحدّاه بإجراء تحقيق رسميّ، فرفض وتراجع وبهذا عُدّ مستحقاً للطرد. ومَرَّ زمنٌ على ذلك وفي ذات يوم كان ثمّ عرضٌ في الملعب وشوهد لوشيوس يمرّ بالمقاعد التي اعتاد أن يحتلّها القناصل السابقون ويعبرها ليجلس في معقد بعيد فأثار بعمله هذا عاطفة الجماهير فراحت بكثير من الهتاف والضجة تطلب منه الدنو والجلوس في الصف الأمامي محاولةً جهد امكانها تصحيح واحصل، وازالة أثرة في نفسه.

---

(١٩) نرجّح وضع تيطس هنا بدلاً من لوشيوس. ذلك لما سبق أن ورد عن هذا الطّرد من رواية تكاد تكون مطابقة (سيرة فلامينينوس). انظر أيضاً ليڤي ٣٤:٤١.

وعمد كاتو ايضاً إلى طرد مانيليوس الذي كان الشائع أنه سيحتلّ منصب القنصلية في الدورة التالية، لأنه قبّل امرأته علناً وعلى مشهدٍ من ابنته. وقال كاتو معقّباً على العمل:

«وأما عن نفسي فإن زوجي لا تأتي إلى ذراعي إلاّ عندما ينطلق رعدٌ شديد، فيكون مِزاح جوپتر معي بإطلاقه رعوده، مدعاة سرورٍ ليَ!».

على أن معاملته للوشيوس الآخر الذي هو أخو سكيپيو، وأحدُ من مُنح موكب نصرٍ، أثارت السخط العام على كاتو، إذ صادر منه حصانه، وشاع أنه مافعل ذلك إلاّ بقصد إهانة سكيپيو أفريقانوس المتوفّى. على أن أشدّ الكره الذي ناله نجم عن حَدّه كثيراً من مظاهر البذخ والترف العام. فبعد أن فسد عامة الشباب بهذا الداء بدا من المستحيل أن يعالج الأمر معالجة مباشرة، ولذلك لجأ إلى حركة التفافٍ حوله، فأمر أن يُجرى تقدير ثياب الخروج، والحليّ النسائية، والأثاث البيتية التي تتجاوز قيمتها ألفاً وخمسمائة دراخما بعشرة أضعاف قيمتها الحقيقية، قاصداً رفع نسبة التخمين على هذا الملك لزيادة الضريبة عليه. كما أصدر مرسوماً يقضي بدفع ثلاثة «أسات» بالألف ضريبةً عن كل صنف من أصناف هذه الملكية، ليستثقل الناس هذا العبء الزائد من الضرائب، حين يجدون غيرهم ممن يملكون ثروات مساوية لهم معفوّين منها، وإن بدا مظهرهم أكثر فقراً وأقلّ غنى منهم، بينما هم يدفعون ثمن إسرافهم وبذخهم. ولهذا نجد أن الحنق على كاتو لم يكن قاصراً على دافعي ضريبة الترف، بل تعداهم إلى أولئك الذين أخفوا مظاهر ثروتهم وغناهم عن الأنظار تخلّصاً من الضريبة. فالناس بصورة عامة يعتبرون الأمر الذي يؤدي بالنتيجة إلى منعهم من عرض ثرواتهم ومظاهر غناهم مساوياً لمصادرتها وانتزاعها منهم، لأن دلائل الغنى وكثرة المال تُرى في الكماليّات أكثر مما ترى في ضروريات الحياة. وهذا في الواقع هو الذي أثار دهشة أرسطون Ariston الفيلسوف، أعني اعتبارنا أولئك الذين تكثر عندهم الكماليات أكثر رضىً وسعادة ممن حازوا الكثير من الضروري والمفيد. فقد طلب أحد أصدقائه من الثريَّ التسّالي سكوپاس Scopas أن يهديه شيئاً لا يحتاج إليه كثيراً، فأجابه الغنّي:

«الحقيقة هي أن هذه الأشياء التي لا أحتاج إليها ولا انتفع بها هي التي كونّت ثروتي وزادت في غناي.

وهكذا نجد أن الرغبة في الغنى لاتدفعها حاجة طبيعية فينا، وإنما تنشأ بالأحرى من حكم مبتذل شائع يكوّنه أناس آخرون.

ورغم هذا كلّه راح كاتو القليل الاكتراث بمنتقديه يزداد صرامة، فأمر بقطع أنابيب

اسالة الماء عن أولئك الذين كانوا يستحوذون بوساطتها على المياه العموميّة لإرواء حدائقهم ومنازلهم. وحكم بهدم كل البيوت التي برزت منها إلى الشوارع العامة شرفات ونتوءات. وأجرى تخفيضاً في أسعار التعهّدات المتعلّقة بالأشغال العمومية إلى أدنى حَدٍّ ممكن، بينما رفع تخميناتها لأجل جباية الضريبة إلى أعلى حَدٍّ. فنال كرهاً على كرهٍ. وعمد أشياع حزب تيطس فلامينيوس في مجلس الشيوخ إلى إلغاء كل التعهدات والاتفاقات التي عقدها كاتو في ترميم وصيانة المباني العامة وبيوت الدين بدعوى عدم فائدتها للجمهورية، ورفعوا أيضاً أشدّ تريبيونات الشعب جرأة إلى اتهامه، وغُرّم تالنتين اثنين. كذلك عارضوه معارضةً عنيفةً في قضية تشييده داراً للقضاء أو ما يدعى باسيليكا Basilica، أمر ببنائها على حساب بيت المال في الساحة العمومية بالقرب من قاعة المجلس، وسُمّيت «پورچيون» Porcion على اسمه. ومع هذا كلّه فإن الدلائل كلها تشير إلى أن الشعب كان راضياً بطريقة تصريفه شؤون وظيفته، وأنها - وهنا وجه الغرابة - وقعت موقعاً طيباً منه، إذ عملوا له تمثالاً نصبوه في معبد ربّة الصحّة، ونقشوا على قاعدته عبارة لم يأتوا فيها إلى ذكر قياداته العسكرية التي تولاها أثناء الحرب، ولا موكب نصره، وإنما قصروها على مايلي:

«كان هذا، (كاتو) الچنصور، الذي انتشل بإجراءاته الصالحة العادلة كيان الجمهوريّة الرومانية عندما كان يشير إلى الانحلال، ويغرق في حمأة الرذيلة».

قبل أن يُعطى هذا التكريم كان يضحك من أولئك الذين يحبّون هذه الأشياء قائلاً: «لا يدري هؤلاء أن زهوهم واعتزازهم مُنَصبٌّ على فنّ المثّالين والرسّامين. في حين أن خير صورة هي تلك التي يرسمها المواطنون لهم في صدورهم». ولمّا كان يدهشهم رفضه القاطع في أن يُنصب له تمثال، في حين كانت التماثيل تنصب لعامة الناس كان يقول لهم: «إن سؤالي لماذا لايقام لكَ تمثال؟ هو خير وأجدى من سؤالي لماذا يُقام لك تمثال؟». وبعبارة أخرى كان يكره أن يقبل المواطن النزيه بمدح أو ثناء يوجّه له إلا إذا قدّم الدليل الواقعي على نفعه للجمهورية. وهو يقول لنا: «ترى الواحد من أولئك الذين يرتكبون خطأ ما، أو يُعابون على عملٍ أتوه، يقول على سبيل الاعتذار: ما أنا بكاتو» ويقول أيضاً: «ما أصح ما يُنعَت الذين يقلّدون أعمالي تقليداً سيئاً بكاتو الأعسر!». وكان مجلس الشيوخ عندما تحزّب الأمور وتتأزّم يشخص إليه ببصره كما يشخص البحّارة إلى ربّان السفينة، وكثيراً ما كانوا يؤجّلون البتّ في الأمور الخطيرة جداً عندما يكون غائباً عن المجلس، وهذا ماشهد له الناس به. وكان نفوذه عظيماً في

المدينة وسُمعته عالية لسنّه وألمعيّه في الخطابة والأسلوب الذي اتخذه في العيش.

كذلك كان أباً صالحاً وزوجاً ممتازاً، بلغ الغاية في التدبير والاقتصاد. وسوف يكون حديثي في هذه الأمور مستفيضاً بعض الشيء بما هو أهل للثناء عليه منها بسبب اهتمامه الخاص بها وإن لم تكن من الأحداث الهامّة في حياته العامة: تزوّج امرأة كان شرفُ أصلِها يفوق غناها، فمن رأيه أن الثريّ والكريم النسب يكونان على درجة واحدةٍ من الأنفة والعجرفة إلاّ أن الثاني منها يميل إلى الحياء والخجل من الأمور الوضيعة، والزوج الأصيلة أكثر طاعة لزوجها في ما هو لائق حسن من الزوج الغنيةّ. وقال أيضاً إن البعل الذي يضرب زوجَه أو وُلْدَه إنما يعتدي على أقدس حُرمةٍ. وهو يعتبر الزوج الصالح أجدر بالثناء والتجِلّة من عضو مجلس الشيوخ البارز. وأكثر ما يعجبه في سقراط حياته القانعة الوادعة التي عاشها مع زوج سليطة وأولاد معتوهين.

وما إن ولِد ابنه حتى اتخذ له عادة التقرُّب من زوجه أثناء قيامها بغسله وإلباسه ثياب القماط، عندما لا يشغله عمل هامّ إلاّ ما يتعلق بشؤون الدولة. ولم تكتف بإرضاعه هي نفسها، وإنما كانت تُلقم ثديها لأطفال خدمها حتى تنشأ علاقة حبّ طبيعية فيهم لابنها برضعهم الحليب نفسه. ولماّ بلغ الصبيّ سنَّ التمييز اضطلع كاتو شخصياً بتعليمه القراءة مع وجود خادم يدعى خيلو Chilo عُرف بتضلّعه في النحو وكان يعلّم كثيراً من الصبية. بيد أنه لم يرَ من المناسب - على حدّ قوله - أن يؤنّب ابنَه عبدٌ أو يجرّ أذنه عند إهماله دروسه، كما أنه لم يكن يرضى لابنه أن يظلّ مديناً لخادمٍ بهذه المِنّة الكبرى، منةّ التعليم. فقام هو بتدريسه - كما قلنا - علوم النحو والقانون، وبتدريبه في ألعاب الرياضة (الجمناستيك). ولقّنه حذف الرمح وأصول القتال وهو مدرّع، وركوب الخيل، وأعطاه أيضاً دروساً في الملاكمة. ودرّبه على تحمّل الحرّ والبرد، والسّباحة في أقوى تيارٍ وأخطر الأنهار. كما ذكر أيضاً أنه كتب دروساً في التاريخ بأحرف كبيرة بخطّ يده ليعلّمه بها شيئاً عن أسلافه وشعبه، حتى لا يضطر إلى الخروج من البيت، وكان تحرّزه وحذره من لفظ أي شيء قبيح أمامه لا يقل عن تحرّزه من لفظه أمام عذارى الفستال المقدّسات. ولم يصحبه إلى الحمّام قطّ، وكان هذا ما جرى عليه العُرف عند الرومان. فترى الأختانَ يجتنبون الاستحمام مع حَمّيهم لئلا يرى أحدهم الآخر وهو عارٍ. لكن سرعان ما أخذوا عن الإغريق عادة خلع الثياب رجالاً أمام رجالٍ، ثم عادوا ليعلّموا الإغريق ذلك مع إضافة جنس النساء.

وهكذا صوّر كاتو ابنه وثقفه بالفضائل، كأنه أحد الأعمال التي تفرّغ إليها فأنجزها على أحسن ما يرام. ولم يجد عيباً في استيعابه وطاعته، على أنه تبيّن في جسمه رقةً

وفي تكوينه ضعفاً يعجزه عن تحمّل المشاقّ، فلم يصرّ على نمط صارمٍ له في الحياة. ومع هذا فقد ظهر أن رقّة جسمه تخفي شجاعةً نادرة في ميدان القتال. فقد أبدى في حرب پاولوس إميليوس وپرسيوس بطولةً فذّة، لمّا طار السيف من يده بضربةٍ، أو بالاخرى عندما أفلت من يده لعرقِها. فقد طار صوابه وركبه العناد فانثنى يستعين بأصدقائه ومن حوله لاسترداده وعاد إلى ميدان القتال وهو في طليعتهم وهجموا على العدوّ وقاتلوه قتالاً طويلاً حتى أجلوه عن الموقع، ووجدوا السيف بين كدس عظيم من السلاح وكوم من أجسام القتلى أصدقاءَ وأعداءً؛ فنال بذلك ثناءً عاطراً من جنراله پاولوس. ولدينا رسالة بعث بها كاتو إلى ابنه يمدح فيها مسعاه الشريف لاستعادة سيفه.

بعد ذلك تزوّج الابن تيرتيا Tertia بنت پاولوس وأخت سكيپيو، وكان قبوله ضمن أسرة باولوس يعود إلى سجاياه وحميد خصاله، قدر ما يعود إلى مكانة والده وفضائله. لذا فإن جهود كاتو في تهذيب ابنه لم تذهب جفاءً، بل أثمرت ما هو جدير بها من النتائج.

ابتاع كاتو عدداً ضخماً من العبيد أسرى الحرب، ولاسيما الشباب منهم، لأنه يسهل تقويمهم وتعليمهم كما تُدرَّب الأمهار والجِراء. ولم يدخل أحد من عبيده بيتاً آخر إلاّ إذا أرسله هو أو زوجه فإذا سئل أحدهم ماذا فعل كاتو أجاب إنه لا يدري، ولا يزيد على ذلك. ولم تكن ترى في بيته خادماً إلا وهو إما نائم أو منكبّ على عملٍ ما. ذلك لأن كاتو كان أكثر رضاء على المكثرين من النوم، فهم في عُرفه أليَنَ عريكةً وأطوع له من اليقظين، وأصلح لما يكلّفون به من أعمال بعد انتعاشهم بغفوة قصيرة. كذلك يرى أن السبب الأساس في الكسل وسوء السلوك هو انصرافهم إلى ملاهيهم وشهواتهم فوضع جُعْلاً محدّداً يدفعونه للجِماع وللوصال فيما بينهم، ولم يسمح بعلاقة جنسية لهم خارج البيت. ولم يكن كثير التدقيق والتشديد فيما يتعلق بمأكله أيام كان جندياً فقيراً، وظلّ يعتبر انتهار الخادم في أي شأن من شؤون البطون من السخافة والتفاهة بمكان، حتى أثرى وراح يقيم الولائم لأصدقائه وزملائه في الحكم، وبلغ من تشدّده فيها أنه كان بعد انتهاء العشاء يدخل على خدمه وبيده سوط جلدي يقنّع به المقصّر من خدم المائدة والمهمل في تقطيع اللحم. وكان يحرص أن يوجد خصام بين خدمه، فهو دائم الخوف والريبة من تفاهم يوحّدهم. فكان يجعل من خدّامه وعبيده قضاةً على أي زميل لهم ارتكب جُرماً يستحق عليه الموت. وينفّذ فيه حكمهم مهما كان. ودفعه ميله الشديد للربح إلى اعتبار الزراعة مدعاة للهو وهواية أكثر من كونها وسيلة للربح، وعمد إلى استغلال أمواله في مجالات مضمونة الربح خالية من

المخاطرة فابتاع بحيراتٍ، وحمامات حارة، وأراضي ملأى بالصلصال وقطع أراضٍ تدرّ أرباحاً بالمضاربة، ومراعي، وغابات، وكان يجني منها كسباً طائلاً، لا يستطيع جوپتر نفسه أن يصيبه منه بضررٍ كبير - على حَدّ قوله[٢٠]. وتعاطى الربّا أيضاً في عمليات البحر التي كانت تُعتبر من الأعمال الشائنة للغاية. وفرض على أولئك الذين أوكل إليهم استثمار أمواله في هذا المجال أن يتخذوا لأنفسهم شركاء، حتى أصبحوا خمسين، يملكون خمسين سفينة. وساهم هو بحصة عن طريق معتوقه كوينتو Quinto الذي ترتّب عليه في هذه الحالة أن يبحر مع هؤلاء القراصنة ويشرف على مصالحه عندهم، حتى لا يعود ثمّ خطر في خسارته كل ماله المستثمر، بل جزء صغير منه، يقابل ذلك توقع الربح الفاحش. وكان يقرض المال لمن يريد من عبيده ليبتاعوا به عبيداً صغار السنّ، فيهذّبونهم ويعلمونهم على نفقة سيدهم ثم يبيعونهم بربح في ختام السنة. وكان كاتو يتخيّر بعضهم لنفسه ويدفع بهم ثمناً يوازي الثمن الذي يدفعه الشارون الآخرون بدون نقصان. واهتم في أن يطبع ابنه على أخلاقه فكان يردد أمامه: أن إنقاص المرء ثروته ليس من شِيَم الرجال بل من شِيَم الأرامل. وخير دليل على حرص كاتو ونجله هو تصريحه الجريء عن نفسه حيث يقول إنه: «أدعى الناس إلى الإعجاب والاحترام، بل هو أقرب شبهاً للآلهة ما دام سيخلف أكثر مما تلقّى».

وكان شيخاً هِمّاً عندما قدِم إلى روما كل من قارنياديس Carneades الأكاديمي وديوجينس الرّواقي مندوبين عن أثينا[٢١]، لمهمة طلب إعفاء الأثينيين من عقوبة الغرامة المفروضة عليهم بمبلغ خمسمائة تالنت، في قضية مدنية رفعها ضدّهم الأوروپيون Oropians[٢٢]، وكان السيكيونيون Sicyonions فيها قضاةً. ولم يحضر الأثينيون فحوكموا غياباً. وما إن انتشر خبر قدومهما حتى تقاطر الشباب المثقف عليهما وقاموا بخدمتهما واستمعوا إلى أقوالهما بإعجاب. وجمعت مقدرة قارنياديس الفذّة وسحر خطابه وشهرته المساوية لكفاءته عدداً هائلاً من النُظّار المعجبين المشايعين ولم تلبث كالريح أن ملأت المدينة كلها بصداه. وتنوقل الحديث عن ذلك اليوناني الذي يفتن

---

(٢٠) أعني بإصابته بالآفات الطبيعية كالأمطار الغزيرة الزائدة عن الحدّ أو الزلازل أو الجفاف الخ. . .

(٢١) أوليوس (٧: ١٤) يذكر سفيراً ثالثاً معهم هو كريتولاؤس المشّاء [جماعة أرسطو الذين كانوا يلقبون بالمشائين].

(٢٢) كان الأثينيون قد نهبوا مدينة أوروپوس فشكا أهلها الأمر إلى المراجع فعهدت إلى السيكونيين أمر البت في النزاع. ولم يحضر الأثينيون للدفاع عن أنفسهم ففرضت عليهم غرامة قدرها خمسمائة تالنت [انظر ملحق ليڤي ٢٧: ٢٤ پاوسنياس ٧: ٢].

القلوب ويسلب العقول، ويبذّ الجميع في اجتذاب الناس، وأنّ افتتان الشباب به كان من أعجب الأمور فقد انصرفوا عن ملاهيهم وغواياتهم، وأخذوا يجرون وراء الفلاسفة كالمجانين. فأشاع غبطة عظيمة عند الرومان ولم يسعهم إلاّ أن يتطلعوا بكثير من الفرح إلى شبانهم وهم يقبلون بأذهان متفتحة مستوفزة على الآداب اليونانية ويختلفون إلى مجالس الحكماء.

وجد كاتو أن عاطفة جائحة تدفع المدينة إلى سحر اللفظ والكَلِم. وكان منذ البداية متطيّرًا من هذا الميل العام الفجائي، يخشى أن ينحرف الشبان عن سبيل اطّلاب المجد بالحرب والأعمال الصالحة وينجرف بتيار فصيح القول وبليغ الكلمات. وبلغ السيل الزُّبى عندما تقدم كايّوس أسيليوس Caius Acilius الشخصية البارزة متطوّعاً للترجمة لهما في مجلس الشيوخ عند أوّل مثول رسمي لهما أمامه. فتحرك كاتو للعمل على التخلص من هذين، متخذاً حجّةً عامةً بوجوب طرد كل الفلاسفة من المدينة. ونهض في مجلس الشيوخ يلوم الحكام على سماحهم ببقائهما في روما هذه المدة الطويلة، دون أن يتنبهوا إلى تأثيرهما على العامّة، ومقدرتهما على إقناع الشعب كلّه بما يريدانه. وطالب باتخاذ قرارٍ فوريّ حول طلبهما وإعادتهما إلى ديارهما ومدرستيهما ليخطبا في أبناء اليونان ويتركا شباب الرومان على طاعتهم لقوانينهم وحكامهم، تلك الطاعة التي لم يفكروا حتى الآن في التمرّد عليها. ولم يكن كاتو بعمله هذا مدفوعاً بأيّ حقدٍ أو بغضاء لقارنياديس كما خُيّل لبعض الناس، وإنما لأنه كان ينفر من، ويحتقر، كل أنواع الفلسفة. وهو لم يعكف على دراسة العلوم اليونانية لأجل المعرفة، وإنما لإظهار مقدرته على تناول كل شيء والفخر بتلك المقدرة ليس إلاّ. فكان يرى سقراط مثلاً: ثرثاراً كبيراً ومحرِّضاً على الفتنة، عمل جاهداً ليكون طاغيةً لبلاده، وليقضي على العُرف والتقاليد الضيّقة، فأغوى المواطنين، وحرفهم إلى أفكار مخالفة للنظام العام والقانون. كذلك سخر بمدرسة إيسوقراطس Isocrates قائلاً إن تلاميذ هذا الفيلسوف يشيخون قبل إكمال دراستهم عنده، حتى لكأنهم يريدون أن يستخدموا علمهم في العالم الآخر، بالترافع بالقضايا في محكمة مينوس Minos هناك. وأراد أن يبعد ابنه عن كل شيء يوناني ويخيفه منه. ونطق جازماً كما ينطق العرّاف الكاهن بنبوءة، وبلهجة لا تليق بمن هم في سِنّه:

«سيُقضى على الرومان قضاءً تاماً وتذهب ريحهم، ما إن تبدأ عدوى العلوم اليونانية تنتشر فيهم».

وأظهر الزمن عُقم هذه النبوءة وفسادها. ففي الواقع لم تبلغ روما أوج عظمتها إلاّ

عندما نهلت من علوم اليونان. هذا ولم يكن كرهه قاصراً على فلاسفة اليونان بل تعدّاه إلى أطبائهم. ولعلّه كان قد سمع بما رُوي عن أبقراط Hippocrates عندما أرسل ملك الفرس بطلبه ووعده بأجر يبلغ بضع تالنتات فرفض هذا قائلاً إنه لن يعالج البرابرة لأنهم أعداء بني قومه.

ولعلّه كان يعرف أن رفض أبقراط هذا صار بمثابة قَسَم عام يلتزم به كلّ أطبائهم إزاء الأعداء، ولذلك حَثَّ ابنه على الحذر منهم واجتنابهم. وكان هو قد ألّف كتيّباً في الوصفات الطبية، وعلاج المرضى من أهل بيته، ولم يصف فيه الصوم قط، وإنما كان يشير باقتصار مريضه إما على الخضار، وإما على تناول لحوم البط أو الحمام أو صغار الأرانب، قائلاً إن طعاماً كهذا مناسب للمرض لأنه سهل الهضم، إلاّ أنه يصيب متعاطيه بأحلام كثيرة! وادّعى أن تطبيقه هذه الحمية على أهل بيته تعدّى شفاءهم من أمراضهم إلى إبقائهم في حالة دائمة من الصحة والعافية[٢٣]. على أنه لم ينجُ من القِصاص لادّعائه هذا، فقد ماتت زوجه ولحق بها ابنه، وإن امتد عمره بعدهما قليلاً فلم يكن سببه نطس طبّه بل متانة تركيبه وقوة جسمه الطبيعية التي كفلت له الوصال الجنسيّ حتى آخر أيّامه. فقد تزوج بفتاة في مقتبل العمر بعد اجتيازه مرحلة الحب بمدى بعيد، متعلّلاً بالحجّة الآتية:

بعد أن ماتت زوجه، خطب لابنه بنت پاولوس إميليوس وأخت سكيپيو، ثم واصل فتاةً صغيرة السنّ كانت تراجعه في بيته سرّاً، وكان المنزل صغيراً تعيش فيه كنّته. ولم يبق سِرّه مكتوماً زمنا طويلاً، فبينا كانت هذه الفتاة تخرج يوماً، دون أن تلتزم سبيل التخفّي كما يجب، رآها ابنه فلم يقل شيئاً إلاّ أنه أظهر ما يدلّ على النفور، فأحسّ الأب الشيخ بذلك وأدرك أن ما يأتيه ليس بالأمر المستحبّ. وخرج دون أن ينطق بكلمة أو يظهر غضباً إلى السوق كعادته للاجتماع بأصحابه وعُشرائه. وتوجه بالحديث إلى سالوينوس Salonius أحد موظفيه وسأله بصوت مرتفع: «ألم يزوّج ابنته بعد؟» فأجابه: لا، وأضاف أنه لن يزوّجها قبل استشارته. فقال كاتو:

«لقد وقعت على خَتنٍ مناسب لك. إلا إذا رفضته لكِبَر سِنّه. لا عيب فيه إلاّ أنه هرِم جداً كما قلتُ».

---

(٢٣) لا شك أنه كان فاشلاً تماماً كطبيب فوصفاته الطبية التي يمكن أن يجدها الباحث في تضاعيف رسالته حول «في ريف» إمّا ساذجة للغاية، أو خطرة جداً. والصيام هو خير وصفاته جميعاً. أما أكل البط والحمام والأرانب فهو لا يندرج في قائمة الحِمية الخفيفة بل هو من الاكلات الثقيلة العسِرة الهضم ولذا تصيب آكليها بالكوابيس!

وافق سالونيوس على كلٍ، وطلب من كاتو أن يتابع مساعيه ويعطي البنت لمن يريد فهي خادمته المطيعة، وهي في حاجة إلى حمايته ورعايته. فانتقل كاتو بلا لفّ ودوران من التلميح إلى التصريح وقال إنه يريد بنته زوجاً له. ولا شكّ أن الدهشة عرت الرجل كما يُنتظر منه فقد توهّم أن كاتو أبعد الناس عن الزواج، قدر ما هو أبعدهم عن مصاهرته، وتوحيد أسرتيهما، وهو القنصل السابق الذي مُنِح شرف موكب النصر. ولكنه تبيّن الجدّ فيه فبادر إلى القبول مسروراً وقصدا الفوروم حالاً لإجراء مراسم العقد. وفيما هما في ذلك، جمع ابن كاتو بعض أصحابه وقصد معهم أباه وسأله: هل أن جلب زوج أبٍ إلى البيت كان بسبب خطأ ارتكبه بحقّه؟ فهتف كاتو قائلاً:

«لا لعَمْري يا بنيّ. فأنا راض عنك غاية الرضا، ولست أجد أية مذمّة لا فيك ولا فيمن يلوذ بك. وكل ما أرمي إليه من زواجي هو أن يكون لي أولاد كثيرون مثلك أتركهم لخدمة الجمهورية».

ويقولون إن بسستراتوس طاغية أثينا أجاب بالجواب عينه على سؤال مماثل من أبنائه الذين كانوا في عنفوان رجولتهم عندما بنى أبوهم بزوجه الثانية تيموناسّا Timonassa الأرغوسية التي ولدت له - على ما يذكرون - إيوفون Iophon وتسّالوس Thessalus.

وأنجبت له زوجه الجديدة ابنا لقّبه سالونيوس وهو لقبها. ثم توفّي ابنه البكر. وهو في منصب بريتور. وقد جاء ذكره مراراً فيما كتبه أبوه واصفاً إياه بالرجل الصالح. وقيل إنه احتمل مصابه فيه بصبر وضبط نفس مثل فيلسوف، ولم يؤثر في نشاطه ولم يعتر اهتمامه بشؤون الدولة إهمالٌ. ولم ينقلب شخصاً لا أبالياً في آخر عمره كما حصل للوشيوس لوكوللوس Lucius Lucullus وميتللوس بيوس Metellus Pius اللذين اعتبرا الشؤون العامة من قبيل الواجب المفروض، ما إن يُعفى منها المرء حتى يتركها إلى غير رجعة. كذلك لم يكن مثل سكيبيو أفريقانوس الذي نال الحقد من مجده، فدفعه إلى تطليق الحياة العامة، وتغيّر حاله وقضى بقية حياته عاطلاً لا يعمل شيئاً. لكنه كان كما قال أحدهم في وعظ أيونيسيوس: إن أفخم وأكرم نصب تذكاري يحصل عليه هو أن يموت وهو يعمل لمملكته. ولهذا وجد كاتو أن أكرم الشيخوخة وأجلّها هي أن ينفقها صاحبها في الشؤون العامة. على أنه كان يستجمّ وقت فراغه بمزاولة الفلاحة والكتابة. ولقد ألّف في الواقع كتباً وتواريخ متنوّعة[٢٤]. وكان في

(٢٤) إلى جانب ما يناهز مائة وخمسين خطبه تركها، ألّف رسالة في الانضباط العسكري، وكتباً في

شبابه منصرفاً إلى الزراعة بقصد الربح، واعتاد القول إن طريقيه في الحياة هما الزراعة واستثمار المال، أما الآن، بعد أن شاخ، فنجده يتخذ الأولى منهما منصرفاً لوقته وموضوعاً للدراسة، فتراه يؤلف كتاباً في شؤون الريف يعالج فيه مما يعالج كيفية صنع الكعك وطرائق حفظ الفاكهة[٢٥]. وهكذا كان كاتو يريد أن يبرز في شذوذه وتفرّده بتصرّفاتٍ وأعمال لا يشارك فيها غيره من البشر.

وأكثر من دعوات العشاء في بيته الريفيّ، فكان يستقبل يومياً أصدقاءه وجيرانه الأقربين ويقضي وقتاً مرحاً طيباً معهم، ولذلك كان مجلسه مثابةً لا لكبار السنّ بل للشباب أيضاً. فهو رجل جمع خبرات شتّى في أمور كثيرة، طويل الباع في كل حديث يستأهل السماع سواء في مجالات القول، أو ميادين العمل. واعتبر المائدة الحافلة بأطايب الطعام خير مناسبة لتوثيق عرى الصداقة، وبسط الحديث في تقريظ أعمال المواطنين الصلحاء والشجعان، والاقتضاب الشديد في الكلام عن التافهين والحقراء، لأنه لا يسمح أن يقال في مجلسه شيء في قدحهم أو مدحهم.

وينسب إليه بعض المؤرخين القضاء على قرطاجنّة، ويعدّه عملا آخر من أعماله العامة في الدولة. والحق يقال إن سكيبيو وجّه إليها الضربة القاصمة بإقدامه المعهود. لكنّ إضرام نار الحرب مجدداً كان قد اتخذ بمشورة وتحريض كاتو أساساً. وبالشكل التالي:

أُرسِل كاتو وسيطَ صلحٍ بين القرطاجنيين وملك النوميديين ماسينيسّا Masinissa ليتعرّف على أسباب نزاعهما واحترابهما. وكان ملك النوميديين على ما يبدو صديقاً للرومان منذ البداية. وكان الخصمان قد دخلا الاتحاد الروماني بعد أن تغلّب عليهما سكيبيو وجرّدهما من قواهما بانتزاعه أراضيهما وفرض غرامة باهظة جداً عليهما[٢٦]. إلاّ أن كاتو وجد قرطاجنة بحال تختلف تماماً عمّا يظنّه الرومان. لم يجدها مهيضة الجناح سيئة الحال، بل زاهرة عامرة متخمة بالمال والغنى مكتنزة لكلّ أنواع السلاح

= الآثار، منها اثنان في نشوء وبناء المدن الايطالية. وثمّ كتبٌ خمسة أخرى منها عن تاريخ الرومان، وبالأخص وقائع الحربين الفيونية الأولى والثانية.

(٢٥) De Re Rustica وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا كاملاً دون أن يُفقد منه شيء. ومن بين المواضيع «الغريبة الخاصة» التي عالجها موضوع «كيفية تسمين الاوزّ والدجاج والحمام الخ.».

(٢٦) في العام ٢٠١ ق.م أرغم سكيبيو أفريقانوس القرطاجنيين عند نهاية الحرب الفيونية الثانية على تسليم أسطولهم للرومان واقتطاع الجزء الماسيني من أقاليم سيفاكس وضمّه إلى الإمبراطورية الرومانية ويدفع عشرة آلاف تالنت للخزانة العامة.

والذخيرة. كما وجد القرطاجنيين أبعد الناس عن المسكنة أو الذلّة، وإنما يبدون العجرفة والغطرسة التي تليق بالمنتصر لا بالمغلوب. فأدرك حالاً أن الظرف ليس ظرف إصلاح الرومان خلافاً بين فريقين مختصمين، وأن الموضوع هو الخطر الذي يحيق بالرومان من تزايد قوة القرطاجنيين، والبحث عن الوسائل الكفيلة بوضع حَدّ لنموّ وتعاظم شوكة عدوّة روما اللدودة التقليدية. فعاد مسرعاً إلى بلده وأبلغ مجلس الشيوخ بصراحةٍ أن الهزائم والضربات السابقة التي أُنزلت بالقرطاجنيين لم تضعف قواهم كثيراً كما لم تقلل من عنجهيّتهم ونزقهم، وأنهم لم يزدادوا ضعفاً كما توهّموا بل ازدادوا خبرة في الحرب. وما قتالهم مع النوميديين إلاّ مناوشة يقصدون منها التمرّن والتدرّب لقتال الرومان، وأن الصلح والاتحاد الذي عقدوه مع الرومان هو في الحقيقة أشبه بهدنة حربية مؤقتة تنتظر الفرصة المواتية للنقض وبدء الحرب.

ويذكر هو بالذات أنه عمد بعد ختام أقواله إلى نفضِ عباءته ليتساقط منها أمام المجلس بعض التين الأفريقي، فأخذ الأعضاء يبدون دهشتهم من جمالها وحجمها، فاستطرد يقول: «إن البلاد التي تنمو فيها هذه التينات لا تبعد عن روما أكثر من ثلاثة أيام بطريق البحر». ولم يُدلِ برأيه بعد ختام بيانه، ولكنه نطق عند أخذ الآراء بالعبارة التالية:

«وأنا ايضاً أرى أن قرطاجنة يجب أن يُقضى عليها قضاءً تاماً»(٢٧).

إلاّ أن پوبليوس سكيپيو ناسيكا ظلّ يتمسّك بخلاف هذا الرأي وأدلى برأيه في الصيغة الآتية:

«يبدو لي أن بقاء قرطاجنة ضرورة لا بدّ منها».

وكان يدفعه إلى هذا الرأي تفشّي اللامبالاة في نفوس بني قومه وازدياد صفاقتهم واستهتارهم بالحكومة، واستهانتهم بمجلس الشيوخ وعصيانهم أوامر الزعماء. وجعلهم الاستقرار والرخاء لا يُسلس لهم قياد، يجرّون المدينة كلها خلفهم متى شاؤوا. فكان يرمي باقتراحه إلى أن يظلّ الخوف من قرطاجنة في قلوبهم، لتكون الجماهير أسلس قياداً وأسرع إلى الطاعة. كما كان يرى القرطاجنيين أضعف من مقارعة الرومان وأكبر من أن يستهين الرومان بهم. أمّا كاتو فيعلّل رأيه بأن الخطر كل الخطر هو بقاء قرطاجنة ساكنة مترقّبةً هفوة يأتيها الشعب الروماني لتنال منه مآربها، وأنه لا يجمل بروما التي كانت عظيمة دائماً، وآضت الآن تحفل بالحكمة والتجارب مما أصابها من النكبات، أن

---

(٢٧) ومن هنا جاء المثل اللاتيني Delenda est Curthage.

ينسيها انغماسها في الملذات الخطر الذي تتعرّض له، وأن أفضل السبل هو إزالة هذا الخطر الآن قبل أن يستفحل ويُخرج شِطْء أخطار أخرى كثيرة.

بهذا أثار كاتو على ما يقال الحرب الثالثة والأخيرة على قرطاجنة، والمعروف أنه توفّي حال نشوبها متنبّئاً باسم الشخص الذي قُدّر له أن يختتمها. وكان في ذلك الحين شاباً غُرانِقاً بوظيفة «تريبيون» عسكريّ، يبدي ضروباً فذّة من البسالة والحنكة، وقد ذكر نبوءة لكاتو في روما قبيل موته فنطق بهذا:

«هو الرجل الحكيم الأوحد بين الجميع.

أمّا الآخرون فقد فرّوا وانهزموا كما تنهزم الظِلال!»[٢٨].

نبوءة حققهّا سكيپيو بأعماله البطولية بعد قليل.

لم يترك كاتو ذُرّية غير ابنه من زوجه الثانية، وقد أطلق عليه كما أسلفنا كاتو سالونيوس، كذلك ترك حفيداً لابنه البكر. ومات كاتو سالونيوس وهو في منصب «بريتور»، إلاّ أن ابنه ماركوس صار قنصلاً فيما بعد، وهو جد كاتو[٢٩] الفيلسوف الذي كان من أبرز شخصيات عصره في مجال الفضيلة والشهرة.

---

(٢٨) هذان البيتان لهوميروس [الاورديس ١٠:٤٩٥] عزاه إلى تيريسيوس كميركي أو ليسيوس بزيارة الأشباح.

(٢٩) الشجرة هي كالآتي:

١- كاتو الجنسور. ٢- كاتوسلوانيوس [من زواجه الثاني]. ٣- ماركوس كاتو (القنصل). ٤- كاتو الأوتيكي الفيلسوف.

أوجُه المقارنة بين أريستيدس وماركوس كاتو

بعد أن نوّهنا بأهمّ ما قام به هذان الرجلان العظيمان من أعمال جئنا الآن لمقارنة مجموع حياة أولهما بمجموع حياة الثاني، ولمّا سهُل علينا التوصّل إلى أوجُه الخلاف بينهما لأنها تضيع في عدد كبير من الوقائع التي يتشابهان فيها. وإن نحن أنعمنا النظر في التفاصيل وأكثرنا التدقيق مثلما نفعل بمقطوعة شعرية أو صورة لوجدنا أنهما يتحدان في وصولهما إلى ذروة المجد والرفعة في الجمهورية بفضل أخلاقهما ومجهوداتهما ليس غير. ويبدو أن نبوغ أريستيدس حصل في وقت لم تكن أثينا قد بلغت بعد أوج عظمتها وغناها. وكان كبار الحكام وقادة الجيش في عصره ذوي يسارٍ معتدل وثروات متقاربة، وكانت قيمة أعظم عقارٍ لفرد من هذه الطبقة تقدّر بخمسمائة ميديمْن Medimn، كما قُدّرت ثروة فرد الطبقة الثانية أي الفرسان بثلاثمائة، وقُدّر لفرد الطبقة الثالثة أو زبوغيتوي Zeugitoe مائتان. ولكن كاتو قفز من قرية صغيرة في أعماق الريف إلى حاضرة الجمهورية، أو بالأحرى إلى البحر الأوقيانوس. في ذلك الزمن لم يكن يوجد حكام من أمثال آل كوريي Curii وفابريجي Fabricii وهوستيلي Hostilii، ولم يكن الكادحون الفقراء قد نبذوا المحراث والفأس إلى مناصب الحكم والقضاء، وكانت الثروة وشرف النسب، وكثرة الهدايا، وتفريق المال والتشبّثات الشخصية هي عماد النجاح في المدينة. أمّا أولئك الطامحون إلى الرقيّ والشهرة فكانت محاولاتهم تُقمع بيد باطشة، ويهانون ويحقّرون. ولم يكن حدثاً خطيراً أن ينافس تميستوكلس شخصٌ وضيع النسب قليل اليسار (وتميستوكلس نفسه لم يملك أكثر من أربعة أو خمسة تالنتات عند دخوله معترك السياسة كما يقال)، مثلما كانت منافستك لشخصٍ مثل سكيبيو أفريقانوس وسرڤيليوس غالبا وكوينتيوس فلامنينوس ولا سلاح لديك غير لسانك الذرِب في قول الحق.

إلى جانب هذا، كان أريستيدس في ماراثون ثم پلاطيا قائداً من مجموع عشرةٍ من القادة. أما كاتو فقد انتُخب قنصلاً مع زميل واحدٍ، من دون منافسين كثيرين له. كما

فُضّل على سبعة مرشحين لوظيفة «الجنصور»، وهم من أبرز القوم وسراتهم، مع زميل واحدٍ أيضاً. على أن أريستيدس لم يكن الرجل المتفردَ بأية مأثرة سعى فيها. فمجد يوم ماراثون عُزي إلى ملتياديس ومأثرة سلاميس تقلّدها تميستوكلس، وخُصّ پاوسانياس بشرف ذلك النصر المؤزّر على الفُرس كما يحدّثنا به هيرودوتس.

إن رجالاً من أمثال سوفانيس Sophanes وأمينياس Aminias وكالليماخوس Callimachus وسينيگيروس Cynaegyrus أظهروا من حُسن البلاء في كل المعارك ما رفعهم إلى مرتبة أريستيدس في منافسته حتى على المحلّ الثاني. أمّا كاتو فقد سلم له مقام الشجاعة والحنكة الأول في حرب إسبانيا وهو قنصل. كما استأثر بشرف النصر في ثرومپيلي وهو «تريبيون» تحت إمرة قائد، لأنه فتح ثُغرة واسعة للجيش الروماني في استحكامات العدوّ وأتاح له الإيقاع بأنطيوخوس، ولأنه حمل الحرب كلها على ظهره، في حين وجّه اهتمامه بما هو قدّامه. وهذا النصر الذي كان من عمل كاتو بلا مماراة، أجلى الإغريق عن آسيا، ووطّأ السبيل فيما بعد للتوغّل الروماني فيها. وكلاهما لم يخطئه النصر من أية حرب خاضها. إلا أن أريستيدس كبا به حظه في بلاده فنُفي واضطهد بمساعي حزب تميستوكلس. أما كاتو فقد بقي ثابتاً راسخ القدم، رغم تألُّب كل أشراف روما والمتنفّذين تقريباً عليه حتى شيخوخته، وكذلك كان طرفاً في عدّة دعاوى قضائية مدّعياً أو مدّعى عليه، وفاز بأغلب الأولى، وخرج من سائر الثانية بريئاً. والفضل لبقائه سليماً لا ينوشه أذى طوال حياته يعود بلا شك إلى تلك الأداة الباطِشة المحكّمة وهي البلاغة، وحُسن البيان. ولقد كان أنتيباطر مصيباً حين خصّ أرسطو الفيلسوف بأرفع الثناء إذ كتب عنه بعد وفاته: «في مقدّمة مواهبه العظيمة تلك المقدرة على إقناع الناس بأي طريق شاء».

ولا جدال في أن السياسة (پوليطيقا) هي أوفى وأكمل نعمةٍ يُحبى بها الإنسان، وناحية «الاقتصاد» والتدبير منها قد تكون أجلّ النواحي الأخرى. وأي مدينةٍ من المدن تتألف بطبيعة الحال من بيوتٍ ومجموعة أُسر خاصة، فهي لا تنمو ولا تغدو جمهوريةً مستقلّة بشؤونها إلاّ بمجهودات المواطنين فيها، وبازدهار أحوالهم ورخاء عيشهم. وليكورغوس نفسه الذي منع التعامل بالذهب والفضة في سپارطه، وجعل خبث الحديد العملة النقدية الوحيدة المشروعة، لم يمنع بهذا الإجراء أو غيره اهتمام المواطنين بتدبير امورهم المنزلية الخاصّة، بل كان هدفه القضاء على الترف والإسراف وهما من آفات الغنى ومظاهر فساده ليس إلاّ، لأنه من الجهة الأخرى اهتمّ بحشد الكثير من الحاجات الضرورية والمفيدة للناس في المدينة وبزّ غيره من المشترعين في ذلك. ولم تكن

رعايته للغنيّ الرفيع القدر مثل رعايته واهتمامه بالفقير والمحتاج والمعدم. وكان كاتو في هذا الباب مُجلّياً كما كان في الشؤون العامة. فقد زاد في أمواله وأتربَ. وصار أستاذاً ومعلما للآخرين في الزراعة والاقتصاد. وجمع في كتاباته عدة مواضيع وملاحظات مفيدة من هذه الجهة. أما أريستيدس فكان بعكس ذلك. لقد جعل عدالته كريهةً وبدت كأنها عامل تدمير وإفقار لأسرته. كانت عدالته نعمةً للجميع باستثنائه هو، مصدرها وواليها. على أن هيسيود يحثّنا من جهة أخرى على الالتزام بالحق في معاملاتنا والاهتمام بشؤون بيوتنا، ويهاجم الكسل والتواكل هجوماً عنيفاً ويقول إنه أصل المظالم(٣٠). ولله درّ هوميروس القائل:

«لم يكن العمل عزيزاً عليّ، ولا تدبير المنزل بالذي يهمني وإن كانت المجهودات فيه تزيد من غنى أسرتي - إن لذّتي وسعادتي في سفينةٍ كاملة العُدّة، وفي الحروب، ورماح الطِعان وسهام القتال».

يريد أن يبيّن أن الأشخاص المقصودين في أبياته يهملون واجبات بيوتهم ولا يعبأون بعقاراتهم ويعيشون على سلب الآخرين وظلمهم. يقول الأطباء عن الزيت إن وضعه على الجلد مفيد للغاية، وشربه مضرّ، وهكذا يكون أثر عمل الرجل العادل إذ يُهمل شأنه ويهتم بشأن الآخرين. ونرى أن خُلق أريستيدس السياسي يشوبه نقص من هذه الجهة، فقد أجمع معظم المؤرّخين على أنه لم يهتمّ بأن يخلّف لابنتيه مهراً أو يدّخر ما يكفي لسدّ مصاريف دفنه. في حين نبغ من أسرة كاتو شيوخ وقادة عديدون حتى الجيل الرابع منها. وكان أحفاده وأولاد أحفاده من فرسان السياسة المجلّين. أما أريستيدس رجل اليونان الأول فقد ألجأ فقره أعضاء أسرته إلى كسب قوتهم بالشعبذة والتدجيل، وبعضهم اضطرتهم الحاجة إلى التسوّل ومدّ الكفّ في المحلاّت العامّة، إذ لم يترك ربّهم لهم تلك الوسيلة التي توطّئ لهم مزاولة العمل الشريف الجدير بذكراه.

مع هذا كله فلماذا تؤول نتيجة الفقر إلى هذا؟ ما دام لا يعتبر عيباً أو منقصةً بحد ذاته، إلاّ إذا كان نتيجة الكسل وعُقبى السفاهة واللامبالاة والتمادي في الشهوات؟ إنك لتجده في الضعيف المثابر والعادل الشجاع الذي يوقف سجاياه الفاضلة على المصلحة العامة، أشبه بالتاج الذي يزيّن مفرق ذي العقلية السامية. لأن الذي يهتمّ بصغائر الأمور، لايجد له متسعاً من الوقت للاهتمام بعظائم الأمور. ومن لم يكن ذا حاجات كثيرة لا قِبل له بالنظر في حاجات الآخرين. وما يعين المرء على خدمة شعبه وبني

---

(٣٠) يشير بلوتارخ هنا إلى بيت لهذا الشاعر كان قد تمثّل به قبلاً في مُفتتح روايته لسيرة صولون.

قومه ليس الغنى بل القناعة والاستقلال في الأمور، ولأن هاتين الخصلتين لا تتطلّبان مظاهر ترف وكماليّات في المنزل الأصغر - وهو نواة مجتمع المدينة - فإنهما لا تصرفان الذهن عن العمل في حقل المصلحة العامة. إن الله وحده هو المعصوم عن الحاجة وهو المكتفي لاغيره، وإن ذا الحَوْل المطلق والقداسة ليس له حاجة بالفضائل البشرية كالجسم المتين النامي فإنه لا يتطلّب صنفاً فاخراً من الطعام أو الثياب. وكذلك الرجل الصحيح بدناً، والبيت القويم الصالح فإنهما لا يحتاجان إلى الكثير. ومن يجمع المال الكثير ولا يفيد إلاّ من قليله لايُعدّ إنساناً مستقلاً بأمره. فإن لم يكن المرء بحاجة إلى أشياء معيّنة فمن الحُمق أن يسعى جاهداً في سبيلها لأنه لا يريدها. وإذا كان يريدها وقمع في نفسه متعته فيها لوضاعته ودناءته وجشعه فإنه شقيّ بائس. وإذا كنا ننشد الغنى لأجل الاستمتاع به، فإني لأودّ معرفة ما دفع كاتو إلى الفخر بربح المال الكثير وقناعته منه بالقليل؟ وإن كان من دواعي النبل والشرف أن يعتاش على خبز النخالة وشرب الخمر الرخيصة التي يشربها أقنان الأرض ويزهد في لبس الأرجوان، والمنازل المُسيَّعة بالجصّ، فلا أريستيدس ولا إپامنناداس ولا مانيوس كيوريوس ولا كايوس فابريشيوس كانوا بحاجةٍ إلى ضروريات الحياة، كذلك لم يعمدوا إلى السعي وراء الكماليات التي كانوا يترفّعون عنها. وليس ما يزيّن الإنسان ويُجديه أن يباهي بالدرهمين والثلاثة في كل مناسبة عندما يعتبر اللّفت الذي يسلقه بيده ألذّ طعام، وعندما تقوم زوجه بخبز الخبز، ولا يرتفع قدره بتأليف كتابٍ في أسرع السبل المؤدية للغنى.

إن وجه الصلاح هو في القناعة بالقليل. فهذا الكفاف من شأنه أن يقضي في الحال على رغبة المرء في الكماليات، وحنانه إليها. ولذلك قال أريستيدس في محاكمة كاللّياس على ما وردنا: إن الخجل من الفقر وقفٌ على من كان فقيراً خلافاً لرغبته أما الذين أحبوّا الفقر فقد جعلوه مدعاة فخرٍ لهم.

ومن السخف حقاً أن نظنّ أن فقر أريستيدس كان متأتّياً من كسله، فما كان أهون عليه وأسهل أن يثري ويوسر بأسلاب بربريّ واحد، أو الاستيلاء على خيمةٍ من خيم العدوّ. ولكن فلنكتف بهذا ولنقفل الموضوع.

لم تُضِف حملات كاتو العسكرية إلى رقعة الإمبراطورية الرومانية شيئاً كثيراً، لأنها كانت قد بلغت أوج اتساعها قبله ولم يبق لمستزيد زيادة. إلاّ أن حملات أريستيدس كانت أشرف قصداً وأبعد منها أثراً بكثير، مثلما كانت أعماله المدنية أسمى وأروع ما سطّره شعب اليونان في تاريخه. فهذه معارك ماراثون وسلاميس وپلاطيا شاهد. كذلك نحن لا نستطيع مضاهاة حروب أنطوخيوس أو هدم أسوار المدن الإسبانية بحروب

أحشويرش (أخشيرش) الطاحنة وإبادة عشرات الألوف من جنوده في البّر والبحر. لم يتفوّق على أريستيدس أحد من الكُماة في كل هذه المواقع، وإن زَهِدَ في المجد وأكاليل الغار كما زهد في المال والغنى وتركها إلى من هم في لهفة إليها، فقد كان أرفع وأسمى من كل هذه الأمور. وإني لا ألوم كاتو لتمجيد نفسه بلا حساب أو انقطاع ولا لرفع نفسه فوق الجميع، وهو القائل في إحدى خطبه: من السخافة أن يمدح المرء نفسه أو يقدح فيها. بيد أن ذاك الذي كان يكره أن يمدحه الآخرون يبدو لي أعلى خُلقاً وأرفع منزلة ممن لا ينفك يعظّم نفسه. إن الفكر الذي حقق التحرر من قيْد الطموح هو العون الرئيس للمرونة السياسية والدهاء السياسيّ، وإذا استولى الطموح على الفكر غلّظ القلوب وسعّر أعظم نيران الحقد والاضطِغان على الطُمّاح. وقد خلص أريستيدس من هذا خلاصاً تاماً، بينما كان عند كاتو أكبر هدفٍ له. مدّ أريستيدس يد العون لتميستوكلس في أحرج الأعمال وأخطرها ورفع من شأن أثينا بصورة ما وهو ضابط تحت إمرته. وكاد كاتو بخصومته ومعارضته لسكيبيو يقضي على حملة الرومان بالفشل وهي التي أدّت إلى دحر هنيبعل الذي لا يُقهر. وظلّ يلاحق هذا البطل باتهاماته وشكوكه حتى طرده من المدينة، كما أثقل أخاه بحكم مشين يتضمّن إدانته بسرقة أموال الدولة. وأخيراً نجد أن ما لهج به كاتو حول ضبط النفس قد تحلّى به أريستيدس ولم يُشن نقاوته أو يلحق به وصمة. إلاّ أن زيجة كاتو غير اللائقة بوقاره وسنّه إنما هي مثلبة من هذه الجهة، فليس من الحشمة والحياء في شيء أن يدخل بيته، الذي يسكن فيه ابنه وكنّته، ابنة موظف بسيط في الدولة يتلقى أجراً على خدمته. وسواء في ذلك أكان الدافع إلى الزواج شهوة الجنس، أو الغضب من الابن، فالابتذال والمعرّة لا ينتفيان من العمل والسبب معاً. والحجّة التي أدلى بها لابنه كانت كذباً في كذبٍ. إذ لو شاء أن تكون له ذرّية كبيرة من الأبناء الصلحاء أفما كان قميناً به أن يتزوّج عقيلة، نسيبة حسيبة، لا أن يشبع شهوته سراً ولأمد طويل من امرأة لا تربطه بها رابطة الزوجية. حتى إذا افتُضح أمره اختار لنفسه حموّاً مغموراً مثل هذا بينما كان يسهل عليه مصاهرة آخر يتشرّف بمصاهرته.

فيلوپويمين

PHILOPŒMEN

٢٥٣–١٨٤ ق.م

فيلوپويمين[1]

كان كلياندر رجلاً رفيع العماد كريم المحتد واسع النفوذ في مدينة مانتينيا[2] ولكنّ مشيئة الأقدار حكمت بإخراجه منها. وكان بينه وبين كروغيس Crougis والد فيلوپويمين وهو شخص من السُّراة صداقة وطيدة، فاستقرّ في ميغالوپوليس حيث يسكن صديقه هذا وتمتع بكلّ ما يرغب فيه تحت كنفه طوال حياته، فلما مات هذا الصديق عُني بابنه اليتيم وفاءً لجميل أبيه وعطفه الكريم. فكان فيلوپويمين مديناً له بالتهذيب والتثقيف مثلما كان فونيكس Phoenix قد تعهّد بتربية أخيل حسب ما روى هوميروس. وشبّ فيلوپويمين منذ نعومة أظفاره على الخُلق النبيل العالي. على أن تعليمه الأساسي تمّ على يد إقديموس Ecdemus وديموفانص Demophanes بعد اجتيازه عهد الصبا. وكلاهما كان من أهل ميغاپوليس ومن المتشبّعين بالفلسفة الأكاديمية وصديقين لأركيسيلاوس Arcesilous، وقد فاقا أياً من معاصريهما في جعل الفلسفة عاملاً فاعلاً ناشطاً في شؤون الحرب وسياسة الدولة. وحرّرا وطنهما من الطغيان بهلاك أرسطوديموس الذي قُتل بسعي منهما. وعاونا أراطوس Aratus في طرد الطاغية نيكوكليس Nicocles من سيكيون Sicyon. وأبحرا إلى مدينة القيرينيين Cyreneans بطلب من أهلها عندما كانت الفوضى والاضطراب قد ضربا أطنابهما فيها وأفلحا في إقامة حكومة صالحة وأحكما تثبيت النظام الجمهوري فيها. وبإقرارهما شخصيّاً كان تثقيف فيلوپويمين من أجلّ الأعمال التي قاما بها، لاعتقادهما بأنهما أفادا بلاد اليونان عموماً بغرس بذور الفلسفة في نفس تلميذهما. والواقع أن كل بلاد اليونان جُنّت به حُبّاً (فقد وجدت فيه نوعاً من ولد متأخر جاءت به إلى الحياة في عصر انحلالها وضعفها بعد عدد كبير من أنبل الزعماء) وكانت تزيد من سلطانه كلّما زاد مجداً. ولقّبه أحد

(١) ولد في ميغالوبولس ونشأ فيها وتلقّى تدريبه العسكري وتعليمه هناك.

(٢) ماتيا، مدينة في أركاديا. لم نعثر على ما حدا بكلياندر ليخرج من مدينته هذه.

الرومان على سبيل المدح بآخر الإغريق، كأن بلاد الإغريق لم تنجب عظيماً بعده، ولا من يستحقّ اسم الإغريقي.

ولم تكن خِلقته مشوّهةً كما يتصوّر بعضهم، فصورته مازالت موجودة في دلفي. وإنَّ خطأ مستضيفتُه في ميغارا حصل على ما يبدو بسبب لين عريكته، وبساطته. فقد أبلغت هذه المضيفة أن جنرال الاخائيين سيأتي بيتها في غياب زوجها، وراحت تهيّئ عشاءً له بعجلةٍ شديدة. وفي تلك الأثناء دخل عليه فيلوپويمين في دثارٍ وعباءة عاديّةٍ فظنّته من حاشية القائد أُرسل قبله فطلبت منه أن يساعدها في شغلها، فبادر بإلقاء عباءته عنه وراح يقطع خشباً للوقود. وعاد الزوج وشاهده منصرفاً إلى عمله فقال مشدوها: «ماذا تقصد بهذا يا فيلوبويمين؟ فردّ عليه بلهجته الدوريّة Doric:

«إني أستوفي عقوبة منظري القبيح».

ومرةً كان تيطس فلامينينوس يمازحه في شكل جسمه فقال له: أن لديه يدين وقدمين بديعة التكوين، ولكن ليس لديه بطن. لأنه كان في الحقيقة ضامر البطن. على أن هذه المزحة كانت موجّهةً إلى حالة العسر المالي التي تلازمه فقد كان لديه أفضل الرجّالة وأحسن الخيّالة، وكثيراً ما كان يخلو وِفاضُه ولا يجد ما يُنفق منه عليهم أو يدفع به أجرهم.

ولم يكن حبّه الشهرة والشرف بمنفصل عن شعور الغيرة والمنافسة، هما في طبعه ممتزجان، حتى جعل من إپامينونداس[٣] مثله الأعلى ولم يبتعد عنه كثيراً في بطولاته وحكمته واستقامته التي لم يعتورها فساد. إلاّ أن مزاجه العنيف الحارّ كان يخرجه دائماً عن حدود الاعتدال والكياسة واللوذعية والإنسانية التي امتاز بها إپامينونداس، وهذا ما جعله نسخة عسكرية له، أكثر مما جعله نسخةً سياسية. والعجيب في الأمر أنه مال منذ صباه إلى حياة الجندية فدرس ومارس كل ما يتعلّق بها وكان يجد لذته في الخيل والسلاح. ولأن طبيعة تكوين جسمه كانت تؤهّله لممارسة المصارعة والامتياز فيها فقط نصحه أصدقاؤه ومدرّبوه بأن يتعاطى التمارين الرياضية ووجّهوا اهتمامه إليها. ولكن أراد أولاً أن يتأكد أن ذلك لا يعوقه عن التمرّس في الجندية فقالوا، وكانوا مصيبين، إن

---

(٣) الجنرال والسياسي الإغريقي ولد في ثيبه من مدن بويوتيا (٣٦٢ - ٤١٨ ق.م) وكان من المدافعين عن استقلال بلده. وقد قاد حروباً كثيرة ضد اللقيديميين وضمن استقلال ثيبه عندما حقق نصره الحاسم في موقعه لوكترا الشهيرة على اللقيديميين. ٣٧١ ق.م وقد جرح في معركته الناجحة مع المانتيين وتوفّي من أثر الجراح.

حياة المصارع هي على طرفي نقيض من حياة العسكري. فحالة البدن الضرورية وطريقة العيش وشكل التمارين كلها تختلف. فالرياضي المحترف ينام كثيراً ويأكل كثيراً. وله أوقات مخصوصة لإجراء تمارينه ونيل راحته لا يحيد عنها، وهو عُرضة لخسارة الكلّ أن افرط قليلاً أو حاد قيد شعرة عن طريقته التي اعتادها. في حين يتحتّم على الجندي أن يعوّد نفسه على مختلف التقلّبات، والتغييرات، ولاسيّما تعويد نفسه على الجوع والحرمان من النوم دون أن يشقّ ذلك عليه. ولما سمع فيلوپويمين هذا القول نبذ كل فكرة في احتراف المصارعة وازدراها، حتى أنه زهّد الآخرين فيها عندما تسلّم القيادة بانتقادها والانتقاص منها بكل وجهٍ متصوّر، وقال عنها إنها رياضة تجعل الرجال الصالحين للقتال والحرب لا فائدة فيهم قطّ عندما يدعو الداعي إلى القتال.

وترك مدرّبيه ومعلّميه وبدأ يحمل السلاح مع بني قومه في الغارات التي كانوا يفاجئون بها اللقيديمونيين للنهب والغصب، فكان بها أوّل المتقدمين، وآخر العائدين. وكان يأخذ جسمه بأسباب الخشونة ويدرّبه على تحمّل المشاق في وقت الفراغ، فيتعاطى الصيد والقنص ويعمل في أرضه ليبقى جسمه قوياً ناشطاً. وكان يملك مزرعة جيدة تبعد حوالي عشرين «فرلنغاً» عن المدينة وكان يقصدها يومياً بعد الظهر والعشاء. ويلقي بنفسه على أول فراش يجده وينام مثل واحد من عمّاله. وفي تباشير الصبح ينهض مع الباقين ويعمل إمّا في الكرم أو في المحراث، وبعدها يؤوب إلى المدينة ويصرف وقته في مجلسه مع أصدقائه أو مع الحكام في الشؤون العامة. وما كان يكسبه في الحرب يُنفقه على الخيل أو السلاح أو يدفعه فدية للأسرى. وكان يسعى إلى تحسين ملكه بالوسائل العادلة النزيهة، وهي الزراعة والفلاحة، ولم يكن يقصد بهذا التلهّي أو قضاء الوقت، وإنما كان يرى من واجبه أن يحرص حرصاً شديداً على تدبير شؤون عقاره ليبقى في منجى من الإغراء بإلحاق الأذى بالآخرين.

وأنفق كثيراً من الوقت في مدارسة الفلسفة والفصاحة، بيد أنه كان يتخيّر مؤلّفيه ولا يهتمّ إلاّ بمن قد ينتفع من سجاياهم وفضائلهم. وكان اهتمامه بملاحم هوميروس مقصوراً على كل ما يرى فيه محفّزاً للشجاعة والاقدام. وعلق قلبه بتعليقات إيڤانجيلوس Evangelus حول التاكتيك العسكري واستمتع أيضاً في ساعات فراغه بقراءة وقائع الإسكندر، ورأى في مثل هذه القراءات ما يفيد في التطبيق العملي، إلاّ إذا قُصد منها المتعة البحتة، أو النقاش العابث. وكان في تناوله الموضوعات العسكرية قد اعتاد أن يهمل الخرائط والمخططات. ويعمد إلى وضع النظريات موضع التطبيق والتجربة في ميدان التدريب نفسه. وكنت تراه يُعمل أفكاره ويجرّبها وهو يسير،

فيجادل من هم حوله في غلاظة الأرض الوعثاء أو المنحدرة. وما قد يطرأ في الأنهار والأودية والشعاب الجبليّة أثناء مسيرة العسكر بنظام الضمّ أو الانفتاح، وبهذا الشكل أو ذاك من نسق المعركة. ولا مراء في أن لذّته في العمليات العسكرية وشنّ الحروب لم تكن تعرف اعتدالاً، وليس ذلك بالمستغرب من رجل جعل كيانه وقفاً على هذه الصناعة واعتبرها وسائله الخاصّة لإظهار مختلف المواهب، واحتقر كل من هو ليس جندياً ووجدهم أناساً كسالى لا نفع فيهم للجمهورية.

وكان يبلغ الثلاثين من عمره عندما فاجأ كليومينيس(٤) ملك اللقيديمونيين مدينة ميغالوپوليس في موهن من الليل وأزاح الحرس ودخل واحتلّ الساحة العامة من المدينة. فخرج فيلوپويمين على صوت النذير وقاتل ببسالة منقطعة النظير إلاّ أنه لم يتمكن من إزاحة العدوّ وطرده. على أنه نجح في إخلاء المدنيين ونجاتهم بالخروج منها بوقوفه صامداً في وجه مطارديهم. وظلّ يشاغل كليومينيس وفقد حصانه وأُثخن جراحاً وهو صامدٌ يقاتل قتالاً شديداً حتى خلّص منها المنسحبين. ولجأ الميغاليون إلى مسّينا Messene فأرسل كليومينيس من يعرض عليهم إعادة مدينتهم وأموالهم إليهم. ووجد فيهم فيلوپويمين رغبة ولهفة عظيمة للعودة، فاوقفهم عند حدّهم واقتلع الرغبة من نفوسهم بخطبةٍ أدركوا منها أن الهدف الذي يرمي إليه كليومينيس من إعمار المدينة هو في الحقيقة سيطرته على أهلها، وضمانه بقائها تحت سلطانه في المستقبل بوجودهم فيها فإن بقاء المدينة مهجورة سيضطره حتى إلى الخروج منها بعد زمن قليلٍ إذ لا معنى للبقاء في حراسة بيوت خالية وجدران عارية. هذه الأسباب جعلت الميغالوپوليتان يُحجمون عن العودة، لكنها زوّدت كليومينيس بحجة لنهب المدينة وتدمير جزءٍ كبير منها وحمل غنائم كبيرة منها.

وبعد ردحٍ من الزمن زحف أنتيغونس(٥) الملك لنجدة الأخائيين، وتقدّموا بقواتهم

---

(٤) [باوسنياس ٧] في زمن فيلپويمين لم تكن بلاد الإغريق موحّدة في جبهة وإنما كان لكل بلاد نظامها الخاص. وكان الأخائيون أقوى الجميع ولم تعرف أية مدينة من مدنهم دكتاتورية ما عدا «بلليني» كما لم يطاول أخائياً الطاعون ولا الحروب. إلا أن سپارطة بقيت عدوّة تتحيّن الفرص للهجوم عليهم واستعبادهم. ستولى أغيس ملك سپارطة على پلليني لكن أراتومى السيكيولي أجلاه عنها. وبعد برهة قام الملك المزامل كليوفيس بمهاجمة أراتوس والتغلب عليه في معركة طاحنة التحمت فيها الأيدي والأجسام، عُرفت بدايمه Dyme وعلى أثر ذلك عُقد صلح بين سپارطة وأخائيا.

(٥) حاكم مقدونيا، كان وصيّاً على فيليب ابن ديمتريوس ملك مقدونيا وهو كذلك ابن عم له. =

الموحّدة نحو كليومينيس الذي كان قد عسكر في هضاب سللاسيا Sellasia آمناً عزيزاً بعد أن أمسك بكلّ الطرق. فاقترب منه أنتيغونس عازماً على إرغامه وفرض القتال عليه. وكان فيلوپويمين وبنو قومه قد اتخذوا مواقعهم مع الخيّالة يومئذ، تليهم الرَّجالة الإليرية، وهم وحدة كثيرة العدد عُرف أفرادها بالبأس في القتال كانوا يكملون خطّ المعركة بتأليفهم القسم الاحتياطي مع الأخائيين. وكانت الأوامر تقضي ببقائهم حيث هم دون أن يشاركوا في القتال حتى تلوح لهم من الجناح الآخر حيث الملك يقاتل عباءة حمراء مرفرعة فوق سنان رمح. فيطاع الأخائيون الامر ولم يحيدوا عنه إلاّ أن ضبّاط الألليريين ساقوا جنودهم إلى الهجوم. ولما رأى إقليدس أخو كليومينيس مشاة العدوّ ينفصلون عن الخيّالة فانتخب أحسن جماعة من وحداته الخفيفة وأمرهم أن يعملوا حركة التفاف ويهاجموا الألليريين المكشوفين من المؤخرة. وأوقع هذا الهجوم الفوض في هؤلاء. ووجد فيلوپويمين أن من السهولة بمكانٍ صَدّ هذه الوحدات، فقصد أولاً ضبّاط الملك ليطلعهم على ما يتطلّبه الموقف فلم يكترثوا بما قال، واستسخفوه ولقّبوه بدماغ الأرنب (وكان في ذلك الزمن مغمور الصيت لا يتمتّع بالشهرة التي تدعم مثل هذا الاقتراح الخطير)، فما كان منه إلاّ أن ارتدّ إلى بني قومه وحمل بهم على العدوّ، فأخلّوا بنظام صفوفه أولاً ثم سرعان ما أجبروه على الفرار بعد أن أوقعوا به مقتلة عظيمة. ثم عمد إلى حيلة لتشجيع عسكر الملك وإغرائه بالعدْوِ وهو مختلّ الصفوف، فترجّل عن جواده وراح يقاتل راجلاً بصعوبة متناهية رازحاً تحت ثقل شِكّة سلاح الخيّال، وفي أرض غليظة متعادية ملأى بالجداول والحفر. وأصيب فخذاه بطعنة نافذة من رمح مربوط بسير جلديّ بلغ من قوة قذفه أنه خرج من الجهة الثانية وأحدث جرحاً بالغاً لكنه ليس بقاتل. فوقف برهة كأنه مكبّل بقيدٍ لايستطيع حركة. فقد صعب عليه أن يسحب الرمح من الجرح ولم يجرؤ أحد أن يفعل ذلك، لوجود العُقلة التي تشدّ الرمح بالسير الجلدي. وبلغ القتال أشدّه وحميَ وطيسه ولم يبق إلاّ القليل لتقرير نتيجة المعركة فتملكته رغبة جنونية في المشاركة بها، وأخذ يكافح ويناضل نضالاً عنيفاً مع نفسه فقدّم ساقاً وأخّر لأُخرى إلى أن كسر قناة الرمح إلى نصفين ثم سحبهما من

= يقول باوسنياس إنه كان يفترش أم فيليب. قام كليومينس بعقد هدنة مع أنتيغونس والأخائيين. لكنه ما لبث أن نقض الهدنة واستولى على ميغالوپولس. لمّا بلغ فيليب أشدّه سلّم أنتيغونس إدارة المملكة إليه بكلّ رضا. إلا أن فيليب جرى على أسلوب فيليب ابن أمينتاس بنشره إرهاباً في كل بلاد الإغريق.

الجرح، وما إن وجد نفسه حراً حتى التقط سيفه وأسرع مهرولاً وزجّ بنفسه في مثار النقع حتى بلغ الصفوف الأمامية، وراح يشجّع رجاله ويذكي في نفوسهم نار الحماسة. وبعد أن عُقد لواء النصر لأنتيغونس سأل المقدونيين على سبيل الاختيار: كيف قامت الخيالة بالهجوم قبل صدور الإشارة بذلك ومن دون أن تتلقى أمراً؟ فأجابوا أن ذلك تمّ خلافاً لرغبتهم فقد أرغمهم عليه شابٌ من ميغالوپوليس تعجّل الهجوم. فقال أنتيغونس باسماً: «هذا الشاب فعلَ فِعلَ القادة المجرّبين».

وكان من الطبيعي أن ينال فيلوپويمين شُهرةً مستفيضة من جرّاء ذلك. وألحّ أنتيغونس على ضمّه إليه عارضاً عليه شروطاً طيبةً جداً: أجراً ومنصباً. لكن فيلوپويمين لم يقبل لأنه يعرف قلّة صبره على العمل تحت إمرة الآخرين. كما أنه لم يكن يحتمل البقاء عاطلاً، فرحل إلى كريت عند سماعه بوجود حرب هناك، لكي لاينقطع عن تمرينه العسكري. وقضى ردحاً من الزمن مع أولئك الكُماة المحاربين الذين جمعوا إلى بأسهم ظرفَ الطبع والرزانة فأصاب تقدّماً كبيراً في خبراته العسكرية. وعاد تحفّ به الشهرة الذائعة والصيت الداوي الذي أهاب بالأخائيين أن يختاروه قائداً لصنف الخيّالة في عسكرهم. كان فرسان ذلك العهد أبعد المحاربين عن الشجاعة والتجربة. فقد جرت العادة أن يؤخذ عند الخروج إلى الحرب أول ما يعنّ لهم من الخيّالة الاعتياديين، وأقلّهم أجراً، وكانوا في كل الأحوال تقريباً لايذهبون هم بأنفسهم وإنما يستأجرون آخرين في محلّهم ويبقون هم في ديرتهم. ويُغضي قوّادهم السابقون الطرف عن هذا إذ كانت الفروسية في الجيش الأخائي تُعدّ شرفاً. ولهؤلاء نفوذ كبير في الجمهورية، إن شاؤوا أضرّوا وإن شاؤوا نفعوا. وقد وجد فيلوپويمين أمورهم هكذا عندما تولّى القيادة فأبى السكوت عنهم ومسايرة الوضع وأخذ يتنقّل بنفسه من مدينة إلى مدينة وينفرد بشبّانها ويكلّمهم واحداً واحداً يريد بث الطموح وحب المعالي في نفوسهم مستخدماً العقاب حيثما وجد ضرورة. ثم تمكن بالتدريب العمومي والاستعراضات والمباريات على مرأى من جماهير النُظّار أن يجعل منهم رجالاً شِداداً كُماةً ابرز ما فيهم الخفة والرشاقة وهما أهم وألزم صفتين للجنديّ في الخدمة الفعلية. وبكثرة المِران والجهود المبذولة بلغ القوم حدّاً عظيماً من الكمال وسيطروا سيطرة تامّة على الخيّالة فباتت سريعة الاستجابة في الحركات التعبوية وانتقالها الفوري حتى تبدو القطعات كلها وكأنها جسم واحدٌ يتحرك بمرونة وفورية وإرادة رجل واحد عند أيّ تبديل آنيّ يطرأ على نظام القطعات في حومة القتال. وضرب لهم مثلاً من عمله في الوقعة الكبرى التي حصلت بينهم من جهة وبين الأيتوليين والإليائيين من جهة أخرى عند نهر لارسّوس Larissus.

أثبتَ داموفانطس Damophantus آمر خيّالة الإليائيين فيلوپويمين من العدوّ فحمل عليه واحتثّ جواده إليه بأقصى سرعة. فانتظره فيلوپويمين ساكنا، وقبل أن تهوي الضربة عليه جندل عدوّه بطعنة رمحٍ جبّارة، وبمصرعه ولّى جنوده الأدبار. وبات اسم فيلوپويمين على كل شفةٍ ولسانٍ ووصِف بالرجل الذي لا يقوى الصغار على نزاله، ولا يطاله الكبار في الحنكة والدهاء. وأن ليس في ميدان القتال أفضل منه محارباً وقائداً.

وكان أراتوس Aratus أوّل من رفع من ذكر الأخائيين وانتشلهم من وَهْدة الخمول والإسفاف التي كانوا فيها، فأنبه أمرهم ووسّع من سلطانهم بتوحيد مدنهم المنقسمة على نفسها في جمهورية واحدة، تقوم عليها حكومة ذات طابع إنساني، وتسير وفق أصوب النظم الإغريقية في الحكم. ووقع كما يقع في مجاري المياه: يحمل التيار بعض الأشياء الصغيرة ثم تأتي أخرى وتلتصق بها فيشدّ بعضها بعضاً وإذا بالكلّ يغدو مادة مستقرة صلدة. وهكذا يكون الأمر في الضعف والانحلال العام القومي فقد استسلمت بلاد اليونان إلى عامل التفكك والانقسام عندما أخذت كل مدينة تعتمد على نفسها، وهنا بدأ الأخائيون يتكتّلون ويعملون على توحيد أنفسهم ولما تمّ لهم ذلك راحوا يجتذبون جيرانهم إلى وحدتهم هذه، فضمّوا بعضهم بتحريرهم من الطغاة الذين حكموهم وقيامهم على حمايتهم، وأغروا بعضهم بطرائق سلميّة في الاتحاد. وحاولوا أخيراً أن يجعلوا الپلوپونيسوس بلاداً واحدة بمنح صفة المواطنة لجميع القاطنين فيها. على أنهم كانوا في حياة أراتوس يعتمدون كثيراً على المقدونيين، فتقربوا أولاً من بطليموس ثم من أنتيغونس وفيلپس الذين ظلوا يتدخلون جميعاً في كل ما يهمّ الإغريق. ولكن الأخائيين بعد تسلُّم فيلوپويمين القيادة شعروا أنهم أكفاء لأقوى أعدائهم فنبذوا المعونة الأجنبية. وحقيقة ما في الأمر هي أن أراتوس كان حاكما مسالماً يكره الحرب، حقق أغلب إصلاحاته ومآثره بالسياسة والصداقة والتعامل بالرقة واللطف مع الحكام الأجانب، في حين كان فيلوپويمين رجل عملٍ وقيادة، وجندياً عظيماً، حالفه الحظّ في باكورة أعماله. وقد رفع من شجاعة الأخائيين وعززّ مكانهم وقوتهم بصورة مدهشة، بحيث عوّد القوم على النصر تحت قيادته.

على أنه غيّر من سلاحهم وطُرقهم التعبوية ما وجده عتيقاً غثّاً. وكانوا إلى ذلك الزمن يستخدمون في حروبهم دِلاصاً رقيقة خفيفة لا تُغطي البدن كلّه، ورماحاً أقصر قنا من الحراب بكثير. ولهذا كانوا متفوّقين في القتال إذا ابتعد عنهم عدوّهم مسافةً، إلاّ أن الدائرة تدور عليهم في القتال القريب والالتحام. أمّا في خطط المعركة فقد كانوا يجهلون التشكيلات المنتظمة بشكل وحداتٍ وكُتل منسجمة. وكان خط هجومهم

مكشوفاً لا تحميه صفوف كثيفة من الرماح المشرعة، ولا سدٌّ ملتحم من التروس كما هو الشأن في الفلانكس المقدوني، حيث يتكاتف الجندي بالجندي حتى تتلامس حافات تروسهم، ولهذا كان خطهم ضعيفاً يسهل اختراقه وفتح ثغرات فيه. فغيّر فيلوپويمين هذا كلّه وأصلح منه. واستبدل درقاتهم الصغيرة بتروس واسعة، وحرابهم القصيرة برماحٍ طويلة القنا، وألبسهم الخوذة، وحملهم على تدريع أجسامهم وأفخاذهم وسيقانهم بالصفائح. ونبذ شكل القتال القديم، وهو المناوشة التي تمتاز بالكرّ والفرّ، وعلّمهم أساليب القتال الثابت المنظَّم. وأغرى الجنود بلبس شكة سلاحٍ كاملةٍ وبهذا صاروا واثقين من منعتهم، وأن عدوهم لاينال منهم فتيلاً. ثم إنه حَوّل ما اعتُبر إسرافاً وبذخاً في قومه إلى أشرف وجه من وجوه الإنفاق، فقد تعوّدوا منذ عهد بعيد على التفاضل في فاخر الثياب وغالي الرياش، ونفيس الطعام، وأن يتباهوا في منافسة بعضهم بعضاً على ذلك. وتفاقم الخطب وانقلبت العادة فيهم مرضاً عُضالاً يتعذر استئصاله برمّته. ولذلك لجأ إلى تحويل هذا الميل إلى سبيل آخر، وجعلهم يتعوّضون حبّ الظهور هذا بحبّ أجدى وأنفع وأدنى إلى صفة الرجّال: أنمى في نفوسهم حُبّ بشِكّات سلاح فاخرة، واختيالهم بأسلحة ممتازة، فراحوا ينفقون على اقتنائها مثلما كانوا ينفقون على كماليّاتهم. ولم يعد في الحوانيت إلاّ الصفائح تُطرق وتُصهر والدروع تُصقل، وتروس ولُجُم تُكفَّتُ بالفضّة. ونزل ساحات الرياضة مدرّبو الخيول يدرّبون على الفروسية، والشباب يتمرّنون على استعمال أسلحتهم. ولم يكن يُرى في أيدي النسوة إلاّ خوذات ولمّ ريش تُصبغ ومعاطف عسكرية وطيالس ركوب تُطرّز. كان المجهود العام يشحذ نشاطهم ويرفع من معنوياتهم إلى حَدّ الاستهانة بالخطر، ويستفزّهم إلى تقحُم ميادين القتال الشريفة وهم مطمئنون إلى حُسن استعدادهم. إن الأشكال اليخرى من وجوه الترف والإسراف في الإنفاق قد تشيع في أنفسنا السرور إلاّ أنها تسلّمنا إلى التخنّث. ونبضات الحسّ تضعف من قوى الفكر، إلاّ أن البذل والترف في السلاح يشدّان العزمات ويضاعفان الشجاعة مثلما جعل هوميروس بطله أخيل يرقص طرباً عند وقوع نظره على شِكّة سلاحه الجديدة فأشعلت فيه نار الرغبة في استخدامها. وبعد أن نجح فيلوپويمين في توجيه جهودهم نحو التسلّح فانصرفوا إليه بهمّةٍ قعساء، باشر في تدريبهم عسكرياً بصورة مستمرة فلقي منهم طاعة تامة واستجابة سريعة حماسية. وأعجبوا كثيراً بالطرق التعبوية الجديدة وبنظام قتال المعركة، فهو أسلوب من شأنه أن يشدّهم إلى بعضهم شداً محكماً ويثبّت أقدامهم ويحبك صفوفهم حبكاً شديداً يصعب كسره. وباتت دروعهم وبزّاتهم الحربية خفيفة عليهم سهلة الحمل

علاوة على اختيالهم بها لجمالها ونفاستها، وكانوا مشوَّقين جداً لاختبارها في ميدان القتال الحقيقي.

كان الأخائيون وقتذاك في حربٍ مع ماخانيداس Machanidas طاغية لقيديمون وكان بجيشه القويّ ينتظر الفرصُ المواتية ليجعل من نفسه السيّد المطلق على الپلوپونيسوس. وعندما وردت فيلوپويمين الانباء بحملته على المانتينيين نزل فوراً لقتاله وزحف إليه. وتقابلا بالقرب من مانتينيا وأعد جيشه للمعركة أمام المدينة. وكان كلاهما يستخدمان عدداً لا يستهان به من الجنود المرتزقة زيادةً على قواتهما المجتمعة من عدة مدن. وفي بدء الهجوم دحر ماخانيداس بمرتزقته الرمّاحة والتارينتيين Tarentines الذين وضعهم فيلوپويمين في الخطّ الأول، وبدلاً من أن ينثني إلى قلب المعركة الرئيسة مهاجماً، حيث كانت جبهتها صامدة متلاحمة، راح يطارد المنهزمين مطاردة حامية. وبدلاً من مهاجمة الأخائيين أيضاً اجتازهم وخلّفهم وراءه، بينما ظلوا في مواقعهم على أهبة واستعداد. من هذه البداية الخالبة خُيّل لحلفاء الأخائيين أنهم خسروا المعركة. إلاّ أن فيلوپويمين لم ير فيها أي تأثير على المعركة ولم تنل من عزيمته، فقد تبيّن غفلة العدوّ الذي فتح بعمله هذا ثغرةً في الجزء الرئيس من قواته، وكشف فلانكسه. فلم يأت بأية حركة تعرض لهم، وتركهم ماضين في مطاردتهم على هواهم، حتى ابتعدوا عنه مسافةً كبيرة. ووجد مشاة اللقيديمونيين أمامه مكشوفي الأجنحة لانفصال خيّالتهم عنهم فحمل عليهم وفاجأهم وهم لا يتوقّعون هجوماً، من دون قائدٍ يوجههم. فقد حسبوا النصر مستتبّاً لهم بعد رؤيتهم ماخانيداس يجرى في أعقاب العدوّ المنهزم. وهكذا أخذهم على حين غرّة وأوقع بهم مقتلة عظيمة وهزيمة مُنكرة (قيل إنه فتك بأربعة آلاف منهم في ساحة المعركة نفسها). وبعد ذلك استدار لمواجهة ماخانيداس الذي عاد بمرتزقته من المطاردة. وإذا بخندقٍ عريضٍ يفصلهما، ووقف خيّالة الطرفين كل فريق إلى جانب منه، أحدهما يريد عبوره للفرار والآخر يريد منعه. ولم تكن المسألة مسألة مباراة بين جنرالين بل هي أشبه بالدفاع الأخير الذي يبذله وحشٌ ضارٍ حاصره الصيّاد الماكر فيلوپويمين واضطره إلى القتال قتال حياة أو موت. كان حصان الطاغية قوياً مقداماً مستوفزاً وإذ شعر بالمهماز يدمي خاصرتيه وثب نحو الخندق، وما كاد يبلغ الحافة الثانية حتى زرع قائميته زرعاً فيها وحاول جاهداً أن ينهض نفسه إلى فوق، فهرع سمياس Simmias وپوليينوس Polyœnus وهما راكبان إلى معونته وكانا يقاتلان إلى جانب فيلوپويمين إلاّ أنه سبقهما إليه وواجه ماخانيداس ليجد أن هامة الحصان المشمخرّة إلى أعلى تحجب جسم راكبه عنه، فحاد قليلاً بجواده

ورفع حربته وهو قابض عليها من وسطها ودفعها بكلّ قوته في جسم الطاغية فسقط ميتاً في الخندق. واليومَ تُشاهَد تمثال فيلوپويمين البرونزي وهو بهذه الهيئة تماماً قائماً في دلفي، صنعه له الأخائيون تكريماً لشجاعته في هذه المعركة الفردية، ولحسن تصرّفه وقيادته للمعركة كلها.

وذكروا أن فيلوپويمين في فترة قيادته الثانية، وبعد هذه المعركة بزمن وجيز، انتهز فرصة الألعاب النيميّة Nemea ومناسبة الاحتفال بها، فأخرج لجماهير الإغريق القادمين إليها عسكره أوّلاً، وصفّه بتشكيلات المعركة الكاملة كما لو كان ثمّ معركة. وبعدها قام بتمرينٍ حربيّ كامل طبّق فيه فصول المعركة وصفحاتها بنظام عجيب وقوةٍ وخفّةٍ مدهشة، ثم دخل الملعب بينما كان الموسيقيون يغنّون للفوز بالجائزة الموسيقية. وكان يحفّ به رهط من الجنود الشباب، بمعاطفهم العسكرية ولبودهم الحمراء تبدو من خلال دروعهم، وكلهم في أفضل حال من النشاط والصحة، وفي عمر واحدٍ تقريباً، تُفصح سيماؤهم عن الاحترام الذي يكنّونه لجنرالهم، في الوقت الذي تظهر ثقتهم التامة بأنفسهم التي ارتفعت بعدد من الانتصارات المجيدة. واتفق لما دخلوا أن الموسيقي پيلاديس Pylades بدأ ينشد بأسلوب الشاعر الأخّاذ ملحمة «الفُرس» لمؤلفها طيموثيوس Timotheas:

«تحرّر اليونان، وعلا مجدهم تحت قيادته. . .».

فشخصت أبصار النظّار كلها إلى القادمين، واستقرّت حالاً على فيلوپويمين. وراحوا يصفقون جذلاً وحبوراً، وراحت أمانيهم تداعب فكرة استعادة بلادهم مجدها الذاهب ومكانتها التليدة، وارتفعت معنوياتهم حتى خُيّل إليهم أنهم يعيشون في روح الماضي المشمخرّة.

وكأني بالأخائيين أمهار لا يُسلَس قيادها لغير صاحبها ولا تسلم صهوتها إلا لمن تعوّدت رِكبْته، ويتعّذر قيادها وتصير جموحاً شموساً إذ ركبها شخص آخر غير صاحبها. فإذا هم خرجوا إلى حربٍ دون أن يكون فيلوپويمين على رأس الجنود رأيتهم واجمين كسيري الفؤاد كثيري الافتقاد له. فإذا لاح لهم هدأ روعهم وارتدّت إليهم روحهم وثقتهم وشجاعتهم. كانوا قد أدركوا أنه الوحيد بين قادتهم الذي يخشى العدوّ صولته واسمه وحده كفيل بإيقاع الرعب في نفوسهم. وهذا فيلپس ملك المقدونيين يرى نفسه عاجزاً عن إعادة سلطانه على الأخائيين إلا إذا تخلّص من فيلوپويمين، فيدفع سِراً بمن يغتاله، فينكشف أمره وتنتشر حكاية هذا الغدر في أرجاء اليونان فيفقد سمعته فيها ويجلله العار. وكان البويوتيون الذين يحاصرون ميغارا على وشك اقتحامها عندما

بلغتهم اشاعة عن سعي فيلوپويمين إلى نجدتها بقواته، فأسرعوا برفع الحصار عنها وولّوا هاربين وتركوا وراءهم سلالم الحصار متكئة على الأسوار. ونابيس Nabis الطاغية اللقيديموني الذي خلف ماخانيداس باغت أهل مدينة ميسّين عندما كانت القيادة بيد شخص آخر غير فيلوپويمين وهو لِسبّوس Lysiphus الأخائي. فحاول فيلوپويمين حثه على نجدة المسينيين فأبى معتذرا بأن العدوّ قد دخلها وهي تُعدّ في حكم الضائعة. فقرر أن يذهب إليها بنفسه دون أمرٍ أو صفة رسمية وخرج ومعه قلّة من المواطنين المتحمّسين الذين رأوا فيه جنرالاً طبيعياً أرسله القدر المحتوم وجعله أصلح القادة. وسمع نابيس بمقدمه ووجد السلامة في الانسحاب مع أن جيشه كان معسكراً داخل المدينة، وأسرع بجيشه متسللاً من الرّتاج الأبعد، حامداً حسن حظه في النجاة سالماً. لقد نجح في هروبه إلاّ أن ميسين رُدّت إلى أهلها.

كل ما ذكرناه عن فيلوپويمين حتى الآن جديرٌ بالمدح والتكريم. إلاّ أنه عرّض سُمعته للطعن والاتهام بالجبن، والطموح إلى الشهرة غير المشرّفة عند الأجانب، لمّا قصد كريت لتسلُّم منصب القيادة بطلب من الغورتينيين Gortyniano، في الوقت الذي كانت بلاده تعاني ضيقاً شديداً ووضعاً حرِجاً. فالعدوّ كان سيدّ الموقف، يعسكر أمام أبواب مدينته، ويرى من معسكره شوارعها وبينها وبين فيلوپويمين البحر وهو يتولّى القيادة العامة في بلاد غير بلاده ويخوض غِمار الحروب لا دفاعاً عنها، مزوّداً حسّاده ومبغضيه بمادة اتهام وقدح كافية للنيل من سمعته. ولقد اعتذر له بعض الكتّاب بقولهم إنه ما قبل عرض الغورتينيين إلاّ لأن الأخائيين اهملوا شأنه واختاروا غيره جنرالاً. فقد كان يضيق ذرعاً بالبطالة والجمود، بل كان يرى الحرب وقيادة الجنود منصرف نشاطه الوحيد وصناعته المفضّلة. وهذا يتفق تماماً وما قاله يوماً عن بطليموس الملك؛ فقد مدحه أحدهم أمامه قائلاً إنه أبقى نفسه وجيشه في أفضل حالة واستعداد للطوارئ من ضبط وتدريب. فأجاب فيلوپويمين:

«أي مدح هذا الذي نخصُّ به ملكاً ظلّ في الحكم هذه السنوات الطوال يستعدّ ويتأهّب دون أن يحقق أمراً؟».

مهما يكن اعتبر الميغالوپوليسيون أن فيلوپويمين خانهم وغدر بهم، واشتدّ سخطهم عليه حتى كادوا يحكمون بنفيه. إلاّ أن الأخائيين أحبطوا الفكرة بإرسال جنرالهم أريسطيوس Aristœus إلى ميغالوپوليس لإقناعهم بالتخلّي عنها مع أنه كان يناصب فيلوپويمين العداء. وهكذا وجد نفسه شريراً مغضوباً عليه من بني قومه فأخذ يُغري بهم مختلف الأقوام الصغيرة المجاورة، ويحرّضها على الفتنة، واقترح عليها

مبدئياً أن ترفض دفع الضرائب، وتبطل العمل بقوانينهم ولا تقبل بقيادتهم. ودعم هو بالذات مطالبهم ودافع عن وجهات نظرهم وأثار جميع الأخائيين على ميغالوپوليس. على أن هذه الأحداث وقعت بعد فترة من الزمن.

في أثناء قيامه بخدمة الغورتينيين في كريت، لم يلجأ إلى القتال على الأسلوب الپلوپونيسيّ أو الأركاني Arcanian في السهل المنبسط دائماً، وإنما كان يقاتلهم بسلاحهم ويقلب خططهم التعبويّة وحِيَلهم على رؤوسهم، ويبرهن لهم أنهم إنما يستخدمون صنعةً ضدّ براعة، وأنهم أطفال ليس إلاّ أمام جنديّ مجرّب. ثم إنه عاد إلى الپلوپونيسوس بعد بطولات رائعة تحفّ به شهرة داوية. فوجد تيطس كوينتيوس قد هزم فيلپس، ووجد نابيس يخوض حربين، حرباً مع الرومان وحرباً مع الأخائيين. واختير جنرالاً ضدّ نابيس فور وصوله.

إلاّ أنه آثر القتال البحري معه فكان ما لقيه فيه أشبه بما لقيه إپامنونداس: الفشل الذي لا يتوقّع من شهرته. بيد أن بعض المؤرّخين يعلّلون هزيمة إپامنونداس بأنها من عمله، وقد تعمّدها لأنه لم يكن يريد أن ينصرف ميل بني قومه إلى البحر ومنافعه، لئلا ينقلب أفضل الجنود إلى أسوأ بحّارة بالتدريج - على حد قول أفلاطون. ولذلك قفل إپامنونداس راجعاً عن آسيا والجزر دون أن يحقق شيئاً ما، لغرضٍ في نفسه. في حين توهّم فيلوپويمين أن حِنكته القيادية وبراعته في القتال البرّي ستُظهر النتائج الطيبة نفسها في القتال البحري، فخاب أمله وأدرك أن التجربة والخبرة هي جزء هامّ من البسالة، وأن الممارسة دعامة رئيسة في تدبير كل أمرٍ من الأمور. وليت الأمر ظلّ قاصراً على هزيمته في المعركة. فقد كاد غشمه يؤدّي به إلى نكبة إذ كان قد أعدّ سفينة قديمةً ذاعت شهرتها منذ أربعين عاماً وأركب فيها بعض مواطنيه، فتقوّض بناؤها وأحدق الخطر براكبيها وكادوا يغرقون جميعاً.

وتظاهر العدوّ بترك مواقعه في البحر وتحاشي عملياته الحربية في حين كان قد ألغى الحصار على غيثيوم Gythium تحدّياً واستهانة بفيلوپويمين، فأقلع إليها حالاً وباغتهم من حيث لا يتوقّعون، وكانوا قد تفرّقوا جماعات بعد انتصارهم. فنزل البر ليلاً وأضرم النار في معسكرهم وقتل عدداً كبيراً منهم.

وبعد أيام قلائل من هذا كان يقود جيشه بمسيرةٍ في أرض غليظة وعثاء، فالتقى بقوّات نابيس على غير موعدٍ أو انتظار. فوجفت قلوب الأخائيين. وخُيّل لهم أن لا أمل لهم في النجاة لأن العدوّ كان يحتلّ مواقع جيدة في هذه الأرض المتضرّسة. إلاّ أن فيلوپويمين أصدر أمر الوقوف لفترة قصيرة قام خلالها بعملية استطلاع أرضيّة، ليثبت

فيما بعد أن أهمّ ما يقرر نتيجة الحرب هو البراعة في التعبئة للمعركة وتنظيم الجيش لها. فقد تقدّم بجيشه خطوات قليلة مغيّراً نظام سيره بحسب طبيعة الأرض فلم يعد الجنود يشعرون بمشقّةٍ ولم يضطروا إلى الإخلال بصفوفهم وهكذا تخلص من كل عقبة وهجم على العدوّ وألجأه إلى الفرار. ثم وجدهم لا يفرّون باتجاه المدينة وإنما إلى كل اتجاه فرادى مبعثرين في أرجاء الميدان الذي كان يصعب على الخيل، لغاباته وكُثبانه وبِركه وحُفره. فأطلق نفير الانسحاب والكفّ عن المطاردة وعسكر في أرض منبسطة غير خائف، مقدّراً أن فلول العدو ستحاول التسلل خلسة إلى المدينة آحاداً وثُنى في مَوهنٍ من الليل، فوضع كمائن وأرصاداً قوية على طول الجداول والسفوح القريبة من أسوار المدينة. وهكذا وقع بأيديهم عدد كبير من رجال تابيس وصحّ ما توقّعه إذ لم يعودوا كتلة واحدة بل أفراداً كما غَشّهم فرحهم بالفرار فقنصهم كما تُقنص الطيور قبل أن يدخلوا المدينة.

وواتت الشهرة فيلوپويمين ودان كل الإغريق له بالحبّ والإجلال. إلاّ أن الدنيا لا تخلو من الحاسدين المبغضين. وكان تيطس فلامنينوس أحد من وجَدَ عليه. فقد رأى أنه أجدر بالشهرة والإكرام من فيلوپويمين عند الأخائيين فهو قنصل روماني وذاك أركاديّ عاديّ. ثم إنه لا سبيل للمقارنة بين ما فعله هو لأجلهم وما فعله ذاك. فقد أعاد لبلاد اليونان حريتها بمرسومٍ واحدٍ وأزاح عنها كابوس فيلپس والمقدونيين.

عقد تيطس فلامنينوس صلحاً مع نابيس، ثم نصب الأيتوليون كميناً لفابيس وفتكوا به فاضطربت الأمور في سپارطا، وعمّتها الفوضى. فاهتبل فيلوپويمين فرصته فيها، وتوجّه نحوها بجيشه. وهناك تمكن من إقناع بعض أهلها بالمنطق، وأسكت الخوف بعضهم فوافقوا على دخول بلادهم في الحلف الأخائي. ولم يكن بالأمر الهيّن أن تصبح سپارطا عضواً في هذا الحلف ولذلك استطارت شهرة فيلوپويمين عند الأخائيين وأغرقوه بالثناء لتقوية اتحادهم بهذه المدينة العظيمة القوية. ولم يكن امتنان أفاضل السپارطين وكبارهم بأقلّ من أولئك أيضاً وكانوا يريدون حليفاً قوياً يصون حريتهم واستقلالهم، فاعترافاً منهم بالجميل باعوا قصر نابيس وممتلكاته بمبلغ مائة وعشرين تالنتاً من الفضة وقرروا أن يقدموه هديةً لفيلوپويمين وأرسلوا وفداً عن المدينة لتقديمه باسمها. وهنا ظهرت عِفّة المهدي ونزاهته، عِفّةً حقّةً لا شائبة فيها فقد استنكف أعضاء الوفد واحداً واحداً عن مفاتحته، وراح كل منهم يعتذر ويلقي التبعة على من يليه إلى أن رست على طيمولاوس Timolaus وهو سپارطي كان فيلوپويمين قد حَلّ عليه ضيفاً. فسافر طيمولاوس إلى ميغالوپوليس واحتفى به فيلوپويمين واستضافه، ولم يسع هذا إلاّ

أن يبهت ببساطة حياته ووقار عيشته ورزانتها. وصعب عليه مفاتحته بأمر الهدية فلم يذكر له شيئاً عنها وتعلل بأسباب أخرى لمجيئه وقفل راجعاً دون أن يُفصح بكلمة عن مهمته. فأعيد ثانية إلى ميغالوپوليس، فلم يجرؤ وعاد، وفي عودته الثالثة أنهى إليه بالغرض من قدومه بعد كثير من التردد، وبكلمات متعثرة متلجلجة.

فأصغى إليه فيلوپويمين شاكراً مسروراً، وشدّ الرحال إلى سپارطا لينصحهم بألاّ يحاولوا رشوة رجل نزيه، وصديق مخلص لهم، لاشك لديهم في حُسن نيّته وسجاياه، يخدمهم دون جزاءٍ أو ثمن. والحريّ بهم أن يشتروا بهذه الهدية سكوت المغرضين الدسّاسين من مواطنيهم الذين دأبوا على إثارة الفتن والقلاقل في المدينة بخطبهم المهيّجة في الاجتماعات العامة. أو خير لهم أن يحبسوا حرية الكلام عن أعدائهم من أن يحرموها على أصدقائهم. إن هذا لأقوى برهانٍ على احتقار فيلوپويمين الرشوة.

انتُخب ديوفانص جنرالاً للأخائيين فوردته أنباء تشير إلى أن اللقيديمونيين يضمرون حرباً جديدةً فاعتزم أن يُنزل بهم عقاباً. إلاّ أن فيلوپويمين بذل جهوداً مضنية لحمل ديوفانص على السكوت والتريّث، قائلاً إن الزمن قد يتمخّض بأحداث غير منتظرة فالآن يصطرع أنطيوخوس والرومان في قلب بلاد اليونان بجيوش جرّارة على مطامعهما الخاصة، وعلى رجل في مثل مركزه أن يبقى ساكناً ويترقّب نتيجة الصراع بعين يقظة، وأن يعمل جهده للتواري عن أنظار المتصارعين، ويتسامح في المشاكل الداخلية التي تقل عن هذه النتيجة أهميةً، ويسهر على إشاعة الهدوء والاستقرار في الوطن. ولكن ديوفانص لم يدرك الحكمة في قوله وانضمّ إلى تيطس فلامنينوس وحملا معاً على داقونيا، وزحفا يريدان سپارطا. وهنا دفع الحنق فيلوپويمين إلى الإقدام على خطوة لا مبرّر لها قطّ ولا وجه عدل فيها من أية ناحية نظرت إليها، إلاّ أنه أقدم عليها بجسارة غريبة وجرأة خارقة: دخل سپارطا شخصاً عاديّاً لا يتمتع بأية سلطةٍ وابى على قنصل روما وجنرال الأخائيين دخولها. وقام بقمع الاضطراب فيها وأعادها إلى حظيرة الاتحاد الأخائي بالشروط الأولى نفسها.

على أنه أخذ اللقيديمونيين بصرامةٍ لا حَدّ لها عندما أصبح جنرالاً. فعلى أثر مخالفات جديدة ارتكبوها، أعاد أولئك الذين سبق إبعادهم ونفيهم، وقتل بحد السيف ثمانين سپارطياً (على حد قول پوليبيوس، وثلاثمائة وخمسين على حَدّ قول أرسطوقراطس وهدم أسوار المدينة، واقتطع جزءاً كبيراً من أراضيها وضمّها إلى ملك الميغالوپوليسيين. وأخرج منها كل من منحه الطغاة حقوق المواطنة السپارطية واستاقهم إلى أخائيا ماعدا ثلاثة آلافٍ لم يقبلوا بهذا التهجير فما كان منه إلاّ أن باعهم عبيداً،

وعلى سبيل التشفي منهم، بنى بأثمانهم بهوَ أعمدة ميغالوپوليس. وزاد في الطين بلّة وتمادى في اضطهادهم ووطئهم بالنعال وهم يرزحون تحت المصائب وشفى منهم غلّه بعمل فيه غلظة وفظاظة لا مزيد عليهما: ألغى وأبطل العمل بشرائع ليكورغوس وأرغم السپارطيين على تربية أولادهم وفق الأصول الأخائية وعلى العيش بأسلوب عيشهم، كأنما لا يمكن سحق روحهم العالية وإرغام أنوفهم في التراب إن استمروا في تطبيق شرائع ليكورغوس. ولم يرفعوا يداً لمقاومة فيلوپويمين وهو يمضي قُدماً في تقطيع أوصال جمهوريتهم. وذلّ بهم الدهر ولم تبق لهم كرامة. كأن نكبتهم وقارعتهم قد جردتهم عن الحسّ. إلاّ أن الزمن لم يطل بهم كثيراً وتحاملوا على أنفسهم لينفصلوا عن الحلف الأخائي بمساعدة الرومان، ولينبذوا جنسيتهم الأخائية الجديدة التي فُرضت عليهم، وراحوا جهد إمكانهم يعملون على إعادة نُظم ليكورغوس وتطبيق شرائعه الغابرة والخراب والبؤس مازالا يعشعشان فيهم.

لما نشبت الحرب في بلاد اليونان بين أنطيوخوس[٦] والرومان، كان فيلوپويمين مواطناً عادياً لا منصب مُسنداً له. وكان شديد الحنق والتنديد بأنطيوخوس إذ وجده ساهياً لاهياً في خلقيس[٧] لا همَّ له إلاّ مطارحة الهوى المحرّم والزيجات المتوالية، بينما كانت وحداته مشتّتةً في مختلف المدن لانظام يجمعها ولا قائد عليها، انشغل أفرادها في المحرّمات وعكفوا على الملذات. وأدركته الحسرة لأنه لم يكن في قيادة الجيش الأخائي. وصرّح قائلاً إنه ليحسد الرومان على نصرهم، ولو أنه كان سعيد الحظّ بالقيادة في تلك الفترة لباغت جيش أنطيوخوس كله وذبحه عن آخر رجل في الخمّارات والحانات!

وبعد هزيمة أنطيوخوس واشتداد قبضة الرومان على اليونانيين وتضييقهم الخناق على الأخائيين بسلطتهم المتعاظمة لم ير زعماء المدن الإغريقية الشعبيون بُدّاً من خضوعهم... وامتد سلطانهم بسرعةٍ وارتفع - بعناية الآلهة وهَدْيها - إلى قدرة دورات الحظّ لهم من سموّ. وكان فيلوپويمين في ذلك الحين أشبه بالملاّح الخبير في عُرض البحر يغيرّ خطّ سيره آناً، ويساير الريح آناً، إلاّ أنه لا يُفلت الدفّة ويمسك بها بقوة، لا يخطىء أية فرصة تعنّ له، ولايدّخر أي جهد في رعاية كل من يبرز من مواطنيه في ميدان الفصاحة أو الثروة ويشدهم إلى عجلة الدفاع عن حريات بلادهم شداً مُحكماً.

---

(٦) أنطيوخوس الثالث السلوقي ١٨٧ - ٢٢٣ ويلقب بـ[ميگاس Mégas].

(٧) Chalies: المدينة الرئيسة في ايفيا على مضيق إفريپوس.

كان أرسطينوس Aristœnus الميغالوپوليسي، وهو رجل يتمتع بثقة عظيمة عند الأخائيين، من أشدّ أنصار الرومان المتحمّسين لهم على الدوام، قال هذا يوماً في مجلس الشيوخ: ينبغي ألاّ يُثار غضب الرومان أو أن يقاوموا بأي شكل كان. وأصغى فيلوپويمين إلى قوله هذا بصمت كظيم. ثم لم يستطع ضبط نفسه فأجابه غاضباً «ما الذي يجعلك مستعجلاً لرؤية نهاية الوطن اليوناني أيها الرجل التاعس؟». وطلب مانيوس القنصل الروماني من الأخائيين بعد هزيمة أنطيوخوس إعادة اللقيديمونيين المنفيين إلى بلادهم ودعم تيطس طلبه هذا بحرارة. إلاّ أن فيلوپويمين رفض الطلب لا لضغينة يحفظها على المنفيين، بل لكيلا يكونوا مدينين لغيره ولغير الأخائيين بهذه المِنّة، إذ سرعان ما أعادهم فور انتخابه جنرالاً. هكذا كانت روحه طليقة تضيق بأيّ ضغط، وتكره الخنوع مثلما كانت طبيعته تهفو إلى مصاولة ذوي السلطان في أي ميدان من الميادين.

عندما بلغ فيلوپويمين السبعين من عمره، كان قد تولّى قيادة الأخائيين العامة ثماني عشرة مرة. وأمل وهو في سِنّه هذه أن يقضي عام حكمه وبقية عمره في هدوء وراحة. فلقد كانت روح النضال عند اليونانيين (مثل الداء المستفحل يدركه الضعف والانحلال، بانحلال قوى الجسم) تضعف باطّراد عندما يخطئون الوصول إلى المجد السياسيّ. إلاّ أن نكد الحظّ أو قوة إلهيّة ناقمة جندلت فيلوپويمين وسحقته في ختام حياته فكان كالعدّاء السابق الذي يعثر ويسقط أمام نهاية الشوط. وذُكر أنه كان حاضراً في مجلس ورد خلاله مديح قائد فقيل عنه إنه عظيمٌ فقال فيلوپويمين: «ليس ثمّ الكثير مما يقال في مدح رجل ترك عدوّه يأخذه أسيراً وهو حيٌّ». وبعد أيام قليلة من قوله هذا وردت أنباءٌ تشير إلى أن دينوقراطس Dinocrates الماسيني، وهو من ألدّ أعداء فيلوپويمين، مكروه مبغض عموماً لنذالةٍ فيه وخبث طوِيّة؛ تمكن هذا من إشاعة روح الثورة ضدّ الأخائيين في نفوس الماسينيين فرفعوا لواء العصيان، وكان (دينوقراطس) على وشك احتلال موضع يدعى قولونس Colonis، وفيلوپويمين في أرغوس طريح الفراش يعاني الحمّى. فلما سمع غادر فراشه وأسرع إلى ميغالوپوليس وقطع مسافة تزيد عن أربعمائة فُرلنغ ليصلها في يومٍ واحدٍ، ثم ساق خيّالته وهم نخبة من أشرف مواطني المدينة، شباب في ميعة الصبا وعنفوانه توّاقون إلى إظهار بطولاتهم يجمعهم حُب فيلوپويمين وإخلاصهم لبلادهم. وفيما هم يتقدمون نحو ميسينا التقوا بقوات دينوقراطس قرب جُبيل إيفاندر Evander فحملوا عليها ودحروها. إلاّ أن خمسمائةً من مقاتليه التحقوا به متأخرين وكانوا يقومون بحراسة خارجية، فأحيوا الأمل فيه فعاد ينظم صفوفه ويلمّ شعثه

عند التلال، وخاف فيلوپويمين من حركة تطويقٍ وكان حريصاً على سلامة رجاله فتراجع في أرض غليظة وأشرف على قتال المؤخرة بنفسه، وراح يواجه العدوّ ويتعرّض له بالهجمات الموضعية ويجتذبهم إليه يغريهم بقتاله إلاّ أنهم ظلّوا يتحاشونه ولا يجرؤون على تقصير المسافة بينهم وبينه؛ وباتوا يتنادون ويتصايحون من حوله ليس إلاّ. ودفعه اهتمامه بإنقاذ كل رجل من جيشه إلى ترك القسم الأكبر والابتعاد عنه ليجد نفسه أخيراً وهو وحيدٌ وسط حشود من العدوّ. ومع هذا أحجموا عنه ولم يحملوا عليه خوفاً منه وواصلوا رشقه بالنبال والحراب ودفعوا به إلى جُرُفٍ صخرية ولاقى عناءً كبيراً في قيادة جواده خلال عقبات الأرضِ رغم احتثاثه. ولم يكن كِبَر سِنّه حائلاً فقد جعل التدريب الدائم جسمه مرِناً متيناً، إلاّ أن المرض وطول الرحلة حدّا من قواه وأنهكاه فلم يستطع الثبات على صهوة حصانه عندما عثر وسقط بدروعه سقطة عنيفه على أرضٍ صخرية فغاب عن وعيه حيناً. وظلّ من شدة الصدمة لايقوى على الحركة والكلام. حتى ظنه الأعداء ميتاً فتقدموا منه وأخذوا ينزعون عنه دروعه؛ وهنا رفع رأسه وفتح عينيه، فتراموا عليه جميعاً وربطوا يديه خلف ظهره وحملوه إلى مدينتهم وكانوا يصبوّن عليه كل أنواع الإهانات والشتائم. ذلك الذي ما كان يحلم يوماً أن يُقاد أسيراً في موكب نصرٍ لدينوقراطس.

وجُنّ الميسينيون فرحاً بالنبأ وخرجوا زرافاتٍ إلى ظاهر المدينة لمشاهدة الأسير. ولما أقبل بهيئة مزرية لا تليق بسُمعته وأعماله الباهرة وانتصاراته اللامعة تملّكهم الأسى. وراحوا يلعنون حظوظ البشر الخدّاعة النصّابة وجبروتها الطاغي، بل ذرفوا دموعاً تحوّلت شيئاً فشيئاً إلى كلمات عطفٍ. وأخذت الأفواه كُلّها تذكّر بما فعله لأجلهم. وكيف حفظ لهم استقلالهم وصان حرّياتهم بطرده نابيس اللقيديموني. وأراد بعضهم أن يتقرّب من دينوقراطس ويتملّقه فاقترح تعذيب فيلوپويمين ثم قتْله، بوصفه عدوّاً خطراً لا يؤمن جانبه أبداً. وكان أخشى ما يخشاه دينوقراطس الذي أسره أن يظفر بحريته بعد أن أصابته هذه البليّة. وأخيراً زجّوا به في مطبقٍ تحت الأرض كانوا يسمّونه «الخزانة» وهو موضع لا ينفذ إليه نور أو هواء من الخارج وليس له باب وإنما تسدّ فوهته بصخرة كبيرة، فدحرجوها وثبّتوها في موضعها وأقاموا حرساً عليها، ثم تركوه.

وفي تلك الأثناء لمَّ جنود فيلوپويمين شعثهم وافتقدوه فلم يجدوه فأدركهم خوف من موته وتفرّقوا جماعات ينادونه باسمه ويصيحون بأصوات جهيرة، وانثنوا يلوم بعضهم بعضاً لفرارهم المخزي الشائن وتخلّيهم عن جنرالهم الذي فقد حياته صوناً لحياتهم. وعادوا ساهمين بعد كثير من البحث والتحرّي. ثم سمعوا بأسره فأطلقوا

رُسُلاً لتبليغ البلاد بالحادث. وكان وقعه على الأخائيين شديداً وأدركهم ألم عميق وتقرر أن يُطلب إطلاق سراحه وفي الوقت نفسه أعدّوا الجيش لإنقاذه.

استولى على دينوقراطس خوفٌ من أن يؤدي أيّ تأخير إلى إنقاذ فيلوپويمين فقرّر أن يسبق الأخائيين إلى حياته. وانتظر حتى فرّق الليل الجماهير المحتشدة فبعث إليه بجلّادٍ يحمل كأساً من السمّ وأمره أن لا يغادر المطبق حتى يتجرّعه. وكان فيلوپويمين قد استلقى ملتفّاً بمعطفه غير نائم، والألم والقلق قد نالا منه كثيراً، فجاهد في النهوض عندما لمح نوراً وشخصاً قريباً منه يمد إليه كأس السمّ. وتناوله منه وسأله هل سمع شيئاً عن فرسانه ولاسيّما ليقورتاس Lycortas[٨]؟ فأجابه أن معظمهم قد نجوا. فأحنى رأسه ونظر إليه مسروراً وقال:

«هذا حسن! إذن لم نكن سيّئي الحظّ من كل ناحية!».

ولم يزد على ذلك. وتجرع السمّ واستلقى مرةً أخرى، وعجّل ضعفه بتأثير السمّ فقضى عليه فوراً.

وملأ نبأ موته كلّ أخائيا حزناً وبكاء، واجتمع شبابها وزعماء عدد من المدن في ميغالوپوليس وكلهم تصميم وعزم على الانتقام له حالاً، وأمّروا عليهم ليقورتاس جنرالاً وزحفوا على الميسينيين وأعملوا فيهم النار والسيف، حتى أخضعوهم[٩]. وأدرك دينوقراطس ومن أفتى بقتل فيلوپويمين ما ينتظرهم فبخعوا أنفسهم وماتوا غير مأسوفٍ عليهم. أمّا الذين ارتأوا تعذيبه قبل موته فقد كبّلهم ليقورتاس بالسلاسل، واحتفظ بهم لعقوبة صارمة. وقاموا بإحراق جثته ووضعوا رمادها في إناء ثم قفلوا عائدين إلى بلدهم لا بمسيرة عسكرية اعتيادية، بل بموكب مهيبٍ اختلف بين موكب نصرٍ وموكب تشييع، وأكاليل الظفر تعلو رؤوسهم والدموع تجول في محاجر أعينهم، وأسراهم معهم يساقون بالسلاسل. وحمل إناء الرفات پوليبيوس ابن الجنرال. وقد دُفن في القلائد والشرائط فلا يبين منه شيء، وحفّ به نخبة من نبلاء الأخائيين، وتبعتهم القطعات العسكرية راكبةً شاكية السلاح، لا تفصح نظرات أفرادها لا عن كآبة الحداد، ولا عن كبرياء النصر. وكان الناس يخرجون من المدن والقرى لاستقباله كتلاً وحشوداً كأنما هو قادم

---

(٨) «Lycortas» ارتفع قدر هذا القائد كما يقول باوسنياس بسبب صداقته لفيلبويمين وتعلّقه به وهو من ميكالوپولس كذلك: وقد دسّ له السمّ أيضاً في ١٨٢ أي بعد وفاة فيلپويمين بسنتين.

(٩) باوسنياس: قام الميغالوسيون بطردهم على أساس أنهم من المشاركين في تسليم فيلپويمين إلاّ أن السپارطيين حرّضوهم على رفع قضيتهم إلى روما.

من فتوح. وبعد أن يحيّوه ينتظمون في آخر الموكب المتجه إلى ميغالوپوليس. وفي المدينة اختلط الشيوخ بالنساء والأطفال والقادمين وصعّد الجميع زفراتهم وضجّت المدينة كلّها بالندب والعويل فقد كانت خسارة فيلوپويمين خسارة مكانتهم وعزّتهم بين الأخائيين. بهذا التكريم والحفاوة اللائقين بمكانته تمّ دفن رفاته، ورُجم الأسرى حول ضريحه.

نُصب لفيلوپويمين عدد كبير من التماثيل في كثير من المدن، وخُلع عليه ما لا يُحصى من ضروب التكريم. وفي عهد الانحلال اليوناني بعد تدمير كورنث قام أحد الرومان يتهمّ فيلوپويمين علناً - كما لو كان حياً - واقترح بوصفه عدوّاً للرومان إزالة كل ما يذكّر به، فتلت هذا مناقشة حامية وألقيت خُطب، وقام پولينيوس بالردّ على بطانة المتملّقين المرائين فأفاض وأسهب. وأبى موميوس Mummius[١٠] وضباطه تشويه أنصاب الرجل العظيم، وإن كان قد وقف كثيراً في وجه تيطس ومانيوس وأحبط أعمالهما. لقد كان هؤلاء والحق يقال يدركون الفرق بين المنفعة والفضيلة، بين ما هو صالح لنفسه وما هو مفيد لطرفٍ من الأطراف، ولأنهم أناس طيّبون شرفاء فقد حكموا بأن الشكر والجزاء الطيّب هو حق واجبٌ لفاعل الخير من نائله، وأن تكريم الطيّب للطيّب أمر لا يمكن نُكرانه.

وبهذا القدر نختتم الكلام عن فيلوپويمين.

---

(١٠) لوشيوس لومپوس تولّى القنصلية في العام ١٤٦ ق.م. وقاد الحملة الرومانية على بلاد الإغريق وأتمّ تصفية العصبة الأخائية ونهب مدينة كورنث ثم ألحق اليونان بالإمبراطورية الرومانية فأصبحت إقليماً تابعاً. وقد استدعي موميوس فيما بعد ليحل محله تيطس فلامينيوس كما سيجيء شرحه في سيرته.

فلامنينوس

FLAMININUS

(Titus Quinctus)

٢٢٩-١٧٤ ق.م

فلامنينوس[1]
(تيطس كوينكتوس فلامنينوس)[2]

الذي اخترناه قريناً لفيلوپويمين فإنه واجدٌ ضالّته في تمثاله البرونزي القائم اليومَ مقابل الملعب الأكبر Circus Maximus[3]، بالقرب من تمثال أپوللو الكبير الذي جيء به من قرطاجة. والناظر يرى عليه كتابة باللغة اليونانية. هذا عن شكله، أما عن طبعه فقيل إنه كان حارّ العواطف في حالتي الغضب والرضى، إلا أنهما ليستا متساويتين في آثارهما. فقد كان دوماً معتدلاً في العقاب لا يتوخّى فيه الإصرار ولا الصرامة، في حين لايقف في جميله وعمل خيره وإنما يمضي فيهما قُدماً إلى النهاية وقد يبلغ جوده وسماحته لمن يخصّهم بنعمائه ما يبدو به وكأنهم هم المحسنون إليه، وليس هو المحسن اليهم. إن أولئك الذين يحبوهم بفضله يعتبرهم أثمن ماالديه ولذلك يغار عليهم ويحرصُ حرصاً شديداً على سلامتهم! على أنه كان دائم التعطش إلى المجد والرفعة، كثير البحث عن عظائم الأمور وخوارقها لينفرد بفضلها ويبزّ فيها الآخرين. وكان أكثر

---

(١) المخطوطات تثبت الاسم عموماً بصورة غير صحيحة أو تكتبه «فلامينوس» - و«تيطس» هو الاسم الذي يعرف به عادة عند الإغريق.

(٢) كان فلامنينوس قد أُرسل بهدف تحرير كل بلاد الإغريق من حكم فيليب (فيلبس) المقدوني. وأعلن أنه يعتزم إعطاء إيلاتيئا Elateia استقلالها وقانونها الأساسي السليب، وأذاع عن طريق سُعاة ينادون في المدن بوجوب انتقاض إيلاتيئا على المقدونيين بثورة ولكن غباءهم أبقاهم مخلصين لفيليب لاصقين به. إلاّ أن حصار إيلاتيئا وسقوطها بيده كان أول عمل عسكري أتاه [باوسنياس ١٠ - ٣٤].

(٣) تقع آثار هذا الملعب الأكبر على قدمة تلّ البالاتيني وهو على شكل إهليليجي. وفيه كانت تجرى سباقات الخيل. بني في عهد ملوك الرومان وجرى توسيعه تدريجياً في عهدي الجمهورية والإمبراطورية لاسيما في حكم قسطنطين (القرن الرابع بعد الميلاد) وهو يتسع لمائة ألف متفرج.

سعادة بالمحتاجين من القادرين على سَدّ الحاجة، لأن الأولين هم ميدان لممارسة حميد سجاياه، ولأن الآخرين منافسون له في المجد.

كانت روما في ذلك العهد ميداناً لصراع حادٍ، وقد انشغل شبّانها بالحروب، وخاضوا غِمارهما وحلبوا أشطُرها وهم في مُقتبل العمر، وتمرّسوا في فن القيادة العسكرية وهم صغار السنّ. وكذلك كان فلامنينوس فقد تلقّى أول مبادئ القتال ونال أول منصب قياديّ وهو منصب التريبيون في الحرب ضد هنيبعل تحت إمرة مارچللوس عندما كان قنصلاً. ثم سقط مارچللوس في كمين وقتل، وعُيّن تيطس بوظيفة حاكم عام لتارنتوم والأنحاء المجاورة لها بعد استرجاعها فنال شهرة في نشره العدل تساوي شهرته في الحرب. وهذا ما هيّأ له أن يكون مؤسّساً وزعيماً لمستعمرتين رومانيتين أرسلتا إلى مدينتي نارينا Narina وكوسّا Cossa. فملأه هذا بأعرض الآمال وأوسعها وجعله يطمح إلى تخطي المناصب العامة المتدرجة التي كان عليه مزاولتها تباعاً كما جرى عليه العُرف، وهي «تريبيون الشعب»، ثم «بريتور» ثم «أيديل»)، للوصول إلى المنصب القنصلي المنشود وهو أعلى منصب في الدولة. فبإسناد هاتين المستعمرتين وتشجيعهما له ووضعهما مواردهما رهن إشارته تقدّم لترشيح نفسه في المنصب القنصلي مباشرةً، إلاّ أن تريبيونات (مفوّضي) الشعب بالاتفاق مع فولفيوس Fulvius ومانيوس(٤) وحزبهما عارضوا في انتخابه معارضة شديدة قائلين أنه لا يجوز قطّ أن يتقحّم شابٌ غضُّ الإهاب مركز رئاسة الدولة، وهو غير حائز مِراناً أو خبرةً في أوّليّات الطقوس المقدّسة وأسرار الحكم، ليفرض نفسه هكذا مستهيناً بالشرع وبكلّ القوانين.

ومهما يكن فإن مجلس الشيوخ راغ من المشكلة بإيداع أمر الانتخاب إلى الشعب، وأخضع المرشحون للاقتراع العام، فنجح تيطس وهو شاب لم يبلغ الثلاثين، مع زميله الآخر سكستس أيليوس Sextus Aelius. ووقعت حرب فيلبس والمقدونيين عليه بالقرعة. ويبدو وكأن حسن الحظّ قد واتى الرومان في تلك اللحظة فقرر ذلك. فإن مصلحة الشعب وطبيعة الأحوال الراهنة ماكانت تتطلّب جنرالاً عسكرياً بحتاً دَيْدنُه القوّة المجرّدة وإنزال الضربات، بل رجلاً أهلاً لحسن التفاهم بلغة المنطق، وطيب المعاملة ورقّتها. والواقع أن مملكة مقدونيا كانت تزوّد فيلپس بكلّ ما يحتاج إليه جيشه من تجهيزات لمعركته مع الرومان، ولكن مواردها المحدودة لاتكفي لحرب طويلة مُضنية. وكان عليه والحالة هذه أن يعتمد على بلاد اليونان بالمؤن والأرزاق والملجأ، أو

(٤) المقصود به مانيوس كيوريوس Manius Curius.

بمختصر القول القاعدة ومركز التموين الوحيد لعسكره. فإن لم يتحقق إبعاد بلاد اليونان عن ممالأة فيلپس فلا يتوقع إنهاء الحرب بمعركة واحدة. وهذه بلاد اليونان (لم تكن علاقاتها في ذلك الزمن قد توثقت بعد مع الرومان، وإنما بدأت تباشير الصِّلات في هذه المناسبة) لم تتعوّد المبادرة بسرعة إلى قبول سلطان أجنبيّ عليها بدلاً من قادتها وزعمائها الذين تخيّرتهم واطمأنّت إليهم، لو لم يكن جنرال هؤلاء الأجانب سمحاً رقيقاً يفضل الوسائل السلمية العادلة على استخدام القوة الغاشمة. وكان حُسن الكلام والخطاب فيما يوجّهه إلى الآخرين مع تمسّك بقواعد العدل والإنصاف إلى آخر حَدّ لا يحيد عنها قطّ. ولم يكن بأقل من هذا استعداداً وسماحه لتلقي خطاب الآخرين وكلامهم. على أنَّ قصة أعماله العسكرية هي خير ما يوضح ذلك.

وجد تيطس أن سلفيه القائدين سولپشيوس وپوبليوس لم يحققا أي عملٍ عسكري ضدّ المقدونيين ولم يتعرّضا لهم إلا بعد أن تصرّم من العام معظمُه، على أنهما لم يديرا الحرب كما يجب واقتصرا على مناوشات موضعية وحركات استكشاف هنا وهناك لتأمين المسالك والممرات والتجهيزات. ولم يلتحما قطّ مع فيلپس بمعركة كبيرة. فقرّر أن لايضيع سنةً أخرى كما فعلا ببقائه في أرض الوطن يستمتع بمظاهر التجلّة والفخفخة، ويصرف الشؤون الإدارية الداخلّية، وبعد ختامها يلتحق بالجيش يحدده أملٌ خالب، في تمديد فترته سنةً أخرى، فيكون قد قضى الأولى بوظيفة القنصل والثانية بمنصب الجنرال. ترفع تيطس عن هذا، وكان يحسّ برغبةٍ عارمة في استخدام سلطاته في الحرب ومصائرها، وهو ما كان يستخفّ بالعظمة التي تحفّ بمنصبه في داخل الوطن. فطلب من مجلس الشيوخ أن يخوّله حق تعيين أخيه لوشيوس أميرالاً للأسطول، فتمّ له ذلك. وأخذ معه ثلاثة آلاف جنديّ من أولئك الجنود الكُماة الذين دحروا أسدروبال في إسبانيا، وهنيعل في أفريقيا بقيادة سكيپيو، وما زالوا يتّقدون شباباً وقوةً، أخذهم ليكونوا شفرة الحملة القاطعة، ووصل إپيروس سالماً ليجد پوپليوس معسكراً بجيشه في مواجهة فيلپس الذي كان قد نجح في عبور نهر إپسوس والمضايق هناك منذ زمن طويل. ولم يتمكن پوپليوس أن يحقق شيئاً ضد فيلپس لمناعة الموقع الطبيعية. فقرر تيطس أن يقود الجيش بنفسه، فأقال پوپليوس وقام باستطلاع أرضي فلم يجده أقل مناعةً من تمپه Tempe[٥] وإن كان براحاً ليس فيه الشجر والغاب والمروج الأريضة اللطيفة والمسالك التي تزدان بها تمپه. ويجد نهر إپسوس مجراه بين جبالٍ

---

(٥) مدينة صغيرة قرب دلفي إلى الجنوب عند خليج كورنث في بويوتيا.

مشمخرّة باذخة تلتقي جميعها في هضبة فوق مِفصلٍ عميق الغور في الوسط. وهو كثير الشبه بنهر پنيوس Peneus[٦] في سرعة تياره ومظهره العام، ويغطّي مجراه سفوح تلكم الجبال ولا يترك إلاّ شعباً ضيّقاً وعراً شق بمحاذاة النهر، لا يسهل سير الجيش فيه دائماً، ويتعذر إذا كان العدوّ ساهراً على حراسته.

وأشار بعضهم على تيطس أن يقوم بحركة التفافٍ خلال داساريتس Dassaretis ويسلك طريقاً لاحباً أميناً عند منطقة لينكوس Lyncus. إلاّ أنه استقرّ على اقتحام الجبال ولا يسلك السبيل المأمونة لئلا يبتعد كثيراً عن البحر في بقاع جرداء موات. وسيضطر عندما يأبى فيلپس القتال إلى أن يعود من حيث أتى ليكون قريباً إلى البحر بسبب تموينه. إلاّ أن فيلپس الذي كان قد سيطر بجيشه على الشعب برمّته راح يمطر رتل تيطس بالرماح والنبال من حالقٍ فتسقط على الرومان من كل جهة. وحصلت اشتباكات عنيفة وسقط كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين. وبدا الاحتمال بعيداً بانتهاء الحرب على هذه الشاكلة. وفي هذه المرحلة أقبل بعض الرجال الذين كانوا يرعون قطعان ماشيتهم في الجوار على تيطس بكشفٍ هامّ. قالوا إنه يوجد طريق دائري يهمل العدِوّ حراسته وعرضوا أن يقودوا مسيرة الجيش خلاله حتى يبلغوا به شعفة الجبال في غضون ثلاثة أيام على أكثر تقدير. وأخبروه زيادة في اطمئنانه أن خاروپس Charops ابن ماخاتاس Machatas، وهو من سراة إپيروس وصديق للرومان، طالما ساعدهم سِرّاً (لخوفه من فيلپس)، واقفٌ على الخطّة وعالم بمجيئهم إليه. فلم يداخله الشكّ في معلوماتهم وجرّد أربعة آلاف راجلٍ وثلاثمائة فارس بقيادة ضابطٍ، ودلالة هؤلاء الرعاة الذين أوثق كِتافهم زيادة في التحوّط وكانوا يتخفّون نهاراً في فجوات الجبل والغابات الكثيفة، ويغذّون السُّرى ليلاً على ضوء القمر، وكان بدراً. وبقي تيطس بعد فعله هذه القوة هادئاً ساكناً ببقية الجيش، ما خلا بعض مناوشات مع العدّو للمشاغلة وصرف نظره عن التجريدة. ولما حلّ اليوم المرسوم لوصولها إلى القمة من المؤخرة أخرج جيشه بنظام المعركة في الصباح الباكر بكل وحداته الثقيلة والخفيفة ثم قسمها إلى ثلاثة اقسام وقاد هو القسم المتقدم في الشّعب الضيّق الممتدّ بمحاذاة المجرى. فقابله المقدونيون بمقذوفهم ومحذوفهم فالتحم معهم في مداعسةٍ ومماسكة فوق الأرض الغليظة في حين برز القسمان الآخران للقتال وانتشرا بين الصخور بخفة

---

(٦) أو Peneios: نهر في بويوتيا اشتهر بما أشيع من أسطورة قيام هرقل بقتل كيكتوس على ضفافه انتقاماً لليكوس التراقي الذي كان قد فتك به القتيل (باوسنياس وليڤي).

وبمعنويات عالية، وراحوا يشقون طريقهم إلى الامام. وما إن بزغت الشمس حتى رأوا دخاناً ضعيفاً يشبه الضباب يمور فوق الجبال على مبعدة منهم، ولم يكن باستطاعة العدوّ مشاهدته لأن مواقع الرومان كانت خلفهم في الذّري العليا. والرومان أيضاً كانوا يعانون توتّراً وإرهاقاً ومشاقّ شديدة لذلك لم يسعهم إلاّ أن يفسّروا مع الشكّ الكثير تلك الإشارة بما يتفق ورغباتهم. ولكن شكّهم تبدّد عندما أخذ يتكاثف ويسودّ ويتعالى. وأيقنوا أنه إشارة الإنارة التي يطلقها زملاؤهم، فصاحوا صيحة الانتصار واندفعوا يشقّون طريقهم إلى الأمام، وانكفأ العدوّ على أعقابه يلوذ بأصعب الأرض وأوعرها. وردّدت جماعة القمّة صيحة زملائهم من الأعلى.

وولّى المقدونيون الأدبار فراراً بأسرع ما أمكنهم ولم يسقط منهم في الواقع غير ألفين، والفضل بنجاتهم يعود إلى صعوبة الأرض التي منعت الرومان من ملاحقتهم. على أن المنتصرين نهبوا معسكرهم واستولوا على أموالهم وعبيدهم وأصبحوا سادة المضيق واحتلوا كل إيپيروس، وقاموا بكل هذه الأعمال وهم حريصون على الضبط والنظام والاعتدال والسماحة. في حين كانوا بعيدين عن البحر تفصل بينهم وبين سفنهم مسافة شاسعة، وهم يعانون شحّاً كبيراً في جراياتهم الشهرية من القمح، ومصاعب عظيمة في شراء ما يحتاجون إليه منه. مع هذا كله لم تمتد أيديهم إلى نهب البلاد مطلقاً وفيها من الغلاّت والأرزاق ما يزيد عن حاجة أهلها ومن كل نوع. ثم وردت الأنباء بتراجع فيلپس تراجعاً أقرب إلى الفرار منه إلى المسير في بلاد ثسالي، وأنه يرغم سكان المدن على الخروج من ديارهم واللجوء إلى الجبال، فيقوم بحرق مدنهم ويبيح لجنوده مقتناهم الذي تركوه بمثابة غنائمَ حربٍ، فبدا وكأنه يسلّم البلاد كلها للرومان. ولذلك كان تيطس حريصاً على أن يمرّ بها جنوده كأنما هي بلدهم أو أمانة أودعت بأيديهم، وقد شددّ عليهم بذلك. فما لبثوا أن حصدوا جزاء مسلكهم السوّي الطيب. فقد فتحت المدن أبوابها لهم تباعاً ما إن وضعوا قدماً على الأرض الثسالية. وهبّ يونانيو ثرموپيلي بلهفة وشوقٍ لمصافحتهم وربط مصيرهم بهم. ونقض الأخائيون حلفهم مع فيلپس وصوّتوا بالإجماع على محالفة الرومان عسكرياً، ورفعوا السلاح ضدّ حليفهم السابق. وكان الأتيوليون الذين هم أخلص حلفاء الرومان يرغبون كثيراً في أن يأخذوا على عاتقهم حماية مدينة الأوپونتيين Opuntians إلاّ أن هؤلاء لم يرضوا بغير الرومان حامياً وأرسلوا بطلب تيطس ووضعوا أنفسهم ومصائرهم بين يديه. وقيل عن پيروّس Pyrrhus أنه كان ينظر إلى الجيش الروماني من جبل قريبٍ أو من برج مراقبة لأول مرةٍ في حياته، فتابعه وهو ينتظم في خطّ المعركة وقال معقّباً: «انه

لم ير خطّ معركة أقرب شبهاً للبرابرة من هذا». ولم يكن يسع من وجد آنذاك قريباً من تيطس أن يحكم عليهم بخلاف ذلك لأول وهلة. على أن من أدخل المقدونيون في روعهم أموراً تخالف الواقع فحدّثوهم عن غازٍ يقود جيشاً بربرياً وعلى ذُبابة سيفه يحمل الخراب والعبودية أينما حَلّ، كانت دهشتهم عظيمة وفرحهم لا يوصف عندما رأوا فيه رجلاً مهيباً في زهرة العمر رقيق الطبع مهذّب الحاشية إنساني النزعة، إغريقياً بحديثه وصوته، متمسّكاً بأهداب الفضيلة والخلال السامية فعلقوا به وأحبّوه وتركوه وهم ألسنة حمد به. وانتشروا في المدن يعدّدون سجاياه ويردّدون أفضل الأخبار عنه وأعلنوا بما يقرب الإيمان أنهم يجدون فيه نصيراً وصائناً لاستقلالهم وحرياتهم. وتأكد ذلك عند اليونانيين عندما طلب فيلپس عقد الصلح بعد فترة، فقدّم تيطس عرضاً بالصداقة والسلام يتضمّن شرطاً يحتّم عليه ترك اليونانيين يصرّفون أمورهم وفق شرائعهم، وسحب كلّ حامياته من المدن اليونانية. فرفض فيلپس ذلك؛ ومن هذا ساد يقين عام حتى عند أنصار فيلپس بأن الرومان لم يأتوا لقتال الإغريق بل المقدونيين في سبيل الإغريق.

ولهذا سارعت بقية الدول اليونانية إلى مسالمته ومحالفته. وفيما كان يجتاز بويوتيا دون أن تبدر منه بادرة عداءٍ، خرج أشراف ثيبة وسراتها إلى ظاهر المدينة لاستقباله، وكانوا بسعي من براخيللتس Brachylles متمسّكين بحلفهم مع المقدونيين إلاّ أنهم رغبوا في إظهار حُسن نواياهم وتكريمهم لتيطس إثباتاً لحيادهم وصداقتهم للفريقين. فتلقاهم تيطس بحفاوة وترحاب وجلس إليهم يشاغلهم بمسامرته الرقيقة ويلقي عليهم مختلف الأسئلة والاستفسارات تتخللها حكايات كسباً للوقت وإتاحة فترة راحة لجنوده بعد مسيرتهم الشاقة. وهكذا دخل المدينة ساعة رجوع أعضاء الوفد إليها وأُسقط في يدهم لأن الجنود الذين دخلوا معه كانوا كثيرين فسلّموا بالأمر الواقع كارهين. ولم يتصرّف تيطس في المدينة تصرّف الفاتح فقد قام فيهم خطيباً وأخذ يحثّهم على ربط مصيرهم بمصير الرومان. وعقبه أطالوس Attalus ملكهم وحاول أن يقوم بدور المحامي والراعي وبذل جهداً فاق ما يتحمّله كبر سنّه على ما يبدو. فأصيب بدُوار في وسط خطبته وترنّح وسقط فاقد الوعي. وبعد ذلك بقليل نُقل إلى آسيا بسفينة، وهناك توفّي ودخل البويوتيون في حلفٍ مع الرومان.

لمّا بعث فيلپس بسفارةٍ إلى روما، بادر تيطس ايضاً إلى إرسال مندوبين يمثّلونه لإقناع مجلس الشيوخ بإبقائه قائداً للجيش إذا ما قرّر مواصلة الحرب، أو أن يمنحه شرف عقد الصلح إذا قرر إنهاءها. ولشوقه العارم إلى الجاه والرفعة تجاذبه الخوف من

خسران ماكسبه من صيت في حالة تعيين جنرال آخر لمواصلة الحرب وأفلح مندوبوه في تسوية الأمور وتدبيرها بما فيه مصلحته. وفشل فيلپس في كل مساعيه ومقترحاته، كما عُهد إلى تيطس بإدارة دفّة الحرب كالسابق. وما إن بلغه قرار مجلس الشيوخ حتى زحف على ثسالي لمناجزة فيلپس تحدوه الآمال الجسام. وكان جيشه يعدّ ستة وعشرين ألفاً (منهم ستة آلاف راجل وأربعمائة فارس أمدّه بهم الإيتوليون) وهو مقارب لعدد قوات فيلپس. وكان كلاهما يتحرّقان شوقاً إلى المعركة، فتقدّم أحدهما من الآخر حتى بلغا موضعاً قريباً من سكوتوسّا Scotussa وقد استقر عزمهما على الاشتباك. إنّ كرّة هذين الجيشين الجرارين أحدهما على الآخر لم تخلّف في قائديهما القلق والخوف المعهود في مثل هذا الموقف بل كان الأمر على خلاف ذلك إذ كان طموح القائدين وحماستهما للقتال متوقّدَين. فالرومان كانوا يطمحون إلى فتح مقدونيا، تلك البلاد التي رفع الإسكندر اسمها عالياً وجعلها مثلاً مضروباً في المنعة والقوة. أما المقدونيون الذين وجدوا في الرومان عدوّاً يختلف عن الفرس فقد كانوا يأملون من انتصارهم أن يجعلوا اسم فيلپس أشهر من اسم الإسكندر. ولذلك راح تيطس يحمّس جنوده، ويطلب منهم أن يضربوا مثلاً فريداً في الإقدام لأنهم سيلعبون على أعظم مرسح في الدنيا وهو بلاد اليونان، وسيقاتلون أشجع الخصوم. وألقى فيلپس خطبة على جنوده قُبيل المعركة كما جرت به العادة عندهم، وارتقى ربوة عالية تقع خارج المعسكر ليصل صوته إلى أبعد مسافة ساهياً عن خطورة ما فعل إمّا نتيجة الاستعجال المبتسر أو بمحض سوء الصدف، إذ تبيّن فيما بعد أن هذه الربوة هي مقبرة. واستبد به قلق عظيم لما رأى من خَور عزائم جنوده لهذا الفأل السيّئ فلازم معسكره طول اليوم وأبى القتال.

وأسفر الصباح الذي تلا ليلاً ماطراً طليلاً عن يوم انقلبت فيه الغيوم إلى ضباب نشر على السهل ظلاماً داجناً. وزحف من الجبال المجاورة إلى الأرض التي تفصل بين المعسكرين هواء ثقيل هيدبٌ ضبابيّ في رأب الضحى فأخفى الجيش عن الجيش فأخرجا فصائل منهما بعضها للاستطلاع وبعضها للكمائن، فوقعت إحداها على الأخرى حال انفصالها عن القسم الأكبر واشتبكت في قتال فوق ما يُدعى كينوس كيفالي Cynos Cephalae وهو عدد من رؤوس تلال حادّة المرتقى متقارب بعضها من بعضٍ واسمها مشتقّ من شبه شكلها. ثم بدأت تطرأ على الموقف مفاجآت وتغييرات أسرع مما كان متوقعاً من ميدان قتال أرضه متعادية غير مطمئنة، فآناً تجد مطاردة عنيفة، وآناً تجد فراراً سريعاً. وظلّ قائدا الجيشين يرسلان النجدات تباعاً إلى موضع المناوشات كلما شاهدا رجالهما يشدّون على العدوّ أو ينسحبون، إلى أن تبدّدت الغيوم

وصفت السماء وأصبح الطرفان على بيّنة مما يجري فزحف الجيش على الجيش وبدأت المعركة. وكان فيلپس يلازم الميمنة وهناك ضغط ضغطاً شديداً على الرومان بفلانكسه، مستفيداً من الموضع المرتفع الذي تمركز فيه فلم يصمدوا له، وعجزوا تماماً أمام الصف الكثيف من الأسنّة المشرعة، والثقل المركّز للكُتلة المتلاحمة. على أن مسيرته كانت قد تكسّرت بسبب تموّج الأرض وقد لاحظ تيطس ذلك، فانصرف ذهنه عن الجناح الذي تراجعت فيه قواته غير معلّق عليه أملاً كبيراً أو لا أمل مطلقاً. وخفّ مسرعاً إلى الجناح الآخر وشنَّ هجوماً على المقدونيين، فلم يستطع هؤلاء المحافظة على سلامة فلانكسهم بسبب تعادي الأرض ووعوثتها. كما عجزوا عن تنظيم صفوفهم بالعمق، وهو أهم النقاط في قوتهم التعبوية. وأرغمهم العدوّ على القتال الأحادي، فالتحم الرجل بالرجل وهو ينوء تحت دروع ثقيلة لا قِبَل له بها. إن الفلانكس المقدوني أشبه بوحش واحدٍ هائل القوة، يتعذر الوقوف بوجهه مادام كتلة واحدة متلاحمة، محافظاً على نظامه: تُرسٌ يلامس تُرساً كالجدار المرصوص. ولكن ما إن ينفصم أو يتفكك حتى تقع الواقعة ولا تكون الخسارة قاصرة على القوة المتحدة وإنما تتعداها إلى أفرادها، إذ يخسر كلّ منهم قدرته القتالية بسبب طريقة تدريبهم، كذلك لأن كل جنديّ يكون أقوى وهو جزءٌ من كلّ، مما لو كان فرداً بنفسه. فعندما لحقت الهزيمة بهذا الجناح أخذت وحدات من الرومان تطارد المنهزمين، بينما انثنى القسم الآخر إلى الهجوم على أجنحة المقدونيين التي ما زالت تقاتل، وهذا ما أخلّ بصفوف الجناح المستظهر فما لبث أن ولّى الأدبار وألقى بسلاحه. ووقع من المقدونيين ثمانية آلاف قتيل. وأُخِذ منهم خمسة آلاف أسير. وأنّب الإيتوليين لأنهم كانوا السبب في نجاة فيلپس، إذ انشغلوا في سلب المعسكر ونهبه تماماً لمّا كان الرومان يطاردون العدوّ المغلوب. فلم يبق شيء من الغنائم للذين عادوا من المطاردة.

وتبودلت كلمات جارحة، انقلبت إلى شحناء وخلافٍ كبير. ثم تمادوا في نزقهم وأغاظوا تيطس بنسبة الانتصار إلى أنفسهم، والإيحاء إلى اليونانيّين بهذا، لما نشروه وبثّوه بينهم. حتى ساد الاعتقاد بين الشعراء وعموم الناس حتى اليوم بأنهم أصحاب الفضل الأول فيه. وبدا ذلك مما أُلّف من أغانٍ وكُتِب من تقاريظ تخليداً للنصر. والمقطوعة التالية هي من أكثر المقطوعات شيوعاً:

«انظر أيها المستطرق! انظر الألوف الثلاثين من أبناء ثسالي عُراة، بلا قبور!
جندلهم الإيتوليون قطعات اللاتّين التي جاء بها تيطس من أرض إيطاليا
فهرب فيلبس الملك لا يلوي مثلما يعدو الظلّيم!».

ألّف هذا الشعر ألكيوس Alcaeus[٧] في هجاء فيلپس أو السخر به، مبالغاً في عدد القتلى، وقد شاع وتغنّت به الركبان، وكان حنق تيطس منه أكثر من حنق فيلپس الذي عارض الشاعر بقصيدة فحسب من نظمه جاء فيها:

«انظر أيها المستطرق، انظر إلى الصليب الذي سيصلب عليه ألكيوس عارياً لا يستر عورته شيء».

على أن حوادث صغيرة كهذه كانت تمضّ تيطس إلى أبعد حدّ، لحرصه الشديد على سمعته عند اليونانيين. ولذلك انفرد بالعمل وحده بعد الحادثة، ولم يعر الإيتوليين اهتماماً قلّ أم كثر. فجرحهم في عِزّة أنفسهم.

وعندما مال تيطس إلى سماع حديث الصلح، وقَبِل سفارة تحمل عروضاً من الملك المقدوني، راح الإيتوليون ينشرون في طول بلاد اليونان وعرضها قولهم إن الصلح هو من شأن الجميع وليس لأحد أن يستقلّ به، وإن تيطس يبيع سلماً لفيلپس في الوقت الذي يسهل جلبه استئصال جذور الحرب. وسحق القوة التي استعبدت بلاد اليونان أولاً.

وفي الوقت الذي دأب الايتوليون على نشر هذه الاشاعات المُغرضة لتحطيم التحالف الروماني، بادر فيلبس إلى إعلان استسلامه واستسلام مملكته المطلق لتيطس والرومان، وبذلك وضع حَدّا لدسائس هؤلاء، كما وضع تيطس نفسه حداً للحرب بقبوله خضوع فيلپس، وإبقائه في حكم مملكته مقدونيا مشترطاً عليه سحب قواته من اليونان ودفع غرامة قدرها ألف تالنت، وتسليم كُلّ سُفنه إلاّ عشراً. وأرسل ديمتريوس أحد أبنائه رهينة إلى روما، وبهذا عززّ موقفه بخير ما يمكن، واتخذ الاحتياطات الحكيمة للمستقبل. ففي ذلك الزمن كان هنيبعل الأفريقي ألدَّ أعداء الرومان قاطبة قد وصل منفياً من بلاده إلى بلاط الملك أنطيوخوس، وأخذ يغريه وينصحه باستغلال محالفة الحظّ له ولا يتقاعس عن استثمار توفيقه في كل الشؤون التي اضطلع بها، وها إن عظمة نجاحاته أنالته لقب أنطيوخوس الأكبر. وبهذا بدأ العاهل يستطيب فكرة السيطرة على الدنيا. وحتى بات وهو يتحرّق شوقاً إلى مقارعة الرومان ولو لم يعمد

---

(٧) شاعر من ليسبوس. من شعراء القرن السادس ق.م. وهو من أقرباء الشاعرة المعروفة سافو. أرستقراطي المنشأ. وصلنا من شعره قصيدتان في الربّة أثينا الإيتونية. وقد أثبتهما سترابو. كما عثر له على مقطع واحد من قصيدة في أپوللو. وهنالك عدا ما ورد في پلوتارخ بيتان من الشعر يعرّض بوحشية فيليب واعتياده التخلص من أصدقائه بإسقائهم السمّ بدل الخمر.

تيطس إلى عقد الصلح حكمةً منه وبُعدَ نظر، ولو وقع أنطيوخوس على الرومان وهم منشغلون بحروب فيلپس في اليونان، ولو اتحدت مصالح هذين الملكين العظيمين المحاربين ضدّ الدولة الرومانية، لوجد الرومان أنفسهم في ورطة أخرى لاتقلّ حراجةً وخطورة عن محنتهم في حروب هنيبعل. ولكن تيطس عجّل ببناء أركان السلم بين الحربين فتخلّص من الخطر الحاضر قبل أن يداهمه الخطر المقبل. وبهذا تم له في آن واحد: تخييب أنطيوخوس في أولّ آماله، وتخييب فيلپس في آخرها.

ولما أرسل مجلس الشيوخ عشرة مندوبين إلى تيطس لتبليغه بقرار تحرير كلّ بلاد الإغريق ومنحها استقلالها، ما عدا كورنث وخلقيس ودمترياس Demetrias حيث تقرر إبقاء الحاميات الرومانية فيها احتياطاً وحذراً من أنطيوخوس، ملأ الإيتوليون الدنيا اتهامات وافتراءات وأثاروا المدن عليه صاخبين مطالبين تيطس بكسر قيود «بلاد اليونان» (كان فيلپس يدعو هذه المدن الثلاث ببلاد اليونان) وتوجهوا إلى الإغريق متسائلين بصورة استفزازية: أليس هو مصدر سلوى وعزاء لهم كبيرين أن تغدو قيودهم أكثر نعومةً وصقلاً مما كانت قبلاً، وإن ازدادت ثقلاً؟ ألا يستأهل تيطس لقب المخلّص والمحسن وهو الذي كسر قيد أرجل اليونان وطوّق عنقها بالحديد؟ كل هذا أثار غيظ تيطس وأسخطه فراح يطلب من مجلس الشيوخ الإذن بسحب الحاميات الرومانية من هذه المدن، فأجيب إلى طلبه فسحبها فوراً حتى يكون اليونانيون مدينين له بكامل الفضل لا بجزءٍ منه.

وأزِفَ موعد الاحتفال بدورة الألعاب «الإستمية» فتقاطر النُظّار وملأوا المقاعد التي تحيط بميدان السباق، ولم يسبق أن حضر مثل هذا العدد الكبير قبلاً. لقد أُنعشت آمال اليونانيين بُعيد الحروب الطاحنة الطويلة لا بفضل السلم والطمأنينة بل لنيلهم حريتهم فأقبلوا يستمتعون بعيدهم هذا، وهم آمنون، خالي البال. وجلجل نفير البوق يعلن الصمت. ثم خرج المنادي ووقف في وسط النُظّار وأعلن قائلاً: إن مجلس الشيوخ الروماني وتيطس كونتيوس الپروقنصل والجنرال، بعد أن أتمّا دحر فيلپس الملك، والمقدونيين، أعادا إلى الكورنثيين، واللوكريين، والفوكيين، واليوبويين، والأخائيين والفْثيوتيين Phthiotis والمغنيزيين Magnetians والثساليين والپيرّوبيين Perrhoebians[8] أراضيهم، وحرياتهم، وحق مزاولة شرائعهم وألغيا كل الإتاوات

(٨) حول ما ذكر عن الفْثيوتس [باوسنياس ٧: ١٠]. يظهر أن رمفكتيون ابن ديوكاليون كان قد أنشأ مجلس العُصبة الإغريقية في دلفي من القبائل التي ذكر پلوتارخ معظمها في المتن. إلاّ أن =

والضرائب عنهم، وسحبا جميع الحاميات من مدنهم.

في مبدأ الأمر لم يسمع البيان كثير منهم، وحصل لغط وضجة حائرة بين الجموع الحاشدة، فريق منهم يتساءل عن الخبر، وفريق مرتبك، وفريق يصيح مطالباً بإعادة إلقاء البيان. ثم ساد السكون مرة أخرى، ورفع المنادي صوته جهيراً بالبيان وأفلح في إسماع الجميع، فندّت في أعقابه صرخة من الجمهور كانت من الارتفاع بحيث سُمعت في ساحل البحر. وهبّ الجميع وقوفاً ناسين ماهم فيه من احتفال وسيطرت عليهم رغبة في الوثوب إليه وتحيّة بطل الإغريق المنقذ.

هذه الحادثة أيّدت بالبرهان العملي ما سمعتُه كثيراً عن تأثير قوة الصوت البشري، فقد صادف أن كانت جماعة من الغربان تحوم فوق ميدان السباق فسقطت ميتةً على إثر الصرخة. ولابدّ أن يُردّ هذا إلى انفصام آنيّ في الهواء، لأن الصوت كان هائلاً والهتاف له دويّ، فتمزّق الهواء وترك الطير بلا سندٍ فهوت، مثل من يحاول السير فوق فراغٍ. إلاّ إذا تصوّرنا أن سقوطها وموتها كان نتيجة ضربة ذات دويّ مثل حذف الرمح، ومن المحتمل أيضاً أنه إعصارٌ دوّار، كالدوّامة البحرية بلغ من عنفه أنه أحدث تفككاً شديداً في الهواء كما اسلفنا.

ولنعد إلى تيطس؛ انتهت الألعاب فاندفعت الجماهير تحاصره من كل جهة، ولو لم يكن يتوقع أن تنسحب هذه الحشود الهائلة في الوقت المناسب لما عرف كيف يتخلص منها، فقد أعياهم الهتاف والصيّاح وهم أمام مقصورته وداهمهم الليل فأخذوا يتفرّقون تباعاً، ليلتقي الصديق بالصديق والمواطن بالمواطن فيتعانقان ويتبادلان التهانئ والتحايا ويدعو أحدهما الآخر إلى داره للاحتفال بالمناسبة في مجلس طعام وشراب. وهناك يتضاعف السرور حين يبدأون بالحديث عن الماضي ويستذكرون أحوال بلادهم، والحروب التي خاضت غِمارها دفاعاً عن حرّيتها، ولم تكن سعادة حريةٍ أكثر استقراراً وأبعث على الشكر والامتنان من حرية كسبها لهم رجال آخرون غير رجالها، فجاءتهم خالصةً دون أن يسفكوا في سبيلها قطرة دم واحدة، أو يلبس فردٌ منها ثياب الحداد. في هذا اليوم احتوت يدها على جائزة هي أثمن الجوائز وأرفعها قدراً وأجدرها بالصيانة والذّود.

= رندروسيون [حوالي ٣٥٠ ق.م] أحد خصوم ديموستينس يقول إن هؤلاء الناس لم يكونوا أكثر من جيران، اجتمعوا في دلفي وسُمّوا «بالجيران أمفكتيونيز» وقد بقي هذا المجلس حتى عهد فلامينينوس.

لا شكّ في أن الحكمة والشجاعة هما من أندر الخصال الحميدة في البشر، ولكن الأندر بين الأفاضل والكرام هو الرجل العادل المنصف. وإن رجالاً من أمثال أغيسلاوس وليساندر ونيقياس وألكيبيادس عرفوا كيف يمثلون دور القائد، وكيف يديرون دفّة الحرب، ويقودون رجالهم إلى النصر براً وبحراً، إلاّ أنهم لم يعرفوا كيف يستخدمون هذا النجاح في غايات كريمة نزيهة. وإذا استثنى المرء مجد ماراثون، وقتال سلاميس البحري، ووقعتي پلاطيا وثرموپيلي، ومآثر كيمون في يورميدون Eurymedon وسواحل قبرص، فإن اليونان خاضت كل حروبها ضدّ نفسها، ليستعبد بعضها بعضاً. وأقامت كل أنصاب انتصاراتها على أشلاء بؤسها وعارها. ووصلت حافة الخراب والدمار بجرائم عظماء رجالها ومطامعهم ثم يأتي شعبٌ غريب عنها، بقي محافظاً على بضع جذوات، أو بقايا تافهة من المزايا العامة التي أخذوها من سادتهم الغابرين، شعب كان من أعجب العجب أن تجني اليونان منه أية فائدة فكرية أو لسانيّة، يأتي لينقذها من الطامّة الكبرى والنازلة العظمى ويخلّصها من قبضة الأسياد الجائرين، والطغاة المستبدين ويعيد إليها حريتها السليبة.

وظلّوا يمتّعون ألسنتهم وأفكارهم على هذا المنوال. بينما باشر تيطس في وضع بيانه موضع التطبيق، فبادر في الحال بإرسال لنتولوس Lentulus إلى آسيا لتحرير البارغيليين Bargylians، وبعث تيتيلّليوس Titillius إلى ثراقيه ليشرف على سحب حاميات فيلپس من المدن والجزر هناك، بينما أبحر پوپليوس ڤيلليوس لمفاوضة أنطيوخوس بشأن حرية اليونانيين الخاضعين لحكمه. ورحل تيطس نفسه إلى خلقيس، ومنها إلى مغنيزيا بحراً لتسريح الحاميات هناك وتسليم مقاليد الحكم إلى أيادي الشعب. وعقب ذلك بقليل أُرسل إلى آرغوس ليترأس الاحتفالات بالألعاب النيمية. وقام بواجبه في إدارة الحفل خير قيام، وأعاد إذاعة البيان الخاص باستقلال اليونان، ثم قام بزيارة كل المدن وحضّ أهاليها على طاعة القانون واحترامه، والتمسّك بالعدل والاتحاد ومحبة بعضهم بعضاً. وأزال التناحر الحزبي فيما بينهم، وأعاد المبعدين والمنفيين السياسيين. وبمختصر القول، إن أكثر ما سَرّه من انتصاره على المقدونيين هو صيرورته العامل الرئيس في مصالحة اليونانيين بعضهم مع بعض، وهكذا بدت حريتهم أصغر جزءٍ من الأفضال التي حباهم بها.

يُروى أن ليكورغوس الخطيب أنقذ كزينوقراطس Xenocrates الفيلسوف من أيدي جُباة الضرائب أثناء ما كانوا يسوقونه إلى السجن لنكوله عن دفع الإتاوة الأجنبية،

ثم تحرّى إنزال العقاب بهم لاعتدائهم هذا. وبعدها التقى كزينوقراطس بأولاد ليكورغوس فابتدرهم بقوله:

«إني يا أبنائي أفي والدكم الجميل الذي أسداه لي خير وفاء وأنبله، فقد نال في مقابله ثناء كل الناس».

على أن المكافأة التي كانت تنتظر تيطس كوينكتوس والرومان على الجميل الذي صنعوه لليونان لم تنته بالثناء الفارغ، فالذي أقدموا عليه أجزاهم ما يستحقون من السمعة والثقة، ثم من السلطان والسيادة على سائر الشعوب. فمنها من رحّب بقادتهم ومنها من أرسل يطلبهم ويرجوهم بسط حمايتهم عليه. ولم تنفرد الدول ذات النظم الجمهورية، أو المدن الواحدة، بهذا بل تعداها إلى الملوك الذين يقاسون اضطهاد غيرهم من الملوك، فلم يترددوا في إلقاء أنفسهم في الكنف الروماني الأمين. وما هي إلا فترة جدّ قصيرة حتى دان العالم كلّه بالولاء للرومان. وليس ببعيد أن يكون للعناية الإلهية دخل في هذا. وكان اعتزاز تيطس وتيهه بتحرير اليونان يفوق اعتزاز بكل مجد آخر حققه كما يظهر من الكتابة التي قدّم بها التروس الفضيّة مع تُرسه الخاص إلى أپوللو دلفي وهذه هي:

«أيها التنداريّان Tyndarids السپارطيان يا ابني جوپتر القوّامين اللذين خصصتما الفروسية بحبكما

إن تيطس الذي ينتمي إلى قوم إينياس العظيم قد أوقف هذا على شرف تحرّر اليونان.

وأهدى أپوللو تاجاً ذهبياً أيضاً مع هذه الكتابة:

«يا ابن لاتونا Latona المبارك: إن القائد العظيم المنتسب إلى اسم إينياس
قد وضع هذا التاج الذهبي فوق قطط شعرك الإلهي، لكي يتألق ويسطع.
نطلب منك يا فيوبوس Phœbus أن تمنح تيطس النبيل المجد والشهرة».

وقد وقع هذا الحدث التاريخي مرّة أخرى في مدينة كورنث أيضاً. الحدث الأول كان بطله تيطس، والثاني نيرون في عهدنا الحاضر، وبمناسبة الألعاب الإستمية في كورنث أيضاً. فقد سمح كلاهما أن يتمتّع الإغريق بحرياتهم ويطبّقوا شرائعهم. والأول منهما أعلن ذلك عن طريق المنادي. أما نيرون فقد أذاعها في أثناء اجتماع عامّ من منصّة القضاء في خطبة ألقاها على الجمهور. على أن ذلك حدث بعد زمن طويل مما نحن فيه.

واشتبك تيطس مع نابيس[٩] في أشرف وأعدل حرب خاضها. وكان خصمه هذا من أعتى طغاة لقديمون وأشدّهم استبداداً. إلاّ أنه خيّب آمال الإغريق في النهاية، فقد عقد صلحاً معه عندما سنحت له فرصة الظفر به فلم ينتهزها وتركها تفلت من يده عن قصد. وترك سپارطة تندب حظها وترزح تحت أحقر أشكال العبودية. ولا ندري هل دفعه إلى هذا خوفه من استمرار الحرب مدة طويلة، مما يستتبع حتى إرسال جنرال جديد في محلّه لمواصلتها وحرمانه مجدها، أم كان بدافع الحسد والغيظ والمباراة من فيلوپويمين الذي مسّت شهرته منه وتراً حسّاساً (كان فيلوپويمين قد اشتهر عند الإغريق آنذاك ببطولات ومعارك كثيرة، إلاّ أنه حقق ما يشبه المعجزات في حربه مع نابيس هذا سواء في ميادين الشجاعة أم ميادين الرأي، فراح الأخائيون يبجّلونه ويرفعون من شأنه على خشبات مسارحهم، ويساوونه بتيطس) فتملّك القنصل الروماني الغيظ حين وجد أركادياً عادياً قاد بضع اشتباكات محلّية ضمن تخوم بلاده يلهج بذكره الناس ويضعونه في مصافّ القنصل الروماني الذي خاض حروباً عظيمةً غايتها تحرير الإغريق كافة وحمايتهم من الاستبداد. مع هذا فإن ما أقدم عليه تيطس لا يخلو من وجاهة، أعني أنه وضع حدّاً لهذه الحرب عندما أدرك بثاقب بصيرته أن القضاء على الطاغية قد يتسبّب في القضاء على كثير من السپارطيين.

قام الأخائيون بالكثير لإعلاء شأن تيطس[١٠] وتكريمه عن طريق إصدار مراسيم وقوانين بذلك. ولم تصل واحدة من هذه الإنعامات إلى مرتبة المآثر التي حقّقها إلاّ مكافأة واحدة أشاعت في نفس تيطس السعادة والغبطة التي لم يحسّها لأي مكافأة أخرى. فقد شاء نكد طالع الرومان الذين أسرهم هنيبعل في حروبه مع روما أن يباعوا

---

(٩) [باوسنياس] دكتاتور سپارطي (حوالي ١٩٢ ق.م) يذكره ليڤي وپوليبيوس أيضاً. ذكر أنه حصّن سپارطه وقوّى أسوارها. ولكنها لم تصمد أمام الرومان. وما زالت بقايا هذه الأسوار قائمة ومعظمها يشاهد في بساتين البرتقال والليمون بالقرب من نهر يوروتاس.

(١٠) لم يكن الأخائيون [باوسيناس] راضين على أسلوب فلامينينوس في حربه مع المقدونيين. وكان أسلوباً يتّسم بالقسوة والفظاظة فقد نهب أريتريا وألقى على كورنث الحصار، ودعا الأخائيين إلى مشاركته في قتال جيوش فيليب لقاء منحهم لقب الحليف الروماني لكنهم ظلوا ينقمون عليه ويوجّهون إليه اللوم للطريقة اللاإنسانية التي كان يعامل بها مدنهم القديمة الواقعة تحت الاحتلال المقدوني والتي لم يأت منها أي ضرر للرومان. وقد طال النقاش بين مندوبي الأخائيين وفلامنينوس. وأخيراً تغلّب رأى أولئك الذين كانوا يميلون إلى الرومان وعُقد الحلف وكانت نتيجته أن ابتُلعت بلاد الإغريق وأصبحت إقليماً من أقاليم الإمبراطورية الرومانية بحجة تحريرها من يد المقدونيين.

عبيداً هنا وهناك، فيتفرّقوا آحاداً في مشارق الأرض ومغاربها، ليرزحوا تحت وطأة الرقّ القاسية. وكان يوجد في اليونان وحدها ألف ومائتان منهم تقريباً في ذلك الحين. وكانت حالهم تدعو إلى الرثاء وتستدرّ الشفقة والعطف، وخصوصاً عندما كانوا يلتقون بإخوة لهم أشقاء، وبأبناء ومعارف وأصدقاء؛ عبيدٌ من الرومان، يلتقون بأحرار من الرومان، أسرى بمنتصرين! وقد تملّك تيطس هَمٌّ عظيم لهم وانشغلت خواطره بأمرهم، لكنه لم يُقدم على نزع أي واحد من يد سيده قسراً. فما كان من الأخائيين إلاّ أن اكتتبوا بمالٍ لافتدائهم جميعاً، ودفعوا خمسة پاوندات من الذهب فدية للعبد الواحد منهم، ثم جمعوهم في موضع وقدّموهم هدية لتيطس في الساعة التي كان يهمّ فيها بركوب السفينة. فأبحر وهو في أسعد حالةٍ ولا غرو فإن أعماله الشريفة ضمنت له مكافأة شريفة قمينة بالبطل المجاهد المحبّ لأوطانه. وكان هؤلاء العبيد المحرّرون أروع منظرٍ في موكب نصره التالي. فقد ساروا في الموكب خلفه وهم في زيّ عبوديتهم (في العادة إن العبيد بسبب حالة رقّهم يحلقون رؤوسهم ويسترونها بقبّعات من اللبّاد). وزادت من منظر الموكب روعة وفخامة الخوذ اليونانية والتروس المقدونية، والرماح الطويلة التي عُرضت على الجمهور المتفرج مع بقية الغنائم. ولا نذكر المبالغ الطائلة من المال، فقد أحصى توديتانوس Tuditanus مبلغ ٣٧١٣ پاونداً من الذهب المسبوك، و٤٣٢٧٠ پاونداً من الفضة الخالصة، و١٤٥١٤ قطعة نقد مما يدعى فيلبيّة Philipies. وهذه لا يدخل فيها التالنتات الألف التي كان فيلپس مديناً بها للدولة الرومانية، وتنازلت عنها فيما بعد بناء على توسّط تيطس ومساعيه الرئيسة فقد أبرئت ذمّته منها وأعيد إليه ابنه الرهينة، على أثر دخوله الاتحاد الروماني وعقد الحلف معهم.

وبعد هذا الزمن بقليل دخل أنطيوخوس بلاد اليونان بأسطول كثير السفن وجيش لجب وأخذ يتقرّب إلى الدويلات اليونانية ويحرّضها على الثورة والعصيان، يؤيده ويساعده في ذلك الإيتوليون الذين مافتئوا طول هذه المدة يُبطنون غُلاّ وحِقداً عميقاً للرومان. واقترحوا عليه أن يذيع على اليونانيين أنه ماجاء إلاّ لتحريرهم، وهي حجّة ظاهرة السخف لإثارة الحرب فهم لم يكونوا في حاجة إلى الحرية بعد أن نالوها. إلاّ أن الإيتوليون أشاروا على أنطيوخوس بهذه السياسة وبتقديم العروض الطنّانة لافتقاره إلى سبب وجيه للحرب.

خاف الرومان من ثورة تجتاح بلاد اليونان، وأدركتهم رهبة من قوة أنطيوخوس العسكرية، فبعثوا بالقنصل مانيوس أچيليوس Manius Acilius لإدارة دفّة الحرب، على أن يكون تيطس معاوناً في القيادة، رعايةً لخاطر اليونانيين الذين أفلح في ضمّ

بعضهم إلى صف الرومان ساعة أن فاتحهم بهذا، كما أعاد بعضهم إلى خطيرة الحلف حين بدأوا يترددون ويتأرجحون، كالطبيب الذي جاء في وقت مناسب ليستخدم العلاج الشديد، علاج حبهم الكبير له. فأوقف أول مرحلة للمرض قبل الوقوع في الخطأ الجسيم. وبقيت قلّة كان الإيتوليون قد استمالوهم إلى صفهم فعجز عنهم طبّه ولم يستطع أن يفيدهم في شيء. وعلى أيّة حالٍ فقد أنقذ هؤلاء المتمرّدين وحماهم من كل ضّرٍ بعد أن انتهت المعركة مهما بلغت أخطاؤهم ودرجة عصيانهم فقد حاقت الهزيمة بأنطيوخوس في ثرموبيلي ولم يكتف بترك ميدان القتال هارباً وإنما ركب البحر في الحال وأبحر إلى آسيا. وقام مانيوس القنصل شخصياً بغزو قسم من بلاد الإيتوليين ومحاصرتهم بينما سُمح للملك فيلپس باخضاع البقية الباقية. وهكذا فبينما تجد المقدونيين ينهبون أموال هالي دولوپس Dolopes، ومغنيزيا من جهة، ويسلبون مقتنى الأثامانيين Athamanes والأپرانتيين Aperantians من ناحية أخرى، وفيما كان مانيوس يعيث في هراقليا فساداً وخراباً، ويحاصر ناوپاقتوس Naupactus التي كانت في قبضة الإيتوليين، نجد تيطس الذي ما زال يكنّ لليونانيين العطف والرأفة الحادبة عليهم، يبحر من البلوپونيسوس لملاقاة القنصل، وليأخذ في زجره وتعنيفه أولاً لأنه ترك فيلپس يستأثر بالغنائم والمنافع الحربية وهو الذي ربح الحرب سلاحه، بينما انطلق يصبّ جام غضبه على مدينة واحدة والمقدونيون يجتاحون الممالك والأمم العديدة. واتفق أن أهل المدينة المحاصرة لمحوه واقفاً وما إن تثبّتوا من شخصه حتى راحوا ينادونه من فوق الأسوار، مادّين أكفّ الضراعة إليه والتوسّل به. فلم يحر بنبت شفة وإنما دار على عقبيه والدموع تجول في عينيه وانطلق لحال سبيله. وبعد فترة من الوقت قصيرة اجتمع بمانيوس وبعد مداولة مثمرة في الموضوع تمكن من إقناعه بإثارة عاطفة الشفقة فيه أن يمنح الإيتوليين هدنة ووقتاً لإرسال وفدٍ إلى روما ليطلبوا من مجلس الشيوخ شروطاً معتدلة.

وكانت أصعب مهمّة وضعت تيطس في أشدّ المواقف حراجةً هي توسّطه للخلقيديين عند مانيوس. فقد أثار هؤلاء حنقه بسبب زيجة عقدها أنطيوخوس في مدينتهم أثناء ماكانت تدور رحى الحرب. وكان زواجاً غير مناسب قط من ناحية العمر، فالعريس شيخٌ هرم وقد وقع في عِشق صبيّة، كذلك لم يكن الوقت صالحاً لأن الزواج تمّ أثناء دوران رحى الحرب. كانت العروس بنت من يُدعى كليوپتوليموس Cleoptolemus وقيل إنها كانت ذات جمال فتّان. وبناء على هذه المصاهرة تبنّى الخلقيديون قضية الملك بحماسة وإخلاص. وتركوه يجعل مدينتهم قاعدة لعملياته

العسكرية طوال فترة الحرب، وإليها لجأ بأسرع ما أمكنه عندما هُزم واندحر. ولم يمكث في خلقيس مدة أكثر مما تطلّب لأخذ زوجه الصبيّة وأمواله وأصدقائه المقرّبين والإبحار إلى آسيا. وهكذا هُرع مانيوس إلى خلقيس يدفعه سخطه وغيظه فأسرع تيطس خلفه باذلاً جهده لتسكين ثورته وتهدئه انفعاله حتى نال بُغيته منه ومن رؤساء القوم في روما وأنقذ خلقيس.

وبهذا كان الخلقيديون[11] مدينين بحياتهم لتيطس، فأوقفوا على اسمه أفضل وأفخم صروحهم ومعابدهم. وما زالت الكتابات واضحة عليها حتى يومنا بهذا المآل:

«أوقف أهل خلقيس هذا النادي الرياضي (جمنازيوم) لتيطس ولهرقل».

و«كرّس الأهالي هذا الدلفينيوم إلى تيطس وإلى هرقل».

بل عملوا أكثر من هذا، فقد جعلوها عادة منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا أن ينتخبوا ويعلنوا كاهناً لتيطس، ويُنشدوا بعد تقديم الذبائح والقرابين المائعة نشيداً خاصاً لم نورده هنا لطوله وإنما سنقتصر على إثبات خاتمته:

«نحن نقدّم نذورنا ودعاءنا إلى دين الرومان الذي كان لنا عوناً من قديم الزمان فنصلّي له الآن والى أبد الآبدين.

فيا أيتها العذارى قُمن للرقص، فإن الرقص وأناشيد إيو - پايان Io - pœan معه هما فرضان واجبان لدين الرومان، ولك أيضاً يا تيطس المنقذ!».

وأمطرته البلدان اليونانية الأخرى بصنوف التكريم والتشريف الذي يناسب جلائل أعماله. ومما جعل هذا التكريم صادقاً حقيقياً تلك الثقة العجيبة وذلك الحبّ الذي كسبته له خصاله العادلة المنصفة، وصفاء قلبه، فإن وقع بينه وبين شخص آخر أي خلاف أو خصام لأيّ شأن من شؤون الدنيا، أو كان مبعثه حبّ المنافسة والمباراة (كخلافه مع فيلوپويمين، ثم مع ديوفانص عندما تولّى قيادة جيش الأخائيين) رأيت حُنقه لا يستمر كثيراً ولا يمضي به شوطا بعيداً أو يخرج إلى حيزّ العمل، لكن ينتهي حالما يجد له متنفّساً في أقوالٍ لا تتعدّى الحدود المتعارف عليها من حرية القول العامة للمواطنين. ومختصر القول: لم يتهم تيطس أحدٌ بالخبث والغِلّ وإن عزا إليه كثير من الناس العجلة والرعونة. وعلى العموم كان من أطيب الناس معاشرةً وأحلاهم مجلساً مع قابلية مدهشة في لباقة الحديث وقوّة الحجّة البليغة. وتروى عنه في هذا الصدد

(١١) فيلسوف خلقيدوني [٣١٤ - ٣٩٦ ق.م] تلميذ لأفلاطون حاول التوفيق بين مذهب أستاذه والفلسفة الفيثاغورية.

حكايات منها: أنه توخّى من الأخائيين أن يعدلوا عن فتح جزيرة زاكنثوس Zacynthus فقال:

«لو أنهم مدّوا رأسهم مسافة بعيدة جداً عن البلوبونيسوس لتعرّضوا لخطر لا يقلّ عمّا تتعرّض له السلحفاة التي تخرج من طبقها العظمي».

ومنها ما جرى في أوّل لقاء له مع فيلبس عند اجتماعهما لمفاوضات السلام وإيقاف القتال، فعرّض به هذا قائلاً إنه جاء تحفّ به بِطانة ضخمة، بينما أقبل هو بمفرده ومن غير بطانة، فرد تيطس قائلاً:

«أجل فقد أبقيت نفسك وحيداً بقتلك جميع أصدقائك!».

ومنها: أن دينوقراطس الميسّيني سكر في أحد مجالس القصف واللهو بروما، فقام يرقص وهو مرتدٍ ثياب النساء. وفي اليوم التالي قصد تيطس للمداولة معه في خطة رسمها لإنقاذ الميسينيين من أيدي الأخائيين وطلب المساعدة فيها. فقال له تيطس:

«هذا ما يتطلّب منّي بعض التأمُّل! فإني والحقّ يقال لأعجب كيف يستطيع رجل يتبنّى مثل هذه المشاريع أن يرقص في مجلس شراب وهو مرتد ثياب النساء!».

ومنها: أنه بعدما فرغ سفراء أنطيوخوس من تعداد قائمة بالجماعات التي تتألف منها قوّات سيّدهم الملكية أمام سفراء أخائيا واستعرضوا أسماء صعب،ة عقّب تيطس بقوله:

«مرّة تناولتُ العشاء مع صديقٍ، ولم أجدني إلاّ وأنا أجادله بخصوص الأصناف التي هيّأها وأبديت عجبي كيف تمكّن من إعداد مثل هذه الأصناف العديدة، فأجابني «إن شئت الحقيقة يا سيدّي، فكلّ هذه الألوان قد هُيّئت من لحم الخنزير، إلاّ أنها طُهيت بطرائق مختلفة». كذلك الأمر عندما سردوا عليكم يا رجال أخائيا أسماء رمّاحة أنطيوخوس وحرسه المشاة وحملة الأسِنّة في عسكره، ونصيحتي لكم أن لا تداخلكم الرهبة والعجب فكلّهم سوريون ولكنهم يحملون أسلحة متنوّعة».

بعد أن أنجز تيطس كل هذا في بلاد اليونان، وانتهت حروبه مع أنطيوخوس، عاد إلى روما وعُيّن «چنصوراً» وهي من أهمّ وظائف الدولة، وأعلى تكريم تخلعه الجمهورية. وكان يزامله فيها ابن مارچللوس الذي تولّى القنصلية خمس مرات. وقد قاما بمقتضى السلطة التي يخوّلها لهما المنصب بعزل أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ غير بارزين. كما أدرجا في سجلاّت المواطنة الرومانية كل السكان الذين وِلدوا من

أبوين حُرّين، ولم يُقدما على ذلك تلقائيا وإنما فُرض عليهما فرضاً. فقد أثار تيرنتيوس كوليو Terentius Culeo، مفوّض (تريبيون) الشعب آنذاك، العامّةَ ودفعها إلى المطالبة بذلك رغم معارضة طبقة الأشراف:

في ذلك الزمن كان أفريقانوس سكيپيو وماركوس كاتو أعظم شخصيتين في روما وهما على خلاف كبير، فأسند تيطس منصب الشيخ الأول في المجلس لسكيپيو. وبذلك ابتُلي بعداوة كاتو كما سأبسطه في الحادثة النحسة التالية:

كان لتيطس أخ يُدعى لوشيوس فلامنينوس لا يشبهه في أية ناحية من أخلاقه ولاسيما انغماسه الشديد في الملذات واستهتاره وتجرّده عن كُلّ صفات الحِشمة والاستقامة. وكان عنده نديم من الفتيان الغرانيق اعتاد أن يأخذه معه أينما رحل سواء أعهد إليه بقيادة جيش، أم إدارة إقليم من الأقاليم. ومرّة كانا في مجلس شراب والفتى يفسق مع لوشيوس ويقول له:

- إن حبيّ لك يا سيّدي عظيم إلى درجة يجعلني أفضّل سعادتك على سعادتي. لذلك جئت إليكَ دون أن أمتّع نفسي بعرضٍ للمصارعين في روما بينما لم أشاهد رجلاً يُقتل في حياتي.

فسُرَّ لوشيوس بقوله وأجابه:

- لا عليك بهذا وقرّ عيناً فبإمكاني اشباع رغبتك.

وأصدر أوامره بإحضار واحد من المحكومين بالموت من السجن، وباستقدام أحد الجلّادين وأمره أن يقطع رأسه قبل ختام مجلس الشراب.

ويورد ڤاليريوس أنتياس Valerius Antias الحادثة طبق ما ذكرناه إلاّ في نقطة واحدة وهي أن لوشيوس أقدم على هذا تحقيقاً لرغبة امرأة. إلاّ أن ليڤي يقول نقلاً عن خطبةٍ لكاتو أن غاليّاً هارباً من الخدمة العسكرية جاء هو وزوجه وأولاده إلى باب المجلس، فقبض عليه لوشيوس واقتاده إلى الغرفة وقتله بيده إرضاءً لمعشوقه. وربما قال كاتو هذا على سبيل المبالغة في شناعة الجرم. إلاّ أن شيشرون - ولا نذكر غيره من الثقات - يخبرنا في رسالته «عن الشيخوخة» أن القتيل لم يكن هارباً من الجنديّة، بل هو سجين محكوم بالموت. وشيشرون يذكر هذا نقلاً عن رواية كاتو الشخصية للقضية حسب ادّعائه.

ومهما يكن من أمرٍ فالحقيقة الثابتة هي أن كاتو عَمدَ في أثناء إشغاله منصب الچنصور إلى التحرّي الدقيق الصارم عن سيرة أعضاء مجلس الشيوخ وحياتهم الخصوصية، مستهدفاً تطهير المجلس وإصلاحه وإخراج العناصر الفاسدة فيه، وبنتيجة

ذلك طرد لوشيوس مع أنه كان قنصلاً سابقاً، فضلاً عن أن العقوبة ألحقت العار بأخيه أيضاً. فتقدم الأخوان بالاستئناف إلى الجمعية العامة مستنجدين ووقفا والدمع يجول في أعينهما طالبين أن يُدلي كاتو بالدوافع والأسباب التي حملته على وسم أسرة شريفة بهذا العار. فوجد الشعب أن الطلب عادل ومتواضع. فبرز كاتو دون تردّدٍ أو وجلٍ، ووقف مع زملائه وسأل تيطس هل له علم بقضية مجلس العشاء، فأجاب تيطس بالنفي، فرواها كاتو. وتحدّى لوشيوس إن كان قادراً على إنكارها رسمّياً. فسكت لوشيوس ولم يُحر، فاستنتج الشعب أن عقوبة الطرد كانت عادلة ومناسبة. وشيّعوا كاتو من منصّة القضاء إلى بيته تشييعاً جماهيرياً حافلاً. إلاّ أن تيطس بقي طعين الكرامة يحزّ في نفسه العار الذي أصاب أخاه. فانضمّ إلى أولئك الذين حقدوا واضطغنوا على كاتو منذ زمن بعيد. ونجح في تأليب معظم أعضاء المجلس ضدّه، فألغى وأبطل كلّ التعهدات والمناقصات، والصفقات العامة التي عقدها كاتو على حساب الضرائب العامّة، كذلك وجّه إليه عدداً كبيراً من التهم، ملاحِقاً بغضبه حاكماً عادلاً شرعياً، ومواطنين ممتازين بسبب شخصٍ لا يستحق ذلك وإن كان أخاً له. ونال مبتغاه وشفى غليله بطريق الهجوم العنيف القاسي الذي يصعب أن يُنعت بالعمل الوطنيّ أو الصائب. ومهما يكن من أمرٍ ففي يومٍ ما كان ثمّ عرض في الملعب وشاهد جمهور المتفرجين لوشيوس يجتاز المقاعدَ المخصّصة لجلوس الشيوخ القناصل السابقين متلصّصاً ليجلس في مقعد حقيرٍ لا يليق به. فأثار عاطفة الجماهير ولم يسعهم احتمال المنظر فأخذوا يهيبون به بأن يتقدّم وزاد صُراخهم حتى نهض واحتلّ مقعداً بين القناصل السابقين الذين أفسحوا له مكاناً.

إن طموح تيطس إلى الشهرة كان له ما يبرّره في نظر الدنيا كلها عندما راحت الحروب التي فصّلناها آنفاً تقدّم الوقود اللازم لتغذيته. كأن ظلّ مثلاً في منصب التريبيون العسكري بعد انتهاء فترة قنصليّته، دون أن يلحّ عليه أحدٌ في قبولها. ولكن لمّا خرج من الوظائف العامة وتقدّمت به السنّ أخذتْ نقائصه تزداد ظهوراً. وسمح لنفسه وهو في أواخر عمره أن ينساق وراء تعطشه إلى الشهرة بنزق الشباب وتهوّره. وأدّى به هذا الشوق إلى أن يتورّط في مؤامرة على حياة هنيبعل - على ما قيل - ففقد بذلك احترام الكثيرين.

كان هنيبعل قد فرّ من بلاده، ولجأ أوّل الأمر إلى أنطيوخوس، وبعد أن حلّت الهزيمة بهذا الملك في فريجيا Phrygia وبادر مسروراً إلى عقد الصلح، بات هنيبعل في وضع حرج واحتال للهروب ثانيةً، وبعد أن تجوّل في عدة بلادٍ شريداً طريداً،

استقرّ أخيراً في بيثينيا عارضاً خدماته على ملكها پروسياس Prusias. وكان كل الناس في روما يعرفون أين هو، ولكنهم آثروا أن يتغاضوا عنه ويتجاهلوا وجوده بعد أن بلغ من الضعف والعمر عِتياً وتخلّى عنه الحظ ولم يعد يخشى منه أذىً. لكنّ تيطس الذي أُرسل إلى تلك البلاد في سفارة معيّنة من مجلس الشيوخ إلى الملك پروسياس، وجد هنيبعل هناك فثارت حفيظته وأسخطه أن يجده حيّاً بعد. وأبى تيطس أن يلين ويتسامح، رغم توسّل پروسياس وتوسّطه له عنده بوصفه صديقاً مخلصاً ومستجيراً له. هناك بنوءة قديمة يظهر أنهّا تنبئ بنهاية هنيبعل على الشكل الآتي:

«الأرض الليبيّة هي التي تضمّ رفات هنيبعل».

وقد فُسّر المقصود بليبيا الأفريقية، وأنه سيدفن في قرطاجنة كأنما كان يتوقع أن يعود إلى مدينته ويختم حياته فيها. إلاّ أنه كان يوجد موضعٌ رمليٌّ في بيثينيا يحدّ البحر، وبالقرب منه قرية صغيرة تدعى ليبيسّا Libyssa. كان من تصاريف القدر أن يتخذها هنيبعل سكناً إلاّ أنه احتاط من أول قدومه لنفسه فأمر بحفر سبعة أنفاق تحت الأرض تمتدّ مسافة شاسعة من بيته إلى مختلف الجهات المتضادة، لا يمكن معرفة فُتحاتها الخارجية قط. فعل ذلك خوفاً من جبن پروسياس وعدم ثقة بصلابته، وحذراً من الرومان. فما إن بلغه ما أمر به تيطس حاول أن يفرّ من خلال هذه الأنفاق. إلاّ أنه وجد جنود الملك يطوّقونها فقرّر أن يضع حدّاً لحياته. ويقول آخرون إنه لفّ القسم الأعلى من ثوبه حول عنقه وأمر خادمه أن يضع ركبته خلف ظهره ويخرق طرفي الثوب ويبرمه حتى يخنقه به تماماً. ويقول آخرون إنّه شرب دم الثور مثلما فعل تميستوكلس وميداس Midas. ويكتب ليڤي أنه كان يحتفظ بسمّ جاهز خلطه لهذه الغاية وأنه تناول القدح بعد أن ملأه به، واحتساه قائلاً:

«ألا فلنُرِح الرومان من خوفهم الدائم وقلقهم المستمر، فقد أرهقتهم وطال عليهم انتظار موت شيخ مكروه منهم. ولعَمْري إن تيطس لن يكسب حرباً مجيدة بهذا وهي أيضاً ليست جديرة بأولئك الأسلاف الذين أرسلوا يحذّرون عدوّهم وقاهرهم پيروس من سُمّ دسّه له بعض الغادرين!».

كذلك اختلف النقلة في كيفية موت هنيبعل. ولكن عندما بلغت أنباؤه مجلس الشيوخ، ثار بعضهم استنكاراً لتيطس، ونددوا بعمل لم يأمروه به واستقبحوا قسوته. فقد أرسل هنيبعل إلى حتفه عندما أمسى طيراً كبير السنّ وفقد ريشه وعجز عن الطيران وأبى أن يتركه لشأنه يعيش منسياً أليفاً دون تعرّض، كل ذلك لشهوته العارمة إلى المجد، ومن دون أن يدعو إليه داعٍ.

وبدأوا الآن أيضاً ينظرون بإعجاب متزايد إلى سماحة وسموّ خلق سكيپيو أفريقانوس واستذكروا كيف ترفّع عن نفي هنيبعل أو إرغام بني قومه على تسليمه إليه، بعد أن ألحق به هزيمة ساحقة وهو في أوج قوّته وأروع شهرته. وكيف أنه صافحه مرّة في لقاء بينهما قُبيل الاشتباك في المعركة، وكيف فرض عليه شروطاً سهلةً بعد أن تغلّب عليه وعقد الصلح ولم يُهن حظوظه عندما هوت به. وقد قيل أيضاً إنهما التقيا مرّة أخرى بعد ذلك في إفسّس فسارا معاً وكان هنيبعل يتقدمه، فلم يجد سكيپيو بأساً في ذلك واستمر في سيره دون أن يُبدي أقل إشارة. ولما أخذا يتكلمان عن القادة قال هنيبعل مؤكداً إن الإسكندر أعظم قائدٍ أنجبته الدنيا ويليه پيرّوس، وأما الثالث فهو نفسه. فسأله أفريقانوس باسماً:

- ماذا كنت ستقول إذن لو لم أغلبك؟

فأجاب هنيبعل:

- كنت جعلتُ نفسي الأول لا الثالث يا سكيپيو!

كان سلوك سكيپيو في هذا محطّ إكبار وإعجاب. أماّ سلوك تيطس الذي أهان «الموتى» بعد أن قضى عليهم غيره، فقد مجّه الناس وخطّأوه كثيراً، على أن بعضهم والحقّ يقال استحسنوا منه هذا العمل فهولاء كانوا يعتبرون هنيبعل كالنار لا تحتاج إلاّ إلى نفخ لتتأجّج ويرتفع لهيبها. لم يكن بدنه ولا ساعده وهو في عزّ رجولته وزهرة عمره مصدر عظمته وقوته، وإنما كانت خبرته وحِنكته الكاملتان المتحدتان بمكره الغريزي وكرهه الشديد لاسم الرومان وهو مما لا تضعفُه الشيخوخة أو تَفُلُّ من غُرابه. لأنّ ما طُبعت عليه النفس وجُبلت يبقى ملازماً لها في حين تتغيّر الحظوظ باستمرار. وليس بأسهل من أن يؤدّي أمل جديد إلى محاولة جديدة عند أولئك الذين دفع بهم حقدهم إلى أحضان العداوة حتى النفس الأخير. هذا وإن الحوادث التي عقبت ذلك برّرت عمل تيطس أكثر من هذا. فقد تمكن أرسطونيقوس Aristonicus وهو من أسرة موسيقيّ ضاربٍ عاديّ أن يملأ آسيا بالقلاقل والفتن بادّعائه أنه ينحدر من نسل يومينوس. ورفع لواء العصيان والثورة مثيرْيداتس Mithridates بعد الهزائم والاندحارات التي ألحقها به سيللاّ Sylla وفيمبريا Fimbria والمقتلة العظيمة التي أوقعها بين ضبّاطه من ذوي الرتب العليا، فضلاً عن جنوده، وبرهن على خطورته أمام لوكوللوس بحراً وبراً.

إن هنيبعل لم يذلّ ولم يبلغ الدرك الذي بلغه كايوس ماريوس، فقد كان يتمتع بصداقة الملك پروسياس وحرية استخدام موارده كلها وقيادة أسطوله البحري ومشاته

وخيّالته. في حين يضحك الآن من يسمع أن ماريوس هائم على وجهه في فيافي أفريقيا شقيّاً بائساً مستجدياً، وهو الذي كان قبل فترة قصيرة جداً يفرض رحمته على روما، وعصيّه تلهب ظهور الرومان وفؤوسه تجزر في رقابهم. كان الأمر حقيقياً واقعياً بحيث لا مجال ثمّ لنسمّي هذا الشيء بالصغير، وذاك بالعظيم، إذ ليس هناك ما يضع حدّاً باتّاً لعوامل التغيّر والتبدّل في الأشياء. بل هناك ما يضع حدّاً نهائياً لوجودها وكينونتها فحسب. وعلى هذا يخبرنا بعض الكتّاب أن تيطس لم يفعل ما فعل من تلقاء نفسه، وإنما بعد سبق تفاهم فيه مع لوشيوس سكيپيو، وأن سفارته إنما كانت لغرض القضاء على هنيبعل فحسب.

والآن وبعد هذا لا نجد في بطون التاريخ أيّ تنويه آخر بعمل قام به تيطس حربياً كان أم سياسياً، فقد مات بهدوء وسلامٍ. وها نحن أولاء سنراه من زاوية مقارنته بفيلوپويمين.

أوجُه المقارنة بين فيلوپويمين وفلامنينوس

أولاً: بخصوص ما أسبغه تيطس على اليونان من منافع، لانجد أحداً بزّه في ذلك، لا فيلوپويمين ولا غيره ممن فاقوه شجاعة وإقداماً. كان هؤلاء إغريقاً يقاتلون إغريقاً، في حين كان تيطس رجلاً أجنبياً عن البلاد، حارب لأجلها وفي سبيل تحرّرها، في الوقت الذي تركها فيلوپويمين ورحل إلى جزيرة كريت فتخلّياً عن كلّ ما يكفل معاونة بني قومه المطوّقين من كل جهة. وتغلّب تيطس على فيلبس ودحره في قلب بلاد اليونان وبذلك أنقذهم وحرّر مدنهم. أما إذا استعرضنا المعارك التي خاضاها، فإن فيلوپويمين لما كان جنرالاً للأخائيين قتل من اليونانيين أكثر ممن قتل تيطس من المقدونيين أثناء نجدته لليونانيين. وأما عن نقائصهما فإن نقطة الضعف في خُلق تيطس هي الطموح، بينما كان عيب فيلوپويمين العناد. وبقدر ما كانت نار غضب الأول سريعة الاتّقاد كانت نار غضب الثاني صعبة الإطفاء. لقد حفظ تيطس لفيلپس مهابة الملك وسلطانه وعفا عن الإيتوليين ووقف صديقاً لهم، لكن فيلوپويمين أضرّ ببلاده وخاصمها ونزع منها بعض القرى المجاورة. وكان تيطس على عهده مع كلّ من منحهم صداقته مرةً. أما الثاني فكان قُلّباً سريع التغيّر على أصدقائه مستعداً لسحب فضله عند أوّل خطأ يبدر منهم. فهذا الذي كان يوماً ما صديقاً حميماً للقيديمونيين ما لبث أن هدم أسوار مدينتهم وسوّاها بالقاع وعاث فيها سلباً وتخريباً، ثم انقلب عليهم أخيراً وقوّض صروح حكومتهم ودمّر شرائعها كلها. وكان والحق يقال كالمستهين بحياته والمرتخص لها بدافع التهوّر والطيش، إذ حمل على الماسينيين باستهتار بعيد عن ذلك الحذر والحكمة التي اتّسمت بها أعمال تيطس ولم يكن في عجلته ضرورة أو أيّ شيء من الادراك.

إن المواقع العديدة التي خاضها فيلوپويمين والغنائم الكثيرة التي حازها تدفعنا إلى تفضيله على تيطس في الفنون الحربية. لقد قرّر تيطس بوقعتين فقط نتيجة الصراع بينه وبين فيلپس، بينما خرج فيلوپويمين من عشرة آلاف معركة منتصراً وليس للحظ فيها

سهمٌ مهما قلّ، وإنما كانت لمهارته اليد الطولى فيها. ونال تيطس شهرته مستنداً إلى سلطان روما المزدهر، اما فيلوپويمين فقد ازدهر في فترة انحلال قوّة اليونان وتقلّص سلطانها لذلك عُزي نجاحه إلى مجهوده الشخصي، بينما ساهمت روما بنصيب كبير في نجاح تيطس فقد وضعت تحت إمرته وطوع بنانه رجالاً شجعاناً. أمّا الآخر فهو الذي صاغ رجاله لأنه كان فوقهم. ومع أن فيلوپويمين اصابه الكثير من نكد الحظ لوقوفه غالباً ضَدّ بني قومه فإن أسوأ الحظّ هذا هو دليل على كفاءته. وكلّما تساوت الظروف وجدنا النجاح الأكبر من نصيب المؤهّلات والكفاءات الخاصّة المتفوّقة. فقد وجد فيلوپويمين نفسه يقارع أشدّ الإغريق مراساً في القتال وهم الكريتيون ثم اللقيديمونيون، فتسلّط على الأولين وهم أشد الإغريق مكراً بالحيلة والسياسة، وأخضع الآخرين وهم أشجع الإغريق ببسالته وإقدامه. وقد يقال إن تيطس وجّه جنوده بمجهوداته ودرّبهم ليطيعوا أوامره وينفّذوا خططه، كما أشرف هو على تسليحهم، وبهذا حقق انتصاراته شخصيّاً إلى حدٍ ما. أمّا فيلوپويمين فقد اضطر إلى ابتداع نظام جديد في التدريب والتعبئة وإلى بناء جيشه من العدم وفقما شاء، لذلك كان أهمّ عامل وضمان للنصر من صُنع يده وابتداعه. أمّا تيطس فقد وجد كل شيء جاهزاً مهيئاً لفائدته. لقد حقق فيلوپويمين أعمالاً كثيرة تتّسم بطابع الجرأة والفروسية في حين لم يحقق تيطس شيئاً من هذا القبيل. مما دفع شخصاً يُدعى أرخيديوس الإيتولي أن يسخر به قائلاً: «بينما كنت أعدو والسيف مشهر في يدي حيث مواقع اللقيديمونيين وهم في أخطر ميدان من المعركة، رأيت تيطس واقفاً وقد رفع يديه إلى السماء بصلاة للأرباب مستعيناً مستغيثاً».

ولا مراء في أن تيطس أنجز واجباته إنجازاً رائعاً في ميدان السفارة وفي شؤون الحكم، إلاّ أن فيلوپويمين لم يقلّ عنه في هذا الصدد، بنفعه الأخائيين وإصلاح أمورهم وهو قائد، ثم وهو مواطن عادي. كان مواطناً بسيطاً لَمّا أعاد للماسينيين حريتهم ونزع مدينتهم من يد نابيس وكان مواطناً عادياً أيضاً عندما أنقذ اللقيديمونيين وأغلق أبواب سپارطا في وجه القائد ديوفانص وتيطس. وهكذا تراه خُلق للقيادة وكان أهلاً للتحكم في مقدرات الناس وشرائعهم وقوانينهم لأجل الصالح العام، وما كان بحاجةٍ إلى شكليات الانتخاب لمنصب القيادة والزعامة من قِبل المحكومين، بل عمد إلى تسخير مجهوداتهم وسوقهم سوقاً عندما ألجأته الظروف حيثما ارتأى ووجده مناسباً، مؤمنا بأنّ ألْيَق الحكام وأصدقهم هو أفهمهم بمصالح الشعب، لا من يجري انتخابه بالاقتراع العام.

إن عدل تيطس وكرمه وإنسانيته للإغريق إنما تُفصح عن خُلق سمح عظيم، إلاّ أن

أعمال فيلوپويمين المفعمة بالشجاعة والإقدام الهادفة إلى دعم حرية بلاده بمواجهة الرومان، لتستبطن ما هو أنبل وأسمى. إذ ليس يصعب عليك إرضاء المنكوبين والمحرومين كما يصعب الإقدام على إثارة حفيظة القوي، ومقارعة ذي السلطان العظيم.

وختاماً: مهما كانت قوّة حجّتنا في النقاش، فليس من السهل علينا أن نرسم أوجه خلاف متمايزة بين الشخصيتين، أو أن نرجّح إحداهما على الأخرى. ولكننا قد نكون منصفين إذا تركنا للإغريق تاجَ الحِنكة العسكرية والفنّ الحربي. وتركنا الرومان يستأثرون بتاج العدل والتسامح.

پیرّوس

PYRRHUS

۳۱۸–۲۷۲ ق.م



پیرّوس

كان فيثون Phœthon - على زعم بعض المؤرخين - أول ملك للثيسپروتيين Thesprotians والمولوسّيين Molossians، بعد الطوفان الكبير. وهو أحد الذين جاؤوا إلى إيپروس مع پيلاسغوس Pelasgus؛ ويحدثنا آخرون أن ديوقاليون وپيرّا[1] اللذين عملا سفينة جوپتر الحربية وأوجدا حرم دودونا[2] قد استقرا هناك بين المولوسيين. وبعد مرور حقبة من الزمن أسس نيوپطليموس Neoptolemus ابن أخيل مستعمرةً له، وبسط يده على تلك الأنحاء وخلّف سلالة من الملوك أُطلق عليهم لقب پيرّيدوي Pyrrhidœ مشتقاً من الاسم الذي كان يُعرف به في صباه: پيروس. وكان بين أبنائه الشرعيين ابن أنجبته له لاناسّا Lanassa بنت كليوديؤس Cleodaeus ابن هولّيس Hullys، وقد سّماه بهذا الاسم الأخير. ومنه نال أخيل التكريم الآلهي ورفع إلى مصافهم تحت اسم أسپيتوس Aspetus في إيپروس (وهو بلغة أهل البلاد المحلية). وعقب هؤلاء الملوك الأوّلين مجموعة وسطانيّة حكمت فترة مابين العهدين وكانوا خاملي الذكر أقرب شبهاً بالبرابرة، سواء من ناحية قوّتهم أو حياتهم الخاصة. وقيل إن ثارّيپاس Tharrhypas هو أول من اشتهر منهم ونَبُه أمره بإدخاله الحضارة اليونانية وثقافتها وقوانينها الإنسانية إلى المدن التي تخضع له. وكان ألكيتاس Alcetas ابنه، وكان أريباس Arybas ابن ألكيتاس. ووِلد لأريباس من زوجه الملكة تْرواس Troas ابنه أياكيداس Æacidas، الذي تزوّج فثيا Phthia بنت مينون Menon الثسالي وهو رجل شهير في زمن حرب اللامياك Lamiac[3]، وقد تقلّد نيابة القيادة العليا لعساكر الحلف بعد ليوسثينس Leosthenes. ووُلِد لأياكيداس وفثيا بنتان هما ديداميا Deidamia و(ترواس، وابن هو پيرّوس صاحب هذه السيرة.

---

(١) الناجيان الاثنان من الطوفان العظيم بحسب الأسطورة الإغريقية.

(٢) هو المزار الشهير ومهبط وحي زفس، القريب من مدينة يانينا الحالية.

(٣) ما بين ٣٢٢ - ٣٢٣ ق.م. انظر سيرة ديموستينس.

ودبّ الانقسام والشنآن بين المولوسيين، فطردوا أياكيداس وجاؤوا بأولاد نيوپطليموس، وقضوا على كل من وقع بأيديهم من أصدقاء أياكيداس وأتباعه، وانتشروا يفتشون عن پيرّوس الذي كان بعد طفلاً فأُخفي عنهم وفرّ به أندروقليدس وأنجيلوس. ولم يجدا مندوحة من اصطحاب قليل من الخدم والنساء للعناية بالطفل، مما أعاقهما وأخّرهما كثيراً في فرارهم هذا. ولما أدركهما الأعداء، عهدا به إلى أندروقليون وهيپياس Hippias ونياندر Neander وهما من أخلص الناس وأقدرهم، وأمراهم أن يذهبوا به إلى ميغارا المدينة المقدونية بأقص ما يمكنهم من السرعة، بينما أوقفا المطاردة بالقوّة آناً، وبالتفاوض آناً حتى جَنَّ الليل. وأخيراً تمكّنا من صدّهم إلى الوراء وانتهزا الفرصة ليلحقا بپيرّوس وحفظته. ولكن الشمس توارت في الوقت الذي بدا تحقيق بغيتهما وشيكاً، فصارت بعيدة المنال وأُسقط في أيديهما، إذ لمّا بلغا النهر الذي تجثم المدينة المنشودة على جهته الأخرى وجداه فائضاً مزبداً، وفشلت محاولاتهما في عبوره. كانت الأمطار الأخيرة قد رفعت كثيراً من منسُوبه، وجعلت تياره عنيفاً. وزاد ظلام الليل من هول الموقف فلم يقدما على المخاطرة بنقل الطفل والنساء اللاتي يرعينه. على أنهما شاهدا بعض الناس في الضفة الأخرى فاستنجدا بهم وعرضا پيرّوس لأنظارهم وأخذوا ينادونهم ويتوسّلون إليهم فحال هدير الماء وضجيجه دون وصول ندائهم واضحاً. ومرّ الوقت وهم ينادون والآخرون لايفهمون النداء. ثم اهتدى أحدهم إلى وسيلةٍ فنزع من شجرة بلوط قطعة لحاء وكتب عليها بلسان إبزيم رفيع واقع حال الطفل، والضرورة الماسّة التي تقتضي عبورهم ولُفّ اللحاء حول حجرٍ ليسهل قذفه إلى الضفة الأخرى. وقال بعضهم إنه شدّه بعقب رمح وحذفُه إلى الجانب الثاني. ولما قرأ أهل المدينة ما كتب وأدركوا حراجة الأمر بادروا فوراً بقطع بعض الأشجار وشدّوا بعضها ببعض حتى استقامت طوفاً عبروا به إليهم. واتفق أن أوّل من وطئت قدمه الضفة منهم وتناول پيرّوس بين ذراعيه أطلق عليه اسم أخيل. وتعاون الآخرون على نقل الباقي.

بعد أن كُتبت لهم السلامة وأمنوا المطاردة قصدوا غلاوشياس Glaucias ملك الأليريين، فوجدوه جالساً في بيته مع زوجه فوضعوا الطفل پيرّوس أمامهما. فراح الملك يوازن الأمر ويُقلّب وجوه الرأي فيه وبقلبه خوفٌ من كسّاندر Cassander عدوّ أياكيداس اللدود. وبينا هو غارق في افكاره صامت وقتاً مليّاً، أخذ پيرّوس الصغير يحبو على الأرض ويتقدم بالتدريج من الملك حتى إذا بلغه مَدّ يده وأمسك بردائه وتشبّث به ليرفع نفسه ويستوي على قدميه مستنداً إلى ركبتي الملك، فانفجر هذا

ضاحكاً أوّل الأمر، ثم أقبل إشفاقاً وهتافاً على المستجير الصغير الباكي الذليل. وقال بعضهم إنه لم يلق بنفسه أمام غلاوشياس. بل أمسك بركن مذبح الأرباب وتشبّث به متحاملاً على قدميه، وإن غلاوشياس اتخذ منها نذيراً ودليلاً. ومهما يكن فقد أوكل العناية به إلى زوجه وأمر أن يُربّى مع أولاده. وبعد فترة قصيرة طلبه الأعداء منه، وعرض كسّاندر مائتي تالنتاً ثمناً لتسليمه فأبى الملك وامتنع. وعندما بلغ الثانية عشرة جاء به إلى إيپروس مع جيش، ونصّبه ملكاً. وكان وجه پيرّوس يوحي ببطش السلطان الملكي أكثر مما يوحي بعظمته وسمّوه. وكانت أسنانه العلوية شاذّة الخلقة، فهي ليست اسناناً بالضبط وإنما قطعة عظميّة واحدة تدور بالفك فيها حزوز خفيفة أشبه بالفراغات التي تفصل عادة بين سنّ وآخر. وعُرف عنه مقدرته على شفاء أمراض الطحال بتضحية ديك أبيض والضغط بصورة رفيقة بقدمه اليمنى على موضع الطحال في المرضى وهم مستلقون على ظهورهم. ولم يكن يضنّ بفائدة لمسته على أي شخصٍ مهما كان وضيعاً أو فقيراً وكان يرضى بالديك المُضحّى كمكافأة ويسرّ بها سروراً عظيماً. وقيل إن إبهام قدمه تلك فيها كرامة إلهية فقد بقيت بعد موته سليمةً ولم يعترها الفساد أو تمسّها النار. وهذا ما سنعود إليه فيما بعد.

وبلغ پيرّوس السابعة عشرة[٤] من عمره تقريباً وكانت المظاهر تشير إلى استقرار حكمه، فرحل عن مملكته لحضور زواج أحد أبناء غلاوشياس وكانا قد نشآ معاً، فانتهز المولوسيّون الفرصة للثورة وطردوا أشياعه وأنصاره جميعاً ونهبوا ممتلكاته وأمّروا عليهم نيوپطليموس[٥]. ولما وجد نفسه شريداً متجرّداً عن الملك والمقتنى استجار بديمتريوس ابن أنتيغونس زوج أخته ديدايبا، التي كانت زوجة بالاسم في أيام طفولتها للإسكندر ابن روكسانه Roxana، إلاّ أن القدر حرمها من زوجها، وعندما أدركت سنّ البلوغ تزوجها ديمتريوس. وفي وقعة إيپسوس[٦] الكبرى التي شارك فيها عدد كبير من الملوك، كان پيرّوس في صفّ ديمتريوس وأبدى وهو ما زال في ريق شبابه من ضروب البسالة ما ميّزه على كل المحاربين المتمرّسين، وكفل له دحر كل من هاجمه. وظلّ پيرّوس وفيّاً لديمتريوس ولم يتخلّ عنه حتى عندما خانه الحظّ. وكفل له السيطرة على المدن الإغريقية التي أودعت إليه. كما أنه رضي أن يرحل إلى مصر ويبقى رهينة عند

---

(٤) في العام ٣٠٢ ق.م.

(٥) هو حفيد نيوپطليموس المذكور في الفصل الثاني أعلاه.

(٦) في العام ٣٠١م.

بطليموس بمقتضى المعاهدة التي عقدها هذان الملكان. وهناك أظهر پيرّوس دلائل ساطعة على قوّته وشجاعته في ميادين الصيد والقنص أو غيرها من ضروب الرياضة. وتبيّن أثناء إقامته أن بيرينيكه Berenice هي صاحبة السلطان الأكبر، وأنها تتمتّع بأرفع مكانةٍ لفضائلها، وسعة عقلها، دون سائر زوجات بطليموس. فلازمهاً وخصّها باهتمامه، وكان ماهراً حاذقاً في خطب ودّ الكبار واستخدام تلك العلاقة لمصلحته، كما كان من الجهة الأخرى سريع الاجتواء لمن هم دونه مكانةً. وبزّ كل الأمراء الشبان في البلاط بحسن سلوكه ودماثته واستقامة حياته هناك، ولذلك وجد أنه خير عريس لأنتيغون وهي إحدى بنات بيرينيكه من بعلها السابق فيلپس(٧)، قبل زواجها ببطليموس.

وتمّ القران، وخُلعت عليه أفانين التكريم، وكانت أنتيغون من أفضل الزوجات. ووضع يده على مبلغ من المال أنفقه على تأليف جيش. ورتّب الأمور بحيث تم نقله إلى مملكته إيپروس وأشاع وصوله الارتياح في نفوس الكثيرين، لبغضهم نيوپطليموس الذي كان يشتطّ في حكمهم ويستبد. ولخوفه من أن يتحالف نيوپطليموس مع بعض الملوك المجاورين سارع إلى المصالحة معه والاتفاق على مشاركته في الملك، واقتسام الحكم. وكان ثمّ أناس أخذت نقمتهم تتعاظم على حكمهما بمرور الزمن فراحوا يسعون سِرّاً للوقيعة بينهما، ولبذر الحقد وتأريث نار الخصام. وكانت الحادثة التالية - على ما قيل - البداية التي حرّكت پيرّوس للعمل:

جرت عادة الملوك أن يقدّموا الذبائح إلى مارس في پاسّارو Passaro وهو موضع في بلاد المولوسيين. فبعد أن قام الملكان بذلك قطعا عهداً رسمياً مع الإيپروسيين على أن يحكما بينهم بالعدل وفقاً للشرائع السائدة، وأن يقوم هؤلاء من جهتهم بإطاعة القانون والحرص على شكل الحكومة، فأقسم هؤلاء على ذلك بمحضر من الملكين الحاضرين وأصدقائهما المقرّبين. وبعد ذلك قدّما هدايا كثيرة وقبلا مثلها. ثم أخذ غيلو Gelo أحد مقرّبي نيوپطليموس بيد پيرّوس وقدّم له زوجين من ثيران الجرّ، فدنا ميرتيلوس Myrtilus ساقي الملك پيرّوس وطلب منه الهديّة المذكورة، فأباها عليه واعطاها لغيره، فتألم ميرتيلوس من ردّه. وكان غيلو يلاحظ ذلك، وشعر بما يعتمل في جوف الساقي فتقرّب منه ودعاه إلى مأدبةٍ (وكان ميرتيلوس في ريعان الصبا آنذاك على ما قيل) وانتهز غيلو فرصته بين اللهو والقصف والشراب وفاتحه بما في نفسه حتى خُيّل

(٧) مقدوني مغمور غير معروف وليس والد الإسكندر الكبير.

نه أنه تمكن من إقناعه بالانحياز إلى صف نيوپطليموس، وقتل پيرّوس سيده بالسمّ، وتظاهر ميرتيلوس بالموافقة والرضا إلاّ أنه أسرع إلى پيرّوس فأسرّ إليه بفحوى المؤامرة. فأمره هذا أن يذهب إلى غيلو ويزكّي له ألكسيقراطس Alexicrates رئيس سقاته بوصفه خير من يقوم بتنفيذ العمل. وكان پيرّوس يريد أن يظفر بأكثر ما يمكن من الأدلّة والشواهد على وجود المؤامرة. ولم تكن حيلة پيرّوس على غيلو بأقل انطلاء على نيوپطليموس نفسه، فتصوّر أن خطته تسير سيراً حسناً وضاق صدره عن كتمان أمرها فراح يجاهر بها لفرط سروره بين مقرّبيه. وحدّث بها أخته قاديميا Cademea في مأدبة أقامتها له متوهّماً أنهما وحيدان، والحقيقة أن مجلسهما كان خالياً إلاّ من فيناريت Phœnarete امرأة سامون Samon، مدير شؤون ماشية وقطعان نيوپطليموس، وكانت مستلقية على أريكةٍ فأدارت وجهها إلى الحائط متظاهرة بالنّوم العميق وسمعت كل الحديث دون أن يُشكّ بها. وفي اليوم التالي أقبلت على أنتيغون امرأة پيرّوس وأفضت إليها بما سمعت فنقلته لزوجها فلم يقل پيرّوس شيئاً ولم يعلّق في وقته، وإنما أولم لنيوپطليموس وليمةً بمناسبة يوم تقديم القرابين، وهناك بطش به. وكان قد اطمأنّ قبل ذلك إلى صداقة وجهاء الإيپروسيين وسراتهم وإلى أنهم يرغبون في الخلاص من نيوپطليموس ويوافقونه على طموحه في الحكم وحده لا شريك له وعدم قناعته بنصيب صغير والسير على النهج العظيم الذي اختطه، وأن يسبق نيوپطليموس إلى التآمر على حياته ويبطش به، بعد أن تضافرت الدلائل على نواياه وقام الشّك الكبير على سعيه لقتل پيرّوس.

وأراد تخليد ذكرى بيرينيك وبطليموس فسمّى ابنه من زوجه أنتيغون باسم ثانيهما، وبنى مدينة في شبه جزيرة إيپروس[٨] أطلق عليها اسم الأولى. ومنذئذ راحت تداعب ذهنه المشاريع العظيمة الكبيرة، إلاّ أنه حصر اهتمامه بشؤون اليونان الداخلية في مبدأ الأمر، وتوخّى الوسائل الكفيلة لإقحام نفسه في شؤون مقدونيا وتوسّل بالحجّة الآتية: قتل أنتيباطر أكبر أولاد كسّاندر[٩] والدتّه ثسالونيكا Thessalonica وطرد أخاه الإسكندر. فاستجار هذا، بديمتريوس وطلب منه العون، كما استنجد يضاً بپيرّوس ولم ينجده أولهما لمشاكل اعترضته، ولبّى پيرّوس نداءه إلاّ أنه اشترط لمعونته ثمناً وهو ضمّ مقاطعات تمفيا Tymphœa وپاراوايا Paraucea في مقدونيا، والمستعمرات الخارجية

---

(٨) بالقرب من مدينة پيريڤيزا Perveza الحالية.

(٩) في العام ٢٩٧ ق.م.

أمبراقيا Ambracia وأقرْنانيا Acarnania وأمفيلوخيا Amphilochia[١٠]. فلم يمانع الأمير الشاب في احتلالها وتعزيزها بحامياتٍ قوية من جيش پيرّوس. وبعد ذلك باشر بإخضاع بقية المملكة للإسكندر بعد انتزاعها من أنتيباطر. وكان ليسيماخوس قد وعد بإرسال نجدات عسكرية لأنتيباطر إلاّ أن مسائل كثيرة أشغلته وأقعدته. على أنه كان يعلم بمنزلة بطليموس عند پيرّوس وأنه لايردُّ له أي طلب كان. فعمد إلى إرسال خطاب مزيّف له مذيّل بتوقيع بطليموس وفيه يطلب منه وقف حملته لقاء ثلاثمائة تالنت يدفعها له أنتيباطر. وما إن فضّ پيرّوس الخطاب حتى وقف على حيلة ليسيماخوس لأنه لم يكن مصدّراً بالديباجة المأثورة: «من الأب إلى الابن - صحةً وعافيةً» بل كانت فاتحته هكذا «من الملك بطليموس إلى پيرّوس الملك - صحةً وعافيةً»، فوبّخ ليسيماخوس على ما بَدَر منه، إلاّ أنه وافق مع ذلك على إحلال السلام. واجتمع الملوك لعقد الصلح وتوثيقه بالقسم فوق القرابين. وجيء بمعزاة وثور وكبش لتضحيتها، وفجأة سقط الكبش ميتاً فضحك الجميع، إلاّ أن ثيودوتوس العرّاف منع پيرّوس من أداء القَسَم قائلاً إن السماء عرضت بموت الذبيحة إشارةً إلى موت أحد الملوك الثلاثة المجتمعين. وهكذا أبى پيرّوس أن يوثق معاهدة الصلح بقسمه.

بلغت أمور الإسكندر الآن إلى نوع من الاستقطاب والاستقرار. ثم وصل ديمتريوس وتبيّن أن وصوله لا يخدم مصلحة الإسكندر وإنما زاد في حراجة موقفه، إذ ما مرت أيام قليلة على اجتماعهم حتى بدأت نار الحقد والضغينة تنهش قلوبهم وراح بعضهم يتآمر على بعضٍ، واهتبل ديمتريوس فرصته واستبق الملك الشاب فقتله وأعلن نفسه ملكاً على مقدونياً[١١]. ولم يكن بين ديمتريوس وپيرّوس تفاهم أو ودّ كبير. فإلى جانب الغزوات التي كان يقوم بها على ثساليا، كان هناك الداء الدفين الذي ابتُلي به الملوك، وهو طموحهم الشديد إلى توسيع رقاع ملكهم. هذا الداء جعل الملكين الجارين ينظران أحدهما إلى الآخر نظرة ريبةٍ ورهبةٍ، ولاسيما بعد وفاة ديداميا. وبوضعهما اليد على مقدونيا سرعان ما نشب الخلاف بينهما للاستئثار بها، ولدوافع أخرى أقوى منها. فقد عاجل ديمتريوس الإيتوليين بالحرب وأخضعهم وترك في البلاد المفتوحة جيشاً كبيراً بقيادة پانطاوخوس Pantauchus، وزحف بالباقي لمواجهة پيرّوس كما كان پيرّوس يسعى هو أيضاً إليه كما ظن، واجتاز الجيشان أحدهما الآخر

(١٠) كلّ هذه الأراضي تقع ضمن ساحل الخليج الأمبراكي Ambraci في جنوب إپيروس.

(١١) في ٢٩٤ ق.م.

دون أن يفطن إليه. ووقع ديمتريوس على إيپروس وعاث فيها سلباً ونهباً. والتقى پيرّوس بپانطاوخوس فاستعد لقتاله، ثم اشتبك الجيشان في معركة طاحنة عنيفة، وخصوصاً حيث يقف القائدان(١٢).

كان پانطاوخوس أفضل ضابط في جيش ديمتريوس لما يتمتّع به من قوة بدنية خارقة وشجاعة وحنكة عسكرية فضلاً عن عزمات شديدة وروح عالية، فتحدّى پيرّوس للبراز ولم يتردد پيرّوس في قبول تحدّيه. وكان پيرّوس بإجماع الكلّ أبسل الملوك وأبعدهم صيتاً في الإقدام. ولم تكن شهرة أخيل التي ورثها بسبب رابطة الدم بل بسبب وراثته الشجاعة. وهكذا برز إلى پانطاوخوس أمام الجيش. فتطاعنا برمحيهما، ثم تضاربا بحساميهما في قتال بديع وضربات ماهرة حاذقة، وأصيب پيرّوس بجرحٍ، فردّه إلى خصمه مضاعفاً وأصابه في فخذه وفي موضع قريب من رقبته، وصكّه صكّاً عنيفاً حتى ألقاه أرضاً، ولكنه لم يفلح في الإجهاز عليه فوراً إذ خفّ إليه أتباعه وأنقذوه. على أن الإيپروسيين ارتفعت معنوياتهم كثيراً بانتصار ملكهم واضطرمت حماستهم بشجاعته فانقضّوا انقضاضاً عنيفاً على «فلانكس» المقدونيين ومزّقوه شرّ تمزيق وراحوا يطاردون فلولهم فقتلوا خلقاً كثيراً وأسروا خمسة الآف.

ولم يحنق المقدونيون لخسارتهم، ولم يشتدّ بغضهم لپيرّوس قدر ما أُعجبوا بشجاعته ونُسجت حكايات وتعليقات لا نهاية لها عليه، ولهج بالحديث عنه شهود العيان وكل من كان موجوداً في الوقعة فشبّهوا حركاته وتصرّفاته وخفّته بتلك التي عُرفت عن الإسكندر الكبير. وقالوا إنهم رأوا فيه هناك صورة ونسخة مطابقة لذلك البطل بسرعته وحسن بلائه في القتال وإن غيره من الملوك ليس فيهم شبه بالإسكندر إلاّ بما يحيط بهم من حرّاس مهيبين، وبطريقته في خفض الرأس في المناسبات الرسمية، ولهجته الرفيعة في الكلام، أمّا پيرّوس فكان شبيهه في القتال وحمل السلاح. ولنا في التعليقات التي تركها خير شاهد على خبرته العميقة بالتكتيك العسكري وفن القيادة.

ولقد قيل لنا إن أنتيغونس سئل عن أعظم عسكريّ في رأيه فأجاب:

- پيرّوس، لو أنه أدرك سِنّ الشيخوخة.

منوّهاً فحسب بالذين عاصروه. إلاّ أن هنيبعل وضعه في المقام الأول، لمهارته وحسن قيادته، وجعل سكيپيو في المقام الثاني. واحتجز لنفسه المقام الثالث. وقد ورد

---

(١٢) في ٢٩١ ق.م.

ذلك في سيرة سكيپيو[١٣]. ومجمل القول أن پيرّوس أوقف كل همه وحصر أفكاره وفلسفته في صناعة الحرب، بوصفها أليق للملوك، وأجدر بتتبّعاتهم ومدارستهم أما النواحي الأخرى فلم يُقم لها وزناً. وذكر أنه سئل مرةً في مأدبةٍ، أيهما خير الموسيقيين؛ بيثون Python أو كافيسياس Caphisias؟ فأجاب قائلاً:

- إن پوليسپيرخون Polysperchon هو خير القادة!

كأنما لا يليق بالملك أن يفهم في هذه الأمور أو يُحكّم فيها.

وهو عند مقرّبيه وأصدقائه الأدنيين رقيق الطبع تصعب إثارته حريص أشدّ الحرص على ردّ الجميل دون تريّث، لذلك صعب عليه احتمال موت أيروبوس Æropus ووقع في نفسه موقعاً أليماً وقال إنه يدين نفسه ويلومها ويتألم كثيراً لأنه أرجأ ردّ جميل الميت وتأخر فيه. ذلك لأن الديون قد يرضي ردُّها ورثة دائنينا ولكنه لايقوم مقام الإقرار بالجميل، ولأن أهل الجميل ما عادوا بين الأحياء ليشعروا بوفاتنا، فيحدث عملنا أثره الطيب الجدير بالثناء. ووجد بعضهم أنه يجدر بپيرّوس أن يأمر بنفي شخص من أمبراشيو Ambracio بذيء اللسان أساء إليه بالكلام كثيراً. فرفض پيرّوس قائلاً:

«خير لنا أن يشتمنا هنا أمام نفر قليل، من أن يتخرّص علينا في الخارج إلى العدد الكبير».

وسبّه آخرون وانتقصوا منه في مجلس شراب، فجيء بهم للتحقيق في أمرهم وسألهم أصحيح أنهم تفوّهوا بما نُسب إليهم من قول، فأجاب واحد من أولئك الشبان الأغرار:

«أجل أيها الملك صحيح، ولو كان لدينا المزيد من الخمر لقلنا أكثر من هذا!».

فضحك وعفا عنهم. وبعد أن قضت أنتيغون نحبها تزوّج بعدد من النساء قاصداً تثبيت مركزه وتقوية سلطانه فاقترن بـ«بيريكنّو» بنت أوطوليون Autoleon ملك الپاونيين Paonions[١٤]، وبـ«بارديلليس» Bardyllis بنت ملك الألليريين، وبـ«لاناسّا» Lanassa بنت الملك السيراقوسي أغاثوقليس Agathocles وقد مهرته هذه مدينة كوركيرا التي كان أغاثوقليس قد ضمّها إلى ملكه. وأنجب من أنتيغون ابنه الأكبر

---

(١٣) هذه السيرة التي وضعها پلوتارخ مقابل سير إپامنداس هي الآن في عداد المفقودات.
(١٤) هم الجيران الشماليون لمقدونيا.

بطليموس ومن لاناسّا استولد (الإسكندر)، ومن بيريكتّو أنجب هيلينوس Hellenus أصغر أبنائه.

وقد شبّوا كلهم مفطورين على حبّ الحرب والطعان وربّاهم حتى استووا شباباً مضطرمي الروح ناشطين. وأعدّهم للقتال خير إعداد منذ نعومة أظفارهم كما يُشحذ حَدّ السيف. وقيل إن أحد أبنائه سأله وهو صبيّ «لمن سيخلّف المملكة منهم» فأجابه: «لمن كان أمضاهم سيفاً». وهذا الجواب في الواقع أشبه شيء باللعنة المأساوية التي خلّفها الملك أوديب Oedipus لأبنائه:

«قسمة الميراث لن تتم بالقُرعة وإنما بالسيف لا غيره!»

إلى هذا الحد من الوحشية والغلظة تبلغ بالمرء طبيعة الجشع!

بعد تلك المعركة مع المقدونيين عاد پيرّوس إلى أرض الوطن متوّجاً بالمجد، وانقادت إليه الشهرة، ولمع نجمه. وعندما أطلق عليه أهل إيپروس لقب «النّسر» عَقّب بقوله:

«إني نسرٌ بكم. وكيف لا أكون كذلك ولي من سواعدكم أجنحة تسندني؟».

وبعدها بزمن وردته أنباء تشير إلى أن ديمتريوس يعاني مرضاً خطيراً ألزمه الفراش. وأسرع بالدخول إلى مقدونيا بدون سبق إنذار، وكان يقصد غزوةً يشيع بها الرعب في نفوس أهل البلاد، لكنه وجد نفسه يتوغّل في البلاد ويكاد يستولى عليها دون أي قتال. زحف حتى إديسّا Edessa ولم يجابه مقاومة، والتحق به عدد كبير من جنود العدوّ. وهذا ما استنفر ديمتريوس وألجأه إلى الاستعداد الكبير. وتمكن بمعونة أتباعه وقوّاده من إعداد جيش جرّار هاجموا به پيرّوس هجوماً عنيفاً. فتحاشى الاصطدام به وانسحب لأنه لم يأت لقتال بل لغارةٍ موضعية. وفقد أثناء تقهقره قسماً من جيشه جرّاء مطاردة المقدونيين المتواصلة الحامية. إلاّ أن ديمتريوس ظلّ يشعر بخطورة پيرّوس وإن سهل عليه إرغامه على الانسحاب السريع. وأخذت تدور في رأس ديمتريوس مشاريع ضخمة، وفي مقدمتها استعادة مملكة أبيه. فبادر إلى إعداد جيش لهذه المهمة قوامه مائة ألف مقاتل وخمسمائة سفينة حربية، يرهب به پيرّوس والمقدونيين الكثيري الإزعاج بنشاطهم الحربيّ. كذلك لم يكن لديه الوقت لمواصلة الحرب ضد الأول فعمل على عقد صلح معه للتفرّغ إلى الملوك الآخرين، وتم الاتفاق على شروط. ولكن مشاريع ديمتريوس انكشفت من الاستعداد الهائل الذي يقوم به، فاشتدّ قلق الملوك الآخرين وبعثوا إلى پيرّوس بوفود ورسائل، وفيها يستغربون منه تركه الفرصة تفلت من يده، ويظهرون دهشتهم من انتظاره حتى يقوى ديمتريوس ويغتنم فرصته،

بينما هو قادر الآن على طرده من مقدونيا وإشاعة الخلل والاضطراب في كل مشاريعه وخططه.

وها إنه الآن قاعد يرقب ديمتريوس وهو ماض إلى إكمال استعداده على مهله دون وجلٍ؛ لينقل الحرب فيما بعد إلى عُقر داره، ويرغمه على القتال دفاعاً عن معابده وأضرحته في بلاد مولوسيا، لاسيّما بعد أن خسر پيرّوس مدينة كوركيرا مع زوجه لاناسّا مؤخراً. فقد جرحها في عزّة نفسها بتفضيله الفائق زوجاته البربريات عليها. فانتقلت إلى كوركيرا وراحت تبحث لها عن زوج بين الملوك. ولمّا كانت تعلم أن ديمتريوس أكثر الملوك رغبة في يدها فقد رعته وقبلت عروض زواجه، فأبحر إليها واقترن بها ووضع حامية عسكرية في المدينة.

وكتب الملوك لپيرّوس ما كتبوا وهم لا يدّخرون من ناحيتهم جهداً في متابعة استعداد ديمتريوس، في حين كان يتباطأ في القيام باستعداده. ثم أقلع بطليموس بأسطول كبير فأرغم عدة مدن يونانية على الاستسلام. وانقضّ ليسيماخوس من تراقيا على مقدونيا العليا واجتاحها. وهبّ پيرّوس للحرب ايضاً وزحف على بيرويا Berœa، متوقعاً أن يترك ديمتريوس الجزء الجنوبي من مقدونيا بلا دفاع. لأنه كان قد حشدّ كل قواته ضدّ ليسيماخوس، فصحّ ما توقعه. وفي تلك الليلة بالذات رأى في الحلم الإسكندر الكبير يناديه، ولما تقدّم منه وجده عليلاً طريح الفراش إلاّ أنه استقبله بكلام لطيف واحتفى به كثيراً ووعده بمساعدة فعّالة، فردّ عليه پيرّوس بكل جرأة:

- كيف تقوى على مساعدتي يا سيدي وأنت عليل؟

فقال الإسكندر:

- أساعدك باسمي!

ثم اعتلى صهوة حصانه النّايسي Naesian، وبدا وكأنه يسير في الطليعة. فشدد هذا الحلم من عزمات پيرّوس كثيراً، وتمكن بزحف سريع من الاستيلاء على كل الأقاليم المجاورة. وبعد أن دانت له بيرويا جعلها مقرّاً عاماً وقاعدة أرسل منها قوّاده لإخضاع بقية البلاد وتم له ذلك. وعلم ديمتريوس بكل هذا، وتحسّس أن الجنود المقدونيين يتململون داخل جيشه وهم على شفا التمرّد، وخشي إن هو اقترب من ليسيماخوس، وهو من الملوك المقدونيين البارزين، أن يشقّ هؤلاء الجنود عصا الطاعة وينضمّوا إلى ابن جِلدتهم. لذلك استدار نحو پيرّوس لأنه كان عدوّاً للمقدونيين وهم يكرهونه. وما إن عسكر أمامه حتى انبثّ القادمون من بيرويا في معسكره يلهجون بالثناء على پيرّوس ويصفونه بالمحارب العظيم الذي لا يُغلب، والمنتصر الرفيق الذي يعامل

أعداءه المقهورين بروح إنسانية سمحاء. وعمد پيرّوس نفسه إلى إرسال عددٍ منهم في السر متظاهرين بأنهم مقدونيون، وأخذوا يحرّضون جنود ديمتريوس على الانتقاض ويقولون لهم: لقد حان يوم الخلاص من استبداد حكومة ديمتريوس، بالانضواء تحت راية پيرّوس ذلك الأمير النبيل الخلق الذي يكنّ للجنود أعظم الحب. فأثيرت خواطر قسم كبير من أفراد الجيش بهذه الدعاية الماكرة. وأخذهم الشوق إلى رؤيته، وراحوا ينشدونه في كل مكان. واتفق أنه كان حاسر الرأس دون خوذةٍ، وأدرك أنهم لا يتبيّنونه بدونها فوضعها على رأسه فعرفوها حالاً بتاجها الريش وقرني الجدي وأسرعوا إليه طالبين كلمة المرور. ووضع بعضهم أغصان البلّوط على رؤوسهم لأن الجنود المحيطين به كانوا يزيّنون هاماتهم بها. وأقدم بعضهم على نصح ديمتريوس بالانسحاب واعتزال الحكم. ووضح له تصاعد روح التمرد والثورة في صفوف الجيش، فأسرع يأخذ بالنصيحة وغادر المعسكر سرّاً وهو متنكّر بقبّعة واسعة الأطراف ومعطف جنديّ اعتيادي. وهكذا سيطر پيرّوس على جيشه دون قتال وأعلن نفسه ملكاً على مقدونيا.

إلاّ أن ليسيماخوس وصل، وراح يزعم أن هزيمة ديمتريوس إنما كانت نتيجة مجهودهما، ولذلك ينبغي أن يتقاسما الملك. ولم يكن پيرّوس إذ ذاك مطمئناً من المقدونيين، والشكّ في إخلاصهم ما زال يساوره، ولهذا وافق على اقتراح ليسيماخوس وأجرى اقتسام الأقاليم والمدن فيما بينهما. وكان هذا العمل حسناً في وقته لأنه حال دون نشوب حربٍ بين الطرفين. ولكن سرعان ما وجد أن هذا التقسيم لم يكن بالتّسوية السليمة المجدية لأنها ستظلّ أبداً ينبوعاً للنزاع والشكوى. فإن أولئك الذين لا تحدّ من مطامِعهم الجبال أو البحار أو البوادي والقفار ولا تستطيع الحدود التي تفصل آسيا عن أوروبا كبحَ رغباتهم الجامحة الأشعبية، يصعب عليهم احتمال أذى بعضهم بعضاً عندما تكون أملاكهم ملاصقة أو متقاربة. فهؤلاء لاتهدأ سورة القتال فيما بينهم ولا يخمد لحروبهم أُوار وتبقى نفوسهم متحاقدة متحيّنة الفرص للانتفاع واحدهم على حساب الثاني، وهم يستخدمون في ذلك كلمتي «الحرب» و«السلم» واسطة للاستفادة كما تُستخدم قطعة النقد المتداولة فيروجون بهما مصالحهم، دون اعتبار للعدالة والضمير. وإنه عندما يثيرون حرباً صريحة لأفضل مما لو يطلقون على السلم والامتناع عن اقتراف الآثام تلك الكلمات المقدسة: كالصداقة وكالعدل، بينما هم في الحقيقة مفتقرون إلى السبب والفرصة للإيغال في تلك الشرور. وپيرّوس هو من أمثال هؤلاء الرجال. فقد وقف عقبة في صعود نجم ديمتريوس ثانية ثم عمل جهده للحيلولة دون استعادة سلطانه كمن يحول دون إبلال مريض من داء. وساعد اليونانيين وزار أثينا

وصعد إلى الأكروپوليس وقدّم القرابين للربّة ونزل إلى المدينة في اليوم عينه وأظهر للأثينيين امتنانه العظيم للثقة وحسن النية التي أظهروها له، وعليهم إن كانوا عقلاء ألاّ يسمحوا بقدوم أي ملك إلى مدينتهم ثانية ولا بفتح أبوابها له. وعقد أيضاً صلحاً مع ديمتريوس. على أنه عبر إلى آسيا بعد ذلك بزمن قصير لمطاردة ليسيماخوس وحرّض الشاليين على الثورة وحاصر مدنهم في اليونان إذ وجد أن احتفاظه بتعلق المقدونيين وحبهم أضمن ما يكون في الحرب مما هو في السلم. هذا فضلاً عن ميله الكبير إلى الحركة، ونفوره من الاستقرار. وأخيراً هزم ديمتريوس في سوريا هزيمة ساحقة[١٥]. واستتبّ لليسيماخوس الأمر تماماً فاستدار بكلّ قوّاته نحو پيرّوس الذي كان معسكراً في إديسا وانقضّ عليه مستولياً على القوافل التي تحمل له الأرزاق والمؤن فأحدث مجاعة عظيمة في جيشه. وتمكن بعدها من إفساد كبار قواد المقدونيين في جيشه بالرسائل والرُّسل وبث الإشاعات بينهم بقوله لائماً إنهم أمَّروا عليهم سيداً غريباً لا يمتّ إليهم بصلة، انحدر من صلب أولئك الذين كانوا دوماً عبيداً للمقدونيين وخدماً، وإنهم سعوا إلى طرد أصدقاء الإسكندر القدماء ومقرّبيه من بلادهم. وبلغ نجاحه في التغرير بهم وبالجنود المقدونيين حدّاً ألجأ پيرّوس إلى الانسحاب مع الإپيروسيين وقواته الاحتياطية من مقدونيا كما دخلها. ليس للملوك أي مبرّرٍ وجيهٍ لإدانة الحكومات الشعبية أو الجمهوريات، إذا ما بدّلت مواقفها حسبما تمليه عليه مصالحها، فهي إنما تحذو حذوهم في هذا. أولئك أساتذة فنّ التقلب والغدر الكبار، الذين يعتبرون أوفرهم حكمةً من كان أقلهم اكتراثاً بالاستقامة والأمانة.

وبعد انسحاب پيرّوس إلى إپيروس وتركه مقدونيا، واتاه الحظّ بفترة من الحكم مستقرة هادئة نعمت فيها رعيّته ببحبوحة من العيش. على أنه ضاق ذرعاً بهذا السبيل الغثّ المقيء من الحياة، حياة الهدوء والاستقرار، لأنه من أولئك الذين لايطيب لهم العيش إلاّ بإلحاق الأذى بالآخرين أو إذا يصابوا شيئاً منه على يد الآخرين ومثله في ذلك مثل أخيل...

«... كاسفَ البال مهموماً أضرّ به الجمام راغباً في خوض غمرات القتال، مشوّقاً لسماع صيحات الحرب[١٦]».

وأشبع ميله في إثارة المشاكل والمتاعب على الطريقة الآتية:

---

(١٥) في إپسوس Ipsos في العام ٣٠١ ق.م.

(١٦) انظر الالياذة ٤٩١ - ٤٩٢.

كان الرومان في حرب مع التارنتيين[١٧]. ولم يعد لهؤلاء الأخيرين قِبَلٌ بمواصلة الحرب، كما لم يُفلحوا في عقد صلح وإنهائها بسبب تهوّر خطبائهم الشعبيين وغلظتهم وحمقهم. فتداولوا بينهم على نصب پيرّوس قائداً لجيشهم واستخدامه من دون سائر الملوك المجاورين لأنه كان أبرعهم في القيادة وأقلّهم مشاغل. وفاوض في ذلك عقلاؤهم وبعيدو النظر منهم فتغلّب على رأيهم ضجيج الجمهور وضوضاؤهم الصاخبة. في حين تغيّب الآخرون عن حضور الاجتماعات العامة لما رأوا من موقف الجمهور، إلاّ رجلاً واحداً اسمه ميتون Meton وهو من ارجحهم عقلاً واكثرهم اتزاناً. ففي اليوم الذي عُين للمصادقة على تنصيب (پيرّوس)، دخل (ميتون) محل الاجتماع والناس الجلوس، دخل وهو يرقصُ ويتأود مترنحا كالشارب الثمل وقد طوق عنقه بقلادة زهر ذابلة وامسك مصباحاً، وامامه امرأة تنفخ في نايٍ. ولما كانت الرسميات لا تراعى عادة في امثال هذه الاجتماعات الصاخبة العامة، عمد بعضهم إلى التصفيق له وضحك آخرون ولم يمنعه أحدٌ وإنما راحوا يحثون المرأة على النفخ بالناي ويطلبون منه رفع عقيرته بالغناء للحاضرين. ولما خيل لهم أنه سينفذ ما طلبوه قال لهم:

- أصبتم يا رجال تارنتوم بفسح المجال للناس يفرحون وينشرحون عندما تميل قلوبهم إلى ذلك وعندما يكون في متناول يدهم. وأنتم لو كنتم عقلاء لما ادّخرتهم شيئاً من أفراحكم ولأطلقتم لمسراتكم العنان وأنتم قادرون الآن لأنكم مزمعون عما قريب على إحداث انقلاب في طريقة حياتكم وسلوك سبيل آخر بعد أن يحل پيرّوس بينكم.

أحدثت كلمات ميتون هذه تأثيراً عميقاً في كثير من التارنتيين وانتشرت همسات مختلطة تفيد أنه أصاب كبد الحقيقة. إلاّ أن بعض من كان يخشى أن تذهب حياته ضحية إذا ما تم عقد الصلح مع الرومان راحوا يؤنّبون الجمهور الحاضر لإصغائهم بصبرٍ وخنوع إلى توبيخ عِلج سكّير، ثم اجتمعوا عليه ودفعوا به إلى الخارج. وهكذا تمّت المصادقة الشعبية وأرسل وفد إلى إيپروس يحمل الهدايا لپيرّوس ليس باسمهم وحدهم بل باسم كلّ اليونانيين القاطنين في ايطاليا. وأبلغوه أنهم بحاجة إلى جنرال حسن السمعة كثير الخبرة مثله، وأنهم قادرون على إمداده بقوات كبيرة من اللوكانيين والميسّاپيين Messapians، والسامنتيين Samnites والتارنتيين مما يبلغ تعداده عشرين ألف خيّال وثلاثمائة وخمسين ألف راجل، ولم تثر هذه حماسة پيرّوس وحده، وإنما حرّكت في نفوس الإيپريين الرغبة الجامحة للقيام بحملة عسكرية.

---

(١٧) في العام ٢٨١ ق.م.

وجِد في ذلك الزمان رجل ثساليّ يدعى كينياس Cineas معروف برجاحة العقل، وهو تلميذ للخطيب العظيم ديموستينس. وكان في طليعة من اشتهر امره في ذلك العهد بحسن القول، يحيي في أذهان المستمعين ذكرى قوة عارضة استاذه وفصاحة لسانه حتى لكأنه صورة منه. وكان من مقرّبي پيرّوس ومستودع ثقته لا يفتأ يوكل إليه المهامَّ الخطيرة في مختلف المدن حتى ليصدق فيه قول الشاعر يوريپدس:

«... قوة الكلمة تستطيع أن تفعل ما تفعله السيوف المظفّرة».

وكان پيرّوس يردد دوماً أن كينياس فتح من المدن بمضاء أقواله أكثر مما فتح هو بحدّ سيفه، وظلّ يواصل تشريفه بإيداع أخطر المأموريات إليه. وقد لاحظ هذا حماسة پيرّوس ونشاطه في استعداده للحملة الإيطالية فانفرد به يوماً وليس لديه ما يشغله وجرّه إلى النقاش التالي. قال كينياس:

- المعروف عن الرومان يا مولاي أنهم محاربون أشدّاء قهروا شعوباً محاربة كثيرة. فإن شاء لنا الله أن نغلبهم فكيف سننتفع بانتصارنا؟

فقال پيرّوس:

- أنت تسأل سؤالاً بديهياً يجيبك هو عن نفسه. فبعد أن يُكتب لنا الظفر على الرومان لا تعود مدينة يونانية أو بربرية ممتنعة عنّا وسنكون فجأة سادة إيطاليا كلّها. وأنت آخر من يجهل سعة أرجائها وكثرة مواردها ومدى قوتها.

سأل كينياس بعد فترة من الصمت:

- وماذا ترانا فاعلين بعد إخضاع إيطاليا؟

وكان پيرّوس يجهل ما يرمي إليه مخاطبه فأجاب بكلّ سذاجة:

- بعدها ستمدّ صقلية ذراعيها إلينا مستقبلةً، وهي جزيرة غنيّة جداً حافلة بالسكان، تسهل السيطرة عليها. فعلى أثر فرار أغاثوقليس منها سادها التناحر والعنف وركبتها الفوضى والشغب وزال عنها حكم القانون

فقال كينياس:

- إنكّ تفصح عَمّا هو قريب الاحتمال جداً. لكن، أسيكون في الاستيلاء على صقلية خاتمة الحرب؟

أجاب پيرّوس:

- ألا فليهبنا الله النصر والفلاح في هذا وسنستخدمه بمثابة مقدمة وتمهيد لأمور أجلّ شأناً وأعظم. إذ من يعبر بعدها على ليبيا وقرطاجنة حين يراها في متناول يده؟

دونك أغاثوقليس عندما أُرغم على الفرار من سيراقوسة بحراً بسفنٍ قليلة لم يستطع مقاومة الإغراء وفأجاهما بالغارة. فبعد أن نكمل هذه الفتوحات لا يبقى من أعدائنا الذين يستصغرون شأننا عدو واحد يجرؤ على الوقوف بوجهنا. ولن يستطيع أن ينكر ذلك أحدٌ.

أجاب كينياس:

- أبداً لا أحد! وواضح أننا سنستعيد مقدونيا بقوّتنا الجبّارة هذه وستدين لنا اليونان كلها بالطاعة. فماذا ترانا فاعلين بعد هذا؟

فقال پيرّوس باسماً:

- إذ ذاك سنركن إلى حياة هانئة يا صديقي العزيز. سنتساقى كؤوس الراح صبوحاً وغبوقاً ونمتّع أنفسنا بأطيب الأحاديث وأجملها.

ولما بلغ كينياس من استدراجه پيرّوس إلى هذه النقطة قال:

- وما الذي يمنعنا الآن يا مولاي من التنعّم برغد العيش والاحتفال بعضنا ببعض ما دام في متناول أيدينا وطوع بناننا كل ما نجاهد للوصول إليه بعد سفك الكثير من الدماء وتكلّف العناء، وركوب ما لا يحصى من المخاطر ومكابدة المصائب الشديدة على أنفسنا وعلى الآخرين؟

هذا المنطق أشغل ذهن پيرّوس بفكرة السعادة التي تكاد تخرج من يده، إلاّ أن الحجّة القوية لم تحمله على التخلّي عن هدفه فقد كان أعجز من صرف نظره عن آماله بتحقيق اعزّ أمانيه.

بعث أوّلاً بكينياس إلى التارنتيين على رأس قطعة قوامها ثلاثة آلاف رجل، ثم وفي الوقت أقلعت من تارنتوم عمارة بحرية كبيرة تتألف من سفن نقل خيّالة وبوارج حربيّة، وزوارق مسطّحة القاع من جميع الأنواع، قاصدة إيپروس لنقل الحملة، وأوسقت بعشرين من الفيلة، وثلاثة آلاف خيّال وعشرين ألف راجل وألفين من حملة القسّي، وخمسمائة من الرماة بالمجانيق. وبعد أن تمّ ذلك أقلعت بهم قاصدة إيطاليا. وما إن قطعت بهم نصف المسافة حتى هبّت ريح الشمال العاتية على غير موعدها من السنة، وكانت هوجاء كاسحة حرفت القافلة عن سبيلها المرسوم. إلاّ أنه تمكن من النزول إلى البّر بعد أهوالٍ وكثير من الجهد والمشقة واستخدام ربابنة سفنه وبحّارتها أقصى مهارتهم وعزماتهم. على أن قسماً من السفن تاه في عُرض البحر واضطربت صفوفها وتبعثر بعضها وأخطأ الساحل الايطالي مندفعاً بقوة الريح إلى البحر الصقلي

والليبيّ. ولم يفلح عدد منها في الوصول إلى رأس ياپيغيوم(١٨)، وأدركهم الليل البهيم، وقذفهم بحر هائج صخّاب إلى ساحل صخري خطرٍ وأصيبت كل السفن بعطب جسيم، إلاّ «الغاليون» الملكية فقد قاومت اندفاع الأمواج العاتية نحو جانبيها وصمدت بمتانتها وضخامتها حتى هبّت ريح من الساحل فسفعت وجوه راكبيها وظل مقدمها يشق الريح إلى الأمام حتى بات يُخشى أن تُمزّق شرّ تمزيق، على أن ذلك كان أهون شراً من الاستدارة بها ثانية إلى البحر وهو عاصفٌ هائج وريحه النكباء تهبّ عليهم من كل جهة. فنهض پيرّوس وقذف بنفسه من السفينة سابحاً إلى الساحل وحاول حرسه وأصدقاؤه أن يمدّوا إليه يد العون متلهفين إلاّ أن سواد الليل وضجيج البحر وعنف أمواجه حال دون ذلك. وفي صباح اليوم التالي أخذت الريح تتطامن وتهدأ فبلغ الساحل وهو مبهور الأنفاس خائر القوى إلاّ أنه جلدٌ ثابت العزم أمام نكد حظه. وكانت العاصفة قد قذفت به إلى ساحل الميساپيين فخفّوا إلى معاونته بغاية ما أمكنهم. ثم وصل بعض السفن الناجية المتخلفة وفيها القليل جداً من الخيّالة، وما لا يزيد عن ألفي راجل، واثنان من الفيلة فحسب.

وسار پيرّوس إلى تارنتوم فوراً بهذه القوة. وكان كينياس قد استخبر بمقدمه فخرج إلى لقائه، ودخل المدينة. ولم يُبهظ كاهلهم بقيود على حرياتهم في مبدأ الأمر ولم يُقدم على ما يسيء إليهم. حتى إذا بلغ كل السفن الميناء واجتمع له القسم الأعظم من جيشه راح يفرض عليهم بعض السلطان ويذيقهم شيئاً من الشدّة مدركاً أن إلقاء حبلهم على غاربهم سيجعلهم أعجز عن معونة غيرهم فما بالك بأنفسهم! إنه عند ذلك سيتحمّل عبء القتال برمّته وينشغل في ميادين الحرب لأجلهم بينما يبقون هم في منازلهم يستمتعون بالولائم والحمّامات وغيرها من ضروب الترف. ولذلك أمر بإغلاق أبواب الملاعب والنوادي والمتنزّهات العامة وهي ميادين قتالهم التي يحاربون فيها بشقشقة اللسان والثرثرة العابثة! ثم منع الاحتفالات بالأعياد، وإقامة مجالس الشراب والمساخر والملاهي لأنها لا تناسب حالة الحرب. واستاقهم إلى الخدمة العسكرية وأظهر كل صرامة وقسوة في تجنيد المكلّفين بالخدمة. مما ألجأ الكثير من سكان المدينة الذين لم يعرفوا معنى للأوامر في حياتهم إلى تركها قائلين: إن منعهم عمّا يريدون هو محض استرقاق واستعباد. ووردت الأنباء بزحف ليڤينوس Lævinus القنصل الروماني إليه بجيش جرّار وهو يعيث سلباً في أراضي لوقانيا أثناء تقدّمه. ومع

---

(١٨) ويدعى حالياً برأس ريزوتو Cape Rizznto ويقع جنوب شرق كالابريا.

أن قوات الحلف لم تلتحق بعد بقوات پيرّوس فانه لم يستطع البقاء ساكنا إزاء عدوّ اقترب منه إلى هذا الحدّ فخرج عليه بجيشه، وأرسل إلى الرومان رسولاً يستفسر عمّا إذا كان في الإمكان التوصّل إلى إزالة الخلاف بينهم وبين الإيطاليين الإغريق قبل الاشتباك في القتال، وأن يكون هو حكماً ووسيطاً في ذلك؟ فرد ليڤينوس أن الرومان لا يريدونه وسيطاً ولا يخافونه عدوّاً. فتقدم پيرّوس منهم وعسكر في السهل بين مدينتي باندوسيا Pandosia وهراقليا Heraclea ليجد الرومان قد عسكروا على الضفة الأخرى من نهر سيريس Siris القريب. فخرج للاستطلاع ولما شاهد نظامهم، وكيفية وضعهم نقاط المراقبة، وطريقة عسكرتهم، عرته الدهشة. والتفت إلى أحد أصدقائه القريبين منه وقال له:

«إن نظام البرابرة هذا يا ميفاكليس ليس بربرياً بمظهره وشكله. وسترى وشيكاً ما الذي سيحققونه».

ثم استغرق في تأمّل للموقف عميقٍ. وقرر الانتظار ريثما تلتحق به قوات الحلف. وفي أثناء تلك الفترة قام بنشر وتركيز وحداته على طول ضفة النهر المواجهة للرومان خوفاً من محاولتهم عبوره إليهم استباقاً للقوات التي كان ينتظرها. وصحّ ما توقّعه فقد عجّل الرومان بسوق المشاة إلى الضفة الأخرى من مخاضات ممكنة، وبعبور الخيّالة من عدة نقاط أخرى لإرغام الإغريق على الانسحابِ خوف تطويقهم من كل الجهات. وأدرك پيرّوس خطتهم فزاد عجباً، وأمر قادة وحدات المشاة أن يصفّوا قواتهم بنسق المعركة وأن يبقوها تحت إنذار القتال، في حين برز إلى الرومان المتقدمين بثلاثة آلاف فارس يريد الاشتباك بهم أثناء العبور وهم مختلّو الصفوف مبعثرون. فوجد أمامه جداراً هائلاً محكماً من التروس يزحف من الماء تتبعه الخيّالة في أتمّ نظام. فما كان منه إلاّ أن أصدر أمره لقوّته بالتجمّع والتقارب في كتلة واحدة وسار في الطليعة مهاجماً وهو بارزٌ للعيان بدروعه الفاخرة الجميلة، ومُراده أن يكون معلوماً بأن شهرته لاتفوق ما هو قادر عليه من بطولات. ولم تمنعُه مشاركته الفعلية في القتال وهو مكشوف اليدين والجسم يصدّ عنه كل من يتصّدى له ببسالة، من قيادة المعركة بذهن وقّاد، وحنكةٍ لا يعتريها وهن وحضور بديهة لا تُبارى كأنما هو خارج الميدان يراقب المعركة عن كثب. ولم يثبت في موقع وكنت تراه يتنقل من نقطة اشتباك إلى أخرى ليشدّ أزر من يحتاج إلى عونٍ إزاء ضغط العدوّ. وفي غضون ذلك لاحظ ليوناتوس Leonatus المقدوني أحدَ الطليان يتعقّب پيرّوس في روحاته وغدواته كأنه أتبعُ له من ظِلّه، وعيناه لا تريمان عنه، فنبّه پيرّوس إليه قائلاً:

- أترى يا مولاي ذلك البربريّ بحصانه الأسحم ذي القوائم البيض؟ يخيّل لي أنه يضمر شرّاً خطيراً لأنه لم يحوّل بصره عنك ولم يدعك تغيب عن رقابته كأن ليس في الدنيا غيرك يهتمّ به فكن منه على حذر يا سيدّي.

فأجاب پيرّوس:

- لعَمْرك يا ليوناتوس، إن حكم القدر لا مناص منه، وما كُتب للمرء سيلقاه حتماً. إنما كن على ثقة بأن لا يظفر مني أحد بطائل في حومة الوغى، لا هذا الإيطالي ولا غيره.

وفيما هما يتحدثان ألوى الإيطالي بجواده فجأة نحو پيرّوس وصوّب رمحه إليه وهاجمه فغاض سِنان الرمح في أحشاء جواد پيرّوس في الوقت الذي اخترق رمح ليوناتوس جسم جواد المهاجم فسقطا ميتين. وأحاط رجال پيرّوس به وفتكوا بالإيطالي بعد دفاع مجيد عن نفسه، وكان من الضباط الكبار وهو من فرنتانيا Frentania ويُدعى أوپالشوس Opalcus.

هذا ما جعل پيرّوس يلتزم جانب الحذر. ولمّا وجد خيّالته أعجز عن صَدّ الرومان، وقد انكفأت إلى الخلف لشدة ضغط العدو، قدّم مشاته إلى زخم المعركة وتبادل شكّة سلاحه ووشاحه مع ميغاكليس أحد أصدقائه، متنكراً بها وهاجم الرومان فقابلوه واشتبكوا معاً. ومرّ وقت طويل دون أن يسفر القتال عن نتيجةٍ وقيل إنه أُحصي سبع حركات كرٍّ وفرٍ في خط القتال. كان استبداله سلاحه عاملاً هاماً في سلامته، إلاّ أنه كاد يكون سبباً في الهزيمة وإفلات النصر من يده. فقد حمل كثير من المقاتلين على ميغاكليس باعتباره پيرّوس وكان المدعوّ دكسوس Dexous أول من حماه بجرحه المميت، ثم عمد إلى نزع خوذته ووشاحه وطار مسرعاً إلى ليڤينوس يلوّح بهما صارخاً إنه فتك بپيرّوس. فطيف بالأسلاب على سائر الجنود الرومان فجنّوا فرحاً وراحوا يهتفون ويزعقون غبطةً، في حين تفشى الرعب في الإغريق وخارت عزائمهم حتى أدرك پيرّوس حقيقة الأمر فأسرع بجواده يخترق صفوف جيشه مكشوف الوجه رافع اليد معرّفاً إياهم بسلامته. أخيراً بدأت الفيلة تعمل عملها المدمّر في صفوف الرومان وتوقع بهم الخسائر إذ كانت خيلهم تجفل منها قبل الدنوّ فتنكص على أعقابها براكبيها. وهنا أصدر پيرّوس أمراً بهجوم الخيّالة الشساليين على مؤخرة المتقهقرين وألحق بهم هزيمة نكراء وكبّدهم خسائر فادحة. ويؤكد ديونيسيوس أن قتلى الرومان في تلك الوقعة بلغ خمسة عشر ألفاً. أما هيرنيموس فلا يرفع العدد إلى أكثر من سبعة آلاف. هذا ويذكر أولهما أن پيرّوس خسر ثلاثة عشر ألف قتيل، ويقدّر ثانيهما أن

خسائره لم ترتفع إلى أربعة آلاف، إلاّ أن خسارته كانت لا تقدّر لأنه فقد زهرة رجاله وأعزّ أصدقائه فضلاً عن مجموعة من الضبّاط المحنّكين كان قد وضع فيهم كل ثقته واعتمد عليهم اعتماداً تامّاً. وعلى اية حال فقد تمكن من الاستيلاء على المعسكر الروماني الذي أخلوه منسحبين. ووضع يده على عدة مدن حليفة، وأوقع نهباً في كل الأقاليم المجاورة. وواصل تقدّمه حتى بات وهو لا يبعد عن العاصمة روما غير ثلاثين وخمسة أميال. وعلى أثر هذه المعركة انضمّت إليه قوات اللوقانيّين والسامينيين المتخلّفة، ولم يخلصوا من تأنيبه لتأخّرهم عن اللحاق به. على أنه كان طيّب النفس منشرح الخاطر مرتفع المعنويات لما أصاب من نصرٍ عظيم على الجيش الروماني اللجب، بمعونة التارنتيين فحسب.

لم يُقدم الرومان على عزل ليڤينوس من منصب القنصل. وقد ذُكر أن كايّوس فابريشيوس قال: «ان الإيپروسيين لم يهزموا الرومان، وإنما پيرّوس هزم ليڤينوس» معرّضاً بأن خسارتهم المعركة ليس سببها افتقارهم إلى الشجاعة والإقدام، بل لسوء القيادة. على أنهم سدّوا النقص في ملاك كتائبهم بطرفة عين، وجنّدوا عدداً كبيراً من الرجال، ولم تهن عزائمهم ولم تقلّ حماسة حديثهم عن الحرب. وهذا ما ملأ پيرّوس دهشةً وعجباً. وجعله يعاود جسّ نبض الرومان لعلهم يميلون إلى المهادنة والصلح. فقد رأى أن لا قِبَلَ له قطّ بالاستيلاء على المدينة ونيل ظفر حاسم بجيش صغير كالجيش الذي يقوده. كذلك قدّر أن طلبه الصلح والصداقة بعد النصر الذي حازه هو أمر مشرّف ينطوي على كرم نفسٍ. فبعث برسوله كينياس وحمّله عدة هدايا لزعماء الرومان وزوجاتهم، فأبوا جميعاً قبولها وأجابوا رجالاً ونساءً أنهم مستعدون لإرضاء الملك إذا ما تمّ عقد الصلح بصورة رسميّة. وراح كينياس يناقش مجلس الشيوخ متوسّلاً بكل ما يملك من بلاغة وقوة عارضة، فلم يفلح معهم ولم يظفر بطائل منهم رغم أن پيرّوس عرض عليهم مما عرض إعادة جميع أسرى المعركة من دون فدية. ووعد أن يساعدهم في فتح سائر إيطاليا، ولم يطلب لنفسه لقاء ذلك غير صداقتهم، والأمن والسلامة للتارنتيين. وعلى أية حال ظهر في البدء ميل من الأغلبية إلى قبول الشروط وعقد الصلح بعد الهزيمة النكراء، ولخوفهم من هزيمة تالية على يد الطليان الذين انضمّوا إلى پيرّوس الآن. وكان يوجد في روما رجل رفيع المقام يدعى إپيوس كلوديوس، اعتزل متاعب الحياة السياسية لتقدّمه في السن وفقدان بصره. فلما تناهى إليه خبر مقترحات الملك وعلم باستعداد مجلس الشيوخ للتصويت على قبول الصلح المعروضة ثارت نفسه ولم يسعه الصمت والبقاء، فأمر خدمه بحمله على كرسي إلى

قاعة مجلس الشيوخ فساروا به مخترقين الفورم وعندما أنزلوه عند باب المجلس هرع إليه أبناؤه وأختانه وأسندوه بأذرعتهم وحفّوا به وعاونوه على الوصول إلى الاجتماع. فساد سكون عام حال دخوله احتراماً لمقامه ومنزلته، ثم تحامل على نفسه ونهض وألقى الكلمة الآتية:

«كنت حتى هذه الساعة دائم الشكوى والبثّ لحرماني بصري، وإنه ليحزنني الآن أن لا أكون أصمّ فوق عماي هذا بعد سماعي القرارات غير المشرّفة التي اتخذتموها بخصوص عقد الصلح. تلك القرارات التي سيكون من شأنها هدم مجد روما. أتراكم نسيتم قولكم الذي طبق آفاق الدنيا وسار مثلاً تتحدث به الركبان: «لو أن الإسكندر الكبير نزل برّ إيطاليا، وأقدم على حربنا ونحن في عنفوان شبابنا وآباؤنا في عز رجولتهم، لما كانت له تلك الشهرة التي يتمتع بها اليوم، ولا لقب القائد الذي لا يُغلَب، بل كان سيواجه هنا أحد الأمرين: الهزيمة، أو لفظ أنفاسه هنا، وكلاهما مجدٌ زائد لروما»؟ أنتم الآن تكشفون عن سُخفٍ وحُمق ليس إلاّ، بادّعائكم الخوف من المولوسيين والخاونيين Chaonians الذين كانوا دوماً فريسة سهلة للمقدونيين، وبرهبتكم من پيرّوس الذي لم يكن إلاّ خادماً وضيعاً لأحد حراس الإسكندر الخاصّين، قدِم هذه البلاد متظاهراً بمساعدة الإغريق الذين يسكنون بيننا، في حين كان يريد الفرار من أعدائه في وطنه. شريد طريدٌ يجول في إيطاليا ومع هذا يتجرأ فيعدكم بفتحها بذلك الجيش الصغير الذي عجز عن الاحتفاظ لقائده بذلك الجزء الصغير من مقدونيا. فإياكم وإقناع أنفسكم بأن صداقته ومصالحته هما السبيل الوحيدة لإعادته من حيث أتى. إن هذه الوسيلة هي بالأحرى تمهيد وتشجيع لقدوم غزاة آخرين من هناك، يدفعهم إليكم استصغارهم لشأنكم، واستسهال أمر إخضاعكم. هذا ما سيؤول إليه أمركم إن سَلِم پيرّوس من العقاب على عدوانه، وخرج بغنيمةٍ لمساعدته التارنتيين والسامنيين في الضحك على ذقون الرومان!».

بعد أن فرغ إپيوس من كلامه سرت الحماسة للحرب في كل النفوس، وصُرف كينياس بالردّ التالي: «سيتفاوض الرومان مع پيرّوس في عقد ميثاق صداقة وتحالف إن شاء، عندما يسحب قواته من إيطاليا. أما إذا اختار البقاء بسلاحه وجيشه فهم عازمون على مواصلة الحرب ضده بكلّ ما لديهم من قوة، وإن حالفه الحظّ بالتغلّب على ألَف ليڤينوس». ولقد قيل إن كينياس أبدى اهتماماً كبيراً بدراسة أخلاق الرومان وعاداتهم

درساً دقيقاً، وبتفهّم أساليب إدارتهم شؤون الدولة والحكم أثناء قيامه بسفارته، كما أنه أجرى أحاديث عديدة مع أرقى طبقات مواطنيهم. وذكر لپيرّوس مما ذكر أن مجلس الشيوخ بدا في نظره أشبه بمجلس ملوك. وأما عن عامة الشعب فقال إنهم سيقاتلون قتالاً شبيهاً بقتال الهيدرا ليرنويا Lernœa. فقد أكمل القنصل تعبئة جيش يبلغ عدده ضعف الجيش الأول. وهنالك أضعاف أضعاف هذا العدد من الرومان القادرين على حمل السلاح.

ثم أقبل إليه كايوس فابريشيوس سفيراً موفداً من الرومان للمفاوضة حول استعادة أسرى المعركة. ووصفه كينياس بالرجل العالي المقام الحسن السمعة المستقيم الخلق والجنديّ الفاضل الذي لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً. فاستقبله پيرّوس بلطف جمّ وحاول بصورة خصوصية إقناعه بقبول مقدار من الذهب لا لحمله على عملٍ سيّئ وإنما كما دعاها پيرّوس على سبيل الإكرام وحسن الضيافة. ولما رفض فابريشيوس الهدية لم يُلحّ عليه. ولكنه قرر أن يصيبه بالدهشة ويفلّ من غُراب عزيمته في اليوم التالي. فلعلمِه بأنه لم يرَ فيلاً في حياته أمر بواحدٍ من أضخمها فجيء به وهو كامل الدروع والتسليح ووُضع خلف السُّجف بينما هما يتبادلان الحديث. وبإشارة منه نُحّي السجف جانباً وظهر الفيل رافعاً خرطومه فوق رأس فابريشيوس وأطلق صيحة قبيحة منفّرة، فأدار هذا رأسه بكلّ هدوء ووقار وقال لپيرّوس باسماً: «لن يكون لأموال الأمس، ولا لمفاخرة اليوم أي تأثير عليّ!».

وكان أبرز ما دار الحديث حوله عند العشاء بلاد اليونان وفلاسفتها. وصادف أن انفسح المجال لكينياس للكلام عن أبيقور Epicurus ولشرح آراء أتباعه حول الآلهة، والجمهورية، وغاية الحياة، وكيف أنه يجعل سعادة البشر الرئيسة في اللذة، ويصرف النظر عن الاهتمام بالشؤون العامة لكونها تحقيراً وإهانةً للحياة الرغدة، وينزّه الآلهة عن أي إحساس بالعطف أو الغضب أو الاهتمام بنا بأيّ شكل كان، ويرفعها إلى حياة عاطلة حافلة بالملاذّ والشهوات. وقبل أن ينتهي كينياس من حديثه هذا قاطعه فابريشيوس قائلاً بلهجة دعاءٍ:

- إذن أضرع إليك يا هرقل أن تدع پيرّوس والسامنيين يتمسّكون بهذه الفكرة طوال ما هم في حرب معنا.

وأدهشت پيرّوس حكمة الرجل ورزانته، وازداد رغبة في عقد صلح مع الرومان ونبذ الحرب ورجا منه شخصياً أن يقبل العيش معه في بلاده بمنصب رئيس وزرائه وكبير قوّاده، بعد إحلال السلم. فأجاب فابريشيوس بكلّ وقار:

- لن يعود ذلك عليك بفائدة يا سيّدي، فإن أولئك الذين يجلّونك ويعجبون بك سيفضّلون حكمي لهم على حكمك عندما يجرّبونني.

هكذا كان فابريشيوس! وأصغى پيرّوس إلى جوابه هذا دون أن يعتريه غضبٌ أو تنتابه سورة من سورات الحدّة التي تنتاب الطّغاة عادة. وظلّ يمتدح فابريشيوس ويُثني عليه بين أصدقائه ومقرّبيه ويُكبر فيه العقل والذكاء. وعهد إليه وحده بالأسرى على أن يعودوا إلى آسريهم بعد زيارة أقربائهم وأصدقائهم والاحتفال بعيد زُحَل - في حالة رفض مجلس الشيوخ الموافقة على الصلح - فتمّت إعادتهم بعد انقضاء العيد إذ فُرض على كل متخلف عقوبة الموت.

بعد أن نُصِّب فابريشيوس قنصلاً جاءه إلى المعسكر رجل بخطاب من كبير أطباء الملك پيرّوس يعرض فيه أن يتولّى القضاء على حياة سيّده بالسمّ لقاء مكافأة مناسبة للعمل، فتنتهي الحرب ويزول الخطر عن الرومان. وكان فابريشيوس يكره النذالة فحمل القنصل الثاني زميله على أن يرسلا خطاباً إلى پيرّوس على الفور لتحذيره من الغدر والخيانة وهذا هو فحواه:

«من كايوس فابريشيوس، وكوينتوس إميليوس القنصلين «الرومانيين إلى پيرّوس الملك تحيةً وصحةً:

يبدو أنك أسأت الحكم بخصوص أصدقائك وأعدائك على السواء؛ وستفهم بعد قراءة الخطاب الذي وُجُه إلينا وأرسلناه الآن إليك، أنك الآن تخوض حرباً مع أناس شرفاء ذوي استقامة، وتثق بأوغادٍ وحُثالات. ونحن لا ننهي إليك بهذا اطّلاباً لمِنّة منك، وإنما لئلا يتسبّب ذهاب حياتك في لومنا، كأننا نحن الذين أنهينا الحرب بالغدر والخديعة لعجزنا عن إنهائها بالقوّة والحرب».

ما إن قرأ پيرّوس الرسالة حتى باشر التحقيق في المؤامرة وأنزل العقاب بالطبيب. وأطلق أسرى الرومان دون فديةٍ اعترافاً بجميلهم. وأرسل كينياس ثانية للمفاوضة عنه في الصلح. على أن الرومان عدّوا إطلاق أسراهم دون فدية مِنّةً عظيمة جداً من عدوٍّ، وجزاءً ضخماً لامتناع عن القيام بعمل وضيع شرّير، فبادروا في الحال إلى إطلاق عدد مساوٍ من أسرى التارنتيين والسامنيين. إلاّ أنهم رفضوا فتح باب المفاوضة في السّلام وفي التحالف إلاّ إذا سحب پيرّوس قوّاته وأسلحته من أرض إيطاليا وأقلع إلى إپيروس بالسفن التي حملته إليها.

وانتهت الأمور بعد هذا إلى وجوب خوض پيرّوس قتالاً آخر. فبعد أن أصاب جنوده الراحة المنشودة رفع معسكره وواجه الرومان بالقرب من مدينة أسقلوم Asclum. فوجد صعاباً كثيرةً في تلك الأراضي الشّجراء التي لاتصلح لحركة الخيّالة، وفي النهر القريب السريع المجرى. ولم تستطع الفِيَلة متابعة حركة المشاة لضيق رُقعة الأرض. وبعد أن وقع كثير من القتلى والجرحى وضع الليل حدّاً للقتال، وفي اليوم التالي قرّر پيرّوس تحويل ميدان القتال إلى أرض متطامنة، وإطلاق الفيلة إلى مراكز احتشاد العدوّ، فأمر وحدة من قواته بالسيطرة على تلك الأراضي الوعثاء التي جرت فوقها معركة أمس. وخلط حَمَلَة القِسِّي برُماة المقاليع وزجّ بهم بين الفيلة وتقدّم بعزم شديد وصلابة، وبتشكيلة منضمّة على أبدع ترتيب. ولم يكن الرومان يملكون مزيّة الكرّ والفرّ في مواقعهم حسب إرادتهم ومتى ما شاؤوا مثل يوم أمس، وأُرغموا على القتال الأحادي في أرض مستوية. وكانوا شديدي الاستعجال في إرغام مشاة العدو على التقهقر قبل أن تخفّ الفيلة لعونهم فراحوا يقاتلون بسيوفهم قتال المستميت أمام رماح المقدونيين مسترخصين مُهَجهم غير مفكرين بغير القتل والطعن، دون أن يكترثوا بما يصيبهم. وبعد قتال طويل عنيد قيل إن أوّل من تزحزح من مواقعه هو الوحدات التي كان يقاتلها پيرّوس بشجاعة معدومة النظير. على أن تقهقرهم كان يُعزى إلى اندفاع الفيلة أساساً، فقد كانت قوّتها كاسحة لم تُجدِ معها بسالتهم، وذُكر أنه كان أشبه بثورة البحر أو بزلزال أرضيّ بحيث وجدوا أن الانسحاب والحالة هذه هو أفضل من الموت بلا داعٍ أو فائدة وأجدى من معاناة الأهوال والشدائد. وهكذا تراجعوا إلى معسكرهم القريب. ويقول هيرنيموس إنه سقط من الرومان ستة آلاف قتيل. وتشير مذكرات پيرّوس الشخصية إلى أن خسارته بلغت ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين قتيلاً. على أن ديونيسيوس لا يورد تفاصيل ما عن المعركتين التي وقعتا بالقرب من أسقلوم ولا بصورة جازمة أن الدائرة دارت على الرومان فيهما. وكل ما يذكره هو أنهما اشتبكا مرة واحدة حتى مغرب الشمس ثم أرغمهما الليل على الافتكاك كارهين، وأن پيرّوس أصيب بطعنة رمح في عضده، وأن السامنيين نهبوا أثقال پيرّوس، وأن مجموع القتلى من الجانبين يزيد على ١٥ ألفاً.

وتباعد الجيشان. وقيل إن پيرّوس أجاب على تهنئة أحدهم بالنصر قائلاً: إن نصراً آخر مثل هذا سيقضي عليه القضاء المبرم! وقوله هذا يشير إلى الخسارة الفادحة التي أصابته بقوّاته وفقده كل أصدقائه المقرّبين، وكبار ضبّاطه تقريباً، وعدم وجود من يسدّ مسدّهم. كما رأى حلفاءه الطليان يتخلّفون عنه في حين امتلأ معسكر الرومان حالاً

برجال جدد. ولم تفتر عزائمهم قط ولم تُثبط من شجاعتهم الخسائر التي حاقت بهم، وإنما كسبوا من حُنقهم هذا قوة جديدة ومعنوية لمواصلة الحرب.

وفي خضمّ هذه المتاعب وقع پيرّوس على آمال جديدة وانصرف إلى مشاريع أخرى استأثرت باهتمامه. فقد قدِم في تلك الفترة وفد من صقلية يعرض عليه مدن أگرگنتوم وسيراقوسة وليونيتي، ويطلب منه العون على طرد القرطاجنيين وإنقاذ الجزيرة من حكم الطغاة. وجاء آخرون بأنباء من اليونان تشير إلى أن پطليموس الملقّب كيرانوس Ceranus قد قُتل في معركة مع الغاليين وتمزّق جيشه شرّ تمزيق، وأن الوقت قد حان بشكل لا مثيل له لعرض نفسه على المقدونيين الذين باتوا بحاجة ماسّةٍ إلى أميرٍ. فراح يشكو من شذوذ الحظّ مُرّ الشكوى لوضعه أمامه فرصاً كثيرة لأشياء عظيمة في آن واحدٍ. ولتفكيره بأن اضطلاعه بواحدة قد يحرمه من الثانية أخذ يزن الأمور في ذهنه بكثير من القلق والشكّ. على أنه وجد قضيّة صقلية أحفاها بالاهتمام لما فيها من خير وما تتضمّن من مشاريع عظيمة لقرب أفريقيا منها، فبادر إلى إرسال كينياس كما كانت عادته لعقد معاهدات مع المدن قبل القدوم إليها. ثم وضع حامية في تارنتوم خلافاً لرغبة أهلها الذين كانوا يريدون منه إما إنجاز ما جاء لأجله ومواصلة الحرب معهم وإما ترك المدينة كما وجدها. فلم يظفروا بجواب مرضٍ منه وإنما أمرهم بالمحافظة على السكون وانتظار عودته ثم أقلع. ووصل صقلية ووجد الأمور فيها طبق ما اشتهتها نفسه وأقرّتها آماله، واستسلمت له المدن بكلّ رغبة. ولم يلق مقاومة كبيرة في المواضع التي كان يضطر إلى استعمال القوة فيها. فقد زحف بجيش قوامه ثلاثون ألف راجل وألفان وخمسمائة فارس وأسطول يبلغ تعداده مائتي سفينة، وهزم الفنيقيين هزيمة ساحقة واجتاح كل الأقاليم التي كانوا يسيطرون عليها. وكانت إيريكس Eryx أقوى المدن عندهم وأمنعها بالحامية الكبيرة التي وضعوها فيها فعزم على فتحها عنوةً، وتهيّأ الجيش للهجوم عليها وتقلّد هو شكّة سلاحه وبرز في طليعة قوّاته ونذر مسرحيات وقرابين لهرقل إذا ما أبدى بطولة وحقق مأثرة في ذلك اليوم أمام الإغريق الذين يعيشون في الجزيرة مما يليق بشرف محتده وحُسن طالعه. وأعطى أمر الهجوم بنفير البوق وفرّق البرابرة أشتاتاً بما قذفهم من الرماة ثم وضع السلالم على السور وكان أول الصاعدين إليه وظهر العدوّ بأعداد كبيرة فدفع بهم إلى الخلف وألقى ببعضهم من أعلى السور عن الجانبين. وصرع بحدّ سيفه آخرين فتكدّسوا حوله جثثاً هامدة، ولم يُصب بأقل خدش، ولهذا تعاظم رعب العدو منه. ولقد برهن بأوضح دليل على أن هوميروس كان مصيباً. ولم ينطق إلاّ بالحق الصُّراح حين قال: «من دون كل الفضائل

البشرية يظهر الإقدام والعزم عادة في ساحة الانجذاب الإلهي والانخطاف الربّاني». وبعد أن تم له الاستيلاء على المدينة أوفى بنذوره لهرقل فقدّم اعظم القرابين، وأمر بإقامة مختلف الألعاب والتمثيل المرسحي.

وكان يعيش إلى جوار مسّينا قوم من البرابرة يُطلق عليهم اسم الماميريين Mamerites. هؤلاء كانوا نكداً لحياة الإغريق هناك، ولم يدعوهم في راحة وأخضعوا أعداداً كبيرة منهم للإتاوة. وكانوا كثيري العدد ذوي بأسٍ وإقدام (ومن هذه الصفة جاء اسمهم، ومرادفه في اللغة اللاتينية معناه «المحاربون»)(*). فعمد پيرّوس إلى القبض على جُباة أموال الإتاوة هؤلاء وفتك بهم ثم هزمهم في موقعةٍ حربية ودكّ عدداً كبيراً من قِلاعهم وتحكيماتهم. ولم يرَ القرطاجنيون بُدّاً من مهادنته، وعرضوا عليه مبلغاً محدداً من المال إلى جانب إمداده بالسفن التي يحتاج إليها لقاء رضاه بعقد صلح، فأجابهم بكلّ وضوح وهو ما زال ثملاً بآماله العظيمة المقبلة أن ثمّ سبيلاً واحداً لا ثانيَ له إلى الصداقة والتفاهم الحقيقي فيما بينهما هو الجلاء التامّ عن صقلية والموافقة على جعل البحر الأفريقي الحدود الفاصلة بينهم وبين الإغريق. وغرّه حسن حظّه كثيراً وزاده جبروتاً اعتزازاً بقوّاته الجرّارة. فجعل هدفه المباشر أفريقيا وراء تلك الآمال التي حملته إلى القدوم هنا. وكان يملك عدداً كبيراً من السفن إلاّ أنها ناقصة العدّة جداً فأخذ يجمع لها البحّارة لا بأسلوب رقيق عادل مع المدن وإنما باستخدام القوة الغاشمة والتحكم المستبدّ وتحت التهديد بإنزال العقاب. وكانت معاملته للمدن قد امتازت في بادئ الأمر بلطفٍ ورقة لا مزيد عليهما واستعداد للتفاهم ولين المعاملة مع الكلّ، فإذا بالزعيم الشعبي ينقلب إلى طاغية مستبدّ بتلك الإجراءات الصارمة ويُنعت بالغادر وناكر الجميل. ومهما يكن من أمرٍ فقد تغاضوا عن هذه الأمور وقبلوا بها على مضضٍ كضرورة، وحقدوا عليه بصورة خاصة عندما بدأ يظهر شكه بثونون Thœnon وسوسيستراتوس Sosistratus وهما أبرز رجلين في صقلية، وكانا صاحبي الدعوة له إلى الجزيرة، ومسلّمَي المدن إليه عند قدومه وساعده الأيمن وعونه الأكبر في كل ما فعله منذ وصوله، والآن ما عادا يستطيعان أن يكونا بقربه ولا أن يحتملا التغرّب بترك بلادهما. ثم إنه لما انسحب سوسيستراتوس خوفاً منه، ولما اتُّهم ثونون بالتآمر مع زميله ونُفّذ فيه حكم الموت، تبدّلت أحواله تبدّلاً مفاجئاً شاملاً لا تدريجياً ولا

(*) كلمة «مامير Mamer» هي الشكل القديم للفظة «مارس Mars». والماميريون أصلهم من المرتزقة الكامپانيين والأوسكانيين Oscans. وهم يتكلمون لهجة من اللهجات اللاتينية.

موضعياً. فقد تصاعد كرهه في المدن إلى حَدّ لا مزيد عليه. وانثنى بعضها يناشد القرطاجنيين العون، واستنجد بعضها بالماميريين. ولحظ پيرّوس بوادر الثورة تعصف في كل ناحية، وتحسّس شدّة الرغبة في الانتقاض عليه والتكتل ضده. وفي تلك الأثناء وردته رسائل من السامنيين والتارنتيين الذين لحقت بهم عدة هزائم في ميادين القتال، وعجزوا عن المحافظة على مدنهم في وجه صولات العدوّ، يطلبون منه العون بلجاجة واستماتةٍ، فاتّخذ من ذلك حجّة وغطاءً لتركه صقلية، لا هارباً أو يائساً من تحقيق نجاح جيّدٍ، بل لعجزه في الواقع عن معالجة الموقف العصيب في الجزيرة التي كانت أشبه بالسفينة المكافحة في لُجّة، أراد أن يتركها فألقى بنفسه على إيطاليا. وقيل إنه التفت إلى الجزيرة قُبيل ركوبه البحر وقال لمن يحيط به: «يا له من ميدان قتال فسيح سنتركه أيها الأصدقاء للرومان والقرطاجنيين يصطرعون فيه».

وصدق ظنّه وتحقق ما تكهّن به بعد فترة وجيزة من الزمن. وتحالف البرابرة ضدّه وهو في عُرض البحر، وأُرغم على قتال القرطاجنيين في الماء وفقد عدداً كبيراً من سفنه وأفلت بالباقي وهبط برَّ إيطاليا. وكان يترصّد قدومه ألفُ محارب ماميري عبروا البحر قبله وكمنوا له في شِعب جبليّ وعرٍ، لخوفهم من قتاله في أرض منبسطة، وأوقعوا الفوضى في صفوف جيشه، وصرعوا فيلين من فيلته وفتكوا بجزء كبير من الساقة. وعندها برز إليهم بشخصه وهزمهم، بعد أن استهدف لخطر عظيم من رجال كهؤلاء رضعوا لبان الحرب صغاراً وتعوّدوا الإقدام والاستماتة فيها: فقد أصيب بجرح سيف في رأسه فانسحب من القتال فترةً، وهذا ما رفع من ثقة العدوّ بنفسه، وبرز أحدهم مبتعداً مسافة عن أصحابه وراح ينادي پيرّوس نداء الغطريس المعتدّ بنفسه ويتحدّاه أن يخرج إليه إذا كان حياً. وأخذ يخطر متباهياً بضخامة جِرمه وبريق دروعه، فأخذت پيرّوس سورة من الغضب الجائح واندفع من بين حرسه كالوحش الهائج يشقّ طريقه إلى متحدّيه بين جنوده والدماء تلطّخ جسمه حتى بدا منظره مرعباً، وما إن دنا منه حتى عاجله بضربة سيف صاعقة على أمّ رأسه فنزل حدّ السيف فيه وشقّه نصفين، فكانت دليلاً على متانة حديد السلاح وقوة الساعد الذي هوى به. وبهذا أوقف اندفاع البرابرة، فقد صُعقوا رهبةً وفَرَقاً وحكموا بأنه ليس من طينة البشر.

ثم واصل تقدمه من دون عائق وبلغ تارنتوم بعشرين ألف راجل وثلاثة آلاف فارس، عزّزها بنخبة ممتازة من المحاربين التارنتيين. وتقدّم فوراً من الرومان وكانوا معسكرين في أرض السامنيين، فوجد هؤلاء يعانون الأمرّين، من النكبات التي حلّت بهم. وحطمت معنويات قناصلهم كثرة الهزائم التي ألحقها الرومان بهم، وامتلأت

نفوسهم سخطاً وحنقاً على پيرّوس بسبب حملته الصقليّة، ولذلك لم يلتحق بجيشه إلاّ عدد قليل منهم.

وقسم قواته إلى قسمين أرسل أحدهما إلى لوكانيا لمناوشة القنصل المعسكر هناك، ومنعه من الانتقال إلى ميدان القتال لمساعدة زميله. وسار بالقسم الثاني يريد القنصل الروماني مانيوس كيوريوس الذي كان قد اختار لقوّاته أفضل المواقع بالقرب من بنڤنتوم Beneventum منتظراً انضمام قوات القنصل الثاني اليه، لأن الكهنة كانوا قد حذّروه بما شاهدوا من العلامات النحسة، فقرر بناء على ذلك أن يبقى بلا حراك في مواقعه. فأسرع پيرّوس إلى الانقضاض عليهم بخيرة رجاله وأحسن فيلته، قبل أن تدركهم النجدة من القنصل الآخر. وزحف على معسكرهم في دجنة الليل، واضطر إلى الدوران بقوّاته مخترقاً أرضاً كثيرة الشجر، ولم يفدهم ضياؤهم فضلّوا الطريق. فأمر پيرّوس بعقد مجلس حربٍ، وانقضى الليل وهم يتناقشون. وعند انفلاق الصبح لمحهم العدوّ في أثناء انحدارهم من المرتفعات. فقامت ضجة كبيرة في معسكر الرومان وساده الاضطراب الشديد. على أن القرابين التي قُدّمت أشارت إلى نتائج طيّبة، كما أن الزمن أملى عليهم قبول المعركة. ولهذا أخرج مانيوس قطعاته من مواقعها الحصينة وهاجم طلائع قوّات العدوّ فهزمها جميعاً. وأوقع سائر جيش العدوّ في مأزق شديد الحراجة وقضى على عدد كبير من الجنود وأسر بعض الفيلة. وجرَّ هذا النجاح قوات مانيوس إلى السهل المنبسط، وفيه نشبت معركة طاحنة أسفرت عن هزيمة جانبٍ من قوات العدوّ. لكنه وجد الفيلة تضغط على صفوفه ضغطاً شديداً وتنال منها، فاضطرّ إلى سحب جميع قوّاته المهاجمة إلى خنادقهم. وأصدر أمراً للقطعات التي كانت قد تخلّفت فيها بالانتفاض والقيام على حراستها والدفاع عنها، وكانت تتألف من قوة كبيرة تقف وراء التحصينات والموانع شاكية السلاح بصفوف كثيفة لايشكون تعباً. خرج هؤلاء من مواضعهم الحصينة وهاجموا الفيلة المتقدمة وأرغموها على الانكفاء فدارت على أصحابها وأحدثت أثناء إدبارها فوضى عظيمة واضطراباً شاملاً. وأقبل النصر على الرومان ضامناً لهم التفوّق في المستقبل، إذ إن المعارك التي كسبوها والمجهودات التي بذلوها بثّت في نفوسهم شعور السؤدد والمنعة، وبهذا الشعور ما عتموا أن أخضعوا كل إيطاليا ثم بسطوا سلطانهم على صقلية بعد زمن وجيز.

هكذا خابت آمال پيرّوس في إيطاليا وصقلية بعد ستّة أعوام من الحروب. ولم يفقده فشلُه اعتدادَه بنفسه، ولم ينل من عزمه وبسالته فتيلاً كل النوائب التي انصبّت عليه. وبقي المفرد العلم بين كل أمراء عصره وملوكه سواء في فنّ القيادة أو في

شجاعته الشخصية. إلاّ أنه كان يفقد بآماله الفاشلة الزائلة كلّ ما يكسبه في معاركهُ الفذّة وبطولاته الرائعة، ويخسر كل ما يملكه بالسعي وراء تحقيق رغبات جديدة. واعتاد أنتيغونس تشبيهه بلاعب زهر النّرد: يرمي رميات ممتازة، ولا يعرف كيف يستخدمها لصالحه.

عاد پيرّوس إلى وطنه إيپروس بثمانية آلاف راجل وخمسمائة فارس لا غير، وهو مشغول البال بالبحث عن مغامرة عسكرية جديدة لافتقاره إلى المال الضروري لدفع مرتّبات الجنود والإنفاق على الجيش. وانضمّ إليه بعض الغاليّين، فأغار على مقدونيا وكان أنتيغونس ابن ديمتريوس ملكاً عليها. ولم يقصد من هذا غير النهب والسلب، لكن الآمال بدأت تداعب مخيّلته في اغتنام مكاسب أعظم من مجرّد الغنائم بعد إخضاعه عدداً من المدن والتحاق ألفين من المحاربين به. وباغت أنتيغونس في شِعب ضيّق فأوقع الفوضى في جيشه. إلاّ أن الغاليّين الذين كانوا ساقة الجيش صمدوا له وثبتوا، فحصل اشتباك عنيفٌ قضى فيه على القسم الأكبر منهم واستسلم له القائمون على الفيلة هم وحيواناتهم فركبه الطمع ورغب في استغلال حسن حظه واطّرح جانب الرويّة والعقل، فانقضّ على القسم الرئيس من الجيش المقدوني بتهوّرٍ واندفاعٍ، وكان الخوف مستولياً على العدو ونالت الخسائر من قوته كثيراً، فاستنكفوا عن القتال معه. وهنا رفع پيرّوس ذراعه إلى الأعلى ورفع صوته منادياً كبار ضبّاط المقدونيين وصغارهم بأسمائهم فرداً فرداً، وبهذه الطريقة انحاز إليه كل مشاة أنتيغونس فما كان من الملك المغلوب إلا أن عمد إلى الفرار متنكّراً، وقد تجرّد من ملكه خلا بعض المدن الساحلية.

وتبيّن پيرّوس أن ما حققه من نصر على الغاليّين يفوق مجداً كل ما حباه به الحظّ. فأوقف أنفس غنائمهم وأفخرها على معبد مينرڤا إيتونس Itonis وخلّد عمله بالكتابة الآتية:

> «إن پيرّوس المنحدر من نسل ملوك المولوسيين يتقدّم إليك أيتها الربّة الإيتونية بهذه الدروع التي غنهما من الغاليين الشجعان، عندما هرب أنتيغونس وكل مقاتليه... لقد كانت مآثر الأكيدي البطولية معروفة منذ القديم، وليس اليوم أو البارحة!».

بعد هذا النصر الحربي، باشر پيرّوس في فتح المدن. فاستولى على أيجي Ægae وأنزل فيها كثيراً من النوائب ووضع فيها حامية من الغاليّين بعضهم من عسكره ليشبع نهمهم إلى الغصب وتملّك الأموال، فبادروا إلى نبش قبور الملوك المدفونين

في المدينة وسلبوا النفائس التي قُبرت معهم، وأخرجوا العظام وبعثروها. ولم يبدر من پيرّوس أيّ استنكار لهذا العمل وتغاضى عنه إمّا لانشغاله في أمور أخرى، أو تعامى خوفاً مما قد يجرّه عقاب البرابرة من مضاعفات وعواقب. على أن المقدونيين كرهوا ذلك منه وندّدوا بتراخيه. وفي الوقت الذي لم تستقرّ به الأحوال ولم تستتب له الأمور بدأ يبني قصوراً من المشاريع ويعقد الآمال الجديدة. وعرّض ساخراً بأنتيغونس ووصفه بالرجل الذي لا يستحي لأنه ظلّ يلبس الأرجوان، ولم يستبدله بثياب الرجل الاعتيادي. ولما جاءه كليونيموس Cleonymus السپارطي وزيّن له الزحف على لقيديمون بادر بالموافقة. كان كليونيموس هذا من نسل الملوك، لا يحظى في وطنه بأي احترام أو ثقة لميله إلى الاستبداد والطغيان. وكان أريوس Areus وقتئذ ملكاً على البلاد. فانتهز كليونيموس الفرصة لأخذ ثأره وإطفاء جذوة حقده من نزاع قديم شهير مع المواطنين. وكان أيضاً قد تزوّج وهو في أراذل العمر من سيّدة صغيرة يجري في عروقها دم ملكي ذات جمال آسرٍ هي خيلونيس Chilonis بنت ليوتيخيدس Leotychitedes؛ ثم إنها وقعت في حُبّ أقروطاطوس Acrotatus ابن أريوس الملك وهو شاب في مَعية الصبا. وهذا ما جعل زواج كليونيموس مضطرباً مخزياً، إذ لم يبق بين السپارطيين من يجهل مدى احتقار زوجه له. فانضمّت مشكلته البيتية إلى الحقد العام لتدفعه إلى تحريض پيرّوس على دخول سپارطا، فقدِمها بجيش قوامه عشرون ألف راجل وألفان من الخيّالة وأربعة وعشرون فيلاً. وكشفت استعداداته الكبيرة أن نيّته ليس انتزاع العرش لكليونيموس بل لإخضاع كلّ الپيلوپونيسوس لسلطانه. ولكنه أنكر الأمر إنكاراً صريحاً عندما سأله سفراء لقيديمون الذين اعترضوه في ميغالوپوليس فأكد لهم أنه ما جاء إلاّ لإنقاذ المدن من استبداد أنتيغونس وذكر لهم على سبيل المجاراة أنه سيرسل صغار أبنائه إلى سپارطا ليربّوا على الحياة السپارطية عندما يحين الوقت، ليكونوا أفضل نشأة من سائر أبناء الملوك. بأمثال هذه المزاعم كان يبدّد قلق من يلقاه في زحفه ويطيّب الخواطر حتى إذا دخل لاقونيا بدأ يعيث في البلاد نهباً، ويجرّدها من خيراتها. ولما احتجّ السفراء على مباشرته في الحرب قبل إعلانها لهم أجاب قائلاً:

- نحن نعرف عنكم أيها السپارطيون أنكم لا تتكلّمون مسبقاً عن أمرٍ نويتم القيام به.

فانبرى ماندروقليداس Mandroclidas أحد السپارطيين الحاضرين وقال برطانته السپارطية الغليظة:

- إن كنتَ أنتَ إلهاً، فلا يسعك أن تلحق بنا أذىً لأننا لم نخطئ بحق بشرٍ، ولم نؤذ أحداً. وإن كنتَ بشرا فثمّ من هو أقوى منك.

وتوجّه إلى لقيديمون مباشرةً ونصحه كليونيموس باستعجال الهجوم حال وصوله خشية أن يسبّب دخول الجنود المدينة ليلاً النهب والسلب على حَدّ قوله. فأجاب پيرّوس أنه يفضّل الهجوم في الصباح الباكر، لأن حامية المدينة قليلة العدد وجنودها في غفلة عن زحفه المفاجئ، وأريوس غائب عن المدينة فقد رحل إلى كريت لنجدة الگوريتينين. فكان إرجاؤه الهجوم سبب إنقاذ المدينة؛ لقد استهان بدفاعها ومناعتها وخُيّل له أنه لن يلقى مقاومة مهما كانت من أهلها أيّ وقت هاجمها. فعسكر أمامها طول الليل. وكان أنصار كليونيموس والهيلوت وخدم بيته قد استعدّوا استعداداً عظيماً في منزله لاستقبال پيرّوس عند وقت العشاء. بينما عقد أهالي لقيديمون اجتماع شورى لبحث موضوع نقل النساء إلى كريت بحراً، إلاّ أن هذا الاقتراح رُفض بالإجماع. ثم دخلت على المجتمعين أرخيداميا Archidamia وهي ممسكة بسيفٍ وسألت باسم النساء جميعاً: هل يتوقع الرجال من النساء أن يرتضين العيش على أنقاض سپارطا؟ ثم تقرر حفر خندق على هيئة خط مستقيم بين المدينة ومعسكر العدوّ، ودفن مركبات في قاعه حتى محاور عجلاتها وتثبيتها في أمكنتها لتكون موانع لزحف الفيلة. وما إن باشر الرجال في ذلك حتى أقبلت النساء العازبات منهنّ والمتزوّجات (أولياتهن بأرديتهنّ الوحيدة، وأخيراتهن وقد شددن أثوابهنّ كالأنطقة تحت صُدورهن) ورحن يساعدن كبار السنّ في حفر الخندق. أما الشبان الذين كانوا سيحاربون العدوّ فقد تُركوا لراحتهم وقامت النساء عنهن بحفر ثُلث الخندق المطلوب منهم إنجازه.

وذكر فيلارخوس Phylarchus أن عرضه بلغ ستة كيوبيتات وعمقه أربعة وطوله ثمانمائة قدم، على أنَّ هيرنيموس يجعله أقلّ طولاً من هذا. وبدأ تحرّك العدوّ عند فلق الصبح فجاءت النساء بالسلاح للشبان وعهدن إليهم بالدفاع عن الخندق والمحافظة عنه مهما كلّف الأمر. فمن حُسن حظهم أن ينتصروا على مشهد من أبناء قومهم، أو أن ينالوا شرف الموت بين أذرعة أمهاتهم وزوجاتهم وهو مجدٌ خليق بالسپارطيين والحق يقال. أمّا خيلونيوس فقد رجعت إلى دارها وفي عُنقها حبلٌ بشكل أنشوطة مشيرة بهذا إلى تفضيلها الموت على الوقوع في يد كيلونيموس زوجها إذا قُدّر له دخول المدينة منتصراً.

وانقضّ پيرّوس على رأس مشاته يريد أن يشقّ طريقه عُنوةً خلال ثُغرة من تروس السپارطيين المتلاصقة في صفٍ منيع أمامه، ثم عبور الخندق وكان عسيراً لأن عملية

الحفر جعلت التربة هشّة لا تتحمّل ثقل أقدام الجنود. وخرج ابنه بطليموس على رأس ألفين من الغاليّين ونخبة من المحاربين الخاوينيين يروم الالتفاف حول الخندق والوصول إلى مواضع دفن المركبات لإخراجها. إلاّ أن تثبيتها متقاربةً ودفنها إلى عمق كبيرٍ عرقل مروره، كما أن دفاع اللقيديمونيين المستميت كان مصدر إزعاج كبير له. على أن الغاليّين تمكنوا من انتشال المركبات وطفقوا يسحبونها نحو النهر. وهنا لاحظ أقروطاطوس الفتى مدى الخطر الذي سيتعرّضون له بعد زوال هذه الموانع فخرج من المدينة على رأس ثلاثمائة من الجنود، وقام بحركة التفاف حول بطليموس دون أن يدري، مستفيداً من انحدار الأرض ثم انقضّ على مؤخّرته فأرغمه على التقهقر، ودفع أحدهما بالآخر إلى الخندق واشتبكوا بين المركبات. أخيراً انسحب العدوّ بعد أن مُنِيَ بكثير من الخسائر ولاقى الأهوال. وأطلّ الشيوخ والنساء على أقروطاطوس وهو يعود مُنتصراً ليحتلّ مواقعه في المدينة، وهو مصطبغ بالدماء وحشيّ المظهر مستوفز الحركة، وبدا في أنظار السپارطيات أطول قامةً وأجمل وجهاً وحسدنَ خيلونيس على هذا الحبيب اللائق. وتبعه بعض الرجال الكهول وهم يقولون له بصوت جهوري:

«واصلْ يا أقروطاطوس وكُن سعيداً مع خيلونيس وأنجب منها أبناء شجعان لسپارطا».

وزجّ پيرّوس بنفسه في أشد مواطن القتال خطراً. وحارب كثير من السپارطيين باستماتة وبسالة خارقة، ولاسيّما فيلليوس Phyllius الذي تفرّد بما أبداه من شجاعة معدومة النظير وبفتكه بعدد كبير من المهاجمين. ولما وجد قواه تزايله وأنه على وشك السقوط لكثرة ما أصابه من جراح أخذ يتراجع شيئاً فشيئاً محتمياً برفيق له ثم خرّ على ركبتيه بين إخوانه الجنود كل ذلك لئلا يُحرز الأعداء جثته. وانتهى قتال ذلك اليوم. ورأى پيرّوس في الحلم أنه يقذف لقيديمون بالصواعق فيشعل فيها النار، وبلغ به السرور للمشهد حداً أنه استيقظ وهو مأخوذ به، وأمر ضباطه أن يكملوا استعدادهم لهجوم ثانٍ، وقصّ رؤياه على أصدقائه قائلاً إنه أمرٌ سماوي له بأخذ المدينة عنوةً وأمّن أتباعه على قوله وهم في غاية العجب، إلاّ ليسيماخوس فإنه لم يكن مسروراً بها وأبدى تخوّفه من أن تصيب تلك الصواعق محلات العبادة التي يجب أن تكون مصونةً، ولهذا يرى أن الآلهة تريد أن تمنعه بصورة غير مباشرة عن محاولة أخذ المدينة، وأنها لا تقرّ عزمه. فقال پيرّوس إن هذا تعليل سخيف، ورجْم بالغيب يصلح لتنذّر الدهماء وإن على الجيش أن يجمعوا في راحات أيديهم قبضات سيوفهم ورأيهم معاً: «فهدف پيرّوس هو البُشرى الوحيدة!».

ونهض وخرج إلى جيشه فحشده أمام الأسوار في صباح ذلك اليوم نفسه وأمر بالهجوم. وأبدى اللقيديمونيون دفاعاً باسلاً صامداً فاق كل ما أبدوه من قبل. وكانت النسوة قريبات من خط القتال يساعدنهم في حمل سلاحهم ويأتين بالخبز والشراب لمن يحتاج منهم ويعنين بالجرحى. وحاول المقدونيون المهاجمون ردم الخندق وجاؤوا بمقادير كبيرة من الأتربة وألقوها فوق الجثث والأسلحة المطروحة فطمروها. ولم تهن مقاومة اللقيديمونيين قط، وظهر پيرّوس على جناحهم مما يلي الخندق والمركبات الغارزة، منطلقاً نحو المدينة على صهوة حصانه. فصاح الرجال المتمركزون في تلك الجبهة وأخذت النسوة يصرخن ويتراكضن، وپيرّوس يشق طريقه بعنفٍ ويُردي كل من يعترض سبيله. وأصيبت بطن جواده بنبلة رشقه بها أحد الكريتيين فقذف بپيرّوس إلى الأرض وهو في تشنّجات احتضاره فقد خرج من منزلق وساد الاضطراب من حوله وشملتهم الفوضى. واندفع السپارطيون إلى أمامٍ وأحسنوا استخدام مقذوفهم من السلاح فأجبروا العدوّ على التقهقر. وبعدها عمد پيرّوس إلى وقف القتال في المواضع الأخرى متوهّماً أن اللقيديمونيين باتوا على شفا الاستسلام إذ لم يبق بينهم من لم يُصب بجرحٍ واحدٍ على الأقل، فضلاً عن كثرة عدد القتلى منهم في ذلك اليوم. إلاّ أن آلهة حظّ المدينة، إمّا رضاءً منها على شجاعة المواطنين وتفانيهم، وإما لأنها أرادت أن تظهر مدى تأثير تدخّلها حتى في آخر مرحلةٍ وأشدّها حراجةً، قررت أن تسرع إلى نجدتهم وهم على الرمق الأخير ليس لديهم من أمل إلاّ بصيص ضئيل، فأرسلت إليهم أمينياس Aminias الفيوكي أحد قواد أنتيغونس من كورنث بقوات من المرتزقة. ثم ما إن وطئت أقدام هؤلاء أرض المدينة حتى وصلها أريوس الملك قادماً من كريت بألفين من المحاربين. وعندها قفلت النساء عائدات إلى بيوتهنّ بعد أن انتفت ضرورة مشاركتهن في القتال. كذلك تمّ تسريح كل الذكور الذين دعت الحاجة إلى تجنيدهم وهم دون سنّ الخدمة العسكرية. واستعد الباقون لپيرّوس.

إنّ هذه النجدات التي عززت قوات المدينة ضاعفت من حماسة پيرّوس وثبّتت في نفسه المزيد من الطموح والرغبة في إخضاع المدينة بالقوة، عكس ما هو متوقع. إلاّ أن آماله باءت بالفشل الذريع وراحت الخسائر تترى عليه يومياً. فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة وانطلق بجيشه في أرجاء البلاد يعيث سلباً ونهباً. لكنّ القدر المحتوم كان له بالمرصاد. فقد حدث نزاعٌ خطير في أرغوس بين أرسطياس وأرسطيپوس Aristippus وهما زعيمان من سراة المدينة، فلمّا قرّر ثانيهما استغلال صداقته لأنتيغونس باستقدامه، عمد الآخر إلى دعوة پيرّوس للغرض عينه كيداً لخصمه. وكنّا

قد عهدنا بپيرّوس أن يبني الآمال فوق الآمال ولا يردّ أيّة فرصة تعنّ له منها، وأنه ينظر إلى انتصاراته السابقة بمثابة توطئات للمزيد منها، ويعّد نكساته مجرّد أخطاء قابلة للتصحيح بمغامرات جديدة، ولا يسمح للهزيمة أو النصر بأن يحدّا من نشاطه في إثارة المتاعب لنفسه أو تلقيها من عدوّه، فلذلك لم يتردد في قبول الدعوة والسير إلى أرغوس. فلحق أريوس بمؤخّرته ونصب له الكمائن وتعرّض له في مواقع منيعة حيث تكون الطرق وعثاء صعبة، فأوقع خسائر جسيمة بساقته المؤلفة من الغاليين والمولوسّيين. ووجد أحد الكهنة أثناء تقريب الأضاحي أن كبِد الذبيحة مشوّهة فاتخذها فألاً سيئاً وتنبأ لپيرّوس بأنّ هذا نذير بموت أحد أقربائه الأدنين. إلاّ أنه نسي تلك النبوءة وسط انشغاله في المحافظة على مؤخرته التي تتعرّض لهجمات العدوّ المستمرة، وبعث لنجدتها بفرقة من حرسه يقودها ابنه بطليموس بينما أشرف بنفسه على إخراج القسم الأكبر من المضيق بسرعةٍ، في حين اشتدّ سعير القتال حيث ابنه بطليموس، الذي اشتبك مع أفضل محاربي اللقيديمونيين بقيادة إيڤالكس Evalcus. وفي تلك الأثناء تقدم رجل ضخم الجِرم سريع القدم يدعى أوريسّوس Oryssus من بلدة أپتيرا Aptera في كريت حتى حاذى الأمير الفتى من جانب وهو منشغل عنه في قتالٍ شديد، وعاجله بطعنة جندلته، وبموته انفضّ جنوده من حوله مولين الأدبار. فلحقت بهم الخيّالة اللقيديمونية وصرعت عدداً كبيراً منهم حتى انتهت إلى السهل المنبسط لتجد نفسها ملتحمة بقوات العدوّ دون أن تدري، وهي مكشوفة لا تحميها المشاة. فانبرى لهم پيرّوس بفرسان المولوسيين وقد طارت نفسه شعاعاً لمقتل ابنه وامتلأ قلبه حقداً، وهجم على رأس قواته فأشفى غِلّه من دم اللقيديمونيين ومُهجهم كالعهد به دائماً. على أن شجاعته التي لم يقف أمامها شيء اتخذت الآن طابعاً مرعباً رهيباً، وفيما هو يحثّ جواده إلى إيڤالكس كاد هذا يبتر يده الممسكة بالأعِنّة لو لم يحد عنها قليلاً. فسقطت الضربة على سيور الأعِنّة وقطعتها وفي تلك اللحظة وجد سنان رمح پيرّوس مكانه في أحشاء إيڤالكس. هوى پيرّوس عن صهوة الحصان لكنه وقف على قدميه واستمر يُجندِل من يلقاه من الصناديد والأبطال الذين تكأكأوا حول جثة إيڤالكس. وكانت خسارة سپارطا به فادحة جداً في هذه اللحظة وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، وسببها هو حقد القادة الشخصي ورغبتهم في إطفاء جذوة غليلهم ليس غير.

قدّم پيرّوس القرابين عن روح ابنه، وخاض غمار معركة مجيدة تكريماً لجنازته. وبعد أن نفّس كثيراً عن كربه في ضرب العدوّ ضربات موجعة واصل السير نحو أرغوس. ووردته أنباء عن عسكرة أنتيغونس في المرتفعات القريبة من ناوپليا

Nauplia. وفي صباح اليوم التالي من وصوله بعث بمنادٍ إلى معسكر أنتيغونس يدعوه إلى النزول من المرتفعات ومبارزته على المملكة ونعته بالوغد السافل. فأجاب أنتيغونس بقوله إن الزمن والسلاح هما اللذان يحددان تصرّفاته، وإذا كان پيرّوس يريد أن يستعجل حَينَهُ فثمّ طرق عديدة أخرى كفيلة بالقضاء عليه. ووفد على الملكين سفراء من أرغوس يطلبون منهما الانسحاب معاً وإفساح المجال للمدينة في الإبقاء على صداقتهما من غير وقوعها في يد أحدهما. فوافق أنتيغونس وأرسل ابنه إلى الأرغوسيين رهينةً ودليلاً على صدق نواياه. ولكن پيرّوس لم يرسل رهينة مع أنه وافق على الانسحاب، وهذا ما جعل أمره موضع شكٍّ. ونزلت في تلك الفترة نبوءة لپيرّوس تلفت النظر، فإن رؤوس الثيران التي قُرّبت بدت وهي بعيدة عن الجثث وكأنها تُخرج ألسنتها وتلطع حناجرها المجزورة. وفي مدينة أرغوس اندفعت كاهنة أپوللو ليشيوس A. Lycius إلى خارج المعبد وهي تصيح بأعلى صوتها أنها شاهدت المدينة ملأى بالجثث وبالقتلى، وأن نسراً برز للقتال ثم غاب عن النظر فجأة كما ظهر.

تقدّم پيرّوس من أسوار أرغوس في دجنة الليل فوجد الباب المسمّى باب داياميرس Diamperes مفتوحاً لهم بسعي أرسطياس، وبقي أمره مستوراً مدة كافية لدخول كل قطعاته الغاليّة واحتلال الساحة العمومية. إلاّ أن الرتاج كان واطئاً لا يسمح بدخول الفيلة، فاضطروا إلى إنزال الأبراج عن ظهورها، ثم أعادوا تثبيتها بعد دخولها بصورة غير متقنة بسبب الظلام الحالك. وهكذا تبدّد الوقت الثمين وانتبه أهل المدينة إلى ما جرى فتناذروا وأخذوا يتراكضون بعضهم إلى الحصن الرئيس أسپيس Aspis وبعضهم إلى غيره من المواضع الدفاعية المحصّنة. وبعثوا يستنجدون بأنتيغونس فتقدّم هذا حتى بات على مسافة قريبة منها ثم توقف وأرسل إلى المدينة عدداً من كبار ضبّاطه وابنه على رأس قوة جسيمة، وخفّ أريوس أيضاً بألفٍ من الكريتيين وعدد من أبرز صناديد السپارطيين فانقضوا جميعاً على الغاليين، فمزّقوا صفوفهم وشتّتوا شملهم. ودخل پيرّوس من جهة قريبة للكيلارابيس Cylarabis بضجّةٍ وصراخٍ. ولما رجّع الغاليّون الصراخ لاحظ أنه ضعيف يشبه صوت من يعاني شدّة وضغطاً مرهقاً فاندفع إلى الأمام بسرعة يتقدم فرسانه لكنه أُرغم على السير ببطء وحذر بسبب سواقي تصريف الماء والبالوعات التي تملأ شوارع المدينة. ثم حفّ الغموض المطلق بهذا القتال الليلي ولم يعد أحد يدري ما يجري على وجه الدقّة. وتعذّر إصدار الأوامر أو تطبيقها ووقعت ملابسات كثيرة وعدّة اصطدامات دموية في الشوارع الضيّقة. وبات فن القيادة في خبر كان ولم يبق للخبر والتجارب نفع في الظلام ووسط الضجة والزحام. وواصل الفريقان

شتباكهما دون نتيجة وكلاهما ينتظر ضوء النهار. وشاهد پيرّوس على أول خيوط الفجر حصن أسپيس حاشداً بقوات العدوّ. فشاع فيه القلق ولفت نظره من بين مختلف التماثيل القائمة في الساحة العمومية تمثالُ ذئب وثورٍ من النحاس يمثلهما وهما يتحفزان للصراع فصعق من هول المفاجئة وحُكم الصدف متذكراً النبوءة الماضية التي ربطت انتهاء أجله المحتوم برؤيته ذئباً يقاتل ثوراً! يقول الأرغوسيون إن هذا التمثال كان قد أقيم تخليداً لحادثة وقعت في المدينة منذ زمن سحيق: عندما نزل داناووس Danaus برّ البلاد لأول مرة بالقرب من الپيراميا Pyramia في ثرياتيس Thyreatis لمح وهو في طريقه إلى أرغوس ذئباً يصول على ثورٍ، فقدّر لنفسه أن الذئب يمثله (لأنه وهو الغريب يفعل مثل فعله بالانتقاض على أهل البلاد). وظلّ يرقب نتيجة الصراع حتى كُتبت الغلبة للذئب، فنذر نذوراً لأپوللو ليشيوس وانقضّ على المدينة فانتصر وطرد ملكها گيلانور Gelanor وأقام في مكانه حزباً حاكماً. هذا هو السبب في إقامة التمثالين.

انتاب پيرّوس كربٌ شديدٌ لما رأى وأدرك أنه لن ينجح في أيّ مسعى له، وفضّل الانسحاب من المدينة. ولخوفه من ضيق الباب بعث برسول إلى ابنه هيلينوس - الذي كان قد تركه في قسم كبير من الجيش خارج المدينة - يأمره بالقدوم وهدم جزء من السور ومعاونته في عملية الانسحاب من المدن بمشاغلة العدوّ إذا اشتدّ ضغطه عليهم. لكنّ العجلة والاضطراب اللذين سادا الموقف أدّيا بالرسول إلى إبلاغ الأمر بصورة غامضة فاختلط الأمر على الأمير الفتى، وساق وهو في حيرته أفضل جنوده وما تبقّى من الفيلة إلى داخل المدينة فولج الأبواب لمساعدة أبيه. وكان پيرّوس وقتئذ قد قطع مرحلة كبيرة في انسحابه فقد قدّمت له الساحة العامة رقعة واسعة لتنظيم التقهقر والقتال ونجح مرّات عديدة في صدّ كرّات العدوّ عليه. ولما أُرغم على إخلاء الساحة والتسرّب في الشارع الضيّق المؤدّي إلى الباب الخارجي اشتبك بالنجدة التي جاءته من الجهة المعاكسة ولم يسمع هؤلاء نداءه بالكفّ عن القتال والانسحاب معه. أما الذين سمعوه ووعوا أمره وهمّوا بالرجوع فقد دفعتهم إلى الأمام موجة من رفاقهم الذين استمروا يتدفّقون كالسيل من باب السور. وفي تلك الأثناء هوى أضخم الفيلة أمام رتاجِ السور وظلّ ينأم نئيماً هادراً وهو مستلقٍ يسدّ الطريق على الخارجين. وكان ثمّ فيلٌ يدعى نيقون Nicon قد دخل المدينة بالأول، سقط من فوق ظهره قائده بعد أن أُثخن جراحاً، فاندفع نحو المتقهقرين يطأهم هم والأعداء ويرفعهم ويقذف بهم بعضهم فوق بعض، حتى وجد صاحبه المصاب فرفعه بخرطومه إلى نابيه وعاد يصول بوحشيةٍ ليطأ كل من يعترض سبيله. وأُسقط في يد الجميع واختلط الحابل بالنابل واشتد الزحام

والمدافعة فانحصر الكلّ وتسمّروا والتصقوا وكأنهم كتلة واحدة ملتحمة تميل برمّتها وتهتز ذات اليمين وذات الشمال ولا تقوى على عمل شيء إزاء العدوّ سواء في ذلك المهاجم منه في المؤخرة أو المتقرّب بين الكتلة نفسها. إلاّ أن الضرر الأعظم كان يأتيهم من أنفسهم فكلّ من أشهر سيفه أو أشرع رمحه تعذّر عليه إعادته إلى غمده أو جُعبته فكانوا يصيبون بها رفاقهم عن غير قصدٍ حين ملامسة أحدهم الآخر.

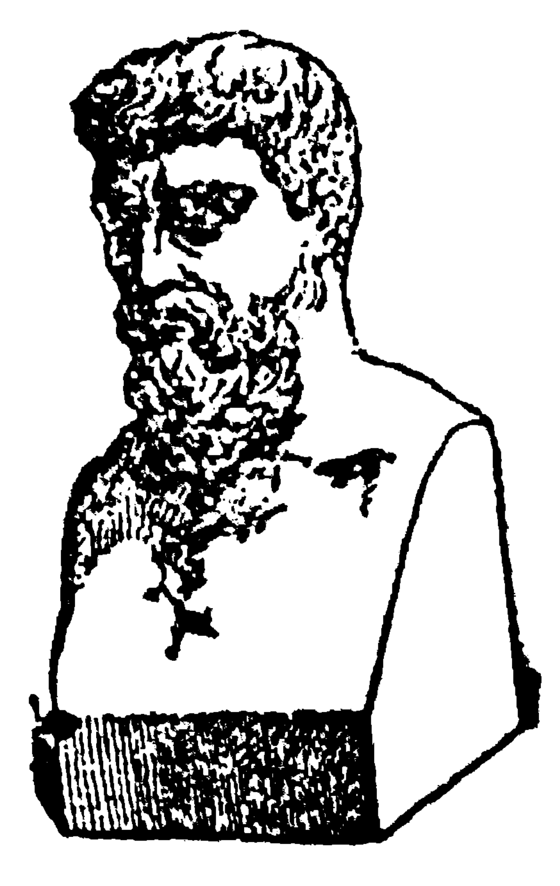
لما رأى پيرّوس تفاقُم العاصفة الهائجة التي تسفّ على جيشه وأيقن بالنهاية نزع تاجه وكان يضعه فوق الخوذة ليتميّز به ودفع به إلى أقرب الواقفين، ووضع ثقته بقوة حصانه واندفع به إلى أكثر مواضع العدوّ احتشاداً. وأصيب في صدره بطعنة رمح غير بليغة خرقت درعه لكنها لم تمنعه عن التحوّل إلى الطّاعن، وكان أرغوسياً وابناً لأمّ عجوزٍ مُعدمة، لا يتميّز بنسب عريق. وكانت الأم تتابع سير المعركة من سطح أحد المنازل مع نسوةٍ أخريات فرأت پيرّوس يحمل على ابنها فاستولى عليها الخوف من الخطر الذي يتعرّض له وتناولت آجرّة بكلتا يديها وألقتها على پيرّوس فهوت على خوذته وعطبت الفقرات العظمية لقاعدة الرقة ففقد الوعي وعميت عيناه وأفلت الزمام من يده وسقط على الأرض قرب ضريح لِقيمنيوس Licymnius. ولم يعرف الجنود هويّته إلاّ أن زوپيروس أحدهم وهو من جيش أنتيغونس، أسرع إليه برفقة اثنين أو ثلاثة آخرين، فتفرّس فيه مليّاً ولما تثبّت من هويّته سحبه إلى باب أحد المنازل القريبة وقد أخذ يفيق بعض الشيء من الضربة. ثم انتضى زوپيروس سيفه الإيلليري وهمّ بقطع رأسه، فخزره پيرّوس بنظرة صاعقة ارتجف لها وأشاعت الخوف في نفسه وراحت يداه ترتجفان برهةً. واعاد المحاولة لقطع رأسه وهو مضطرب وجِلٌ فلم يُفلح وهوت ضربة السيف على فمه وذقنه، وعالج كثيراً حتى أتمّ احتزاز رأسه.

وسرعان ما ذاع الخبر وسرى بين الجنود، فأسرع ألقيونيوس Alcyoneus إلى الموضع لالقاء نظرة على الرأس والتأكد من الخبر، ثم أخذه وركب جواده مسرعاً إلى والده وألقاه تحت قدميه وهو جالس مع بعض أصحابه. فتطلع إليه أنتيغونس ولمّا عرفه نحّى ابنه عنه بحركة غاضبة عنيفة وضربه بعكّازه مطلقاً عليه صفتي الشرّير والبربري، وستر عينيه بردائه وبكى مستعيداً ذكرى أبيه وجدّه البطلين واحداثاً لأسرته أسهمت فيها يد القدر بأدوار متقلبة كثيرة. ثم أمر أن يحرق الرأس مع الجثة بالإكرام الديني الواجب.

بعد ذلك عثر آلقيونيوس على هيلينوس ابن پيرّوس وهو متنكّر بثيابٍ رثّة ومعطف بالٍ، فعامله باحترامٍ كبير وجاء به إلى أبيه فلما وقع نظره عليه التفت إلى ابنه وقال:

«هذا العمل يا ابني هو أفضل من ذلك. ومع هذا فإنك لم تُنجزه على الوجه الأكمل، لأنك تركته بهذه الثياب الرثة فألحقت عاراً بأولئك الذين ظهروا الآن منتصرين».

وعامل هيلينوس بعطف وتكريم جدير بأمير وأعاده إلى عرش مملكة أبيه. وكذلك خصّ كلّ قادة پيرّوس الكبار بلطفه ومعاملته الكريمة بعد أن وقع معسكره وكل جيشه في يده.



أبيقور

كايّوس ماريوس

GAIUS MARIUS

١٥٧–٨٦ ق.م

إننا لا نعرف اسماً ثالثاً لكايّوس ماريوس، كما نجهله لكوينتوس سرطوريوس Quintus Sertorius الذي حكم إسبانيا، أو لوشيوس مُومّيوس Lucius Mummius الذي دَمّر كورنث وإن كان هذا الآخير قد لُقّب بـ «أخائيكوس» Achaicus بسبب فتوحاته مثلما لُقّب سكيپيو بـ «أفريقانوس». ومن هنا يستخلص پوسيدونيوس حجّته الكبرى في تخطئة أولئك الذين يرون أن الاسم الثالث هو اسم العَلَم عند الرومان، كقولنا: كاميللوس، ومارچللوس، وكاتو... إلخ. فلا يكون في قضيتنا هنا اسم علم على الإطلاق لأولئك الذين لا يُعرفون باسم ثالث حسب رأيه، وقد فاته أن منطقه هذا يجرّه حتماً إلى تجريد النساء من أسمائهن الأولى تجريداً تاماً، فلا يبقى لهنَّ ما يُنادَين به، (أي الاسم الذي يتصوّره اسمَ عَلَم عند الرومان). أمّا عن الاسمين الآخرين فأوّلهما هو اسم الأسرة ويعرف به كل أفرادها كقولنا: بومپي Pompii ومانْلي Manlii وكورنيلي Cornelii. مثلما يُطلق عندنا نحن الإغريق على أسرتي هيراقليدوي Heraclidœ وبيلوبيدوي Pelopidœ. وأمّا ثالث الأسماء أو الالقاب فهو نعت لطابع خُلقي في المسمّى، أو لعمل تميّز به، أو لمظهرٍ جسماني فيه، كقولنا: ماكرنيوس Macrinus وتوركواتوس Torquatus وسيللا Sylla، مثلما هو عند الإغريق كقولهم: منيمون Mnemon وغرايپوس Grypus وكاللينيكوس Callinieus. وعلى أيّة حال فإن شواذ العادة في إطلاق الأسماء قد تفتح لنا موضوع حديث طويل إن شئنا خوضه.

هنالك منحوتة حجرية تمثّل ماريوس في رافنّا Ravenna ببلاد الغال شاهدتها بنفسي وهي ذات ملامح تنطبق تمام انطباق على تلك الغلاظة والفظاظة التي عُزيت إليه. لقد كان بطبيعته رجل حربٍ وإقدام، أقرب طبعاً إلى حياة المعسكر منه إلى حياة المدينة، ولذلك تعذّر عليه أن يخفّف من غلواء طبعه عندما تولّى السلطة. وقيل إنه لم يتدارس اللغة اليونانية ولم يستخدمها في أيّ موضوع هامّ فقد كان يرى من السخف أن يخصّص وقتاً لهذه الثقافة التي يتعهّد أمرها معلّمون لا يزيدون عن عبيد بكثيرٍ. فمرّة

بعد موكب نصره الثاني أقام ألعاباً وملاهيَ على الطريقة اليونانية بمناسبة تكريس أحد المعابد فقدِم إلى الملعب وجلس ثم خرج فوراً.

لقد اعتاد أفلاطون أن يقول لصديقه كزينوقراطس الفيلسوف الذي كانت صرامته وقسوته أكثر مما يجب: «أضرع إليك أيْ كزينوقراطس Xenocrates الفاضل أن تضحّي لآلهة الرّقة»[1]. وعلى هذا الأساس استطاع أحدهم إقناع ماريوس بعبادة «الميوزات» و«الغريسات» الإغريقية لما بلغ بأعماله العظيمة التي لا تضاهى، سواء الحربية منها والسلمّية، إلى نتائج سيئة غير جديرة بالتقدير وإلاّ جلب الخراب على نفسه وهو في شيخوخته القاسية الناقمة المندفعة بطموح أهوج أنكد وجشع لايرتوي. على أن هذا سيتكشّف فيما بعد بالتدريج عند سرد الوقائع.

وُلِد لأبوين كلاهما مغمور معوز، يقيمان أَوْدَهما بعمل اليوم. وهو سَميّ أبيه، وأمّه تُدعى ڤولشينيا Fulcinia. وقضى فترة كبيرة من عمره قبل أن يرى ويتذوّق ملاذّ المدينة. إذ إنه شبّ في كيرّياتون Cirrhœaton وهي قرية من قرى إقليم أرپينوم Arpinum وحياتها إذا قيست بمناعم المدينة ومباهجها حياة خشنة غليظة إلاّ أنها تتّسق وتُوائم الصرامة الرومانية الغابرة. وفي مبدأ الأمر خدم جندياً في الحرب ضد الكلتيبريين: Celtilerians عندما حاصر سكيپيو أفريقانوس مدينة نومانتيا Numantia. وفيها برز على أقرانه جميعاً بالشجاعة أمام جنراله. ولفت إليه الأنظار بتحمّسه في اقتبال إصلاحات سكيپيو في جيشه الذي كاد يدمّره الترف والملاذ. وقيل أيضاً إنه هاجم العدوّ وحده وهزمه على مشهدٍ من قائده، فنال بسبب ذلك كثيراً من التكريم. ومرةً في أثناء مأدبة جرى الحديث عن القادة فانبرى أحد الحُضّار يسأل سكيپيو (مدفوعاً إمّا برغبة حقيقية لمعرفة ذلك وإمّا بقصد المداهنة والرياء): «هل سيقدَّر للرومان أن يحظوا بعده بقائدٍ مثله؟» فربّت سكيپيو على كتف ماريوس الذي كان جالساً إلى جانبه وأجاب:

- ربّما هنا!

إلى هذه الدرجة من الوضوح كانت الدلائل تشير إلى عظمة مستقبله منذ مطلع شبابه. وإلى هذا الحدّ بلغت ملاحظة سكيپيو من الدقة، في تنبّؤه بذلك المستقبل البعيد من مقدماته الأولية القريبة. إن عبارة سكيپيو هذه التي كانت أشبه بالنذير الإلهي حثّت ماريوس ودفعته إلى معترك الحياة السياسية أكثر من أيّ عامل آخر كما قيل لنا. ولقد اطّلب وحاز منصب تريبيون الشعب بمعونة كوشيليوس ميتللوس Cœcilius Metellus

(١) «Graces» آلهة إغريقية وهنّ ثلاث شقيقات، يمثلن السحْر والجمال (م. ت).

الذي ينتسب إلى أسرة تحدب عليه وعلى أبيه. وفي أثناء مزاولته منصبه هذا أصدر قانوناً لتنظيم التصويت يؤدّي على ما يبدو إلى التقليل من سلطة العظماء الذي يتولّون شؤون المحاكم والأقضية، فعارض فيه كوتّا Cotta وأقنع مجلس الشيوخ بإصدار مرسوم يُبطل حكمه واستدعى ماريوس لاستجوابه عنه. على أنه حضر بنفسه إلى مجلس الشيوخ حين أُعِدّ قرار الإبطال. ولم يكن سلوكه هناك سلوك الشابّ المستجدّ في ممارسة السلطة، أو ذلك الذي حازها دون استحقاق. ولكنه انبرى لكوتّا بكلّ تلك الشجاعة التي برّرت أعماله التالية وهدّده بإيداعه السجن إن لم يسحب القرار. والتفت إلى ميتللوس طالباً صوته فنهض هذا وأعطى رأيه لصالح القنصل. فنادى ماريوس الضابط من الخارج وأمره بأن يقبض على ميتللوس. فطلب هذا تدخّل التريبيونات الآخرين، ولمّا لم يتقدم أحد لنصرته بادر مجلس الشيوخ إلى سحب القرار حالاً. وخرج ماريوس من هذا بكسب مجيد للشعب وبمصادقة على قانونه وعُدّ بعدها شخصاً لا سبيل إلى فَلّ غُراب عزمه وإقدامه، ومعارضاً لا تلين قناته لمجلس الشيوخ والمصلحة العامّة. على أنه سرعان ما فقد ثقه الشعب بعمل مضادٍّ. فقد عارض بشدّة اقتراح توزيع القمح ونجح في إبطاله، وبذلك جعل نفسه مكرّماً على السواء من الجهتين في عدم محاباته لأحدهما خلافاً لمصلحة الجمهور.

ورُشحّ بعد منصبه هذا لوظيفة رئيس «الأيديل»، وكان يوجد درجتان منها: الأولى هي «الكورول» والصفة مأخوذة من الكرسي ذي القوائم الملتوية الذي يجلسون عليه أثناء تأديتهم واجبات وظيفتهم. والصنف الثاني أدنى من الأول ويطلق على صاحبه عنوان «أيديل الشعب». فما إن تمّ اختيار الأول حتى أعطيت الأصوات للثاني. ووجد ماريوس أنه سيفشل في نيل المنصب الأهمّ على الراجح، فبادر إلى تغيير ترشيحه إلى المنصب الأدنى. ولكنه فشل في الحصول عليه أيضاً لما بدا عليه من لهفة وتكالُب. ولم تؤثّر خيبته المزدوجة في ما سعى إليه أيّ تأثير، مع أنها لم تحصل لأحدٍ قبله. إذ ما لبث بعدها بقليل أن سعى إلى منصب «البريتور» وكاد يفشل، ثم إنّه اتُّهم بالرشوة وإن كان قد جاء انتخابه آخر الجميع.

وكان السبب الأساس للشكّ في أمره عبدٌ لكاسيوس ساباكو Cassius Sabaco شوهد داخل السياج بين المصوّتين. وقد كان ساباكو صديقاً عزيزاً لماريوس، فلما استدعاه القضاة للشهادة أمامهم زعم أنه كان عطشاناً بسبب الحرّ فطلب من عبده أن يأتيه بماء بارد فجاءه بكوب ماءٍ ما إن شربه حتى انصرف. وقد طُرد هذا الرجل من مجلس الشيوخ - السنصورين التالين جزاءً وفاقاً سواء لشهادة الزور التي أدّاها أو لسوء

أخلاقه. وكان الشاهد الآخر الذي استدعي للإدلاء بأقواله كايّوس هرينّيوس Caius Herennius فاعتذر بأن العادة لم تجر بسماع شهادة الپاترون (وهي الكلمة الرومانية التي تعني «الحامي» أو «الولي») ضدّ مواليه وأن القانون قد أعفاهم من هذا الواجب الصارم القاسي وأن ماريوس وأباه كانا دائماً موليين لأسرة هرينّي Herenni. وعندما قبل القضاة بدفوعه، اعترض ماريوس بالذات وقال لهرينّيوس إنه خرج عن موالاته له في اللحظة التي انتُخب فيها لمنصب الحاكم، وهي حُجّة لا تقوم على سند صحيح بصورة مطلقة. فليس كلّ وظيفة تحرّر الموالي وذرّيتهم من الوجائب المفروضة عليهم إزاء حُماتهم. إلاّ أولئك الذين عهد إليهم القانون بكرسيّ الكورول. وبغضّ النظر عن كُلّ هذا فإن القضيّة بدت سيئة عصيبة بعض الشيء ولم يجد من القضاة أيّ عطفٍ. لكن الأصوات تساوت في نهاية الأمر خلافاً لما كان متوقعاً تماماً فبُرّئ من التهمة.

ولم ينل شرفاً أو تكريماً كثيراً أثناء قيامه بوظيفة الپريتور. إلاّ أنه أرسل والياً على إسبانيا القصوى بعدها. وقيل إنه قضى على اللصوص وقُطّاع الطرق واستأصل شأفتهم وكانوا وباءً فتّاكاً يعيث فساداً في الإقليم كله. وكانت العادات البربرية سائدة آنذاك والإسبان في ذلك العهد ما زالوا ينظرون إلى السرقة والسلب كمظهر من مظاهر الإقدام والبطولة. ولم يكن لديه في المدينة ما يصحّ اعتماده عليه من الغنى وقوة العارضة، وهما الوسيلتان اللتان تكفلان لكبار القوم النفوذ عند الشعب في ذلك العهد. إلاّ أن نشاطه الجمّ، وحماسته إلى الجدّ والعمل وعيشته البسيطة كانت بحّد ذاتها عوامل نفوذه وسببَ رفعِ قدره عند الشعب، وضمنت له زيجة مشرّفة من جوليا التي تنتمي إلى أسرة القياصرة الشهيرة، وابن عمّها هو قيصر الذي يُعدّ من أعظم عظماء الرومان؛ وقد كان من أثر قرابتهما أن جعل من ماريوس قُدوةً ومثلاً له إلى حدّ ما كما سيتبيّن لنا فيما بعد من سيرته.

وأشاد الناس بمتانة خلق ماريوس وشدة احتماله. وقدّم على الصفة الثانية برهاناً دامغاً بعملية جراحةٍ أجريت له. فقد كانت ساقاه تشكوان على ما يبدو من دماملٍ كثيرة فكره ذلك ورغب في إزالة التشويه بوضع نفسه في يد طبيب جراحيّ. ومدَّ إحدى ساقيه دون أن يربط وتحمّل بصمت أقسى الآلام أثناء الاستئصال ولم تتغير ملامحه أو تصدر منه شكوى أو آهة. ولكنه أبى الاستمرار عندما همَّ الجراح بالساق الأخرى وقال:

«أرى البرء من دائي لا يستحقّ كل هذا الألم».

وعُيّن القنصل كَيْكيليوس ميتللوس جنرالاً في الحرب ضدّ يوغورثا Jugurtha في

أفريقيا فأخذ معه ماريوس بوظيفة رئيس أركان حرب. وهناك بدافع من رغبته في إنجاز أعظم الأعمال، والنهوض بالوجائب مما يؤهّله إلى الشهرة والمجد الشخصيّ، لم يُقم وزناً لأمجاد ميتللوس ولم يتحرّ خدمته كالآخرين، ولم يعزُ تشريفه بمنصب أركان الحرب إلى ميتللوس وانّما عزاه إلى جدّه وحظّه الذي زوّده بالفرصة المؤاتية وبمسرح للأعمال الجليلة. فأبدى أقصى الشجاعة والإقدام في هذه الحرب وعنّت له ضروب من المصاعب فلم ينكص عنها مهما بلغ من عظمها ولم يستحقر القيام بأصغرها شأناً، وتفوّق على أقرانه في حُسن الرأي ودقّة التنفيذ. وبارى الجنود العاديين في كدحهم وعيشة التقشف ونال عندهم شعبية واسعة. فالحقيقة هي أن كل مساهمة طوعية من رجل كبير المقام في عملٍ كادح شعبيّ تنظر نظرة تقدير وتخفّف من عناء العمل نفسه بقدر ما تجعله طيّباً وتزيل عنه صفة الإرغام والجبر. وإنه لمن أبدع المشاهد وأسماها أن يرى الجندي الروماني قائده يتناول الصنف الذي يتناوله هو من الخبز، أو ينام على فراشٍ مماثل أو ينزل معه عاملاً في حفر خندق أو إقامة متراس. إن الجنود لا يتعلّقون ولا يعجبون بمن يُغدق عليهم النّعم والأموال قدر ما يعجبون بمن يشاركهم المخاطر والجهود مشاركة فعلية. وبهذا يكون حبّهم للقادة الذين ينزلون إلى المشاركة في أعمالهم أمتن وأشدّ من حبهم أولئك الذين يشجّعونهم على البطالة والكسل.

وهكذا ظفر ماريوس بقلوب الجنود وملكها. ولم يطل به الزمن حتى ردّدت أفريقيا وروما أصداء شهرته. وخرجت رسائل من الجيش المرابط إلى المسؤولين في الوطن توصي به وتشير إلى أن الحرب في أفريقيا لن تنتهي إلى نتيجة حاسمة إلاّ بانتخاب كايوس ماريوس قنصلاً. وكل هذا كان يسيء إلى سُمعة ميتللوس، وأكثر ما أغاظه منه هو نكبة توربيلليوس Turpillius. كان توربيلليوس هذا صديقاً حميماً عتيقاً لميتللوس توارثا الصداقة أباً عن جدّ، وقد وجد معه في الجيش الأفريقي بمنصب قائد سلاح الهندسة بما فيه من حدّادين ونجّارين. وظلّت صلتهما دائمة وعلاقتهما وثيقة. ثم عهد لتوربيلليوس بآمرية حامية ڤيغا Vega وهي مدينة كبيرة. فوضع ثقة عمياء في سكانها، وأطلق لهم الحبل على الغارب مطمئناً إلى أن معاملته الطيّبة جداً لهم ستضمن إخلاصهم. وهكذا وقع في يد العدوّ دون أن يدري. فقد فتحوا ليوغورتا أبواب المدينة فدخلها، إلاّ أنهم تشفّعوا لتوربيلليوس فأطلقه يوغورتا سالماً دون أن يُلحق به أي أذى، وهذا ما دفع إلى اتهامه بالخيانة وتسليم المدينة للعدو. وكان ماريوس عضواً في المجلس العسكري الذي حاكمه. فلم يكتف أن يُظهر التحامُل العنيف والصرامة، بل راح يثير عليه معظم أعضاء المجلس. وهكذا اضطرّ ميتللوس كارهاً إلى فرض حكم

الموت وإنفاذه فيه. وما عتمت الحقيقة أن انجلت وظهر زيف التهمة، وبينما خفّ الآخرون لمواساة ميتللوس الذي وقعت عليه المصيبة وقعاً مُرّاً راح ماريوس يفخر بين كل السرايا بلهجة جارحة وقِحة بأنه هو الذي ورّط ميتللوس في إنفاذ حكم الموت بصديقه.

ولم ينكشف خلافهما للملأ حتى ذلك الحين. وذُكر أن ميتللوس قال في مجلس كان ماريوس فيه، بلهجة مهينة:

«أنت يا سيّدي تنوي مغادرتنا إلى الوطن لترشّح نفسك لمنصب القنصل ولا تريد الانتظار لتصبح قنصلاً مع ابني هذا؟».

وكان ابن ميتللوس صبياً يافعاً في ذلك الوقت. على أن ماريوس كان شديد الإصرار على السّفر، وبعد عدة تأخيرات فُكّ من منصبه ولم يبقَ من موعد انتخاب القنصل غير اثني عشر يوماً. فقطع المسافة الطويلة بين المعسكر وميناء أوتيكا Utica بيومين وليلةٍ وهناك قرّب إلى الآلهة قبل أن يركب البحر، وقيل إن العرّاف أخبره بأن السماء ادّخرت له حظاً سعيداً لا يصدّق ولا يتوقعه أحدٌ. وبدأ ماريوس رحلته وهو منتعش الروح بهذه النبوءة الطيبة انتعاشاً ليس بالقليل وقطع البحر في أربعة أيام وبريحٍ رخاءٍ. واستقبله الشعب بفرح عظيم وجاء به إلى الجمعية العامة أحد التريبيونات فأعلنَ ترشيح نفسه، وهاجم ميتللوس مهاجمة عنيفة من كل ناحية. ووعد الناخبين إمّا أن يقضي على (يوغورثا) أو يأتي به حيّاً.

وتمّ انتخابه بأكثرية ساحقة وحماسة. وبدأ في الحال بتجنيد المحاربين خلافاً للقانون والعُرف، فسجّل عبيداً وأناساً مُعدمين، مما لم يُقدم عليه أحد من القادة السابقين، وإنما كانوا يصرفون السلاح والعُدّة كما يمنحون خلافها من النّعم والمكافآت بمثابة تكريم وتبريز لذوي المؤهّلات المستحقّين، وعلى هذا الأساس تكون ملكية المرء نوعاً من الضمان لحسن سلوكه. ولم تكن هذه الأسباب هي العامل الأوحد لاضطغان طبقة الأشراف له وإضمار السوء. فقد ثار حقدهم عليه ببعض خطبه الغِطريسة المتعالية، ذات اللهجة الجارحة الساخرة. فقد كان يقول مثلاً: إنه فاز بمنصب القنصل كما يفوز بغنيمة حربٍ، وانتزعها من خنوثة المواطنين الأغنياء ذوي الحسب والأصل العريق! وقال لعامّة الشعب إنه ليعتزّ بالجراح التي أصابته لأجلهم، قدر ما يعتزّ غيره بتماثيل أو أضرحة الموتى من أجدادهم! وكثيراً ما ندّد بالقادة الذين عادوا من أفريقيا يجرّون أذيال الخيبة دون أن يحققوا شيئاً. ويقدّم كلاً من بستيا Bestia وألبينوس Albinus نموذجاً لهؤلاء القادة الفاشلين (وكلاهما من أُسرة كريمة جداً). فيقول عنهما

إنهما لا يصلحان للحرب، وقد فشلا فشلاً ذريعاً لأنهما لا يملكان الخبرة. وساءل ممن يحيط به قائلاً: أليس يرون أن الأجدر كثيراً بأجداد هؤلاء الأشراف أن يخلّفوا نسلاً مثله، ما داموا هم أنفسهم قد اشتهروا لا بسبب عراقة أصلهم ونُبل أرومتهم بل لبسالتهم ولما حققوا من الأعمال الجسام. وهو لا يقول هذا تفاخراً واعتزازاً، أو رغبة في جرح مشاعر الأشراف، بل كان يتوخّى منفعةً وهي أن عامّة الشعب كانت تُسرّ كثيراً لكلّ إهانة أو عيب يُقذف به الشيوخ. وكانت مقاييس عظمة الخطيب عندهم هي جرأة الخطبة وسلاطتها. لذلك واصلوا تشجيع ماريوس وشدّ أزره في ميله إلى النيل من أيّ شخص ذي مقامٍ إرضاءً لعامة الشعب. ولم يستطع ميتللوس أن يخفي شعور حسده وحقده لماريوس بعد أن عاد إلى الحرب وهو بمنصب قنصل. ذلك لأنه كان قد أنهى الحرب فعلاً، ولم يتبقّ شيء خلا وضع اليد على يوغورثا، فيأتي ماريوس في هذه المرحلة شهيراً رفيع الشأن كبير المنصب عن طريق إنكاره جميله ليجرّده من ثمار نصره وموكب الظفر الذي يستحقه! ولذلك لم يتحمّل رؤيته ولم تجر مقابلة بينهما وترك ميتللوس المعسكر وأناط بمساعده روتيليوس Rutilius مهمّة تسليم قيادة الجيش لخلفه. والشيء بالشيء يذكر أن ماريوس لقي على يد سيللا المعاملة نفسها عند ختام الحرب إذ جرّده هذا من مجد النصر كما فعل هو بمتيللوس. وإني سأعمد إلى ذكر الأحداث والوقائع باختصار هنا، لكونها قد فُصّلت تفصيلاً وافياً في سيرة سيللا:

كان بوخّوس Bocchus ملكاً للإقليم الأقصى من بلاد البرابرة، وهو حمو يوغورثا إلاّ أن المعونة التي أبداها له في هذه الحرب كانت تافهة تكاد لا تذكر، وقد ألجأه إلى هذا الموقف خوفه من غدر ختنه وانقلابه عليه إذا انتصر، وحسداً له إذا ما تعاظمت قوته. وبعد هزيمة يوغورثا رحل إليه في غمرة من يأسه ليكون له آخر ملاذٍ. فاستقبله بوخوس كما يستقبل أيّ لاجئ، لا بدافع من عطفٍ أو حدبٍ حقيقي عليه بل حرصاً على سُمعته، لئلا يُعيّر بأنه لم يقم بواجب الإجارة. وما إن غدا يوغورثا طوع يده حتى اتصل رسمياً بماريوس متشفّعاً له موهماً للناس بأنه مصرٌّ على عدم تسليمه وهذا في الظاهر، إلاّ أنه كان يبطن الغدر به. وأرسل يطلب حضور لوشيوس سيللا الذي كان بمعيّة ماريوس في منصب الكويستور (أمين خزانة الجيش). وكان سيللا قد ارتبط بعهد إخاء مع بوخوس في إحدى مناسبات الحرب لذلك رحل إليه معتمداً على كلمته. ولما وصل بدأت الحيرة تتنازع نفس بوخوس وظلّ التردد مستولياً عليه عدة أيام: هل يسلّم يوغورثا أم يحتجز سيللا؟ أخيراً قرّ قراره على سلوك سبيل الغدر الذي نواه منذ البدء، وسلّم يوغورثا إلى سيللا حيّاً. وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي قدحت نار

النزاع الرهيب، نزاع لا يُرأب صدعه كاد يطوّح بالإمبراطورية الرومانية ويوردها موارد الدمار. لقد عزا حسّاد ماريوس الكثيرون كلّ النجاح إلى سيللا. وعمل سيللاّ ختماً لنفسه حفر عليه صورة تمثّل بوخوس وهو يدفع إليه بيوغورثا. وأخذ يكثر من استخدامه مثيراً بذلك حنق ماريوس وهو بطبعه سريع الإثارة والانفعال حادّ المزاج مفطور على التهالك على الشهرة سريع الاضطغان، ضنين جداً على غيره بالشهرة يكره أن يشاركه احدٌ في أي مجد يناله. ولم يألُ أعداؤه جهداً في إذكائهم نار النزاع، بترديدهم القول إن ميتللوس خاض أهم وقائع الحرب، وإن سيلّلا كان له فضل إنهائها، يريدون أن يصرفوا الشعب عن تعظيم ماريوس وإجلاله واعتباره أجدر الناس بهذا الحبّ.

لكن هذا التحاسد والتباغض ما لبث أن زال وانقشعت غيومه عن خاطر ماريوس بالخطر الذي بدأ يهدد إيطاليا من جهة الغرب. وآضت العاصمة الرومانية في أمسّ الحاجة إلى قائد محنّك فراحت نبحث عمن ستودع إليه الدفّة لمواجهة إعصار الحرب العظيمة القادمة. ولم يُزَكِّ أحد من المواطنين فرداً واحداً من أفراد الأسر الغنية أو الشريفة الذين عرضوا أنفسهم لمنصب القنصل، وانتُخب ماريوس قنصلاً وهو بعيد عن أرض الوطن.

ما كاد يُذاع نبأ وقوع يوغورثا في قبضة الرومان، حتى وردت أولى الأخبار عن بدء غارة التيوتون Teutones والكيمبري Cimbri. وفاقت المعلومات الأولية عن كل ما هو معقول بخصوص عدد المقاتلين في عسكرهم الزاحف ومبلغ قوتهم، إلاّ أن المعلومات التالية أثبتت أن الأخبار السابقة تنطوي على كثير من المبالغة وان الواقع هو أقلّ جداً. فقد قُدّروا بثلاثمائة ألف مقاتل تحت السلاح مع عددٍ من النساء والأطفال يفوقه كثيراً. وكان ادّعاؤهم أنهم يبحثون عن بلاد وأراضٍ جديد يستقرّون فيها لإعالة هذا الحشد الهائل من أهاليهم، وينشدون مدناً يسكنونها كما فعل الكلتيون قبلهم عندما طردوا التيّرينيين Tyrrhenians من بلادهم وسيطروا على خير جزءٍ من إيطاليا على ما قيل لهم. كان الناس كافة يجهلون صفة هؤلاء القوم المغيرين، ومن أين جاؤوا؛ ذلك لأنهم لم يُنشئوا قط علاقات تجارة مع أقوام الجنوب، وتميّزهم بصفة الترحال والتنقل في أرجاء واسعة من الارض. ولهذا كان اندفاعهم الآن أشبه بسحابة عظيمة انتشرت فجأة فوق بلاد الغال وإيطاليا. على أنَّ عيونهم الرمادية وضخامة أجسامهم كانت توحي بأنهم شعب من تلك الشعوب الجرمانية التي تعيش في سواحل بحر الشمال. هذا وإنَّ الجرمان أنفسهم يطلقون اسم كيمبري عادةً على الناهبين.

هناك بعض من يقول إن بلاد الكلت تمتد بأرجائها الرحيبة من أقصى المنطقة القطبية إلى بحيرة ميوتيس Mœotis شرقاً، إلى ذلك الجزء من بلاد الصيثيين القريب من بونطس وتتمازج الأقوام هناك وتختلط. وهم لا يخرجون من البلادِ دفعةً واحدة وبصورة مفاجئة وإنما يتقدمون على شكل موجات ويشقّون طريقهم بقوة السلاح في موسم الصيف من كل سنةٍ حتى اجتازوا القارة كلها بكرور الزمن. ومع أن كل فرقة من هذه الفرق المغيرة كانت تُعرف بعدة أسماء فإن الموجة كلها عُرفت باسم واحدٍ عام هو «كلتوصيثيّون». ويقول آخرون إن الكيمّريين Cimmerii الذين عرفهم الإغريق منذ قديم الزمان ما هم إلاّ جانب صغير من هذا الشعب كان قد طُرد من البلاد الأمّ على اثر نزاع بين الصيثيين فنزح برمّته من أطراف بحيرة ميوتيس إلى آسيا بزعامة ليغْداميس Lygdamis. وما زال معظم هذا الشعب وأقواه مراساً يعيش في أقصى الأصقاع الممتدة على طول سواحل الأوقيانوس الخارجية. وقيل إنهم يستوطنون بقاعاً معتمة تتكاثف فيها الغابات وقلّما تخترقها أشعة الشمس لتقارُب الأشجار الشديد وامتدادها إلى الداخل حتى الغابة الهركينية Hercynian. وموْضعهم في الارض يقع تحت ذلك الجزء من الفلك الذي يرتفع عنده القطب ارتفاعاً كبيراً ليميل إلى خطوط العرض، إلى الحدّ الذي تبدو معه وكأنها على مسافة قريبة من سُموُت السكان. وبما أن ليلهم ونهارهم يكادان يكونان متساويين طولاً فإنهم يجزّئون سنتهم.

وعن هذا السبيل جاءت قصّة هوميروس عن يوليسيس وكيفية ندائه الموتى. ومن هذه الأصقاع انحدر شعبا الكيمبري إلى إيطاليا (كان يدعى في قديم الزمان الكيمّيري وجرت عليه الألسن بهذا التعديل الملطف).

ويتفق معظم الكتّاب على أن عدد المغيرين لم يكن أقلّ مما ذكرنا، وذكر بعضهم أنه أكثر. وكانوا قوماً أشداء محاربين لا يشقّ لهم غبار امتازوا بالغلاظة والوحشية الفائقة، تراهم يهرعون إلى المعركة مسرعين كما تسرع النار العظيمة الآكلة فلا يقف أمامهم شيء ويفترسون كل من يعترض سبيلهم. وطالما ألحقوا الهزائم النكراء بكثير من القوّاد الرومان وحض على جيوشهم المتقدمة للدفاع عن الغاليّين الساكنين فيما وراء الألب. كانت المقاومة الضعيفة التي جابهوها في توغّلهم المحرّض الرئيس لهم على الزحف على روما. فبعد أن هزموا كل من تصدّى لقتالهم، وبعد أن وقعوا على تلك الأسلاب والغنائم الكثيرة، آلوا على أنفسهم أن لا تستقرّ بهم أرض قبل أن يجتاحوا المدينة ويسوّوها بالقاع ويُخضعوا كل إيطاليا. واستبد القلق الشديد بالرومان في كل مكان بهذه الأنباء وبعثوا يستقدمون ماريوس ليأخذ الحرب على عاتقه واختاروه قنصلاً

للمرة الثانية وإن كان القانون لا يسمح أن يجري انتخاب القنصل بغياب المرشّح له، أو أن يعاد انتخاب القنصل لدورة ثانية الا بعد مرور فترة معيّنة من الزمن على قنصليته الأولى. إلاّ أن الشعب رفض كل الاعتراضات بهذا الخصوص. إذ لم تكن هذه المرّة الأولى التي أفسح القانون سبيلاً لتفضيل المصلحة العامة. ولم يكن الوضع الحالي بأقلّ حراجةً من ذلك الوضع الذي حملهم على انتخاب سكيپيو قنصلاً خلافاً لأحكام القانون. ولم تكن مدينتهم مهددّة بالدمار وقتذاك بل لأنهم كانوا يريدون تدمير مدينة القرطاجنيين.

هذا ما تمّ تقريره. وسحب ماريوس كتائبه من أفريقيا في اليوم الأول من شهر كانون الثاني الذي يعتبره الرومان مبدأ العام الجديد. وتسلّم مقاليد الحكم ثم دخل في موكب نصر عرض فيه على الشعب يوغورثا الملك الأسير، وهو مشهد كانوا قد يئسوا من تحقيقه، كما لم يصدّق أحد منهم أنه سيرى في حياته اندحار العدوّ في أفريقيا. لقد بلغ من قابليّة يوغورثا على تكييف نفسه لكلّ دورة من دورات الخطّ، ما يوازي جرأته وسعة حيلته. ولكن قيل إنه كبا أثناء ما كان يقاد في الموكب، من فرط الحزن. ثم زُجّ به في السجن، فأخذ بعضهم يشقّ ثيابه، وقطع آخرون شحمة أذنه أثناء نزاعهم على قُرطه الذهبي. ولما أُلقي في الجبّ عارياً، صاح وهو ذاهل، ضائع اللبّ يضحك ضحكة مخيفة رهيبة:

- إيه يا هرقل! ما أبرد حَمّامك هذا؟

وبقي ثمّ ستة أيام يصارع الجوع، ولم يفارقه تشبّثه بالحياة إلى آخر لحظة. وهكذا لقي جزاءه العادل عن كلّ ما ارتكب من شرٍ.

وذُكر أن ماريوس جلب إلى روما بمناسبة نصره مقادير من الذهب بلغت زنتها (٣٠٠٧) باوندات ومن سبائك الفضة ما يزن (٥٧٧٥) باونداً. ومن المصكوكات النقدية الذهبية والفضية ما قيمته (٢٨٧٠٠٠) دراخما. وبعد انتهاء مراسم الموكب طلب ماريوس عقد اجتماع لمجلس الشيوخ في الكاپيتول. ودخل عليهم وهو ما يزال في حُلّة موكب النصر، إماّ غفلةً منه وإهمالاً، وإما تباهياً واختيالاً غير لائق، واعتزازاً بالحظّ الذي حالفه، ولكنه أدرك فوراً استنكار المجلس لعمله فخرج وعاد مرتدياً وشاحه الاعتيادي بحاشيته الأرجوانية. واهتمّ كثيراً بتدريب وتمرين جيشه في أثناء مسيرته إلى ساحة القتال فكان ينظّم له مسيرات طويلة، وتمارين عدة مختلفة مجبراً كل جندي على حمل تجهيزاته، وتهيئة طعامه، حتى بات الجندي الصبور على المشاقّ الذي يؤدّي عمله بصمت وبدون تأفّف يُطلق عليه اسم «بغل ماريوس». على أن

بعضهم يظن أن أصل اللقب هو غير ذلك وأنه نشأ عندما كان سكيپيو يحاصر نومانتيا وامتاز بالدقة والعناية في تفقّد خيول الجنود وأسلحتهم، فضلاً عن بغالهم ومركباتهم، ليرى درجة تسليحهم، ومبلغ استعداد كل واحد منهم. وتقدّم ماريوس ليعرض حصانه المعلوف علفاً جيداً وبغله في حالة ممتازة جداً، يبدو أقوى وأطوع قياداً من بغال الآخرين. فسرَّ الجنرال كثيراً، وظلّ يلهج بذكر حيوانات ماريوس. ومنذ ذلك الحين والجنود يطلقون عبارة «بغل ماريوس» مازحين عندما يقصدون مدح زميل دؤوب كدود.

ولنعد إلى الموضوع؛ يظهر أن حظاً نادراً حالف ماريوس. فقد انحرف العدوّ بكيفية ما عن سبيل زحفه وانقضّ أولاً على إسبانيا وبذلك أتاح لماريوس وقتاً لتدريب جنوده واستئصال عوامل الخوف من نفوسهم وإحلال الشجاعة في محلّها، وأهمّ من هذين ليعرّفهم بحقيقته ويظهر لهم صلابة معدنه. فإن أسلوب القيادة الصارم الذي اتّبعهُ، وشدّة العقوبات التي فرضها على الرجال أدّت إلى اجتثاث حبّ الفوضى والتمرّد على الأوامر من أنفسهم وجعلتهم يشعرون بقيمته وفائدته، فضلاً عن عدالته، وطبعه العنيف، وصوته القاسي وملامحه الصارمة، مما ألفوُه منه بعد فترة من الزمن قصيرة وعُدّ عاملاً مخيفاً للعدوّ لا لهم. وأكثر ما سَرّ الجنود منه استقامته في إصدار أحكامه. وسنورد الحادثة التالية كمثل بليغ على ذلك: كان المدعو كايوس لوسيوس Caius Lusius وهو ابن عَمّ لماريوس يحتلّ منصباً قيادياً تحت إمرة قريبه في الجيش وكان رجلاً حسن الخلق بصورة عامة إلاّ أنه تميّز بعلاقاته الآثمة مع الفتيان. وكان يوجد تحت إمرته فتى في مطلع الشباب يُدعى تريبونيوس Trebonius امتنع عنه واستنكف عن مواصلته رغم الجهود التي بذلها معه ومختلف وسائل الإغراء التي عرضها له. ولما أعيته الحيلة فيه بعث إليه بالأخير رسولاً يطلب حضوره فقدِم إليه لأن القانون العسكري لا يسمح له برفض أمر الاستقدام من المافوق، فجيء به إلى خيمة لوسيوس. وعندما بدأ هذا يستعمل معه وسائل الإرغام والعنف سحب الفتى سيفه وطعنه طعنةً نجلاء ألقته قتيلاً. حدث هذا أثناء غياب ماريوس فلما عاد أحال تريبونيوس على المحاكمة. فجاء عدد كبير من الشهود وشهدوا ضدّه بينما لم يتقدّم أحد بشهادة دفاع عنه. وأدلى المتهم بإفادة صريحة وقدّم دلائل وشهادات على مواقفه السابقة من لوسيوس وكيف أن هذا كان لا يفتأ يعرض عليه كثيراً من الهدايا الثمينة. فأعجب ماريوس بتصرّفه وسُرّ كثيراً وأمر أن يؤتى بقلادة الزهر وهي المكافأة التي اعتاد الرومان أن يجازوا بها الشجاعة وقام هو بنفسه يضفرها على رأس تريبونيوس معتبراً عمله هذا مأثرة ممتازة في وقت كانت الحاجة ماسّة جداً إلى مثل هذه الأمثلة.

وعندما انتشرت هذه الحادثة في روما ساعدت مساعدة غير قليلة في انتخاب ماريوس قنصلاً للمرة الثالثة. وكذلك أدّت بالبرابرة وهم في فصل الصيف إلى الاعتقاد بأن القوم لا يرغبون في إيداع مقدّراتهم إلى جنرال آخر غيره. على أن وصولهم لم يكن مُبتسراً كما انصرف إليه الذهن، فما بدت طلائعهم إلاّ وكانت فترة قنصلية ماريوس قد انتهت. وحان موعد الانتخاب وزميله قد قضى نحبه. فأودع قيادة الجيش إلى مانيوس أكويليوس Manius Aquilius وأسرع إلى روما فوجد كثيرين من الشخصيات البارزة يزاحمونه المنصب.

وانبرى لوشيوس ساترنينوس Lucius Saturninus وهو من ألصق الناس بماريوس وأكثر الناس تأثيراً على الجماهير بقوة عارضة وذلاقة لسان، وأخذ يعمل على إقناعهم بانتخابه قنصلاً. وعمد ماريوس إلى تمثيل دور ذلك المعتفّف الزاهد برفضه تسنّم المنصب. وراح ساترنينوس يدعوه بخائن الوطن لاستنكافه عن القيادة في هذه المحنة الخطيرة. ولم يكن يصعب على المرء أن يتبيّن هذه اللعبة المزدوجة، وأن يدرك مسعى ساترنينوس لمساعدة ماريوس بفرض انتخابه على الجماهير كضربة لازبٍ. ومع عدم انطلاء اللعبة عليهم فقد انتخبوه قنصلاً للمرة الرابعة متعلّلين بأن الوضع الراهن يحتّم عليهم الإفادة من درايته، ومن السعود الذي لا يتخلّف عنه. وانتخبوا كاتولوس لاتوشيوس Catulus Latutius زميلاً له، وهو رجل يجلّه الأشراف كثيراً، ولا تمجّه العامة.

ولاحظ ماريوس اقتراب العدو بكامل عدده وعُدّته وعبوره الألب وضرب معسكره على نهر الرون. فاهتم أولاً باختزان كمّيات كبيرة من الأرزاق وموادّ الإعاشة، لئلا يضطر فجأة إلى حربٍ غير متكافئة بسبب نقص الضروريات. وكان نقل الارزاق للجيش بحراً، يتم بمرحلة طويلة وتعتوره مصاعب جمّة فجعله سهلاً وسريعاً. فالطميُ والتربة المخلوطة بالطين تراكما بمرور الزمن ليسدّا فم الممر الذي تمخره سفن النقل وليجعلاه ضيّقاً خطراً. فأمر عسكره، وكان في عطلة، أن يحفروا قناةً عظيمة، وحوّل إليه مجرى القسم الأكبر من النهر ليصل به إلى نقطة مناسبة من الساحل، حيث كان عمق الماء كافياً لإمرار السفن ذات الحمولة الكبيرة، فضلاً عن هدوء سطح البحر في تلك الفتحة وخلوّها من عوائق الملاحة. ومازالت هذه القناة تعرف باسمه حتّى يومنا هذا.

وقسم العدوّ نفسه إلى قسمين: فقرّر الكيمبري أن ينازلوا عسكر كاتولوس في إقليم النوريكي Norici الجبلي، وان يقتحموا الشِّعْب هناك وينحدروا منه إلى داخلية

البلاد، وقرّر التيوتون والأمبرونيون Ambrons أن يزحفوا على ماريوس بمحاذاة الساحل خلال إقليم ليغوريا Liguria. وتأخّر الكيمبري كثيراً في إنجاز مهمتهم. إلاّ أن التيوتون والأمبرونيين اجتازوا بكلّ خيلهم ورجلهم الأراضي التي تفصل بينهم وبين عدوهم وسرعان ما أصبحوا على مرأى منهم، وهم عدد لا يصدّقه العقل منظره يوقع الهلع في النفوس بصراخهم وصياحهم الغريب. وبعد أن ضربوا معسكرهم في جزء كبير من السهل بدأوا يستفزّون ماريوس للقتال فلم يبد منه قبول وتجاهلهم كأنهم ليسوا موجودين وأبقى جنوده وراء المتاريس والتحصينات. واشتدّ وقسا في تعنيفه كلّ المتهوّرين والمتحمّسين لإظهار بسالتهم من الذين انساقوا إلى القتال بدافع العاطفة الجامحة ليس غير، ووصفهم بخونة الوطن قائلاً لهم إن الواجب يقضي عليهم الآن بصرف أذهانهم عن مجد النصر والفوز بغنائم الحرب، وبالتفكير في كيفية صدّ هذا الإعصار الحربيّ الكاسح وإنقاذ إيطاليا فحسب.

بهذه الأقوال كان يتحدث في مجالسه الخاصّة مع ضباطه وأقرانه إلاّ أنه عمد إلى توزيع جنوده بطريقة دورية في نقاط أمامية من الاستحكامات لمراقبة العدوّ ومدارسته، وليألفوا شكله وصوته. (وكان والحق يقال بربرياً في هاتين الصفتين مُفرطاً بهما) وليتفحّصوا عن كثب أسلحته ويدرسوا طرقهم في استعمالها. ولم يمرّ وقت قصير إلاّ ووجدوا ما كان مخيفاً لهم ما هو إلاّ شيء عاديّ بعد دوامهم النظر إليه أولاً. إذ كان يدرك بعقله الراجح المتوقّد أن غرابة الأشياء كثيراً ما تُسبغ عليها مهابة مظهرٍ في حين أنها ليست كذلك. وإن معرفتنا الجيدة للاشياء المخيفة والمرعبة حقاً تفقدها كثيراً من هاتين الصفتين. إن وصاياه وتنبيهاته اليومية هذه لم يقتصر أثرها على التقليل من خوف بعض الجنود، وإنما أدّت إلى إثارة حقدهم وإضرام النار في إقدامهم، لاسيما عند سماعهم تهديدات العدوّ وشتائمه القبيحة. هؤلاء الأعداء لم يكتفوا باجتياح الأنحاء المجاورة وإفناء سكانها وإنما تمادوا بالتعرّض للتحصينات والاستحكامات الرومانية استهانة بخصمهم واعتداداً بأنفسهم.

وأخذت تبلغ أذنيّ ماريوس شكوى الجنود المتواترة:

«أيّ خنوثة يجدها (ماريوس) فينا ليحبسنا هكذا داخل المعسكر ويمنعنا من منازلة الأعداء؟ هيا بنا، لنكن رجالاً ولنسأله هل يتوقّع من غيرنا قتالاً في سبيل ايطاليا؟ أو أنه يريد فحسب أن يستخدمنا في الأشغال التي تخصّص بها العبيد، كلّما يرغب في حفر أقنية أو كري السواقي واستخلاصها من الطين والأتربة أو تحويل مجاري الأنهار؟ أم الظاهر أنه لم يُخضِعنا لهذا التدريب

العسكري الطويل إلا لتكليفنا بمثل هذه الأعمال، ثم يعود إلى الوطن ليفخر أمام الشعب بجلائل الأعمال خلال فترة قنصليته. أيمكن أن يكون اندحار كاربو Carbo وجيبيو Cœpio أمام العدو سبباً في إحجامه وجُبنه؟ الحق يقال إنهما كانا أقل شأناً بكثير من ماريوس سواء من ناحية البسالة أم ناحية الشهرة، كذلك كان جيشهما ضعيفاً، وعلى أسوأ الاحتمالات فإن القتال وإن تكبّدنا به خسائر مماثلة لخسائر العدو لهو أفضل من القعود كالمتفرّج العاطل. نشهد خراب حلفائنا وإبادة أصحابنا ولا نحرّك ساكناً!».

لم يكن سرور ماريوس بالقليل من هذه الأحاديث. إلاّ أنه ظلّ يهدّئ من غلوائهم بأسلوب رفيق، ويقول لهم إنه ما ارتاب قطّ في شجاعتهم إلاّ أنه يحسب للنصر حسابه الزماني والمكاني على ضوء تنبؤات معيّنة.

وكان هذا هو الواقع، فقد اعتاد دينياً أن يحمل معه في سائر تنقّلاته في محفّةٍ امرأة سورية تدعى مرثا يقال إنها نبيّة يوحى لها، فلا يقدّم قرابينه إلا بتوجيه منها. وكان مجلس الشيوخ فيما مضى قد طرد هذه المرأة عندما اتصلت بأعضائه شخصياً وعرضت تزويدهم بمعلوماتها في هذه الأمور والتنبؤ لهم بمستقبل الأيام. ثم إنها مارست صناعتها هذه بين نساء روما، فصرن يراجعنها فأظهرت لهن قوة نبوءاتها بالدلائل. وتحمّست لها زوج ماريوس بصورة خاصة. ويروى أنها كانت تجلس عند قدميها أثناء قتال المصارعين في الملعب. وتتنبأ لها بالغالب المنتصر من المتبارين وتصيب كبد الحقيقة دائماً. ولهذه العرافة ولغيرها عمدت إلى إرسالها لماريوس وجيشه. فأحيطت هناك برعاية كبيرة وكانت تنقل غالباً في محفّة. وكانت أثناء تقريبها الأضاحي تلبس رداء أرجوانياً مشطَّباً محزوماً عليها. وتمسك رمحاً صغيراً مزداناً بالقلائد والشرائط. وكان هذا المشهد المسرحي مثار تساؤلات كثيرة عما يقصد ماريوس منه. هل إنه يؤمن بها ويثق بنبوءاتها شخصياً أم أنه يتظاهر بذلك زيفاً فيعرض ساحرته بهذه الهيئة ليبهر جنوده بها.

على أن ما يرويه الإسكندر المنداثي Myndian عن العُقبان يستدعي الدهشة والعجب حقاً، فهو يقول إن طائرين من هذه يظهران دائماً قبل أي انتصار يحققه ماريوس ويرافقان الجيش وهما يتميّزان بطوق نحاسي يحيط بعنق كل منهما (كان الجنود قد أمسكوا بهما وطوّقوهما وأطلقوهما، ومنذ ذلك الحين أصبحا على معرفة بالجنود بكيفية ما، واعتادا تحيتّهم!) وكان الجنود يغتبطون كلّما ظهرا لهم أثناء سيرهم ويداخلهم شعور اكيد بإصابة نجاح ما. وكانت معظم الخوارق التي لوحظت في ذلك

الزمن ذات طابع اعتياديّ. وعلى كُلّ فقد ذكر عن ظهور رماحٍ نارية وتروس في سماء مدينتي أميريا Ameria وتودر Tuder الإيطاليتين ليلاً، تُرى وهي تتحرك في الفضاء آناً ثم تشتبك بعضها ببعض وتتقارع مثلما تتقارع الأسلحة في أيدي الجنود أثناء معركة حقيقية. ثم ينسحب فريق من هذه الأسلحة فيطارده الفريق الآخر ويغيب الكلّ معاً من ناحية الغرب. وفي حدود ذلك الزمن تقريباً جاء من پسّينوس Pessinus أحد كهنة كيبيل Cybele، ويدعى باتاشيس Bataces، وأعلن لمجلس الشيوخ أن الربّة صرّحت له بوحي أنزلته عليه فحواه أن الرومان سيكسبون الحرب. فصدّقه الشيوخ وصوّتوا على إقامة معبد لها تعشّماً للنصر. إلاّ أن أولوس پومپيوس Aulus Pompeius التريبيون اعترض سبيل باتاشيس عندما هَمّ برواية قصّته هذه للشعب، ووصفه بالدَّعي وجرّه من فوق المنصّة بصورة مخزية، الأمر الذي كان في النهاية عاملاً رئيساً في الوثوق بقصّة الرجل، إذ فما كاد الاجتماع العام ينفضّ ويعود أولوس إلى بيته حتى ركبته حمّى شديدة وأصبح شائعاً على لسان الجميع أنه مات بعد اسبوع واحدٍ من تلك الحادثة.

وحاول التيوتون مهاجمة معسكر ماريوس وهو ساكن لا يأتي بحركة. ولكنهم بعد أن واجهوا وابلاً من مقذوف الرماح وخسروا عدداً من رجالهم قرّروا الزحف إلى الأمام بقصد الوصول إلى الجهة الأخرى من جبال الألب دون مقاومه. فشدّوا أثقالهم ومرّوا بأمان بجانب المعسكر الروماني وظهرت للعيان كثرة عددهم وخاصة من الوقت الطويل الذي استغرقوه في المرور من أمام استحكامات ماريوس ولم يكونوا يبعدون كثيراً. ولذلك أخذوا ينادون المعْسكِرين الرومان ويسألونهم بلهجة مهينة هل يودّون أن يزوّدوهم بوصايا لزوجاتهم فهم سيكونون معهنّ عما قريب! وظلّ سيلهم لا ينقطع ستّة أيام حتى إذا مرّوا جميعاً وأصبحوا على مسافةٍ مناسبة، بدأ ماريوس بالحركة وأخذ يتبعهم على هونه يعسكر دائماً على مبعدة قليلة منهم، متخيّراً المواقع القوية لمعسكره، ومهتماً بتحصيناته غاية الاهتمام حتى يضمن السلامة للجيش. وهكذا واصلوا السير حتى بلغوا موقعاً يدعى مياه سكستيليوس Sextilius، وهو موضع لا يبعد كثيراً عن قلب جبال الألب. وهنا تهيّأ ماريوس للقتال.

واختار موقعاً لمعسكره في غاية المناعة، إلاّ أنه كان شحيح الماء وقيل إنه كان يريد بهذا أن يضع صبر رجاله وشجاعتهم على المحكّ. وعندما برّح الضنى بعدد منهم وشكوا العطش قال لهم مشيراً إلى النهر الذي يجرى بالقرب من معسكر العدوّ:

– قد تنالون شربة ماء من هناك إن ابتعتموها بدمائكم.

فأجابوه متسائلين:

- إذن فلِمَ لا تقودنا إليهم قبل أن تجفّ دماؤنا في عروقنا؟
فقال لهم بلهجة أرق:
- فلنحصّن أولاً معسكرنا.
فباشر الجنود بتلبية الأمر متذمّرين. ثم خرجت جماعة كبيرة من أولاد المعسكر ومن يلحق به من خدم إلى النهر تستسقي لنفسها ولخيولها وأخذ بعضهم فؤوساً وبلطات وبعضهم تسلّح بالسيوف والرماح إلى جانب آنية الماء، مصمّمين على الفوز بالماء وإن قاتلوا في سبيله. فاصطدموا أولاً بشرذمة صغيرة من العدوّ معظمهم كان قد انتهى أو كاد من استحمامه وهم يأكلون ويشربون بينما واصل عدد آخر الاستحمام. وكانت البقاع المجاورة ملأى بالينابيع الحارة. فانقضّ الرومان على قسم منهم وهم في شُغل عنهم بالاستمتاع بمشاهد الطبيعة الرائعة وجمالها. ولما سُمع الصياح هرع إلى القتال أعداد أخرى. وعانى ماريوس صعوبة كبيرة في كبح جماح جنوده الذين داخلهم الخوف على خدم المعسكر. ولبّى نداء الاستغاثة أولئك المحاربون الأمبرونيون الأشداء الذين هزموا مانليوس وكيپيو وانتفضوا فاحتقبوا سلاحهم وهرعوا إلى القتال ثلاثين ألفاً أو يزيدون عَدّاً رجلاً على رجلٍ.
ومع أن هؤلاء كانوا قد أُتخموا أنفسهم بالطعام، وسرت فيهم النشوة والهياج من فرط الشرب فقد تقدموا بخطى ثابتة منتظمة، لا يظهر عليهم ذلك الهياج الجنوني ولم تكن صيحاتهم مجرّد ضجّة غير مفهومة. وإنما تقارعوا السلاح باتّساقٍ وساروا سيراً موحّد الإيقاع وكانت قفزاتهم وخطواتهم الأمام منتظمة مع تكرارهم لفظة «آمبرون!» إما لتشجيع بعضهم بعضاً أو لإيقاع المزيد من الرعب في أعدائهم. وكان الليغوريون أول الطليان المهاجمين من جيش ماريوس. وعندما طرقت أسماعهم صيحة العدوّ الغامضة ردّوا عليها بصيحة مماثلة، لأن «أمبرون» هو اسم بلادهم القديم والليغوريون يستخدمونه دائماً عند الإشارة إلى منبتهم وأسلافهم. وانتقل هذا الهتاف من جيش إلى جيش، قبل أن يشتبكا، وعمل على تصاعد حماستهم واندفاعهم في حين جاهد الرجال من الجانبين في رفع عقائرهم لتعلو أصوات بعضهم على أصوات بعضٍ.
وأوقع النهر الفوضى في صفوف الأمبرونيين. فقبل أن يتمكنوا من ترتيب صفوفهم على الجانب الآخر منه انقضّ الليغُوريون فوراً على الطلائع وبدأوا يقاتلونهم يداً بيد. ثم تقدّم الرومان أيضاً لمعونة أصحابهم هؤلاء وانحدروا من المرتفعات على الأعداء كالسيل الجارف وصكّوهم صكّاً عنيفاً ودفعوا واحدهم الآخر إلى النهر وذبحوا معظمهم فيه وصبغوا ماءه بدمائهم وملأوا قاعه بجثثهم. وتلقّى الرومان أولئك الذين عبروا النهر

سالمين وقتلوهم أثناء ما كانوا يهربون إلى مركباتهم ومعسكرهم. وانبرت نسوة العدوّ للرومان بالسيوف والفؤوس وهنّ يصرخن صرخات منكرة، ينعتن الهاربين بالخيانة والجبن، ويهجمن على المطاردين كأعداء واختلطن بالمقاتلين يعاركن الرومان بأذرعهن العارية على تروسهم وينتزعنها منهم ويتشبّثن بسيوفهم متحمّلات الجراح وتمزيق أجسامهن إلى آخر نفس بعزمٍ لا يلين. وهكذا بدت معركة النهر من قبيل الصدف، لا من سبق تخطيط القائد.

وما إن انسحب الرومان بعد المذبحة التي أوقعوها في الأمبرونيين حتى جنّ الليل. ولكن الجيش لم يكن عاكفاً كالعادة على إنشاد أغاني النصر وشرب الراح وإقامة المآدب المتبادلة (وهو ما يُغرم به الجندي بعد القتال الناجح) ثم النوم الهادئ، وإنما قضى ليلة نابغية حافلة بالخوف والقلق. فمعسكره مكشوفٌ لا يحميه خندق ولا متاريس. وهناك قبالتهم آلاف مؤلّفة من الأعداء لم تلحق بهم هزيمة انضمّ إليهم كل من نجا من الأمبرونيين. وتناهت إليهم طوال الليل أصوات عويل وحشي لا يشبه آهات وأنّات البشر، بل هو أقرب شبهاً بعداء الضواري تتخلله اللعنات والشتائم مختلطة بالتهديد والوعيد، والنواح العظيم مرتفعاً من حناجر تلك الحشود الهائلة، ليرجع صداه الجبال المجاورة، وضفاف النهر القفراء. وامتلأ السهل كله بضجيج رهيب بعث رعباً ليس بالقليل في الرومان، وجعل ماريوس يخشى قتالاً ليلياً مضطرباً على شكل غارة. إلاّ أن العدو لم يخرج من مكامنه لا في الليل ولا في النهار الذي عقبه وإنما انشغل في تثبيت مواضعه واحتلال مواقع قوية جداً في المرتفعات.

وأفاد ماريوس من هذه الفرصة أحسن فائدة. فقد كان يوجد فيما وراء مواقع العدوّ بعض المرتفعات المشجرة، والوديان العميقة التي تغطيها الغابات، فجرّد إليها كلوديوس مارچللوس على رأس ثلاثة آلاف من الجنود النظاميين وأمره أن يزحف إليها خفية ويضع جنوده في كمائن هناك، تخرج لتتعرّض لمؤخرة العدوّ حال بدء القتال. أما هو فقد عمل على إراحة عسكره بالنوم والغذاء ولما أصبح الصبح أخرجه وصفّه للقتال أمام معسكره، وأصدر أمراً للخيّالة بالنزول إلى السهل والطراد في أرجائه. فلم يتمالك التيوتون أعصابهم للمشهد ولم يطيقوا انتظاراً لانحدار الرومان إليهم حتى يقاتلوهم في أحوال متكافئة وإنما احتقبوا السلاح وصعدوا المرتفع لمهاجمتهم. وبعث ماريوس بضبّاطه إلى جميع وحدات جيشه يوصيها بعدم الحركة وبالثبات في أمكنتهم حتى إذا بات العدوّ قريباً أمطروه بوابل من الرماح، من ثم يلجأون إلى السيوف، وبعدها يضمّون تروسهم بعضها إلى بعض ويدفعون بقية المهاجمين بها دفعاً إلى الخلف.

وأشار بأن انحدار الأرض الشديد سيجرّد ضربات العدوّ من أي أثرٍ فعّال ولن يسمح له بضمّ التروس بعضها إلى بعض، فضلاً عن أن طبيعة الأرض المتعادية ستفقده ميزة الصمود والثبات.

وكان ماريوس أول من طبّق الأمر الذي أصدره. إذ لم يكن ليقلّ عن أحد في متانة الجسم ونشاطه ولم يفقهُ أحدٌ في شدّة العزم. وهكذا استعدّ الرومان لمقدمهم وأوقفوا اندفاعهم إلى المرتفع ثم أرغموهم على التقهقر شبراً شبراً حتى أزاحوهم عن المرتفع وقذفوا بهم إلى السهل. وهنا أخذ الأمبرونيون يلمّون شَعث المقدّمة ويُصلحون صفوفها ليواجهوا العدوّ بالمقاومة، فإذا بمؤخّرتهم تدبّ فيها الفوضى. لأن مارچللوس لم يضيّع الفرصة. فما إن ارتفعت الصيحة من الرومان المتمركزين في المرتفعات حتى أمر جنوده بالخروج من مكامنهم وانقضّ على العدوّ من الخلف انقضاضاً صاعقاً وهم يطلقون صيحات عظيمة، فهزموا أقرب وحدات العدوّ إليهم فهربوا واخترقوا صفوف من يليهم ونشروا اضطراباً عاماً في جيشهم. ولم يحاولوا إطالة المقاومة بعد أن دبّ دبيب الفوضى في صفوفهم ولم يعد يجمعهم نظام فولّوا الأدبار. فلاحقهم الرومان وقتلوا وأسروا منهم ما ينوف على مائة ألف وظفروا بأسلابهم وغنموا خيامهم وعجلاتهم. وصوّتوا على أن يكون من سهم ماريوس كل ما لم يُنهب. ومع أن المكافأة جزيلة فقد اعتبرت عموماً بأنها أقل مما يستحقّ إذا قورنت بالخطر العظيم الذي واجهه. وأورد كتّاب آخرون رواية مختلفة حول تقسيم الأسلاب وعدد القتلى. ويذكرون على كُلّ أن سكان ماسيليا Massilia عملوا أسيجة حول كرومهم من عظام القتلى. وزادت خصوبة الأرض بتحلل الجثث وتفسّخها بعد أن تشبّعت بأمطار الشتاء التالي ودرّت محصولاً عظيماً لا مثيل له في ذلك الموسم فأصدقت رأي أرخيلوخوس القائل بأن الأرض البائرة هكذا تُسمّد وتخصّب. والذي يلاحَظ كذلك عموماً أن أمطاراً غزيرة غير اعتيادية تعقب المعارك الكبيرة. ويعلّل بعضهم ذلك أن القوى الربّانية تقوم بغسل الأرض النجسة وتطهيرها بصبّ سيول الماء عليها من السماء إثر المعركة، أو لأن الرطوبة والتبخّر الثقيل المتصاعد من الدم المسفوح وغازات التفسّخ والعفونة من شأنها أن تكثّف الهواء المعرّض للتغيّر لأقلّ سبب بطبيعة الحال.

وبعد انتهاء المعركة تخيّر ماريوس من بين أسلاب البرابرة وأسلحتهم أنفَسها وأجملها لتكون أروع مشهدٍ من مشاهد موكب نصره. أما الباقي فقد كدّسه فوق محرقة عظيمة، وقدّم قرباناً فخماً رائعاً، تحفّ به الكتائب بأسلحتها وقلائدها. وكان ماريوس مشتملاً برداءٍ ذي أهداب أرجوانية كما يفرضه الزيّ الشائع لتلك المناسبات، ثم إنه

أمسك مشعلاً ملتهباً ورفعه بكلتا يديه نحو السماء وفيما هو يريد وضعَهُ على المحرقة إذ لمح كوكبة من الفرسان تتجه نحوه تحثّ خيلها بسرعة عظيمة، فساد صمت شاملٌ في الجنود وبدت عليهم سيماء الترقّب والتشوّف. ولمّا وصل الفرسان حيث يقف ماريوس ترجّلوا قفزاً وحيّوه وأبلغوه بنبأ انتخابه قنصلاً للمرة الخامسة ودفعوا إليه بالرسائل الناطقة بذلك. فزاد هذا فرحاً عظيماً إلى الحفل الديني. وفيما كان الجنود يقرعون أسلحتهم بعضها ببعض ويهتفون عمد الضبّاط إلى تتويج ماريوس بإكليل الغار دفعةً أخرى. وتقدّم بهذه الهيئة من المحرقة وألقى المشعل فيها وأكمل تضحيته.

ولكن أيّاً ما كانت القوى التي تتدخل للحيلولة دون التمتّع بالنّعم تمتّعاً تامّاً لا يشوبه كدر أو نغصة، أو إلى أي شيء يُعزى تغيّر شؤون البشر إلى ما هو مزيج من السيّئ والحسن، أهي عوامل الحظ، أو غضب القوى العُلوية، أو الضرورة التي تحتّمها طبيعة الأشياء، فإن ماريوس تسلّم بعد أيام قلائل تقريراً عما حصل لزميله كاتولوس أشبه بغيمةٍ في هدوئها وجهامتها، فنشر الهلع في روما وأفعم النفوس توجّساً باقتراب عاصفة هوجاء. وخلاصة الأمر: أن كاتالوس الذي توجّه بجيشه نحو الكيمبري رأى أن الدفاع عن ممرّات الألب يكاد يكون متعذّراً، لأنه سيرغمه على تجزئه قوّاته أجزاءً عديدة فيضعف نفسه. فما كان منه إلاّ انحدر من منطقة الجبال عائداً إلى إيطاليا واتخذ مواقعه فيما وراء نهر أديغه Adige بعد أن حصّن كل المسالك المؤدّية إليه باستحكامات قوية على الضفّتين. ثم اقام على مجرى النهر جسراً يستخدمه لمساعدة رجاله المتمركزين في الجانب الآخر إذا ما قرّر العدوّ مهاجمة الاستحكامات بعد نجاحهم في شق طريقهم إليها عبر ممرّات الجبال. على كلّ، تقدّم البرابرة بكلّ جرأة مستهينين بقوة الرومان ومظهرين مدى قوّتهم وشجاعتهم فحسب دون أن تدعو إلى ذلك ضرورة عسكرية. ساروا وهم عُراة تحت وابل متساقط من الثلج وفوق الجمد والثلج الكثيف. حتى بلغوا القمم الشاهقة ومنها نزلوا المنحدر باستلقائهم على تروسهم العريضة وانزلاقهم فوق سفوح واسعة حادّة إلى تحتٍ.

ثم إنهم ضربوا خيامهم على مقربة من النهر، واستشرفوا الممرّ فأخذوا يردمونه ويسوّونه باذلين مجهوداً جبّاراً، مزيلين المرتفعات المجاورة وناقلين أشجاراً مقتلعة من جذورها مع أكداس من التراب إلى النهر ليعملوا سَدّاً فيه لقطع مجراه، وبعد ذلك دفعوا بموادّ ثقيلة عظيمة إلى المجرى لتصدم الجسر وتقوّض الدعائم التي ترفعه. وهذا ما حدا بمعظم جنود الرومان إلى ترك المعسكر الكبير وهروبهم خوفاً. وهنا أظهر كاتالوس نُبلاً وانكار ذات بتقديم سُمعة شعبه على سُمعته. فحينما عجز عن إقناع

جنوده بالبقاء كلّ تحت رايته، ورأى بأمّ عينه كيف أولوها ظهورهم وتركوها، أمر أن يؤتى بلوائه الخاص ورفعه واستبق به أوّل الهاربين وجعله في مقدّمتهم وقاد عملية التقهقر مفضّلاً أن يقع العار عليه ولا يقع على بلاده، ولكيلا يبدو الأمر فراراً بل مجرّد عملية انسحابٍ وراء القائد العام. وهجم البرابرة واحتلّوا الحصن الذي هو على الجانب الآخر من نهر أديغة وأعجبوا كثيراً بالرومان القليلين لمنتهى البسالة التي أبدوها في قتالهم قتالاً جديراً ببلادهم، وأطلقوا سراحهم بشروط وجعلوهم يقسمون على عِجْلهم النحاسيّ الذي غُنم منهم فيما بعد وحُمل بعد المعركة إلى منزل كاتولوس على ما يقال بوصفه أعظم تذكار للنصر.

وهكذا اندفعوا في أرجاء البلاد كافّة واجتاحوها وعاثوا فيها ما طاب لهم وهي مجرّدة من أيّ دفاع. واستُدعي ماريوس إلى روما فوراً. وتوقّع الجميع عند وصوله أن يدخل دخول الظافر، كذلك صوّت مجلس الشيوخ بالإجماع على ذلك، إلاّ أنه لم ير ذلك مناسباً. وسواء أدفعه إلى هذا عدم رغبته في حرمان جنوده وضباطه نصيبهم من المجد، أو تركه التكريم الذي يستحقه نصره السابق وديعةً في يد المدينة، وحظّها المقبل، تشجيعاً للشعب في هذه الفترة، فأجّله الآن ليستوفيه فيما بعد بصورة أكثر فخامة وروعة. وبعد أن أعلم الناس بقراره هذا ترك الأوامر التي تتطلّبها معالجة الحالة وأسرع إلى كاتالوس الذي ارتفعت معنوياته كثيراً بقدومه بعد أن كانت قد بلغت الحضيض. وأرسل يسحب جيشه الخاص من بلاد الغاليّين فما إن وصل قاطعاً نهر البو حتى أخذ يعمل على منع البرابرة من دخولهم الجزء الجنوبي من إيطاليا فيما يلي ذلك النهر.

وكانوا ينتظرون التحاق التيوتون بهم، ويبدون دهشتهم وحيرتهم من مرور زمن طويل دون أن يظهر لهم أثر. ولهذا أرجأوا الدخول في معركة، إمّا جهلاً منهم باندحار أصحابهم أو تجاهلاً وعدم رغبة في الظهور بذلك. إذ مما لاشك فيه أنهم عاملوا أولئك الذين جاؤوا إليهم بهذه الأنباء معاملة في منتهى القسوة. وبعثوا إلى ماريوس يطلبون رقعة من البلاد لهم ولإخوانهم ومدناً ملائمة ليعيشوا فيها. ولما سأل ماريوس سفراءهم عمن يكون إخوانهم هؤلاء، أجابوا: ألتيوتون، قهقه كل من كان حاضراً. وأجابهم ماريوس متندّراً:

- لا تتعبوا أنفسكم في سبيل إخوانكم. فقد سبق لنا وخصّصنا لهم أرضاً سيبقون مالكين لها إلى الأبد الأبيد.

وأدرك السفراء وجه السخرية في القول، فانفجروا يشتمون ويتوعّدون قائلين إن

الكيمبري سيجعلونه يدفع ثمناً غالياً، وكذلك التيوتون حينما يأتون. فأجاب ماريوس:

- إن مكان إخوتكم هؤلاء ليس على مسافة بعيدة من هنا، وسيكون من القسوة أن تغادروا الأرض قبل أن تزوروهم.

وما إن أنهى قوله حتى أمر بأن يُجلب أمراء التيوتون وهم مكبّلون بالسلاسل. فقد أسرهم السيكواني Sequani في جبال الألب ولم يُفلحوا في الفرار منهم. وما إن ذاع هذا الأمر بين الكيمبري حتى هبّوا بجموعهم لنزال ماريوس الذي ظلّ ساكناً يقظاً على معسكره. وقيل إن ماريوس استعداداً لهذه المعركة أحدث أوّلاً تعديلاً في تركيب الرمح الروماني الخفيف. فقد كان يوجد في موضع شدّ السنان الحديدي بقناة الخشب مسماران حديديان ثابتان، فترك ماريوس أحدهما على حاله واستغنى عن الثاني بشظية خشبية ضعيفة، وكانت الحيلة التي توخّاها من ذلك أنه عندما ينفذ الرمح في ترس الخصم لا يخرج السنان من الطرف الآخر مستقيماً فيسهل نزعه. بل تنكسر الشظية الخشبية بفعل الطعنة فيلتوي السنان ويعوجّ ويعصي ولا يعود الترس مؤثّراً في القتال.

ثم إن بيوريكس Bœorix ملك الكيمبري جاء إلى المعسكر الروماني بكوكبة صغيرة من الخيّالة، وتحدّى ماريوس للنزال في زمان ومكان معيّنين ليقررا مصير البلاد، فردّ ماريوس قائلاً: «إن الرومان لا يستشيرون أعداءهم في مواعيد قتالهم. ومع هذا فسيحقق طلب الكيمبري من هذه الجهة». وعليه تقرر أن تكون المعركة بعد ثلاثة أيام وعُيّن موضعها في سهل يقع على مقربة من فرچيللي Vercellæ وهو ميدان مناسب جداً لحركة الخيّالة الرومانية. كما أنه يتيح للكيمبري فرصة استعراض قوّاتهم الجرّارة وعددهم الكبير.

وحافظ الطرفان على الموعد وأخرج كل منهما قواته وصفّها قُبالة الآخر. وكانت قوة كاتولوس تبلغ عشرين ألفاً وثلاثمائة مقاتل. أمّا ماريوس فكان تحت إمرته اثنان وثلاثون ألفاً، وزّعهم على الجناحين تاركاً القلب لقوات كاتولوس. وهذا ما يقوله سيللا الذي كان حاضراً المعركة، ويضيف أيضاً أن ماريوس أختار لجيشه هذه المراكز لتوقّعه أن يكون التحام الجيوش على الأجنحة، لأن الذي يحصل عموماً في المعارك ذات الجبهات العريضة أن القلب يتقهقر. وبذلك يستأثر هو وجنوده بثمار النصر كله ولا يخلّف لكاتولوس شيئاً، إذ لا تُتاح له فرصة للاشتباك الفعليّ. ويروون لنا أيضاً أن كاتولوس فسّر الموضوع هكذا انتصافاً لشرفه وانتقاماً لسمعته، واتهم أنانية ماريوس وحسده، بشتّى الصور ومختلف الاتهامات.

زحف مشاة الكيمبري بكلّ هدوء خارج استحكاماتهم. وجعلوا خطّ كل جناحٍ من

جناحيهم مساوياً بالطول للجبهة. وكان كل جانب يَعدّ ثلاثين فرلنغاً. وكان منظر خيّالتهم التي تعد خمسة عشر ألفاً من أروع المناظر وأفخمها. فخوذهم كانت تشبه رؤوس وفكوك الضواري والوحوش وغير ذلك من الأشكال الغريبة تتوّجها ضمّات من الريش تجعلهم يبدون أكثر طولاً مما هم فعلاً، وكانت دروع صدورهم من الحديد، وتروسهم تسطع بياضاً. وأما عن سلاحهم الهجومي فقد تزوّد كل واحدٍ منهم برمحين. وفي القتال القريب كانوا يستخدمون سيوفاً ثقيلة كبيرة.

ولم تنقضّ خيّالتهم على جبهة الرومان مباشرة، وإنما اتجهت إلى اليمين تريد أن تجرّهم إلى تلك الجهة شيئاً فشيئاً إلى أن تجعلهم بينهم وبين مشاتهم الذين كانوا في المسيرة. وأدرك قوّاد الرومان الخطة من أوّل وهلة إلاّ أنهم لم يستطيعوا كبح جنودهم إذ هتف أحدهم أن العدو يلوذ بالفرار فاندفع الكلّ لملاحقته وتقدّمت مشاة البرابرة مثلما تزحف مياه البحر العظيم. وهنا غسل ماريوس يديه ورفعهما إلى الأعلى نحو السماء ناذراً قربان الهيكاتوم للآلهة. وقطع كاتولوس على نفسه عهداً وهو واقف بهذه الهيئة الخاشعة أن يكرّس معبداً لـ«حظّ ذلك اليوم». ويروون أيضاً أن ماريوس صاح بصوت عظيم عندما عُرضت عليه الذبيحة أثناء التضحية:

- النصر هوَ لي!

ومهما يكن من أمرٍ فقد صادف ماريوس في الاشتباك ما يمكن أن يُطلق عليه إشارة عدم رضاً من الآلهة. فعلى ما يرويه سيللا وأصدقاؤه ثار غبار عظيم حجب الجيشين عن الرؤية معاً (فعلى أغلب الاحتمال أن ذلك حصل). وفقد ماريوس أثر العدو أثناء مطاردته ومرّ بالقرب من تحشّداتهم دون أن يعثر عليهم وتحرّك في مجالات واسعة خلال ميدان القتال ذاهباً آيباً بلا جدوى. وفي تلك الأثناء اصطدم العدوّ بمحض الصدفة بقوات كاتولوس واشتبك معه. وتحوّلت وطأة القتال الرئيسة عليه وعلى جنوده. وكان بينهم سيللا كما يزعم. ويضيف قائلاً إن الرومان أفادوا فائدة عظيمة من الحرّ والشمس التي كانت تلفح وجوه الكيمبري. فهؤلاء القوم وهم خير من يصبر على البرد، لأنهم نشأوا في بلاد باردة كثيرة الظلّ كما أسلفنا، لم يسعهم احتمال شدّة الحرّ وعرقت أجسامهم عرقاً كثيراً، وأخذوا يلهثون وتقطّعت أنفاسهم واضطروا إلى ستر وجوههم بتروسهم. فالمعركة وقعت في زمن غير بعيد كثيراً عن انقلاب الصيف وهو عند الرومان اليوم الثالث قبل القمر الجديد للشهر الذي يُسمّى الآن أغسطس، وكان قبلاً سكستيليس. وعزّز الغبار من شجاعة الرومان تعزيزاً ليس بالقليل لأنه حجب العدوّ عنهم، ولم يترامَ بصرهم بعيداً ليتبيّنوا أعداد العدوّ الضخمة فيتهولوها. وإنما تقدّم كل

جندي لقتال أقرب الخصُوم إليه وتمّ التحامهم قبل أن يُلقي منظر حشود العدوّ الهائلة الرعبَ والفرَق في نفوسهم. ولقد بلغ من شدة تدريبهم وتعوّدهم أشق الأعمال أنه لم يُصب أحد منهم بخور في قواه ولا عَرِق جسمه في ذلك القيظ المحرق وجهد المعركة. ولم يخف هذا حتى على ملاحظة كاتولوس نفسه فسجله على سبيل المديح لجنوده.

وفي هذا الميدان أُبيد إبادة تامة معظم شجعان العدو وأكثرهم بسالة. وعمد من كان يقاتل في الجبهة الأمامية إلى ربط أنفسهم بعضهم ببعض سلسلة طويلة تمرّ من خلال أحزمتهم كيلا لا ينكسر خط قتالهم. ورأى الذين طاردوا العدوّ المقهور إلى معسكره مأساة رهيبة. رأوا النساء يقفن في المركبات وهنّ متّشحات بالسواد يُوقعنَ ذبحاً بكلّ هارب من الميدان. الزوجات يقتلن يزواجهن. والأخوات يردين إخوانهنّ وآباءهنّ، ويخنقن أولادهن بأيديهن، ويلقين بهم تحت العجلات وأقدام الماشية ثم يبخعن أنفسهن. ورُوي عن واحدة منهن شنقت نفسها من رأس عمود مركبة بعد أن شدّت أولادها في قدميها وتركتهم يتدلّون منها. وأنهى الرجال حياتهم بشدّ أنفسهم في قرون الثيران. وبعضهم ربط عنقه إلى أقدامها. ثم يروحون يحثّونها ويثيرونها بالوخز فتجفل وتتواثب لتستحقهم تحتها وتمزّقهم إرباً. وقد لجأوا إلى هذه الطريقة في الموت لعدم وجود أشجار يشنقون أنفسهم عليها. ومع كل هذا الانتحار والمذابح فقد وقع منهم في الأسر ستون ألفاً أو يزيدون. وأما عدد القتلى فقد بلغ على ما قيل ضعف هذا العدد.

ورُوي أيضاً أن الأسلاب الاعتيادية استولى عليها جنود ماريوس أما الغنائم الأخرى كالرايات والأبواق وما أشبه فقد جيء بها إلى معسكر كاتولوس. وقد أقام بها الحجّة الدامغة على أن النصر كان من عمله وعمل جيشه. ونشأ بعض الخلاف بين الجنود مما هو طبيعي، فنصب المنتدبون من پارما Parma الذين كانوا موجودين حينذاك محكّمين للفصل في النزاع. ورافقهم جنود كاتولوس في طوافهم بين جثث الأعداء مثبتين لهم أنهم صرعوا برماحهم التي تميّزت عن غيرها باسم كاتولوس الذي كان منقوشاً على خشب كل رمح. وعلى أية حالٍ فقد عُزي مجد المعركة كلّه إلى ماريوس بسبب نصره السابق، ولأنه تمّ تحت راية سلطته الحالية. وتمادى الجمهور في تكريمه فعدّه المؤسّس الثالث لمدينتهم، لأنه أزال عنها خطراً لا يقلّ أثره عن الخطر الذي استُهدفت له عند حصار الغاليّين لها. وعمد كل روماني في احتفالاته ومهرجانات الفرح في المدينة إلى تقديم القرابين الصلبة والمائعة مع زوجه وأولاده تكريماً «للأرباب ولماريوس». وكان الجميع يودّون أن ينال وحده شرف موكبي النصر، ولكنه لم يفعل

وإنما أشرك كاتولوس ودخلا معاً، يريد أن يظهر زهده وإيثاره حتى في مثل هذه المناسبات السعيدة العظيمة. زد على هذا أن خوفه لم يكن بالقليل من جنود جيش كاتولوس لئلا يحاولوا حرمانه من موكبه الظافر إن عمد إلى حرمان جنرالهم من هذا الشرف حرماناً تاماً.

كان ماريوس في هذا الزمن يزاول سلطات قنصليّته الخامسة، عندما أزِف موعد الانتخاب فرشّح نفسه للسادسة بشكل لم يسبقه فيه أحد من قبل، وبصورة مغايرة لترشيحه الأول أيضاً. فقد أخذ يخطب ودّ العامة بالتزلّف إليهم مستخدماً كل نوع متصوّر من الوعود والتنازلات. ولم يكتف بإهانة وظيفته الرسمية والحطّ من مكانة سلطانه الرفيع بهذا السلوك وإنما ابتذل شخصيته بمحاولته الظهور بمظهر الشعبيّة والتواضع، وهو خُلق بعيد عما جُبِل عليه من طبع. وعلى ما يقال كانت شدّة طموحه إلى الشهرة والبروز على الأقران قد جعلته كثير التردّد في أمور السياسية كافّةً، شديد الخفر والإحجام عن مواجهة الاجتماعات العامة الشعبية. فترى حضور بديهته المتناهي الذي يواجه به العدوّ في سائر المعارك يخذله دائماً كلّما واجه الجمهور، فيعتريه الاضطراب ويتغيّر حاله ويفلت زمام نفسه منه لأقل ثناء أو نقدٍ. وذُكر عنه مَرّة أنه منح حرية المواطنة لألف من أهل كاميرينوم Camerinium لاستبسالهم وتفانيهم في حربه الأخيرة. ولم يتّبع في ذلك الأصول القانونية على مايبدو. فلما نوقش الحساب أجاب قائلاً:

- إن صوت القانون لضعيف حتى أنه لا يُسمع في مثار النقع وضجّة الحرب.

على أنه كان أضعف وأكثر اضطراباً من القانون بالضجة التي تثيرها الاجتماعات العامة. حقاً إن ركون الشعب إليه في الملمّات والحرب ضمن له السلطان والهيبة، إلاّ أنه يُعدم الحيلة في الشؤون المدنية ولمّا يدركه اليأس من إحرازه المقام الأول فيها يلجأ مضطراً إلى خطب ودّ الجماهير. ولا يهتمّ بأن يكون رجلاً صالحاً مادام عظيماً.

ولهذا كرهه الأشراف. وكان ميتللوس أخشى من يخشاه منهم بعد أن أنكر عليه حُسن صنيعه وأساء معاملته. وميتللوس فضلاً عن هذا يمتاز بسجايا عالية تجعله عدوّاً طبيعياً لمن ينشد الحظوة عند الشعب بطرق غير مشرّفة، كالتزلّف، والمصانعة والرياء؛ ولذلك عمل ماريوس جاهداً على نفيه من المدينة، فارتبط بكلّ من غلاوشيا Glaucia وساترنينوس Saterninus وهما رجلان يمتازان بالجرأة، ويتمتّعان بسلطان كبير على الجماهير المعدمة الناقمة، وبمعونتها استصدر قوانين عديدة. واستقدم الجنود لحضور الجمعية العامة فحقق بذلك الغلبة على ميتللوس.

يقول روتيليوس Rutilius (وهو من المراجع الأمينة المنصفة إلاّ في هذا الموضع لأنه يبطن عداء لماريوس): «إن ماريوس لم يفز بقنصليّته السادسة إلاّ بعد توزيعه مبالغ طائلة من المال على «القبائل» فتمّ له إسقاط ميتللوس بهذه الرشوة. كذلك سعى إلى انتخاب ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flacchus قنصلاً ليكون أداة بيده لا زميلاً له». والواقع هو أن الشعب لم يخلع على رجلٍ روماني مثل هذا القدر من الفترات القنصلية خلا ڤاليريوس كورفينوس. وهذا نفسه لم ينل قنصليته السادسة والأخيرة إلاّ بعد مرور خمسة وأربعين عاماً على آخر قنصلية له، في حين واصل ماريوس منصبه بلا انقطاع بمحالفة الحظّ.

وجرّ على نفسه أكثر النقمة والمقت في قنصليته الأخيرة، لإرتكابه عدة مخالفات كبيرة ترضية لساترنينوس وتحقيقاً لأطماعه. فقد أقدم خدينه هذا على قتل نوينوس Nonius منافسه على منصب التريبيون. وبعد فوزه به أصدر قانوناً يقضي بتقسيم الأراضي يتضمّن مادة توجب على أعضاء مجلس الشيوخ أن يقسموا يمين المصادقة على أي قرار يصوت عليه الشعب وعدم معارضته فيما يرتئيه. وفي المجلس تظاهر ماريوس أنه غير موافق على إعمال هذه المادة رياءً ومكراً، وقال إنه لن يقسم يميناً كهذا قط، ولا يعتقد بوجود شخصٍ عاقل يقبل بها، وإن لم يكن في القانون ما يوجب المؤاخذة فإن مجرد وجود عنصر الإرغام فيه يُعتبر إهانة للمجلس وحطّاً من قدره بإظهاره مجرداً من أية سلطة. لم يصرّح ماريوس بهذا الرأي لاقتناعه بصحته، وإنما توسّل به لإيقاع ميتللوس في فخ لا فكاك له منه. فماريوس الذي كانت أخلاقه ومُثله تدور حول المخادعة والمكر لم يرَ معرّة في الرجوع أمام المجلس عن هذا الرأي في حين كان يعلم أن ميتللوس هو من أولئك الذين يتمسّكون بمعتقداتهم ولا يحيدون عنها مهما كلّفهم الأمر ويرون «الحق أول عناصر البطولة» على حدّ قول بندار. ولذلك كان ماريوس يأمل أن يورّطه بتصريح أمام مجلس الشيوخ، يعقبه رفضٌ باتّ لحلف اليمين (الأمر الذي كان واثقاً منه) فيؤدّي به إلى نقمة الشعب العامة، وكره عظيم تتعذّر إزالته. ونجحت مكيدته كما تمنّى، إذ ما إن صرّح ميتللوس بأنه لن يؤدّي القسم على المصادقة حتى تأجّل اجتماع المجلس وانفضّ. وبعد مرور بضعة أيام دعا ساترنينوس أعضاءه إلى الظهور أمام الشعب لأداء القسم علناً. وانبرى ماريوس فرانَ سكونٌ عميق وشخص الجميع إليه ليسمعوا مقالته فكانت بمثابة وداع أبديّ لخطبه الجميلة تلك التي طالما ألقاها في المجلس! قال: «إن ظهره ليس عريضاً بدرجة يرى نفسه ملتزماً التزاماً نهائياً بفكرة عابرة خطرت له يوماً عن هذا الأمر الخطير. وإنه الآن ليقسم بطيبة خاطر على

احترام هذا القانون». وهكذا أضاف هذا التبرير لستر صفاقته وقلّة حيائه. فراح الجمهور يهتف له ويصفّق وكاد يجنّ فرحاً عندما كان يؤدّي اليمين، في حين انتحى الأشراف جانباً وقد امتلأوا خجلاً وغيظاً لما أبداه من غدر ونكولٍ، إلاّ أنهم تقدّموا لحلف اليمين تباعاً خوفاً من غضبة الشعب. ولما حان دور ميتللوس رفض وأبى أن يتزحزح عن موقفه قيد شعرة، رغم إلحاح أصحابه وضراعتهم ورجائهم. فقد كان يرى في ذلك عملاً وضيعاً دنيئاً غير جديرٍ بالرجل المبدئي مع علمه بالعقوبات المحتومة التي قرّرها ساترنينوس بحق كل من يستنكف عن اليمين. ثم إنه غادر الفورم قائلاً لمن رافقه:

- إن إقدام المرء على الوضيع من الأعمال ينطوي على دناءة. والإقدام على الحسن من الأعمال عندما لا يحفّ به خطر هو أمر اعتياديّ. أمّا الإقدام على العمل الحسن في ساعة الخطر فهو من خُلق الرجل الكريم.

وعلى أثر ذلك وَضَع ساترنينوس في التصويت اقتراحاً يقضي على القنصلين بوضع ميتللوس تحت الحجز، وبحرمانه النار والماء والمسكن، فقُرِّر ذلك. وكان ثمّ كثير من أوشاب الناس يُبدون استعدادهم للفتك به. على أن عدداً كبيراً من كرام القوم اجتمعوا حوله وراحوا يظهرون شدّة اهتمامهم بشخصه ومبلغ استعدادهم لمساندته. إلاّ أنه رفض قيام أيّ تمرّد أو اعتصابٍ بسببه وترك المدينة وهو يوازن الموقف بشكل هادئ على النحو التالي:

«إمّا أن تنصلح الأمور، وترجع عامة الشعب عن غيّها، وعند ذلك سيطلب مني العودة. وإمّا ستبقى على حالها فيكون غيابي عن مسارحها أفضل شيء».

وعن التكريم والحفاوة التي لقيها (ميتللوس) خلال فترة نفيه، وبأي أسلوب عاش في «رووس» وما مارس من فلسفة هناك، فالأجدر بنا أن نفصّلها عند كتابتنا سيرته.

وكافأ ماريوس شريكه ساترنينوس عن هذه الخدعة بإطلاق يده وإغضائه عنه في كل ما يفعل. فتمادى ساترنينوس في استهتاره وعنفه وغدا دون أن يدري مصدر الشرّ والفوضى التي فاقت كل حدود الاحتمال، وهذا هو السبيل الأوحد إلى الطغيان والى الاستبداد بمقدرات الدولة، ثم إلى المذابح والفضائح وهتك الحرمات.

وكان ماريوس يتهيّب طبقة الأشراف من جهة، ويريد إرضاء طبقة العامة في الوقت عينه، ولذلك لجأ إلى أحطّ الأعمال وأدناها. فمثلاً قدِم إلى منزله لفيف من كبار القوم ليلاً يريدون إثارته على ساترنينوس. وفي أثناء ذلك قدم هذا إلى منزله، فأدخله من باب ثان وأجلسه في غرفة أخرى دون أن يُعلم الضيوف بمجيئه، ثم تعلّل بوعكةِ ألمّت

به فخرج من لدنهم ليدخل إلى زائره المنفرد ولا يلبث أن يحتجّ بالعذر نفسه حتى ينصرف إلى الآخرين. وهكذا ظلّ يتناوبهما مثيراً حفائظ بعضهم على بعض!

أخيراً اتفق الشيوخ وطبقة الفرسان الرومان على سوء سياسته وأعلنوا سخطهم عليها بمجهود منسّق. فما كان منه إلاّ أن اقتحم الفورم بجنوده، وأرغم المتآمرين على التراجع نحو الكاپيتول فحوصروا فيه. ثم قطع عنهم أنابيب الماء وأرغمهم على الاستسلام بسبب العطش، فتوجّهوا إليه مستسلمين وهم بحالةٍ يُرثى لها، وأودعوا أنفسهم إلى «حُسن نيّة الشعب» كما أُطلق على عملهم في حينه، وبذل ماريوس أقصى الجهود لإنقاذهم فلم يُفلح وقتِلوا شرّ قتلة عندما هبطوا إلى الفورم وبهذا أصبحت الطبقتان تحقدان عليه. ولذلك لم يرشّح نفسه لمنصب «الچنصور» عندما أزِف موعد الانتخاب مع أنه كان أقوى المرشّحين وأضمنهم، لأنه كان يخشى مغبّة الفشل وعاره. فأفسح السبيل لمن هم دونه بكثير فتقدموا للترشيح وفازوا وعزّى نفسه عن خيبته هذه متعلّلاً بكرهه تكدير عيش الناس نظراً لما يقتضيه المنصب من تدخّل في مسلكهم وتصرّفاتهم والتحقيق الدقيق عنها.

وقُدِّم مشروع مرسوم يقضي بإلغاء قرار نفي ميتللوس واستدعائه من المنفى، فانبرى يعارض فيه معارضة شديداً قولاً وعملاً، فلم يفده ذلك واضطر بالأخير إلى الاقرار بهزيمته والنزول إلى رأي الشعب الذي صوّت بالإجماع على ذلك. ولم تحتمل نفسه رؤية ميتللوس يعود إلى وطنه فشدّ الرحال إلى كپّادوكيا Cappadocia وغلاطيه Galatia متعللاً بإيفائه نذوراً كان قد وعد بتقريبها لكيبل Cybele. أمّا الدوافع الحقيقية خلافاً لما تقدم فقد شابها غمُوض وخفيت عن العين. فماريوس كان أجهل الناس بالحياة المدنيّة وشؤون السياسة، وكان مديناف بكلّ مجده وعُلاه للحرب والشؤون العسكرية. وقد أدرك أن سلطانه وعزّه سيعفي عليهما الزمن شيئاً فشيئاً، وهو قاعد لا يعمل شيئاً. ولذلك كان شديد الرغبة في التشبّث بوسيلة ما قد تثير ضجةً ونزاعاً حتى تتجه نحوه الأبصار. فأخذ يعمل على إيقاع خلاف بين الملوك، وبخاصة إغاظة ميثريداتس الذي كان يتأهّب للحرب علناً آنذاك. وبذلك يؤمّن لنفسه منصب الجنرال في أي حرب تنشب ضدّه، ويُتحف روما بنصر جديد، ويملأ منزله بأسلاب الپونطس وثروات ملوكها. ولم ينثن عن مسعاه هذا، مع أن ميثريداتس بالغ في إكرامه وأحاطه بكلّ ما يتصوّره العقل من الرعاية والاحترام فلم يتزحزح بل قال له بكل صرامة:

«عليك أيها الملك إما أن تكون أقوى من الرومان، وإما أن تخضع لأوامرهم بهدوءٍ».

وبهذا ودّع ميثريداتس الذي كان قد سمع الكثير عن شهرة الرومان بصريح القول وجريئه، ولم يجرّبه إلا الآن.

وبنى ماريوس منزلاً بالقرب من الفورم على أثر عودته إلى روما. وقال إن قصده من ذلك أن لا يُتعب زوّاره في السير مسافة طويلة لمقابلته. أو لعلّه كان يتصوّر أن بُعد بيته الأول كان يحول دون زيارة ناس أكثر له. وعلى أية حال فليس هذا هو السبب الحقيقي، وإنما كانت العلّة هي افتقاره إلى طلاوة الحديث ولُطف المجلس، وفنّ المعاشرة الاجتماعية، مما جعله أداة جامدة من أدوات الحرب لا نفع فيها أيّام السلم. ولهذا نُبذ نبذ النواة ولم يُعد يطرق بابه زائر. وممن كسفت لوذَعِيّتهم شمس عظمته سيلّلا فخصّه بأكثر الحقد لأنه كان مديناً بارتفاعه إلى مراقي الشهرة للكره الذي أضمره الأشراف لماريوس، ولهذا كان نزاعه معه منهاج حياته السياسيّ. ولما أقدم باخوس ملك النوميديين على إهداء عدد من التماثيل لآلهة النصر عربوناً لصداقته مع الرومان لنصبها في أروقة الكاپيتول أرفق بها تمثالاً من الذهب الخالص يمثله وهو يُسلّم يوغورثا إلى سيلّلا. فجُنَّ جنون ماريوس وأخرجه الغضب والغيرة عن طوره وتوهّم أن سيلّلا يريد أن يسلبه مجده ويتأثر به. وحاول بالقوة رفع التماثيل من مواضعها فتصدّى له سيلّلا وقاومه مقاومة عنيفة. لكن «حرب الشركاء» التي هددت المدينة وضعت للنزاع حدّاً في الوقت الذي كادت تتفجر براكينه. فقد عقدت أكثر بلاد إيطاليا سكاناً وتعلّقاً بالحرب حلفاً عسكرياً ضدّ روما. وراحت عساكرهم تهدد إمبراطوريتها بالويل والفناء. ولم تكن قوّتهم قاصرة على سلاحهم وبسالة جنودهم وإنما كان قوّادهم لا يقلّون عن قواد الرومان في الحنكة والاقدام.

إن هذه الحرب التي حفلت بمختلف الأحداث والتقلّبات، وامتازت بغموض نتائجها، أكسبت سيللا شهرة وسلطاناً بقدر ما سلبت من شهرة ماريوس وسلطانه. فقد ساد الرأي عنه أنه أمسى متخوّفاً متردّداً مُحجماً. ولا يُعرف هل أن كِبَر سنّه فلّ من غُراب عُرفه وخضد من قوته (وكان قد أناف على الخامسة والستين) أم لابتلائه بداءٍ أثّر على عضلات جسمه - كما زعم - فبات غير صالح للنهوض بأعباء القتال. ومع ذلك فقد أنجز واجبه على خير ما يرام واستظهر على العدوّ في معركة كبيرة صرع فيها ستة آلاف منه ولم يمنحه فرصة للتفوّق عليه. ووجد نفسه مرّة مطوّقاً باستحكامات العدوّ فصمد ولم يتحرك من مواضعه ولم يؤثر فيه استفزاز خصمه بالشتائم والتحدّيات. ويروى في هذا الصدد أن پوبليوس سيلو Publius Silo - وهو رجل عظيم المنزلة والسلطان عند العدو - قال له متحدّياً:

- لو كنتَ حقاً جنرالاً عظيماً يا ماريوس، لخرجت من معسكرك وخُضت معركة.
فأجابه:
- أرغمني على ذلك أن كنتَ أنت كذلك.
وفي مناسبة أخرى منحهم العدو فرصة مؤاتية لخوض معركة فتهيّب الرومان الهجوم وأحجموا ثم تراجع الفريقان فجمع ماريوس جنوده وقال لهم:
- إنها مسألة ليست بالهيّنة أن أختار أكثركما جُبناً. أنتم أم عدوكم، فليس بينكما من تجرّأ على مواجهة قفا خصمه!
ثم لم يسعه بالأخير الا الإقرار بعجزه عن مواصلة الخدمة فاستفعى من القيادة لاعتلال صحّته.
وبعد أن تمّت هزيمة الاتحاد الإيطالي أمام الرومان تقدم عدد من المرشحين للقيادة العامة في الحرب ضد ميثريداتس يدعمهم زعماء الشعب وقادته. وانبرى سوْلپيشيوس أحد مفوّضي الشعب (تريبيون) وهو رجل جريء مقدام، ورشّح ماريوس للمنصب مقترحاً أن ينتخب بمثابة پروقنصل وجنرال لإدارة الحرب، فكانت مفاجأة لم يتوقعها أحدٌ، وانقسم الناخبون إلى حزبين: أحدهما يؤيّد ماريوس والآخر يناصر سيللا. وراح هذا الفريق يشير على ماريوس متهكّماً بالذهاب إلى حمّامات بايايي Baiae للاستشفاء بعد أن ضعفت قواه لكبر سنّه وإصابته بالتهاب القصبات كما أقرَّ هو بذلك. وكان ماريوس يملك هناك مغنى كڤيلا Cvilla بالقرب من ميسينوم Misenum فيها من الأثاث الفاخر والتحف النفيسة ما لا يتفق أبداً وصِفة الرجل الذي قضى جُلَّ حياته في ميادين القتال والحملات العسكرية الكبيرة. وقد ابتاعت كورنيليا Cornilia هذه الڤيللا بمبلغ خمسة وسبعين ألف دراخما. وبعد فترة قصيرة من الزمن ابتاعه منها لوشيوس لوكوللوس بميلونين وخمسمائة ألف دراخما؛ وهذا الارتفاع الخيالي إنما يدلّ على تضخّم ثروات الرومان وبذخهم بسرعةٍ.
ومع تهافت قوى ماريوس فقد أخذ يتردد يومياً إلى مخيّم مارتيوس Martius للتمرين مع المرتادين الشبان، تدفعه إلى هذا عاطفة صبيانية للظهور بمظهر من يريد أن يتخلص من الضعف أو الهرم، متوخّياً أن يبدو خفيف الحركة في دروعه ماهراً في ركوب الخيل وإن كان الشيب قد أورثه بدانةً وجعله عَرضةً للتعب الشديد والبهر.
وواصل بعض الناس الذهاب إلى المخيّم لمراقبته مستمتعين بتمارينه وعرضه نفسه على هذه الشاكلة، إلاّ أن أفاضلهم سخروا من تهالكه وطمعه اللذين رفعاه من حالة الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش، وجعلاه عظيماً بعد أن كان نكرة. وظلّ لا يريد

الإقرار بحدودٍ لحسن طالعه العجيب ولا يقنع بأن يبقى محطّ إعجابٍ ويستمتع بما ناله بهدوءٍ. إذ ما الذي يدفعه إلى ترك مجده وانتصاراته وهو في أراذل الشيخوخة ليرحل إلى كبادوكيا والبحر الأسود مقاتلاً أرخيلاوس ونيوپطليموس قائدي ميثريداتس كأنما هو في حاجة إلى المزيد مما عنده؟ يبرّر ماريوس عمله هذا تبريراً في غاية السخف إذ يقول إن القصد من ذهابه هو تعليم ابنه كيف يكون جنرالاً.

وتردّى وضع المدينة التي عمّتها الفوضى وانتابتها العلل السياسية من عهدٍ بعيد حتى آضت في حالة يأس. وهنا وجد ماريوس ضالّته المنشودة في سولپيشيوس واستهتاره، حتى تتمّ أعمالُه دمارَ البلاد وخرابها. كان هذا الرجل نسخةً ثانية لساترنينوس من كلّ الوجوه خلا أنه كان يعيب على صاحبه غباءه، وقلّة مكره وتردّده. فتوخّى اجتناب معايبه بجمع ستمائة من «عصبة الفرسان» eqmestrian حوله بمثابة حرس خاصٍ له اطلق عليهم اسم «ضدّ الشيوخ» anti - Sentors وانقضّ بهم على القنصلين وهما في الاجتماع. فهرب أحدهما من الفورم فقبض على ابنه وفتك به. وراح يطارد سيللا مطاردة عنيدة، فلجأ إلى بيت ماريوس وهو ملاذ لا يمكن أن يكون موضع ريبة، وبهذا نجا من مطارديه الذين مرّوا بالدار دون أن يفطنوا له. وقيل إن ماريوس أخرجه سالماً من باب خلفيّ وأوصله إلى المعسكر. إلاّ أن سيلّلا في مذكراته يُنكر إنكاراً باتّاً أنه استجار بماريوس ويقول إنه حُمل إلى هناك لإجراء مشاورات في أمور كان سولپيشيوس يريد إرغامه عليها وهو لا يقبل، فأحاطه بحرس سيوفهم مجرّدة وأسرع به إلى ماريوس، وهناك أُرغم بالتهديد والوعيد على القبول فخرج من المنزل إلى الفورم وألغى قرار الاحتجاز الصادر حسب رغبة سولبيشيوس.

بعد أن استظهر سولپيشيوس ودانت له السلطة أصدر مرسوماً بتعيين (ماريوس) قائداً للجيش فتأهّب هذا للرحيل إلى المعسكر وأرسل قبله «تريبيونين» ليتسلّما قيادة الجيش من سيللا. وباشر سيلّلا من جانبه بإثارة الجنود وتحريضهم وكان عددهم يناهز خمسة وثلاثين ألفاً كاملي العُدّة، فأعلنوا ولاءهم له فزحف بهم إلى روما ولقي رسولي ماريوس فقبض عليهما وقتلهما. فردّ عليه ماريوس بذبح عدد مساوٍ من أصحابه في روما. وأعلن قراراً بمنح الحرية لكلّ عبدٍ يحارب معه ويقال إن ثلاثة عبيد فقط التحقوا به. ولم يصمد ماريوس أمام سيللا غير فترة قصيرة جداً ثم غُلب على أمره فولّى الأدبار وتفرّق عنه أتباعه حال خروجه من المدينة. وأدركه الليل فتوجّه إلى بيت في الريف يملكه واسمه سولونيوم Solonium ومنه أرسل ابنه إلى إحدى مزارع حميه موشيوس Mucius القريبة للتزوّد بالمؤن الضرورية ورحل هو إلى أوستيا Ostia حيث هيّأ له

صديقه نوميريوس Numerius سفينة. فلم يجلس في انتظار ابنه ورفع المرساة مبحراً يرافقه ختنه غرانيوس Granius.

وتزوّد ماريوس الابن بالمؤن الضرورية بعد وصوله مزارع موشيوس إلاّ أن المطاردين كادوا يكتشفونه قبيل انبلاج الصبح. فقد اشتبهت ثلّة من الخيّالة بوجوده هناك فداهمت الموضع إلاّ أن وكيل المزرعة بدافع من حذره وتوقّعاً لهذا الأمر عمل على إخفائه في عربة ملأى بالفاصوليا. ثم شدّ في نيرها زوجاً من الثيران وساقها نحو المدينة والتقى بالقوة المتعقّبة الخارجة عليه، فنجا ماريوس الابن وبلغ منزله وزوجه. وهناك تزوّد بما يحتاج إليه وتسلل إلى ساحل البحر في موهن من الليل وركب سفينة كانت تهمّ بالإقلاع إلى أفريقيا.

لما صار ماريوس الأب في عُرض البحر دفعت بسفينته ريحٌ قوية وجرت على طول الساحل الإيطالي. ولازمه قلقٌ وخوف شديدان من عدوّ له هو أحد رجال تيرّاكينا Terracina البارزين فرجا البحّارة أن يجانبوا تلك الأنحاء. وكانوا والحق يقال يتوخّون رضاه إلاّ أن الريح جرت خلاف ما تمنّوا، إذ غيّرت اتجاهها وراحت تهبّ من البحر فتدفع بأمواج عالية كالجبال، حتى خافوا أن لا تقوى سفينتهم على الخروج من العاصفة، وأصيب ماريوس بدوار البحر وساءت حالته كثيراً. فوجّهوا دفعهم إلى اليابسة وبلغوا الساحل بشيء من الصعوبة ورسوا في موضع قريب من كيركيوم Circeum. واشتدت العاصفة وشارفت أقوات السفينة على النفاد، فتركوها وراحوا يضربون في الأرض على غير هدى هائمين على أوجههم كالذين أصابتهم مصيبة: يتغاضون عن حاضرهم لأنه شرّ عظيم ويتشبّثون بآمال خادعة واهمة، فالأرض والماء كلاهما موضعان غير مأمونين، والخطر كل الخطر أن يقابلوا أناساً، ولا يقلّ عن هذا خطراً عدم عثورهم على أحدٍ من الناس لحاجتهم الماسة إلى القوت الضروري. وبعد لأيٍ وقعوا على نفرٍ من الرعاة الفقراء الذين لا يملكون ما يسعفونهم به، إلاّ أنهم شخّصوا ماريوس وأشاروا عليه أن يرحل بأسرع ما يمكنه، لأنهم لمحوا قبل قليل كوكبة من الفرسان على مسافة قريبة، تجدّ بحثاً في طلبه فلم يسعه إزاء هذا الخطر الجديد، ولأن الذين يرافقونه خارت قواهم جوعاً وعجزوا عن السير أكثر مما ساروا، إلاّ أن يحيد عن الطريق العام مؤقتاً ويُخفي نفسه في غاية كثيفة ليقضي فيها ليلة بائسة لم يرَ مثلها. وأصبح عليه اليوم والجوع يقرص أحشاءه، فقرّر أن يستخدم ما بقي من قواه الخائرة قبل أن تُستنفد. وسار أتباعه بمحاذاة الساحل يشجّعهم ويحضهم على البقاء معه حتى تتحقق آخر أمانيه. وهذا ما كان يبثّ في نفسه العزم ويزيد من صبره على المكاره،

توقّعاً لنبوءة قديمة بحقّه أيام كان فتى يعيش في الريف. فقد سقط عليه عشّ عُقاب وعلِق بردائه وكان فيه سبعة فراخ. وأدرك أبويه العجبُ الشديد لمّا شاهدا ذلك وراحا يستشيران العرّافين فيما تعني الحادثة. فقالوا أن ابنهما سيغدو أعظم رجلٍ في عصره، وإن القدر حكم له بالسلطان والسؤدد المطلقين سبع مرّات. وفي رأي بعض الكتّاب أن ما رويناه قد وقع لماريوس فعلاً. إلاّ أن بعضهم الآخر قال إن من روى هذه الحادثة المخرفة التي لا نصيب لها من الصحة، إنما أخذها وردّدها نقلاً عن صاحبها الذي كان يعيد ويُبدي فيها طوال مدة نفيه. لأن أنثى العُقاب لا تفقس أكثر من فرخين. ولقد كان موسيوس Musaeus واهما عندما قال مشيراً إلى العُقاب:

«إنها تضع ثلاث بيضات فتفقس فرخين اثنين، وتربّي واحداً».

ومهما كانت حقيقة الأمر في هذا فالثابت أن ماريوس ظلّ يردّد في منفاه وفي أحرج الساعات التي مرّت به أنه سيبلغ قنصليّته السابعة حتماً.

عندما بات ماريوس وتابعوه على بعد عشرة فرلنغات تقريباً من المدينة الايطالية منتورناي Minturnae لمحوا عن بُعد ثلّة من الفرسان تتقدّم نحوهم بسرعة عظيمة وفي الوقت نفسه شاهدوا بمحض الصدف سفينتين تهمّان بالإقلاع. فما كان منهم إلاّ أن هرولوا نحوهما بأقصى ما يطيقون وقذفوا بأنفسهم في الماء وسبحوا إليهما فبلغ غرانيوس والفريق الذي كان معه واحدة منهما أخذتهم إلى جزيرة تواجه الساحل اسمها أيناريا Ænaria. أما ماريوس البدين البطيء الحركة فقد ساعده خادمان على البقاء فوق سطح الماء بصعوبة وعناءٍ ثم رفعاه إلى السفينة الثانية عندما بلغ الفرسان الساحل وراحوا ينادون الملاحين ويأمرونهم بالعودة إلى البرّ أو بإخراج ماريوس من السفينة وقذفه في البحر، وإذ ذاك ينطلقون في سبيلهم آمنين. فأنشأ ماريوس يتوسّل إليهم ضارعاً والدموع تجول في عينيه ألاّ يفعلوا ذلك. ووقع الملاحون في حيرة شديدة. ومرّت عليهم فترة من الزمن وهم لا يدرون علام يستقرّون. تجدهم تارة يميلون إلى هذا الرأي، وتارة ينقلبون إلى ضده. وهكذا حتى استقروا على رفض طلب الجنود وأجابوهم أنهم لن يسلّموا طريدهم. ولكن ما إن انقلب الفرسان عن الساحل حانقين حتى غيّر الملاحون رأيهم وعادوا بالسفينة إلى البرّ وألقوا المراسي في فم نهر ليريس Liris الذي ينساح ماؤه هناك فوق رقعةٍ واسعةٍ من الأرض ليكوّن منها مستنقعاً. هنا أشاروا على ماريوس بالنزول إلى الساحل لإراحة جسمه المنهوك واسترداد بعض قواه حتى تستقيم لهم الريح وتواتيهم. وعلى حَدّ قولهم إن هذا سيحصل في الساعة كذا عندما تهدأ الرياح القادمة من البحر وتبدأ الريح القادمة من المستنقع بالهبوب. فعمل ماريوس بقولهم. وأنزلوه

إلى اليابسة وهو لا يتوقّع ما سيأتي به القدر. إذ ما إن احتوتهم السفينة حتى رفعوا المرساة ورحلوا مخلّفين ماريوس على الساحل. لم يروا من الشهامة أن يدفعوا بماريوس إلى أيدي طالبيه، ولا من السلامة أن يتولّوا حمايته.

وهكذا تركه الجميع وبقي ردحاً من الزمن قاعداً على الساحل لايدري ما يفعل. ثم استجمع قواه ونهض وسار يخوض البرك ويتخطى السواقي الملأى بالماء والأوحال بصعوبة وآلامٍ شديدة، يبحث عبثاً عن طريقٍ يسلكه إلى أن بلغ كوخاً لشيخ عجوز يشتغل في المستنقعات فخرّ جاثياً على قدميه يناشده العون والغوث ويعده بجزيل العطاء والمكافأة إذا نجّاه من الخطر الذي يتهدّده فأجاره، إما بدافع معرفة سابقة به أو تأثراً بمظهره الجليل. وقال له إن كوخه مناسب إن شاء أن يصيب راحته. أما إن كان هارباً من وجه أحدٍ فسيخفيه في موضع متطرّفٍ. فرغب ماريوس في الأخير، فقاده العجوز إلى المستنقع وأنزله في نقرةٍ قريبة من ضفة النهر وغطاه بالقصب وبغيره من النبات الخفيف الذي لا يؤذيه ثقله. وما مرّت برهة من الزمن حتى أشاعت الرعدة في أوصاله ضجّة وأصواتاً صادرة من الكوخ؛ فقد أرسل گمينيوس نفراً من أتباعه إلى تيرّاكينا لتعقُّبه واتفق أن بعضهم اختار أن يسلك ذلك السبيل فبلغ بهم كوخ العجوز فراحوا يستجوبونه ويتهدّدونه ويرهّبونه بالعِقاب لأنه آوى واستضاف عدوّاً للرومان. فخرج ماريوس من الحفرة وخلع ثيابه وألقى بنفسه في حمأة مملوءة بماء جعله الطين كثيفاً لزجاً. ومع هذا خاب سعيه في التواري عن أنظارهم، وأُخرِج من الحمأة وهو ملوّث بالطين وحُمل عارياً إلى مدينة مينتورنياي ودُفع إلى حكامها إذ كانت الأوامر التي عُمّمت على المدن تقضي أن يكون البحث عن ماريوس على نطاق شاملٍ، وأن ينفّذ فيه حُكم الموت حال العثور عليه. على أن الحكام مالوا إلى التريّث أو التفكير في الأمر. وأودعوه منزل امرأة تدعى فانيا Fannia سجيناً تحت الحراسة.

كان متوقّعاً أن لا تحدَبُ عليه هذه المرأة أو ترقّ لحاله، لحادثة سلفت لها معه. فقد تزوّجت فانيا هذه من رجل يدعى تينّيوس Tinnius ثم طلّقها فرفعت عليه دعوى المطالبة بمهرها وكان مبلغاً جسيماً. فاتهمها مطلّقها بالزنى ورُفعت القضيتان المتقابلتان إلى ماريوس أثناء قنصليته السادسة. وبعد أن محّصها ودقّقها من جميع الوجوه تبيّن له أن فانيا عفيفة إلاّ أن زوجها كان يعرف فيها ذلك عندما تزوّجها وعاشرها ذلك الزمن الطويل. ولذلك كان حكم ماريوس صارماً على المتداعيَين فقد قضى بأن يدفع الزوج مهر مطلّقته كاملاً، وفرض على المرأة غرامة رمزية قدرُها أربعة أفلس نحاسية لتكون وصمة عارٍ لها. لكن فانيا هنا أبت أن تستغلّ حالة ماريوس في إطفاء جذوة حقدها عليه

ونسيت كل ما يتعلق بالأمر حالما وقع نظرها عليه، وتوفرت إلى العناية به ورعايته على قدر طاقتها وطيّبت خاطره. فشكرها وأظهر امتنانه منها وقال لها إنه لن ييأس قط بعد أن صادفه الفأل الحسن لمّا جيء به إلى منزلها. إذ ما إن فُتح مدخل المنزل حتى اندفع منه إلى الخارج حمار وعدا إلى نبع قريب ليشرب منه ثم ألقى عليه نظرة جريئة لطيفة ووقف ساكناً أمامه ونهق ورفع قائمتيه الخلفيتين. ومن هذا استنتج آيةً فسّرها بأن القدر قد خصّ بنجاته بحراً لا برّاً لأن الحمار عاف علفه اليابس وانصرف عنه إلى الماء. وبعد أن قصَّ قصّته هذه على فانيا طلب منها أن تغلق عليه باب الحجرة ليصيب راحته.

وفي أثناء ذلك كان قضاة نيتورنياي ومستشاروها يتداولون في مصيره، وقرروا أن يقضوا عليه حالاً ولا يؤجّلونه. ولما أحجم كل رجال المدينة عن ذلك انبرى فارس غاليّ أو كيمبري (وتُروى القصة بالوجهين) ليأخذ على عاتقه قتله ودخل عليه وسيفه مشهر ولم تكن الغرفة مضاءة بنورٍ كاف، ولاسيما الزاوية التي احتلها ماريوس فقد كانت مظلمة، وقيل إن عيني ماريوس كانتا ترسلان شواظَ نار أو شراراً إلى القادم. ثم إنه صعقه بصرخة عالية من ركنه المظلم قائلاً له:

- أتجرؤ يا صاح على قتل كايوس ماريوس؟

فأطلق البربريّ ساقيه للريح ملقياً بسيفه وخرج من الدار مهرولاً وهو يصيح:

- لا أستطيع قتل كايوس ماريوس.

ولم ينطق بسواها.

في مبدأ الأمر ذُهل المتورينيون لما جرى. ثم سرعان ما امتلأت قلوبهم بالعطف والألم. وأدركهم الحنق على أنفسهم لإصدارهم حكماً جائراً كفوراً بحق رجل حفظ إيطاليا وحماها، رجل يُعد إنكار المعونة له أسوأ عملٍ يُقدم عليه المرء. وقالوا بصوت واحدٍ:

- ألا فلندعه ينطلق إلى حيث يشاء شريداً منفياً وسيلقى حتماً ما كُتب له في لوح القدر في غير هذا المكان. وليس علينا إلا أن نطلب المغفرة من الأرباب لإخراجنا إياه من المدينة مشرّداً وحيداً طريداً.

وهرعوا إليه جميعاً وأخرجوه من الغرفة وساروا يحفّون به إلى ساحل البحر، وكانت بينه وبينهم مسافة طويلة يضيع فيها وقت ثمين، لأن بستاناً مقدّساً يُطلق عليه اسم «بستان مارشيا» Marcia كان يعترض سبيلهم. ولا بد من الانحراف عنه والدوران حوله لأن الأهالي يحرّمون إخراج أي شيء يدخل إليه. فوقعوا في حيرة ثم صاح أحد الكهول بهم قائلاً:

- ليس ثمّ شيء في الدنيا يبلغ هذه الدرجة من القداسة. وعليكم أن تمرّوا من داخل البستان توخياً لسلامة ماريوس.

ثم اندفع إلى الأمام فصار في المقدمة ومعه شيء من المؤن التي زوّد بها ماريوس ودخل البستان فتبعه الآخرون بلا تردد. وبلغوا ساحل البحر حيث كانت السفينة التي هيأها بيليوس Beloeus راسية فصعد إليها (أوصى هذا الرجل فيما بعد برسم صورة لهذه الواقعة وزين بها معبداً يقع قرب منطقة إبحار ماريوس) ونشرت قلوعها. وشاء الحظ أن يلقي البحر بالسفينة على ساحل جزيرة إيفاريا. وهناك تمّ اللقاء بغرانيوس وصحبه وأبحروا جميعاً إلى أفريقيا. ونضب ماء الشرب عندهم وهم في عُرض البحر فاضطروا إلى الجنوح بها ورسوا بالقرب من اريكس Eryx في صقلية، وكان فيها كويستور روماني يقوم بمهمة المراقبة والترصد وكاد يضع يده على ماريوس بعد أن فتك بستة عشر من أتباعه كانوا قد نزلوا البرّ بطلب الماء. فلمّا أدرك ما حَلَّ بهم ابتعد عن الساحل متجهاً إلى جزيرة مينينْكس Mininx وفيها علم لأول مرة بنبأ سلامة ابنه مع گثيغوس Gethegus وذهابه إلى هيمپسال Hiempsal ملك النوميديين ليرجو منه العون.

وأشاعت هذه الأنباء بعض الراحة في نفسه، ورحل عن الجزيرة متجهاً إلى قرطاجنة. وكان سكستيليوس Sixtilius الحاكم الروماني في أفريقيا وهو شخص لم يصبه ماريوس بضرر أو بنفع. وكان المأمول منه أن يدفعه العطف فحسب إلى إسداء بعض المعونة للمنفيّ. ولكن ضابطاً من ضباطه كان في انتظار ماريوس عند وضع قدمه على البرّ مع نفر قليل. فتقدم منه وقال له:

- إن الحاكم سكستيليوس يمنعك يا ماريوس من وضع قدمك في أفريقيا. وإن فعلت فسيطبق عليك المرسوم الذي أصدره مجلس الشيوخ بحقك ويعاملك معاملة أعداء الرومان.

وأصغى ماريوس إلى هذا القول وخانه التعبير عن حزنه وغضبه فارتج عليه وصمت مليّاً وهو ينظر إلى الرسول شزراً. فسأله هذا عما اعتزمه وما هو الجواب الذي سينقله للحاكم فأجابه ماريوس وهو يتنهّد تنهيدة عميقة:

- اذهب فقل له إنك رأيت كايوس ماريوس المنفيّ جالساً بين أطلال قرطاجنة.

مقارناً حظّه وتغيّر أحواله بحظّ تلك المدينة ومصيرها الأليم. في أثناء ذلك كان هيمپسال ملك النوميديين تتجاذبه الحيرة بين قرارين. وكان يعامل ماريوس الابن ومرافقيه أكرم معاملة إلاّ أنه أخذ يتعلل بشتى الحجج ليبقيهم عندما رغبوا في الرحيل،

واتضح أنه كان يضمر لهم شراً وبيّت لهم أمراً. إلاّ أن صدفةً من الصدف ضمنت لهم السلامة ضماناً أكيداً. فقد رقّت محظية من محظيات الملك لحال ماريوس الابن، وكان جميل الصورة، ثم تحوّل عطفها إلى مشاعر حبّ وغرام فصدّها عنه في مبدأ الأمر ولم يبادلها عاطفة حتى وجد سبيل الخلاص مقفلة في وجهه إلاّ هذا السبيل وأيقن أن شعورها ليس نزوة عابرة بل حُبّاً مقيماً فبادلها الحبّ. وهيأت له الوسائل لرحيلهم وهكذا نجا هو وصحبه في عملية الفرار وسعى إلى أبيه حتى تم لقاؤهما، وما كادا يبدآن السير على طول الساحل حتى لمحا عقربين تقتتلان فعدّها ماريوس فألاً سيئاً وأسرع بركوب قارب صيد صغير اتجه به إلى كرجيناس Cercinas وهي جزيرة لا تبعد كثيراً عن القارة. وما إن غادر القارب اليابسة حتى رأى راكبوه ثلة من الفرسان أرسلها ملك النوميديين للقبض عليهم تتجه بأقصى سرعتها إلى البقعة التي أقلعوا منها. وهكذا نجا ماريوس من خطر قيل إنه فاق أعظم الأخطار التي تعرّض لها قبلاً.

وفي روما وردت الأنباء حول اشتباك سيلّلا في عدّة معارك مع قوّاد ميثريداتس في بويوسيا. كما نشب صراع علني بين القنصلين سببه التناحر الحزبي، واستظهر فيه أوكتافيوس Octavius على زميله سينّا Cinna فطرده خارج المدينة لاستبداده بالحكم. ونصّب كورنيليوس ميرولا Cornelius Merula قنصلاً في محلّه. فراح سينّا يحشد قوات عسكرية في بعض أنحاء إيطاليا وأعلن الحرب على القنصلين. وما إن سمع ماريوس بما يجري في الوطن حتى قرر أن يعود بحراً بأسرع ما أمكنه ومعه عدد من الخيالة الموريتانيين Mauritania الأفارقة، وبعض اللاجئين الإيطاليين لا يزيدون جميعاً عن ألف رجل. وبهذه الحفنة بدأ رحلته فبلغ تيلامون Telamon من أعمال أتروريا. وما إن هبط الساحل حتى أعلن حرية العبيد الذين ينتظمون في صفوفه وتقاطر إليه أيضاً عدد كبير من أبناء البلاد، وجماعات من الرعاة الذين سبق تحريرهم من العبودية، حالما سمعوا باسمه فانضووا تحت رايته وهو بعدُ على الساحل. واستهوت دعوته أصلب الرجال وأكثرهم فتوةً فالتحقوا به واجتمع له في فترة وجيزة عسكرٌ كثير ملأ به أربعين سفينة.

كان يعلم عن أوكتافيوس الطيبة والصلاح، والتفاني في القيام بمهام وظيفته بأعدل ما يتصوّر من أحكام. وكان يدري أيضاً أن چينّا موضع ريبة سيلّلا وشكّه. ولم يطل تردّده في اختيار شريكه في الحرب الدائرة على الحكم القائم. وقرّر أن يحالف سينّا وأرسل إليه خطاباً يعلن فيه استعداده لإطاعته بوصفه قنصلاً.

وسُرّ سينّا بعرض ماريوس وسارع بتوجيه منصب البروقنصل إليه وبعث له بالفاچي

وغيرها من شعارات السلطة، فعاينها وقال: إن مظاهر العظمة لا تناسب عِثار حظه الحاضر، وارتدى ثياباً عادية وأبقى شعره نامياً مثلما أطلقه في اليوم الأول لنفيه. وأقبل على سينّا وهو الآن في السبعين يسير ببطء ومسكنةٍ يقصد إثارة عطف الناس عليه. إلاّ أن تظاهره هذا لم يستر ملامحه القاسية التي ظلّت تغلب عليه وتُفصح عن طبعه الحقيقي الغاشم. فكلّ التحقير والإذلال اللذين لقيهما عند تغيّر حاله لم يظهرهما شديد ألمه ومسكنته تلك. وبعد أن حيّا جينّا وسائر الجنود، عكف حالاً على تنظيم خطط القتال مُحدِثاً تغييراً جوهرياً في الموقف بمنتهى السرعة. عمد أولاً إلى وضع الحصار الاقتصادي وقطع سُفن المؤون والأرزاق. وصادر كل ما لدى التجار من بضاعة ووضع يده على جميع مستودعات الغلال ثمّ استقدم أسطوله وأحتل به الموانئ. وأخيراً استولى على أوستيا بالحيلة والغدر، ونهبها وفتك بعدد كبير من أهاليها، وسدّ مدخل النهر. وبذلك قضى على آخر أمل للأعداء بالتموّن عن طريق البحر. وبعدها زحف بالعسكر على العاصمة وركّز قوّاته على جبل يدعى يانيكولوم Janiculum.

إن الضرر الذي أصاب المصلحة العامّة من سوء تصرّف أوكتاڤيوس في شؤون الحكم لم تبلغ جسامته مبلغ ما أصابها من إهماله اتخاذ الإجراءات الضرورية العاجلة التي تقتضي عدم التقيّد الشديد بأحكام القانون، بسبب تزمّته وحرصه على مراعاته. فمثلاً عندما نصحه كثيرون بتحرير العبيد أبى وقال إنه لم يمنح العبيد امتياز حرية البلاد التي يطرد منها الآن ماركوس تطبيقاً لحكم القانون فيه. ولما جاء ميتللوس إلى روما (وهو ابن ميتللوس الذي كان جنرالاً في الحرب الأفريقية وسعى ماريوس فيما بعد إلى نفيه كما أسلفنا) ساد الاعتقاد بأنه كقائدٍ أفضل بكثير من أوكتاڤيوس ولذا انفضّ الجنود عن هذا القنصل وأقبلوا على ميتللوس الابن يلحّون عليه بتولّي قيادتهم والمحافظة على سلامة المدينة. وعاهدوه على الاستبسال والاستماته في القتال إذا تسلّم قيادتهم رجل صنديد مجرّب مثله وأن النصر سيكتب لهم حتماً. ولكن ميتللوس استنكر عملهم هذا وأمرهم مغتاظاً بالعودة إلى القنصل، فتمرّدوا والتحقوا بقوّات العدو. وتبيّن ميتللوس الموقف الحرج في المدينة فتركها هو أيضاً. إلاّ أن فئة من الكلدانيين Chadæns الذين يزاولون تقريب الذبائح وتفسير كتب سيبيل Sybile الدينية أقنعوا أوكتاڤيوس بأن الأحوال ستنصلح وتتخذ سبيلاً طيباً فأبقوه في روما.

كان هذا القنصل بلا جدال أعدل الرومان وأشدهم استقامة محفِظ للمنصب القنصلي كرامته وشرفه وابتعد به عن المصانعة والامتهان، وقصره ضمن أضيق حدود قوانين الشريعة الأولى وقواعد العُرف القديم كأنما هي حقائق رياضية ثابتة لا يمكن

تحويرها. ومع هذا فأنا لا أدري حقاً كيف ابتُلي ببعض الضعف من ناحية ميله إلى الأخذ بأقوال قارئي الحظ والعرّافين أكثر من نُصح الرجال المتمرّسين في الشؤون العسكرية والسياسية. وكانت نهايته أنه جُر جَرّاً من منبر الخطابة قبيل دخول ماريوس المدينة وقُتل بيد أولئك الذين أرسلهم قبله. وورد في الأخبار أنه وجِد في طيّات ثوبه عند قتله رقعة عليها كتابة كلدانية. ومما لا يمكن تفسيره، والحق يقال، أن ينجح أحد جنرالين شهيرين وهو ماريوس في استخلاص الصائب من النبوءات، بينما يلحق الخراب بثانيهما وهو أوكتاڤيوس لخيبته فيها.

بعد أن آلت الأمور إلى هذا الحدّ، اجتمع الشيوخ وقرّروا إرسال وفدٍ إلى سينّا وماريوس يرجو منهما دخول المدينة دخولاً سلمياً والعفو العام عن سائر المواطنين. واستقبل سينّا الوفد بحكم منصبه القنصلي وهو جالس على كرسي الكورول وكان ردّه على الوفد لطيفاً. أمّا ماريوس فقد ظلّ واقفاً إلى جواره ولم يقل شيئاً، إنمّا أظهر أمارات كافية على نيّته في إغراق المدينة بالدماء، بانقلاب سحنته وصرامة نظراته. وما إن نهض الوفد وتوجّه إلى المدينة حتى دخلها سينّا وحرسه. لكن ماريوس توقف لدى أبوابها وأرسل يقول مخفياً حقده: إنه شخص منفيّ أبعد عن موطنه بحكم قانوني، فإذا وجِد أن حضوره ضروري فينبغي إبطال القرار الذي قضى بنفيه، بقرار آخر جديد. وقد أراد بهذا الظهور بمظهر المتزمّت الحريص على حرفيّة القانون، وبأنه يعود إلى المدينة وقد تحرّر من الجور والخوف. فاجتمع الجمهور للتصويت وقبل أن يتم أخذ أصوات ثلاث قبائل أو أربع أسقط ماريوس قناع ادّعائه الكاذب ونبذ تزمّته القانوني الزائف حول قرار نفيه. ودخل المدينة بنخبة من حرس خاص أطلق عليه اسم الحرس البارداييِ Bardyaei ألّفه من العبيد الذين التحقوا به. فباشروا بقتل المواطنين بناءً على أوامر كان سيّدهم يلقيها إليهم لفظاً أو بإيماءة من الرأس.

وأقبل على ماريوس السناتور أناخاريوس Anacharius وهو «پريتور» سابق، وألقى بالتحية على الظافر فلم يردّ عليه فهجم عليه الحرس بسيوف مشهرة وفتكوا به أمام رئيسهم. وبعدها أصبح عدم الردّ على التحية الإشارة المتعارف عليها. فإن لم يلتفت ماريوس إليه أو يردّ عليه قتلوه. حتى شاع القلق والرعب في نفوس أصدقائه وكان الخوف على أرواحهم يتملكهم كلّما واجهوه أو حدّثوه.

بعد أن ذبح هذا الحرس عدداً كبيراً بَشِم سينّا وزاد نفوراً وملالاً من القتل. إلاّ أن ماريوس لم يرتو من الدماء وواصل فتكه بالناس بشهوة متعاظمة، واستمر في تعقيب ومطاردة كل من كان يشكّ فيهم بكيفية ما. وامتلأت الطرق والمدن برجال التعقيب

والمطاردة وبالفارّين والمختفين. ومما كان يدعو إلى الدهشة والعجب أن الثقة زالت من الناس، ولم تعد النفوس والحالة هذه تطمئن إلى صداقة أو ضيافة. فلا ترى من لا يشي باللاجئ إليه أو المستجير به إلاّ في القليل النادر. ولذلك استحق عبيد كورنوتوس Cornutus أعظم الثناء والإعجاب لأنهم أخفوا سيّدهم في المنزل، وجاؤوا بجثة أحد القتلى وفصلوا رأسها عنها ووضعوا خاتماً له في إصبعها وعرضوها على حرس ماريوس ودفنوها دفنة لائقة وبكلّ المراسم الواجبة لمكانة سيّدهم. ولم تُكتشف الخدعة بتاتاً فنجا كورنوتوس ورحّله أهلُ بيته إلى بلاد الغال.

ومع أن ماركوس أنطونيوس الخطيب المصقع وجد صديقاً وفياً فإن حظّه العاثر لازمه. هذا الصديق لم يكن إلاّ رجلاً معدماً من الطبقة العامة. ولأن ضيفه كان من سراة روما وأعلاهم مقاماً فقد حاول أن يقدّم له أفضل ما في طوقه وبعث بخادمه إلى الدكان ليبتاع مقداراً من الخمر. فراح الخادم يتذوّق أصناف الخمر التي عرضها الخمّار بدقّة واعتناءٍ فسأله البائع: ما خبره؟ وما الذي يدعوه إلى التشدّد في الاختيار ولِمَ لا يبتاع كعادته خمراً جديدة عادية ويريد سُلافاً معتّقة غالية الثمن؟ فما كان من الخادم إلاّ أن أفضى إليه بكلّ براءة وثقة من صديقه وعشيره: أن سيّده أقام وليمة لماركوس أنطونيوس المختفي في منزله. فانتظر الخمّار السافل حتى انصرف الخادم وأسرع إلى ماريوس بذاته. وكان هذا جالساً إلى مائدة العشاء، فأُحضِر أمامه، وسأله عمّا يريد فقال إن في مقدوره أن يدفع إليه بأنطونيوس. وما كاد ماريوس يعي حديثه حتى أطلق صيحة سرورٍ عظيمة وصفّق بيديه مغتبطاً على ما يُروى. وتملّكته رغبة شديدة في الذهاب إلى المخبأ لولا وجود أصدقائه. على أنه بعث بأنيوس Annius وثلّة من الجنود وأمره أنه يأتيه برأس أنطونيوس بأسرع ما يمكن. ولما بلغوا المنزل تأخّر أنيوس عنهم ووقف بالباب وارتقى الجنود الدرج إلى الأعلى ودخلوا الغرفة وعندما أبصروا به راح واحدهم يحاول نقل المهمة الكريهة إلى الآخر. ويظهر أن سحر لسانه أذهلهم فوجموا وأحجموا عن الاقتراب منه ولمسِه وأطرقوا وقد علاهم الخجل وشعر كل واحد منهم أن العبرة تكاد تخنقه. وطال وقوفهم مُصغين إلى بيانه الرائع ودفاعه عن نفسه حتى ضجر أنيوس من الانتظار وولج الدار ليشاهد أنطونيوس مسترسلاً والجنود مبهوتون مأخوذون فأنبهم ووصمهم بالجبن وتولّى هو قطع رأسه.

ولما راح بعضهم يتشفّع في كاتولوس لاتاتيوس Catulus Latatius زميله وشريكه في الانتصار على الكيمبري أجابهم بعبارة واحدة فحسب:

- موته لا بدّ منه.

فما كان من المتشفّع فيه إلاّ أن أغلق باب حجرته عليه وأوقد فيها ناراً عظيمة فاختنق بدخانها. ولكثرة ما كانت الجثث المشوّهة المحزوزة الرؤوس تُلقى في الشوارع تحت مواطئ الأقدام لم تعد تثير في الناس مشاعر الألم والرثاء بقدر ما تشيع في أنفسهم من الحنق والرّعب. إن الفظائع التي ارتكبها رجال الحرس كانت أعظم بلوى حلّت بالناس، فهؤلاء فتكوا بأرباب الأسر في عُقر دورهم وأذاقوا مُرّ العذاب أولادَهم وهتكوا أعراض نسائهم لا رادع يردعهم عن اعتداءاتهم المنكرة وقتولهم. حتى بلغ السيل الزُّبى واتفق حزبا چينّا وسرطوريوس على تصفيتهم فانقضّوا عليهم وهم في معسكرهم وفتكوا بهم إلى آخر رجل.

ومرّت فترة شبيهة بفترة تغيّر اتجاه الريح للسفينة. وتوارت أنباء من شتّى الأنحاء تفيد بأن سيللا - بعد أنهى الحرب مع مثيريداتس وسيطر على الأقاليم - عائد إلى إيطاليا بجيش لجِب، فوضعت حداً للفظائع وهدأت النفوس منها قليلاً. ولاعتقاد ماريوس أن الحرب توشك أن تندلع جرى انتخابه قنصلاً للمرة السابعة. فبدأ حكمه الموافق لليوم الأول من كانون الثاني وهو بداية السنة الرومانية بإلقاء شخص يدعى سكتوس لوكينوس من فوق الصخرة الثاربية فكان شؤماً عليه كما يبدو ودليلاً على تجدّد المآسي على المدينة وعلى حزبه. وكان الوهن والإنهاك قد اعترى جسد ماريوس من ثقل السنّ، وهدّت الهواجس قواه وعجز من استجماع معنوياته وراحت نفسه تتأرجح بالخوف من حربٍ جديدة ومعارك وأخطار مدلهمّة. فقد علّمته تجاربه الأولى من الدروس ما حتّم عليه ألاّ يخاطر بحربٍ مع أوكتاڤيوس أو ميرولا وهو يقود أوشاباً ورعاعاً متمرّدين على الضبط العسكري، ولا خبرة لديهم. وها إن سيللاّ ذلك الشخص الذي سعى جاهداً إلى نفيه يقترب من المدينة عائداً بعد استظهاره على مثيريداتس ودفعه حتى أقاصي البحر الأسود (الپونطس).

تناهبته الأفكار المزعجة، وأخذ يتذكر نفيه وتشريده الأليم والأخطار التي تعرّض لها في البرّ وفي البحر. فركبته السويداء، وطاردته أشباح المخاوف ولم تعد عيناه تكتحلان بنومٍ هنيء. وكان يتصوّر أن شخصاً يلازمه كالظلّ ولا يفتأ يهمس في أذنيه هذا البيت:

«. . . إن وِجار الأسد خطر وإنْ غاب عنه صاحبه».

وكان أخشى ما يخشاه أن يظل صاحياً يقِظاً فعكف على الشراب ليلاً إلى درجة الثمل وتبلُّد الحسّ بدرجة لا تناسب عمره يريد أن يفقد وعيه أو يصطاد النوم بأية وسيلة للخلاص من أفكاره. وفي النهاية أدركه قلق جديد عند وصول رسول من الساحل. وما

لبث أن سقط مريضاً بذات الجنب بتزايد مخاوفه وثقل حاضره بعد وعكة بسيطة، كما ذكر پوسيدونيوس الفيلسوف الذي يضيف قائلاً إنه كان قد زاره أثناء مرضه وتحدّث إليه حول أمور سفارته. ويحدّثنا كايوس بيسو Cauis Piso المؤرّخ أن ماريوس كان مرّة يتمشّى مع أصدقائه بعد تناول العشاء فأخذ يتحدث إليهم عن ماضي حياته ويستذكر التقلّبات العديدة التى عاناها في حياته من المبدأ إلى المنتهى فقال: «يجدر بالرجل الحصيف البعيد النظر أن لا يودع كل مقدّراته إلى تصاريف الحظّ دائماً». ثم إنه استأذن من صحبه وانسحب إلى فراشه فلازمه عدة أيام وبعدها أدركته الوفاة.

وروى بعضهم أن مرضه كشف عن مدى تهالكه على السلطة وطموحه إلى العُلا. ففي هذيانه توهّم أنه جنرال يقود معركة ضدّ ميثريداتس وأخذ يأتي بحركات وإيماءات من جسمه وأطرافه مثلما كان يفعل عند خوضه معركة ويكثر صراخه وزعيقه، حتى لكأن رغبته الدفينة هي التي تدفعه بكبرياءٍ منه وحبٍّ للظهور. ومع أنه بلغ السبعين من العمر وكان أول من تولّى المنصب القنصلي سبع مرات، وجمع أموالاً طائلة تغني عدة ملوك، فقد ظلّ إلى آخر لحظةٍ من حياته يندب حظّه العاثر وينعى على الأقدار غدرَها به لموته قبل أن يحقق أمانيه.

لمّا حضرت الوفاة أفلاطون، راح يشكر العناية الإلهية، وسعادة حظه في الحياة؛ أولاً لأنه ولِد رجلاً وإغريقياً ولم يولد بربرياً أو همجياً. وثانياً لأنه عاش في عصر سقراط. وكذلك قالوا عن أنتيباطر الطرسوسي أنه أخذ يستذكر في ساعة احتضاره السعادة التي استمتع بها ولم يُغفِل منها حتى رحلته الناجحة إلى أثينا، مقرّاً بكل فضل لحظّه عليه مع الشكران والاعتراف بالجميل، مختزناً إياها إلى الأخير في ذاكرته وهي أمنع حجرة كنوز بشرية. أما المتبذّلون والمستهترون فمن شأنهم أن يطرحوا من ذاكرتهم كل ما صادفوه من أحداث فلا يشعرون باعتزاز بها ولا يفكرون باختزانها وبذلك يفقدون لذة حالهم الطيبة الحاضرة في أوهام توقّع حال أفضل. في حين أن ما بيدنا لا تستطيع أن تحرمنا منه الأقدار مثلما هي قادرة على حرماننا مما سيأتي. إن هؤلاء لا يقبلون بواقعهم الناجح ولا يهمهم أمره، ولا يجدون ضالّتهم إلاّ في الأحلام بالمستقبل غير المحقق. وهذا ليس بالشيء الغريب. فالرجال لن يستطيعوا مطلقاً أن يرضوا رغبات عقلهم اللامحدودة إلاّ باطّلاب الثقافة والعلم فبهما فقط يضعون الأُسس الجيدة للبناء الفوقي الخارجي.

قضى ماريوس نحبَه في اليوم السابع عشر لممارسته مهام قنصليّته السابعة، فأحدث فرحاً وارتياحاً في روما يقصران عن الوصف، وانتعشت آمالها في الخلاص من بلايا

الطغيان القاسي. لكنها سرعان ما وجدت أنها استبدلت بسيّدها الهرم المنهوك سيداً آخر قوياً فتيّاً بشخص ابنه ماريوس الذي أظهر وحشية وقسوة لا توصفان في قتل أشرف المواطنين وأكرمهم. توهّموا به أولاً رجلاً جسوراً عزوماً بمواجهة أعدائه فأُطلق عليه لقب «ابن مارس». لكن أفاعيله التالية كشفت عن الجانب السيّئ منه فلُقّب بـ«ابن ڤينوس». وقد حاصره سيللا في پرينيست Præneste وضيّق عليه الخناق، ولما فشلت وسائله العديدة في إنقاذ نفسه، وتم الاستيلاء على المدينة وسُدّت بوجهه منافذ الهرب، بخع نفسه بيده غير مأسوف عليه.

ليساندر

LYSANDER

٣٩٥ ق.م

يوجد في غرفة كنوز الأقانثيين Acanthians بدلفي النقش التالي: «الغنائم التي استولى عليها براسيداس Brasidas والأقانثيون، من الأثينيين». وبناءً على هذا يتوهّم كثيرون بأن التمثال الرخامي القائم في داخل البناية بالقرب من الأبواب إنما هو تمثال براسيداس، بينما هو في الحقيقة تمثال ليساندر يمثّله بشعره الطويل المسترسل حسب الزيّ القديم، وبلحتيه الكثّة. وليس بصحيح ما زعمه بعضهم بأن الأرغوسيين عمدوا بعد هزيمتهم إلى حلق شعورهم حزناً. وليس بصواب كذلك أن السپارطيين أطالوا شعورهم للانتصارات التي حققوها، أو أنهم أرسلوها تباهياً وفخراً، لأن الباخيادي Bachiadae الذين هربوا من كورنثا إلى لقيديمون كانوا يحلقون شعرهم قصيراً. إنما كان ذلك بمقتضى قانون من قوانين ليكورغوس الذي رُوي أنه كان لا يفتأ يقول: «إن الشعر الطويل يزيد في وجه الرجل الجميل جمالاً وفي ذي الوجه القبيح نفرة وإرعاباً».

وقيل إن والد ليساندر هو أرسطوقليطس Aristoclitus الذي وإن كان لا ينحدر من صُلب الملوك فإنه من نسل الهيراقليدي. لقد نشأ الابن نشأة فقر وأظهر من الطاعة وتقاليد بلاده والانصياع لقوانينها بشكل لم يفعله أحد. وكان يمتاز أيضاً بالرجولة والترفّع عن الملاذّ كلها، خلا تلك التي تأتي للمُفلحين والعظماء بأعمالهم ومآثرهم الطيّبة. ولم يكن يُعتبر من الامتهان في سپارطا أن يستسلم الشباب لمثل هذا النوع من الملاذّ. فمن المستحبّ عندهم أن ينشأ شبّانهم من البداية وهم حسّاسون إزاء حُسن السمعة وشؤونها وأن يشعروا بالألم عندما يصابون بعارٍ وبالفخر عندما يُثنى عليهم. ومن لا يكون مهتمّاً أو حسّاساً بهذا يُعدّ فقير النفس لا تجود بالسجايا والخلق الكريم. لذلك غُرس الطموح والتهافت إلى المجد في شخصيته بفضل تربيته اللاقونية. وإذا كانت هاتان الخصلتان ملازمتين لأهل البلاد فليس لنا أن نلوم طبيعته تلك. على أنه كان شديد الطاعة للزعماء وعظماء الرجال بشكل غير مستحبّ وبإفراط ينبو عنه الذوق السپارطي. فهو يستطيع أن يتحمّل بكلّ طيبة خاطر غطرسة مالكي زمام السلطة كلّما

عاد ذلك عليه بالنفع. وهذا على رأي بعضهم من مقدّمات الحِنكة السياسية الهامّة. ويقول أرسطو إن سوداوية المزاج تلازم كل عظماء الرجال وإن بدرجات متفاوتة ويضرب مثلاً لذلك بسقراط وأفلاطون وهرقل. وقد جاءنا من المصدر نفسه أن ليساندر غلب عليه هذا الطبع في كهولته لا في مُقتَبل عُمره.

إن الأمر الذي تفرّد به ليساندر هو مدى تحمّله فقره ورضاه بحاله بأفضل صورة. الثروة لم تقوَ على استعباده أو إفساده مع أنه ملأ بلاده بالأموال وأنمى في نفوس أهلها حبّ الغنى وجرّدهم من فضيلة احتقار النقود السامية. لقد حمل إلى بلاده قناطير مُقنطرة من الذهب والفضّة بعد الحرب الأثينية لكنه لم يختصّ نفسه منها بدراخما واحد. وعندما بعث الطاغية ديونيسيوس أثواباً غالية الثمن لبناته من صُنع صقلية هدية ردّها عليه قائلاً إنه يخشى أن يزددن قُبحاً بها! وبعدها بزمن كان ليساندر قد أُرسل بسفارة إلى البلاد نفسها وللطاغية نفسه، فأعاد معه العمل نفسه وأرسل إليه ثوبين ليختار أحدهما لابنته فقال ليساندر:

- إنها وحدها قادرة على اختيار الأفضل.

وأخذهما ورحل بهما.

مرّ على حرب البلوبونيس زمن طويل وكان يُتوقّع من الأثينيين بعد نكبتهم في صقلية أن يخسروا سيادتهم على البحار حالاً وأن تحلّ بهم الهزيمة في كل مكان بعد فترة قصيرة؛ إلاّ أن عودة ألكيبياديس من المنفى وتولّيه القيادة أحدث تغييراً عظيماً في الوضع ورفع الأثينيين إلى درجة التكافؤ مع خصومهم في البحر. فدبّ القلق الشديد في نفوس اللقيديمونيين ودعوا إلى المزيد من التفاني والحماسة والعمل للمعركة القادمة. ولشعورهم بنقص في عُدّتهم الحربية وحاجتهم إلى قائد قدير، بعثوا ليساندر بمنصب قائد لأساطيلهم في عموم البحار. ورحل إلى أفسس فوجد مشاعر المدينة معه وأهلها يشايعون الحزب اللقيديموني. إلاّ أنها كانت سيئة الأحوال معرّضة لخطر صيرورتها بربرية القِوام لممارستها عادات الفُرس الذين كانوا في أشدّ التمازج والاختلاط فيما بينهم، ولأن بلاد ليديا تجاورهم، وقوّاد الملك قد استقروا فيها منذ عهد بعيد. ولذلك عسكر هناك وأمر بأن يتمّ إرساء كلّ السفن التجارية في مينائها وباشر في بناء السفن. وبهذا النشاط التجاري الذي خلقه أحيا موانيهم وأنعش أسواقهم بالأعمال التي أوجدها وملأ بيوتهم الخاصّة وحوانيتهم بالبضائع والأموال.

وهكذا بدأت المدينة منذ ذلك العهد، وبمسعى ليساندر أولاً، تؤمّل بعض الشيء في بلوغ ذلك السؤدد والعظمة اللذين ترفل فيهما الآن.

وعلم ليساندر أن كورش Cyrus ابن الملك قد قدِم إلى ساردِيس فقصده ليكلّمه وليشكو إليه طيسافيرنس الذي بلغه الأمر بوجوب معاونته اللقيديمونيين وطرد الأثينيين من البحر فتقاعس وتلكّأ بسبب ألكيبياديس وأساء العمل بدفعه أجوراً زهيدة للبحّارة حتى يلحق الدمار بالأسطول. وكان كورش يتمنّى أن يثبت التقصير على طيسافيرنس وأن تشوّه سُمعته وتظهر حقيقة أمره كما هي في الواقع لأنه كان يحقد عليه في سِرّه. وأفلح ليساندر في نيل ثقته وحبّه عن طريق ذلك وبمحادثاته اليوميّة المشوبة بطابع الخضوع للأمير الفتى رفع كثيراً من حماسته في مواصلة الحرب. وأقام له كورش وليمة خاصة قبيل رحيله ورجا منه ألا يتردّد قطّ في الثقة به وأن يتكلّم بكلّ حرية ويطلب كلّ ما يريد فسيحققه له مهما كان. فأجاب ليساندر

- لمّا كنت بهذه الدرجة من العطف، فإنّي ألحّ عليك في الرجاء بأن تمنح البحّارة دانقاً واحداً زيادة على أجرهم اليومي، فيكون أربعةً بدلاً من ثلاثة.

فسُرّ كورش لإخلاص ليساندر وتفانيه في المصلحة العامة ولم يكتف بإقرار الزيادة التي اقترحها وإنما منحه عشرة آلاف «داريكي» Daric. وكان من آثار هذه العِلاوة أن فرّغت سُفن الأعداء من البحّارة تقريباً وتقاطروا على الجانب الذي يدفع أعلى الأجور. وأما من بقي فقد فترت حماستهم، وتمرّدوا على قباطنتهم وصاروا يثيرون لهم المشاكل يومياً. ومع كل هذا الضعف والاضطراب الذي سبّبه ليساندر لعدوّه فقد ظلّ يخشى الاشتباك معه في البحر. إذ كان ألكيبياديس قائداً عبقرياً، ولديه عدد من السفن يزيد عمّا لدى ليساندر ولم يخسر قط أية معركة لا في البرّ ولا في البحر.

لكن عندما أقلع ألكيبياديس من ساموس إلى فوكيا فيما بعد مودّعاً القيادة العامة لأنطيوخوس القبطان، رآه هذا القائد الجديد يتحرّش بليساندر. وأبحر بسفينتين فقط إلى ميناء أفسس بقصد إهانته وأخذ يتجوّل بهما على طول الساحل ساخراً متندّراً أمام صفوف السفن. ودفع ليساندر في سورةٍ من الغضب ببضع سفن أولاً لمطاردته. ولكن ما إن وجد الأثينيين يخفّون إلى نجدته حتى أخرج عدداً آخر من سفنه وبالأخير انقلب الأمر إلى معركة حاسمة انتصر فيها ليساندر وغنم خمس عشرة سفينة وأقام نُصباً تذكارياً.

وغضب أهل المدينة لهذه الخسارة فعزلوا ألكيبياديس. ولما وجد هذا نفسه موضع احتقار ونقد شديد من الجنود في ساموس ترك معسكر الجيش إلى الخرسونيز. ومع أن هذه المعركة لم تكن هامة بحدّ ذاتها فإن آثارها كانت كبيرة بالنسبة إلى ألكيبياديس.

ودعا ليساندر في أثناء ذلك إلى أفسس عدداً من شخصيات مختلف المدن البارزة

ممن توسّم فيهم روح الجرأة والكبرياء. وبدأ يضع أُسس نظام حكم جديد فيها يرتكز على مجالس دولة يتكون واحدها من عشرة أشخاص، وزرع فيها بذور تلك الثورات التي انفجرت فيما بعد. وحث أولئك الأشخاص وحمّسهم على الاتحاد في نوادٍ وأحزاب والانصراف إلى الشؤون العامة. فعمّا قريب ستنكسر شوكة الأثينيين، وسيقضى على نظام الحكم الجمهوري وبذلك سيتسلمون مقاليد الحكم في بلادهم المختلفة. وأثبت لهم بالبرهان أقواله هذه بتقليد أصحابه وخلاّنه المناصب الرفيعة والوظائف الحسّاسة وخلع ضروب التكريم عليهم. وشارك في ظلمهم وشرورهم إرضاءً لأطماعهم حتى أحاطوا به وأصبحوا بِطانةً تتزلّف إليه وتحرص على وجوده مؤمّلين من بقائه في دست الحكم تحقيق أعظم رغباتهم وغاياتهم. ولذلك ضاقوا ذرعاً من البداية بقاليقراتيداس Callicratidas عندما عُيّن خلفاً لليساندر في قيادة الأسطول وكرهوه في النهاية عندما جرّبوا نُبله وعدالته. ولم يكونوا مسرورين قط من أسلوبه في الحكم واستقامة أخلاقه وأمانته وطبعه «الدوري»[1] المثالي. والحق يقال إنهم أُعجبوا بمزاياه، مثلما يعجبون بجمال رسم بطلٍ من الأبطال فحسب. أما رغباتهم فكانت كلّها تحوّم حول ليساندر ودعمه لمصالح أصدقائه وأنصاره وترويجه كل ما فيه منفعتهم. ولذلك ذرفوا الدمع حزناً عندما رحل عنهم. وزاد في اضطغانهم لخلفه أنه أرجع إلى سارديس بقيّة الأموال التي صُرفت له لدفع مرتّبات بحّارة الأسطول، وأوعز لأصحابه بأن يراجعوا القائد الجديد بهذا الخصوص ويحرجوه بطلب مالٍ لا يملك منه شيئاً. وأخيراً قال له قبل إبحاره إنه يسلّم إليه الأسطول بعد أن صار سيّداً مطّلعاً على البحر. فبادر قاليقراتيداس وقصدُه أن يفنّد أكذوبته هذه ويميط اللثام عن ادّعائه الفارغ:

- إن كان الأمر كما تقول فاخرج بالأسطول من سارديس متياسراً واتجه نحو ميليطس وقُم بتسليم قيادة الأسطول لي هناك. إذ ليس ما نخشى منه بإبحارنا عن طريق ساموس حيث أعداؤنا ما دمنا سادة البحر.

فردّ ليساندر قائلاً إنه لم يعد قائداً للأسطول وإنما هو ليساندر فقط. ثم أبحر إلى البلوبونيس مخلّفاً قاليقراتيداس في ورطة ليس أعظم منها. لأنه كان خالي الوفاض ليس عنده ما يدفع نفقات الأسطول كما أنه لم يشأ أن يجبي ضريبة من المدن، أو يرغمها

---

(١) هي بالأصل نسبة لأهل «دوريس» Doris. ودرويس إقليم من أقاليم اليونان القديمة. (أما الإقليمان الآخران فهما إيوليا وإيونيا). ومنه جاء «المقام الدّوري» Dorian في الموسيقى اليونانية القديمة.

على الدفع. فأصبح في عسرٍ شديد. ولم يجد وسيلة أفضل من أن يطرق أبواب قادة الملك مستعطياً كما فعل سلفه ليساندر لكنّ نفسه الرفيعة جعلته أبعد الناس جدارة بهذا العمل. فهو من أولئك الذين كانوا يرون من الأفضل للإغريق أن يؤذوا بعضهم بعضاً ولا يتصاغرون أو يتزلّفون أو يقفون بذلّة على أبواب البرابرة الذين لا نُكران في أنهم يملكون مالاً كثيراً، ولا يملكون شيئاً آخر غيره يستحق الذكر. إلاّ أن الحاجة أرغمته فرحل إلى ليديا وقصد منزل كورش مباشرة. وأرسل من يعلمه أن قاليقراتيداس أمير البحر قد حضر لمحادثته فأجابه أحد المكلّفين بحراسة الأبواب:

- إن كورش أيها الغريب مشغول لأنه يشرب.

فقال قاليقراتيداس بسذاجة:

- حسن جداً، سأنتظر هنا إذن حتى ينتهي من شرابه.

وهذا ما حملهم على الاعتقاد بأنه نوع من المهرّجين أو المضحكين فلم يأبهوا به وانسحب هو يشيّعه ضحك البرابرة. ولكنه شعر بإهانةٍ لكبريائه عندما جاء ثانيةً ولم يُفسح له. فانطلق عائداً إلى أفسس وأخذ يدعو بالويل والثبور على بني قومه الذين سمحوا لهؤلاء البرابرة بإهانتهم وعلّموهم الوقاحة والغطرسة بسبب ثرواتهم. وقطع على نفسه عهداً أمام من كان حاضراً بأنه سيعمل حال عودته إلى سپارطا على بذلِ أقصى جهوده لإصلاح ذات البين بين الإغريق ليكونوا أعزّ جانباً وأقوى من البرابرة، ولكي لا يمدّوا يد الصدقة إليهم أو يطلبوا مساعدتهم بعضهم على بعض. إلاّ أن قاليقراتيداس هذا الذي حاول إنجاز عملٍ جليل جدير باللقيديموني حقاً، وكان في جرأته عليه واستقامته وسموّ فكرته أهلاً لمضاهاته بأعظم عظماء اليونان وأفاضلهم، ما عتَم أن قضى نحبه عقب إصابته بهزيمة بحرية في أرغينوسي Arginusae.

وراحت الأوضاع تنتقل من سيّئ إلى أسوأ، وبعثت دول الحلف العسكري بسفارة إلى سپارطا تطلب منها ليساندر ليتولّى قيادة الأسطول العامة. وزعموا أن هذا التعيين سيشدّ من أزرهم ويقوّي من عزماتهم وأيّد كورش هذا الاقتراح أيضاً. إلاّ أن القانون السپارطي لم يكن يسمح بتعيين الشخص نفسه سيّداً للبحر أكثر من مرة واحدة ولكنهم كانوا يريدون أن يحققوا رغبة حلفائهم. ولذلك منحوا اللقب لشخص يدعى أراكوس Aracus وأرفقوا به ليساندر بوظيفة نائب له اسمياً على أن تكون له جميع السلطات الفعلية. وهكذا عاد بعد طول انتظار وشوقٍ من معظم زعماء المدن وسراتها لأنهم كانوا يعتمدون على وجوده للقضاء على الحكومات الجمهورية في كل مكان حتى يزداد نفوذهم ويتعاظم.

على أن من أحبّ الاستقامة والنزاهة والنبل في قائده، وجد ليساندر إذا قورن بقالقراتيداس شخصاً مخادعاً مراوغاً ماكراً وسيلته في الحرب الغدر والحيلة. يُشيد بما هو عدلٌ إن كان في العدل منفعة له، فإن لم يكن تحوّل عنه إلى ما يصلح له وإن لم يكن حسناً. وهو أصلاً لا يرى فضلاً للحقيقة على الزيف وقيمتهما واحدة عنده نسبةً إلى مصلحته. ويستخفّ بأولئك الذين يرون أن أحفاد هرقل ينبغي لهم أن يترفّعوا عن الخدعة في الحرب، وآيته في ذلك «إن لم يكن جِلد الأسد كافياً فارقَعْه بجلد ثعلب». وكان هذا هو الأسلوب الذي أُثر عنه في معالجته مسألة ميليتوس عندما آثر أصحابه وأنصاره - الذين وعدهم بالتعاون معهم للقضاء على الحكومات الجمهورية وطرد خصومهم السياسيين - أن يغيّروا رأيهم ويصالحوا أعداءهم، فتظاهر بسروره من عملهم، والرّغبة في المزيد من الصفاء والوئام. إلاّ أنه انتقدهم وأنّبهم في السرّ وحرّضهم واستفزّهم على الشعب. وعندما تبيّن بوادر محاولة جديدة للثورة عجّل بالدخول إلى المدينة وأخذ يعنّف أول من التقى به من المتآمرين ويكلّمه بخشونة مهدّداً الجميع بالعِقاب على ملأ من الناس، ولكنه أخذ يشجّع الآخرين على تمرّدهم وأوصاهم ألاّ يخشوا شيئاً لأنه في جانبهم. وكان هدفه من كل هذا التمثيل والمراوغة والتستر إشاعة الاطمئنان في قلوب زعماء حزب طبقة العامّة فيطرحوا جانب الحذر ولا يهربون من المدينة ليفتك بهم. وهو ما حصل فعلاً فقد قتل كل من صدّق أقواله.

وثمّ قولٌ يُعزى إلى أندروقليدس يتهم فيه ليساندر بأنه لا يحترم قط أيّ عهد يقطعه، ولا يحافظ على أيّ قسم يحلفه. وأورد عن لسانه وصيّة وهي «الصِّبْيَة غشّهم بالنرد، والرجال اخدعهم باليمين» وهو ما يشبه أخلاق پوليقراطس السّاموسي. على أنه ليس مما يشرّف قائداً يخضع لحكم الشريعة أن يحتذي حذو طاغيةٍ مستبدّ ويتخذه مثلاً. وليس يليق أخلاقياً بالتقاليد اللاقونية أن تُعامل الآلهة معاملة الأعداء بل أسوأ. فمن يستظهر على خصمه بحلف يمين يكن مقرّاً ضمناً بخوفه منه ولا يحترم آلهته.

بعث كورش يستقدم إليه ليساندر في ساردیس فخفّ لمقابلته فأعطاه مقداراً من المال ووعده بالأكثر، وتعهّد له بنزق الشباب وتسرّعه أن يمدّه بكلّ ما يحتاج إليه إن امتنع أبوه الملك عن سدّ حاجاته، وإن اقتضى ذلك منه النزول عن كل ثروته وأملاكه، وأقسم أنه سيصهر عرش حكمه المصنوع من الفضة والذهب لأجله. ولما رحل إلى موطنه بلاد مادي لمواجهة أبيه أمر أن تُدفع لليساندر أتاوات المدن وأوكله على تصريف شؤون الحكم في غيابه وأوصاه قبيل سفره بألاّ يدخل معركة بحرية قبل مجيئه، لأنه سيأتيه بسفن كثيرة من فنيقيا وكيليكيا.

كان عدد السفن التي وضِعت بإمرة ليساندر قليلاً جداً لا يسمح له بالمغامرة في قتال، كما لا يسمح له بالسكون وعدم الحركة، فانطلق بها مستولياً على بعض الجزر، ومجتاحاً إيجينا وسلاميس. وبعدها نزل برّ أتيكا وسلّم على أغيس الذي قدِم من ديقيليا Decelea لمقابلته. وهناك قام باستعراض بحري لقواته أمام قوات البرّ، يريد أن يوحي لهم بقدرته على الانطلاق إلى حيث يشاء لكونه سيّد البحر المطلق. إلاّ أنه هرب بطريق آخر عندما شعر بأن الأثينيين يتعقّبونه فعبر الجزيرة إلى آسيا. ولما وجد الهللسپونت من غير دفاع، هاجم بسفنه لامپاسكوس من جهة البحر، وتعرّض ثوراكس Thorox بقوّاته البرّية لأسوارها. وما لبثا أن فتحاها عنوة، وأطلقا جنودهما فيها ينهبونها ويستحلوّن حرماتها. وكان الأسطول الأثيني في تلك الأثناء قد وصل إپليوس إلى الخرسونيز بسفنه المائة والثمانين. فبلغتهم أنباء دكّ مدينة لامپاسكوس فأسرعوا إلى سيستوس حيث تزوّدوا بالمؤن والأرزاق ثم اتجهوا إلى أيكوس بوتابي Aegos Potami وانقضّوا على أعدائهم الذين كانوا قد ألقوا مراسيهم حول لامپاسكوس. وكان فيلوقليس Philocles من القوّاد الأثينيين وقتذاك فاقترح إصدار مرسوم يقضي بقطع الإبهام الأيسر من أيدي كل الأسرى الذين يقعون في أيديهم حتى لا يعودوا قادرين على مسك الرمح، في حين لا تعجزهم عن التجذيف.

وأراح الطرفان قواتهما استعداداً لمعركة صباح اليوم التالي إلاّ أن تفكير ليساندر كان منصرفاً إلى شيء آخر غير المعركة. فأمر البحارة والملاحين أن يصعدوا ظهر سفنهم في أول الفجر كأنهم يتأهّبون لخوض معركة النهار، وأن يتخذوا مجالسهم هناك بكلّ انتظام أو يتحاشوا أي ضجّة خلا الأوامر. وأوعز للجيش البريّ أن يتخذ عين موقفه وكان قريباً من الساحل. ثم بزغت شمس اليوم التالي فدبّت الحركة في سفن الأثينيين كافةً وتقدّمت من سفن ليساندر في صفّ المعركة وأخذت تتحرّش به فلم يتحرّك ولم يخرج لقتالهم رغم أنه أتمّ حشد كلّ قواته قبيل الفجر. على أنه أرسل عدداً من الزوارق الصغيرة إلى القطع الأمامية من أسطوله يأمرها بالسكون ويحذّرها من الإخلال بنظامها أو قبول المعركة. فلم يسع الأثينيين إلاّ أن يعودوا أدراجهم بحلول الليل. وأبقى ليساندر البحارة في السفن حتى آبت سفينتان أو ثلاث كان قد أرسلها للاستطلاع وأبلغته بنبأ انسحاب الأسطول الأثيني. وفي اليوم التالي كرّر العمل نفسه. ومضى اليومان الثالث والرابع على هذا المنوال. فارتفعت معنويات الأثينيين وبلغت ثقتهم بأنفسهم غايتها وزادوا استهانة بأعدائهم وتوهّموا فيهم الخوف وخور العزم. وفي تلك الأثناء قدِم إلى الجيش الأثيني ألكيبياديس على ظهر جوادٍ من حُصنه في

الخرسونيز وراح ينتقد القادة في أمورٍ كثيرة، منها عسكرتهم في الساحل المكشوف بصورة سيئة تُعرّضهم للخطر. وعاب عليهم اختيار مواقع رسو سفنهم وذكّرهم بأنها سترغمهم على الرجوع إلى سيستوس في كل ما يحتاج إليه الأسطول والمسافة بينها وبينهم بعيدة. فلو تقرّبوا قليلاً من مدينة سيستوس وميناثها لكانوا أكثر أمناً من غائلة العدوّ الذي جثم في مواضعه يتابع كل حركة يأتونها تحت قيادة جنرال واحدٍ، يطيع مرؤوسوه كل أمر يصدره إطاعة حرفية آنيّة بدافع الخوف منه. إلاّ أن الأثينيين لم يأبهوا بنصحه وردّ تيديوس Tydeus عليه باحتقار قائلاً إنه الآن «ليس قائداً وهناك آخرون مسؤولون»، فرحل عنهم وكلّه شكّ في خيانتهم.

في اليوم الخامس خرجت سفن الأثينيين إلى عدوّها ثم أقفلت راجعة كعادتها، وقد طغى على أصحابها شعور بالكبرياء، والاحتقار للعدوّ. وبعث ليساندر ببعض السفن للاستكشاف وأمر قباطنتها أن يعودوا بأقصى السرعة حالما يشاهدون الأثينيين ينزلون من السفن إلى اليابسة. وأمرهم أن يرفعوا في مقدمة سفنهم تروساً نحاسية بعد أن يقطعوا نصف المسافة في طريق العودة، ليكون ذلك إشارة الحركة وبدء القتال؛ ثم تجوّل بين سفن أسطوله لتشجيع الربابنة والملاحين. والتشديد عليهم بإبقاء رجالهم كلّ في موضعه جنوداً وبحارة على حدّ سواء، حتى إذا لمحوا إشارة الحركة سارعوا بالتجذيف بكلّ قوتهم وانقضّوا على أعدائهم.

وهكذا تمّ الأمر وفق ما رسم. فما إن رُفعت التروس في مقدّمات السفن ونُفخ نفير الهجوم من سفينة القيادة حتى دبّت الحركة في الأسطول وتقدم الجيش البريّ على طول الساحل مستهدفاً بلوغ المرتفع. كانت المسافة بين القارّتين خمسة عشر فرلنغا قطعها ليساندر بأقصر وقت بفضل مثابرة الجذافين وحماستهم. وكان القائد الأثيني كونون Conon أوّل من فطن إلى أسطول العدو وهو يقترب فصاح يأمر بالعودة إلى السفن. وراح يتوسّل إلى بعض ويرجو آخرين، ويرغم سواهم بركوب السفن، وهو في أشدّ حالات الغمّ والقهر. وذهبت جهوده أدراج الرياح لأن الرجال كانوا قد تفرّقوا على أثر نزولهم البرّ ففريق ذهب إلى السوق وفريق راح يتجوّل في الريف، وفريق آوى إلى خيامه ورقد أو انهمك في تهيئة العشاء. فقد تركتهم غباوة قوّادهم وهم أبعد الناس عن توقّع هجومٍ كهذا. وانقضّ العدوّ عليهم بضجة وصياح. وتمكن كونون من الإفلات بثماني سفنٍ فقط اتجه بها إلى قبرص ومنها أبحر إلى إيڤاغوراس Evagoras. وهجم البلوپونيسيون على البقية وليس فيها بحّارٌ واحدٌ وحطموا بعضها أثناء ما كان رجالها يحاولون الصعود إليها وهم يتقاطرون من كل الجهات فرادى عُزّلاً ليلاقوا حتفهم في

سفنهم أو يفرّوا إلى اليابسة فيقضى عليهم هناك لأن المنتصرين نزلوا من سفنهم وشرعوا يتعقبون فلولهم.

ووقع في يد ليساندر ثلاثة آلاف أسير مع قادتهم. وغنم كل سفن الأسطول خلا السفينة المقدّسة المسمّاة پارالوس Paralus وما هرب به كونون. وقادوا السفن الأسيرة خلفهم ونهبوا معسكرهم ثم أبحروا عائدين إلى لامپاسكوس وهم ينشدون أناشيد الظفر وينفخون في السرنايات، ولا غرو فقد حقق قائدهم عملاً عظيماً بمجهود قليل، وأنهى في ساعة واحدة حرباً طويلة مضنية، تقلّبت حظوط المحاربين فيها تقلّباً عجيباً يفوق العقل، وكثرت أحداثها ومفاجآتها فغلبت كل ما سبقها. وها هي ذي خاتمتها يمليها حُسن تدبير وسرعة بديهة رجل واحدٍ فيضع أوزاراً لها تسبّبت في دمار عدد من القادة يفوق كل ما دمّرته حروب اليونان السالفة مجتمعةً. ولذلك مال بعضهم إلى أن يعزو نتيجتها هذه إلى التدخّل الإلهي. وهناك من يؤكد أن الكوكبين كاستور وپوللوكس شوهدا يحفّان بجانبي سفينة ليساندر أوّل خروجه من الميناء إلى عدوّه، تلتمعان ساطعتين عند الصاري.

أو زعم بعضهم أن الحجر الذي سقط كان نذيراً بهذه المذبحة. فقد ساد الاعتقاد أن حجراً عظيماً سقط فعلاً من السماء وأنه ما زال موجوداً في إيكوس بوتامي في موضع سقوطه إلى يومنا هذا. والخرسونيون ينزلونه منزلة تقديس وإجلال. وقيل إن كساغوراس تكهن بأن أي انهيار أو هزة بين الأجرام السماوية الثابتة قد يؤدي إلى زحزحة أي واحدٍ منها عن موضعه وتتبعه حتى سقوط الاجرام كلها. إذ ليس هناك كوكب واحد وهو باق في موضعه الأول لأنها على حَدّ زعمه ثقيلة كالحجارة وسطوعها متأتٍّ من انكسار الهواء الأعلى الذي يحيط بها فوق سطحها وتظّل ثابتة في موضعها مرغمةً، بسبب شدة الحركة المحورية التي منعتها من السقوط عند انفصال الأجرام الثقيلة الباردة عن الكون في مبدأه. على أن لبعضهم رأيا أقرب من هذا الرأي احتمالاً. يقول هؤلاء إن الشهب ليست إلاّ نفثات، أو ألسنة من النار الأثيري، ما إن يلامسها الهواء الأسفل (الأرضي) حتى تخمد. ولا يمكن أن تكون تفجيراً أو ثوراناً مفاجئاً لكمية من الهواء الأسفل عندما ينطلق إلى طبقات الجوّ العليا باندفاع هائل. على أن الأجرام السماوية الساقطة تتخذ بتباطؤ قوة حركة دورانها مساراً غير منتظم لا يتجه بها عادةً إلى الجزء المسكون من الأرض وإنما يسلك بها سبيل البحر المحيط على الأغلب وهذا هو السبب في أننا لا نشاهدها.

ولا يختلف الرأي الذي أثبته دياماخوس Diamiachus في رسالته «في الدين» عن

رأي أناكساغوراس فهو يقول: «قبل أن يسقط هذا الحجر ظلّ الناس طوال خمسة وسبعين يوماً متعاقبة يشاهدون جسماً نارياً كبيراً في السماء أشبه بسحابة ملتهبة دائمة الحركة لا تستقر على حال. ولوحظ أن تحويمها كان معقّداً وخطّ سيرها متكسّراً حتى أن الأجزاء الملتهبة التي كانت تنفصل عنها بفعل حركتها السريعة وثورانها تتفرّق في جميع الاتجاهات مثل الشُّهب التي تخرّ. وعندما هبطت إلى الأرض فوق المنطقة التي أسلفنا ذكرها وزال الرعب والعجب من الأهالي وذهبوا إلى موضع سقوطها جمّاً غفيراً لم يشاهدوا ناراً، ولا أثراً للنار. وإنما رأوا حجراً كبيراً فحسب لا يكون شيئاً مذكوراً إذا قيس بحجم ذلك الجسم الناري إن صحّ هذا التعبير. وواضح أن دياماخوس يفتقر إلى سامعين مقتنعين بتعاليله. أما إذا كان مصيباً الحقيقة فيما يزعم فهو يُخطِّئ كل قائل بأن تلك الصخرة انفصلت عن قرن جبل من الجبال بفعل الرياح والعواصف فحُملت عنه وراحت تدور على نفسها في الفضاء كالدوّامة. وما إن اعترى القوى المحرّكة لها بعض البطء أو توقفت حتى انتكست وسقطت على الأرض. هذا إن لم نشأ اعتبار الظاهرة السماوية المتواصلة طوال الأيام الخمسة والسبعين ناراً حقيقية، تلاشت وانطفأت فتغيّر الجوّ بفعل ذلك تغيّراً مصحوباً بريح زعزع ورجّات أرضية رفعت ذلكم الحجر إلى الفضاء. . . وعلى أية حال فإن معالجة موضوع كهذا بشكل دقيق تتطلّب ميداناً للكتابة غير ميداننا هذا.

بعد أن قضى مندوبو الحلفاء بالموت على الآلاف الثلاثة من أسرى الاثينيين استدعى ليساندر القائد فيلوكيس وسأله أية عقوبة يقترحها لنفسه تكفيراً عن إغوائه مواطنيه للقيام ضد الإغريق؟ ولم تفقد النكبة هذا القائد كرامته وقال رداً عليه: «ليس لك أن تتهمني بأمور لا يحق لأحدٍ أن يحكم فيها. أما إنك الجانب المنتصر الآن فلك أن تصنع ما كان سيُصنع بك لو هُزمت». ثم إنه اغتسل وارتدى معطفاً جميلاً وسار إلى ساحة الموت على رأس مواطنيه المحكومين. وهذا ما ورد في تاريخ حياته.

وتنقّل ليساندر في عدد من المدن زائراً. وأمر كل الأثينيين الذين لقيهم بالعودة إلى أثينا وقال إنه لن يتغاضى عن بقاء أيّ واحد منهم خارج أثينا وإلاّ قتله. وكان يرمي من جمع الأثينيين في مدينتهم إحداث مجاعة وقحطٍ باحتشاد السكان فيها. حتى لا يتكلّف جهداً كثيراً في حصارٍ نوى أن يلقيه على المدينة. لأن نضوب المؤن والأرزاق سيرغم المدافعين على الاستسلام السريع. ثم إنه قضى على كل أنظمة الحكم الجمهورية والدساتير الأخرى، ونصّب قائداً عسكرياً لقيديمونياً في كل مدينةٍ، وعيّن عشرة من الحكام المحليين لمعاونته، كان يختارهم من أحزابه التي سبق له تشكيلها. وقام بتطبيق

هذا النظام الجديد في بلدان عديدة، وفرضه أيضاً على حلفائه. ثم استأنف تجواله البحري على رسله ناشراً بذلك سلطانه وهيبته على كل بلاد الإغريق.

لم يكن اختياره أولئك الحكام مبنيّاً على الثروة أو كرم الأصل وإنما قصره على محسوبيه ومنسوبيه. وقد عمل على إرضائهم بكلّ وسيلة، وخوّلهم سلطات مطلقة في مجالي العقاب والثواب، ولهذا كنت تراه حاضراً في عدّة مذابح ومناسبات سفك دماء بشخصه. وعاون أصحابه أيضاً في طرد وإبعاد معارضيهم فضرب للإغريق نموذجاً جدّ سيّئ لأسلوب الحكم اللقيديموني. ولقد كان وصف الشاعر الساخر ثيومپوپوس للقضية ضعيفاً تافهاً عند تشبيهه اللقيديمونيين بنساء الحان. لأن الإغريق عندما ذاقوا خمرة الحرية الحلوة في مبدأ الأمر عادوا فصبّوا في الأقداح خَلاً فوجدوه حادّاً حِرّيفاً. لقد أزال ليساندر كل الحكومات الجمهورية الشعبية. وتخيّر أشدّ أعضاء الحزب الاوليغارشي ظلماً واستهتاراً لحكم المدن.

في أثناء انشغال ليساندر بعض الوقت بتصريف هذه الأمور أرسل رسلاً إلى أثينا يخطرها بقدومه على رأس مائتي سفينة. وفي أتيكا انضمت إلى الهجوم قوّات الملكين أغيس وپاوسنياس. وكان يأمل بحشد هذه القوات الكبيرة أن يستولي على أثينا فوراً. إلاّ أن الأثينيين دافعوا عن مدينتهم دفاع المستميت فما كان منه إلاّ أن انسحب بأسطوله عائداً إلى آسيا. وهناك عمد جرياً على عادته إلى إزالة النظم الجمهورية من كل المدن ووضعها تحت سيطرة مجلس العشرة الرؤساء. وذبح كثيراً من الأهالي ونفى عدداً أكثر منهم. وفي ساموس هجّر كل المواطنين وسلّم مدنهم للمبعدين الذين أعادهم. وانتزع سيستوس من الأثينيين الذين كانوا يسيطرون عليها وقتذاك، وأخرج كل سكانها منها وقسم المدينة والأراضي بين الملاحين وربابنة السفن الذين يعملون بأمرته. ولم يرضَ اللقيديمونيون على عمله الأخير فأمروا بعودة أهل سيستوس المطرودين إلى موطنهم وكان هذا أوّل قرار يُنقض له. على أن الإغريق كافّةً اغتبطوا لاستعادة الإيجينيين مدنهم بعد زمن طويل من التشريد بفضل ليساندر كذلك سُرّوا بعودة الميليطين والسكيونيين Sciomæans إلى أوطانهم في حين لم يتمّ طرد الأثينيين من كل مكان وإرغامهم على إخلاء المدن وتسليمها.

وأبحر عائداً إلى پيريوس بعد علمه أن الأثينيين يعانون ضيقاً شديداً وقد ساءت حالهم داخل المدينة بتفشّي المجاعة. فألقى الحصار عليها وأرغمها على الاستسلام إليه وفق شروطٍ أملاها عليهم. ويروى نقلاً عن المصادر اللقيديمونية أن ليساندر كتب «للإيفور» الزعماء ما يلي: »إقتباس««لقد اغتنمتُ أثينا».

فبعث إليه «الإيغور» بالرد التالي: «كفى اغتناماً!».

إلاّ أن هذه الحكاية مخترعة أساساً، بسبب المقابلة اللفظية الظاهرة في العبارتين.
أما البيان الحقيقي الذي صدر عن الحكام «الإيغور» فإليك هو:

«يصدر حكام لقيديمون الأوامر التالية إلى الأثينيين: اهدموا ميناء پيريوس، والأسوار الطويلة. اتركوا كل المدن التي تسيطرون عليها. ورابطوا في أراضيكم. فإن فعلتم فسيكون لكم سلامٌ حيثما شئتم. وليعد منفيّوكم إلى المدينة. وأما بخصوص سفنكم فسيترك لكم ما أنتم بحاجة إليه».

ورضي الأثينيون بهذه الشروط. وأيّدها ثيرامينيس Theramenes ابن هاگنون Hagnon. وقيل إن كليومينيس أحد الخطباء الشبان سأل ثيرامينيس في حينه كيف يجرؤ على تأييد ما يخالف سياسة تميستوكلس وكيف تطاوعه نفسه على تحبيذ تسليم الأسوار إلى يد اللقيديمونيين وهو الذي بناها رغم أنفهم. فأجابه ثيرامينيس:

«ثق أيها الشاب أني لا أنقض سياسة تميستوكلس. فقد بنى الأسوار لسلامة المواطنين ونحن الآن نقوّضها لسلامتهم. وإن كانت الأسوار تضمن للمدينة أمنها وراحتها فلا شك أن سپارطا أنكد المدن حظّاً لأنها عاطلة عن الأسوار».

استولى ليساندر على كل سفن الأثينيين وترك لهم اثنتي عشرة فقط. واحتل أسوار أثينا في اليوم السادس عشر من شهر «مونيخيون» وهو الشهر الذي خلّد انتصار الأثينيين على البرابرة في موقعة سلاميس الفاصلة. وعكف بعدها مباشرة على تغيير نظام الحكم فيها. فتبرّم الأثينيون من ذلك وأخذوا يقاومون إجراءته، فأذاع بياناً إلى الأهلين جاء فيه قوله إنه المدينة أخلّت بشروط الصلح فالأسوار ما زالت قائمة وها قد مضى عدة أيام على الأجل المضروب لتقويضها. فلا يسعه والحالة هذه وبعد إخلالهم بأوّل الشروط إلا أن يعيد النظر في الصلح. ويقول بعضهم إن اقتراحاً عُرض للمناقشة أمام مجلس الحلفاء يقضي ببيع كل الأثينيين في سوق النخاسة. وفي ذلك الاجتماع أيّد إيريانثوس Erianthus الثيبيّ اقتراحاً بدكّ المدينة دكّاً وهدمها إلى آخر منزلٍ وجعلها مرعى ومسارح للغنم. إلاّ أن مواطناً من فوكيس نهض في اجتماع عقده قادة الوحدات العسكرية وأنشد المقطع الأول من ترنيمة الجوق في مسرحية يوريپيديس المسماة «إليكترا» Electra ويبتدئ بالبيت الآتي:

«إليكترا! يا بنت أغاممنون ها إني قادم إلى بيتك المهجور».

فذابت حدّة الجميع بنار العاطفة، واتضح لهم جانب القسوة في تدمير مدينة كأثينا طبقت شهرتها الآفاق وأنجبت أولئك الرجال العظام.

بعد أن نزل الأثينيون عن كل شيء، استقدم ليساندر عدداً من اللاعبات على الناي وأرسلهن خارج المدينة، وجمع في موضع واحدٍ كل من كان في المعسكر، وباشر في هدم الأسوار وإحراق السفن على أنغام النايات. وطوّق الحلفاء أعناقهم بقلائد الزهر حبوراً واستسلموا للهو والطرب. فقد كان اليوم بمثابة بداية عهد جديد لحريتهم وخلاصهم من نير الأثينيين. وبعدها باشر ليساندر في تغيير نظام الحكم فعيّن لأثينا ثلاثين حاكماً، وعيّن لپريوس عشرة حكام. ووضع حامية عسكرية في الأكروپوليس ونصّب كالليبيوس Callibius السپارطي قائداً لها. وهذا هو الذي رفع عصاه مرةً ليضرب أوتوليقوس Autolycus البطل الرياضيّ لخلاف نشأ بينهما حول هويّة الشخص الذي كتب له گزينفون رسالته «الوليمة». ولما تعمّد عِثاره بوضع قدمه أمامه فأسقطه على الأرض لم يُظهر ليساندر استياءً من عمل كالليبيوس وإنما وبّخه قائلاً إنه لا يعرف كيف يحكم أحرار الرجال. ومهما يكن فقد عمد الحكام الثلاثون إلى قتل أوتوليقوس ارضاء لكاليبيوس وتزلّفاً إليه.

بعد هذا أبحر ليساندر إلى ثراقيا وبعث إلى لقيديمون بما تبقّى من أموال الخزينة وبالهدايا والتيجان التي قُدّمت له شخصياً وكانت كثيرة لأن عدداً كبيراً من الناس كانوا يتزاحمون على التقرب منه بتقديم الهدايا له، كما هو متوقع بالنسبة إلى شخص مثله يملك سلطات غير محدودة أو بكلمة أخرى سيّد بلاد الإغريق المطلق. وأوكل أمر نقلها إلى غيليپوس Gylippus الذي كان قائداً في صقلية. وقيل إن هذا الوكيل المؤتمن أحدث فتوقاً في قيعان الجوالق واختلس من كل جوالق كمّية من الفضة جمعت له مالاً طائلاً ثم خاطها ثانية دون أن يدري بوجود قائمة في كل جولق دُوِّنت فيها تفاصيل الأموال وكمّياتها. ووصل سپارطا وأسرع يخفي ما اختلسه تحت آجُرّ سقف بيته. ثم قام بتسليم ما استؤمن عليه إلى الحكام مظهراً لهم سلامة أختامها ولمّا فتحوها وأحصوا ما فيها وجدوا نقصاً بين ما أحصوه وبين ما دوّن في القوائم. وبينما هم في حيرة شديدة انبرى خادم لفيليپوس ليحلّ لهم اللغز بهذه العبارة: «تحت الآجُرّ يختفي كثير من البومة!».

إشارة إلى أن معظم النقود المتداولة آنذاك كانت تحمل النقش الاثيني وهو رسم البومة. ولم يسع غيليپوس مرتكب هذا العمل المخزي الوضيع بعد أعماله البطولية إلا الرحيل عن لقيديمون.

بسبب هذه الحادثة خشي عقلاء السپارطيين من تأثير النقود في إفساد أشرف المواطنين. فانتقدوا عمل ليساندر وأشاروا على الإيغور بإعادة الذهب والفضة إلى مصدرهما لأنهما «عوامل فتنةٍ أجنبيّة على الوطن» فتداول الإيغور فيما بينهم. ويقول ثيومپويوس إن سكيرافيداس Sicraphidas هو الذي أشار بمنع دخول الذهب والفضة إلى المدينة والمداومة على استعمال نقود المدينة الحديدية. ويزعُم إيغوروس أن الناصح بذلك هو فلوغيداس Phlogidas لا غيره. فالسپارطيون كانوا يغمسون مسكوكاتهم الحديدية بالخل وهي محمرة من فرط التسخين حتى يتلف معدنها ولا تعود صالحة لصناعة أو حاجةٍ لأن الحديد يتصلب بالخلّ ويفقد مطاوعته. ثم إن أي مقدار كبير منها أوزاناً وحجوماً لا يتضمّن إلاّ قيمة تافهة، وربما كانت النقود المتداولة عموماً في ذلك العصر تسكّ من معدن الحديد. وتقوم المسامير النحاسية في بعض البلاد مقام النقود. ولهذا ما زلنا الآن نجد كثيراً من قطع النقد الصغيرة محافظة على الاسم القديم «أوبول»، وكل ستة أوبولات تعدل دراخما واحداً. لأن اليد تستطيع أن تمسك بستة منها دفعةً واحدة.

إلاّ أن أنصار ليساندر عارضوا في هذا الرأي وبذلوا كثيراً من الجهود لإبقاء تلك الأموال في المدينة، وأخيراً تقرر إبقاؤها بيد الدولة فقط وحرّموا تداولها على الناس. وأصدروا قانوناً يقضي بالموت على كل من وُجِد شيء منها في حيازته الخصوصية، كأنما كان خوف ليكورغوس متأتياً من المسكوكة الذهبية والفضية لا من الجشع الذي تولّده في النفوس. وهو ما لم يفكروا بقمعه والقضاء عليه عند سنّهم قانونهم. فقد حرّموا على الشخص العادي اكتناز شيء منها، بينما شجّعوا وجودها بسماحهم للدولة أن تحتفظ بها فأضفوا عليها نوعاً من القدسية والمكانة يفوقان فائدتها وقيمتها الحقيقية. ولم يكن من المعقول أيضاً أنّ ما وجدوه موضع تقديس واحترام من جانب الدولة يجب أن يُحتقر ويعتبر عديم الفائدة عند الأشخاص، وأن يُجبر المواطن على ألاّ يرى في هذا الشيء أيّ وجه من أوجه الانتفاع الشخصي له بينما وجب عليه أن يقرّ بعِظَم قيمته ومنفعته للدولة. والعادات الخلقية التي تسود المجتمع بالممارسة يكون طريقها إلى حياة المرء الخصوصية أسرع - من طريق إخفاقات الأفراد وأخطائهم - إلى التفشّي في المدينة على أوسع نطاق. وقد تفسد الأجزاء بفساد الكل، في حين أن الرذائل التي تنبثق من الجزء وتنفذ إلى الكلّ قد تجد كثيراً من العلاجات وعوامل الإصلاح لإبقاء الكلّ سليماً. إن الإرهاب وصرامة القانون سُلّطا لمراقبة بيوت المواطنين ومنع دخول النقد الذهبي والفضّي إليها. ولكن لم يعد ثم قوة تستطيع أن تزهّد الناس فيه وتكبح

رغبتهم في اكتنازه بعد أن أنزلته الحكومة تلك المنزلة الرفيعة، واعتبرته مما يستأهل بذل الجهود للحصول عليه. وكنا قد بيّنا انتقاداتنا لموقف اللقيديمونيين من هذه المشكلة في كتابة سالفة لنا فلتراجع.

عمل ليساندر من غنائم الحرب عدّة تماثيل من النحاس في دلفي له ولكلّ قبطان من قباطنة أسطوله. وصاغ نجمتين ذهبيّتين تمثلان كوكبي كاستور وپوللوكس اللذين غابا في ليوكترا قبيل المعركة. وفي غرفة كنز براسيداس، [الأقانثيين] يوجد نموذج لـ«تريريمه»[٢] صِيغ من الذهب والعاج يبلغ طوله كيوتين [حوالي ٤٠ إنجاً]، كان كورش قد أرسله إلى ليساندر بمناسبة انتصاره. ولكن ألكساندريدس الدلفي ينوّه في تاريخه بوجود وديعة هناك لليساندر مقدارها تالنتٌ واحدٌ من الفضة واثنان وخمسون مينا وأحد عشر ستاتر[٣] وهذه رواية لا تتفق مع عموم الأخبار المتواترة عن فقر ليساندر. لقد كان يتمتع بسلطان وحَوْلٍ لم يتمتّع بهما إغريقي آخر قبله، ولكن كبرياءه واستعلاءه زادا كثيراً عما يناسب ذلك السلطان. قال عنه دوريس Duris في تاريخه إنه الأول من الإغريق الذي أقامت له المدن الهياكل كما تقيم للآلهة وقدّمت له القرابين كما تقدّم للأرباب وكان أول من صدحت الأصوات بأناشيد نصره. ودونك مطلع واحد من تلك الأغاني وجدناه في الكتب:

«هوذا الجنرال الإغريقي العظيم، من سپارطا المفخّمة. إننا لنستقبله بأغاني النصر...».

وقرر الساموسيون أن يطلقوا اسم «ليساندريا» على المراسم الدينية الخاصة بالإلهة جونو. ومن الشعراء الذين اختصوا به خوريلوس Choerilus الذي كان يرافقه دائماً ويشيد بمآثره في أشعاره. ولازمه أيضاً أنطيوخوس الذي نظم عدداً من القصائد في مدحه. وقد هزّته الأريحيّة يوماً فملأ لكلٍّ قبّعته فضةً. ودخل كُلّ من أنطيماخوس Antimachus الكولوفوني Colophon ونيقراطوس Nicratus الهيراكلي في مساجلة شعرية موضوعها تعداد مآثر ليساندر ووقائعه، فمنح الثاني منهما قلادة فاستاء أنطيماخوس وأتلف كل ما قال فيه من الشعر. وكان أفلاطون إذ ذاك فتى غضّ الإهاب معجباً بشعره. فأخذ يهوّن عليه الفشل قائلاً: «إن الجهلة هم الذين يقاسون من الجهل

---

(٢) «Trireme < » وهي بارجة إغريقية قديمة فيها ثلاث مصاطب للتجذيف [م.ت].

(٣) عملة يونانية قديمة اختلفت قيمتها باختلاف العصور. واشتهر بصورة خاصة الستاتر الذهبي Stater وقيمته عشرون دراخما [م.ت].

في الواقع كالأعمى الذي يعاني من فقدانه حاسّة البصر». ثم إن أرسطونس الموسيقار - الذي فاز ببطولة الموسيقي في الألعاب البيثية ستّ مرّات متوالية - التقى بأنطيماخوس مرّة فقال له على سبيل التزلّف والرياء:

- لو أني فزت مرة أخرى لأعلنت نفسي باسم ليساندر...

فأسرع أنطيماخوس يقول:

- تقصد: عبداً له؟

كان طموح ليساندر المفرط بحد ذاته عبئاً يرزح تحته أقرانه وكبار القوم. فلما كثر الناس الذين يتسابقون إلى خدمته ويتلهفّون إلى تلبية كل طلب له أو أمر يصدر منه، استعلى واستكبر حتى خرق كل الحدود وتطرّف في استخفافه بالبشر ولم يعد يراعي الاعتدال الجدير بالبشر السويّ في عقابه وثوابه. فتراه يمنح أنصاره وصحبه سلطاناً مطلقاً على مقدّرات المدن، لا يرقى إليه حساب وتحفّ به العِصمة، وترى سبيله الوحيد لانفثاء غضبه من عدوّه القضاء عليه وتدميره. والنفي والإبعاد لايكفيه منه.

ولنذكر على سبيل المثال المصير الذي دبره لزعماء الشعب البليسيين بعد زمنٍ عندما أدركه الخوف من قرارهم، ولرغبته في الكشف عن المختبئين منهم، فأقسم أنه لن يُلحق بهم أيّ أذىً فصدّقوه وخرجوا من مكامنهم. فقبض عليهم وأرسلهم إلى الحكام الأوليغارشين ليقتلوهم كافّة وكان عددهم ثمانمائة. أما المقتلة التي أوقعها بأعضاء الحزب الجمهوري في سائر المدن فقد فاقت كل تصوّر وحساب. ولم تكن عقوبة الموت قاصرة على من يرتكب ضده جريمة. بل عمّمها على أنصاره وأصبحت بمثابة امتياز يمنحه لمحسوبيه ومنسوبيه بكل سخاء. ولم يكن يتعفّف عن المشاركة في تنفيذ أحكام الموت إرضاء لأطماع أصدقائه الكثيرين الملتفّين حوله وإشباعاً لأحقادهم وروح الانتقام فيهم. ومن هنا اشتهر قول إيتيوكليس Eteocles اللقيديموني: «ما استطاع الإغريق أن ينجبوا ليساندرين!». ويزعم ثيوفراستوس أن أرخسطراطوس Archestratus قال العبارة نفسها بحق ألكيبياديس. على أن أكبر الأذى الذي لحق بالناس منه جاء من استهتاره بالقيم وافتقاره إلى ضبط النفس. فكانت سلطته توحي بالخوف والكره النابعين من قسوة طبعه. ولم يكن اللقيديمونيون يشغلون بالهم بالتحقيق في الشكاوى التي تُرفع عنه حتى وردتهم شكوى فارنابازوس. فقد بعث بوفد إلى سپارطا ليبلغوا عن ليساندر ما أحدثه في بلاده من أضرار وفساد عندما اجتاحها بقواته. وعندها استشاط الإيغور غضباً واستقبحوا ما فعل. ولما قبضوا على أحد ضباطه الكبار المدعو ثوراكس متلبّساً بجريمة حيازة مقدار من النقود الفضية أوقعوا فيه

عقوبة الموت فوراً. ثم إنهم بعثوا إليه «بالرقّ» يأمرونه بالعودة إلى البلاد. ويتم إعداد الرق على النحو الآتي: عندما يرسل الإيغور أمير بحرٍ أو جنرالاً في حربٍ فإنهم يزوّدونه بقطعةٍ خشبية أسطوانية ويحتفظون هم بمثيلتها طولاً وسمكاً ومظهراً؛ ويطلقون عليها سكيتال Scytale. فإذا أرادوا إرسال رسالة سرّية أو هامة إليه جاؤوا بشريط طويل ورفيع من الرّق [الپارشمنت] يشبه السير الجلدي فيلفونه على قطعتهم الخشبية لفاً محكماً بحيث يغطون سطحها تماماً ولا يخلّفون أي فراغ. ويقومون أثناء اللّف بكتابة ما يريدون على الرقّ سطراً بعد سطر. وبعد الفراغ من ذلك يستلّون القضيب الأسطواني ويرسلون الرّق. ولا يتمكن المرسل إليه من قراءته بحالته تلك لأن الأحرف والكلمات تبدو متفرقة متباعدة. فيأخذ قضيبه ويلفّ الشريط المرسل إليه فتعود أجزاء الكتابة متلاحمة منتظمة كما كانت على القضيب الأول ويتصل أول الكلام بما يتلوه ويسهل على النظر تتبّع المدوّن سطراً سطراً بإدارة الأسطوانة.

استبدّ القلق بليساندر عند ورود «الرقّ»، وكان في الهللسپونت. وعمد فوراً إلى مقابلة فارنابازوس لإزالة الخلاف بينهما. لأن شكوى هذا القائد كانت أخشى ما يخشاه. وفي اجتماعهما طلب منه أن يوجّه رسالة أخرى إلى الإيغور ينفي فيها إصابته بأضرارٍ أو إساءة وينزل عن كل شكوى. وقد جهل أن فارنابازوس هو ممن ينطبق عليهم المثل السائر «استعمل الكريتي ضد الكريتي» فقد تظاهر له بأنه سيفعل كل ما يريده منه. وكتب رسالة أملاها ليساندر عليه إلاّ أنه أخفى رسالة أخرى كتبها سِرّاً تشبه في مظهرها الرسالة الأولى. وعند وضع الأختام أبدلها وأعطاها لليساندر فحملها معه إلى لقيديمون. وذهب لمقابلة مجلس الإيغور كما تقضي يه التقاليد ودفع إليهم برسالة فارنابازوس التي كان يعتمد عليها في سحب أكبر تهمة تعرّض لها، ذلك أن فارنابازوس كان موضع تقدير اللقيديمونيين لتفانيه وتشيّعه لهم في الحرب، تشيّعاً فاق به كل قوّاد ملك الفرس. فقرأ الحكام الرسالة وناولوها لليساندر فما إن ادرك «أن ثم أذكياء آخرين خلافاً ليوليسوس وأنه ليس العاقل الوحيد في هذه الدنيا. . .» حتى انصرف وقد علاه اضطراب شديد. وبعد بضعة أيام زار الإيغور وأبلغهم أنه كان قد نذر في أثناء الحرب بعض القرابين للربّ آمون Ammon ولذلك يتعيّن عليه أن يرحل إلى معبده ليفي بنذره. ويقول بعضهم إن ليساندر يكذب في زعمه هذا. فقد ظهر له آمون وهو نائم واستوى واقفاً بالقرب منه عندما كان يقود الحصار ضدّ مدينة أفيتي Aphytae في ثراقيا. فما كان منه إلاّ أن رفع الحصار عنها متوهّماً أن ذلك الربّ غير راضٍ عن حصاره، وبعدها نبّه أهل المدينة بأن يضحّوا لآموّن. وقرّر القيام برحلة إلى ليبيا

ليسترضي الإله ويهدئ من سورة غضبه عليه. على أن معظم الكتّاب يرون أن حكاية النذر لم تكنّ إلاّ تعِلّة للرحيل لأنه كان يخشى اتخاذ الإيغور إجراءات ضده، كما أنه ضاق ذرعاً بالنير الذي يطوّق رقبته في بلاده، وكره العيش تحت سلطة أقوى من سلطته. فصبا إلى السفر والتجوال مثله في ذلك كمثل جوادٍ اقتيد من المراعي المترامية إلى الإسطبل وأُعيد إلى عملة اليومي. يقول إيغورروس إن هذا هو سبب جولته التي سأروى تفاصيلها فيما يلي:

نال موافقة الحكام على السفر بعد لأيٍ. فأسرع بالإبحار. وعلى أثر ذلك اجتمع ملكا لقيديمون واستعرضا الموقف السياسيّ فوجدا أن إبقاء المدن تحت سيطرة بطانة ليساندر ستبقيه سيّد بلاد الإغريق الأعلى وملكها المطلق. فاتخذا تدابير لإعادة السلطة إلى الجمهور وطرد عملاء ليساندر من الحكم فعادت الاضطرابات والقلاقل مجدداً. واستبق الأثينيون إلى الثورة فانقضّوا من فيله Phyle على «مجلس الثلاثين» وأطاحوا به. فأسرع ليساندر إلى بلاده، وأقنع مواطنيه بمساندة حكم الأوليغارشية والقضاء على الحكم الجمهوري. وتم إرسال إعانة مالية للحكام الثلاثين الأثينيين تبلغ مائة تالنت لإنفاقها على الحرب. وخفّ ليساندر إلى معونتهم عسكرياً بحكم منصبه.

وهذا كله لم يَرُقْ في عين الملكين. وخشيا أن يستولي ليساندر على أثينا مرة أخرى. فسارع پاوسانياس بموافقة زميله إلى المدينة ليقبض على زمام الأمور. وهناك تظاهر بتأييده حكم الأقلّية ضد الشعب. وأخذ يعمل سِرّاً لأجل السلام وتهدئة الوضع ليحول دون استعادة ليساندر سيطرته على المدينة بمعونة بطانته. فلم تقف في وجهة أية عقبات ونجح في إصلاح ذات البين بين الأثينيين المختلفين وهدّأ من الثورة وأزال الشغب وبذلك حقق الانتصار على طموح ليساندر المتهالك. على أنه واجه لوماً شديداً بعد زمن قصير لاندلاع ألسنة الثورة في أثينا من جديد. فقد نزع اللجام من فم الشعب بعد تحرّره من الأوليغارشية المستبدّة فانتفض انتفاضة عنيفة وأخذ يأتي بأعمال فيها الكثير من الوقاحة والصلافة والاعتداء. وبذلك استعاد ليساندر سُمعته، سُمعة الرجل الذي يستخدم قيادته لا لإرضاء الآخرين ولا لأجل الهتاف له والثناء عليه بل لمصلحة سپارطا وحدها.

امتاز ليساندر بالشدة في الكلام والجرأة أمام معارضيه. فمثلاً لما راح الأرغيوسيون يجادلون في أمر تعيين حدود بلادهم متوهّمين أن حُججهم ودلائلهم مدعّمة بالعدل أكثر من ادّعاءات اللقيديميين، استلّ ليساندر سيفه وقال:

- صاحب أقوى حجّة في قضية الحدود هو من كان سيداً لهذا.

ومرة تمادى أحد الميغاريين في التطاول والتحرر من قيود الكلام أثناء انعقاد مؤتمر من المؤتمرات فقال له ليساندر:

- لهجتك هذه يا صاح يجب أن يكون مصدرها مدينة!

وخيّر البويوسيين الذين كانوا يقومون بدور مزدوج بين أن يخترق بلادهم برماح ممدودة، أو برماح قائمة. وعندما زحف على كورنث بعد ثورتهم وجد اللقيديميين متردّدين في الانقضاض على أسوارها. ولما شاهد أرنباً يقفز عابراً الخندق قال لجنوده المترددين:

- ألا يخجلكم خوفكم من عدوّ بلغ من خموله أنه ترك الأرانب تنام فوق أسواره؟

وتوفّي أغيس الملك عن أخيه أغيسلاوس والفتى ليونتخيداس الذي كان يُعدّ ابناً له. وكان ليساندر صديقاً لأغيسلاوس فتمكن من حمله على المطالبة بالعرش لأن نسبه من هرقل لا تشوبه شائبة. بينما كان ثمّ شكّ في أن ليونتخيداس هو ابن ألكيبياديس السّفَاح من تيميا زوج أغيس التي عاشرت ألكيبياديس وتأكد من عدم نسبة الفتى إليه بحساب وقت الحمل. وبقي حتى ملازمته فراش المرض يُهمل أمر ليونتخيداس وينكر عليه أبوّته له. فلما دنا أجله راح الفتى يتوسّل به ويلحّ عليه ليقرّ ببنوّته. وحثّه على ذلك أصدقاؤه فأقرّ بمحضر من الكثيرين ببنوّة ليونتخيداس وأشهدهم على إقراره وطلب منهم أن يشدّوا أزر الفتى ويناصروه. وكان أغيسلاوس الذي يتمتع بتقدير عظيم من مواطنيه، ويستأثر بنفوذ ليساندر ومعونته، قد وقع تحت تأثير ديوفيثس Diophithes وهو رجل اشتهر بالوقوف على النبوءات. استشهد هذا الرجل بالنبوءة التالية التي وردت فيها إشارة إلى عرج أغيسلاوس:

«اي سپارطا العظيمة احذري من إنجاب ملك أعرج وإن كنت أنت صحيحة سليمة. فسيتبع ذلك قلاقل طويلة الأمد، ليست في الحسبان. وستهبّ عواصف من الحروب الطاحنة فلا تبقي ولا تذر».

فآمن الكثير بالنبوءة وقوي مركز ليونتخيداس. إلاّ أن ليساندر قال لأغيسلاوس إن ديوفيثوس قد أخطأ في تفسير النبوءة وإن الإله الموحي بها لم يرد تحذير اللقيديميين من حكم ملك أعرج. والتفسير الصائب هو أن المملكة ستكون عرجاء إذا حكم ولد السفاح والنغولة مع نسل هرقل. وبهذا التعليل وبنفوذه الواسع على المواطنين حقق مسعاه في نصب أغيسلاوس ملكاً.

وزيّن ليساندر له أن يقود حملةً عسكرية إلى قلب آسيا. وأقنعه بإمكان كسر شوكة الفُرس وبلوغه أوج السلطان والسؤدد. وكتب إلى عملائه وأنصاره في آسيا يطلب منهم

أن يعلنوا أغيسلاوس قائداً لهم في الحرب ضدّ البرابرة، فأجابوه إلى ذلك وبعثوا بسفارات إلى اللقيديميين بهذا الشأن. فكان فضلاً ثانياً به طوّق ليساندر عنق أغيسلاوس لا تقل أهميته عن فوزه له بالعرش. على أن الطموح إلى الشهرة الذي كان يجيش في نفس أغيسلاوس وصِنْوه الحسد الذي يلازم ذوي الطموح عادةً، كانا يقفا حجر عثرة في سبيل إنجاز الأعمال الجليلة، مع أن أغيسلاوس لم يكن يفتقر إلى مقوّمات القيادة الحكيمة الكفوءة. شعور كهذا كان يبعد عن أمثال أغيسلاوس كل صديق ينتظر منه أن يغدو له عوناً، ويدفعهم إلى منافسته في المآثر واطّلاب المعالي بدل ذلك. وكان ليساندر من بين ثلاثين مستشاراً خبيراً صحبوا أغسيلاوس في حملة آسيا، أراده مشاوراً خاصاً وصديقاً نصوحاً. وما إن توغّل في قلب آسيا حتى تبيّن مكانة ليساندر عند السكان وكيف كانوا يتوجّهون إليه ويزورونه ويتوفّرون على خدمته والسير في ركابه، أصدقاء إيفاءً بواجب الصداقة وأعداء بدافع الخوف، في حين لم يكونوا يُقبلون على أغيسلاوس لقلة معرفتهم به. وبات الأمر شبيهاً بما نراه في التراجيديات. فكثيراً ما تجد الشخص الذي يمثّل دور الرسول أو الخادم يستأثر بالبطولة واهتمام النظّار وتتبّعهم في حين لا يهتمّون بالممثّل الذي يتقمّص دور الملك ويضع التاج على رأسه ويقبض على الصولجان في يده. هذا الممثل قلّما يتكلم عادةً، وقلّما يسمعه النظار. ووضع المستشار أقرب إلى وضع الرسول في التمثيلية فهو الذي ينهض بأعباء الحكم الحقيقية واليه تُعزى سُمعة الأعمال الجليلة فلا يُترك للملك إلاّ اسم السلطان الأجوف.

وكان باستطاعة أغيسلاوس أن يخفّف من غلواء طموحه الشائه ويتخلّص من موقفه الحرج بوضع ليساندر في المقام الثاني بعده وهو أهل له حقاً. لكنه أقدم على عمل معاكس فنبذه نبذ النواة وأهانه وجرح عزة نفسه على مذبح طموحه ونسي أنه آخاه وأحسن إليه. ولم يكن هذا يجمل بأغيسلاوس أو يليق به في الواقع. فهو لم يتح له فرصة لأيّ عمل، ولم يسند إليه منصباً من المناصب القيادية. وأخيراً عمد إلى كل من وجده غيوراً على مصلحة ليساندر فجفاه وازورّ عنه وعامله كما يعامل ذوي الحاجة الاعتياديين من قلة اهتمام. وهكذا راح يضعف من مركز ليساندر ويهدد نفوذه بطريقة هادئة.

ووجد ليساندر إخفاقاً أينما توجّه. وأدرك أن حرصه وغيرته على مصلحة أنصاره سيكونان عقبة لهم. فانصرف عنهم ورجا منهم أن لا يتصلوا به ولا يراجعوه في أيّ أمرٍ من الأمور، بل يراجعون الملك وكل من هو أنفع للأصدقاء منه في الوقت الحاضر. وأمسك معظم أصدقائه عن إزعاجه بمشاكلهم حسب توصيته، إلا أنهم داوموا على

إظهار الاحترام والإجلال له والوقوف في خدمته والسير في ركابه في ميادين العروضات والمسيرات. وهذا ما زاد من انزعاج أغيسلاوس وغيرته. حتى أنه أهمله عندما وزّع مناصب قيادته على كثير من القادة وحاكميات المدن على الرؤساء. وأسند إليه وظيفة «مقطّع اللحم» على مائدته وقال معرضاً بالأيونيين على سبيل الإهانة والتشفّي:

- فليذهبوا الآن وليقدّموا ولاءهم لمقطّع لحم مائدتي.

ورأى ليساندر الوقت مناسباً لمصارحته القول فجرى بينهما حوار قصير بليغ على النحو الآتي:

ليساندر: لعَمْري إنك أخبر الناس وأعرفهم بكيفية ايلام أصدقائك.

أغيسلاوس: الأصدقاء الذين يريدون أن يرتفعوا عليّ. أما الذين يعملون على زيادة سلطاني فمن العدل أن يقاسموني إياه.

ليساندر: قد يكون في كل هذا مجرّد أقوال من ناحيتك أكثر مما هو أعمال من جانبي. على أني أرجو منك يا أغيسلاوس، حفظاً للمظهر الخارجي، أن تضعني في أيّ منصب قياديّ تحت إمرتك أكون فيه أقلّ ضرراً وأكثر نفعاً في اعتقادي.

فبعث به سفيراً إلى الهللسپونت. ولم يهمل واجباته فيه مع أنه رحل عن أغيسلاوس حانقاً. وأفلح هناك في إقناع سپيثريدات Spithridates الفارسي بالثورة والتمرّد. وهو رجل شهم اختلف مع فارنابازوس وكان يملك بعض القوات فانضم إلى أغيسلاوس بمسعى ليساندر. ولم يكلَّف بمهمة أخرى فعاد إلى سپارطا فور انقضاء مدته دون أن ينال تكريماً، وهو حاقد على أغيسلاوس والحكومة السپارطية حقداً طغى على كل شيء حتى أنه قرر القيام بتنفيذ خططه في اشعال نار الثورة وتغيير الدستور. وكانت فكرتها قد اختمرت في رأسه منذ زمن على ما يبدو فعزم الآن على استغلال الوقت لها. وكانت خطته تدور حول الاستفادة من الطريقة التي يجري بموجبها اختيار الملوك. فحين قدِم الهيراكليدي إلى الپلوپونيس امتزجوا بالدوريين وصاروا عشيرة كثيرة العدد مهابة الجانب في سپارطا. إلاّ أن أُسَرها لم تكن تملك كلها امتياز اختيار الملوك فيها وإنما كان ذلك مقصوراً على جماعتي اليوريپونتيدي Eurypontidae والأگيادي Agiadae. ولم يكن للبقية امتياز ممارسة الحكم أو تولّي المناصب الرفيعة، التي كان يجب أن تسند إلى كل ذي أهلية وكفاءة فهي وحدها تفتح الطريق أمام المرء للوصول إلى الحكم. وليساندر الذي انحدر من إحدى الأسر التي لا تملك هذا الامتياز، فارتفعت به مآثره إلى أعلى درجات الشهرة والسلطان، واجتمع له أنصار كثيرون ونفوذ قوي، كره أن يرى المدينة التي رفع من شأنها وزادها سعةً وعظمة أنْ يحكمها أناس لا

يفضلونه حسباً ونسباً وكفاءة، فهيّأ الوسائل لانتزاع الحكم من أيدي العشيرتين وإتاحته للهيراكليدي عموماً، أو على ما يقول آخرون ليس للهيراكليدي وحدهم بل لكلّ السپارطيين كيلا يكون الامتياز مقصوراً على نسل هرقل بل تعميمه على أشباه هرقل في المؤهّلات الكفاءات نفسها التي رفعته إلى مقام الألوهية. وكان يأمل من هذا أن يبرز المرشح الوحيد للعرش بين السپارطيين عندما تغدو المنافسة عليه وفق هذه الشروط.

وعلى هذا الأساس تهيّأ أولاً للدعوة بين المواطنين وحاول إعداد أذهانهم. فدرس مليّاً خطبةً في هذا المآل أعدّها كليون الهليقارناسي. وما لبث أن وقع على حيلةٍ عظيمة لم تكن في حسابه تتطلّب وسائل جريئة، ومعاونة كثيرة، وهي الإفادة من تأثير المعجزات والخوارق على العقول واستخدام الوحي الإلهي لغرضه هذا. فباشر وكأنه ممثل يلعب دوراً على المرسح بجمع وترتيب ردود ونبوءات معزّوة إلى أپوللو تعزيزاً لدعوته. وعدل عن استخدام فصاحة كليون إلاّ بعد إثارة عقول المواطنين بالمخافة الدينية وغزو أذهانهم بالأوهام والكهانات، وبعدها يكون طريقه معبداً إليهم لتفهُّم حُججه وأسبابه. ويروي إيفوروس أن ليساندر بعد أن حاول الدسّ في نبوءة أپوللو، وفشل وبعد أن أخفق في إقناع كاهنة دودونا Dodona عن سبيل فيريقليس Pherecles، توجّه إلى سدنة آمون وعرافيه محاولاً شراءهم بكمّيات كبيرة من الذهب والفضة، فثاروا وغضبوا وبعثوا بنفرٍ منهم إلى سپارطا يشكونه. وعندما برئت ساحته خرج الكهنة الليبيون وهم يقولون:

- ستجدوننا أيها السپارطيون أفضل منكم حُكماً عندما ستأتون إلينا وتساكنوننا في ليبيا.

وهم في هذا ينوّهون بنبوءة قديمة تشير إلى أن اللقيديميين سينزحون يوماً ما إلى ليبيا ويستوطنونها. على أن مجمل مؤامرة ليساندر وسُبل تنفيذها لم تكن اعتيادية ولا بسيطة وصفحاتها المتدرّجة إلى النهاية تعتمد على أنواع من الافتراضات مثل مسألة حسابية، وتنطلق في سلسلة من الخطوات فيها تعقيد وصعوبات. لذلك نؤثر أن نسردها بالتفصيل نقلاً عن رواية مؤرّخ وفيلسوف معاً:

قبل ردحٍ من الزمن ادّعت امرأة من پونطس أنها حملت من أپوللو. وانقسم الناس بطبيعة الحال إلى مصدّق ومكذّب. ثم إنها أنجبت ذكراً اهتم عدد من سراة القوم بتربيته وتنشئته وسُمّي سلينوس Selinus لأمرٍ ما. فجاء ليساندر ليتخذ من هذه الحادثة قاعدة عملٍ وقام باستنباط البقية وبنائه مستخدماً عدداً ليس بالقليل من أبطال تلك الحادثة البسطاء الذين أوصلوا خبر الطفل إلى مرتبة الحقائق التي لا يرقى الشك إليها في

دفاعهم الحارّ عن زعم الوالدة بسذاجة الإيمان وعناده. ثم إنه قام بتهيئة نبأ آخر مصدره دلفي ونشره في سپارطا حول وجود نبوءات قديمة حافظ الكهنة على سِرّها في أسفارٍ، ولم يجيزوا قراءتها أو تداولها؛ إلى أن يأتي في المستقبل ذلك الذي انحدر من صلب أپوللو، فيقصدهم وبعد أن يعطي علامات مخصوصة للكهنة تقنعهم بهويّته، يسلمون له أسفار النبوءات المكتومة. ورُتّبت الأمور بحيث يذهب سلينوس هذا إلى الكهنة بوصفه ابناً لأپوللو للمطالبة بالنبوءات. ويتظاهر الكهنة - الواقفون على الخطة طبعاً - بالحذر والتدقيق في التفاصيل والجزئيات ويقومون باستجوابه حول ميلاده. ثم يتظاهرون بالقناعة فيدفعون إليه بالنبوءات. فيقوم هو بتلاوتها أمام جمهور من الشهود ولاسيما تلك النبوءة التي جُعلت حجر الزاوية وبيت القصيد في مؤامرة ليساندر حول منصب الملك وكيفية اختياره، والتنبيه على السپارطيين بأنه يجمل بهم أن يؤمّروا عليهم أكفأ المواطنين ولا يلقوا بالاً على الحسب والنسب. وكان سلينوس الشاب آنذاك مستعداً للقيام بالمهمة إلاّ أن ليساندر فشل في إخراج تمثيليته بسبب نكوص ممثل فيها. فقد ركب الخوف واحداً من أعوانه في المرحلة الأخيرة فانسحب فجأة. وبقي الأمر مع ذلك سرّاً مكتوماً طوال حياة ليساندر.

وقضى نحبه قبيل عودة أغيسلاوس من آسيا. وكان هذا الملك قد تورّط، أو لعلّ الأصح قولنا ورّط بلاد الإغريق في الحرب البويوسية. والشكلان مقبولان. فبعضهم يعزو سببها إليه وبعضهم إلى الثيبيين، وآخرون إلى الطرفين معاً. وكانت جهة اتهام الثيبيين: أنهم ألقوا بالقرابين جانباً في أوليس Aulis وانقضّوا على الفوكيين واجتاحوا بلادهم وغايتهم توريط اللقيديميين في حرب إغريقية. فقد حرّضهم الملك ورشاهم بمالٍ حمله إليهم أندروقليدس وأمفيثيوس Amphitheus. ومن جهةٍ أخرى قيل إن ليساندر أغضبه من الثيبيين طلبهم عُشر الغنائم في حين لم يعترض بقية حلفاء سپارطا على نسبة ما ينالهم. وأحنقه إظهار استنكارهم لإرساله الأموال والنفائس إلى سپارطا. على أن أعظم ما كان يضطغنه لهم هو وقوفهم إلى جانب الأثينيين عندما انتفضوا لتحرير أنفسهم من استبداد الحكام الثلاثين الذين نصّبهم هو. وكان اللقيديمونيون قد أصدروا بلاغاً يقضي بإلقاء القبض على كل اللاجئين السياسيين الهاربين من أثينا حيثما كانوا وفي أي بلد وجدوا ومن يمانع في ذلك يطرد من الحلف الإغريقي. فأجاب الثيبيون على هذا ببلاغ مناقض له جدير وأيِم الحق بسجايا هرقل وباكوس ومروءاتهما، ينص على أن يُفتح باب كل منزل ومدينة في بويوسيا في وجه كل من يحتاج إليها من الأثينيين. ويقضي على كل شخص أبى مساعدة لاجئ مطارد أو مقبوض عليه بدفع

غرامة قدرها تالنت واحد تعويضاً له. ورسم أيضاً بأن كل من حمل السلاح إلى أتيكا عبر بويوسيا، ليس لأي ثيبيّ أن يراه، أو يسمع بخبره. والحق يقال إنهم أصدروا هذه المراسيم الإنسانية الخليقة بالروح الإغريقية لتنفيذها بالحرف الواحد، لا لتبقى حبراً على ورق. وبذلك قرنوا القول بالفعل. فثراسيبولوس ورجاله الذين احتلوا فيله كانت ثيبة نقطة انطلاقهم. والثيبيون هم الذين زوّدوهم بالمال والسلاح وأسدلوا على حملتهم ستار الكتمان وهيّأوا لهم وسائل الزحف. تلك هي بالإجمال أسباب تحامل ليساندر على ثيبه. وها هوذا الآن وقد زادته الشيخوخة عنفاً وسوداوية يشتد في حث الإيغور على وضع حامية عسكرية في ثيبه. ثم إنه تسلّم القيادة وزحف عليها، وأوعز إلى پاوسنياس بالتحرك على رأس جيش بعده بقليل. فدار هذا حول كيثيرون Cithæron للانقضاض على بويوسيا. واجتاز ليساندر فوكيس بعسكر جرّار ليلتقي برتل پاوسنياس عند الهدف. واستولى في زحفه هذا على مدينة الأدرخونيين التي استسلمت له بدون قتال. ونهب ليباديا Lebadea وبعث برسائل إلى پاوسنياس يأمره بالحركة من پلاطيا لمقابلته في هاليارتوس Haliartus لأنه سيكون تحت أسوار تلك المدينة في فجر اليوم التالي. فوقع الرسول بأيدي كشّافة الثيبيين وضُبطت الرسائل وجيء بها إليهم. فما كان منهم إلاّ أن عهدوا بحماية مدينتهم إلى النجدات العسكرية التي جاءتهم من أثينا وخرجوا في أول هزيع من الليل بكلّ عسكرهم فبلغوا هاليارتوس قبل وصول ليساندر بقليل ودخل المدينة قسم منهم.

قرر ليساندر قبل كل شيء أن يعسكر فوق المرتفعات انتظاراً لوصول پاوسانياس. ولما تقدم به النهار ولم يعد يطيق الانتظار أمر جنوده باعداد أسلحتهم للهجوم. وقام يشجع الحلفاء ثم انحدر نحو الأسوار برتلٍ على طول الطريق. إلاّ أن القسم الذي أبقاه الثيبيون خارج الأسوار وضع المدينة على جهته اليُسرى وتقدم متعرّضاً لمؤخرة العدوّ بالقرب من النبع المعروف باسم كيسوسا Cissusa ويروى عنه أن المرضعات غسلن فيه الطفل باكوس على أثر ميلاده. ولون مائه أشبه بالخمر المشعشعة وأعذب وأصفى من كل ماءٍ. وعلى مسافة قليلة منه تنتشر اشجار البلسم الكريتي بكثرةٍ وقد غُرِست ثَمّ تذكاراً للحياة التي قضاها رادامانثوس Rhadamanthus هناك. ويرشدونك إلى ضريحه الذي يطلقون عليه اسم أليا Alea. وبالقرب منه يقوم نصب ألكمينا أيضاً وهي زوج رادامانثوس تزوّجته بعد وفاة بعلها الاول أمفتريون Amphitryon.

على أن من ولجوا المدينة من الثيبيين نظموا صفوفهم من الهاليارتين وظلّوا ساكنين برهة من الوقت، حتى إذا شاهدوا ليساندر مع لفيف من جنوده يتقدمون طلائع الرتل

إليهم فتحوا أبواب المدينة فجأة وانقضّوا عليه وفتكوا به مع العرّاف الذي كان يرافقه ونفر قليل من الجنود. أما معظمهم فقد ولّى الأدبار والتحق بالقسم الأكبر. ولم يفتر الثيبيون وأطبقوا عليهم فإذا بالرتل كلّه ينقلب مولياً الأدبار نحو التلال. وسقط منهم ألف قتيل ومن الثيبيين ثلاثمائة خرّوا صرعى إلى جانب قتلى الأعداء لتحمّسهم في المطاردة فوق أرض وعرة مصحرة. كان هؤلاء الثلاثمائة موضع شك في ممالأة اللقيديميين فأرادوا أن يقدّموا الدليل على كذب الشائعة عنهم ويبرّئوا أنفسهم منه بتعريض أنفسهم لأشد الأخطار فلقوا حتوفهم.

وبلغت أنباء الفاجعة پاوسانياس وهو في طريقه إلى تسپاي من پلاطيا فأعدّ جيشه للمعركة المقبلة وزحف نحو هاليارتوس وخرج ثراسيپولس من ثيبة على رأس النجدات الأثينية لتعزيز قوات الثيبيين. واقترح پاوسانياس طلب هدنة لسحب جثث القتلى. فاستاء زعماء السپارطيين وأظهروا غضبهم الشديد فيما بينهم وأقبلوا على الملك قائلين:

- إن جثة ليساندر لا يمكن أن تؤخذ تحت علم الهدنة، وإن نحن قاتلنا بسلاحنا لانتزاعها عنوةً وانتصرنا فسنقوم بدفنها بصورة لائقة. وإن غُلبنا على أمرنا فذلك خير وأبقى. وإنه ليشرّفنا أن نموت على البقعة التي سقط فوقها قائدنا.

إلاّ أن پاوسانياس كان يدرك صعوبة التغلّب على الثيبيين بعد أن أسكرتهم خمرة الانتصار الأخير. ثم إن جثة ليساندر كانت مسجّاة تحت الأسوار مباشرة وسيصعب عليهم حتى إذا انتصروا أن يحملوها إلى المعسكر من غير هدنة. ولذلك بعث بمنادٍ وحصل على هدنة فسحب قواته إلى الخلف ونقل جثمان ليساندر ودفنه في أول أرضٍ صديقة وطئها بعد اجتيازهم حدود بويوسيا وهي أرض الپانوپيين Panopæan حيث يشاهد نصب ضريحه الآن وأنت مارّ في طريقك إلى خيرونيا من دلفي.

في الوقت الذي كان فيه الجيش معسكراً هناك قيل إن رجلاً من فوكيس راح يسرد وقائع المعركة على آخر لم يكن فيها، فقال إن العدو انقضّ عليهم إثر انتقال ليساندر إلى هوپليتس Hoplites. فعجب هذا وكان سپارطياً وصديقاً لليساندر، وسأله ماذا يقصد بهوپليتس؟ فالاسم غامض عنه. فأجاب الفوكيّ:

- قتل العدوّ هناك أوّل صرعانا. فالنهر الذي يحاذي المدينة اسمه هوپليتس.

وما إن سمع السپارطي الاسم حتى غلبه البكاء وقال معقّباً إن الإنسان لا نجاة له قط من حكم القدر. فالظاهر أن مصير ليساندر نوّهت به النبوءة التالية التي نزلت في عهد السابق:

«إني أنذرك. احذر أكثر من أي شيء آخر كل صوت صادر من الهوپليتس
المندفع ومن التنّين المولود على الأرض الذي يضرب بمكر من ورائك».

على أن بعضهم يقول إن هوپليتس لا يجري بالقرب من هاليارتوس وإنما بالقرب من كورونيا Coronea وبعدها بمسافة يصبّ في نهر فيلاروس. عند مدينة إيسومانتوس Isomantus التي كانت تُعرف سابقاً باسم هوپلياس Hoplias.

والهياليارتيّ الذي فتك بليساندر واسمه نيوخوروس Neochorus كان يوجد على تُرسه صورة تنّين، وهذا ما تشير اليه النبوءة على ما يفسّرون. وقيل أيضاً إن الثيبيين أيام حرب الپلوپونيس نزلت عليهم نبوءة في هيكل إيسمينوس Ismanus أشارت صراحة إلى موقعة دليوم Delium مع التنويه بهذه الحادثة التي وقعت في هاليارتوس بعد ثلاثين عاماً من نزولها، وإليك نصّها:

«عندما تخرج لصيد الذئب فعليك مراعاة أقصى الحدود».

وملاحظة جبل أورخاليدس Orchalides الذي تكثر فيه الثعالب. وبتعبير «أقصى الحدود» يقصد دليوم حيث تكون الحدود مشتركة بين بويوسيا وأتيكا. وبـ«أورخاليدس» يقصد الجبيل الذي يعرف الآن باسم «ألوپيكوس» Alopecus الذي يقع في ظاهر هاليارتوس باتجاه هيليكون Helicon.

وشاع الحزن في نفوس السپارطيين لميتة ليساندر هذه. وبلغ الأمر حداً بهم أنهم قدّموا الملك للمحاكمة بتهمة الخيانة التي تقضي بعقوبة الموت فلم يجرؤ على مواجهتها وفرّ إلى تيغيا Tegea وعاش حتى وفاته لاجئاً في محراب مينرڤا لا يغادره. وانكشف للعيان فقر ليساندر بموته فزاد هذا في تبجيل الناس له وتقديس ذكراه لأنه، على حدّ ما أورد ثيوميوس في تاريخه، لم ينشد لنفسه ثروة خاصة مهما قلّت، ولم يطمع في شيء من كل الأموال والنفائس التي وضع يده عليها، وكل الهدايا التي قدّمتها له المدن، ومملكة الفرس. وتلك فضيلة لا يسع أي امرئ أن يقلل من شأنها في معرض الثناء والمديح فيقدّمها على معايب صاحبها. وليساندر بلا شكّ أكثر استحقاقاً للقدح منه للمدح. ويقول إيفوروس إن خلافاً نشأ بين الحلفاء في سپارطا اضطروا معه إلى مراجعة أوراق ليساندر. فقصد أغيسلاوس منزله لهذا الغرض، وهناك عثر على الدفتر الذي دُوّنت فيه كل النبوءات المتعلقة بمؤامرة الدستور السپارطي وتشير كلها إلى وجوب إجراء تعديل فيه وسحب امتياز الملك من أسرتي «يوريپونتيدي» و«داگيادي» وجعله حقاً مشاعاً للواطنين كافة، يُختار له أفضل الناس وأكفأهم. وتملّكت أغيسلاوس الرغبة في فضح القضيّة على نطاق شعبيّ. وكشف خلق ليساندر على

حقيقته. إلاّ أن لاكراتيداس Lacratidas رئيس مجلس الايغور آنذاك، وهو من حكماء الناس وعقلائهم، حال دون رغبة أغيسلاوس وقال له: ليس جديراً بهم أن ينبشوا قبر ليساندر، وحريّ بهم أن يدفنوا معه مسألة فيها الكثير من الوجاهة ومهارة الحبك.

وأسبغوا على ذكراه ضروباً من التكريم. منها أنهم فرضوا تعويضاً على أولئك الذين كانوا قد خطبوا بناته أثناء وجوده في قيد الحياة، فبادروا إلى فسخها على أثر وفاته وانكشاف إملاقه. وقد عوقبوا لأنهم لم يتقدموا بطلب أيدي بناته إلاّ لتصوّرهم بأنه ثريّ. وتركوهن بعد أن قام فقره دليلاً على عدالته ونزاهته. ويبدو أن سپارطا كانت تطبّق في ذلك العصر قانوناً يفرض عقوبات على من لا يتزوّج، ومن يتزوّج عن كِبَر وشيخوخة، ومن يتزوّج زواجاً فيه تدليس وسوء نيّة. وتطبّق عقوبة الحالة الأخيرة بصورة خاصة على أولئك الذين ينشدون الغنى من الزواج لا الصلاح والحبّ.

هذا هو كل ما وجدناه من الأخبار الخاصّة بسيرة ليساندر.

سيلّا

SYLLA

(Lucius Cornilius)

۱۳۸–۷۸ ق.م

انحدر لوشيوس كورنيليوس سيلّلا من أسرة باتريشية أي أسرة شريفة. وقيل إن روفينوس Rufinus من أسلافه تولّى منصب القنصلية، وألحق عاراً بنفسه بلغ من عِظَمه أن كسف شمس مآثره. فقد طُرد من مجلس الشيوخ لحيازته صفيحة من الفضة تزن أكثر من عشرة باوندات خلافاً لأحكام القانون. وخمل ذكر ذرّيته من بعده. ولم يكن سيللا غنيّ الأبوين. وعاش مقتبل شبابه في بيت مأجور، أجرته بخسة. الأمر الذي اتخذ فيما بعد برهاناً ضدّه، في أنه كان أكثر توفيقاً مما تستأهل طينته وأصله. ولما كان في معرض الفخر والتباهي بنفسه والمبالغة في وصف مغامراته في ليبيا ردّ عليه رجل من كبار القوم بقوله:

- وكيف يتفق أن تكون نزيهاً. وأنت الآن بهذه الدرجة من الثراء حين لم يخلّف لك أبوك شيئاً؟

ولم يكن العصر الذي عاش فيه عصر استقامة ونزاهة فقد تسرّب الانحلال في الأخلاق وسقطت النفوس في أحضان الجشع وشهوة المال والترف. إلاّ أن الرأي العام بقي ينظر بعين السخط الشديد إلى من ضاق صدره بفقر أسرته المتوارث فتصالب على الغنى، مثلما كان ينظر إلى من هجر المزرعة التى ورثها عن أسلافه.

وعندما اجتمع لسيلّلا السلطان المطلق وراح يرسل الناس زرافات إلى حتوفهم، حام الشكّ يوماً في أن رجلاً من المعتوقين الأحرار قد أخفى واحداً من أولئك الذين أهدر دمهم ورُفعت عنهم حماية القانون، فحكم عليه سيللاّ لهذا الشكّ بأن يُلقى من أعلى الصخرة التاربيّة. فطفق يذكّره بلهجة تقريع وعتاب كيف أنهما عاشا معاً طويلاً تحت سقف واحدٍ، هو في الطابق الأعلى بأجرة قدرها ألفا سستريوس[١]، وسيلّلا في

(١) Sesterius أو Sesterces: عملة رومانية قديمة فضية [ثم برونزية] تساوي ربع ديناريوس أو أسيّن Asses وربع آس. وهي تعدل عشرة أفلس تقريباً.

الطابق الأسفل بأجرة قدرها ثلاثة آلاف. فيكون الفرق بين حالتيهما الماليّتين آنذاك ألف سستريوس وهو ما يوازي بالعملة الأتيكية ماءتين وخمسين دراخما. كذا كان وضع سيلّلا الماليّ في مقتبل عمره.

وبإمكانك الاطّلاع على شكله وسيمائه العامة من تماثيله. وكان أهم ما يميّزه عينان زرقاوان شديدتا الحِدّة حتى لكأنهما ترسلان شرراً من نارٍ تزيدهما رهبة وقسوة تقاسيم وجهه. وكان أبيض تشوبه بُقع خشنة لونها أحمر ناريّ. وقيل إن لقبه «سيلّلا» جاء من هذه الصفة. وقد نظم أحد الساخرين الأثينيين الذي عُرف بالبذاءة وسلاطة اللسان هذين البيتين معرّضاً بذلك:

«يشبه سيلّلا ثمر التوت الذي رُشّ فوقه عدس».

وليس بالذي يخرج بنا عن موضوعنا أن نورد وصفاً للسّمات الخُلقية في صدد كتابة سيرة شخص كان بطبيعته مفطوراً على حب المزاح والتندّر، مما جعله منذ أول شبابه دائم الاختلاط بالممثلين ومشاهير المهرّجين كثير الصحبة لهم في دروب الغواية والملذّات السافلة. وظلّ يزاول هذه العادة لمّا أصبح السيّد الأعلى. فكان يجمع سفلة لاعبي المدينة وأوشاب ممثليها فيُساقيهم الراح ويبادلهم المزاح دون اعتبار لسِنّه ومقامه السامي تاركاً الأمور الهامّة التي تتطلب منه الاهتمام والرعاية. ولم يكن من طبعه أن يسمح بأيّ حديث جدّي عند جلوسه إلى المائدة في حين تراه في سائر الأوقات رجل عملٍ وكدٍّ لا يعرف البِشرُ والابتسام وجهَهُ. هذا القطوب والعبوس بعتريه انقلاب عام مفاجئ ويتحوّل إلى بشاشة وإيناساً لا حدود لهما حالما يحتويه مجلس شراب ومنادمة. فينشرح صدره ويستخفّه الطرب بين أهل الرقص والغناء الوضعاء ويكون على أتم الاستعداد لإرضاء كل من يقصده محدّثاً. والظاهر أن سهولة وقوعه في أسر لذاذات الغرام، وتهافته بدون مقاومة على الشهوة والفسق، أشبه بالأعراض المرضية لتراخيه واستهتارٍ في طبعه لم يكبح جماحها حتى شيخوخته. وقد بقي مدة طويلة يعشق ممثلاً اسمه ميتروبيوس Matrobius. وغازل في مفتتح حياته الغرامية سيّدة غنية من طبقة العامة تدعى نيقوپوليس Nicopolis وتمكن بمظاهر شبابه الغضّ وبمعاشرته الطويلة لها أن يوقعها في غرامه وبأسر مشاعرها، ففاق حبُّها له حبَّه لها حتى أنها أوصت له بكلّ ثروتها عند موتها. وأحبّته زوج أبيه حبّ الأم لابنها فأورثته مزرعتها، وبهذين الحدثين السعيدين اعترى أحواله تغيير عظيم، وأصبح في عِداد الأغنياء.

واختير كويستوراً لماريوس في أوّل منصب قنصلي له، فأبحر معه إلى ليبيا لخوض الحرب ضدّ يغورثا. فكان موضع رضى هناك. ولاسيّما في حادثة وقعت على غير

انتظار أحسن التصرّف فيها فكسب صداقة بوخوس ملك النوميديين. فقد كاد سفراء هذا الملك يقعون في كمين نصبته عصابة من اللصوص لهم وفرّوا منهم فتلقّاهم سيلّلا بترحابٍ وأكرمهم غاية الإكرام وأطلقهم محمّلين بالهدايا وزوّدهم بحرسٍ لحمايتهم. وكان بوخوس دائم الخوف شديد الكره لختنه جغورثا، الذي فرّ إليه لاجئاً بعد أن مُني بالهزيمة، وكان يبيّت أمر تسليمه للرومان وقتذاك. ولهذا دعا سيلّلا لزيارته حتى يكون تسليم الملك المقهور عن طريقه وبواسطته لا أن يقوم يغورثا بتسليم نفسه طوعاً. وبورود الدعوة إليه فاتح ماريوس فزوّده هذا بثلّة من الجنود قليلة العدد. فخرج بها لإنجاز المهمة وهو يدري أنه يعرّض نفسه لأعظم الأخطار، ويضع ثقته في بربريّ لم يخلص حتى لأقربائه، ويعتمد عليه للقبض على شخصٍ سلّم نفسه له بمحض اختياره. ولمّا بات المطارد والطريدة تحت رحمة بوخوس، وجد أن عليه واجب الاختيار في الغدر بأحدهما فأطال تقليب الأمر من شتّى وجوهه وقرّر أخيراً أن يسلّم يغورثا لسيلّلا كما نوى أوّلاً.

ومُنح ماريوس شرف موكب النصر بهذه المناسبة، إلاّ أن فضلها عُزي إلى سيلّلا فأحقد عليه ماريوس وأضمر له السوء في نفسه. والحق يقال إن سيلّلا نفسه كان تيّاهاً معجباً بنفسه؛ ازداد غروراً بهذه المأثرة فقد نبه ذكره عند المواطنين وتوجّهت أنظارهم إليه ونقلته من الخمول إلى عالم الشهرة وذاق طعم المجد. وتعاظمت شهوته إلى الشهرة ودفعت به إلى التباهي والفخر. وعمد إلى نقش صورة تمثل عمله هذا على خاتم لم يفارقه قط وظلّ يستعمله بمثابة ختم. ويُرى في النقش بوخوس يسلّم يغورثا لسيلّلا. أثار هذا العمل حقد ماريوس الشديد ومسّ منه وتراً حسّاساً. إلاّ أنه اعتبر سيلّلا أقلّ منزلة من أن يصلح خصماً له. وأبقاه في خدمته وجعله ضابط ركنه في قنصليّته الثانية، وتريبيوناً في قنصليّته الثالثة. فحقق سيلّلا أعمالاً جليلة عديدة في الفترتين. منها أنه أسر كوپيللوس Copillus زعيم التكتوساگ Tectosages وأجبر المارسيين Marsians وهم شعب كثير العدد على محالفة الرومان ومؤاخاتهم، خلال قيامه بوظيفته الأولى.

على أيّ حالٍ لم يفت سيلّلا حسد ماريوس وغيرته منه وأدرك أنه سيغلق في وجهه فرص العمل ويقيم العقبات في سبيل تقدّمه السياسي، فانصرف عنه إلى زميله كاتولوس واختص به. وكان هذا إنساناً كريماً لكنه يفتقر إلى حيوية القائد فأوكل إلى سيلّلا واجبات هامة وأعمالاً خطيرة فانقادت إليه الشهرة وتوقّل سُلّم المجد وأخضع بقوة السلاحِ معظم البرابرة الذين يسكنون أقاليم الألب. واضطلع شخصياً بتأمين أرزاق

الجيوش عندما شحّت فنجح في نقل مقادير هائلة لسدّ حاجة جنود كاتولوس وجنود ماريوس أيضاً. ويقول سيلّلا في مذكراته: «كان عملي هذا مثل طعنةٍ في قلب ماريوس».

بدأت العداوة بين هذين الرجلين بأسباب تافهة صبيانية جداً لكنها سلكت سبيلاً عنيفاً وأدّت إلى حربٍ أهلية سُفكت فيها دماء الرومان، وأحدثت انقساماً لا رأب له، وآلت إلى حكم الطغيان وتفشّي الفوضى في جهاز الدولة. كل هذا يشهد على حكمة يوريپدس وصدق فراسته ومعرفته التامة بأسباب الفوضى السياسيّة، عندما أنذر الجميع وناشدهم أن يحذروا من الطموح، فهو من بين كل القوى العليا أعظمها تدميراً لعبّادها.

ووجد سيلّلا في ذلك الزمن أن شهرته العسكرية التي نالها خارج الوطن كافية لتؤهّله إلى المناصب السياسية العليا فرحل إلى روما وتقدّم من الجمهور مرشحاً نفسه لمنصب الپريتور فأخفق. وعلّل سبب إخفاقه بعِلم جمهور الناخبين بعلاقته الطيبة مع بوخوس الليبيّ. ولهذا فضّلوا أن يختاروه لمنصب الإيديل قبل منحه الپريتورية ليؤمّن لهم مشاهدة ألعاب الصيد وقتال الوحوش باستيرادها لهم من ليبيا نظراً لدالّته على ملكها. وهكذا اختاروا - حسب تعليله - آخرين لإرغامه على قبول منصب الإيديل. وقام الدليل الساطع على خطأ تعليله هذا عندما نجح في الفوز بمنصب البريتور في السنة التالية بتزلّفه للجماهير من جهة، وبتفريقه الأموال على الناخبين من جهة أخرى. وعلى هذا الأساس كان جواب قيصر له. فمرة قال سيلّلا غاضباً:

- ينبغي لي أن استعمل سلطتي ضدّك.

فأجاب [قيصر] باسماً:

- حسناً فعلت بتسميتها «سلطتي» لأنك اشتريتها.

وفي نهاية فترة پريتوريته أُرسل إلى كبادوكيا تحت زعم إعادة آريو بارزان Ario Barzan إلى عرش مملكته. في حين كان السبب الأصليّ لبعثه صدّ هجمات ميثريدات ووقف اعتداءاته المتكررة، والحدّ من سلطانه المتعاظم واتساع رقعة مملكته بما كان يضيفه إلى ما ورثه عن أسلافه. ولم يُسلَّم سيلّلا قوات كثيرة. وكان جُلّ اعتماده على مساعدات حلفاء روما الصادقة. وبعد أن خاض معارك طاحنة مع الكپادوكيين سالت فيها دماؤهم ودماء حلفائهم الأرمن انهاراً، نجح في طرد غورديوس Gordius وإعادة آريو بارزان إلى عرشه.

وفي أثناء إقامته على ضفاف نهر الفرات قدِم إليه أوروبازو Orobazus الفرثي سفيراً من الملك أرشاك Arsaces. وعلينا في هذا الصددّ أن لا ننكر حظّ سيلّلا بوصفه

أول روماني فاوضه الفرثيون حول إنشاء علاقات صداقة وحُسن جوار. والحكاية التي تروى عن استقبال السفير المذكور تقول إن سيلّلا أمر بوضع ثلاثة كراسٍ ملكية، واحد لآريو بارزان والثاني لأوروبازو وجعل كرسيّه يتوسّط الاثنين وتم الاحتفال على هذا الشكل إلاّ أن الملك الفرثي أرسل أوروبازو إلى حتفه لهذا السبب. وبعضهم يثني على سيلّلا لاتخاذه هذا الموقف المتعالي من البرابرة. بينما يأخذ عليه بعضهم ظهوره هذا الذي لا يتفق والظروف آنذاك. ويذكر أيضاً أن كلدانيّاً من حاشية أوروبازو انعم النظر في سيماء سيلّلا وأطال التدقيق في تقاطيع وجهه متابعاً باهتمام انتقالاته الفكرية وحركات عضلاته. وأصدر حكمه عليه وفق مبادئ صناعته في الفِراسة وقال: «من الصعب أن لا يكون أعظم الرجال طُرّاً، ومن العجيب أن لا يبادر الآن في رياسة الجميع».

وعلى إثر عودته إلى روما اتهمه كنسورنيوس Censorinus بالغصب والابتزاز لأنه جبى أموالاً طائلةً من ممالك حليفة وبلاد حسنة العلاقات مع الرومان. ولكنّ الشاكي لم يحضر في يوم المحاكمة وتنازل عن التهمة. وما لبث نار الخلاف أن شبّت ثانيةً بين سيللا وماريوس، والذي زوّده بمادة الوقود طموح بوخوس وحب ظهوره. فقد أرسل إلى روما تماثيل وأنصاباً وتُحفاً منها صورة من الذهب تمثل تسليمه يغورثا لسيلّلا. وكان يرمي من ذلك التقرّب إلى الرومان وتكريم سيللا. فحاول ماريوس رفع الأنصاب من معبد جوبتر كابيتولينوس وهو في أشدّ سَورات غضبه إلاّ أن فريقاً من الرومان عارضوه ووقفوا في صف سيلّلا. واستفحل الخلاف حتى كاد يؤدّي إلى إضرام نار ثورة جائحة في المدينة لو لم تندلع براكين «الحرب المشتركة» التي كانت خامدة منذ عهد بعيد، فوضعت بذلك حدّاً مؤقّتاً لهذا النزاع.

في هذه الحرب الضروس التي اعترتها تقلّبات عديدة، وأضرّت بالرومان أكثر من أية حربٍ سابقة وهدّدت إمبراطوريتهم كلها بالزوال، لم يوفق ماريوس إلى الإتيان بأي عمل بطولي في أية موقعة حربية. وبذلك ترك دليلاً ساطعاً على أن التفوّق في مجالات الحرب يتطلّب بدناً قوياً قادراً على تحمّل أعبائها ومشاقّها.

وأحرز سيلّلا من مواطنيه لقب القائد العظيم بما حققه من المآثر العديدة. أما صحبه فقد رفعوه إلى مرتبة أعظم القادة، في حين اعتبره الأعداء أسعدهم حظّاً. وكل هذا خلّف في نفسه انطباعاً مغايراً لما تخلّف في نفس تيموثيوس Timothius الأثيني ابن كونون الذي عزا خصومه أسباب نجاحه إلى حُسن حظّه فرسموا صورة له وهو نائم وآلهة الحظّ تقف إلى جانبه وترمي بشباكها فوق المدن، فكان فظّاً في استنكاره العمل.

كأنما سلبوه حقه في المجد بنسبتهم كل شيء فعله إلى آلهة الحظّ. مرّةً عاد من الحرب وقال للجمهور مذكراً بانتصاره:

- اعلموا يا رجال أثينا أن آلهة الحظّ لم تُسهم في هذا النصر.

وهي عبارة تنمّ عن تسرّع صبيانيّ لم تسكت عنه الآلهة، فازورّت عنه كما قيل لنا، ولم يعد يحقق أي عملٍ جليل، وناكده الحظّ في كل شيء، حتى سقطت منزلته في أعين الشعب، وحُكم عليه بالنفي من البلاد. أما سيلّلا ففضلاً عن قبول فضل الآلهة عليه بسرورٍ واعتزازه بثقتها فيه؛ فإنه عزا شرف كلّ ما تمّ إلى الحظ، في معرض تعظيم تلك الأعمال وتمجيدها، سواء قصد من هذا التباهي والفخر، أو إظهار شعوره الحقيقي من العناية الإلهية. وفي مذكراته ينوّه بأعماله الحكيمة التي أقدم عليها بجرأة وغير مبالاة فيقول إن أعظمها توفيقاً هي الأعمال التي جاءته من وحي ساعتها وليس الأعمال التي نفّذها بعد حساب وتدقيق. ومن الصفة التي أعطاها شخصه بذكره أنه ولد للحظّ أكثر منه للحرب، يبدو أنه يُنزل الحظ منزلة أرفع من الكفاءة. فهو بمختصر القول يجعل نفسه مخلوقاً ذا قوى عليا من كل ناحية. حتى أنه عَدّ قرابته من ميتللوس - زميله في الوظيفة عن طريق المصاهرة - نعمة من النعم الفائقة. فقد كان يتوقع أن يجد في هذا الرجل زميلاً مثيراً للمشاكل لا يسلس قياده فإذا به ألين الناس عريكة وأطيبهم نفساً. ويزيد على هذا في مذكراته التي خاطب بها لوكوللوس تحذيره للمخاطب من وضع ثقته في غير الإرادة الإلهية وما تشير عليه به ليلاً. وروى أنه بينما كان يغادر المدينة بجيشه للقتال في «الحرب المشتركة» شاهد الأرض بالقرب من لافيرنا Laverna قد انشقّت، وخرج من جوفها قدر من النيران ارتفعت نحو السماء بلهب خاطف، وتكهّن السحرة منها بأن شخصاً ذا مزايا عظيمة وسيماء فريدة نادرة المثال سيتسلّم مقاليد الحكم. فأسرع سيلّلا يؤكد أنه هو الرجل المقصود لأن لمّة شعر رأسه الذهبي تظهره بمظهر غير اعتيادي وتجعل هيئته غريبة جداً، ولم يكن ليحسّ بأي خجلٍ من الشهادة على ميزاته العظيمة الخصوصية بعد الأعمال الجليلة التي أنجزها. ونكتفي إلى هنا بالحديث عن آرائه في نفسه وفي العناية الإلهية.

وعلى العموم بدا سيلّلا شخصية حافلة بالمتناقضات. قلق النفس لا يقرّ قراره على اتجاه خُلقي ثابت، مفرطاً في استسلامه للحنق وأكثر، غير شاعرٍ بأية مسؤولية في إعزازه من يشاء وإذلاله من يشاء، ذليلاً أمام من كانت حاجته عندهم، متجبّراً على من تكون حاجتهم عنده. ولذلك يصعب الحكم في أيهما أغلب على طبعه، أعزّة النفس أم ضعتها؟ وتراه أظلم الناس في العقاب: يُسلم المرء إلى العذاب لأتفه دليل.

ويصبر صبراً عجيباً على أعظم الزلل. تجده يصفح ويصفو حالاً بعد أشنع عملٍ من أعمال الحقد والعداء، في حين يفرض حكم الموت ومصادرة الأموال لأبسط المخالفات والهفوات. فلا مندوحة للمرء من أن يحكم على طبعه بالعنف وحب الانتقام. على أنه كان يستطيع عند التبصّر أن يستخدم هذا الطبع لمصلحته فيفيد منه. وفي هذه «الحرب المشتركة» لما هاجم جنوده ضابط ركنه ألبينوس Albinus الذي كان يحمل رتبة البريتور فقتلوه بالهراوات والحجارة أغضى عن هذه الجريمة الشنعاء ومَرّ بها مرور الكرام ولم يفتح تحقيقاً. وزاد فعلّق على الموضوع متباهياً بقوله إن سلوك الجنود سيتحسّن جداً بعد هذا وسيعوّضون عن خرقهم هذا للنظام العسكري بعمل بطولي مجيد. ولم يُقم وزناً للأصوات التي ارتفعت تطالب بإحقاق الحق والانتصاف من الفاعلين. ولأنه كان قد قرّر إزاحة ماريوس بعد أن وجد «الحرب المشتركة» تشارف نهايتها فقد أفاد كثيراً من جيشه مؤمّلاً تعيينه جنرالاً على رأس القوات التي سترسل لقتال ميثريدات.

وعند عودته إلى روما انتُخب قنصلاً مع كوينتوس بومپيوس Quintus Pompeius، وهو في الخمسين من عمره. ووفّق إلى زواج طيب جداً من كيسيليا Cæcilia بنت ميتيللوس عظيم الكهنة. فنظم عامة الشعب مختلف القصائد في التندّر على هذه الزيجة. وثارت نفوس كثير من الأشراف اشمئزازاً من هذه الزيجة، وقالوا إن سيلّلا غير جدير بهذه المصاهرة، كما نقل لنا ليڤي. ولسنا ندري كيف اعتبروه قبلها جديراً بمنصب القنصل!

ولم تكن كيسيليا زوجه الوحيدة ففي مطلع شبابه تزوّج إليا Ilia، وأنجب منها، ثم تزوج بالثانية إيليا Aelia، ثم بالتالية كلوليا Cloelia التي طلّقها لأنها عاقرٌ وسرّحها بإحسان وإكرام وحمّلها هدايا وأموالاً. إلاّ أن الزواج الذي تمّ بينه وبين ميتلّلا Metella بعد أيام قليلة من طلاقه كلوليا أثار الشك في أن ادعاءه بعُقمها لا يستند إلى أسباب وجيهة. وظل دوماً يظهر لميتللا أعظم الاحترام حتى أن جماهير الشعب راجعتها بطلب تدخّلها في قضية إعادة المنفيين من حزب ماريوس إلى الوطن بعد أن رفض سيلّلا ذلك. والمعتقد أن الإجراءات التي فاقت قسوتها العادة لم تُتّخذ ضدّ الأثينيين عند استيلاء سيلّلا على مدينتهم إلاّ لاستعمالهم عبارات جارحة مهينة في معرض سخرهم وتندّرهم بمتيلّلا من أعلى الأسوار أثناء الحصار. ولنا عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد.

في تلك الفترة من الزمن كان سيلّلا يعتبر منصبه القنصلي شيئاً صغيراً بالنسبة إلى

ما سيصل من سموّ ورفعة. ولهذا احتلت الحرب ضد ميثريدات كل جانب من تفكيره واشتدت رغبته فيها. فوقف ماريوس حائلاً يتعذر اقتحامه. وبدافع من الحب الجنوني للمجد والتعطش للشهرة، وهما عاطفتان لا تموتان في البشر، واصل ماريوس مساعيه لتقلّد منصب قيادة الجيش الخارجي الذي كان يقاتل فيما وراء البحار، غير مكترث لشيخوخته التي أنهكت قواه وألجأته إلى اعتزال الخدمة في مراحل الحرب الأخيرة. فانتهز فرصة مغادرة سيلّلا المدينة إلى المعسكر للإشراف بنفسه على تنفيذ بقية أوامره، وقعد محتضناً بيوض جشعه ليفقس بالأخير تلك الفتنة الدنيئة الهوجاء التي أصابت روما من الرزايا بما يفوق كل الرزايا التي أصابها بها كل أعدائها مجتمعين. والواقع أن الآلهة كشفت عن دلائل ومقدّمات لها. منها أن النار شبّت في مقابض الرايات من الأسفل ولم يكن من السهل السيطرة عليها وإخمادها. وحملت ثلاثة من الغربان النوخية صغارها إلى وسط الطريق العام فأكلتها ثم عادت إلى الأعشاش بعظامها. ومنها أن الفئران قرضت الذهب الذي كان موقوفاً على أحد المعابد فوقعت إحداها في مصيدة نصبها الكهنة لها وهناك وضعت خمسة. وأكلت ثلاثة منها. وكان أعظم ظاهرة دويّ صوت نفير راعدٍ رهيب في سماء هادئة صافية أشاع الهلع والبغتة في أفئدة الناس، فراح حكماء الأتروسكان يؤكدون أن هذه المعجزة تشير إلى تغيّر العصر وانقلاب حال الدنيا. فعندهم أن العصور ثمانية فحسب وتغيّر طباع الناس وطُرز حياتهم هو الدليل على انتهاء عصر وابتداء آخر. وقد جعل الله لكلّ عصر أجلاً مرسوماً تحدده دائرة السنة العظمى. وكلما شارف عصر على نهايته ظهرت إشارة خارقة كدليل على مجيء العصر التالي سماوية أكانت أم أرضية وبها يسترشد الحكماء المتخصصون في دراسة هذه الظواهر على انقلاب العصر ومجيء جيل جديد من البشر يختلف عن سابقه في عاداته وأساليب حياته ويتميّز برعاية متفاوتة من الآلهة أكثر من سلفه. ويقولون أيضاً إن صناعة الوحي والتنبّؤات ترتفع بهذه المناسبة إلى مقامٍ جليل فجأة وتزداد تفاسيرها إصابة وتقلّ أخطاءً لأن الآلهة تطلق إذ ذاك علامات واضحة أكيدة. ويدبّ في هذه الصناعة الانحلال والخمول في الجيل التالي فتغدو مجرّد حدسٍ ورجم بالغيب في أغلب الأحوال، وتكون شديدة الغموض في الكشف عن أحداث المستقبل. تلك هي «ميثولوجيا» أحكم حكماء التوسكان الذين لا ترقى معرفة أحد إلى معرفتهم. وفيما كان مجلس الشيوخ منعقداً في معبد بلّلونا Bellona يناقش السحرة والعرّافين في دلائل هذه الخوارق إذا بعصفور دوري يقبل طائراً إليهم وفي منقاره جُندبٌ فأفلت جزءاً منه وحلّق بعيداً ببقيّته. وأنهى العرّافون عن شحناء أو انشقاق تحصل بين الإقطاعيين الكبار

وجمهور المدينة فهؤلاء الأخيرون كثيرو الضجّة والكلام مثل الجُندب، بينما يمثلّ العصفور الدوري «المزارعين سكان الريف».

وجعل ماريوس من التريبيون سولبيشيوس حليفاً له. وليس لهذا الرجل ثانٍ في النذالة واللؤم ولا نظير. والنقطة فيه هي أنك لا تبحث عمّن فاقه لؤماً وخسّةً، وإنما تبحث عن أي ناحية فيه فاقت الأخرى في الشرّ. لقد كان فظاً غليظاً مفطوراً على الاعتداء والأذى. لا يعرف الخجل أو تأنيب الضمير قط ولا يتردد في عرض امتياز المواطنة الرومانية في المزاد العلني للأجانب وللعبيد المحررين، ويحصي الثمن المدفوع بها على مناضد الخزينة العامة. وكان قد جمع حوله ثلاثة آلاف من رجال السيف، فلا تراه إلاّ وبرفقته عُصبة من شبّان طبقة «الفرسان» مستعدّين لسائر المناسبات، أُطلق عليهم اسم «حرس معارضة الشيوخ». وكان قد اشترع قانوناً يحظر على عضو الشيوخ أن تزيد استدانته عن ألفي دراخما في حين تبيّن بعد موته أنه استدان ثلاثة ملايين. ذلكم هو الرجل الذي أطلقه ماريوس على الجمهورية وكان السيف والقوة وسيلقاه في العمل وإيقاع الخلل والارتباك في كل شيء.

وأصدر مراسيم نجم عنها أخطر النتائج. منها مرسوم يقضي بإسناد قيادة الجيش الروماني في حرب مثيريدات إلى صفيّه ماريوس. وعلى أثر ذلك أعلن القنصلان عن عطلة عامة للأهلين. وبينما كانا يعقدان اجتماعاً جماهيرياً بالقرب من معبد كاستور وپوللوكس أُطلق عليهما الرّعاع والأوشاب وفتكوا في من فتكوا بابن القنصل پومپيوس الأصغر في الفورم. ولم ينجِ پومپيوس من القتل الا بصعوبة باختلاطه بالجمع. وطورد سيلّلا إلى منزل ماريوس وأرغم على الخروج منه وإلغاء قرار العطلة. وهذا ما حدا بسولبيثيوس إلى تركه في منصبه القنصلي في حين عزل پومپيوس، إلاّ أنه وجّه قيادة الحملة على مثيريدات إلى ماريوس.

وأرسل إلى نولا Nola فوراً تريبيونين من أتباعه لتسلّم قيادة الجيش نيابة عن ماريوس إلاّ أن سيلّلا كان قد سبقهما إلى المعسكر وأبلغ الجنود بما وقع فاستقبلوا التريبيونين بالحجارة ورجموهما. فردّ ماريوس على هذا العمل بوضع السيف في رقاب أنصار سيلّلا ونهب أموالهم في المدينة. ونجم كل ما يتصوّر المرء من الانتقال والفرار فبعضهم هرع إلى المدينة من المعسكر، وبعضهم انتقل إلى المعسكر من المدينة.

وفقد مجلس الشيوخ سيطرته على الموقف وباتت سلطته في حكم العدم. وقبض ماريوس وسولپيشيوس على زمام الحكم والسلطة بلا منازع. إلاّ أن المجلس أقلقته أنباء تقدّم سيلّلا بجنوده نحو المدينة فأرسلا إليه البريتورين بروتوس وسرڤيليوس ليمنعاه من

الاقتراب أكثر من ذلك. وكاد الجنود يفتكون بالپريتورين في حدّة ثورتهم لوقاحتهما في الحديث مع سيلّلا إلاّ أنهم اكتفوا بكسر عصيّ الفاچي رمز سلطتهما وبتمزيق ثوبيهما الأرجوانيين. وأطلقوهما أخيراً بعد معاملة فظّة واعتداءات كثيرة. فعادا إلى أهل المدينة في هذه الحالة المزرية، وشاع في النفوس همّ عظيم لرؤيتهما مجرّدين بهذه الصورة الحقيرة من شعار الحكم وعلامات المنصب. وأعلن هذان للجمهور أن الأمور آلت إلى نهاية لا علاج لها ولا شفاء. وتأهّب ماريوس وتحرّك سيلّلا مع زميله من نولا على رأس ستّ فرقٍ كاملة العدد والعدّة وكلّها متحمّسة للزحف فوراً على المدينة، وإن كانت أفكاره في لجّة من الشكوك والتخوّف من الخطر. وبينما كان يضحّي عمد الكاهن پوستيميوس إلى فحص أحشاء الضحية، ثم مدّ كلتا يديه إلى سيلّلا وطلب منه أن يقيّده ويضعه في السجن حتى تنتهي المعركة، لأنه يقبل بطيبة خاطر أشدّ العقاب وأقساه إن لم يُحرزوا نصراً سريعاً كاملاً. وقيل أيضاً إن ربّة من الأرباب كان الرومان قد أخذوا عبادتها عن الكبدوكيين، ولعلها «القمر» أو «پالاس Pallas» أو «بلّلونا»، قد ظهرت لسيلّلا نفسه في الحلم ووقفت على ما يُظنّ بالقرب منه ووضعت في يده الرعد والبرق. وعدّدت أسماء أعدائه واحداً واحداً وطلبت منه أن يُنزل بهم ضربته كافّةً، أولئك الذين اختفوا وتفرّقوا وأن لا يستثني منهم أحداً. فزادته الرؤيا شجاعةً وقصّها على زميله. وفي اليوم التالي تقدّم بعسكره نحو مدينة روما. والتقى بالقرب من پچيني Picinæ بوفدٍ أخذ يتوسّل إليه أن يؤجّل هجومه قليلاً وأن لا تأخذه حرارة الزحف، لأن مجلس الشيوخ قد قرّر أن لا يغمط له حقاً وأن لا يرد له أي طلب عادل. فوافق على الوقوف حيث هو وبعث ضباطاً لقياس أرض للمعسكر كما جرت به العادة. فاطمأن الوفد إلى ذلك وعاد أدراجه. وما كادوا يغيبون عن نظره حتى أمر بتقدم وحدة عسكرية بقيادة لوشيوس باسيللوس Lecius Busillus وكايوس موميّوس Caius Mummius لاحتلال باب المدينة الذي يقع في جهة مرتفع إسكويلين Esquiline واحتلال الأسوار المجاورة له. وساق عسكره في أعقاب الوحدة بأسرع ما أمكنه. ونجح باسيليوس في دخول المدينة إلاّ أن الجمهور الأعزل أخذ يقذف جنوده بالحجارة والطوب من أعلى المنازل فأوقفوا تقدّمه ثم أرغموه على التراجع إلى السور. وكان سيلّلا في تلك الأثناء قد بلغ المدينة ورأى ما يحصل فصاح برجاله آمراً أن يشعلوا النار في المنازل وتناول مشعلاً ملتهباً وسار في الطليعة وأوعز إلى رماة النبال باستعمال نبالهم المشتعلة فراحوا يفوّقونها على أسطح المنازل. ولم يكن في ذلك يطبق خطة سبق أن رسمها وإنما انساق بسَورة غيظ عظيم. فكان عمل ذلك اليوم كله من وحي العاطفة الجائحة التي

تجد الكلَّ أعداءها ولا ترعى حُرمة أو تشعر بشفقة لصديق أو قريب أو صاحب. وهكذا دخل سيلّلا روما بالنار لا تعرف فرقاً بين صديق أو خصم.

وفي القتال الناشب أُرغم ماريوس على التقهقر إلى معبد «الأرض الأمّ». ومن مقرّه هذا أصدر بياناً يعد فيه العبيد بالحرية إن هم التحقوا به. إلاّ أن عدوّه أدركه فانهارت مقاومته وهرب من المدينة.

دعا سيلّلا مجلس الشيوخ إلى اجتماع عاجل للتصويت على حكم الموت بحق ماريوس وعدد قليل من اتباعه ومنهم سولپيشيوس مفوّض الشعب، فوشى به خادمه فقُتل. وكافأ سيلّلا الواشي بعتْقِه، ثم ألقاه منكوساً من الصخرة التاربيّة! ووضع لرأس ماريوس ثمناً ببيان عام أصدره. ولم يكن عمله هذا ينطوي على تبصّر سياسيّ، ولا اعتراف بجميل أسداه إليه ماريوس حين آواه وحماه وأخرجه سالماً منذ زمن غير بعيد. ولو لم يُطلِق ماريوس سيلّلا في ذلك الحين وترك سولپيشيوس يفتك به لكان السيد الأوحد الآن. على أنه حفظ له حياته وبعد بضعة أيام لقي هو معاملة مختلفة، عندما وجد نفسه في موقف مماثل.

أثار سيلّلا بإجراءاته هذه اشمئزازاً خفياً في نفوس أعضاء مجلس الشيوخ. إلاّ أن سخط العامة واستنكارهم تجلّى في تصرّفاتهم فقد أجمعوا على رفض ترشيح ابن أخيه نونيوس Nonuis وسرڤيوس لمنصب الحاكميّة، وهما من محسوبيه، وانتخبوا غيرهما نكايةً به وإزعاجاً له. فتظاهر بالرضا التام عن كل هذا كأنما الشعب لا يتمتّع بحرية التصرّف وتقرير ما يراه مناسباً له إلا بفضله. وعيّن لوشيوس سِنّا قنصلاً تسكيناً لعداء الجماهير، وهو من الحزب المعارض له. إلاّ أنه انتزع منه قبل ذلك يميناً وعهداً موثقاً بأن يرعى مصالحه ويكون أميناً عليها. وظهر سِنّا يرتقي درجات الكاپيتول وهو يحمل حجراً وأقسم يميناً مغلظة، ودعا باللعنات المخيفة أن يطرد خارج المدينة ويُنبذ نبذاً إن لم يبق حريصاً على صداقته مع سيلّلا، مثلما يلقي هذا الحجر من يديه. ثم ألقى الحجر على الأرض أمام حشد من الناس. ولكن ما إن تسلّم مهام وظيفته حتى اتخذ إجراءات مضادّة تخالف العهد الذي قطعه وهيّأ تهمةً ضدّ سيلّلا ودفع ڤرجينيوس أحد مفوّضي الشعب ليرفعها إلى دار القضاء. إلاّ أن سيلّلا تركه هو وقضاته ومحاكمة لشأنهم وانطلق لقتال ميثريدات.

وبينما كان يقوم بالاستعداد والتأهّب للرحيل من إيطاليا بقواته حصل لميثريدات بعض الحوادث التي فُسّرت بالشؤم، ومنها الحادثة التي اشتهرت عنه أثناء وجوده في برغاموس. فقد صنع البرغاميون تمثالاً لإلهة النصر ووضعوا بيدها تاجاً وعملوا على

إنزالها بحيلِ الميكانيكا من الأعلى بشكل يبدو معه وكأن التمثال يقوم بوضع التاج على رأس الملك. وما كاد يُنزل ويقرّب من رأسه حتى تفكك في الهواء وهوى التاج واصطدم بالأرض في وسط الملعب وتحطم. فأحدث هذا هلعاً عاماً وأورث ميثريدات قلقاً عظيماً، مع أنه كان ينتقل من نجاح إلى نجاح ويحرز انتصارات رائعة غير منتظرة. فقد انتزع آسيا من يد الرومان وبيثنيا وكبدوكيا من ملكيهما وجعل برغاموس حاضرة ملكه، وراح يوزّع الممالك والأقاليم والأموال على أصحابه والمقرّبين. واستقر أحد أبنائه في پونطس والبوسفور ليحكم مملكة أبيه الأصلية الممتدة حتى البوادي فيما وراء بحيرة ميوتيس من غير منازع أو تحرّش. وقام ابن آخر له اسمه أرياراثوس Ariarathuz بإخضاع ثراقيا ومقدونيا بجيش جرّار.

وعمل قوّاده بالجيوش التي وضعها تحت تصرّفهم على توطيد سلطانه في أقاليم أخرى. ونذكر منهم بصورة خاصة أرخيلاوس الذي حقق بأسطوله السيادة التامة في البحر، وأخضع السيكلاديين Cyclades، واستولى على كل الجزر حتى ماليا Malea، وفتح يوبوا. ثم إنه جعل أثينا مقراً لحركاته وتمكن من حمل الدويلات الإغريقية على الانسحاب من الحلف الروماني في منطقة تمتد حتى ثساليا. ما عدا خيرونيا فقد وجِد هناك قائد عسكري لسنتيوس Sentius حاكم مقدونيا، يدعى بروتوس سورا Brutus Sura وهو جندي صنديدٌ وبطل فريد لا حَدّ لبسالته وإقدامه، وقف في وجه أرخيلاوس الذي انقضّ بجيشه على يوبوا كما ينحدر السيل الجارف. فتصدّى له بروتوس سورا وأبدى مقاومة ضاريه واشتبك معه في ثلاث معارك بالقرب من خيرونيا فصدّه وأرغمه على التراجع نحو البحر. إلاّ أن هذا القائد الهمام سلّم القيادة لخلفه سيلّلا بناء على أمر صدر من لوشيوس لوكوللوس. وعاد إلى رئيسه سنتيوس بعد أن حقق من النجاح ما فاق كل الآمال. وهيّأ بلاد اليونان من جديد للانتقاض والثورة لما أظهره لهم من البطولة والشهامة. تلكم هي المآثر المجيدة التي حققها بروتوس.

وكان في استقبال سيلّلا وفود من سائر مدن اليونان لتقديم التهاني والولاء باسمها، إلاّ أثينا فقد أُرغمت باستبداد الطاغية أرسطيون Aristion على البقاء في صفّ ميثريدات. فزحف عليها سيلّلا بكامل قواته واكتنف پيريوس وألقى حصاراً شديداً على المدينة مستخدماً كل نوع من آلات الحصار ومطبّقاً مختلف الخطط الهجوميّة. ولو أنه صبر عليها قليلاً لأمكنه الاستيلاء على الحيّ الأعلى من المدينة بدون صعوبة تذكر أو تعرُّض لأية خسارة بسبب المجاعة التي تفشّت في المدافعين واستنزافهم كل ما لديهم من الأرزاق وافتقارهم إلى الحاجات الضرورية جداً. ولكنّ سيلّلا كان مستعجلاً العودة

إلى روما لتعاظم خوفه من المؤمرات هناك. فواصل الهجوم العنيف مع ما فيه من مخاطر وكثرة من النفقات. وكان من بين المهمّات التي تزوّد بها سيلّلا عشرة آلاف نير خشبي للبغال وهي مخصّصة لبطاريات آلات الحصار والثغر لا يُستغنى عنها في العمل اليومي. وكانت المتاريس الخشبية التي تحيط بمعسكر الرومان قد تعرّضت للتلف بعضها تكّسر من تلقاء نفسه جرّاء ثقله، وبعضها احترق بالمقذوفات النارية التي كان يوجّهها العدوّ إليها بلا انقطاع. فشحّ الخشب كثيراً واضطر سيلّلا إلى قطع أشجار الحدائق المقدّسة لسدّ حاجته من الخشب، فقطع أشجار «حديقة الأكاديميا» والليكيوم Lyceum والأولى هي أكثف حدائق ضواحي أثينا وأكثرها ظلاً. وأدركت الحاجة إلى المال لسدّ نفقات الحرب الطائلة فلم يتردّد سيللا في اقتحام الأماكن المقدسة اليونانية. وبعث يطلب ما احتواه معبدا إپيداوروس Epidaurus وأولمپيا من تحف ونفائس التقدمات وأجملها. وكتب أيضاً إلى الأمفكتيون في دلفي يطلب منهم أن يسلّموه ثروة الربّ لأنه أقدر منهم على محافظتها، وإذا خطر بباله إنفاقها فسيعوّض عنها. وبعث بهذه الرسالة مع كافيس Caphis الفوكيّ أحد أصدقائه وأمره أن يتسلّم كل قطعةٍ بالوزن. فقدِم كافيس إلى دلفي. ولكنه ارتعب من لمس الأشياء المقدسة وراح يذرف دمعاً غزيراً أمام جمهرة الأمفكتيون معتذراً بالضرورة والحاجة. وعندما قال بعضهم إنه سمع عزف قيثار صادراً من المحراب الداخلي بادر حالاً بإرسال رسول سريع إلى سيلّلا بهذا المآل إمّا لاعتقاده الحقيقي بها وإما لرغبته في تجربة تأثير المخافة الدينية في سيلّلا فكان ردّ القائد الروماني حافلاً بالسخرية. قال إنه ليعجب منه كيف لا يدري أن الموسيقي هي علامة فرحٍ لا غضب. وعليه والحالة هذه أن يدخل بكلّ ثقةٍ ويتقبّل ما يقدمه الربّ الكريم من نِعمه وخيراته.

وتسرّبت أموال أخرى وأخذت طريقها إليه خلسة دون علم اليونانيين أو ملاحظتهم. إلا في قضية جفنة[٢] الفضة وهي الأثر الوحيد الباقي من أوقاف الملوك على معبد دلفي فقد بلغ من حجمها وثقلها أن لم تتسع لحمل أية عجلة، فأخطر الأمفكتيون إلى قطعها أجزاءً واستذكروا أثناء عملهم هذا كلاً من تيطس فلامينينوس ومانيوس أچيليوس من بلاد اليونان وأولئك الذين قهروا ملوك المقدونيين. كم كانت نفوسهم عفّة، وكيف أنهم لم يلوّثوا أيديهم بهتك حرمة المعابد الإغريقية. ولكنهم

(٢) [Tun] وهي آنية كبيرة. تتسع لحوالي (٢٥٢) غالوناً من المائعات. وقد تستخدم مكيالاً. والمرجّح أن كلمة Ton: طن وهو الوزن الشائع الآن مأخوذ منها.

قدّموا إليها مختلف الهدايا وأسبغوا عليها مختلف آيات التكريم ورفعوا بذلك من مقامها واحترام العموم لها. هؤلاء في الواقع قادة شرعيون لجنود ديدنهم الطاعة ومتانة الخلق. كانوا عظماء بنفوسهم بسطاء في عيشهم وأسلوب حياتهم لا يتعدّى مستوى نفقاتهم الحدود الاعتيادية السائدة. وهم يعتبرون التقرّب من الجنود بالزُّلفى عاراً أعظم من عار خوفهم من الأعداء. أمّا قوّاد زمننا هذا فهم مدينون بمناصبهم الرفيعة إلى القوة لا الأهلية ويلجأون إلى السلاح لحَلّ خلافاتهم الخاصة بدلاً من توجيهه إلى أعداء الوطن وهذا ما يدفعهم إلى المخاتلة والمناورة في الحكم لكسب الوقت؛ ولدفع ثمن جهود جنودهم في تثبيت سلطانهم تراهم ينزلقون دون أن يدروا إلى بيع بلادهم نفسها ويرتضون لأنفسهم أن يكونوا عبيداً طائعين للحثالات وأحطّ الأنذال في سبيل أن يحكموا رجالاً أرفع منهم وأفضل في كل شيء. هذه الأساليب هي التي أدّت بماريوس إلى الخروج من وطنه منفياً، لتأتي به ثانية أمام سيللا. وهي جعلت من سينّا قاتلاً لأوكتافيوس، ومن فمبريا Fimbria ذبّاحاً لفلاكوس Flacchus. ولم يكن ذنب سيلّلا بأقلّ من الثلاثة المذكورين. فلأجل إفساد وكسب الجنود الذين يخدمون تحت إمرة الآخرين، تراه ينقلب كريماً جواداً لجنوده يحبّب إليهم حياة الفِسق والفجور مغرياً جنود القوّاد الآخرين بالانتقاض على رؤسائهم والغدر بهم. فلا غرابة في أن يكون بحاجة دائمة إلى الأموال الطائلة ولاسيما في أثناء الحصار.

وسواء أقَصَدَ سيلّلا من فتح أثينا التباهي والفخر بقتال يجري تحت ظلّ ما كان يوماً ما مدينة شهيرة، أم حنقاً وغيظاً للكلام البذيء الخالي من الحشمة الذي كان يتندّر به الطاغية أرسطيون من فوق الأسوار يومياً بايماءات شائنة معيبة إلى سيلّلا وزوجه ميتلّلا، فإن رغبة سيلّلا في اقتحامها عنوة لم تكن تعرف حدّاً.

وكان أرسطيون مخلوقاً مركّباً من الدناءة والقسوة. جمع في نفسه أسوأ ما في ميثريدات من رذائل وبيلة شريرة، فكانت فيه داءً عُضالاً لا سبيل للشفاء منه. حكم القدرُ به على المدينة في أيامها الأخيرة على يد الطغاة المتعاقبين، ونتيجة سلسلة من الفتن والدسائس في أعقاب خروجها سليمةً من حروب لا تُحصى.

كان الوضع في المدينة لا يمكن وصفه. فقد بيع المديمنوس Medimnus الواحد من القمح بألف دراخما. واضطر الناس إلى أكل حشيشة نبتة الأقحوان Feverfew التي تنمو حول القلعة، وسَلْق الأحذية الجلدية وأجربة الزيت ليسدّوا بها رقعهم. بينما استمر أرسطيون في إقامة المآدب وإحياء مجالس الشراب في رائعة النهار، والرقص بالسلاح والتندّر على الأعداء. ولم يأبه لانطفاء سراج الربّة المقدس لنضوب زيته. وطلبت

الكاهنة العظمى جزءاً واحداً من اثني عشر جزءاً من مديمنوس قمح، فأرسل إليها بدل ذلك مقداراً من الفلفل مساوياً لما طلبته. أما الشيوخ والكهنة الذين أقبلوا عليه متوسّلين، مناشدين عطفه على المدينة، ومفاوضة سيلّلا في الصلح، فقد طردهم وفرّقهم برشقات من النبال. وأخيراً، بعد إلحاح كثير وضجّةٍ ونقاش، بعث بنديمين من ندماء مجلس شرابه الثلاثة للتفاوض مع سيلّلا فقدِما إليه. وتبيّن أن الموفدين لا يحملان عروضاً جدّية تؤدّي إلى تسويةٍ، وإنما أخذا يلقيان خطباً في تقريظ ثسيوس ويومولپوس Eumolpus، والإشادة بغنائم الحرب المادية. فقال لهما:

- خير لكما يا صاحبيّ أن تختما حديثكما هذا وتنصرفا. فالرومان لم يرسلوني إلى أثينا لأتلقّى دروساً، بل لأرغم العُصاة على الطاعة.

وفي أثناء ذلك رُويت لسيلّلا محاورة بين بعض الكهول في الكيراميكوس، فقد سُمعوا يَلومون الطاغية لإهماله في تحصين الممرّات والمداخل المجاورة لـ«هبتاخلتوم» Heptachalcum وتعزيزها بالقوّات. لأنه الموضع الوحيد الذي يمكن النفوذ منه إلى المدينة بسهولة. فأصاخ سيلّلا سمعه للنبأ وخرج بنفسه لاستطلاع الموقع ليلاً وتأكد من سهولة اقتحامه فباشر بالحركة فوراً. وينوّه سيلّلا في مذكراته بأن ماركوس تايّوس Marcus Teius كان أوّل من اعتلى السور فاعترضه أحد المدافعين فأهوى على خوذته بضربة سيف صادقة فانكسر السيف، فلم ينثن عنه ولم يتزحزح عن مكانه بل صمد وأمسك بعدوّه فتلاحما. وتمّ الاستيلاء على المدينة من هذا الجزء على وجه التحقيق وفق التواتر الذي أجمع عليه الأثينيون الأقدمون. وبعد أن أكملوا ثغر السور وسوّوه بالأرض ما بين الباب المقدس والپيرياك Pirac دخل سيلّلا منها إلى المدينة في حوالي منتصف الليل على صوت الأبواق والأنفار المرعد، وبهتافات النصر المنطلقة من أفواه جيش أنطلق من عقاله لينهب ويذبح ويصول في الشوارع والطرقات وسيوفهم بأيديهم مشهرة، ولم يعرفوا حَدّاً في فتكهم بالناس. وظلّ عدد القتلى إلى يومنا هذا موضع تخمين وحدس، وقُدّر بمساحة الأرض التي أغرقتها الدماء فحسب. فإن تركنا جانباً حوادث القتل التي وقعت في كل أحياء المدينة وركّزنا تقديراتنا على منطقة الساحة العمومية فان ما نقله لنا معظم الكتّاب يؤكد أن الدم المسفوك في الساحة أخذ يجري ليغطي الكيراميكوس وعبر الباب المزدوج حتى بلغ مسيله الضاحية القريبة. وكان عدد من قتل نفسه بيده لا يقلّ عمّن قتلهم العدوّ. لقد كره هؤلاء الحياة بعد أن تأكدوا أن نهاية بلادهم محتومة ولات حين مناص. كانوا من أفضل أهل المدينة وأشدّهم تعلّقاً ببلادهم. أشاع يأسهم من بقائها خوفاً فيهم من الحياة التي لا أمل لها في رحمةٍ أو

إنسانية من سيلّلا. واستمرت المذابح والقتول في المدينة هكذا، حتى تدخّل ميدياس Midias وكاللليفون Calliphon المبعدان الأثينيان بأن ألقيا بنفسيهما تحت قدمي القائد الظافر متوسّلين من جهةٍ، وتوسّط عدد من أعضاء مجلس الشيوخ - التحقوا بالمعسكر - من جهة أخرى. فاستجاب سيلّلا لرجاء الجهتين وأوقف المذابح بعد أن شبع وارتوى وأخذ بثأره كاملاً. وقال منوّها تنويهاً كريماً بالأثينيين الأوّلين:

- ها إني أصفح عن العدد الكبير لأجل القليل، وأغفر للأحياء من أجل الموتى.

احتل سيلّلا أثينا في اليوم الأول من شهر آذار حسبما أثبت في مذكراته. وهذا يوافق ظهور القمر الجديد لشهر أنشستريون Anthesterion. وهو اليوم الذي اتخذه الأثينيون للقيام بكلّ المراسم والواجبات الخاصة باحياء ذكرى الخراب والدمار الذي أحدثه الطوفان العظيم لوقوعه في ذلك اليوم بالذات كما هو معلوم.

على أثر الاستيلاء على المدينة فرّ الطاغية إلى القلعة وامتنع فيها. فحاصره كيوريو Curio وظلّ صامداً مدة طويلة إلى أن نضبت المياه فيها فاستسلم للعدوّ. ولم تتأخر الإرادة الإلهية عن إظهار الدليل على مشيئتها فيما حصل، ففي الساعة واليوم الذي اقتيد فيه كيوريو الطاغية الأسير هابطاً من القلعة تجمّعت الغيوم في السماء الصافية وهطل المطر مدراراً فملأ القلعة ماءً! ولم يطل الزمن بپريوس فقد سقطت هي الأخرى وأشعل سيلّلا النار في معظم أجزائها، ومما التهمته النيران وأتت عليه «مستودع الذخيرة» المعروف باسم فيلو وكان بناءً فخماً مثيراً للإعجاب.

وفي أثناء ذلك انحدر تاكسيلس Taxiles، أحد قواد ميثريدات، من ثراقيا ومقدونيا بجيش جرّار يبلغ تعداده مائة ألفٍ من المشاة وعشرة آلاف من الخيّالة وتسعين عربة حربية ذات عجلات مسلّحة بالأسنّة. وكانت خطته الانضمام إلى قوات أرخيلاوس المرابط بأسطوله على الساحل بالقرب من مونيخيا Munychia. وكان هذا متردّداً بين النزول إلى البرّ وبين الإمساك والاشتباك بالرومان، فهو يحبّذ أن يمدّ في أجل الحرب ويتحاشى المعارك قدر إمكانه معتمداً على خطة تهدف إلى قطع إمدادات العدو وأرزاقه. وكان سيلّلا أكثر إدراكاً وتحوّطاً للموقف الخطير الذي يعانيه، فتحرّك إلى بويوسيا تاركاً المنطقة القفراء التي كان معسكراً فيها لعجزها عن سدّ حاجة الجيش من الأرزاق حتى في وقت السلم.

واعتقد بعضهم أنه أخطأ الحساب بتركه أتيكا وهي منطقة جبلية وعِرة لا تصلح لحركة الخيّالة، ودخوله أراضي بويوسيا السهلة وحقولها المنبسطة، وهو العارف جيداً بأن قوة البرابرة هي في صنفي الخيّالة والآليات. والحقيقة هي أنه كان مرغماً على

مغامرة بمعركة خوف المجاعة وانقطاع المؤن عنه كما أسلفنا. زد على هذا أنه كان في أشدّ القلق على مصير هورتنسيوس Hortensius وهو ضابط جريء كفء، كان قد خرج من ثساليا على رأس قوة عسكرية للانضمام اليه، وأخذ البرابرة يترصّدونه عند المضائق وهذا هو السبب الآخر الذي حمل سيلّلا على التحول بقواته إلى بويوسيا. في أثناء ذلك كان يستهدي طريقه بدليل من أبناء قومنا يدعى كافيس Caphis قاده من سبيل لا يعرفه البرابرة قريب من پارناسوس Parnassus فيما يلي طيثورا Tithora مباشرة. ولم تكن وقتذاك مثلما هي الآن مدينة كبيرة وإنما مجرّد حصن يقوم على نشز من الأرض وتحفّ به منحدرات حادّة جداً، وإليها انتقل الفوكيون بمالهم ونشَبِهم هرباً من جحافل أحشويرش الغازية في زمن غابرٍ فسلموا منه.

عسكر هورتنيسيوس هنا وصدّ هجمات العدوّ الليلية عليه، وتسلّل تحت جنح الظلام من ممرّات وعرة حتى بلغ پاطرونس Patronis وانضمّ إلى قوات سيلّلا التي خفّت لملاقاته. وبعد اتحاد القوتين استقر في مرتفعات خصبة تتوسط سهل إيلاتيا Elatea تُسمّى فيلوبيوتوس Philoboeotus يُغطيها الشجر الوراف الظلّ وتسقيها المياه المتحدّرة إلى الجوانب والسفوح. وسيلّلا يشيد بهذا الموقع، ويبدي إعجاباً شديداً بميزاته - فيما دوّنه.

كانت قوة الرومان في مواقعهم هذه مثار احتقار العدوّ لقلّة عددها. فهي تتألّف من ألفٍ وخمسمائة من الخيّالة، وأقلّ من خمسة عشر ألفاً من الرجالة. ولذلك نجح قادة قوّات البرابرة بتحويل أرخيلاوس عن رأيه في التربّص والانتظار ونشروا جيوشهم فغطت السهل بخيولها وعرباتها، ودروعها ودرقاتها، ومزّقت الفضاء جلبة الأقوام العديدة المصطفّة للمعركة وصياحها الداوي ولم تكن ابهة كسواتهم الفاخرة ونفاستها بأقل ابتعاثاً للرعب فدروعهم الصقيلة اللامعة المكفّتة تكفيتاً بديعاً بالذهب والفضة والألوان الزاهية التي تعرضها معاطفهم الميدية والصقلية، ممتزجة بالنحاس والفولاذ اللامع، تؤلّف مشهداً مريعاً ملتهباً كالنار المتحركة عندما تميل صفوفهم وتتنقل في مواقعهم مما جعل الرومان ينكمشون في استحكاماتهم. وعجز سيلّلا عن تبديد خوفهم بأيّ وسيلة أو منطق. فاضطر إلى القعود وعدم الحركة لأنه كره إرغامهم على القتال ضدّ رغبتهم، وصعب عليه أن يغدو موضع إهانة البرابرة به. واستخفافهم بقوّته جعلهم يطرحون جانب الحذر ويميلون إلى الفوضى وكانوا بالأصل قليلي الاهتمام بالضبط العسكري والخضوع للأوامر بسبب كثرة القوّاد فيهم. ولم يلازم المعسكر منهم إلاّ قليلٌ وغادره القسم الأكبر جماعات وزرافات للقيام بغارات سلبٍ ونهب في

الأنحاء المجاورة، كانت تقتضي منهم الغياب أياماً عن المعسكر. وذكر أنهم دكّوا مدينة پانوپه Panope ونهبوا ليباديا Labadea وسلبوا «مهبط الوحي» هناك دون أمر من قادتهم.

وهاجت كوامن غضب سيلّلا واحتدّ وهو يرى المدن المجاورة تصبح خراباً وتُدكّ دكّاً. ولم يسعه إبقاء الجنود ساكنين حيث هم فأخرجهم من المعسكر وأمرهم بتحويل نهر كفيسوس Cephisus عن مجراه القديم بحفر ترع. ولم يستثن من العمل أحداً، واشتد في معاقبة المقصّرين مقدّراً أن يضيقوا بهذا العمل ذرعاً وتنمو في أنفسهم الرغبة في القتال والتعرّض للخطر تعوّضاً عن مشقة العمل فكان مصيباً في تقديره. ففي اليوم الثالث من بدء العمل بينما كان سيلّلا ماراً... تقاطر عليه الجنود بين متوسّل وراجٍ منه أن يقودهم إلى المعركة. فأجابهم سيلْلا أن رغبتهم هذه في القتال إنما جاءت من ضيقهم بالعمل، لا من تحمّسهم للقتال، فإذا كانوا صادقين في رغبتهم ومستعدين عسكرياً فعليهم أن يتقلّدوا سلاحهم ويصلوا إلى هناك. وأشار بيده إلى الحصن الپاراپوتامي Parapotanine القديم الذي باتت مدينته المجاورة بلقعاً خراباً ولم يبق الا التل الصخري وهو مستوعرٌ صعب المرتقى من أي جهة فيه. يفصله عن جبل هديليوم Hedylium مجرى نهر أسوس Assus الذي يجري بينهما ليصبّ في نهر كيفيسوس عند قاعدة التل بتيّار سريع صاخبٍ، مما يجعل المرتفع منيعاً للغاية يشقّ احتلاله على الجنود. وكان سيلّلا قد لحظ أن فرقة «التروس النحاسية» العدوّة تسعى في طريقها لاحتلال ذلك الموقع فأراد أن يسبقها إليه ونجح في ذلك بعد بذله الجهود العظيمة مع جنوده. ولما أبعد أرخيلاوس عن الموقع تحوّل بقواته إلى خيرونيا. وأخذ الخيرونيّون الذين كانوا يحملون السلاح مع الرومان يرجون سيلّلا في المعسكر أن لا يتخلّى عن مدينتهم. فأرسل التريبيون غابينيوس Gabinius على رأس فرقة رومانية واحدة ثم أشفعها بالمقاتلين الخيرونيين الذين حاولوا عبثاً الوصول إلى المدينة قبل غابينيوس. فقد كان هذا متحمّساً لنجدة المدينة، سريعاً في حركته بصورة بزّ فيها طالبي النجدة أنفسهم. على أن جوبا يذكر أن إريشيوس Ericius هو الذي قاد الحملة إلى خيرونيا، لا غابينيوس. وهكذا تمّ إنقاذ المدينة في آخر لحظة.

ووردت من ليباديا، وكهف تروفونيوس إشاعات ونبوءات طيّبة عن النصر. وكان سكان تلك النواحي أدرى من الرومان بتفاصيلها وأكثر بثّاً لها. على أن سيلّلا يؤكد في الكتاب العاشر من مذكراته أن كوينتوس تيتيوس، وهو رجل ذو مكانة عند الرومان يزاول التجارة في بلاد اليونان، جاء إليه بعد ربح معركة خيرونيا وأنهى إليه أن النبوءة

الصادرة من تروفونيوس تشير إلى قتال ونصر ثانٍ في الموضع نفسه بعد وقت قصير. وتلاه جندي يُدعى سالڤينيوس Salvinius بقرار من الربّ حول مستقبل الأمور في إيطاليا. واتفق كلا الرجلين على رؤيتهما من هو شبيه بجوپتر الأولمبي مهابة وجلالاً وهيئةً.

وعبر سيلّلا نهر أسّوس وسار بمحاذاة قَدَمة جبل هديليوم ثم عسكر بالقرب من أرخيلاوس الذي اختار لقوّاته موقعاً حصيناً ما بين جبليّ أكونتيوم Acontium وهديليوم قريباً مما يدعى اليوم آسيا Assia. وظلّ موضع معسكره يُسمّى أرخيلاوس إلى يومنا هذا. واستراح سيلّلا يوماً واحداً ثم خلّف مورينا Murena وراءه بفرقة واحدة ولواءين لمشاغلة العدوّ بصورة مستمرة وإزعاجه بصورة متواصلة. وقصد هو ضفاف كيفيسوس وضحّى للآلهة، وبعد ختام المراسم الدينية استأنف سيره نحو خيرونيا لضمّ القوات هناك واستطلاع جبل ثوريوم Thurium الذي كان قد ركّز العدوّ فيه جانباً من قواته. وهو مرتفع يتعالى بصورة هَرَم حتى ينتهي بقمّة نطلق عليها قمة أورثوپاغوس Orthpgus وفي أسفله يجرى نهر موريوس Morius ويقوم معبد أپوللو ثوريوس. وهذه النسبة مشتقة من ثورو Thuro أمّ خيرون Chæron مؤسسة مدينة خيرونيا حسبما جاء في المدوّنات الغابرة. ويؤكد آخرون أن البقرة التي أعطاها أپوللو لقدموس Cadmus لتكون بمثابة دليل له، قد ظهرت في هذه البقعة وأن اسمها أُطلق على الموضع لأن لفظة ثور Thor هي الكلمة الفينيقية للبقرة.

وبوصول سيلّلا إلى خيرونيا خرج التريبيون الذي عُيّن لحراسة المدينة بجيشه وهو شاكي السلاح لاستقباله بإكليل من الغار في يده، فقبله سيلّلا منه والتفت إلى الجنود وحياهم وأخذ يحمّسهم على المعركة. وتقدّم كل من هومولوبخوس Homoloichus وأناكسيداموس Anaxidemus الخيرونيان إليه وعرضا عليه أن يزيحا العدوّ المسيطر على جبل ثوريوم بقوةٍ صغيرة إذ كان يوجد ممر لا يعرفه البرابرة يبتدئ من پطروخوس Petrochius ويمتد على طول الميوزيوم منحدراً إلى قمة الجبل مباشرةً. فيكون من السهل الانقضاض عليهم بصورة مفاجئة ورجمهم بالصخور من الأعلى أو إرغامهم على النزول إلى السهل. وبعد أن تأكد سيلّلا من إخلاصهم وشجاعتهم بشهادة غابينيوس سمح لهم بتنفيذ خطتهم في حين صفّ جيشه للمعركة وجعل الخيّالة على الجناحين واستبقى لنفسه قيادة الميمنة. وأناط قيادة المسيرة بمورينا ووضع في المؤخرة غالبا وهورتنسيوس مساعده فاتخذا المرتفعات موقعاً للألوية الاحتياطية يرقبان منه حركات العدوّ، الذي لوحظ أنه شكّل جناحه من أعداد خيّالة، ومشاة من صنف الأسلحة

الخفيفة، ورجّالة سريعي الحركة، ليكون أسرع إلى تغيير مواضعه، وأقدر على التحوّل والانتقال بخفّةٍ. ومن هذا استنتج الرومان أن العدوّ ينوي توسيع ميدان القتال للقيام بحركة التفاف حولهم وتطويقهم.

وفي تلك الأثناء كان الخيرونيون بقيادة أريشيوس الذي عيّنه سيلّلا يلتفّون خفية حول ثوريوم، ثم أظهروا أنفسهم للأعداء فجأة فأحدثوا فيهم اضطراباً وفوضى أعقبتها هزيمة، وقع فيها عدد من القتلى أغلبهم فتك بهم إخوانهم. لأنهم لم يبقوا في مواضعهم بل اندفعوا يهبطون المنحدر الوعر الحادّ فراحت رماحهم تخرق أجسامهم وأخذ بعضهم يدفع بعضاً إلى الجرف والأطنان الصخرية. وكان العدوّ يشدّ عليهم من فوق ويصيبهم بالجراح كلّما انكشفوا له حتى بلغ عددِ القتلى حول ثوريوم ثلاثة آلافٍ. وكان مورينا مستعداً للقاء الفلول الهاربة منهم فمزّقم وأبادهم. وتمكن بعضهم من اختراق النطاق المضروب عليهم للوصول إلى رفاقهم وقذفوا بأنفسهم إلى صفوفهم فاختلط الحابل بالنابل ودبّت الفوضى في الجيش مما أدّى إلى إشاعة الخوف والاضطراب في معظم الوحدات وآل إلى تردّد وتأخير عند القادة. ولم يكن هذا بالقليل لسيلّلا فقد انتهز فرصة اختلال صفوفهم وأسرع حالاً للهجوم وقطع بومضة عين الأرض التي تفصل بين الجيشين، فضيّع عليهم فرصة استخدام عجلاتهم المسلّحة التي تتطلب فسحة كبيرة من الأرض ليستفاد من فعاليتها وقوة تسليحها، في حين تكون ضعيفة قليلة الفائدة في الميدان القصير مثل الصاروخ الذي لا يملك مجالاً كاملاً.

هذا ما حصل للبرابرة حتى الآن. فقد اندفعت أولى عرباتهم اندفاعاً بطيئاً ولم تُحدث غير أثر تافه فقابلها الرومان بالصياح والضحك وأخذوا يطلبون المزيد منها سخريةً كما اعتادوا في الملاعب. وفي تلك اللحظة اصطدم الجيشان. قام جانب من البرابرة من جهتهم بتثبيت رماحهم الطويلة أفقياً وضمّوا تروسهم ضّماً محكماً بعضها إلى بعض مستهدفين المحافظة على سلامة خطّ قتالهم لوقوع ذلك على عاتقهم. بينما اندفع الرومان إليهم بعد أن استنفدوا مقذوفهم من الحراب القصار، وسيوفهم مشهرة متحاشين رماح العدوّ للوصول إليه بأسرع ما يمكنهم. وقد استفزّتهم رؤية خمسة عشر ألف عبدٍ وضعهم العدوّ أمام صفوفه، وكان قوّاد الملك قد أعلنوا عتقهم في المناسبة وجعلوهم في مستوى محاربيهم. ورُوي عن سنتورين (قائد ماءة) روماني أنه قال بهذا الصدد إنه لم يعرف قبل هذا عبيداً سُمح لهم أن يمارسوا أعمال السادة إلاّ في ساترناليا Saturnalia. ولم ينكسر هؤلاء أمام الفرق الرومانية المهاجمة بسبب عمق خطوط قتالهم ومتانتها، فضلاً عن شجاعتهم الفائقة، وإنما أخذوا يتراجعون ببطءٍ شديد، ولم

ينقلب تراجعهم المنظم هزيمة إلاّ بعد أن صبّ الرومان على مؤخّرتهم وابلاً من حرابهم الطائرة ومقذوفات من آلات هجومهم. فتفرّقوا وتبعثروا.

وفيما كان أرخيلاوس ينشر ميمنته مسافة بعيدة مستهدفاً تطويق عدوّه، انحدر هورتنسيوس بألويته الاحتياطية الخمسة بشدة لمهاجمته. إلاّ أن أرخيلاوس باغته منقضّاً عليه بألفين من الخيّالة. ولشدّة هذه الهجمة وللتفوّق العددي أُرغم على الانسحاب إلى الأراضي المرتفعة، ليجد نفسه وهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن بقية جيش سيلّلا وينقطع اتصاله بها فزادت احتمالات تطويق قواته. لولا أن خفّ إليه سيلّلا تاركاً الجناح الأيمن الذي لم يدخل المعركة بعد. فأدرك أرخيلاوس نيّة خصمه من الغبار الذي تثيره خيّالته، فما كان منه إلاّ أن استدار إلى الجناح الأيمن الروماني الذي بقي بدون قائد بعد أن تركه سيلّلا مؤمّلاً أن يحقق شيئاً بمباغتته. وانقضّ تاكسيليس في تلك اللحظة على مورينا بفرقة «التروس النحاسية» فانطلقت صيحتا قتالٍ من ميدانين في آن واحدٍ ردّدت التلال صداهما. ووقف سيلّلا موتّر الأعصاب حائراً لايدري إلى ايّ جهة يتحرّك. ثم إنه قرّر العودة إلى جناحه الأيمن. وأرسل أربعة ألوية «Cohort» بقيادة هورتنسيوس لشدّ أزر قوات مورينا وأمر اللواء الخامس الباقي أن يتبعه وساقه مسرعاً إلى الميمنة. وكان هذا الجناح رغم غياب سيلّلا عنه قد صمد أمام أرخيلاوس ولم ينل فريق من الآخر مأرباً حتى جاء سيلّلا فغير الموقف بهجمة جريئة واحدة تمكن بها من زحزحة العدو إلى الخلف. وحمل عليهم حملة صادقة فرجحت كِفّته وانقلب يطاردهم فانفرط عقدهم واختلّ نظامهم وأخذوا يفرّون نحو النهر وجبل أكونتيوم. على أن الخطر الذي كان يتعرّض له مورينا لم يغب عن بال سيلّلا فأسرع إليه ليجده مستظهراً على قوات العدوّ فوحّدا قواتهما لاستئناف مطاردة العدوّ.

في هذه الوقعة قُتل كثيرٌ من البرابرة في ميدان المعركة نفسها وتمّ الفتك بعدد أكبر أثناء محاولتهم ولوج معسكرهم. ولم ينجُ من ذلك الجيش اللجِب غير عشرة آلاف وصلوا خلقيس سالمين. ويكتب سيلّلا في مذكراته أن خسائر الرومان لم تتعدّ أربعة عشر مفقوداً عاد اثنان منهم في آخر المساء. وأمر سيلّلا بنقش أسماء مارس وڤكتوري وڤينوس على أنصاب النصر التذكارية التي أقامها. يريد بذلك أن يوحي بأن مداخلة الحظّ في نصره لم تكن بأقلّ أثراً من الشجاعة وحُسن القيادة. وأقيم نُصب تذكاري للمعركة في عين البقعة التي لقي فيها أرخيلاوس أوّل هزيمة له. وهي في أرض سهلة قريبة من جدول ماء مولوس Molus. كذلك أقيم نُصب تذكاريّ على قمّة جبل ثوريوم حيث بوغت البرابرة وأُجبروا على النزول منهزمين. ونُقش عليه باللغة اليونانية ما يفيد

أن الفضل في مجد ذلك اليوم يعود إلى هومولويخوس وأناكسيداموس. واحتفل سيلّلا بانتصاره هذا في مدينة ثيبة احتفالاً جماهيرياً في ملعب بُني خاصةً لهذه المناسبة بالقرب من بئر أوديپ نكاية بالثيبيين. وكان محكّمو المباريات من اليونانيين الذين تم اختيارهم بحسب المدن.

وصبّ جام حقده على الثيبيين وهو حقد لم يكن يعرف حدوداً. فصادر نصف أراضيهم وأوقفها على معابد جوپتر وأپوللو. وأمر أن يُسدّد من غلاّتها كل الأموال التي اغتصبها من أقوات هذين الربّين.

وأُنهي إلى سيلّلا أن فلاكوس وهو من حزب معارضٍ له قد انتُخب قنصلاً، وأنه الآن يمخر عُباب البحر الأيوني على رأس جيش زعم أنه سيحارب به ميثريدات. والحقيقة أنه كان يقصده به. فعجّل سيلّلا بالسير إلى ثساليا لمقابلته. إلاّ أن أنباءً وصلته من كل الجهات تُجمع على أن البلاد التي خلّفها وراءه قد وقعت فريسة في يد جيش ملكيّ لا يقلّ عدداً وقوةً عن سابقه فأحالها خراباً ودمّرها تدميراً. وخلاصة الأمر أن دوريلاوس Dorylaus وصل خلقيس بأسطول ضخم يحمل على ظهره ثمانين ألفاً من خيرة جنود ميثريدات وأحسنهم نظاماً وتدريباً نزل بهم البر فوراً وغزا بهم بويوسيا مؤمّلاً باحتلال هذه البلاد أن يستفزّ سيلّلا ويجرّه إلى معركة، غير مُلق بالاً إلى نصح أرخيلاوس. ففي رأيه أن الخيانة وحدها هي التي أدّت إلى خسارة الحرب الأخيرة، وليس من المعقول أن تُباد هذه الألوف المؤلّفة من المحاربين عن بكرة أبيها دون خيانة. على أن سيلّلا عاجله بالردّ المفحم الواضح بقوله إن أرخيلاوس من الرجال الفطنين الأذكياء، وهو يعرف الشجاعة الرومانية معرفة خبير. فكان أوّل من ارتأى خطل فكرة تحكيم السيف في هذه الحرب بعد أن اشتبك مع سيلّلا عدّة مرّات بالقرب من تيلفوسيوم Telphossium وفضّل اللجوء إلى خطة الإنهاك وإطالة فترة الحرب وإضاعة الوقت وإنفاق المال.

وعلى أية حالٍ كانت طبيعة الأرض المجاورة لأورخومينوس حيث يعسكر الجيشان مما يشجّع أرخيلاوس على القتال بعض الشيء لأن الميدان يصلح جداً لجيش متفوّق على غريمه في صنف الخيّالة. وامتاز هذا السهل بالذات دون سائر بطاح بويوسيا المشهورة بجمالها واستوائها بأنه يمتد من مدينة أورخومينوس امتداداً لا انكسار فيه، كراحة اليد خالياً من النبت والشجر حتى ينتهي بالمستنقعات التي تضيع فيها مياه ميلاس. وهو النهر الصادر من أنحاء قريبة لأورخومينوس. والوحيد بين الأنهار اليونانية الصالح للملاحة من منبعه لعمق مياهه. وهو يفيض كالنيل Nile في الانقلاب الصيفي

وتنمو على ضفافه أنبتة كالتي تنبت على ضفاف النيل إلاّ أنها تكون قصيرة الساق غير مثمرة. ولا يجري مسافة طويلة قبل أن يختفي مجراه الرئيس بين قيعان المستنقعات الكثيفة الأشجار. على أن فرعاً صغيراً منه يصبّ في نهر كيفيسوس بالقرب من الموضع الذي يقال إن البحيرة هناك تُنتج أفضل القصب لصنع النايات.

وعسكر الجيشان أحدهما مقابل الآخر وبقي أرخيلاوس عاطلاً ساكناً، بينما أشغل سيلّلا جنوده بحفر المواضع والاستحكامات من مجنبتيه حتى إذا وفّق في دفع العدوّ من الميدان المنبسط الصلب فربما استطاع إرغامهم على الاتجاه نحو المستنقعات. أمّا العدوّ فلم يسعه الانتظار أكثر مما انتظر وخرج باندفاع عظيم وجماعات كبيرة فور تلقّيه أوامر قوّاده بذلك فشتّتوا شمل الرومانيين الذين كانوا يشتغلون في الاستحكامات. وهرب بنظام مختلّ معظم الخفراء الذين خُصّصوا لحماية العمل. وعندها ترجّل سيلّلا عن حصانه بقفزةٍ واختطف لواءً واندفع يرفعه بيده إلى وسط الفلول الهاربة ويصيح بملء فيه:

- سيكون لي الشرف أن أسقط هنا أيها الرومان. وأما أنتم فعندما يسألونكم أين خنتم جنرالكم وغدرتم به فتذكروا وقولوا إنه أورخومينوس!

فعاد رجاله ينتظمون صفوفاً وقد أثّرت فيهم أقواله وأقبل لواءان لنجدته من الجناح الأيمن فحمل على العدوّ بهم وغيّر وجه القتال. ثم انسحب مسافة قصيرة لإراحة رجاله ثم عاد يستأنف بناء الاستحكامات لعزل معسكر العدوّ وقطع مسالكه، وكرّوا ثانية بنظام أحسن من سابقه. وفي هذه المعركة خرّ ابن زوج أرخيلاوس المدعو ديوجينس صريعاً هو يقاتل في الميمنة بعد أن أبلى خير بلاءٍ وأنهى حياته نهاية شريفة. وفي النهاية دُفِعوا مرغمين إلى استحكاماتهم وقضوا ليلة ليلاء بين قتلاهم وجرحاهم. وفي اليوم التالي أخرج سيلّلا رجاله إلى مواقع العمل فتمكنوا من إكمال خطوط الاستحكام. ولما برز العدوّ إليهم بأعداد كبيرة للاشتباك معهم عاجله سيلّلا بالهجوم وألحق به هزيمة نكراء ولم يجرؤ جندي منهم على الصمود واستولى على معسكرهم عنوةً. وكان القتلى كثيرين حتى اصطبغت المستنقعات بالدم وامتلأت البحيرة بالجثث. ولا يزال الناس إلى يومنا هذا بعد مرور مائتي عام على المعركة يعثرون على خُوَذٍ بربرية وقسيّ وقطع حديدية ودروع وسيوف مدفونة عميقاً في الطين. والى هنا نكتفي بهذا القدر من الحديث عن وقعتي خيرونيا وأورخومينوس.

وفي روما كان أفاضل القوم وسراة الرومان يعانون الأمرّين من ظلم سينّا وكاربو Carbo وقسوتهما، حتى اضطر كثير منهم إلى ترك المدينة والاحتماء بمعسكر سيلّلا

تخلّصاً من الطغيان وابقاءً على أرواحهم. حتى اجتمع لديه منهم ما هو أشبه شيء بمجلس الشيوخ. وغادرت زوجه ميتلّلا مع أولاده المدينة خلسة وبعثت إليه بمن يخبره بأن خصومه قد أحرقوا منزليه في الريف والمدينة وطلبت منه أن يفعل شيئاً لمساعدة الوطن. فتناهبته الحيرة ولم يدرِ أيّ سبيل يسلك فما سمع عن الفظائع التي تُرتكب في الوطن لم يُبق من صبره بقيّة. وتركه هذا العمل الجبّار، الحرب مع ميثريدات دون الوصول إلى نتيجة حاسمة، أمرٌ من الصعوبة بمكان. ولم تطل به الحيرة فقد أتاه أرخيلاوس التاجر الديلوسيّ بمخرجٍ وأملٍ في الوصول إلى تسوية سلميّة مع العدوّ. جاء هذا موفداً من أرخيلاوس قائد الملك يحمل منه تعليمات سريّة للتفاوض فرحّب سيلّلا بالفكرة ترحيباً حارّاً. ورغب في عقد اجتماع عاجل مع القائد أرخيلاوس شخصياً. فتمّ له ما أراد وجرى الاجتماع على الساحل بالقرب من دليوم حيث يقوم معبد أپوللو. وافتتح أرخيلاوس باب الحديث وبدأ يدعو سيلّلا إلى التخلّي عن مطالبته بآسيا وپونطس وأن يُقلع بسُفنه ليخوض حربه في روما، مزوّداً من الملك بالمال والسفن وكلّ ما يحتاج إليه، فقاطعه سيلّلا طالباً منه أن يقصد من حرصه على مصلحة ميثريدات وأن يطلب العرش لنفسه ويغدو حليفاً للرومان بتسليم الأسطول. فأظهر أرخيلاوس استنكاره لهذه الخيانة وترفّعه عنها. فواصل سيلّلا الكلام قائلاً:

- أنت يا أرخيلاوس الكيدوكي موطناً، والعبد لملك بربريّ، إن يسرّكَ هذا النعت يا صديقي، ألا تشعر بجريمتك فيما يخلّ بمقاصد الشرف لموقفك هذا إزاء العروض الكبيرة. ومع هذا تجرؤ عليّ أنا سيلّلا الجنرال الروماني فتكلمني في موضوع الخيانة؟ كأنك لست عين أرخيلاوس الذي ولّى الأدبار في خيرونيا بشرذمة هي كل ما تبقّى من مائة وعشرين ألف رجل، ولست ذلك الذي لجأ إلى مستنقعات أورخونيوس لمدة يومين وخلّف مسالك بويوسيا مسدودة بأكداس الجثث.

وعلى إثر ذلك عدّل أرخيلاوس من لهجته، وأخذ يرجو منه التخلّي عن فكرة القتال، وعقد صلح مع ميثريدات. فوافق سيلّلا وتمّ الاتفاق على الشروط. وهي تنصّ على أن يخرج ميثريدات عن حيازة آسيا وبافلاغونيا Paphlagonia، ويعيد بيثينيا إلى ملكها نيقوديمس، وكپدوكيا إلى ملكها أريو بارزان، وأن يدفع للرومان ألفي تالنت، مع تسليمهم سبعين سفينة حربية بكلّ مهماتها. وفي مقابل ذلك يتعهد سيلّلا بأن يحترم ويؤيّد سيادته على سائر ممالكه وأن يُنزله منزلة الحليف الروماني. وبناء على هذه الشروط ساق سيلّلا جيشه إلى الهللسپونت عبر ثساليا ومقدونيا يصحبه أرخيلاوس، فأظهر له غاية الإكرام والرعاية حتى أنه أوقف مسيرة الجيش عند ابتلائه بمرض خطير

في لاريسّا وتوفّر على العناية به مثل عنايته بقائدٍ من قوّاده أو زميل له في الآمرية. وهذا ما أطلق الألسنة المرتابة تتحدث عن وجود دسيسة ولعبة قذرة في معركة خيرونيا. ومما عزّز الشكّ ما لوحظ أيضاً من أن سيلّلا أطلق سراح كل أصحاب ميثريدات الذين وقعوا في يده أسرى حرب، إلاّ أرسطيون الطاغية الذي كان يوجد بينه وبين أرخيلاوس عداء، تمّ قتله بالسمّ في السجن؛ كما أنه منح هذا القائد الكبدوكي عشرة آلاف فدّان من أراضي يوبيا وخلع عليه أيضاً لقب «صديق الرومان وحليفهم». وسيلّلا يردّ على كل هذه التّهم ويبرّرها في مذكراته.

ووصل سفراء ميثريدات وأعلنوا قبولهم بالشروط، خلا تمسّكهم بفلاغونيا. وأمّا عن تسليم السفن فقد قالوا إنهم لم يحاطوا علماً بهذا الاتفاق فصاح سيلّلا غاضباً:

«ماذا تقولون؟ أيتمسّك ميثريدات بفلاغونيا؟ وأما عن السفن أفتراه ينكر الاتفاق؟ كنت أظنه سيلقي بنفسه على قدميّ شاكراً إبقائي على ذراعه اليمنى ليس إلاّ. تلك الذراع التي أرسلت عدداً كبيراً من الرومان إلى حتوفهم.
ولكنْ صبراً فلن يلبث أن يتكلّم بلهجة أخرى عندما أندفع إلى قلب آسيا.
وعندئذ فليجلس مرتاحاً في برغاموس ويدير دفّة حرب لا يراها قطّ».

وقف السفراء صامتين وقد شاعت الرهبة في نفوسهم. إلاّ أن أرخيلاوس حاول بالرجاء والتوسّل تخفيف غضبه وأمسك بيده اليمنى وأخذ يبكي. وفي وسط الاضطراب تمكن من الحصول على إذن بالذهاب إلى ميثريدات شخصياً، فإما يتمكن من التوسّط في عقد سلم يرضى عنه سيلّلا، وإما يقتل نفسه. وبعد أن رحل قام سيلّلا بشنّ غارة في ميديكا Medica وعاد منها بعد أن طرد سكانها وشرّدهم في مساحات واسعة. وفي مقدونيا استقبل أرخيلاوس بالقرب من فيليّي Philippi فأعلمه هذا أن كلّ شيء تمّ وفق المرام وأنّ ميثريدات يرغب رغبةً مخلصة في مقابلته. والسبب الرئيس للمقابلة هو فيمبريا Fimbria الذي كان يتقدم من ميثريدات بجيشه بعد أن قهر قوّاده وفتك بزميله القنصل فلاكوس الذي هو من الحزب المعارض. فآثر الملك البربري خوفاً منه، أن ينشد صداقة سيلّلا.

وجرت المقابلة في دردانوس Dardanus، الواقعة في طرواد Troad. وكان في معيّة ميثريدات مائتا سفينة ومن القوات البرية عشرون ألف محاربٍ راجل وستة آلاف فارس ورتل كبير من العربات المسلحة. أمّا سيلّلا فقد جاء للاجتماع بأربعة ألوية فقط من المشاة ومائتي فارس. وعندما دنا ميثريدات ومديده عاجله سيلّلا قائلاً:

- هل هو راغب في إنهاء الحرب وفق الشروط التي سلّم بها أرخيلاوس أم غير راغب؟

ولمّا وجد الملك صامتاً لا يردّ، استطرد يقول:

- ما خبرك؟ الا ينبغى على الطالب أن يكون البادئ بالكلام؟

وألا يكون من حق المنتصر أن يسمع صامتاً؟

ولما شرع ميثريدات بعرض وجهة نظره، راح يلقي بتبعة الحرب على الآلهة من جهة، ويلوم الرومان عنها من جهة أخرى. فاعترضه سيلّلا قائلاً: منذ زمن بعيد نُقل له أن ميثريدات متحدث قويّ العارضة وها هو الآن يرى بأمّ عينه حقيقة ذلك، ويتأكد بنفسه بأنه لا يعدم الحجج الخلابة والمزاعم الظاهرة المنطق في دفاعه عن أبعد القضايا عن العدالة وأشدّها بُطلاناً، ثم استطرد يندّد به تنديداً قاسياً ويقدح فيه قدحاً عنيفاً مذكراً إياه بما أقدم عليه من الاعتداءات وهَتْكِه من الحُرمات.

وأعاد السؤال عليه مرّة أخرى: هل هو راغب في المصادقة على المعاهدة التي عقدها أرخيلاوس نيابة عنه، أم غير راغب؟ ولما ردّ ميثريدات بالإيجاب تقدّم منه سيلّلا واحتضنه وعانقه. وبعد قليل أقبل الملكان نيقوديمس وأريو بارزان وتصافياً مع ميثريدات الذي أقلع إلى پونطس بعد أن سلّم لسيلّلا مائتي سفينة، وخمسمائة من رماة القسيّ الثقيلة (القَتَلة).

أدرك سيلّلا أن الجنود غير راضين عن الصلح. فقد بدا لهم من الفظاعة المتناهية أن يشهدوا الملك الذي كان ألدّ عدوّ لهم، ومن تسبّب في هلاك مائة وخمسين ألف روماني في آسيا خلال يوم واحدٍ، يبحر الآن بأمان حاملاً أموال آسيا وغنائمها التي سلبها منها وأخضعها للجزية أربع سنوات. فزعم سيلّلا لهم في معرض الدفاع أنه لم يكن يستطيع التغلّب على فيمبريا الذي كان معسكراً بجيشه في ثياتيرا Thyatira فأدركه وضرب خيامه حواليها في موضع غير بعيد عنه وراح يحصّن معسكره بحفر خندق. فخرج جنود فيمبريا لتحية رجال سيلّلا بثيابهم العادية عُزّلاً، وطفقوا يساعدونهم في عملهم. ولما شهد فيمبريا هذا التغيير وفهم أن سيلّلا لا يقبل أية مصالحة انقلب إلى المعسكر وبخع نفسه.

وفرض سيلّلا على آسيا ضريبة عامة قدرها عشرون ألف تالنت وجرّد الأُسر مما تملك كل واحدة على انفراد، بأسلوب تهكّمي مستهتر، وبسكن الجنود الطويل عند العائلات. فقد أصدر أمراً يقضي بأن يدفع كل ربّ أسرة مستضيفٍ مبلغ أربعة «تترا دراخما»] يومياً لضيفه الجنديّ وأن يقوم بإطعامه وإطعام من يدعوه إلى منزله من

أصدقائه للعشاء مهما بلغ عددهم. وان «الستوريون» يجب أن يدفع له خمسين دراخما يومياً مع بذلة بيت كاملة وبذلة أخرى للخروج.

انطلق من إفسّس بكلّ أسطوله إلى پيريوس فوصلها في اليوم الثالث وهنا تقبّل الأسرار الإلهية. وضبط مكتبة أپلليكون Apellicon التاياني Teian وهي تضّم معظم مؤلفات أرسطوطاليس وثيوفراستوس التي لم ترَ بعد طريقها إلى التداول بين العموم. وعندما نُقلت برمّتها إلى روما قيل إن معظمها انتقل إلى حيازة تيرانيون Tyrannion النحوي، وإن أندرونيكوس الرودسي الذي أفلح بوسائله الخاصّة في استنساخ عدد كبير من أُصولها جعلها في متناول يد الجميع، ورتّب لها القوائم والكاتالوكات الشائعة الآن. ويبدو أنّ المشّائين Peripateties الأقدمين كانوا في الواقع أناساً كثيري العلم والاطّلاع إلاّ أنهم لم يكونوا على معرفة واسعة أو وقوف تامّ على كتابات أرسطوطاليس وثيوفراستوس لأن ثيوفراستوس أوصى بكتبه إلى وريث نيليوس Neleus السبيسي Scepsis، فوقعت بأيدٍ مهملة جاهلة لا تقدّر قيمة العلم.

وفي أثناء إقامة سيلّلا في ربوع أثينا أصيبت قدماه بآلام شديدة ورثيةٍ تذهب بالحسّ، مما يدعوه سترابو Strabo ببوادر النِّقرِس غير الواضحة. فقام برحلة إلى أيدپسوس Aedepsus للانتفاع بينابيعها الحارّة، محاولاً في الوقت نفسه الابتعاد عن كل عوامل القلق وتناسيها ومنفقاً أوقاته مع الممثلين. وفيما كان يتمشّى يوماً على ساحل البحر جاءه بعض الصيّادين بسمكة نادرة فسرّ كثيراً بالهدية وعندما علم من سؤالهم أنهم من أهالي هاليي Halœæ] قال:

- ماذا؟ أما يزال يوجد أحياءٌ من سكان هاليي؟

فبعد انتصاره في أورخومينوس خرّب ثلاث مُدن بويوسيّة في إضرام النار خلال ملاحقته العدوّ الهارب، وهي أنثيدون Anthedon ولارمنا Larymna وهاليي. ولم يدرِ الصيادون بما يجيبون فرَقاً ورعباً، فهشّ لهم سيلّلا وبشّ. وطلب منهم أن لا يخشوا شيئاً وأن يذهبوا بسلام فالشفاعة التي جاؤوا بها إليه لم تكن بالقليلة. ويقول الهاليون إن هذا الحادث كان أول ما شجّعهم على لمّ شملهم والعودة إلى مدينتهم.

واجتاز سيللا بجيشه ثساليا ومقدونيا إلى ساحل البحر وتهيّأ بألفٍ ومائتي سفينة للإقلاع من ديرّاكيوم Dyrrhachium إلى برنديزيوم. وعلى مسافة غير بعيدة من هناك تقع أپوللونيا وبالقرب منها نيفيوم Nyphæum وهي بقعة من الأرض تكسوها الأشجار الخضر والمروج التي تطرّزها عدّة ينابيع ناريّة يخرج منها اللهب. والشائع بين الناس أنه

كان يوجد هنا «ساتير»[3] من تلك التي يصوّرها المصوّرون وينحتها النحّاتون أُلقي القبض عليه وهو نائم وجيء به إلى سيلّلا فسئل عن طريق عدد من المترجمين عمّا يكون. وبعد معاناة الكثير معه أخرج بالأخير صوتاً غليظاً غير مفهوم كصهيل الخيل ويُعار الجِدي، فأمر سيلّلا برفعه عنه وهو فزع متعوّذ لدليل الشؤم هذا.

وفي ساعة الرحيل شاع القلق في نفس سيلّلا لئلا ينفرط عقد الجيش وينحلّ ويتفرّق جنوده فرادى بين المدن فور نزوله البرّ الإيطالي، ولكنهم تحالفوا فيما بينهم بمحض اختيارهم على البقاء إلى جانبه جبهة متراصّة وأن لا يُلحقوا ايّ ضررٍ بإيطاليا بصدق رغبةٍ فيهم. ثم لما وجدوه يعاني ضائقة مالية قاموا بجمع تبرّعات فيما بينهم من تلقاء أنفسهم على ما قيل، واكتتب كل واحدٍ منهم بمبلغ من المال حسب طاقته، إلاّ أن سيلّلا لم يقبل تبرّعاتهم، وراح يُثني ثناءً عاطراً على إخلاصهم ويرفع من معنوياتهم ويشجّعهم. واستظهر بهم على خمسة عشر قائداً تصدّوا له وقادوا في حربه أربعمائة وخمسين لواءً، على ما ذكر هو نفسه. وأسهم تدخُّل العناية الإلهية الواضح في نجاحه الرائع بدور رئيس. إذ بينما كان يضحّي قرب تارنتوم أوّل ما وطئت قدمه البر الإيطالي، ظهرت في كبد الضحيّة صورة تاج من الغار يتدلّى منه شريطان. وقبل وصوله إلى كامپانيا القريبة من جبل هفيوس Hephæus شوهد جديان رشيقان في رائعة النهار وهما يقتتلان ويأتيان بكل ما يأتيه رجلان من حركات في ساحة القتال. وتبيّن أنهما مجرّد خيال ظلّ ارتفع عن الأرض تدريجاً وتلاشى في الهواء مثل الأخيلة والصور الموهومة التي تظهر عادة في السحب وترّق وتستدقّ حتى تغيب تماماً عن البصر. بعد هذه الرؤيا بزمن وجيز وفي موضع ظهورها بالضبط هاجمه ماريوس الأصغر، ونوربانوس Norbanus القنصل بجيشين جرّارين من دون إصدار أمرٍ بخوض المعركة، وقبل أن يتوفّر على تنظيم رجاله بحسب فِرقهم. ومع هذا فقد حقق الغلبة عليهم بصولة عنيفة عامة وشجاعة متناهية ولاحق نوربانوس حتى حصره ضمن أسوار كاپوا Capua بعد أن جندل سبعة آلاف من رجاله. والشائع أن انتصاره هذا كان السبب في بقاء الجنود وعدم تفرّقهم في المدن، والسرّ في تعلّقهم به واستهانتهم بعدوّهم رغم تفوّقه عليهم تفوقاً لا حدَّ له.

ويذكر أيضاً: أنه لقي عبداً لپونطيوس Pontius أثناء وجوده في سلفيوم Silvium

---

(٣) Satyr: إله الغابة. ذو هيئة بشرية وذيل وأذني حصان. أو كما يصوّره الرومان بأذني جدي وذيله وساقيه وقرنيه المنفردين [م. ت].

وهو في حالة انجذابٍ إلهي يتنبأ قائلاً إنه جاء إليه بسلطان النصر والسيف من بللونا ربّة الحرب، وإن لم يستعجل فستلتهم النار بناية الكاپيتول. وقد حصل هذا فعلاً في اليوم الذي عيّنه الرجل أي في السادس من شهر كونتيليس الذي يُسمّى «تموز - جولاي» في أيامنا هذه.

وفي فيدنتيا Fidentia أيضاً بلغت ثقة ماركوس لوكوللوس (وهو أحد قواد سيلّلا) بحماسة جنوده مبلغاً لم ير معه حرجاً من مواجهة خمسين لواءً من جيش العدو وهو لا يملك غير خمسة عشر. إلاّ أن افتقار كثير من رجاله إلى السلاح أرغمه على تأخير هجومه. وفيما هو يفكر في وضعه هذا مُنتظراً، إذ بريح رخاء تهبّ نحو قطعاته من المروج القريبة، حاملة إليه مقداراً من الأزهار لتلقيها على رجاله فتهبط مستقرة على خوذهم وتروسهم بأشكال منتظمة رائعة. فظهر جنوده في نظر خصومهم بمظهر المتوّجين بأكاليل الزهر. فزاد الأمر في حماستهم واندفاعهم وخاضوا المعركة وانتصروا وأوقعوا بالعدوّ ثمانية آلاف قتيل واستولوا على معسكرهم. إن لوكوللوس هذا هو أخٌ للوكوللوس الذي حقق النصر الحاسم فيما بعد على ميثريدات و ديكران Tigranes.

تلفّت سيلّلا فما وجد إلاّ جيوشاً عدوّة تفوقه عدداً وعُدّة، وتتميّز بالقوة والبأس. فرأى مخرجه الوحيد باستخدام الحيلة والدهاء. وبدأ بدعوة سكيپيو القنصل الآخر إلى عقد معاهدة صلح. فقبل هذا اقتراحه مسروراً. وأعقب ذلك عدة اجتماعات ومؤتمرات، كان سيلّلا يقصد منها التأخير والإطالة بفتح أبواب حُجج وتَعِلّات جديدة، بينما انصرف خلالها إلى إفساد رجال سكيپيو بجنوده أنفسهم ولم يكونوا يقلّون عنه خبرة في كل فنون الإغواء. فراحوا يدخلون معسكرات العدوّ ويبادلونه الأحاديث. وبذلك كسبوا جانباً منه بالمال العاجل، وجانباً بالوعد الآجل، وآخرون بمعسول الكلام، وحُسن الإقناع.

وهكذا فعندما اقترب سيلّلا من معسكر سكيپيو بألويته العشرين وطفق جنوده يحيّون جنود الآخر، بادر هؤلاء بردّ تحاياهم والخروج من معسكرهم للانضمام إليهم إلى أن خلا معسكر سكيپيو منهم تماماً وبقي هو وحده في خيمته ولا ثاني معه. بعد أن استخدم سيلّلا ألويته العشرين طُعماً لاصطياد الألوية الأربعين وضمّهم إليه، مشى إلى المعسكر الخالي بألويته الستين واحتلّه.

ونُقل عن كاربو قوله بهذه المناسبة: «عليّ أن أتصدّى للثعلب والأسد في صدر سيلّلا. والثعلب هو أكثر ما يشغل بالي منه».

وبعد ردح من الزمن تحدّى ماريوس الأصغر، سيلّلا لمعركة في سغنا Signa،

وكان يقود خمسة وثمانين لواءً. لم يعرف شوق سيلّلا حدّاً في قبول هذا التحدي لتقرير مصير المعركة في ذلك اليوم بالذات. لأنه شاهد في الليلة السابقة له حلماً. رأى فيما يرى النائم ماريوس الأب (وكان قد مرّ على وفاته زمنٌ) ينصح ابنه بالحذر من خوض معركة في اليوم التالي لأنها ستكون القاضية عليه. ولهذا السبب كان سيلّلا يستعجل القتال في ذلك اليوم، وبعث يستقدم دولابلّلا Dolabella الذي كان معسكراً بقوّاته على بعض مسافةٍ منه. ولكنّ الإرهاق استولى على جنود هذا القائد لأنهم كانوا يسيرون ويقاتلون العدوّ الكامن لهم، الذي كان قد أغلق عليهم كل الطرق والمسالك بقواته. ومما زاد في الطين بلّة رداءة الطقس العاصف الماطر وهو أكثر ما اضرّ بهم. وأقبل أمراء الوحدات وكبار الضباط على سيلّلا ورجوا منه تأجيل القتال إلى يوم آخر وعرضوا عليه منظر الجنود وهم مستقلون على الأرض من فرط الإعياء مسندين رؤوسهم إلى تروسهم ليصيبوا بعض راحة. فنزل عند رأيهم بكثير من التردد وأصدر الأوامر بضرب الخيام. وما إن باشروا في إقامة المتاريس وتخطيط الخندق حتى شاهدوا ماريوس يندفع راكباً في طليعة رجاله يريد اغتنام فرصة اضطراب نظام وانفراط عقدهم لتشتيت شملهم. وهنا حققت الآلهة حلم سيلّلا. فقد اعترت جنوده سَورة من الغضب الشديد وتركوا أشغالهم وغرسوا رماحهم على حدود الخندق وانقضّوا بسيوفهم والتحموا مع العدوّ وهم يصيحون صيحات الحماسة والشجاعة فلم يقوَ العدوّ على الصمود وأبدى مقاومة ضعيفة وفقد عدداً كبيراً من القتلى أثناء فراره. وهرب ماريوس إلى برينست Præneste. فوجد الأبواب موصدة فشدّ إلى وسطه حبلاً وألقى برأسه من أعلى السور، ورفع به. ويؤكد بعض الكتّاب ومنهم فينستيلاّ Fenestella أن ماريوس لم يكن يعرف شيئاً عن القتال فقد آوى إلى ظلٍ ليصيب بعض الراحة بعد إرهاقٍ اعتراه جرّاء قيامه بواجبه الشاقّ، عندما أعطيت إشارة القتال، وكان النوم في عينه لما بدأت هزيمة رجاله. وعلى رواية سيلّلا فإنه قتل من العدوّ عشرين ألفاً، وأخذ ثمانية آلاف أسير في حين لم تزد خسارته عن ثلاثة وعشرين رجلاً. ولقي قوّاده بومبي Pompey وكراسوس وميتللوس وسرڤيليوس نجاحاً مماثلاً. فبخسارة قليلة أو بدونها فتكوا بعدد هائلٍ من العدوّ، حتى أن كاربو المروّج الأول للقضية اضطر إلى ترك قيادة جيشه وهرب ليلاً ثم أقلع إلى ليبيا.

ويبرز له في آخر مرحلة من هذا الصراع تيليسينوس Telesinus السامنيّ Samnite مثل بطل قضت القرعة أن يوضع اسمه في آخر قائمة المتبارين مع البطل الفائز المرهق ولم يبق بينه وبين الإطاحة بسيلّلا وهَزْمه إلاّ قيد شعرة. وكاد يقضي عليه أمام روما

نفسها. فبمساعدة زميله في القيادة لامپونينيوس Lamponinius اللوقاني تمكن من تحشيد قوات كبيرة وأسرع بها إلى پرينيست لفكّ الحصار عن ماريوس إلاّ أن سيلّلا كان قد سبقهما، وجَدّ پومپي في مؤخّرتهما يريدان الانقضاض عليهما وهما محصوران من أمام ومن خلف. وكان تيليسينوس عسكرياً قديراً وجندياً مقداماً فظلّ يقظاً ليلتها وزحف تحت ستار الظلام بكلّ جيشه نحو روما وبلغها والليل داجن فعسكر أمامها على بعد عشرة فرلنغات من الباب الكولليني Colline. وقد أنعشه نجاحه وأفعمه أملاً تفوّقه الاستراتيجي على أشهر قادة العصر. وفي تباشيرِ الصبح فوجئ بهجمة قام بها شبّان المدينة النبلاء فصرع عدداً كبيراً منهم، وبينهم إپيوس كلوديوس الذي عُرف بسموّ خُلقه وطيب محتده. ومن السهل أن يتصوّر المرء حالة المدينة من الهرج والمرج، والفزع الذي انتاب النساء خصوصاً فصرن يتراكضن هنا وهناك ويصرخن حينما كان العدوّ قد اقتحم المدينة فعلاً. واستمر الاضطراب يعتمل في النفوس حتى شوهد بالبوس Balbus ممتطياً حصانه على رأس سبعمائة من الخيّالة بعث بهم سيلّلا وهم ينهبون الأرض نهباً ولا يقفون إلاّ لمسح العرق من أجساد حيواناتهم ثم يسرجونها ثانية ويستأنفون عدوهم. ولم ينتظروا. إذ ما إن وصلوا مواقع العدوّ حتى انقضّوا عليه. وفي تلك الأثناء بدت طلائع جيش سيلّلا ودخل الميدان مصدراً أمره لمن سبقه بالانسحاب فوراً للراحة والاستجمام. وأنشأ ينظّم جنوده صفوفاً للمعركة، إلاّ أن قائديه دبلولابللا وطوركواطوس Torquatus ألحّا عليه بالتريّث فترة قصيرة، وعدم المخاطرة بقوات متعبة منهوكة في المغامرة بآخر أمل، لأن العدوّ الذي يواجههم ليس كاربو ولا ماريوس بل هم من الأقوام التي تمرّست في فنون القتال، وأضمرت حقداً خالداً للرومان. إنهم السامنيون واللوقانيون الذين سيقاتلونهم هذه المرّة.

لم يعمل سيلّلا بنصيحتهما وأمر أن يُنفخ نفير الهجوم وكانت الساعة الرابعة عصراً عندما بدأت المعركة الطاحنة. أنيطت بكراسّوس قيادة الميمنة فحقّقت تفوّقاً على العدوّ واستظهرت إلاّ أن الميسرة كانت في مأزق. فقد ضيّق العدوّ عليها الخناق وصكّها صكّاً عنيفاً فخفّ سيلّلا إلى نجدتها على صهوة جوادٍ أبيض متين الفصل سريع كالبرق عرفه به اثنان من الأعداء فأشرعا رمحيهما لرشقه وهو غافل عنهما إلاّ أن تابعه الذي كان خلفه وكز الجواد وكزة قوية فوثب بسيلّلا وثبة خرجت به عن منطقة الهدف في الوقت الذي طار الرمحان نحوه فحادا عن قصدهما ومرقا من ذيل حصانه وانغرزا في الأرض. ويوجد في هذه المناسبة قصة تروى عن سيلّلا أنه كان يحمل تعويذة من دلفي وهي طُغْراء ذهبية لصورة أپوللو لا تفارقه في ساحة القتال مطلقاً ويحفظها معلّقة في صدره.

فبعد أن كُتبت له النجاة من هذه الغائلة أخرج التعويذة ولثمها وقال يناجي صاحبها:

«سألتك يا أبوللو بيثيوس الذي أخذت بيد كورينليوس سيلّلا إلى أعلى مراقي المجد والرفعة في معارك كثيرة؛ أيرضيك الآن أن تتخلّى عنه؟ أيرضيك أن تأتي به إلى أبواب مدينته لإهلاكه هو وأبناء وطنه وتقضي فيه قضاءً يحفّ به الخِزي والعار؟».

هذا ما ناجى به سيلّلا ربّه على ما قيل. ثم انثنى إلى جنوده يهدد فئة ويمسك بتلابيب أخرى. إلى أن اضطر إلى ولوج المعسكر أثناء التقهقر العام بعد أن مزّق العدوّ الميسرة شرّ تمزيق، وفقد كثيراً من أصحابه وأصدقائه، كذلك هلك عدد لا يستهان به من الأهالي الذين خرجوا لمتابعة القتال، ماتوا وطئاً بالأقدام. وأدرك اليأس التام سكان المدينة وأيقنوا بضياع كل شيء، واعتقدوا بأن الحصار قد رفع عن پرنيست أو كاد. وشقّ عدد كبير من الهاربين طريقهم إلى لوكريتيوس أوفلّلا Lucretius Ofella الذي أنيط به تشديد الحصار على تلك المدينة، وراحوا يهيبون به أن يتحرك حالاً لأن سيلّلا قد انتهى، وروما سقطت في يد العدوّ.

وفي حوالي منتصف الليل وفد على معسكر سيلّلا سُعاةٌ من جيش كراسوس ليأخذوا أرزاقاً له. وكانوا قد ضربوا خيامهم تحت أسوار «أنتيمِنا» بعد أن ألحقوا بالعدوّ هزيمة وطاردوه حتى لجأ إلى المدينة هارباً. فما إن سمع سيلّلا بذلك وتحقق من تدمير الجانب الأكبر من قوات أعدائه حتى خفّ إلى أنتيمنا فوصلها فجراً فوجد رسولاً بعث به ثلاثة آلاف من المحاصرين يريدون الاستسلام بشروط فوعدهم بمعاملة حسنة إذا ما انقضّوا على رفاقهم الباقين. فوثقوا بعهده وحملوا على المحصورين الآخرين بطريقة غادرة. فجرت مذبحة كبيرة سقط فيها قتلى من الفريقين. ولكن سيلّلا بعد دخوله المدينة جمع الأحياء من الفريقين فبلغوا ستة آلاف ووضعهم في محلٍّ واحدٍ، وأوكل بذبحهم رجالاً عيّنهم لذلك. وفي الوقت الذي كان سيلّلا يخطب في اجتماع لمجلس شيوخ المدينة في معبد بلّلونا بدأت المجزرة وتعالت صرخات هذا الحشد الكبير عندما راح السيف يعمل في رقابهم من الفسحة الضيّقة التي حُشِروا فيها حتى تناهت إلى أسماع المجتمعين فأجفلوا لها. ولم يكترث سيلّلا واستمر في خطابه هادئاً، طالباً منهم الانتباه إلى ما يقوله وعدم إشغال أذهانهم بما يجري في الخارج، فكلّ ما هناك أنه أصدر تعليمات بخصوص عقاب بعض المجرمين. من هذا العمل أدرك حتى أغبى الرومان أنهم لم يتخلّصوا من الطغيان وأنهم استبدلوا واحداً بآخر ليس إلاّ. كان ماريوس فظّ الطبع غليظ الفؤاد بفِطرته وظلّ هكذا ولم يتغيّر عندما سيطر على زمام

الحكم. أما سيلّلا فقد ظهر في مبدأ الأمر رجلاً معتدلاً عزوفاً عن استخدام حظه في مجال الطموح، وفتح باب الأمل الباسم للوطنيّ الغيور الحقيقي بحرصه الشديد على مصلحة طبقتي الأشراف والعامة على السواء؛ أضف إلى هذا أنه كان مرحاً رقيقاً منذ شبابه، غنيّ العاطفة يسهل تحريك الشفقة في نفسه إلى حَدّ استدرار الدمع من عينيه. هذا ما كانه قبل استيلائه على السلطة. ولكنه انقلب عندما استتبّ له الأمر فوصم المناصب العليا بوصمة عارٍ ربّما تستحقها. وجعلها تبدو وكأن مهمّتها العمل على تجريد الرجال من أخلاقهم السابقه ومسخ شخصياتهم مسخاً بزرع الكبرياء والقسوة والهمجية في أنفسهم. أمّا كون هذا التغيير انقلاباً خُلقياً حقيقياً، وثورة عقلية، أو أنه فساد خُلقٍ مستترٍ كشف عن نفسه عند وصول صاحبه إلى السلطة، فهذا موضوع بحثٍ لا شأن لنا به الآن.

وهكذا رأينا سيلّلا يميل إلى الإرهاب والفتك بأرواح الناس، وملء المدينة بقتول لا تُعدّ ولا تُحصى. وراح كثير من الأبرياء الذين لا دخل لهم ولا مصلحة ضحايا العداء الشخصي لا غير، إرضاء لأصدقائه واستجابة لرغباتهم. وتجرّأ الشيخ كايوس ميتللوس وهو من أعضاء المجلس الذين لم يتخطّوا مرحلة الشباب على سؤاله في أحد الاجتماعات: متى ستنتهي هذه الشرور؟ وما هي الحدود التي سنتوقف عندها؟ واستطرد يقول له:

- نحن لا نطلب منك أن تعفو عمّن قرّرت إزهاق روحه. وإنما نسألك أن تريح أولئك الذين يسرّك أن تُبقي عليهم من القلق والشك الذي يساورهم.

فأجاب سيلّلا:

- إني لا أعرف حتى الآن على من سأبقي!

فقال كايوس:

- إذن فسمّ لنا على الأقل أولئك الذين ستنزل بهم عقابك.

فوعده سيلّلا بذلك.

ويقول بعض الكتّاب إن قائل العبارة الأخيرة ليس كايوس ميتللوس بل أفيديوس Afidius أحد أصحاب سيلّلا المتملّقين.

وبعد هذا مباشرة أقدم سيلّلا على رفع الحصانة القانونية عن ثمانين شخصاً دون مراجعة أيّ قاضٍ كما تقضي به أحكام القانون غير مُلقٍ بالاً إلى السخط والاستنكار العام. ومرّ يوم بلا حادث وبعده أعلن قائمة بمائتين وعشرين آخرين، وأشفعها في اليوم التالي بعدد مماثل. وفي خطبة له موجّهة إلى الجمهور قال إنه أدرج في قوائم

«رفع الحصانة القانونية» قدر ما وسعت ذاكرته من أسماء. أما من أغفلهم أو غابوا عن باله فسيعلن عنهم في المستقبل. وبعد هذا أصدر مرسوماً يقضي بعقوبة الموت على كل من يُظهر إنسانية لأحد المحكومين وبعقوبة النفي على من يخفي أو يؤوي أيّ محكوم برفع الحصانة، ولم يستثن فيه الأخ أو الابن أو الأبوين. وقضى بمنح مكافأة حكومية قدرها تالنتان لكلّ من يقتل أحد المحكومين برفع الحصانة، حتى ولو كان القاتل عبداً وقتيله سيده، أو ابناً وقتيله أبوه. وأما الظلم الأنكى الذي أنزله سيلّلا فهو فرضه عقوبة مصادرة أموال أبناء المحكومين وأبناء أبنائهم وبيع المقتنى في المزاد العلني. وعمّم عقوبة «رفع الحصانة» على كل مدن إيطاليا ولم يقصرها على روما. وتدفّقت الدماء في كل مكان وجرت سيولاً ولم يعد ينفع اللجوء إلى هياكل العبادة، أو منازل الأسلاف، أو مواقد المستجار بهم. وكان الرجال يُجزَرون وهم في أحضان زوجاتهم والأطفال يُنحرون على صدور أمّهاتهم. وكان عدد الذين راحوا ضحيّة غِناهم أكثر بكثير ممن راح ضحيّة العداء الشخصي ومعارضة النظام القائم. حتى جرت على ألسنة القتلة أمثال هذه العبارات:

«هذا المنزل الجميل قَتَلَ مالكه!»

«كان هذا البستان السبب في هلاك صاحبه»

«تلك الحمامات الحارة هي التي أودت بوليّها»

هذا كوينتوس أوريليوس Quintus Aurilius رجل وديع مسالم في غاية الطيبة، كانت مواساته للمنكوبين وتخفيفه عن آلام المفجوعين في هذه البلوى العامة كل ما ساهم به، قدِم إلى الفوروم لقراءة قائمة المحكومين برفع الحصانة فوجد اسمه فيها، فهتف قائلاً:

- الويل لي! لقد وشت بي مزرعتي في ألبان Alban. ولم يسر مسافة بعيدة إلاّ وأدركه وغد من الأوغاد أُرسل خصيصى فقضى عليه.

وفي زخم هذه الأحداث بخع ماريوس نفسه لمّا وجد طرق النجاة مسدودة في وجهه والقبض عليه وشيك. فدخل سيلّلا «پرينيست» وافتتح أعماله بإجراءات قانونية في ملاحقة الأشخاص. وما لبث أن وجد ذلك يستغرق منه وقتاً طويلاً فحشر الجميع في موضع واحدٍ فبلغوا اثني عشر ألفاً، وأصدر أمراً بقتلهم جميعاً إلاّ الرجل الذي استضافه في بيته. وكان هذا شجاعاً جريء القلب واللسان فتحدّى سيلّلا بقوله إنه لا يستطيع أن يقبل مِنّةَ العيش من شخص دمَّر بلاده. وانصرف عنه وانضمّ إلى الآخرين ودفع بعنقه إلى سيف الجلاّد مختاراً. ويُعتقد أن العمل الذي ارتكبه لوشيوس كاتيلينا

Lucius Catilina فاق في شناعته كل الأعمال البربرية التي ارتُكِبت في حينه. فقبل أن تتردّى الأوضاع عمد إلى قتل أخيه ثم طلب من سيلّلا أن يدرج اسمه في قائمة المحكومين «برفع الحصانة» كأنه ما يزال حَياً، ففعل سيلّلا. وردّ كاتيلينا جميله بقتله ماركوس ماريوس من الحزب المعارض والإتيان برأسه إلى سيلّلا أثناء ما كان جالساً في الفورم، ثم قصد إلى ماء أبوللو المقدس القريب فغسل يديه.

هناك أمور عدا سفك الدماء أثارت الاستياء والسخط. منها أن سيلّلا أعلن نفسه دكتاتوراً وهي وظيفة كان الرومان قد تحاشوها طوال مائة وعشرين عاماً. وثَمّ كذلك قانون الاعتراف بالفضل الذي سُنّ لأجله وعصمه من أي محاسبة أو مسؤولية سابقة، ومنحه للحاضر والمستقبل سلطة الحياة والموت، والمصادرة وتوزيع الأراضي، وتخريب المدن وإعمارها، ونزع الممالك وإعطائها لمن يشاء. وأشرف في دار القضاء على إجراءات بيع الأموال المصادرة بأسلوب يتّسم بالظلم والاستهتار، حتى أن إنعاماته أثارت من السخط والاشمئزاز أضعاف ما أثار اغتصابه لها. ونال الموسيقيون، والممثلات الكوميديات، وأحطّ العبيد المحرّرين هدايا لا تخطر بالبال؛ كأقاليم برمّتها في بلدٍ من البلاد، وجزيات كاملة من المدن. وأُجبرت الحرائر والعقائل على الزواج من أمثال هؤلاء الأوشاب رغم أنوفهنّ. وأراد سيلّلا أن يضمن إخلاص پومپي الأكبر له برباط القرابة، فطلب منه تسريح زوجه، وفرض عليه الزواج من إميليا بنت سكاوروس Scaurus وميتللا زوجه، بعد أن أجبرها على ترك زوجها فانيوس غلابريو Manius Glabrio، فدخلت عِصمة پومپي وهي حامل من مطلّقها وتوفّيت أثناء الوضع.

وتقدّم لوكريتيوس افللاّ لمنصب القنصلية مرشّحاً، وهو عين القائد الذي تغلّب على ماريوس في حصار پرينيست، فمانع سيلّلا، وأشار عليه بألاّ يفعل، فأصرّ هذا ولم يعمل بقوله. وفي ذات يوم شاهده وهو يدخل الفوروم وحوله جمهور غفير من الأنصار والمؤيّدين، فاستدعى سنتوريوناً من الضباط الذين كانوا يحيطون به وأرسله إلى لوكريتيوس فالتقاه وقتله وسيلّلا يرقب الحادث من مِنصّة القضاء في معبد كاستور العالي. فقبض المواطنون على السنتوريون القاتل وجرّوه جرّاً إلى مجلس القضاء أمام سيلّلا فأمرهم بالكفّ عن الضجة وعدم التعرّض للسنتوريون لأنه نفذ أمراً أصدره هو إليه.

وكان موكب النصر الذي دخل به المدينة آية في الفخامة والرواء، وامتاز بنفاسة الغنائم الملكية. ولكنّ أعظم ما فيه وأدعى إلى الحمد والثناء مشهد المنفيين عن أوطانهم. فقد سار في المؤخرة جمهور من أبرز المواطنين العائدين من المنفى وقد

ضفروا رؤوسهم بأكاليل الزهر يهتفون باسم سيلّلا المنقذ وسيلّلا الأب الذي كان صاحب الفضل في عودتهم إلى بلادهم والتمتّع بالعيش مع أولادهم وزوجاتهم. وبعد أن انتهت المراسم وأزِف الوقت لتقديم تقريره عن أعماله توّجه بخطابٍ إلى الجمعيّة العمومية أسهب فيه وأطنب في سرد فُرص الحرب السعيدة الطيبة، قدر ما أسهب وأطنب في تعداد مآثرة وكفاءته العسكرية. ودرج الشعب في الختام أن يلقّبه «فيلكس» Felix [أي ذا النعمة]. . وكان يخلع على نفسه لقب إپافروديتوس Epophroditus في كتاباته الخاصة بالشؤون الإغريقية. وفي أنصاب النصر الباقية له إلى يومنا هذا يُشاهَد أسمه على هذه الصورة: لوشيوس كورنيليوس سيلّلا إپافروديتوس. وعندما أنجبت له زوجه توأمين سمّى الذكر منهما فاوستوس Faustus والأنثى فاوستا Fausta وهما الكلمتان الرومانيتان اللتان تطلقان على كل ما يبشّر بالخير وحسن الحظّ. لقد أودع سيلّلا أكثر ثقته في جنيّه الطيّب الحارس، ولم يودع في قابليّاته إلاّ القليل من الثقة. وهذا ما دفعه إلى التنازل عن سلطاته المطلقة، وإعادة حق الانتخاب القنصلي إلى الشعب. وأبى أن يطلب هذا المنصب لنفسه بل عمل أكثر من هذا فقد تخلّى عن مظاهر الأبّهة وكشف عن نفسه للجمهور وأخذ يروح ويغدو في الفوروم كأيّ مواطن بسيط.

وكان ماركوس ليبيدوس Marcus Lipidus يطمح إلى منصب القنصل ضدّ رغبة سيلّلا، وهو شخص فيه صفاقة ويضطغن عداءً. ولم يكن في تقدّمه للترشيح معتمداً على مزاياه قدر اعتماده على نفوذ پومپي ومنزلته ورغبة الجمهور في إرضائه. وعلى إثر انتخابه لقي سيلّلا پومپي وهو متوجّه إلى منزله يكاد يطير فرحاً لفوز مرشحه فاستدناه وقال له:

- أيّ عمل سياسي هذا أقدمت عليه أيها الشاب؟ باغتيالك كاتولوس خير الرجال، وانتصارك لليپيدوس أسوأهم! من الآن فصاعداً عليك أن تزداد يقظة وانتباهاً بعد أن قوّيت خصمك على حساب نفسك.

وعلى ما يبدو كانت غريزة التكهّن الصائب في سيلّلا هي التي أنطقته. فما مرّ زمن قصير على هذا حتى زاد ليپيدوس عتوّاً وأسفر عن عداوته لپومپي وأصحابه.

وأوقف سيلّلا كل ما يملك على الربّ هرقل. وكثُرت دعواته للناس إلى الولائم الفخمة وكان مفرطاً في تقديم الطعام حتى كان يُلقى في النهر كمّيات كبيرة من اللحوم المتخلفة عنها. وكان يقدّم في مجالس شرابه خمراً معتّقة يزيد عمرها عن أربعين عاماً. وفي أثناء تلك المآدب التي امتدت أياماً توفّيت زوجه ميتللا إثر مرض ألمَّ بها. وكان

الكاهن قبل هذا قد حظر عليه عيادة المريضة أو جعل بيته نجساً بإقامة مراسم الحداد فيه فلم ير بُدّاً من استحصال قرارٍ بالطلاق منها وهي حيّة لنقلها إلى منزل آخر. هكذا كان سيلّلا شديد الدقة في تطبيق النواهي والمحرّمات الدينيّة ورعاً ومخافةً. إلا أنه تخطى الحدود التي رسمها في قانون «تحديد نفقات الجنّاز» الذي استنّه هو، ولم يبخل على زوجه الراحلة بأية مصاريف. وكذلك تخطى حدود الصرف التي شرعها هو في قانون الإسراف بخصوص الولائم التي أقامها ومجالس الشرف التي أحياها لصحبه المهرّجين والصعاليك، على سبيل السلوى والعزاء.

بعد وفاة زوجه بأيام قلائل أقيمت حفلة نزال للمصارعين في الملعب. وكان جلوس النظّارة في ذلك العهد مختلطاً بين الجنسين، ولم يجر بعد تخصيص مقاعد خاصة أو مقاصير ممتازة. واتفق أن حضر سيلّلا وكان جلوسه بالقرب من امرأة بارعة الجمال شريفة الأصل تدعى ڤاليريا وهي بنت ميسّالا Messala، وأخت هورتنسيوس الخطيب، ومطلّقة جديدة. مرّت هذه العقيلة من وراء ظهر سيلّلا فمالت إليه ونتفت بعض خيوط الصوف من ردائه ثم مضت إلى مقعدها وجلست. فتطلّع إليها سيلّلا بتساؤل ودهشة فابتدرته قائلة:

- ما ضرّكَ أيها السيّد العظيم لو كنتُ من جُملة الراغبين في شيء من بركاتك؟

وظهر على سيلّلا سرورٌ، ولعبت هذه الحادثة في خياله لعبة لذيذة على ما يبدو. فقد استفسر في الحال عن اسمها ونسبها وحياتها وماضيها، وراحا يتبادلان اللحاظ وهما في مجلسيهما فيلتفت أحدهما إلى الآخر لينظر إليه ويبادله الابتسام. وبعدها حصل اللقاء وتمّ الزواج. قد يكون كل هذا عملاً بريئاً خالي القصد من ناحية السيّدة. إلاّ أن الزواج نفسه لم يكن زواجاً متكافئاً ولا لائقاً من ناحية سيلّلا فضلاً عن كون الفتاة ممن لم يشتهرن بالحشمة والفضيلة. فاشتعال قلبه فجأة بنار الحبّ مثل فتى مراهق، بتأثير وجهٍ جميل ونظرة جريئة، دليل على أن سيلّلا قمين بأحط العواطف وأبعدها عن الحياء.

وظلّ بعد زواجه هذا مقيماً على عادته في مجالسة الموسيقيين والممثلات والراقصات يشاربهم على المتّكآت ليل نهار. وكان من أحبّ ندمائه إليه روسكيوس Roscius الممثل الهزلي، وسوريكس Sorex زعم المسخراتية، وميطروبيوس Metrobius اللاعب، وظلّ متعلّقاً بهم حتى بعد تجاوزه سنّ الكهولة. وأدّى هذا الأسلوب من الحياة إلى تفاقُم داءٍ كان منشأه بسيطاً. فقد بقي فترة طويلة غافلاً عن تقرّح أمعائه، إلى أن انشقّ اللحم المتعفّن وفقس فيه الدُّمَّل وأخذ يتكاثر بصورة عجيبة

بحيث عجزت كثرة من الممرّضين عن مكافحته رغم عملهم المتواصل ليل نهار، فانتشر في ثيابه وفي الحمّام ولوّث الأواني واللحوم إذ كان يتوالد ويتدافع بأعداد وكمّيات مذهلة. واضطر إلى ملازمة الحمّام لتنظيف جسمه وفركه فلم يأت بنتيجة. إذ كان الداء يتفاقم وتتسع رقعة الإصابة بسرعةٍ ولم يعد يفيد فيه اغتسال وتطّهر.

إن هذا الداء كان سبب موت كثير من المشاهير في الأزمان الغابرة جداً، مثل أكاستوس Acastus ابن پيلياس Pelias وفي زمن متأخر عنه ألكمان Alcman الشاعر، وكالليسثينس Callisthenes الأولينثي Olynthia في فترة سجنه، وموشيوس المحامي. وفيريكيدس Pherecydes الفقيه. وإن جاز لنا ذكر أسماء اشتهرت بسوء السمعه والخِسّة فثمّ الثائر الشريد يونوس Eunus الذي حرّض عبيد صقلية على الثورة ضدّ أسيادهم، ابتلاه الداء بعد أن اقتيد إلى روما أسيراً ومات به.

ولم يقتصر سيلّلا على التكهّن بنهايته وإنما كتب كما قيل. ففي الكتاب الثاني والعشرين من مذكراته التي ختمها قبل نهايته بيومين كتب أن العرّافين الكلدانيين تنبّأوا له بأن حياته المجيدة الحافلة ستُختم بتمام الرغد والهناء وخفض العيش. وزاد قائلاً إنه رأى في الحلم ابنه الذي توفّي بعد ميتللا بقليل واقفاً على مقربة منه وهو في ثياب الحداد يتوسّل إليه أن يطرح هموم الحياة جانباً ويلحق به وبأمّه ميتللا ليعيش معهما هناك براحة وهناء. مع هذا كلّه بقي حتى آخر أيامه مهتماً بالشؤون العامة. فقبل موته بعشرة أيام أكمل تسوية الخلافات بين أهالي دقيارخيا Dicæarchia ووضع لها قوانين حكم أصلح. وفي اليوم السابق لموته أُبلغ أن القاضي غرانيوس أرجأ دفع ما بذمته للحكومة توقّعاً لموت سيلّلا فطلبه في منزله ووضعه بين أتباعه ثم أمر بخنقه. إلاّ أنه فقد مقداراً كبيراً من الدم للجهد الذي بذله من صوته، وانفجار الدّمل فخارت قواه ولفظ أنفاسه الأخيرة بعد ليلة مزعجة جداً. وخلّف من متيللا طفلين. وأنجبت ڤاليريا بعد وفاته بنتاً سمّتها پوستوما على عادة الرومان بتسمية أبنائهم بهذا الاسم حين يولدون بعد وفاة الأب.

وأسرعت جماعات كثيرة إلى ليپيدوس تؤيّده في حرمان جثمان سيلّلا من مراسم الدفن المعتادة إلاّ أن پومپي وإن حقد على سيلّلا (لأنه الوحيد الذي لم يذكره المتوفّى في وصيّته من بين كل أصدقائه) فقد تمكن بالإقناع وبنفوذه وتهديداته من إحباط مساعيهم فنقل الجثمان إلى روما ودفِن دفنة مشرّفة لائقة. وقيل إن سيّدات روما تبرعن بكمّيات كبيرة من التوابل بلغ مقدارها أنها نُقلت في مائتين وعشر محفّات وبقي منها ما كفى لعمل تمثال كبير لسيلّلا وتمثال ثان «للكتور» من صنفي الدراصيني واللبان الذكر.

وأصبح اليوم وهو مُغيّم فأُرجئت الجنازة حتى الثالثة ظهراً متوقّعين هطول المطر. لكن ريحاً قوية هبت على المحرقة مباشرة فأجّجت اللهب واحترق الجثمان في فترة مناسبة. وما إن بدأت النار تخمد حتى هطل المطر واستمر حتى الليل. وهكذا لازمه حسن حظه إلى الأخير وقام له بالواجب النهائي. وما زال ضريحه إلى الآن قائماً في خطّته كامپوس ماريتوس Campus Martius وعليه نُقشت عبارة من قلمه مفادها: «أن ليس هناك صديق من أصدقائه فاقه في عمل الخير، وليس ثمّ خصمٌ من خصومه فاقه في عمل الشرّ».

أوجُه المقارنة بين ليساندر وسيلّلا

بعد إكمالنا هذه السيرة سنقوم الآن بالمقارنة. فنقول بادئ ذي بدء إن شهرة هذين الرجلين قامت على كونهما بنيا مجديهما بنفسيهما. إلاّ أن ليساندر يمتاز عن قرينه بأنه كان موضع رضا مواطنيه في المجد الذي ناله وقتما كان المنطق والعقل السبيل في إصدار الأحكام. ولم يغتصب منهم شيئاً من الصلاحيات خلافاً لما منحوه، ولم ينتزع بالقوة سلطةً إلاّ ما أملته قوانين بلاده:

«وفي الصراع السياسيّ قد يصل إلى السلطة حتى الأوغاد».

وفي روما حيث كان الشعب قد طحنته الرزايا والحكومة قد تفشّت فيها الفوضى والفساد لا عجب أن يرتفع إلى السلطة حكّام مستبدّون متعاقبون. وليس بالغريب أن يتولّى سيلّلا الحكم عندما يقوم آل غلاوشي Glauciæ وآل ساترنيني Saturnini بطرد آل ميتللي. ويُقتل أبناء القناصل في الاجتماعات العامة. ويكون للذهب والفضة القول الفصل في شراء الرجال والسلاح. ويتولّى السيف والنار اشتراع القوانين الجديدة وقمع المعارضة المشروعة. وإني لا ألوم أيّ أحدٍ إذا عمل على الوصول إلى السلطة العليا في مثل هذه الظروف، إلاّ أني لا أعُدّ وصول رئيس دولة بلغت هذه الدرجة العظيمة من التحلل والفساد دليلاً على صلاحه واستقامته. وليساندر الذي ولّيَ أهم القيادات وأخطر شؤون الدولة برضى وتشجيع مدينة ناضجة فاضلة تتمتع بأحسن الحكومات يمكن القول عنه إنه بما يملك من حُسن السمعة قد يعدّ خير الرجال وأميزهم في خير الجمهوريات وأميزها. فكثيراً ما تراه يعيد السلطة التي مُنحت له إلى المواطنين ليرجعوها إليه مراراً وتكراراً. وهكذا يضمن له تفوّق مؤهّلاته المقام الأول في السلطة دائماً. أما سيلّلا فما إن نصّب نفسه قائداً للجيش حتى ظلّ حريصاً على قيادته عشر سنوات متتالية، يخلق من نفسه خلالها قنصلاً مَرّةً، وبروقنصلاً مرة أخرى، ودكتاتوراً أحياناً. إلاّ أنه ظلّ على الدوام طاغيةً مستبداً.

صحيح أن ليساندر اعتزم - على ما قيل - تغيير شكل الحكم، إلاّ أنه لجأ إلى

وسائل أكثر اعتدالاً، وأقرب إلى القانون من وسائل سيلّلا. فلم يستخدم قوة السلاح، وإنما اتخذ طريق الإقناع. ولم يُرد إحداث انقلابٍ شامل فوريّ في نظام الدولة وإنما حاول إجراء تعديل في تولّي الملوك ليس غير. وهو في الواقع تعديل ينطوي على العدل والمنطق، لأنه يشترط فيمن يتولّى الملك أهليّة وكفاءة خصوصاً في مدينة تقوم بدور القائد في بلاد اليونان، لا بسبب عراقة أصل سكانها بل بسبب فضائلها ومزاياها الخُلقية. فالصيّاد ينشد من الجراء ذكورَها لا إناثها، وتاجر الخيل يبحث عن المهر لا المهرة (ما الأمر لو ظهر المهر بغلاً؟) وكذلك السياسيّ المتحرّز الشديد الدقة يجب عليه عند اختيار رئيس الحكومة أن يتحرّى لا عن ماهية الرجل بل عن نشأته.

لقد قام السپارطيون أنفسهم بعزل عدة ملوك لافتقادهم فيهم مزايا الملوك، ولأنهم فاسدون لايصلحون للحكم. ولما كان الطبع المفطور على القسوة والغلظة مما يشين المرء ويحطّ من منزلته مهما شرف نسبه، فيجب والحالة هذه أن تكون الفضيلة والخلق الحميد مقياس سموّ الفرد وعلوّ قدره، لا نسبه وعراقة أصله.

هذا وإن ليساندر ظلم وعتا ارضاءً لصحبه وأنصاره في حين نشر سيلّلا مظالمه بين أصدقائه وصبّها على رؤوسهم. ومن المقرر عند الجميع أن ليساندر جار على الناس حبّاً في أصدقائه وقام بعدة مذابح لتوطيد ملكهم وتثبيت سلطانهم. أمّا سيلّلا فإن حسده هو الذي دفعه إلى عزل پومپي من قيادته للقوات البرية، ودولابللا من قيادته للقوات البحرية، مع أنه هو الذي أسند إليهما هاتين القيادتين. كذلك أمر بقتل لوكريتيوس أوفيللا الذي رأى أن خدماته الجليلة التي أداها لبلاده تبرّر له ترشيح نفسه للمنصب القنصلي. وجرى تنفيذ أمره أمام عينيه مثيراً بذلك الرهبة والفزع في الناس جميعاً لهذه القسوة التي أبداها إزاء أعزّ أصدقائه.

أما بخصوص حبّ الغنى والجري وراء الملذات، فإنّا لنجد في ليساندر طبعاً رفيعاً ساميا، وفي سيلّلا إفراطاً في اللذة وجشعاً إلى المال. ولم يُقدِم ليساندر على عمل مشين فاجر طوال فترة قيادته التي كانت مطلقة السلطة، حافلة بكلّ الفرص. وظلّ أبعد الناس عن المعنى الوضيع الذي يتضمّنه القول التالي:

«هُم أسودٌ في وطنهم، وثعالب خارجه».

وتمسّك دوماً بالسلوك السپارطي المتّزن والمتّسم بضبط النفس. في حين لم يستطع سيلّلا التزام جانب الاعتدال في نزعاته العنيدة فلم يؤثر في خُلقه فقرٌ عاناه في شبابه، ولا وقار السّن في شيخوخته. ودأب على سَنّ قوانين تحضّ مواطنيه على العفّة والاستقامة والجدّ، بينما كان هو يعيش في حمأة الفسق والفجور كما يؤكد لنا سالّوست

Sallust. وعلى هذا المنوال أفقر مدينته وأخوى خزائنها من المال حتى لجأت إلى بيع امتيازاتٍ وحصاناتٍ لمدن حليفة وصديقة لتسدّ بذلك حاجتها من النقد. وكان في الوقت نفسه يتخيّر أغنى الأُسر وأبرزها مقاماً فيصادر مقتناها ويعرضه في المزاد العلني يومياً، ويُسرف في إغداق ما غصبه على بطانته من المتملّقين والمداهنين بلا حسابٍ وبكلّ استهتار. أيُّ أمل يتبقّى للناس ثمّ؟ أي احتمال في تبصُّر أو اقتصادٍ يُتوقّع منه في ساعات لهوه الخاصة، وعكوفه على الشراب، عندما لا يتورّع عن الكبائر علناً وأمام الشعب. فقد أراد مرة أثناء المزايدة على مزرعة كبيرة أن يحيلها على أحد أصدقائه بثمن بخسٍ، فقام مزايد آخر ورفع البدل فأعلن القائم على المزايدة رسوّها على المزايد الأخير. وهنا ثارت ثائرة سيلّلا وصاح في نوبة من الغضب الشديد:

– ما أعجب هذا الأمر أيها المواطنون! وما أظلمه. أتراني لا أستطيع أن أتصرّف بغنيمتي كما أريد؟

على أن ليساندر كان نقيض هذا. فقد أرسل إلى مدينته كل الغنائم المتبقية لتكون ايراداً للخزينة العامة وأرفقها بكل الثناء على عمله هذا، فلعلّه سبّب لسپارطا بأريحيّته هذه وتساهله المفرط ضرراً أشدّ وأنكى مما سبّب الآخرون لروما باستبدادهم وتنطّعهم. وقد أوردت هذا دليلاً على احتقاره الغنى ليس إلاّ.

كان كل من الرجلين ذا تأثير عجيب على بلاده. فسيلّلا المفرط في عبثه ومجونه أراد أن يعيد حياة الجدّ والزهد إلى مجتمعه. وليساندر الزاهد العفيف ملأ سپارطا بوسائل الترف والبذخ التي يحتقرها. فكانا بهذا جديرين باللوم أولهما لارتفاعه بنفسه فوق قوانينه وثانيهما للتسبّب في خفض بني وطنه إلى ما تحت مستواه الخلقي، فقد علّم سپارطا أن تصبو إلى الأشياء التي تعلّم هو الاستغناء عنها. وفي هذا الكفاية من القول عن تصرّفاتهما في شؤون الحكم المدني.

والبَون شاسع بين سيلّلا وليساندر في ما يعود إلى مآثر الحرب والحنكة القيادية، والانتصارات العديدة، والمغامرات الحافلة بالمخاطر. الحق يقال إن ليساندر خرج منتصراً في معركتين بحريتين، وسأضيف إليهما حصار أثينا وهو عمل شهرتُه غطت على صعوبته. ولعلّ ما جرى في بويوسيا وهاليارتوس كان نتيجة سوء حظٍ، ولكن عدم انتظاره قوات الملك التي كانت توشك على الوصول من پلاطيا، وتحرُّقه إلى القتال بدافع الطموح إلى المجد ودنوّه من الأسوار دنوّاً لا فائدة منه مما أدّى إلى موته بهجوم قامت به فئة قليلة من الرجال، كلّ هذا لم يكن من الحصافة في شيء، ولا من حُسن القيادة. لقد اصيب بجرحه المميت، لا كما أصيب كيلومبروتوس في ليوكترا وهو يقاوم

هجوم العدوّ ببسالةٍ في خطّ القتال، ولا كما أصيب كورش أو إپامنداس في صمودهما في معركة تسير نحو الخسران، أو عند إرساء قاعدة النصر في القتال. هؤلاء جميعاً ماتوا ميتة الملوك والقادة. أما هو فقد ضحّى بحياته في ظرف لم يُكسبه مجداً. وبهذا قدّم الدليل على حكمة المبدأ السپارطيّ القديم الذي يحذّر من الهجوم الجبهي على المدن المحصّنة، حيث يكون أشجع الأبطال عُرضة للموت بيد رجل لم تُعرف عنه شجاعة، لا بل بيد صبيّ أو امرأة، مثلما صُرع أخيل بيد پاريس عند باب الأسوار، على ما نُقل لنا.

ومن الصعب علينا إحصاء المعارك التي خرج منها سيلّلا فائزاً وكم من الألوف جندل. فقد استولى على روما مرّتين مثلما استولى على ميناء پيريوس وأثينا لا بفعل الجوع كما كانت الحال مع ليساندر بل بعد سلسلة متعاقبة من المعارك الطاحنة دفع بها أرخيلاوس إلى البحر. وأهمّ من هذا كلّه صفة القادة الذين نازلوهما فثمّ فرقٌ شاسع وليس ثمّ مجال للمقايسة. وأنا أرى من الأعمال البسيطة الشبيهة بالتمرين الرياضي إلحاق الهزيمة بأنطيوخوس رُبّان ألكيبياديس، أو المكر بفيلوقليس الزعيم الشعبي الأثيني الذي

«لم يكن فيه شيء ماضٍ إلاّ رأس لسانه القذر».

حتى أن ميثريدات استحقر أن يضاهيه بسائس من سائسي خيوله، وترفع ماريوس عن أن يرفعه إلى منزلة لكتور من لكتوريه. ولو استعرضنا الملوك والقناصل والقادة وزعماء الجماهير الذين نازلهم سيلّلا تاركين البقية فلنا أن نتساءل: مَن مِن الرومان كان أعظم من ماريوس؟ وأيّ ملك كان أقوى من ميثريدات؟ ومن الإيطاليين مَن كان يفوق لامپونيوس وتيليسينوس مِراساً في الحروب؟ أولهم أخرجه سيللا منفياً من وطنه. وثانيهما خضد شوكته. وأودى بحياة الأخيرين.

وأهمّ من كل ما سردته، في رأيي أنا، أن ليساندر كان مدعّماً بنفوذ الدولة في كل ما أقدم عليه. في حين كان سيلّلا طريد حكومته التي حكمت عليه بعقوبة النفي مضطهداً من الحزب السياسي المعارض. طُردت زوجه من منزلها وقُوّض بيته من أُسسه وقُتل أنصاره وهو في بويوسيا يخوض المعارك مع أعداء وطنه وهم بعدد الحصى، معرّضاً نفسه للمهالك في سبيل بلاده، حتى وفّق إلى إقامة أنصاب النصر. لم يظهر منه خلال ذلك كلّه أي نوع من التخاذل والمصانعة. حتى عندما تقدّم إليه ميثريدات بعروض التحالف، والمساعدة على أعدائه، لم تأخذه به رأفة، ولم ينزل إلى مخاطبته أو مصافحته، قبل أن يُخرج من فم الملك وعدٌ بتنازله عن آسيا وتسليم

الأسطول وإعادة كپدوكيا وبثينيا إلى ملكيهما. لم يقم سيلّلا بعمل آخر يضاهيه في النُبل والجرأة، ففيه قدّم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة. وضرب مثلاً نادراً في الإيثار وإنكار الذات. وكان مثل كلب الصيد الأصيل ما إن ينشب في خصمه حتى يتعذّر أن يُفلت منه إلى أن يستكين له. فبعد أن استتب له النصر تحوّل إلى خصوم الدّار ليروي منهم غِلّه ويسوّي خلافاته الشخصية معهم.

وقد يجوز أن تتأثر مقارنتنا هذه بأسلوب معاملتهما لأثينا. فعندما استولى سيلّلا عليها لم يتردّد في إعادة حريتها إليها، ومنحها حق ممارسة شرائعها الخاصة بلا قيد مع أنها كانت تعضُد سلطان ميثريدات وتقف إلى جانبه في الحرب. أما ليساندر فكان على نقيض ذلك. لم يبدُ منه أيّ عطف عليها عندما هوت من حالق عظمتها وسموّ مكانتها. وإنما قضى على نظام حكمها الديمقراطي، وفرض عليها حكم أقسى الطغاة وأشدّهم استبداداً.

وينبغي علينا الآن أن نفكر هل نحن نبتعد عن الحقيقة ونُجانب الصواب في حكمنا على سيلّلا بأنه كان الأروع مآثرَ من ليساندر، وأن ليساندر كان الأقل أخطاءً؟ هل نخطئ إن قدّمنا ليساندر على قرينه في الاعتدال وضبط النفس، وفوّقنا سيلّلا عليه في حُسن الإدارة والجرأة؟

كيمون

CIMON

٥١٠–٤٥٠ ق.م

أتى پيريپولتاس Peripoltas النبيّ، بأوفلتاس الملك Opheltas ومن هم تحت قيادته إلى بويوسيا من ثساليا. وهنا ترك أسرة سكن معظم أفرادها مدينة خيرونيا وكانت أولى المدن التي طُرد منها البرابرة. وظلت هذه العشيرة تترعرع مدة طويلة وأنجبت صناديد وأبطالاً عرّضوا أنفسهم للأهوال في وجه الغزو الميديّ، وركبوا متن الأخطار في حروب الغاليّين حتى انقرضت عشيرتهم أو كادت.

بقي من هذا البيت يتيمٌ اسمه دامون ويُلقّب پيريپولتاس فاق كل لِداتة بجمال صورته وحميّته. إلاّ أنه امتاز بفظاظة الطبع وباستقلال في النفس. وعندما بلغ الفتى مبلغ الرجال أُغرم به ضابط روماني غراماً شديداً وأخذ يلاحقه بالهدايا والرجاء والضراعة فلم تفد معه، فعيل صبره وظهر منه ما يدلّ على اعتزامه قضاء وطره منه بالإكراه. وكان أهل خيرونيا وقتذاك في أشد حالات البؤس والإهمال لقلّة عددهم وإملاقهم. وكان دامون يدرك ذلك ويرى نفسه موضع أذى وإهانة فعزم على الانتصاف لنفسه بيده. فأتمر بالضابط هو وستة عشر من رفاقه وعمدوا في إحدى الليالي إلى تلويث أوجههم بالسخام ستراً لأشخاصهم وشربوا حتى لعبت الخمر برؤوسهم وأشعلت النار في نفوسهم وانقضّوا على الضابط قبيل انبلاج الصبح فذبحوه هو وعدداً ممن كان معه أثناء تقديمه القرابين في الساحة العامة، وفرّوا من المدينة هاربين. فاستبدّ القلق بأهلها واجتمع مجلس شوراها حالاً ونطق بحكم الموت على دامون وشركائه في الجريمة، يريدون بذلك تبرئة المدينة من التبعة أمام الرومان. فما كان من دامون ورفاقه إلاّ أن اقتحموا القاعة التي اعتاد أعضاء مجلس الشورى الاجتماع فيها كافة لتناول العشاء وقتلوهم ثم خرجوا من المدينة. واتفق على أثر هذا أن لوشيوس لوكوللوس كان مارّاً بالمدينة في حملة عسكرية فعرّج عليها عندما أُنهِيَ إليه الحادث للقيام بالتحقيق، وتبيّن بعد الاستفسار والسؤال أن المدينة لا دخل لها في القتل، فخرج بجنوده منها منسحباً. إلاّ أن دامون راح يدوّخ الأنحاء المجاورة بغاراته، فأخذ الخيرونيون يستميلونه بالرسائل

والوعود الطيّبة ويرغّبونه في العودة إلى المدينة ففعل. وأسندوا إليه منصب رئيس الجمناز Gymnasiarch إلاّ أنهم باغتوه يوماً وهو يدلّك جسمه بالزيت في بخار الحمّام فقتلوه. وشاهد الناس رُؤىً وأحلاماً كثيرة وسُمعت تنهّدات في ذلك الموضع مدة طويلة من الزمن بصورة مستمرة، حسبما نُقل لنا عن السلف. فبُنيت أبواب الحمّامات وسُدّت. ويزعم الناس الساكنون على مقربة من الموضع أنهم يرون بين آن وآخر أطيافاً ويسمعون أصواتاً مفزعة إلى يومنا هذا. وإن ذرّية دامون الباقية، ومعظمها في فوكيس قرب بلدة ستيريس Stires، غلب عليها لقب أسبولوميني Asbolomeni ومعناه باللهجة الإيتولية: «الذين لوّثوا أنفسهم بالسخام» لأن دامون لوّث وجهه بالسخام عندما أقدم على جنايته.

على أن خصومة نشبت بين أهالي خيرونيا وأورخومنيوس جيرانهم. فاستأجر هؤلاء الأخيرون مُخبراً رومانياً لإقامة الدعوى على كل سكان خيرونيا بالتضامن وكأنهم شخصٌ واحدٌ بتهمة قتلهم الرومان في حين كان دامون ورفاقه المجرمين. ورُفِعت القضية أمام «بريتور مقدونيا» لأن الرومان لم يكونوا قد عيّنوا حينذاك حكاماً للبلاد اليونانية.

وطلب محامو أهل المدينة سماع شهادة لوكوللوس أثناء النظر في القضية. فكتب البريتور يستوضح منه معلوماته فبعث له رداً تضمّن الحقائق كما هي وعلى هذا الأساس صدر قرار ببراءة المدينة من دم الرومان، ونجوا من داهية مُهلكة. فأقاموا تيمّناً بنجاتهم تمثالاً للوكوللوس في الساحة العامة، نُصِب إلى جوار تمثال الربّ باخوس.

ونحن خيرونيي هذا العصر ما زلنا نشعر بالامتنان لذلك الجميل وإن مرّ على الحادث أجيال عدّة وكاد يسقط من تاريخ الأحداث ويغيب في زحمتها. إننا نرى بأن واجب الإقرار بالجميل قد انتقل إلينا نحن أبناء هذا الجيل. وبما أننا نعتقد أن صورة الخلق والأدب يرسمها قلم الكاتب هي خير وأبقى من نحت وجه المعنيّ به وأعضاء جسمه، وأعظم تشريفاً له، فنرى لزاماً علينا أن نضع سيرة لوكوللوس في مصاف سير عظماء الرجال وعلى المستوى الذي تخيّرناه له. وسيجرى تدوين مآثره وأعماله بأمانة والتزام بالحقيقة. وتخليد سيرته على هذه الصورة هو بحدّ ذاته دليل كافٍ علن شعورنا بالامتنان له. ولن يشكرنا هو إن عمدنا إلى الإساءة لذكراه بتزوير أخباره وإيراد الزائف منها على سبيل مكافأته لخدمة قدّمها لنا، هي شهادته بالحقّ الصُّراح! فنحن نريد من الرسّام الذي يقوم برسم وجه جميل فيه عيب: لا أن يتغاضى تماماً عن العيب ويتحاشى رسمه، ولا أن يتعمّد إبرازه. لأن الأسلوب الأول لا يعطي شبهاً صادقاً للمرسوم،

ولأن الثاني سيشوّه الصورة نفسها. هكذا ما دام يشقّ بل يتعذّر أن يعرض أحدنا حياة شخصٍ ما عرضاً منزّهاً عن كل ما يُشينه. فعلينا أن نلتزم جانب الحقيقة في كل ما هو طيّب رفيعٌ ونضع المسألة أمام العين كما هي. وقد يجوز لنا أن نعدّ كل تغيير في عاطفة بشرية أو عمل سياسيّ، أو هفوة من هفواتهما، قصوراً في فضيلة معيّنة لا أثراً طبيعياً من آثار الرذيلة. فلا نحاول والحالة هذه حشرها حشراً وإقحامها إقحاماً في قصتنا، فضولاً مناً. وهي بعد متأتّية من ضعف الطبيعة، التي لم تفلح قط في خلق إنسان كامل الفضائل معصوم من النقد. وكلّما فكرتُ في صِنْو للوكوللوس أضعه في مجال المقارنة وجدت كيمون الشخصيةَ الوحيدة التي تقف في مستواه بالضبط. فكلاهما كان جريئاً مِقداماً في ساحة الوغى، موفّقاً في حروبه مع البرابرة. وكلاهما امتاز باللطف واللين في حياته السياسية، ولم يمنح أحدٌ غيرهما لبلده ما منحا من استقرار ونعمة بال بعد عهد طويل من الاضطراب السياسيّ. ولم يفقهما أحد في كثرة الأنصاب التي أقاماها تخليداً للانتصارات التي نالاها في الخارج لبلديهما. وليس بين الإغريق والرومان من حمل لواء الحرب إلى مراسح بعيدة كما فعلا، بعد استثناء أعمال باخوس وهرقل، وأي مغامرة من مغامرات پيريوس ضدّ الأحباش، والميديين والأرمن، ومما انحدر إلينا من مآثر جاسون مما يستأهل التدوين.

وكانا سواءً في تركهما أعمالهما التي اضطلعا بها غير كاملة. فقد أوصلا أعداءهما إلى شفا الخراب غير أنهما لم يقضيا عليهم القضاء المبرم. وهنالك شبه إجماع أيضاً على سماحتهما وكرم ضيافتهما المتناهي وإسرافهما العظيم في الاحتفاء بالضيف، وميوعة في خُلقهما أشبه بميوعة الشباب وطيشه. أما أوجه الشبه الأخرى التي لم نقوَ على ملاحظتها فيمكن استقراؤها من الوقائع التي سنسردها.

وكيمون هو ابن ميلتيادس وهيگسپيله Hegesipyle التراقية بالولادة، بنت أولوروس Olorus الملك. كما يتبيّن ذلك من قصيدة ميلانثيوس Melanthius وأرخيلاوس في مديح كيمون. وعلى هذا الأساس يكون ثوكيديدس المؤرخ قريباً له من جهة الرحم. واسم أبيه أولوروس إنما هو إحياء لذكر السلف الواحد من القرابتين. وقد اشتهر بامتلاكه مناجم الذهب في ثراقيا، وقُتل كما يقولون في سكاپته هيله Scapte Hyle وهو من أقاليم ثراقيا ونُقلت رفاته إلى أتيكا فيما بعد. ويشار إلى ضريح له على ما يزعمون بين قبور اسرة كيمون مجاور لقبر ألپينيس Elpinice أخت كيمون. إلاّ أن ثوكيديدس كان من سكنة مدينة هاليموس Halimus، وميليتادس وأسرته من الأگيادي. حُكم على ميلتيادس هذا بغرامة للدولة قدرها خمسون تالنتاً فعجز عن دفعها فأودع

السجن ولم يخرج منه إلاّ ميّتاً. وخلّف كيمون حدثاً يتيماً مع أخته ألپينيس وكانت مثله صغيرة السنّ عزباء. لم تكن نظرة الناس إلى كيمون في مبدأ الأمر نظرةً حسنة. فقد رأوه أهوج متقلّب الأهواء مولعاً بالشراب، أقرب الشبه بأخلاق جدّه المدعوّ كيمون أيضاً، إلاّ أنه كان يلقّب كواليموس Coalemus لسذاجته. والمؤرخ ستسبمروتوس الثاسوسي Thasos الذي عاش في عصر كيمون يذكر أنه كان قليل الوقوف على الموسيقى، زهيد الاطّلاع في الدراسات الفكرية الحرّة والفنون الشائعة بين الإغريق في تلك الحقبة من الزمن، ولم يكن على شيء من طلاقة اللسان، وسرعة الكلام التي امتاز بها مواطنوه الأتيكيون. على أنه كان نبيل الخلق صريحاً للغاية، مزاجه أقرب إلى المواطن البيلوبونيسي منه إلى المواطن الأثيني، أو كما وصف يوريپدس هرقل بقوله:

«فظّ غليظ، لكنه قمين بجلائل الأعمال».

ومن الإنصاف أن نضيف إلى هذا المزايا التي ذكرها ستسبمروتوس له.

واتهموه بمعاشرة أخته ألپينيس في شبابه، وهي على كل حال لم تكن نقيّة السمعة قبل ذلك، وإنما أشيع عن صلة لها مع پوليغنوتس Polugnotns الرسّام. وقيل إنه اتخذها نموذجاً لصورة لاوديكه Laodice في رسم «النساء الطرواديات» الذي رسمه على رواق پلسياناكيتوم Plesianactium المعروف اليوم باسم بوكيله Poecile. ولم يكن پوليغنوتس من أولئك الفنانين الاعتياديين. فهو لا يأخذ عن أعماله أجراً، وإنما قام برسم الرواق إشباعاً لهوايته ورغبة في إرضاء الأثينيين وهو ما أكده المؤرخون وأورده الشاعر ميلانثيوس بقوله:

«رسمت يده في معابدنا وبلادنا وقائع الأبطال الجليلة، دون أن يستوفي أجراً».

ويصرّ بعض المؤرّخين على أن معاشرة ألپينيس لأخيها كانت أشبه بمعاشرة زوجية، ولم تكن سرّية، فقد حال فقرها دون زواج مناسب لها. الاّ أن كالياس هام بحبّها - وكان من أغنى أغنياء الأثينيين - فأبدى استعداده لدفع الغرامة التي حُكم بها الأب إن وافقت ألپينيس على قبوله بعلاً، فزوّجها كيمون به.

ولا شك في أن كيمون كان مولعاً بالنساء، فقد عرّض ميلانثيوس بهذا الطبع في مرثياته وعاب عليه غرامه بأستريا Asteria وعلاقته بالتي تدعى منيسترا Mnestra. أما عن حبه العجيب الخارق لزوجه إيزيوديكه Isiodice بنت يوريپطليموس Euryptolemus ابن ميغاكليس فلا يجادل فيه أحدٌ أو يماري، يدلّ عليه حزنه الشديد لموتها الذين بلغ به حَدّ الخَبال إن صدقت المرثيات والتعازي التي وجّهت إليه عندما

فقدها. ويرى پانيتيوس Panætius الفيلسوف أن كاتب هذه المراثي هو عالم الطبيعة أرخيلاوس والواقع أن الزمن يعزز رأي هذا الفيلسوف.

كان خُلق كيمون فيما عدا ذلك نبيلاً طيّباً من كل النواحي. فهو في مستوى بسالة ميليتادس؛ وليس دون تميستوكلس في إصابة الرأي ورجاحة العقل، ألاّ أنه يفوقهما نزاهة وعدلاً بما لا يقاس، ويساويهما تماماً في المؤهلات العسكرية، أمّا في وجائب المواطن العادي تجاه مجتمعه فقد سما عليهما كثيراً. وأعجب ما فيه أنه بلغ هذه المزايا وهو بعد شاب يافع لم تعمل التجارب عملها في حياته. فعندما أشار تميستوكلس على الأثينيين أيام الغزو الميدي بالجلاء عن المدينة والبلاد وحمل أسلحتهم وركوب السفن لقتال العدوّ بحراً في مضايق سلاميس، وعندما جمد الناس ذهولاً من قطعية هذا الرأي وقسوته، شوهد كيمون أول رجل يمرّ بالكيراميكوس Ceramicus هاشّاً باشّاً على رأس لفيف من أصحابه متّجهاً إلى القلعة وهو يحمل سَرج حصانه بيده لتقديمه إلى الربة، والقصد هو أن الحاجة انتفت من الخيّالة، والضرورة تدعو إلى الاعتماد على البحرية.

وبعد أن تلا صلاته وقدّم السرج أنزل دِرعاً من الدروع البحرية المعلّقة هناك على جدران المعبد وسار به نحو الميناء، فأشاع عمله هذا الثقة بين كثير من المواطنين. وعلى ما ذكره أيون الشاعر أنه كان وسيماً متناسق الأعضاء، فارع الطول ضخماً، لا يحلق شعر رأسه الغزير الجعد. وعاد من معركة سلاميس بعد بلاءٍ حسن ليشتهر أمره بين الأثينيين. فقد أخذوا ينظرون إليه نظرة ودّ وإعزاز، وكسب أنصاراً كثيرين لازموا جانبه وساروا في ركابه يحثّونه على اطّلاب المجد في معارك لا تقلّ شهرة عن معركة مراثون التي كان أبوه بطلها. ورحّب به الجمهور مسرورين عند بروزه إلى الحياة السياسية مللاً من تميستوكلس؛ فدفعوا به إلى أرفع مناصب الحكم نكاية به ومعارضةً له، فضلاً عن صراحة كيمون ولُطف طبعه. وكان أريستيدس صاحب الفضل الأكبر في تقدّمه. فقد كان أول من اكتشف فيه المؤهّلات والقابليات. فأخذ بيده عن قصدٍ ليجعل منه ندّاً لتميستوكلس يقارع به مكره وجرأته.

بعد أن تم إجلاء الميديين عن بلاد اليونان، عُيّن كيمون قائداً لأسطولهم. ولم يكن الأثينيون قد حققوا بعد سيادتهم البحرية، وإنما كانوا مسلّمين بقيادة پاوسانياس واللقيديميين. وبرز الأثينيون تحت قيادة كيمون ووصلوا إلى درجة عالية من الكفاءة في امتيازهم على سائر أساطيل الحلفاء بالنظام والطاعة، وفي خفّتهم وحماستهم لأداء ما يناط بهم من مهام. ثم ما لبث أن علم الحلفاء بوجود اتصالات سرّية بين پاوسانياس والبرابرة وتبادله الرسائل مع ملك الفرس ضدّ مصلحة اليونان. أضف إلى ذلك أنهم

ضاقوا ذرعاً بخُيلائه وغطرسته وسوء استعمال سلطاته الواسعة بعد النجاح الذي أصابه، وكثرة المظالم الشنعاء التي أتاها. ولم يدع كيمون هذه الفرصة تفلت من يده، فحرص دائماً على أن يقف موقف المواساة والعطف من المظلومين.

فلم يدر پاوسانياس إلاّ وقد انتُزعت من يده قيادة الإغريق العامة باستظهار شخصية كيمون ولباقته لا بقوة السلاح. ولم تعد أغلبية الحلفاء تطيق صلافة پاوسانياس وغلاظته، فثاروا على قيادته وسلّموا زمامها لكيمون وأريستيدس فقبلاها. وكتبا إلى الإيغور في سپارطا يطلبون منهم استقدام رجلٍ يلحق وجوده أكبر العار ببلادهم، ويخلّ بسمعتها، فضلاً عمّا يسبّبه من متاعب لسائر بلاد الإغريق. ورويا لهم قصة إغوائه سيدة صغيرة السنّ من أسرة نبيلة أثناء وجوده في بيزنطة تدعى كليونيس Cleonice وإصراره على الزنى بها. وكيف أن أبويها اضطرا إلى التسليم بالأمر الواقع خوفاً من قسوته فأخليا بينه وبينها. وفي الليلة التي قرر أن يقضي منها لُبانته طلبت من الخدم خارج المخدع اطفاء كل الأنوار حياءً وتقدّمت من فراشه في الظلام بسكون إلاّ أنها عثرت بمصباح فقلبته، فأيقظ الصوت پاوسانياس الذي كان النعاس قد غشِيَه مجفلاً وهو يظنّ أن قاتلاً تسلل إليه تحت جنح الظلام يسعى للفتك به، فأسرع إلى خنجر تحت يده وطعن به الفتاة فسقطت ميتة في الحال.

روي أن پاوسانياس لم يعرف طعماً للراحة بعد هذه الفاجعة وان خيال الضحيّة ظل يلاحقه، وزاره شبحها في نومه ووجّه إليه هذه الكلمات الغاضبة:

«سر في طريقك إلى شرّ نهاية تنتظرك، فتلك هي عاقبة شهوتك وظلمك».

كانت هذه الحادثة واحدة من أهمّ أسباب انتقاض الحلفاء على قيادته فتجمع حقدهم عليه، وتألبّت قوّاتهم معهم بحلف وتفاهم مع كيمون وحاصروه في بيزنطة فأفلت منهم. إلاّ أن شبح الفتاة ما انفك يطارده ويقضّ عليه مضجعه. فلم يرَ إلاّ أن يحجّ إلى هيكل الموتى في هيراكليا وهناك دعا لاستحضار شبح كليونيس راجياً منه الصفح والصفاء. فخرج إليه وأجابه أنه سيتخلص من كلّ ما يعانيه حال وصوله إلى سپارطا. ويبدو أن في هذا القول نبوءة غامضة عن قرب موته. وهذه الحادثة رواها كتّاب عديدون.

وقوي مركز كيمون بنجاح الحلفاء في طرد پاوسانياس. ورحل إلى تراقيا بمنصب جنرال. إذ وردت أنباء عن قيام لفيف من عظماء الفرس أقرباء الملك ببثّ الفساد وزرع الفتن بين الإغريق المجاورين لمدينة آيون Eion الواقعة على نهر ستريمون Strymon التي كانت بيد هؤلاء، فانقضّ عليهم وهزمهم في معركةٍ فهربوا إلى المدينة محتمين

بأسوارها فألقى الحصار عليهم. ثم حمل على التراقيين الساكنين وراء نهر ستريمون لأنهم كانوا يزوّدون آيون بالأرزاق، وأجلاهم بالسيف عن البلاد كافة بعد احتلالها. فساءت حال المدينة المحصورة وأضرّ بها الجوع وأدرك قائدها بوطيس Butes اليأس فعمد إلى إشعال نار في المدينة أحرق فيها نفسه ومقتناه وأهله. فدخلها كيمون ولم تقع في يده غنائم كثيرة لأن البرابرة لم يدعوا شيئاً ذا جدوى إلاّ أحرقوه مع أنفسهم. وارتأى أن يدع البلاد المفتوحة للأثينيين فكان هذا العمل أفضل تدبير وفيه أعظم فائدة له. فقد أكرمه القوم لقاء ذلك بأن سمحوا له أن يقيم «أنصاب حرب» Mercuries ففعل ونقش على أولها الأبيات التالية:

«هناك حيث يجري نهر ستريمون تحت آيون
تمكن ذوو النفوس الجريئة الصابرة أخيراً
من إلحاق الهزيمة بصبيان الميديين.
بفعل الجوع وحدّ السيف. وأشدّ الضيق».

ونقش على النصب الثاني هذه الأبيات:

«منح الأثينيون قوّادهم هذا التكريم الذي
استحقوه لقاء خدماتهم الجليلة النافعة
ومن هذا التكريم والثناء سيتعلّم الآخرون
التفاني والإخلاص في قضايا أوطانهم».

وعلى الثالث حفر النقش التالي:

«في الزمان القديم، أرسلت هذه المدينة
إلى سواحل طروادة مينيسثيوس المتألّه
بصحبة أبناء أرتيوس Artius وهو بشهادة
قصائد هوميروس أقدر من صَفّ الجيوش للقتال
بين سائر الإغريق: كذا كانت شهرة أبنائها
وأسماؤهم عاليةً بين قادة الميدان وأبطاله منذ قديم الزمان».

ومع أن اسم كيمون لم يُنقش على هذه الأنصاب إلاّ أن معاصريه يعدّون هذا التكريم أعلى ما أُسبغ على قائد ولم ينل شبيهاً له لا تميستوكلس ولا ميلتيادس. وهذا الأخير عندما طلب تاجاً من الزهر وقف سوخارس Sochares من ديكيليا Decelea في الجمعية العامة يعارض الطلب بعبارات غير لائقة إلاّ أنها قوبلت باستحسان وتشجيع. وممّا قاله [لملتياديس]:

- عندما تفوز أنت وحدك بنصرٍ فلك يا ميلتيادس أن تطلب لنفسك تكريماً مثل هذا. أما الآن فلا.

إذن ما الذي جعلهم يخصّون كيمون بهذا الشرف؟

ألأنهم كانوا قبل ذلك في موقف المدافع دوماً تحت قيادة من سبقه، في حين لم يكتفوا بالهجوم على أعدائهم تحت زعامته وإنما أغاروا عليهم في عُقر دارهم وانتزعوا منهم مدينتي آيون وأمفيپوليس Amphipolis واستعمروهما بجاليات أثينية. مثلما فعلوا أيضاً بجزيرة سكيروس Scyros التي استولى عليها كيمون بالصورة الآتية:

أهمل الدولوپيّون Dolopias سكان هذه الجزيرة الزراعة والفلاحة وانصرفوا إلى القرصنة، وزاولوها عدة أجيال حتى بلغ بهم الأمر إلى سلب الأجانب الذين كانوا يأتون ببضائعهم إلى موانئهم. وذات مرّة سطوا على بعض التجار الشساليين الذين نزلوا ساحلهم بالقرب من بلدة كطيسيوم Ctesium. وبعد أن سلبوهم أموالهم قبضوا عليهم وزجّوا بهم في الحبس. وبعد فترة تمكن هؤلاء من الفرار وراجعوا مجلس القضاء «الأمفكتيوني» في بلادهم واستحصلوا منه على قرار ضدّ الكيرونيين يقضي بدفعهم تعويضاً لهم من الأموال العامة. فأبى الأهالي تنفيذ الحكم وطلبوا من الجناة المسؤولين إعادة ما نهبوه إلى أصحابه. ففزع هؤلاء إلى كيمون وأرسلوا إليه رسائل يطلبون منه إنجادهم بأسطوله معلنين استعدادهم لتسليم المدينة له دون قتال. وبهذه الوسيلة وضع كيمون يده عليها وطرد قراصنه دلوپيا، وفتح طرق التجارة في البحر الإيجي بعد أن ظلت مقطوعة زمناً طويلاً. وهناك علم أن ثيسيوس ابن إيجيوس كان قد لجأ إلى تلك المدينة عند خروجه من أثينا، وقد اغتاله فيها ليتوميدس ملكها لخشيته منه. فباشر كيمون يسأل عن موضع قبره لأن العرّافة كانت قد أمرت الأثينيين بنقل رُفاته إلى الوطن وتكريمها بما يليق ببطولاته. إلاّ أن مثواه كان مجهولاً، لأن أهالي سكيروس تعمّدوا طمس معالمه ومسح أخباره من الذاكرة، كرهاً منهم أن يجرى أي بحث عنه. غير أن كيمون أمر بإجراء تحقيق واسعٍ جداً. وكشف بعد صعابٍ كثيرة عن القبر وحمل عظام البطل إلى أثينا ببارجته الخاصةِ، فاستُقبلت بحفاوة وأبّهة لا مثيل لهما بعد أربعمائة سنة أو حواليها من نفي صاحبها. ورفع هذا العمل من منزلة كيمون عند الشعب كثيراً. ومن دلائلها الحكم الشهير الذي صدر بخصوص الشعراء التراجيديين: كان سوفوكليس يومذاك شاباً في مقتبل العمر لم يمر على تقديمه أولى مسرحياته زمن طويل. وفي الملعب اختلف الرأي بشأنه واشتدّ تحمّس المتفرّجين وهم بين مشايع ومخالف. وأبى أپسيفيون Apsefion الأرخون وقتذاك أن تجرى القرعة لاختيار المحكّمين عندما بلغ

الخلاف حَدّ التأزّم واقتضى اتخاذ قرار حاسم. وفي تلك الأثناء دخل كيمون وزملاؤه الضبّاط الملعب قادمين بعد أداء الفريضة المعتادة لإله الاحتفال. فحال بين المحكّمين والانسحاب وأمرهم أن يبرزوا للناس لأداء اليمين وكانوا عشرة، كل واحد منهم يمثل قبيلةً. ففعلوا وانقلبوا قضاةً محلّفين وبعدها أمرهم أن يجلسوا لإصدار حكم. واشتدت الرغبة في الفوز لما يتمتّع به الحكّام من مقام رفيع ولما في قرارهم من تكريم للفائز، أخيراً أُعلن فوز سوفوكليس بالأسبقية. وقيل إن فوزه حزّ في نفس أسخيلوس كثيراً حتى أنه كره البقاء في أثينا وغادرها إلى صقلية كليمَ القلب ساخطاً. وفيها توفّي ودُفن قرب مدينة غيلا Gela.

ويروي أيون عن أيام شبابه، بعد نزوحه إلى أثينا من خيوس بزمن قصير، أن مأدبة عشاء جمعته مع كيمون في منزل لاوميدون Laomedon. وعلى إثر انتهائهم من الأكل وصبّ الخمر تكريماً للآلهة حسب العادة المتبعة، رغب الحاضرون من كيمون أن يغنيّ لهم أغنية فغنّى وأجاد وتوالى الثناء عليه من المجلس. وعلّقوا على سبقه تميستوكلس في مناسبة مماثلة سابقة، حيث قيل إنه لم يتعلّم لا الغناء ولا العزف قط، وإنما تعلّم كيف يملأ المدن ثراء وغنى ويزيد في قوّتها وسلطانها. وبعد أن تشعّب الحديث فيما ينصرف إليه عادة خلال هذه المآدب والحفلات عرّجوا على ذكر أعمال ووقائع برز فيها كيمون. وجرت مفاضلة بأروعها فقال كيمون إنهم أغفلوا واحدة وصل بها إلى نهاية الدهاء وبُعد النظر في اعتقاده. ثم راح يقصّها عليهم فقال: عندما وقع في أيدي الحلفاء عدد كبير من أسرى البرابرة في كسقوس وبيزنطة أُعطيَ حق قِسمة الغنائم فجعلها نصيبَين: وجمع كل الأسرى في سهمٍ وكل أسلابهم من الحلى والسلاح والنفائس والثياب في سهمٍ، فاحتج الحلفاء قائلينَ إنها قسمة بعيدة عن العدل، فبادر كيمون إلى منح الحلفاء حقّ الخيار في أحد النصيبَين مصرّحاً بأن الأثينيين يرضيهم أيّ سهم متخلّف. فأشار هيروفيتوس Herophytus الساموسي على الحلفاء أن يختاروا الأسلاب ويتركوا الأسرى للأثينيين. وانصرف كيمون مشيَّعاً بالضحك والسخرية لهذه القسمة السخيفة التي جعلت الحلفاء يستأثرون بالأساور والمعاضد والأطواق الذهبية والثياب الأرجوانية تاركين للأثينيين أجساماً عارية هزيلة لا يستطيعون استغلالها في عملٍ لعدم تعوّد هؤلاء الأسرى على الأشغال الجسدية. لكن ما مَرّ زمن قصير حتى تقاطر ذوو الأسرى وأصحابهم من ليديا وفريجيا لافتدائهم بمبالغ جسيمة. وبهذه الطريقة حصل كيمون على أموال طائلة أنفق منها على أسطوله وغاليوناته طوال أربعة أشهر وأرسل ما تبقى، إلى الخزانة العامة في أثينا!

وأصاب كيمون حظاً كبيراً من الغنى. وما اغتنمه من البرابرة بشرفٍ أنفقه على مواطنيه بشرفٍ. فقد أمر بهدم جدران بساتينه وأسيجة أراضيه، مفسحاً السبيل للغرباء والمعدمين من بني قومه أن يقطفوا ما شاؤوا من ثمارها بلا مقابل. وفي منزله مَدّ سِماطاً دائماً يتسع لعدد كبير من القُصّاد رغم بساطة الطعام الذي يقدّمه. وكان فقراء المدينة يطعمون منها باستمرار وبذلك لا يشغلهم البحث وراء الرزق عن واجباتهم العامّة ويشجّعهم على التفرّغ لها. على أن أرسطوطاليس يقول إن هذه المائدة لم تكن مشاعة لجميع الأثينيين وإنما قصرها على أبناء عشيرته اللاكّيادي، زد على هذا أنه أمر تابِعَين أو ثلاثة شبّاناً بملازمته في غدواته وروحاته وعليهم ثياب حسنة. فإذا صادف مواطناً متقدّم السنّ في ثياب مبتذلة قام أحد هؤلاء الشبان باستبدال ثيابه بثياب المواطن المُعدم. وقد اشتهرت هذه البادرة وعُدّت من أنبل الأعمال. كذلك أوجب على تابعيه هؤلاء أن يتزوّدوا بصُرر من النقود، ليدسّوا في أيدي أفاضل الناس المملِقين مبالغ منها أثناء وقوفهم إلى جانبهم في الساحة العامة. والشاعر كراتينوس ينوّه بهذا العمل في «أرخيلوكي» Archilochi إحدى كوميديّاته إذ يقول عن لسان أحد شخوص التمثيلية:

«أنا متيروبيوس مسجّل العقود الفقير.
ضمنت راحتي، وخفض عيش في أرذل عمري
بفضل أنبل أبناء الإغريق في هذه الدنيا الفانية.
. . . إنه كيمون ذو النفس الزكية، كيمون نفحة الآلهة.
وكانت أمنيتي أن أبقى مستمتعاً بألذّ المآكل والولائم
حتى يحين الأجل. . . الأجل الذي أخذه وأسفي
قبل أن يأخذني. . .»

ويقول عنه جورجياس Gorgias الليونتي إنه: أوتِيَ سعة في الغنى لاستخدامه فيما يشرّفه ويرفع من مقامه. ونجد كريتياس Critias أحد الطغاة الثلاثين يتمنّى في إحدى ملاحمه الشعرية أن يُحرز. . .

«ثروة سكوپادس Scopads، ونُبل كيمون، ونجاح الملك أغيسلاوس».

ونعلم أيضاً أن ليخاس Lichas لم يرتفع مقامه ويشتهر أمره في اليونان إلا لأنه كان معتاداً استضافة الغرباء القادمين لرؤية الألعاب في العهد الذي كان الصبيان فيه يدخلون مسابقات العدوّ وهم عُراة. إلاّ أن كيمون بذّ الكرم الأثيني القديم وسخاءه. وللأثينيين الحق في أن يفخروا بأجدادهم الذين علّموا بقية الإغريق زراعة القمح واستخدام ينابيع الماء وإشعال النار، إلاّ أن كيمون بإبقاء باب بيته مفتوحاً لمواطنيه

كافة، وبإفساحه للغرباء أن يجنوا ما شاؤوا من ثمار بساتينه في مختلف فصول السنة، يبدو وكأنه أعاد إلى المجتمع البشري نظام شيوعية الأموال الذي كان سائداً كما تقول الأساطير في أيام حكم زُحل Saturn. أما المغرِضون من الناس الذين رأوا في كرمه هذا وسيلةً لخطب ودّ الناس، وتأييد الأوزاع والصعاليك، فيردّ عليهم ردّاً مفحماً وهو الطابع الذي يميّز سائر أعماله السياسية، فقد تحرّت دائماً مصلحة الطبقة العليا من القوم، وسارت وفق المبادئ السپارطية. ومن دلائلها قيامه هو وأريستيدس بمعارضة تميستوكلس الذي كان يعمل على توسيع سلطات الشعب إلى الحدّ الذي ينافي مبادئ العدالة، ومعارضته أيضاً لإيفيالطس Ephialtes الذي دعا إلى إلغاء سلطات المجلس الأريوباغي إرضاءً لجمهور الشعب. ولمّا عمل كلّ معاصريه من الساسة على الإثراء من أموال الشعب، باستثناء أريستيدس وإيفيالطس تمسّك هو بعِفّته وأبى أن يلوّث يديه بها، وظلّ إلى آخر ساعة من حياته لا يقول أو يفعل شيئاً يتحرّى منه منفعة خاصة أو كسباً شخصياً. ويحدّثوننا أن روسايپس Rhoesaees الفارسي الذي دبّر مؤامرة للإطاحة بسيّده الملك ثم هرب إلى أثينا لاجئاً، اضطر إلى مراجعة كيمون بعد أن ضاق ذرعاً باتهام المنافقين له إلى الشعب لينتصف له منهم. ووضع أمام عتبة بيته - تقرّباً وتودّداً - كأسين ملأ إحداهما بالذهب والثانية بداركيات Darcis فضّية. فسأله كيمون باسماً: هل هو يرغب في خدمات كيمون المأجور، أم يريد صداقته؟ فأجاب إنه يريد صداقته فقال كيمون:

- إن كان هذا مرامك فخُذ نقودك؛ وقد تُلجئني ظروف الحياة أن أُرسل في طلبها يوماً بوصفي صديقاً لك!

دبّ الملل من الحرب في نفوس الحلفاء. وأثقلت عليهم الخدمة العسكرية، وتاقت أنفسهم إلى الراحة والعودة إلى زراعتهم وتجارتهم، بعد أن أجلوا أعداءهم عن بلادهم وقضوا على تهديداتهم، فأوقفوا إرسال السفن والرجال. إلاّ أنهم استمروا في دفع ضريبة نفقات الحرب المفروضة عليهم كالسابق. فراح جنرالية الأثينيين يُكرهونهم بالإجراءات القضائية ضدّ المتخلّفين وبالعقوبات الأخرى، مما جعل حكمهم ممقوتاً لدى الحلفاء. إلاّ أن كيمون عالج الموضوع بأسلوب جديد. فقد جعل الخدمة العسكرية اختيارية بالنسبة إليهم، شريطة أن يؤخذ بدل نقديّ وسفن عوضاً عن الرجال من كل حليف يودّ الإعفاء من الخدمة العسكرية. وهكذا تركهم يتهيّأون ببقائهم في أراضيهم والانصراف إلى أعمالهم. ففقدوا بهذا صفاتهم الحربيّة وقوّتهم، وقلبتهم غباوتهم إلى مزارعين وتجار يكرهون الحرب. أمّا كيمون فقد فرض على الأثينيين نظام

التدريب العسكري الإجباريّ العام على شكل وجبات تُدعى بالتعاقب إلى الخدمة على ظهور السفن في تمارين عسكرية لتعويدهم على الضبط وحياة الجندية، وما هي إلاّ فترة قصيرة من الزمن حتى جعلهم أسياداً لأولئك الذين قنعوا بدفع أجور لهم! فأخذوا يتملّقونهم رهبةً منهم ليجدوا أنفسهم بعد زمن مجرّد تابعين وعبيد لهم لاحلفاء غباوةً منهم وكسلاً وتراخياً. هذا والأثينيون دائبون على الاستزادة من المهارة والخبرة البحرية بانطلاقهم في كل مكان من البحر وعدم نزعهم السلاح.

وكان عمل كيمون في إذلال ملك الفُرس مما يُضرب به المثل فلم يقنع بطرده من سائر بلاد الإغريق، وإنما ظلّ يتعقّبه باستمرار. ولم يدع للبرابرة فسحة من الزمن لالتقاط أنفاسهم، فهو أبداً في أعقابهم ينقضّ عليهم من حيث لا يحتسبون فيدمّر ويخرّب، ويستولي على المواقع والأقاليم، ويستحدث لهم الفتن والثورات في بعض البلاد، ويدخل صلحاً إلى بعض الأقاليم، وهكذا حتى تمّ له تطهير آسيا كلها من القوات الفارسية، ابتداءً من أيونيا حتى پامفيليا Pamphylia.

وورده ما يشير إلى أن قوّاد الملك قد استعدّوا له متربّصين على ساحل پامفيليا بجيش من المشاة لا يُحصى عدده، وبأسطول جبّار. فقرّر أن يجعل البحر كله من جهة الجزر الخلقيدونية مغلقاً في وجههم، منيعاً لا يجرؤون على اقتحامه. وانطلق من كنيدوس Cnidos ورأس تريوپيا Triopia بمائتي بارجة كان تميستوكلس قد أشرف على بنائها بنفسه وفق مواصفات معيّنة فتميّزت بسرعتها وسهولة دورانها. وأضاف إليها كيمون تحسينات أخرى فوسّعها وجعل سطوحها عريضة من الجانبين لتسهل حركة البحّارة فوقها وتتسع لعدد كبير من الجنود بكامل سلاحهم وتتيح لهم المساهمة في القتال البحري. ورسم خطته بأن تكون مدينة فاسيلس Phasiles هدفه الأول وهي - وإن كانت مأهوله بالإغريق - موالية للفرس فاتّجه إليها ولدى وصوله امتنعت عنه وأبت دخول سفنه مرفأها فاجتاح أراضيها ثم ألقى عليها الحصار. وكان جنود [خيوس] الذين يخدمون في جيشه أصدقاء للفاسيليين منذ القديم فحاولوا التوفيق بالتوسط لدى الجنرال، وراحوا في الوقت عينه يفوقون على المدينة سهاماً تحمل رسائل بأنباء مساعيهم. وبالأخير عُقد الصلح ومن شروطه أن يدفعوا عشرة تالنتات غرامةً، وأن ينضموا إلى كيمون في حربه مع البرابرة.

يقول إيفوروس إن قائد الأسطول الفارسي هو تثراوشتا Tithraustes وقائد الجيش البرّي هو پيراندات Pherendatus. إلاّ أن كالسيثينيس يؤكد أن أريوماند Ariomandes كان القائد الأعلى لجميع القوات، وأنه كان ينتظر بأسطوله في مصبّ

نهر يوريميدون Eurymedon، وليس عنده أية نيّة في القتال، لأنه كان ينتظر ورود نجدة فينيقية من ثمانين سفينة أقلعت من قبرص في طريقها إليه، وكان كيمون يعلم بهذا فانطلق في إرغامهم عليه إن أبوا. وما إن لاح أسطوله للبرابرة حتى انسحبوا إلى داخل المصبّ تفادياً لأيّ هجوم. إلاّ أن الأثينيين أطبقوا عليهم فاضطروا إلى التخلّي عن فكرة الانسحاب، وواجهوا خصمهم بستمائة سفينة فحسب. إلاّ أنهم لم يحققوا ما يُنتظر من هذه القوة الضخمة إذ ما لبثوا أن أداروا دفّات السفن نحو الساحل، وألقى أوّل الواصلين بأنفسهم إلى اليابسة وأسرعوا إلى جيشهم البريّ الذي كان قد أعَدّ نفسه للقتال في تلك الناحية، في حين هلك الباقون أو وقعوا أسرى هم وسفنهم. والمرء يستطيع تخمين عددهم فخلافاً لمن فرَّ ناجياً من ميدان القتال، ومن ابتلعته الأمواج، غنم الأثينيون ماءتي سفينة.

ولما دنا الجيش الفارسي البرّي من الساحل استبدّت الحيرة بكيمون ولم يدر هل يغامر بشقّ طريقه إلى البرّ فيعرّض رجال اليونان لسيوف البرابرة بعد أن أنهكت قواهم مذبحة الاشتباك الأول، في حين كان البرابرة مستجمّين لم يدخلوا اية معركة فضلاً عن تفوّقهم في العدد أضعافاً، إلاّ أنه وجد حماسة جنوده لدخول المعركة ونشوتهم بالنصر أشدّ من أن يُحال دونها فأمر بالنزول إلى البرّ وحرارة المعركة الأولى ما تزال في جسومهم. وما إن وطئت أقدامهم الأرض حتى أطلقوا صيحة عظيمة وانقضّوا على العدو، فوقف لهم وصمد لأول هجمة مبدياً شجاعة كبيرة. ثم انقلب القتال ضارياً عنيفاً. وخرّ في الميدان عدد من أبرز الأثينيين مقاماً وبسالة. وأخيراً تمكنوا من هزيمة البرابرة بعد صعوبات وأهوال. فقتلوا من العدوّ من قتلوا، وأسروا من أسروا، ونهبوا كل خيامهم وسرادقاتهم الملأى بالغنائم الثمينة. وكان كيمون أشبه بالرياضي البارع في المسابقة. فقد أحرز نصرين في يوم واحدٍ. وفاقت معركته البحرية معركة سلاميس، وكانت معركته البرية أعظم من معركة پلاطيا. وهذا ما شجّعه على اطّلاب نصر آخر فقد وردته أنباء عن وصول النجدة الفينيقية وقوامها ثمانون بارجة إلى هيدروم Hydrum فانطلق نحوها بأقصى سرعته. وكانت النجدة لا تدري ما حَلّ بالأسطول الأكبر. وانتابتها الحيرة فيما تفعل، وبوغتوا بكيمون وهم في حيرتهم ينقضّ عليهم، ففُقِدت كلّ سفن النجدة ومعها معظم رجالها. هذا النصر الأخير أورث الملك الفارسي فزعاً عظيماً وألجأه فوراً إلى طلب ذلك الصلح الشهير الذي تعهّد فيه أن لا تقترب جيوشه من البحر اليوناني أكثر من مدى مرحلة حصانٍ وأن لا تظهر أية سفينة أو بارجة من أسطوله فيما بين الجزر الكيانية Cyania والجزر الخيليدونية Chelidonia. على أن

كاللسثينيس ينفي الاتفاق على مثل هذه الشروط ويقول إن الخوف الذي أشاعه هذا النصر حمل الملك الفارسي على الابتعاد عن بلاد الإغريق بهذا المقدار من تلقاء نفسه. حتى أن پيركلس وإيفيالطس عندما انطلقا ما وراء جزر خيليدونيا أولهما بخمسين سفينة، وثانيهما بثلاثين، لم يقعا على سفينة فارسية واحدة. إلاّ أن مجموعة المراسيم الجمهورية العامة التي صنّفها كراتيروس Craterus تتضمّن صورة لهذه المعاهدة. وقيل أيضاً إن الأثينيين أقاموا في مدينتهم مذبحاً لإله السلم بمناسبة هذا الصلح، وقرّروا تكريماً خاصاً لكالّلياس الذي كان قد أُرسل سفيراً لإبرام المعاهدة.

وجنى الأثينيون مالاً طائلاً من غنائم هذه الحرب التي بيعت بالمزاد العلني، وصرفوا منها الكثير على بناء السور الجنوبي من القلعة ووضع أُسس الأسوار الطويلة المسمّاة «بالسيقان»، التي لم تكمل إلاّ بعد مرور فترة من الزمن طبعاً. وكانت مواقع الأسس منطقة مستنقعات وتربة رخوة ولذلك اضطروا إلى استخدام كمّيات كبيرة من الحجارة الضخمة والأتربة لردمها وتقويتها. كلّ ذلك صرفوا عليه من الأموال التي كسبها كيمون. وكان أوّل من بدأ بتجميل الجزء المرتفع من المدينة بتلك الأبنية البديعة المزخرفة التي خُصّصت للاصطياف ومزاولة الرياضة وكثُر الإقبال عليها فيما بعد. وشجّر الساحة العامة وحوّل «الأكاديمي» إلى حديقة تُسقى ذات مماشٍ ظليلة تعكف عليها الغصون، وباحات منبسطة للسباقات الرياضية بعد أن كانت بقعة جرداء جافة.

عندما بسط الفُرس سيادتهم على الخرسونيز ولم يكن لديهم نيّة في الخروج منها، ناشدوا الثراقيين من داخلية البلاد المساعدة ضدّ كيمون وكان هؤلاء مستهينين بقواته الضئيلة، فانقضّ عليهم بأربع بوارج لا غير واستولى على ثلاث عشرة سفينة من سفنهم. وبعد أن طرد الفرس من الخرسونيز وخضد شوكة الثراقيين ضمّ هذه الجزر إلى أملاك أثينا. وهاجم أهالي تاسوس الذين انتقضوا على حكم أثينا وهزمهم في معركة بحرية وغنم منهم ثلاثة وثلاثين سفينة، واستولى على مدينتهم بعد تشديد الحصار عليها. ونقل إلى الأثينيين ملكية كل مناجم الذهب الواقعة على الساحل المقابل، وجميع الأقاليم التابعة لتاسوس. وبذلك بات طريقه إلى مقدونيا مفتوحاً وكان منتظراً منه أن يقتطع منها جزءاً كبيراً، ولأنه لم ينتهز هذه الفرصة حامت الشكوك حول ضعف ذِمّته، وارتابوا في أخذه رشوةً من الملك الإسكندر. ثم اتّحد عليه خصومه واتهموه بالخيانة العظمى. وفي دفاعه الذي ألقاه أمام مجلس القضاة قال إنه ظلّ في حياته العامة يبدو لا كالآخرين، صديقاً للأيونيين والثساليين الأغنياء، يتسلّم منهم الهدايا والعطايا، وإنما ظهر صديقاً للقيديميين، لأنه كان معجباً بهم تألقاً إلى احتذاء

حذوهم في بساطة العيش وسذاجة الخلق. وهو ما كان يفضّله على كلّ شكل من أشكال الغنى. على أنه كان فخوراً على الدوام بجهوده لجعل بلاده غنيّة بغنائم أعدائها. ونوّه ستسمبروتوس بالمحاكمة وذكر أن إلپينيس قصدت پيركلس متشفّعة في أمر أخيها. وكان هذا أشدّ متهميه إصراراً. فأجابها باسماً:

- إنك يا إلپينيس في سنّ لا تسمح لك بالتدخل في مثل هذه الشؤون.

على أنه تبيّن أنه أكثر متّهِميه اعتدالاً. ولم ينهض طوال الجلسة إلاّ مرّة واحدة ليتّهمه وفق ما تُحتّمه الشكليات فحسب. وبُرّئت ساحة كيمون.

وبعد هذه استمر في حياته العامة يعمل على كبْح جِماح جمهور الشعب والسيطرة عليهم لئلا يستظهروا على النبلاء ويستأثروا بكلّ السلطة والسيادة. ولكن الجمهور أفلت من عِقاله على اثر خروجه إلى الحرب، وأطاحوا بكلّ الشرائع القديمة والعادات التي ظلّت متّبعة زمناً طويلاً، وسحبوا صلاحيات مجلس الأريوباغي كلها تقريباً، ومنعوه من رؤية الدعاوى القضائية وبهذا انتقلت إليهم كل السلطات القضائية، وهذا تمّ باقتراح من إيغيالطس بنوع خاص، وانقلب الحكم ديمقراطياً صرفاً. وعاون پيركلس في ذلك إذ كان حينذاك في الحكم، ويقف إلى جانب العامة بصورة واضحة. واضطرب كيمون اضطراباً شديداً لرؤيته مجلس القضاء الأعلى مجرّداً عن سلطته عند رجوعه إلى الوطن وحاول معالجة هذه المشاكل بإعادة السلطة القضائية للمحاكم المدنية، وإحلال الأرستقراطية الغابرة التي كانت تطبّق منذ عهد كلسثينس Clisthanes. ولقيت إجراءاته هذه أعنف مقاومة ممكنة وبدأ المعارضون في أحياء تلك الحكايات المتعلّقة به وبأخته وأخذوا يهاجمونه قائلين إنه صنيعة اللقيديميين. وإلى هذه الانتقادات تشير قصيدة الشاعر يوپوليس Eupolis المشهور إذ يقول قاصداً كيمون:

«إن المرء لا يسعه إلاّ أن يجد فيه الصلاح غير أنه مولع بالشراب، ومجالس الأُنس، وكثيراً ما تراه في الليالي يخرج إلى سپارطا متجوّلاً، تاركاً أخته في المنزل وحيدةً!».

وإذا كان سكّيراً، كسولاً، فها هوذا يستولي على مدن كثيرة ويفوز بانتصارات عديدة مع ذلك. ولو كان خالصاً من هاتين الرذيلتين والتزم جانب الوقار والحشمة لما كان له صِنْوٌ بين قادة الإغريق، لا قبله ولا بعده، في المآثر الحربية.

كان في الواقع من أنصار اللقيديميين منذ شبابه. ولذلك سمّى ولديه التوأمين لقيديمونيوس وإيليوس اللذين ولدا له من امرأة كليتوريّة Clitorium - على ما يقوله ستسبمروتوس - ولذلك كثيراً ما تجد پيركلس يعيّرها بأصل أمهما. على أن ديودوروس

الجغرافي يؤكد أن هذين التوأمين وابناً آخر لكيمون يُدعى ثسالوس قد ولِدوا لإيسدويك بنت يوربطوليموس ابن ميغاكليس.

وعلى أية حال فما هو مؤكد في الأمر أن كيمون كان يحظى بتأييد اللقيديميين ضدّ تميستوكلس الذي كان مُبغَضاً منهم. وقد ساندوه وهو بعدُ فتىً وعملوا على رفع مكانته وزيادة نفوذه في أثينا. ورحّب الأثينيون بهذا وسُرّوا له في مبدأ الأمر، وكانت المحاباة التي أظهرها له اللقيديميون مفيدةً لهم ولأمورهم من شتّى الطرق. فقد كانوا في تلك الحقبة من الزمن يتوقّلون أولى درجات العظمة والقوة ويعملون جاهدين لكسب الحلفاء إلى صفهم ولذلك لم يجدوا في تكريم اللقيديميين كيمون والعطف عليه أيّ داعٍ للغيظ. وكيمون إذ ذاك القائد العام لقوّات الإغريق، والمدبّر الأعلى لشؤونهم موضع رضى اللقيديميين؛ محبوباً من الحلفاء لحسن معاملته. ولكن ما إن تعاظمت قوة أثينا وزادت شوكتها حتى بدأوا يكرهون في كيمون إخلاصه للّقيديميين وشدة حبّه لهم. وغاظهم منه تفضيله إياهم على الأثينيين في كل حديث ومناسبة يريد بها تعنيفهم عن خطأ ارتكبوه أو إثارة حماستهم لعملٍ ما، فينتهرهم بقوله:

- إن اللقيديميين لايعملون هكذا.

فكان هذا يزيد من سُخطهم عليه ويبغّضه إلى المواطنين. إلاّ أن ما شددّ عليه نكير الاتهام هو الحادثة التالية وما نجم عنها من مضاعفات:

في السنة الرابعة لحكم أرخيداموس ابن زيوكسيداموس Zeuxidamus ملك سپارطا حَلّ بالبلاد اللقيديميّة أعظم زالزال أرضيّ وعته ذاكرة البشر. فقد تشقّقت الأرض شقوقاً عظيمة. وبلغ من شدّة الهزّة في جبل تايغيتس Taygetus أن انهار بعضُ قِممه الصخرية. ومن مدينة سپارطا لم يبقَ غير خمسة منازل قائمة. فقد تقوّضت هذه الحاضرة ودُكّت دكّاً. وذكروا أنه قبيل الهزّة بقليل كان بعض الفتيان والصبيان الصغار يقومون بتمارينهم الرياضية معاً في وسط رواق الملعب فمرق من جنبهم على حين غرّةٍ، أرنبٌ مذعور فأسرع الفتيان وراءه وهم عُراة وأجسامهم مدهونة بالزيت، يريدون الاستزادة في التمرن والرياضة، حتى إذا باتوا خارج البناء خرّ الملعب على الصبيان الباقين ودُفِنوا تحت أنقاضه. وضريحهم يسمّى «سيسماتياس» Sismatias إلى يومنا هذا.

واستبدّ القلق بأرخيداموس على بلاده، وأخذ يتحسّب ما سينزل بها بعد هذه النكبة. وعندما رأى مواطنيه منشغلين باستخلاص ما غلا ثمنه من أموالهم المطمورة تحت الأنقاض أمر بإطلاق إشارة الخطر كأنّ عدّواً قد داهمهم. وقصد من هذا جمع

شملهم حوله بكتلة واحدة، وهم بكامل سلاحهم. وهذا وحده هو الذي أنقذ سپارطا في حينه، فقد تجمّع الهيلوت في الأرض المجاورة وفي نيّتهم مباغتة السپارطيين بهجوم للقضاء على من أبقى الزلزال منهم فوجدوهم على أتمّ استعداد للقائهم وهم بكامل سلاحهم، فارتدّوا عنهم إلى المدن وبادأوهم بالحرب واستظهروا على عدد من اللاقونيين في المناطق الريفية. وأغار الميسينيون في الوقت ذاته على السپارطيين فأرسل هؤلاء پيريقليداس Periclidas إلى أثينا بطلب النجدة. وهو الذي قال عنه أرسطوفانس في معرض السخر والتندّر إنه جاء...

«بمعطف أحمر، وجلس في الهياكل بوجه ممتقع
أبيض، وراح يطلب رجالاً، وسلاحاً».

وعارض إيفيالطس في الطلب وحجّته أن ليس ثمّ ما يحملهم على معاونة وإعادة بناء مدينة كانت خصماً منافساً لأثينا ومن الخير إبقاؤها على حالها بعد أن هوت إلى الدرك الأسفل، وأن تُترك كبرياء سپارطا وغطرستها تحت موطئ الأقدام.

إلاّ أن كيمون على حَدّ قول كريتياس «قدّم سلامة لقيديمون على عظمة بلاده». فأقنع الشعب أن يبعث به على رأس جيش كبير لنجدتهم. ويسجّل أيون أبلغ تعبير لكيمون وأنجحه في إثارة عواطف الأثينيين لمساعدة اللقيديميين، إذ قال لهم:

- لا تدعوا بلاد الإغريق تُصاب بعرجٍ، ولا تدعوا مدينتكم نفسها تفقد زميلها في جرّ نير الفدّان!

ومرّ بجيشه عبر أراضي كورنث عائداً بعد معونة اللقيديميين فعاقبه لاخارتوس Lachartus على اجتيازه بلاده قبل أن يطلب إجازة من الشعب الكورنثي، لأن من يطرق باب غيره لا يدخل البيت حتى يأذن له ربّه، فأجاب كيمون:

- لكنكم أيها الكورنثيون لم تطرقوا أبواب الكليونيين Cleonæens والميغاريين، وإنما كسرتموها ودخلتموهما عنوة واقتداراً، وفي اعتقادكم يا صاحبي لاخارتوس أن كل الأبواب يجب أن تُفتح في وجه الأقوى!

كذا كان جوابه للكورنثي مُسكِتاً. ومرّ بجيشه عائداً إلى الوطن. ومرّ بعض الوقت وبعث اللقيديميون يستجيرون بالأثينيين على الميسينيين والهيلوت ثانيةً، وكان هؤلاء قد استولوا على مدينة إثيوم Ithome. فلما وصل الأثينيون ردّهم السپارطيون إلى ديارهم معتذرين لهم بأن القصد من دعوتهم كان تطبيقاً لخطة أمنٍ ابتكروها لحماية أنفسهم لا غير. فارتدّ الأثينيون إلى بلادهم وهم يتميّزون غيظاً لهذه المعاملة، وراحوا يصبّون جام غضبهم، وينفثونه في كل نصيرٍ للقيديميين. واتخذوا حجّة تافهة على كيمون لنفيه عن

البلاد عشر سنوات. وهو العقاب الذي كان يوقع بأولئك الذين يراد إبعادهم عن البلاد دون محاكمة. وفي أثناء ذلك أتمّ اللقيديميون تحرير دلفي من سيطرة الفوكيين، وعادوا وضربوا خيام معسكرهم في تناغرا فأسرع الأثينيون إليهم مصمّمين على قتالهم.

وأقبل كيمون إلى ميدان القتال وانخرط في صفوف رجال عشيرته الأونياس Oeneis ضدّ السپارطيين فسمع مجلس شورى الخمسمائة بمقدمه فخشي العاقبة. وأقام خصومه القيامة على المجلس واحتجّوا على بقائه قائلين إن ذلك سيُحدِث فتنة في صفوف الجيش. فأصدر المجلس أمراً لآمري القطعات بعدم قبول كيمون، فاضطر إلى ترك صفوف الجيش. على أنه استحلف يوثيپّوس Euthippus وأنافليستيان Anaphlyatain وبقيّة رفاقه قبل انصرافه بأن يُبلوا أحسن البلاء في القتال ويُظهروا أقصى ما يمكنهم من البسالة في وجه العدوّ، وأن يبرهنوا بأعمالهم على كذب الفِريَة التي أُلصقت بهم وهي ممالأتهم وانتصارهم للّقيديميين تلك التهمة التي أُلصقت بهم ظلماً. وكانوا مائة فحسب أخذوا سلاح كيمون وآلوا على أنفسهم العمل بما أوصاهم، وجعلوا أنفسهم كتلة واحدة وقذفوا بأنفسهم في أتون المعركة فقُتلوا إلى آخر رجلٍ وتركوا الأثينيين يعضّون بنان الندم لشكّهم الظالم فيهم، وكان أسفهم عميقاً لخسارة هؤلاء الرجال الصناديد. ثم إنّ حدّتهم على كيمون زايلتهم بعد زمن وجيز وأخذوا يتذكرون خدماته الجليلة السابقة أو لعلّ أحوال الزمان هي التي ألجأتهم إلى ذلك. فقد أُصيبوا بهزيمة نكراء في موقعة تناغرا الهامّة وغشِيَهم الخوف من مداهمة أهل البلوپونيس لهم في أوّل الربيع وبادروا إلى إصدار مرسوم بإلغاء نفيه واستدعائه. وأسهم پيركلس بالدور الأول في ذلك. كذلك كانت أحقاد رجال ذلك العهد لا تخرج عن حدود المعقول، وكذا كان غيظهم معتدلاً يفسح السبيل على الدوام لتقديم المصلحة العامة عليه، حتى طموح النفس وهو أشدّ الطباع تحكّماً في البشر وإصعبها سيطرة فقد أمكنهم السيطرة عليه وإخضاعه لمقتضيات الحكم ودواعيه.

ما إن استقر المقام بكيمون حتى بادر إلى وضع نهاية للحرب. وأحَلّ الوئام والصفاء بين المدينتين ووطّد دعائم السلم. إلاّ أن الفراغ الذي أحدثه السلام عند الأثينيين جعلهم نافدي الصبر، تائقين إلى الحرب وما فيها من عظمة ومجد. وخشي كيمون أن يؤدي ذلك بهم إلى الانقضاض على غيرهم من الإغريق أو أن ينطلقوا بسفنهم العديدة نحو جزر البيلوبونيس مُتحرّشين خالقين عدّة ذرائع لحرب داخلية، أو منح أسباب للتظلم والشكوى من حلفائهم. فهيّأ مئتي سفينة حربية لغزو قبرص وبلاد مصر؛ وقصدُه تعويد الأثينيين قتال البرابرة، والاغتناء بطريق شريفة من أسلاب أولئك

الذين كانوا أعداء الإغريق الأُصلاء. ولما تمّ إعداد كل شيء وتأهّب الجيش لركوب السفن حلم كيمون حلماً، تراءت له فيه كلبة مسعورة أخذت تنبح في وجهه، ويُسمع خلال نباحها صوت بشري يقول:

«تعال، فعمّا قريب ستكون مصدر سرورٍ لي ولجرائي».

وصعُب تفسير هذا الحلم. ثم إن أسطيفيلوس Astyphilus الپوسيدوني Posidonia صديق كيمون، وهو رجل مهر في تفسير النبوءات، قال إن الحلم ينبئ بموته وفسّره على النحو الآتي: الكلب هو عدوّ له ينبح في وجهه. وموت المرء يكون دائماً مصدر سرورٍ لعدوّه. والنباح الذي يتخلّله الصوت البشري يشير إلى الميديين لأن جيشهم خليط من الإغريق والبرابرة.

بعد الحلم وفي أثناء تقريبه لباخوس، وحينما كان الكاهن يعمل في الذبيحة تقطيعاً، خرج بعض النمل وحمل قطعاً من الدم المتخثّر والقاها عند إبهام قدم كيمون. وفي أول الأمر لم يلحظ ما جرى ولمّا انتبه إليها كان الكاهن يريه كبِد الذبيحة ناقصاً القسم الذي يُدعى الرأس منه. ومع كل هذه النذُر لم يسعه العدول عن سَوق الحملة، وأبحر لطيّته. وأفرد ستين سفينة من الأسطول لاحتلال مصر وانطلق بالبقية لقتال أسطول الملك الفارسي المؤلف من السفن الفينيقية والكيليكية. واستعاد كل المدن في تلك الربوع وهدّد مصر. وكانت خطته العامة تتضمّن القضاء التامّ على الإمبراطورية الفارسية. وزاد من حماسته لتطبيقها ما ورده عن تميستوكلس وسُمعته العظيمة عند البرابرة، وقطعه عهداً للملك الفارسي بأن يتولّى قيادة جيشه لحرب الإغريق متى حَلا له إعلان الحرب عليهم. على أن تميستوكلس فقد كل أمل في تحقيق نيّاته على ما قيل، ومات حتف أنفِه في غمرة يأسه من التغلّب على كيمون وحُسن حظه.

صحّ عزم كيمون إذن على وضع خطته موضع التطبيق. فكان أول عمله إبقاء أسطوله مرابطاً بالقرب من قبرص، وإرساله سعاةً إلى جوپتر أمون بطلب نبوءه في أمرٍ حرص على كتمانه فلم يحظ بجواب من الربّ لسرّية الطلب، وأمرهم بالعودة من حيث أتوا لأن كيمون معه الآن. فعادوا إلى البحر وبوصولهم معسكر الجيش اليوناني الذي كان إذ ذاك في جوار البلاد المصرية علموا بموت كيمون. واتّضح لهم بالحساب أن النبوءة كانت تشير إلى موته، وأنه كان وقتئذ في عالم الأرباب.

وتقول فئة من الكتّاب إن موته كان عن مرض ألمّ به أثناء حصاره كيتيوم Citium في قبرص، وزعم لفيف أنه مات من جرح أصيب به في اشتباك مع البرابرة.

ولمّا أيقن بدنوّ أجله أمر ضبّاط جيشه بالعودة إلى الوطن. وأوصاهم أن يكتموا نبأ

موته كتماناً تاماً طوال الرحلة عن الصديق والعدوّ سواء بسواء، ففعلوا. وهكذا «قاد كيمون الجيش اليوناني ثلاثين يوماً بعد وفاته» على حَدّ تعبير فانوديموس Phanodamus. ولم يقم بعد موته بين الإغريق قائدٌ حقق عملاً يستأهل الذكر ضد البرابرة. وقام الزعماء الشعبيون وأنصار الحرب - بدلاً من اتحادهم ضدّ العدوّ المشترك - يحرّض بعضهم بعضاً ويصطرعون فيما بينهم. وبلغ الانقسام حدّاً أحجم معه الخيّرون عن التدخّل والتوسّط في المصالحة. ولم تكن نتيجة خلافاتهم قاصرة على اضمحلال سلطان الإغريق وحده، وإنما أتاحت للفرس وقتاً كافياً للاستجمام واستعادة كل ما خسروه. الحق يقال إن أغيسلاوس حمل راية القتال اليونانية إلى قلب آسيا ولكنّ ذلك وقع بعد زمن متأخر جداً. وكذلك جرت له حروب قصيرة الأمد مع قوّاد الملك في الأقاليم الساحلية، إلاّ أنهم تلاشوا أمامه بسرعة. وقبل أن يحقق أغيسلاوس شيئاً مذكوراً استُدعي إلى الوطن لمعالجة انقسام سياسيّ جديد وتناحر داخليّ، فاضطر إلى ترك قوّاد الملك الفارسي يفرضون ما يشاؤون من الإتاوات على المدن اليونانية الحليفة والمتحدة اتحاداً سياسياً مع اللقيديميين في آسيا. بينما لم يكن يجرؤ ساعي بريد أو فارس أن يدنو من الساحل أكثر من أربعمائة فرلنغ في عهد كيمون.

والأنصاب المشهورة بالكيمونية إلى يومنا هذا في أثينا تؤيّد نقل رُفاته إلى الوطن. ومع هذا فإن سكان كيتيوم يقدّسون بصورة خاصة ضريحاً يطلقون عليه «قبر كيمون». ويقول ناوسيقراطس Nausicrates البليغ إن أهلها استنزلوا نبوءة أيام مجاعة حلّت بهم عندما أمحلت أرضهم، فأُمِروا بألاّ ينسوا كيمون وأن يقدّموا له إكرام الربّ. هكذا كان القائد الإغريقي كيمون.

لوكوللوس

LUCULLUS

(Lucius Licinius)

١٠٦–٥٧ ق.م

كان جَدّ لوكوللوس قنصلاً وخاله هو ميتيللوس الملقّب نوميديكوس Numidicus. وأما عن أبويه، فإن والده حُكم عليه بجريمة الاستغلال، وسُمعة أمّه لم تكن بعيدة عن الشبهات. وأول أعمال لوكوللوس قبل أن يتقدم لأية وظيفة أو يتدخل في شؤون سياسة الدولة هو اتهام مُتّهِم أبيه العرّاف الكاهن سرڤيليوس فقد ضبطه بجريمة ارتكبها ضدّ الدولة. وكان ذلك في مطلع شبابه فحظي من الرومان باهتمام كبير ولفت إليه الأنظار بهذا العمل الذي عُدّ من الأعمال الجديرة بالثناء وإن كان إقدامه عليه من دون استفزاز. فالرومان يغتبطون لمّا يرون الشبان ثائرين على الظلم كالكلاب الأصيلة وهي تهاجم الوحوش الضارية. إلاّ أن خصومات عنيفة نشأت عن ذلك وأدّت إلى معركةٍ بين الخصوم جُرح فيها مَن جُرح وقُتل مَن قُتل، وفرّ سرڤيليوس على إثرها هارباً.

تابع لوكوللوس دراساته وتخرّج خطيباً مُصقِعاً باللغتين اليونانية واللاتينية، حتى أنّ سيلّلا قدّم تعليقاته، التي كتبها عن حياته وأعماله، إليه بوصفه الشخص القادر على الإتيان بمثل هذا التأليف بنفسه. ولم تكن خُطبه مجرّد خُطب متفنّنة منسجمة والغاية المقصودة منها كأي خطبة عادية تُلقى في الساحة العامة على الجماهير...

«وتسوطُ صفحة البحر مثل سمكة التونة الجريحة».

ولكنها قد تكون في مناسبة أخرى:

«جافّة خشنة لافتقارها إلى النكتة».

وكان منذ مطلع شبابه منصرفاً إلى مُدارَسة الفنون الحرّة لذاتها. ولمّا تقدمت به السنّ واجتاز حياة ملؤها الكفاح والنضال أطلق العِنان لعقله ومنحه الحرية التامة للتمتّع بكلّ ما تمنحه الفلسفة من راحة وجدانية وانتعاش فكري، متوسّلاً بكلّ مقدرته على التأمّل ليكبح في الوقت المناسب جِماح شعور الطموح وحبّ المنافسة بعد أن اشتدّ خلافه مع پومپي اشتهر أيضاً بأمرٍ آخر خلاف اطّلابه العلم وهو أن اقتراحاً عُرض عليه

في شبابه للكتابة عن الحرب المارسيّة Marsian ما عتم أن انقلب إلى أمرٍ جدّي فاتفق هو وهورتنسيوس المحامي، وسيسينا Sisenna المؤرخ، أن يسحبوا قُرعة في هذا الصدد. ففعلوا ويظهر أن السهم الذي وقع عليه كان الكتابة باللغة اليونانية، إذ إن تاريخاً يونانياً عن هذه الحرب قد وصلنا.

ومن الدلائل الكثيرة التي تؤكد شعوره العظيم لأخيه ماركوس حادثة يتناقلها الرومان ويذكرونها أبداً. كان لوكوللوس أكبر من أخيه هذا إلاّ أن نفسه أبت عليه أن يتسلّم أية سلطة عامة دون أن يكون أخوه فيها إلى جانبه، فأخّر تقدّمه السياسي حتى وصل أخوه حَدّ اللياقة للمساهمة معه. وبلغ عمله هذا من قلوب الشعب مكاناً لن يتردّدوا معه في إسناد منصب الإيديل له في غيابه!

وأظهر قبل الأوان عدّة دلائل على بسالته وحُسن إدارته خلال الحرب المارسيّة. وأعجب سيلّلا بمثابرته ولُطف حاشيته، وكان ينيط به دوماً أهمّ الواجبات، نذكر منها إشرافه على دار الضرب. فهو الذي تولّى في الپلوپونيس صكّ معظم النقد الذي استخدم للصرف على حروب ميثريدات. شقّت هذه العُملة طريقها إلى التداول بسرعة لحاجة الجنود الماسّة، وظلت رائجة مدة طويلة وعُرفت باسم «عُملة لوكوللوس». وبعد أن فتح سيلّلا مدينة أثينا، وحقق انتصاراته البريّة، وجد أن خطوط تموين جيشه البحرية مقطوعة لسيطرة العدوّ التامّة على البحر، فوقع اختياره على لوكوللوس لتأمين الأرزاق وبعث به إلى ليبيا ومصر. وكان الوقت عِزّ الشتاء عندما تلمّس سبيله بثلاث سفن إغريقية صغيرة الحجم وبمثلها من الغاليونات الرودسيّة. وكان عليه أن يضرب في البحر الأوقيانوس المترامي متحاشياً ما لا يُحصى من السفن العدوّة التي تجوب البحر ذاهبة آيبة وسيدةً مطلقةً. وبلغ جزيرة كريت فضمّها إلى جانبه. وكان أهلها الكيريتيون يرزحون تحت مظالم عهود الطغيان الطويلة، وقد أنهكت قواهم الحروب. فأزال شكاواهم ووطّد دعائم حكومة جيّدة لهم معيداً إلى ذاكرتهم القول المأثور الشبيه بالوحي المنزل لدقّته وإصابته الذي وجّهه إليهم أفلاطون عندما طلبوا منه أن يضع لهم شرائع جديدة ويضع أُسس جهاز حكومي سليم لهم فردّ عليهم قائلاً:

«إن اشتراع قوانين لأهل كريت عملٌ في منتهى الصعوبة، وهم في هذه الحالة من الغنى والثراء. إذ ليس ثمّ أصعب قياداً من المرّفه والثري، ولا أساس أكثر استعداداً للطاعة ممن يُذّله الحظّ ويُملق».

فتبدّل حال أهل كريت إذن هو الذي جعلهم يُقبِلون على تطبيق قوانين لوكوللوس، ويخضعون لها بملء الرغبة. بعد هذا أقلع لوكوللوس إلى مصر، وعانى الكثير من

مضايقة القراصنة وملاحقتهم وفقد معظم سفنه إلاّ أنه أفلت منهم سالماً بما يشبه الأعجوبة. وبلغ الإسكندرية فدخلها دخولاً فخماً وبأبّهة تليق بالملوك. فقد خرج الأسطول كله وانتظم صفوفاً لاستقباله. وأظهر له بطليموس الشاب لُطفاً لا مزيد عليه، وأحلّه في قصره وآكله فيه وهو ما انفرد به لوكوللوس إذ لم يسبق لقائد أجنبي أن استُضيف في القصر. وأغرقه بالهبات والعطايا لا كتلك التي تُهدى لمن هم في مقامه عادة، وإنما بلغت أربعة أضعافها. لكن لوكوللوس أبى عنها وردّها إلاّ ما يسدّ حاجته. وقدّم له ما يربو على ثمانين تالنتاً منحة فلم يقبلها. وقيل إنه أبى زيارة مدينة ممفيس أو أي مشهد عجيب من مشاهد مصر، تاركاً هذا للطُّلعة المتبطّلين الذين لا عمل لهم، لا لرجل مثله ترك قائده في ميدان القتال معسكراً أمام استحكامات الأعداء.

كان بطليموس قد خرج من الحلف بسبب تخوّفه من نتائج هذه الحرب. إلاّ أنه أرفق بركبه قافلةً بحرية حتى قبرص. وفي ساعة الوداع الذي تمّ بكثير من الحفاوة والمجاملة تمنّى له أطيب رحلة وقدّم له زُمرّدة ثمينة جداً في حِلْيَة من الذهب فهمّ لوكوللوس بردّها إلاّ أن الملك أراه صورته محفورة عليها. فلم يجد لوكوللوس من الحصافة واللياقة رفضها. إذ لو افترق عنه بإهانة صريحة كهذه لجعل رحلته محفوفة بالخطر. ثم إنه خرج إلى البحر ترافقه عمارة بحرية كبيرة كان قد أرسل بطلبها. فسار مُيمّماً المدن الساحليّة ومُتحاشياً منها تلك التي يشكّ في احترافها مهنة القرصنة. ثم اتّجه إلى قبرص ولمّا أشرف عليها علم أن العدوّ يتربّص به في الجُرف الساحلية المرتفعة فأخفى أسطوله وبعث إلى المدن يطلب أقواتاً لرجاله لعزمه على قضاء الشتاء هناك. ولكنه تحيّن فرصة مؤاتية فأنزل سفنه في غفلة من العدوّ وانطلق ناشراً كل أشرعته في الليل، وطاوياً إياها في النهار، حتى بلغ جزيرة رودس فتزوّد منها بمزيد من السفن. وتمكن من إقناع أهالي مدينتي كوس وكيندوس بالتخلّي عن مناصرة الملك والانضمام إليه في حملة عسكرية ضدّ الساموسيين. وقام هو شخصياً بطرد أنصار الملك من خيوس وحرّر الكولومونيين من رِبقة الاستعباد بإلقائه القبض على طاغيتهم المستبد فيهم إبيغونس Epigonus.

وفي أثناء ذلك ترك ميثريدات مدينة برغاموس مرتدّاً إلى پيتانه Pitane. فلحق به فمبريا وألقى عليه وهو في المدينة حصاراً شديداً وضيّق عليه الخناق من البرّ. ولم يكن ميثريدات في وضع يتمكن معه من الالتحام بمثل هذا القائد الجريء الظافر. وأخذ يُعِدّ الوسائل للفرار عن طريق البحر. فبعث يستقدم كل أسطوله الموزّع في عدة أماكن ليكون تحت تصرّفه مباشرةً. فوقف فمبريا على ما يدبّره وأُسقط في يده لأنه لم يكن

يملك قوة بحرية خاصة. ولم يرَ بُدّاً من مفاتحة لوكوللوس في التعاون معه بأسطوله للقضاء التامّ على أقوى الملوك شكيمة وأبغضهم إلى النفوس وإلاّ «أفلتت من الرومان تلك الطريدة التي بذلوا في مطاردتها كثيراً من الدماء، وعانوا أعظم الأهوال، وضاعت فرصة كسر شوكة ميثريدات بعد أن وقع في المصيدة وأصبح من السهل قنصه. فإن نجح لوكوللوس في الإمساك به فليس ثمّ من يستحق التبجيل والثناء أكثر منه لأنه هو الذي سيقوم بقطع طريق الفرار عليه، وبأسره. قائد يحاصره من اليابسة، وقائد يعترضه من جهة البحر، وعندها سيقتسمان الشهرة والمجد. وسيُنسي عملهما هذا الرومان مأثرتي سيلّلا في أروخومينوس وفي ظاهر خيرونيا فلا يعودون يذكرونهما». ولم يكن اقتراح فمبريا سخيفاً ولا بعيداً عن الصواب. فواضحٌ أن لوكوللوس لو عمل باقتراح فمبريا وسدّ الميناء بأسطوله الذي لم يكن بعيداً عنه لوضع خاتمة لهذه الحرب فوراً وجنّب الفريقين ما لا يُحصى من المآسي والخسائر. إلاّ أنه رفض التعاون، وترك ميثريدات يفلت من الفخّ هازئاً بمحاولات فمبريا. ولسنا ندري ما الذي دفع لوكوللوس إلى هذا؟ أهو حِرصه على قدسيّة الصداقة التي تربطه بسيلّلا ووضعها فوق كلّ اعتبارات المنفعة الشخصية والمصلحة العامة؟ أم لأنه كان يكره حِطّة فمبريا وتزلُّفه، فقد اشتدّ مَقْتُه له لأنه ما حقق لنفسه ارتقاءً إلاّ عن طريق موت صديقه وقائده الذي حصل منذ عهد قريب؟ أم لأن آلهة الحظّ تعمّدت إنقاذ ميثريدات من هذا المأزق آنذاك لتبقيه خصم المستقبل؟ وعلى أية حال نجا ميثريدات هازئاً بفمبريا.

ووفّق لوكوللوس وحده إلى هزم أسطول الملك في معركة بحرية بالقرب من ليكتوم Lectum في طرواس Troas. وبعدها أدرك أن نيوپطليموس يكن له قرب تينيدوس Tenedos أسطول أكبر من الأول. فركب متن غاليون رودسي ذي خمس مصاطب تجذيف، يقوده داماغوراس Damagoras - وهو رجل ذو خبرة عظيمة ومن أنصار الرومان - وأبحر قبل السفن الأخرى. فلحق به نيوپطليموس وهو يتميّز غيظاً بسفينة القيادة آمراً ربّانها بالهجوم عليه بكل شدّة. ولتخوّف داماغوراس من ضخامة السفينة المهاجمة ومتانة جؤجؤها. ولإدراكه الخطر في مقابلته صدراً لصدرٍ انحرف عنه بسرعة ودار على يمينه وأمر الملاحين بتوجيه السفن إلى الأمام على أن تكون مقدّمتها هي المعرّضة للهجوم، فتلقّى صدمة عنيفة جداً، خفّف من حِدّتها وقوعها على القسم الغائص من السفينة فلم تُلحق به ضرراً يُذكر. وفي غضون ذلك أدركت لوكوللوس بقيّة الأسطول، فأصدر أمراً بالدوران لمواجهة العدوّ وانقضّ عليه وأرغمه على الفرار وجدّ في أثر نيوپطليموس.

بعد هذا توجّه إلى سيلّلا الذي كان في الخيرسونيز يتأهّب لاجتياز المضيق فكان قدومه في الوقت المناسب خير عَوْن له على نقل وحداته بأمان تامّ.

تمّ عقد الصلح بين الطرفين المحتربين، وأقلع ميثريدات إلى البحر الأسود. وقام سيلّلا بفرض عشرين ألف تالنتٍ ضريبة تُجبى من سكان آسيا، وعيّن لوكوللوس مشرفاً على جبايتها، وصكها نقوداً. وكان ارتياح المدن التي وقعت تحت حكم سيلّلا الصارم ليس بالقليل حين أُنيط هذا المنصب الكريه الثقيل التبعات برجل مثله لطيف معتدلٍ فضلاً عن نزاهته وعدله المأثورين. على أن الميتيلينيين Mitylenæans أعلنوا العصيان المطلق. وكان لوكوللوس يودّ من صميم قلبه أن يعدلوا عن تمرّدهم ويعودوا إلى أعمالهم قانعين بعقوبة بسيطة للعمل الذي ارتكبوه في قضية ماريوس، لكنهم ظلوا سادرين في غيهم، وكانوا بذلك كالساعي إلى حتفه ودماره بظِلْفه. ولم يرَ لوكوللوس بُدّاً من الزحف عليهم، فهزمهم في موقعة بحرية وحاصرهم في مدينتهم وقطع عنهم المؤن والأرزاق. وبعدها فكّر في حيلة، وساق جيشه في وضح النهار متجهاً نحو إيليا Elæa متظاهراً بالرحيل عنهم إلاّ أنه عاد سِرّاً تحت جنح الظلام وربض في مكمن قريب من المدينة لا يأتي بحركة. فما لبث الميتيلينيون أن خرجوا من المدينة دون حذرٍ أو نظام وانقضّوا على المعسكر الروماني المهجور لنهب ما فيه فباغتهم بالهجوم وأسر منهم عدداً كبيراً، وقتل خمسمائة ممن رفض إلقاء السلاح والاستسلام، وخرج بستة آلاف من الرقيق وبغنائم ثمينة جداً.

ولم يُسهم لوكوللوس في أيّ من الحروب والفتن التي خلقها سيلّلا وماريوس في إيطاليا. فقد شاءت له العناية الإلهية البرّة به أن تبقيه منشغلاً في آسيا. على أنه كان من حزب سيلّلا وأنصاره متحمّساً له أكثر من أيّ صديق آخر. وقد أهدى إليه سيلّلا تعليقاته التي كتبها عن حياته تذكاراً وتأييداً لتلك المودّة كما أسلفنا، وزاد فأوصى عند موته أن يكون قيّماً على ابنه القاصر، متخطياً بومبي بهذا التكريم. وكان هذا سبباً للتباغض والخلاف بين القائدين كما يبدو. فكلاهما شابّ وكلاهما من طلاب المجد والسلطان.

بُعيد وفاة سيلّلا انتُخب لوكوللوس قنصلاً، بزمالة ماركوس كوتّا Marcus Cotta في حدود الأولمبياد المائة والسادس والسبعين. ووضِعت مسألة الحرب الميثريداتية على طاولة البحث والمناقشة. وكان من رأي ماركوس كوتّا أنها لمّا تنتهِ بعد، وأن فترة الهدوء الحالية هي فترة هدنة واستعداد ليس إلاّ. ولما حان وقت اختيار حكام الأقاليم بالقُرعة رسا على لوكوللوس حكم الغاليين الذين يسكنون الألب. وكان إقليماً هادئاً لا

عمل يُذكر فيه للقائد الطموح. على أن مضاضته من هذا التعيين لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى استيائه من النجاح الذي أصابه پومپي في إسبانيا. فلو انتهت الحرب الإسبانية بسرعة لكان من المحتمل أن يُنتخب پومپي قائداً عاماً للقوات التي تواجه ميثريدات، ولن يجد أي شخص غيره أية فرصة لمنافسته في هذا المنصب بعد الشهرة التي حازها في الميدان الإسباني؛ ولذلك تحمّس له لوكللوس عندما أرسل بطلب موضحاً أنه سيضطر في حالة رفض طلبه إلى مغادرة كل من إسبانيا وسرتوريوس والمجيء بكلّ قواته إلى إيطاليا. ولم يدّخر لوكوللوس جهداً في السعي إلى تحقيق سؤله لكيلا تبقى له حجّة في العودة إلى الوطن طوال فترة قنصليته. فلو قُدّر لپومپي أن يعود إلى إيطاليا بجيشه لكان كل شيء ملكاً ليمينه ولن يجرؤ أحد على معارضته في أي رغبة.

وكان يوجد في ذلك الزمن زعيم من أقوى الزعماء الشعبيين نفوذاً يُدعى كثيغوس Cethegus، ينزله الجمهور منزلة عظيمة لمعرفته طرق إرضائه وإدخال المسرّة إلى نفوس الدهماء منه بإلقاء الخطب وأداء الأدوار التمثيلية دائماً. ولم يكن بينه وبين لوكوللوس أية مودّة فذاك يبغضه، وهذا لا يُخفي اشمئزازه من حياة الدعارة والفجور التي يحياها ذاك، ولذلك كانت الحرب بينهما علنية لا تتستّر تحت قناعٍ. ووجد إلى جانب كيثيغوس زعيم شعبيّ آخر يُدعى لوشيوس كوينتيوس وضع نُصب عينه حَبْكَ المؤمرات للإطاحة بالحكم الذي وضعه سيلّلا وخلْق كل أسباب الفتن والقلاقل للوصول إلى غرضه هذا. إلاّ أن لوكوللوس تمكن بالتنبيه والإرشاد على النطاق الشعبي العام، وبإسداء النصح والتحذير بصورة خصوصية، من إحباط مسعاه وكبح جماحه، وبهذا حال دون شرّ عظيم قبل أن يُخرج شَطأه بحكمته ويقظته.

وفي هذه الفترة بالذات ورد نبأ موت أوكتاڤيوس حاكم إقليم كيليكيا، وكان منصبه هذا مطمح أنظار الكثيرين. فراح طلاّبه يتقرّبون من كثيغوس ويتزلّفون اليه، لأنه خير عون يمكن أن يلتمسه الطامح منهم للظفر بالمنصب الشاغر. ولم يكن لوكوللوس يعلّق أهمّية كبيرة على كيليكيا نفسها إلاّ لأن فوزه بها سيحول دون تقدّم أي شخص آخر عليه في الترشيح لمنصب القيادة العامة في الميدان الميثريداتي، بسبب مجاورته لإقليم كپادوكيا. وهذا ما حمله على بذل أقصى المساعي والجهود لنيل حاكمية الإقليم ليجد نفسه منساقاً إلى وسائل ليست نزيهة، ولا ممدوحة بقدر ما هي غير مجدية، خلافاً لما طُبع عليه من خُلق، ونزولاً إلى حكم الحاجة.

وكانت تعيش في روما امرأة تُدعى پريچيا Præcia اشتهرت بذكائها وجمالها

الخارق؛ وفيما سوى هذا لم تكن أكثر من عاهرة عادية قرنت إلى سحر شخصيتها صفةَ المرء الذي يتحرّى خدمة أصدقائه بكلّ إخلاص ويتفانى في حبهم ويروّج حاجاتهم ويحقق مطالبهم باستعمالها نفوذ من يرتاد مجلسها. فنالت سلطاناً كبيراً وآضت كلمتها مسموعة. واتفق أن كثيغوس وقع أسير فتنتها فهام بها حُبّاً وكان إذ ذاك أشهر رجال روما سُمعة وسلطاناً. فأصبح وهو لا يعصي لها أمراً وجعل كل السلطة تسير في ركابها، إذ لم يكن يتقرر شيء من أمور الدولة وليس لكيثغوس كلمة فيه. ولم يكن يتصرّف هو في شيء إلاّ ولپريچيا قول فيه.

كسب لوكوللوس هذه المرأة بالتقرب منها وبالهدايا (وإنه لثمن عظيم يدفعه لوكوللوس لهذه المرأة البارزة القديرة، ليكونا شريكين في قضيّة واحدة!). فما لبث كثيغوس أن صار صديقاً له، يستخدم أقصى نفوذه ليضمن له منصب الحاكم في كيليكيا.

بعد أن عُيّن لوكوللوس في كيلكيا لم تعد به حاجة إلى كثيغوس وپريچيا فقد تمّ بالإجماع اختياره لتولّي القيادة العامة في الحرب ضد ميثريدات، ولا غرو فليس ثمّ مَن يدانيه مقدرةً في إدارتها إدارة ناجحة، وهذا پومپي ما زال مشتبكاً مع سرتوريوس، وذاك ميتللوس لم تعد سنّه الكبيرة تؤهّله للخدمة، وليس غيرهما من يصلح لمنافسة لوكوللوس في الكفاءة والأهلية القيادية. أمّا زميله كوتّا فقد تقرّر - بعد مناقشة طويلة في مجلس الشيوخ - إرساله على رأس أسطول لحماية الپروپونطس Propontis والدفاع عن بيثينيا.

وخرج لوكوللوس من إيطاليا مُقلعاً إلى آسيا وقد زُوّد بفرقةٍ تحت إمرته المباشرة. فبلغ مقرّه وتسلّم قيادة الوحدات المرابطة وكانت تتألف من رجالٍ أقعدهم التحلّل الخُلقي، وألهاهم السلب والنهب عن معاناة الضرب والطعان. وإلى جانبهم كان هنالك الجنود الفمبريون، لا يُسلسون قيادهم لأحد ولا يخضعون لأي شكلٍ من أشكال النظام والضبط العسكري. وهم الذين اغتالوا فلاكوس القنصل والجنرال زمن قيادة فمبريا، ثم غدروا بفمبريا انتصاراً لسيلّلا. لفيف من الفوضويين لا يقيمون وزناً لنظام، ولا يعرفون للقانون معنى، تمرّسوا في القتال وخبروا ميادين الحرب وحلبوا أشطُرَها ليس إلا. ادرك هؤلاء منذ البداية من أيّ معدن صُبّ قائدهم الجديد فأسلموا له القياد. وما مرّت فترة وجيزة حتى كبح جماح هؤلاء وعوّد أولئك على الطاعة والخضوع للضبط للعسكري، فأصبحوا جميعاً وهم أطوع له من بنانه، بينما كانوا في السابق يُرغَّبون في القتال ترغيباً، ولا يدخلون معركة بأمرٍ من أحدٍ وإنما بمحض اختيارهم ووقت شاؤوا.

يمكن إجمال الموقف الحربي عند العدوّ بالصورة الآتية:

انقضّ ميثريدات في مبدأ الأمر على الرومان وهو مفعم غروراً وتفاخراً كالسوفسطائيين، بجيش عرمرم ضعيف عقيم لا قدرة له على تحقيق أي شيء، وليس فيه غير روعة منظره. فلقي هزيمة نكراء شنعاء ولُقّن درساً قاسياً للمعارك القادمة، ووجد منها أن كثرة العدد لا تقرر مصير حربٍ فعمد إلى تقليص جيشه إلى حدّ مناسب نافع. واستغنى عن ذلك الخليط الدائم الصخب والضجيج من القبائل البربرية المتعددة الألسن واللّغى، بحليّهم الذهبية وجواهرهم التي كانت مصدر الإغراء العظيم للعدوّ وحافزاً له على الانتصار أكثر مما كانت عامل سلامة لأصحابها. وزوّد أفراد جيشه بسيوف عراض كسيوف الرومان، وتُروس كبيرة، وتخيّر من الخيل التي لا ميزة لها غير جمال المنظر. ودرّب مائة وعشرين ألفاً من المشاة على نظام الكراديس الرومانية (فلانكس)، وعزّزهم بستة عشر ألف فارسٍ، تساندهم وحدة آليّة مكوّنة من عربات حربية مسلّحة بالأسِنّة لا تقلّ عن المائة. وأنزل إلى البحر أسطولاً لا تثقل سفنه المقاصير المذهّبة والحمّامات الباذخة والأثاث الناعم؛ بل شحنها سلاحاً ومقذوفات وغيرها من مستلزمات القتال. ثم انحدر بكلّ هذه القوة إلى بيثينيا، فاستقبله أهلها بأكثر من السرور والترحاب ووجدت آسيا كلّها تقريباً في عودته خلاصاً وبعثاً جديداً من البؤس الشديد الذي كانوا يقاسونه على يد المرابين الرومان وجُباة الضرائب. فهؤلاء جرّدوا السكان من كل ما يملكون وسلبوا آخر لُقمة من أفواههم، مثل غول الهاربي[١]. وكان لوكوللوس في حينه لا يجسر على كفّ أذاهم وقطع دابرهم، إلاّ أنه استعمل معهم التهديد والوعيد على قدر إمكانه ليجعلهم أقلّ شراً واشتطاطاً ليحول دون فتنة عامة كانت بوادرها ماثلة للعين في كل مكان. إلاّ أنه طردهم من البلاد كافة فيما بعد لمّا تمكن منه.

وفي الوقت الذي كان لوكوللوس منصرفاً بكلّيته إلى هذه الشؤون وجد كوتّا الظروف مواتية للعمل، فتأهّب لمعركة مع ميثريدات. ووردته أثناء ذلك أنباءٌ متواترة عن دخول لوكوللوس، فريجيا في طريقه إلى مقابلة العدوّ، فتوهّم أن النصر بين يديه فعلاً. ولخوفه أن يشاركه زميله في موكب نصرٍ عجّل الدخول في المعركة وحده. فلحقت به هزيمة بحرية وبريّة وخسر ستين سفينة بملاّحيها وأربعة آلاف من المشاة،

---

(١) «Harpy» غول خرافي في الميثولوجيا الإغريقية. له وجه امرأة وجناح طائر ومخالبه، يعيش على نهش لحوم البشر.

وأُرغم على التقهقر والاحتماء بأسوار خلقيدون ليُحاصر فيها. وقعد ينتظر الغوث من لوكوللوس. وكان ثمّ من نصح هذا بالتخلّي عن نجدة كوتا وتركه لمصيره، ومواصلة الزحف إلى الأمام والتوغّل في مملكة ميثريدات التي كانت سائبة لا جيش يحميها. ولم يقبل الجنود بالتوجّه لفك الحصار عن كوتا لسخطهم عليه، واستنكارهم سوء تصرّفه الذي أدّى به إلى خسارة جيشه ولأن ذلك يعيقهم عن الفتوح التي تنتظرهم دونما قتال أو مشقّة. إلاّ أن لوكوللوس ارتأى خلاف ذلك. وقال في خطبة وجّهها إلى الجنود إنه يفضّل إنقاذ مواطن روماني واحدٍ على الفوز.

بعد هذا راح لوكوللوس يفكّر في الوضع الحربي مليّاً، فتوصّل إلى أنه ما من قوة بشرية مهما أوتيت من مالٍ تستطيع القيام بإعاشة هذا العدد الحاصب من مقاتلي ميثريدات زمناً طويلاً وهم في خطّ القتال يواجهون العدوّ. ثم أمر بإحضار بعض الأسرى أمامه وسأل أولهم كم عدد رفاقه في الوحدة التي ينتمي إليها وكم كان لديهم من أرزاق قبل أسره، وبعد إجابته أمرهُ أن يتأخر، وألقى السؤال نفسه على أسير ثان وثالث... وبعدها أخذ يحسب بالتقريب كمّيات الأرزاق التي تملكها قوات ميثريدات في ذلك الوقت، وقدّر بالنتيجة أن العدوّ سيكون بحاجة إلى أرزاق بعد مرور ثلاثة أيام أو أربعةٍ، وهذا ما رفع من ثقته بعامل الزمن. واتخذ الإجراءات اللازمة لملء معسكره بمواد الإعاشة والأقوات وقنِع بمراقبة عدوّه الجائع وهو ممتلئ البطن موفور الطعام.

ودفع الجوع بميثريدات إلى مهاجمة الكيزيكنيين Cyzicenians. فمزّقهم شرّ تمزيق وفقدوا ما لا يقلّ عن ثلاثة آلاف مواطن، وخسروا عشر سفن. وأغفل ميثريدات لوكوللوس متخذاً من الليل الحالك الماطر ستاراً للانسحاب من الميدان بعد العشاء مباشرة واتجه إلى المدينة المدحورة فبلغها صباحاً وعسكر أمامها فوق جبل أدراست Adraste. ولمّا أدرك لوكوللوس ما جرى جَدّ في أثره، إلا أنه حرص على الا يدركه بقواته وهي مختلّة النظام وإنما عسكر قرب ما يدعى بـ«القرية الثراقية» وهو موضع ممتاز يشرف على كل المسالك والطرق التي لا ترِد من سواها الأرزاق إلى معسكر ميثريدات. وبعد أن فكر في الموقف ملياً رأى أن الوقت قد حان لإطلاع جنوده على خطّته، وعلى أثر إكمالهم تحصين المعسكر وسائر الأعمال الأخرى، أصدر أمراً بالاجتماع، وقال لهم بلهجة الواثق المتأكد إنه سيضع بين أيديهم نصراً مؤزّراً لا تُسفك فيه قطرة دمٍ واحدة، وان ذلك سيتحقق في غضون الأيام القلائل القادمة.

ألقى ميثريدات الحصار على مدينة الكيزيكنيين مستخدماً عشرة معسكراتٍ بريّة. واحتل بسفنه المضيق الذي يقع بين المدينة واليابسة فأتمّ تطويقها من كل جهةٍ. على

أنها كانت قد استعدت للحصار المضروب ومواجهة أيّ هجوم وآلت على نفسها ألاّ تتخلّى عن حلفائها الرومان. على أن القلق الشديد استبدّ بهم لجهلهم موقع جيش لوكوللوس، وانقطاع أخباره عنهم، في الوقت الذي كان على مرمى النظر منهم. إلاّ أن الميثريداتيين أوهموهم بأن المعسكر الروماني الرابض فوق التلال هو أحد معسكراتهم وقالوا لهم:

– أترون أولئك؟ إنهم احتياطيّونا من الأرمن والميديين الذين أرسلهم ديكران نجدةً لميثريدات!

فطاش صوابهم، وفقدوا كلّ إيمان بخلاصهم، وأيقنوا بالهلاك على يد هذا العدد الهائل من المحاربين الذين يحيطون بهم، حتى لو تمكن لوكوللوس من شقّ طريقه إليهم.

وأول من جاءهم بنبأ وصول لوكوللوس، هو ديموناكس Demonax الساعي الذي أرسله أرخيلاوس إليهم، إلاّ أنهم لم يصدقوه، وظنّوا الحكاية مخترعة من أساسها قصد مرسلها رفع معنوياتهم ليس غير. واتفق في تلك الأثناء أن فتى أسيراً تمكن من الهروب ودخل المدينة فأحضروه وسألوه عن مكان لوكوللوس فقهقهه ضاحكاً مما توهّمه مُزاحاً، لكن لمّا وجدهم جادّين في السؤال مَدّ إصبعه مشيراً به إلى المعسكر الروماني. فصدّقوا قول الساعي واشتدت عزماتهم وقوي إيمانهم. وكانت بحيرة داسكيليتيس Dascylitis المجاورة صالحة للملاحة بسفن صغيرة الحجوم فاختار لوكوللوس أكبرها وسحبها إلى اليابسة وحملها على عربة وجاء بها إلى البحر فأنزلها وملأها جنوداً وانطلقوا بها سِرّاً في دُجنة الليل حتى وصلوا المدينة ودخلوها بأمان.

ويظهر أن الأرباب أُعجبوا بولاء الكيزيكنيين وصمودهم. فشاءت إرادتهم أن يظهروا لهم بعض الدلائل السماوية على نجاتهم لتقوية معنوياتهم. ومن ذلك ما وقع في عيد پروسپرين. فقد أدركت الحاجة إلى عِجلٍ لتقديمه قرباناً ولم يجدوا واحداً تحت متناول يدهم، فقاموا بعمل تمثال لعجل من العجين ووضعوه أمام المذبح. إلاّ أن العجل الأصلي المخصّص للذبيحة الذي كان في ذلك الوقت يرعى مع قطعانهم في الجانب الآخر من المضيق انفصل عن القطيع وألقى بنفسه في البحر وسبح وحده إلى المدينة مقدّماً نفسه ذبيحة. كذلك ظهرت هذه الربّة ليلاً لأرسطاغوراس Aristagoras كاتب عدل المدينة وخاطبته بقولها:

– ها إني جئت وجلبت معي نافخ الناي الليبي لأقيمه ضدّ نافخ البوق البونطي. فحث مواطنيك على الثبات والصمود.

وفيما كان الكيزيكنيون حائرين في معنى هذه العبارة إذا بريح مفاجئة تهبّ على البحر وتؤدّي إلى هياج أمواجه، وكان أول آثارها أن تحطمت آلات الحصار والثغر الملكية التي ركزت على أسوار المدينة وهي من مخترعات نيقونيدس الشالي العجيبة. وأعقب ذلك أمور أخرى. فقد جاء في أعقاب تلك الريح إعصار جنوبي خارق للعادة فحطّم بوقت وجيز جداً كل المتاريس المقامة أمام الأسوار وهوى البرج الخشبي الذي بلغ ارتفاعه مائة كيوبت فسقط على الأرض منحطماً. وقيل إن إيليوم منيرڤا Ilium Menerva ظهرت لكثيرين في تلك الليلة، والعرق ينزل صبيباً من جسمها وأرتهم ثوبها ممزّقاً في أحد المواضع وخاطبتهم بقولها إنها جاءت لتوّها من نجدة الكيزيكنيين. والسكان إلى يومنا هذا يشيرون إلى نُصب قائم في المدينة نُقشت عليه الحكاية مع بيان رسمي.

وظلّ ميثريدات زمناً لا يدري النقص الذي يعانيه معسكره في الأرزاق غباوةً من ضباطه وإهمالاً لأن صمود الكيزيكنيين في وجهه كان يحتلّ كل تفكيره. ثم ما لبث غروره وعنجهيته أن أُرغما في التراب عندما وجد جنوده يتضوّرون جوعاً ويضطرّون إلى أكل لحوم البشر. في حين ظلّ لوكوللوس رابضاً في مكانه لا يريد متابعة الحرب لمجرّد الظهور؛ أو على سبيل التلهّي كالتمثيل المسرحي. وإنما «جعل مجلس الحرب في البطن» على مأثور القول. وبذل كل جهوده لقطع خطوط تموينهم وحبس الأرزاق عن عدوّه. ثم إن ميثريدات انتهز فرصة انشغال لوكوللوس في اقتحام إحدى القلاع وبعث إلى بيثينيا بكلّ خيّالته تقريباً وكل ما عنده من ثيران النقل ومن أقعدته الحرب أو أعجزته من المشاة. ولما أُخطر لوكوللوس بهذه الحركة قفل راجعاً إلى معسكره والوقت ليل وخرج في الصباح الباكر غير عابئ برداءة الطقس وزفيف الريح الشديد، جاداً في اثر الرتل بعشرة ألوية من المشاة وكل ما لديه من الفرسان. واستمر يقفو أثرهم تحت الثلوج المتساقطة وفي البرد القارس مما أدّى إلى عجز الكثير من الجنود عن السير. على أنه أدرك العدوّ قرب نهر رنداقوس Rhyndacus وأوقع بهم مقتلة عظيمة، حتى أنه لم يبق امرأة واحدة من مدينه أپوللونيا إلا خرجت بحثاً عن الأسلاب ونزع ما على القتلى. ولا ريب في أن عدد القتلى كان كبيراً جداً، فضلاً عن اغتنام ستة آلاف رأس من الخيل وما لا يُحصى من حيوانات النقل وما لا يقلّ عن خمسة عشر ألف أسير. وكل هذا عاد به واستعرضه أمام معسكر العدوّ. وهنا لا أستطيع كتم استغرابي من ساللوست الذي ذكر أن الرومان شاهدوا الجِمال لأول مرة هنا. وبهذا لا يقرّ بأن أولئك الذين دحروا أنطيوخوس تحت إمرة سكيپيو منذ زمن بعيد قد رأوا هذا الحيوان

ولا أولئك الذين قاتلوا أرخيلاوس بالقرب من أورخومينوس ومن خيرونيا في زمن متأخر.

وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء صحّ عزم ميثريدات على ترك ميدان القتال والفرار بجلده. فأرسل قائد أسطوله أرسطونيقوس Aristonicus إلى بحر اليونان صرفاً لأنظار لوكوللوس عنه وتحويلاً لاهتمامه إلى جهة أخرى، إلا أن خبر رحيل هذا القائد بلغه حال بدئه السفر فتربّص به وقبض عليه فوجد في حوزته عشرة آلاف قطعة ذهبية كان قد زُوّد بها لرشوة بعض رجال الجيش الروماني.

بعد ذلك توجّه ميثريدات إلى ساحل البحر وترك جيشه في عُهدة ضباط من المشاة، فلم يمهلهم لوكوللوس وانقضّ عليهم عند نهر غرانيقوس Granicus وقتل عشرين ألفاً وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى. وقيل إن المجموع الكلّي لقتلى ميثريدات من المحاربين وخدم الجيش أتباعه، خلال كل مراحل هذه الجملة، شارف الثلاثمائة ألف نفسٍ.

وفتحت مدينة كيزيكوس أبوابها بوجه لوكوللوس مرحّبة مسرورة وأظهر له الأهالي من آيات الامتنان والاعتراف بالجميل ما يوازي مأثرته ويجدر بها. وأمر بتجميع الأسطول هناك، ثم انطلق به فزار سواحل الهللسپونت، ثم يمّم شطر طروادة Troas وحَلّ في معبد ڤينُس وهناك خُيّل له أنه رأى تلك الربّة تأتيه في الحلم وتخاطبه قائلة:

«أيها الأسد الهِزَبْر أتنام والظباء منك قريبة؟».

فهبّ من نومه ونادى أتباعه والليل مخيّم فحضروا وقصّ عليهم رؤياه. وعلى أثر ذلك دخل بعض الإيليين وأبلغوه بأن ثلاث عشرة بارجة من ذوات الطبقات الخمس شوهدت وهي تقلع من الميناء الأخائي متوجّهة إلى لمنوس. فنهض حالاً وانطلق في البحر يتعقّبها وما لبث أن أدركها واستولى عليها وقتل قائدها إيسيدوروس Isidorus. ثم جَدّ في أثر عمارة بحرية أخرى فأدركها وهي تدخل الميناء والملاّحون يسحبون سفنها إلى الساحل، إلاّ أن ذلك لم يمنعهم من القتال وهم في داخلها. وكبّدوا لوكوللوس خسائر ليست قليلة، لأن سفنه لم تجد فسحة للدوران والمناورة فعجزت عن مسّهم بأذى. زد على هذا أن سفن الرومان كانت طافية في حين سُحبت سفن العدوّ إلى اليابسة وربضت على رمل الساحل آمنة. وبعد محاولات كثيرة يمّم لوكوللوس شطر موضع الرسوّ الصالح الوحيد في الجزيرة، وأنزل إلى البرّ نخبةً منتقاة من جنوده عاجلوا العدوّ بهجوم من خلف وقتلوا بعضهم. وأجبروا البقيّة على قطع حبال سفنهم ودفعها إلى الماء فراراً من العدوّ إلاّ أن حابلهم اختلط بنابلهم واصطدمت

السفينة بالسفينة، حتى أصبحوا تحت رحمة أسطول لوكوللوس وصُرع الكثير منهم في هذه المعركة. وكان بين الأسرى ماريوس الأعور الذين بعث به سرتوريوس. ومما يذكر أن لوكوللوس كان قد أصدر أوامر مشددة لجنوده بالابقاء على كل محارب من العدوّ ذي عين واحدة مهما كلّفهم الأمر، يريد أخذ هذا الرجل حيّاً ويذيقيه ميتة الخزي والعار.

وبعد هذا أسرع يطارد ميثريدات. وكأن يأمل أن يجده في بيثينيا فلقي ڤوكونيوس Voconius عائداً يجرّ أذيال الخيبة. وكان لوكوللوس قد أرسل هذا القائد على رأس قسم من الأسطول للحيلولة دون فرار ميثريدات على أن يكون هدفه نيقوديميا، إلاّ أنه تأخر في ساموثراس متسكّعاً لاهياً بالأعياد ومنشغلاً بتقبّل الأسرار الدينية، فغفل عن ميثريدات وراحت الفرصة، إذ بادر الملك بالعبور بكلّ أسطوله فلم يجده لوكوللوس حيث أمّل. إلا أن عاصفة هوجاء أدركته وهو متجه إلى البونطس فشتّتت شمل أسطوله وأغرقت عدداً من سفنه في عُرض البحر، وألقى الموج بحُطامها على الساحل المجاور. أمّا السفينة التجارية التي كانت تقلّه فقد شقّ على ربابنتها جرّها إلى الساحل لضخامتها ولارتفاع الأمواج، ولازديادها ثقلاً بتسرّب المياه إلى قاعها حتى أشرفت على الغرق، فانتقل منها إلى سفينة قُرصان ووضع نفسه تحت رحمتهم. ومن العجيب أنه تمكن من النجاة والوصول سالماً إلى هراقليا في الپونطس.

ومع أن لهجة الفخر والاعتزاز بالنفس التي استخدمها لوكوللوس في مخاطبة مجلس الشيوخ كانت تنطوي على استهتارٍ وتسرُّع فإنه لم ينجم عنها سوء مطلقاً. وملخّص الحكاية أن المجلس قرّر رصد ثلاثة آلاف تالنت له ليبني بها أسطولاً، فردّها إليهم قائلاً إنه قادر على هزم ميثريدات بحراً بما هو متيسّر له من سفن الحِلف ولا حاجة إلى إنفاق هذا المبلغ الطائل. وحقق قوله هذا بمساعدة الآلهة وعنايتها إذ قيل إن سخط ديانا پرياپوس Daina Priapus هو الذي نكب رجال پونطس بالإعصار العظيم المدمّر لأنهم نهبوا معبدها وقلعوا تمثالها من موضعه.

وتألّب الناصحون على لوكوللوس بإرجاء الحرب فترة من الزمن فلم يُصغ إليهم وزحف عبر بيثينيا وغلاطيا نحو بلاد الملك نفسها. وكانت أقواته في مبدأ الأمر قليلة حتى أن الجيش استخدم ثلاثين ألف غلاطيّ يحمل كل منهم بوشلاً واحداً من القمح على ظهره ويسيرون في أعقابه. إلاّ أن الزاد والمؤن توفّرت بكثرة عندما مضى قُدماً في زحفه مستولياً على كل ما صادفه. وبلغ الرخاء في الجيش حدّاً أن صار الثور الواحد يباع في المعسكر بدراخما لا غير، والعبد يُشرى بأربعة فقط. ولم تعد للأسلاب

الأخرى قيمة، وكانوا يهملونها أو يخلّفونها وراءهم. إذ لم يكونوا يعرفون كيف يتخلّصون مما لديهم بعد أن أُتخموا بالمال والغنائم. إلاّ أنهم توغّلوا كثيراً بغزوات الخيّالة حتى شارفوا ثميسكيرا Themiscyra وسهول ثرمودون؛ وقصروا فتوحهم على الأقاليم دون المدن. فبدأوا ينقمون على لوكوللوس ويتضايقون من أسلوبه هذا قائلين:

- ما الذي يجعله يأخذ هذا العدد الكبير من المدن صلحاً، وكيف يقبل استسلامها ولا يفتحها عنوة؟ وكلّها غنيّ زاخر بالأسلاب. والآن هاكم كيف أنه خلّف أميسوس Amisus وراءه وهي مدينة ثريّة حافلة بكلّ ما هو ثمين، يسهل فتحها بعد حصارٍ قصير. إن هذا الزحف لن يقودنا الا إلى المجاهل الخلقيدية والطيبارينية، وكل هدفه قتال ميثريدات.

لم يكن لوكوللوس آنذاك يفكر كثيراً بسوء العواقب وخطورة النتائج. ولذلك لم يُعر أذناً صاغية لما قيل واستهان بالنصائح. وكان يردّ على من يلومه في تباطئه وإضاعته الوقت في انتصارات ثانوية تافهة، وإفساحه المجال لميثريدات لتعبئة جيش جديد، بقول المعتذر لنفسه:

- ذلك هو جوهر خطتي. أن أربض ساكناً وأتوسّل بإزجاء الوقت وتبديده، فأنا أريد أن تزداد قوّته ويحشد جيشاً كبيراً لأن ذلك يغريه على الصمود في وجهنا والدخول معنا في معركة، لا أن يستمر في انسحابه. أما ترون المجاهل المترامية والبوادي القفراء التي تنداح أمامنا؟ القفقاس ليست بالبلاد البعيدة، وجبالها الشمّ العظيمة كفيلة بأخفاء عشرة آلاف ملك لا يريد الدخول في معركة. وليس بين كابيرا Cabira وأرمينيا إلاّ مسيرة أيام قليلة. وهناك يحكم ديكران ملك الملوك ويجمع بين يديه قوة وسلطاناً عظيمين مكّناه من إبقاء الفرثيين في عُقر دارهم لا يجرؤون على الخروج من حدودهم الضيقة شبراً واحداً، ومن نقل مدنٍ إغريقية كاملة إلى بلاد مادي، وفتح بلاد سورية وفلسطين، وقطع رقاب الملوك المنحدرين من سلالة سلوقوس الملكية، وسبي زوجاتهم وبناتهم سبياً. هذا الملك هو ختن ميثريدات وقريبه ولا بدّ من أن يرحّب به ويرفع سلاحه في وجهنا مناصرة له ودفاعاً عنه. وهكذا ترون: بينا نحن نحاول جهدنا القضاء على ميثريدات سنخاطر بإدخال ديكران ميدان الحرب إلى صفّ عدوّنا، وقد سبق له أن حاول استنباط حجّة تبرّر له بتّ ما بينه وبيننا من أسباب الصداقة. لكنه لم يجد مثلنا في الإخلاص والحرص على العون عند الحاجة. فما الذي يجعلنا ندفع ميثريدات إلى الاستعانة بهذا المورد العظيم القوي وهو الذي لم يهتد إلى أية وسيلة مجدية في قتالنا، وهو الذي ما زال يستنكف عن طلب العون من ديكران؟ وكيف لا

ينبغي لنا اتاحة الفرصة له حتى يحشد جيشاً جديداً ويستعيد الثقة بنفسه، وعندئذ نعود لقتال الكولخيين Colchians والطيبارينيين - وما أكثر الهزائم التي ألحقناها بهم - متحاشين الحرب مع الماديين والأرمن؟

تلك هي الأسباب التي جعلت لوكوللوس يعسكر أمام أميسوس ويدير حركات الحصار ببطءٍ متعمّد، وبعد أن انصرم من الشتاء أكثره ترك الأمر بعهدة القائد مورينا Murena وخرج للقاء ميثريدات على موعدٍ في كابيرا. وكان الملك قد استعدّ لقتال الرومان بأربعين ألف مقاتل وأربعة عشر ألف فارس وضع كل ثقته فيهم. وعبر بجموعه نهو ليكوس Lycus وتحدّى الرومان أن ينزلوا لمقابلته في السهل. ثم اشتبكت خيّالة الطرفين ودارت الدائرة على الرومان. وحُمل إلى ميثريدات أسير جريح يعاني آلاماً شديدة من رضوضه وهو روماني سَريّ ذو مكانة يدعى پومپونيوس Pomponius، فسأله الملك: «أيرضيه أن يكون صديقاً له إن منحه حياته؟» فأجاب الأسير:

- أرضى إن صالحت الرومان، وإلاّ فأنا عدوّ لك!

فكانت دهشة ميثريدات عظيمة ولم يلحق به أذىً.

سيطر العدوّ بخيّالته على كل السهل، وشاع في نفس لوكوللوس بعض الخوف والتردد من دخول منطقة الجبال الشاهقة الصعبة المرتقى ذات الغابات الكثيفة. إلاّ أن الحظّ حالفه ببعض الإغريق الذين كانوا قد هربوا ولجأوا إلى مغارة في تلك الجبال منذ زمن. وعند القبض عليهم وإحضارهم أمامه تكفّل كبيرهم ويُدعى أرطميدوروس Artemidorus بأن يدلّه على مقرّ منيع لجيشه فيه حِصن يُشرف على كابيرا نفسها. فأسلم لوكوللوس أمره إليه وأصدر أمره بالمسير ليلاً على نور المشاعل وتمّ له عبور الشّعب الجبلي بكلّ أمان وسيطر على الموضع المنشود. وما إن أصبح الصباح حتى كان يُطلّ من فوق على أعدائه المعسكرين في السهل.

وبات في وضع ممتاز يسهل عليه النزول لو شاء القتال، ويصعب قتاله فيه لو آثر القعود. على أن الطرفين رغبا عن القتال وفضّلا التريث. وقيل إن لفيفاً من أتباع الملك خرجوا للصيد وبَينا هم يجدّون في اثر وعلٍ خطر ببال بعض الرومان اعتراض سبيلهم فخرجوا عليهم واشتبكوا معهم في قتال اجتذب المزيد من رجال الجمْعَين. واستظهر رجال الملك وأخذوا يتعقّبون الرومان الفارّين فأخذت رفاقهم في المعسكر العزّة، وهرعوا إلى لوكوللوس يتوسّلون إليه أن يقودهم خارج المعسكر ويطلق إشارة القتال، فلم يقبل وأمرهم بأن يلبثوا في مواضعهم، مبرهناً لهم على أهميّة ضبط النفس وحضور بديهة القائد. واستوقف أوائل الفارّين وأمرهم بالرجوع إلى المعركة والصمود فيها،

وتمكنوا بعد لأيٍ من دحر الأعداء وملاحقتهم حتى معسكرهم. وأوقع لوكوللوس العقاب المعتاد بالفارّين إذ جعلهم يحفرون خندقاً ذا اثني عشر قدماً وهم مشتملون بعباءاتهم بينما وقف الآخرون يرقبونهم.

كان يوجد في معسكر ميثريدات شخص يدعى أولطاق Olthacus زعيم الداندارين وهم قوم من البرابرة يسكنون إلى جوار بحيرة ميوتيس. برز هذا الرجل على أقرانه في القوة الجسدية والإقدام والحكمة وحُسن الرأي وطلاوة الحديث وطيب المجلس. وكانت بينه وبين واحدٍ من زعماء قومه منافسه على جلائل الأعمال، لا يدع فرصة إلاّ اهتبلها في هذا المجال. أتى هذا الرجل ميثريدات ووعده بأنه سيحقق له أعظم خدمة يتصوّرها ألا وهي قتل لوكوللوس. فأثنى عليه الملك وشجّعه. وفي سبيل حبك خطته اصطنع الغضب وعمل على أن يُهان ويوصم بالعار ثم ركب حصانه متظاهراً بالخروج على الملك. ولجأ إلى لوكوللوس فاستقبله مرحباً واحتفى به فقد كان اسمه غير مجهول عند الجيش. ومهّدت له رجاحة عقله وتفانيه سبيلاً إلى لوكوللوس فصار بعد زمن وجيز واحداً من مستشاريه، وعضواً في مجلس حربه.

وفي يوم ما، خُيّل لهذا الدانداري أن الفرصة مواتية لتنفيذ ما قدِم لأجله، فأمر خدمه بأن يخرجوا بجواده إلى ظاهر المعسكر وقصد هو خيمة الجنرال في ساعة الهاجرة وقد انصرف الجنود للراحة والقيلولة. ولم يكن يتوقّع مطلقاً أن يُمنع دخول مثله خيمة القائد وليس بينهما كلفةٌ ولاحجاب وخصوصاً عند تظاهره لقدومه في أمر من الخطورة بمكان. والحق يقال إنه كان مصيباً في تقديراته وإن الطريق إلى ضحيّته سيكون مفتوحاً في وجهه لولا النوم، الذي كان سبباً في هلاك كثير من القادة، فصار هنا سبباً لنجاة لوكوللوس وجد أولطاق الوصيف منيديموس Menedemus واقفاً بباب الخيمة وقال له إن الجنرال قد أوى إلى فراشه متعباً بعد عمل كثيرٍ ومجهود مضنٍ، وليس من الممكن مواجهته. فلم ينصرف وزاد إلحاحاً بقوله: «لا سبيل إلاّ الدخول عليه لمحادثته في مسألة خطيرة للغاية». فعيل صبر منيديموس وانتهره غاضباً بقوله:

- ليس هناك أمر أهمّ من راحة لوكوللوس وسلامته.

ودفعه عنه بكلتا يديه. وهنا تسرّب الخوف إلى قلب أولطاق وعجّل في مغادرة المعسكر، وامتطى جواده ولم يوقفه إلاّ في معسكر ميثريدات معلناً له فشله.

وهكذا ترى الأمر لا يختلف. فاللحظة الحرِجة سواء في الأعمال الحربيّة، أو شؤون الحياة الطبيعية الأخرى، هي التي تقرّر النتائج حسنةً كانت أم سيئة.

وخرج سورناتيوس Sornatius مع عشرة من رفاقه للتفتيش عن علف. فطاردهم

ميناندر Menander أحد ضباط ميثريدات فعمدوا لهم واشتبكوا في معركة حادّة وقتل الرومان عدداً لا يستهان به من العدوّ. ثم أرسل أدريانوس Adrianus ببعض الوحدات لجلب أرزاق تسدّ حاجة المعسكر الآنيّة مع بعض الاحتياطي. فوجدها ميثريدات فرصة طيبة ودفع إليهم بقائديه منماخوس Menmachus وميرو Myro على رأس قوة كبيرة من الرجّالة والخيّالة ونشب قتال بين الطرفين استظهر فيه الرومان وقيل إنهم أبادوا التجريدة بكاملها إلاّ رجلين اثنين. وكتم ميثريدات نبأ هذه الخسارة. وقلل من شأنها بقوله إنها اندحار موضعي زهيد سببه غشم الضباط. على أن أدريانوس المنتصر تعمّد المرور أمام معسكره بمظاهرة الفوز وغطرسته يسحب خلفه العربات الكثيرة الموقرة بالقمح، وما إليه من أسلاب وغنائم فحزّ ذلك في نفس ميثريدات، كما أثار سخط الجيش وأهاجه، فكان قرارهم ألاّ يصبروا أكثر مما صبروا. وانتهزوا فرصة قيام خدم الملك وحاشيته بإرسال مقتناهم ومتاعهم خارج المعسكر بصورة سرّية وبهدوء، كما منعوا الآخرين من احتذاء حذوهم. فثارت ثائرة الجنود وتجمّعوا واحتشدوا على أبواب المعسكر وأمسكوا بالحاشية وقتلوهم واستولوا على أموالهم وفقد الجنرال دوريلاوس Dorylaus حياته في هذا الهياج لا لشيء إلاّ لأنه كان يملك معطفاً أرجوانياً. ووطئ الكاهن هرمز Hermæus بالأقدام حتى الموت عند الأبواب.

ولما وجد ميثريدات نفسه وحيداً من دون حرس أو حتى وصيفٍ واحدٍ، خرج من المعسكر يبحث عن حصان يمتطيه وسط الزحام فلمحه خصيّه بطليموس وهو يشق طريقه بعناء شديد، فترجّل عن حصانه وقدّمه له. وكان الرومان قد اقتربوا كثيراً منه، إلاّ أنهم لم يدركوه. وفشلهم هذا لا يعود إلى سرعته وبطئهم بعد أن صاروا على قيد باع منه، إلاّ أن الطمع والتكالب الرخيص على الغنائم العسكرية تسبّبا في إفلات غنيمةٍ ثمينة لطالما خاضوا في سبيلها المواقع الدموية وركبوا لأجلها المخاطر الجسيمة. وأدّى هذا إلى أن يخسر لوكوللوس ثمر انتصاره. كان الحصان الذي استقلّه الملك تحت رحمتهم وقد أدركوه إلاّ بغلاً يحمل أمواله اعترض السبيل بالصدفة، أو ربما كان ظهور البغل من عمل الملك المتعمّد، فتحوّل اهتمامهم إليه وانفكّوا عن مطاردة الملك ووضعوا أيديهم على الذهب ثم راحوا يختصمون على توزيعه. هذا الضرر الفادح الذي أصاب لوكوللوس جرّاء طمعهم أشفعوه بآخر، عندما قتلوا كالليستراتوس تابع الملك الموثوق ومستودع سِرّه، لارتيابهم في إخفائه خمسمائة قطعة ذهبية في حزامه. وكان لوكوللوس قد أصدر أوامر خاصة به تقضي أن يُحمل إليه سالماً. مع هذا كله فقد سمح لوكوللوس بنهب معسكر البرابرة.

ووجد في كابيرا وغيرها من القلاع التي احتلها فيما بعد كنوزاً من الأموال، كما وجد سجوناً خصوصية زُجّ فيها بعدد كبير من الإغريق ومن أقرباء الملك. هؤلاء المساكين كانوا قد قطعوا منذ زمنٍ بعيد كل أمل لهم في الحياة واعتبروا أنفسهم في عداد الموتى، وبفضل لوكوللوس أُطلق سراحهم وكُتبت لهم حياة جديدة وميلاد ثان. وأصاب نيسا Nyssa أخت الملك الأسيرة المسترقّة هذا الحظّ الطيّب، خلافاً لتانك اللاتي كانت الظواهر تشير إلى أنهن أبعد الناس عن الخطر، وأقصد بهذا زوجاته وأخواته اللاتي رُحِّلن إلى فرناقيا Phernacia ليكنّ بعيدات عن الخطر فمُتن شرّ ميتة. فعلى أثر هروب ميثريدات أرسل خصيّه باخيدس Baechides للقضاء عليهن جميعاً وكان بينهن أختان له، روشنه Roxana وستتيرا Statira، وهما عانسان في حدود الأربعين وزوجان أيونيّتان: پيرينيس الخيوسية، ومونيمه Monime الميليطية. وقد اشتهرت الثانية عند الإغريق كثيراً لأنها لم تستسلم للملك وظلّت تصدّه عنها طويلاً، مع أنه وهبها خمسة عشر ألف قطعة ذهبية، حتى عقد زواجه عليها رسمياً وأرسل إليها تاج الملك، وعوملت معاملة الملكات. وأناخ الهمّ والكآبة عليها وظلت تندب سوء حظها في جمالها الذي ابتلاها بحارس بدلاً من زوج وبحراسة البرابرة الشديدة عوضاً عن رعاية البيت وحنانه. وبعد أن حُملت بعيداً عن موطنها كان الحلم بالمتع التي تمنّتها لذّتها الوحيدة، لحرمانها من كل ما هو حقيق ملموس. وعندما أتاهنّ باخيدس وطلب منهن أن يتهيّأن للموت - وكنّ جميعاً يتوهّمنه سهلاً لا ألم فيه - نزعت تاج الملك من رأسها وشدّت خيطه إلى رقبتها وعلّقت نفسها فانقطع. فصاحت:

- قبحتَ من تاج! يعجز عن مساعدتي حتى في هذا الأمر الصغير!

وألقت به بعيداً وبصقت عليه وقدّمت عنقها لباخيدس. وكانت پيرينيس قد أعدّت جرعة سمّ لنفسها، ولكنها نزلت عن نصفها لأمّها الحاضرة بعد رجاءٍ، فشربتاها وتغلّب السمّ على البدن الأضعف ولم يكف القليل الذي اجترعته پيرينيس للقضاء عليها وظلّت روحها تُحشرج في صدرها، فاستعجلها باخيداس بخنقها. وقيل إن أختاً للملك عانساً تجرّعت السمّ وهي تشتم وتقذف بأشد اللعنات هولاً. وأمّا ستيرا فلم يخرج من فمها لفظ نابٍ، أو كلمة لوم، وإنمّا أخذت تثني على أخيها الذي لم ينسِه الخطر المحدق به ما يحيق بهن من خطر وهيّأ بكلّ عنايته أسباب خروجهن من هذا العالم قبل أن يلحقهن الخزي والعار.

وأسف لوكوللوس كثيراً لهذا العمل ولا غرو فهو معروف بإنسانيته ورقّة قلبه. على أنه مضى قُدماً في أعماله الحربية فاستولى على تالورا Talaurs ودخلها بعد مغادرة

ميثريدات لها بأربعة أيام ووصوله أرمينيا والتجائه إلى ديكران. وبعدها التفت إلى الخلقيديين والطيبارينيين الذين يقطنون أرمينيا السفلى فأخضعهم واستولى على قلاعهم ومدنهم كافة. ثم أوفد إيبوس إلى ديكران يطلب منه تسليم ميثريدات. وتسلّم شخصياً قيادة الهجوم على أميسوس التي ظلت صامدة بفضل كاللليماخوس Callimachus قائدها الذي ضايق الرومان كثيراً ببراعته في الميكانيكا ووقوفه التام على كل فنون الحصار وحيله، وقد دفع فيما بعد ثمناً غالياً لصموده. وما إن تسلّم لوكوللوس القيادة حتى بدا الفرق بين القائدين وظهرت عبقرية القائد الروماني واضحة. فقد أمر بالهجوم العام في الساعة التي تعوّد أن يخلد الجنود فيها إلى الراحة، ووفّق في الاستيلاء على جانب من السور. وأرغم خصمه على ترك المدينة بعد أن أشعل النار فيها إما لحرمان الرومان في الغنائم، أو ستراً وحماية لانسحابه، إذ لم يُلق أحدٌ بالاً على من خرج وركب السفن. وما إن خمدت النار بعض الشيء في معظم أقسام السور حتى تهيّأ الجنود لنهب المدينة إلا أن لوكوللوس الذي حزّ في نفسه ما وقع للمدينة من خراب أمر بإدخال جماعات إليها لاستخدامهم في مكافحة النيران كما حضّ جنوده على إخمادها، على أنهم لم يلتفتوا إليه لانصرافهم إلى افتراس الفريسة. وشجر بينهم خلاف وراح بعضهم يضرب بعضاً وتقارعت السيوف وارتفع الصياح حتى اضطر مرغماً إلى السماح لهم بالنهب، لعل ذلك يكون سبباً في نجاة المدينة من الدمار التامّ بالنار على أقلّ تقدير. ولكن ذلك لم يفد فقد أكمل النهب خرابها لأن الجنود كانوا يدخلون المنازل وبأيديهم المشاعل ويوقدون النار فيها. وعندما دخلها لوكوللوس في اليوم التالي لم يسعه حبس دموعه وقال لمن حوله من الأصدقاء إنه كثيراً ما حمد لسيلّلا حُسن حظّه؛ إلا أنه لم يعجب له كما يعجب الآن، لأنه أنقذ أثينا لما أراد ذلك. ثم استطر ويقول:

- إلاّ أن معاندة الحظّ وصلت بي حدّاً أن صرت مثل موميوس، عندما أردت تقليد عمل سيلّلا.

على أنه مع كل هذا استطاع إنقاذ ما أمكنه. واتّحدت رغبة العناية الإلهية مع رغبته فسقط المطر وعاون في إخماد النار. وقام في فترة وجوده باصلاح ما تيسّر له من الأبنية وفتح أبواب المدينة لسكانها الهاربين والنازحين، وأسكن كثيراً من الإغريق الراغبين في الاستقرار هناك، وعمد إلى توسيع رقعة المدينة بإضافة ما مساحته مائة فرلنغ إليها.

هذه المدينة كانت من مستعمرات الأثينيين، عمروها عندما بلغت دولة أثينا عصرها الزاهر وأصبحت قوة بحرية يُعتدّ بها. ولجأ إليها كثير من الأثينيين في عهد أرسطيون

الطاغية تخلّصاً من استبداده وظلمه فاستقروا فيها ومُنِحوا حق المواطنة. وهكذا جعلهم نكدُ حظهم كالمستجير من الرمضاء بالنار. هربوا من ظلم موطنهم ليقعوا في شرّ أعظم باغترابهم.

مد لوكوللوس يد المعونة لمن بقي من هؤلاء وصرف لكل فردٍ منهم ثياباً كافية ومائتي دراخما وأعادهم إلى وطنهم. وفي هذه الحرب كان تيرانيون Tyranion النحوي من بين الأسرى، فطلبه مورينا من لوكوللوس، فدفع به اليه، فأعتقه هذا ملحقاً بفضل لوكوللوس إهانة لأن لوكوللوس كان يكره أن يجعل من شخصٍ ذي سُمعة علمية كبيرة عبداً رقيقاً ثم يُعتقه، لأن الحرية التي تُمنح بشكل صوريّ هي تجريد حقيقي لحاله الحرية السابقة. ولم تكن هذه المناسبة الوحيدة التي بدا فيها أقلّ كرماً وشهامة من جنراله.

وانصرف لوكوللوس إلى إدارة شؤون المدن الآسيوية والعناية لها، دون أن تعوقه حرب. فنشر العدل وأشاع حكم القانون بعد عهد طويل من الفوضى والتحكم والاضطهاد سادت تلك البقاع وأسلمتها فريسة لصنوف من البلايا والنكبات يجلّ القلم عن وصفها ويقف العقل عن تصديقها. استعبدهم ونهبهم جباةُ الضرائب والمرابون حتى اضطر القوم إلى بيع أبنائهم وهم في زهرة الصبا، وبناتهم وهنّ عذارى، وأن تبيع حكومات المدن بالمزاد العلني الأوقات المكرّسة للآلهة والتماثيل والصور الدينية، وبالأخير اضطروا إلى وضع أنفسهم تحت تصرّف دائنيهم عبيداً أرقّاء. ولم يتمّ ذلك إلاّ بعد أن لاقوا الأهوال من التعذيب كالشدّ بالحبال والخيول والوقوف تحت أشعة الشمس المحرقة وقت الهاجرة، والإلقاء في الجليد والطين أيام البرد الشديد حتى صاروا يعدّون الرق نعمةً وبعثاً جديداً.

على أن لوكوللوس تمكن بوقت وجيز من القضاء على هذه الشرور والمظالم وتطهير المدن من آثارها. فقد أمر أولاً بأن لا تزيد الفائدة على الدين أكثر من واحدٍ في المائة. وأمر ثانياً بإلغاء الفائدة في حالة ما لو زادت عن الدين الأصلي. وأمر ثالثاً، وهو أهم المراسيم طُرّاً، بأن لا يزيد استيفاء الدائن من دائنه أكثر من رُبع دخله كل صفقة. ومنع منعاً باتاً إضافة الدائن مبلغ الفائدة إلى أصل الدين لغرض تقاضي ربح مركّب. وكان من أثر هذه الإجراءات أنه لم تمرّ أربعة أعوام إلاّ وتمّ دفع كل الديون وعادت الأراضي المرتهنة إلى أهلها الأُصلاء. وكان الدين الذي فرضه سيلّلا غرامة على آسيا وقدره عشرون ألف تالنت قد أعطي بالالتزام في أيامه، وبلغ ما استوفاه الجباة من المكلّفين به ضُعف هذه الغرامة التي أصبحت مائة وعشرين ألف تالنت بتراكم الفائدة

المركّبة. ولهذا ثار سخطهم على لوكوللوس في روما وأخذوا يكيلون السُّباب له علناً ويشكون الظلم الذي ألحقته مراسيمه بهم، وتمكنوا بأموالهم من إثارة خواطر عدد من زعماء مجلس الشيوخ ضدّه، ولا غرو فقد تمتّع هؤلاء بحَوْل وطَوْل ونفوذٍ كبير، لأن كثيراً من رجال السياسة مدينون لهم. إلاّ أن محبّة المدن التي فرّج لوكوللوس عن ضيقتها وكربها، فضلاً عن الأقاليم الأخرى التي غبطتها على حُسن خطها بمثل هذا الحاكم الرؤوف، ردّت كيد هؤلاء إلى نحورهم فباءت مساعي أولئك بالفشل.

وانطلق إپيوس كلوديوس - وهو أخ لزوج لوكوللوس - في رحلته موفداً إلى ديكران وقاده أدلاء الملك في طريق منحرفٍ وعرٍ طويلٍ يمرّ في القسم الشمالي من البلاد. إلاّ أن معتوقه السوّري الذي كان يرافقه دلّه على أقصر الطرق، فحاد عن الطريق الأولى الطويلة واستغنى عن أدلائه البرابرة مودّعاً. وما هي أيام قليلة حتى عبر نهر الفرات وبلغ أنطاكية دافني Antioch upon Daphne. وكان من المقرر أن يمكث فيها انتظاراً لديكران، بعد فراغه من مهاجمة بعض المدن الفينيقية. وتمكن هذا السفير خلال إقامته من كسب كثير من الزعماء الذين لم يخضعوا لملك أرمينيا إلاّ رهبة واضطراراً، وكان بين هؤلاء زاربيان Zarbienus ملك الگوردينيين Gordyenians. وراسلته أيضاً عدة مدن خاضعة مقهورة خلسةً، فوعدها بمعونة لوكوللوس وأوصاها أن تركن إلى الهدوء ولا تأتي بأية حركة. وكان الحكم الأرمني يمتاز بالظلم والقسوة، ولاسيما حكم الملك الحالي الذي ما كان الإغريق يطيقونه، وزادته انتصاراته غطرسة وعتوّاً فتوهّم أن كل ما يملك الناس من الثمين الغالي مالٌ خاصٌ به بل ما خُلق إلاّ لهُ. وكانت بدايته بدايةً مجهولة تافهة، ثم لمع نجمه وسما بإخضاعه عدداً كبيراً من الشعوب وكسره شوكة الفرثيين كسرةً لم يبتلوا بمثلها. وملأ أرض العراق (ما بين النهرين) بالإغريق الذين نقلهم من كيليكيا وكپادوكيا بأعداد كبيرة، وحضّر العرب الرحّل ساكني الخيام حين هجّرهم من موطنهم وأسكنهم قريباً منه ليؤمّن استمرار التبادل التجاري وازدهاره على أيديهم. وكان يقوم على خدمته عدة ملوك، إلاّ أنه اعتاد أن يصحب معه أربعة فقط، مكلّفين بواجبات الخدمة والحراسة، تراهم يسيرون إلى جانبي حصانه وهم في جلابيب عاديّة ويقفون بين يديه بأيدٍ مكتوفة ورؤوس خافضة وهو جالس على العرش ينطق بأوامره ومراسيمه. وكانت هيئتهم هذه لا تدلّ على عبودية اعتيادية وإنما على أناس ودّعوا الحرية وداعاً أبديّاً وأعدّوا جسومهم لتلقّي العقاب أكثر مما أعدّوها لخدمة أسيادهم.

على أن أپيوس لم يفاجأ أو يباغت بهذا العرض المسرحيّ لمّا أُذن له بمقابلة

الملك. وقال له إن جاء يطلب منه تسليم ميثريدات ليسير في ركاب لوكوللوس أثناء الاحتفال بموكب نصره، فإن أبى ذلك فإنه ينذره بالحرب. ومع أنّ ديكران حاول استقباله بمظاهر اللطف والابتسامات المغتصبة فإنه لم يُخف استياءه عن الحاشية لجرأة الفتى في كلامه، إذ لم يُقدِم أحدٌ ممّن مثُل بين يديه بمثْل ما أقدم عليه أپيوس ولم ينطلق لسان في وجهه بهذه الحرية طوال الأعوام الخمسة والعشرين من حكمه أو من استبداده.

على أية حال فقد ردّ ديكران طلب أپيوس ورفض تسليم ميثريدات وقال إنه سيدافع عن حماه إذا هاجمه الرومان، وأبدى سخطه من لوكوللوس لأنه وجه خطابه إليه بلقب ملك، لا بملك الملوك. ولذلك قابله بالمثل ولم يطلق عليه لقب «الإمبراطور». ثم إنه أرسل لأپيوس هدايا نفيسة فأبى قبولها، ولما وردت إليه مضاعفةً اختار منها كأساً وأعاد البقية حتى لا يفسّر رفضه بالغيظ ثم شدّ الرحال فوراً إلى قائده.

قبل هذه الأحداث كان بين ديكران وميثريدات جفوة مع أنه من أقرب أقربائه. فلم يتنازل بلقاء أو كلام معه حتى بعد خروجه من مملكته العظيمة ولجوئه إليه مهيض الجناح، فقد أبت على ديكران غطرسته وكبرياؤه واحتقاره للملك المقهور إلا إبعاده إلى منطقة قصيّة موبوءة بالمرض حافلة بالمستنقعات وجعله فيها أشبه بالسجين. إلاّ أنه بعث يستقدمه بكثير من التجِلّة والأبّهة بعد مغادرة السفير الروماني. وعقد معه اجتماعاً خاصاً في القصر تمت خلالها تسوية كل الخلافات وإزالة الأحقاد وانثنى كل واحد منهما لمعاقبة رجال خاصّته الذين كانوا السبب في تعقيد الأمور ما بينهما. ومنهم مطرودوروس Metrodorus السكيپسي Scepsis، وهو رجل قوي العارضة موفور العلم مقرّب جداً من ميثريدات حتى أنه كان يُعرف بلقب «والد الملك». أوفده سيّده إلى ديكران مرةً ليطلب منه العون على الرومان فسأله ديكران.

- بمَ تنصحني يا مطرودوروس في هذه القضية؟

فردّ قائلاً:

- إني كسفير أنصحك بالمعونة. وكصديق لك أحذّرك منها.

ولا يُعلم أكان يدفعه إلى هذا القول إخلاصه لديكران أو قلّة حِرصه على مصلحة ميثريدات.

هذا الحديث نقله ديكران لميثريدات في اجتماعهما وأكده. ولم ينصرف ظنّه إلى أن الأذى الذي سيلحق بمطرودوروس من هذا سيكون جسيماً لا يُصحّح، إلاّ أنه قُتل فوراً، فأسف ديكران على ما بدا منه أسفاً شديداً وان لم يكن السبب الجوهري في

موته، إلاّ أنه أطلق والحق يقال حقد ميثريدات من عِقاله على مطرودوروس. فقد كان يكرهه سِرّاً كما اتضح من فحص أوراق خزانته عندما استولى عليها إذ وجد بينهما أمر مخطوط يقضي بموت مطرودوروس. وقام ديكران بدفنه دفنةً مهيبة ولم يبخل بشيء من النفقات على جثمانه الذي غدر به وهو حيّ. ومات في بلاط ديكران الخطيب أمفيقراطس Amphicrates (إن لم نذكره لشيء، فلأجل أثينا)؛ قيل إنه ترك بلاده هارباً إلى سلوقية Seluecia الواقعة على نهر دجلة. فطُلب منه أن يُعلّم المنطق للأهالي فأجاب بكل عجرفة: إن الصحفة أصغر كثيراً من أن تحتوي على دولفين، وقصد بها كليوپاطرا بنت ميثريدات وزوج ديكران. إلاّ أنه اتُّهم هناك بارتكاب مخالفات فمُنع من التعامل التجاري مع بني قومه فأنهى حياته بالإضراب عن الطعام حتى الموت. وقامت كليوپاطرا بدفنه دفنة كريمة، قرب صافا Sapha وهو موضع معروف في تلكم البلاد.

ولم ينسَ لوكوللوس أسباب المرح واللهو عندما وطّد السلم الدائم في آسيا وثبّت حكم القانون ثانية. ففي غضون الفترة التي قضاها في إفسس. أنعم على المدن بالألعاب الرياضية واحتفالات النصر، وألعاب المصارعةِ، والمبارزة المنفردة للمصارعين. وأنشأوا هم بالمقابلة ألعاباً أخرى أطلقوا عليها اسم «الألعاب اللوكولسية» تكريماً له، وبهذا أظهروا حبّهم الذي كان أعزّ إلى قلبه من كل شرف ناله. ولكن عندما وصل أپيوس وأعلمه أن الحرب مع ديكران واقعة لا محالة وأن عليه أن يتهيّأ له، رحل إلى الپونطس فوراً وعَبّأ جيشه. وألقى الحصار على سينوپ Sinope أو بكلمة أخرى على الكيليكيين الذين يقفون إلى جانب الملك، هؤلاء امتنعوا في المدينة ثم قتلوا عدداً من سكانها وأشعلوا فيها النيران وحاولوا الفرار. وقتل منهم ثمانية الآف لم يتسع الوقت لهم للفرار. وأعاد إلى سكانها كل أموالهم ومُقتناهم واهتم اهتماماً خاصاً بإعمار المدينة وخيرها. وكان قد دفعه إلى ذلك الرؤيا التالية: رأى فيما يرى النائم شخصاً تقدم منه وقال له:

- تقدّم يا لوكوللوس إلى الأمام قليلاً لأن أوتوليقوس آتٍ لمقابلتك.

وعندما استيقظ، أُشكل عليه تفسير الحلم. وفي اليوم نفسه استولى على المدينة، وأخذ يطارد الكيليكيين المتجهين إلى البحر فرأى تمثالاً ملقى على الساحل كان الكيليكيون قد حملوه طول هذه المسافة ولم يتسع وقتهم لنقله إلى السفينة. وتبيّن أنه أحد روائع النحات سثينس Sthenis وأعلمه أحدهم أنه يمثل أوتوليقوس باني مدينة سينوپ. وهو على ما قيل ابن دياماخوس Deimachus وأحد أولئك الذين كانوا ضمن الحملة العسكرية التي خرج بها هرقل من ثساليا لمحاربة الأمازونات. وعند عودته

برفقة ديموليون Demoleon وفلوغيوس Phlogius غرقت سفينتهم بالقرب من خرسونيزوس في موضع يُدعى پيداليوم Pedalium. ولكنه نجا هو ورفيقاه مع أسلحتهما وأقبلوا على سينوپ وانتزعوها من أيدي السيريين Syrians هناك. وهؤلاء يزعمون أنهم انحدروا - كما جاء في الاساطير - من سيروس Syrus ابن أپوللو وسينوپ بنت أسپوس Aspus. وما إن سمع لوكوللوس بهذا حتى تذكر تنبيه سيلّلا الذي نصح في مذكراته بألاّ يستهين المرء قط بالدلائل والإشارات التي ترد في الأحلام فليس مثلها مؤكد وجدير بالاهتمام.

ووردته الأنباء بتقدّم قوّات ميثريدات وديكران نحو لاكوانيا وكيليكيا يريدان سبقه إلى دخول آسيا. فأخذته الحيرة كثيراً من موقف ديكران ولم يدر سبباً وجيهاً لامتناع الملك الأرمني عن مساعدة ميثريدات في الماضي عندما كان هذا الأخير قوياً وجيشه في عزّة. فماذا كان يمنعه آنذاك عن المشاركة في قتال الرومان لو كانت نيّته قتالهم، بدلاً من ترك جيش ميثريدات وحده يتلقّى الهزائم ويُمزَّق شر تمزيق. وها هو الآن يبادئ بالحرب عندما باتت فرص النصر فيها ضئيلة. فيلقى مصير كلّ مع من كبا به الحظّ وهوى إلى الحضيض؟!!

وفيما كانت هذه الهواجس تتقاذفه أرسل إليه ماكار Machares ابن ميثريدات وحاكم منطقة البوسفور تاجاً تزيد قيمته على ألف قطعة ذهبية مبدياً رغبته في أن يُعتبر صديقاً للرومان وحليفاً. وهنا أفرخ روع لوكوللوس وأيقن بأنها بداية النهاية لهذه الحرب. فترك صورناتيوس Sornatius نائبه على رأس ستة آلاف راجل وأقلّ قليلاً من ثلاثة الآف فارس، وانطلق لقيادة الجبهة الثانية بسائر جيشه. ولا شكّ في أن حركته هذه عابها التسرّع الشديد والاستعجال الخاطئ فقد توغّل في بلادٍ تعوّدت شعوبها الحرب ونشأت عليها، وملكت ألوفاً مؤلّفة من قوّات الخيّالة. وهي بعد بلاد مترامية الأطراف تكثر فيها المجاهل، وتعترض سُبلها شبكة من الأنهار العميقة المجرى والجبال التي تكسوها الثلوج على مدار السنة. فانفرط عقد النظام بين الوحدات وكثُر عصيان الجنود للأوامر، وتفشّى فيهم التذمّر وكرهوا السير وراء لوكوللوس. وأخذ زعماء الشعب في روما يهاجمونه ويوجّهون إليه أقسى النقد وينعتونه بالمغرور الأناني الذي لا هَمّ له إلاّ إثارة الحروب ضدّ مصلحة الجمهورية إباءً منه ونفرة من حياة السلم طوال فترة وظيفته، ليستمر في جمع المال والإثراء على حساب الأخطار التي يتعرّض لها الوطن. وقد حقق هؤلاء الرجال ما أرادوه في النهاية. إلاّ أن لوكوللوس لم يهتمّ بهم في حينه ومضى قُدماً في حملته حتى وصل نهر الفرات بعد مسيرة طويلة، فوجد

مياهه كثيرة الارتفاع خطرة العبور بسبب الفيضان الشتوي. وأورثه خوفه من التأخير قلقاً شديداً، كما جوبه بضرورة توفير زوارق لعمل جسرٍ يعبر عليه. إلاّ أن الماء بدأ يتراجع عند المساء واستمر يتناقص منسوبه باطّراد طوال الليل. وفي اليوم التالي وجد ماء النهر قد انحسر كثيراً عن الضفتين حتى تبيّن الأهالي في وسط مجراه الجزيرات والماء هادئ فيما بينها. فكانت الدهشة عظيمة لأن ظهور الجزيرات أمر نادرٌ جداً. وفُسّرت هذه الظاهرة بأن النهر تراجع أمام لوكوللوس خاضعاً طائعاً وأنعم عليه بعبور سهل سريع، إذ ما لبث أن استفاد من الفرصة فانتقل بجميع قوّاته إلى الضفة الأخرى. ولقي فور عبوره بشير سعدٍ إذ رأى العجول المقدّسة المخصّصة لقرابين «ديانا الفُرس» وهي ترعى الكلأ. والبرابرة الساكنون فيما يلي الضفة الشرقية يعبدون هذه الربّة دون غيرها من الآلهة ويخصّونها بذبائح من العجول ليس إلاّ. وجرت العادة أن يُترك لهذه العجول حبلها على غاربها تتجوّل وترعى الكلأ دون أن يعترض سبيلها أحدٌ بعد وسْمها بشعار الربّة الذي يمثّل مشعلاً. ولذلك كان يصعب قنص أحدها عندما يقتضي الأمر تقديم ذبيحة. إلا أن واحداً منها اقترب من الصخرة المقدسة للربّة من تلقاء نفسه، على أثر عبور الجيش الروماني نهر الفرات، ووقف عليها ثم أمال بعنقه كما تميل أعناق العجول المقرّبة بعد ربطها بالحبال وإجبارها على الركوع، كأنه يعرض نفسه على لوكوللوس ليضحّي به. وقرّب أيضاً ثوراً لنهر الفرات لسلامة عبوره منه ولبث هناك طوال اليوم. إلاّ أنه سار في اليوم التالي والأيام التي عقبته في أراضي صوفين ولم يتعرّض لسكانها بأيّ سوءٍ فكانوا يتقاطرون لتحيّته، وللترحيب بجيشه. وبدت رغبة من جنوده في نهب حصنٍ كان مظهره يدلّ على امتلائه بالمؤن والأرزاق. فردّ عليهم وهو يشير إلى مدينة طوروس Taurus البعيدة:

- ذلكم هو الحصن الذي يتحتّم علينا اقتحامه.

ثم استطرد يقول:

- الراحة تنتظر أولئك الذين ينتصرون هناك!

ثم غذّ في السير وعبر دجلة متوغّلاً في بلاد الأرمن.

وكان الموت جزاء أول رسول أبلغ ديكران بنبأ دخول لوكوللوس. فقد ثار غضبه وأمر بضرب عنقه جزاء جهوده! ولذلك لم يجرؤ أحد على ايصال معلومات أخرى له عن تحركات لوكوللوس وظلّ لا يدري شيئاً عن تطوّر الحرب المستعرة حواليه، ولا يعير أذناً إلاّ لمادحيه ومتملّقيه. فقد كانوا يتزلّفون إليه قائلين مثلاً: إن لوكوللوس سيثبت نفسه قائداً عظيماً إذا ما غامر بانتظاره (يقصدون ديكران) في إفسس ولم يسابق

الريح في فراره من آسيا بمجرّد أن تبدو له طلائع الألوف المؤلّفة الزاحفة عليه.

كان ديكران يمتاز بجسم قويّ لا تؤثّر فيه الخمر مهما عبَّ منها، وبعقل راكزٍ رصين يصمد أمام أي عارضٍ مهما بلغ من الشدة. وأوّل من جرؤ على قول الحقيقة له كان ميثرو بارزان Methro Barzanes نديمه وأقرب مقرّبيه. وكان ما لقي من شكرٍ على صراحته إرساله فوراً على رأس ثلاثة آلاف فارسٍ وجيش لجِب من المشاة لقتال لوكوللوس وزوّد بأمرٍ جازمٍ: أن يأتي به حياً بعد سحق جيشه سحقاً. وكان بعض جنود لوكوللوس منصرفين إلى نَصب خيامهم بينما أخذت الوحدات الأخرى ترد إليهم تباعاً عندما أعطى الكشافة الرومان إشارة اقتراب العدوّ. فجزع لوكوللوس لئلا يُداهَم بالهجوم ورجاله مشتّتون لا يجمعهم نظام المعركة، واضطر إلى البقاء حيث تنصب الخيام وأرسل قائد الفرقة ليگات Legat سكستيليوس بألف وستمائه فارس، وبمثلهم من صنفي المشاة الخفيفة والثقيلة، بأمرِ التقدم من العدوّ فحسب، والانتظار حتى يرده نبأ إكمال اقامة المعسكر. ولم يكن في نيّة هذا القائد أن يخلّ بالأمر الموجّه له إلاّ أن ميثرو بارزان حمل عليه حملةً شعواء فأرغمه على القتال. فكانت النتيجة أن قُتل ميثرو بارزان والسلاح في يده، وأبيد كل جنوده إلاّ قلّة من الرجال لا يُعتدّ بها.

بعد هذا، غادر ديكران مدينة ديكرانوكرتا Tigranocerta التي شيّدها هو متجهاً إلى طوروس. وهناك أمر بأن يتجمّع كل جيوشه حوله. ولكن لوكوللوس لم يُتح له الوقت ليلمّ شعثه، وأرسل مورينا لمهاجمة القوات القادمة إلى ديكران والقضاء عليها. وبعث أيضاً سكستيليوس لتشتيت شمل جموع كثيرة من الأعراب كانت في طريقها إلى الملك. فانقضّ عليهم وهم في مضاربهم وأباد معظمهم. وأسعد الحظّ مورينا عندما كان يطارد ديكران وباغته في شِعب جبليّ ضيّق وعِر وأجبره على الهروب تاركاً كل أمتعته وأثقاله وفتك بكثير من الأرمن وأسر أكثر.

بعد هذا النجاح الذي أصابه لوكوللوس، زحف بجيشه على ديكرانوكرتا وربض أمامها وألقى عليها الحصار. وكان يوجد في هذه المدينة كثير من الإغريق الذين جيء بهم سَبْياً من كيليكيا، وكثير مثلهم من الأقوام البرابرة كالأديابينيين Adiabenians والآشوريين، والكوردينيين والكبدوكيين الذين دُمّرت مدنهم وأُجبروا على سكناها، وكانت مدينة غنية جميلة المنظر يهتمّ كل ساكن فيها من العامة أو الخاصّة كما يهتم الملك بتجميلها وتوسيعها. وهذا ما حدا بلوكوللوس إلى تشديد الحصار عليها متوقعاً أن ديكران سيفقد رشده، وسينفد صبره فيقدِم في ساعة غضب على مهاجمته وهو ما كان يريده. ولم يكن في حسابه مخطئاً فقد أخذ ديكران يتأهّب لذلك. وحاول

ميثريدات جهده ليثنيه عن هذا بالرُّسل والخطابات. واشتد في تحذيره من القيام بأي هجوم عام. ونصحه بدل هذا أن تعمل خيّالته على قطع خطوط تموين العدوّ ومنع وصول الأرزاق إليهم. ولم يدّخر تاكسيل Taxiles جهداً في نُصحه بالتخلّي عن نيّته، وبتحاشي سلاح الرومان، وكان هذا قد أُرسل مبعوثاً من لدن ميثريدات للإقامة مع جيش ديكران.

ولم يكن من الهيّن أو السلامة أن يُقحم المرء نفسه في مثل هذه الأمور. ومع هذا فقد عمل ديكران برأيه في مبدأ الأمر ولكنه اطّرح الحذر جانباً عندما وصلته القوّات الأرمنية والگوردينية بكامل وحداتها وعدّتها. والتحقت به جيوش الماريين والأديابينيين كلّ تحت قيادة ملكه، ثم انضمّت إليه الجموع الكبيرة من العرب قادمةً من البحر فيما وراء بلاد بابل. وجاءه الألبانيون Albanians وجيرانهم الإيبريون Ibriens من بحر قزوين فضلاً عن عدد لايُستهان به من المحاربين المرتزقة الذين يسكنون أحراراً حول نهر أراكس Araxes ولا يدينون بطاعة لملك، قِسم التحق تطوّعاً، وقِسم بأجرٍ. وكانت مآدب الملك واجتماعاته لا تردّد غير صدى الآمال، والفخر والوعيد البربريّ. وباتت حياة تاكسيل في خطرٍ لأنه كان ينصح بإرجاء الحرب وعُدّ رأي ميثريدات تثبيطاً لديكران عن نصر مجيدٍ محقق، بدافع الحسد والغيرة. وهكذا لم يجد ديكران بعد هذا أيّ موجب للتأخّر انتظاراً له، لئلا يشاركه ثمار نصره. وتقدّم بسائر جيوشه وهو ينعى سوء حظه لأصدقائه - على ما قيل - بأنه سيواجه لوكوللوس بمفرده، لا كل قادة الرومان مجتمعين! ولم تكن ثقته هذه مبعثها التسرّع أو النزق ورهن إشارته هذا العدد الكبير من الشعوب والملوك وعشرات الألوف من المشاة والخيّالة المزوّدين بأحسن السلاح: عشرون ألفاً من رماة القسيّ والنبّالة، وخمسة وخمسون ألف فارس منهم سبعة عشر ألفاً بدروع كاملة، ومائة وخمسون ألفاً من المشاة ذوي الأسلحة الثقيلة تنتظمهم ألوية وكراديس [فلانكس]، وكتائب مختلفة من سلاح الهندسة، لتمهيد الطرق ومدّ الجسور وتصريف الماء ونزحها وقطع الاشجار والقيام بكلّ الخدمات الضرورية، يبلغ عددهم يبلغ خمسة وثلاثين ألفاً، وضِعوا جميعاً في مؤخّرة الجيش زيادة في تقويته وفي منظر جبروته ومهابته. تلك هي الأرقام التي بعث بها لوكوللوس لمجلس الشيوخ.

وما إن عبر طوروس وظهرت للمدينة قوّاته - والرومان يهاجمونها - حتى راح أهلها المحصورون يحيّونها بالهتاف والصياح وتهديد الرومان من أعلى السور بالأرمن الزاحفين عليهم. وفي مجلس الحرب الذي عقده لوكوللوس لمدارَسة الموقف نصحه

فريق بفك الحصار وتوجيه كل قواته إلى ديكران. ورأى فريق آخر أن رفع الحصار ليس بالعمل السليم حين يوجد وراءه العدوّ بجيوشه الجرّارة. فقال هو إنه لا يجد أيّاً من الفريقين مصيباً هدفه، وإن كان لكلٍّ سببه الوجيه الصائب من وجهة نظره الخاصة، وهو لهذا سيأخذ بالرأي الوسط ويقسم جيشه قسمين، الأول ويبلغ ستة آلاف راجل تُرك بقيادة مورينا ليستمرّ في الحصار، وتسلّم هو قيادة القسم الثاني وقوامه أربعة وعشرون فوجاً مبلغ مجموعها عشرة آلاف محاربٍ تقريباً. يساندهم أصناف الخيّالة كلّها والرُّماة والنبّالة وهؤلاء يقاربون الألف، واستدار بها نحو ديكران. وبدت هذه الوحدات للعدوّ الرابض على ضفة النهر يغطي السهل الرحيب شرذمةً صغيرة لا يُعتدّ بها، ولذلك تعالت أصوات السخرية والهزءِ بهم، وراح بعضهم يتراهن على الأسلاب. وتدافع الملوك والقادة بالمناكب وكلّ يريد أن يتولّى قتال لوكوللوس بمفرده، وما على ديكران إلاّ أن يجلس ويرقب. وشاءت فكاهة هذا الملك أن تنطلق من عِقالها بهذه المناسبة فردّد القول المأثور مشيراً إلى ضآلة عددهم:

«هم أكثر بكثير من أن يصلحوا لسفارة، وأقلّ بكثير من أن يكونوا جنوداً».

وواصل العدوّ سخريته وازدراءه حتى أصبح الصباح. فأخرج لوكوللوس جيشه للقتال بكامل سلاحه. ووقفت صفوف جيوش البرابرة على طول الضفة الشرقية من النهر. وكان فيه هنا منعطف يميل به نحو الغرب فيسهل منه عبوره كثيراً. وبدا لوكوللوس لديكران وهو يحرك قطعاته سريعاً كأنه يسابق الريح طائراً. فاستدعى تاكسيل وسأله بلهجة هازئة:

- أترى الرومان الذين لا يقهرون! كيف أنهم يطيرون طيراناً؟

فأجابه تاكسيل:

- أتمنّى من كل قلبي أيها الملك أن يسعدك الحظّ بفرصة كهذه التي تتوهّمها وهي بعيدة الاحتمال. إلاّ أن الرومان اعتادوا في مسيرات عساكرهم ألاّ يرتدوا خير ثيابهم ولا يستخدموا تروساً صقيلةً لامعة، ولا يكشفوا عن خُوَذهم المعدنية. أمّا وأنت تراهم الآن وقد أزاحوا عن سلاحهم ودروعهم أغطيتها الجلدية فهو دليل على استعدادهم للقتال، واستعدادهم للالتحام بعدوّهم.

وكان لوكوللوس يقوم بحركة استدارة جانبيّة وقت هذه المحادثة. وسرعان ما ظهر أوّل نسر ثم لاحت طلائع الألوية المتعاقبة بنظام الصولة مرتّبةً حسب السرايا والفصائل. وهنا ندّت من فم ديكران صيحة الرجل المستقيظ من نوبة سكر بانتفاضة عنيفة، وردد مرتين أو ثلاثاً:

- ها! إنهم يُطبقون علينا.

وبكثير من الفوضى والاضطراب والصعوبة تمّ إعداد صفوف الجيش للمعركة. واحتفظ ديكران لنفسه بالقلب. وتولّى الملك الأديابيني الجناح الأيسر، والملك الماديّ الجناح الأيمن. وأمام هذا الجناح اصطفّ معظم الخيّالة المدرّعة. وتقدّم بعض الضباط من لوكوللوس وهو يهمّ بعبور النهر ينصحونه بالإمساك عن القتال في هذا اليوم بالذات، لأنه أحد الأيام النحسة التي يطلق عليها اسم «الأيام السود» ففيها تمّ القضاءعلى جيش روماني في اشتباك مع الكيمبريين تحت قيادة كيبيو Cæpio. فأجابهم لوكوللوس بالردّ الشهير:

«إذن فلأجعلنّه يوم سعدٍ للرومان».

وهذا يوافق اليوم الذي يسبق اليوم الخامس أو بداية الأسبوع الثاني من شهر تشرين الأول.

وطلب من جنوده التحلّي بالشجاعة وعبر النهر خوضاً. وكان في طليعة الهجوم على العدوّ مرتدياً درعاً ذا حراشف فولاذية صقيلة ومعطفاً مزركش الأهداف وسيفه منتضى إشارةً لجنوده إلى وجوب الالتحام يداً بيدٍ مع عدوّ تركزت مهارته في القتال البعيد المدى. ولذلك كانت سرعة الرومان عاملاً رئيساً في تقصير مدى تعرّضهم لسهام الرماة وخروجهم عن دائرتها. ثم وقع نظره على الخيّالة المدرّعة وقد انتظمت في صفوف متوالية على حافة الجبل وكانت زهرة الجيش وعماده. ثم تبيّن فيما يلي رأس الجبل سهلاً رحيباً أجرد يبلغ طوله أربعة فرلنغات تقريباً، ووجد أن لا صعوبة هناك في ارتقائه فأمر خيّالته التراقية والغلاطية بأن يحملوا على جناح الخيّالة، ويكفّوا عنهم أذى رماحهم بسيوفهم. وكان الرمح وسيلة الدفاع الوحيدة لهولاء الخيّالة المدرّعين بدروع ثقيلة ولا يملكون غيرها لمضايقة مهاجمهم بسبب ثقل دروعهم وعدم قابلية الحركة فيها حتى لكأنهم بُنوا فيها بناءً.

ثم تقدّم لوكوللوس على رأس فوجَين نحو الجبل وتبعه الجنود بكلّ نشاط وحماسة وهم يرون قائدهم في الطليعة يصعد الجبل راجلاً. وما إن بلغ القمّة حتى وقف في بقعة عارية وصاح:

- انتصرنا! انتصرنا أيها الزملاء الجنود!

وبعد هتافه هذا حمل على الخيّالة المدرّعة محذّراً رجاله من قذفها بالحراب، حاثّاً اياهم على التقدم منها والتلاحم معها وأن يوجّهوا طعنات سيوفهم إلى الأفخاذ والكواحل

فهي الأجزاء الوحيدة التي لاتكسوها دروع عند هؤلاء الفرسان. إلاّ أن حاجتهم إلى الاشتباك انتفت لأن العدوّ لم يشأ انتظار الهجمة بل أطلق سيقانه للريح وهو يصيح صيحات داوية ويثير ضجة كبيرة. وبانكفائهم إلى الوراء سقطوا على صفوف المشاة الكثيفة قبل أن تتاح لها فرصة القتال، فما وسعها إلاّ الفرار قبل أن تسفك قطرة دم واحدة أو يصاب أحد بجرح. إلاّ أن المقتلة العظمى جرت أثناء الهزيمة أو بالأحرى أثناء المحاولة التي تعذّرت عليهم بسبب عمق الصفوف وتزاحم بعضها على بعض فحُصِروا حصراً. وكان أول الهاربين ديكران وقلّة من رجاله، وقد لمح ابنه وهو في موقف عسير فنزع تاجه وأعطاه إياه وهو يبكي طالباً منه أن يحتال على الهروب بكيفيةٍ ما. إلاّ أن الفتى لم يجرؤ على لبسه وسلّمه إلى أحد اتباعه الموثوقين وأمره أن يحتفظ به وديعة. وتشاء الصدف أن يقع هذا الرجل أسيراً ويؤتى به وبالوديعة إلى لوكوللوس. هكذا وقع تاج ديكران غنيمةً بيد الرومان. وقيل إن العدوّ خسر حوالي مائة ألفٍ من المشاة. ولم ينجُ من خيّالته إلاّ شرذام. وخسر الرومان خمسة من القتلى، وجُرح منهم مائة. ونوّه أنطيوخوس الفيلسوف بهذه الموقعة في كتابه «عن الأرباب» بقوله: «إن الشمس لم تشرق على شبيهٍ بهذه الموقعة». ويقول سترابو - وهو فيلسوف آخر - في مجموعته التاريخية: إن الرومان لم يسعهم إلا الخجل، والهزء بأنفسهم لارتدائهم الدروع في قتال مثل هؤلاء العبيد الذين تدعو حالتهم إلى الشفقة والرثاء فعلاً». ويقول ليفي أيضاً إن الرومان لم يحاربوا عدوّاً بقوة غير متكافئة كقوتهم هذه، لأن نسبة المنتصرين إلى نسبة المغلوبين كانت واحداً مقابل عشرين. وكان أعظم الثناء الذي ناله لوكوللوس من أقدر القوّاد الرومان وأوفرهم حكمة وخبرةً قولهم أنه غلب ملكين عظيمين قويّين بحركتين سوقيّتين متناقضتين: العجلة والتريّث!! فقد حطّم قوة ميثريدات المتعاظمة بالثانية وسحق قوات ديكران بالأولى. وكان بهذا مثلاً نادراً للقائد الذي استخدم عامل التأخر لتحقيق الانتصارات العسكرية، واستخدم عامل السرعة لتحقيق السلامة والأمن.

ولهذا رأينا ميثريدات غير مستعجل في القدوم إلى المعركة لأنه كان يتصوّر أن لوكوللوس سيلتزم جانب الحذر والتريّث كما هو شأنه قبلاً فأبطأ في سيره وتأخر على ديكران. وأحسّ بالأمر الجلل عندما أخذ يلاقي في طريقه شراذم من الأرمن هاربة وهم في أسوأ حال من الهلع والمرارة. ولما زاد من يلقاه من الرجال الجرحى المجرّدين عن الأسلحة وأكدوا له نبأ الهزيمة أقفل راجعاً وراء ديكران فوجده في حالة يُرثى لها من الهمّ والذلّة، وقد فارقته صلافته وغطرسته وانقلب وديعاً متواضعاً. وما وقع نظر مثريدات عليه حتى ترجّل وتقدّم منه يعزّيه على ما حلّ به من نكبة وعرض عليه حرسه

الخاصّ وراح يبثّ فيه الأمل بالمستقبل حتى أنعش روحه وأحيا فيه موات الأمل. وشرعا معاً يعبّئان قوات جديدة.

وفي مدينة ديكرانوكرتا انفصل الإغريق عن باقي سكانها من البرابرة وأخذوا يبذلون الجهود لتسهيل تسليمها إلى لوكوللوس. فشنّ عليها هجوماً كاسحاً وافتحتها عنوةً ووضع يده على بيت مالها، وأطلق العِنان لجنوده يعيثون فيها نهباً. ومما وجدوه من الأموال ثمانية آلاف تالنت من المسكوكات النقدية، توزّعوها فيما بينهم، علاوة على إعطائه كل جنديّ ثمانمائة دراخما من الغنائم. وعلم بوجود كثير من الموسيقيين في المدينة كان ديكران قد دعاهم من كل صوب لإحياء حفلة افتتاح الملعب الذي أتمّ بناءه فوقعوا أسرى في أيدي الرومان. فاستخدمهم لوكوللوس لإحياء الألعاب التي أقامها بمناسبة نصره، وفي حفلاته العامّة. ثم إنه أعاد الإغريق إلى أوطانهم بعد تزويدهم بنفقات الطريق. وردّ البرابرة الذين أُرغموا على سكنى المدينة إلى ديارهم. فأخلى المدينة من السكان تماماً وبهذا عمر وأهل كثيراً من المدن بإعادة أهاليها إليها فحظي لوكوللوس بإعزازها وحبّها وعدّه سكانها مؤسّساً لها وحامياً. وكان في انتظاره نجاح أكثر من هذا، وكل نجاح جدير به فعلاً ما دامت رغبته الشخصية أن يتأتّى الثناء من أعمال العدل والرأفة أكثر مما يتأتّى من مآثر الحرب. ففي هذه الأخيرة يعود بعض فضلها إلى الجنود، وأكثر الفضل فيها يعود للحظّ، أمّا الأولى فهي دلائل أكيدة على روح سمحة كريمة. ولا شك في أن طبعه هذا كان أكبر عونٍ له على قهر البرابرة دعك من السلاح. فملوك العرب قصدوه طائعين وعرضوا عليه بلادهم وما يملكونه. وأعلن الصوفينيون خضوعهم له أيضاً. وبلغت معاملته الگوردينيين حدّاً من اللطف ودّوا معه لو تركوا بلادهم وتبعوه هم وأولادهم وزوجاتهم. وإليك ما فعل معهم: عيل صبر زاربين Zarbeinus ملك الگوردينيين من قسوة ديكران واضطهاده، ففاوض أپيوس سِرّاً في الدخول بحلفٍ مع الرومان. إلاّ أن أمره انكشف فقتله ديكران هو وزوجه وأولاده قبيل دخول الرومان أرمينيا. ولم ينس لوكوللوس حليفه وأتى الگوردينيين، وأقام تشييعاً فخماً لجثمان زاربين تكريماً وإحياءً لذكراه، وزيّن المحرقة بالأوشحة الملكية والذهب وبشيء من غنائم حرب ديكران. وقام هو نفسه بإشعالِ النار فيها وسكب العطور مع أصدقاء الميت وأقربائه، مطلقاً عليه لقب صديق الرومان وحليفهم وأمر أيضاً ببناء ضريح فخم له. وعُرض عليه في قصر زاربين كنز عظيم من الذهب والفضة وما لا يقل عن ثلاثة ملايين مكيال من القمح فزوّد بها الجنود وصرفها عليهم. وهكذا شاع عن

لوكوللوس أنه ينفق على الحرب مما يربحه منها، ولا يتسلّم دراخما واحدة من الخزانة العامة لهذا الغرض.

وبعد هذا قدِمت سفارة من ملك البارثيين تعرض عليه التحالف والصداقة فوافق لوكوللوس في الحال، وبعث بوفد مماثل للملك الپارثي. وما لبث أعضاء الوفد هناك أن وقفوا على اللعبة المزدوجة التي يلعبها الملك. فقد كان ثمّ مفاوضات سرّية بينه وبين ديكران في الوقت نفسه ترمي إلى عقد تحالف معه شريطة أن تطلق يده في بلاد ما بين النهرين. فما أن أنهي الأمر إلى لوكوللوس حتى قرّر أن يدع النزال مع ديكران وميثريدات إلى حين بوصفهما خصمين مغلوبين. ويجسّ قوة البارثيين بحملة عليهم قد تنيله مجداً عظيماً. وبذلك يكون قد سحق ثلاثة ملوك في حرب واحدةٍ متلاحمة الحلقات. وقهر ثلاث أعظم ممالك ذلك العهد طُرّاً، كما لو كان بطلاً من أبطال ألعاب الرياضة. فبعث إلى پونطس يطلب من مورناتيوس وزملائه سَوق الجيش والالتحاق به في حملته من گوردين Gordyene. ولكن الجنود هناك كانوا قد شقّوا عصا الطاعة وتمرّدوا على أوامر قوّادهم ولم تُفلح فيهم أية وسيلةً من وسائل الإقناع أو الإرغام. وارتفعت أصوات الاحتجاج قائلة إنهم ملّوا البقاء حيث هم وما من قوة في الأرض تقنعهم بأنهم سيغادرون پونطس نفسها فكيف يطلب منهم الرحيل إلى الحرب. ولم يكن الضرر الذي أحدثته أنباء التمرّد في جنود لوكوللوس بالقليل فهؤلاء أبطرهم الغنى وكثرة الغنائم وأنمى في النفوس الشوق إلى الراحة والترف. فحمدوا موقف أخوانهم المتمرّدين وقالوا إنهم لرجال حقاً وسيسيرون على هديهم ويحتذون حذوَهم، لأنهم يستحقون التسريح من الخدمة العسكرية بعد المآثر الحربية التي حققوها، ليخلدوا إلى الهدوء والراحة.

كل هذا وأسوأ منه حمل لوكوللوس على العدول عن غزو بلاد الپارثيين، وانثنى إلى ديكران والصيف في آخره. ولمّا اجتاز طوروس وشاهد اخضرار الحقول المنداحة أمامه أدركه خوف من برودة مناخ هذا الإقليم. إلاّ أنه على كلّ حالٍ مضى في سبيله متوغّلاً ووفّق مرّتين أو ثلاثاً إلى إلحاق الهزيمة بالأرمن الذين تجرّأوا على اعتراض سبيل زحفه، ونهب قراهم وأحرقها واستولى على المؤن التي كانت تُجمع لديكران. وبهذا أمّن حاجته، وجرّد عدوّه من أرزاقه. إلاّ أن مساعيه فشلت في جرّ ديكران إلى المعركة باستفزازه وإرغامه عن طريق حفر خنادق حول معسكره وبناء استحكامات وحرق الأرض المحيطة به. ولم يفلح في إخراجه من مكمنه بعد الاندحارات التي

أصابته على يده. ولما يئس من ذلك لجأ إلى وسيلة أخرى فقاد جيشه نحو أرطاشاتا Artaxata عاصمة ديكران التي تضمّ أولاده الصغار وزوجاته، مقدّراً أن عاطفته ستدفعه إلى اطّراح جانب الحذر والخروج للقائه فوراً.

يروى أن هنيبعل القرطاجني لجأ إلى أرطاشاز Artaxas ملك أرمينيا بعد الهزيمة التي لحقت بأنطيوخوس فأفاده بكثير من النصائح والمقترحات، ومنها استرعاء انتباهه إلى مناعة الموقع الطبيعي وجماله وكان في ذلك الوقت أرضاً براحاً مهملة لا يقوم عليها شيء. فقام هنيبعل بعمل مخطط لمدينة تُبنى فيها وأتى بأرطاشاز إليه لمشاهدته فأعجب بالفكرة ووقعت لديه موقعاً حسناً وأبدى رغبته في أن يشرف هو على هندستها. فنهض بالعبء وبنى مدينة واسعة فخمة أطلق عليها اسم الملك، واتخذت عاصمة لأرمينيا.

وكان لوكوللوس مصيباً في حدسه، فلم يصبر ديكران على تقدّمه منها وداهمه بجيشه حتى أدركه في اليوم الرابع. وضرب خيامه مقابل الرومان وليس بين الفريقين إلاّ نهر أرسانياس Arsanias الذي كان على لوكوللوس أن يعبره ليبلغ العاصمة. وقرّب لوكوللوس للآلهة تقريب من خرج منصوراً من المعركة ثم عبر الماء وقسم جيشه قسمين، زحف بالقسم الأول وقوامه إثنا عشر لواء [كوهورت]، وثبّت القسم الثاني في المؤخّرة ليحول دون حركة التفافٍ قد يقوم بها العدوّ.

وأخرج ديكران عليهم تجريدة من صفوة وحدات الخيّالة يتقدّمها الرماة المارديون Mardians بقِسيّهم، والإيبريون برماحهم الطويلة التي مهروا في استخدامها مهارة لا تُجارى. وكان ديكران يضع في هؤلاء الثقة التي لا يضعها في وحدة أخرى من الجنود الأجانب. إلاّ أنهم خيّبوا ظنّه ولم يحققوا شيئاً يُذكر. فمع أنهم دخلوا المعركة مع الرومان الخيّالة عن بعد فقد عجّلوا بالفرار عندما داهمتهم المشاة وأحدثت في صفوفهم كسرات فأخذوا يهربون من الجناحين وأسرعت الخيّالة إلى ملاحقتهم. إلاّ أن القلق ظلّ مستولياً على لوكوللوس رغم ذلك؛ عندما رأى الخيّالة المحيطة بديكران تتقدّم منه بعزم وثباتٍ أمر خيّالته بالكفّ عن مطاردة المنهزمين والعودة إلى ميدان القتال وحمل وهو في الطليعة بخيرة رجاله على الساترابينيين Satrapenians المتقدمين، إلا أنهم فرّوا من أمامه قبل أن يصلهم وأطلقوا سيقانهم للريح دون اشتباك وقد تملّكهم الرعب. وكان أخزى فرار لحق بالملوك الثلاثة هو فرار ميثريدات الملك البونطسي. فقد أفزعته صيحة

الحرب الرومانية ففرّ قبل المعركة. وامتدت المطاردة مسافة شاسعة، واستمر الرومان طوال الليل يقتّلون في العدوّ المنهزم ويأسرون منه ويغتنمون الأموال ويكدّسون الأسلاب حتى كلّوا وأدركهم الإعياء. ويقول ليفي إن عدد مَن قُتل وأُسر في أوّل معركة وإن كان أكثر من هذه فإن قتلى المعركة الأخيرة وأسراها كانوا من أبرز الأشخاص وأرفعهم منازل.

وغرّ لوكوللوس هذا النصر وملأه تيهاً وعجباً. فعزم على التوغّل في داخلية البلاد وإتمام فتوحه وسحق مقاومة البرابرة سحقاً تاماً. إلاّ أن الشتاء أدركه قبل تساوي الليل والنهار الخريفي خلافاً لما توقّع، وباغته بعواصفه وثلوجه وصقيعه الأبيض وجليده. ولم تعد المياه تصلح لشرب الخيل من فرط برودتها حتى في أصفى الأيام، وصعب عليها السير في الأرض المكسوّة بالجمد لتكسّره وجرح كواحلها. وكان الضباب يلفّ معظم البلاد ذات المسالك الوعرة والغابات الكثيفة، والمطر يكاد لا ينقطع. فهم أبداً مبلّلون، والثلج لا يرحمهم في سيرهم نهاراً يسقط غزيزاً عليهم ولا يجدون ليلاً أرضاً يستلقون فوقها إلاّ وهي نديّة رطبة. وما مرّت أيام قليلة عليهم بعد المعركة وهم في هذه الحال حتى سرت الثورة في نفوسهم ورفضوا السير وراءه. بدأوا أولاً يتوسّلون إليه ويستعينون بالتريبيونات عنده ثم تجمّعوا واشتدّ صخبهم وضجيجهم ولم ينقطع صدوره من خيامهم طول الليل. وهكذا أصبح الجيش في حالة عصيانٍ. ولم يسقط في يد لوكوللوس بل راح يطيّب خواطرهم ويرجو منهم بحرارة التذرّع بالصبر والتجلّد حتى يتمّ الاستيلاء على «قرطاجنة الأرمنية وتخريب ما شيّده عدوّهم الأكبر» (يقصد هنيبعل) فأصمّوا آذانهم عنه فلم يرَ بداً من العودة بهم. وكان انسحابه عبر طوروس الكثيرة الثمر والمشمسة. ومدينتها العظيمة نصيبين Nisibis المأهولة بالبرابرة يطلق عليها الإغريق اسم «إنطاكية ميگدونيا». وكان حاكمها غوراس Guras أخو ديكران يتولّى الدفاع عنها، مدعّماً بمهارة المهندس الميكانيّ كالليماخوس، وهو عين الشخص الذي لقي منه الرومان عنتاً في حصار أميسوس. على أن لوكوللوس ألقى عليها حصاراً شديداً وفتحها عنوة. وأحسن معاملة غوراس الذي استسلم له. إلاّ أن كالليماخوس لم يحظ منه بالتفاتٍ مع أنه تبرّع له بالكشف عن كنوز مخفيّة، وأمر بأن يبقى مكبّلاً بالسلاسل وأن يعاقب على إشعاله النار في مدينة أميسوس، وخيّب أمله في الودّ والعطف اللذين طالما أظهرهما لوكوللوس للإغريق.

للمرء أن يتصوّر أن آلهة الحظّ خصّت لوكوللوس بعطفها وقاتلت في صفّه حتى

هذه اللحظة، ثم ازورّت عنه وتركته؛ وإذا بالمشقّة والصعاب تكتنف كل عمل يُقدم عليه، مثلما تتخلّى الريح المواتية عن السفينة فجأةً.

وهنا - والحق يقال - ظهر منه الخُلق والصبر اللذان لا يتحلّى بهما إلاّ القائد المحنّك العبقريّ. إلا أنه لم ينل مجداً يوازي مجهوداته، ولم يُضف شيئاً من الشهرة إلى ما كسبه سابقاً. والواقع أن نجاحاته التالية المتواضعة وإخفاقه التامّ مع جنوده كادا يؤولان به إلى فقدان كل ما ناله من شهرة، وقد كان هو مساهماً في أسبابها لأنفته الشديدة من التودّد إلى جمهرة الجنود واعتقاده الراسخ بأن أيّ تزلُّف أو تنازل لهم قد يؤدّي إلى ثَلْم سلطته. والأنكى من كل هذا أنه كان بطبعه مترفّعاً على الناس، قليل الامتزاج بضباطه الأقدمين الذين عُيّنوا معه، محتقراً سائر الضباط، لا يؤمن بمقدرتهم بالنسبة إليه. ولقد قيل لنا إن هذه الهِنات الخلقية اجتمعت في شخصه مع سجاياه الممتازة الأخرى فهو كبير النفس، نبيلها، خطيب مفوّه ومستشار حكيم سواء في الفوروم أم في المعسكر.

يقول ساللوست إنَّ الجنود كانوا بَرِمين به منذ بداية الحرب، لأنهم أُرغموا على قضاء شتاءين كاملين في جبهتي قتال كزيكوس أوّلاً وأميسوس ثانياً. وزاد حنقهم عليه قضاؤهم فصول الشتاء الأخرى في بلاد العدوّ أو معسكرين في خيمهم المنصوبة في العراء بين حلفائهم. ولن يتفق للوكوللوس ولو مرة واحدة أن رابط بجيشه في مدينة إغريقية حليفة. وعُزّز سخط الجنود خارج الوطن بتحامل التريبيونات عليه في روما واتهامه بإطالة أمد الحرب طمعاً في الثروة وفي تأسيس إمبراطورية تحت حكمه المباشر تضمّ كيليكيا وآسيا وبيثينيا وپافلاغونيا Paphlagonia، وپونطس وأرمينيا، حتى نهر فاسيس تقريباً. ولقد قام مؤخراً بنهب مدينة الملك ديكران، حتى لكأنما كان مطلوباً منه غصب أموال الملوك لا كسر شوكتهم. هذا ما يذكره لوشيوس كوينتيوس من انتقادات قيلت بحق لوكوللوس، وهو البريتور الذي اقترح على الشعب إرسال خلف للوكوللوس في حكم الإقليم فوافقوا، كما صوّتوا أيضاً على تسريح عدد كبير من الجنود الذين يخدمون تحت إمرته.

إلى جانب كل ما نال لوكوللوس من أذىً على يد مبغضيه وأعدائه فإن التحامل الأعظم عليه جاءه من پوبليوس كلوديوس Publius Clodius وهو إنسان في منتهى الوقاحة والغلاضة وشقيق زوج لوكوللوس المتهمة بسوء سيرتها وبوجود علاقة جنسية آثمة بينها وبين هذا الشقيق. وكان كلوديوس يعمل في جيش زوج أخته بمنصب لا

يتّسم بالأهمية خلافاً لما يتوقّع منه فقد تقدّمه كثير من زملائه في المناصب وبقي هو في درجته ولولا سوء سمعته لكان آمراً على الكلّ. بدأ هذا الرجل يدسّ الدسائس على صهره فاتصل سِرّاً بالقطعات الفمبرية وأثارها بمعسول الكلام والوعود البرّاقة. وكانت هذه القطعات قد تعوّدت منذ عهد طويل تزلُّف الرؤساء لها وتملّقهم، وفيها من أغراه فمبريوس بقتل قائدها فلاكوس وتنصيبه قائداً. فأصاخوا السمع للكلوديوس، ولقّبوه بصديق العسكر لفرط ما أظهره من اهتمام بهم، ولإصراره على وضع نهاية للحرب ومشاقّها وقتال الشعوب وغزوها والضرب في آفاق الدنيا حتى يقضوا نحبهم «وكل مكافأتهم على مجهودهم هو حراسة عربات وقوافل جمال لوكوللوس الموقرة بالذهب والأواني الثمينة. بعكس جنود پومپي الذين يعيشون عيشة المواطنين الحضريين في بلادهم، آمنين مستقرّين مع زوجاتهم وأولادهم في المدن والمزارع الكثيرة. إنهم يتمتّعون بكلّ هذا بعد مجهود بسيط بذلوه في إخضاع منفيي إسبانيا، وإخماد ثورة العبيد الآبقين في إيطاليا، لا بعد كسر شوكة ميثريدات وديكران وإرغامهما على الفرار والتحصّن في المجاهل الصحراوية. ولو قضى الواجب علينا أن نستمرّ في القتال، أفلا يجمُل بنا أن ندّخر ما تبقّى فينا من قوى وأنفاس لخدمة جنرال مثل پومپي يعتبر ثراء جنوده أعظم نصر له وأشرف مجد يناله؟».

تمّت إشاعة روح التمرّد والفساد في جيش لوكوللوس بهذه الوسائل. فأعلن جنوده رفض الزحف على ديكران أو ميثريدات. وكان ثانيهما قد عاد إلى پونطس من أرمينيا وراح يستعيد أراضي مملكته تباعاً ولكنه لم يتعرّض للجيش الروماني بل ظلّ ساكناً في گوردين متعلّلاً بحلول موسم الشتاء، منتظراً في كل ساعة قدوم پومپي أو أي جنرال آخر لتسلّم القيادة من لوكوللوس.

وظلّ الجيش عاصياً على أوامره حتى وردت أنباء انتصار ميثريدات على القائد الروماني فابيوس، وزحفه لقتال صورناتيوس وترياريوس Triarius. وإذ ذاك غيّروا موقفهم خجلاً وإحساساً بالعار وأعلنوا طاعتهم لأوامر لوكوللوس. واستعجل ترياريوس قتال ميثريدات قبل وصول لوكوللوس لنجدته رغم قربه منه، مدفوعاً بالطمع في نصرٍ منفردٍ لا يشاركه فيه أحد، فساءت عُقباه وهُزم شر هزيمة وخسر معركة عظيمة كلّفته على ما قيل سبعة آلاف قتيل روماني من الجنود، ومائة وخمسين سنتوريوناً (ضابط: قائد مائة) وأربعة وعشرين تريبيوناً. واستولى العدوّ المنتصر على معسكره. ولمّا أدركه لوكوللوس بعد أيام قليلة اضطر إلى إخفائه عن أعين الجنود الحانقين. وأبى ميثريدات

الدخول مع لوكوللوس في معركة منتظراً قدوم ديكران الذي كان يزحف بقوات ضخمة. فقرر لوكوللوس أن يتوجّه إلى ديكران ويشتبك معه قبل انضمام قوّاته إلى ميثريدات، إلاّ أن المتمرّدين الفمبريين خرجوا عن الرتل أثناء المسيرة قائلين إنهم مسرّحون من الخدمة بموجب المرسومِ النافذ وليس للوكوللوس أية سلطة قيادية عليهم بعد إسناد حاكمية الإقليم إلى شخصٍ آخر.

لم يبقَ شيء يحط بكرامة لوكوللوس وعزة نفسه إلا تعرّض له واحتمله. فقد راح يلتقي واحداً واحداً يتوسّل إليهم، ويدخل في خيامهم غادياً رائحاً ذليلاً كسيراً والدموع تجول في عينيه، يمسك بأيديهم كالضارع الراجي فلا يلتفتون إليه ولا يجيبون على تحيّته. بل كانوا يلقون أمامه أكياس نقودهم فارغةً. ويقولون له أن يخرج وحده لقتال العدوّ لأنه الوحيد الذي يملك مصلحة فيها. وطالت محاولاته وبذل الجنود الآخرون جهوداً مضنية مع زملائهم المتمرّدين حتى أقنعوهم، فقبلوا البقاء تحت قيادته إلى نهاية الصيف، على أن يكونوا بعده أحراراً إن لم يتعرّض لهم العدوّ بقتال خلال تلك الفترة. وقبل لوكوللوس بشرطهم مرغماً وإلاّ كان مضطراً إلى الجلاء عن كل أراضي البرابرة. أبقاهم تحت قيادته إلاّ أنه تحاشى فرض أوامره عليهم بالقوة ولم يقدهم إلى ميدان القتال وقنع ببقائهم في جيشه. ويرى ديكران وهو يجتاح كپادوكيا وميثريدات يعاود انتصاراته وهو الذي الذي كان قبل فترة وجيزة قد أبلغ مجلس الشيوخ بأنه قضى تماماً على ميثريدات ولم تعد تقوم له قائمة!

وفي هذا الوقت العصيب يجري إرسال مفوّضين إلى الپونطس لتسوية الأمور، كأن كل شيء تحت سيطرته التامّة، والأحوال مستقرة، فإذا بهم يجدونه فاقد الحول والطول، لا سلطان له إلاّ على نفسه، هدفاً لازدراء جنوده وإهاناتهم. فقد خرقوا بصفاقتهم كل الحدود، حتى أنهم لبسوا دروعهم وانتضوا سيوفهم في آخر يوم من الموعد الذي ضربوه، وخرجوا يتحدّون العدوّ الذي لا وجود له لانسحابه ورحيله منذ وقت بعيد. ثم غادروا المعسكر معربدين هاتفين ملوّحين بسيوفهم معلنين انتهاء الفترة التي حدّدوها للبقاء في جيش لوكوللوس. وأما بقية الوحدات فقد أصدر لها پومپي أمراً خطيّاً بالانضمام إليه لأنه عُيّن بدله جنرالاً لإدارة دفّة الحرب ضد ديكران وميثريدات. وقد أفلح في الوصول إلى المنصب بفضل الشعب وتملّقه لزعمائه مع أن مجلس الشيوخ وطبقة الأشراف كانوا يرون لوكوللوس موضع ظلم وإهانة بتعيين رئيس له ووارثٍ لموكب ظفره لا لمنصبه، وأنه في الواقع لم يُعزل من وظيفته بل جُرّد من مجده

الذي استحقّه على قيادةٍ أُرغم الآن على تسليمها لغيره.

ثم إن الأمر كان أكثر من مجرّد قضية شفقة أو سخط بالنسبة للموجودين، إذ لم يعد لوكوللوس سيّد الثواب والعقاب والآمر الناهي في القيادة، ومنع پومپي أن يراجع في أيّ أمرٍ وحرّم تنفيذ أو إطاعة كل ما يصدر منه حتى بموافقة المفوّضين العشرة. وأخذ يصدر بيانات وأوامر مبطلة لما اتخذه سلفه فكانت واجبة التنفيذ لصدورها من مرجع رسمي أعلى وأكبر سلطاناً. واستحسن أصدقاء الطرفين الجمع بين القائدين. وتمت المقابلة في قرية من قرى غلاطيا فتبادلا التحيّة بمودّة، وهنّأ أحدهما الآخر على انتصاراته. وكان لوكوللوس أكبر سنّاً من پومپي إلاّ أن پومپي كان يفوقه شهرة وامتيازاً بقياداته العديدة التي تولاها، وبموكبي نصره. على أن كليهما كانا يتمتّعان بامتياز شعار العصيّ المكلّلة بالغار، يُحمل أمامها دليلاً على انتصاراتهما. وكان الغار في شعار پومپي قد أدركه الذبول بسبب سيره في مناخ حَارّ جاف، فقدّم حرس لوكوللوس من اللكتور كمّية من الغار الأخضر اليافع لكويستور پومپي. فعدّ أصدقاء پومپي هذه بادرة يُمن وخير. والواقع أن تصرّفات لوكوللوس هذه أضفت شرفاً على قيادة پومپي، على أن المقابلة لم تؤد بهما إلى أيّ اتفاق ودّي وافترقا وهما أقل عطفاً مما التقيا. ومضى پومپي في إجراءات إبطال كل مراسيم لوكوللوس وسحب كل القطعات التي بقيت تحت إمرته ولم يترك له غير ألفٍ وستمائة جندي تقريباً ليقودهم في موكب ظفره القادم. حتى هؤلاء لم يجدوا أي رغبةٍ تدفعهم للرحيل إلى الوطن معه.

لقد كان لوكوللوس يفتقر إلى تلك الصفة الرئيسة اللازمة للقائد، إمّا لسوء حظه أو لطبع فيه. ولو أنها كانت من ضمن فضائله الأخرى وفي مقدمتها مثابرته وحكمته وحزمه وعدالته، لما ظلت حدود الإمبراطورية الرومانية قاصرة على نهر الفرات، بل كانت ستمتد إلى أقصى نهاية آسيا والبحر الهركاني Hurcanian حيث الشعوب قد أنهكتها فتوحات ديكران. وسلطان الپارثيين وقتذاك لم يبلغ الأوج الذي بلغه في عهد كراسوس بعدئذ. ولم تبرز مملكتهم بعدُ كقوةٍ يُخشى جانبها. إذ كانت على عهد لوكوللوس منهكة بالحروب على الحدود والفِتن الداخلية حتى عجزت عن صدّ عدوان الأرمن. والذي أراه أن لوكوللوس، بتدخّل من المشيئة الإلهية طبعاً، قد ألحق بروما - والحالة هذه - ضرراً أكثر مما حققه لها من فوائد. لأن أنصاب النصر التي أقامها في أرمينيا على الحدود الپارثية، وفتحه ديكرانوكرتا ونصيبين، والثروة الطائلة التي جاء بها من تلك الأصقاع إلى روما، فضلاً عن تاج ديكران الذي عرضه في موكب ظفره، كل

هذا عمل على زيادة غرور كراسوس وتوهّمه أن البرابرة ليسوا إلاّ غنائم وأسلاباً معروضة لمن ينهب، حتى إذا وقع في أيدي الرماة البارثيين تأكد في الحال أن انتصارات لوكوللوس لم تكن بالسهولة التي تخيّلها، ولم تأته بسبب جُبن أعدائه وجهلهم فنون الحرب، بل ثمرة بسالته ودرايته. وسنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

عند عودة لوكوللوس إلى روما وجد أخاه ماركوس ضحية تهمة رفعها ضده كايوس موميوس عن تصرّفاته التي أتاها بأمر من سيلّلا عندما كان كويستوراً له. ولما صدر الحكم ببراءته تحوّل موميوس إلى لوكوللوس وراح يحرّض الشعب عليه، ويدفعهم إلى حرمانه موكب الظفر لاستئثاره بالغنائم لنفسه وإطالته أمد الحرب. وفي هذه المعركة السياسيّة الهامة نزل الأشراف وسراة القوم إلى الشارع واختلطوا بعامّة الشعب وقبائله باذلين أعظم الجهود في سبيل لوكوللوس إلى أن نجحوا بشقّ الأنفس في حمل الناس على التصويت له بموكب الظفر. ولم يكن الموكب فخماً ولا طويلاً إلى حَدّ الملل، نسبة إلى المستعرضات والمواكب التي سارت خلاله. فقد كان أهمّ ما فيه كمّيات هائلة من الأسلحة والآليات والأجهزة الميكانية الحربية الملكية، زُيّن بها ملعب فلامينوس فيما بعد، وهو منظر طريف لقي إعجاباً لا يستهان به. وحفّ بالموكب عدد من الخيّالة ذات الدروع الثقيلة، وعشر عجلات مدرّعة ومسلحة بالأسِنّة. وسار ستّون صديقاً وضابطاً أسيراً من جيش الملك ومائة وعشر سفن حربية من ذوات الجؤجو النحاسي نُقلت وجُرّت جرّاً في الموكب. وشاهد المتفرّجون صورة من الذهب الخالص لميثريدات يبلغ ارتفاعها ست أقدام، وتُرساً مُكفّتاً بالأحجار الكريمة وعشرين جوالق مملوءة بالأواني الفضيّة واثنين وثلاثين خُرجاً مملوءة بالكؤوس الذهبية والدروع والنقد حملت كلها على عواتق الرجال. فضلاً عن ثمانية بغال تنوء بحمل مسكوكات فضية، يبلغ عددها مليونيين وسبعمائة ألف قطعة تقريباً. وتلتها ألواح حُفرت عليها أرقام تبيّن مقدار المال الذي دفعه لبومبي للإنفاق على حرب القراصنة. والمبالغ التي زوّد بها الخزانة العامة وما دفع لكلّ جندي من الغنائم وهو تسعمائة وخمسون دراخما. وبعد ختام الموكب أقام المآدب الفخمة لأهل المدينة وما يجاورها من «القرى» Vici.

بعد أن طلّق لوكوللوس زوجته كلوديا الفاجرة المهتوكة العرض، تزوّج سرڤيليا Servilia أخت كاتو، فلم يكن زواجه هذا بأفضل من سابقه لأن عروسه الثانية كانت تملك كل رذائل كلوديا إلاّ علاقتها الآثمة بأخيها. وغضّ لوكوللوس الطرف عنها حيناً إكراماً لأخيها، ولكنه لم يطق فجورها ودعرها فطلّقها. وكان مجلس الشيوخ ينتظر منه

عظائم الأمور، وأمّل أن يجد فيه خصماً لپومپي يحدّ من طغيانه وعتوّه. وتوقّع أن يبرز زعيماً لطبقة الأشراف بما يملكه من مقام ومجدٍ مؤثّل، فإذا به يعلن اعتزاله السياسة والحياة العامة. ولعلّه وجد الدولة تجتاز مرحلة عسيرة والفساد مستشرٍ فيها، أو ربّما لأن ما بلغه من رفعةٍ لم يُبقِ له ما يطمع فيه. أضف إلى ذلك حنينه الشديد إلى الحياة الهادئة الناعمة بعد الأهوال والمشاقّ التي عاناها فانتهت به إلى نهاية لا يمكن وصفها بالسعيدة. هناك من الناس من حمد فيه اعتزاله واختيار هذا النمط من العيش قائلين إنه تحاشى الصخرة التي تحطّم عليها ماريوس قبله فلم يكتفِ بالأمجاد الخالدة التي نالها من انتصاراته على الكمبريين، ولم ينسحب بها وطمع في المزيد متزعّماً حزباً سياسياً مضاداً للشباب الروماني، وهو في شهوة لا ترتوي إلى السلطان والسؤدد غير مبالٍ بتقدّمه في السن، فورّط نفسه في أعمالٍ دنيئة، أوقعته في مهالك بائسة. وكذلك قيل عن شيشرون: لو أنه اعتزل الحياة السياسية بعد مؤامرة كاتيلين Catiline لعاش عمراً مديداً. وقيل الشيء نفسه عن سكيپيو بعد فتوحاته القرطاجية والنوميدية لو تقاعد قانعاً بما حصل عليه من مجدٍ. والأمر منطقي فإدارة الشؤون العامة - كغيرها من الأعمال - لها رجالها وساستها وشروطها المثلى. وهؤلاء أيضاً كالمصارعين يُصرعون حتماً عندما يولّي شبابهم وتنهدّ قواهم. على أن كراسوس وپومپي سخرا من لوكوللوس عندما وجداه ينصرف إلى الحياة الناعمة، كأنّ حياة الترف واللذة لا تناسب سِنّه قدر ما تناسبه شؤون الحكم والسياسة أو قيادة الجيش في ميادين القتال.

ولا غرو فقد كانت حياة لوكوللوس أشبه بـ«الكوميديا القديمة» تبدأ بمشاهد سياسية وحربية وتنقلب في فصولها الأخيرة إلى مشاهدة الولائم ومجالس الشراب وأطايب الآكال والقصف والغناء والمنادمة. ولن أحاول إيجاد أسماءٍ أفخم وألْيَق لتلك الصروح الشامخة والأروقة ذات الأعمدة الفخمة والحمّامات الرائعة التي بناها لوكوللوس، ولن أقلل من شأن الرسوم والتماثيل التي جمعها باهتمام إلى جانب مختلف التحف ببذله المال الطائل في سبيلها وصرفه عليها كل ما كسبه من الحرب. إلى يومنا هذا يضرب المثل «بحدائق لوكوللوس» وتعدّ أجمل وأروع ما يملكه الإمبراطور رغم تطوّر الأذواق وتقدّم الفن. ووقع نظر توبيرو Tubero الفيلسوف الرواقي على صروحه في ناپلي حيث جعل من الجبل طنفاً بحفره أنفاقاً واسعة تحته فآض كالصخرة العظيمة المعلّقة. وجلب إليها ماء البحر فغدت قنوات وبحيرات للأسماك تحيط ببيته من كل جهة، وبنى مقاصير لهو في وسط الماء. فما وسع توبيرو

إلاّ أن يخلع عليه اسم «أحشويرش في طَيْلَسانه». وبنى أجمل المغاني في توسكولوم Tusculum وقصوراً ذات أبراج عالية وبلكونات واسعة مفتوحة للنوم في العراء ذات أروقة للنزهة. وقد زاره پومپي ذات مرّة ولامه لبنائه بيتاً قد يكون مريحاً في الصيف لكنه لا يصلح للسكنى شتاءً فأجابه باسماً:

- أيخيّل لك أني أقلّ تحفّظاً من الزَّهْوِ واللَّقلق، لا أغيّر مسكني بتغيّر الفصول؟

وكان ثمّ پريتور يقوم بتهيئة حفلة تمثيل للجمهور باذلاً كثيراً من الجهود ومنفقاً المال الطائل، واحتاج إلى عددٍ من الأوشحة الأرجوانية لممثلي الجوقة فطلبها من لوكوللوس على سبيل الإعارة. فأجابه هذا أنه سيذهب إلى منزله وينظر فإن وجد شيئاً فطلبه محقق. وعاد إليه في اليوم التالي وسأله كم عدد ما يريد منها فقال: «يكفي مائة». فعرض عليه لوكوللوس مائتين. وعلّق الشاعر هوراس Horace على هذا قائلاً:

«يكون المنزل فقيراً عندما لا تزيد النفائس غير المنظورة فيه عن النفائس المنظورة».

وفاقت مآدب لوكوللوس اليومية كل الحدود المتعارف عليها في البذخ والإسراف فكانت أغطية موائده من الأرجوان النفيس وصِحاف الطعام مكفّتة بالجواهر الكريمة. ولا تخلو الوليمة قط من الرقص والعزف. هذا فضلاً عن كثرة الأصناف وجودة طهْيِها مما يدير رأس الرجل العادي ويملأه حسداً.

وكانت مقولة بليغةً تلك التي خطرت ببال پومپي في وقت مرضه، فقد وصف له طبيبه طير الدُّج. فقال خدمه إن هذا الطائر لا وجود له في الصيف إلاّ عند لوكوللوس الذي يقوم بتربيته وتسمينه في أقنانه. فأبى أن يبعث بطلبه وقال لطبيبه:

- أترى پومپي سيموت إذن لو لم يكن لوكوللوس أبيقوري المذهب؟ ثم أمر بتهيئة ما يتيسّر في السوق.

وكان كاتو صديقه الصدوق ونسيبه يكره عاداته وأسلوب حياته هذا. حتى أنه لما فرغ أحرّ الشباب من إلقاء خطبة في مجلس الشيوخ بمدح الزهد والتقشف نهض كاتو وعقّب قائلاً:

- حتى متى تريد الاستمرار في جمع المال مثل كراسوس والعيش مثل لوكوللوس والكلام مثل كاتو؟

على أن ثمّ من يقول إن قائل هذه العبارة شخصٌ آخر غير كاتو.

وواضح من الحكايات المدوّنة عنه أنه كان يعتزّ بطريقة عيشه ويفخر بها فضلاً عن متعته فيها. إذ قيل إنه أدَب عِدّة ولائم لبعض الإغريق القادمين إلى روما استمرت أياماً متوالية، حتى أخجل أدبهم الإغريقي الصميم فأبوا حضورها معتذرين بما تكلّفه من مبالغ جسيمة يومياً وهو لا يقيمها إلاّ على شرفهم. فأجابهم باسماً:

- بعض هذا عُمِل لأجلكم يا أصدقائي الإغريق. على أن أكثره عُمِل لأجل لوكوللوس.

ومرّة تناول عشاءه وحيداً ولم يُهيّأ له غير قائمة طعام واحدة متواضعة فاستدعى وصيفه وأخذ يؤنّبه. فاعتذر منه بقوله إنه قدّر عدم وجود حاجة إلى أصناف كثيرة، لأنه لم يدعُ أحداً. فردّ لوكوللوس قائلاً:

- ماذا تقول؟ ألا تدري إذن أنّ لوكوللوس يتناول اليوم عشاءه مع لوكوللوس؟

وذاع هذا القول في المدينة وكثُر التعليق عليه.

ولقيه شيشرون وبومبي ذات يوم وهو يسير الهوينا في الفورم، وكان أولهما من أعزّ أصدقائه ومحبّيه، أما الثاني فمع بقاء بعض برود بينهما منذ تنازعِهما على القيادة في الحرب فقد ظلاّ يتزاوران، وظل حبل المودّة بينهما موصولاً، فحيّاه شيشرون وسأله أليس في رأيه أن هذا اليوم ملائم لطلب فضل منه؟ فقال لوكوللوس: ملائم جداً. وطلب منه أن يُفصح فقال شيشرون.

- نريد أن نتناول معك هذا اليوم العشاء الذي يُعدّ لك وحدك.

فبوغت لوكوللوس وسأله مهلةَ يوم واحد، فرفضا ولم يدعاه يكلّم خدّامه في الأمر لئلاّ يزوّدهم بأوامر في إعداد طعام إضافي. إلاّ أنهما سمحا له بقول عبارة واحدة لهم أمامهما وهي أنه «سيتعشّى هذا اليوم في أبوللو». (وأبوللو هو اسم قاعة من أحسن قاعات الطعام لديه). وبهذه التورية استظهر على ضيفيه، وأفلت من طوقهما. فلكلّ قاعة طعام من قاعاته على ما يبدو مخصّصاتها المحدودة من نفقات العشاء بدرجة كذا، وما يلحق بالعشاء من وسائل التسلية. فلمّا أدرك الخدم أين سيكون عشاء سيّدهم، علموا أيضاً كم يجب أن ينفقوا عليه وبأي شكلٍ وما هي الأصناف. وكان محدّداً للعشاء في غرفة أبوللو ما مقداره خمسون ألف دراخما صُرف فعلاً برمّته في ذلك اليوم. وكانت دهشة بومبي وشيشرون بسرعة إعداد هذا العشاء أكثر بكثير من دهشتهم لفخامته ونفاسته. والمرء لا يسعه إلاّ القول إن أموال لوكوللوس جاءت من أسلاب البرابرة ومن هنا كان بطره واستهانته في تبذيرها.

ومما يستحق الثناء والذكر الحسن فيه تأسيسُه مكتبة عامة، جمع فيها عدداً كبيراً من أنفس المخطوطات وأعلاها قدراً، وكانت الجهة التي أوقفها عليها مما يُعدّ أسمى من عملية تأسيسها، فقد جعلها حرّة للمطالعين مفتوحة الأبواب لطلاب العلم بلا استثناء، وألحق بها غُرفاً للمطالعة ومماشي حولها. وكان من دواعي سرور معشر الإغريق أن يتركوا أعمالهم ويهرعوا إلى تلك المكتبة التي باتت في نظرهم مقرّ آلهة الفنون (ميوزات) فتراهم يسيرون متحدّثين معاً في الأروقة يناقش بعضهم بعضاً.

وكان هو نفسه يقضي فيها ساعات كثيرة يجادل العلماء وهو يمشي ويبذل نُصحه لمن يطلب من رجال السياسة. حتى صار بيته أشبه ببريتانيوم إغريقي لمن يزور روما. وعُرف بتعلّقه الشديد بكلّ مذاهب الفلسفية واطّلاعه العميق على سائر اتجاهاتها. إلاّ أنه اختار لنفسه المذهب الأكاديمي منذ البدء. ولا أقصد الحديث منه الذي ازدهر مؤخّراً بجهود فيلو وتعاليم كارنياديس Carneades، بل القديم منه الذي مثله ورعاه أنطيوخوس العسقلاني وهو رجل وافر العلم والفصاحة - تمكن لوكوللوس بعد الجهد الجهيد من اتخاذه صديقاً عزيزاً. وأطلقه على أتباع فيلو ومعتنقي مذهبه ومنهم شيشرون نفسه الذي كتب رسالة رائعة في الدفاع عن مذهبه، ضمّنها حواراً في تحبيذ الادراك أجراه على لسان لوكوللوس وأجرى الحوار المقابل عن لسانه. وجعل عنوان كتابه هذا «لوكوللوس» لأنهما كانا صديقين عزيزين كما أسلفنا، فضلاً عن انتمائهما إلى معسكر سياسيّ واحدٍ. ولنستدرك القول هنا بأن لوكوللوس لم يعتزل العمل السياسي تماماً وإنما تخلّى عن اطّلاب المجد من خلاله، وتحاشى التناحر الخطر الذي ينقلب في أحيان كثيرة إلى فِتن يندر فيها القانون وينفرط عقد النظام، ويكون هدفها الفوز بالسلطة السياسية فحسب. وكل هذا تركه لكراسوس وكاتو عندما اضطر مجلس الشيوخ إلى إبرازهما زعيمين سياسيين خوفاً من تنامي شوكة پومپي بعد أن رفض لوكوللوس تلك الزعامة كما أسلفنا. إلاّ أنه كان يختلف أحياناً إلى الفورم نزولاً عند رغبة أصدقائه ويأتي إلى مجلس الشيوخ عندما يستدعي الأمر الوقوف في وجه پومپي والحدّ من كبريائه وطغيانه، فنجح في إبطال تسويته بعد فتوحاته وقهره الملوك، وأبطل بمساعدة كاتو مشروعه الرامي إلى توزيع الأراضي على جنوده، فما كان من پومپي إلاّ أن انحاز إلى محور «كراسوس - قيصر» أو مؤامرتهما بعبارة أخرى.

وملأ پومپي المدينة بالرجال المسلّحين واستحصل بالقوّة مصادقة على مراسيمه وطرد كاتو ولوكوللوس من الفورم، فاشتدّ حنق الأشراف عليه. وعمد حزب پومپي إلى

دفع شخص يدعى ڤيتيوس Vettius ليتهمهما بأنهما فاوضاه على محاولة اغتيال پومپي. ووقف في المجلس يعدّد أسماء المتهمين. وقبل أن يسمع منه الشعب اسم لوكوللوس، بوصفه الرجل الذي أغراه على قتل پومپي بالمال، فقدَ الناسُ اهتمامهم به ولم يُصغ أحد إليه؛ واتضح لهم فوراً أنه مدفوع ومزوّر اتهامات لا أساس لها. وانكشفت معالم الدسيسة بعد أيام عندما طُرحت جثّته خارج السجن الذي كان فيه. ومع ما قيل بأن موته كان طبيعياً فإن ما شوهد على جثّته من آثار ضرب وعلى عُنقه من أثر حبل الخنق أثبت أن من أغروه على التزوير هم الذين قتلوه، خشية الفضيحة. هذه الأمور حملت لوكوللوس على أن يزداد نأياً عن السياسة.

وحرّم على نفسه التدخل في الشؤون العامّة بتاتاً عندما نُفي شيشرون من المدينة، وطُرد كاتو إلى قبرص. وقيل إنه خولط في عقله قبل وفاته بتأثير تقدّمه في السنّ. إلاّ أن كورنيليوس نپوس ينكر أي تأثير للسنّ أو للمرض على الانحلال العقلي التدريجي الذي أصابه. ويقول إن ذلك نجم عن جرعة أعطاها له كالليثينس معتوقه وكان يقصد بها أن يزداد به حبّاً كما هو المفروض فيها إلاّ أن مردودها كان مضاداً فشلّت عقله. واضطر أخوه إلى القيام بشؤونه.

وكان موته أشبه بموت عظيم من العظماء وهو في أوج مجده العسكري وسلطانه السياسيّ. إذ وقع نبأه وقعاً شديداً على الجمهور فتقاطروا إليه وأرادوا حمل جثمانه بالقوة أثناء نقله إلى الساحة العامة مرفوعاً على أعناق فتيان من أكبر الأُسر لدفنه في «حقل مارس» جنب سيلّلا.

وكانت فكرة آنيّة لم يسبقها إعداد، ولم يتوقّعها أحدٌ، لذلك صَعُب تذليل العقبات التي تكتنفها في الحال. وبذل أخوه جهوداً كبيرة في إقناعهم بالعدول عمّا اعتزموه حتى أجازوا له دفنه في ضيعته التوسكولانية كما أوصى هو بذلك.

ولم يطل العمر بأخيه بعده، ولم يفصلهما الموت وقتاً طويلاً، فلحق به، وهكذا كانا قريبين أحدهما من الآخر في الموت والحياة والعمر والشهرة، وغيرها من النواحي الأخرى فضلاً عن محبتهما الأخوية التي ضُربت بها الأمثال.



هنيبعل

أوجُه المقارنة بين لوكوللوس وكيمون

قد يحمد المرء نهاية لوكوللوس التي كانت مخجلة إلى الحدّ الذي أسلمته معه إلى الموت قبل اندلاع الثورة الكبرى بفعل الحروب الأهلية، مما كان القدر قد ادّخره للجمهورية آنذاك. وبذلك ختم على حياته في عهد جمهورية حُرة وإن كانت ممزّقة بالفتن والاضطرابات. فهو وكيمون يتفقان في الظروف والمصير أكثر من أي شيء آخر. فقد أدرك كيمون أجله قبل أن تدبّ الفوضى في بلاد الإغريق، وفي أثناء ما كانت تستمتع بأعلى حالات الرفاء والرخاء. ومع أنه لم يُستدعَ إلى الوطن وهو يقود جيشه في ميدان القتال، ولم يزايله عقله أو يلطّخ مجد حروبه ووقائعه وفتوحاته بإقامة المآدب ومجالس اللهو والفجور، فالظاهر أن هدفهما ونهايتهما كانا هذا. وقديماً قال أفلاطون محتقراً أورفيوس Orpheus: «لقد جعل الفجور المستديم من الآن فصاعداً مكافأة لمن يعيش هنا حياة صالحة».

ولا شك في أن الراحة والهدوء ودراسة العلوم الفلسفية والأدبية هي أفضل حلّ وأليق الهوايات والتتبّعات للرجل المتقاعد عن القيادة والحكم ذي السنّ المتقدّمة. إلا أن الانحراف بالأعمال الجليلة إلى نواحي اللذة واللهو وجعلها هدفاً نهائياً وخاتمة للوقائع الحربية ومناصب القيادات العسكرية، وإحياء أعياد ڤينوس، كل ذلك أمور لا تليق بالفلسفة الأكاديمية الشريفة ولا بتلميذ لكزينوقراطس، بل برجل أبيقوري النزعة. وإليك نقطة تناقض عجيبة فيما بينهما: لم تكن صَبْوَة كيمون محمودة وإنما حفلت بالهفوات والسقطات الخلقية، أمّا لوكوللوس فكانت نشأته صارمة وخلقه مستقيماً منزّهاً عن كل ما يشين. ولا مندوحة لنا هنا من إعطاء قصب السبق والفضل لمن غيّره دهرُه إلى الأحسن، فهذا دليل على الطبع الأقوم حيث تتخلّى الرذيلة عن مكانها للفضيلة. وقد كان ثراؤهما فاحشاً، إلاّ أن كل واحدٍ منهما نهج سبيلاً مختلفاً في استعماله. وهنا لا وجه للمقارنة بين الجدار الجنوبي من الأكروپوليس الذي بناه كيمون والقاعات الفخمة والمقاصير المطلّة على البحر التي بناها لوكوللوس في نابلي بأموال البرابرة.

ولا مجال للمقارنة أيضاً بين مائدة كيمون الشعبية المجانية ومائدة لوكوللوس الشرقية الفخمة. كان أوّلهما يستضيف يومياً كثيراً من المدعوّين ويطمعهم طعاماً لا يكلّفه كثيراً من المال، في حين كان ثانيهما يمدّ سماطاً مرتفع التكاليف لرجال كلّ همهّم اللذة والشهوة. إلاّ إذا كانت طبيعة العهدين المتباعدين وطراز الحياة فيهما سبباً في التغيير وفي الفرق. فمن يجزم أن كيمون ما كان ليعيش حياة أكثر ترفاً وبذخاً من حياة لوكوللوس لو أنه اعتزل القيادة والحياة العامّة في سِنّه المتقدمة وآثر حياة الهدوء والانعزال، وهو المعروف بشدّة تعلّقه بالخمرة والعشرة والمتهم بالضعف إزاء الجنس الآخر كما أسلفنا؟

إن المتع التي ينالها المرء من انتصار في معركة، أو مجهود تكلّل بالنجاح، لا تترك زماناً ولا مكاناً للمُتع الحسّية الدنيا وتدفع أبطال الرجال ومغاويرهم إلى نسيان الأخيرة. ولو أن لوكوللوس قضى نحبه في ميدان القتال وهو على رأس قطعاته لتقاصر الحسد والافتراء عن النيل منه ومن سُمعته قُلامة ظفر. وفي هذا ختام الكلام عن حياتيهما الخاصة.

واضح أن كليهما كان جندياً ممتازاً وعبقرياً في ميداني البحر والبرّ. وكما جرت العادة في خلع لقب «الفائز وأكثر!» على أولئك الأبطال الرياضيين الفائزين بأكاليل الغار في لُعبتي المصارعة والپانكراتيوم[1] خلال يوم واحدٍ، فإن كيمون خلع على بلاد الإغريق نصراً بحرياً ونصراً برياً في يوم واحدٍ. ولذلك كان له أن يفخر بتفوّق معيّن وميزة على سائر القادة. إن لوكوللوس تسلّم القيادة العامة بأمر من حكومته، في حين جاء كيمون بالقيادة العامة إلى حكومته وضمّ إلى أملاكها أراضي عدوّ كان يحكم كل الحلفاء الإغريق قبل هذا. فأمّر كيمون بلاده على دول الحلف بعد أن كانت مجرّد تابع، وجعلها تقهر أعداءها، وترغم الفُرس على ترك سيادة البحر لها، وأجبر اللقيديميين على النزول عن القيادة العامة لأثينا.

وإذا كان أهمّ شرط في الجنرال هو أن يحتفظ بثقة جنوده، فلا يخرجوا عن طاعته، فإن لوكوللوس أصبح موضع ازدراء بينما ظلّ كيمون موضع إجلالهم العظيم وإجلال الجنود الآخرين الأجانب. أوّلهما تخلّى عنه جنوده، وثانيهما انحاز إلى صفّه جنود حلفائه. لوكوللوس عاد إلى وطنه بدون القوّات التي قادها عند خروجه، وأرسل كيمون إلى الخارج كعضو في الحلف مع غيره من الأعضاء، فعاد إلى وطنه بسلطان

(١) Pancratium: لعبة رياضية إغريقية هي مزيج من الملاكمة والمصارعة.

يفوق الكلّ بعد أن حقق لمدينته ثلاثاً من أصعب الخدمات: رئاسة الحلف الإغريقي، وتثبيت قواعد السلم مع العدوّ، وعقد ميثاق صداقة مع لقيديمون.

كان كلا الرجلين يهدفان إلى تدمير ممالك عظيمة الشأن وإخضاع آسيا، وكلاهما فشل في مسعاه هذا؛ كيمون عانده حظّ بسيط فأخفق إذ أدركه الأجل المحتوم وهو في أوج انتصاراته ولم يمهله لتحقيق هدفه. أمّا لوكوللوس فليس ثمّ من يبرّئه من سوء التصرّف مع جنوده، ولا يكون شفيعاً له في ذلك جهله بما يشكو منه جيشه ويتذمّر، أو امتناعه قصداً عن إزالة أسباب ذلك التذمّر، وهذا ما حملهم على كرهه كرهاً قتّالاً. ولكن ألم يكن ما عاناه كيمون شبيهاً بهذا؟ فقد قاضاه مواطنوه وقدّموه للمحاكمة ولم يتركوه حتى نفوه «كي لا يسمعوه مدة عشر سنوات» على حَدّ قول أفلاطون! ذلك أن ذوي العقول النبيلة السامية يندر أن يرتاح لهم السُّوقة أو يطمئنوا إليهم. لأن الشدة التي يستخدمها الأولون لتقويم اعوجاج الأخيرين تُحدث فيهم عين الألم الذي تُحدثه أربطة المجبّر عند قيامه بإعادة العظام المخلوعة إلى مواضعها الأصلية. وربما خرج كل من لوكوللوس وكيمون بدرجة واحدة متساوية تقريباً من البراءة هنا.

وفي سعة ميادين الحرب فاق لوكوللوس كيمون كثيراً، فقد كان أول روماني يجتاز بجيشه طوروس ويعبر نهر دجلة ويستولي على العواصم الملكية في آسيا ويحرقها على مشهد من ملكها وهي ديكرانوكرتا، وكابيرا، ونصيبين وسينوپ ويُخضع الأقاليم الشمالية حتى فاسيس، والأقاليم الشرقية حتى ميديا. ويُدخل الجنوب وسواحل البحر الأحمر تحت نفوذه بولاء ملوك العرب وعرض طاعتهم له. وحطم شوكة الملوك وقضى على سلطانهم ولم يفلتوا شخصياً من قبضته إلاّ بما يشبه المعجزة، وهم كالحيوانات الوحشية الفازعة يفرّون إلى الصحاري، ويلوذون بالغابات الكثيفة التي يتعذّر اختراقها. وإن نحن أنعمنا النظر في هذا التفوّق نجد الفُرس بعد فترة وجيزة يبرزون للإغريق شاكّي السلاح كأنّ كيمون لم يُصبهم بضررٍ كبير، فيسحقوا ويشتّتوا قوات الإغريق الضخمة في مصر. إلاّ أن ديكران وميثريدات لم يستطيعا النهوض على قدميهما بعد ضربة لوكوللوس القاضية. ميثريدات الذي أعجزته الحروب المتوالية وأنهكته المعارك الماضية لم يعد يجسر على الخروج من معسكره لمناجزة پومپي، وفرّ إلى بوسپورروس Bosporus وفيها قضى نحبه. وديكران ألقى بنفسه وهو أعزل مجرّد عن كلِ قوة تحت رحمة پومپي ونزع تاجه وطرحه عند قدميه مهنئاً إياه بفتوح ليست له في الحقيقة بل هي من عمل لوكوللوس من كل وجهٍ. وقد اهتزّ سروراً عند تسلّمه شعارات التجِلّة والتعظيم، لأنه كان لايبدو أنه قد عمل على اغتصابها من قبل! ولا

شك في أن القائد الذي تنسب إليه المأثرة العظمى هو كذلك المصارع الذي يترك لمن سيخلفه في النزال خصمَه وهو على شفا الهزيمة. هذا فضلاً عن أن كيمون تسلّم القيادة العامة... وقد انهارت قوة الملك، وأصبحت معنويات الفرس في الدرك الأسفل بسبب هزائمهم الفظيعة واندحاراتهم المتوالية على يد تميستوكلس وپاوسانياس وليونتخيداس، ولهذا لم يجد صعوبة في التغلبّ على «أجسام» رجال ذلّت نفوسهم وتحطمت. على أن ديكران كان ملكاً منتصراً عند مقابلته لوكوللوس لأول مرة، إذ لم يكن قد مُنِيَ بهزيمة واحدة في كل المعارك العديدة التي خاضها قبل ذلك. وليس ثمّ مجال للمقارنة بين عدد من قارعهم لوكوللوس وعدد من هزمهم كيمون. ولو نحن نظرنا إلى كل هذه الأمور من وجهها الصحيح لصعُب علينا أن نصدر حُكماً عادلاً. فيظهر أن الآلهة حابت كليهما وخدمتهما، فأشارت على أحدهما بما يعمل، وأنذرت الثاني بما يجب أن يتحاشى، ولهذا يمكن القول إن كليهما حظي «بأصوات الآلهة» المقترعة على نبالة شخصيّتيهما وقدسيّتهما، هذا إن جاز لنا التعبير.

نيقِياس

NICIAS

٤٧٠–٤١٣ ق.م

في رأيي أن كراسوس هو أصلح من يوضع مقابل نيقِياس وأن أفضل ما يمكن هو مقارنة النكبة البارثية بالنكبة الصقلية. وهنا يجمل بي أن أقف لأستميح القارئ عفواً مع بالغ الاحترام، إذا ظنّ أني أريد مطاولة ثوكيديدس في سرد أمور عبّر عنها هو بأسلوبٍ بلغ من الطلاوة والدقة والبلاغة ما أعجز كلَّ تقليد، بل ما أعجزه هو نفسه عن الإتيان بمثله. كذلك أرجو من القارئ أن يجنّبني الاتهام بارتكابي هفوة مماثلة مع طيماؤوس الذي كان يأمل في التفوّق الفني على ثوكيديدس بمؤلّفه التاريخي، وإظهار فيليستوس Philistus كاتباً تافهاً مبتدئاً باندفاعه الشديد في وصف كل المعارك البرّية والملاحم البحرية والخطب العامة وتدوين ما كان أكثرها نجاحاً، دون أن يستحق حتى مقارنته. . .

«بذلك الذي يريد أن يسابق

بقدميه العجلات الليدِيّة»

على حَدّ قول پندار. فإذا به ينكشف عن كاتب شبه أمّي صبياني الأسلوب أو بعبارة ديفيلوس Diphilus

«هو بالنكتة سمينٌ

مَطلِيٌّ طلاءً مُفرِطاً بالسمن الصقليّ!»

وكثيراً ما تراه يهبط إلى مستوى كزينارخوس Xenarchus فيقول لنا إنه يرى من الشؤم على الأثينيين ألاّ يرغب جنرالهم الذي سجّل لنفسه نصراً سابقاً في قيادة الحملة، وإن التشويه الذي حصل لوجه هرماي Hermæ هو نذير إلهيّ بأنهم سيعانون الأمرّين في حربهم هذه على يد هرموقراطس Hermocrates ابن هرمون Hermon. أضف إلى هذا كلّه كيف يُعقل أن يساعد هرقل السيراقوسيين إكراماً لخاطر پروسپرين وهو الذي أخذ كربيروس Cerberus بمسعى منها، وكيف يُعقل أن يكون غاضباً من الأثينيين لحمايتهم الإغيستيين Egesteans أحفاد الطرواديين الذين دمّر مدينتهم للأذى الذي

لحق به من ملكهم لاوميدون Laomedon. ومهما يكن فقد يؤخذ كل هذا مجرّد أمثلة على ذوقه السليم الذي يغريه بتقويم عبارات فيليستوس والإساءة إلى أفلاطون وأرسطو. إن المنافسة والمباراة في مسائل الأسلوب مع الآخرين هما في رأيي الحذلقة والصَّغار بعينهما، وقد يتخطيان إلى مرتبة الهُراء والثرثرة عندما تستهدفان مؤلفات ممتازة يتعذّر مضاهاتها أو محاكاتها. ولمّا كان ما أورده ثوكيديدس وفيليستوس عن وقائع حياة نيقياس مما لا يصحّ إغفاله لأنهما اهتمّا اهتماماً خاصاً بتصوير مزاجه وأخلاقه في الأزمات العظيمة العديدة التي مَرّ بها، فإني سأمرّ بها مروراً سريعاً مقتضباً لئلا أتّهم بالإهمال. ولكنيّ سأعمل جهدي في إثبات كل الروايات المجهولة من الناس عنه، وجمعها من مظانّها واستخلاصها من كتابات غيري من المؤلفين، ولمّ أشتاتٍ منها في المخطوطات والسجلّات القديمة، مُغفلاً منها ما انتفت الفائدة منه. ومُثبتاً كل ما يعين القارئ على فهم نفسيّته وعقليّته.

وأبدأ أولاً بما قال عنه أرسطوطاليس. قال: «هناك مواطنون صلحاء ثلاثة تقدّموا الجميع بتعلّقهم المتوارث بالشعب، ومحبّتهم له، وهم نيقياس ابن نيقيراطس Neceratus وثوكيديدس ابن ميليسياس Melesias وثيرامينس Theramenes ابن هاغنون Hagnon. والأخير منهم أقلّهم مقاماً، لأنه أجنبيّ من كيوس Ceos ولأن في أسنانه جسراً صناعياً نشأ عن قلعٍ لبعضها، ولطبعه المتقلّب الذي جعله ينحاز مرّةً إلى هذه الفئة ومرّةً إلى تلك في عالمِ السياسة، حتى اشتهر بلقب «الخُفّ».

وكان مجيء ثوكيديدس أسبق على الاثنين. وبرز ممثلاً لمصالح طبقة النبلاء ومعارضاً عنيفاً للإجراءات التي كان پيركلس يتقرّب بها من الشعب.

وكان نيقياس فتى في ريعان الصبا أثناء حكم پيركلس ولم يكن مغمور الاسم مع ذلك، حتى صار زميلاً له في القيادة العليا. وتولّى القيادة بمفرده أكثر من مرّة. إلا أن وفاة پيركلس رفعته فجأة إلى المقام الأعلى بفضل ومسعى زعماء القوم وأغنيائهم الذين كان تفضيلهم له بالمنصب الأكبر يرمي إلى جعله متراساً واقياً لهم من غائلة كليون وصلافته. وقد ساهم كليون من حيث لا يدري في تقدّمه، إذ مع أنه نال نفوذاً عظيماً لما بذل من جهود في:

«إرضاء الشيوخ والعجزة الذين وضعوا
فيه ثقتهم لغرض مُخصصات عيش لهم»

حتى هؤلاء الذين أصلح من شأنهم تقرّباً إليهم واستجداء لعطفهم تبيّنوا فيه صلافةً وجشعاً وعجرفةً، فانقلبوا عنه إلى نيقياس. فمهابة هذا لم تكن من النوع الذي يتميّز

بالصرامة والميل إلى الإساءة، وإنما كانت مُلطَّفة بالحذر الشديد والاحترام الذي يظهره صاحبها للناس؛ فيكسب قلوبهم بإظهار الخوف منهم. ولما كان حيّياً بطبعه، لا خير فيه محارباً وقائداً، فإن حُسن طالعه سَدّ مسدّ شجاعته وعوّض عن البسالة. وعمل على ستر جُبنه عن أعين الناس، فقد أفلح دوماً في كل قيادة عسكرية تقلّدها. أمّا جُبنه في السياسة وخوفه المتناهي من معارضيه ومتهميه فقد عُدّ من خير صفات المواطن في جمهورية حرّة. وكسب نفوذاً ليس بالقليل جرّاء ثقة الناس به وإخلاصهم له. فالجمهور يخشى من يحتقره، إلاّ أنه يرفع من شأن الذي يُظهِر خشية منه. إن المديح الأكبر الذي يمكن أن يقدّمه الحكام لشعوبهم هو ألاّ يزدرون ويستهينون بها.

وپيركلس الذي حكم الجمهورية بالفضيلة المطلقة، وبقوة الحقيقة والبرهان، لم يكن في حاجةٍ إلى المخاتلة والإغراء مع الشعب. ونيقياس الذي كانت تعوزه هذه الوسائل لجأ إلى ثروته الطائلة لكسب الشعبيّة والمنزلة. وكان ينقصه نكتة كليون الرشيقة ومقدرته على تسلية الأثينيين بالمُلَح الجريئة، فعوَّض هذا بالتقرّب إليهم عن طريق إقامة الحفلات العامة وعرض التمثيليات والألعاب الرياضية، وما إلى ذلك من المهرجانات الشعبية، حتى بلغ بها حداً من الروعة والبذخ ما لم يسبقه فيهما أحد لا في عصره ولا فيما خلا من العصور. فمن أوقافه الدينية ما زال يوجد إلى يومنا هذا تمثال منيرڤا الصغير في القلعة وقد نُزع عنه كساؤه الذهبيّ. وهناك أيضاً المزار الذي أهداه إلى معبد باخوس، وموضعه الآن تحت الطبلات المثلّثة القوائم، قدّمه أولئك الذين فازوا بجائزة المسرحيات والتمثيليات ولم يفشل نيقياس في أية مباراة دخلها من هذا القبيل. وبهذه المناسبة أورد هنا حكاية عنه: قيل إنه ظهر في إحدى تمثيلياته عبدٌ له متقمّصاً دور باخوس وكان بهيّ الطلعة ممشوق القامة أمرد لا يوجد في ذقنه شعره واحدة. وعندما تجلّى سرور الأثينيين بمنظره وطال تصفيقهم وهتاف استحسانهم، نهض نيقياس من مجلسه وقال إن ورعه وتقواه لا يسمحان له بإبقاء عبدٍ كُرّس شخصه لتمثيل دور إله، في حالة الرقّ، وأعتق الشاب حالاً.

وكانت تمثيلياته في ديلوس من أشرف وأفخم ما سُجّل من أعمال العبادة. وروي أنه كان يتوقّع في إحدى هذه المناسبات وصول جوقات الترتيل التي بعثت بها المدن للقيام بفرائضها، فكان وصولها على غير موعدٍ وبصورة مفاجئة، واستقبلتها حشود من الناس وهي تنادي وتطالب بالغناء فوراً. فاضطرّ أفراد الجوقات إزاء هذا الإلحاح إلى تغيير ثيابهم ووضع أكاليلهم بعجلة شديدة واضطراب عظيم في نظامهم وهم ينزلون إلى البرّ. وكان المفروض أن تُنقل هذه الجوقات إلى ديلوس فأنزلها نيقياس في رينيا

Bhenea مع القرابين والملحقات والبِطانة، ثم مدّ بينها وبين ديلوس جسراً أعدّه لهذا الغرض وحمله من اثينا، وهو ذو صنعة جيّدة جداً يبهر العين بأناقته وزخرفته وكثرة ألوانه وتذهيبه وأكاليل زهره وأبسطته. وتناسب طوله مع القناة الضيّقة التي تفصل ما بين الموضعين. وأتمّ تركيبه ليلاً، حتى إذا أقبل الصباح خرج في مقدّمة الجوقات الغنائية والمواكب الدينية، وعبر الجسر وسط التراتيل والأدعية. وبعد أن فرغ من التقدمات والألعاب والمآدب قام بنصب نخلةٍ نحاسيّة في المعبد هديةً للربّ، وابتاع قطعة أرض بعشرة آلاف دراخما وأوقفها على المعبد، شريطة أن يصرف الدبلوماسيون ريعها على القرابين والولائم، مع الدعوات بالخير لنيقياس من الآلهة. ونقش هذا كله على عمود رخامي في ديلوس ليكون وثيقةً على اوقافه تلك. وقد قلعت الريح النخلة النحاسية فيما بعد، فسقطت على التماثيل العظيمة التي قدّمها رجال نخسوس ثم تحطمت على الأرض.

لا شك في أن مُعظم ما ذكرناه هو من باطل الأمور، وعبثها، ومجرّد رغبة من فاعلها في كسب التقدير والشعبية. وقد ينصرف ذهن المرء إلى اعتبارها أثراً من آثار التقوى والورع بدليل أخلاقه الأخرى، فقد كان من أولئك الذين يشعرون بمخافة عظيمة من القوى الربّانية. وذكر پاسيفون Pasiphon في «محاوراته» أنه كان يقرّب للآلهة يومياً، وأن لديه في المنزل كاهناً عرّافاً دائمياً قيل إنه كان يستخير له في مستقبل الجمهورية. على أن أغلب كهانته كانت لمصلحة نيقياس الخاصة وشؤون حياته، ولاسيما حول مناجمه العديدة الغنية جداً في لاوريوم Laurium فقد كان يتملّكه الخوف من الاستمرار في الاستخراج منها. وملك عدداً ضخماً من الرقيق، والقسم الرئيس من ثروته هو الفضّة، ولذلك رأينا كثيراً من الطفيليين يحومون حوله ويستجدونه فينالون منه ما يبتغون، لأن عطاءه للقادرين على أذاه لم يكن بأقلّ من عطائه لمن يستحق. وبمختصر القول كان جزعه وخوفه مورداً للأوغاد والسفلة؛ وإنسانيته مورداً للصالحين والطيّبين. وتشهد بذلك مؤلفات كُتّاب الكوميديات، فنجد تيلقليدس Tileclides مثلاً ينوّه به عند كلامه عن أحد الفُتّان المعروفين:

«أعطى [خاريقلس Charicles] باوناً لرجلٍ
مما لا يجمُل أن يذكر عنه؛ هو أنه خرج إلى هذه
الدنيا من بطن كيس نقود.
وأعطاه نيقياس أربعة باونات أيضاً،

وإني أعرف سبب إعطائه معرفة جيدة! . . .

على أن نيقياس رجل ذو حيثيّة ولذلك فلن أقول شيئاً».

ونوّه به يوپوليس في مؤلفه «ماريكاس» Maricas في معرض مهاجمة أحد الدسّاسين لرجل ساذج فقير صالح:

«منذ متى التقيت بنيقياس؟ فأنا الآن لا أراه في الشارع. إن الرجل قد لقيه وهو لاينكر، ومن الواضح أنهما مشتركان في دسيسة. كونوا أيها المواطنون على ثقة بأن نيقياس سيُفتضح أمره وهو متلبّس. وأعدكم بهذا! مُتلبّس أيها الحمقى! ومن الخطأ التوهّم بإمكان فضح رجل بهذه الدرجة من الصلاح، أو وجود رغبةٍ لأحدٍ في ذلك».

وفي مؤلفه الموسوم «أرسطوفانس»، يجعل كليون يتوعّده:

«سأرتفع بصوتي على كل الخطباء وأُسلم نيقياس إلى الذهول».

وأشار فرينيخوس Phrunichus إلى استعداد نفسه الجزوعة وميوعتها للإخافة والإرهاب بالبيتين التاليين:

«كان رجلاً شريفاً وهو ما لا أنكره

مثل نيقياس يسير في الطريق حَبْواً على ركبتيه!»

وكان شديد الحذر من الدسّاسين، متحفظاً غاية التحفّظ من مثيري الفتن، ولذلك تجنّب تناول طعامه مع الناس. ولم يسمح لنفسه بالاسترسال في الحديث، والتبسّط في الكلام مع أصدقائه. وحرم على نفسه أمثال هذه المتع والتسليات. واعتاد في عهد حكمه البقاء في محلّ عمله حتى الليل، وكان أول القادمين إلى مجلس المستشارين وآخر الخارجين منه. ولم تكن مواجهته بالأمر الهيّن ولا مكالمته بالشيء السهل إلاّ في حالة تصريف شؤون الدولة، وإلاّ فإنه يدخل بيته ويُغلق بابه فإذا طرقه أحدهم خرج عليه أحد أصحابه ممن في الدار ووجّه إليه كلاماً حسناً يتضمّن رجاء نيقياس بقبول اعتذاره عن استقبال الطارق لانهماكه في شوؤن الدولة والواجبات العامة التي تحتجزه وتستأثر بوقته. وهيرو Hiero هو الشخص المكلّف عادة بهذه الردود والأعذار، وهو ممن نشأ ورُبّي بين أسرة نيقياس وتلقّى ثقافته في الأدب والموسيقى على يد صاحبه، وكان يدّعي أنه ابن ديونيسيوس الملقّب بـ«خالقوس» Chalcus، الذي ما زالت أشعاره تتناقلها الألسنة إلى يومنا هذا، كما كان يتزعم المهاجرين الإغريقيين الذين نزحوا إلى إيطاليا وأسّسوا مدينة ثوري فيها.

وكان هيرو همزة الوصل بين نيقياس وعرّافه الكاهن ينقل الخصوصيات منه ويعيد

جوابها إليه. وكان مذياعاً بين الناس عن الحياة الحافلة بالكدح والضنك التي يحياها نيقياس في سبيل الجمهورية فيقول مثلاً:

«تعترض سبيل أفكاره أمور الدولة أينما وُجِد؛ أكان في الحمّام أم على مائدة الطعام. يهمل شؤونه الخاصة لحرصه الشديد على المصلحة العامة، ومن النادر أن يأوي إلى فراشه قبل أن يكون النُوّام قد استوفوا هزيعهم الأول، لذلك رقّ جسمه ونَحُل. وأصدقاؤه لايرون منه البشاشة ومظاهر الودّ المألوفة، لذلك كان يخسرهم ويخسر معهم ماله في خدمة الدولة. في حين يكسب الآخرون بخطبهم العامة أصدقاء، ويجمعون ثروات، ويسايرون الخلق ويجعلون الحكم ملهاةً لهم ومُتعة».

هذا القول عن حياة نيقياس لم يتعدّ الواقع ولذلك كان أحقّ الناس وأجدرهم بكلمات أغاممنون القائل:

«نحن نعيش حياة الحكّام ذات العظمة الفارغة.
ونقدّم للجماهير خدمة العبيد الأرِقّاء».

ولاحظ أن جماهير الشعب تستخدم مواهب ذوي المنزلة الرفيعة والفصاحة وقوة العارضة كلّما وجدت إلى ذلك سبيلاً، إلا أنها كانت في الوقت نفسه تحقد عليهم لقابليّاتهم ومواهبهم وتنظر إليهم بحذرٍ وتوجّسٍ مستمرَّين، وتنتهز كل فرصة لإذلالهم وجرح كبريائهم ونحتِ أثْلَتِهم. كما يبدو ذلك واضحاً في إدانتها بيركلس، ونفيها دامون، وريبتها في أنتيفون Antiphon الرّامنوسي Ramnusian، وخصوصاً في مأساة باخيس Paches الذي فتح لسبوس، فبعد أن دافع عن نفسه أمام مجلس القضاء الذي حاكمه، وقدّم حساباً عن مسلكه وأعماله، جرّد سيفه من غِمده وغيّبه في صدره.

كل هذا حمل نيقياس على قبول الاضطلاع بالمشاريع الصعبة، أو الأعمال التي يقتضي لها وقت طويل. فإن تسلّم القيادة العسكرية فإنه لا يُقدم على حركة إلاّ وهي مضمونة النتيجة، فإذا نجح فيها - وغالباً ما يفعل - فلا يعزو نجاحه إلى حنكته أو شجاعته، وإنما يشكر الحظّ على ما حباه، ويعيد الفضل في المجد الذي ناله إلى العناية الإلهية. كل ذلك اجتناباً منه للحسد والغيرة. وأعماله نفسها خير شاهد، ففي عصره نزلت على أثينا عدّة مصائب عظيمة، لم يرد في أي منها ذكر لاسمه بوصفه أحد المسبّبين لها وممّن له ضِلعٌ فيها.

وهزم الخلقيديون الأثينيين في ثراقيا عندما كان كالليداس وكزينفون قائدين عامّين. وكان ديوستينس قائدهم العامّ عندما اندحروا في إيتوليا. وفي دليوم فقدوا ألف مواطن

أثيني في معركة قادها هيبوقريطس. وحُمّل پيركلس أكبر المسؤولية في انتشار الطاعون، لأنه أمر بإغلاق المدينة لأجل الحرب. فانحصرت حشود الناس في الداخل وكثير منهم لجأ إلى المدينة من الريف، فساعدوا على نشر العدوى لتغييرهم محلات سكناهم وسُبل العيش التي اعتادوها. وخرج نيقياس معافى سليماً من كل هذا محقّقاً لوطنه عدداً من المآثر الطيبة، كاستيلائه على كِثِرا Cythera وهي جزيرة ذات موقع ممتاز من الناحية العسكرية ضد اللاقونيين آهلة بالمستعمرين اللقيديميين. واستولى على كثير من المناطق المتمرّدة في تراقيا وحالف عدداً منها. وتمكن من حصر الميغاريين بين أسوار مدينتهم. واستولى على جزيرة مينوا Minoa، وبعدها بقليل زحف منها على نيسيا Nisœa واحتلّها. ثم انحدر إلى الحدود الكورنثية وخاض معركة ناجحة صُرع فيها عددٌ كبير من الكورنثيين وبينهم قائدهم ليكوفرون Luycophron. واتفق أن جُثتين من جثث قتلاهُ نُسيتا في ميدان القتال وأغفل أمرهما عند نقل جثث القتلى. وعندما علم بذلك أوقف سير الأسطول وأرسل منادياً إلى العدوّ للسماح له بنقل الجثتين. أقدم على هذا وهو يعلم أن القاعدة والتقليد يقضيان على الفريق الذي يطلب هدنة لنقل قتلاه، بالتنازل عن كل ادّعاء له بالنصر. ولا يجوز له والحال هذه أن يقيم نُصُباً لأحياء ذكر نصر، لأنّ النصر لسيّد الميدان وليس بسيّد الميدان مَن يطلب السماح بنقل موتاه كأنه يفتقر إلى القوة لأخذها عُنوةً. وهكذا فضّل نيقياس التخلّي عن نصره ومجده لكيلا يدع جثتين من جثث مواطنيه في العراء لا يضمّهما قبر. وراح يصول ويجول على طول سواحل لاقونيا ويوقع الهزائم بكلّ من يتعرّض له من اللقيديميين. واستولى على ثيريا Thyrea التي كان يحتلّها قوم الأيجينيتان Aeginetan وحمل أسراهم إلى أثينا.

ولما قام ديموستينس بتحصين پيلوس Pylos زحف عليها الپلوپونيسيون بقوات بحرية وبرّية ودرات رحى القتال، ثم إنهم تركوا حوالي أربعمائة محارب سپارطيّ على ساحل جزيرة سفاكتيريا Sphacteria. وطمع الأثينيون في أسر هؤلاء، فقد كان أسرهم والحق يقال من أنفس ما يؤمل من الغنائم. إلا أن الحصار صعُب عليهم في المواضع التي شحّت بالماء وعانوا الأمرّين في نقل الضروريات بحراً في وقت الصيف، وكبّدهم كثيراً من النفقات. أما في الشتاء فقد كان محفوفاً بالمخاطر مشكوكاً في نجاحه، أو هو مستحيلٌ عملياً كانت الدلائل تشير إلى شؤم، فبدأ القلق يغزو نفوسهم وندموا على رفضهم سفارة اللقيديميين التي وفدت عليهم للمفاوضة في عقد معاهدة سلم، وأسفوا لقبولهم اقتراح كليون في رفض التفاوض إحراجاً لنيقياس ونكاية به، لأنه كانَ خصماً له من جهةٍ ولرغبة نيقياس في قبول عرض اللقيديميين السلمي من جهة أخرى.

فبعد أن طال أمد الحصار، ووردت الأنباء عن الصعوبات التي يتكبّدها جيشهم، حنقوا على كليون واشتدوا في نقده، فألقى باللوم كله على نيقياس واتهمه بالتخاذل والجبن وبفشله في القضاء على مقاومة المحصورين. وقال:

- لو كنت جنرالاً لما تركتهم يصمدون طويلاً.

وعند ذلك توجّه الأثينيون إليه بالسؤال الطبيعي:

- إن كان الأمر كما تقول فلِمَ لا تقود حملة عسكرية ضدّهم؟

ونهض نيقياس من مجلسه وأعلن تنازله لكليون عن القيادة في بيلوس، وطلب منه أن يأخذ ما يشاء من قوة، ويقوم بخير خدمة للجمهورية. فحاول كليون في مبدأ الأمر أن يسحب قوله وقد علاه الارتباك للجواب الذي باغته به نيقياس من حيث لا يتوقع. إلاّ أن الأثينيين أصرّوا واشتد نيقياس في تأنيبه حتى استفزّه وأشعل نار أطماعه، فقبل على عاتقه المهمة. وأضاف يقول إنه سينجز ما تعهّد به خلال عشرين يوماً من إقلاعه إلى ميدان القتال، فإما سيقضي على العدوّ قضاء تاماً في مكمنه، أو سيأتي بأفراده أحياء إلى أثينا. وكان الأثينيون أكثر استعداداً للضحك من هذا القول منهم إيماناً بجدّية قائله. فقد تعوّدوا الهزل من كليون كثيراً، وكانت مبالغاته وشحطاته الجريئة تطربهم وتلذّ لهم كثيراً. ويذكر من هذا القبيل أن اجتماعاً جماهيرياً عُقد في أثينا وراح المجتمعون ينتظرون مقدم كليون فتأخّر بُرهةً طويلة، ثم دخل عليهم وقد ضفر إكليلاً من الزهر على رأسه ورجا منهم تأجيل الاجتماع إلى اليوم التالي معتذراً بقوله:

- إني لست فارغاً لكم في هذا اليوم فقد قرّبتُ للآلهة، واستضفت بعض الأغراب في بيتي.

فنهض الأثينيون وهم يضحكون وارفضّ الاجتماع.

على أية حال، حالف الحظّ كليون في تلك الحملة فقد قادها بزمالة ديموستينس إلى سبيل النجاح. وجاء إلى أثينا بكل السپارطيين الذين لم يُصرعوا في ميدان القتال أحياءً أسرى في غضون الأيام العشرين التي حدّدها. والحق عاراً كبيراً بنيقياس: الذي ضيّع من يده فرصة مجيدة ومأثرة بطولية، ودفع بها إلى خصومه غنيمةً باردة، فكان عمله أشنع من عمل المحارب الذي يلقي بتُرسه جانباً. لقد تخلّى من تلقاء نفسه عن واجبه جُبناً وفرَقاً. وبعبارة أخرى أعطى صوته ضَدّ نفسه في التخلّي عن قيادته، فارتكب عملاً شائناً مُخزياً لا أكثر منه خِزياً. وقد نظم أرسطوفانس أبياتاً ساخرة بهذه المناسبة في كتابه عن «الطيور»:

الحق يقال - إن الوقت غير مناسب للقول:

إفعل فعل نيقياس، وانسحب إلى مخدعك!

وعرّض به أيضاً في رسالته «عن الفلاحين»:

«إني لأودّ البقاء في بلدي وأزرع أرضي. وماذا بعد؟ ما الذي يمنعك من ذلك؟ أنت يا ابن الوطن؟ لمن سأدفع ألف دراخما، ليدعني أتخلّى عن منصبي وأترك المدينة. قَدْكَ! وكُن قانعاً. فإن نيقياس دفع ألفي دراخما ليتخلّى عن منصبه!».

وإلى جانب العار الذي لحقه فقد كان الضرر الذي سبّبه نزوله عن هذا القدر الكبير من السمعة والسلطة لكليون مما يصعب تقديره. فقد سكر كليون بنصره وراح يختال تيهاً وعُجْباً وتمادى في جُرأته وقلّة حيائه حتى أصبح لا يُحتمل. وأدّى ذلك إلى نتائج سيّئة كثيرة، منها قدرٌ كافٍ سببه هو. فقد حطّم التقليد والأصول المتّبعة في إلقاء الخطب العامة. وكان أول من عمد إلى قطع الاسترسال فيها بالصراخ ونداء التعجّب، وفتح الجُبّة وضرب الفخذين والركض على المنصّة جيئة وذهاباً أثناء الإلقاء. وكل هذه الطوارئ الجديدة كان لها أثرها الفوضوي السيّئ إذ حطت من منازل رجال الدولة وصار يُنظر إليهم باستهانة.

سبق لألكيبياديس أن برز في أثينا شخصيةً قوية وزعيماً شعبياً يُعتدّ به، ليس بأسلوب كليون العنيف الصاخب، بل شبيهاً ببلاد مصر فقد قيل عنها بسبب خصوبة تُربتها:

«إنها تغلّ غلّة عظيمة كثيرة، من الأعشاب التي تنفع في معالجة المرضى والتي يُستخرج منها نقيع السمّ القاتل».

وهكذا كان معدن طبع ألكيبياديس غزيراً كثيراً من المادّتين مما نجم عنه أخطر التعقيد، وكثير من المشاكل. فبعد أن تخلّص نيقياس من كليون أخذ يعمل جاهداً لإصلاح الحال وإيجاد حالة من الاستقرار والدَّعة للمواطنين. حتى إذا أوصل الوضع إلى ما يبشّر بالأمل قام ألكيبياديس بإحباط كل ما سعى إليه، ونقض كل ما بناه وأعاد حالة الغليان والاضطراب من جديد مدفوعاً بأطماعه، وطموحه الشديد إلى المجد. فقذف بكل شيء في أتون حربٍ زَبونٍ لم يخض الأثينيون أسوأ منها. وإليك ما حصل:

وقف كليون وبراسيداس موقف المعارض من السلم وعُدّا الشخصين الرئيسين اللذين حالا دون الاستقرار المنشود. ولا عجب فقد كانت الحرب تطلق قابليات أولهما وتخفي نذالة ثانيهما؛ تمنح الأول ميداناً لإنجاز أعمال بطولية، وتزوّد الثاني بفرص لارتكاب الفضائح والخيانات. فلما صُرع هذان بالقرب من أمفيپوليس، ولمّا كان نيقياس يعرف رغبة السپارطيين في السلم منذ أمدٍ بعيدٍ، ويدرك أن الأثينيين فقدوا كل

ثقة بجدوى الحرب، وأن الفريقين قد استنفدا قواهما في هذا الصراع المرير، وسقطت أذرعتهم منهوكة من فرط الارهاق، لم يجد أنسب من هذا الوقت لبذل جهوده في سبيل إحلال الصداقة بين الدولتين وإنقاذ الدويلات الإغريقية الأخرى من بلاياها وأرزائها. وهذا ما يثبّت دعائم نجاحه السياسي ويرفع من شأن اسمه على مَدّ العصور وتعاقب الزمن. وقد وجد سراة القوم وكبار السّن، وأصحاب الأراضي والمزارعين، يميلون عموماً إلى حياة السلم. أضف إلى هذا أن منطقه وحواره خفّف من غلواء الكثيرين وهدّأ من اندفاعهم إلى الحرب، ولذلك راح ينمّي الرغبة نفسها في اللقيديميين ويحضّهم على النزوع إلى السلم. فوثقوا به لما بدا لهم فيه من نزاهة واعتدال في دعوته، وزاد من جنوحهم إليه العطف الذي أبداه لأسرى پيليوس، والعناية التي شملهم بها طوال إقامتهم في الأسر وتخفيفه وطأة السجن عنهم.

وكان الأثينيون قبل هذا قد عقدوا مع اللقيديميين هُدنة أمدُها سنة واحدة نَعِمَ الطرفان خلالها بالاستقرار وتذوّقوا خلاوة السلم الذي أتاح لهم الاجتماع والمخالطة، ووصل ما انقطع من حبال الودّ ووشائج القربى بين الأصدقاء والمعارف، دون عقبة أو حائل. ولهذا صبا الجميع إلى وضع حَدّ نهائي للنزاع الحربي وسفك الدماء، وأصغوا مستبشرين إلى الأجواق وهي ترتّل أغاني السلام كقولها:

«سأترك رمحي جانباً لينسج العنكبوت عليه خيوطه»

واستذكروا بغبطة وحنين القول الشهير المأثور «في السلم يستيقظ النائمون على صياح الديك لا على نفير البوق». ولذلك أوقروا آذانهم عن تحذير أولئك الذين كانوا يدافعون عن حتميّة الحرب بقولهم: إن الأقدار قضت أن تكون هذه الحرب على ثلاث مراحل، كل مرحلة تدوم تسع سنين، وزادوا في اللوم والتعنيف وانتقاد من يدعو للسلم.

وبعد أن نوقش الموضوع من شتّى جوانبه تّم الإجماع على سياسة السلم فعُقد الصلح، وخُيّل لمعظم أفراد الشعب أنه سيضع نهاية لكلّ مصائبهم. وصار اسم نيقياس على كل شفة ولسان، ووصِف بأنه الرجل الذي آثرته الآلهة بأعظم الحبّ، وأنه لورعه وتقواه اختير لتسمية وتحقيق أعظم النعم وأبدعها. واعتبروا السلم من عمله، كما اعتبروا الحرب من عمل پيركلس فقد أثبتت الوقائع أنه سبّب للإغريق عدّة نكبات قاصمة. في حين أخذ نيقياس بيدهم إلى حياة الهدوء ونسيان الماضي بمصائبه التي تولّى فريقٌ إنزالها بفريق، فعادوا الآن إلى حضيرة الأخوّة والصداقة. ولهذا اشتهر هذا السلم في التاريخ باسم «سِلم نيقياس» وعُرف به إلى يومنا هذا.

وكانت شروط الصلح تقضي بأن يعيد كل فريق الحاميات والحصون والمدن التي استولى عليها من الآخر، وأن يتبادلا أسرى الحرب، على أن يتقرّر البادي بالتسليم على أساس القُرعة. ويحدّثنا ثيوفراستس أن نيقياس ضمن وقوع القرعة على اللقيديميين ليعيدوا ما بأيديهم، عن طريق دفعه مبلغاً من المال، فأبدى الكورنثيون والبويوسيون استنكارهم لما حصل، وارتفعت شكواهم وجأروا بالاتهامات. ونشبت الأحقاد وثارت النفوس حتى بدت الحرب على الأبواب. فأسرع نيقياس يتدارك الأمر مقنعاً مواطنيه الأثينيين وأصدقاءه اللقيديميين بأن يعقدوا معاهدة حلف هجومي دفاعيّ، غير معاهدة السلم الأخرى، توثيقاً لهذه ودعماً لها، ولتكون كلتا المدينتين المتحالفتين قوة «مرهوبة الجانب تفرض السلم على الآخرين الذين لم يكونوا طرفاً، وكذلك لتزداد صلتهما وثوقاً». وفيما كانت هذه الأمور قيد البحث والنظر ظهرت العقبة الكؤود بشخص ألكيبياديس أعدى أعداء الهدوء والاستقرار. أساء إليه اللقديميون بالتفاتهم إلى نيقياس وإجلالهم له في حين تجاهلوه واحتقروه واستصغروا شأنه من الأول إلى الأخير. ولا عجب أن راح يبثّ الدعوة ضدّ السلام. ومع أنه فشل في الماضي وراحت مجهوداته المبذولة عبثاً فقد وجد فرصته الآن في تظلّم الأثينيين من اللقيديميين، وسوء معاملتهم واستغلال صدق نيّتهم بإقامتهم وحدة سياسية مع البويوسيين خارج نطاق حلفهم، وتمسّكهم بمدينة باناكتوم Panactum التي كان يجب إعادتها إلى أثينا بكامل حصونها وأسوارها، مع مدينة أمفيبوليس بمقتضى المعاهدة. وقد خدمته هذه الحجج وعزّزت دعوته بين الناس وأشغلهم بها. ثم إنه طلب من الأرغوسيين أن يبعثوا بوفدٍ إلى بلاده لعقد تحالف وساندهم كثيراً. وفي تلك الاثناء قدِم وفد لقيديمون وهو مزوّد بصلاحيات مطلقة. وبدا للجميع على أثر المقابلة التمهيدية التي تمّت بينه وبين مجلس الشورى أن كل شيء سيتمّ على ما يرام وستوقّع المعاهدة بشروط كانت موضع رضى الجميع. وخشيَ ألكيبياديس أن يلقى الوفد النجاح عينه عند مثوله في الجمعية العامة فيضيع منه كل شيء، فعمد إلى حيلة تُحقق له مآربه واتصل بالوفد مؤكداً لهم حُسن نيّته، ومتعهداً لهم بالمعاونة في مهمّتهم شريطة ألاّ يذكروا أمام الجمعية العامة أنهم مزوّدون بصلاحيات مطلقة، قائلاً إن هذا هو السبيل الوحيدة لنيل ما جاؤوا لأجله. فقنعوا بأقواله وأوقعهم في شَركِه المتقن وأبعدهم عن نيقياس حين نهض وسألهم السؤال المتفق عليه: هل هم مزوّدون بصلاحيات مطلقة لتسوية كل الأمور؟ فأنكروا حسب اتفاقهم معه، وهنا ظهر ألكيبياديس على حقيقته وأسفر عن وجهه الآخر خلافاً لما توقّعوا وللعهد الذي قطعه لهم. دعا المجلس إلى أن يكون على بيّنة من أمره وطلب

من الشعب أن يكون حذراً فلا يضع ثقته ولا يتعامل مع هؤلاء الكاذبين الذين يزعمون شيئاً مرّةً، ليعدلوا عنه إلى نقيضه مرّةً في الموضوع الواحد! وبطبيعة الحال صُعِق الوفد ذو الصلاحية بغدر ألكيبياديس بهم، ولم يكن نيقياس بأقل ذهولاً منهم ولم يدر ماذا يقول وإلى أين يتوجّه. ولم يكن من الجمعية العامة إلاّ أن بعثت في الحال بطلب الأرغوسيين لعقد حلف معهم. وشاءت الصدف أن تحصل هزّة أرضية فارفضّت الجمعية قبل التوصّل إلى قرارٍ نهائي. وفي اليوم التالي اجتمع المواطنون ثانية. وبعد مناقشات وخطب كثيرة تمكن من حمل مواطنيه بعد لأيٍ على تأجيل عقد الحلف مع الأرغوسيين، وصوّتوا على إرساله مبعوثاً إلى اللقيديميين. فسافر وهو على ثقة بأن الأمور ستسير على ما يرام.

واستُقبل عند وصوله سپارطا استقبالاً طيّباً. ورحّبوا به كما يرحّبون بواحدٍ منهم. على أنه لم يحقق شيئاً. وخيّب مساعيه الحزب الذي كان يمالئ البويوسيين ويحبّذ الحلف معهم. فعاد إلى وطنه كاسف البال، مجلّلاً بالعار، وسقط اسمه من أفواه الناس وامتلأت نفسه خوفاً من الأثينيين الذين سخطوا عليه وراحوا يسلقونه بألسُن حدادٍ قائلين إنه جعلهم يتنازلون عن كذا وكذا من الأسرى الذين جيء بهم من پيلوس، وكلهم ينتمون إلى أعرق الأُسر السپارطية ولهم علاقات صداقة وقرابة بأعيان الدولة هناك وذوي السلطان. ولولا هذه الحملة النكراء التي هبّت عليه من فورة العاطفة الشعبية لما كان لألكيبياديس أيّ أمل في انتخابه جنرالاً، ولما عُقد الحلف مع الأرغوسيين، ثم مع المانتينيين والإليائيين الذي فسخوا حلفهم مع اللقيديميين وانضمّوا إلى الحلف الأثيني - الأرغوسي. وجرّد هذا الحلف حملة من المغامرين القراصنة على لاقونيا ليحدثوا ما يمكنهم من التخريب والغارات، وهكذا عادت رحى الحرب تدور من جديد.

وراحت العداوة بين نيقياس وألكيبياديس تتعاظم وتشتد. وكان الوضع قد أصبح مهيّئاً لإصدار قرار بالنفي أو ما يُسمّى بالابعاد دون محاكمة حيث يدعى الشعب في وقت مخصوص ليثبت على قحف من الآجُرّ اسم المشتبه به أو بثروته. ولذلك استولى الخوف على العدوّين المتنافسين. فعلى أغلب الاحتمال كان الإبعاد سينزل بأحدهما. وبما أن الشعب كان ينفر من حياة ألكيبياديس ويتخوّف من اندفاعاته وجسارته، كما بيّنا تفصيلاً في سيرة حياته، في حين كانت ثروة نيقياس تثير حسدهم، وأخذوا عليه أسلوب حياته الشاذّ ولاسيما انعزاليّته وانفراده بأحوال معيّنة لا تشبه ما اعتاده المواطنون، ولا سائر البشر. وحنقوا عليه لوقوفه معارضاً رغباتهم عدّة مرّات، وإرغامهم على عمل ما لا يتفق وأهواءهم وإن كان فيه فائدة لهم، فكرهوه لكلّ ذلك.

وكان الأمر بجوهره، وبعبارة مختصرة، صراعاً بين الشباب التائقين إلى خوض غمرات الحرب وكبار السنّ ومحبّي السلم والاستقرار. ولذلك وقف الأولون ضد نيقياس، ووقفت البقية ضد ألكيبياديس في قضية النفي. ولكن. . .

«في الصراع السياسيّ ترى الأنذال يبلغون الشهرة».

فلمّا انشعبت المدينة إلى حزبين متناحرين انفسح المجال الواسع لأحطّ الناس وأسوأهم خُلقاً وأشدّهم استهتاراً. وخير مثال لهؤلاء هيپروبولوس من آل پيريثودي Perithoedoe وهو شخص لم يجترئ على أية سلطة، وإنّما ارتفع إلى السلطة بالجرأة والصفاقة، وبإكرام حَبَنْهُ به المدينة، ليصبح فضيحتها الشائنة. كان هيپروبولوس يرى نفسه آنذاك أبعد الناس عن التعرّض للنفي، فهو وأمثاله أصلح لمشنقة العبيد، ولذلك طفق يحسب حساب المستقبل على ضوء صدور قرار النفي بحق أحد المرشحين له. وقدّر أن الباقي منهما لن يكون عقبة كبيرة أمامه، وسيسهل عليه مناجزته. ولذلك لم يكتم فرحه بالانقسام السياسيّ، ولم يقتصد من جهده في إثارة الناس ضدّهما على السواء. وما إن انتبه نيقياس وألكيبياديس إلى سوء تدبيره حتى تألّبا عليه بكلّ ما يملكان من وسائل للإيقاع به في الفخ ووحّدا عملهما سِرّاً، ونجحا في الخلاص من النفي وحصره بهيپروبولوس. فكان والحق يقال نكتةً أثارت ضحك الجمهور في مبدئها ثم ما لبثوا أن تبيّنوا عنصر الإهانة فيها. إذ كان من العار أن تُمتهمن هذه العقوبة الخطيرة بتطبيقها على إنسان وضيع مثله؛ ولا غرو فللعقوبة وقارها وهيبتها، و«النفي دون محاكمة» تأديبٌ إنما وُجِد لعظماء الناس من أمثال ثوكيديدس وأريستيدس، فهي إذن لأمثال هيپروبولوس شرفٌ وتكريم لا عقوبة وتأديب، فتحت له باب الفخر والتباهي لأنه ذاق جزاء نذالته كما ذاق خير الرجال. وما أحسن قول الشاعر الهزلي أفلاطون في ذلك:

«من ينكر أن الرجل يستحق هذا المصير؟
حقاً! ولكن المصير لا يستحق هذا الرجل.
وليس لأمثاله من العبيد الذين وُسِموا بميسم الرقّ
وضعت أثينا قِحفَ الآجُرّ في أيدينا!»

إن هذه العقوبة في الواقع لم تُفرض على أحدٍ بعد أن فرضت على هيپروبولوس وبهذا كان خاتمة المنفيين بدون محاكمة. أمّا الأول فهو هيپارخوس الخولارجي Cholargia الذي كان من أقرباء الطاغية.

ليس في الإمكان إصدار حُكم ثابت على مصائر البشر ونحن مهما قلّبنا وجوه

الرأي وأعملنا الفكر لا يمكن الوصول إلى نتيجة أكيدة، وليس لنا إلاّ أن نحدس ونضرب الأخماس للأسداس.

وفي مسألة نيقياس، قد نتساءل لو أنه سار في نزاعه مع ألكيبياديس إلى نهاية الشوط مخاطراً بحرّيته، فلا يخلو الأمر من حالتين إمّا أن ينجح بإبعاد منافسه عن المدينة وبذلك يضمن بقاءه آمناً مطمئناً، وإمّا أن يتغلّب خصمه فينفيه، وهنا يكون نيقياس قد خلص من نكبات هائلة كانت مدّخرة له، وحافظ على سُمعة القائد المحنّك والإداري الذي لا يرقى إليه أحد. ولا يفوتني هنا أن أورد ما ذكره ثيوفراستوس بأن الخصم الذي وقف في وجه ألكيبياديس وناصبه العداء بعد نفي هيپروبولوس لم يكن نيقياس بل فاياكس، على أن معظم الكتّاب يخالفونه في هذا.

اقترح وفدا الايجستان والليوتينيين على الأثينيين عند وصولهم تجريد حملة عسكرية على صقلية. فهبّ نيقياس يعارض الفكرة ويخطّئ ألكيبياديس الذي كان متحمّساً لها. إلاّ أن أطماع هذا الأخير ومساعيه الكبرى التي بذلها لاجتذاب الجمهور غلبت نيقياس. فقد تمكن من حرف آراء الجمهور وإفسادها بالخطب والمُنى قبل أن يُعقد الاجتماع العام. وأصبحت لتجدَ الشبّان في ملاعبهم والرجال في محلات أعمالهم، والناس المتسكّعين جلوساً على مقاعدهم، يرسمون الخرائط لصقلية ويعملون مخططات للبحار والموانئ، والسواحل وتضاريسها، ويثبتون موقعها من أفريقيا ويصرّحون بأن هذه الجزيرة لن تكون خاتمة مطافهم ونهاية حربهم بل نقطة انطلاقهم وفاتحة أعمالهم العسكرية التوسعية وقاعدة امتداد إلى القرطاجنيين والاستيلاء على أفريقيا والبحار حتى «أعمدة هرقل». وهكذا اندفع الناس بحمّى الحرب ولم يجد نيقياس المعارض إلاّ قلّة من مناصرين لا نفوذ لهم كثيراً، فالأغنياء سكتوا على مضضٍ لئلا يوصموا بالبخل وعدم الرغبة في المساهمة بالنفقة العامة وأثمان السفن، وتظاهروا بالرضا مُخفين ميولهم الحقيقية. ومع ذلك كلّه لم يتسرّب اليأس إلى قلب نيقياس وظل يدافع عن وجهة نظره حتى بعد إعلان الأثينيين الحرب وتعيينه مع ألكيبياديس ولاماخوس قائداً للحملة. ولمّا عُقد الاجتماع العام ثانية نهض يحتج على القرار المتخذ ويحاول أن يثنيهم عن عزمهم بوضعه اللوم على ألكيبياديس واتهامه بالدعوة إلى عملٍ عسكري يورّط الدولة في مغامرة خارجية تحفّ بها الأخطار والمصاعب، لا يدفعه إلى ذلك غير طموح فيه وكسب شخصيّ له. إلاّ أن كلامه لقي آذاناً صمّاء ولم يُجدِ نفعاً.

كان الأثينيون يتوسّمون في تجارب نيقياس وخبرته كلَّ خيرٍ ووجدوا أن حذره مع

شجاعة ألكيبياديس وطيبة لاماخوس تؤلف خير ثالوث للقيادة وتضمن سلامة الحملة. ولهذا نصّبوه لتولّي القيادة، إلاّ أنه ظلّ معارضاً في الحرب. ونهض ديموستينس، وهو من الزعماء الشعبيين الذين أيّدوا الحملة وبشّروا بها ودعوا لها، قائلاً إنه سيُسكِت فم نيقياس ويقفل عليه باب الاعتذارات والتعِلاّت، ثم وضع في التصويت اقتراحاً يقضي بمنح الجنرالات سلطة مطلقة داخل الوطن وخارجه ليكونوا أحراراً في اتخاذ ما يرونه من إجراءات وإصدار ما يرونه مناسباً من الأوامر، فقُبل اقتراحه هذا.

ومع هذا كله فقد قيل لنا إن الكهنة عارضوا في الحملة بكلّ قواهم. ولكن ألكيبياديس كان لديه كهنته العرّافون الذين أعلنوا مستندين إلى بعض النبوءات القديمة: «إن الأثينيين سيصيبون شهرة عظيمة في صقلية». كما رجع رُسله من معبد «جوپتر آمون» بنبوءة تقول: «إن الأثينيين سيأخذون السيراقوسيين كافةً!». أمّا أولئك الذين تبيّنوا دلائل شؤم فقد أخفوا ما عرفوه عن الناس لئلا يُتهموا بالتكهّن بالسوء. ولم تردعهم عمّا اعتزموه الإشارات الجلِيّة الواضحة. ومنها حادثة تماثيل هرمي التي شاهت وجوهها في ليلة واحدة إلاّ تمثالاً واحداً يطلق عليه هرميس الأندوكيديسي الذي أقامته قبيلة أبجيوس، والمنصوب مقابل منزل أندوكيدس مباشرة. ومنها ما ارتُكِب من إثم على مذبح الآلهة الاثني عشر، فقد قفز شخص من مكانه فجأة ودار على نفسه ثم ضرب نفسه بحجر. ومنها أنه كان يوجد في دلفي صورة من الذهب للربّة منيرڤا قائمة على نخلةٍ من النّحاس، عملها الأثينيون من غنائم الميديّن وأهدوها إلى الربّة. تجمّع على هذه الصورة سِربٌ من الغربان وظلّ يحوّم حولها أياماً. وراحت أسرابها تنقر في الثمار الذهبيّة التي كانت معلّقة في أغصان النخلة حتى فصلتها وأسقطتها؛ على أن الأثينيين كذّبوا هذه القصة وقالوا إنها من مُبتدَعات الدلفيّين ونَسْج خيالهم، بعد أن رشاهم رجال سيراقوسة بالمال. وطلبت إحدى النبوءات منهم أن يستقدموا من كلازوميني Clazomenæ كاهنة مينرڤا ولـمّا أُحضرت وجدوا أنها تدعى هسيكيا Hesychia ومعناه «الهادئة»، ففسّروا ذلك بأن المشيئة الإلهية تنصح المدينة بالهدوء. ولا ندري والحالة هذه هل أن ميتون Meton المنجم خاف هذه النبوءات أم أنه شكّ في نجاح الحملة لسببٍ طبيعي لا يتعلق بالآلهة (كان قد عُيّن في احدى قياداتها)، ولهذا أظهر الجنون وأحرق منزله. وقال آخرون إنه لم يتصنّع الجنون وإنما أشعل النار في منزله ليلاً بكامل بصيرته، وفي الصباح حضر إلى الجمعيّة العامة وعليه مظاهر الأسى الشديد ورجا من الشعب أن يُعفى ابنه من الخدمة العسكرية ويبقيه في الوطن بسبب النكبة التي حلّت به. وكان هذا الابن على وشك الرحيل إلى صقلية برتبة قبطان

لإحدى السفن. وأمّا الجنيّ الملازم لسقراط الفيلسوف فقد أعلم صاحبه بالطريقة التي يناجيه بها أن الحملة ستؤدّي إلى دمار الجمهورية. فأبلغ سقراط أصدقاءه وتلاميذه بذلك، فنقلوا قوله إلى طائفة من الجمهور. وسرى القلق في النفوس لأن موعد إقلاع الأسطول وافق الأيام التي كانت تُحيا خلالها ذكرى موت أدونيس. وراحت تظهر للعيان في كل مكان صور للموتى وهم يُشيَّعون بالحداد والعويل وبالنساء المشيّعات يضربن صدورهن. واشتدّ قلق من يقيمون لهذه الظواهر وزناً، وخافوا لئلا يكون مصير كل هذه الاستعدادت الحربيّة الضخمة الزوال والدمار في وقت قصير وبصورة مفاجئة قبل أن تحقق شيئاً.

أثبت نيقياس أنه رجل فاضلٌ صُلب الرأي بمعارضته الإجماع العامّ على الحملة، ولم تُثنه عن رأيه لا الآمال العراض، ولا الشرف الرفيع الذي أُسبغ عليه بتسليمه القيادة العليا. ولما لم تُفلح مجهوداته في حرف الشعب عن الحرب، ولا اعتذاره عن عدم قبول القيادة (بلغ من إصرار الشعب على تكليفه بها أنهم حملوه قسراً ووضعوه في مقر القيادة خلافاً لرغبته)، وجد أن الظرف لم يعد يتسع لتردّده وحذره المأثورين، وأنه لا يجمُل به أن يكون كالطفل الذي يتلفّت إلى الوراء والسفينة تبتعد به وهو يظلّ يبدي ويعيد شاكياً إهمال نصيحته وكيف أنها لم ترفض رفضاً منطقياً، أو تُدحض بمناقشات سديدة، وإنما بسوء التقدير وبدافع العاطفة، فيكون بشكواه هذه عاملاً في خفض معنويات زملائه القوّاد، وفلّ غُراب إقدامهم، وإفساد حماسة الرجال إلى القتال. وكان من شأن تقديراته الصائبة هذه أن تحتّم عليه التعجيل في الانقضاض على العدوّ، وإنهاء المسألة بوضع مصير الحملة في كفّ الحظّ، عن طريق خوض معركة حاسمة. إلا أن ما جرى فعلاً كان خلاف هذا. فعندما أشار لاماخوس بالتوجّه رأساً إلى سيراقوسة بحراً والاشتباك بالعدوّ حالاً تحت أسوار المدينة، ولمّا نصح ألكيبياديس بضمان صداقة المدن الأخرى أولاً ثم الهجوم على سيراقوسة، جوبها بمعارضة نيقياس الذي أصرّ على أن يظلّ الأسطول جائلاً بهدوء حول الجزيرة بقصد استعراض قوّته الحربية ثم بعد إنزاله نجدات صغيرة من الرجال للإيغستينيين يعود إلى أثينا. فدبّ الخور في نفوس الرجال وهبطت معنوياتهم إلى الحضيض. وبعد ذلك بفترةٍ من الزمن طلب من ألكيبياديس العودة لحضور محاكمته في أثينا فأصبح هو الجنرال الوحيد وإن كان الآخر زميلاً له فبالاسم فقط. وواصل تسكّعه وتجواله وتقليب وجوه الرأي دون الإرساء على قرار حتى قضى على آمال الرجال! لعُقم وتبدّد الرعب والهلع الذي خلقه في نفوس العدوّ عند أول اقتراب قوّاته ولم يعد فيها ذرّة من خوفٍ.

كان ألكيبياديس قد خرج قبل رحيله بعمارة تتألف من ستين سفينة قاصداً سيراقوسة. خمسون منها انتظمت بصفٍ واحدٍ خارج الميناء بينما تقدّمت العشر الباقية للاستكشاف ونادى المنادي من ظهر إحداهما طالباً من المواطنين الليونتيين العودة إلى بلدهم. وبعد قليل أسرت هذه السفن الكشافة غاليوناً من سفن العدوّ، وعند تفتيشه عثروا على ألواح من الآجُرّ نُقش عليها اسم كل رجال سيراقوسة مرتّبةً حسبَ قبائلهم. وكانت هذه السفينة تقصد المدينة قادمة من معبد جوبتر أولمبيوس، حاملة هذه الألواح التي تمّ جلبها للتدقيق واستخراج أسماء الشبان اللائقين للخدمة العسكرية لغرض تجنيدهم فحملها الأثينيون إلى ضباطهم فظهرت فيها حشود كبيرة من الأسماء كما بيّنا. وتشاءم منها الكهنة ولم يجدوا لها تفسيراً موافقاً، وخافوا أن يكون الاستيلاء على هذه الأسماء هو النجاح الوحيد المقدّر للحملة، تحقيقاً للنبوءة القائلة: «إن الأثينيين سيأخذون السيراقوسيين».

على أن هناك من يقول إن هذه الحادثة وقعت للأثينيين في عصر غير ذلك العصر، ويربطونها بحادثة قتل ديون بيد كالليبوس الأثيني، واستيلائه على مقاليد الحكم في سيراقوسة.

وآلت القيادة كلها إلى نيقياس بعد رحيل ألكيبياديس كما أسلفنا. والواقع هو أن لاماخوس الزميل الثاني كان من الشجعان المعدودين، ومن الرجال الذين اشتهروا بالنزاهة والاستقامة، لا يتردد في خوض غمرات القتال بنفسه غير هيّابٍ ولا وجِل. إلاّ أنه كان مُعدماً لا يملك شروى نقير حتى اعتاد كلّما عُيّن جنرالاً أن يثبت في حساب مصروفاته من الأموال العامة مبلغاً زهيداً من المال بثمن ثيابه وحذائه. وبخلافه كان نيقياس ثرياً ذا منزلة سامية، دعك من سجاياه الأخرى. ولذلك كان الاهتمام العامّ منصباً عليه. وفي هذا الصدد يُروى أن مجلس القادة كان مجتمعاً مرةً للمشاورة في الشؤون العامة، فطلب نيقياس من الشاعر سوفوكليس أن يكون البادئ بالإدلاء برأيه لأنه أقدم أعضاء المجلس فأجاب قائلاً:

- إني أكبر الأعضاء سنّاً، ولكنك أقدمهم.

وكان الأمر كذلك مع لاماخوس فهو أفهم منه في الأمور العسكرية، وأقدر على الضرب والطعان، إلاّ أنه كان في الواقع مجرّد تابع مرؤوس لا يحلّ ولا يربط. أما نيقياس فقد ظلّ متمادياً في التأجيل، واجتناب المغامرة، ولم يفسح المجال لعمل قواته بدورانه الدائم حول الجزيرة بعيداً عن نطاق الخطر. وهكذا أعاد إلى العدوّ الثقة في نفسه. ولم يكتف بهذا بل جعل نفسه موضع هزء واحتقار عندما هاجر حصن هبلا

Hybla الصغير وانسحب عنه قبل الاستيلاء عليه. وأخيراً عاد إلى كاتانا Catana دون أن يحقق شيئاً خلا تخريبه هيكارا Hyccara وهي بُليدة يسكنها البرابرة، ذكرت عنها الرواية أنها موطن لاياس Lais العاهرة الشهيرة التي كانت قد بيعت وهي صبيّة ضمن مَن بيع من أسراها ثم حُملت معهم إلى البلوبونيس. وبانقضاء الصيف وردت أنباء لنيقياس عن ارتفاع معنويات السيراقوسيين وعودة الثقة التامة إلى نفوسهم مما قد يدفعهم إلى المبادأة بالقتال. وبالفعل كثُرت مناوشاتهم وتحرّشاتهم حتى وصلت أبواب معسكره نفسه. وكان المهاجمون السيراقوسيون يسخرون بجنوده ويعيّرونهم قائلين: هل جاؤوا للسكنى في الجزيرة مع الكاتانيين، أم لإعادة الليونتينيين إلى مدينتهم؟!

أخيراً وبعد كثير من الإحجام والتردد قرر نيقياس أن يُقلع بالأسطول إلى سيراقوسة وأراد أن يختار لمعسكره موضعاً مأموناً لايطاله العدوّ فجاء بأحد الأشخاص وأمره أن يخرج من كاتانا قاصداً السيراقوسيين، ويُعلمهم بأن في إمكانهم الاستيلاء على معسكر الأثينيين هناك وأن يغنموا سلاحهم إذا ما هجموا على كاتانا بكلّ قوّاتهم لأنها دون حماية. وقال لهم إن معظم الأثينيين الموجودين في المدينة هم أصدقاء لهم وقد اتفقوا فيما بينهم على أن يحتلوا أبواب المدينة حالما تلوح لهم طلائع القوات السيراقوسية، وأن يشعلوا النار في رصيف الميناء. وأكدّ لهم أن المؤامرة واسعة تضمّ عدداً كبيراً من الأهلين، وهم لا ينتظرون إلاّ قدومهم.

كان هذا أفضل ما عمله نيقياس طوال قيادته الحملة فقد تمكن بهذه الحيلة من إخراج كل قوّات العدوّ من سيراقوسة وأخلاها من المحاربين. وانطلق هو من كاتانا بكلّ قواته ودخل الميناء بكل اطمئنان واختار موضعاً مناسباً لمعسكره لا ينال منه العدوّ بوسائله ومعدّاته التي يتفوّقون بها عليه، في حين كان يأمل بوسائله ومعدّاته الخاصة مواصلة الحرب دون عائق أو نكسة.

وما إن عاد السيراقوسيون من كاتانا وانتظموا بصفّ المعركة أمام أبواب المدينة حتى حمل عليهم وهزمهم إلاّ أنه لم يصبهم بخسارة تُذكر لأن خيّالتهم عاقته عن المطاردة. وخطّته في كسر الجسور وقطعها زوّدت هِرموقريطس Herocrates أثناء تشجيعه السيراقوسيين بفرصة القول إن نيقياس غبيّ سخيف لأن كل هدفه كما يبدو هو تحاشي القتال، كأنّ القتال ليس الغرض الذي جاء لأجله! ومع هذا كله فإن نجاحه أقلق السيراقوسيين وأفزعهم واضطرهم إلى إضافة ثلاثة جنرالات إلى مجلس القيادة الذي كان يتألف من خمسة عشر جنرالاً، وإلى تزويد هذا المجلس بسلطة مطلقة بعد أداء القسم.

وكان معبد جوبتر أولمبيوس قريباً من معسكر الأثينيين فتاقوا إلى الاستيلاء عليه والانتفاع بكنوزه الثمينة من الفضة والذهب والتحف الأخرى الموقوفة عليه، إلاّ أن نيقياس ردّهم عن قصدهم تاركاً الفرصة تفلت من يده ومُفسِحاً للسيراقوسيين سبيل الدخول إليه واحتلاله. وكان مدفوعاً إلى ذلك بخوفه من أن يقتسم جنوده كنوز المعبد كما يقتسمون الغنائم مما لا يفيد المصلحة العامة في شيء، فضلاً عن ارتكاب إثم ديني باعتدائهم على ذخائر مقدسة.

كذلك لم يستثمر نيقياس نصره أبداً مع أن أخباره اشتهرت وذاعت في كل مكان، وإنما أقلع إلى ناكسوس بعدها بأيام قليلة، ليقضي فيها شتاءه منفقاً على إعاشة جيشه الكبير مبالغ طائلة. واستولى عليه ما يشبه السُّبات هناك فلم تبدر منه حركة، إلاّ اضطراره إلى عملية قمع بسيطة ضد المواطنين الصقليين الذين تحرّشوا به. وعادت معنويات السيراقوسيين إلى الارتفاع ثانيةً وشنّوا غارات متواصلة على كاتانا وعاثوا في أنحائها فساداً وأشعلوا النار في معسكر الأثينيين. فارتفعت الأصوات ملقيةً كل اللوم عليه لأنه لم يستغلّ الزمن الصالح للقتال وترك الفرصة تضيع من يده، بطول التأمّل وتقليب وجوه الرأي، والإفراط في الحذر والتردد.

عندما يحين دور الجدّ والعمل يكون الرجل فوق كل انتقادٍ، فهو في وقت الأزمات فعّال نشيط لا عيب فيه. ومنقصتُه تبدو عند اتخاذ القرار فهو كثير التردد والتذبذب لا يستقر على حال. ولما عاد بالجيش إلى سيراقوسة بلغت تدابيره وسرعته حدّاً من الدقة عظيماً بحيث لم يعرف أحد بقدومه إلاّ بعد أن رست سُفنه على الساحل في ثاپسوس Thapsus ونزل رجاله إلى البرّ، ولم يستفق العدو من غفلته إلا وجيش الأثينيين منقضّ على مدينة إيپيولي Epipolæ بحركة مباغتة هزم بها نخبة من المقاتلين أُرسلت للدفاع عنها، وأستولى على ثلاثمائة أسير، وهزم خيّالة العدوّ التي اشتهرت بمناعتها وصعوبة دحرها. إلاّ أن أكثر ما أدهش السيراقوسيين أصلاً وبدا خارقاً للعادة عند الإغريق هو قيامه في فترة وجيزة ببناء الجدار الحاجز حول سيراقوسة المدينة التي لا تقلّ سعة عن أثينا، في حين امتازت بارضها الوعرة المتعادية، وبقربها من البحر وبوجود المستنقعات حولها. مع هذا كله أحاطها بجدار دائري رجل سقيم البدن لا تسمح له عِلّته بالإشراف على هذا العمل الجبّار وإن كان ثمّ ما يوجب الانتقاد في هذا العمل فهو الحجر الذي استُخدم لبنائه إذ إنه كان السبب في بقاء الجدار ناقصاً، وليس مصمّمه وصانعه. وإني والحق يقال معجب بدأب هذا الجنرال، وبشجاعة الجنود فيما توصّلوا اليه.

بعد أن حَلّت النكبة بهم كتب يوربيديس في رثائهم وتعداد مآثرهم قال:

«استظهروا على السيراقوسيين بثمانية انتصارات

لما كانت الآلهة واقفة على الحياد بينهما»

والواقع أنها كانت أكثر من ثمانية انتصارات بكثير، حازوها تباعاً حتى تخلّت عنهم الآلهة وتدخّل القدر لإيقاف مسيرة أثينا نحو العظمة والسؤدد، وتلك هي حقيقة ثابتة لا مراء فيها.

ولم يغب نيقياس عن معظم المعارك، ولم يُقعده مرضه وما تكبّد جسمه من عناءٍ. ولكن العِلّة اشتدت عليه مرّة وألقته انتكاسةٌ طريحَ فراشه في المعسكر وليس معه إلاّ بضعة أنفار من الخدم يقومون على العناية به. فناب عنه لاماخوس في القيادة وخرج لقتال السيراقوسيين أثناء مدّهم جداراً عرضانياً ثانياً يقطع جدار الأثينيين ويُحبط مسعاهم في تطويق المدينة الكامل. وبعد أن دارت الدائرة على السيراقوسيين أخذ المنتصرون يطاردون المنهزمين بحالة من الفوضى والتفكك والاستعجال، وانفرد لاماخوس مع ثلّةٍ عن رجاله وجابه خيّالة العدوّ التي أطبقت عليه من حيث لا يحتسب. وكان يتقدمها قليقريطس Calicrates وهو بطل صنديد خبير بفنون القتال، فتحدّى لاماخوس في مبارزة فردية، فلم يتحرّج هذا عن نزاله والتحما وكان أول من أصيب، إلاّ أنه كال لخصمه طعنة نجلاء مماثلة فوراً فسقط كلاهما ميّتين، فأخذ السيراقوسيون سلاحه وجثته وأسرعوا بهما إلى جدار الأثينيين حيث مقرّ نيقياس وهو على فراش مرضه ليس معه جندي واحد. وما إن أدرك القضية حتى ترك فراشه وطلب من الخدم أن يسرعوا بإشعال النار في كلّ الأخشاب والأدوات والمعدّات المستعملة في بناء الجدار التي كانت مكدّسة هناك. ولو لم يقدم على هذا لما أمكنه من ردّ السيراقوسيين على أعقابهم. وبهذا سلِمت حياته وسلِم الجدار وكل أموال الحملة. لقد خاف السيراقوسيون تلك النار العظيمة التي تتأجج في وسطهم قرب الجدار فتراجعوا حالاً.

وبات نيقياس جنرال الحملة الوحيد، وكانت الدلائل تشير إلى أن كثيراً من الأمور الحسنة سيتمّ على يده. فقد بعثت إليه مدن الجزيرة تعرض التحالف، وجاءته سفن عديدة من كل مكان وهي موقرة بالقمح. وعندما يؤاتي المرء الحظ تجد كل شخص يسعى إلى التقرّب منه والتودّد إليه، ولذلك وردته مقترحات للاستسلام من بعض السيراقوسيين الذين فقدوا أملهم في إمكان الدفاع عن المدينة. حتى أن غيليپوس Gylippus الذي كان في طريقه إلى الجزيرة من لقيديمون على رأس نجدة عسكرية للسيراقوسيين أُبلغ أثناء رحلته بخبر بناء الجدار حول المدينة وبيأس المحصورين.

فحكم حالاً بأن صقلية ضائعة لا محالة وذكر أنه لا يمضي في سيره لنجدتهم وإنما لمساعدة الإيطاليين على حماية مدنهم إن أمكن. فقد انتشرت الأنباء المتواترة لتؤكد أن الأثينيين مستظهرون ولا شيء يقف الآن في وجههم وأن لديهم جنرالاً لا يُغلب حظّه ولا تُنافسُ عبقريته.

وأظهر نيقياس بعد هذا كثيراً من الإقدام وهو في أوج نجاحه خلافاً لما طُبع عليه، ولاسيما عندما وردته أنباء سرّية عن السيراقوسيين تشرح ما يعانونه، حتى بات يعتقد أن استسلام المدينة أمر مفروغ منه وما هي إلاّ أيام معدودة حتى يفاوضوه على شروط التسليم. لذلك لم يبد منه أيّ اهتمام بدنوّه ولم يتخذ أي إجراء لمراقبة حركاته. ونزل غيليپوس البرّ بقارب طويل دون علم نيقياس، واختار لإنزال قواته أبعد ما يمكن من سيراقوسة وتمكن بإهمال نيقياس واستهانته من تحشيد قوة كبيرة خلاف ما أتى به. ولم يكن السيراقوسيون أكثر علماً بقدومه من نيقياس، ولم يتوقعوا مجيئه. ولذلك عقدوا في المدينة اجتماعاً عاماً تداولوا فيه حول شروط التسليم التي سيفاوضون نيقياس بشأنها، وأسرع بعضهم إليه وكل اعتقادهم أن التعجيل بإبلاغه النبأ سيحمله على إيقاف العمل بالجدار وإكمال تطويق المدينة، إذ لم يعد منه إلاّ جانب قليل كانت مواد بنائه قد هُيّئت وجُلبت إلى الموقع.

وفي هذه الفترة الحرجة والخطر الماثل وصل من كورنث گونگيلوس Gongylus قادماً على ظهر غاليون (بارجة) فاجتمع حوله السيراقوسيون يتسقّطون منه الأنباء، فأبلغهم بأن غيليپوس يسرع إليهم وأن سفناً أخرى قادمة لنجدتهم. وقيل إنهم لم يصدّقوه، حتى جاءهم بريدٌ سريعٌ من غيليپوس يطلب منهم الخروج للقائه فارتفعت معنوياتهم واشتدت عزماتهم واحتقبوا أسلحتهم. ثم سار غيليپوس إلى الأثينيين حتى بلغ معسكرهم ونظّم صفوفه للمعركة. كذلك أخرج نيقياس رجاله للقتال، ولما اقترب وبات على مرأى من الأثينيين أخرج من صفوفه منادياً بهم ليعرض شروطه، وهي أنه لن يتعرّض لهم بسوءٍ إذا آثروا الانسحاب من صقلية. فلم يرد نيقياس بأي جواب إلاّ أن جنوده راحوا يتساءلون ساخرين متضاحكين: أبعباءة خشنة وعُكّاز لاقوني ترتفع آمال السيراقوسيين وتلتمع، ولا يعودون يحسبون للأثينيين أيّ حساب وهم عين الذين قادوا ثلاثمائة أسير سپارطي مكبّلين بالسلاسل ليس فيهم أدنى قدراً من غيليپوس ولا أصغر منزلة، ولا أقصر شعراً! ويذكر طيماؤوس أيضاً أن غيليپوس لم يحظ بأي تقدير من السيراقوسيين أنفسهم ولم يكترثوا به وراحوا يهزأون بعكازه وشعره الطويل أول ما وقع نظرهم عليه. ثم إنهم وجدوا أنفسهم هلى حقٍ في انتقاصه لما أظهر بعدئذ من حقارة

وحطة وطمع. ويضيف هذا الكاتب قائلاً: إن ظهور غيليپوس أحدث في مبدأ الأمر رغبة في الخدمة العسكرية فتقاطر إليه الرجال مثلما يحصل عند ظهور غراب في الجوّ. وهذا هو أصحّ القولين لأنهم وجدوا في العكاز والعباءة شعار سپارطا وسلطانها وعلى هذا الأساس تجمّعوا حوله. ولم يكن ثوكيديدس الوحيد بين الكتّاب في تأكيده أن المجهود كان مجهود غيليپوس وحده. فقد أيّده فيلستوس وهو مواطن سيراقوسي وشاهد عيان لتلكم الأحداث.

على أن كِفّة الأثينيين رجحت في أول اشتباك وقتلوا فئة من السيراقوسيين، فيهم گونگيلوس الكورنثي الذي أوردنا خبره. إلاّ أن غيليپوس أثبت في اليوم التالي كفاءة القائد المحنّك ذي الخبرة والتجارب. فقد هزم الأثينيين بلجوئه إلى خطة جديدة مستخدماً قواته وخيّالته دون زيادة ودون تغيير في مواقع المعركة فانهزم الأثينيون واحتموا بمعسكرهم. وجمع غيليپوس السيراقوسيين وأطلقهم في إكمال بناء جدارهم العرضاني بالموادّ الإنشائية والحجارة التي أمّنها الأثينيون لجدارهم فقطعوه قطعاً وكسروا خط سيره الدائري وأحبطوا كل نوايا أعدائهم، الذين أُسقط في يدهم تماماً حتى لو ضمِنوا النصر في ميدان القتال. واشتدت عزائم السيراقوسيين بعد هذا فبادروا إلى غاليوناتهم وركبوها وجرّدوا خيّالتهم وأتباعهم من حولهم وانقضّوا على الأثينيين فأسروا عدداً لا يُستهان به منهم. وطفق غيليپوس يطوف المدن ليُغري أهلها بالانضمام إليه فلم يردّوا طلبه وبذلوا له كل مساعدة.

هذه التطورات أرغمت نيقياس على العودة إلى طبعه الأول. وتسرّب إلى نفسه اليأس من الحملة فكتب إلى أولى الأمر في أثينا يخيّرهم بين إرسال جيش جديد أو أن يسحبوا جيشهم المرابط في صقلية. وهو في كلتا الحالتين مصرّ على إعفائه من القيادة لاشتداد وطأة المرض عليه. وكان الأثينيون قبل ذلك قد اتخذوا قراراً بإرسال جيش جديد، إلاّ أن الحسد من نيقياس ومن انتصاراته ومحالفته الحظ له في مبدأ الأمر أدّت كلّها إلى تأخير إرساله. على أن النكسات الأخيرة قضت على التردّد وكان ثمّ إجماع بوجوب إرسال التعزيزات. ومهّدوا للأمر بأن بعثوا يوريميدون Eurymedon مزوّداً بالمال فوصل في منتصف الشتاء ليعلن عن انتخاب كل من يوثيديموس Euthydemus وميناندر Menander وهما من ضباط الحملة المرابطة تحت إمرة نيقياس قائدين مزاملين له. وكان من المقرر أن تصل النجدة بقيادة ديموستينس في الربيع. وفي تلك الاثناء فوجئ نيقياس بهجوم جريء من البر والبحر. وساءت أحواله في البحر أوّلاً، لكنه أفلح في طرد أسطول العدوّ المهاجم وإغراق عدد كبير من غاليوناته. إلاّ أنه لم

يستطع تأمين قطعات كافية في البرّ لحماية پليميريوم Plemmyrium فلم تصمد لهجوم مباغت قام به غيليپوس واستولى عليها عنوة ووضع يده على مخازن الأسطول، وعلى مبلغ كبير من المال كان نيقياس قد أودعه هناك، وقتل عدد كبيراً من الأثينيين وأخذ مثلهم أسرى. على أن أهمّ نصر لغيليپوس كان قطعه خطّ تموين الحملة، الذي أمّنه نيقياس ووقاه من كل خطر بحيازته قاعدة پليميريوم، والآن وبعد خروجها من يده بات تموينه في غاية الصعوبة معرَّضاً باستمرار لهجوم العدوّ الذي كان يترصّده بسفنه المراقبة تحت حصن المدينة مباشرة. زد على ذلك أن السيراقوسيين أدركوا الآن أسطولهم لم يُهزم بفعل الخصم وتفوّقه عليهم وإنما بسبب الفوضى التي سادتهم أثناء مطاردتهم إيّاه. فراحت الأيدي تعمل متكاتفة لمحاولة بحرية جديدة قد يكون نصيبها من النجاح أكثر من سابقتها.

وكان نيقياس يتطيّر من أيّ قتال بحري ويُروغ منه وقال لرجاله إن الحماقة بعينها أن يُقدموا على الاشتباك مع العدوّ بعدد ضئيل من السفن السيئة الاستعداد، وديموستينس قادم إليهم بأسطول ضخم وقوات جديدة يتوقع وصولها في أية لحظةٍ.

ولكن ميناندر ويوثيديموس القائدين الجديدين كانا يتحرّقان رغبةً في افتتاح منصبيهما بنصر مؤثّل قبل وصول ديموستينس ليثبتا تفوّقهما، تدفعهما عاطفة غلاّبة إلى المجد والشهرة. فعارضا رأي نيقياس بقولهما إن شرف المدينة - على حَدّ تعبيرهما - سيلطّخ ويمرّغ في الوحل ولن تقوم له قائمة إن هم رفضوا تحدّي السيراقوسيين للقتال. وبهذا أرغما نيقياس على خوض معركة خاسرة وهُزموا هزيمة شنعاء وفقدوا كثيراً من الرجال. وكان الفضل في نصر السيراقوسيين يعود إلى استراتيجية القائد البحري أرسطون الكورنثي التي وصفها ثوكيديدس في رسالته «عشاء الرجال». وهذا أسلم نيقياس إلى حزن عميق إذ بعد أن عانى ما عانى من وجوده قائداً وحيداً للحملة يجد الآن نفسه في مأزقٍ أنكى بفعل زميليه.

وفي تلك الآثناء لاحت طلائع أسطول ديموستينس خارج الميناء فطارت نفس العدوّ شعاعاً وتناهبته الهواجس، فقد تألّفت الحملة الجديدة من ثلاثة وسبعين غاليوناً وخمسة آلاف مقاتل كاملي العُدّة وما لا يقل عن ثلاثة آلاف من النبّالة والرمّاحة وقاذفي المجانيق. وكان منظرهم مهيباً بلمعان دروعهم وخفق أعلامهم ونافخي الناي وضاربي الدمام لتوقيت التجذيف مما خارت له عزائم العدوّ وعاد القلق العظيم يتملّكه بطبيعة الحال. وإن المرء لا يسعه إلاّ أن يستنتج أنهم باتوا لا يتبيّنون لهم مخرجاً وأن الاعتقاد العام كان أن تضحياتهم لا تُجدي ومجهوداتهم لا تُغني.

ولم يطل فرح نيقياس بالحملة الجديدة. فقد جوبه في أول اجتماع له مع ديموستينس برغبة هذا في اشتباك فوري وباتخاذ أسرع ما يمكن من الاستعداد للاستيلاء على سيراقوسة فإن لم يتقرر ذلك فالعودة إلى الوطن خير لهم وأجدى. تهيّب نيقياس جسارته وتهوّره وذُهِل لها، فأخذ يرجوه ألاّ يُقدم على عملٍ ينطوي على التسرّع والاندفاع، فإنّ في التأخر دماراً للعدوّ الذي نضبت موارده ولم يعد لديه مال لمواصلة الحرب، وإن الوقت لن يطول بحلفائهم حتى ينفضّوا من حولهم. ومتى ما أرغمتهم الحاجة سيجدهم آتين إليه سعياً وراء الصلح كما فعلوا قبلاً. والحقيقة هي أنه كان بين السيراقوسيين من يراسله سِرّاً ويلحّ عليه بالبقاء لأن الشعب في المدينة قد أنهكته الحرب ولم يعد له قِبَلٌ بالصبر على استمرارها، كما ضاق بغيليپوس ذرعاً وصعب عليهم احتماله، وإن أقلّ ضنك يهدد عيشهم وحاجتهم سيحملهم على النزول عن كل شيء.

أجل، كان نيقياس ينظر إلى الاقتراح نظرةً قاتمة. ولما لم يكن يرغب في التصريح عمّا بنفسه فقد جعل زملاءه يتصوّرون أن الجبن هو الذي يدفعه إلى هذه الأقوال، فعلّقوا قائلين إن القصّة تتكرر ثانية؛ التردد والإحجام وإعمال الفكر وكل ما كان عاملاً في ضياع فرصة الهجوم الفوري على العدوّ، مما أدّى إلى أن تبدو قوة أثينا الحربية أثراً من آثار الماضي. فلا تعود تثير في النفوس أي مهابة أو خوفٍ. ولذلك أخذوا برأي ديموستينس وأرغموا نيقياس بعد جهدٍ كبير على الموافقة. فتسلّم ديموستينس قيادة القوات البرّية وقام بهجوم ليلي على إيپپولي فجندل عدداً من رجال العدوّ قبل أن يحسّوا بوجوده. أما من انتبه إليه وصمد في وجهه فقد اندحر. ولم يقنع ديموستينس بهذا الانتصار واندفع إلى أمام حتى التقى بالبويوسيين فهجموا على المنتصرين في المقدمة وهم يصيحون صيحة عظيمة واشتبكوا رمحاً لرمح. فوقعت مقتلة كبيرة من الأثينيين في الميدان وسرعان ما سرت موجة رعبٍ واضطراب إلى الوحدات المنتصرة من الوحدات المقهورة ووقع النازلون من السفن على رفاقهم الهاربين يحسبونهم عدوّاً مطارداً واعتركوا فيما بينهم؛ ووقع بعضهم على بعض وعمّت الفوضى واختلط حابلهم بنابلهم وأعجزهم الخوف والحيرة عن التأكد من هويّات ما يعنّ لهم من أشخاصٍ لأن الليل لم يكن حالكاً، ولا فيه نور ثابت كافٍ. فقد كان القمر يسير إلى الأفول فينشر ضوءه القاتم ظلالاً على الأسلحة والأجسام المتحركة إلى أمام وخلف ويرسل ومضات ضعيفة لا يُرى فيها الشيء واضحاً فيتوهّم المرء بالصديق عدوّاً، ويعميه الخوف عن التثبّت. وهكذا اختلط الأمر على الأثينيين وارتبكوا تماماً وقنِطوا. ومما زاد في الطين

بِلّة أن القمر كان وراء أظهُرهم فكانت ظلالهم تقع عليهم فتخفي عن الناظر عددهم وتطمس على بريق سلاحهم ودروعهم. في حين كان انعكاس أشعّته على دروع العدوّ يظهرهم أكثر عدداً وأحسن عُدّة مما هم في الواقع. ثم اشتد الضغط عليهم من كل جهةٍ فتراجعوا، وما إن بدأوا في التراجع حتى تحوّلوا إلى الهزيمة وكان في ذلك دمارهم فأباد العدوّ قسماً منهم وهلك قسم بعِثاره وسقوطه على الصخور. أما من تفرّق في أرجاء الميدان، فقد طلعت عليهم الخيّالة صباح اليوم التالي وراحت تتلقّطهم وتذبحهم ذبحاً. وبلغ عدد القتلى ألفين ولم ينجُ بسلاحه إلاّ فئة ضئيلة.

ولام نيقياس زميله ديموستينس واتّهمه بأنه مسبّب هذه الفاجعة التي لم يستبعد وقوعها مطلقاً. وبعد أن اعتذر عنه لما مضى منه، أشار بالانسحاب العام من الجزيرة بأسرع ما يمكن لأنهم لا ينتظرون مقدم تعزيزات أخرى، وليس في الإمكان التغلّب على العدوّ بالقوات الحالية، وعلى فرض المستحيل بأن قواتهم المرابطة ما تزال قادرة على تحقيق سلامتها من العدوّ، فإن الظروف الآنية تملي عليهم أن يتخلّوا عن التشبّث بموقع «مريض» فيه خطورة كبيرة على أي جيش، فضلاً عن كونه لايلائم صحة الجنود فهم الآن في أوّل الخريف، والمرض قد تفشّى في المعسكر وكثير من الجنود طريحو الفراش وكلهم يائسون قانطون.

كانت فكرة الهزيمة والعودة إلى الوطن تورث نيقياس آلاماً شديدة، وإذا كان يخشى السراقوسيين فهو أكثر خوفاً من الأثينيين أنفسهم من اتهامهم ومن الحكم والعقاب. وعقّب مستدركاً أنه لا يخاف أن يلحقه ضرّ هناك، وإن لم يكن من ذلك بدّ فهو يفضّل الموت بيد العدوّ على الموت بيد مواطني مدينته. وهو في هذا على غير رأي «ليو» البيزنطي الذي قال لبني قومه:

«أفضّل الموت بيدكم على الموت معكم».

واستحسن أن تتمّ المداولة في اختيار المكان والجهة التي سينقلون إليها معسكرهم على مهلهم. ولم يعترض عليه ديموستينس بعد أن ثبت فساد رأيه فيما أقدم عليه. وراح الظنّ بفريقٍ أن نيقياس له أسبابه في الأمل وفي توقّع الفرج، وأنه يعتمد على بعض التأكيدات من أهالي المدينة فيحمله على المعارضة في الانسحاب. ولذلك سكتوا وعملوا برأيه. على أن السيراقوسيين بدأت تردهم تعزيزات جديدة من الجنود، وازداد المرض تفشّياً في معسكره، فعدل عن البقاء ووافق على الانسحاب وأمر الجنود بالتأهّب لركوب السفن.

ولم ينتبه العدوّ لهم حتى أكملوا الاستعداد لأنه لم يتوقع ذلك منهم. وفي الليلة التي قرّرت موعداً للحركة حصل خسوف ارتعب له نيقياس وخافه جنوده خوفاً عظيماً وطاش صوابهم منه لقلّة تجاربهم وتمسّكهم بالخُرافات والأوهام.

لقد بات الناس حتى البسطاء منهم يعلمون اليوم أن ظاهرة عتمة الشمس في نهاية الشهر إنما هي من تأثير القمر. أمّا في موضوع خسوف القمر فكان يصعب عليهم التعليل، كيف يتم ذلك؟ كيف يفقد القمر المضيء نوره فجأة ويخرج منه أثناء ذلك ألوان مختلفة؟ فيتخذون منه دليل شؤم، وإشارة سماوية إلى نكبات ومصائب شداد. وكان أناكساغوراس أوّل الكتّاب وأوضحهم بياناً في شرحه كيفية استمداد القمر نوره، والعِلّة في اختفائه وكانت آراؤه واستنتاجاته في هذا الصدد قليلة الانتشار بين الناس، تُكتَم وكأنها من الأسرار المقصورة على نفر قليل ويتمّ تداولها بمنتهى الحذر والتكتّم، حتى إلى عهدٍ قريب. ولم يكن الناس آنذاك يتسامحون في أمر الفلاسفة الطبيعيين أو النظريين كما سمّوهم ولا يطيقون منهم تعاليلهم التي أسلفناها، لأنها تقلّل من شأن القوى السماوية، وتنتقص من فعاليتها في اللامعقولات والقوى اللامحسوسة التي تعمل بالضرورة من دون تدخّل العناية الإلهية أو إرادة البشر الحرّة. ولهذا نُفي پروطاغوراس Protagoras وألقي أناكساغوراس في السجن وصعُب على پيركلس إطلاق سراحه. ومع أن سقراط لم يهتم قط بهذا الفرع من العلم فقد قُضيَ عليه بالموت لتعاطيه بالفلسفة. ولم تُمحَ وَصمة العار التي أُلصقت بهذه الأفكار والنظريات إلاّ عندما اشتهر أفلاطون ولمع كوكب حياته بإخضاعه الضرورات الطبيعية إلى مبادئ إلهية أجلّ وأسمى، فأرسى قواعد هذه العلوم وجعل لها مقاماً بين الناس. ولذلك لم يفزع ديون صديقه من الخسوف الذي حدث ساعة إقلاعه بحملته العسكرية على ديونيسيوس، من ميناء زاكيتوس Zacythus، وإنما مضى قُدماً ونزل سيراقوسة وأخرج منها الطاغية.

وفي ذلك الحين لم يكن عند نيقياس عرّاف ماهر، فمستشاره تيليبيدس Tilibides الذي لازمه طويلاً، واستخدمه لتقويم كثير من الأوهام التي كانت تخالجه، لم يمض على وفاته الكثير، ومن الناحية الأخرى فمن رأي فيلوخورس أن خسوف القمر لا يقوم نذيرَ شؤم بالنسبة إلى الأشخاص الذين صَحّ عزمهم على الفرار، وإنما هو بالعكس طالع يُمنٍ وبشير توفيق. لأن الأمور التي يُقدم عليها البشر وهم في حالة خوف تتّسم بالتخفي. والنور هو عدوّ التخفّي. وليس بالشيء الاعتياديّ أن تُلاحَظ إشارات في الشمس أو القمر لأكثر من ثلاثة أيام متوالية، على حدّ ما ذكره أوتوقليدس في «تعليقاته». ومهما يكن فقد أقنعهم نيقياس بانتظار دورة قمرية كاملة أو يكون البدر

التالي موعد الانسحاب، كأنه لم يرَ القمر بعد خروجه من دائرة الخسوف منيراً تامّاً، وتخلّص من حجب الأرض له عن نور الشمس!

وبدأ نيقياس في تلك الأيام وكأنه خالي البال مما يدعو إلى الاهتمام بانصرافه انصرافاً تاماً إلى قرابينه إلى أن داهمه العدوّ بكل قوّاته المحشودة فحاصر القلاع والمعسكر بمشاته، وطوّق الميناء بقوسٍ من سفنه. وشارك في هذا الحصار البحري كل صبيان المدينة وأحداثها فقد ركبوا زوارق صيدهم وتقدّموا من الأثينيين بها يتحدّونهم ويشتمونهم ويهينونهم. ومن بين هؤلاء الفتى هراقليدس الذي تقدّم عن رفاقه مسافة بعيده فتعقّبته سفينة أثينية وكادت تدركه، فانطلق في أثره عمّه پولليخوس حمايةً له، وبهذا نشبت معركة في منتهى الشدة والعنف انتصر بها السيراقوسيون، وقُتل فيها يورميدون مع كثير من الأثينيين. وبعدها لم يصبروا على البقاء وأطلقت حناجرهم صيحة واحدة في وجوه ضباطهم وآمريهم بطلب العودة إلى الوطن براً لأن السيراقوسيين عجّلوا بعد انتصارهم في إغلاق مدخل الميناء ووضع الموانع منه. ورفض نيقياس فكرة الانسحاب براً لأن ذلك سيرغمه على تركه عدداً كبيراً من سفن النقل والبوارج الحربية يقارب المائتين وليس ثمّ بعد هذا من عارٍ وشَنار. فأصعد إلى السفن خيرة مشاته ومعظم رمّاحته القادرين على القتال فملأوا مائة وعشرة غاليونات. أما السفن الباقية فكان يُعوِزها المجاذيف. ووزع بقيّة الجيش على طول الساحل، متخلّياً عن المعسكر الرئيس والاستحكامات المجاورة لمعبد هرقل. فأسرع السيراقوسيون إليه كهنةً وضبّاطاً لتقديم القرابين المعتادة التي حُرِموا من تقديمها زمناً طويلاً، ثم أوسقوا سفنهم وتنبّأ العرّافون من إشارات الذبائح بالنصر والمجد للسيراقوسيين على ألاّ يكونوا البادئين بالحرب، بل أن يبقوا ملتزمين خطة الدفاع لأن هرقل لم يغلب كل خصومه إلاّ بالدفاع عن نفسه. فانطلق السيراقوسيون بعزم وثقة جديدين. وكانت معركتهم التالية أشدّ وأعنف معركة بحرية خاضوها على الإطلاق. أثارت حماسة المتفرّجين واهتمامهم أكثر من المشاركين فيها فقد كانوا قادرين على مشاهدة كل مراحل المعركة بتقلّباتها الفجائية وتبدّل حظوظها ومفاجآتها غير المتوقعة السريعة. وكانت خسارة الأثينيين من سوء استخدام أسلحتهم ومعدّاتهم لا تقلّ عن الخسارة التي أوقعها بهم عدوّهم. فقد جابهوا سفناً خفيفة سريعة الحركة رشيقة قادرة على الهجوم من كلّ ناحية في حين كانت سفنهم الثقيلة أصلاً موقرةً بالحمل بطيئة الحركة وكانوا معرّضين لوابل من الحجارة يمطرهم بها العدوّ من كل مكان دون وزن أو اعتبارٍ لشيء، ولم يكن لديهم ما يردّون به عليهم غير الحِراب والنبال التي يصعب

توجيهها إلى أهدافها المنشورة بسبب حركة الماء فيطيش معظمها ولا تبلغ قصدها. هذا الأسلوب في الحرب تعلّمه السيراقوسيون من القبطان الكورنثي أرسطون الذي خرّ صريعاً في هذه المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال وفي اللحظة التي تبيّن فيها النصر للسيراقوسيين.

بعد إصابة الأثينيين بخسارة بالغة في السفن وفي الرجال، بات طريق الفرار البحري متعذّراً. وكان انسحابهم براً محفوفاً بأشدّ الأخطار. وشلّت الحيرة فكرهم فلم يحاولوا منع العدوّ من سحب سفنهم وراءه تحت سمعهم وبصرهم. ولم يحاولوا طلب هدنة لدفن قتلاهم، فقد بدا أن ترك الجثث بلا دفن أهون وأجدى من ترك مرضاهم وجرحاهم والانسحاب بدونهم. على أن أشقى الفئتين - لو علموا - هم أولئك الذين كانوا سيكابدون كثيراً من الآلام ليصلوا إلى النهاية عينها.

وتهيّأوا للانسحاب في تلك الليلة. وأدرك غيليپوس وأصدقاؤه نيّتهم إلاّ أنه وجد السيراقوسيين منشغلين في قرابينهم وكأنهم بمناسبة يوم النصر الذي كان يوم عيد أيضاً. فأُسقط في يده ولم يُفلح في إثارة اهتمامهم بقتال الأثينيين لا بالحثّ ولا بالرجاء. على أن هرموقريطس لجأ إلى حيلة من اختراعه للإيقاع بنيقياس بمبادرة خاصة منه. فبعث بفئة من رفاقه إليه ليزعموا له أنهم موفدون من أولئك الذين يحرصون على الصلة السرّية التي كانت بينهم، وأن صنائعه هؤلاء ينصحونه بألاّ يخرج في تلك الليلة لأن السيراقوسيين بثوا الأرصاد ووضعوا الكمائن والموانع في المسالك. فابتلع نيقياس الطُّعم وانطلت عليه الحيلة ولم يبرح معسكره. ولم يطل به الأمر حتى واجه ما كان يخشى وقوعه لمّا خيّل إليه أن الفرص كلها ضاعت عليه، فقد سبقه السيراقوسيون إلى احتلال المنعطفات والشِّعب والمضائق في الصباح الباكر. وكسروا الجسور وبثوا خيّالتهم في السهول والأراضي المكشوفة، ولم يبقوا جزءاً من المنطقة يمكن أن يتسلل منه الأثينيون دون قتال إلا مسكوه. وظل الأثينيون طوال ذلك اليوم الثالث كأنهم لا يتركون بلاد عدوّهم بل بلادهم. خرجوا وهم باكون نادبون والألم يعتصر قلوبهم لاضطرارهم إلى ترك أصدقائهم ورفاقهم الذين أعجزهم مرضهم وسوء حالهم عن السير معهم ولم يكن عندهم القوت الضروري الذي يقيهم الجوع. إلاّ أنهم كانوا يدركون على كل حالٍ أن ما يعانونه الآن لا يُقاس بما ينتظرهم من مصائب. وكان نيقياس أبعث صورة للرثاء من الصور الأليمة والمناظر المحزنة التي حفل بها المعسكر قبيل الرحيل. فقد بدا بهيئة تستدرّ منتهى الشفقة وهو يرزح تحت وطأة المرضى، وقد نحُل جسمه ورقّ عظمه لحاجته إلى الجدار الأدنى من مقوّمات التغذية، في حين كان وضعه

الصحّي يتطلّب غذاءً أكثر من المعتاد. وكان يغالب العِلّة ويعمل ويتحمّل من الأعباء ما ينوء به كثير من الأصحّاء. وليس من شك في أن الجهد الذي يبذله لم يكن لنفسه ولا بدافع الحرص على حياته، وإنما لتشبّثه بالأمل تشبُّث الغريق وبدافع الاهتمام بمن هم تحت إمرته. وانتشر البكاء والصراخ بين الجنود حزناً أو خوفاً. أمّا هو فإن غالبته العاطفة حيناً وأبكته فإنما كان يبكي قهراً لتفكيره بعار الحملة الراهن؛ وبما كان يتوقّع لها من مجدٍ وصيتٍ. واقترن منظر شخصه المحزن بتذكر الجنود محاولاته الصادقة في حمل الأثينيين على صرف النظر عن الحملة ومعارضته الشديدة لها، الأمر الذي زاد من شعور الإشفاق عليه؛ وعدم استحقاقه الآلام التي يعانيها الآن.

لم يكن للجنود أيّ أمل في التوجّه بمصائرهم إلى الآلهة، بعد أن شاهدوا بأمّ أعينهم كيف تخلّت عن نُصرة قائدهم الورع البالغ التُّقى الذي لم يألُ جهداً في إظهار إجلاله لها بعبادتها ودوام التقريب لها وغير ذلك من أعمال البرّ، فلا يجد الآن من الحظوة عندها أكثر مما يجده أحط وأحقر جندي في جيشه.

وكان نيقياس خلال هذه الفترة العصيبة يجاهد بصوته وتحمّله وأساريره ليبدو بمظهر المستقوي على نكبته، الصامد لسوء طالعه. لقد ظلّ ثمانية أيام بلياليها وهو عُرضة لسهام العدوّ وحِرابه غير مُبالٍ بجراحه، محافظاً على تكتّل قوّاته ونظامها الذي لم تتسرّب إليه الفوضى إلاّ بعد أسر ديموستينس. فقد كان هذا يقود كتيبة في اشتباك مع العدوّ مما جعله يتخلّف عن بقية الرتل، ولم ير نفسه وأصحابه إلاّ وهم مطوّقون بالقرب من منزل ريفي يملكه پوليزيلوس. ولمّا أيقن بالمصير انتضى سيفه وطعن نفسه يريد القضاء على حياته فأحدث جرحاً لا غير، وأسرع إليه السيراقوسيون وقبضوا عليه ثم انصرفوا بغنيمتهم. ولما علم نيقياس أرسل رعيلاً من الخيّالة لاستكشاف الموقف فعاد إليه مؤكداً اندحار كتيبة ديموستينس وأسره، فبعث يستعطف غيليپوس في هدنة للخروج في صقلية مبدياً موافقته على إبقاء رهائن عنده لضمان دفع المبالغ التي أنفقها السيراقوسيون على حربهم.

إلاّ أن السيراقوسيين لم يعودوا الآن مستعدين لمنحه شروط الصلح التي عرضوها عليه قبلاً وإنما راحوا يهدّدون الأثينيين بالويل ويتوعّدونهم بسوء المصير، ويمطرونهم بالسُّباب والإهانات. وأخذوا يصبّون عليهم مقذوفهم من السلاح بكلّ حنق وغيظٍ. ونضبت موارد الأثينيين تماماً. ولكن نيقياس لم يتوقف وواصل السُّرى آناء الليل دون أن ينال منه العدوّ مأرباً. وفي اليوم التالي شق طريقه تحت وابل من حرابهم ومقذوفاتهم حتى بلغ نهر أسيناروس Asinarus فاعترضتهم قوات العدوّ ودفعت بهم

إلى المجرى. وآثر بعضهم الموت في سبيل إرواء عطشه فألقوا بأنفسهم في الماء فانقضّ عليهم العدوّ وهم يشربون وصرعهم. ثم بدأت أفظع مقتلةٍ وأقساها في الأثينيين. وحاول نيقياس إيقافها فأسرع إلى غيليپوس وألقى بنفسه أمامه وقال مسترحماً:

- دع إلى نصرك سبيلاً للرحمة، يا غيليپوس، لهؤلاء الأثينيين لا لنفسي التي حكم عليها القدر أن تبلغ بالمجد الذي نلته فيما مضى إلى هذه الخاتمة الأليمة. وأنت تعلم حق العلم أن فرص الحرب مشاعة وأن الأثينيين كانوا دائماً معتدلين في استغلال تلك الفرص وقد أظهروا لكم خصوصاً كل تسامح ولطف في أيام عزّهم وجبروتهم.

فلان قلب غيليپوس بهذا القول وبمنظر نيقياس الأليم وأدركه الأسف. فقد كان يعلم أن نيقياس بذل أطيب المساعي للّقيديميين في قضية المفاوضات حول المعاهدة الأخيرة. كما كان يقدّر الشرف والشهرة العريضة التي سينالها بأخذه القادة العامين الأثينيين أحياءً. فأخذ بيد نيقياس وأنهضه باحترام وأخذ يهوّن عليه ويطيّب خاطره وأصدر أمراً لرجاله برفع سيوفهم عن رقاب الأثينيين إلاّ أن أمره لم ينقل بسرعة ولذلك زاد القتلى عدداً عن الأسرى بكثير. ونجا كثير من الأثينيين بجهود الجنود الخاصة إذ هرّبوهم من البلاد سِرّاً. وجُمع الأسرى معاً وعُلّقت أسلحتهم وأسلابهم على باسقات الشجر بامتداد النهر. ودخل المنتصرون مدينتهم وقد ضفروا أكاليل الزهر على رؤوسهم وخيولهم مزدانة بأجمل الحُلل والزينة. يرون وراءهم خيول العدوّ مقصوصة الأعراف والأذناب، ولا بدعَ فقد نالوا أعظم وأكمل نصر، في أروع صراع دار بين إغريق وإغريقٍ فيه بلغوا من الشجاعة وشدّة المراس ما ليس بعده زيادة لمستزيد.

وعقدت الجمعية العامة في سيراقوسة اجتماعاً جماهيرياً حضره مندوبون عن حلفائهم. وافتتح يورقليس Eurycles أحد الزعماء الشعبيين الجلسة باقتراح اعتبار اليوم الذي أُسِر فيه نيقياس يوم عطلة من الآن وعلى مَرّ الزمن، تحيي ذكراه بنحر الأضاحي، والامتناع عن مزاولة الأعمال الاعتيادية، وأن يطلق عليه اسم «العيد الأسيناري» نسبة إلى النهر الذي دارت على ضفافه المعركة وكان يوافق السادس والعشرين من شهر كارنيوس Carneus وهو ميتاجيتنيون Metagitnion عند الأثينيين. واقترح أن يُباع بيع الرقيق خدّام الأثينيين وأتباعهم وحلفاؤهم الذين وقعوا أسرى، وأن يحتفظوا بالمحاربين واحتياطيّهم من الصقليين لاستخدامهم في أعمال المقالع، باستثناء من كان برتبة قائد، واقترح أن يُقضى بحكم الموت على هؤلاء. فوافقت الجمعية على اقتراحه. وعندما اعترض هرموقريطس بقوله إن حُسن استغلال النصر خير من الحصول عليه قابله

السيراقوسيون بكلمات نابية فظة، وهم ثملون بحظهم، السعيد. والواقع أنهم كانوا في أثناء الحرب يتضايقون جداً من مسلكه الفظّ وتعاليه اللقيديموني؛ زد على هذا أنهم - على ما يحدثنا به طيماؤوس - قد كشفوا في طباعه لؤماً وخِسّةً وجشعاً؛ ولعل هذه الرذائل انحدرت إليه من أبيه كليانديدس Cleandrides الذي حُكم عليه بجريمة الرشوة ونُفي من البلاد. ومما يجدر بالذكر أن غيليپوس هو عين ذلك الشخص الذي أرسله ليساندر إلى سپارطا حاملاً ألف تالنت لإيداعها الخزانة العامة، فاختلس منها ثلاثين، وأخفاها تحت آجُرّ في منزله، فافتُضح أمره وهرب من البلاد مشيّعاً بالخِزي. وقد أتينا إلى تفصيل ذلك في سيرة حياة ليساندر. ويقول طيماؤوس إن نيقياس وديموستينس لم تُختتم حياتاهما بالشكل الذي وصفه كل من توكيديدس وفيليستوس، أي على أثر قرار بقتلهما أصدره السيراقوسيون. ولكنهما تُركا ليضعا حدّاً لحياتيهما بمساعدة بعض الحرس القائم على حفظهما وإغضائهم عنهما على أثر رسالةٍ بعث بها إليهما هرموقريطس خلال انعقاد جلسة الجمعية العمومية للبتّ في مصيرهما.

ونُقلت جثتاهما إلى باب السور وألقيتا هناك ليشهدهما الجمهور. وقد طرق سمعي أن مجنّاً مُحلّى بالنقوش وبرصائع متعاشقة من الذهب والأرجوان ذا صنعة لطيفة بديعة موجود إلى يومنا هذا في أحد معابد سيراقوسة، يقال إنه لنيقياس. وهلك معظم الأثينيين الذين سيقوا للعمل في المقالع من سوء التغذية والأسقام. إذ لم يكن يُعطى لهم أكثر من كيلة نصف لترٍ من الشعير، وربع لترٍ من الماء يومياً. وهرب عدد كبير منهم سرّاً وبيع بعضهم عبيداً على أساس كونهم من خدم المعسكر، وقد وسِمت جباهم بصورة حصان، وجرى هذا لبعض الأثينيين المحاربين زيادة على العبودية. على أن حسن سلوكهم ورجاحة عقولهم أكسبهم احترام أسيادهم فضنّوا بهم وأبقوهم معهم. ونجا عدد بفضل أشعار يورپيدس التي كانت تحظى على ما يبدو بمنزلة سامية في قلوب الصقليين ولا تضاهيها فيه أية مستعمرة إغريقية خارج بلاد اليونان. ولم يكن لسرورهم حدّ عندما يقعون على مسافرٍ يحفظ شيئاً من قصائد هذا الشاعر فيبادرون إلى سماعها من فيه بكلّ لذة واستمتاع. وقيل إن كثيراً من الأسرى الذين عادوا إلى أثينا سالمين قصدوا منزل يورپيدس حال وصولهم ليقدّموا شكرهم له وليرووا له كيف أن بعضهم نال حرّيته وأُعتق لأنهم علّموا ما تذكروا من أشعاره للمعجبين. وظفر الهاربون من المعركة الضاربون في القفار بما يقيهم الجوع من اللحم والشراب لإنشادهم بعض قصائده الغنائية. ولا تعجب لهذا، إذ روي أن سفينة لكاونوس Caunus هربت إلى ميناء من موانيهم اطّلاباً للحماية فطاردها القرصان ومنعت من دخول الميناء وطلب منها

العودة إلى البحر. وفي أثناء ذلك سأل أحد رجال الميناء ملاّحيها إن كانوا يحفظون شيئاً من أشعار يوربيدس فلمّا أجابوا بالإيجاب سُمح لهم ولسفينتهم بدخول الميناء.

قيل إن الأثينيين لم يصدّقوا بما حدث وكذّبوا آذانهم، وسمعوا بنكبة جيشهم تلك عندما نقل أول خبر عنها واحد من الأغراب دخل ميناء پيروس وجلس في دكّان حلاّق وبدأ يتحدث عمّا جرى في صقلية كأن السامعين على علم سابق بالحقيقة. وما إن وعى الحلاق أقواله حتى أسرع يعدو بأقصى ما تسمح به ساقاه في شوارع المدينة قبل أن يعرف أحد بالنبأ وقابل الأراخنة وأنهى إليهم بالنبأ. ثم وقف في الساحة العامة وأعلن الحقيقة للناس، مما أدّى بطبيعة الحال إلى فزع عام وألم عميق في كل مكان. ودعا الأراخنة إلى عقد اجتماع عام، وأُحضر الرجل الغريب صاحب النبأ واستُجوب عن مصدر معلوماته، ولما لم يقدّم لهم جواباً مُرضياً عُدّ مذيعاً لأخبار مغرضة من شأنها إقلاق الراحة العامّة. وأُمر به فشُدّ على عجلة دارت به مدة طويلة إلى أن حضر سُعاة بريدٍ، وأخذوا يحدّثون الجمهور بالنكبة وتفاصيلها.

لقد كان من الصعوبة بمكان أن يصدّق الناس أن نيقياس وقع ضحية النكبة التي كثيراً ما تنبأ بها.

كراسوس

CRASSUS

(Marcus Licinius)

١١٥–٥٣ ق.م

إن ماركوس كراسوس الذي كان أبوه قد تولّى منصب «چنصور» مرّةً، ومُنح شرف موكب النصر مرّةً، نشأ مع أخويه في منزل صغير وربيَ معهما. وقد تزوّج هذان الأخوان وأبواهما على قيد الحياة، وكانت الأسرة كلها تأكل إلى مائدة واحدة. ولعلّ هذا سبب من أسباب تطبّعه على الاعتدال والزهد لا يقلّ أهمية عن الأسباب الأخرى. وعند وفاة أحد أخويه تزوّج أرملته ومنها رُزق بأولاده. ولم يفقهُ أحد من الرومان في الحياة الزوجية المثالية التي عاشها. وإن حام شكٌ بعد تقدّمه في السّن حول وجود علاقة صميمة بينه وبين عذراء من عذارى الڤستالات تدعى ليشينيا Licinia فإنها بُرّئت من هذه التهمة التي قام برفعها پلوطينوس Plotinus ضدّها. كانت ليشينيا هذه تملك عقاراً ثميناً جداً في ضواحي المدينة وقع في نفس كراسوس ورغب في شرائه بثمن متهاودٍ. ولهذا زاد التفاته إليها وتضاعف اهتمامه بها وكثر تردّده عليها فانطلقت الألسنة تتساءل عن كُنهِ علاقتهما، مما أدّى إلى الفضيحة. وإذا جاز لنا القول فإن جشعه هو الذي عاون في براءة ساحتيهما. إلاّ أنه لم ينفك بعد الفضيحة عن مراجعتها حتى فاز بالعقار.

وتعوّد الناس القول عنه إن رذيلة واحدة فيه كانت تغلب على فضائله العديدة، ألا وهي الجشع، وكانت عيبه الوحيد في الواقع ولم يبدُ أنه تخلّق بغيرها، إلاّ أنها كانت جدّ بارزة، فطغت على حسناته وسجاياه. ومن الأدلّة على جشعه أملاكه الواسعة، وطرقه في جمعها. ففي أوّل الأمر لم تكن ملكيّته تزيد عن ثلاثمائة تالنت. وبالتالي نجد في سيرة حياته السياسيّة أنه أوقف العُشر مما يملكه كافةً على هرقل وأقام للجمهور مآدب عامة، ووزّع من حُرّ ماله على كل مواطن في روما قمحاً سدّ حاجته إليه مدة ثلاثة أشهر. ومع كل هذا فقد وجد عند قيامه بجرد ثروته وتصفية حساباته لدى خروجه لقتال الپارثيين أنه يملك سبعة آلاف ومائة تالنت، جاء معظمها - إن جاز أن تكون الحقيقة فضيحة - من النار والنهب. فقد حقق استفادته من النكبات العامّة والبلايا التي حلّت

بالوطن. فمثلاً لما قبض سيلّلا على زمام الأمور في المدينة وعرض للبيع العلني ما صادره من أموال أولئك الذين فرض عليهم عقوبة إهدار الحقوق المدنية، واعتبرها أو سمّاها غنائم وأسلاباً، ولرغبته في أن يُشرك معه بهذه الجريمة أكبر عدد من الشخصيات الرومانية البارزة، لم يتعفّف كراسوس عن قبول مال منهم أو أخذ مال لهم. ولدى ملاحظته كثرة ما تعرّض من منازل المدينة للحريق وللانهدام بسبب ارتفاعها وتقارب بعضها من بعض، انصرف إلى شراء عبيد مهروا في العمارة والبناء، حتى إذا جمع منهم ما يربو على خمسمائة طفق يشتري تلك البيوت التي أتت عليها النيران، والبيوت المجاورة الآيلة إلى السقوط أو المتقوّضة، بأثمان زهيدة لا تُذكر من مالكين كانوا يرغبون في التخلّص منها كيفما كان. حتى جاء زمن كان يملك معظم أحياء روما. ومع امتلاكه هذا القدر الكبير من البنّائين العبيد فإنه لم يشيّد صرحاً واحداً خلاف منزله الخاص. وكان لايفتأ يردّد قوله: إن أولئك الذين استولت عليهم الرغبة في البناء لن يلبثوا أن يدمّروا أنفسهم، من غير مساعدة الأعداء. وكانت مناجم الفضّة الكثيرة التي يملكها والمساحات الشاسعة من الأراضي الغنية بخصوبتها، والفلاحون الذين يعلمون فيها، لا شيء يذكر إذا قورنت بما يملك من العبيد، فقد جمع منهم أصنافاً مختلفة تفوق الحصر، وكان بينهم المعلّمون الممتازون، وصاغة الفضّة والنسّاخون، وخدم المائدة، ووكلاء المال، والحسّابون. وكان يهتم شخصيّاً بتوجيههم ويشرف بنفسه على تعليمهم، بل كان يعلّمهم بنفسه، لأنه يعتبر العناية بالخدم من واجبات المولى الأساسية فهم في نظره وفي الواقع الآلات الحيّة لإدارة البيت. واعتاد القول إن واجب الخدم أن يعنوا بكلّ شيء، ولا يتركوا لمولاهم إلاّ واجب العناية بهم. ففي الأشياء الجامدة يكون الاقتصاد عبارة عن كسب المال لاغير. أما ممارسة شؤون الاقتصاد في البشر الحيّ فهو سياسة. إلاّ أنه يجانب الصواب حين يقول:

«لا يُعدّ المرء غنيّاً إلاّ إذا اتسعت ثروته للإنفاق على إعاشة جيشٍ مرابط».

وخطأهُ في هذا القول متأتٍّ من تلك الحقيقة التى أجاد أرخيداموس في التعبير عنها ولله درّه إذ يقول: «إن الحرب لا تُغذّى بمبلغ محدود ثابت، ولذلك لا محلّ لتقدير مبلغ الثروة التى تكفيها». ولا شكّ أن نفقاتها أكثر بكثير مما قدّره لها ماريوس الذي وزّع على كل مقاتل في جيشه أربعة عشر إيكراً من الأرض الزراعية ولم يلبث أن سمع بأن بعضهم يريد المزيد فقال: «معاذ الله أن يفكّر أيّ روماني بأن هذا قليل، فهو يكفي لحياة طيبة ويقيه الحاجة».

على أن كراسوس كان مضيافاً للأغراب كثير البذل لهم، وباب بيته مفتوح أبداً.

يُسلّف أصدقاءه المال من دون فائدة، على أنه كان لا يتخلّف قط عن مطالبتهم به عندما يحين الأجل المضروب للوفاء به. لذلك كثيراً ما عُدّ هذا الفضل منه أسوأ عملاً من استيفائه الفائدة. وكانت ولائمه في معظم الأحوال بسيطة مما تعوّده المواطنون قادتهم وعاميّهم، إلاّ أن حُسن الذوق فيها وروح الضيافة السمحاء تجعلها أطيب مجلساً واوقع في النفس من أفخم الولائم.

ومن ناحية ثقافته الخاصة فقد كان جُلّ اهتمامه منصبّاً على فن الخطابة، وكل علم آخر يصلح استخدامه لفائدته بين الجمهور من الناس. ولمع نجمه بين أعاظم خطباء روما. وفاق بمثابرته وجدّه خير الخطباء الموهوبين، إذ لم يكن يرى موقفاً أحطّ وأدعى إلى الاحتقار من صعوده المنبر وهو غير مستعدّ له. ولطالما أخذ على عاتقه الدفاع عن قضايا نكص عنها قيصر وشيشرون وپومپي، فنجح فيها وبلغ الغاية منها. وهذا ما حبّبه إلى الناس بصورة خاصة. فقد وقعوا فيه على المثابرة والعناية والاستعداد للمساعدة، وإغاثة المواطنين بلا استثناء. زد على هذا أن الناس كانوا يسرّون كثيراً بسلامه وتحيّته الخالية من التكلّف. إذ لم يحصل أن التقى بمواطن رفيع أو وضيع ولم يردّ على تحيته بالاسم. وكان يُعدّ من ثقات التاريخ والعارفين به، كما ضرب بسهم وافرٍ من فلسفة أرسطوطاليس ومُثقِّفُه فيها إسكندر، رجُل كان شكل علاقته بكراسوس أكبر دليل على سماحة طبعه وسموّ خُلقه. فقد صعُب القول في أنه كان عند ملازمته له أكثر فقراً مما كان قبل دخوله خدمته. وتعوّد كراسوس أن يأخذه في كل سفرة يقوم بها، ويسلّمه عباءة قبل الرحيل، ليسترجعها منه عقب الأوبة؛ عظيم الصبر، فقير إلى درجة الخصاصة، شديد الاحتمال للفقر في حين لا نرى الفلسفة التي يعتنقها تعتبر الفقر من الفضائل، أو الشروط المذهبية لها. على أننا سنعود إلى هذا الموضوع فيما بعد.

ما إن وثب سينّا وماريوس إلى دست الحكم حتى تبيّن أنهما أبعد الناس عن التفكير في المصلحة العامة، وأنهما ما جاءا إلاّ للقضاء على الأشراف واستئصال شأفتهم فوقعا قتلاً وذبحاً بكلّ من تمكنوا منه. وراح والد كراسوس وأخوه ضحيّة المذبحة وكان هو إذ ذاك فتىً يافعاً، فأسرع يبتعد عن مكامن الخطر وأخفى نفسه، ثم علم أن الطاغيتين يجدّان في البحث عنه ويبثّان حوله الأرصاد والعيون بلا هوادة، فلم يرَ بُدّاً من الفرار إلى إسبانيا مع أصدقاء ثلاثة وخدم عشرة. وكان يعرف البلاد لمكوثه فيها زمناً أيام تقلُّد أبيه وظيفة الحاكم لها. ومع أنه كان يعتمد على حُسن لقاء أصدقائه الكثيرين هناك فقد وجد الناس وجِلين، هلعين يخيّم على نفوسهم كابوس اضطهاد ماريوس حتى لكأنه ماثل بشخصه أمام أعينهم، يراقب حركاتهم. فلم يتجرّأ على كشف

هويّته لأحد، وأخفى نفسه وصحبه في مغارة واسعة تقع على جرف بحري، يملكها صديقه ڤيبيوس پاشيانوس Vibius Pacianus. ثم بعث إليه ببعض خدمه ليجسّ نبضه ويتثبّت من نواياه ويسأله مؤناً لأن زاده بدأ ينفد. وكان سرور ڤيبيوس عظيماً بوصوله. وسأل عن مكمنه وعدد مرافقيه. ولم يذهب إليه بنفسه وإنما استدعى وكيل إدارة منزله وأمره بتهيئة وجبة طعام وافرة من اللحم وأن يحملها، ويتركها بالقرب من الصخرة الفلانية ويعود أدراجه دون أن يستسلم للفضول وحب الاستطلاع، ووعده بالعتق إن هو أنجز ما أمره به وتوعّده بالقتل إن سمح لنفسه بالفضول والتدخل. وكانت المغارة قريبة من البحر وثمّ فُتحة ضيّقة جداً لا تلفت النظر في الجرف تفضي إليها. وإذا دخلتها واجهك سقف عالٍ إلى درجة تثير العجب، ورأيت أمامك حُجرات واسعة متعاقبة واحدتها تفضي إلى الأخرى وهكذا. ولم يكن يعوزها الماء والنور. فالأوّل يأتي من نبع لطيف عذب ينحدر من صلب الجرف الصخري. والثاني ينفذ من فتحات وشقوق طبيعية، في أمكنةٍ مناسبة كأنها صُنعت عمداً، تسمح بدخول الضياء طول النهار. وكان سمك الصخرة ينقّي الهواء في الداخل ويصفّيه وينقل ما يثقله من رطوبة وندى إلى النبع.

واستمرّ الوكيل يأتيهم بالطعام والضروريات طوال بقائهم دون أن يراهم أو يدرك شيئاً من الحقيقة في حين كانوا يرونه من الداخل ويرصدون مقدمه في المواعيد المعتادة. على أن الطعام المرسل إليهم لم يكن يُقصد منه سِدّ الرمق فحسب وإنما امتاز بالوفرة والنفاسة للتهوين من حالتهم والترفيه عنهم. وكان پاشيانوس يريد أن يوفّر لصديقه كلّ ما تسمح به الظروف من الرعاية والعطف، وإعطاء فتوّته ويفاعته حقّها الواجب بإرضائها بعض الشيء وعلى قدر الإمكان. فقد رأى أن الاقتصار في العطاء على سدّ الحاجة قد يبدو على أغلب الظنّ من قبيل الواجب المفروض الذي لا يُدفع، لا متأتٍّ من روح الصداقة الصميمة الخالصة، فعمد مَرّةً إلى أخذ خادمتين معه وسار بهما وأراهما موضع المغارة وأمرهما أن تلجاها دون محاولة التخفي. وتملّك كراسوس ورفاقه خوف شديد عند دخولهما وتوهّموا الفضيحة والخيانة فطلبوا منهما أن تكشفا عن هويّتهما وعن غرضهما. فأجابتا طبق التعليمات التي تلقّيتاها قائلتين إنهما جاءتا للقيام على خدمة سيّدهما المتخفّي في هذه المغارة. وأدرك كراسوس عنصر المزاح في الحادثة، وعدّها دليلاً على إخلاص ڤيبيوس له. فقبلهما وأبقاهما طوال وجوده هناك. وكان يستخدمهما واسطة اتصال مع ڤيبيوس، لنقل الأنباء وتبادلها وإعلامه بما يحتاجون إليه، ويقول فينيستللاّ Fenestella إنه لقي إحدى هاتين الخادمتين وقد بلغت من العمر

عِتياً، وكثيراً ما سمعها تتحدث عن ذلك العهد وتردّد قصتها مع كراسوس بسرور ولذة.

ظلّ كراسوس متخفياً في المغارة ثمانية أشهر. وبعدها ورده نبأ موت سينّا فخرج من مكمنه إلى الناس، فالتفّ حوله عدد كبير منهم، فاختار جماعة منهم يبلغ عددها ألفين وخمسمائة ساروا في ركابه ولازموه في كل زيارة من زياراته للمدن الإسبانية. ويقول أحدهم إنه حاصر بهذه القوة مدينة مالقة، وكراسوس ينكر هذا الخبر إنكاراً تاماً ويكذّب باستمرار كل من يردده. ثم إنه جمع عدداً من السفن وأقلع برجاله إلى أفريقيا. وانضمّ إلى ميتللوس پيوس وهو رجل بارز الشخصيّة، رفيع المقام تلتف حوله قوات كبيرة، إلاّ أن صحبتهما لم تدم لخلاف نشب بينهما فانفصل عنه وانحاز إلى سيلّلا ونال عنده منزلة رفيعة.

كان سيلّلا بعد نزوله البرّ الإيطالي مهتمّاً بإيجاد وظائف وإسناد مناصبٍ للشبان اللامعين الذين رافقوه فأوكل لبعضهم المهام الخطيرة هنا، وبعث بعضهم بمأموريات هناك. وأوكل لكراسوس مهمّة الذهاب إلى المارسيين وتجنيد رجالٍ منهم. فطلب كراسوس حرساً لأن طريقه سيكون في أراضٍ يحتلّها العدوّ، فثار غضب سيلّلا وردّ بحدّة:

«قد أعطيك حرساً لأبيك وأخيك وأصدقائك وبني قومك الذين أريد أن أثأر لقتلتهم الوحشية الظالمة!».

فانصرف كراسوس من لدنه متألماً وانطلق لمهمته، وشقّ طريقه في أرض العدوّ بجرأة، وجنّد من المارسيين قوات كبيرة. وشارك مشاركة فعلية في كلّ حروب سيلّلا وامتازت خدمته بالتفاني والبطولات. ويقولون إن التنافس والتكالب بينه وبين پومپي على المجد والشهرة بدأ في ذلك الحين وتطوّر في تلك الأحداث. كان پومپي أصغر سنّاً من كراسوس، وسُمعته من جهة أبيه لا تعادل سُمعة ذاك. لأن المواطنين كانوا يكرهون أباه كرهاً لم يؤثر عنهم لشخص آخر، ولا يحترمونه قط. إلاّ أن نجم پومپي لمع وسطع في تلك الحروب، وفرض عظمته واحترامه بأعماله المجيدة. حتى أن سيلّلا كان يقف احتراماً له ويحسر عن رأسه كلما دخل عليه، وهو احترام قلّ أن أظهره لمن يكبرونه سِنّاً، ويساوونه مقاماً. وكان يحيّه أبداً يلقب «إمبراطور» Imperator[1]. وكان هذا يثير غيظ كراسوس ويؤلمه، وإن كان لا يحق له أن يفضله أو يتقدم عليه بأي وجه من وجوه العدالة. لأنه يجمع إلى نقص خبرته رذيلتيه الملازمتين: الحرص

---

(١) بالأصل هو لقب القائد المظفّر في الحرب. يحيّيه به الجنود الرومان ويضيفونه لقباً إلى اسمه.

والجشع، اللتين تطفئان لمعان مآثره كلها. ولقد قيل والعُهدة على الراوي أنه استحوذ على كل الغنائم لنفسه ومنفعته عندما استولى على توديرتيا Tudertia مدينة الأومبريين فأحدث استياءً عاماً أدّى إلى رفع الشكوى منه إلى سيلّلا. إلاّ أن مأثرته العظمى كانت أمام أبواب روما في آخر معركة من سلسلة معارك سيلّلا وأعظمها شأناً. فقد بدأت الدائرة تدور على سيلّلا عندما انكفأ بعض أفواجه متراجعاً وتمزّقت أفواج أخرى. فرجّح كراسوس الكفة بالنصر الذي حازه في الميمنة التي كان يقودها. ولاحق العدوّ حتى أرخى الليل سُدولَه. وعندها بعث ينبئ سيلّلا بانتصاره، طالباً إرسال الأرزاق إلى جنوده. على أنه خسر سُمعته هذه في عهد الطغيان وإصدار أحكام إهدار الحقوق المدنية ومصادرة الأموال، بسبب عقده صفقات شراء ضخمة بأثمان جدّ زهيدة على الأموال المصادرة. ولطلبه مكافآت وامتيازات مالية. بل قيل إنه فتك بفرد من أسرة البروتيين أُهدرت حقوقه المدنية لمنفعةٍ خاصةٍ ابتغاها، ودون علم من سيلّلا، فلم يعد هذا يأتمنه على أيّ أمرٍ من الأمور العامة. ولم يكن يفوقه أحد مكراً وحيلةً في جذب الناس إليه بالملق والمديح كذلك كان أسرع الناس تأثراً بهما وابتلاعاً لهما، وهذا ما لوحظ فيه بنوع خاص، ففي حين كان أكثر العالمين جشعاً تراه يكره من هم مثله ويقسو في انتقادهم.

وضايقه بومبي في ما بلغ من نجاحٍ مستمرّ حتى أنه مُنح موكب نصر قبل أن يكون أهلاً للعضوية في مجلس الشيوخ. ولقّبه الأهالي ماغنوس Magnus أي العظيم. فإذا سمع كراسوس شخصاً يقول:

- ها هو «بومبي ماغنوس» قادم!

ابتسم وقال:

- كم هو كبير؟

ولما يئس من الوصول إلى مجده في ميدان الحرب، ولّى وجه شطر السياسة، فانقادت إليه بمجدها وسلطانها وظلّ يصعد مراقيها حتى بلغ مستوى بومبي، متقرّباً للناس بالفعل الحميد، والتوكّل عنهم في قضاياهم، وتسليف المال لهم، والتوسّط في حاجاتهم عند الناس الآخرين معتمداً على جاهه... ومما هو عجيب في هذه المنافسة أن اسم بومبي وسُمعته إنما تبلغ ذروتها في المدينة عندما يكون غائباً بسبب ما يحققه في ميدان الحرب، ويرتفع اسم كراسوس عليه عند وجوده في المدينة، فيحتل المرتبة الثانية عند الناس لغطرسة فيه وعجرفة، وإعراض عن الاجتماعات، وندرة ظهوره في الفوروم وإحجامه عن مساعدة الناس إلاّ في القليل النادر، فإذا فعل فليس برغبة وإنما

كالمضطر والمستثقل، حتى لا يستنفد رصيده من الجاه ويستعمله لمصلحة نفسه عند الحاجة. بينما كان كراسوس ذلك الصديق المستعدّ للمعونة دائماً وقت الضيق، والمتهيّئ للخدمة ببابه المفتوح لذوي الحاجة أبداً والممتلئة يداه من قضايا الناس وتكاليفهم. وهكذا يغلب لطفه وسماحته أنفة پومپي وسلوكه الرسميّ. وهما يقفان على مستوى واحدٍ في جمال تقاطيع الوجه والوقار وذلاقة اللسان. والحق يقال إن هذه المنافسة لم تبلغ بكراسوس مرتبة الغِلّ وسوء النيّة والحقد. فمع حنقه لارتفاع منزلة پومپي وقيصر على منزلته لم يمازج هذا الحنق أيّ حقد أو روح عدوان، وإن كان قيصر قد قال لما أسره القرصان في آسيا:

«كم سيكون سرورك عظيماً يا كراسوس عندما تسمع نبأ وقوعي في الأسر!».

وعاشا بعد ذلك أصدقاء على وئام وصفاء. ولما كان قيصر يُزمِع الرحيل بمنصب «پريتور» إلى إسبانيا، وهو خالي الوفَاض، أدركه دائنوه وألقوا الحجز على أمتعته وأثقاله، فانبرى كراسوس لانتشاله من أيديهم ووضع نفسه كفيلاً ضامناً لدينه البالغ ثمانمائة وثلاثين تالنتاً.

كانت روما بصورة عامة منقسمة إلى ثلاث شِيَع كبيرة، شيع پومپي، وقيصر، وكراسوس. أما كاتو فكانت شهرته تزيد على نفوذه، وهو موضع إعجاب، أكثر منه متبوعاً ذا أنصار. وكان حزب پومپي الأكثر رزانة ووقاراً، وحزب قيصر الطموح هم ذوو الرؤوس الحارّة، النشطون. وكان حزب كراسوس يتوسّط الاثنين ويستفيد منهما ويبدّل موقفه حسب ما تمليه الظروف، ولم يكن بالصديق الذي يركن إليه ولا بالعدوّ الذي يخشى شره. فمن السهل عليه أن يتحلّل من أصدقائه، ومن السهل عليه أن يتناسى عداوته حيث يجد منفعته. فتراه إزاء عين الناس، وفي عين المواقف، مناصراً مرةً، ومعارضاً مرةً؛ وكان محبوباً للغاية، كذلك كان مصدر خوف مساوٍ. وقد سئل سيكينيوس Sicinius، أكبر مثير متاعب لرجال الدولة والحكام في عصره، ما الذي يجعله يتحاشى كراسوس ويتركه لشأنه فأجاب:

«أوه! إن في قرنيه قشّاً!».

مشيراً بهذا إلى عادة شدّ بعض الدريس اليابس في قرنيّ الثور النطّاح حتى يبتعد الناس عن طريقه.

إن ثورة المصارعين والخراب الذي أحدثته في إيطاليا، مما يُعرف عموماً بـ«حروب سبارتاكوس Spartacus»، بدأت بالصورة الآتية:

كان لنتولوس باتياتوس Lentulus Batiatus مدرّب المصارعين يملك عدداً كبيراً منهم في مدينة كاپوا Capua ومعظمهم من الغاليّين والثراقيين، وكان لقسوةٍ في طبعه يحفظهم فيما يشبه السجن الانفرادي دون ذنب أو جريرة ارتكبوها، ويخرجهم لقتال بعضهم بعضاً كسباً للمال. فاتفق مائتان منهم على خطة للفرار، ولما علموا أن أمرهم انكشف عجّل ثمانية وسبعون منهم بتنفيذ الخطّة قبل أن يتسنّى لسيّدهم اتخاذ التدابير، فاقتحموا المطابخ واستولوا على كل ساطور وسفّود وجدوه، وانطلقوا إلى خارج المدينة، ووقعوا وهم في الطريق على عدّة عربات محمّلة بأسلحة للمصارعين تقصد المدينة فاستولوا عليها وتسلّحوا بها. ولجأوا إلى موضع منيع صالح للدفاع، وهناك انتخبوا زعماء ثلاثة من بينهم وأمّروا عليهم سپارتاكوس قائداً، وهو ثراقيّ من إحدى قبائلها البدوية، جمع إلى بسالته وقوة مِراسه فهماً وإدراكاً ورقّة ولطفاً لا توجد عادة في أمثاله، فكان أقرب إلى الإغريق منه إلى بني جِلدته لمّا بيع لأول مَرّة في روما. قيل إن أفعى سعت إليه وهو نائم فتكوّرت فوق وجهه، وفسّرت زوجه التي رافقته في ثورته وفراره - وكانت من العرّافات اللاتي تعتريهن نوبات انجذابٍ - بأن هذه الحادثة تشير إلى حيازة زوجها سلطاناً عظيماً ومجداً كبيراً إلاّ أن نهايته لن تكون سعيدة.

وكان أوّل عملٍ حربي لهم أنهم تغلّبوا على الحملة العسكرية التي خرجت من كاپوا لإخضاعهم، واستولوا منها على كمّية من الأسلحة النظامية التي يستعملها الجيش الروماني، فأستبدلوها بأسلحتهم البربرية التي كانوا ينفرون منها.

وجُرّدت حملة أخرى بقيادة كلوديوس البريتور، قوامها ثلاثة آلاف مقاتل، فحاصرهم سپارتكوس في جبلٍ عاصٍ لاذوا به، لا منفذ فيه غير شِعب ضيّق عسيرٍ أغلقه كلوديوس بوضعه حرساً عليه. وكانت سفوح الجبل منحدرات شبه عمودية يتعذّر النزول منها على أن الكروم البرية كانت تغطي قمّته، فعمد المحاصرون إلى قطع أغصانٍ منه ونسجوا منها سلالم طويلة قوية تصل بهم إلى اسفل، وهبطوا بها دون حادث الا واحداً ألقى إليهم بكلّ أسلحتهم ثم التحق بهم. ولم يفطن الرومان إليهم حتى داهموهم من الخلف وانقضّوا عليهم وهم غافلون واستولوا على معسكرهم. هذا الانتصار حمل عدداً من الرعاة وسوّاق الماشية الشجعان الأقوياء على العصيان وانضمّوا إليهم. فزوّدوا بعضهم بشِكّة سلاح كاملة، وسلّحوا الآخرين بسلاح خفيف، واستخدموا طائفة لواجبات الكشّافة.

وتوجّه إليهم پوبليوس ڤارنيوس البريتور، فانقضّوا على مساعده نيوريوس وهو على رأس ألفين من الجنود وألحقوا به هزيمة شنعاء، فعُزّزت قوات پوبليوس بجيش

كبير يقوده كوسينيوس Cossinius ليكون هو بمثابة مستشارٍ وجيشه بمثابة احتياطي. وكاد سپارتاكوس يلقي القبض عليه أثناء ما كان يستحمّ في ساليني Salinae لكنه أفلت منه في آخر لحظة بصعوبة كبيرة. ولم يخرج سپارتاكوس من العملية خالي الوفاض على كل حال فقد وضع يده على أثقال جيشه وأرزاقه كلها، ثم انطلق يجدّ في أثره مطارداً وأوقع بقواته قتلاً وذبحاً، واقتحم عليه معسكره واحتله وقتله فيه. ثم حصلت عدة اشتباكات ثانوية بينه وبين الپريتور، ظفر في أحدها بحصانه الخاص وحرسه الخاص (اللكتور). وشاع أمره وبات اسمه يلقي الرعب في القلوب. إلاّ أن ذلك لم يسلمه إلى الغرور والطيش فقد أدرك بثاقب فكره وبُعد نظره أن قوّته مهما بلغت لن تعدل قوات الإمبراطورية، فاستدار بجيشه نحو جبال الألب يريد اجتيازها حتى يعود كل رجل من رجاله إلى وطنه، بعضهم إلى ثراقيا، وبعض إلى البلاد الغال. . . إلاّ أن النصر أسكرهم، وعددهم ملأهم ثقة بأنفسهم، فلم يوافقوا على رأيه وعصوه وراحوا يضربون في أرجاء إيطاليا ينهبون ويخرّبون ويعثيون فيها فساداً. فلم تعد المسألة بالنسبة إلى مجلس الشيوخ مسألة كرامة مُهانة، وتحقير أصابه به الثوّار والثورة، وإنما أخذ ينظر إليها نظرة حافلة بالقلق، ويراها خطباً جللاً قد يؤدّي إلى كارثة. ولذلك قرر إرسال القنصلين معاً لمعالجة الموقف وهو قرار لا يُتخذ إلاّ في حالات الخطر الشديد، أو في حربٍ عظيمة عسيرة.

انقضّ القنصل جيلليوس Gellius فجأة على جماعة من الجرمان كانوا قد انفصلوا عن جيش سپارتاكوس اعتداداً بأنفسهم واستهانة بعدوّهم، وراحوا يتجوّلون في البلاد على رسلهم، فمزّقهم شرّ تمزيق. ولم يكن حظّ زميله لنتولوس Lentulus مثل حظه، فقد ساق جيشه الجرّار على سپارتاكوس وضيّق عليه الخناق، فاستدار هذا نحوه وبادأه الهجوم وألحق بكبار ضباطه هزيمة نكراء، واستولى على أثقال جيشه كلها. واستأنف سعيه نحو جبال الألب. فاعترضه كاسيوس Cassius الذي كان پريتوراً على ذلك الجزء من بلاد الغاليّين الواقع حول نهر الپو وهاجمه بعشرة آلاف جندي، فكسره سپارتاكوس كسرة عظيمة حتى أنه لقيَ صعوبة كبيرة في إنقاذ نفسه، بعد أن خسر عدداً كبيراً من رجاله.

ولمّا بلغت أنباء هذه الهزائم مجلس الشيوخ ثار سخطاً على القنصلين. وأصدر لهما أمراً بعدم التدخّل في الأمر، وعيّن كراسوس جنرال حربٍ، وولاّه القيادة العامة. وتطوّع كثير من الأشراف لمرافقته إلى الحرب، بعضهم رعاية للصداقة التي تربطهم به وبعضهم اطّلاباً للمجد والشهرة.

اتخذ كراسوس لجيشه مواقع على حدود پيكينوم Picenum متوقّعاً قدوم سپارتاكوس من هذا السبيل. وجرّد فرقتين بقيادة مساعده موميوس للقيام بحركة التفاف واسعة الغرض منها رصد تحرّكات العدوّ ومراقبته، وأوصاه بتحاشي الاشتباك معه في معركة، أو مناوشته. إلاّ أن موميوس ألقى بالأمر والتحذير جانباً واشتبك مع سپارتاكوس في أول فرصة عَنّت له. فاندحر ووقع عدد كبير من القتلى في صفوفه. وتعذر على البقية النجاة بجلدهم إلاّ بإلقاء أسلحتهم. ونال موميوس من رئيسه تأنيباً شديداً. ثم صرف لرجاله أسلحة جديدة عوض تلك التي تركوها وجعلهم يؤمّنون ضماناً مالياً على أسلحتهم الجديدة لئلا تحدّثهم أنفسهم بالتخلّي عنها؛ وبعد هذا جاء بالخمسمائة الذين كانوا أول الهاربين وقسمهم إلى عشراتٍ، وأجرى القرعة بين كل عشرة فأخرج واحداً نفّذ به حكم الموت، وبذلك أحيا العقوبة الرومانية القديمة التي تعرف بـ«التعشير»، وفيها يلقى المحكوم ألواناً من الخزي والعار؛ وما يحفّ بها من إجراءات رهيبة قبل تنفيذ الحكم فيه أمام الجيش كله، وعلى مرأى من أفراده الذين يؤمرون بالتجمّع لهذا الغرض.

بعد أن قام كراسوس بهذه الإجراءات التأديبية ساق العسكر نحو العدوّ، إلاّ أن سپارتاكوس تراجع عبر لوقانيا متجهاً إلى البحر. وفي المضايق تمّت مفاوضة بينه وبين قرصان يملك سفناً لنقل ألفين من رجاله إلى صقلية، وفي نيّته بعث الحياة مجدداً في حرب العبيد الصقليّة، التي خبت نارها مؤخراً، وكانت بحاجة إلى وقود قليل ليس إلاّ لإذكائها ثانيةً. لكن القرصان نكلوا عن الاتفاق بعد أخذ العهد منهم وأقلعوا. فلم يسعه إلاّ الابتعاد عن البحر واتخاذ مواضع لجيشه في شبه جزيرة ريجيوم. فسعى إليه كراسوس سعياً حثيثاً وما إن استطلع الموقع حتى أوحى إليه بفكرةٍ، وهي بناء جدار مستعرضٍ يسدّ عنق البرزخ، ويمنع خصمه من القيام بغاراته الخاطفة وعمليات السلب ويضع في أيدي جنوده ما يشغلهم ويسدّ أوقات فراغهم. وأتم إنجاز هذا العمل العظيم الشاقّ في وقت قصير لم يتوقّعه أحدٌ: حفر أوّلاً خندقاً من البحر إلى البحر على طول عنق الأراضي فكان طوله ثلاثمائة فرلنغ وعرضه خمس عشرة قدماً، ومثله عمقاً. وبعد ذلك بنى جداراً عجيباً بمكانته وارتفاعه يشرف مباشرة على الخندق ويمتد على طوله. واستهان سپارتاكوس بالعمل كله واستخفّ به في مبدأ الأمر، ثم أدرك خطره عندما بدأت أقواته تتضاءل. ووجد الجدار يقف في وجهه سدّاً منيعاً لمّا قرّر خرق الحصار المضروب عليه، إذ لم يعد ما يربطه بفائدة في شبه الجزيرة. وفي ليلة عاصفة ثلجية، ملأ جزءاً من الخندق بالتراب واغصان الشجر وأفلح في إمرار ثلث جيشه من فوق الجدار.

كان كراسوس يخشى أن يزحف سپارتاكوس إلى روما مباشرة ولكن سرعان ما أفرخ روعه عندما لاحظ عدداً كبيراً من رجاله يتمرّدون عليه وينفصلون عنه متخذين لهم معسكراً خاصاً على ضفاف البحيرة اللوقانية. والشيء بالشيء يذكر فإن هذه البحيرة على ما يقال تتغيّر في فتراتٍ فيكون ماؤها عذباً في أحيان - نقول: انقضّ كراسوس على هؤلاء وأجلاهم من البحيرة إلاّ أنه عجز عن متابعة الفتك فيهم لأن سپارتاكوس برز له فجأة فأوقف الهزيمة. وهنا أخذ الندم يخالط كراسوس لكتابته إلى مجلس الشيوخ بطلب سحب لوكوللوس من ثراقيا، واستقدام پومپي من إسبانيا. ولم يسعه بعد أن لاحت له بشائر النصر إلاّ أن يسعى بكلّ ما في طوقه لإنهاء الحرب قبل مجيئهما؛ ليقينه أن الشرف في الحرب سيكون من نصيب القادم لنجدته. ولذلك قرّر أولاً أن ينقضّ على الوحدات المتمرّدة المعسكرة وحدها وكانت بقيادة كايوس كونيشيوس Caius Connicius وكاستوس Castos فوجّه إليهما مبدئياً ستة آلاف مقاتل لضمان بعض التفوّق، وأمرهم بتغطية خُوَذهم زيادة في التكتّم. إلاّ أن امرأتين كانتا تقرّبان نيابة عن الأعداء كشفتا الأمر. وكادت هذه القوة تقع في خَطبٍ جسيم لو لم يبرز كراسوس فجأة، فنشبت معركة دموية لا مثيل لها. وسقط من العدوّ اثنا عشر ألفاً وثلاثمائة كلهم أصيبوا في صدورهم، إلاّ اثنين كانت جراحهم من الخلف. مات هؤلاء وهم صامدون يقاتلون ببسالة ولا ينثنون عن صفوفهم. وبعد هذه النكبة التي مُنِيَ بها سپارتاكوس انسحب إلى جبال پيتيليا Petelia. فلاحقه سكروفا Scrofa الكويستور، وكوينتيوس أحد ضباط كراسوس، فاستدار إليهما وحمل عليهما فسحقهما سحقاً وولّيا الأدبار، وحُمل الكويستور الجريح خارج ميدان المعركة بصعوبة كبيرة جداً. وكان في هذا النصر دمار سپارتاكوس فقد ارتفعت به معنويات العبيد الذين عادوا يرون في اجتناب القتال جبناً، وفي إطاعة آمرهم استخذاءً. فاستلّوا سيوفهم وهم في المسيرة وجاؤوا إلى ضباطهم وسيوفهم مشرعة وأرغموهم على العودة بهم إلى لوقانيا لقتال الرومان. وكان هذا أمنية كراسوس ولاسيما بعد أن وردته الأنباء بوصول پومپي وتحرّكه إلى ميدان القتال. وبحديث الناس عن شرف هذه الحرب الذي بات له وحده لأنه سينزل إلى ساحة الوغى ويرغَم على القتال وبهذا يضع نهاية للحرب. لهذا كان كراسوس يتحرّق شوقاً لخوض المعركة الفاصلة. فتقدم من العدوّ وعسكر على مسافة قريبة منه وشرع في مدّ الاستحكامات خطوطاً متوازية إلاّ أن العبيد عاجلوه بهجوم واشتبكوا مع الطلائع. ثم أخذت النجدات تصل كلا الجانبين، حتى وجد سپارتاكوس نفسه مرغماً على المعركة ولا قِبَل له بتفاديها، فوضع كل جيشه على خطّ

القتال ولما جيء إليه بحصانه انتضى سيفه وقتله قائلاً:

«إن انتصرت فسيكون لي غنيمة كبيرة من خيول العدوّ كلّها، أفضل من هذا الحصان. وإن غُلبت فما حاجتي به؟».

وسعى بنفسه إلى كراسوس يشقّ طريقه في زخم من السلاح المتشابك والجرحى فلم يقف عليه، إلاّ أنه فتك بقائدي مائة حملاً عليه في آن واحدٍ. وتلفّت فلم يجد أحداً من رجاله حوله. فلم يهن ووقف صامداً يقاتل الأعداء الذين التفّوا حوله وأبدى بسالة عجيبة، حتى مُزّق تمزيقاً.

فضلاً عن مؤاتاة الحظّ لكراسوس، فإنه أعطى منصب الجنرال حقّه وزاد على ذلك الشجاعة الشخصية وتعريض نفسه للخطر. ومع هذا كله فإن پومپي خرج من هذه الحرب بالجانب الأوفى من المجد، فقد لقي في طريقه وحدات هاربة كثيرة فقضى عليها تباعاً. وكتب إلى مجلس الشيوخ يقول: «إن كراسوس هزم جيش العبيد في معركة فاصلة، أما أنا فقد وضعت نهاية لحربهم».

ومُنح پومپي شرف موكب نصر مبجّل لانتصاره على سرتوريوس في إسبانيا. في حين لم يكن كراسوس يطمع بأكثر من موكب نصر اعتيادي، بطابعه الرسمي المعروف. وكان الاعتقاد السائد في الواقع أن قبوله أيّ شرف أقل من هذا سيبدو ضِعةً منه واستخذاء. ونقصد بذلك التشريف الذي يدعى بـ«الاستقبال الشعبي» Ovation ويتضمّن مسيرة بمواكب على الأقدام. وكنّا قد فصّلنا في حياة مارچللوس الفرق بين «موكب النصر» و«الاستقبال الشعبيّ». وفي أصل اسم الأخير منهما.

كان كراسوس يأمل في أن يزامل پومپي في منصب القنصل الذي دعي الأخير إليه، لكنه لم يتدنّ إلى طلب معونته في ذلك وسكت، فأسرع پومپي ينتهز فرصته لتزكيته والدعوة لترشيحه باندفاع وحماسة، برغبة منه في أن يكون صاحب فضل ومِنّة عليه. حتى أنه قال في خطبة عامةٍ له إن امتنانه منهم لانتخابهم كراسوس لن يكون أقلّ من امتنانه لانتخابهم إياه. لكن ما إن انتُخبا معاً وتسلّما مقاليد الحكم حتى انبتّت حبالُ الودّ فيما بينهما وقضيا مدة حكمهما كلها مختلفين في كل شأنٍ، وليس بينهما غير الشحناء والتناحر والمهاترة. ولم ينجزا شيئاً يستحق الذكر، خلا أن كراسوس قدّم أعظم قرابين عُرفت لهرقل، وأدب مآدب عامّة مدّ فيها عشرة آلاف خوان ووزع على كل مواطن كمّية من القمح تكفيه ثلاثة أشهر. وشاءت الصدف يوماً أنهما كان يخطبان في الجمهور قبيل ختام فترة قنصليتهما فنهض ريفيّ بسيط من طبقة الفرسان يدعى أوناطيوس أوريليوس Onatius Aurilius واعتلى المنبر ليقصّ رؤيا رآها في نومه فقال:

- حضرني جوپتر، وأمرني بأن أبلغكم بأن الواجب يحتّم عليكم ألاّ تدعوا قنصليكما يسلّمان منصبيهما إلا وهما صديقان متصافيان.

فصاح الجمهور معلناً رغبته في مصالحتهما. وبقي پومپي جامداً في موضعه لا ينطق بشيء. فكان كراسوس أول من مَدّ يده إليه وهو يقول:

- أي بني قومي! حين أكون البادئ في عرض الصداقة والصفاء على پومپي الرجل الذي لقّبتموه انتم أنفسكم بالعظيم قبل أن يكون رجلاً ثرياً، ومنحتموه موكب نصر قبل أن يسمح له القانون بالجلوس في مجلس الشيوخ، فلا أراني قمت بعملٍ يحطّ من قدري أو يذلّ من عِزّة نفس.

وكان هذا أهمّ حدث ذُكر عن فترة قنصلية كراسوس إلاّ أن فترة قيامه بواجبات «الچنصور» كانت خاملة بائرة لم تتميّز بعمل ما، فلم يقم بإجراء تطهير في أعضاء مجلس الشيوخ ولم يُعِد النظر في قوائم طبقة الفرسان، أو يأمر بإحصاءٍ عام للنفوس. مع أن زميله في الوظيفة لوطاطيوس كاتولوس Lutatius Catalus كان رجلاً لا يتمنّى المرء خيراً منه طيباً وسماحة وتعاوناً. وقيل إن المعارضة الوحيدة التي لقيها كراسوس من هذا الرجل الكريم هي عندما أراد اتخاذ إجراء فيه من القسوة والظلم ما فيه ضدّ مصر، وهو إخضاعها للجزية الرومانية، فقد وقف هذا الزميل ضدّه وأبى موافقته عليه، وحسماً للخلاف اتفقا حُبيّاً على اعتزال المنصب معاً.

ولم يكن كراسوس بعيداً عن شُبهة المساهمة في المؤامرة الكاتالينية الكبرى التي كادت تطوّح بالحكومة. فقد برز أحدهم وأعلن اسمه بين أسماء المساهمين فيها، فلم يصدّقه أحد ولم يلقِ إليه بالاً. إلاّ أن شيشرون في إحدى مقولاته اتّهم بها كلاًّ من كراسوس وقيصر اتهاماً صريحاً. ولكنّ هذه المقولة لم تنشر إلاّ بعد موتهما. كذلك ذكر في خطبةٍ له أثناء تولّيه القنصلية أن كراسوس كان قد جاءه ليلاً برسالة تتعلق بمؤامرة كاتالين وكل تفاصيلها، فكرهه كراسوس لهذا التصريح. وكفّ پوبليوس أذى محتملاً كان سيلحق شيشرون من أبيه، لأنه عرف بحبّه الفلسفة والبلاغة وبملازمته لشيشرون حتى أنه لبس الحِداد وحضّ الشبان الآخرين على تقليده في هذا عندما اتهم شيشرون. وظل يسعى حتى صالحهما.

عاد قيصر من مقرّ قيادته وكلّ همه أن يفوز بالمنصب القنصلي. ولمّا وجد الخلاف مستحكماً بين كراسوس وپومپي لم يشأ الإساءة إلى أحدهما بانحيازه إلى الآخر، وكان يائساً من نجاحه إن لم يلقَ عضداً من أحدهما، فترك كل شيء جانباً ليعمل جاهداً في مصالحتهما. كانت حُجّته عندهما أنهما بهذا الخلاف يُضعفان

مركزيهما، وهذا يؤدّي إلى تقوية مركز الشيشرونيين والكاتوليين والكاتويين وهي أحزاب لا يُعتدّ بقوّتها قطّ لو أنهما وحّدا قوتيهما وعملاً معاً بين جمهور الشعب، وفق سياسة واحدة، وبجبهة موحّدة. ولم يألُ جهداً حتى وفّق لإحلال الصلح بينهما. وألّف من أتباع ثلاثتهم قوة لا يقف أمامها شيء حقاً، استظهرت على الحكومة بسلطتيها: مجلس الشيوخ، والعامة. وقيصر في الحقيقة لم يزد من قوة كراسوس وپومپي ونفوذهما بهذا العمل، وإنما جعل نفسه أقوى منهما بواسطتهما. فقد تمّ انتخابه قنصلاً بما يشبه الإجماع وبشتّى مظاهر الإكرام والاستبشار بفضل حزبي هذين الزعيمين السياسيين، وأعطى قيصر المنصب حقه وصرف شؤونه بجدارة وحنكة. ولم يطل به الأمر حتى أسندوا إليه قيادة جيش، وحاكميّة الإقليم الغاليّ. ولم يكن يساور كراسوس وپومپي أيّ شك في أنهما بعد وضع قيصر في «الحصن» وزرعه في مقرّ قيادته الخاصّة سيتوزعان السلطات الباقية. وكانت رغبة پومپي الشديدة في الحكم تحدوه إلى هذا التدبير. أما كراسوس، فإلى جانب مرض الجشع السابق فيه، كان قد أنمى ميلاً وهواية إلى جمع طائفة من أنصاب ومواكب النصر لينافس بها مآثر قيصر وأمجاده، ولم يقنع بما دونه فيها، وان كان يفوقه فيما عداها. وظلّ متحرّقاً ملهوفاً لا يجد طعماً للراحة حتى انتهت به إلى رشنع هزيمة، وبالبلاد إلى نكبةٍ عظيمة.

لما قصد قيصر لوكّا Lucca قادماً من بلاد الغال خرج عدد كبير من روما وذهبوا إليها ليكونوا في استقباله. وهناك عقد معه پومپي وكراسوس عدة اجتماعات، توصّلوا بها إلى قرار يقضي باستمرارهم في الخطوات التي رسموها لحصر جميع شؤون الحكم وأمور الدولة في أيديهم. واتفقوا فيما بينهم على أن يبقى قيصر على رأس جيشه وفي إقليمه. وأن يحصل كل من كراسوس وپومپي على قيادة جيش جديد وحاكمية إقليم من الأقاليم، ولم تكن أمامهم لتحقيق بُغيتهم هذه إلاّ سبيل واحدة هي حصول الأخيرين على منصب القنصلية ثانية، عن طريق ترشيح نفسيهما للدورة القادمة، وأن يقوم قيصر بالكتابة إلى أصدقائه للسعي والدعوة لهما وأن يرسل جنوده للاقتراع عليهما في موعد الانتخاب.

إلا أن الشك في نواياهما بدأ يتسرّب إلى النفوس على إثر عودتهما، وسرعان ما سرت الإشاعة القائلة بأنّ اجتماع الزعماء الثلاثة في لوكّا ليس من ورائه إلاّ الشرّ. ونهض مارچللينوس Marcellinus ودوميتيوس في جلسةٍ لمجلس الشيوخ ليسألا پومپي:

- هل في نيّتك أن ترشّح نفسك لمنصب القنصل؟

فأجاب:

- قد أفعل وقد لا أفعل.

فكررا عليه السؤال، فردّ قائلاً:

- إني سأطلب المنصب من المواطن الصالح لا الطالح.

فبدا بجوابه مفرطاً في التعالي والأنفة فضلاً عمّا فيه من التعريض الوقح. أما كراسوس فقد كان ردّه على السؤال نفسه فيه أدب وتواضع إذ قال:

- إني لراغب فيه، إن كانت رغبتي متفقة والصالح العام. فإن لم تكن فاشهدوا أني ناكص عنه.

شجّع هذا القول لفيفاً، فتقدّموا لترشيح أنفسهم، ومنهم دوميتيوس نفسه. حتى إذا أعلن كراسوس وپومپي ترشيحهما شاع الخوف في نفوس الآخرين وانسحبوا ولم يبقَ في الميدان غير دوميتيوس بتشجيع من كاتو الذي كان قريباً له وصديقاً. فلم يألُ جهداً في تقوية عزائمه وحثّه على الاستمرار في الدعوة لنفسه قائلاً:

- إنك في ترشيحك، كمن يدافع عن حرية المواطنين. فهذان الرجلان لا ينشدان القنصلية لذاتها بل الحكم المطلق المتستّر بها وما وراء هذه الوظيفة من اغتصابٍ للأقاليم والجيوش.

هذا ما كان كاتو يعتقده، ويتكلم به. وقد أرغم دوميتيوس بالشدة والزجر على الظهور في الفوروم فانحاز إلى جانبه كثيرون. والواقع هو أن الجمهور لم يكن بعيداً عمّا يجري من أحداث يراقبها ويرصد تطوّراتها بدهشة وتتردّد أسئلة كثيرة على ألسنته، كقولهم: «لماذا يسعى كراسوس وپومپي إلى القنصلية مرة ثانية؟ لماذا رشّحا نفسيهما لها معاً، ولم يُرشّح واحدٌ منهما مع ثالث؟ وها إن لدينا رجالاً مناسبين لتولّي منصب القنصل المزامل لهذا المرشح أو ذاك!».

وانطلق أتباع پومپي بعد أن شعروا بما يجري، منها أنهم ترصدوا دوميتيوس في إحدى الليالي وهو قادم إلى الفوروم مع اتباعه فأدركوه عند تباشير الصبح وقتلوا حامل مشعله، وأصابوا عدداً من أصحابه بجراح ومنهم كاتو، وأوقعوا بهم ضرباً ودفعاً ومنعوهم من دخول الفورم، ثم أدخلوهم بيتاً من البيوت، وطوّقوه برجال مسلّحين، وأعلنوا پومپي وكراسوس قنصلين، وطردوا كاتو من الفوروم، وفتكوا بواحدٍ حاول مقاومتهم.

بعد أن استتبّ لهما الأمر أصدرا مرسوماً يقضي بتثبيت قيصر في قيادته وتجديدها خمس سنوات أخرى. وعهدا لنفسيهما بإقليمي سورية وإسبانيا وقيادة جيشيهما.

وبسحب القرعة بينهما وقعت سورية لكراسوس وإسبانيا لپومپي وهو ما أرضى الأطراف المعنيّة عموماً. فالجمهور كان يكره ابتعاد پومپي عن العاصمة، وپومپي كان شديد الكلَف بزوجه لا يطيق عنها بُعداً، ولهذا كان سروره عظيماً لبقائه في روما. على أن كراسوس كاد يطير فرحاً بحُسن حظه الذي عدّه أعظم توفيق في حياته، ولم تسعه الدنيا فرحاً، واستخفّه الطرب وفارقه وقاره، وكان يلزمه قدر كبير من العزم وضبط النفس ليحافظ على اتزانه أمام الناس والأغراب. على أنه كان يخلع العِذار أمام أصدقائه المقرّبين، فينطلق على رسله ويزلّ لسانه بكلام صبيانيّ عابث لا يليق بسنّه مناقض لطباعه وأخلاقه المأثورة، فقد عُرف بزهده في الادّعاء والفخر وكرهه الاختيال على الناس، وها هو الآن منتفخ تيهاً وقد صعدت حرارة النشوة إلى رأسه بشكل غريب، لا يرى حدّاً يقف دونه حُسن حظّه فيما سيفتح عليه من أمجادٍ وانتصارات في سورية وبلاد فارس. وسرح به خياله إلى الحَدّ الذي جعله ينظر إلى فتوحات لوكوللوس في بلاد ديكران وانتصارات پومپي على ميثريدات نظرته إلى لعب أطفال نسبةً إلى ما سيحققه هو. وطارت به الآمال لتعبر معه بلاد بختيريا Bactria والهند حتى أقاصي البحر المحيط. لقد باتت رغبته هذه معلومة للجميع، وإن لم يصدر مرسوم جمهوري بإسناد ذلك المنصب إليه لغرض القيام بحملة على الپارثيين. وكتب إليه قيصر من بلاد الغال يشجّعه ويُثني على ما اعتزمه من حرب.

وحاول أتيوس Ateius مفوّض الشعب الحيلولة دون رحيله، كما أبدى كثيرون مخاوفهم وقلقهم، وجأروا بالشكوى من رجلٍ واحدٍ يريد شنّ حربٍ على شعب صديق تربطه بالرومان خير العلاقات، لم يأتِ بأيّ عملٍ ضارّ بمصالحهم، لمجرّد رغبةٍ ساورته؛ وأدرك كراسوس صعوبة خروجه من المدينة، فطلب من پومپي الوقوف إلى جانبه ومرافقته في خروجه، ذلك لأن اسم زميله كان كبيراً عند العامة والبسطاء، فتهيّأ عدد كبير للتدخّل، وأثاروا ضجة وتظاهرة حتى إذا ظهر پومپي بطلعته الوضّاحة وهو يبشّ ويهشّ هدأت سَورة الجمهور وأخلوا السبيل لكراسوس. إلاّ أتيوس لحق به واستوقفه وطفق يحذّره وينذره، ويناشده بحُسن القول أن ينثني عن رحلته. ولما لم يجد منه استجابةً أمر الضابط مرافقه بإلقاء القبض عليه وتوقيفه، إلاّ أن زملاءه التريبيونات لم يصادقوا على قراره، فاضطر إلى إطلاق سراح سجينه كراسوس؛ وفي سَورة من غضبه هرع إلى باب المدينة قبل وصول كراسوس، وعمد إلى مبخرةٍ فأوقد فيها جمراتٍ وضع عليها بخوراً وصبّ فوقها خمرَ تقدُمةٍ وراح يُجمجم ويصبّ اللعنات الرهيبة والدعوات المخيفة ويدعو آلهة غريبةَ الأسماء مرعبتها. ترى العقيدة الدينية

الرومانية في هذه الطقوس القديمة قوةً هائلة مدمّرة لا يتخلّص أحد من أثرها. ومن النادر أن سلِم صاحب اللعان نفسه، أو هنئ بحياته، ولذلك لم تكن تُستخدم إلاّ في المناسبات الخطيرة والأحوال النادرة. ولهذا هوجم أتيوس في حينها وانتقد لجوءه إلى هذا الإجراء الخطر لأن المدينة التي أراد لها الخير به ستكون أول ضحيّةٍ لهذه اللعنات وردّ فعلها السيّئ الفائق للطبيعة.

وصل كراسوس مدينة برنديسيوم. ومع أن البحر كان في أقصى هياجه فإنه لم يطق صبراً ولم ينتظر وركب السفن المهيأة لجيشه وفقد عدداً كبيراً منها. ومَرّ بكيليكيا حيث التقى بملكها ديوتاروس Deiotarus الذي لم تمنعه شيخوخته الفانية من الانصراف إلى بناء مدينة جديدة. فقال له كراسوس متندّراً:

- لقد شرع جلالتك بالبناء في الساعة الثانية عشرة!

فأجابه ديوتاروس:

- كذلك أنت أيها الجنرال، فأنت تقوم بحملتك البارثية وقد تقدّم بك الزمن.

وكان كراسوس آنذاك في الستين في عمره، إلاّ أن مظهره يدلّ على سِنّ أكثر من الحقيقة.

وبدت له الأمور عند وصوله على أحسن ما يُرام. ولم يجد أيّ عناء أو عقبة، فقد مَدّ على نهر الفرات جسراً بدون صعوبة تُذكر وعبر جيشه منه بسلام. واستسلمت له مدن كثيرة في بلاد ما بين النهرين بدون مقاومة، إلاّ مدينة واحدة كان يحكمها طاغية مستبدّ يدعى أپوللونيوس فقد لقي مائة من رجاله حتوفهم أمامها، فزحف عليها بقوّاته وفتحها عنوة ونهب ما فيها وباع سكانها في أسواق العبيد. وهذه المدينة يسمّيها الإغريق زينودوثيا Zenodotia، ولما سقطت في يد كراسوس سمح لجنوده بأن يحيّوه بلقب «إمبراطور»، وهذا ولّد شعوراً بالخيبة المقبلة. فقد ترجم الجنود عمله بعمل اليائس من تحقيقه مأثرة أجلّ منها وأدعى إلى الفخر، فعمد إلى تضخيم نجاحه الصغير بإضافة اللقب، الذي يُمنح للأبطال عادة، إلى اسمه.

ووضع كراسوس في مُدنه المفتوحة حاميات بلغ مجموعها سبعة آلاف من المشاة وألفاً من الخيّالة، ثم كرّ راجعاً لقضاء شتائه في سوريا، منتظراً مقدم ابنه من لدن قيصر في بلاد الغال بما ناله من مكافآت وأوسمة على شجاعته، مع ألف من الفرسان الغاليين المنتخبين. ويبدو لنا هنا أن كراسوس ارتكب في رجوعه أول أخطائه وأكبرها - باستثناء خطأ قيامه بالحملة نفسها - إذ كان يجمُل به الاستمرار في زحفه والاستيلاء على مدينتي بابل وسلوقية، اللتين كانتا في نزاع دائم مع البارثيين. فبدلاً من سبق عدوّه إليهما منحه

وقتاً كافياً للاستعداد والتهيؤ له. هذا فضلاً عن قضائه جُلّ وقته في سورية، بوظيفة المرابي والصرّاف لا بمنصب الجنرال. لم يكن مهتمّاً بإحصاء ما لديه من سلاح، أو بتدريب جنوده وتثقيفهم في فنون القتال وتعويدهم على النظام العسكري، بل بحساب إتاوات المدن وضرائبها مبدّداً أيامه في وزنها بالقبّان، وتدقيق محتويات كنوز معبد هيرابوليس Hierapolis، وإصدار الأوامر إلى بعض المدن والممالك بإرسال عددٍ معيّن من المجنّدين، ثم إلغاؤه إياها بعد دفع مبالغ من المال بدلاً نقدياً! وبهذا ضيّع هيبته وفقد منزلته. وصادفه هنا أول نذير شؤم من لدن الربّة التي يسمّيها بعضهم «ڤينُس»، وبعضهم «جونو» وبعضهم «الطبيعة» أو «المصدر» الذي تأتي منه الرطوبة وهي العنصر الأول في كل الأشياء ونُطفتها التي تمنح البشر معرفتهم الأولى بكل ما هو خيرٌ وصالح... ففي أثناء خروج كراسوس وابنه من معبد هذه الربّة عثر الأخير فسقط عليه أبوه.

وبينما كان كراسوس يريد الخروج بجيشه من مقرّاته الشتوية وفد عليه رُسل من أرشاك Arsaces حاملين إليه الرسالة المقتضبة الآتية:

«إن كان هذا الجيش قد أُرسل بإرادة الرومان ورغبتهم فإني سأثيرها حرباً شعواء لا تُبقي ولا تذر. وإن كان كراسوس - على ما فهمت - يغزو تخومي دون علم بلاده وخلافاً لرغبتها سعياً وراء الغُنم الشخصي، فإني أنا الملك سأكون أرحم به وأشفق على شيخوخته وخرفه، وسأعيد أولئك الجنود أسراه، أكثر مما هم حرّاسٌ امناء له، إلى أوطانهم سالمين».

فردّ كراسوس على الوفد بعجرفة قائلاً إنه سيجيب عن هذه الرسالة في سلوقيا. فضحك ڤاغسيس Vagises أكبرهم سِنّاً وبسط راحة يده وقال:

- نموّ الشعر هنا أصعب من وقوع نظرك على سلوقية.

وقفلوا راجعين إلى ملكهم، فقال له هيرودس Herodes:

- إنها الحرب إذن!

وتمكن عدد من أفراد الحاميات الرومانية في بلاد ما بين النهرين من الهروب معرّضين أنفسهم لأعظم الأخطار. وكان المستخلَص من أقوالهم أن الخطر يستدعي التأمّل ولا يحتمل الاستهانة، واستشهدوا بما رأته أعينهم من كثرة عدد المحاربين عند العدوّ، ومن أساليب القتال التي يتبعونها. ولما كانت المبالغة في طبع الإنسان فقد هوّلوا الأمر وجعلوا الأشياء تبدو على غير حقيقتها، فقالوا: «لا يخلص من يدهم هاربٌ إن كانوا هم الطاردين، ولا يدركهم مطارد إن كانوا هم الهاربين». وذكروا شكلاً

عجيباً من الحِراب يستخدمونه سريع المروق مثل لمح البصر، ينفذ في أيّ شيءٍ قبل أن يُشاهَد قاذفه. ودروعهم قوية يرتدّ عنها كلّ سلاح. فخارت عزائم الجنود كافةً. وكانوا قبلها يظنّون أن الپارثيين في مستوى الأرمن والكبدوكيين الذين أدرك لوكوللوس الملل من غنائمهم وأسلابهم حتى بات مقتنعاً أن الصعوبة الوحيدة في حربهم هي مشقّة السّير وراءهم، ومتاعب مطاردة رجال يجبنون عن مقابلته في قتال وجهاً لوجهٍ. ولذلك لم يُدخل جنود كراسوس في حسابهم أيّ معركةٍ ينازلون بها عدوّهم الجديد، فكانت خيبتهم مما سمعوا كبيرةً. وعلى ضوء هذه المعلومات نصح بعض الضبّاط أن يوقف كراسوس زحفه في الوقت الحاضر وأن يعاد النظر في أمر الحملة أساساً.

وكان أكثر من ألحّ عليهم منهم كاسيوس الكويستور. وأسرّ إليه العرّافون أيضاً بأنهم ما فتئاا يجدون في الأضاحي إشارات لا تبشّر بخير، وعلاقات سيّئة. فلم يُعرهم أذناً صاغية ولم يلتفت إلى ناصحيه الآخرين، إلاّ من أشار عليه بالتقدم. ولم يوافقه الملك الأرمني أرطباز وألحّ عليه بأن لا يقوم بغزو الپارثيين من جهة الفرات، بل عن طريق بلاده أرمينيا إذ إنه سيؤمّن له قدرَ ما يحتاج إليه جنوده من أرزاق ومؤن، على حسابه الخاص. وسيكون زحفه فضلاً عن ذلك مأموناً في جبال أرمينيا وهضابها التي لا تتمكن خيّالة العدوّ من النفوذ فيها، والخيّالة عند البارثيين هي كل قوتهم. فشكره كراسوس ببرود على كل ما أظهره من استعداد للبذل والخدمة وأنهى إليه بقراره النهائي في الزحف من جهة بلاد «ما بين النهرين»، لأنه ترك فيها حاميات كبيرة من جنود روما الشجعان. فقفل الملك الأرمني راجعاً. وكان قد جاء لمعونة كراسوس ومعه ستة آلاف من الخيّالة، قيل أنها حرسه الخاص وحاشيته. وكان قد وعد بعشرة آلاف فارس أخرى وثلاثين ألف راجل يقوم هو بإعاشتهم.

وفيما كان كراسوس يُشرف على عبور جيشه النهر بالقرب من زويخمه Zeugma تجاوبت السماء بصدى رعدٍ قاصف ولمع البرق في وجوه الجنود. وفي أثناء العاصفة هبّ إعصار شديد فوق الجسر فكسره وحُمل قسم منه مع تيّار، وسقطت صاعقتان على الموقع الذي اختاره معسكراً لجنوده. وجمح أحد خيوله ذات العدّة الفاخرة وجَرّ سائسه إلى الماء وأغرقه. كذلك قيل إن حامل اللواء الأول ذهب ليرفعه، فخيّل له أن نسره يدير رأسه إلى الخلف. وبعد أن تمّ عبور الجسر وزّعت الجراية على الجنود وبُدئ بالملح والعدس وهما عند الرومان الطعام الذي يقدّم للموتى وفي الجنائز. وفيما كان كراسوس يخطب بالجنود زلّ لسانه بعبارة تشاءم منها الجميع، فقد قال:

- سأذهب لأكسر الجسر حتى لا يرجع أحدٌ منكم.

ولم يستدرك زلّة لسانه بعد أن أحسّ بها ولم يصحّحها أو يشرح قصده منها عناداً ومكابرة منه ليس إلاّ، في حين كان يرى علائم التوجّس والبغتة مرتسمة على وجوه رجاله الشديدي التطيّر. وفي آخر قُربان عام قدّم له الكاهن أحشاء الضحيّة فانزلقت من يده، ورأى القلق والوجوم يرتسمان على وجوه الواقفين معه فضحك وقال:

- انظروا! ما معنى أن يُمسي المرء شيخاً عجوزاً. على أني سأشدّ على سيفي قبضةً مُحكمة.

وسار بجيشه رتلاً على محاذاة النهر وكان يتألف من سبع فِرق مشاةٍ، وما في حدود أربعة آلاف فارس ومثلها من المشاة الخفيفة. وعاد إليه الكشّافة من استطلاعهم ليخبروه بأنهم لم يشاهدوا أنسيّاً، على أنهم تبيّنوا آثار أقدام خيل كثيرة عائدة القهقرى بعجلةٍ شديدة. فانتعشت نفس كراسوس بالآمال العِراض، وانقلب الرومان إلى الاستهانة بالپارثيين، وعادوا يصنّفونهم مع من لا يجرؤون على الاشتباك يداً بيدٍ. إلا أن كاسيوس فاتحه بالموضوع مجدداً، ونصحه بإراحة الجيش في إحدى المدن المحصّنة والبقاء فيها حتى تتوفّر لديهم معلومات حقيقية كافية عن العدوّ. وإلاّ فليتوجّه بخيله ورَجْله إلى سلوقية على الأقل، ولا يحيد عن خطّ النهر مهما كلّفه الأمر لأن فيه استمرار تموينهم عن طريق الأطواف والقوارب التي ستتبع الجيش دائماً، فضلاً عن أنه يجعلهم بمنجاة من التطويق، فإن خاضوا قتالاً مع العدوّ فلا شك في أن مواقعهم لن تكون أسوأ من مواقعه.

وفيما كان كراسوس يفكّر في الأمر ويقلّبه من شتّى وجوهه من غير أن يُرسي على قرارٍ نهائي، أقبل على معسكره شيخ قبيلة من العرب البدو يُدعى أريامنوس Ariaminus، رجل ماكرٌ عظيم الحيلة، هو من بين المصائب التي اجتمعت لدمار الرومان أعظمها وأفتكها. عرف بعض جنود پومپي القدماء هذا الشيخ القبليّ وتذكروا أنه حظي ببعض عطف من قائدهم فاعتبروه من أصدقاء الرومان. إلاّ أنه في الحقيقة كان عميلاً لقوّاد الملك وصنيعةً أرسلوها إلى كراسوس لحرفه عن خطّ النهر والتلال على قدر الإمكان وتوجيهه إلى السهل المنبسط الواسع ليتمكنوا من الإحاطة به، إذ كانوا لا يكرهون شيئاً قدر ما يكرهون اضطرارهم مقابلة الرومان وجهاً لوجه.

جاء الشيخ العربي كراسوس وطفق بلسانه الطليّ المقنع يمتدح پومپي ويثني عليه ويشيد بعطفه عليه وإحسانه، مبدياً إعجابه بقوات كراسوس. ولكنه تظاهر بالعجب من تلكّؤه، وإفراطه في الاستعداد والحذر، كأنه لا يريد استخدام مشاته - في مقدمة الأصناف الأخرى - ضدّ رجال كانوا قد قرّروا منذ زمن النزوح من بلادهم إلى بلاد

الصقالبة والهيركيين فراراً منه، ومعهم أغلى مقتناهم ومواشيهم. وختم قوله بما يلي:

- فإن كان القتال ما تروم فعليك أن تستعجل الأمر قبل أن يستعيد الملك ثقته بنفسه ويحشد قوّاته. وأنت ترى الآن سورينا Surena وسيللاك Sillaces أمامك، يريدان أن يصرفا نظرك عن الملك ويشغلاك بمطاردتهما ليكون سيّدهما في مأمن منك.

ولم يكن في أقواله هذه شيء من الصدق، لأن هيرودس كان قد قسم جيشه إلى قسمين، أحدهما قاده بنفسه إلى أرمينيا واجتاحها منتقماً لنفسه من أرطافازديس Artavasdes. وأرسل القسم الثاني بقيادة سورينا لمواجهة خطر الرومان الذي لم يكن في الحقيقة موضع استهانة من الملك على ما زعم بعضهم. فلا وجه لأي احتمال في أنه كان يستصغر شأن كراسوس أحد أعاظم الرومان في عصره، فيتركه لسورين ويتوجّه لقتال ملك أرمينيا وغزوه بلاده. بل على أغلب الاحتمالات أنه كان مدركاً جسامة الخطر الروماني. ولذلك كان قصده أن يتربّص بالأحداث ويجسّ نبضها، فرأى أن يكون سورين أوّل مُحصٍ لعدد العدوّ وأوّل متعرّض لمخاطر معركة معه، ومحاولة جرّه إلى الداخل. وسورين هذا لم يكن رجلاً عاديّاً لا يؤبه به، فهو ثاني رجل في المملكة، أي بعد الملك في الثروة والأصل والشهرة؛ أمّا في الشجاعة والإقدام فهو الأوّل. وأمّا في الصورة وحُسن القدّ فماله قرين. كان قطار رحلاته يتألّف من ألف جملٍ تحمل أمتعته وأثقاله، ومائتي عجلة تركب بها محظيّاته، وألف رجل في كامل عُدّتهم وسلاحهم بمثابة حرسٍ شخصي له، وأضعافهم من ذوي الأسلحة الخفيفة. وكان فرسانه وراكبو الخيل من خدمٍ وحاشيةٍ وأتباع يبلغون عشرة آلاف. اختصّت أسرته منذ زمن بعيد بشرف وضع أفرادها التاج على رأس الملك عند تنصيبه. وكان الشخص الذي عاد بالملك الحالي من منفاه بعد طرده. وهو الذي استولى على سلوقية المدينة العظيمة وكان أول من تسلّق السّور وردّ المدافعين إلى الخلف بيديه. ومع أنه كان في حدود الثلاثين من العمر يومئذ فقد اشتهر بالذكاء ورجاحة العقل، وبهاتين المزيّتين فقط هزم كراسوس الذي وقع فريسةً سهلة لمكره بسبب ثقته الساذجة العمياء أولاً، ولتوالي الرزايا والنكبات عليه ثانياً.

وحاز الشيخ العربي ثقة كراسوس فآمن بكذبه وأبعده عن النهر وأدخله السهل الوسيع المترامي الذي كان أوّل الأمر متطامناً طيّب السَّير، ثم أصبح متعباً لعمق رماله وخلوّه من الشجر والماء وسعته التي لا يحدّها بصرٌ. ولم يكن العطش وصعوبة السير العاملين الوحيدين في إنهاك قواهم، فقد اصطلحت عليهم الكآبة والوجوم لرتابة منظر الصحراء فلا غصن صغير هناك ولا مجرى ماء أو كثيب أو عُشب أخضر، وإنما بحر

خِضمٍّ من الرمال يكتنفهم بأمواجه المتلاطمة. وأخذ الشك في الخيانة يساورهم. وبعدها وردت الرسل من أرطاڤازديس لتنبئه بأن هيرودس غزا بلاده وشنّ عليه هجوماً عنيفاً، ولهذا فهو يعتذر عن إرسال أية نجدة، وأنه ينصح كراسوس والحالة هذه بأن يبدّل خطّ سيره ويتجه إلى أرمينيا لتوحيد قواتهما وإنزال ضربة مزدوجة بهيرودوس. وإن لم يشأ ذلك فليعسكر في موضع منيع يتعذّر على الخيّالة ارتياده، ولا يحيد قطّ عن منطقة الجبال. وثار غضب كراسوس منه حتى أنه لم يكتب له ردّاً وإنما قال لرسله إنه في الوقت الحاضر لا يجد متسعاً للتفكير في أمر قومهم الأرمن، على أنه سيأتيهم في وقت آخر وينتقم لنفسه من غدر ملكهم. وارتفعت أصوات كاسيوس وصحبه بالشكوى من الحالة ثانيةً. ثم سكتوا على مضض بعد أن لاحظوا أن شكواهم تغيظ كراسوس فحسب ولا تُجدى فيه. إلاّ أنهم كانوا يسلقون العربيّ بألسنة حادّة في السرّ، فيقولون:

- أيّ شيطان خبيث جاء بك إلى معسكرنا يا أسوأ الرجال نقيبة؟ وأيّ سحر استخدمت مع كراسوس أو جرعة جرّعته لتقوده إلى صحراء قَفْرٍ واسعة، وتضعه في مفازات ومسالك هي أصلح لرئيس عصابة لصوص من الأعراب مما هي لجنرال عسكر روماني؟

أمّا العربي فقد أخذ يستخدم حيلته في حثّ الجنود وتشجيعهم على الصبر والتحمّل قليلاً بلهجة رقيقة ليّنة، وقال لهم مازحاً:

- ماذا دهاكم؟ وأين تظنّون أنفسكم؟ هذه ليست كامپانيا حيث تجدون في كل خطوة تخطونها الينابيع وأوراق الشجر والحمّامات، والحانات، وبيوت اللذة. ألا فاعلموا أنكم تسيرون الآن في تخوم آشور وجزيرة العرب.

فهدّأهم وسرّى عنهم كما يُسرّي عن الأطفال. وارتحل عن المعسكر قبيل افتضاح أمره، بعلم من كراسوس الذي رخّصه بذلك عندما أقنعه بالذهاب للاحتيال على العدوّ بحيلة تُسلمه إلى الفوضى واضطراب الأحوال.

ورُوي أن كراسوس خرج من خيمته صباح ذلك اليوم وعليه رداء أسود، لا الرداء الأرجواني الذي يرتديه قادة الرومان عادةً، وما إن انتبه إلى الخطأ حتى أسرع إلى استبداله. ولقي حاملو الألوية مشقّة كبيرة في رفع النسور عن ركائزها، حتى بدت وكأنها ملتحمة بها فضحك كراسوس واحتثّ سيرهم، مجبراً مشاته على تعقيب الخيّالة خطوة خطوة. وعادت فئة قليلة من الكشّافة لتخبره بأنهم الناجون فقط من أيدي العدوّ الذي اقترب منهم كثيراً بجميع قوّاته وكلّه عزم على خوض معركة معهم. فضجّ الرومان بالصياح، وعلت البغتة كراسوس، وأُسقط في يديه عندما بدأ بتنظيم صفوف جيشه كما

يجب بسبب العجلة. أخذ أولاً بنصح كاسيوس ففتح خطوطه إلى أقصاها لتشغل أوسع مساحة ممكنة لكيلا يتعرّضوا للتطويق، ووزّع الخيّالة على الأجنحة. إلاّ أنه غيّر رأيه فيما بعد ونظّم جيشه في مربّع وأقام على كل ضلع جبهة صدامٍ واحدتها تتألف من اثني عشر فوجاً، وخصّص لكل منها كتائب خيّالة ووضعها بشكلٍ لا تحرم منها أية جبهة محتاجة، ولتكون على أتمّ الاستعداد للنجدة في أيّ موضع يتطلّبها. وأوكل لكاسيوس قيادة جناحٍ، وولّى ابنه قيادة الجناح الآخر، واحتفظ هو بالقلب. وعلى هذا النظام سار الجيش حتى بلغ نُهيراً يدعى باليسوس Balisus لا أهمية له بذاته إلاّ أنه كان كالرحمة الهابطة على الجنود بعد أن عانوا ما عانوا من القيظ والعطش طوال مسيرتهم. وأجمع رأي كل أمراء الوحدات على قضاء الليلة هناك لجمع المعلومات قدر الإمكان عن جيش العدوّ وتكوين فكرة عن عدده وتشكيلاته وتنظيمه، حتى إذا بدت تباشير الصبح زحفوا عليه. فلم يوافق كراسوس متأثراً باندفاع ولده، وتحمّست الخيّالة التي ترافقه فقد اشتدّ إلحاحهم عليه بالسير بهم للقتال قائلين إنهم عقدوا العزم على القتال حتى وإن لجأوا إلى تناول طعامهم وشرابهم في أثناء المعركة وقوفاً. فاندفع إلى الأمام ولم يعسكر، ولم يقم باتخاذ الإجراءات التعبويّة وفق الأصول. وتأمين احتياطات السلامة كما يجب. وكان سيره إهطاعاً، ليس بينه وقفات استراحة، حتى بدا وكأنه لا يذهب إلى معركة بل يستعجل في الابتعاد عنها. ولم يكن منظر قوّات العدوّ عندما بدا لهم بالمهيب المخيف لا عدداً ولا عُدّة أي ليس كما توقّعوا؛ والواقع أن سورين تعمّد إخفاء قوّاته الرئيسة وراء الخطّ الأول من مقاتليه، وأمرهم بتغطية دروعهم البرّاقة بكسوات جلدية. ولما تقدّم الرومان وأعطى كراسوس إشارة الهجوم اهتزّ الميدان بهدير صوت مُرعب وهتافٍ هائل، فالپارثيون يحمّسون القطعات المهاجمة بقرعات الدُهل الراعدة إذ يرنّ صداها من مختلف الأماكن دفعة واحدةً. هذا النوع من الطبول يصدر صوتاً مهلكاً أشبه بزئير الوحوش المختلط بهزيم الرعد، وهم لا يستخدمون الأبواق والنايات. ولا شكّ في أنهم لاحظوا في الواقع أن حاسّة السمع في الإنسان هي التي تؤدّي إلى إحداث أكثر الاضطراب والفزع دون سائر الحواس الأخرى، وأن المشاعر التي تثيرها هذه الحاسّة هي أقوى المشاعر وأسرعها في التغلّب على العقل وإضاعة الرشد.

بعد أن زرع الپارثيون بضجيجهم الرُّعبَ الكافي في قلوب الرومان، رفعوا الأغطية عن دروعهم فبدت تسطع وتلمع كالبرق فوق صدورهم وفي خُوَذهم المصنوعة من الفولاذ المارجيني Margian الصقيل وخيولهم ذات الأحزمة النحاسية والفولاذية. وبدأ

سورين أهيب وأجمل من كل رجالهم، إلاّ أن نعومة نظراته ونسويّة ثيابه لم تكن تدلّ على رجولة تتفق مع شهرته، والمركز الذي يحتلّه في جيشه. فقد كان وجهه مصبوغاً مجمّلاً، وشعره مفروق الناصية على الطريقة الميديّة، في حين بدا مظهر المقاتلين الپارثيين أكثر رهبة بشعورهم الكثّة المجدولة في كتلة واحدةٍ مكوّرةً فوق جباههم على الطريقة الصقلبية.

كانت خطة الپارثيين هي أن يدفعوا برماحهم المشرعة صفوف الرومان الأولى نحو الخلف. إلا أنهم بعد أن تبيّنوا عُقم محاولتهم، لعمق الجبهة الرومانية وثبات الجنود الشديد، انسحبوا عنهم وتراجعوا متظاهرين بالفوضى وتشتيت الشمل ليُطمِعوا فيهم أعداءهم فيلاحقوهم. وهكذا كان فقد كرّوا عليهم راجعين وطوّقوا المربّع الروماني قبل أن ينتبهوا إلى الحركة، فما وسع كراسوس إلاّ أن يأمر مشاته الخفيفة بالصولة على الپارثيين. ولم يبتعدوا كثيراً إلاّ وجوبهوا برشقات شديدة من النبال سقطت عليهم كالمطر الوابل فسارعوا بالتراجع مستترين بالمشاة الثقيلة ومختلطين بهم فكانت أولى ظواهر الخلل والفزع في صفوف الرومان. وأدركوا عندما خبروا قوّة سهام الپارثيين ومتانتها إذ كانت تخرق دروعهم وتمرّ من كل أنواع التروس صلبها وليّنها. واتخذ الپارثيون مواقعهم على مسافة من الرومان وراحوا يفوّقون سهامهم من كل الجهات لا يقصدون هدفاً ولا يركزون في نقطة لأن الأسلوب المنظمّ الذي يلجأ إليه الرومان في هذه المعركة جعلهم كتلة وهدفاً كبيراً لا يطيش المقذوف عليهم ولا يقع في الأرض. وكان العدوّ يرسل السهام من قسيّ شديدة العود قوية الشدّ فتندفع كالبرق. وأدرك الرومان وضعَهم السيّئ من البداية، فإن هم ظلّوا يتبعون الأسلوب المنظّم فسيقع منهم جرحى كثيرون، وإن هم حاولوا الهجوم فإن ما سيصيبون به عدوّهم لن يزيد عمّا سيصيبهم، ولن تقلّ خسائرهم عن الأول لأن الپارثيين لا يتوقّفون عن قذف رماحهم حتى أثناء فرارهم. وهو فنّ في القتال برعوا فيه وليس من يفوقهم به من الشعوب غير الصقالبة. والواقع أنها عملية ذكيّة منهم: يجتنبون عار الفرار، ويعملون لإنقاذ أنفسهم في الوقت نفسه.

وكان كل ما يريح الرومان هو أملهم بأن يلجأ عدوّهم - بعد استنفاد ما لديه من نِبال - إمّا إلى إخلاء الميدان والانسحاب وإمّا أن يكرّوا عليهم. وخاب فألهم عندما رأوا جِمالاً كثيرة مثقلة بأحمال النبال يتزوّدون منها كلما فرغ ما لديهم، فينسحب خطّ للتموّن ليحتلّ خطّ آخر مكانه وهكذا، حتى خُيّل لكراسوس أن القتال سيدوم إلى ما لا نهاية فوَهت عزائمه. وأرسل يأمر ابنه بأن يحمل عليهم قبل أن يكملوا عملية التطويق،

لأن أكثر تقدُّم العدوّ كان من ناحيته. وكل الدلائل تشير إلى أن خيّالته تحاول الالتفاف على المؤخّرة. فبرز الفتى بألف وثلاثمائة فارس، ألفٌ منها كانت بعثة قيصر، وخمسمائة من القوّاسين تسند ثمانية أفواج من المشاة مسلّحة تسليحاً كاملاً إلى جانب منه. وكرّ بهذه القوة على البارثيين، فداروا على أعقابهم وولّوا هاربين. ولا يُعرف أكان فرارهم لوجودهم في بقعة موحلة على زعم بعضهم، أم لأنهم أرادوا استدراج كراسوس الابن إلى أبعد مسافة ممكنة عن أبيه. وعندها صاح قائلاً: إنهم غير قادرين على الصمود! ثم جَدّ في تعقيبهم مع سنصورينوس Sensorinus وميگاباخوس Megabachus وكلاهما من العسكريين المعدودين. أولهما في شجاعته وإقدامه، وثانيهما في انحداره من أسرة مشيخية عريقة، ولامتيازه بالخطابة. وهما صديقان لكراسوس وفي مثل سنّه تقريباً. واندفعت الخيّالة إلى الأمام وتأخّرت عنها المشاة قليلاً والكل منتعش بالأمل والاستبشار، فقد عدّوا أنفسهم منتصرين، وأنهم يطاردون الآن العدوّ. وإذ دار عليهم الهاربون تساندهم وحدات جديدة كثيرة العدد لم تواجههم من قبل فتوقفوا، ولم يعد لديهم أدنى شكّ في أن العدوّ سيكرّ عليهم مستهيناً بقتلهم. وخاب فألهم عندما وضع العدوّ رمّاحته بمواجهة الرومان في جبهة، وأطلق البقيّة الأعنّة لخيولهم تروح وتغدو في ساحة المعركة عدواً فتثير التراب حتى ارتفع الغبار الكثيف وأعجز الرومان عن الرؤية والتحدث، وتزاحم بعضهم على بعضٍ في كتلة بشرية وقع عليها العدوّ طعناً وقتلاً. ولم يكن موتهم سريعاً سهلاً وإنما رافقته آلام فظيعة وتشنّجات مريرة.

فقد كانت الرماح المغروزة في أجسامهم تجعلهم يتلوّون عذاباً فيكسرونها في فتحة الجرح ثم يحاولون نزعها فتشتبك أسِنّتها المنشعبة بالعروق والأعصاب فتمزّق أحشاءهم تمزيقاً وتجرّعهم غصصاً من الآلام لا طاقة للبشر بها. وقد مات كثير منهم على هذه الصورة الشنعاء، وأما من عاش بعدها فقد أصبح عاجزاً طول حياته. ولما حثّهم پوبليوس كراسوس على مهاجمة الرمّاحة، رفعوا له أيديهم وهي مدقوقةٌ بمساميرٍ في تروسهم، وكشفوا عن اقدامهم وهي مثبتة في باطن الأرض فعلوا ذلك حتى لا يستطيعوا فراراً ولا تقدّماً. فما كان منه إلاّ أن كَرّ على العدوّ بخيّالته كرّة جريئة بلغت به إلى مسافة قريبة منهم. ولم يكن عددهم كافياً لا للدفاع ولا للهجوم ولم يكونوا يستطيعون شيئاً بحرابهم الصغيرة إزاء تروس مصنوعة من الحديد والجلد الغليظ غير المدبوغ. وكانت أجسام خيّالته الغاليّة بكسوتها الخفيفة مكشوفة تماماً لأسِنّة العدوّ الماضية المتينة، وأكبر اعتماده عليهم. والحق يقال إنهم لم يخيّبوا ظنه فقد أتوا

بالعجب العُجاب وحققوا المعجز من البطولات. كانوا يقبضون على الرماح المقنطرة المسدّدة إلى صدورهم ويصطرعون عليها أصحابها حتى يقلعوهم قلعاً عن سروجهم ويسقطوهم فلا يستطيعون حركة أو قياماً لثقل دروعهم. وأحياناً كانوا يترجّلون عن خيولهم ويزحفون حتى يصبحوا تحت خيول العدوّ فيبقروا بطونها فيهيجها الألم وتقذف براكبيها وتدوس أصحابها وأعداءها بسنابكها دون تفريق. وكان أشدّ ما يعذّب هؤلاء الغاليّين القيظ والجفاف، لأن أجسامهم غير متعوّدة عليهما. ونفقت معظم خيولهم لوثوبها على الرماح المشرعة حتى أُرغموا على الارتداد بقائدهم پوبليوس وهو مصاب بجرح بليغ، وامتزجوا بصفوف المشاة. ووقعت عينهم على كثيب رمليّ فسعوا إليه واحتلوه وشدّوا خيولهم بعضها إلى بعضٍ ووضعوها في الوسط ثم عملوا من تروسهم جداراً متوهّمين أن ذلك قد يقيهم صولة البرابرة بعض الشيء، فكانوا في ظنهم مخطئين. في السهل، كانت جبهة خطوطهم تحمي إلى حدٍ ما أولئك الذين هم في المؤخّرة، أما الآن وهم فوق الكثيب فقد آضوا مكشوفين تماماً لأن تحدُّر الأرض جعل أحدهم يعلو الآخر بلا سترٍ ولا وقاءٍ، فلم يعد لديهم من حيلة إلاّ أن يندبوا مصيرهم التاعس، وينعوا ميتتهم التي لا فائدة منها، وكان يصحب پوبليوس إغريقيان من سكنه مدينة حرّان Carrhæ القريبة، هما نيقوماخوس وهيرنيموس، فألحّا عليه بالانسحاب والاحتماء في إخني Ichnæ وهي بلدة أهلها أصدقاء للرومان لا تبعد عنهم كثيراً، فأجابهما بقوله:

- ليس من ميتة أفظع من الموت خوفاً من ترك پوبليوس أصدقاءه الذين يموتون لأجله.

وطلب منهما أن يهتمّا بنجاتهما، وعانقهما وصرفهما عنه. وكانت ذراعه عاجزة لإصابتها بطعنة رمحٍ، ففتح جنبه لحامل سلاحه وأمره بأن يطعنه طعنةً نجلاء. وقيل إن سنسورينوس لحقَ به على هذه الصورة. أما ميگاباخوس فقد بخع نفسه، كما فعل كذلك كل رجل ذي شأنٍ منهم.

وحمل الپارثيون على من تبقّى بالأسِنّة المشرعة فقضوا عليهم في ملحمةٍ مروّعة، ولم يزد ما أخذوا من الأسرى عن خمسمائة. واحتزّوا رأس پوبليوس وركبوا به متجهين إلى معسكر كراسوس.

في إمكاننا إجمال موقف كراسوس يومذاك بما يلي:

بعد أن أمر ابنه بالصولة على العدوّ بفترةٍ ورده نبأ هزيمة العدوّ من ميدان القتال، وأن المطاردة أبعدت الشقّة ما بينه وبين ابنه. ثم لاحظ أنّ ضغط العدوّ عليه خفّ كثيراً

ولم يعد كما كان، (ولا عجب فقد تحوّل القسم الأكبر منه إلى پوبليوس للانقضاض عليه من حيث لا يحتسب) فتنفس كراسوس الصعداء وعادت إليه روحه وانتعشت آماله قليلاً، وعمل على نقل مواقع جيشه إلى أرض فيها انحدار بسيط ينتظر عودة ابنه من الطراد. وما إن أحسّ پوبليوس بالخطر حتى أخذ يتابع إرسال السعاة إلى أبيه، أولهم اعترض العدوّ سبيله وفتك به، أمّا الأخير الذي خلص منهم بمعجزة فقد جاءه بنبأ نهاية پوبليوس إن لم يُنجده بسرعةٍ. فأظلمت الدنيا في وجهه، وأطار الألم رُشده ولم يعد يدري أيّ سبيل يسلك، مَرّة يغلبه الخوف على الجيش كلّه، ومرّة تدفعه الرغبة إلى معونة ابنه؛ وأخيراً قرر التحرك إليه. وفي تلك اللحظة بدت طلائع العدوّ بعجيجها وضجيجها الذي فاق ما بدر منها قبلاً، وبهدير طبولها يقرع آذان الرومان فيصكّها صكّاً ويطير صوابهم، وقد باتوا وهم في خوف من هجوم جديد. أما أولئك الذين جاؤوا برأس پوبليوس فقد رفعوه على سِنان رمح واقتربوا به من مواقع الرومان إلى مسافة تسمح لهم باستقراء ملامحه، ثم إنهم راحوا يتساءلون هازئين: عن مكان أبويه؛ ومن هي أسرته، إذ يستحيل أن يكون محارب شجاع باسل مثله ابناً لجبان رعديد مثل كراسوس. وروّع الرومان هذا المشهد أكثر من أي شيء، ولم يُثر غضبهم ونقمتهم كما هو متوقع، بل أشاع فيهم الهلع، لكن قيل إن كراسوس كان جلداً متمالك النفس أمام مصيبته بشكل أثار الدهشة، فقد سار بين صفوف الجند وهو يصيح بهم:

«تلك يا بني قومي مُصيبتي لا مصيبة أحد غيري، أما حظوظ روما وأمجادها فستبقى سالمة غير ملوّثة ما دمتم في سلام. وإن وجِد بينكم من آلمته فجيعتي بفقد خير أبنائي فليُظهر مدى ألمه بالثأر له من العدوّ. هيّا فانتزعوا منهم فرحتهم، وانتقموا من قسوتهم ولا تأسفوا على ما فات، فمن يغامر في شرف مروم وأمر عظيم لا بدّ أن يكابد ويعاني. إن لوكوللوس لم يهزم خصمه إلاّ بعد أن سالت الدماء أنهاراً.

وهذا سكيپيو لم يغلب عدوّه أنطيوخوس إلاّ كذلك! أجدادنا خسروا ألف سفينة على سواحل صقلية ولا أذكر عدد من فقدوه من القادة ورؤساء العسكر في بَرّ إيطاليا، وكل هذه الخسائر لم تحل دون طردهم غُزاتهم وإجلائهم عن ديارهم. وروما لم تبلغ عظمتها هذه بمحالفة الحظّ فحسب بل بالجدّ والمثابرة والعزيمة وقت الخطر».

ولم يجد كراسوس من جنوده منتبهاً إلى خطبته الحماسيّة إلاّ القليل فقد كان معظمهم ساهماً واجما. وعندما أمرهم بإطلاق صيحة الحرب أخرجوها ضعيفة مرتجفة

لم يبق لديه شكّ في القنوط المستولي عليهم. وكانت صيحة العدوّ قوية ثابتةً. ولمّا جَدّ الجدّ بدأ الاحتياطي والمستجدّ والمراسلة في جيش الپارثيين يفوّقون سهامهم على الرومان وخيولهم تجري بهم طولاً وعرضاً. أما فرسان الخطوط المتقدمة فقد أخذوا يدفعونهم بالأسِنّة من كل جهة ليحصروهم في بقعة ضيّقة وليجعلوهم كتلة متزاحمة. ودفع بعضَ الرومان الخوفُ من الموت بسهام الپارثيين إلى الهجوم عليهم فلم يحققوا ما يستحق ذكره لهم، وإنما قُضي عليهم في الحال، لأن الرمح الپارثي المتين الغليظ يفتح جراحاً واسعة يتعذر علاجها وكثيراً ما تخترق الطعنة جسدين.

أدرك الليل المتحاربَين وهما في قتال دمويّ مرير، ففرّقهما. وراح الپارثيون يتنادون متفاخرين بأنهم سيتكرّمون على كراسوس بليلة واحدة ليبكي فيها ابنه ويلبس الحِداد عليه، إلاّ إذا أهداه عقله إلى حَلٍّ أفضل، وهو أن يتوجّه إلى أرشاك بقدميه، لا أن يقاد إليه قوداً. إلى هذا الحَدّ بلغت نشوة النصر بالپارثيين القريبين منهم. أما هم فقد مرّت عليهم ليلة من أشقى الليلات. وبلغ بهم القنوط حدّاً لم يهتمّوا معه بدفن موتاهم ولا بمعالجة جراحهم، ولا بأنين محتضريهم. وراح كل فرد منهم يندب سوء حظه، وبؤس مصيره. ولم يكن خلاصهم سهلاً بانتظارهم الصبح، لأن الجرحى سيحولون دون الشيء الثاني: إن أخذوهم فسيكون انسحابهم بطيئاً يسهل للعدوّ تعقيبهم وإدراكهم، وإن تركوهم فستنبّه صيحات استغاثتهم وتوسّلاتهم العدوّ؛ على أن رغبة الجميع كانت متفقة على مقابلة كراسوس وسماع رأيه، وإن شعروا بأنه عِلّة كل ما أصابهم. فما كان منه إلاّ أن لفّ عباءته حول جسمه وتوارى مخفياً نفسه عنهم؛ مثلٌ لتقلّبات الحظّ بالنسبة للرجل العادي، وللطموح والتهّور عند العاقل المفكرّ، فهذا الرجل لم يقنعه أن يكون فوق الملايين، وإنمّا ساءه أن يكون أدنى مركزاً من شخصين فقط، فهبط إلى أسفل السافلين وأصبح هو أدنى الجميع.

وجاءه كلّ من أوكتاڤيوس ضابط رُكنِه، وكاسيوس الكويستور لتعزيته، ولمّا وجدوه مشتّت العقل شارد الذهن لا تجديه مواساة قاما بجمع التريبيونات والنقباء (قادة المائة) للمداولة في الموقف. واستقر رأي الجميع على أن الانسحاب هو خير ما يمكن عمله. فصدرت الأوامر بالتهيؤ للرحيل ولم يُنفَخ في البوق حرصاً على الكتمان. وتمّ الاستعداد في مبدأ الأمر بكلّ سكون، ولما أدرك الجرحى أنهم سيبقون ضربت الفوضى أطنابها وساد الهرج والمرج وعلا الصياح والندب في كل المعسكر، فاستولى الفزع والخوف على المنسحبين حتى لكأن العدوّ في أعقابهم، مما ألجأهم إلى تغيير اتجاه سيرهم بين آن وآخر أو التوقف بانتظام، ثم إجراء تعديل عليه أو الإخلال به. أحياناً

يحملون الجرحى الذين لحقوا بهم، وأحياناً يلقونهم، ويبتعدون عنهم فضاع منهم وقت كثير. على أن أغناطيوس Egnatius انفصل عن الرتل بثلاثمائة فارس وانطلق نحو مدينة حرّان فوصلها دون حادث في منتصف الليل. ووقف تحت السور ونادى الحرس باللغة اللاتينية وما إن سمعوه حتى طلب منهم أن يبلغوا حاكمهم كوپونيوس Coponius بأن كراسوس خاض معركة عظيمة جداً مع الپارثيين. وبختام عبارته ألوى عنان جواده وانطلق وكتيبته بأقصى سرعة نحو زويخمة دون أن يصرّح باسمه. وبهذا أنقذ نفسه وأنقذ رجاله، لكنه خسر اسمه وسُمعته لتخلّيه عن قائده. على كلٍ، كانت رسالته لكوپونيوس ذات فائدة لكراسوس، فقد أحدثت عجلتها واضطراب ناقلها شكاً في نفسه وتحسّس أن الأمور ليست على ما يرام. فأصدر أمراً إنذارياً للحامية وطلب منهم احتقاب سلاحهم. وما إن أُبلغ بمقدم كراسوس حتى خرج للقائه وأدخله المدينة هو وجيشه.

ولم يشأ الپارثيون تعقيب الرومان المرتدّين ليلاً مع أنهم انتبهوا إلى رحيلهم. وما إن بدت تباشير الصبح حتى انقضّوا على المتخلّفين في المعسكر وأعملوا السيف في رقابهم فقضوا على أربعة آلاف رجلٍ تقريباً، وتمكنت خيّالتهم الخفيفة من التقاط عدد كبير في الطريق. وكان ڤارغينتيوس Vargintinus أحد الضباط الرومانيين قد انفصل بأربعة أفواج عن بقيّة الرتل المنسحب أثناء الليل بسبب انحرافه عن الطريق، فأحاط الپارثيون بهذه القوة التي تجمّعت للدفاع فوق تلّ صغير وذبحوها عن بكرة أبيها، باستثناء عشرين رجلاً شقّوا طريقهم في زخم القتال بسيوفهم المشرعة دون مبالاة بما يصيبهم. فأُعجب الپارثيون بشجاعتهم الخارقة وفتحوا لهم صفوفهم من اليمين واليسار وتركوهم يمرّون دون تعرّض ليبلغوا حرّان سالمين.

وأُبلغ سورين بنبأ نجاة كراسوس وكبار ضباطه وأن الواصلين إلى حرّان هم فلول من الجنود العاديين الذين لا يستحقّون عناء التعقيب، وكان طبعاً نبأً غير صحيح. على أنه أراد أن يتأكد من صحّة الخبر، مدفوعاً بنتيجته المؤلمة في احتمال خسارته تاج نصره ومجده، حتى يتخذ قراره بإلقاء الحصار على حرّان أو ملاحقة كراسوس حيثما اتجه. فبعث بأحد مترجميه إلى المدينة وطلب من أسفل السور باللاتينية أن يُستدعى كراسوس أو كاسيوس لأن القائد صوران يرغب في التفاوض على الصلح. فأسرع كراسوس يوافق على الاقتراح. وبعد ذلك بقليل قدم لفيف من العرب كانوا يعرفون كراسوس وكاسيوس بالوجه معرفة جيدة لطول تردّدهم على المعسكر الروماني قبل المعركة، فتوضّحوا كراسوس من فوق السور وتأكدوا من هويّته، وأنشأوا يقولون له إن

صوران يرغب في الصلح وإنه سيمنحهم أماناً بالعودة إلى أوطانهم شريطة أن يعقد مع سيّده الملك معاهدة صداقة ويجلو عن بلاد ما بين النهرين ويسحب كل حامياته من مدنها، وفي رأيه أنها شروط حسنة يجمُل بكراسوس قبولها قبل أن يفدح الخطب وتصل الأمور إلى نهايتها القصوى. فرضيَ كراسوس وطلب تحديد مكان وزمانٍ للاجتماع، وعاد العرب إلى صوران مزوّدين بهذه الرسالة، فلم يكن سروره بها قليلاً إذ أكدت له وجود كراسوس في المدينة.

وفي اليوم التالي خرج بجيشه، وأخذ يوجّه الإهانات وهَجْر القول إلى الرومان، وأمرهم بعجرفةٍ أن يسلّموا له كراسوس وكاسيوس مشدودي الوثائق إن أملوا منه الرحمة. واضطرب الرومان كثيراً عندما انكشفت لهم الخديعة، وآلمهم ما سمعوه من شتائم وإهانات وسخرية. وطلبوا من كراسوس أن يُسقط من حسابه تلك الآمال الخلاّبة الفارغة بقرب وصول نجدة عسكرية من أرمينيا وأن الأفضل من انتظارها هو الخروج للبحث عنها ولقاؤها. كان من المقرر أن تكون خطّة خروجهم من المدينة في طيّ الكتمان وتبقى سرّاً حتى يكونوا في الطريق، لا يعرف بها أحد من أهل المدينة قطّ. إلاّ أن كراسوس أسرّ بها إلى أندروماخوس وهو رجل لا يفوقه أحدٌ في الغدر، ووصلت ثقته به حدّاً أن اختاره دليلاً في مسيرتهم. ولا شكّ في أن البارثيين كانوا يطّلعون بفضله على مراحل الخطّة ودقائقها وما اتُّخذ من قرارات وتدابير لتنفيذها. ولما كان يصعب عليهم القتال الليلي كما أسلفنا، ولأن كراسوس اختار الظلام للسير، فقد أوصى أندروماخوس بقيادة الرتل الروماني في مسالك ملتوية متشابكة لتبديد الوقت ولكيلا يبتعد بهم كثيراً عن مطارديهم. ثم بلغ أرضاً موحلة كثيرة المستنقعات والسواقي فزاد عناء الرومان وحاروا في كثرة المنعطفات والاستدارات وشكّوا في نوايا أندروماخوس حتى قرروا ألاّ يتبعوا إرشاداته. وأخيراً لم يسع كاسيوس إلاّ العودة. وهناك نصحه أدلاء عرب بالتريّث حتى يخرج القمر من برج العقرب فردّ عليهم قائلاً: «إن أخوف ما أخافه هو برج القوس Sagittarius[٢]».

قال هذا وخرج بخمسمائة فارسٍ إلى سورية. وسلك آخرون بمعونة أدلاء أمناء طريقاً محاذية لجبال سينّاكا Sinnaca وبلغوا مواضع مأمونة في صباح اليوم التالي وكانوا خمسة آلاف بقيادة أوكتافيوس المعروف ببسالته. ولم يكن كراسوس موفّقاً مثله فقد أدركه الصبح وهو يعمل بوحي أندروماخوس، تضرب القوات المتبقية معه في

---

(٢) برج العقرب هو الثامن من أبراج قبّة الفلك. وبرج القوس هو تاسعها [م. ت].

البطائح والأرض الوعرة على غير هدى. وهي بمجموعها لا تزيد عن أربعة أفواج وقليل من الخيّالة وخمسة من اللكتور، أضرّ بهم السير وأنهكهم حتى ما عادوا يفطنون إلى أنهم لا يبعدون عن أوكتاڤيوس غير ميل ونصف ميل. ولما فطنوا لم ينضمّوا إليه وقرّروا الاحتماء بتلّ آخر بينما كاد العدوّ يُطبق عليهم. ولم يكن في هذا التلّ ميزة دفاعية، أو صلاح لحركات الخيّالة، وكان يقع تحت قدَمات جبال سيناكا يمتدّ عبر السهل ليتصل بسلسلتها الطويلة. ولاحظ أوكتاڤيوس الخطر المحدق بكراسوس فاتجه نحوه بقوّاته متباطئة أولاً، ثم دبّ فيه النشاط وأسرع، وارتفعت الحميّة في نفوس رجاله فأخذوا يعنّفون بعضهم بعضاً ويعيّرونه بالانحطاط والدناءة لتخلّيه عن قائده. وبهذه الروح سيطروا على الپارثيين وأجلوهم عن التلّ. وأحاطوا بكراسوس يحمونه بتروسهم ويقولون بكبرياء وزهو: «لن ندع سهماً بارثياً واحداً يمسّ جنرالنا ما دام فينا نفس يتردّد».

ولاحظ صوران أن جنوده زاهدون عن تعريض أنفسهم. وأدرك أيضاً أن الرومان قد ينجحون في الفرار إلى الجبال إن أطالوا أمد المعركة حتى الليل، فيفلت من يده نهائياً. ولجأ إلى مكره المأثور بأن عمد إلى إطلاق سراح لفيف من الأسرى الرومان ووضع في طريق خروجهم من المعسكر جماعة من رجاله على قيد مسمع منهم ولقّنهم أحاديث معيّنة يتكلمون بها ليسمعها الأسرى. وطفق هؤلاء البرابرة يتحدثون عن عدم رغبة الملك في مواصلة الحرب إلى نهايتها ضد الرومان، وعن حبّه للصلح والتفاهم كما يدلّ موقفه من كراسوس عموماً. وقالوا إن البرابرة امتنعوا عن القتال لهذا السبب، وإن صوران تقدّم الهوينا بنفسه مع كبار ضباطه وحَلّ وتر قوسه، ورفع يديه إلى أعلى يدعو كراسوس إلى الاتفاق والصلح، ويقول إن الملك الذي أراد اختبار شجاعة جنوده وصلابتهم يريد الآن - وبعد تأكده منها - أن يضع نهاية للقتال ويرغب في الصداقة والوئام بقبوله الهدنة، وسماحه لهم بالانسحاب من دون تعرّضٍ. . .

هذه الأقوال المعزوّة إلى صوران نقلوها إلى رفاقهم فاستقبلوها بسرور ولهفة. ولكن كراسوس الذي ذاق ما يكفي من غدر صوران ونكثه بالعهد عجز عن إيجاد سبب وجيه لهذا التحوّل المفاجئ في سلوك العدوّ، ولم يؤمن بما قالوا وإنما طلب أن يُمهل للتفكير في الأمر. فضجّ الجنود بالصراخ وطلبوا منه أن يدخل المفاوضات في الحال. وراحوا يلومونه ويتطاولون عليه قائلين إنه لظلم عظيم أن يأتي بهم لقتال رجال هذا سلاحهم، رجال لا يجرؤ هو على الوقوف في وجههم عندما يكونون بدون سلاح!

وحاول في مبدأ الأمر إقناعهم بالحسنى واللين، وطالبهم بالتحلّي بالصبر والانتظار

حتى الليل وإذ ذاك سيتمكنون من الجبال ومفازاتها التي تعجز الخيل عنها ويخرجون عن دائرة الخطر. ومدّ يده مشيراً إلى طريق الجبال راجياً منهم أن لا يتركوا سبيل خلاصهم الذي بات أقرب إليهم من حبل الوريد. فلم يسمعوه وراحوا يقرعون تُرساً بترسٍ بشكلٍ تهديديّ، معلنين تمرّدهم. وغُلب على أمره وأُرغِم إرغاماً على الذهاب لمفاوضة العدوّ. ولم يأت بأية حركة أو ينطق بحرف حتى حان الوداع فاستدار إلى الضباط وقال:

- اشهدا عليّ أنت يا أوكتافيوس وأنت يا پطرونيوس بأني ما ذهبت إلاّ مضطراً مرغماً وأني لا أستطيع إلاّ أن أحسّ بوقع الإهانات والتطاول عليّ. قولوا للناس كافة عندما تُكتب لكم النجاة إن كراسوس كان هلاكه بمكر أعدائه أكثر مما كان بعصيان أبناء قومه عليه.

على أن أوكتافيوس وپطرونيوس لم يتركاه وإنما هبطا التل معه. أمّا بخصوص حرس اللكتور الخمسة فقد طلب كراسوس منهم أن يتركوه ويعودوا. وكان أول من لقيه إغريقيّان من المولّدين فترجّلا عن جواديهما قفزاً وأدّيا له تحية الإجلال، وطلبا منه باللغة الإغريقية أن يرسل أمامه رجالاً للتحقق من قدوم صوران بنفسه إليه بحاشية لا تحمل سلاحاً غير سيوف الزينة، فأجاب بقوله:

- لو كنت مهتماً بحياتي أقل اهتمام لما ائتمنتُ عليها أيدي هؤلاء. وإنما أرسلت الأخوين روسكيوس Roscius للتفاهم على الشروط وعدد المفاوضين.

ما لبث صوران أن أمر بالقبض على هذين فوراً. وتقدّم يحفّ به كبار ضباطه على صهوات الخيل حتى أصبح أمام كراسوس فحيّاه وقال له:

- أيجوز لجنرال روماني أن يسير على قدميه، وأنا راكب تحفّ بي حاشيتي؟

فأجاب كراسوس أنْ ليس هناك خطأ من أية جهةٍ لأن لقاءهما تمّ كلّ بحسب عادة بلاده وتقاليدها. وقال صوران إنّ عهد صفاء يحلّ من هذه الساعة بين الملك سيّده وبين الرومان وإنه يريد من كراسوس أن يمضي معه إلى النهر للتوقيع على الاتفاق... وأضاف يقول:

- هذا، لأن ذاكرتكم أيها الرومان ضعيفة، إذ سرعان ما تنسون العهود والمواثيق.

ثم مدّ يده إليه مصافحاً. وأصدر كراسوس أمراً بقيادة جوادٍ من خيوله، فاعترض صوران قائلاً:

- لا داعي لذلك، فالملك سيّدي يهديك هذا الحصان.

وأمر فسِيقَ حصان ذو لجام ذهبي، وأمر السائس بإعانة كراسوس على امتطائه رغم

تمنّعه. وبعد أن استوى على السرج وجّه أحد السُّياس الذين كانوا يجرون إلى جنبه ضربة إليه ليحثّ من سرعته، فأسرع أوكتاڤيوس وقبض على الزمام، وهرع پطرونيوس وبقيّة الضباط الحاضرين يحاولون إيقاف الحصان. وأمسكوا بتلابيب أولئك الذين كانوا يحثّون الحصان على الجري من الجانبين وتدافعوا معهم واختلط الحابل بالنابل، وقامت ضجة من جرّاء السحب والدفع انقلبت إلى حربٍ وقتال. فجرّد أوكتاڤيوس سيفه وفتك بپارثيّ فقنّعه واحدٌ بالسيف وقتله. وكان پطرونيوس أعزل، إلاّ أن ضربةً هوت على درع صدره فسقط عن ظهر جواده على الأرض ولم يُصب بسوءٍ. وقُتل كراسوس بيد بارثيّ يدعى پوماشاثرا Pomaxathres، ويقول آخرون إن أيادي كثيرة تعاونت على قتله. وقيل إن پوماشاثرا احتزّ رأسه وقطع يُمناه بعد أن صُرع. وكل هذا حدسٌ في حدسٍ. وظلت الحقيقة يحيط بها الغموض لأن القريبين من الحادثة لم يكونوا في وضع يسمح لهم بملاحظة التفاصيل والدقائق، وكانوا بين قتيل وهو يدافع عن كراسوس، ومسرع في الفرار إلى رفاقه فوق التل.

بعد هذا تقدّم الپارثيون من مواقع الرومان قائلين: إن كراسوس نال ما يستحقّه من قصاص، وإن صوران يطلب من البقيّة الباقية النزول ولهم الأمان. فنزل بعضهم واستسلم وتشتّت شمل الآخرين في ساعات الليل، ولم يبلغ الوطن منهم إلاّ النزر اليسير. ووقع العرب الرُّحّل على طوائف منهم هامت على وجهها في الصحراء ففتكوا بها. وكان التقدير العمومي لخسائر الحملة عشرين ألف قتيل وعشرة آلاف أسير.

وأرسل صوران رأس كراسوس ويده إلى الملك هيرودس في أرمينيا. إلاّ أنه بث سُعاته ورُسل أخباره ينشرون في البلاد أنه سيأتي بكراسوس حيّاً إلى سلوقية ويسير به في موكب مسخرة وتهريج، (سمّاه موكب ظفرٍ استهزاء وتهكّماً]. وكان بين الأسرى رجل يدعى كايوس پاشيانوس Caius Paccianus عجيب الشبه بكراسوس، فجاء به وألبسه ثياب النساء الپارثيات، وأمره بألاّ يجيب إلاّ إذا نودي بكراسوس أو إمبراطور، وساروا به وهو على متن حصان يتقدّمه جوق من البوقيين واللكتور وهم راكبون جمالاً وقد عُلّقت صُرر في نهاية حُزم عصيّهم. ورُكّزت رؤوس قتلى حديثاً فوق شفرات فؤوسهم وهي تقطر دماً. وسارت خلف هذا الموكب مغنّيات سلوقيات ينشدن قصائد تهكم وسخرٍ بخنوثة كراسوس وجُبنه. ولم يبقَ أحد في المدينة إلاّ وشاهد هذا الموكب. ثم إن صوران جمع مجلس الشيوخ السلوقي ووضع أمامهم عدداً من الكتب النادرة التي كان الاعتقاد قد ساد بأنها فُقِدت، وهي من مؤلفات أريستيدس وبينها مؤلّفه «ميليسياكا Milesiaca». ولم يقم أي شكّ في أصالتها، فقد وجدت في أمتعة

روستيوس Rustius، وهذا ما زوّد [صوران] بمصدر جيّد لتهكّمه على الرومان وتعليقاته الساخرة المهينة كقوله: إنهم لا يستطيعون حتى زمن الحرب نسيان أمثال هذه الكتابات ومطالعتها. على أن أهل سلوقية كانوا على حقٍ في إطراء الحكمة والمغزى المستخلَص من أسطورة «الجراب» لصاحبها إيسوب. فقد لاحظوا أن قائدهم صوران يضع أمامه جراباً مملوءاً بمتفرّقات من الحكايات الميليسيّة. بينما كان يسير خلفه مجتمع دعارة پارثيّ كامل بكلّ ترفه وبذخه، ممثلاً في قطار العربات الملأى بمحظياته.

وانطلقت ألسنة الناس تلدغ كالأفاعي والثعابين فقالوا إن كل ما برز للعين في مقدّمة المركب كان مرعباً مخيفاً برماحه ونباله وفرسانه، وكل ما انتهى إليه الموكب فبنساء فاجرات، وصحون رقص، وآلات طرب وموسيقى، وعيدان، وفجور ما بعد منتصف الليل. وإني في الواقع لا أجد عذراً لروستيوس في انشغاله بهذه الكتب وهو في ساحة الحرب. إلاّ أن الپارثيين بسخريتهم من الحكايات الميليسية نسوا أن كثيراً من أفراد الأسرة الأرشاقية التي تحكمهم قد خرجوا من أرحام محظيات أيونيّات وميليسيات!

كان الملك هيرودوس وقتذاك قد توصّل إلى صُلحٍ مع الملك الأرمني. وزوّج ابنه پاكوروس Pacorus من أخت ملك الأرمن. وكانت المآدب والولائم التي أقيمت بهذه المناسبة أفخم من أن توصف. وتخلّل ذلك تمثيل إغريقي وإلقاء مختلف المقطوعات الشعرية الإغريقية أمام الملكين. فهيرودوس لم يكن يجهل تلك اللغة ولا آدابها، وأرطاڤازديس كان متبحّراً فيها بحيث ألّف بها في التاريخ والخُطب، وله عدّة تراجيديات. وما زال قسم من مؤلفاته موجوداً إلى يومنا هذا.

لما جيء برأس كراسوس كانت الموائد قد رفِعت لتوّها. وبدأ ممثل تراجيدي من تراليس Tralles يدعى جاسون في إنشاد المشهد الخاص بـ«آغاڤه» Agave من مرسحيّة الـ«باخيّات» Bacchae ليوريپيدس والإطراء ينثال عليه، والاستحسان يرتفع من حوله. ودخل سيلّلاك القاعة وسجد للملك، ثم ألقى برأس كراسوس في وسط الحفل. فاستقبله الپارثيون بفرح وهتاف. وجلس سيللاك بأمر من الملك بينما نزع جاسون ثياب دور پنثيوس Pentheus الذي كان يتقمّصه ودفع بها لإحدى راقصات الجوق. وتناول رأس كراسوس بيديه وراح يمثل دور باخانتيه Bacchantes وهي في حالة وجدٍ وانجذاب. ثم أنشد المقطوعة التالية بصوت مؤثّر عاطفي يأخذ بمجامع القلب:

«اليوم اصطدنا طريدة جبّارة...

وعدنا من الجبل بقنيصة كريمة».

فطار الحُضّار فرحاً وهلّلوا له، ولكن لما بلغ من غنائيته هذين البيتين:

«أيّ يدٍ محظوظة ذبحت هذه الضحية الممجّدة؟

إني أدّعي بهذا الشرف لشجاعتي!».

نهض من الحاضرين پوماشاترا وتقدّم يريد أخذ الرأس قائلاً:

- إنه من حقي لا لأحد غيري.

فامتلأ الملك سروراً. وعلى عادة الپارثيين فرّق تالنتاً واحداً على الرُّسل. ولم يستثن جاسون من هذه الهدية.

تلك هي الهزليّات التي مُثّلت في أعقاب مأساة حملة كراسوس على ما قيل لنا. فكانت أشبه بالمقطوعات الختامية للتراجيديات. على أن العدالة الإلهية لم تتأخّر في إنزال العقاب بهيرودس لقسوته وبصوران لنكثه بعهوده. فقد نقم عليه الملك بعد قليل وغار منه لتعاظم سلطانه ففتك به. وسقط الملك نفسه فريسة مرضٍ عُضال بعد فقده ابنه پاكوروس في معركة مع الرومان، وتحولت عِلّته إلى داء الاستسقاء. فأعطاه ابنه الآخر فرهاد Phraates جرعة من منقوع خانق الذهب [سم الأكونيت] ليخمد أنفاسه، إلا أن السمّ أفلح في إزالة المرض عنه وشُفي به فجأة. فاضطرّ فرهاد إلى اختصار السبيل بخنقه.

أوجُه المقارنة بين كراسوس ونيقياس

في مجال المقارنة ما بين هذين الرجلين قد يجمُل بنا أن نبتدئ بمضاهاة غنى الواحد بالآخر، وهنا يجب علينا الإقرار بأن نيقياس حصل على ثروته بطُرق أكثر نزاهة من كراسوس. إن المرء لا يسعه الإقرار بشرعيّة جمع الثروة من أعمال المناجم بحدّ ذاتها، فأغلب الجهد فيها يقع على كاهل البرابرة والمجرمين المحكومين، وبعضهم يكدح فيها وهو مكبّل بالسلاسل، ويدفعون حياتهم ثمناً لهذا، وهم يكدحون في باطن الأرض والمناطق الموبوءة التي تزخر بالأمراض. ولكن لو قارنّا هذا بما جمع كراسوس من مصادرات سيلّلا واغتصابه وما حصل عليه من صفقات المنازل التي أتت عليها النيران لوجدنا نيقياس أنزه في جمع الثروة من كراسوس بما لا يقاس. لقد استخدم كراسوس أساليب إنماء ثروته علناً واعتبرها من قبيل الحِرفة، كما يحترف الآخرون الزراعة مثلاً، ولم يتعفّف عن الربا والفائدة. أمّا الوسائل الأخرى التي كان يوصم بها فينكرها عندما يُجابَه بها كبيع صوته في مجلس الشيوخ لمن يدفع الثمن الأعلى، والإضرار بأصدقائه وملاحقة النساء، والتغاضي عن المجرمين في سبيل المال، فمثل هذا لم يؤثر عن نيقياس قط لا صدقاً ولا كذباً، حتى أنه لم يخطر بالبال اتهامه بشيء من هذا. وإنما كان الناس يسخرون منه لأنه يدفع مالاً لأولئك المبتزّين الذين اتخذوا عادة ثلب الناس ونهش أعراضهم حِرفةً لهم، جبناً منه ليس إلاّ. وهو أمر إن لم يكن يليق بأريستيدس وپيركلس مثلاً فإنه ضروري لمن تنقصه الثقة بالنفس. وقد أقّر ليكورغوس الخطيب الجماهيري بهذا إقراراً صريحاً عندما اتُهم بأنه اشترى وثائق وأدلّة قانونية فقال: إنه مسرور جداً لاتهامه بالعطاء لا بالأخذ بعد أن خدمهم وأدار شؤونهم العامة هذه المدة الطويلة.

ويمتاز نيقياس على كراسوس باختياره وجوهاً للإنفاق أصلح وأجدى من الناحية العامة. فقد كان يتفاخر ويعتزّ بما يوقف من أموال ويهدي للمعابد، وبالإشراف على الألعاب الرياضية وتنظيمها وتأمين الفرق التمثيلية وأجواقها، وتزيين المواكب الدينية

العامة. في حين كانت وجوه إنفاق كراسوس منصرفة إلى إقامة الولائم ثم توفير الطعام لعشرات الألوف، وهذا أكثر بكثير مما ملكه نيقياس وأنفقه في شتّى الوجوه طوال حياته. ومن هذا لا يملك المرء إلاّ أن يعجب من قصورهما في إدراك هذه الحقيقة وهي أن الرذيلة عقبة ونقيض للعادة، ومن أمثال ذلك كسب الأموال بالسحت والحرام وتبذيرها بهذا السفه والطرق السيئة. ولنكتفِ هنا بهذا القدر من الحديث عن ثروتيهما.

أمّا عن تصريفهما الشؤون العامة فأنا لا أجد في تصرّفات نيقياس مما يؤاخذ عليه من الغش أو الظلم أو المحاباة، بل كان ضحيّة حيل ألكيبياديس وألاعيبه. وهو والحق يقال دقيق نزيه في تعامله مع الشعب. أمّا كراسوس فقد كان أكثر اللوم ينصبّ عليه بسبب سرعة تقلّبه في صداقاته وعداواته، واشتهاره بقلّة الإخلاص، وبوسائله الدنيئة المنحطة التي لا يعتبرها عيباً. فهو مثلاً لا يُنكر أنه استأجر رجالاً للاعتداء على دوميتيوس وكاتو لأجل فوزه بالمنصب القنصلي. وكيف أنه في الاجتماع العام الذي عُقد لأجل إسناد حاكميات الأقاليم تسبّب في قتل أربعة أشخاص وجرح الكثيرين، بل وجّه بيده لكمة للوشيوس أناليوس Lucius Analius عضو الشيوخ لمقاطعته الكلام، فترك المضروب القاعة والدم يسيل من وجهه. وقد أغفلتُ ذكر هذا في سيرة حياته. وإن نحن وجّهنا اللوم لكراسوس، بسبب استبداده وعنفه في أساليبه، فيجب أن نوجّه مثله من اللوم إلى نيقياس لجبنه وتردّده اللذين جعلا منه رجلاً إمّعة يطيع أحطّ الناس ويخضع لهم. وكان كراسوس من هذه الجهة أكثر أنفةً وأعظم منه شعوراً بالكرامة وعزّة النفس، فلا يتدنّى لأمثال كليون، أو هيبربوليس، فيعمل على محاكاة مآثر قيصر، ويطمح إلى أمثال مواكب نصر پومپي الثلاثة، فلا تراه ناكصاً مُحجماً، بل كان يهاجم بكلّ جرأة مصالحهما المشتركة، فينال منصب «الچنصور» متفوّقاً حتى على پومپي. وعلى رجل السياسة ألاّ ينظر إلى الشيء بالنسبة إلى عواقبه ومخاطره، بل بقدر ما هو نبيل القصد، وهذه هي العظمة التي تجعله يتغلّب على الغيرة ويقهر الحسد. أما إذا كان كنيقياس ينشد على الدوام الأمان والهدوء، ويمتلئ خوفاً من ألكيبياديس كلما ارتقى المنبر، ويخشى اللقيديميين وهم في پيلوس، ويفرق من پرديكاس Perdicas في تراقيا، فما عليه إلاّ أن ينتهز لنفسه أول فرصة لاعتزال السياسة والجلوس خارج ضجّة الحكم، «لينسج من خموله أكليل غاره» على حَدّ قول أحد السفسطائيين. إن رغبته في السلام وإنهاء الحرب كانت في الواقع مطمحاً إلهيّاً قدسيّاً، يسمو به جداً على كراسوس ويبتعد عن مجال المقارنة، وإن كان هذا الأخير قد وسّع أملاك الإمبراطورية الرومانية إلى بحر قزوين والمحيط الهندي.

وفي الدولة التي تتّسم ببعض اتجاه نحو الفضائل ينبغي للرجل القويّ ألاّ يُفسح مجالاً للمكروهين، ولا أن يعرض الحكم على من يعجز عنه، ولا أن يضع ثقة عاليةً في من تعوزه النزاهة السياسية. إلاّ أن نيقياس بانكماشه وجُبنه أفسح سبيلاً لكليون وهو شخص لا ميزة فيه إلاّ قوة حنجرته وصفاقة وجهه، ورفعَه إلى قيادة الجيش. والحقيقة هي أني لا أريد هنا أن أمتدح كراسوس القائد المندفع للحرب ذلك الاندفاع الذي غلب عليه الحذر والفطانة في حروب سپارتاكوس، وان كان هذا الاندفاع بداعي الكرامة والحرص على السمعة لئلا يحرمه قدوم پومپي أمجاد تلك الحرب. كما فعل موميوس بمتيللوس عند الاستيلاء على كورنث. إلاّ أن تصرّف نيقياس لا ينفع فيه عُذر، فهو لم يقتصر على التنازل عن مجرّد فرصة في الحصول على السمعة والتكريم، بل حمد وشكر خلاصه من المهمة وترك جمهوريته للمقادير اعتقاداً منه أن الحملة ستكون محفوفة بالأخطار. وفي الوقت الذي رأينا كيف تقدم تميستوكلس للاضطلاع بالقيادة، خشية أن يستولي عليها شخص حقير غير كفء، فرشّح نفسه للزعامة عندما تأزّم الوضع وحزبت الأمور غير هيّاب ولا وجِل، مدفوعاً برغبته في خدمة بلاده، نجد نيقياس يشغل نفسه بصغائر الحملات العسكرية وتوافهها كحملته ضد مينوا Minoa وكيثيرا والميليين Melians التعساء. فإذا آل الأمر إلى حَدّ الاشتباك باللقيديميين رأيته ينضو عنه بِزّة الجنرال ويسلّمها لغباء كليون وطيشه مع الأسطول والسلاح والجنود والقيادة والإدارة حيث يتطلّب منتهى البراعة والخبرة. أقول إن سلوكاً كهذا لا يمكن أن يوصف بقلّة الاكتراث الفظيع بالسمعة مثلما يوصف بإهمال مصالح الوطن والاستهتار بحفظ كيانه. وعلى هذا عندما اتفق أنه أُجبر على الحرب الصقليّة كرهاً منه، وحُمل إلى القيادة حملاً، اعتقد الناس عامةً أن إيمانه بصعوبة الحملة لم يكن إيماناً صادقاً وإنما تغطية لحبّه الراحة، وجُبنه وتخوّفه من أن تفشل مدينته في فتح صقلية. وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظرٍ أخرى فبإمكاننا اعتبارها أعظم دليل على استقامةٍ ونزاهةٍ فيه. فقد كان على الدوام يعارض في الحرب ويمجّ القيادة العسكرية، وبنو قومه لا ينفكّون عن إسنادها إليه لأنه في نظرهم أفضل وأقدر جنرالاتهم. وأما كراسوس في طموحه الدائم إلى القيادة فلم يدعَ إليها إلاّ عند الضرورة الملحّة في حرب العبيد. لأن پومپي وميتللوس والأخوين لوكوللوس كانوا غائبين عن البلاد، في حين كان آنذاك قد بلغ أوج الشهرة والصيت. حتى أولئك الذين كان رأيهم عالياً فيه الظاهر أنهم نظروا إليه تلك النظرة التي ينطبق عليها قول الشاعر الكوميدي:

«بطلٌ في كل مكان، إلاّ في ساحة الوغى».

على كلّ حال كان الرومان لا يملكون دفعاً لميله الشديد إلى القيادة وحبّه للظهور. لقد أرسل الأثينيون نيقياس إلى الحرب ضدّ رغبته، وقاد كراسوس الرومان إلى الحرب ضد رغبتهم فجلب المصائب لروما. وجلبت أثينا المصائب لنيقياس. وهذا على أية حال مدعاة لمديح نيقياس أكثر من أن يكون مدعاة لتخطئة كراسوس، فتجاربه وصواب أحكامه في الشؤون الحربية ابتعدت به عن الانحراف وراء الآمال الخادعة التي تبنّاها بنو قومه، وجعلته يأبى الإيمان بفكرة إمكان فتح صقلية. أمّا كراسوس فقد أخطأ في ظنّه أن حربه مع الپارثيين ستكون حرباً سهلةً، وكان الشوق والرغبة تدفعه - وهو يرى قيصراً يُخضع بلاد الغال والجرمان وبريطانيا - إلى إكمال فتوحات پومپي ولوكوللوس بالتقدم من ناحية الشرق حتى المحيط الهندي، وبفتح آسيا كلها. وپومپي ولوكوللوس هما من أصلب الرجال عزماً وأعزّهم جانباً وأكثرهم كفاءة؛ وأفكارهما عين أفكار كراسوس وأهدافهما أهدافه.

لمّا عُيّن پومپي لهذه القيادة قبل كراسوس وقف أعضاء مجلس الشيوخ معارضين. ولمّا هزم قيصر ثلاثمائة ألفٍ من حجافل الجرمان كان اقتراح كاتو أن يُسلّم هذا القائد المنتصر إلى عدوّه المهزوم ليوقع به عقوبة النكث بالعهد، في الوقت الذي كان الشعب يردّ على كاتو بإظهار أقصى درجة من الفرح، وأعلن عيداً رسمياً أمدُه خمسة عشر يوماً احتفاء بالنصر! فماذا سيكون شعور الشعب وكم ستطول أعياده لو بعث لهم كراسوس من بابل أنباءً عن انتصاراتٍ وزحفٍ إلى الأمام أدّى إلى إخضاعه بلاد مادي وفارس، والهيركيين، ومدينة سوسه وبلاد بختيريا، وضمّها إلى الممتلكات الرومانية؟

يقول يوريپيدس إنْ لم يكن من عمل السوء بُدٌّ، وإن عافت أنفسنا الرضا بالسلام وعجزت عن فعل الخير، فلنتحاشَ أن تؤدّي تصرّفاتنا إلى نتائج مؤسفة مثل تدمير منده Mende أو سكانديا Scandia، أو الفتك بالمنفيين [الايجنتان] وهم في مخابئهم التي لجأوا إليها هرباً كالطيور الوجِلة المطاردة بعد إرغامهم على ترك ديارهم إرغاماً؛ بل دع تلك الأعمال تنصرف إلى اطّلاب ما يكون جزاؤه على قدر مشقّته، وأن لا نبتعد كثيراً عن جادّة العدل، ولا نعتبر هذه الفضيلة من الصغائر والتوافه فنتنزل عنها لقاء ثمن صغير تافه.

هذا وإن الذين يمتدحون غزوات الإسكندر المقدوني، ويعيبون غزوات كراسوس، إنما يحكمون على الأعمال بخواتمها ونتائجها، وهو حكم لا أبا لك ظالم أهوج يجافي العدل والإنصاف.

ولقد أظهر نيقياس في الخدمة الفعلية الكثير مما يستأهل عنه الثناء العاطر، فكم

مرّة دحر العدوّ في ميادين القتال وكم مرّة كاد يستولي على صقلية. وعلينا أن نقرّ في هذا الباب أنه ليس من الصواب تحميله كل الملام في هذه النكبة وإن كان جانب منها يُعزى إلى علّته ومرضه والى الحسد الذي كان أبناء بلده يحملونه له. أمّا كراسوس فقد بلغت أخطاؤه حدّاً لن يفسح للحظّ سبيلاً ليحابيه بشيء. فلا عجب أن نرى رقاعته تُوقعه فريسةً سهلة للپارثيين، على أن العجب الوحيد فيها أن توقع بروما نكبةً وهي التي ظلّ حُسن الحظّ يواكبها حتى تعوّدته. ولو نظر المرء إلى خُلق كراسوس نظرة فاحصٍ دقيق لوجده كم كان قليل الإيمان بالعِرافة والنبوءات. وبما أن نهايته ونهاية نيقياس كانتا متشابهتين فمن العسير أن نصل إلى نتيجة مُقنعة. ومع هذا فإن خطأ الإفراط في الحذر الذي يدعمه رأي قديم ورأي عام لهو مما يستحق الصفح والإغضاء، لا كالإرادة الواحدة الشخصية المندفعة اندفاعاً أهوج.

ومع هذا فقد كانت ميتة كراسوس أشرف وأسمى من ميتة قرينه، فإنه لم يستسلم ولم يقيّد نفسه بعهدٍ ولم يؤخذ بخداعٍ وإنما راح ضحيةً لتوسّلات أصدقائه، ولغدر أعدائه، في حين زاد نيقياس من عار موته بتذلّله وخنوعه الذي دفعه إليه أملٌ في نجاةٍ مُخجلةٍ ذليلة يحفّ بها العار.

سرتوريوس

SERTORIUS

(Quintus)

١٢٣–٧٢ ق.م

ليس مما يدعو إلى العجب الشديد أننا نجد في مسرى حقبة من الزمن طويلة - وفي أثناء سلوك الحظّ سُبله المختلفة هنا وهناك - وقوع صُدف عفوية كثيرة جداً تجلّ عن الحصر. وإذا ما كانت العوامل العديدة المتنوّعة التي تؤدّي إلى هذه الصُدف مما لا نهاية له فقد يكون أسهل على الحظّ بما يملكه من وسائل لا تُحصى أن يأتي بمثل هذه النتائج المتشابهة. هذا وإذا كانت الأحداث والوقائع محدّدة بعدد معيّن من المقدّمات والتوطئات فكثيراً ما تظهر النتائج متشابهة بحكم الضرورة، وعلى نفس الوتيرة والتوالي.

وثمّ من يجد مُتعة خاصّة في جمع هذه الوقائع وتصنيفها في مجموعات على أساس التشابه مما قرأوه وسمعوه وقصدُهم من ذلك إظهارها وكأن قوى مفكّرة عاقلة أعدّتها وخططت لها. فهم يذكرون مثلاً شخصيتين بارزتين كلاهما اسمها أتيس Attis الأول سوري والثاني أركادي وكلاهما فتك به خنزير وحشي، كذلك يقدّمون شخصين باسم أكتيوس Actæon أولهما نهشته كلابه نهشاً وثانيهما قطعه عشّاقه أشلاء، ويتحدثون عن عظيمين باسم سكيپيو أحدهما هزم القرطاجنيين في ميدان القتال والآخر قضى عليهم قضاء مُبرماً. ويقولون إن أول احتلال لطروادة الذي تمّ على يد هرقل كان سببه الخيل التي وعده بها لاوميدون، وإن أغاممنون الذي كان ثاني محتل لها دخلها بحيلة الحصان الخشبي الكبير المعروفة، وإن خاريديموس Charidemus استولى عليها بانتهازه صدفة سقوط حصان من الأعلى في المدخل فأعاق الطرواديين عن سَدّ بابه في وجه العدوّ المهاجم بالوقت المناسب. وهم يتحدثون أيضاً عن مدينتي ايوس Ios وإزمير Smyrnie الأولى جاء اسمها من زهرة البنفسج، والثانية من نبتة المرّ، وقيل إن هوميروس الشاعر ولِد في الأولى وتوفّي في الثانية. ولنا أن نسير على هذا المنوال من تصنيف الحوادث والاتفاقات لنذكر أن أعظم القادة وأكثرهم إقداماً وبراعة في تنظيم الخطط كان في عيونهم عوار مثل هنيبعل وفيليپوس وأنتيغونس وسرتوريوس الذي

سنأتي فيما يلي إلى سرد وقائعه الحربية وأعماله. إنه ذلك الذي يحق لنا القول عنه إنه كان أكثر نزاهة من فيليپوس وأشدّ إخلاصاً للصديق من أنتيغونس، وأرحم بأعدائه من هنيبعل. وأما في أصالة الرأي وسرعة الخاطر فليس فيهم من يباريه إلاّ أنه كان أنكدهم حظاً. ومع أنه ظلّ يجد من آلهة الحظّ إدباراً ومعاندة يفوقان ما لقيه من أعدائه الظاهريين فقد بقي صامداً لا تلين قناته يواجه براعة ميتللوس العسكرية وشجاعة پومپي وحسن حظّ سيلّلا، وقوى الشعب الروماني التي اجتمعت عليه وهو الرجل الغريب في بلد أجنبيّ لا قوّة له إلاّ ما تهيّأ من محاربي البرابرة. وربما كان يومينوس الكارديّ خير قرين له بين قادة الإغريق العسكريين فكلاهما خُلق للحرب والقيادة ورسم الخطط وكلاهما نُفي من بلده، وقاد رجالاً من الأجانب، كذلك كان نكد حظهما متساوياً وقد بلغ في أواخر أيامهما حدّاً من القسوة أنهما قُتلا غدراً بأيدي من هم تحت إمرتهما، ومن كانوا عوناً لهما في التغلّب على خصومهما.

انحدر كوينتوس سرتوريوس من أسرة نبيلة، وكان مولده في مدينة نورسيا في بلاد السابين. وتوفّي أبوه وهو صغير فقامت أمه ريا Rhea على تربيته تربية عالية محتشمة. ويظهر أنه كان يجلّها ويحبّها حباً لا مزيد عليه. وقد أولى بعض اهتمام لمدارسة الخطابة والمرافعات القضائية ونال بفصاحته بعض السمعة والنفوذ في أوساط روما.

وفي مبدأ حياته العمليّة خدم تحت إمرة كيپيو Cæpio حينما غزا الكيمبري والتيوتون بلاد الغال. وكان الرومان يعانون الهزائم ولا يُحرزون أي نجاح. فأصيب في إحدى المعارك بجراح في عدة أنحاء من جسمه وفقد جواده، لكنه عبر مع ذلك نهر الرون سباحةً وهو مشتمل بزرده وشِكّة سلاحه ومِجنّه وقاوم التيار العنيف ونجا، فقد كان يتمتع بجسم قويّ، عجمت المشاقّ عوده.

وفي المرة الثانية لتدفق الكيمبري والتيوتون بجموعهم الغفيرة التي تقدّر بمبلغ مئات الألوف، مهددين كل شيء بالموت والدمار الشامل، لم يكن مما يحبّب للجندي الروماني الخدمة والبقاء في سلك الجيش وإطاعة القائد، شيء. وفي هذا الظرف الدقيق أيام كان ماريوس قائداً للجيش، قبل سرتوريوس أن يقوم بمهمة الجاسوس في معسكر الأعداء. وتزيّا بزيّ كليتّي وحفظ شيئاً عن تعابير لغتهم مما هو ضروري لتبادل الحديث الاعتيادي. وألقى بنفسه بين البرابرة. وبعد أن تزوّد من الأشخاص فيها بالمعلومات المطلوبة عن أحوالهم قفل عائداً إلى ماريوس لينال من يديه جزاء الشجاعة. وقدّم بعد ذلك كثيراً من الأدلّة على بسالته وحُسن سلوكه فيما تلا في هذه الحرب. وتدرّج في مناصب الشرف والثقة تحت إمرة قائده حتى نهاية حروب

الكيمبري والتيوتون، حيث أرسل بعدها إلى إسبانيا بمنصب قائد ألف تحت إمرة ديديوس Didius القائد الروماني. فأمضى شتاءه في بلاد الكلتيبيريين Celtiberians داخل عاصمتهم كاستولو Castalo. وقد أفسدت الملذّات الجنود هناك، وتمرّدوا على الأوامر، وعكفوا على الشراب وهكذا أصبحوا موضع احتقار الأهالي واشمئزازهم، حتى أنهم طلبوا من جيرانهم الأقربين الجيرسيونيين Gerisœnians العون. فجاءهم هؤلاء ليلاً وانقضّوا على الرومان وهم نيام وأوقعوا بهم مقتلة عظيمة. وتمكن [سرتوريوس] بقلّة من الجنود من ترك المدينة. وما لبث أن نظم صفوف بقيّة الهاربين وتقدّم من الأسوار ودار بها حتى وجد الباب السرّي الذي دخل منه الجيريسونيون مفتوحاً. فلم يدع لهم أية فرصة ووضع حارساً عليه. ثم سيطر على أحياء المدينة وذبح كل قادر على حمل السلاح من القاطنين. وأمر جنوده فنزعوا أسلحتهم وثيابهم العسكرية وارتدوا أزياء البرابرة. ثم قادهم إلى المدينة التي فأجأه رجالها ليلاً وذبحوا جنوده الرومان، فخدع أهاليها بمظهر الزيّ والسلاح اللذين ألبسهما جنوده. ووجد أبوابها مفتوحة فدخلها وأخذ عدداً كبيراً من الأسرى الذين خرجوا لاستقباله وهم يحسبونهم رفاقهم وأهل مدينتهم عادوا من حملة ناجحة، فذبح الرومان معظمهم في مدخل المدينة. أما من سَلّم نفسه في الداخل فقد بيع في سوق العبيد.

هذا العمل سبب في اشتهار أمر سرتوريوس وعلوّ صيته في طول إسبانيا وعرضها. حتى إذا عاد إلى روما ما لبث أن عُيّن بوظيفة «كويستور» في بلاد الغال الجنوبية Cisalpine وكانت ظروف تعيينه مؤاتيةً جداً لبلاده إذ كانت الحرب المارسية Marsian على الأبواب وطلب من سرتوريوس تعبئة وسوق الجنود وتوفير السلاح. فأنجز ما أنيط به بغيرة وكفاءة وسرعة تختلف تماماً عن ضعف وتقاعس الضباط الآخرين الذين يعادلونه سِنّاً. حتى نال شهرة من ستكون حياته وقفاً على الحرب والنضال. ومع وصوله إلى منصب القائد فإنه لم يترك جانباً واجب الجندي وحقق المعجزات بيديه، ولم يكن يضنّ بمهجته، بل كان يعرّض وجوده وكيانه دونما تحفّظ أو إحجام في كل قتال ناشب ففقد بسبب ذلك إحدى باصرتيه. وكان على الدوام يرى شرفاً له أن يتحلّى بأوسمته وشاراته ودلائل بسالته في حين يترك الآخرون جانباً تقلّد سلاسلهم الذهبية وحرابهم وتيجانهم ولا يحملون دائماً البراهين على بسالتهم. وكانت حجّته في ذلك أن من رأى عثرات حظّه وسوء طالعه يجب أن يرى في الوقت نفسه دليل مؤهّلاته ونجاحه. ولم يكن الجمهور يبخل عليه بالاحترام الذي يستحقه فيستقبله كلّما دخل الملعب بالحفاوة وهتاف الإعجاب، وهو شرف قلّما كان يُسبغه الشعب على ذوي

المناصب الرفيعة والشهرة المستفيضة المتواترة. ومع شعبيته هذه فقد فشل عندما رشّح نفسه لمنصب «تريبيون الشعب». أخطأه التوفيق لأن حزب سيلّلا كان يعمل ضدّه. ويظهر أن هذا هو السبب الرئيس للعداوة التي ظهرت بعدئذ فيما بينهما.

بعد أن استظهر سيلّلا على ماريوس وحمله على الفرار إلى أفريقيا، وبعد أن ترك سيلّلا إيطاليا ليقود الحملة العسكرية على ميثيرداتس. وبقاء القنصلين أوكتافيوس وسينّا، ورغبة سينّا في القيام بثورة جديدة على حكم أوكتافيوس المحافظ على سياسة سيلّلا ومحاولته إعادة حكم ماريوس، اختار سرتوريوس الانضمام إلى حزب سينّا لأسباب أخصّها أنه لم يجد في أوكتافيوس الكفاءة والأهليّة للحكم، وإن كان من الجهة الأخرى يشكّ في كل من هو صديق لماريوس. وبنتيجة هذا الحلف نشبت المعركة الكبرى في الفوروم بين القنصلين، واستظهر أوكتافيوس. وخسر سينّا وسرتوريوس فيها ما لا يقلّ عن عشرة آلاف رجل، فتركا المدينة. وحققا السيطرة على معظم الجنود المتفرّقين في أنحاء ايطاليا، وتمكّنا في وقت قصير من تحشيد قوة ضدّ أوكتافيوس، تكفي لمجابهته في معركةٍ ثانية. وفي أثناء ذلك أقلع ماريوس من أفريقيا إلى إيطاليا ووضع نفسه تحت إمرة سينّا كجندي بسيط يأتمر بأوامره ويطيعه بوصفه قائداً وقنصلاً.

وكانت الغالبية تحبّذ الإسراع في قبول عرض ماريوس إلاّ أن سرتوريوس عارض في الأمر معارضة صريحة، مدفوعاً إمّا بخوفه من هبوط منزلته عند سينّا بعد مجيء شخصٍ يفوقه شهرة عسكرية وإمّا لخشيته من العنف الذي اتسم به ماريوس، وما ستولّده روحه الانتقامية وحقده المتأصّل المفرط من المآسي والفوضى بعد تحقق النصر لهم. وألحّ في ذلك على سينّا بقوله: ها إن النصر مستتبّ لنا، مضمون، ولم يتبقّ غير القليل ولو قبلنا عرض ماريوس لحرمنا ثمار النصر ومجد الحرب. وليس هناك من هو أصعب تعاملاً وأقل أهلية بالثقة كماريوس. فأجاب سينّا بأن سرتوريوس مصيب في حكمه، إلاّ أنه يشعر بالحيرة والخجل تجاهه ولا يدري كيف يبعده، وبأية وسيلة يرفض عروضه بعد أن أرسل هو نفسه بطلبه، ورغب منه أن يشارك في حظوظه. فأسرع سرتوريوس يجيب بقوله: كنتُ أظنّ أن ماريوس جاء إلى إيطاليا من تلقاء نفسه، وعلى هذا الأساس لا يناقشه فيما يجب أن يقبل أو لا يقبل الرجل الذي دعاه بنفسه، بل يتحتّم عليه أن يكرم وفادته ويستخدمه، فإن الكلمة التي خرجت من فمه لا تدع أي مجال للنقاش. وهكذا تمت دعوة ماريوس. وقسمت القوات إلى جيوش ثلاثة بقيادة سينّا وماريوس وسرتوريوس وتمّ لهم النصر. إلاّ أن الجنود الذين كانوا تحت إمرة سينّا وماريوس طفقوا يرتكبون كل أنواع المظالم ويأخذون بكل ضروب القسوة، حتى جعلوا

الرومانيين يرون في ويلات الحرب عهداً ذهبياً ونعمة بمقارنتها بما ذاقوه على يد هؤلاء بعد انتهائها. ويعكس ذلك فقد أُثر عن سرتوريوس أنه لم يقتل شخصاً واحداً وهو في سَورة من الغضب، أو شفاء لغِلٍّ أو أخذاً بثأر. ولم يُلحق الذّل والعار بمن استظهر عليه. بل كان يتميزّ غيظاً، ويتلظّى حنقاً من أعمال ماريوس، كما كان يرجو سينّا بإلحاحٍ وبالسّر أن يعتدل في استخدام سلطاته.

وبلغ السيلُ الزُّبى بالفظائع التي أقدم عليها جنود ماريوس. فهؤلاء كانوا من العبيد الذين حرّرهم عند نزوله برَّ إيطاليا، ليزيد بهم عدد جيشه. لم يكتف بجعلهم أخواناً له في الحرب مساوين للجنود الآخرين، بل نصّبهم حرساً شخصياً له، وأطلقهم يعيثون فساداً ويرتكبون المحرّمات والكبائر ويزدادون عتوّاً وغيّاً بتسامحه وتغاضيه عمّا يرتكبونه، أو بإلقائه الأوامر عليهم، فخرقوا كلّ قانون واقترفوا أنواع الجرائم: قتلوا أسيادهم، واغتصبوا زوجاتهم واعتدوا على أطفالهم. فلم يستطع سرتوريوس صبراً عليهم، فباغتهم بجنوده وهم نائمون في معسكراتهم وجزرهم طعناً بالرماح والسيوف، وكانوا يعدّون أربعة آلاف.

ثم توفّي ماريوس، واغتيل سينّا بعده بقليل. ونصّب ماريوس الأصغر نفسه قنصلاً خلافاً لرغبة سرتوريوس، وضدّ أحكام القانون. وفشل كاربو Carbo ونوربانوس Norbanus وسكيپيو في حربهم مع سيلّلا الذي راح يزحف نحو روما. وضاع الشيء الكثير بجبن وإهمال القادة، كما ضاع الأكثر منه بخيانة حزبهم. وعمّ الاضطراب كل شيء لافتقار كبار القادة إلى البصيرة في حُسن تصريف الأمور. فوجد سرتوريوس أن وجوده لا معنى له ولا فائدة فيه. ثم أدركه اليأس التام أخيراً عندما ضرب سيلّلا معسكره بالقرب من معسكر سكيپيو متظاهراً له بالصداقة، وجاعلاً آماله تتركز في السلام، فأفسد بذلك جيشه عليه. ولم يفلح سرتوريوس في تنبيه سكيپيو إلى ما بُيّت له مع أنه أنذره. فترك روما وأسرع إلى إسبانيا ليسيطر عليها ويؤمّن لأصدقائه ملجأ ومهرباً مما كان ينتظرهم في الوطن. فصادفه في رحلته طقس رديء، ولقي مشاقّ ومصاعب في قطعه بلاداً جبليّة كان سكانها يستوقفونه ويطلبون منه مالاً وإتاوات أجر مروره فيذعن لهم صاغراً، حتى نفد صبر رفاقه وسخطوا عليه لأنه كان يدفع - وهو [الپروقنصل] الروماني - إتاوة لشراذم من البرابرة الحقراء. إلاّ أنه لم يُلق بالاً على سخطهم وخفف وقع الأمر عليهم قائلاً إن ما يرونه من مظاهر المسكنة والذلّة إنما هو لشراء الوقت، فالوقت هو أثمن شيء عند من يسعون في اطّلاب العظائم. وهكذا أسكت البرابرة بماله وغذّ السير حتى بلغ إسبانيا وبسط عليها سلطانه وكانت بلاداً

زاهرة، عامرة بالسكان يكثر بينهم القادرون على حمل السلاح. على أنهم كانوا يكرهون سيادة روما بسبب أطماع ومظالم الحكام الذين ترسلهم إليهم بين الفينة والفينة. ومهما يكن فقد تمكن سرتوريوس بوقت وجيز من نيل محبّة أشرافهم بالامتزاج بهم. وظفر بثقة الشعب، واحترامه، عندما عمد إلى تخفيض الضرائب عنهم. إلاّ أن ما قرّب قلوبهم منه هو إعفاؤهم من واجب استضافة جنود الرومان، وإخراجه وحدات جيشه من المدن وإسكانهم في معسكرات شتوية ضُربت في ضواحي المدن. وقد بدأ بنفسه قبل الآخرين فضرب خيمته خارج الأسوار. إلاّ أنه لم يشأ أن يضع كلّ اعتماده في حُسن نيّة السكان، فسلّح كل الرومان الذين بلغوا سنّ الخدمة العسكرية من المقيمين في تلك البلاد. وقام ببناء السفن وصنع كلّ آلات الحرب والقتال. فأمّن لنفسه بهذا طاعة المدن التامّة. وبدا إنساناً رفيقاً حسن الشمائل في كل ما يتعلق بأمور السلم، وجباراً قويّ الشكيمة تجاه أعدائه بفضل استعداده الحربي.

وما إن وردته الأنباء بأن سيلّلا أصبح سيّد روما المطلق وأن الحزب الذي كان يمالئ ماريوس الأصغر وكاربو قد لفظ أنفاسه الأخيرة حتى أيقن بأن قوة ستُجرّد عليه.

فأرسل يوليوس ساليناتور Juluis Salinator على رأس جيش قوامه ستة آلاف مقاتل كاملي السلاح لتحصين ممرّات جبال البرانس والدفاع عنها. فوجد كايوس أنيوس وهو القائد الذي أرسله سيلّلا بعد قليل أن يوليوس صعب المنال. فعسكر على مسافة قصيرة من سفوح الجبال، وهو في حيرة من أمره. إلاّ أن رجلاً يدعى كالپورنيوس Calpurins ويلقّب لاناريوس Lanarius اغتال يوليوس. وعلى إثر ذلك انسحب جنوده من مرتفعات الجبال فتقدم كايوس أنيوس بجيشه اللجب ودحَر كلّ من حاول الصمود أمامه أو إعاقة زحفه. ولم يكن لسرتوريوس قِبَلٌ بدخول معركة معه لأنه لم يكن يملك القوة الكافية فانسحب إلى قرطاجنة الجديدة بثلاثة آلاف رجلٍ وركب السفن مُقلِعاً نحو أفريقيا. وبوصوله ساحل موريتانيا نزل رجاله إلى الساحل ليستجمّوا ويصيبوا بعض راحة فانقضّ عليهم أهل البلاد وهم ملقون جانب الحذر وفتكوا بعدد كبير منهم. فأرغمته هذه النكبة الجديدة على الإبحار عائداً إلى إسبانيا، إلاّ أنه أصيب ثانية باندحار. وانضم إليه عدد من السفن الخاصة ببعض الكيليكيين فاتجهوا معاً صوب جزيرة پيتايوسا Pityussa ونزلوا برَّها وتغلّبوا على حاميتها التي وضعها أنيوس. إلاّ أن أنيوس أسرع إليهم بأسطول يضمّ عدداً كبيراً من السفن من خمسة آلاف جندي فاستعد سرتوريوس لقتاله مع أن سفنه لم تكن سفن قتال بل معدّة بشكل يضمن السرعة والخفّة. وهبّت أثناء ذلك ريح غربية عاصفةً أهاجت البحر وأصعدت أمواجه فدفعت

بعدد كبير من سفنه إلى اليابسه وتحطّمت على الساحل. فلم يعد يستطع بسفنه القليلة الخروج إلى عرض البحر بسبب اشتداد النوء. كما مُنع من النزول إلى البرّ بسبب رجحان حملة أعدائه فأخذ يهيم على وجهه في البحر عشرة أيام متوالية يتقاذفه الموج الصاخب وتعبث به الريح المعاكسة، ولم ينج إلاّ بصعوبة. وانتظر حتى هدأ البحر فتوجّه إلى بعض الجزر القفراء الخالية من الماء التي تكثر في تلك البحار. وبعد قضائه ليلةً هناك ركب البحر ثانية وعَبَر مضايق قادس وانطلق في رحاب البحر المترامي مخلّفاً الساحل اليوناني عن يمينه. ثم عاد وأرسى في موضع قريب من أعلى فم نهر بايتس Baetis حيث يصبّ في المحيط الأطلسي، ويمنح اسمه لهذا الجزء من إسبانيا. ولقي سرتوريوس هنا بحّارين وصلوا مؤخراً من جزيرتين في المحيط الأطلسي لا يفرّق بينهما إلاّ برزخ ضيّق، ولا تبعدان عن الساحل الأفريقي بأكثر من عشرة آلاف فُرلُنغ. وعلم منهم أن الجزيرتين تسمّيان بالبركة Blest، وأن المطر هناك قليلٌ وإن هطل فبزّخات معتدلة، إلاّ أنهما تنعمان في معظم الوقت بأنسام عليلة يصحبها ندىً قليل، وهذا ما يجعل تربة الجزيرتين خصبةً صالحة للزراعة والحراثة. أضف إلى هذا أنه يزيد من غنى الجزيرتين بالفاكهة والثمار، فيخرج منهما مقادير عظيمة من الثمر اللذيذ تكفي لسدّ حاجة سكانها الذين يستمتعون بكلّ هذا الخير دون أن يبذلوا فيه عملاً أو جهداً. وفصول السنة فيهما معتدلة والانتقال الفصلي يكون لطيفاً رائعاً حيث يظلّ الجوّ رائقاً منعشاً، لأن الرياح الشمالية والشرقية التي تهبّ من سواحل أفريقيا وأوروبا تتبدّد في الفضاء الواسع فتفقد كلّ شدّتها قبل وصولها الجزيرتين. وأمّا الرياح الرخيّة التي تهبّ من الجنوب والغرب فتحمل اليهما أحياناً زخّات كبيرة لطيفة تحملها إليها من البحار، إلاّ أنها في أغلب الأوقات تأتي بالرطوبة مع الصحو فتبرّد التربة وتخصبها. ولذلك شاع وثبت الاعتقاد بأن هاتين الجزيرتين هما منتجع أصحاب البركة والنعمة، وأنهما بالذات الحقول الليسيّة Lysian التي أطنب هوميروس في وصفها.

ما إن سمع سرتوريوس هذا الوصف حتى تعلّق بهما واستولت عليه رغبة شديدة في الإقلاع اليهما والعيش فيهما بهدوءٍ وسلام، آمناً من الاضطهاد، بعيداً عن الحروب التي لا تنتهي. إلاّ أن القراصنة الكيليكيين الذين أدركوا رغبته ولم يكن منهاجهم السلام والاستقرار وإنمّا كان هدفهم الأسلاب والغنائم والغنى ما لبثوا أن تخلّو عنه وأبحروا إلى أفريقيا لمعاونة أسكالس Ascalis ابن إفثا Iphtha على اعتلائه عرش مملكة موريتانيا. إلاّ أن رحيلهم المفاجئ لم يفتّ في عضد سرتوريوس، وقرّر مساعدة أعداء أسكالس. وكان يرمي بمغامرته الجديدة إلى أن يفتح لجنوده أبواباً جديدة من الآمال

وميداناً لنشاط جديد، وبذلك يتمّ له الإبقاء على وحدتهم وتماسكهم. وكان وصوله موريتانيا مصدر رضا كثير من المغاربة. ولم يضيّع وقتاً فدخل المعركة فور وصوله وهزم أسكالس ثم حاصره. وكذلك فعل بپاجيانوس Paccianus الذي أرسله سيلّلا مع نجدات قوية لرفع الحصار، فقد فتك به سرتوريوس في ساحة القتال، واستولى على كل قواته. ثم احتل مدينة تنگيس Tangis التي كان أسكالس وإخوته قد احتموا بها. كان الأفارقة يقولون إن أنتيوس Antius مدفون في هذه المدينة. وكان سرتوريوس يشكّ في صحة الرواية، بسبب حجم أنتيوس الهائل. ولكي يبدل شكّه يقيناً أمر بفتح القبر فوجد جسده مسجّى فعلاً، وكما قيل بطول ستين كيوبيت. فكانت دهشته عظيمة جداً وقرّب القرابين، وزاد في تكريم ذكرى أنتيوس.

يقول الأفارقة إن زوج أنتيوس المسمّاة تانگا Tanga ساكنت هرقل بعد موت زوجها، فاستولدها ابناً اسمه سوفاكس Sophax الذي ملك البلاد وأطلق اسم أمّه على هذه المدينة. وكان ابنه ديودورس Diodorus من أعاظم الفاتحين، أخضع لسلطانه القسم الأكبر من القبائل الليبيّة. وتمكن بجيش من اليونانيين أن يقضي على مستعمرات الأولبيين Olbians والميسينيين Myceneans التي أنشأها هرقل هنا. وإني ما ذكرت هذا استطراداً هنا إلاّ تخليداً لذكرى يوبا Joba الملك، الذي يُعتبر أعظم الباحثين في التاريخ، فقد قيل إن اجداده انحدروا من سلالة ديودورس وسوفاكس.

ما إن استتبّ الأمر لسرتوريوس في البلاد وصار سيّدها المطلق حتى تفرّغ لتصريف شؤون الحكم بمنتهى العدالة بين أولئك الذين وضعوا أنفسهم تحت رحمته وسلّموا إليه مقدراتهم. فأعاد إليهم أملاكهم المغصوبة وردّ إليهم مدنهم وأطلق يد حكامهم في تدبير شؤونهم. ولم يقبل منهم من الرسوم والضرائب إلاّ ما كانوا هم يدفعونه طواعية وعن طيب خاطر. وفيما كان يقلّب وجوه الفكر في أي سبيل يوجّه قوّاته العسكرية جاءه سفراء لوزيتانيا Lusitania، يعرضون عليه قيادة شعبهم. إذ كان الخوف مستولياً عليهم من سلطان روما، ووجدوا من الضروري أن يؤمّروا عليهم قائداً مهاب الجانب مُحنّكاً خبيراً في فنون الحرب. وكانوا على ثقة تامّة ببسالته وشمائله مما سمعوه من كل الذين عرفوه. لذلك أقبلوا وكلّهم رغبة في وضع مقدراتهم بين يديه. والحق يقال إن سرتوريوس كان كما ذكروا عنه رجلاً ذا خُلقٍ لا يعرف للخوف وللذة معنى. كما كان في المِحَن والخطوب جَلِداً جميعَ القلبِ، ولم يكن يغرّه النجاح أو يفقده الموازنة. ولم يعرف عصره قائداً أشجع منه ولا أكثر إقداماً في ساحة النزال، وفي كل ما تقتضيه فنون الحرب من الكتمان والإبداع في رسم الخطط، وإتقان المباغتة

حين يكون الهدف موقعاً مستحكماً يجب احتلاله أو ممرّاً يجب الاسراع في الاستيلاء عليه. وأمّا عن حِيَله ومكره بعدوّه فليس ثمّ من كان يضاهيه في الحِنكة والدهاء.

وأمّا بخصوص منح الجوائز والتكريم لمن يقوم بجلائل الأعمال في الحرب فلم يكن أحدٌ يبذّه في السخاء والعطاء. كما لم يكن أحدٌ يبذّه في بُعده عن الاعتدال، وإفراطه المشتطّ في إنزال العقاب. والحق يقال إن هذا الوجه من الشدة والقسوة الذي ظهر به في أيامه الأخيرة على الرهائن الإسبانيين قد يستخلص منه، في الظاهر، أن رحمته لم تكن خلقاً فيه وطبعاً، بل مظهراً يرتديه كما يرتدي ثوباً، فيستخدمها بحسابٍ دقيق حسبما تمليه المناسبة والضرورة. وفي رأيي أن الفضائل الخالصة من الشوائب التي تصدر عن العقل وأصالة الرأي لا يمكن أن تُمنى قط بانحراف أو يطرأ عليها تغيير إلى العكس بأية محنةٍ أو خطبٍ. على أني أميل للقول بأن من الممكن في الوقت نفسه أن يطرأ بعض الانحراف والتغيّر على الفضائل الطبيعيّة عندما تتوالى عليها الرزايا والمحن بغير حقّ أو عدل وبسبب معاندة الحظّ، فتضلّ اتجاهها كما حصل حسب ظنّي لسرتوريوس. فعندما خانه الحظ وأخطأه النجاح نفد صبره بتكالب المصائب عليه وأوقع بأولئك الذين أساؤوا اليه.

بعث اللوزيتانيون يستدعون سرتوريوس فغادر أفريقيا إليهم. وأُعطي سلطة قائدٍ مطلقة. ودبّر شؤونهم كلّها بأحسن وجه... وأخضع كلّ ما جاورهم من الأقاليم الإسبانية. ودخل طاعته اختياراً معظم القبائل، وكان يحدوهم في ذلك ما اشتهر به من الرأفة والبسالة. وإلى حَدّ ما كان سبب ذلك الولاء يعود إلى سعة حيلته وحبكها فيهم واختراعاته الماكرة التي كانت ذات أثر كبير في خضوعهم لنفوذه وسهولة تأثيره. ولم تكن حيلة الظبيّة هي الحيلة الوحيدة أو الأقل شأناً. خرج أسپانوس Aspanus وهو مواطن من أبناء تلك الجهات يصطاد مع رفاقٍ له. واتفق أن وقع على ظبية وصغيرة لها ولدتها حديثاً، فانفصل عن رفاقه وأخذ يطاردهما ثم أهمل الأم ولحق بوليدها فأمسك به. وكان سروره عظيماً به لأن لون جلده أبيض حليبي، مما يندر بين الظباء. وكان مقرّ سرتوريوس في ذلك الحين على مقرُبةٍ من السكان وكان يُسرّ كثيراً بما يقدَّم له من هدايا الأرض، ثماراً كانت أم طيراً أم لحم طرائد، وكان ينفح أصحاب الهدايا بعطايا سخيّة. لذلك قصده هذا المواطن وأهدى له الظبية الصغيرة. فسُرَّ سرتوريوس وأُعجب بها حالما وقع عليها نظره. وتولّى ترتيبتها فصارت أليفة طيّعة بمرور الزمن، وصارت تستجيب لندائه، وتتبعه أينما ذهب وتحتمل غوغاء المعسكر وضجيجه. ولما كان يعلم أن الناس الذين لم يأخذوا بأسباب المدنية يميلون بطبعهم إلى الأوهام والشعبذات فقد

أحال ظبيته الصغيرة تدريجاً إلى مخلوقٍ فائق للطبيعة في نظرهم، وزعم أنها هِبة الإلهة ديانا له، وأنها تُفضي إليه بكثير من الأسرار. وأخذ يعزو إليها كثيراً من نسيج مكره. فمثلاً إذا اتفق أن ورده نبأ خاص بأن الأعداء أغاروا على منطقة من المناطق التي تقع تحت حكمه، أو إذا أُبلغ سِرّاً بثورة في إحدى المدن، كتم البلاغ ثم زعم أن الظبية قد أبلغته ذلك في نومه أو أمرته أن يضع قواته على أهبة الاستعداد. وإذا أنهي إليه أن أحد قوّاده قد أحرز انتصاراً أخفى السُّعاة الذين حملوا له النبأ ثم جاء بالظبية متوّجةً بالزهر، استعداداً للفرحة بالأنباء السارّة المتوقعة، وشجّع الأهلين على إظهار سرورهم وحثّهم على تقريب القرابين للأنباء المفرحة التي ستأتيهم عن الانتصار العظيم!

بهذه الأساليب زاد خضوعهم له وأسلس قيادهم، حتى بلغ الأمر بهم أن اعتقدوا بأن أميرهم هذا ليس شخصاً أجنبياً، وإنما هو إله متقمّص. وبرهنت الوقائع التالية على أن سلطانه كان يتعاظم باطّراد خلافاً لكلّ ما هو محتمل أو متصوّر. فبألفين وستمائة من الرجال الذي كان يسمّيهم رومانيين تشريفاً لهم فحسب، وبسبعمائة أفريقيّ ممن نزل معه بَرَّ لوزيتانيا، وأربعة آلاف من رُماة القسيّ اللوزيتانيين وسبعمائة من خيّالتهم، خاض حروباً ضدّ أربعة من القادة الرومان يقودون مائة وعشرين ألفاً من المشاة، وستة آلاف من الخيّالة، وألفين من الرماة وحملة المقاليع، يقف إلى جانبهم ورهن إشارتهم عددٌ لا يُحصى من المدن. مقابل عشرين مدينة له في مبدأ الأمر. ومن هذه البداية الهزيلة الضعيفة وصل إلى حكم شعوب عظيمة، واحتل عدداً كبيراً من المدن. وممن اشتبك معه من هؤلاء القوّاد الرومان كوتا Cotta الذي أذاقه مرارة الهزيمة في معركة بحرية داخل برزخٍ على مقربة من بلدة مللاريا Mellaria. ودحر فوفيديوس Fufidius حاكم باتيكا Bætica وفتك بألفين من جنوده الرومان على مقربة من ضفاف نهر باتيس. وكانت هزيمة لوشيوس دوميتيوس Lucuis، پروقنصل الإقليم الآخر من إسبانيا، على يد أحد معاوني سرتوريوس. وفتك بثوراتيوس Thoratuis وهو قائد آخر أرسله ميتللوس لقتاله بقوات كبيرة. أما ميتللوس هذا الذي كان يُعدّ أعظم جنرالات الرومان، وأعلاهم منزلة وثقة، فقد أوقع به سلسلة من الاندحارات وصلت به حالة من البؤس والضيق إلى الحدّ الذي ألجأ لوشيوس مانليوس إلى أن يخفّ لنجدته من غاليا الناربونية.

وأرسل پومپي العظيم من روما نفسها على جناح السرعة بقوات ضخمة. وحار ميتللوس في أمره، ولم يدر أيّ سبيل يسلك في الحرب مع هذا القائد المقدام المتيقظ الذي ما كان يكّف عن التعرّض له والاشتباك معه، وإن لم يفلح مع كل هذا في جرّه

إلى معركة فاصلة. إذ إنه كان بالخفّة وسرعة الانتقال التي يتميّز بها الإسبان يستطيع أن ينقضّ انقضاضاً مفاجئاً وأن يكيّف نفسه لكلّ احتمال أو ظروف طارئة. كانت تجارب ميتللوس مقصورة على المعارك الأصولية التي تشترك فيها فرق من الجنود النظاميين بكامل التجهيزات ومعبّأة على أسلوب الفلانكس الكثيف الواقف. وكان تدرّبه على مهاجمة وكسر أيّ عدوّ يلتحم به التحام اليد باليد مما يثير الإعجاب حقاً، إلاّ أنه كان يعجز عن صعود الجبال، ولا يعرف أسلوب المناوشة المستمرة والهجمات السريعة من الجبليين الذين يمتازون بالخفة الفائقة. كما أنه لم يتعوّد الجوع والعطش مثلهم أو التعرّض لتقلّبات الريح والمناخ من دون نوم أو غطاءٍ. زد على هذا أنّ السنّ تقدّمت به، كما أن كثرة المعارك التي خاضها والأخطار التي جابهها في حياته جعلته أكثر ميلاً إلى حياة الراحة والترف، وقلّت قابليّته على مناجزة سرتوريوس الذي كان وقتئذ في عنفوان قوّته، وفعاليته، بجسمه الذي لم يُخلق لغير القتال. كان قوياً نشطاً قابلاً متكيّفاً مستعداً دائماً لاحتمال أشقّ الأعمال وأطول الأسفار ولقضاء عدة ليالٍ متتالية دون أن يغمض له جفن، وكان يكتفي بأقل الطعام، ويقنع بأحقره وأفقره. ولم يؤثر عنه قطّ الإكثار من الخمر وإن كان في أحفل الأوقات بالراحة. وما كان يفضل له من فراغ يقضيه في الصيد أو ركوب الخيل، وهذا ما جعله على وقوفٍ تام بكلّ ممرٍ صالح للانسحاب عندما يتطلب الأمر ذلك، أو للمباغتة إن حكمت الظروفُ عليه بالانقضاض على العدوّ، أو اقتضى الأمر قطع خطّ الرجعة عليه أثناء تقهقره. وكان على معرفة تامة بالأمكنة التي يستطيع أن يلوذ بها والأمكنة التي لا يستطيع. ولهذا شرب ميتللوس كأس الهزيمة المرّة حتى الثمالة، مع أنه كان يريد أن يدخل في معركة مع ميتللوس، وجنى سرتوريوس ثمار الفاتح المنتصر مع أنه كان يرفض دخول المعركة. كان يحول بينهم وبين جمع الأرزاق من السكان، ويقطع عنهم موارد المياه. وإذا تقدّموا غاب عن أنظارهم. وإذا وقفوا في أي موضع وعسكروا تعرّض لهم باستمرار وناوشهم وأزعجهم. وإذا حاصروا مدينة برز لهم فجأة وضرب عليهم طوقاً من الحصار وقطع عنهم الضروريات وأحرج موقفهم. وبهذه الوسائل أنهك سرتوريوس الجيش الروماني. حتى إذا بلغ الأمر بهم منتهاه برز بشخصه متحدّياً ميتللوس في نزال فرديّ، الأمر الذي رحّب به الجيش الروماني، وأعلنوا عن موافقتهم بهتافهم أن العرض عادل وليس فيه ما يشين فهنا يقاتل الروماني رومانياً والجنرال جنرالاً. وعندما رفض ميتللوس التحدي أنحوا عليه باللائمة وعيّروه. كان ميتللوس محقاً في ازدرائه وترفّعه عن قبول هذا التحدي. فالجنرال يجب أن يموت مثل الجنرال لا مثل مبارزٍ في حلبة نزال، على حدّ

قول ثيوفراستس. غير أنه لمّا أدرك أن مدينة لانگوبريتي Langobritæ التي تُقدّم أجّل المعونة لسرتوريوس يمكن الاستيلاء عليها بسهولة نظراً لشحّ الماء فيها حيث لم يكن يوجد داخل أسوارها غير بئرٍ واحدةٍ، وأن باستطاعة القوة المحاصرة السيطرة على الينابيع والعيون في الضواحي، زحف إليها وهو متوقع الاستيلاء عليها في ظرف يومين لنضوب الماء تماماً. وأصدر أمراً لجنوده بألا يتزوّدوا من الأقوات إلاّ ما يكفيهم خمسة أيام. على أن سرتوريوس قرّر أن يرسل نجدة سريعة من الماء، فأمر بألفين من القِرَب فمُلئت ماءً، وعرض قدراً كبيراً من المال لمن يحمل قِربةً واحدة. فتعهّد بالأمر عدد كبير من الإسبان والمغاربة فاختار منهم أقواهم وأسرعهم سيراً وبعث بهم عبر الجبال، وأمرهم أن يجيئوا بعد إيصال الماء ومعهم كلّ شخص من أهالي المدينة قليل الجدوى والنفع في الدفاع حتى يوفّر الماء للمدافعين. وما إن بلغ أسماع ميتللوس هذا التدبير حتى استولى عليه القلق حيث إن جيشه استهلك معظم ما تزوّد به من أرزاق. إلاّ أنه أرسل أكوينوس Aguinus مع ستة آلاف جندي لجلب المزيد من الأرزاق. فعلم سرتوريوس بذلك فبادر بنصب كمين مرسلاً ثلاثة آلاف رجل للتمركز في مجرى ماء تحفّ به غابة كثيفة، وفي أثناء عودة أكوينوس قام هؤلاء بمهاجمة مؤخّرته، في حين هاجمه سرتوريوس من الأمام فدمّر قسماً وأسر الباقي. ولم يفلت غير أكوينوس بعد أن فقد عُدّته وحصانه. فلم يسع ميتللوس إلاّ أن يفكّ الحصار وانسحب مقهوراً مشيّعاً بضحك الإسبان وسخريتهم، في حين علت منزلة سرتوريوس في نظرهم وازدادوا به إعجاباً وإكباراً. ونال عندهم أعظم الشرف بإحلاله روح النظام والضبط بينهم، إذ بدّل من أساليب قتالهم العنيف الأهوج وعلّمهم على استخدام الأسلحة الرومانية، ولقّنهم طُرق المحافظة على الصفوف مرصوصةً سليمة وتلقّي كلمات السرّ والإشارات. وأعدّ بذلك جيشاً نظامياً حسن الضبط مُحكم الربط من شراذم غير متجانسة من اللصوص وقُطّاع الطرق. ولم يكن ليبخل عليهم بالذهب والفضة لطلاء وتزيين خوذهم، كما أشار عليهم بنقش التهاويل والزخارف على تروسهم. وعوّدهم لبس المعاطف والصدارى المزركشة والمحزّمة والمنقوشة بالزهر. وكسب قلوبهم جميعاً ببذله المال في هذه الأغراض ومساهمته معهم في كل هذا التجديد. على أن الشيء الذي أفعمهم غبطة أكثر من أي أمرٍ آخر هو عنايته بأولادهم. فقد استقدم كل أولاد أشرافهم وأُسرهم العريقة من قبائلهم وجمعهم في مدينة أوسكا Osca العظيمة وعيّن معلّمين لتلقينهم العلوم اليونانية والرومانية. وصرّح قائلاً بأنهم سيكونون عند بلوغهم مبلغ الرجال جديرين بمشاركته في ممارسة السلطة وتصريف شؤون الحكم مع أنه في الواقع جعلهم

رهائن تحت يده. إلاّ أن آباءهم كانوا في منتهى السعادة برؤية أولادهم يقصدون المدارس يومياً في نظام بديع ولباسٍ فاخر وأردية موشّاة بالأرجوان، وسرتوريوس يدفع ثمن الدروس، ويوزّع لجوائز على المتفوّقين منهم ويمنحهم قلائد ذهبية يطوّقون بها أعناقهم وهي ما يطلق عليه الرومان اسم بوللي Bullæ.

من تقاليد إسبانيا أنه عندما يُقتل قائد في معركةٍ يواصل حرسه الشخصي القتال حتى يقتلوا معه، ويسمّيه السكان بالذبيحة، أو تقريب الخمر للآلهة. وندر بين القادة من كان كثير الحرّاس والخدم. إلاّ أن سرتوريوس كان يملك الآلاف من الحرّاس والحشم يقدّمون أنفسهم له قرباناً، ناذرين أن تُسفك دماؤهم مع دمه. حتى قيل إنه لما اندحر جيشه بالقرب من إحدى المدن الإسبانية وأطبق عليه العدوّ لم يهتمّ الإسبان بخلاص أنفسهم وإنما قرّروا عن آخرهم أن يفدوا حياة سرتوريوس فرفعوه على أكتافهم وراح الواحد منهم يدفع به إلى الآخر فيتلقّفه ويدفع به إلى الثالث حتى بلغوا به المدينة. ولما أمنوا على حياته راح كل فرد منهم يهتّم بحياته وسلامته. ولم يكن الإسبان وحدهم في التسابق إلى خدمته، فالجنود الرومان الذين جاؤوا معه من إيطاليا كانوا يتلهفون للعمل تحت إمرته. ولما قدِم إلى إسبانيا برپنا ڤنتو Perpenna Vento وكان منتمياً إلى حزب سرتوريوس، حاملاً مبالغ كبيرة من المال مع عدد كبير من الجنود، آثر أن يحارب ميتللوس لحسابه الخاص فعارضه جنوده في ذلك وأكثروا من مديح سرتوريوس الأمر الذي أخجل برپنا وساءه، فقد كان مزهوّاً مختالاً بعراقة أسرته وبغناه. ولما أُنبئ فيما بعد بأن پومپي عبر البرانس وهو يتقدّم. وشاع ذلك بين جنوده احتقبوا سلاحهم ورفعوا لواءهم وطلبوا من برپنا أن يأخذهم إلى سرتوريوس، وهدّدوه في حالة رفضه أن يقصدوا معسكره بدونه ويضعوا أنفسهم تحت تصرّفه. لأنه قائد كفوء قادر على الدفاع عن نفسه وعمّن يكون في خدمته. وهكذا اضطر برپنا إلى الإذعان والنزول عند رغبتهم، فزاد بهم جيش سرتوريوس ثلاثاً وخمسين كتيبة.

وكثُر عدد جيشه عندما وحّدت المدن الواقعة على الساحل الأدنى من نهر إبرو Ebro قواها وانضوت تحت لوائه. فتدفّقت إليه القوات من كل ناحية. وأخذ إلحاحهم على سرتوريوس يزداد في مباشرة الهجوم على العدوّ، ونفد صبرهم من التأخير. ولم يكونوا يعرفون معنى الخضوع للنظام لما اتسموا به من التهوّر والعنف. وهو ما كان يزعج سرتوريوس كثيراً. فحاول أولاً كبح جماحهم بالمنطق والنصح السديد. ولكنه عدل بعد أن ركبهم العناد واشتطّ بهم التهوّر وأباح لهم الالتحام بالعدوّ التحاماً يكون فيه الفشل من نصيبهم إلى الحَدّ الذي لا ينقلب بهم إلى هزيمة نكراء. ليكون ذلك درساً

لهم يعلّمهم به كيف يصيرون في المستقبل طائعين. وفعلاً حصل ما توقّع وأصيبوا بكسرةٍ فـارع إلى إنقاذهم وسحبهم بسلام إلى معسكره. وبعد بضعة أيام أراد أن يحيي فيهم شجاعتهم ويعيد إليهم معنوياتهم فأمر فاجتمع الجنود وجاء بحصانين إلى ساحة التجمع أحدهما هزيل نحيل والثاني قويّ متين الهيكل ذو ذيل غزير الشعر طويل جداً. وجاء برجل قوي البنية طويل القامة فأوقفه بالقُرب من الحصان الهزيل. وجاء بشخصٍ نحيل معروق العظم زريّ الهيئة فأوقفه عند الحصان الفتيّ القويّ، وأعطى إشارةً، فأمسك الرجل القوي بذيل الحصان الهزيل بِجُمْع يديه وصار يسحبه إليه بكلّ قوته كأنما يريد أن يقلعه من جذره. وفي الوقت نفسه طفق الرجل الضعيف يستلّ شعرةً إثر شعرة من ذيل الحصان القويّ. وعبثاً جاهد الرجل القوي وسط ضحك الحاضرين إلى أن أدركه اليأس، فأقلع عن المحاولة وارتدّ خائباً. في حين لم يُبق الرجل النحيل الواهن خلال فترة قصيرة من الوقت وبمجهودٍ قليل شعرةً واحدةً في ذيل الحصان القوي. بعد هذا وقف سرتوريوس وخاطب جيشه قائلاً: «ها إنكم رأيتم أيها الجنود الأخوان أن المثابرة والدأب هما أجدى من العنف، وأن هناك أموراً كثيرةً لا يتمّ التغلّب عليها وهي مجتمعة معاً، إلا أنها تستسلم عندما تُعالَج شيئاً فشيئاً. إن المثابرة والاجتهاد لا يمكن أن يقف أمامهما شيء، وبإمكانهما في الوقت المناسب تدمير وإبادة أعظم قوةٍ مهما بلغت. والزمن هو صديقٌ حميم وعون لمن يستخدم عقله وبصيرته في ترقّب الفرصة. وهو أيضاً عدوّ لا يرحم لذوي اللجاجة، الندفعين بطيش وتهور». وبترديده أمثال هذه العبارات وممارسته لفنون الحيل أمكنه التخفيف من شراسة هذا الشعب البربري، وتدريبه على ارتقاب الفرص وانتظارها.

ومن بين مآثره الرائعة ليس ثمّ ما أثار العجب قدر ما أثارته تلك العملية التي دبّرها ضدّ الجاراكسيتانيين Characitanians. وهؤلاء كانوا قبيلة تسكن فيما وراء نهر التاگوس Tagus لا تقطن المدن ولا القرى وإنما تعيش في جبل شاهقٍ مترامٍ، داخل كهوف ومغارات صخرية فُتحاتها متجهة إلى الشمال. وكانت تربة الأرض في السهل المجاور تشبه الطين الفاتح الهشّ الذي يسهل سحقه إلى دقيق الرّمل. وهو ليس بدرجة من الصلابة بحيث يتحمّل وطأة أي شخص. وإن أنت لمسته أقلّ لمسةٍ انتشر في الهواء كالغبار أو الرّماد. وإذا هُدّدت القبيلة بجربٍ قادمة لجأت إلى كهوفها حاملةً معها غنائمها وفرائسها ومكثت فيها آمنة ساكنة لا تخشى هجوماً. وكان سرتوريوس قد ابتعد عن ميتللوس بمسافة كبيرة وضرب خيام معسكره بالقرب من هذا الجبل. فراح رجال القبيلة هؤلاء يعيّرونه ويحقّرونه معتقدين أنه ما انسحب إلى مناطقهم إلاّ لهزيمةٍ لحقت

به على يد الرومان. وسواء في ذلك أكان قراره بمحاربتهم متأتّياً عن غيظه منهم وحفيظته عليهم أم بسبب كرهه أن يظنّ به الناس الضعف والفرار من وجه الأعداء، فقد خرج في الصباح الباكر راكباً لاستطلاع الموقع والأرض. وتجوّل مهدّداً مضطرباً، ولم يجد ثمّ طريقاً للوصول إلى معاقلهم، لكنه لاحظ أنّ الريح تثير الغبار وترفعه إلى فوق نحو كهوف الجاراستيانيين التي كانت منافذها، كما قلتُ، متجهة إلى الشمال وكانت ريح الشمال التي يسمّيها بعضهم كاسياس Casias أكثر الريح هبوباً في تلك الأصقاع. وهي تأتي من الأجواء المشبعة بالرطوبة أو الجبال المغطاة بالثلوج. وهي تشتد وتزداد في هذا الوقت وفي قيظ الصيف، بذوبان الثلوج في المناطق الشمالية، فتدفع أنساماً لطيفة منعشة تبرد وتنعش الجاراسيتانيين وماشيتهم طوال النهار. درس سرتوريوس دراسة تأمّلٍ النتائج التي هدته إليها معلومات السكان، أو توصّلت إليها خبرته الخاصّة، ثم أمر جنوده بجرف مقدارٍ كبير من الأتربة الدقيقة الذرّات وتكديسه أكداساً في تلّ واحدٍ مقابل المرتفعات التي يقطنها هؤلاء البرابرة. فتصوّروا أن كل هذه الاستعدادات ترمي إلى إقامة تلّ عظيم يشرف على معاقلهم ويسهل منه الظفر بهم، فلم يسعهم إلاّ السخرية والازدراء. إلاّ أن سرتوريوس واصل عمله حتى أدركه الليل فعاد بجنوده إلى المعسكر.

وفي اليوم التالي هبّت في مبدأ الأمر نسمات رخيّة، فحرّكت أجزاء التراب ونشرته في الفضاء كما تنتشر العُصافة أمام الريح. لكن ما إن ارتفعت الشمس في مدارها حتى غطت ريح الشمال القوية كل المرتفعات بعاصفة غبارٍ، ثم أقبل الجنود وراحوا يحرّكون التلّ ويقلبون ترابه ويكسرون القطع المتماسكة أجزاءً، في حين أخذت الخيّالة تمرّ عليها وتسحقها بسنابك خيلها جيئة وذهاباً وتثير سُحباً من الغبار في الجوّ. فاندفع بمساعدة الريح كل التراب المكدّس محمولاً إلى مساكن الجاراسيتانيين المفتوحة المنافذ إلى الشمال ولم يكن ثمّ أي منصرفٍ للغبار الصاعد ولم يكن متنفّس لهم خلا الفضاء الذي كانت الريح المسمّاة كاسياس تندفع إليه. فما عتمت أن أعمت عيونهم وملأت رئاتهم حتى كادت تخنقهم وهم يجاهدون في استنشاق هذا الهواء المشبع بالغبار والمكثف بدقائق الطين وعجزوا عن الصمود أكثر من يومين بعد أن لم يبق شيء إلاّ حاولوه. واستسلموا في اليوم الثالث. في الواقع أن سرتوريوس لم تعظم دولته كثيراً بإخضاعهم قدر ما زادت هذه المأثره من شهرته. فقد برهن أنه استطاع أن يفتح أقطاراً بالحيلة والدهاء، أقطاراً لا يقوى على فتحها السلاح. أما عن تعامله مع ميتللوس، فشائع القول إنه مدين بكل ما حققه من نصر عليه إلى شيخوخته وتباطؤه وكلاهما لا يصلحان

لمواجهة خصم كسرتوريوس ذي إقدام ونشاط، يقود جيشاً خفيف الحركة، أشبه شيء بعصابة قطّاع طرق منه بجيش نظامي. لكن عندما عبر پومپي جبال البرانس، أيضاً، وضرب سرتوريوس معسكره بالقرب منه ولم يفلت أية فرصة للتعرّض له أو قبول الدخول في أية معركة تتيح للبراعة العسكرية فرصة وضعها موضع اختبار، ورجحت كِفّته في مجال المباراة هذه سواء أفي إحباط خطط عدوة أم استنباط الخطط المضادة، طار صيته وذاعت شهرته حتى بلغت روما نفسها. وعُرف بكونه أعظم القادة المتمرّسين من طبقته. ولم تكن شهرة پومپي بالقليلة هي الأخرى فقد سبق له أن نال أعظم التشريف مراراً كثيرة للمآثر التي حققها في حروب سيلّلا حتى أنه خلع عليه لقب ماگنوس أي العظيم. ولُقّب بالأكبر وارتفعت به همّته إلى أن مُنح شرف موكب الظفر قبل أن تنمو لحيته. كان سرتوريوس مهدّداً بثورة عددٍ كبير من المدن التي يحكمها، والانتقاض عليه والانضمام إلى پومپي، إلاّ أنها عدلت عن ذلك عندما حققّ من بين ما حقق من عظائم الأمور ذلك النصر الجليل بالقرب من مدينة لاورون Lauron خلافاً لما كان يتوقّعه الجميع.

كان سرتوريوس قد ضرب الحصار على لاورون، فزحف پومپي بكلّ جيشه لإنقاذها. وكان بالقرب من هذه المدينة مرتفع استراتيجي هام تسابق الطرفان إلى احتلاله، إلاّ أن سرتوريوس كان الأسبق إليه فاحتله. وأقبل پومپي متأخراً فوضع قوّاته في خطّ القتال عند سفوح هذا المرتفع، غير آسفٍ على ما حصل، ومُقدّراً بأنه جعل عدوّه الآن محصوراً بين حامية المدينة وجيشه. ثم بعث برسولٍ إلى أهالي لاورون يقوّي من عزائمهم ويشجّعهم على الخروج إلى أسوارهم، ليشاهدوا كيف أن من يحاصرهم قد انقلب محصوراً. وضحك سرتوريوس حين أدرك خطة پومپي وقال: «سألقّن الآن تلميذ سيلّلا (هكذا كان يُسمّي پومپي استخفافاً به) درساً بليغاً. فمن واجب الجنرال أن ينظر خلفه مثلما ينظر أمامه» مشيراً إلى ستة آلاف مقاتل كان قد تركهم في المعسكر الذي زحف منه عند استيلائه على المرتفع. حتى إذا خطر ببال پومپي الهجوم عليه فسينقضّ هؤلاء الآلاف الستة على ساقته. واكتشف پومپي الأمر متأخراً فلم يجرؤ على الدخول في معركةٍ خوفاً من تطويقه. كما أن الخجل استولى عليه لتركه أصدقاءه وحلفاءه في مِحنتهم الشديدة، مرغماً على البقاء حيث هو لا يستطيع حراكاً كيلا يشاهدهم والدمار يُحدق بهم أمام عينيه. فقد يئس المحصورون من النجدة فاستلموا لسرتوريوس الذي أبقى عليهم، ومنحهم حرياتهم. إلاّ أنه أحرق مدينتهم ليس بدافع الغيظ أو بعامل القسوة، إذ إن سرتوريوس كان من بين القادة أقلّهم انسياقاً مع العاطفة،

بل كان يرمي إلى جرّ المزيد من الخزي والعار على المعجبين بپومپي، وكذلك حتى ينتشر بين الإسبان أنّ پومپي مع أنه كان قريباً من النيران التي أحرقت مدينة حلفائه بحيث لفحته بحرارتها إلاّ أنه لم يجرؤ على القيام باية محاولةٍ لمنع ذلك.

على أية حالٍ عاني سرتوريوس كثيراً من الخسائر في حروبه إلاّ أنه كان يخرج منها سليماً بعيداً عن الهزيمة هو ومن تبعه. وكان مصدر هذه الخسائر وسببها القادة الآخرون الذين يعملون تحت إمرته. وكان أكثرُ الإعجاب به متأتّياً من مقدرته على سدّ النقص في جيشه وتغطية خسائره واستعادة النصر من يد العدوّ أكثر مما كان قادة الرومان يستطيعونه. كما كان الأمر في معركة سوكرا Sucra ضدّ پومپي وفي المعركة التي جرت بالقرب من توتيّا Tuttia بينه وبين پومپي وميتللوس معاً. ولقد قيل إن المعركة التي جرت بالقرب من سوكر كانت بسبب تسرّع پومپي فقد دخلها قبل مجيء ميتللوس لئلا يشاركه هذا ثمار نصرها، وكان سرتوريوس يريد الالتحام مع پومپي قبل وصول ميتللوس. لقد عوّق سرتوريوس موعد المعركة حتى المساء، مدركاً أن ظلام الليل لن يكون في صالح أعدائه، إن كانوا هم المطاردين، أو كانوا هم الهاربين، لأنهم غرباء عن البلاد لايعرفون طبيعة ارضها.

لمّا بدأ القتال لم يكن موضع قيادة سرتوريوس مقابل پومپي وإنما كان إزاء أفرانيوس Afranius الذي أنيطت به قيادة الجناح الأيسر الروماني، في حين كان سرتوريوس يقود جناح جيشه الأيمن. لكن ما إن علم أن جناحه الأيسر أخذ يرتدّ تحت وطأة هجمات پومپي حتى أسرع لإيداع قيادة جناحه إلى آخرين، وخفّ لإنجاد من تحرّج موقفهم فأعاد تحشيد من هرب وبث الشجاعة في الآخرين الذين ما زالوا يقاتلون في صفوف متراصّة. وكرّ على العدوّ الذي يطارده مجدداً القتال العنيف حتى ألحق الهزيمة الكبرى بعدوّه. وكادت حياة پومپي نفسه تتعرّض لخطرٍ جسيم. فبعد أن جُرح وفقد جواده جاءه الخلاص على غير انتظار حيث إن أفارقة سرتوريوس الذين غنموا حصان پومپي ذا السرج المكفّت بالذهب راحوا يختصمون عليه فيما بينهم وانشغلوا بذلك عن المطاردة، وصرفوا اهتمامهم إلى تقسيم الأسلاب.

كما أن أفرانيوس انتهز فرصة مغادرة سرتوريوس جناحه الأيمن إلى القسم الآخر من جيشه، فتمكّن من التغلّب على كل من اعترض سبيله. وراح يطارد المنهزمين حتى معسكرهم فدخله معهم وعكف على استلاب الغنائم حتى جَنّ الليل، وهو لا يدري شيئاً عن هزيمة قائده پومپي، ولا يستطيع أن يمنع جنوده عن السلب. وهكذا فاجأه سرتوريوس وهو عائد بعد نصره، وانقضّ عليه وعلى رجاله الذين سادتهم الفوضى

واطّرحوا جانب الحذر، ففتك بهم فَتْكَته البكر. وفي صباح اليوم التالي خرج إلى ساحة القتال بجيشه وهو في كامل استعداده وسلاحه وطلب القتال. لكنه تبيّن أن ميتللوس قد اقترب كثيراً فعدل ورجع إلى معسكره وهو يقول: «لو لم تُقبِل هذه العجوز، لكنت ألهبت ظهر الصبيّ بالسياط وأرسلته إلى روما».

واستبدّ به القلق عندما افتقد ظبيته فلم يجدها، وبحث عنها دون جدوى. وفيما كان على هذه الصورة من الحيرة والعجز عن القيام بتدبير حيلة لطيفة ليبثّ بها الشجاعة في البرابرة ويقوي من عزائمهم وقتما كان في أمسّ الحاجة إلى ذلك، أتفق لبعض الرجال المتجوّلين أن عثروا على تلك الظبية، وعرفوها من لونها، فأخذوها إليه فوعدهم بهبات وعطايا جسيمة إذا كتموا خبرها ولم يعلموا أحداً بالأمر. ثم عجّل فأخفاها. وبعد أيام قلائل ظهر للناس والبِشر يطفح من وجهه وقال لرؤساء البلاد إن الآلهة قد أعلمته في الحلم بأن حادثاً سعيداً سيكون في انتظاره. ثم اتخذ مقعده، وطفق يفصل في المظلمات المقدّمة إليه. وفي أثناء ذلك أطلق الخدم الظبية التي كانوا قد جاؤوا بها إلى مكان قريب من مجلس سرتوريوس، فما إن تبيّنته حتى أقبلت عليه تتوثّب فرحة مسرورة، إلى أن بلغت قدميه واستقرّ رأسها على ركبتيه، وراحت تلعق كما كانت تفعل من قبل. فأخذ سرتوريوس يلاعبها ويداعبها كالسابق وبذلك الحنان، واغرورقت عيناه بالدمع، فامتلأ الحاضرون دهشةً وعجباً. ورافقوه حتى بيته وهم يهتفون فرحين جذلين وينظرون إليه كما ينظرون إلى شخص يفوق مستوى البشر، ذي حظوة كبيرة عند الآلهة. وشاع فيهم الأمل وعادت إليهم شجاعتهم بهذا الحدث العجيب.

لما بلغ سرتوريوس بأعدائه إلى آخر درجة من الإنهاك والجوع لشحّ الأرزاق والأقوات، لم يرَ إلاّ أن يدخل معهم في معركةٍ في السهول القريبة من ساگونتوم Saguntum ليمنعهم من نهب البلاد. فقاتل الجيشان قتالاً مجيداً رائعاً. وسقط مميوس Mommius أحسن قوّاد جيش پومپي قتيلاً في زخم المعركة. وسحق سرتوريوس كلّ من اعترض سبيله مندفعاً إلى الأمام نحو ميتللوس وهو يجزر في العدوّ جزراً.

وكان هذا القائد العجوز يبلو بلاءً حسناً، يفوق ما يمكن توقّعه ممن هم في سِنّه. وأصيب بجرح من سِنان رمح، وهو ما أخجل وأخزى كل من شهد الحادث أو سمع به من الجنود بتركهم قائدهم في محنةٍ. إلاّ أن عاطفة الانتقام والحنق أثارتهم ضد العدوّ فتحوّطوا ميتللوس وغطّوه بتروسهم ثم أبعدوه عن مكامن الخطر، وراحوا يصدّون هجمات الإسبان ببسالة. فأخذ النصر ينتقل إلى جانبهم. ولم يرَ سرتوريوس مندوحة

من الانسحاب إلى مدينة منيعة في الجبال ليضمن موقعاً محصّناً وليسهل عليه تعبئة قوات جديدة. ومع أن احتمال معاناته حصاراً طويل الأمد كان أبعد من أن يفكر فيه فقد شرع في ترميم الأسوار وتحكيم الأبواب. وهكذا أوهم أعداءه الذين تعقّبوه ثم اتخذوا مواقعهم قبالة المدينة، مؤمّلين الاستيلاء عليها بالأقل من المقاومة، ضاربين صفحاً في الوقت نفسه عن فكرة مطاردة الإسبان. وبذلك أفسحوا المجال لتعبئة قوات جديدة تحت إمرة سرتوريوس. فقد أوفد القادة كلاًّ إلى مدينته لهذه الغاية، وأوصاهم أن يبلغوه حالما تبلغ قوّاتهم ما فيه الكفاية. فما إن ورده النبأ حتى اندفع من المدينة بقوّاته وشقّ طريقه عنوة من بين صفوف العدوّ، وانضمّ إليهم مع جيشه بكلّ سهولة. وبالتحاق هذه النجدات الكبيرة به لم يلبث أن انقضّ على الرومان ثانية بهجمات خاطفة، وباشتباكات مقلقة من كل جانب، وبنصب الكمائن وبإيقاعهم في الأشراك واصطيادهم. مكّنه هذا من قطع كلّ الموارد عنهم بَرّاً، كما مكّنه بسفن القرصنة من ارعاب الساحل كله، ومنع إيصال المؤن إليهم عن طريق البحر. وبهذا أرغم قوّاد الرومان على التشتّت، والانفصال. فأقفل ميتللوس عائداً إلى بلاد الغاليّين. وأمضى پومپي شتاءه عند الڤاكيّ Vaccaens وهو في حالة يُرثى لها، إذ كان في أمسّ الحاجة إلى المال، ولذلك كتب إلى مجلس الشيوخ يطلب العون العاجل، وإلاّ كان مضطراً إلى الانسحاب بجيشه، فقد أنفق كل أمواله الخاصة في سبيل الدفاع عن إيطاليا. وهكذا كانت حنكة سرتوريوس ودهاؤه السبب في إيصال أعظم وأمنع قادة العصر إلى هذا الدرك من الذلّ والبؤس. وشاع الرأي في روما أن سرتوريوس سيسبق پومپي إلى روما.

ومما يدلّ على الخوف الذي استولى على ميتللوس، ودرجة تقدير خطورة سرتوريوس عنده، أنه أذاع إعلاناً رسمياً تعهّد فيه أن يمنح مائة تالنت من الذهب، وعشرين ألف إيكر من الأرض الزراعية، لأيّ روماني يغتاله، وإذا كان القاتل من المنفيين، فسيلغي أمر نفيه ويعيده إلى الوطن. وهكذا رأيناه يحاول شراء حياة خصمه بأخسّ طرق التآمر بعد أن يئس من التغلّب عليه في حربٍ علنية. ومرّةً، عندما نال نصراً عليه في أحد المعارك، استخفّه الطرب وأخرجه عن طوره، وأسكره حُسن طالعه. فأمر بأن يُنادى به «إمبراطوراً» على الصعيد الرسمي، وجعل كل مدينة زارها تستقبله بالأضحيات والقرابين. وقيل إنه سمح لنفسه أن يضع أكاليل الغار على جبينه، وأقام الحفلات الفخمة وجلس فيها يشرب الخمر وهو متوشّح بثياب النصر، في حين كانت صور وتهاويل مواكب النصر تتوالى أمامه بطريقة مَيْكنيّة حيث تتابع صور غير

حقيقية لتيجان وغنائم وتذكارات حربية من الذهب، وأجواق من الفتيات والفتيان يرقصون أمامه وينشدون له أناشيد الفرح والنصر. الحق يقال إنه بهذا جعل نفسه مهزأة وأضحوكة لتماديه في المباهاة، وإفراطه بالسرور والإغراق في أوهام النصر. وكل ما في الأمر هو أنه تعقّب رجلاً منسحباً على اختياره لا مجبراً، وأنه تغلّب مرة واحدة فقط على من كان يسمّيه بعبد سيلّلا الآبق، ويصف قوّاته بأنها بقايا جيش كاربو Carbo المهزوم.

وفي أثناء ذلك كان سرتوريوس ينكشف عن أسمى الخلق. فقد جمع كل أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذين نزحوا من روما، وآثروا البقاء معه وعمل منهم مجلس شيوخ. واختار من بينهم پريتورين وكويستورين. وجمّل حكمه بتطبيق الشريعة الرومانية، وتبنّى أجهزتها الحكومية. ومع أنه استخدم أسلحة الإسبان وأنفق أموالهم واستعان بمدنهم إلاّ أنه لم يودع إليهم أية سلطةٍ حقيقية ولو اسمياً، بل عيّن ضباطاً وقادة رومانيين عليهم قائلاً إن غايته هي إعادة حريات الرومان لا استعداء الإسبان عليهم. فقد كان يحبّ بلاده حبّاً جمّاً وتتملّكه رغبة قوية جداً للعودة إليها. على أنه كان يُظهر صلابة وتجلّداً عندما يعانده الحظ لا تعدلهما صلابة. ويبدو لأعدائه في تلك الحالة أبعد عن الحيرة والقنوط والكآبة. ولمّا كان في أوج سلطانه وأعظم نفوذه كتب لكلّ من پومپي وميتللوس مبدياً استعداده لإلقاء السلاح والعيش عيشة المواطن العاديّ بعيداً عن الأمور العامة شريطة أن يسمح له بالعودة إلى الوطن، قائلاً إنه ليفضّل العيش في روما كأصغر مواطن على أن يعيش بعيداً عنها وإن اجتمع له مُلك جميع المدن الأخرى. ويُعتقد أن حبّه لوطنه كان مبعثه بدرجة غير قليلة تعلّقه الشديد بأمّه التي ربّته وأنشأته بعد وفاة أبيه فتمركز فيه كل عاطفتها. وبعد ذلك بعث أصدقاؤه يستقدمونه إلى إسبانيا ليكون قائداً لهم. وفيما هو كذلك إذ سمع بنبأ وفاة أمه، فكاد يقضي حزناً وبقي سبعة أيام كاملة منزوياً في خيمته لا يكلّم أحداً بكلمة واحدة، ولا يسمح لأقرب أصدقائه بالدخول عليه. وعندما أقبل رؤساء الجيش والقادة ورجال الدولة إلى خيمته عانوا جهداً كبيراً في إقناعه بالخروج والتحدث إلى جنوده ومزاولة أعماله وشؤونه التي كانت من أفضل ما يمكن. ولذلك فإن رأي الكثيرين فيه يقطع بخُلقه الرفيق الحاني وبنفسه الملأى بالعاطفة وميله الأصيل إلى الهدوء والمسالمة، وما قبوله قيادة القوات العسكرية إلاّ شيء يخالف طبعه، لم يلجأ إليه إلاّ مجبراً بعد أن عجز عن البقاء آمناً مستقراً بوسيلةٍ أخرى. فقد دفعه أعداؤه دفعاً للاحتكام إلى السلاح وتبنّي الحروب كأمر لابدّ منه لحماية شخصه. ومفاوضاته مع مثيريداتس الملك تقوم هي أيضاً على رجاحة

عقله وعظمته. عندما تمكن مثيريداتس من محو كل آثار الهزيمة التي ألحقها به سيلّلا بدأ كالمصارع الجبّار مستوياً على قدميه مستعداً لجولة أخرى. وكان يعمل جاهداً لإعادة بسط سلطانه على آسيا. وفي ذلك الحين كانت الأقطار تلهج باسم سرتوريوس. وحملت أنباء انتصاراته جماعات التجار الذين عادوا من أوروبا الشرقية مع السلع إلى مملكة پونطس فملأوها بأقاصيصهم عن المآثر الحربية التي حققها وبلغت الملك فزاد الشوق به إلى إرسال سفارة إليه. أو ربّما شجّعه على هذا ملق المتملّقين إذ أخذوا يقارنون مثيريداتس ببيروس وسرتوريوس بهنيبعل. واستخلصوا من هذا أن الرومان سيسقط في يدهم عندما تنقضّ عليهم قوّات كهذه بقيادة اثنين كسرتوريوس ومثيريداتس في آن واحدٍ. جيش على رأسه أشجع قائدٍ من قوّاد العصر، وجيش على رأسه أعظم ملك في الوجود.

وبناء على هذا بعث مثيريداتس بسفرائه إلى سرتوريوس في إسبانيا ومعهم رسائل وتعليمات، وخولّهم أن يتعهّدوا لسرتوريوس بإرسال السفن والأموال له في سبيل الحرب شريطة أن يؤيّد مطالبه في آسيا، ويسمح له بحق السيطرة على كل ما تنازل عنه للرومان بموجب المعاهدة التي عقدها مع سيلّلا. فجمع سرتوريوس المجلس الذي أطلق عليه اسم «مجلس الشيوخ» بكامل أعضائه. وشاورهم في الأمر فوافقوا مغتبطين علن عروض مثيريداتس وأعلنوا عن رغبتهم في الحال بقبول شروطه مقدّرين أن ما يريده منهم لا يعدو الاسم الأجوف، والحقّ في بسط نفوذه على بلادٍ لا يملكون القدرة على التنازل عنها، كل ذلك مقابل إمدادهم بما هم في أمسّ الحاجة إليه. إلاّ أن سرتوريوس خالفهم في الرأي ولم يوافقهم في تعاليلهم، قائلاً أن لا اعتراض لديه على ممارسة مثيريداتس سلطانه على بيثينا وكبادوكيا وهما بلدان يعودان له، ولا علاقة لروما بهما. إلاّ أنه لا يوافق على أن يملك مثيريداتس أقاليم تعود إلى الرومان شرعاً وبحقّ صريح، كان هذا الملك قد استولى عليها سابقاً ثم خسرها بحربه مع فمبريا، ونزل عنها بموجب معاهدة الصلح التي عقدها مع سيلّلا. وهو يرى أن واجبه بسط نفوذ الرومان وتوسيعه بفتوحه الحربية، لا تقليص مساحة الممتلكات الرومانية على حساب زيادة نفوذ الملك، وأنه كرجل شريف النوايا لن يقدم على بذل أي مساع لإنقاذ حياته بالموافقة على شروط غير مشرّفة، وإن كان يجني ثمار النصر بلا تردّد إذا جاءه النصر بطريق شريفة.

ولما نُقل هذا القول لمثيريداتس أدركه العجب وقال لخلصائه: «لو قُدّر لسرتوريوس أن يجلس على مقعد الحكم في البلاتيوم بروما فماذا سيضطرنا إلى عمله؟

وها هوذا الآن وهو في سواحل الأطلسي يضع لمملكتنا حدوداً في الشرق ويتوعّدنا بالحرب إذا حاولنا استرجاع آسيا؟». على أن المعاهدة الموثّقة بالأقسام عُقدت فيما بينهما أخيراً، ومجمل شروطها أن تطلق يد مثيريداتس في كباردكيا وبيثينا وأن يرسل إليه سرتوريوس جنوداً وجنرالاً لقيادة جيشه، ويتعهد ميثيريداتس مقابل ذلك أن يزوّده بأربعين سفينة وبمبلغ ٣٠٠٠ تالنت من المال. وتم اختيار ماركوس ماريوس قائداً لآسيا وهو عضو مجلس الشيوخ وكان قد ترك روما وانضمّ إلى سرتوريوس. وكان هذا القائد يمارس سلطة القائد الروماني ويحتفظ بمظاهر سلطانه، فيدخل في المقدمة المدن التي يفتحها مثيريداتس في آسيا يتقدّمه شعار الحكم الروماني وهو الفأس والعصّي، ويتبعه مثيريداتس مطيعاً أوامره. ومنح بعض هذه المدن حريتها، وأعفى بعضها من دفع الضرائب، مؤكداً بذلك أن هذه الامتيازات إنّما مُنحت لها بفضل سرتوريوس. وبهذا أخذت آسيا التي عانت الكثير من ظلم وتحكّم جُباة الضرائب، واضطهاد الجنود وطمعهم واستعلائهم، أخذت تنهض من كَبْوتها وهي عامرة بالإيمان والأمل بتغيير جديد في أسلوب الحكم.

على أن الشيوخ الذين التفوا حول سرتوريوس في إسبانيا وأشراف روما الآخرين ما لبثوا، عندما شعروا بالقوة الكافية لمواجهة أعدائهم الرومان، أن اطّرحوا جانب الحذر، بدافع الغيرة من سطوة سرتوريوس والحسد له. وكان في مقدمة هؤلاء پرپنّا الذي طغى عليه اعتزازه بنُبل أصله، واستولت عليه الرغبة الجامحة في القيادة، حتى أعمت بصيرته. فأخذ يذيع سِرّاً أقوالاً ماكرة خبيثة بين معارفه ويحرّضهم على سرتوريوس. كأن يقول: «أية روح شريرةٍ تدفع بنا إلى الأسفل نحن الذين أبينا العيش بهذه الصورة في بلادنا بهدوء وسلام، لأننا أنفنا من إطاعة أوامر سيلّلا حاكم البرّ والبحر. نأتي هنا ونتعرّض للهلاك على أمل التمتّع بحريتنا، لنجعل من أنفسنا بملء اختيارنا عبيداً بل حرساً وخدّاما حقراء لسرتوريوس المنفيّ الذي زاد في عارنا وخِزْينا بمنحنا اسماً يجعلنا موضع سخرية كل سامع. سَمّانا أعضاء مجلس الشيوخ في حين كلّفنا بأشق الأعمال، وأرغمنا على الخضوع لمشيئته الغطريسة، وإهاناته، كالإسبان واللوزيتانيين سواء بسواء».

بهذا التحريض استمال الشيوخ. ومع أن أغلبيتهم لم يكن في مقدورها أن تعلنها ثورة عليه خوفاً من بطشه فقد وافقت على إفساد أموره والعمل على تقويض حكمه بصورة خفيّة. فأثاروا اللوزيتانيين والإسبان، وأخرجوهم عن طورهم بإنزال العقوبات القاسية بهم، وبإثقال كواهلهم بالضرائب، زاعمين لهم بأنهم إنما يأتمرون بأوامر

سرتوريوس حرفياً. وبهذه الوسائل خلقوا متاعب عظيمة، ودفعوا مدناً عديدة إلى الثورة. وأولئك الذين كان سرتوريوس يرسلهم إليها لإصلاح ذات البَين ولإزالة أسباب الشكوى يزيدون في الطين بِلّة ويُكثرون من أعدائه ويعودون والناس قد تضاعف سخطهم وزادت ثورتهم وقِيداً. وفي وسط هذا الاضطراب كان سرتوريوس المعروف بلين الجانب يزداد حنقاً حتى أنساه رقّته وتسامحه المأثورين، وبلغ به الأمر حداً أن أمر بإلقاء القبض على أبناء الإسبان الذين جاء بهم لتلقي العلوم في مدينة أوسكا، وبقلبٍ أعماه الغيظ والغلظة المتناهية أمر بقتل بعضهم وببيع آخرين رقيقاً.

واتسعت دائرة المتآمرين عليه وزاد عدد المنتظمين فيها. وانفرد پرپنّا بقائد من قوّاد الجيش يدعى مانليوس كان وقتئذ مغرماً بفتى من الفتيان يريد وصاله فكشف له عن أسرار المؤامرة تقرّباً منه وحظوة، ورغبةً في الاستئثار به هو وحده دون غيره، لأنه كما قال له سيكون بعد أيامٍ قليلة رجلاً خطيراً ذا مركز عظيم وسلطان. إلاّ أن الشاب كان يخصّ بميله أوفيديوسَ فأسرع إليه وكشف له عن حقيقة المؤامرة كلّها. فأثار بذلك دهشته وانذهاله، إذ إنه كان واحداً من المؤتمرين، لكنه يجهل حتى تلك اللحظة أن لمانليوس ضِلعاً فيها أو صِلة بأي شكل من الأشكال. لكن لما أخذ الفتي يذكر له أسماء پرپنّا وگاراكينيوس Gracinus وغيرهما، ممن كان يعلم جيداً أنهم شركاؤه في التآمر، ومن الرؤوس التي تحالفت بالأيمان والعهود. استبدّ به الخوف وجُنّ رعباً. إلاّ أنه تظاهر بالاستخفاف وعدم التصديق وطلب منه أن لا يصدّق ما قاله مانليوس ولا يضع أية ثقة فيه، لأنه رجل مهذار كثير التباهي... ثم أسرع فاتصل بپرپنّا ونبّهه إلى الخطر المحدق بهم وإلى قِصر الوقت. وطلب منه البدء بتنفيذ المخطط في الحال. وبعد إقرار الخطة، جاؤوا بأحد السعاة وزوّدوه برسائل مزيّفة حوت أنباء عن نصرٍ موهوم حققه أحد قوّاد سرتوريوس، وعن مقتلةٍ عظيمة أوقعها بأعدائه، فبعثوا بها إليه. وكان سرور سرتوريوس بذلك عظيماً وقرّب قرابين الشكر لهذا النجاح الكبير. وبهذه المناسبة دعاه پرپنّا ورفاقه المتآمرون إلى مأدبة عشاءً. فبادر إليها مسروراً. وكان النظام والأدب يسودان عادة كلّ مجلسٍ أو دعوة يحضرها سرتوريوس، فهو لم يكن يصبر على سماع أو رؤية ما يخالف قواعد السلوك والأدب أو ما يتّسم بالتسفُّل وسوء الخلق. ولذلك اعتاد عشراؤه وملازموه أن يتحاشوا كل ما لا يستقيم مع قواعد الأدب أثناء وجوده وأن لا يبدر منهم ما يخلّ بالهدوء والسكينة. وفي هذه الحفلة بالذات تعمّد المتآمرون إثارة الضجّة لتنفيذ مآربهم فتظاهروا بالسكر وراحوا يعربدون ويثيرون ضجة قبيحة ويرتكبون كثيراً من الحماقات يريدون بها استفزازه. فعمد سرتوريوس إلى تغيير

شكل اضطجاعه وانقلب على جنبه الآخر وأولاهم ظهره كمن يريد أن لا يسمعهم ولا يشاهدهم، إمّا منزعجاً من سوء سلوكهم، وإمّا مدركاً حالة التبلّد العقلي التي ظهرت من سقط الكلام والفظاظة غير الاعتيادية واطّراح جانب الأدب. وعندئذ رفع پرپنّا كأساً ممتلئة بالخمر إلى فمه وأفلتها من يده فسقطت على الأرض وأحدثت رنيناً وكانت الإشارة المتفق عليها فيما بين المتآمرين. فنهض أنطونيوس الذي كان مجلسه مجاوراً للمؤتَمر به وطعنه بسيفه. وأراد سرتوريوس بعد إصابته أن ينقلب محاولاً النهوض فألقى أنطونيوس بنفسه على صدره وأمسكه بكلتا يديه فشلّه عن الحركة وتكاثر عليه الباقون وأثخنوه طعناً وأجهزوا عليه دون أن يتيحوا له فرصة الدفاع عن نفسه.

وما إن ذاع نبأ قتله حتى بادر معظم الإسبان إلى ترك جانب المتآمرين وبعثوا إلى پومپي وميتللوس يطلبون الدخالة والاستسلام. وحاول پرپنّا القتال ببقية الموالين، إلاّ أنه لم يُفلح في استخدام أسلحة سرتوريوس وقوّاته الحربيّة إلاّ بما كساه خِزياً وعاراً، وبما أوضح للجميع أنه لا يدري من فنون القيادة العسكرية أكثر من معرفته كيف يطيع. وعند التحامه في معركته الأولى مع پومپي انكسر شرّ كسرة ووقع أسيراً. إلاّ أنه لم يحتمل كبوته هذه بأي مظهر للرجولة والشجاعة، وعرض على پومپي تزلّفاً وتقرّباً رسائل كانت في حيازته بعث بها إلى سرتوريوس نخبة من روما ذوو مراتب قنصلية مدوّنة بخط أيديهم يطلبون فيها من سرتوريوس القدوم إلى إيطاليا. كما عرض على پومپي أيضاً قائمة بأسماء عدد كبير كانوا يريدون قلب نظام الحكم السائد في روما وإقامة دولة جديدة. إلاّ أن پومپي في هذه المناسبة كان أبعد من أن يتصرّف تصرّف الشابّ الغرير الأهوج غير المتبصّر بالعواقب، بل كان تصرّفه تصرّف رجل ناضج راجح العقل، سوّي الحكم، فقذف بكل مدوّنات سرتوريوس مع الرسائل في النار دون أن يقرأ حرفاً منها أو يدع غيره يطّلع عليها. وبذلك حرّر روما من مخاوف عظيمة وأنقذها من أخطار الانقلاب. وأمر أن يُقتل پرپنّا فوراً لئلا يكون بقاؤه على قيد الحياة سبباً في انكشاف تلك الأسماء وإثارة المزيد في المتاعب واندلاع ثورات أخرى.

أمّا عن بقية المؤتمرين بسرتوريوس مع پرپنّا فبعضهم قُبض عليه وقتل بأمرٍ من پومپي وبعضهم هرب إلى أفريقيا فوقع في أيدي المغاربة الذين قضوا عليه طعناً بالحراب. وفي زمن قصير جداً تمّ القضاء عليهم جميعاً عدا أوفيديوس منافس هانليوس الذي اختبأ وتوارى عن الأنظار ولم يجدّ أحد في طلبه. وتوفّي في أرذل العمر فقيراً مبغضاً من الجميع في إحدى القرى الإسبانية.



هوميروس

يومينيس
EUMENES
٣٦٠-٣١٦ ق.م

يحدّثنا دوريس Doris بأن يومينيس الكاردي Cardia كان ابناً لسائق عجَلةٍ فقير الحال من الخرسونيز التراقيّة، إلاّ أنه نال تعليماً واسعاً في ميدان العلم والجندية. ويقول إن فيلپّس لما كان في كارديا كان يتسلّى يوماً بمشاهدة نزال مصارعةٍ وغير ذلك من ألعاب الفتوة هناك. فوجد يومينيس من بينهم يبزّ أقرانه ويُحرز السبق عليهم، فسُرّ به واستخدمه. ولكنّ الأقرب إلى الاحتمال هو أن فيلپس ما قدّم يومينيس إلاّ بسبب الصداقة التي كانت بينه وبين أبيه الذي كان كثيراً ما ينزل عنده ضيفاً. وآثره الإسكندر بعد موت أبيه فيلپس بعطفه فعيّنه كاتمَ سِرّه الأول. إلا أن حظوته عنده كانت تعدل حظوة أقرب خلصائه. فقد اشتهر أمر إخلاصه ورجاحة عقله. فسُلِّم جيشاً قاد به حملة على الهند. ونجح في استخلاف برديكاس Perdiccas الذي كان بدوره خلفاً لهيفايستيون Hephaestion بعد وفاته.

وضحك المقدونيون من نيوپطليموس Neoptolemus قائد حرس الإسكندر الخاص، عندما وقف قائلاً بعد وفاة الإسكندر إنه تبع قائده حاملاً تُرسه ورمحه، في حين لم يتبعه يومينيس بغير القلم والقرطاس. ضحكوا لأنهم كانوا على معرفة تامة بأن الملك المتوفّى إلى جانب المكارم التي أسبغها عليه شرفه ورفع منزلته باستحداث نوع من المصاهرة معه. ذلك أن زوج الإسكندر الأولى التي استولدها ابنه هرقليس كانت بارسنه Barsine بنت أرطباز. وعند توزيع النساء الفارسيّات على قوّاده أعطي أپامه Apame إحدى شقيقاتها لبطليموس، وأعطى الثانية واسمها بارسنه أيضاً ليومينيس.

على أنه كثيراً ما كان يُغضب الإسكندر، ويضع نفسه في مواقف خطرة بسبب هيفايستيون. فمثلاً كان المسكن الذي اتخذه يومينيس قد قرّر هيفايستيون أن يكون ليويوس Euius النافخ بالمزمار. فحنق يومينيس ومنتور Mentor ورفعا الأمر إلى الإسكندر وراحا يحتجّان بشدّة قائلين: لو أنهما ألقيا سلاحهما جانباً واحترفا مهنة النفخ بالناي أو تمثيل التراجيديات، لكان أفضل لهما وأجدى. وهكذا حتى لم يسع الإسكندر

إلاّ أن يلتزم جانبهما ويعنّف هيفايستيون، ثم ما لبث أن بدّل رأيه وحنق على يومينيس، معتبراً الحرية التي سمح بها لنفسه أمامه من قبيل الإهانة، لا من قبيل الشكوى على هيفايستيون.

وفي مناسبة أخرى تقرّر أن يرسل نيارخوس Nearchus على رأس أسطول إلى بحر الجنوب. وكانت خزانة الإسكندر خاوية فعزم على الاستدانة من أصدقائه. وقرّر أن يكون سهم يومينيس ثلاثمائة تالنت. إلا أن يومينيس لم يبعث إليه بغير مائة محتجّاً بضيق ذات اليد وبصعوبة جمع هذا المقدار من أمنائه. فلم يعتب عليه الإسكندر، ولم يتسلّم المال. لكنه أمر سِرّاً بإحراق خيمته، يريد بهذا أن تفتضح كذبته حالما تنقل أمواله خارج الخيمة عند شبوب النار. إلاّ أن النار أتت على الخيمة كلها قبل أن يتمّ إخراج ما بداخلها. وإذ ذاك ندم الإسكندر على ما فرط منه، فقد احترقت كل المخطوطات فيها. أما كمية الذهب والفضة التي أذابتها حرارة النار فقد جُمعت فيما بعد ووجِد أنها تزيد عن ألف تالنت. إلاّ أن الإسكندرلم يأخذ منها شيئاً، وكتب إلى الولاة والقوّاد بأن يرسلوا نسخاً أخرى من المخطوطات التي احترقت وأمر أن تسلّم كلها ليومينيس.

ونشب خلاف آخر بينه وبين هيفايستيون بسبب هدية فتبادلا الكثير من الكلام الجارح. ومع هذا كله فقد بقي يومينيس محتفظاً بمركزه وحظوته. ثم إن هيفايستيون ما لبث أن قضى نحبه. واشتدّ الحزن بالملك عليه حتى راحت به الظنون إلى أن كل من عاداه وخالفه أيام كان حياً هو الآن مغتبط سعيد بموته. فأظهر في سلوكه معهم ولاسيما منهم يومينيس كثيراً من الجفاء والغِلظة، وطالما لامه ووبّخه على مشاحناته واعتداءاته عليه. إلاّ أنه وهو رجل البلاط الحكيم الماكر أفاد مما كان يوجّه إليه من التهم ظلماً بأن راح يضرب على الوتر العاطفي عند الملك بتمجيد وتقديس ذكرى صديقه، مقترحاً مختلف الطرق لإكرام ذكراه.

وعلى إثر وفاة الإسكندر نشب الخلاف بين جنود «الفلانكس» وضباطه من أصحابه. ولكن يومينيس وقف محايداً بين الفريقين بحكم وظيفته مع أنه كان يميل إلى الطرف الثاني، فقد رأى بثاقب نظره أنه ليس من المستحبّ أن يتدخّل - وهو الأجنبي عنهم - في نزاع داخلي بين المقدونيين. ولما ترك بقية أصدقاء الإسكندر مدينة بابل تخلّف هو فيها. وبذل جهوداً كثيرة في تهدئة الجنود المشاة وإقناعهم بتسوية الخلاف. ولما حَلّ التفاهم بين القادة وخرجوا من مرحلةِ الفوضى الأولى شرعوا يتقاسمون القيادات والأقاليم. فأقطعوا يومينيس كبدوكيا وبافلاگونيا Paphlagonia وكل الساحل

الذي هو على البحر الپونطي، حتى ترابزون التي لم تكن وقتذاك ضمن أملاك المقدونيين. لأن الملك أرياراثس Ariarathes كان يحتلّها. ولذلك قام كل من ليوناتس Leonattus وأنتيغونس Antigonus بالزحف عليها بجيش لجِب واحتلالها لتمكين يومينيس منها.

على أن أنتيغونس الذي كانت الآمال والأطماع الخاصة تملك عليه مذاهبه، وتجعله يحتقر الجميع، لم يُلق بالاً إلى رسائل پرديكّاس. كما أن ليوناتوس ساق جيشه نحو فريجيا حفظاً لمصالح يومينيس. لكن هيكاتاوس Hecataeus طاغية الكارديين زاره وزيّن له أن يقوم بنجدة أنتيپاطر والمقدونيين الذين كانوا قد حوصروا في لاميا Lamia فقرّر أن يأخذ برأيه ويقوم بهذه الحملة ودعا يومينيس إلى المساهمة فيها. وحاول مصالحته مع هيكاتاوس إذ كان يوجد بينهما ثأر موروث ناشئ عن خلافات سياسية. وعُرف عن يومينيس أيضاً أنه ندّد أكثر من مرة بهيكاتاوس وطغيانه. وحثّ الإسكندر على تحرير الكارديين من رِبْقته لذلك نجده الآن يرفض المساهمة في الحملة المقترحة. وزعم أنه يخشى أن يقع في يد أنتيپاطر فيقتله لأنه يحقد عليه، ولأنه يريد أن يؤدّي خدمة لهيكاتاوس. وكان ليوناتوس عظيم الثقة بيومينيس فلم يتردد في الافضاء إليه بتفاصيل خطته التي أضمرها، وهي التظاهر منه بالعمل على مساعدة أنتيپاطر في حين أنه يعمل في الحقيقة على إخضاع مقدونيا كلها لسلطانه، ثم إنه عرض عليه رسائل وردته من كليوباطرا تدعوه فيها إلى پيللا Pilla وتعده بالزواج منه. إلاّ أن يومينيس أسرع متسللاً تحت جنح الليل إما خوفاً من أنتيپاطر، أو لأنه كان يعرف ليوناتوس رجلاً عنيفاً صلب الرأي يُخشى جانبه. وكان معه كل أتباعه وهم ثلاثمائة من الفرسان ومائتان من الخدم والأتباع المسلحين، ونقل كل ما يملك وهو حوالي خمسة آلاف تالنت من الفضة، ولجأ إلى پرديكاس وأفضى إليه بما بيّته ليوناتوس فركن إليه وأصبح مستشاره. وبعد فترة وجيزة زحف پرديكاس بجيش جرّار ليعيد يومينيس إلى كبدوكيا. ووفّق إلى أسر أرياراش وإخضاع كل البلاد وإعلان يومينيس حاكماً عليها. فقام هذا بتوزيع المدن الكبرى على أصدقائه ونصّب أمراء حاميات وقُضاة وجُباة وغيرهم من الموظفين بمطلق رأيه دون تدخّل من پرديكاس، على أن يومينيس ظلّ في طاعته وخدمته احتراماً له ورغبة منه في أن يكون قريباً من الأسرة الملكية.

إلاّ أن پرديكّاس الذي كان يجد في نفسه القدرة الكافية على بلوغ مآربه الأخرى دون عون من أحد، وأن البلاد التي خلّفها قد تكون بحاجة إلى حاكم نشطٍ مخلص، ما لبث بعد دخوله كيليكيا أن عزل يومينيس متعلّلاً بضرورة إرساله إلى مقرّ قيادته، وفي

الحقيقة لأجل الاستيلاء على أرمينيا التي كانت على الحدود تعمّها الفوضى والقلاقل بسبب دسائس نيوپطليموس. وكان يومينيس رجلاً معتدّاً بنفسه وبكرامته فأبى إلاّ أن يجهد نفسه ويسعى دون مساعدة أحدٍ إلى إحلال نوع من التوازن العددّي وفي الجيش مع المشاة المقدونيين الذين وجدهم رجالاً شديدي التشبّث والاعتداد برأيهم، فعمد إلى تعبئة قوة من الخيّالة بإعفائه من الضرائب والإتاوات كل البالغين من سكان البلاد القادرين على ركوب الخيل. وابتاع عدداً من الخيل وفرّقه على أخلص أتباعه. مثيراً روح الإقدام في جنوده المستجدّين بالهدايا والجوائز، مهيئاً أجسامهم للخدمة العسكرية بالمسيرات المتواصلة والتدريب العسكري الشاقّ. وكان المقدونيون بين معجب ومسرور برؤيتهم نجاحه في تعبئة ما لا يقلّ عن ٦٣٠٠ من الخيّالة في وقت قصير جداً.

وبعد أن أتمّ كراتيرس Crateres وأنتيپاطر إخضاع بلاد اليونان، زحفا نحو آسيا وفي نيّتهما القضاء على سلطان پرديكاس. كذلك أشيع أنهما يعتزمان غزو كبدوكيا وأن پرديكاس اعتزم من جانبه قتال بطليموس. فنصّب يومينيس قائداً عاماً لكلّ قواته في أرمينيا وكبدوكيا، وكتب بهذا الصدد رسائل يطلب من ألكيتاس Alcetas ونيوپطليموس أن يتلقّيا أوامرهما من يومينيس، وأن يكون هو مطلق الصلاحية في تصريف كل الأمور وإصدار ما يراه مناسباً من القرارات. فأعلن ألكيتاس أنه لن يمتثل لأمره، لأن المقدونيين حسب قوله يخجلهم قتال أنتيپاطر وأنهم شديدو التعلّق بكراتيرس وهم على أتمّ استعداد لقبوله قائداً لهم. أما نيوپطليموس فقد أضمر الخيانة. إلاّ أن أمره افتضح. فرفض الطاعة، ووضع جنوده في حالة التهيؤ والدفاع. وهنا استفاد يومينيس لأول مرة من حكمته وسعة حيلته. فبعد أن حَلّت الهزيمة بمشاته كَرّ على نيوپطليموس بفرسانه فهزمه واستولى على كلّ أثقاله ثم انقضّ على «الفلانكس» بكلّ قوّاته وقد اختلّت صفوفه وعمّته الفوضى أثناء الهزيمة، فأرغم الجنود على إلقاء السلاح وأداء اليمين بالخدمة تحت إمرته. وتمكن نيوپطليموس من جمع الشراذم المبعثرة المنهزمة، وهرب لاجئاً إلى كراتيرس وأنتيپاطر. وبعث هذان إلى يومينيس بسفارة تدعوه إلى التحالف معهما، مقابل تثبيته في ملكه ومنحه قيادة إضافية عسكرية وإضافة أقاليم جديدة إلى حكمه، وامتياز صداقة خصمه، فأجابهما بقوله إنه «لا يستطيع أن يتصالح بهذه السرعة مع عدوّه القديم أنتيپاطر، لاسيما وهو يستخدم أصدقاءه كأعداء. إلاّ أنه مستعد لإجراء صلح بين كراتيرس وپرديكّاس على شروط عادلة منصفة. وإلاّ فسيقاوم كلّ ظلم أو تعدّ يتعرّض له حتى النفس الأخير مفضّلاً أن يخسر حياته ولا يخلّ بكلمته التي قطعها على نفسه». وترك هذا الرد أنتيپاطر يفكر تفكيراً مليّاً ويوازن الأمر. وما إن وصل

نيوپطليموس لاجئاً بعد الهزيمة التي حاقت به وقصّ عليهما نكبته والنحس الذي صادف جيشه، ألحف عليهما في أن يمداه بالعون ويزحفان معاً إن أمكن، أو ليكن الزاحف منهما كراتيرس الذي طالما أحبه المقدونيون وتعلقوا به. وقال إنه واثق بأنهم سينضمّون إليه بكلّ أسلحتهم بمجرّد أن يتبيّنوا خوذته، أو يسمعوا صوته. وكان نيوپطليموس محقاً في تقديره، فكراتيرس يتمتّع بشهرة داوية بين المقدونيين والجنود متعلقون به تعلّقاً عظيماً منذ وفاة الإسكندر. وكلّهم يذكر كيف كان يستهدف إلى سخط الإسكندر في محاولته إيقاف اندفاعه عن اتّباع العادات الفارسية. ويذكرون كيف ظلّ متمسّكاً بتقاليد بلاده عندما أخذ الاهمال يعتورها، بانغماس مواطنيه في أسباب الترف واستيلاء الغرور عليهم. فقبل كراتيرس باقتراح نيوپطليموس وأرسل أنتيپاطر إلى كيليكيا. وزحف هو مع نيوپطليموس بقطعات كبيرة من الجيش على يومينيس أملاً في أن يباغته من حيث لايدري، أو أن يجد جيشه وقد عمّه الاضطراب وسادته الفوضى بسبب ما عقب نصرهم من احتفال وعربدة وسكر. إلاّ أن توقّع يومينيس زحفه وقيامه بالاستعدادات الضرورية لمواجهته لهو دليل على تحرّزه ويقظته وليس دليلاً على حكمة فائقة. لكن الأمر يختلف حين نجده قد أفلح في إخفاء سوء وضعه عن أعدائه وعن رجاله الذين سيحاربون أولئك الأعداء. إذ إنه قادهم شخصياً لمقارعة كراتيرس، دون أن يعرّفهم بالهويّة الحقيقية للقائد الذي يقود جيش العدوّ وهذا بحدّ ذاته دليل على موهبة الحنكة وقابلية التوجيه العجيبة عند الجنرال. لقد أذاع بين قواته أن نيوپطليموس وپيگريس يزحفان بعددٍ من الكبدوكيين والفلاگونيين الخيّالة. أما هو فقد قرّر المواجهة والتقدّم. وفي ليلتها أدركته سِنَةٌ من النوم فرأى حلماً عجيباً. إذ خيّل له أنه شاهد «إسكندرين» اثنين! وقد استعدّا للاشتباك في معركة، كل «إسكندر»، يقود عدداً كبيراً من فرق «الفلانكس»، أحدهما تعاونه منيرڤا، وثانيهما تعاونه سيريس. وبعد معركة حامية انكسر الإسكندر الذي كانت منيرڤا إلى جانبه. فقامت سيريس بجمع سنابل القمح ونسجتها إكليلاً للمنتصر.

وقد ترجم يومينيس هذه الرؤيا فوراً بأنها بشير نجاحه وتغلّبه على خصمه. فهو يقاتل الآن على بلاد مخصبة وفي هذه الوقت بالذات كانت السنابل تغطيها. والحقول مزروعة قمحاً وزرعها كثيف آخذٌ بعضه بحجز بعضٍ حتى لتبدو بمنظرها الجميل وكأن السلام الطويل الأمد يبسط عليها ظلّه. وقويت عزيمته واشتدت عندما عَلِم بأن كلمة السرّ التي اتخذها عدوّه هي منيرڤا والإسكندر، فبادر لاتخاذ «سيريس والإسكندر» كلمة سرّ له. وأمر جنوده أن يضفروا أكاليل من السنابل وأن يزيّنوا أسلحتهم بسيقان القمح.

ووجد نفسه تحت إغراء شديد للإفضاء إلى قوّاده وضبّاطه باسم القائد الذي سيشتبكون مع جيشه وأن لا يبقي في صدره سِرّاً كان يستأثر به وحده. إلا أنه تغلّب على هذا الإغراء، وأرسى على رأيه الأول بإبقاء الحقيقة مكتومة، وأن يخاطر بفشل القرار الذي اتخذه.

وقبل أن تبدأ المعركة حملته قلّة وثوقه باشتباك جنوده المقدونيين مع كراتيرس إلى جعل فرقتين من الخيّالة الأجنبية بمواجهته، تحت قيادة فارنابازوس Pharnabazus ابن أرطباز وفيونكس Phoenix التندوسي Tenados، وأمرهما بالهجوم على العدوّ حال مشاهدته دون إعطائه مجالاً للكلام أو بالانسحاب، أو انتظار منادٍ أو بوقيّ من جانب العدوّ لأنه كان في أشدّ الخوف من وحداته المقدونية، يخشى أن تترك صفوفه وتنحاز إلى جيش كراتيرس حال مشاهدته. ثم إنه وضع نفسه على رأس ثلاثمائة من خيرة فرسانه وتقدّم لقيادة الجناح الأيمن بمواجهة نيوپطليموس. وبعد اجتيازه مرتفعاً صغيراً انكشفوا للعدوّ وشوهدوا يتقدمون بسرعة تزيد عن المعتاد مما أسلم كراتيرس إلى الذهول. وأخذ ينحى باللائمة على نيوپطليموس ويقرّعه لأنه خدعه ومنّاه بانتقاض المقدونيين على يومينيس. ثم انثنى إلى رجالهم وحثّهم على التمسّك بالشجاعة وتقدّم مهاجماً.

وكان الاشتباك الأول في نهاية الشدّة، فتكسّرت الرماح في فترة وجيزة، والتحم الجمعان بالسيوف المشرعة. وقام كراتيرس بما يشرّفه في عين الإسكندر حقاً، ففتك بالكثير من الأعداء، وصدّ العديد من الهجمات. إلاّ أن جندياً ثراقيّاً أصابه بجرح في جنبه فهوى إلى الحضيض عن صهوة حصانه. ومَرّ به الكثيرون وهو ساقط دون أن يتبيّنوا هويّته حتى عرفه جورجياس Gorgias أحد نقباء يومينيس فترجّل ووقف على رأسه قائماً بحراسته وهو مستلقٍ على الأرض بجرحه البليغ يحتضر ببطء.

وفي الوقت نفسه اشتبكت قوات نيوپطليموس ويومينيس وأخذ كل منهما يبحث عن الآخر ودماؤه تغلي في عروقه يريد أن يطفئ جذوة انتقامه التي بعثتها تلك العداوة المتأصّلة فيما بينها. إلا أنهما لم يلتقيا في الجولتين الأوليين. وفي الجولة الثالثة وقع نظر أحدهما على الآخر فجرّدا سيفيهما وهجما في الحال وهما يطلقان صراخاً عالياً، واصطدم جواد الواحد بجواد الآخر كما تصطدم سفينتان فأفلتا الزمام وتماسكاً ونزع كل واحد خوذة عدوّه ودروع الأكتاف، وفيما كانا متلاحمين انسلّ حصانهما من تحتهما فسقطا معاً على الأرض وهما متلازمان متصارعان. وأراد نيوپطليموس أن يسبق إلى النهوض فأصابه يومينيس بطعنة في مأبضه، وسبق الجريح إلى النهوض على قدميه.

وتحامل نيوپطليموس مستنداً بثقله على ركبة واحدة لتعطّل ساقه الأخرى. وكان وهو في وضعه الأدنى يقاتل بشجاعة إلاّ أن ضرباته لم تكن قتّالة. ثم هوت ضربة على عنقه فسقط على أثرها بدون حراك. واجتاحت يومينيس سَورة من البغض المتأصّل، فراح يحقّره، وينزع عنه سلاحه، غير منتبه إلى أن سيف خصمه ما زال في يده، وبه تمكن من توجيه طعنة ليومينيس أصابته بجرحٍ في أسفل درع خصره، في مفصل الفخذ. وكانت ضربة ضعيفة تفتقر إلى القوة أخافت يومينيس أكثر مما آذته. وبعد أن أتمّ نزع أسلابه من الجثة. وركب حصانه مع أنه يشكو الإرهاق للجراح التي أصابته في فخذيه وذراعيه، وأسرع يخبّ به نحو الجناح الأيسر من جيشه وكان يظنه مشتبكاً في المعركة. وهنالك سمع بموت كراتيرس فهرع إلى حيث كان قد سُجّي، فوجد رمقاً من حياة فيه. فترجّل عن حصانه ودنا منه وأجهش بالبكاء واضعاً يده اليمنى على صدره وهو ينثر اللعنات على نيوپطليموس ويندّد بما فعله نادباً سوء حظّ كراتيرس وسوء حظّه الذي أرغمه على قتال صديق قديم وأخٍ عزيزٍ لم يأت أمراً إدّاً، ولم يصادف شرّاً.

نال يومينيس نصره هذا بعد عشرة أيام من نصره الأول، واشتهر به وعظم صيته لبراعته وشجاعته في تحقيقه، إلاّ أنه غدا من الجهة الأخرى محسوداً من جنوده أنفسهم ومن أعدائه. ونالته الألسن بالقول: كيف، وهو الأجنبي الغريب، يستخدم سلاح مقدونيا وقوّاتها للقضاء على أشجع وأقرب الرجال إلى قلوبهم؟ ولو أن أنباء هذه الهزيمة وصلت پرديكّاس في الوقت المناسب لجعلت منه بلا ريب أعظم رجال مقدونيا. إلاّ أنه اغتيل في مصر، على أثر تمرّدٍ قبل وصول أنباء المعركة بيومين. وهنا حلف المقدونيون وهم في سورة غضبهم أن يقضوا على يومينيس وخوّلوا كلاً من أنتيغونس وأنتيپاطر بأن يشنّا الحرب عليه.

وفي أثناء مرور يومينيس بجبل إيدا Ida وجد إسطبلاً ملكياً عامراً بالخيل فأخذ منه ما يسّرت له الفرصة وبعث بتقرير عن ذلك للمشرفين عليه. ولقد قيل إن عمل يومينيس جعل أنتيپاطر يغرق في الضحك ويعقّب عليه بقوله «إن هذا العمل الصادر من يومينيس جديرٌ بالثناء حقاً. حيث يجد نفسه ملزماً بأن يقدّم لهم (أو بالأحرى يأخذ منهم أن صح القول) حساباً دقيقاً في كل ما يتعلق بالأمور الإدارية.

وكان يومينيس قد قرّر أن تكون معركته مع خصمه في سهول ليديا Lydia بالقرب من سارديس لأن قوّته الرئيسة تكمن في صنف الخيّالة، كذلك كان يريد أن يُظهر لكليوپاطرا مدى قوّته. إلاّ أنه بعد أن أرسلت إليه كليوپاطرا برجاءٍ خاص، سار نحو فريجيا العليا وأمضى شتاءه في كيلانيا Celaenæ ممثلاً لها حيث إنها كانت تخشى إثارة

استياء أنتيباطر. وعندما نازعه ألكيتاس وپوليمون Polemon ودوقيموس Docimus على من يكون القائد العام، أجابهم قائلاً: «كلكم يعلم القول المأثور القديم: المدمّر لا يتقيّد بالشكليات». وكان قد وعد جنوده بدفع مرتّباتهم في غضون أيام ثلاثة، ولمّا عجز باع منهم المزارع والقلاع في الأقاليم ومعها الرجال وسائر الحيوانات التي كانت تزخر بهم. وكل من اشترى من النقباء والضباط صار له حق استخدام آلات الحصار والثغر التي يملكها يومينيس للوصول إلى ما اشتراه بالقوة وتوزيع الأسلاب ما بين رجال وحدته نسبة إلى متأخر رواتب كلّ منهم. وبهذا عادت شعبية يومينيس بين الجنود وزادوا تعلقاً به، حتى أنه عندما قذف العدوّ إلى المعسكر برسائل تعد بمنح جائزة قدرُها مائة تالنت إلى جانب إنعامات أخرى لكلّ من يغتال يومينيس، سخط المقدونيون واستنكروا الأمر بشدة وتعاهدوا فيما بينهم على أن يقوم من تلك الساعة ألف من خيرة رجالهم بحراسة شخصه بالتناوب ليلاً ونهاراً دونما انقطاع. وجرى تطبيق هذا العهد عن طيبة خاطرٍ. وتقبّلوا من يومينيس راضين ممتنّين ذلك الإنعام الذي اعتاد الملوك خلعه على مقرّبيهم وخلصائهم. وهكذا كان ينعم بالقلانس الأرجوانية والمعاطف وتلك عند المقدونيين أعظم شارات التكريم التي يمنحها الملك.

عندما يغدق الحظ نِعَمه ويؤاتي صغار العقول تراه يرفعهم ويظهرهم بمظهر العظمة والسؤدد، فينظرون وهم في موضعهم الأعلى نظرة استصغار واحتقار إلى العالم. أما كبار العقول وشرفاؤها ذوو النفوس الأبيّة الكريمة فإنهم يرفعون من أنفسهم، ويظهرون في أعلى وأسمى مظهر عندما تحزب الأمور وتتحرّج وتتوالى المصائب والمحن، كما كانت الحال عند يومينيس لمّا هُزم أمام أنتيغونس وأوركيني في كبدوكيا بخيانة أحد رجاله، فلم يمنح وهو في فراره فرصة النجاة للخائن وإنما قبض عليه وشنقه. كما أنه سلك في هزيمته سبيلاً مخالفاً لاتجاه مطارديه ثم عاد متسللاً بالقرب منهم في غفلةٍ حتى وجد نفسه في موضع المعركة التي خسرها. فضرب منها معسكره. وجمع جثث قتلى المعركة وأحرقها بأن كدّس فوقها أكداساً من الشبابيك والأبواب الخشبية التي جمعها من القرى المجاورة ثمّ أهال على القبور كمّيات كبيرة من التراب. وبعد قليل عاد أنتيغونس إلى عين الموقع. فأخذ منه العجب مأخذه لشجاعته وعزيمته القوية. وبعد ذلك وقع على أثقال أنتيغونس وكان من السهولة له بمكان أن يأخذ كثيراً من الأسرى، أحراراً وعبيداً، ويستولي على كنوز طائلة جُمعت من غنائم الحروب العديدة. إلاّ أنه خشي أن يثقل رجاله بهذه الأسلاب الكثيرة فتعيقهم عن مناورات الانسحاب السريع، وتزيد من ميلهم إلى الراحة، فلا يعودون يحتملون المسيرات

الطويلة ولا الانتظار الطويل الذي هو أهم عوامل الهزيمة. إذ كان يتوقع أن يفلح في إرهاق أنتيغونس بتعقيبه عن طريق أخرى، بل وجد بعد التفكير المليّ أنه من الصعب جداً أن يحول بين المقدونيين والسلب، والغنيمة قريبة منهم سهلة المتناول. فلذلك أصدر أمراً لجنوده بالاستراحة وإراحة خيلهم، ومن ثمّ يهاجمون. ثم بادر في الوقت نفسه إلى الاتصال سِرّاً بميناندر Menander آمر الأثقال مبدياً إخلاصه له ومحبته، ومذكّراً بأيام صداقتهما الماضية وتعاطفهما، وناصحاً له بأن يترك موقعه الحالي في السهل ويتخذ لنفسه موقعاً منيعاً على سفوح الجبال المجاورة بحيث لا تستطيع الخيّالة الإحاطة به. وبهذه الرسالة أدرك ميناندر الخطر الذي يتهدده فأسرع برفع أثقاله ورحل. وعندها بادر يومينيس إلى إرسال كشّافته لاستطلاع مواقع العدوّ وأمور رجاله، وأن يحملوا سلاحهم ويسرجوا خيولهم لأجل خوض المعركة في الحال. إلاّ أن كشّافته رجعوا ليبلغوه بأن ميناندر قد احتلّ مواقع منيعة يصعب اقتحامها ولا يمكن الوصول إليه منها. فتظاهر بالأسف والخيبة وانسحب برجاله إلى ناحية أخرى.

ويقال إن ميناندر عندما قصّ على أنتيغونس ما فعله يومينيس، طفق المقدونيون يلهجون بيومينيس ويغدقون على عمله أطيب الثناء، ويعزون عمله هذا إلى طبعه السمح وأخلاقه العالية، حيث كان في مقدوره أن يجعل أولادهم عبيداً وأن يهتك حُرمات نسائهم، لكنه أبى وعفا عنهم جميعاً. فردّ أنتيغونس على هذا بقوله: «يؤسفني القول أيها الأخوان بأن يومينيس لم يكن دافعه إلى هذا اهتمامه بمصالحنا وإنما كان مهتماً بنفسه لأنه لم يشأ أن يثقله هذا الحمل الكبير من السلاسل طالما كانت نيّته الفرار».

ومن ذلك اليوم ويومينيس لا تستقر به أرض. فهو دائم التنقل والانسحاب من يوم ليوم، لا يفتأ يحبّذ لرجاله ترك خدمته، إمّا بدافع من العطف عليهم أو لأنه لم يكن يرغب في قيادة جماعة أقلّ جداً من أن يصلحوا لخوض معركة، وأكثر جداً من أن يتسللوا دون أن يشعر بهم أحد. ثم إنه لجأ إلى نورا Nora وهو موضع على تخوم لاقونيا وكپادوكيا مع خمسمائة من الخيّالة ومائتين من الرجّالة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وهنا أيضاً سرّح من خدمته عدداً آخر من رجاله بسبب خوفه من مشاقّ ومصاعب قد تجابهه هناك. وأجاز لهم الرحيل بعد معانقة حارّة وإبداء كل مظاهر العطف. وعندما وصل أنتيغونس هذه القلعة أبدى رغبته في مقابلة يومينيس قبل ضرب حصاره عليها. فأجاب يومينيس على عرضه بقوله: «أنتيغونس لديه عددٌ كبيرٌ من الأصدقاء يصلحون ليحلّوا في القيادة محلّه، إلاّ أن من أدافع أنا عنهم ليس لديهم بديل عني إذا وقعت ضحية غدرٍ، فإذا وجد أنتيغونس ضرورة لمقابلتي فعليه أن يبعث أولاً برهائن». ولما

أشار أنتيغونس إلى أن يكون يومينيس البادئ بتقديم نفسه إليه باعتباره رئيساً له، آجاب يقول: «ما دمت قادراً على امتشاق سيف فلست أرى رجلاً أعظم منيّ».

أخيراً عندما بعث أنتيغونس بابن أخيه بطليموس رهينةً إلى القلعة، كما اشترط يومينيس، خرج هذا إليه وتعانقا عناقاً شديداً فيه الكثير من الحنان والمودّة كما كانا يفعلان في السابق. وجرى بينهما حديث طويل لم ينوّه يومينيس خلاله بشيء عن موضوع إعطائه الأمان والعفو، بل طلب تثبيته في مناصبه، ووظائفه العديدة، ودفع تعويض له عمّا قام به من خدمات، فأدهش كل من كان حاضراً بشجاعته وثبات جنانه. وتقاطر جمٌّ غفير من المقدونيين لمشاهدته ودراسته عن كثبٍ. إذ منذ مقتل كراتيرس واسمه هو الأكثر تردداً على ألسنة الجيش. إلاّ أن أنتيغونس كان يخشى اعتداءً قد يقع عليه فأمر أن يبتعد الجنود عنهما بمسافة وراح ينتهر أولئك الذين أخذوا يتزاحمون ويقذفهم بالحجارة. وأخيراً أحاط يومينيس بذراعيه وابتعد به مع حرسه عن الجنود. وبصعوبة كبيرة نجح في إعادته إلى القلعة سالماً.

وبعد أن شيّد أنتيغونس جداراً حول نورا وترك قوة كافية لتنهض بأعباء الحصار، قفل راجعاً بالبقية من جيشه. وهكذا وجد يومينيس نفسه مطوّقاً يعاني حصاراً شديداً مُحكماً إلاّ أنه كان لا يفتقر إلى الماء والقمح والملح. وهو كل ما لديه للقوات ولطهي الطعام. ومع هذا فقد كانت مائدته مصدر سرور لأصدقائه وكان يدعوهم مراراً بالتناوب ويمزج دعوته هذه بالرقّة والودّ وحُسن المجالسة. وهو ذو طلعة وضّاحة مستبشرة لاتبدو شبيهة بسحنة جندي قديم بلته التجارب والخطوب. كان ذا وجهٍ مورّدٍ ناعم، وجسم رشيق دقيق التكوين حتى لكأن أعضاءه نُحتت نحتاً بيد فنان، بأدق النسب والتناسق. ولم يكن خطيباً لَسِناً إلاّ أنه كان محدّثاً طليّاً آسِراً قويّ الحجّة كما تدلّ عليه رسائله.

وكان أعظم ما يشغل بال المحصورين هو ضيق الفُسحة التي يعيشون فيها. فمقرّاتهم كانت متقاربة جداً. والموقع كُلّه لا يعدو محيطه فرلنغين اثنين. فكانوا هم وخيولهم يأكلون فحسب ولا يقومون بأية تمارين رياضية. وفكر يومينيس بوسيلة تقضي على حياة الخمول والكسل من جهة، وتجعلهم في حالة ملائمة للفرار عندما يتطلب الأمر ذلك، من جهة أخرى. فخصص قاعة طولها ٢١ قدماً وهي أوسع قاعات الحصن ليسير على أرضها الرجال جيئة وذهاباً فيبدأون ببطء ثم ينتقلون إلى السرعة تدريجاً. أمّا العلاج الذي ابتكره لتدريب الخيل فهو أنه عمد إلى ربطها بالحبال الغليظة إلى السقف من أعناقها، ثم رفعها برفق بواسطة بكرات حتى جعلها تمسّ الأرض بخلفيّتيها فقط

وتكاد لا تمّسها بأماميّتيها. وبعد ذلك يقوم سائسوها باحتثاثها بالصياح والسوط حتى تُستنفر فتقفز وترفس بخلفيتيها وتحرّك أجسامها وتضرب الأرض بسنابكها في الوقت نفسه بمحاولة لإيجاد موطئ ثابتٍ لأماميّتيها وهكذا تشيع الحركة في الجسم كله، حتى يعلو الزبد أشداقها وتنضح عرَقاً. فكان هذا تدريباً ممتازاً لأجل القوة والسرعة وبعد أن يتمّ ذلك تُطعم شعيراً مطحوناً طحناً خشناً ليحسن هضمه ولترحض بسرعة.

واستمر الحصار زمناً طويلاً. ثم علم أنتيغونس بأن أنتيپاطر قد قضى نحبه، وأن الأمور قد ساءت كثيراً في مقدونيا بالخلاف الذي نشب بين كساندر Cassander وپوليسپيرخون Polysperchon وهو الخلاف الذي علّق عليه آمالاً شخصية ليست بالقليلة. ولأجل تحقيق أمانيه وانتهاز فرصته في أن يكون سيدّ الكلّ، وتوخياً لإحكام خطته الموضوعة، فكّر في أن يجتمع بيومينيس ليستطلع رأيه ويستمدّ عونه. فبعث إليه بهيرونيموس Hironymus لإقناعه بذلك، مقترحاً عليه أداء يمين معيّنة بصيغةٍ محددة، فعدّل فيها يومينيس وتقدّم بنفسه إلى المقدونيين الذين يحاصرونه وجعلهم حكاماً في أيّ شكل من صيغة اليمين أقرب إلى العدل؟ وكان أنتيغونس في مستهلّ صيغة يمينه قد أغفل ذكر الملوك، إلاّ بشكل عرضي، وهو مخالف لما تقتضيه الأصول والمراسيم، في حين كان المتن كلّه يتعلّق بشخصه. إلاّ أن يومينيس بدّل من مستهله وافتتحه بأولمپياس Oleympias والملوك. بدأ يمينه بأن يكون مخلصاً لهم، ومن ثم لأنتيغونس، وأدخل فيه ما يشير إلى أن يكون للجانبين عين الأصدقاء وعين الأعداء - أي أولمپياس والملوك مع أنتيغونس.

فوجد المقدونيون تعديل يومينيس لليمين أقرب للصواب. فحلّفوا يومينيس بها ورفعوا الحصار عنه. ثم أرسلوا إلى أنتيغونس يطلبون منه أن يحلف اليمين بالصيغة المعدّلة.

وفي أثناء ذلك بادل الرهائن الكيدوكيين الذين كانوا في نورا بخيولٍ حربيةٍ وحيوانات أثقال مع أصدقاء أولئك الرهائن وأقربائهم. ثم أعاد جمع كل الجنود المسرّحين الذين تفرّقوا في أرجاء البلاد بعد فراره. وتمكن من تعبئة كتيبة خيّالة يقارب عددها الألف. وأفلح بعضهم في الإفلات من أنتيغونس الذي كان يخشاه رغم ما أظهره له. وكانت لديه أسبابه الوجيهة لأن أنتيغونس أمرِ بقطع الطريق عليه وإعادة الحصار. وعنّف المقدونيين تعنيفاً قاسياً بسبب موافقتهم على التعديل الذي أدخله يومينيس في اليمين.

وفيما كان يومينيس يجدّ في فراره من أمام أنتيغونس تسلّم رسائل من المقدونيين

الساكنين مقدونيا من أعداء أنتيغونس ومُضمري الشرّ والوقيعة له، كذلك تسلّم رسالة من أولمپياس يطلب حضوره ليعهد إليه بحماية الصبيّ ابن الإسكندر الذي كانت حياته مهدّدة بالخطر. وتسلّم رسائل أخرى من پولسپيرخون والملك فيليب يأمرانه بشنّ حرب على أنتيغونس ويقرّان له بالقيادة العامة على كلّ الوحدات العسكرية في كپدوكيا ويمنحانه صلاحية سحب خمسمائة تالنت من خزائن كويدا Quida تعويضاً خاصاً له عمّا خسره. وجباية كل مايراه ضرورياً من الضرائب لإدامة الحرب. كما كتبا أيضاً بعين المآل إلى كلّ من أنتيجينس Antigenes وتيوتاموس Teutamus زعيميّ الأرگيراسپيديين Argyraspids فقدّما فرائض الاحترام ودلائل المحبّة له حالما تسلّما هذه الأوامر، إلاّ أنهما كانا بدون شك يضمران الحسد والغيرة منه ويكرهان إفساح أي موضع له بينهما. إلاّ أن كثيراً من هذا الصدود زال عندما رفض يومينيس قبول المال الممنوح له رفضاً جعله يبدو كأنه ليس في حاجةٍ إليه، إلاّ أن طموحهما وغيرتهما كانا مما يعجز عن إزالته، كما لم يكن هو راغباً في الاستسلام لهما. ولذلك تفتقّت حيلته عن طريقة يضمن التغلّب على تلك الميول بالشعبذة والإيهام. فزعم لهما أن الإسكندر ظهر له في المنام وجاء به إلى سرادقٍ ملكي حافل بالثمين من الأثاث يقوم في وسطه عرش. وقال له إن جلس ثلاثتهم هنا للمداولة والمشاورة فسيكون رابعهم، ويكلل بالنجاح كل القرارات والأعمال التي سيقومون بها وسيقرنها باسمه. فأسرع أنتيجينس وتيوتاموس إلى تصديقه. لأن رغبتهما في المجيء إلى يومينيس للمشاورة كانت قليلة، كرغبة يومينيس في أن يُرى منتظراً عند أبواب الآخرين. وبناء على ذلك أقاما سرادقاً ملكياً ونصبا فيه عرشاً سمّوه بعرش الإسكندر. وهناك كانوا يجتمعون للمشاورة في الأمور العامة.

ثم إنهم توغلوا في أحشاء آسيا. وفي زحفهم هذا التقوا ببيوكاتس Peucetes وكان طيب العلاقة معهم ومع كلّ «ساتراب» آخر ممن انضمّ إليهم بقوّاته، الأمر الذي شجع المقدونيين كثيراً بأعداد القوات التي ضمّوها اليهم، وبمظهرهم الفخم. ولكن الغطرسة وحبّ التحكم وعوامل الترف ما لبث أن تملّكت المقدونيين أنفسهم وباتوا يتصوّرون أنفسهم أمراء وملوكاً عظاماً، وراحوا يتيهون عُجباً واختيالاً بتملّق البرابرة لهم وتسابقهم إلى نيل رضاهم. وما إن اجتمعت هذه المتناقضات كلها فيهم حتى وجدوا أنفسهم يخاصمون بعضهم بعضاً ويريد الواحد منهم أن يسيطر على الآخر ويتحكم به، في حين أنهم كانوا يتصاغرون للمقدونيين ويداهنونهم بلا حدود ويغدقون عليهم المال بلا حساب ليصرفوها على الولائم والقرابين. حتى استحال المعسكر في فترة قصيرة من

الزمن إلى موضع فسق ودعارة وميدان المتع والملذات، وتحوّل أفراد الجيش إلى مجموعة ناخبين، كما في النظام الديمقراطي، لانتخاب هذا أو ذاك من القوّاد. وعندما أدرك يومينيس أن أحدهم يحتقر الآخر، وأن الجميع يخافه ويلتمس فرصة للفتك به، عمد إلى التظاهر بالحاجة إلى المال واستدان مقداراً من التالنتات ممن كانوا أشدّ الحاقدين عليه، ليجعلهم معتمدين عليه في سداد الدين فيدفعوا عنه الشرّ، وليصرفوا نظرهم عن اغتياله هم أنفسهم خوفاً من ضياع ديونهم! وهكذا صارت ديون أعدائه ضماناً لشخصه. لقد تسلّم المال فاشترى معه الأمان. بينما جرت العادة أن يبتاع المرء سلامته بالمال.

أما المقدونيون أنفسهم فقد استسلموا هم أيضاً لعوامل الانحلال والتفسّخ بسبب الهدوء وزوال خطر الحرب. وكانوا يعرضون الولاء لكلّ من يتحفهم بالهدايا، من أولئك الذين يحفّ بهم حرس خاص، ويحاولون الظهور بمظهر القوّاد العامّين. حتى انقضّ عليهم أنتيغونس بخيله ورَجْله واستدعت الحال اختيار قائد عامّ حقيقي. فتوجّهت أنظارهم جميعاً إلى يومينيس؛ الجنود العاديون منهم، فضلاً عن أولئك الذين بدوا في زمن السلم والراحة في أعلى درجات العظمة والسؤدد، هؤلاء أيضاً سلّموا له بالزعامة، واتخذوا بكلّ هدوء وطاعة المواضع التي عيّنها لهم، ولم يعترض أحد منهم. ولما حاول أنتيغونس عبور نهر پاسيتاگرس Pasitagris لم يفطن إلى ذلك جميع الذين عُيّنوا لحراسة مواضع العبور، إلاّ يومينيس وحده. فقد التقى به واشتبك معه وفتك بالعديد من رجاله وملأ بجثثهم النهر. وأخذ أربعة آلاف أسير.

على أن الحادثة الأجدر بالذكر عن رأي المقدونيين الحقيقي فيه، وثقتهم بأنه الوحيد بين القادة الذي خبر القتال وعرف قيادة الجيوش، هي الحادثة التي سنوردها الآن. كان الآخرون لا هَمّ لهم إلاّ إقامة المآدب الولائم الفاخرة والحفلات. فمثلاً پيوكسكتس أقام مأدبة فخمة في بلاد الفُرس وأعطى كل جندي في الجيش شاة لينحرها قرباناً. وكان على ثقة بأنه كسب الجيش كله إلى صفّه ولن يفلت منصب القائد العامّ منه. وبعد أيام قليلة على هذا، وكان الجيش في حالة المسيرة، سقط يومينيس مريضاً. فحُمِل على محِفّة بعيداً عن الجيش بمسافةٍ، حتى تؤمّن راحته ويبتعد عن الإزعاج. وما إن سار الجيش قليلاً حتى ظهرت لهم قوّات العدوّ بصورة غير متوقعة بعد أن عبر التلال التي تفصل فيما بينهما وانحدر إلى السّهل. وما إن شوهدت الدروع الذهبية تسطع بنور الشمس وهي تنحدر انحداراً بنظام تام، والفيلة بأبراجها على عواتقها، والرجال بثيابهم الأرجوانية، كما هي العادة عندما يعتزمون الدخول في معركةٍ، حتى توقفت مقدمة

الجيش عن السير. وبعثت تطلب حضور يومينيس قائلة إنها لن تتقدم خطوةً واحدة إلاّ بأمره وقيادته. وعمد بقية الجنود إلى غرس رماحهم في الأرض وأذاعوا كلمة الوقوف فيما بينهم، وطلبوا من ضباطهم أن لا يبرزوا للمعركة أو أن يشتبكوا مع العدوّ أو يستعرضوا للقتال بدون يومينيس. ولما بلغت الأنباء يومينيس انثنى إلى حَمَلة مِحفّته وأخذ يحثّهم للإسراع به إلى الجيش. وأزاح الستائر من الجانبين ومدّ يده اليمنى مسروراً، فما إن رآه الجنود حتى أطلقوا حناجرهم بتحيّته على الطريقة المقدونية ورفعوا تروسهم إلى الأعلى وأخذوا يضربونها برماحهم. وأطلقوا صيحة عظيمة يستفزّون بها العدوّ للتقدم منهم. فها إن قائدهم حاضر بينهم.

كان أنتيغونس قد علم من بعض الأسرى الذين وقعوا في يده بأن صحّة يومينيس ليست على ما يرام. وتوهّم عندما رآه محمولاً على مِحفّة أن النصر سهل، وأن سحق جيشه أكيد. ولذلك عمل أقصى جهده للإسراع نحوه والالتحام به. ولمّا أصبح على مسافة يتمكن منها التأمّل بنظام جيش خصمه والتحام صفوفه ومبلغ استعداده لخوض المعركة لم يسعه إلاّ العجب وتوقف برهةً. وأخيراً شاهد المحفّة وهي تنتقل من جناح إلى جناح فالتفت إلى أصدقائه وهو يضحك ضحكة عالية بمرحه المأثور: «تلك المحفّة هناك! إنها كما يبدو لي الشيء الوحيد الذي يدعونا إلى المعركة!». قال هذا وأسرع يصدر أمراً بالتقهقر والانسحاب العام وأقام له معسكراً، فلم يلبث جنود الجانب الآخر أن عادوا إلى حياتهم الماضية وأعمالهم الأولى ليجعلوا أنفسهم موضع تملّق واستجداء عطفٍ من جانب قوّادهم. واتخذوا مقرّاتهم الشتوية قريباً من بلاد الگابيني Gabeni وبصورة متباعدة. حتى أن معسكر الجبهة الأمامية كان يبعد تقريباً بألف فرلنغ عن المؤخرة وما إن علم أنتيغونس بذلك حتى زحف نحوهم سالكاً أصعب الطرق، خلال أرض قاحلة لا ماء فيها، وعِرة شاقّة إلا أنها قصيرة. يريد بذلك مباغتتهم وهم متفرّقون في مقرّاتهم الشتوية، لا يستطيعون التجمع في الوقت المناسب والالتحاق بضباطهم. ولما كان على جيش أنتيغونس اجتياز أرض قفرٍ تهبّ فيها الرياح الشديدة، وتملأ جوّها العواصف الثلجية، فقد تأخر زحفه كثيراً. وتوالت المصاعب والأهوال عليه ولم يكن لرجاله من أسباب اتّقاء هذه العوامل القاسية غير إيقاد نيران عظيمة. وهذا ما مكّن خصمه من الانتباه إلى زحفه إذ إن البرابرة الذين كانوا يعيشون في الجبال المشرفة على الصحراء أدركتهم الدهشة لكثرة النيران فأركبوا سعاةً جمالاً عربية أسرعت بهم إلى بيوككتس لإبلاغه الخبر. فأدركه العجب هو أيضاً حتى كاد يخرج عن طوره، والتفت فوجد رجاله لا يقلّون فوضى وفسُوقاً عن غيرهم، فاعتزم الفرار وجمع ما استطاع

جمعه من الرجال. وهو في طريقه ناجياً استوقفه يومينيس وأزال عنه الخوف والقلق وعاهده على أن يوقف زحف العدوّ. وأكد له أنه سيؤخّره عن موعد وصوله المتوقع بما لا يقلّ عن ثلاثة أيام. وبعد أن أقنعهم بهذا أسرع حالاً بإيفاد مراسلين عدّائين لكلّ ضباط الجيش لاستنفار الرجال وإخراجهم من مقرّاتهم الشتوية وتهيئتهم للقتال بأسرع ما يمكن. وركب هو وطائفة من أعوانه مستطلعاً واختار أرضاً مرتفعةً تقع ضمن مدى الرؤية عبر الصحراء فاحتلها واتخذ فيها مواضع، وأمر بإشعال عدة نيران فوقها كما هي العادة في معسكرات الجيش. ولما تصاعدت ألسنة النيران من فوق المرتفعات امتلأ أنتيغونس حنقاً وأخذ يحرق الإرم قهراً ويأساً، ظانّاً أن أعداءه قد انتبهوا إلى زحفه منذ وقت بعيد وتأهّبوا له. لذلك وخوفاً من اضطراره إلى خوض معركة فورية مع رجال استجمّوا وقضوا شتاءهم في أحسن حالٍ، عمد إلى الانحراف عن الطريق الأقصر. وسار سيراً بطيئاً في طريق أخرى خلال المدن والقرى لإراحة رجاله. إلاّ أنه لم يصطدم بمفارز للعدوّ خلال ذلك، وهو من الأمور المعتادة عندما يدنو الجيشان أحدهما من الآخر. وبعد أن أكد له السكان المحليون أن لا جيش ثمّة، وإنما مجرّد نيران توقد باستمرار في تلك المنطقة، استخلص أنه قد استُدرج وخُدِع بحيلة يومينيس فتقدم والانزعاج مستولٍ عليه ليخوض معركته مع العدوّ.

وفي أثناء تردّد أنتيغونس أكمل يومينيس تحشيد القسم الأعظم من قوّاته وانخرطت تحت لوائه مُكبرةً منه حِكمتَه وبُعد نظره، وأعلنته قائداً أوحد للجيش كله بلا منازع. فثارت ثائرة تيوتاموس وأنتيجينس زعيمي الأرگيراسپيديين واعتبرا اختياره إهانة عظيمة، وجرحاً لمشاعرهما. فلجآ إلى الائتمار به، وجمعا معظم الضباط والساترابيين في مجلس بحثوا خلاله في كيفية القضاء عليه، وتحديد وقت لذلك. ثم اتفقوا بالإجماع على أن يستفيدوا من قيادته للمعركة القادمة، وبعدها يغتنمون فرصة للفتك به. إلاّ أن يوداموس Eudamus قائد الفيلة، وفاديموس Phædiamus أسرّا ليومينيس بتفاصيل خطة المتآمرين، لا حرصاً عليه، ولا لإخلاصٍ فيهما له، وإنما خوفاً على ديونهما في ذمّته. فشكرهما يومينيس وأثنى عليهما. ثم انسحب إلى خيمته وتوجّه إلى أصدقائه بالكلام قائلاً: «إني أعيش بين قطيع من الوحوش الضارية». ثم كتب وصيّته، ومزّق رسائله لئلا ينال مراسلوه أذى أو يُسألوا عمّا تحويه أوراقه السرّية، بعد موته.

بعد أن وضع الأمور في نصابها على هذه الشاكلة قرّر أن يتعمّد خُسران المعركة، ويدفع النصر إلى يد خصمه، أو أن يفرّ هارباً عبر ميديا وأرمينية واستحواذ كپدوكيا. وبقي متردداً بين القرارين طوال وجوده بين أصدقائه. وقلّب الأمر في رأسه تقليباً طويلاً

طبقاً لما أملاه عليه تقلّب حظوظه من شتى الجوانب. وأخيراً نظم رجاله للمعركة، وتنقّل بين اليونانيين والبرابرة مشجّعاً مستنهضاً الهمم. وردّ «الفلانكس» والأرگيراسپيديون التشجيع بمثله ورجوه أن يكون مطمئناً ثبت الجنان، واثقاً بأن العدوّ لن يكون قادراً على الصمود أمامهم. فقد كانوا والحق يقال من جنود فيليبس والإسكندر القدماء وهم رجال مجربون خاضوا العديد من الحروب، وأفنوا حياتهم في التدريب العسكري ولم يعرفوا هزيمة ولا تقهقراً، معظمهم أناف على السبعين من العمر، وليس فيهم من هو أقلّ من الستين. كمّا كرَّ هؤلاء الجنود المتمرّسون على رجال أنتيغونس وهم يصيحون «أيها الأوغاد أنتم تحاربون آباءكم». وانقضّوا عليهم كالأسود فهزموا الفلانكس، برمّته بلمحة عينٍ. إذ لم يكن هناك من يقوى على الصمود أمامهم. وفتكوا بالجزء الأكبر منهم.

غير أن النصر الذي أخطأ مشاة أنتيغونس، عُقد لخيّالته فقد تمكنت من الاستيلاء على كل أثقال جيش يومينيس بخيانة بيوككتس الذي بلغت دناءته حداً أنه أهمل المعسكر وتركه غنيمة بيد العدوّ. في حين استخدم أنتيغونس عقله استخداماً راجحاً، وتمالك أعصابه أمام الخطر. وقد ساعدته طبيعة الأرض فضلاً عن ذلك. فالساحة التي جرت فيها معركة كانت سهلاً رحيباً تُربته لا هي رخوة ولا هي صلبة، بل مكسوّة برمل دقيق هشّ كرمال الساحل يثيره وطء الأقدام الكثيرة وسنابك الخيل العديدة فيرتفع في الجوّ غُباراً أبيض دقيقاً مثل غمامة كلسيّة، فيظلم الجوّ ولا يسع الرفيق أن يرى رفيقه ولو كان قريباً منه. وهذا ما سهل لأنتيغونس الاستيلاء على الأثقال.

بعد انتهاء المعركة. بعث تيوتاموس إلى أنتيغونس رسالة يطلب فيها إعادة الأثقال. فأجابه أنتيغونس أنه لن يكتفي بإعادة الأثقال إلى قومه الأرگيراسپيديين وإنما سيقدّم إليهم خدمات وعطايا أخرى إذا سلّموه يومينيس. وبوصول هذا الجواب اتخذ الأرگيراسپيديين قرارهم الأثيم بتسليمه حيّاً إلى يد أعدائه. وجاؤوه يقدّمون له فروض الولاء والطاعة دون أن يداخله شك في نواياهم. وراحوا يتحيّنون فرصتهم. وطفق بعضهم يندب خسارة الأثقال وبعضهم يشجعونه ويمدحونه كأنه هو المنتصر. وبعضهم يلقي اللوم على القادة الآخرين. ثم انقضّوا عليه جميعاً وقبضوا على سيفه، وأوثقوا كِتافهُ وراءه بحِزامه. ولمّا أرسل أنتيغونس، نيقانور Nicanor لتسلّمه، رجا منه يومينيس أن يقتاده خلال المقدونيين وأن يسمح له بمخاطبتهم، ولن يطلب منهم شيئاً، بل سيقدّم لهم النصح بما فيه فائدتهم، ولا أكثر. فساد صمت تامّ عندما انتصب فوق نشزٍ من الأرض. ورفع يديه المقيّدتين وقال:

«يا أحقر المقدونيين. أيمكن أن يرغب أنتيغونس بتذكار حربي أعظم من هذا الذي نصبتموه له، بتسليمكم إليه جنرالكم وهو أسير؟ أما تخجلون من أنفسكم عندما أتاكم النصر أن تختاروا الهزيمة والخذلان بدلاً منه، بسبب أمتعتكم لا غير كأن الانتصار بالثروة لا بالسلاح؛ لا بل إنكم سلّمتم قائدكم لأجل استعادة أمتعتكم. وأما أنا فلا أراني مهزوماً وإن كنتُ أسيراً. لقد انتصرت على أعدائي. إلاّ أن رفاقي الجنود غدروا بي. وأمّا أنتم، فأستحلفكم بجوبتر حامي السلاح، وبكلّ الآلهة المنتقمة من الخيانة، أن تقتلوني هنا بأيديكم، فالأمر سواء لأن العمل عملكم لو قُتلتُ هناك. إن أنتيغونس لن يشكو من فعلكم فهو لا يريد يومينيس حَيّاً بل ميتاً. وإن أبيتم عليّ هذا، فأطلقوا لي يداً واحدة لأنها كافية لإتمام العمل. وإن لم تستأمنوني على سيف، فاقذفوا بي موثقاً تحت أقدام الوحوش الضارية. وإن فعلتم فأنا على استعداد لأن أصفح عن جريمة قتلي، وأعدّكم أعدل الجنود لجنرالكم وأكثرهم حُبّاً به».

وفيما كان يومينيس يلقي خطابه أخذت الدموع تنهمر من أعين الجنود حزناً. إلاّ أن الأرگيراسپيديين أخذوا يصيحون ويطلبون اقتياده، وعدم الاهتمام بمثل هذه التفاهات، فليس بالأمر العظيم أن يلقى هذا الطاعون الخيرسونيزي حتفه، بعد أن دوّخ المقدونيين وأهلكهم في آلاف من المعارك. ومن المؤلم جداً للنخبة من جنود فيلبس والإسكندر أن يُحرموا بالمكر والختل ثمار تلك الخدمة الطويلة وأن يضطروا وهم في نهاية العمر إلى استجداء الخبز، وترك نسائهم ثلاث ليالٍ بأيدي أعدائهم؛ ثم إنهم دفعوه بخشونة وسرعة. ولخوف أنتيغونس من التجمهر، إذ لم يعد هناك أحد في المعسكر، أرسل عشرة من أضخم فيلته، مع ثلّة مختلطة من حملة الحراب الميديين والپارثيين، ليدفعوا عنه الجمهور المتكالب. ولم يكن أنتيغونس يقوى على مشاهدة يومينيس أمامه بهذه الحالة نظراً لعلاقتهما المتينة وصداقتهما الحميمة السالفة. ولكنه أجاب أولئك الذين أحضروا يومينيس وسألوا كيف يحفظونه بقوله: «كما يحفظ أسدٌ أو فيل». ثم ما لبثت العاطفة أن استولت عليه فأمر أن تكسر أثقل الأغلال عنه، وأن يُسمح لأحد خدمه بالعناية به ودهن جسمه بالزيت، وأن يُسمح لمن يشاء من أصدقائه بزيارته، وأن يؤتى إليه بما يريد. وظلّ زمناً وهو يقلّب الفكر في تقرير مصيره. ومال حيناً إلى نصح ووعود صاحب كريت نيارخوس Nearchos وابنه ديمتريوس Demetrius وكانا شديدي الاهتمام بأمر المحافظة على حياة يومينيس، في حين أن سائر الآخرين كانوا

يريدون القضاء عليه فوراً. وقيل إن يومينيس سأل أنومارخوس Onomarchos القائم على حراسته: «ماذا ينتظر أنتيغونس بعد أن ظفر بعدوّه، إمّا يقضي عليه، أو أن يتكرّم عليه بإخلاء سبيله». فأجابه أنومارخوس مستخفاً: «إن ساحة القتال هي أصلح من هذا المكان لإظهار ازدرائه بالموت». فردّ عليه يومينيس بقوله. «وربّك إني أظهرت هذا هناك، وسل إن شئت أولئك الذين نازلوني. إلا اني ما كنت أجرؤ على أن أنازل رجلاً كان رئيساً لي». فردّ عليه أنومارخوس قائلاً: «إذن فقد وجدت الآن مثل هذا الرجل فلماذا لا تخضع لرغبته هادئاً؟».

ولما قرّر أنتيغونس إهلاك يومينيس أمر أن يمنع عنه الطعام وفي غضون يومين أو ثلاثة سيقترب من النهاية. إلا أن المعسكر هاج وماج سخطاً وثارت ثائرته فأسرع إلى إرسال جلّاد فقضى عليه. وسلّم جثته لأصدقائه وسمح لهم بإحراقها، وجمع رمادها ووضعه في آنية من الفضة، وأرسلها إلى زوجه وأولاده.

بعد أن قُضي على يومينيس. لم تعهد العناية الإلهية إلى رجل آخر بعقاب القادة والجنود الذين خانوه وسلّموه. إلاّ أنّ أنتيغونس نفسه، الذي اشمأزّ من الأرگيراسپيديين أو غيرهم من الأوغاد الأشرار المتجرّدين من الإنسانية، ما لبث أن أسلمهم إلى سيبيرتيوس Sibyrtius حاكم أرخوسيا Archosia وأمره أن يدمّرهم ويبيدهم بكل الوسائل، بحيث لا تكتحل عين أي رجل منهم بمرأى مقدونيا أو بمنظر بحر اليونان.

أوجُه المقارنة بين سرتوريوس ويومينيس

هذا هو أجدر وأهمّ ما وصل إلى علمنا من أخبار يومينيس وسرتوريوس. وبمقارنة سيرتيهما يمكننا ملاحظة أوجه التشابه التالية: كلاهما كان أجنبياً غريباً مبعداً. وكلاهما توصّل إلى قيادة جيوش عظيمة. ودفعا إلى ساحة القتال عسكراً متمرّساً في النزال مؤلّفاً من أمم وشعوبٍ مختلفة. كان هذا غريباً بالنسبة إلى سرتوريوس فهو زعيم حزبه الأكبر، الذي كان رهن إشارته، بوصفه شخصاً تجمّعت فيه أعظم المؤهّلات ونال أكبر الصيت والشهرة، في حين كان يومينيس يقف بمواجهة عدد كبير من منافسيه على مركزه، ولم يتفوّق عليهم إلاّ بأعماله المجيدة. لقد تبع الرجال أوّلهما بدافع الإخلاص، ومجرد الرغبة في أن يكون لهم شرف قيادته، بينما خضعوا للثاني سعياً وراء ضمان سلامتهم لأنهم عاجزون عن قيادة أنفسهم. وأضحى أولهما وهو مواطن روماني قائداً للإسبان واللوزيتانيين، وهما شعبان ظلاّ سنوات عديدة خاضعين لحكم روما.

وكان الثاني خرسونيزياً، أصبح قائداً عامّاً للمقدونيين الذين ظهروا في حينه أعظم فاتحين عرفتهم البشرية، إذ أخضعوا العالم بأسره. أما سرتوريوس الذي كان يتمتّع بمركز رفيعٍ، لخدماته الحربية السابقة. ولكفاءته التي أبداها في مجلس الشيوخ، فقد تدرّجت به المناصب إلى جنرال. في حين أن يومينيس نال هذا المنصب بفضل وظيفته الكتابية، أو مركز السكرتير الذي كان موضع احتقار. وخلافاً لحقيقة كونه قد ارتفع إلى منصب القيادة من مرتبة حقيرة فهنالك أيضاً المتاعب والعقبات الكثيرة التي رافقته أثناء تدرّجه في السلطة. ولم يكن مصدرَ تلك العقبات خصومُه العلنيون، بل من أناس آخرين كثيرين كانوا يأتمرون به سرّاً. ويختلف الأمر جداً بالنسبة إلى سرتوريوس فلم يبرز له معارض أو منافس من حزبه، إلاّ في أواخر حياته، وكانت تلك المعارضة سرّية، ولم يأتمر به من معارضيه إلاّ القليل النزر. إن سرتوريوس وضع حدّاً للمخاطر التي اعترضته بالانتصارات العديدة التي نالها في ساحات القتال. في حين أن انتصارات

يومينيس كانت مبدأ المِحن والمصائب التي أصابته جرّاء دسائس أولئك الذين كانوا يحقدون عليه.

وكانت أعمالهما الحربية متساوية في الدرجة، متناسبة، إلاّ أن الاتجاه يختلف. فيومينيس كان بطبعه مغرماً بالحرب والنضال، إلاّ أن سرتوريوس كان متعلّقاً بالسلام والحياة الهادئة المستقرة. وفي الوقت الذي كان بمقدور يومينيس أن يعيش آمناً مكرّماً معزّزاً لو انسحب عن طريق الآخرين، نجده يشتبك في نزاع خطرٍ مع أعظم زعماء المقدونيين. إلاّ أن سرتوريوس الذي لم يكن يرغبُ في إجهاد نفسه، والزجّ بها في خلافات سياسية، اضطرّ إلى ذلك حفظاً لحياته، وأُرغم ارغاماً على شنّ حربٍ ضد أولئك الذين لم يكونوا يريدون أن يعيش في دعةٍ وسلام. ولو أقنع يومينيس نفسه بقبول المقام الثاني فإن [أنتيغونس] الذي سيرتاح من منافسته له على المقام الأول، كان سيرعاه ويقرّبه منه كثيراً. في حين أن أصدقاء پومپي ما كانوا ليسمحوا لسرتوريوس حتى بالعيش في هدوء. خاض الأول منهما الحروب لمنفعة خاصة، ولرغبة طاغية لديه في القيادة. أما الثاني فقد أُكره إكراهاً على تسلّم القيادة دفاعاً عن نفسه في حربٍ شُنّت عليه. ومما لا شكّ فيه أن يومينيس كان شخصاً مغرماً بالحروب ففضّل طموحه الشهواني على سلامته. أمّا سرتوريوس فقد كان محارباً حقيقياً يُعنى بأمر سلامته حبّاً بانتصار قوّاته.

أمّا عن كيفية هلاكهما فقد تمّت لأحدهما دون أن يتوقعها مطلقاً، أمّا الآخر فكان يحسب حسابها يومياً. الأمر الذي يفصح عن طبع ونفس شريفة في الأول، لا تشك بنوايا أصدقائها. كما يفصح في الثاني عن ضعف إرادة، وتردّد جعله يعدل عما اعتزمه من الفرار فقُبض عليه. وموت سرتوريوس لم يلطّخ الشرف الذي ناله في حياته، فقد فعل به رفاقه ما عجز أعداؤه عن فعله. ويومينيس الذي لم يفلح في إنقاذ نفسه قبل أسره، كان يرغب في أن يعيش حياة الأسر، فلم يستطع الحيلولة دون مصيره المحتوم، ولم يكن يتوقعه في الوقت نفسه.

ولذلك لم يواجهه بشجاعة أو بشرف. فالرجاء والتذلل منه جعل عدوّه، الذي لم يكن لديه سلطان إلاّ على جسده، سيّداً متحكماً في جسده وروحه.

أغيسيلاوس

AGESILAUS

٣٩٤–٣٦٢ ق.م

بعد أن ملك أرخيداموس Archidamus ابن زيوكسيداموس Zeuxidamus على اللقيديميين ملكاً مجيداً، مات تاركاً ابنين: أكبرهما أغيس Agis الذي استولده من لامپيدو Lampido وهي سيّدة من الأشراف، و[أغيسيلاوس] الذي يصغر أخاه كثيراً، استولده من يوپوليا Eupolia بنت ميليسپيداس Melesippidas. وآل العرش شرعاً لأغيس. وكان المستقبل على أغلب الاحتمال يشير إلى أن أغيسيلاوس لن يكون أكثر من إنسانٍ بسيطٍ. ولن يكون له أيّ شأن في الحياة، ولذلك نشأ وربي على نظام البلاد السائد، وهو نظام صارمٍ شاقّ هدفه تدريب الشبّان على الخضوع والطاعة للكبار. وهذا ما حدا بسيمونيدس إلى وصف سپارطا بأنها «مدجّنة الرجال» كما أثروا عنه. بسبب هذا الوصف فإن السپارطيين بزّوا الشعوب جميعاً في تدريب أولادهم على إطاعة القوانين وتعويدهم الصبّر، والطاعة التي يتوصّلون إليها بالشدة في تثقيفهم، وتدريبهم منذ نعومة أظفارهم، كالخيل التي لا يتوصّل المرء إلى تذليلها إلاّ عندما تكون أمهاراً. هذا وبما أن دستور البلاد لا يفرض على ولاة عهد المملكة هذا النظام الصارم فقد شاء حسن حظّ أغيسيلاوس أن يكون الأخ الأصغر، فنشأ على ذلك وربي على الطاعة وضبط النفس، فكان أجدر وأنسب لممارسة الحكم عندما آل الملك اليه. وظهر أقرب إلى قلوب الناس والعامّة من سائر ملوك سپارطا. لأن نشأته الأولى أضافت إلى فضائله الملكيّة مشاعر المواطن الإنسانية، وخِصاله الرقيقة.

وكان قد ضُمّ منذ حداثته إلى ما دعي بالمجموعات أو الصفوف فاجتذب أنظار ليساندر فخَصّه بإعجابه، ولاسيّما بسبب حبّه للنظام واطاعته الأوامر. فإلى جانب روحه العالية التي فاقت كل ما لدى أقرانه والى جانب اندفاعه وحماسته التي كانت تنقذه من كل خطب أو محنة وتنصره على كل معارضة، كان رقيق الخلق ليّن العريكة يحترم السلطة ولا يندفع وراء عاطفة مفاجئة أو يطيع الحوافز الغزيزية في أعماله، ويخضع لكلّ أمرٍ وهو أكثر تألّماً لأقلّ استفزاز أو إهانة من الإرهاق بأيّ مشقّة أو تعب.

كانت إحدى ساقيه أقصر من الأخرى. إلاّ أن هذه العاهة قلّما لوحظت في شبابه، لجمال عام فيه. وأسلوبه السمح في احتماله هذا النقص قضى قضاءً تاماً على كل الآثار التي يخلفها فقد كان أوّل من يؤلّف النكات والفكاهات على نفسه. والواقع هو أن سموّ روحه واندفاعه في اطّلاب المعالي زاد وضوحاً وجلاء بوجود هذه العاهة. لأنه لم يدع لنقصه هذا فرصة لينال من عزيمته، أو لمنعه من الإقدام على جلائل الأعمال والإتيان بضروب الشجاعة والبسالة. ونحن اليوم لا نجدُ له صورة أو تمثالاً لأنه أبى أن يُعمل له ذلك في حياته، وأوصى بذلك قبل مماته. وقيل إنه كان قصيراً، ضئيل القدّ. إلاّ أن طيب مزاجه وحضور نكتته ومرحه الدائم وخفة روحه التي ما عرفت العبوس أو التجهّم أو الغطرسة جعلت شخصيتهُ حتى في شيخوخته من أحب الشخصيات. وبدت أجمل بكثير من أرشق الشباب وأكثرهم فتنة وجمالاً. وقد كتب ثيوفراستوس يقول إن مجلس «الإيغور» فرضوا على أرخيداموس غرامة لأنه تزوّج بأمرأة صغيرة العمر وعلّلوا ذلك «بأنها ستأتي لنا بنسل من الملوك الصغار بدلاً من كبار الملوك» على حدّ قولهم.

وفي عهد حكم أخيه الأكبر أغيس حَلّ سپارطا، القائد ألكيبياديس قادماً من صقلية بعد أن أبعد منفياً عن أثينا. ولم يمكث قليلاً إلاّ وانتشر الشكّ حول وجود علاقة جنسية بينه وبين تيميا زوج أغيس الملك حتى أن الأخير أبى الاعتراف ببنوّة طفلٍ لها قائلاً إنه ابن ألكيبياديس وليس ابنه. ولم تكن تيميا إذا صدّقنا ما قال دوريس المؤرخ، بالمهتمة. فقد كانت السباقة إلى الهمس بذلك في آذان الوصيفات الهيلوتيات بقولها إن الاسم الحقيقي لطفلها هو ألكيبياديس وليس ليوتيخيدس. وكان المعتقد آنذاك أن ألكيبياديس لم يرتبط معها بهذه العلاقة لحبٍّ وغرام نشأ بينهما بل بدافع طموح فيه إلى أن يكون ملوك السپارطيين من صلبه. ولقد ذاعت أخبار هذه العلاقة وشاعت بين الناس، بحيث لم ير ألكيبياديس بُدّاً من مغادرة سپارطة، ولم يمنح الابن ليوتيخيدس المنزلة المقررة والإكرام الواجب للابن الشرعي. ولم يعترف أغيس ببنوّته، إلى أن حضرته الوفاة وراح ليوتيخيدس يبكي متوسّلاً ضارعاً وأغيس مسجّى على فراشه طالباً منه الاعتراف به ابناً ففعل ذلك أمام عددٍ من الشهود، الا أن هذا الاعتراف المتأخر لم يفده في ادّعائه العرش، ولاسيما بعد أن أخذ ليساندر يعمل لأجل استخلاف أغيس بأخيه أغيسيلاوس معلّلاً دعوته بأن ليوتيخيدس ابن سِفاح، وهذا ما لا يؤهّله لاستخلاف أبيه. وكان تأثير ليساندر عظيماً بعد أن طبق ذكره العالم باستيلائه على أثينا من البحر، وبعد أن برز كأعظم شخصيّة وأقواها في سپارطا. كذلك كان مواطنون سپارطيون كثيرون يفضّلون أغيسيلاوس، ويشايعونه بحماسةٍ، يدفعهم إلى ذلك ما تحقق لهم من كفاءته ومؤهّلاته

التي رأوها بأنفسهم أيام كان يُثقَّف وينشأ بينهم. وكان يوجد في سپارطا آنذاك شخص يدعى ديوپيثوس Diopithis على معرفة ووقوف تامّين بالنبوءات القديمة، وكان على اطّلاعٍ عظيم بمسائل الدين والوحي. فزعم أن نصب ملك أعرج على اللقيديميين أمرٌ مخالفٌ للدين مستشهداً في قوله هذا بالنبوءة التالية:

«يا سپارطا العظيمة السليمة من كل عيب كوني على حذر من الملكيّة العرجاء، وإلاّ فسينجم عن ذلك فتنة طويلة غير منتظرة وعواصف مهلكة من الحروب».

إلاّ أن ليساندر لم تكن تُعوِزه الحيلة. وقال مفسّراً لمضمونها: إذا كان السپارطيون خائفين من هذه النبوءة حَقاً فعليهم أن يحذروا من نصب ليوتيخيدس ملكاً. لأن الآلهة أبعد عن الاهتمام بقدمٍ عرجاء في ملك، بل هي تقصد بالنبوءة نقاء الأسرة الهرقليّة، فدخول بذرة غير شرعيّة فيها يجعل مُلكها أعرج فعلاً. كذلك زعم أغيسيلاوس بأن نغولة ليوتيخيدس إنما كانت بشهادة الإله نبتون الذي أحدث زلزالاً عنيفاً قذف بأغيس من فوق فراش الزوجية، فانقطع منذ ذلك الحين عن إتيان زوجه تيميا وبعد عشرة أشهر من ذلك وُلد ليوتيخيدس.

وبالنظر إلى هذه الأسباب والعوامل اختير أغيسيلاوس ملكاً. وسرعان ما استولى هذا على جميع أملاك أخيه المتوفّى فضلاً عن العرش. ونبذ ليوتيخيدس نبذاً تامّاً لكونه ابن زنى. وتوجّه باهتمامه ورعايته إلى أقربائه من جهة أمه، وكانوا أناساً ذوي جاه ومقام إلاّ أنهم في غاية من الفقر. فنزل لهم عن نصف الأموال التي ورثها من أخيه، ونال جرّاء ذلك سُمعة وثقة كبيرة، بدلاً من الحسد والضغينة اللتين تأتيان عادة مع الميراث. ويحدثنا گزنيفون بأنه نال حظوة كبيرة وسلطة عظيمة بين المواطنين بحيث لم يكن ثم مَرّد لأمره عن طريق إذعانه إلى الشعب، أو بكلمة أخرى بترك الشعب يملي عليه رغباته. ويقول معقّباً إن قصد أغيسيلاوس بهذا هو أن يستحوذ على سلطة «الإيغور»، و«المشايخ»، بالصورة التالية:

كان لهؤلاء في ذلك الحين السلطة العليا في الدولة، فالإيغور هم الحكام الذين يُنتخبون سنوياً، والمشايخ يظلّون مدى الحياة يمارسون وظائفهم. وهذا النظام كان سائداً منذ أيام ليكورغوس كما سبق لنا ذكره، ويُقصَد به الحَدّ من سلطات الملوك. لذلك كانت الخصومات والمنافسة مستمرة بين هؤلاء وبين الملوك بتعاقب الأجيال. إلاّ أن أغيسيلاوس اتخذ سبيلاً للتعامل معهم يختلف عن غيره، فبدلاً من الاختصام والتنافس راح يخطب ودّهم. ويسارع في استشارتهم كلّما أراد أن يُقدم على عملٍ.

وكان يتظاهر أبداً بالاستعداد للتوجّه إليهم بل الجري وراء ما يريدونه. فإذا كان جالساً على عرشه يفصل في المظلمات ودخل عليه الإيغور فإنه يهبّ واقفاً احتراماً لهم. وإذا انتُخب أحد المشايخ للمنصب أهداه معطفاً وثوراً. وهكذا فحين يتظاهر بالرغبة في تقوية سلطاتهم ويظهر لهم كل التجِلّة والإكرام، تجده يعمل سِرّاً بتقوية سلطته وتوسيع صلاحيات الملك بمختلف التجاوزات على صلاحياتهم مما لا تدعهم صداقتهم له على الاعتراض.

وسلوكه إزاء سائر المواطنين لم يكن فيه مطعنٌ قط. وهو في خصوماته أقلّ لوماً مما هو في صداقاته. ففي عداواته يأنف أن يأخذ عدوّه على حين غرّة وفي غفلةٍ منه. وفي صداقاته لا يقف عند حَدٍّ في مساعدة صديقه حتى في الأمور التي لا تقرّها قواعد العدالة. وإذا ما أقدم خصمٌ له على أمر يستحق التمجيد والثناء فإنه يترفّع عن التقليل من شأن ذلك العمل. لكنه لا يعرف قط كيف يلوم أصدقاءه عندما يُقدمون على السيّئ من الأعمال، بل ينحاز إلى جانبهم ويدافع عنهم ويساعدهم في سوء أعمالهم، ويرى من واجبات الصداقة أن تكون أعمال الأصدقاء جديرة بالإطراء ومهما كانت سُبلها. وإذا أخطأ عدوّ له في أمر كان أوّل من يرثي له ويسرع إلى الإغضاء عنه. وبهذا تمكن من نيل محبة المواطنين والفوز بقلوبهم حتى أصبحت شعبيته موضع شكّ الإيغور ففرضوا عليه غرامة بزعمهم «أنه يكسب المواطنين لنفسه، في حين أنهم ملك عامّ للدولة!». فمن رأي الفلاسفة أنك لو تمكنت من إزالة روح المنافسة والمباراة من الكون فإن كل الأجرام السماوية ستقف جامدةً وتفقد الحركة، وعملية الخلقِ مجرّدة عن التساوق والتناسق المتناظرين في الأشياء جميعاً. ولهذا يبدو أن صاحب الشريعة السبارطية قد أقرّ لمقوّمات جمهوريته بمبدأ المباراة والمنافسة كالتنافس على الفضيلة وكرم الخلق مثلاً. ورغب بصورة لا لبس فيها بإحلال نوع من المنافسة والتنازع ما بين المواطنين الفضلاء. واعتبر البقاء على المؤهّلات غير الفعالة والمثمرة، أو التواكل، نوعاً زائفاً من التناظر. ويرى بعضهم أن هوميروس كان يقصد هذا عندما جعل أغاممنون عظيم الفرح بالخصام الذي نشب بين اوليسيس وأخيل، ملتذاً «بالكلمات الجارحة» التي تُبودلت، الأمر الذي ما كان ليحدث له لو لم يجد في الاختلاف والتخاصم بين شرفاء الرجال مصلحة عامة كبيرة. على أن هذا المبدأ يجب أن يجري على إطلاقه ودون تحديده، فلو تفاقم الخصام واشتدّت نار المنافسة لانقلبت خطراً عظيماً على الدول والممالك ولنجم عنها آثار وخيمة جداً.

وفي مفتتح عهد أغيسيلاوس وردت أنباء من آسيا تشير إلى أن الملك الفارسي

يقوم باستعداد بحريّ عظيم، وهدفه انتزاع التفوّق البحريّ من أيدي السپارطيين. وتحمّس ليساندر لفكرة انتهاز هذه الفرصة للزحف في آسيا ومساندة أصدقائه الذين كان قد نصبهم حكاماً وأسياداً على المدن هناك، فأساؤوا السياسة والحكم وتمادوا في طغيانهم مما دعا إلى طرد بعضهم وقتل آخرين منهم. وأفلح في إقناع أغيسيلاوس بأن يتولّى قيادة الحملة فيحبط بذلك خطط البرابرة الرامية إلى نقل الحرب إلى أراضي اليونان، لذلك قاتلهم في عُقر دارهم. وكتب أيضاً إلى أصدقائه في آسيا لإرسال وفود إلى سپارطة يطلبون أن يكون أغيسيلاوس قائداً عاماً لهم. ودخل أغيسيلاوس إلى الجمعية العامة مبدياً موافقته شريطة أن يزوّد بثلاثين قائداً ومستشاراً سپارطياً يرافقونه ويكونون تحت إمرته، مع ٢٠٠٠ من صفوة رجال الهيلوت الذين مُنحوا الحقوق المدنية والاقتراع، ومن الأحلاف ما يبلغ عدده ستة آلاف. فنال ما اشترطه بمعاونة ليساندر وتأثير نفوذه. وتمّ اختيار ليساندر فوراً رئيساً لهؤلاء الثلاثين لا بفضل سلطته وشهرته بل بسبب صداقته لأغيسيلاوس الذي عَدّ اختيار ليساندر له في هذه المهمة فضلاً أكبر من مساعدته في تبوؤ العرش.

وبينما كانت وحدات الجيش تحتشد في قاعدة گيراستوس Geræstus المختارة لهذا الغرض ارتأى أغيسيلاوس أن يرحل مع بعض أصدقائه إلى أوليس Aulis. وهناك رأى فيما يرى النائم رجلاً يدنو منه ويتحدث إليه بما يلي:

«عليك يا ملك اللقيديميين أن تعرف عن نفسك هذا، أنه ليس ثمّ إلا جنرال رئيس بين الإغريق كلهم، وهو أغاممنون. وبما أنك الآن خليفته في هذا المنصب نفسه، وفي قيادة الرجال أنفسهم، وما دمت تعلنها حرباً على الأعداء ذاتهم وتبدأ حملتك من البقعة ذاتها، فعليك أن تقرّب ما قربه أغاممنون بالضبط، قبل رفعه مراسيه».

وهنا تذكر أغيسيلاوس حالاً أن القربان الذي قرّبه أغاممنون كان ابنته لأنّ النبوءة التي نزلت عليه أمرته بذلك. لكنه لم يقلق، ولم ينشغل باله، وأسرع حال استيقاظه يُنبئ أصدقاءه بما رأى معلّقاً عليه بقوله إنه سيسترضي الآلهة بقرابين لا يسع أية آلهة غيرها إلاّ الرضا بها، وإنه لن يتأثر الخطى العمياء التي سلكها سلفه. ثم إنه أمر أن يؤتى بظبية وأن تتوَّج بالإكليل. وطلب من ساحره القيام بمراسم التقريب ولم يكن الشخص الذي تعوّد البويوسيون أن يعهدوا لأمثاله بمثل هذه المهمة، فساءهم الأمر وأسخطهم جداً، وبعثوا بضباط إلى أغيسيلاوس لمنعه من التضحية بصورة مخالفة لشريعة البلاد. وعلى أثر إبلاغ الرسالة إليه تقدّموا من المذبح رأساً ورفعوا عنه أشلاء

الظبية وقذفوا بها بعيداً. فشاع الغضب الشديد في نفس أغيسيلاوس وأقلع توّاً بسفنه دون أن يقوم بتقريب قرابين أخرى. وقد استولى عليه التخاذل لهذا الفأل السيّئ متوقعاً حملة فاشلة تماماً، ورحلة مشؤومة.

وبوصوله أفسوس تهوّل ما رآه من هيبة ليساندر ونفوذه والإجلال الذي يحبوه به الناس، مما لم يطق صبراً عليه. فقد كانت المظالم والشكاوى كلها ترفع له. وذوو الحاجات كلهم يتجمعون على بابه ويقتفون خطاه أينما سار، كأنما لا شيء يعود لأغيسيلاوس غير صفة القائد، التي هي مجرّد أمرٍ شكليّ. أما السلطان الفعلي والأمر والنهي فهو بيد ليساندر. في الواقع لم يكن بين القادة والمستشارين الذين أُرسلوا إلى آسيا من يدانيه جبروتاً وسطوة. ولم يكن فيهم من يفوقه في مكافأة أصدقائه، وفي صرامته إزاء أعدائه. هذا التصرّف الذي مارسه الآن خلّف أشدّ الانطباع في نفوس الناس، لاسيّما عند مقارنتهم سلوك أغيسيلاوس الرقيق البسيط المحبب بمظهر الصرامة والسيادة والعبارات المقتضبة التي ما زالت بارزة في طباع ليساندر. انجرفوا انجرافاً عاماً بهذا المظهر المهيب وانحازوا إلى صاحب تلك المعاملة، ولم يظهروا لأغيسيلاوس اهتماماً كبيراً. ذلك التصرّف أغاظ أولاً القواد السپارطيين الذين ساءهم أن يظهروا بمظهر الخدّام لليساندر أكثر من ظهورهم بمظهر المستشارين لأغيسيلاوس. وأخيراً بدأ أغيسيلاوس نفسه يدرك أن طغيان شخصية ليساندر سيحرمه أيّ صيتٍ أو شهرةٍ قد يأتيان من عمل عظيم. ومع أن أغيسيلاوس بعيد عن الحسد بطبعه، لا يستاء من ألوان التكريم والحفاوة التي ينالها الرجال الآخرون، فإن ضنين بالمعالي، حريص على أمجاده. ولذلك نراه يلجأ إلى الوسيلة التالية:

بدأ أولاً بمعارضة كلّ اقتراح يبديه ليساندر. ونبذ كا ما يحبّذه ويزيّنه له بصورة خاصة ليأخذ بضدّه من المقترحات. وبعد هذا عمد إلى من يراجعه في مطلب، فمن كان ذا صلةٍ بلساندر خاب في مسعاه لا محالة. واتّبع الأسلوب نفسه في الدعاوى القضائية. فكلّ من كان ليساندر يقف ضدّه، ويتكلم بالسوء عنه، ربح قضيته بالتأكيد. وكل من كان يأتي ليساندر متوسّلاً في قضية متشفّعاً فليكن سعيد الحظّ إن خرج سالماً بجلده دون أن تلحقه خسارة.

وكانت هذه الأمور تجري وفق مخطط مرسوم وبنيّة مقصودة، لا بصورة عفوية. وما لبث ليساندر أن أحسّ بها، فلم يتردد في مصارحة أصدقائه بأن الأذى الذي يلحقهم إنما هو بسببه. وطلب منهم الانصراف إلى الملك لأنهم أقوى عليه بدون وجوده مما لو كان هو. ويظهر أنه كان يقصد بأقواله هذه إثارة شعور من الاستياء عليه.

لكن أغيسيلاوس تمادى، ووجّه إهانة صريحة له، بأن عيّنه بمنصب «مقطّع اللحم» وكان يقول للملأ ساخراً «فليذهبوا الآن ويقدّموا فروض التجِلّة والولاء لمقطّع اللحم على مائدتي!». ولما نفد صبر ليساندر وضاق صدره بالإهانات شكا الأمر بالأخير إلى أغيسيلاوس وقال له: «إنك تجيد إذلال أصدقائك» فأجابه أغيسيلاوس قائلاً:

- إني أجيد فعلاً إذلال أولئك الذين يزعمون لأنفسهم سلطاناً أكثر مني.

فقال ليساندر:

- ربما كان الأفضل أن تنطق أنت به، مما لو أنطقه أنا. وإني لا أرغب إلاّ في أن تسند إليّ منصباً في مكان أخدمك فيه آمناً من التعرّض لسخطك.

فبعث به أغيسيلاوس إلى اللهيللسپونت حيث عقد اتفاقاً مع سپثيرداتس Spithridates الفارسي حاكم إقليم فارنبازوس Pharnabazus لمساعدة اليونان بمائتين من الخيّالة ومبالغ كبيرة من المال. ولم تخمد سَورة غضبه وبدأ ينفّذ منذ ذلك الحين وما تلاه خطة تقضي بانتزاع المملكة من الأسرتين اللتين تحكمانها وجعل نظام الحكم فيها انتخابياً. وقد قيل إنه كان بسبب هذا النزاع سيثير ضجة عظيمة في سپارطا لو لم يوافه الأجل في الحرب البويوتية. وهذا هو شأن النفوس الطمّاحة في الجمهوريات، إذا تخطت حدودها، كانت زعيمةً بإلحاق الضرر، أكثر من جلب المنفعة. ومع أن كبرياء ليساندر وعجرفته كانتا أعظم مما يطيقه بشر وأبعد عن أية مناسبة أو معقول، فأغيسيلاوس كان في مقدوره بلا شكّ أن يلجأ إلى وسيلة أخرى لتقويمه أقل إذلالاً وإيلاماً لرجل ذي شهرة طائره ومآثر عظيمة. والحقيقة هي أن الاندفاع العاطفي أعماهما فما عاد الأول يعترف لرئيسه بسلطةٍ، وما عاد الثاني يحتمل نقائص صديقه.

في مبدأ الأمر كان تيسافيرنس الذي يخشى من أن أغيسيلاوس قد فاوضه حول إعطاء الحريات للمدن اليونانية، واتفقا على الأمر، ولكنه ما إن وجد أن قوات كافية قد اجتمعت له حتى قرّر اللجوء إلى القتال، وهو الأمر الذي كان يريده أغيسيلاوس، حيث إن الآمال التي عقدت على هذه الحملة كانت عظيمة. وكان يرى مما لا يشرّفه أن لا يقوم بعمل ذي شأن لأجل اليونانيين وهو على رأس السپارطيين الذين كانوا آنذاك سادة البَرّ والبحر، وهذا گزينفون بمحاربيه العشرة آلاف يتوغّل في قلب آسيا حتى يبلغ البحر، ويوقع بالقوات الفارسية الهزائم متى وكيف شاء. لذلك ولكيما يقتصّ لنفسه من تيسافيرنس، ويقابل نكثه بالعهد بحيلةٍ لا غبار عليها، تظاهر بالزحف على كاريا مستدرجاً خصمه تيسافيرنس حتى إذا تمّ له ذلك أقفل راجعاً فجأة وانقضّ على فريجيا فدوّخها واستولى على كثير من مدنها ووضع يده على غنائم كثيرة. وبذلك لقنّ حلفاءه

بأن مخالفة العهود المقطوعة هي استصغار للآلهة، وأمّا إيقاع العدوّ في شَرك أثناء الحرب فهو عمل عادل، بل مأثرة مجيدة، فضلاً عن كونه مصلحةً ومدعاة للارتياح.

وكان من جهة يشكو نقصاً في خيّالته، ويشعر ببعض التثبيط وخور العزيمة لشواهد النحس التي تجلّت في قرابينه من جهة أخرى، فانسحب إلى أفسوس وهناك تمكن من تعبئة أعداد كبيرة من الخيّالة بإرغام الأغنياء الكارهين مهنة الحرب على تقديم بديلين عنهم، لكلّ واحدٍ فارس مسلّح مع جواد. وكان كثير من الناس يرغبون في تقديم هذا البديل للتخلص من الخدمة. ولذلك فسرعان ما تعزز جيشه بقوات من الخيّالة غلبت عليهم الشجاعة والبسالة، فمن عجز عن القتال استأجر شخصاً يميل اليه، ووضعه بين الخيّالة. ومما يشبه هذا ما فعله أغاممنون بقبوله مهراً أصيلاً مقابل تسريح أحد الأغنياء الرعاديد من الجيش.

وعُرض بأمرٍ من أغيسيلاوس أسرى الحملة الفريجية للبيع بالمزاد العلني. فنزعت ثيابهم عنهم أولاً وشُرع ببيعهم وهم عُراة وتهافت الشارون على الثياب إلاّ أن الأسرى أنفسهم كان الإقبال عليهم ضعيفاً لهزالهم ونحافتهم وبياض إهابهم ورقّته، بسبب قلة التمارين الرياضية وعدم التعرض للطبيعة، مما دعا للعزوف عنهم واحتقارهم لعدم صلاحهم للعمل. وكان أغيسيلاوس واقفاً في السوق فالتفت إلى من حوله من الإغريق الأتباع وقال لهم: «هؤلاء الرجال الذين تقاتلونهم، وهذه الثياب والأشياء هي ما تغتنمونه من هذه الحرب».

وبدنوّ موسم الشتاء بث أغيسيلاوس الشائعة بأنه يعتزم غزو ليديا. هذا التصريح عَدّة تيسافيرنس ضرباً من الخداع، ولم يصدّقه هذه المرة بعد أن جازت عليه الحيلة الأولى، متوقعاً أنه سيختار كاريا لأنها بلاد وعِرة المسالك غير صالحة للخيل بسبب النقص الذي يشكوه أغيسيلاوس فيها. ولهذا بنى تقدّمه على هذه الفروض، لكنه سرعان ما تبيّن أن أغيسيلاوس كان صادقاً في قوله حين دخل بلاد ساردیس، فسارع للحاق به بأقصى ما يمكنه. وأدركت خيّالته التي أجهدها الطراد ساقة جيش أغيسيلاوس وهي متفرّقة مشتّتة منهمكة في السلب والنهب فقضى عليهم. وفي عين الوقت تبيّن أغيسيلاوس أن خيّالة خصمه قد تجاوزت مشاته كثيراً وانفصلت عنه. وكان جيشه مجتمعاً موحّد الصفوف برمّته، فقرر أن يشتبك حالاً في معركة معهم. خرج بمشاته الخفيفة حملة التروس مع الخيّالة وأمرهم بالتقدم السريع ودخول المعركة. في حين عبّأ مشاته الثقيلة في المؤخرة وكان النصر الذي ناله موازيا للدقة التي رسم بها خطته. فقد لاذ البرابرة بأذيال الفرار فلاحقهم اليونانيون وجدّوا في أثرهم حتى استولوا على

معسكرهم ووضعوا السيف في رقاب العديد منهم. كان لهذا النصر آثار عظيمة جداً لم تقتصر على نهب البلاد الفارسية على هواهم وبقدر ما شاؤوا، بل لدفع تيسافيرنس ثمناً غالياً عن سائر الظلم والقسوة التي أذاقها للإغريق لعدائه الشديد لهم. فقد أرسل ملك الفرس سفيره تيثراوستس Tithraustes الذي قطع رأسه. وانثنى حالاً يفاوض أغيسيلاوس بخصوص عودته إلى اليونان، كما بعث وفداً لهذه الغاية، فوّضه بأن يعرض مبلغاً كبيراً من المال عليه. فأجاب أغيسيلاوس الوفد بقوله إنه غير مخوّل بإبرام صلح، وإن اللقيديميين هم أصحاب الكلمة فيه. أمّا عن المال فهو يفضّل أن يراه في أيدي رجاله على أن يكون بيده. والإغريق لا يرون من الكرامة في شيء أن يتسلّموا رشاوى من أعدائهم، وإنما بأخذ الغنائم الحربية، ومع هذا كلّه فإكراماً لتيتراستس ولروح العدالة التي رافقته في معاملته تيسافيرنسعدوّ الإغريق الأكبر، سيقوم برفع مقرّه إلى فريجيا. ويقبل بثلاثين تالتاً تسديداً لنفقاته. وفيما هو ماض في سيره جاءته «عصا» من حكومة سپارطا وفيها أمر يقضي بتعيينه أميرالاً للأسطول، إضافة إلى قيادته العامّة لقوات البرّ. وهو شرف لم يُخلع على أحدٍ من ملوك سپارطا قبله. ولهذا يكون أغيسيلاوس بلا منازع أعظم وأشهر رجال عصره. وصحّ ما قاله عنه ثيومبومبوس من أنه زاد بفضائله ومؤهلاته مجداً على ما حبته به سلطته ونفوذه. غير أنه ارتكب خطأ بتفضيل پيساندر Pisander بين كثيرين من حوله أكثر منه خبرةً وأكبر سِنّاً لقيادة الأسطول. وهو في هذا التعيين لم يتوخّ المصلحة العامة بقدر ما توخّى إرضاء قريبة له وهي زوجته التي كان پيساندر شقيقها.

بعد نقل معسكره إلى الإقليم الذي يحكمه فارنبازوس أمن نقص الأرزاق بتوفر مقادير كبيرة منها، فضلاً عن تمكنه من جمع مبالغ كبيرة من المال. ثم زحف نحو تخوم پافلاغونيا، فانضم إليه كوتيس Cotys ملكها ودخل معه بمحض رغبته في حلف مدفوعاً بفكرته الحسنة عن شرف أغيسيلاوس وشهامته. ومنذ أن ترك سپيثريداتس Spithridates الملك فارنبازوس وهو إلى جانب أغيسيلاوس لا ينفصل عنه ويتبعه في المعسكر متأثراً خطاه أينما ذهب. وكان لسپيثريداتس هذا صبيّ في مقتبل الصبا وريعانه في غاية الجمال يدعى ميغاباتس Megabates عَلِق أغيسيلاوس به. كما كان له ابنة فاتنة جداً، في سنّ الزواج، عقد لها أغيسيلاوس على الملك كوتيس وأخذ منه مقابل ذلك ألف رأس من الخيل، وألفين من المشاة الخفيفة. وعاد إلى فريجيا وأخذ يدوّخ بلاد فارنبازوس ويعيث فيها سلباً. ولم يكن صاحبها يجترئ على مقابلته في ساحة القتال، كذلك كان ضعيف الثقة بحاميات مدنه، فجمع كل ما له قيمة من أمواله وأخذ يتنقل هنا

وهناك بجيش خفيف الحركة متوخّياً الابتعاد عن خطّ سير أغيسيلاوس إلى أن وفق سپيثرايداتس بالتعاون مع هيرپيداتس Hierpidates الإسپارطي، إلى الاستيلاء على معسكره وكل أمواله. وأبدى هيرپيداتس نهاية في الشدة والصرامة أثناء التحقيق والتدقيق عن الغنائم التي أخذها الجنود البرابرة لأنفسهم وأرغمهم على ردّها مع كثير من القسوة والشدة، فاستاء سپيثريداتس منه وأغاظته طريقته، فانقلب إلى الجانب الآخر، وذهب مع الپافلاغونيين إلى سارديس. فأورث أغيسيلاوس حزناً عظيماً لأنه فقد به صديقاً وقائداً مقداماً كما فقد جزءاً كبيراً من الجيش معه. زد على هذا أن أصل الموضوع كان تلك الخِسّة المتجلّية بالشهوة الدنيئة إلى المال. وهو ما كان أغيسيلاوس يحرص دائماً أن يبعد شرفه وشرف بلاده عن التدنّس به. وفضلاً عن الأسباب العامة فهناك سببه الخاص، لأن تعلّقه الشديد بابن سپيثريداتس كان قد ملك عليه مذاهبه، وان حاول الظهور بمظهر المسيطر على إرادته، لاسيما في محضرٍ من الفتى نفسه ومجاهدته لإخفاء كل ما ينمّ عن عاطفته. حتى أنه عندما تقدّم منه الفتى يوماً لتقبيله أشاح عنه أغيسيلاوس ولوى عنقه فخجل الفتى وارتدّ إلى الوراء مرتبكاً. وعمد بعد ذلك إلى أن يكون أكثر تحفّظاً في تحيّته له ويحرص أن تفصل بينهما مسافة. وما لبث أغيسيلاوس أن أدركه الندم على بروده. وغيّر من رأيه وتظاهر بالعجب من صدود الفتى وعدم التسليم عليه بالحرارة السابقة والأسلوب الخالي من الرسميات. فقال المقرّبون منه: «لقد كان الخطأ خطأك، لأنك لم تسمح للفتى بتقبيلك، وأشحت عنه بوجهك منزعجاً. ولو كانت لديك الشجاعة في تركه يفعل ذلك لجاءك مَرّةً أخرى». فأطال أغيسيلاوس الصمت ثم قال:

- لا حاجة بكم إلى دفعه على عمل ذلك. وأرى من الأفضل أن أكون سيّد نفسي في رفضي، من أن أتصوّر كل ما يقع نظري عليه وقد انقلب إلى ذهب إبريز.

وهكذا تراه ينزل عن قدر نفسه أمام ميگاباتس. ويهفو إليه بعنفٍ عندما يكون بعيداً عنه، بحيث لا يملك المرء نفسه من التساؤل: تُرى لو عاد الفتى إليه ثانية، هل ستعينه الشجاعة التي كان يبديها أم ستخذله إذا امتُحن بموقف رفض آخر؟

وبعد هذا، قام فارنبازوس ينشد فرصة للمفاوضة مع أغيسيلاوس، فتوسط بها أپللوفانوس Appolophanus صاحب كايزيكس Cyzicus وحقّق لهما اجتماعاً. وكان أغيسيلاوس الأسبق في الحضور فانطرح على العشب تحت شجرةٍ منتظراً قدوم فارنبازوس. وما لبث أن جاء هذا ومعه المطارح الجلدية الناعمة والسجاجيد المطرّزة الوثيرة. فلما شاهد حال أغيسيلاوس أدركه الخجل من نعومته وترفه ولم يستخدم تلك

المفارش وإنما استلقى إلى جانبه على العشب دون اهتمام بما يصيب ثيابه الفاخرة الجميلة الصبغ. وكان لفارنبازوس الكثير من أسباب الشكوى، فبعد تبادل عبارات الترحيب والمجاملات الرقيقة، راح يذكّر أغيسيلاوس بخدماته الجليلة التي أداها لقومه اللقيديميين في حروب أتيكا فكوفئ عنها بأسوأ جزاءٍ، وهو اجتياح بلاده ونهبها على أيدي أولئك الذين يدينون له بالكثير. فأطرق السپارطيون الحاضرون برؤوسهم خجلاً مدركين مبلغ ما ألحقوه من أذى بحليفهم السابق. إلاّ أن أغيسيلاوس أجابه قائلاً:

– يا فارنبازوس، عندما نكون نحن أصدقاء مع سيّدك الملك فإننا نسلك سلوك الأعداء. وبالنسبة إليك فالواجب يقضي علينا أن نعتبرك جزءاً من ملكه، ونعاملك بمقتضى ذلك، ونحن لا نقصد من هذا إلحاق أذى بك بل به عن طريقك. ومع هذا كله فلك أنت وحدك أن تختار بين أن تكون صديقاً للإغريق أو عدوّاً للملك. وإذ ذاك لك أن تعدّ هذا الجيش جيشك، وهذا الأسطول رهن إشارتك، يدافعان عنك وعن بلادك وحرياتك التي هي أشرف ما يطمح إليه الناس أسمى هدف لهم.

فردّ فارنبازوس مفصحاً عن حقيقة ما يجول في ذهنه بقوله:

– إذا بعث الملك حاكماً آخر في مكاني فسأنحاز إلى جانبكم، وهذا عهدٌ مني. أما وهو يضع الآن ثقته بي في حكم هذه البلاد، فلا يسعني إلاّ أن أبقى مخلصاً له ولن أدّخر أي مجهود في مقاومتكم.

فلم يسع أغيسيلاوس إلاّ الإعجاب بجوابه. فنهض ومدّ يده إليه مصافحاً وقال له:

– إني لأفضّل أن يكون شخص بمثل شجاعتك صديقاً لي لا عدوّاً.

وغادر فارنبازوس الاجتماع إلاّ أن ابنه تخلّف، وأسرع متوهّجاً نحو أغيسيلاوس هاشاً باشاً. وابتدره قائلاً:

– أغيسيلاوس! أنت الآن ضيفي.

ثم قدّم له حربةً كانت في يده فتقبّلها أغيسيلاوس وهو متأثر بالانعطاف والحفاوة التي أبداها له الشاب، وأخذ يتلفّت فيما حوله ليجد شيئاً مما لدى بطانته، يناسب الهدية. فحانت منه التفاتة إلى جواد يركبه كاتم سرّه إيداوس Idaeus وكان عليه أغطية وسروج في غاية الجمال والزركشة فنزعه وقدّمه للفتى. ولم يقف عطفه عليه عند هذا وإنما استمر يحبوه به عندما طرده أخوته من وطنه وعاش منفياً في الپيلوپونيز فقد خصّه بالرعاية والاهتمام الشديدين، بل تنازل حتى إلى إبداء المساعدة له في بعض الأمور الغرامية. وكانت تربطه رابطة صداقة بشابّ أثيني المولد نشأ رياضياً. وكان هذا الرياضي ضعيف الأمل بقبوله في قائمة المتبارين بمناسبة الألعاب الأولمبية بسبب

ضخامة جِرمه، ومظهره القوي التام النضوج، فتوجّه الصديق الفارسي إلى أغيسيلاوس يلتمِس منه العون، فلبّى أغيسيلاوس مطلبه وخفّ إلى مساعدته وحقق له رغبته بصعوبةٍ غير قليلة، وهذا هو طبع أغيسيلاوس. كان في كل الأمور منصفاً عادلاً للغاية، إلاّ فيما يتعلق بالصداقة، وبالصديق، وهو في هذا القول: «إن تزمّتك والتزامك جانب العدالة في قضية صديق ما هو إلاّ ادّعاء مبطّن خادع به لرفض طلبه».

وهنالك قول مأثور كُتب إلى إيدريوس Idrieus أمير كاريا Caria، يُعزى إلى أغيسيلاوس، وهذا هو:

«إذا كان نيقياس بريئاً فاغفر له. وإن كان مجرماً فاغفر له إكراماً لي. ومهما يكن فعليك أن تغفر له».

تلك كانت عادة طبعه في معاملته لأصدقائه. إلا أن هذه القاعدة كان لها استثناءاتها. فهو أحياناً يقدّم مصالحه على مصالح صديقه. كما فعل مَرّة عندما خلّف وراءه صديقاً مريضاً ورفع معسكره مسرعاً. فناداه صديقه هذا صارخاً طالباً مساعدته لكنه أدار له ظهره مبتعداً وهو يقول:

- ليس من السهل أن يكون حكيماً وعطوفاً في آن واحدٍ.

وهذه الحكاية أوردها هيرونيموس الفيلسوف.

ومضت سنة أخرى على الحرب وشهرة أغيسيلاوس تزداد وصيته يعلو. حتى أن الملك الفارسي فرض أن يبلّغ يومياً بالمعلومات المتوفّرة عن مآثره العديدة، والمكانة العظيمة التي يمتاز بها عند العالم بسبب نُبل طباعه وبساطة عيشه واعتداله في الأمور. ولقد اعتاد كلما اعتزم سفرةً أن يتوجّه إلى أحد المعابد فيقيم فيه حيناً ليجعل الآلهة شهوداً على أخصّ أعماله، مما لا يسمح غيره أن يطلع عليه الناس.

وفي جيش كثير العدد كجيشه قلّما تجد جندياً عاديّاً فراشه أكثر خشونة من فراش أغيسيلاوس. وبلغ به عدم الاهتمام بتقلّبات درجات الحرارة والبرودة أن باتت كلّ الفصول سواء لديه طبيعية لا يشكو منها الآلهة التي أرسلتها. وكانت الغبطة تشيع في الإغريق القاطنين آسيا وهم يرون سادة الفرس العظام وحكامهم برتجفون فرقاً أمامه بكل كبريائهم وجبروتهم وترفهم الذي يحفّ بهم. وهم يركعون أمام رجل مشتمل بمعطف رثّ تكاد خيوطه تنسلّ منه. وبكلمة واحدة تخرج من فمه يغيّر من أحوالهم ومصائرهم ويقضي أو يرجئ رغباتهم. وهذا ما يذكّر الكثيرين مِنّا بأبيات تيموثيوس Timotheus القائل:

«مارس هو الطاغية. إلاّ أن الإغريق الذهبية لا تخاف».

وبدأت أقاليم كثيرة من آسيا تنتقض وتثور على حكم الفرس. وأشاع أغيسيلاوس النظام في المدن وأعاد حكم الدستور الصحيح في الإدارات والحكومات، دون أن يقتضيه ذلك سفك دماءٍ أو عمليات نفي لرجال الحكم البائد. ثم أخذ يستعدّ لنقل الحرب بعيداً في قلب بلاد الفرس، ويهاجم ملكهم في عاصمتيه سوسه واكبتانا، لأنه لم يكن راغباً في ترك ذلك الملك جالساً على كرسيّه يلعب لعبة الحكم فيما بين صراعات الإغريق، ويدفع الرشاوى لزعماء دهَمْائهم. إلاّ أن فكرته العظيمة هذه اعترضتها الأنباء السيّئة التي وردته من سپارطة. فقد بعثوا يطلبون عودته إلى الوطن لعون بلاده التي كانت قد اشتبكت آنذاك في حرب زبون:

«لنفسها خلقت بلاد اليونانيين تلك الضجة البربرية

وألحقت بنفسها هزيمة، لم يستطع الآخرون إلحاق مثلها بها».

ما الذي يقال عن تلك النزاعات والخصومات الدموية، وعن ذلك التحزّب والتكتل الإغريقي الهادف إلى خرابهم، الموقف لمسيرة الحظ الكبرى وهي في أوجها؟ ما الذي يقال أبلغ من هذين البيتين؟ في ارتداد السلاح على أعقابه، بعد أن وجّه إلى البرابرة، ليعود فيستعمل فيما بين رافعيه لخراب اليونانيين بحربٍ كانت قد ابتعدت عنهم كثيراً؟ إني لأتفق مطلقاً مع ديماراتوس Demaratus الكورنثي القائلِ إن هؤلاء الإغريق الذين لم يعيشوا ليروا الإسكندر جالساً على عرش داريوس فقدوا لذة عظيمة. وكان الأحرى بهم أن يذرفوا الدمع عندما يفكرون بأنهم تركوا ذلك المجد للإسكندر والمقدونيين. في حين كانوا ينهكون قوّادهم الكبار في ضربهم الواحد بالآخر في ساحات قتال ليوكترا ووكورونيا وكورنث وأركاديا.

لم يكن ثمّ أسمى وأشرف من موقف أغيسيلاوس بهذه المناسبة. وليس هناك سلوك أكرم وأرفع من قضية الطاعة الفورية والاحترام العادل للأوامر. فهنيبعل الذي تحرّج موقفه في إيطاليا حتى كاد يُقذَف منها لم يسعه إطاعة الأمر عندما استدعي للدفاع عن بلاده. والإسكندر راح يتفكه على المعركة التي نشبت بين أغيس وأنتيپاطر بقوله ضاحكاً:

– أنظروا! نحن هنا في آسيا نلحق الهزائم بداريوس. بينما يبدو أن هناك معركة في أركاديا نشبت بين الفئران!

وهكذا أسعد سپارطا أن ترى أغيسيلاوس بعدله واعتداله يحترم شرائع بلاده فيسرع إليها فور وصول الأمر، وهو في أوج سعده وعنفوان وقوّته وأقرب إلى النصر العظيم المجيد من حبل الوريد، ينبذ كل شيء ويرحل «دون تحقيق أهدافه» تاركاً اللوعة

والأسف في قلوب حلفائه الآسيويين، ومبرهناً بالمثل الذي ضربه من نفسه على فساد قول ديموستراتوس Demostratus ابن فاياكس Phæax: «اللقيديميون هم خير الجميع في المسائل العامة، والأثينيون هم خير الجميع في المسائل الخاصة».

فقد أعطى أغيسيلاوس دليلاً من نفسه على أنه ملك وقائد ممتاز، كما أظهر أنه صديق ممتاز وعشير لا أحبّ من مجلسه.

نُقش على العملة النقدية الفارسية صورة رامي سهام. وعلّق أغيسيلاوس قائلاً: «إن ألفاً من رُماة السهام الفرس أخرجوني من آسيا» يعني بذلك الأموال التي دفعت رشاوى للديماكوكيين مثيري الشغب، والخطباء الجماهيريين في ثيبه وأثينا، فأثاروا هاتين الدولتين على سپارطا.

وبعد أن عبر أغيسيلاوس الهلليسپونت، سار برّاً خلال ثراكيا دون أن يطلب أو يسأل الأذن له بالمرور في أي مكان اجتازه، خلا أنه كان يرسل سُعاته إلى الأقاليم والدولة التي يمرّ بها ويسألها هل تريد أن يمرّ كصديقٍ أم كعدوّ؟ واستقبله الجميع كصديق ولم يحجموا عن مساعدته في رحلته خلا الترياليانيين Trallians الذين دفع لهم زركسيس Xerxes مالاً على ما أشيع، إذ إنهم طلبوا منه الثمن. وهو كما قيل مائة تالنت فضة، ومائة امرأة. وسأل أغيسيلاوس ساخراً، كيف لايراهم مستعدين لاستقبال هذه الرشوة؟ ثم تقدم داخل بلادهم فوجدهم مستعدين لقتاله بكامل سلاحهم فقاتلهم، وفتك بعدد كبير منهم. وبعث برسل إلى ملك مقدونيا بطلب المرور. فأجاب هذا أنه يحتاج إلى وقت للمداولة واتخاذ قرار. فعقّب أغيسيلاوس على هذا بقوله: «فليتداول ما شاء، أمّا نحن فسنتقدم أثناء ذلك». واعترت المقدونيين الدهشة والرهبة لما أظهره السپارطي من صلابة وعزيمة وأعطى الملك الأوامر بتركه يمرّ مرور الصديق سلباً، لأن أهلها كانوا حلفاء للعدوّ. وأرسل إلى عاصمتها لاريسّا كل من كزينوقلس Xenocles وسكيثس Scythes لأجل التفاوض في الصلح. فقبض عليهما اللاريسيون وزجّوهما في السجن، وثار الغضب بالإسپارطيين، وأشاروا عليه بإلقاء الحصار حول المدينة. فأجابهما يقول إن كل واحدٍ من الرسولين أكبر قيمة في نظره من كلّ بلاد تساليا. ومن ثمّ فإنه اتفق على شروط صلح معهم واستنقذ رجليه حالما وضِع الاتفاق موضع تنفيذ. ولا داعي لدهشتنا من القول الذي نطق به أغيسيلاوس عندما وردته أنباء من سپارطا تقول إن عدداً من عظام القواد قد اشتبكوا في معركة بالقرب من كورنث وإن عدد القتلى بين الإغريق كثير، وإن اللقيديميين فازوا بنصرٍ ساحق وبقليل من الخسائر، إذ لم تبدُ عليه علامة من علامات السرور، بل أطلق حسرةً طويلة وهتف قائلاً:

- أسفي عليك يا بلاد الإغريق كم أضعت من الصناديد الشجعان! لو أنهم ادُّخروا ليوم الكريهة لفتحوا كل بلاد الفرس.

وأزعجه الفارساليون Pharsalians باشتداد ضغطهم على جيشه ووضع الكمائن في خطّ سيره، فما كان منه إلاّ أن انطلق على رأس خمسمائة فارس وقاتلهم حتى هزمهم. وأقام نُصباً تذكارياً لنصره تحت جبل نارثاكيوس Narthacius، معتزاً بما حققه بهذا العدد القليل من الخيّالة التي أوقعت بحجافل من المحاربين المتمرّسين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أبرع من امتطى صهوات الخيل في اليونان. وفي هذا الموضع لقيه دفريداس Diphridas الإيغور، وسلّمه رسالة من سپارطا تأمره بغزو بويوسيا فوراً. ومع أنه كان يفضّل أن يفعل ذلك في وقت آخر وبقوات أكثر مما لديه فقد أطاع حكام بلاده وخطب في جنوده قائلاً:

- لقد حان ذلك اليوم الذي وجب عليكم أن تُنجزوا فيه المهمّة التي جئتم من آسيا في سبيلها.

ثم استقدم لمساعدته في هجومه فرقتين من الجيش كانتا معسكرتين بالقرب من كورنث. ودعا اللقيديميون في الوطن ببيان عام كل مطوّع يرغب في الخدمة العسكرية تحت إمرة الملك على سبيل التكريم له، وإظهاراً لما يكنّونه له من تعلق. فهرع كل شباب المدينة إلى التطوع، فاختاروا خمسين من أقواهم وأرسلوهم إليه.

واستولى أغيسيلاوس على ثرموپيلي وعبر بدون عائق بلاد فوكيس Phocis. وما إن دخل بويوسيا وضرب معسكره بالقرب من خيرونيا حتى انكسفت الشمس. وتلا ذلك ورود أنباء عن هزيمة پيساندر الأميرال السپارطي ومقتله في كيندوس Cindos على يد فارنبازوس وكونون Conon، فأورثه ذلك ألماً عظيماً عاماً وخاصاً. ولئلا تؤثر هذه الأنباء على معنويات جيشه الذي يستعد للدخول في المعركة، فتؤدّي إلى تخاذلهم ونكستهم، أمر الرسل القادمين بأن يشيعوا نبأ انتصار السپارطيين. وقام هو نفسه بوضع الأكاليل على رأسه واحتفل بتقريب قربان للأنباء السارة، وأرسل أجزاء من الأضاحي إلى أصدقائه.

وعندما وصل قريباً من كورنيا Cornea وشوهد العدوّ بالعين المجرّدة، صفّ جيشه للقتال وتسلّم قيادة الجناح الأيمن. وتسلّم الثيبيون قيادة ميمنتهم، تاركين ميسرته للأرگفيين Argives. وقال گزينفون الذي شارك في القتال، إلى جانب أغيسيلاوس، إنها كانت أشدّ معركة رأتها عينه وأصعبها. ولم تكن كذلك في مبدئها لأن الثيبيين ألحقوا الهزيمة بالأرخومنيين، كذلك تغلّب أغيسيلاوس على الأرگيفيين، وسمع

الفريقان بهزيمة ميسرتيهما فخفّا معاً إلى نجدتهما. ولو قنع أغيسيلاوس بالتريّث قليلاً، ولم يهاجم هجوماً جبهياً وتعرّض لجناح العدوّ أو مؤخّرته، لربح المعركة حالاً وبصورة أكيدة. إلا أنه كان مهتاجاً، مأخوذاً بحُمّى القتال، فلم يترقّب فرصته وإنما انقضّ فوراً متوهّماً أنه سيدفعهم أمامه دفعاً، إلاّ أن شجاعة الثيبيين لم تكن بأقلّ منه، فحمِيَ وَطيس القتال وثار النقع شديداً لاسيما في الموضع الذي كان يقاتل فيه أغيسيلاوس. وأبلى حرسه الخمسون المتطوّعون خير بلاء في ذلك اليوم فأنقذوا حياته من موت محتّم وقاتلوا دونه بشجاعة لا مثيل لها ووقفوا بينه وبين الخطر سدّاً بأجسامهم. إلاّ أن بعض أسِنّة العدوّ وسيوفه أصابته بعدة جراح تحت دروعه. وتمكنوا بكلّ صعوبة من إنقاذه إلى خارج ساحة القتال بتأليفهم سواراً حوله، وقد قتلوا كثيراً من الأعداء وسقط منهم الكثير أيضاً.

أخيراً بعد أن صعب عليهم اختراق جبهة الثيبيين عمد اللقيديميون إلى فتح جبهتهم، وتركوا العدوّ يدخل منها. وهي من الفنون الحربية التي كانوا في مبدأ الأمر يحتقرون اللجوء إليها. وأخذوا في الوقت نفسه يراقبون سلوك العدوّ بعد اختراقه الصفوف. فقد ظنّوا أنهم انتصروا واطّرحوا جانب الحذر واعتبروا أنفسهم قد خرجوا من منطقة الخطر. وهنا انقضّ عليهم السپارطيون وهم هكذا. لكنهم لم يهزموا مع ذلك وإنما اتجهوا نحو هيلكون والفخر بما أنجزوه يعمر صدورهم متبجّحين بأنهم لم يُهزموا باعتبارهم جزءاً من الجيش.

ولم يقبل أغيسيلاوس الذي أثخنته الجراح أن يؤخذ إلى خيمته قبل أن يُدار به في ساحة المعركة ليشاهد قتلاهم ينقلون داخل معسكرهم. وأطلق سراح كل من لجأ من الأعداء إلى حرم الهيكل. إذ كان يوجد بالقرب من ساحة المعركة معبد منيرڤا الإيتونية وأمامه نصب أقامه البويوسيون تذكاراً للنصر الذي أحرزوه بقيادة سپارتون Sparton على الأثينيين بقيادة تولميدس Tolmides الذي سقط قتيلاً هناك.

وفي ساعة مبكرة من اليوم التالي أراد أن يجسّ الشجاعة الثيبية، ويتأكد مما إذا كان لديهم أية نيّة في جولة ثانية، فأمر جنوده بوضع الأكاليل على رؤوسهم والنفخ بناياتهم ورفعَ نصباً حربياً أمام وجوههم. الا أنهم بدلاً من قبولهم التحدي للقتال أرسلوا إليه يطلبون السماح لهم بدفن قتلاهم، فلبّى طلبهم. وبعد أن تمكن من أسباب النصر قصد إلى دلفي لمشاهدة الألعاب الپيثية التي كانت تجري آنذاك. ومد يد المعونة فيها مقدّماً عُشر الغنائم التي جاء بها من آسيا، وبلغ مائة تالنت. وبعد ذلك عاد إلى بلاده حيث ما لبثت تصرفاته وأخلاقه أن أكسبته محبة السپارطيين، وجعلته موضع

إعجابهم. فقد عاد إلى الوطن بعد بقائه زمنا طويلاً في بلاد الأجانب عينَ ذلك الرجل الذي خرج منه. مخالفاً بذلك غيره من القادة المغتربين. فلم يتخلّق بأخلاق تلك البلاد ولم يقتبس عاداتهم بالقدر الذي يُنسيه عادات قومه أو يحمله على نبذها أو احتقارها. وإنما بقي أميناً محترماً كل تقاليد سپارطا وآداب سلوكها ولم يبدّل لا في طعامه ولا استحمامه ولا في أزياء امرأته، حتى لكأن رحلته لم تتعدّ نهر يوروتاس. وكذلك كان شأن أهل بيته وأثاثه وسلاحه، لا بل حتى أبواب منزله التي كانت بدرجة من القدم بحيث تذكر بأبواب أريسطوديموس Aristodemus. ويقول گزينفون إن كناثروم Canathrum ابنته لم تكن أفخم من أية واحدة أخرى. والكناثرومة كما تدعى هي كرسيّ أو مركبة من الخشب على شكل غرفين[1] أو تنّين يُحمل فوقه الأطفال والعذارى الصغيرات في أثناء الاحتفالات والمسيرات الدينية. ولم يكتم ديكيارخوس Dicaearchus بعض سخط لأننا نجهل - كما يقول - اسم بنت أغيسيلاوس، واسم أمّ إپامنناداس. على أننا وجدنا بأنفسنا في سجلّات لاقونيا اسم امرأته وهو كليورا Cleora واسم بنتيه يوپوليا Eupolia وپروليتا Prolyta. وبإمكان أي شخص أن يشاهد اليوم حربة أغيسيلاوس محفوظةً في سپارطا لا فرق بينها وبين حربة أي مقاتل بسيط.

لاحظ أغيسيلاوس عند السپارطيين هواية شائعة تافهة وهي احتفاظيهم بخيول سباقٍ لإدخالها الألعاب الأولمبية. وكانت هذه الهواية موضع تنابز وتفاخر ودليلاً على علوّ المقام بين السپارطيين. أما أغيسيلاوس فقد عدّها مظهراً من مظاهر الثروة للبذخ لا لأي سجيةٍ أو فضيلة حقيقية. ولأجل أن يوضح رأيه هذا للإغريق أقنع أخته كانيسكا Cynisca بأن تبعث بمركبتها إلى حلبة السباق. وقرّب منه گزينفون الفيلسوف وأبقاه عنده وبالغ في إكرامه، مقترحاً أن يبعث بطلب أولاده ليدرسوا ويثقفوا في سپارطة حيث ينالون خير تهذيب، ويتدرّبون على الطاعة وعلى الأمر. ووجد عند وفاة ليساندر حزباً كبيراً كان قد شكّله وأقام بنيانه ليعارض به عند عودته من آسيا. فارتأى أن يكشف للملأ حقيقة حزب ليساندر، وأي نوع من الناس كان في حياته. واعتمد في ذلك على خطبةٍ كان قد وجدها في مخلّفاته من الأوراق من تأليف كليون الهاليكارناسي. إلاّ أن ليساندر ألقاها كأنها من تأليفه في أحد الاجتماعات العامة لحمل الشعب على إجراء تعديلات وإصلاحات في الحكومة. فعزم أغيسيلاوس على نشرها بمثابة دليل على أحابيله ومؤامراته. إلاّ أن أحد المشايخ دقّقها فوجدها بليغة فصيحة فنصحه أن يأمر

---

(١) حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه أسد.

بفتح قبر ليساندر ويدفن هذه الخطبة معه. وأشار عليه بعد نظر أن يعمل بهذه النصيحة ويكتم موضوعها إلى الأبد. ومنذ ذلك الوقت أبى أن يوجّه أية إهانة لخصم من خصومه تهدف إلى فضيحته. وإنما كان ينتهز الفرص في اختيار كبار الخصوم فيرسلهم بعيداً في مهامّ خارجية إلى بلاد أجنبية، متوسّلاً بذلك الكشف عن جشع وأنانية كثيرين منهم وهم في سلك الوظيفة. فإذا أثار غيره قضيّة أو تهمة ضدّ واحدٍ منهم وجيء به إلى التحقيق، قام يسعى لإنقاذه من ورطته ليكون أسير فضله. وبهذا الأسلوب كان يجعل من أعدائه أصدقاء. فلم يبق له عدوّاً بمرور الزمن.

كان أغيبپوليس Agisipolis شريكه في العرش يشكو عيباً في ميلاده، فهو ابن لسپارطي حُكم بالنفي خارج البلاد. وكان فضلاً عن ذلك شاباً غير طموح، قليل الفعالية والتدخل في الشؤون العامة، فسعى أغيسيلاوس لكسبه إلى جانبه وجعله طَوْعَ بنانه. وكانت تقاليد سپارطة تقضي أن يتناول الملكان وجبات طعامهما طالما هما في المدينة.

فاهتبلها أغيسيلاوس فرصةً للتقرّب من شريكه. ووجده مثله يهفو إلى تكوين علاقات حبّ مع الشباب. فكان يحادثه كثيراً في هذه الشؤون ويشاركه فيها ويساعده ويجعل من نفسه موضع سِرّه. ومثل هذه الروابط في سپارطة لا جُناح فيها، بل هي الروابط الشريفة التي تتصل بالمشاعر الحيوية والتواضع والفضيلة والمنافسة النبيلة، مما ذكرناه تفصيلاً في سيرة ليكورغوس.

وسَهُل على أغيسيلاوس بعد توطيد سلطانه في المدينة أن يعمل على انتخاب أخيه غير الشقيق تيليوتياس Teleutias أميراً على الأسطول. وبعد هذا وجّه حملة على الكورنثيين واستولى على الأسوار الطويلة من البرّ، بمساعده أخيه من البحر، وفاجأ الأرگيڤيين الذين كانوا يسيطرون على كورنث وهم في وسط الاحتفال بالعيد «الاستمي» فلاذوا بالفرار وما كادوا يبدأون في تقريب الضحايا، تاركين وراءهم كل ما هيّأوه للعيد من طعام. فرغب الكورنثيون المنفيون الذين كانوا يعملون في الجيش السپارطي منه أن يواصل أغيسيلاوس الاحتفال، ويترأس مراسمه فأبى، إلاّ أنه سمح لهم بمواصلته إن شاؤوا. وبقي هو أثناء ذلك قائماً على حراستهم.

وبعد أن ترك أغيسيلاوس الموضع واستأنف سيره عاد الأرگيڤيون لإقامة الألعاب ثانيةً. ففاز فيها بعض من كان قد فاز في المرة الأول، وخسر آخرون جوائزهم التي ربحوها في السباق الأول. فعلّق أغيسيلاوس على ذلك موضحاً للناس أن الأرگيڤيين

يجب أن يعترفوا بجُبنهم صاغرين. فهم يضعون أعظم قيمة على ترؤس هذه الألعاب، لكنهم لا يجرؤون على القتال في سبيل تلك المكانة.

وكان يرى شخصياً أن الاحتفاظ بالمكانة الوسطى في مثل هذه المناسبات هو خير الأمور. فكان يكتفي بمد يد المساعدة للألعاب الرياضية، ولفنون الرقص الشائعة في بلاده. وكان يظهر الشوق والحماسة لحضور تمارين الفتيان أو الفتيات. إلاّ أنه لم يكن يُبدي أي اهتمام بما اعتاد غيره من الرجال الاهتمام به. فمر:ة صادف أنّ الممثل التراجيدي كالليپيدس الذي دوّى اسمه في بلاد الإغريق، وكان موضع مَحبتهم، أن التقى بأغيسيلاوس فحيّاه، ولما لم يجد منه التفاتاً انضّم إلى السائرين في رِكابه واثقاً من نفسه متوقعاً أن يلقى من أغيسيلاوس بعض احتفاء، ولما أعياه ذلك وخاب تقدّم منه وبادره بجرأة يسأله هلّا يتذكره فأخذ أغيسيلاوس يصعّد فيه نظره ثم أجابه قائلاً:

- أما أنت كالليپيدس Callippides المشخصاتي؟

ومرةً دُعي لسماع رجل يحاكي صوت تغريد العندليب محاكاة عجيبة، فرفض الدعوة قائلاً: «لقد سمعت العندليب بالذات».

وكان منكراتس Menecrates الطبيب قد حقق شفاء عجيباً من بعض الأمراض المستعصية فسُمّي على سبيل الملق والمداهنة بـ«جوپيتر». وكان من السخف والفجاجة أنه قبل لنفسه هذا اللقب. فكتب مرةً رسالة إلى أغيسيلاوس وبدأها بالشكل الآتي: «من جوپيتر منكراتس إلى أغيسيلاوس الملك، تحية». فردّ عليه أغيسيلاوس بما يلي:

«من أغيسيلاوس، إلى منكراتس، متمنّياً الصحة وسلامة العقل».

ومرة، عندما كان أغيسيلاوس في الأراضي الكورنثية، ولم يمرّ وقت طويل على ضبطه هيرايوم Heræum، خرج يراقب جنوده وهم منهمكون في نقل الأسرى والغنائم، وفيما هو كذلك إذ حضر وفد سفراء من ثيبة إليه، لمفاوضته في الصلح. ولمّا كان يبغض تلك المدينة بغضاً شديداً، ولاعتقاده آنذاك أن ما يفيد في أمورهم هو إظهار الاحتقار لهم، تظاهر بأنه لا يراهم ولا يسمع كلامهم. وكأن الأقدار أرادت معاقبته على تعمّده الجبروت وتظاهره بالغطرسة، فقد وردت الرسل إليه قبيل مغادرة الوفد تحمل نبأ إبادة فرقة كاملة سپارطية على يد إيفقراطس Iphicrates. وكانت نكبة لم يرَ مثلها السپارطيون منذ سنوات عديدة سلفت. ومما زاد في الطين بِلّة أن هذه الفرقة كانت تضمّ نخبة الرجال اللقيديميين بأكمل سلاحٍ، وأن الذين قضوا عليها رماة مرتزقة لا غير. ما إن سمع أغيسيلاوس بالنبأ حتى هَبّ من مقعده وهمّ بالإسراع لنجدتهم فقيل له إن الأمر قد قضي ولا فائدة من ذلك. فقفل راجعاً إلى الهيرايوم

وبعث بطلب سفراء ثيبة لإجراء المفاوضات، فاتفق هؤلاء فيما بينهم على أن يردّوا الإهانة التي ألحقها بهم بمثلها ولم ينطقوا بكلمة واحدةٍ عن الصلح. وإنما طلبوا منه أن يأذن لهم بالعودة إلى كورنث، فكان لطلبهم هذا وقع شديد عليه، وأجابهم بازدراء: إن كانوا يحنّون إلى العودة لمشاهدة مبلغ الغرور الذي وصل بأصدقائهم للنصر الذي حققوه فعليهم أن يفعلوا ذلك غداً، إذ إنه سيؤمّن لهم عودتهم بسلام.

وفي صباح اليوم التالي أخذ معه السفراء وتقدّم بجيشه متوغّلاً في الأراضي الكورنثية، حتى بلغ أبواب المدينة. فتوقف وأشار للسفراء أن يروا بأمّ أعينهم كيف يحجم الكورنثيون عن الخروج منها لقتاله، وكيف يعجزون عن حماية أنفسهم، ثم سرّحهم.

وبعد هذا جمع فلول الفرقة الممزّقة وسار بها إلى بلاده. وكان يضرب خيامه بعد حلول الظلام، ويرفعها قبيل الفجر لمنع مزيد من العار عليهم قد يصيبهم من هجمات أعدائهم الأركاديين، بعد الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم.

وطلب منه الأخائيون بعد هذا أن يشاركهم في الزحف على أقارنانيا Acarnania. ففعل وأصاب غنائم كثيرة وألحق بالأقارنانيين الهزائم. وحاول الأخائيون إقناعه في إبقاء مقرّه هناك أثناء فصل الشتاء لمنع الأقارنانيين من بذر قمحهم، فخالف رأيهم، معلّلاً ذلك بأن هؤلاء إذا بذروا قمحهم في الشتاء فإنهم سيكونون في الصيف أحرص على ما زرعوه وأشدّ خوفاً من الحرب مما لو بقيت حقولهم بوراً. ودلّلت الوقائع على صحة رأيه. فقد سارع الأقارنانيون إلى عقد الصلح مع الأخائيون عندما بدأ هؤلاء حملتهم الثانية في الصيف.

ولما تحققت لكونون وفارنبازوس السيادة البحرية بالأسطول الفارسي، لم يكتفوا بتدويخ سأحل لاقونيا، بل أعادوا بناء أسوار أثينا على نفقة فارنبازوس. فوجد اللقيديميون أن التفاوض في الصلح مع ملك الفرس هو أسلم السبل. وتحقيقاً لهذا المطلب بعثوا بأنطالقيداس Antalcidas إلى طيريبازوس Tiribazus، فغدروا بعملهم هذا غدراً خسيساً دنيئاً بالإغريق الساكنين آسيا، الذين لم يقم أغيسيلاوس بشنّ حروبه إلاّ لأجلهم. ولم يكن لأغيسيلاوس أيّ ذنبٍ في هذا العمل الوضيع. فكلّه كان من تدبير أنطالقيداس ألدّ أعدائه. إذ أبدى تحمّساً لعقد الصلح بأي ثمن أو شروط لعلمه الأكيد بأن الحرب سترفع من شأن خصمه أغيسيلاوس وتقوّي نفوذه. على أنه لمّا قيل لأغيسيلاوس يوماً على سبيل اللوم بأن اللقيديميين استسلموا للميديين، أجابهم بقوله: «كلاّ بل الميديون هم الذين استسلموا للقديميين». ولما رفض الإغريق الموافقة على

المعاهدة المعقودة هدّدهم بالحرب الا إذا أنفذوا شروط ملك الفرس. وكان يرمي من هذا، إلى إضعاف الثيبيين. فمن شروط الصلح أن تبقى بلاد بويوسيا مستقلة. وقد ظهر هذا الشعور فيه ضدّ الثيبيين أوضح من هذا عندما عمد فيوبيداس Phœbidas والسلم ضارب أطنابه إلى وضع يده على كادميا Cadmea بصورة لا يمكن تبريرها. مما أثار حنق كلّ بلاد الإغريق. ولم يرضَ اللقيديميون عنه أيضاً ولاسيما من كان عدوّاً لأغيسيلاوس فإنهم طلبوا فتح تحقيق في الموضوع لمعرفة الآمر والمنظّم لذلك، فجرى ذلك ونقلوا الشكّ فيه حتى عتبة داره، ولكنه راح يدافع عن فيوبيداس دفاعاً حارّاً لا يلين، قائلاً بأن المنفعة المتأتية من عمله هي التي يجب أن توضح موضع الموازنة قبل كل شيء، فإذا كان المتوخّى فيه مصلحة الجمهورية فلا يهمّ إذا كان قد عمله بأمر أو من تلقاء نفسه. وكان هذا مما يوجب التساؤل ويلفت النظر في أغيسيلاوس. لأن أحاديثه الاعتيادية كانت تُفصح دائماً عن حِرصه على إجراء العدالة والدفاع عنها واعتبارها أمّ الفضائل، فتراه يقول مثلاً أن لا نفع في الشجاعة بدون عدالة. ويقول أيضاً: إذا عمّت العدالة العالم لا تعود هناك حاجة إلى الشجاعة. وعندما كان يقال له: أيّ ملك عظيم يريدها على هذا الشكل، يرد قائلاً:

- وكيف يكون أعظم منيّ إلا إذا كان أعدل؟

وهكذا يتخذه بأصالة منه ونُبل فيه، العدالة لا القوّة معياراً للعظمة الملكية. ولهذا كتب إليه ملك الفرس عند عقد الصلح يرغب في انشاء صداقة خاصة ورابطة ضيافة، فرفض أغيسيلاوس بقوله: إن في الصداقة العامة الكفاية، فطالما هي مستمرة لا حاجة تدعو إلى التآخي والصداقة الخاصة. إلاّ أنه لم يكن أميناً على هذا المبدأ طوال حياته. بل كان يجانبه أحياناً بدافع طموحه، وأحياناً بسبب اعتزازه الشخصي بنفسه. فتراه ينجرف مع عاطفته بعيداً، ولاسيما في قضيته هذه مع الثيبيين، فانه لم يكتف بإنقاذ فيوبيداس بل أقنع اللقيديميين أن يحملوا الوزر عنه، وأن يستعيد كادميا ويضع فيها حاميةً، وأن يودع شؤون حكم الثيبيين إلى يد كل من أرخياس Archias وليونتيداس Leontidas اللذين كانا مسؤولين عن تسليم القلعة خيانة لبلادهما.

كل هذا أثار الشكّ القوي في أن ما فعله فيوبيداس كان بأمر من أغيسيلاوس، لأنه أيّده فيما قام به، ولأنه عندما طرد الثيبيون الحامية فيما بعد وتحرروا اتهمهم بقتل أرخياس وليونتيداس اللذين كانا في الواقع طاغيتين، وهما بالاسم يتولّيان منصب پوليمارخ. فأعلن الحرب على ثيبة وبعث كليومبروتوس Cleombrotus الذي كان آنذاك شريكه في الملك ليقوم عنه بالمهمة. فقد توفّي أغيسيلاوس واستخلف

كليومبروتوس. وقد اعتذر أغيسيلاوس عن قيادة الحملة بسبب تقدّمه في السن ومضيّ أربعين سنة على حمله السلاح. والقانون الاسپارطي يعفي أمثاله من الخدمة العسكرية. على أن السبب الحقيقي لاعتذاره هو قيامه قبل فترة قصيرة بشنّ حرب على الطغاة إلى جانب الفلياسيين Phliasians فكيف يسعه أن يقاتل الآن الثيبيين دفاعاً عن الطغاة؟

كان سفودرياس Sphodrias اللقيديموني حاكماً لثيسباي Thispiæ، وهو من الحزب المعارض لأغيسيلاوس، وكان رجلاً جريئاً مغامراً، غلبت ثقته بنفسه على حكمته. أثار ما فعله فيوبيداس عاطفة الطموح فيه واستفزّه إلى القيام بمأثرة عظيمة يشتهر بها، كما توهّم أن استيلاء فيوبيداس على كادميا قد جعله شهيراً. واختار پيروس مجالاً لشهرته واعتزم الاستيلاء عليها بصورة مباغتة، لقطع الأثينيين عن البحر فتطير شهرته ويسبق فيوبيداس. وقيل أيضاً إن پيوليداس وميلون Melon أكبر قائدين في بويوسيا هما اللذان زينّا له الأمر، بأن بعثاً سِرّاً إليه ببعض الرجال تظاهروا له بأنهم من الفئة التي تمالئ السپارطيين فراحوا يثنون عليه ثناء مستفيضاً حتى انتفخت أوداجه فخراً بنفسه. وقالوا له إنه الوحيد في العالم المناسب لمثل هذا العمل العظيم. فلم يعد يستطيع صبراً واستعجل في تنفيد عملية لا تقلّ خِزياً وعاراً عن عملية كادميا، لكنها تقلّ عنها نجاحاً وشجاعة. فقد طلع الفجر عليه وهو ما يزال في السهل الثرياسي Thriasian في حين كان من خطته أن تتمّ عملية الاستيلاء أثناء الليل. وقيل إن عزائم الجنود وهت ودبّ التخاذل في نفوسهم عندما رأت عيونهم أشعة الشمس تنعكس من هياكل أيليوسيس عندما بزغت. وهو نفسه بعد أن ضاعت من يده فرصة الظلام زايلته شجاعته وأحجم عن مواصلة العملية وأخذ بدل ذلك يعيث سلباً ونهباً، ثم عاد إلى ثيسباي فاشلاً يجرّ أذيال العار. وعلى أثر ذلك أوفدت أثينا إلى سپارطة بعثة لتقديم الشكوى عن خرق معاهدة السلم. ولم تكن الشكوى ضرورية، لأن قضاة سپارطة سبقوهم بإحالة سفودرياس على التحقيق. ولم يجرؤ سفودرياس على البقاء في المدينة حتى صدور الحكم عليه، ولم يكن يتوقع أقلّ من الموت، فقد أجمع أهل المدينة ضدّه بسبب العار الذي ألبسهم ولأجل ظهورهم أمام الأثينين بمظهر المغدور مثلهم لا بمظهر شركاء للفاعل.

وكان لسفودرياس هذا ابن في غاية الملاحة يدعى كليونيموس Cleonymus، تربطه بأرخيداموس ابن أغيسيلاوس رابطة محبة شديدة. فوجد أرخيداموس نفسه ملتزماً تجاه صديقه بدفع الخطر الذي يتعرّض له والده. إلاّ أنه لم يجرؤ على أي عملٍ مكشوف في هذا السبيل لأن سفودرياس كان من ألدّ أعداء أبيه أغيسيلاوس. غير أن

كليونيموس أخذ يتوسّل إليه باكياً، لمعرفته بأن أغيسيلاوس هو أعدى أعداء أبيه. وظلّ الفتى أرخيداموس يومين أو ثلاثة يتعقّب أباه مضطرباً خائفاً من مفاتحته بأمر التدخل لمصلحة والد صديقه. وكان أغيسيلاوس على معرفة تامّة بما بين ابنه وكليونيموس من علاقة ولكنه لم يحل دون ذلك لأن مخايل الذكاء والشهرة كانت تبدو على كليونيموس منذ حداثته وكان الناس يتوسّمون فيه الخير والمستقبل العظيم. وأخيراً لما اقترب يوم صدور الحكم لمَّ الفتى أطراف شجاعته وفاتح أباه برجاء كليونيموس في التدخل لمصلحة أبيه، فلم يظفر أرخيداموس بجواب مشجّع من أبيه إذ أجابه بكلّ برود: إنه سيفكر بعمل ما يمليه عليه الشرف والأمانة، ثم صرفه. وأحسّ أرخيداموس بالخجل من صديقه لخيبة مسعاه، وامتنع عن اللقاء به وتحاشى رؤيته، وكانا يلتقيان عادة عدة مرّات في اليوم الواحد. وهذا ما جعل أصدقاء سفودرياس يظنون بأن قضيته مبتوت فيها ولا مجال لإنقاذه منها، حتى كشف إتيموكلس Etymocles أحد أصدقاء أغيسيلاوس عمّا يراه في القضية، وقال إن الملك كره العملية بالذات، إلاّ أنه يعتبر سفودرياس رجلاً مقداماً لا غنى للجمهورية عنه في هذا الوقت. وحقيقة الأمر هي أن أغيسيلاوس لجأ إلى الضرب على هذه النغمة بخصوص القضية رغبةً منه في إرضاء ولده. وحينئذ أدرك كليونيموس أن صديقه أرخيداموس لم يخذله وإنما صدق في بذل كل ما ملك من جهود لدى أبيه وهذا ما جرّأ أصدقاء سفودرياس على المضيّ قُدماً في الدفاع عنه.

والواقع أن أغيسيلاوس كان شديد الحب لأولاده. والحكاية التالية تُعزى إليه: عندما كان أولاده صغاراً اعتاد أغيسيلاوس أن يعمل من عصا ما يشبه الحصان فيركبها معهم ويلاعبهم بها. ومرّة فأجاه صديق وهو يقوم معهم باللعب عليها، فطلب منه أغيسيلاوس أن لا يذكر ما رأى حتى يصبح أباً هو نفسه.

وعلى إثر ذلك بُرّئ سفودرياس، فأشهر الأثينيون السلاح على السپارطيين، وسقط أغيسيلاوس من أعين الشعب لأنه انحرف عن سبيل العدالة إرضاءً لأهواء فتىً، وجعل المدينة شريكة في جرائم إنسان عادي سبّب عمله ما يتعذر تبريره أعني القضاء على عهد السلام في اليونان. كذلك وجد شريكه كليومبروتوس قليل الميل إلى متابعة الحرب في ثيبه، فرأى من الضروري أن يطرح جانباً امتيازات سِنّه المتقدمة التي تعلّل بها سابقاً وأن يقود الجيش بنفسه إلى بيوسيا. وتقلّب حظه بين النجاح والفشل. فكان النصر يحالفه أحياناً ويجانبه حتى أصيب بجرح في معركة من المعارك. فقام أنطالقيداس يعيّره قائلاً إن الثيبيين قد أحسنوا دفع ثمن الدروس التي لقّنها لهم في فنون القتال. والحق يقال إنهم لم يبلغوا من قبل ما بلغوه من شدة المِراس والبراعة لأنهم

تلقّوا التدريب بكثرة الحملات التي جرّدها عليهم اللقيديميون. وكان ليكورغوس السالف بعيد النظر بصيراً بالعواقب بقوانينه التي حظر فيها على مواطنيه اللقيديميين شنّ أكثر من حربٍ على شعبٍ واحدٍ، ففي هذا ما يجنّبهم تلقين أعدائهم فنون القتال بدوام الحروب.

وإلى جانب هذا تعاظم استياء حلفاء سپارطة من أغيسيلاوس لأنهم لم يجدوا في هذه الحرب سبباً وجيهاً أو مبرّرات عادلة، وإنما شُنّت لمجرّد الكره الخاص الذي يسرّه للثيبيين. وجأروا بالشكوى لتعريض جنودهم للأخطار والمشاقّ من سنة إلى أخرى، ومن بلاد إلى بلاد، نزولاً عند إرادة أفرادٍ معدودين، وهم يؤلفون معظم الجيش. وقيل لنا إن أغيسيلاوس اعتمد حيلة لإسكات المعترضين والساخطين، برهن فيها لحلفائه أنهم ليسوا معظم أفراد الجيش. فقد أصدر أمراً بأن يجتمع الحلفاء كلهم ويجلسوا مختلطين في ناحية، وأن يجتمع اللقيديميون كلهم ويجلسوا في ناحية. وبعد ذلك أطلق منادياً بين الصفوف ينادي قائلاً: من كان بينكم خزّاف فليخرج من الجمعين، ثم نادى بخروج الحدّادين، ثم البنّائين ثم النجارين وهكذا استمر في إخراج كل صاحب صنعة حتى لم يبق أحد في صفوف الحلفاء إلاّ خرج، في حين لم يخرج من اللقيديميين رجلٌ واحدٌ. لأن القانون عندهم يحظر عليهم أن يمتهنوا صنعة يدوية. وهنا ضحك أغيسيلاوس وقال:

- أترون يا أصدقائي كم أرسلنا إلى الحرب من الجنود وكم أرسلتم؟

ولما عاد بجيشه من بويوسيا عن طريق ميغارا، وفي أثناء صعوده الأكروپوليس إلى مجلس القضاة، فوجئ بألم شديد وتشنّج في ساقه السليمة، وظهر عليها انتفاخ والتهاب شديدان فعالجه طبيب سيراقوزي، وفصده فيما يلي الكاحل حتى تداعت روحه وأُغمي عليه بسبب النزف الذي لم يفلح في وقفه إلاّ بصعوبة شديدة. وحُمل أغيسيلاوس إلى بلده وهو في أشد حالات الضعف ولم يستعد القوة الكافية لنزوله ساحة القتال إلاّ بعد فترة طويلة.

وفي تلك الأثناء ساءت حال السپارطيين وأُصيبوا بنكسات شديدة في البحر والبر، وأشدّها كانت نكسة تيجيريا Tegyrae حيث أوقع بهم الثيبيون هزيمة نكراء، وكانت أول معركة فاصلة يخسرونها.

إلاّ أن الإغريق جميعاً كانوا يتوقون إلى السلام العام. فجاءت وفودهم إلى سپارطه للمداولة فيه. ومن بين من قدِم إپامنداس الثيبي الذي كان آنذاك شهيراً بعلمه وفلسفته، ولم يشتهر بعد بكفاءاته الحربية القيادية. وجد هذا الرجل كل الوفود تتودّد لأغيسيلاوس

وتسابق إلى نيل رضاه. فترفّع عن ذلك وظلّ وحده يحافظ على كرامة السفير. وألقى خطبة جديرة بأخلاقه وعزّة نفسه لا بالنيابة عن الثيبيين وحدهم بوصفه ممثلهم بل عن كل الإغريق، قال فيها إن سپارطه وحدها ازدادت عظمة بالحرب على حساب مصائب جيرانها وشقائهم. وطلب عقد معاهدة سلام بشروط عادلة متساوية، فمثل هذا السلم هو الكفيل بالبقاء ولا يمكن أن يتمّ بغير ذلك. وأدرك أغيسيلاوس أن الإغريق كلّهم يحبّذون ما قال لما ظهر من السرور والانشراح عليهم، فبادر يسأل إپامنناداس: أيظن من العدالة والمساواة أن تتمتع المدن البويوسية باستقلالها؟ فأجابه إپامنناداس فوراً ومن دون تردّد: أيرى من العدل والإنصاف أن تتمتع المدن اللاقونية باستقلالها أيضاً؟ فهبّ أغيسيلاوس من مقعده وطلب منه الإجابة الجازمة عن السؤال: «هل يجب أن تمنح [بويوسيا] الاستقلال أم لا؟»

فردّ إپامنناداس عليه مكرراً عين سؤاله: «هل تتمتع لاقونيا بالاستقلال أم لا؟ وهنا بلغ الحنق بأغيسيلاوس حدّاً حمله على شطب الثيبيين من بين دول العصبة وأعلن الحرب فوراً، متخذاً مما جرى ذريعةً. وأما بقيّة الإغريق فقد عقد معهم صلحاً وودّعهم بقوله التالي:

- ما يمكن تقويمه بالسلام يجب تقويمه. وما لا يمكن تقويمه بالسلم فالحرب تتولّى إصلاحه. ومن الصعوبة بمكان أن يتوصّل المرء إلى حَلّ جميع المشاكل بالتفاوض.

وبناء على ذلك بعث مجلس الإيغور بالأوامر إلى كليومبروتوس وكان في فوكيس، للزحف فوراً على بويوسيا. وفي الوقت نفسه بعثوا يطلبون العون من حلفائهم. إلاّ أن هؤلاء الحلفاء بدا عليهم التردد في استعداداتهم، وكشفوا عن عدم رغبة في القتال. لكنهم من الجهة الأخرى كانوا يخشون صولة السپارطيين كثيراً فلا يجرؤون قط على رفض مطالبهم. ومع ظهور كثير من الخوارق والعلامات المنذر بالشر المستطير مما أتيتُ إلى ذكره في سيرة إپامنناداس، ومع أن پروثاوس Prothaus اللاقوني بذل قصاراه لتفاديها فإن أغيسيلاوس أصرّ على المضيّ قُدماً في مشروعه فنجح في مسعاه وأُعلنت الحرب. وكان يحسب أن طبيعة الأحداث الراهنة ستكون مواتية جداً لتحقيق غايته وإطفاء جذوة انتقامه، فبقية الإغريق كلهم احرار، والثيبيون وحدهم خارج معاهدة السلام. لكن الوقائع برهنت فيما بعد أن العاطفة لا العقل هي التي دفعت إلى الحرب. فقد تمّ توقيع معاهدة السلام في الرابع عشر من شهر سكيروفوريون Scirophorion، وأصيب اللقيديميون بانكسارهم الأعظم في الخامس من شهر هيكاتومبايون أي بعد

عشرين يوماً فحسب. وقُتل في معركة ليوكترا هذه ألف سپارطي كما سقط ملكهم كليومبروتوس وملكان يحيطان به، وهم من أشجع من أنجبتهم سپارطه، ونخص منهم بالذكر كليونيموس الفتى الجميل، ابن سفودرياس الذي سقط مثخناً بجراحه ثلاث مرّات تحت قدمي الملك ونهض ثلاث مرّات حتى قتل.

وقعت هذه الضربة غير المنتظرة وقعاً شديداً للغاية على اللقيديميين ورفعت الثيبيين وبنت مجدهم الذي فاق أي مجد نالته أي جمهورية من الجمهوريات الإغريقية في مضمار حروبها الأهلية فيما بينها. على أن سلوك السپارطيين وهم مغلوبون كان سلوكاً رائعاً يدعو إلى الفخر والاعجاب حقاً، ولا يقلّ بأية حال عن الثيبيين أنفسهم. ومثلما قال گزينفون، لو سقط أثناء حديث الناس الطيّبيين في مجلس لهوهم أو شربهم عدد من الأقوال الطيبة الباقية، فليس ثم أجدر منها بأن تسجّل. وهذا هو اطّراد عمل العقول السليمة، كما يبدو في أقوال وأعمال الشجعان عندما يكبو بهم الحظ وتلحقهم المصائب. وقد اتفق للسپارطيين أنهم كانوا يحتفلون بعيد ديني كان قد أمّه أناس كثيرون من دول أجنبية وكانت المدينة تزخر بهم عندما وردت انباء اندحار ليوكترا. وكان وقت عرض الجمنوباديا Gymnobdiae قد حَلّ وشرع الأولاد يؤدّون رقصاتهم على الملعب لمّا جاء السعاة من ليوكترا. ومع إدراك الإيغور أن هذه الهزيمة أصابت مكانة سپارطه بالدمار التام، وأن مركزهم الأول بين دول الإغريق قد ضاع منهم إلى الأبد، فإنهم أمروا باستمرار الرقص وعدم الغاء أي مشهد من مشاهد الاحتفال بالعيد. على أنهم بعثوا بصورة سريّة لكل أسرة مفجوعة بأسماء ما خسرته من أفرادها. وواصلوا الاحتفالات العامة. وفي صباح اليوم التالي بعد أن علم الجميع بما حصل، ومن قتل ومن نجا، خرج آباء القتلى وأقرباؤهم إلى الساحة العامة وعليهم علائم السرور يقرئ بعضهم بعضاً التحايا ويتبادلون التهانئ الرقيقة، في حين أخفى آباء الجنود الناجين أنفسهم في منازلهم بين النساء. فإذا ألجأت أحدهم ضرورة إلى الخروج رأيته يسير كئيباً حزيناً لا يرفع أبصاره عن الأرض. وبزّت النسوة رجالهن في هذا، فمن ثكلت ابنها أظهرت الفرح وقامت ضاحكة الثغر تزور صاحبتها الثاكلة الأخرى. ثم إنهن اجتمعن في المعابد اجتماعات الأفراح. أمّا الأمّهات اللاتى كن ينتظرن عودة أولادهم فقد لفّهن سكوت مطبق وظهرت عليهن أمارات الأسى.

إلاّ أن السپارطيين بصورة عامة لم يكونوا ليخفوا قلقهم بعد أن بدأ الآن حلفاؤهم ينفضّون عنهم، وبات من المتوقع أن يزحف إپامنونداس بثقة المنتصر، على الپلوپونيس بجيش غازٍ. وعادوا يفكرون بعرج أغيسيلاوس، وتسرّب اليأس إليهم، كأن رفضهم

تمليك ذي الرجل السليمة وتفضيلهم الملك الأعرج خلافاً لما أنذرتهم به النبوءة بصورة خاصة وهو علّة المصائب التي تكالبت عليهم. إلاّ أن احترامهم لمؤهّلات أغيسيلاوس وسُمعته وضع حدّاً لهذا التذمّر الشعبي وتخطّوه بأن اودعوا فيه ثقتهم أثناء هذه المحنة، واعتبروه الوحيد القادر على تحقيق الشفاء للسقم العام، والوسيط الزعيم بالتغلّب على كل مشاكلهم في الحرب أو في السلم.

ومن أعظم المشاكل التي كانت تواجههم آنذاك مشكلة الفارّين (هكذا كانوا يسمّونهم آنذاك) وهم الذين تركوا ساحة القتال. كان عدد هؤلاء كبيراً، وفيهم من أهل النفوذ والمكانة عدد لا يستهان به. فخيف أن يُثيروا فتنة في الجمهورية للحيلولة دون تطبيق أحكام القانون الخاص بمعاقبة الجبناء عليهم. وكان هذا القانون في غاية من الصرامة، لا تقتصر أحكامه على تجريد الفارّين من كل امتيازاتهم، وإنما تتعدّاه إلى عقوبات أخرى. منها أنه كانت مصاهرتهم عاراً. ومنها أن يكون الحق لكلّ مواطن بضرب أي واحد منهم حين يلقاه في الطريق، ولا يحق للمضروب أن يعترضه أو يقاوم ضربه. كما يفرض عليهم أن لا يغتسلوا وأن يلبسوا الخَلَق من الثياب المرقّعة بِرُقع متعددة الألوان وأن يحلقوا نصف لحاهم ويرسلوا الشعر على وجنة واحدة. لذلك بات من المتوقع أن يخلق تنفيذ أحكام هذا القانون آثاراً في غاية الخطورة نظراً لكثرة عدد المأخوذين به وسموّ مركزهم، فضلاً عن حاجة الجمهورية الماسّة إلى الجنود في ذلك الوقت العصيب. ولذلك تم اختيار أغيسيلاوس لما يشبه وظيفة المشترع الجديد بهذه المناسبة فلم يصدر قانوناً جديداً وإنما دخل الجمعية العمومية من غير أن يعمد إلى إضافة أو تنزيل أو تغيير شيء في القانون القديم وتوجّه إليها قائلاً:

- يجب أن يستسلم القانون للنوم في هذا اليوم. واعتباراً من يوم غد يجرى تطبيقه بكلّ شدة وصرامة.

وهكذا صان القانون من التعديل، كما صان الموظفين من التشهير. ولأجل أن يعيد الثقة إلى نفوس الشباب ويخفّف من يأسهم قام بغزوة لأركاديا مجتنباً بكلّ حذر أي اشتباك في قتال. وقاصراً غزوته على نهب البلاد، واحتلال بلدة صغيرة للمانتيفائيين Mantinæns، وبهذا أحيا الأمل في قلوب الجماهير، وأقنعهم أنهم ليسوا مغلوبين في كل مكان. وما لبث أن انقضّ إيامنداس على لاقونيا بجيش يبلغ تعداده أربعين ألفاً عدا المشاة ذوي الأسلحة الخفيفة، وآخرين غيرهم لحقوا بالجيش لغرض السلب والنهب حتى باتوا يزيدون عن سبعين ألفاً.

ستمائة سنة مرّت على احتلال الدوريين Dorians للاقونيا ولم يروا خلال هذه

المدة الطويلة عدوّاً يدخل أراضيهم. ولم يجرؤ أحد على غزوهم. إلاّ أن الثيبيين دخلوها الآن وأخذوا يحرقون ويسلبون في تلك الأراضي المحرّمة التي لم يمسّها أحد من قبل، دون أن يلاقوا أية مقاومة. ووصلوا نهر يوروتاس، وبلغوا ضواحي سپارطة لأن أغيسيلاوس لم يسمح لقومه باعتراض ما سمّاه ثيومپوپوس بالسيل الحربي الجارف. وإنما قصر اهتمامه على تحصين الأجزاء الرئيسة من المدينة. ووضع الحرس في الأماكن الملائمة، صابراً في أثناء ذلك على سخرية الثيبيين الذين أخذوا يقذفونه وينعتونه بمثير الحرب وموقدها وعلّة كل المصائب التي تعانيها بلاده وتحدّوه إن كان قادراً على الدفاع عنها. ولم يكن هذا كل شيء، ففي الداخل كان يعاني متاعب مماثلة، من اضطراب المدينة وانفراط عقد النظام فيها والضجة والصرخات التي يأتيها العُجّز وكبار السنّ معلنين سخطهم لحالتهم المؤسفة. وزادت النساء في الطين بلّة بصيحات الرعب والهلع التي كنّ يطلقنها وقد كدنَ يخرجن عن وعيهنّ. أضف إلى هذا كله التأثير الذي تحدثه نيران العدوّ في ساحة القتال وإحساسه بانهيار صرح مجده وتردّي سُمعته. فقد جلس على عرش سپارطة وهي في أوج عظمتها وازدهارها، وها هو الآن يراها تسقط من عليائها وتنزل من قدرها وسُمعتها إلى الدرك الأسفل، وتفقد كل الشعارات السامية التي حملتها نبراساً مما اعتاد هو نفسه التغنّي والتمثّل به، كقوله «إن نساء سپارطة لم يشاهدن قط نيراناً لعدوٍ». وكما أثر عن أنتالقيداس أنه كان مرّة يجادل أحد الأثينيين في أي الشعبين أكثر بسالة فتبّجح الأثيني بقوله إن قومه كثيراً ما طردوا السپارطيين من حوض نهر كيفيس Cephisus. فردّ عليه أنتالقيداس قائلاً: «أصبت. لكننا لم نُسعد بفرصةٍ واحدة لطردكم من نهر يوروتاس. ومرّة كان مواطن سپارطي من العامة البسطاء برفقة أرگيفي فأخذ هذا يفخر بالعدد الكبير من السپارطيين الذين دفنوا في حقول أرغوس، فردّ عليه السپارطي قائلاً: «ولا أحد منكم مدفون في بلاد لاقونيا». على أن الوضع قد تغيّر الآن، حتى أن أنطالقيداس الذي كان وقتذاك واحداً من «الإيغور» هرّب أولاده سِرّاً إلى جزيرة كثيرا Cythera لفرط خوفه.

ولما باشر العدوّ بعبور النهر لمهاجمة المدينة ترك أغيسيلاوس ضواحيها منسحباً إلى قلاعها ومرتفعاتها، وصادف أن فاض نهر يوروتاس وارتفعت مناسيبه ارتفاعاً عظيماً لكثرة ما سقط من الثلوج مما جعل العبور في غاية الصعوبة على الثيبيين، لا بسبب عمق مياهه وحدها بل لموجة البرد القارس بصورة خاصة. وشوهد أثناء ذلك إپامنداس يتقدم الفلانكس، فنبّه أغيسيلاوس فنظر إليه ملياً ولم يفه إلاّ بهذه العبارة: «يا له من رجلٍ مقدام!». وبعد أن بلغ إپامنداس مشارف المدينة وحاول أن يقدم على عملٍ ما

يؤهّله لإقامة نصب تذكاري له هناك، عجز عن حمل أغيسيلاوس على الخروج إليه من مواقعه المحصّنة، فاضطر إلى العودة من حيث أتى، مجتاحاً البلاد وهو في طريقه.

وفي تلك الأثناء تمكنت شراذم من أحطّ المواطنين الذين كانوا يحملون حقداً طويل الأمد من السيطرة على جزءٍ منيع في المدينة يعرف باسم إيسوريون Isorion حيث يقوم معبد ديانا، فاحتلوه وحصّنوه وكان عددهم حوالى مائتين. ورغب السپارطيون أن ينقضّوا عليهم فوراً إلاّ أن أغيسيلاوس الذي كان لا يدري مدى ما ستصل إليه الفتنة من الاتساع طلب منهم أن يتذرّعوا بالصبر. ثم قصد الثائرين بنفسه مرتدياً ثياباً عادية وليس معه إلاّ خادم واحد. وعندما دنا منهم ناداهم قائلاً: «إنكم أخطأتم في تنفيذ الأوامر الملقاة عليكم، وهذا الموضع ليس بالموضع الصحيح». وأخذ يوزّع تعليماته فأشار أن يذهب فريق منهم إلى هنا، وفريق إلى هناك، ودلّهم على موضع آخر من المدينة وثالث وهكذا، فسرّهم موقفه وظنّوا أن الشك لم يساور أحد بعد في خيانتهم وتوجّهوا حالاً إلى المناطق التي دلّهم عليها أغيسيلاوس. فأسرع هذا يضع في المراكز التي تركوها وحدة من حرسه. وبادر إلى القبض على خمسة عشر من رؤوس الثائرين وأعدمهم الحياة ليلاً. إلاّ أن مؤامرة أخرى أخطر من هذه بكثير قام بها بعض السپارطيين وخططوا لأجل القيام بثورة وكانوا يجتمعون سِرّاً في بيوت أعضائها، فتم اكتشافها وكان المدبّرون لها أناساً من الخطر جداً توجيه الاتهام إليهم بصورة علنية وفق أحكام القانون، كذلك كان من الخطورة بمكان التغاضي عنهم. فتشاور أغيسيلاوس مع سائر القضاة (الإيغور) واتفق الجميع على قتلهم في السِرّ دون اللجوء إلى إجراءات المحاكمات، وكان عملاً لم يحصل لأي مواطن مولود في سپارطة من قبل.

في هذا الوقت أيضاً فرّ إلى صفوف العدوّ كثير من الهيلوت وسكان الريف، المنخرطين في صفوف الجيش السپارطي، فكان ذلك سبباً لانتشار حالة الرعب العظيم في المدينة. فأمر أغيسيلاوس بعض ضباطه أن يقوموا قبيل فجر كل يوم بإجراءٍ تفتيش على مضاجع الجنود، وحيثما وجدوا جندياً هارباً أخفوا أسلحته عن العيَن حتى لا يبدو عدد الهاربين كثيراً.

والمؤرّخون على خلاف في الأسباب التي دعت إلى رحيل الثيبيين عن سپارطة. فبعضهم يقول إن الشتاء اضطرهم فضلاً عن تسريح الجنود الأركاديين الذي جعل من الضروري للبقية أن تنسحب. وآخرون يقولون إن الثيبيين مكثوا في البلاد ثلاثة أشهر حتى جعلوها قاعاً صفصفاً وبلقعاً يباباً.

إلاّ أن ثيومپوپوس ينفرد عن غيره من المراجع بالقول: إن القادة البويوسيين قرروا الانسحاب. وفيما هم يهمّون بذلك أقبل عليهم فريخسوس Phrixus السپارطي مبعوثاً عن أغيسيلاوس وعرض عليهم باسمه عشرة تالنتات لقاء رحيلهم، فقبلوا ودفع لهم المال عن عملٍ سبق لهم أن قرروا القيام به. ولست أدري كيف انفرد هذا المؤرّخ بسرد هذه الواقعة وحده دون غيره. على أن المؤرّخين كافةً يتفقون على ما يأتي: إن خلاص سپارطه من الدمار كان بفضل حكمة أغيسيلاوس الذي نبذ وراءه في هذه المحنة العصيبة كل طمع له بالشهرة والعظمة وقرر أن يلعب لعبة الحذر والتوجّس. إلاّ أن كل شجاعة وحكمة فيه لم تكن بكافية لإعادة مجد سپارطة وسؤددها الغابر. وهي في ذلك لا تختلف عن أجسام البشر التي تعوّدت لفترة طويلة من الزمن نظام تغذية دقيقاً معيّناً فأي اختلال جوهري واحدٍ في هذا النظام يكون قاتلاً عادة. وهكذا كان الأمر بسپارطه، فان ضربة واحدة هدمت صرح استقرار الدولة الطويل برمّته. وليس من حقنا أن نعجب لهذا. فإن أغيسيلاوس اتّبع لتحقيق السلام والتوافق في الحياة الصالحة للمواطنين سياسة فُصِّلت وهُندِست بصورة لامطعن فيها. وكان سبب سقوطهم هو امتلاكهم أراضي أجنبية عنهم، وممارستهم سلطاناً، وابتعادهم عن مبادئ العدالة، وهي برأي ليكورغوس أمور غير مستحبة، ولا تصلح لأي دولة سعيدة ذات حكم فاضل.

وتقدمت السنّ بأغيسيلاوس، وشاخ، فترك جانباً كل ما يمتّ إلى الحياة العسكرية بأيّ صلة. إلاّ أن ابنه أرخيداموس تمكن، بالتعاون مع ديونيسيوس صاحب صقلية، من إيقاع هزيمة نكراء بالأركاديين في معركة عُرفت باسم «المعركة التي لم تذرف فيها دمعة». فقد ذُبح من العدوّ عدد كبير، دون أن يُقتَل سپارطي واحد. على أن هذا النصر كشف ضعف سپارطة وقتذاك أكثر مما كشفه أي شيء آخر. فقد كان النصر عند السپارطيين يُعدّ من الأمور الاعتيادية البسيطة، حتى أنهم ما كانوا يقرّبون للآلهة أكثر من ديك واحدٍ لقاء أعظم فوز يحرزونه، ولا ترى الجنود يتبجّحون ولا يظهر على المواطنين فرح عظيم. ففي النصر العظيم الذي حازوه في مانتينيا مما أسهب ثيوكديدس في وصفه لم ينل الرسول الذي جاء بنبأه مكافأة غير قطعة لحم بعث بها الإيغور إليه من المائدة الجماعية. وفي هذا النصر الأخير كادوا يخرجون عن طورهم عند ورود نبأه. وخرج أغيسيلاوس يشارك في الموكب الديني ودموع الفرح تجول في عينيه للقاء ابنه وعناقه. وحضر معه كل القضاة والموظفين العمومين. وخرج الشيوخ والنساء حتى نهر يوروتاس رافعين أيدي الشكر للآلهة. لأن سپارطة غسلت عنها العار والمذلة وعادت

ثانية لترى نور النهار. فقد قيل لنا إن رجال سپارطة كانوا لا يجسرون حتى على النظر في أوجه نسوانهم خجلاً لما لحق بهم من العار.

وعندما أقدم إپامنينداس على تجديد إعمار مسينين Messene ودعا سكانها المشرّدين في أطراف المعمورة إلى العودة لسكناها، عجز السپارطيون عن إحباط عمله إذ لم يكونوا في وضع يستطيعون معه مواجهتهم في ساحة القتال. إلاّ أن السپارطيين حفظوا على أغيسيلاوس حين رأوا مساحة من الأرض مساوية لمساحة بلادهم من أخصب بلاد اليونان كانوا قد تمتّعوا بخيراتها زمناً طويلاً تُنتزع منهم قهراً في عهده، لأنه نقض العهد مع الثيبيين وأبى إلا حربهم عندما عرضوا عليه السلم مفضّلاً ذلك على التخلي عنها، مع أنها كانت قد نُزعت منه قسراً في الواقع. إن المحافظة على الشرف والكرامة كلفتاه غالياً. إذ لم يمرّ طويل زمن حتى كاد يُغلب بحيلة كانت ستكلّفه ضياع سپارطه. فقد عاد أهل مانتينيا يشقّون عصا الطاعة على الثيبيين وينحازون إلى السپارطيين. وعلم إپامنينداس أن أغيسيلاوس سائر إلى معونتهم بجيش جرّار، فترك مواضعه في تيجيا وتسلّل سِرّاً تحت جنح الظلام قريباً من أغيسيلاوس دون أن يحسّ به المانتينيون، فتوجّه نحو سپارطة ولم يكن بينه وبين الاستيلاء عليها وهي خالية لا حامية فيها إلاّ خطوة واحدة.

يقول كاللستينس إن يوثينس Euthynus التسپي أبلغ أغيسيلاوس بالأمر، إلاّ أن گزينفون يقول إن المخبر هو كريتيّ. فما كان من أغيسيلاوس إلاّ أن أسرع فوراً بإرسال فارس خيّال إلى لقيديمون لإنذارهم وإبلاغهم بأنه قد خفّ إلى نجدتهم، وبعد وصوله المدينة بوقت وجيز عبر الثيبيون نهر يوروتاس وقاموا بهجوم على المدينة فتصدّى لهم أغيسيلاوس بجرأة عظيمة باذلاً جهداً يفوق ما ينتظر من شيخوخته. إذ إنه لم يعد الآن يقاتل بذلك الحذر والمكر اللذين طالما أحسن استخدامها، وإنما وضع كلّ أمله في هجوم يائس لم يكن قط أسلوبه عادةً. إلاّ أنه نجح فيه نجاحاً باهراً وأنقذ المدينة من يد إپامنينداس التي كانت تطبق عليها وأرغمه على الانسحاب. وأقام نصباً تذكارياً. وأمكنه عند ذلك أن يعلن بمحضر من زوجات السپارطيين وأولادهم أن اللقيديميين قد دفعوا بشرفٍ ونبلٍ دَينهم لبلادهم. ولاسيما ابنه أرخيداموس الذي ارتفع مقامه في ذلك اليوم بالشجاعة التي أبداها وبمرونة جسمه إذ كان يمرق بسرعة خاطفة مجتازاً الأروقة الضيقة للوصول إلى كلّ موضع من المدينة يحفّ به الخطر مدافعاً بشدة وليس معه إلاّ القليل من الرجال.

على أن إيسيداس Isidad ابن فيوبيداس كان في رأيي محطّ إعجاب العدوّ فضلاً

عن الصديق. كان فتىً رائع الجمال ممشوق القوام في عنفوان شبابه وريعانه، حيث بلغ أو كاد مبلغ الرجال. قاتل دون أن يكون عليه درع أو ثياب تقريباً. فقد كان يدهن جسمه بالزيت عندما نُودي للقتال، فلم يتريّث وهو يكاد يكون عارياً، بل اختطفت يده رمحاً وانتضت يده الأخرى سيفاً، وانطلق يشقّ طريقاً له بين المقاتلين إلى الأعداء وهو يطاعن كل من يصادفه منهم ولم يُصب بخدش. سواء أعزي هذا الأمر إلى العناية الإلهية التي كلأته بنوع خاص فكافأته على ما أبداه من شجاعة بحمايته بمعجزة من لدنها، أو لأن شكله الرائع الجميل، بزيّه غير الاعتيادي الذي أوهم الأعداء به فظنّوه مخلوقاً من غير البشر. وأنعم عليه الإيغور بإكليل غارٍ ما إن قلّدوه إياه حتى فرضوا عليه غرامة قدرها ألف دراخما لخروجه إلى المعركة من دون دروع.

بعد أيام قليلة على هذا القتال وقعت معركة أخرى بالقرب من مانتينيا. كسر فيها إپامنداس طلائع اللقيديميين، وجدّ في مطاردتهم، فتربّص به أنتيگراتس اللاقوني وأصابه بطعنة رمح على حَدّ قول ديوستوريدس. إلاّ أن السپارطيين إلى يومنا هذا يسمّون نسل أنتيگراتس بالسيّافين لأن الطعنة كانت بالسيف لا بالرمح.

لقد بلغ خوف السپارطيين من إپامنداس مبلغاً عظيماً في حياته، بحيث كان قاتله موضع إعجاب الجميع. وقد انثالت عليه ضروب التكريم وأُمطر بالهِبات. وصدر مرسوم بإعفائه وإعفاء نسله من الضرائب. وهذا الامتياز يتمتّع به في يومنا هذا المدعوّ كالليكراتس Callicrates أحد أحفاده.

بعد سقوط إپامنداس قتيلاً عُقد صلح عام ثانية، إلاّ أن حزب أغيسيلاوس استثنى منه المسينيين بحجة أنهم لا يملكون مدينة خاصّة بهم، ولم يدعوهم يؤدّون يمين العصبة. ولما قرّر بقية الإغريق قبولهم في العصبة خرج اللقيديميون منها وواصلوا الحرب وحدهم مستهدفين إخضاع المسينيين. وأظهرت هذه المناسبة أغيسيلاوس إنساناً صلب الرأي عنيداً لا يرتوي من الحرب. أقدم على فِعلته هذه لينسف السلام العامّ ويمدّ من أجل الحرب وهو خالي الوفاض لا يملك من المال ما يكفي للإنفاق عليها، حتى أنه اضطر إلى الاستدانة من أصدقائه، وجمع المال بالتبرّعات والاكتتاب ملاقياً في ذلك مصاعب عظيمة، وفي الوقت الذي كانت بلاده أحوج إلى الاستقرار والراحة أكثر من أي شيء آخر. كلّ ذلك لاسترجاع بلدة مسيني الفقيرة الصغيرة لا غير بعد أن فقد تلك الإمبراطورية الواسعة الأرجاء في البر والبحر، التي كانت بيد السپارطيين في بداية ملكه.

وكان أسوأ ما لحق سمعته هو وضع نفسه في خدمة تاخوس Tachos المصري.

إذ لم يكن يليق قط برجل في مثل مركزه الرفيع، يُنظر إليه كأول قائد في كل بلاد الإغريق بشهرته التي طبقت الآفاق، أن ينزل إلى مستوى المحارب الأجير عند بربريّ مصري ثائر (لم يكن تاخوس أكثر من هذا)، وأن يرضى بمنزلة قائدٍ لوحدات من المرتزقة المأجورين. حتى قيل عنه: لو أنه اضطلع مثلاً بمهمة تحرير الإغريق من نير الفرس مرة أخرى وهو في عمره هذا الذي زاد عن الثمانين وجسده الذي أبلته الشيخوخة وأوهنته الجراح، لما خلص من النقد واللوم. لأنك إن أردت أن يكون عملك شريف المنحى فمن الضروري أن يناسب سِنّك ويتّفق مع كل الظروف الخاصّة الأخرى. لأن الظرف والميزان الصائب هو الذي يمنح العمل صفته الحقيقية ويجعله صالحاً أو طالحاً. إلاّ أن أغيسيلاوس لم يكن يلقي بالاً على مقولات الناس، ولا يرى في أية خدمة عامة مهما كانت ما يخلّ بالشرف والكرامة. وهو يعتقد أن النقيصة الكبرى هي أن يجلس المرء خاملاً عاطلاً في عُقر داره لا يفعل شيئاً غير انتظاره الموت يأتي ليقبض روحه. لذلك نجده ينفق ما تسلّم من تاخوس على تجنيد الرجال للحملة ليعبّئهم في سفنه مبحراً إلى مصر، بصحبة ثلاثين من المستشارين السپارطيين، مثلما فعل عند مباشرته الحملة في آسيا.

وما إن بلغ مصر حتى خفّ عظماء المملكة وقوّادها لاستقباله وتهنئته عند نزوله البر. فقد أنعشت سمعته الداوية آمال تلك البلاد، وتقاطرت الجماهير الغفيرة لإلقاء نظرةٍ عليه، لكنهم لم يشاهدوا الأمير ذا الجلال الذي صوّره لهم خيالهم، وإنما قابلهم شيخ ضئيل الجسم ذو مظهر زريّ، يستلقي على العشب بكلّ بساطة ويرتدي ثياباً خشنة مهلهلة. فطفقوا يضحكون عليه ولم يتمالكوا من الهزء به وهتفوا قائلين: لقد صدق به المثل السائر العتيق «تمخّض الجبل فولد فأراً». وكانوا أكثر دهشة لما ظنوه حُمقاً منه، فعندما قُدّمت إليه الهدايا من مختلف أنواع الأرزاق اختار منها العجول والأوزّ والذرة، وردّ الحلوى، والمسكرات والعطور. فألحّوا عليه في قبولها فأخذها ودفع بها إلى الهيلوت الذين كانوا في جيشه. إلا أنه كما قال ثيوفراستوس أُغرم بالقلائد التي كانوا يضعونها من البردي لبساطتها، وطلب واحدة من الملك عند عودته وصحبها معه.

وخاب أمله في تولّي القيادة العامة عند لقائه بتاخوس فقد احتفظ هذا بالمنصب لنفسه، جاعلاً أغيسيلاوس قائداً للمرتزقة فحسب وخبرياس Chabrias الأثيني قائداً للأسطول. فكان أول الأسباب التي أثارت سخطه، وقد تبعته أسباب أخرى. إذ كان مرغماً على الخضوع يوماً بعد آخر لعجرفة المصريّ وغطرسته. وأُرغم بالأخير على أن يقف بخدمته في فينيقيا بشكل يحطّ من قدره وشخصيته. وتجمّل أغيسيلاوس وتحمّل

صابراً حتى سنحت فرصته لإظهار مشاعره بما فعله نكتنابس Nectanabis ابن عم تاخوس وكان يقود وحدة كبيرة من الجنود تحت إمرته. فقد فرّ إلى مصر حيث أعلنه المصريون ملكاً بعد فترة وجيزة فكتب إلى أغيسيلاوس يدعوه إلى صفّه، وبعث بدعوة مثلها إلى خبرياس واعداً اياهما بهبات وعطايا جسيمة. وداخل تاخوس الشك فيما يحصل، فذهب بنفسه إلى أغيسيلاوس وخبرياس بكلّ تواضع وأخذ يتوسّل إليهما أن يبقيا صديقين له. فحبّذ خبرياس ذلك وراح يبذل ما أمكنه من جهود بالإقناع ورقيق الكلام ليظل أغيسيلاوس معه. فأجابه هذا بالجواب المقتضب الآتي:

- أنت يا خبرياس جئت إلى هنا متطوّعاً ولست مجبراً على البقاء أو العودة فالأمر متروك لك. إلاّ أني خادم لسپارطة. عُيّنتُ لأقود المصريين ولذلك لايمكنني الحرب ضد من بُعثت إليه كصديق. إلاّ إذا وردني أمر بذلك من بلدي.

ثم إنه أرسل رسلاً إلى سپارطة بعد أن زوّدهم بمعلومات كافية عن الوضع، ضمّنها شكوكه من تاخوس، وثقته بنكتنابس. كذلك أرسل المصريان كلّ من لدنه وفداً إلى اللقيديميين أحدهما يطلب الاستمرار في تطبيق اتفاقية التحالف المعقودة سابقاً، والآخر يقدّم عروضاً في منتهى السخاء مقابل فسخ الحلف الحالي وعقد آخر جديد. واستمع السپارطيون إلى الوفدين. وأعطيا جواباً علنياً مفاده أنهم يودعون الأمر كله إلى أغيسيلاوس وأرسلوا قرارهم السرّي إليه يطلبون منه أن يُقدم على كل ما يراه في مصلحة الجمهورية. وما إن بلغه القرار حتى ترك جانب تاخوس وانحاز إلى خصمه ومعه كلّ مرتزقته. وبذلك ستر مسلكاً تحوم حوله الشبهة بادّعاء ظاهري معقول وهو العمل لمصلحة بلاده. ولو جُرّد هذا الفعل من مظهره التنكري لما بدا في الواقع إلاّ خيانة قذرة. إلاّ أن اللقيديميين الذين جعلوا العمل لخدمة بلادهم مبدأهم الأول لا يعرفون مقياساً لما هو عادل أو غير عادل خلافاً لهذا المبدأ.

بعد مغادرة المرتزقة جيش تاخوس فرّ هارباً. وعلى أثر ذلك أقيم في مكانه ملك جديد لإقليم المنديسيين Mendesian فتقدّم هذا لقتال نكتنابس بجيش يبلغ تعداده مائة ألفٍ. وقد علّق نكتنابس على هذا الجيش في حديث له مع أغيسيلاوس مبدياً استهانته بهم بقوله إنهم جنود مستجدّون لا خبرة سابقة لهم في الحرب وإن كانوا كثيري العدد فمعظمهم من الصنّاع وأرباب الحِرف لم ينشأوا نشأة عسكرية.

فأجاب أغيسيلاوس بقوله إنه لا يخشى عددهم بل يخشى جهلهم القتال، لأنه لا يدع له فرصة في استخدام المناورة والحيلة معهم، فهذا لا ينفع إلاّ إزاء رجال يخامرهم الشك يعرّضون أنفسهم لخصمهم بمحاولاتهم الدفاعية، لكونهم يتوقعون الهجوم. أمّا

من لايخامره الشك والتوجّس لأي أمر فهو قلّما يمنح فرصة لعدوّه، كالمصارع فإنه لا ينال فتيلاً ممن يقف أمامه جامداً لا يأتي بحركة. ولم يكن المنديسي بحاجة إلى استقراء تدابير أغيسيلاوس إلى الحَدّ الذي أصبح معه نكتنابس كثير الشك. لكن أغيسيلاوس عاد يشير عليه بالاشتباك مع العدوّ في الحال، قائلاً: من الحماقة إرجاء المعركة والركون إلى عامل الوقت في حربٍ مع رجال لا خبرة لهم في خوض المعارك يمنحهم تفوّقهم العددي قابلية تطويقه وقطع خطوط مواصلات جيشه بحفر الخنادق، ويحرزون عليهم قصب السبق في كلّ الأمور المفيدة لإدارة الحرب. فكان هذا مما زاد من مخاوف نكتنابس وشكوكه، واختار سبيلاً يخالف رأي أغيسيلاوس تماماً، إذ انسحب إلى مدينة كبيرة منيعة الحصون. وقد آلم أغيسيلاوس أن يكون موضع شكٍ إلى هذه الدرجة وامتلأ حنقاً، إلاّ أنه خجل من الانحياز مرة أخرى إلى الطرف الآخر، أو العودة إلى وطنه دون أن يحقق هدفاً، واضطر إلى اللحاق بنكتنابس إلى داخل المدينة.

وبلغ العدوّ ضواحي المدينة، وشرع بتنظيم خطوطه حولها وبحفر الخنادق. وعند ذاك قرّر المصري دخول المعركة خوفاً من ضرب الحصار حوله. وكان هذا ما يتمنّاه الإغريق، لأن نقص الأرزاق في المدينة بات ملحوظاً. ولكن أغيسيلاوس عارض في الأمر، فزاد شكّ المصريين فيه، وأخذوا ينعتونه بخائن الملك. إلاّ أن أغيسيلاوس تحمّل ذلك الملام بصبر، لأنه كان من صميم قلبه راضياً عن هذا التحوّل، وقد أسرّ في نفسه خطةً أعدّها للإيقاع بالعدوّ ونفّذها فيما بعد.

كان العدوّ منشغلاً بحفر خندقٍ عميق وبناء جدارٍ مرتفع، متوخّياً بذلك ضرب الحصار على قوات المدينة لتجويعها. وبعد أن أتمّ العدوّ الدوران بالخندق حول المدينة إلاّ مسافة قصيرة لالتقاء الرأسين، استعّد أغيسيلاوس برجاله ليلاً وألبسهم كامل سلاحهم وأقبل على الملك المصري وقال له:

- أيها الشاب، هذه هي فرصتك الوحيدة لإنقاذ نفسك. وهي فرصة لم أبح بها لأحد لئلا تنكشف وتُحبط. إن العدوّ بعمله، وبمجهود من رجاله، قد زوّدنا بما يكفل نجاحنا. فها هو قد بنى جداراً يحول بينه وبين الإحاطة بنا بجموعه الغفيرة في حين أنّ الثغرة التي بقيت ناقصة في سوار الخندق ستكفينا لشنّ هجومنا عليهم من خلالها. فكن رجلاً واتّبع المثل الذي سيضربه لك الإغريق، فبقتالك بشجاعة ستحقق الخلاص لنفسك ولرجالك. فإنّ جبهة العدوّ لن تقوى على الصمود أمام هجماتنا، كما أننا آمنون من خطر مؤخّرته بسبب الجدار الذي شيّدوه بأنفسهم.

فلم يتمالك نكتنابس من الإعجاب بدهاء أغيسيلاوس وحِنكته ووضعه نفسه في

الحال وسط مقاتلي الإغريق، ودخل المعركة معهم. فأوقعوا الهزيمة بالعدوّ في أول هجمة. فعادت ثقة الملك بأغيسيلاوس وراح يكرر الخطّة مرةً أخرى كما يعمد إليه المصارعون من الحيل: يتظاهر أحياناً بالانسحاب، ويهجم أحياناً على الأجنحة حتى جرّهم إلى موضع بين خندقين عميقين جداً ممتلئين بالماء. وما إن احتواهم الموضع حتى هاجمهم جاعلاً جبهة قتاله مساوية لعرض الفسحة التي هي بين الخندقين. وبهذا أمِنَ تماماً خطر الإحاطة بهم لكونهم محصورين من الجهتين ولم يُبدوا مقاومة كبيرة، وسقط منهم الكثير ولاذ الباقون بالفرار وتفرّقوا أيدي سبأ.

وهكذا تم توطيد دعائم حكم نكتنابس. وعزم على أغيسيلاوس بكلّ رغبة ومحبة أن يقضي شتاءه في مصر لكن أغيسيلاوس استعجل العودة للمشاركة في حروب بلاده. إذ كان يعلم أنها بحاجة إلى المال وأنها مضطرة إلى استئجار مرتزقة، في حين يقاتل رجالها في الخارج. فودّعه الملك توديعاً حافلاً بالإكرام والتبجيل. ومما قدّم له من هدايا مائتا تالنتٍ من الفضة تداركاً لمصاريف الحرب. إلاّ أن سفنه عجزت عن مغادرة الساحل بسبب هياج البحر، وأخذت تجري بمحاذاة الساحل الأفريقي حتى بلغت بقعة خالية من البشر تدعى «مرفأ فيبلاوس». وفيما كانت سفنه تهّم بالرسوّ وافاه الأجل. وكان له من العمر أربعة وثمانون عاماً، منها ٤١ حكم خلالها لقيديمون، وقضى ثلاثين منها وهو أعظم وأقوى رجل في كل بلاد الإغريق. بل كان يعتبر بصورة ما قائدها الأكبر وملكها، إلى أن هُزم في معركة ليوكترا.

كان من عادة السپارطيين أن يدفنوا مواطنيهم العاديين حيثما يوافيهم الأجل مهما كانت البلاد. إلاّ أنهم كانوا يحملون جثمان ملوكهم الذين يموتون في دار الغربة إلى الوطن. ولما كان جنود أغيسيلاوس يُعوِزهم العسل فقد حنّطوا جثمانه بالشمع وهكذا نقلوه إلى لقيديمون.

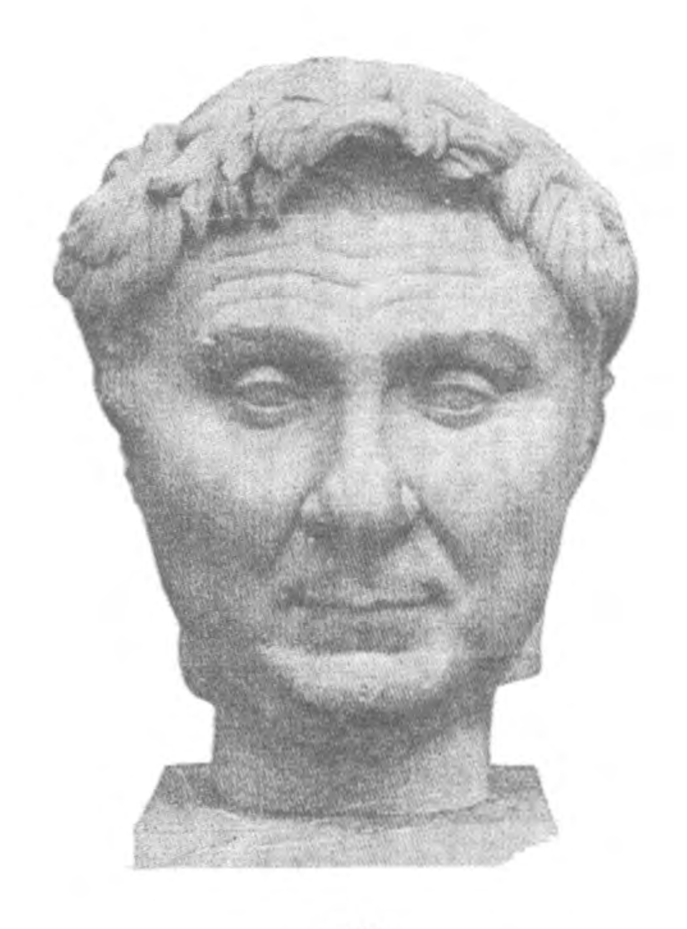
وخلفه في العرش ابنه أرخيداموس. وتعاقب نسله ملوكاً حتى أغيس وهو الخامس من نسله، وقُتل على يد ليونيداس أثناء محاولته إعادة سلطة سپارطة القديمة.

پومپي

POMPEY

(Gnaeus Pompius Magnus)

۱۰٦–٤٨ ق.م



پومپي

يبدو أن أهل روما خصّوا بومبي منذ نعومة أظفاره بتلك المحبة التي عبّر عنها پرميثيوس لهرقل في مأساة أسخيلوس واصفاً إياه بصاحب الفضل في نجاته بالبيت الآتي:

«آه يا مولاي القاسي، ما أعزّ ابنك على قلبي إنه النسل الكريم لعدوي!».

من ناحية لم يعبّر الرومان عن كراهيتهم لأيّ جنرال من جنرالاتهم بالعنف والشدّة اللذين عبّروا بهما عن كراهيتهم لسترابو Strabo والد بومبي. والحق يقال إنهم كانوا يتهيّبون سلطانه وقوّته العسكرية في حال حياته، لأنه كان محارباً صنديداً. ولكنهم احتقروا اسمه وذكراه بعد أن مات غاية الاحتقار. وكانت صاعقة قد انقضّت عليه فقتلته، فجرّوا جثمانه من النعش جرّاً عند تشييع جنازته وسحلوه.

ومن الناحية الثانية لم يضاهِ أحدٌ من الرومان بومبي في حبّ الخير للشعب والتعلّق به خلال كلّ تقلّبات الحظّ، ولا كان أحد في ذلك أسبق منه في أول ظهوره أو في ارتفاعه المطّرد مع ازدهاره، أو أكثر صدقاً في أثناء مِحنه. وكان سبب كراهيتهم سترابو الأكبر هو جشعه الذي لم يعرف حداً.

وأما بالنسبة إلى بومبي فكانت ثمّ أسباب كثيرة لمحبّة الرومان له، منها أخلاقه وألمعيّته ومآثره الحربية ورجاحة عقله وطلاقة لسانه وطلاوة حديثه وطيب مجلسه. وكان أرقّ الناس عندما يُسأل فضلاً وألطفهم إذا وهب شيئاً، فإن أعطى لا يفخر، وإن أخذ فبكرامة ووقار.

وكان جمال صورته في شبابه شفيعه. ويظهر أن هذه الصفة سبقت طلاوة لسانه إلى القلوب. فكانت تهفو إليه وتقع في حبّه قبل أن ينبس بنبت شفة. ولوحظ في جمال صورته حتى في عزّ شبابه مزيج من الهيبة والرقّة. ولما بلغ عنفوان الرجولة ونهاية نضوجها باتت مهابة أخلاقه وجلالها طابعه المميّز. وكان شعر رأسه متموّجاً أو مرتفعاً بعض الشيء حتى ليبدو بحركة عينيه الفاترتين أشبه وجهاً بتماثيل الملك

الإسكندر ولعل كثرة الحديث حول هذا الشبه كان أكثر من الشبه في الواقع. ولصق هذا اللقب به في عهد الشباب. ولم يبد منه نفرةً، حتى بات بعضهم يلقّبه به سخرية واستهزاء. ولما كان لوشيوس فيلپوس Lucius Philippus يبثّ له الدعوة السياسية لم يتحرّج قط في القول «لن يعجب الناس إذا أحبّ فيلپّوس الإسكندر»!

وذكروا عن فلورا Flora العاهرة أنها - وقد تقدّمت بها السنّ - كانت تصيب غاية السرور واللذة من التحدث عن علاقتها الأولى بپومپي. وكانت قد تعوّدت القول إنها لم تفترق عنه مرة واحدةٍ بعد وصالٍ إلاّ نالهُ منها غصّة. وتسترسل قائلة إن جمينيوس Ceminius وهو من خلصاء پومپي علِق بحبها واشتدّ إلحاحاً في مراودتها، فرفضت بقولها له: مهما كانت ميولها فإنها لا تستطيع إرضاء رغبته بسبب پومپي. فتقدّم راجياً پومپي فلم يُبدِ أية ممانعة من أن يقضي صديقه لبانته منها، ومنذ ذلك الحين قطع ما بينهما ولم يكلّمها قط رغم أنه كان شديد الكلف بها كما يبدو. ولم يبدُ من فلورا نفسها الطيش المتوقّع من أمثالها، وإنما اعتلّت صحّتها فترة من الزمن بسبب الحزن والرغبة. وقيل لنا أيضاً إن فلورا كانت ذات جمال أخّاذ اشتهرت به حتى أن كايسللوس ميتللوس Caecillus Mettelus، عندما زيّن هيكل كاستور وپوللوكس بالتصاوير والتماثيل، كانت تماثيل هذه الغانية وتصاويرها الفريدة الجمال من جُملة ما أضافه إلى الهيكل.

ولم يكن سلوك امرأة عبده المحرّر ديمتريوس بالسلوك الذي يتفق مع خلقه الاعتيادي، فلا عدل فيه ولا كرم (كان هذا الخادم مقرّباً إليه جداً في حياته حتى أنه أوصى له بأربعة آلاف تالنت) ولعلّه خشي أن يتعرّض للاستهجان والتأنيب العام بأنه وقع في حبها لفتنتها التي لا تقاوم ولئلا يشتهر أمره معها فيصبح مضغة في الأفواه. وعلى أية حال فمع ما كان يبدو عليه من الحذر والاحتراس لم يفلح في اجتناب أقاويل الناس وافتراءات الأعداء عليه حتى في المسائل التي لا تجافي طبع الإنسان. وقد اتهموه بالنسوة المتزوّجات. وقالوا بأنه قد تستّر على أمور كثيرة، واختلس من الأموال العامة ليرضي إسرافهنّ.

وأمّا عن بساطته ومتانة خُلقه، ممّا يتعلّق بخصوص الأكل والشرب، فتروى حكاية مؤداها أنه اعتلّ وكانت معِدته تتقيّأ اللحوم المعروفة فوصف له طبيبه لحم طائر السُّمانَى. ولم يكن لهذا الصنف وجود في السوق لأن موسمه لم يحلّ. فقيل له ان لوكوللوس يربّيها وهي متوفّرة لديه على مدار السنة. فقال:

- إذن فقد كان پومپي سيموت لولا ترف لوكوللوس؟

ثم إنه لم يعمل بوصفة الطبيب. وعالج نفسه بنوع آخر من اللحم متوفّر، إلاّ أن ذلك كان في زمن متأخّر.

وكان وهو فتى في حملةٍ عسكرية يقودها أبوه ضدّ «سينّا». وكان رفيقه وصاحبه في الخيمة شخص يدعي لوشيوس ترنتيوس Lucius Terentius استدرجه سينّا إلى الخيانة واتفق معه على الفتك بزميله پومپي، كما اتفق مع آخرين على إشعال النار في خيمة الجنرال. وقد وقف پومپي على الدسيسة وقت العشاء، فلم يظهر عليه شيء من القلق، وإنما شرب أكثر من عادته وأظهر لترنتيوس كثيراً من الانعطاف والتودّد. ثم تظاهر بالذهاب إلى فراشه لكنه انسلّ إلى الخارج سِرّاً وقام بوضع ديدبان على خيمة أبيه وركن هو ينتظر بهدوءٍ. وعندما ظنّ ترنتيوس أن الساعة المناسبة قد أزفت نهض مجرّداً سيفه وأهوى بعدة طعنات على فراش پومپي اخترقته فظنّ أنه قضى عليه. وفي الحال قامت ضجة هائلة في المعسكر، متأتّية من بغض الجنود للجنرال، كما ظهرت بوادر تمرّد عام في الجيش حيث مزّق الجنود الخيام وجرّدوا أسلحتهم. وكان الجنرال قابعاً في خيمته لا يجرؤ على الخروج بسبب التمرّد. إلاّ أن پومپي توسّطهم وأخذ يرجوهم بأعين دامعة، ثم قذف بنفسه منبطحاً ووجهه في التراب، أمام مدخل المعسكر. وظلّ معرّضاً لوطء أقدامهم يبكي متوسّلاً إلى مَن يريد ترك المعسكر أن يدوسوه إن شاؤوا الخروج. فلم يروا بُدّاً من العودة إلى أماكنهم. وأعلن الجميع، عدا ثمانمائة منهم، ندمهم خجلاً أو لغلبة العاطفة عليهم وتصالحوا مع الجنرال.

ما إن وسِّد سترابو التراب حتى رُفِعت دعوى على پومپي بصفته وارثاً لتركة أبيه، بزعم أن أباه كان قد اختلس أموالاً من الخزينة العامة. إلاّ أن پومپي تعقّب القضية بجدّ متواصل وتمّ تعيين المختلسين الرئيسين. واتّهم أحدهم إسكندر وهو عبد من عبيد أبيه المحرّرين وأثبت للقضاة أنه المختلس الحقيقي. إلاّ أنه اتُّهم شخصياً بأن في حَوزته عُدد صيدٍ وبعض كتبٍ كانت من جملة غنائم أسكلوم Asculum فأقرّ بأنها لديه وقد نسيها، مدّعياً أنه تسلّمها من أبيه عند احتلاله أسكلوم، كما ادّعى أيضاً أنه فقدها عند عودة سينّا إلى روما واقتحام حرسه البيت ونهبه. وألقى في هذه الدعوى عدّة مرافعات تمهيدية قويّة ضدّ من اتهمه أظهر فيها حنكة ومقدرة لا تناسب سِنّه. ونال سُمعة وتقديراً حتى أنّ أنتستيوس Antistius البريتور والقاضي في الدعوى مال إليه كثيراً، وعرض أن يزوّجه ابنته باتصاله بأصدقاء له حول الموضوع، فقبل پومپي مصاهرته وعُقِد العقد سِرّاً. على أن السِرّ لم يبق مكتوماً بصورة مطلقة عن الناس، بل كان مما يمكن التوصّل إليه والتحسّس به من التفضيل الذي خصّه به أنتستيوس بصدد الدعوى. وأخيراً عندما نطق

أنتستيوس بقرار البراءة الذي أصدره الحكام صاح الناس، كمن يتظرون إشارة فأعطيت لهم، تلك الصيحة التي تُستخدم تطبيقاً للعادة القديمة في الزواج: «تالاسيو!».

يقال إن الأصل في هذه العادة هو ما جرى بين الرومان والسابين. فقد أقبلت فتيات السابين إلى روما لمشاهدة الألعاب والتمثيل فيها، فانتهز أشجع رجال الرومان الفرصة وقاموا يخطفهن واتخذوهنّ زوجاتٍ. واتفق أن بعض رعاة المواشي والماعز من الطبقة الدنيا خطفوا فتاةً جميلة الوجه طويلة القامة. وخوفاً من أن يعترضهم رجال أعلى منهم مركزاً ويأخذوها منهم طفقوا يصيحون وهم يركضون «الى تالاسيو» ذلك لأن تالاسيوس كان رجلاً معروفاً ومحبوباً بين الرومان، فكان كل من سمع هتافهم يصفّق مغتبطاً ويشاركهم في الهتاف مستحسناً نصيب الرجل مهنّئاً. وقيل إن هذه الصدفة أعقبت زواجاً سعيداً لتالاسيوس فقد استخدم في يوم الزفاف. وأصبح تقليداً. وهذه الرواية هي أوثق الروايات عن مصدر التقليد المعروف.

وبعد مرور أيام قلائل على صدور القرار تزوج پومپي أنتيستيا.

ثم إن پومپي قصد معسكر سِنّا فوجد الأقاويل والشائعات تدور حول اسمه. فبدأ الخوف يتملّكه وأسرع ينسحب سِراً من المعسكر، فأولد اختفاؤه المفاجئ شكوكاً عظيمة حول مصيره. وسرت اشاعات وهمسات في المعسكر تفيد بأن سِنّا اغتال الشاب. وقد اجتمع هذا مع سائر الأسباب الأخرى التي حفظها الرجال على سِنّا فقرروا مهاجمته وقتله، فحاول الفرار، إلاّ أن سنتوريوناً لحق به مجرّداً سيفه حتى ادركه. فجثا سِنّا على قدميه مستعطفاً وعرض على قاتله الخاتم الذي يختم به أوراقه الرسمية - وكان كبير القيمة - ليفتدي به نفسه إلاّ أن السنتوريون أسكته بوقاحة، بقوله:

- إني لم أجئ لأختم اتفاقاً، بل لأنتقم من طاغية عاصٍ خبيث.

وقضى على سِنّا في الحال.

وبقتله على هذه الصورة خلفه كاربو في القيادة، وهو طاغية آخر يفوقه شراسة واستهتاراً، وأخذ يمارس أساليب سلفه. وفي الوقت نفسه كان سِلّلا يتقدم منه، وسط استبشار أغلبية الشعب وفرحهم. وكانوا في محنتهم يبحثون عن سلوى وإن كانت لا تزيد عن استبدال سيدٍ بآخر. وقد بلغ الاضطهاد والجور والمآسي بأهل المدينة إلى حَدّ اليأس المطلق من نَيل الحرّية وبات الناس يتوقون إلى أخفّ أنواع العبودية إن لم يكن من العبودية بدّ. وكان پومپي آنذاك في پشنيوم Picenum من أعمال إيطاليا يقضي وقتاً في الاستجمام واللهو ومباهج الحياة إذ كان يملك ضياعاً ومزارع في الريف هناك. وقد دفعه إلى البقاء حبّه لذلك الإقليم وتعلّق سكّانه به ذلك التعلّق الذي كان فيهم عاطفة

موروثة، حيث طفِقوا يُظهرون له أسمى مشاعر العطف والوداد. ولقد رأى أشراف الناس وأخيارهم في المدينة يتركون منازلهم وأملاكهم، ويتسابقون إلى معسكر سيلّلا كأنما يتسابقون إلى الملجأ الأمين، فتملكته الرغبة في فعل فعلهم، ولكن ليس كمستجير أو لاجئ طريد لا شيء لديه يقدّمه، بل كصديقٍ ومعين وبهيئة تكسب له التقدير والمكانة. واعتزم أن يسير إليه على رأس وحدة من الجنود. وفاتح أهل پشنيوم بالأمر وتداول معهم وطلب المعونة منهم على تحقيق ما اعتزمه فسارعوا إلى تأييد فكرته بكل طيب خاطر. وأعادوا رسل كاربو إليهم خائبين. وكانت حماستهم لقراره شديدة بحيث إن رجلاً يدعى ڤنديوس Vindius انبرى يسخر بپومپي قائلاً إنه خرج توّاً من الصف في المدرسة ليضع نفسه على رأس الجماهير، فحنقوا عليه حتى أنهم انقضّوا عليه وقتلوه.

ووجد پومپي منذ تلك اللحظة الرغبة في الحكم والسلطان تتملّكه وتأخذ عليه المذاهب وهو بعد فتى لم يتخط الثالثة والعشرين. ولذلك بادر إلى تقليد نفسه السلطة الكاملة دون أن يستمدّها من أحد أو من أي واجب كُلّف به. فأمر بإنشاء محكمة في ساحة اوكسيموم Auximum وهي مدينة مكتظّة بالسكان. ثم طرد أخوين من رؤساء المدينة ينتميان إلى أسرة ڤنتديوس Ventidius كانا يعملان ضده لمصلحة كاربو واستصدر بحقهما قراراً عاماً بمغادرة المدينة. وبعد هذا شرع في تجنيد المتطوّعين وأخذ يصدر ويوزّع الواجبات لقوّاد المائة وغيرهم من الضبّاط على حسب النظام العسكري وانضباطه. وقام بجولة في كلّ مدن الإقليم الأخرى وهو على هذه الصورة. ففرّ من أمام وجهه كلّ الموالين لكاربو وخضع الباقون لأوامره. وما مرّ وقت وجيز إلاّ وأصبح جيشه مؤلّفاً من فرقٍ ثلاث كاملة العُدّة والعدد. وتزوّد بكل ما يحتاج إليه من الأرزاق ومواد الإعاشة وبحيوانات الحمل والعجلات وغير ذلك من مهمّات الحرب، وانطلق بعدته هذه قاصداً سيلّلا، لا كالمستعجل الوجِل أو المتلصّص الذي يخشى أن ينكشف أمره، بل كان يسير بمراحل قصيرة، ويتوقف كثيراً في الطريق، ليحطمّ ثقة العدوّ بنفسه، ويشيع القلق فيه. وكان يعمل على فصل كلّ جزءٍ من إيطاليا يمرّ به عن إدارة كاربو وحكمه.

وهاجمه دفعةً ثلاثة قوّادٍ للعدوّ وهم كارينّا Carinna وكليوليوس Cleolius وبروتوس Brutus وواجهوه بقواتهم، لا بصفوف المعركة تماماً ولا متكتّلين معاً، بل عسكروا بجيوشهم الثلاثة على هيئة دائرة حول پومپي يريدون الإحاطة به والتغلب عليه بالحصار. إلاّ أن پومپي لم يداخله القلق من تلك المناورة. بل جمع جنوده كتلة

واحدة. ووضع الخيّالة في المقدمة وقادها بنفسه، موجّهاً كلّ هجومه على قوات بروتوس. فلمّا كرّت عليه خيّالة الكلتيين، التحم بشخصه مع أبرزهم، وكان أضخم الجميع، في قتال فردي، وأرداه بطعنة من رمحه. فلمّا شاهد الباقون ما حَلّ برئيسهم ألووا أعِنّة خيلهم وارتدّوا على الأعقاب هاربين وبذلك أوقعوا الخلل في صفوف مشاتهم وسبّبوا هزيمة عامة. وعلى أثر ذلك دبّ الخلاف بين القادة الثلاثة، وسلك كل منهم طريقاً مختلفة، كما شاء له حظه. وعندئذ أخذت المدن المجاورة تستسلم لپومپي ظانة أن العدوّ قد تملّكه الخوف فتشتّت شملُه.

وتصدّى له بعد هؤلاء سكيپيو فأراد قتاله ولم ينل منه مأرباً لأن جنوده انضمّوا إلى پومپي ما إن أصبحوا على رمية رمح من قواته، ووجد سكيپيو نجاته بالفرار. ثم أرسل كاربو لقتاله قوّات من الخيّالة فهاجمها پومپي بالقرب من نهر أرسيس Arsis بعين الجسارة والشجاعة السالفتين فدحرهم وأجبرهم في أثناء مطاردتهم على دخول منطقةٍ وعرةٍ يصعب ارتيادها على الخيل، فلمّا وجدوا سُبل النجاة مسدودة أمامهم استسلموا له بكامل خيلهم وأسلحتهم وأعلنوا ولاءهم له.

ولم يكن سيلّلا حتى ذلك الحين يعرف شيئاً عمّا يحصل لپومپي. فلمّا وردته الأنباء الأولى عن وقائعه وحركاته داخله القلق الشديد عليه، وخشي أن يقطع قوّاد العدوّ عليه خطّ الرجعة، وهم قادة متمرّسون ذوو خبرة عظيمة في فنون القتال. ولذلك أسرع بالتقدم نحوه لمعاونته. ولما بلغ پومپي نبأ توجّه سيلّلا أصدر أوامره للضباط وأمراء الوحدات بتنظيم صفوف الجيش ووضعه في حالة الاستعراض، ليبدو في ابدع صورة وأجمل منظر أمام القائد العام. وكان يتوقع أن ينال تكريماً عظيماً منه، إلاّ أن ما ناله كان فوق ما توقّعه إذ ما إن شاهده سيلّلا يتقدم منه بهذه الصورة من التنظيم ورجاله كلهم شباب في عنفوان صباهم وقوتهم ومعنوياتهم العالية وروحهم المتوثّبة المعتزّة بالانتصارات، حتى ترجّل عن حصانه. ولأنه كان الأسبق فقد حيّاه رجال پومپي بالتحية الواجبة لمقامه، ولقّبوه بالإمبراطور فردّ التحية لپومپي بمثلها وبلقب الإمبراطور أيضاً، وهو ما أثار الدهشة، فما من أحدٍ كان يتوقع أن سيلّلا سيخلع هذا اللقب على شابّ صغير السنّ، لم ينل بعد منصب العضوية في مجلس الشيوخ. وهو لقب كان موضع منافسة بين أسرتي سكيپيو وماريي Marii. والواقع أن كل تصرّفات سيلّلا معه كانت منسجمة مع أول مقابلة لهما. فكلّما دخل عليه پومپي أظهر له التفاتاً واحتراماً جديداً، إمّا بالقيام له أو حسر ردائه عن رأسه، أو ما أشبه مما ندر أن قابل به أي شخص آخر من ذوي المراكز العليا والمقامات الخطيرة، وكان حوله الكثير منهم. إلاّ أن الخيلاء

والزهو لم يداخلا بومبي لما خصّه به سيلّلا، وظهر ذلك جلياً عندما قرّر سيلّلا ارساله بحملةٍ عسكرية كاملة إلى بلاد الغال، وهي الإقليم الذي كان يعتقد أن ميتللوس قائد الجيش فيه لم يحقق شيئاً جديراً بما هو تحت إمرته من قوات ضخمة. فأشار بومبي بأنه ليس من العدالة ولا من شرف الناس أن ينتزع إقليماً من يد من هو أقدم منه عسكرياً وأعلى كعباً وصيتاً، وأن الأمر منوط بميتللوس على كل حال؛ فان رغب واستحسن خدمته فهو على أتمّ الاستعداد للانضمام إليه ومعاونته في الحرب. وسُرّ ميتللوس بجوابه لمّا بلغه وكتب إليه رسالة يدعوه. وما إن استقر المقام ببومبي هناك حتى انقضّ على الغاليين فحقق المعجزات والمآثر العسكرية لنفسه وأوقد مَرّة أخرى نار الإقدام وأذكى روح القتال في ميتللوس، تلك الروح التي كادت تخمد منه بعامل السنّ، مثله في ذلك مثل النحاس الذائب كما يقولون، عندما يُسكب فوق النحاس البارد الصلب فإنه يحلّه ويذيبه بأسرع مما تذيبه النار.

ويمكن تمثيل بومبي هنا بالمصارع الشهير، الذي يفوز بكلّ الجوائز في النزالات، فليس من العادة أن تدخل في قائمة انتصاراته الأخيرة تلك الانتصارات التي حققها في صباه عندما كان في أوّل سُلّم الشهرة. وانتصارات بومبي في أيام شبابه وإن كانت عظيمة بحدّ ذاتها فإنها طُمِست وتضاءلت أمام العديد من مآثره التي حققها في فتوحاته وحروبه المتأخرة. ولذلك سأمرّ بها مَرّ الكرام وأضرب صفحاً عن إيراد تفاصيلها خوفاً من تبديد وقتنا في حوادث شبابه الأقلّ أهمية، واضطراري إلى إغفال أعظم المآثر وأسمى العظائم التي تكشف بصورة أوضح عن حقيقه شخصه.

وبعد أن دانت إيطاليا جميعها لسيلّلا وخضعت لحكمه وأُعلِن دكتاتوراً، راح يكافئ الموالين والمخلصين له بالثروة والمناصب الرفيعة في الدولة، وتحقيق أي رغبة أو طلب يطلبونه بلا تحديد أو حساب، إلاّ بومبي فقد خصّه بمعاملة فريدة. كان شديد الاعجاب ببسالته وخلقه، وكان يؤمّل أن يكون دعامة لحكمه وسنداً قوياً له. فعمد إلى وسيلة تجعله مرتبطاً به بنوع من القرابة والتحالف. وعاونته زوجه ميتيلا فيما اعتزمه، وقام كلاهما بإقناع بومبي بتطليق زوجه أنتستيا واتخاذ إميليا زوجةً، وإميليا هذه هي ابنة امرأة سيلّلا ولدت لها من سكاوروس Scaurus زوجها الأسبق. وكانت هذه الابنة متزوّجة في عين الوقت من رجل آخر تعيش معه وهي حبلى منه. إن هذا الأسلوب التحكمي القاسي في الزيجة كان يتفق تماماً وعصر سيلّلا إلاّ أنه كان بعيداً عن طبع بومبي وأخلاقه. لقد انتزعوا إميليا وهي حبلى من أحضان رجل آخر، ودفعوا بها إليه. وطُلّقت أنتيستيا بأسلوب مهين يجافي قواعد الشرف، ولم يمضِ على فجيعتها بموت

أبيها طويل زمن (لأن أباها أنتيستيوس كان قد قُتل في مجلس الشيوخ بسبب الشك في موالاته لسيلّلا، وهو الشك المتأتي من وجود ختنه پومپي إلى جانبه). وأقدمت أمها على قتل نفسها بعد ما نزلت هذه الرزايا والمصائب بها. وختاماً لهذه المأساة الكبرى وقعت نكبة أخرى جديدة، كأن النكبات الأخرى لم تكن كافية، فقد قضت إميليا نحبها وهي تضع وليدها، ولم تكد بعدُ تستقر في بيت پومپي.

وفي حدود ذلك الزمن وردت إلى سيلّلا أنباء عن قيام پرپنّا بتحصين مواقعه في جزيرة صقلية، تلك الجزيرة التي باتت ملجأ ووعاءً يجتمع فيه كلّ بقايا الحزب المناوئ له، وأُبلغ أيضاً أن كاربو يمخر عُباب تلك البحار بأسطوله مهدداً، وأن دوميتيوس Domitius قد انقضّ على أفريقيا، وأن كثيراً من الأشراف المغتربين، الذي نجوا من العقوبات التي تفرضها حالة الحرمان من الحقوق المدنية، يتقاطرون يومياً على تلك الأقاليم. فأرسل پومپي عليهم مزوّداً بقوات كبيرة.

وما إن نزل برّ صقلية حتى لاذ پرپنّا بالفرار تاركاً الجزيرة برمّتها له. وكانت معاملة پومپي لسائر المدن المنكوبة معاملة طيّبة مُفعمة بالإنسانية. إلا أنه استثنى المامرتينيين Mamertines في مسّينا. فلما احتجّ هؤلاء على احكامه وأقضيته مستندين إلى امتيازاتهم وإعفاءاتهم بموجب ميثاق قديم ومرسوم رومانيّ غابر، أجابهم بكلّ حدة.

- كفاكم ثرثرة وتمشدُقاً بالمراسيم والشرائع أمامنا نحن الذين احتقبنا السيوف واحتكمنا إليها.

والمظنون أنه أظهر لكاربو روحاً لأجل الاقتصاص منه عن جرائمه. فإذا كانت الضرورة تقضي بالفتك به، ومثل هذه الضرورة متوفرة هنا، فمن الواجب أن يتمّ ذلك حال وقوعه في الأسر، وإذ ذاك يُعزى قتله إلى الشخص الذي قبض عليه وحده. لكن پومپي عمد إلى خلاف ذلك، فقد أمر بأن يُحضروا أمامه هذا الرجل الذي تولّى منصب القنصلية في روما مرّاتٍ ثلاثاً، فجيء به وهو يرسف في الأغلال وأوقفه في موضع الاتهام. في حين جلس هو على مقعد القضاء وأخذ ينظر في قضيّته بمقتض الشكليات والإجراءات القانونية مثيراً سخط ومشاعر كل الحاضرين. ثم أمر بعد ذلك أن يؤخذ ويُقتل. وقيل - والشيء بالشيء يذكر - عن كاربو إنه لما سيق إلى موضع التنفيذ ورأى السيف مجرّداً لقطع رأسه لم يستطع تمالك نفسه لألم أحسّ به في مثانته، أو لعدم مقدرة أعصابه على السيطرة على عملها، فطلب أن يسمح له الجلّاد بمهلة وبموضع مناسبٍ ليتبوّل.

وأكثر من هذا ما يحدثنا به كايوس أوپيوس Caius Oppius أحد أصدقاء قيصر.

قال هذا إن پومپي كان من مُنتهى القسوة في معاملته كوينتوس ڤاليريوس Quintus Valerius وهو رجل مشهور بعلمه وأدبه. فلمّا جيء به أمامه أخذه وسار به مبتعداً ودخل معه في محاورة وألقى عليه عدّة أسئلة وسمع أجوبتها. ثم أمر ضباطه أن يأخذه ويقتلوه. إلاّ أنه يجب أن لا نسرع في تصديق كل ما يرويه أوپيوس لاسيما بعد أن أخذ على نفسه رواية كل ما يتعلّق بأصدقاء قيصر وخصومه، ومن المؤكد أن پومپي كان مضطراً بحكم الضرورة إلى استعمال القسوة والصرامة ضدّ الكثير من أعداء سيلّلا وعلى الأقل بالنسبة إلى البارزين منهم، أو أولئك الذين اشتهر أمر القبض عليهم أو أسرهم فلم يعد لديه مجال للإغضاء عنهم. أما الآخرون فقد كان معهم في نهاية التسامح الذي يقوى عليه، ولذلك دبّر أمر إخفاء بعضهم، وتدخّل شخصياً في تهريب بعضهم الآخر. وفي قضية أهل هيميريا Himeræa قرّر پومپي انزال أشدّ العقاب بمدينتهم لمعاونتهم ومساعدتهم العدوّ، ولتحريضهم الآخرين على العصيان. وانبرى زعيمهم سثينس Sthenis يطلب الكلام ولما سمح له قال أن ما يعتزمه پومپي الآن لا يتفق مطلقاً مع مبادئ العدالة ذلك لأنه سيتخطّى المجرمين ويقضي على أرواح الأبرياء. فطلب منه پومپي تعيين المجرمين الذين يستحقون العقاب، فأجاب سثينس بأنه هو وحده المسؤول عن إشراك بني قومه عن طريق إقناعهم بعمل ما عملوه، كما أجبر أعداءه على فعل ذلك بالقوة. فلم يسع پومپي إلاّ الإعجاب بصراحته وروحه النبيلة وغفر له جريمته وعفا عن كلّ أهل هيميريا. ولما علم أيضاً أن جنوده لا يخضعون للنظام في أثناء مسيراتهم وأنهم يرتكبون أعمال العنف في الطريق أمر أن يُختَم على سيف كل واحدٍ في غِمده ومن جرّده عرّض نفسه لأشدّ العقاب.

وفيما كان پومپي منصرفاً إلى إدارة شؤون الحكم في صقلية تسلّم مرسوماً صادراً من مجلس الشيوخ، وأمراً من سيلّلا، يتضمّنان واجب الإبحار في الحال إلى أفريقيا بكلّ قواته لقتال دوميتيوس. ذلك لأنه كان قد عبّأ جيشاً لجِباً، يفوق الجيش الذي عبّأه ماريوس منذ فترة ليست بالطويلة وعبر به من أفريقيا إلى إيطاليا وأشعل نار فتنة في روما وأصبح طاغيةً بعد أن كان منفياً خارجاً على القانون. استعد پومپي لكل شيء بأسرع ما يمكن وترك زوج أخته ميميوس Memmius حاكماً على صقلية، مُقلعاً بمائتين وعشرين بارجة وثمانمائة سفينة أخرى محمّلة بالأرزاق والمؤن والعتاد والأموال وآلات الحصار. وأرسى بجزءٍ من أسطوله في مرفأ أوتيكا Utica وبجزئه الآخر في قرطاجنة. وما إن تمّ إنزاله حتى تمرّد على خصمه سبعة آلاف جندي وانضمّوا إليه وكانت قواته التي أنزلها تتألف من سبع فرق كاملة العُدّة والعدد. وهنا يروون حادثة طريفة وقعت له حال نزوله.

قالوا إن جنوداً له وقعوا بمحض الصدفة على كنز مطمور فأصابوا منه مالاً كثيراً. ولما سمع بقية رفاقهم ظنوا أن الموضع الذي نزلوا فيه حافلٌ بالذهب والفضة التي دفنت فيه منذ القديم، عندما تكالبت المحن والخطوب على القرطاجيين، فانفرط عقد النظام في جيش پومپي وانهمك أفراده جميعاً في الحفر أياماً عديدة سعياً وراء الكنوز والذهب. وراح پومپي يسير غدوة ورواحاً بينهم لا يفعل شيئاً إلاّ أن يضحك على الآلاف من الرجال تحفر الأرض وتقلب التربة بدون كلل أو ملل. ولم يعتم هؤلاء أن أدركهم الملل والسأم وعادوا إلى جادّة الصواب وأتوا جنرالهم طالبين منه التقدم بهم حيث شاء، معترفين له بأنهم نالوا جزاء حمقهم هذا.

كان دوميتيوس خلال هذه الفترة قد تهيّأ وأعدّ جيشه للقتال بمواجهة پومپي. وكان يوجد بين الجيشين مجرى ماءٍ صعب العبور، كما هبّت في أثناء ذلك عاصفة هوجاء ماطرة منذ الفجر، مما لم يترك احتمالاً كبيراً في وقوع اشتباك على ما بدا لدومتيوس، فما كان منه إلاّ أن ضمّ قواته، وأمرها بالانسحاب إلى المعسكر. إلاّ أن پومپي الذي كان يقظاً منتبهاً يرصد كل حركة من العدوّ انتفع بهذه الفرصة، وأمر بالزحف إلى الأمام، وعبر النهر السريع المجرى وانقضّ حالاً على معسكرات عدوّه. فدبّت الفوضى فيها ونجم اضطراب، وباءت أي محاولة في المقاومة بالفشل لأن صفوف العدوّ كانت متباعدة، ولم يتمّ التعاون بين وحداته وكانت الريح تصفع أوجههم بالمطر الغزير. ولم تكن حال الرومان وسط هذه العاصفة بأحسن من حال عدوّهم فقد تعذّر عليهم تمييز أحدهم للآخر. حتى أن پومپي لم يعد مكشوفاً لرجاله وكاد هذا يكلّفه حياته، فقد طلب أحد رجاله منه إعطاءه كلمة سرّ المعركة فتباطأ قليلاً في الجواب فكان بينه وبين الموت لحظة.

أصيب العدوّ بهزيمة شنعاء وقُتِل منه خلقٌ كثير وقيل إنه لم ينج غير ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفاً. وحيّا الجيش پومپي بلقب الإمبراطور، ولكنه أبى ذلك منهم وردّه عليهم قائلاً إنه لا يستطيع قبوله مطلقاً ومعسكر العدوّ ما زال قائماً. فإن شاؤوا أن يجعلوه قمينا بهذا الشرف فعليهم أولاً أن يزيلوه. فما سمع الجنود بذلك حتى انقضّوا على الاستحكامات والمعاقل بهجوم صاعق. وقاتل پومپي في هذه المعركة حاسر الرأس دون خوذة، ليكون ظاهراً بشخصه لرجاله، تفادياً لخطأ آخر قد يتكرر ويكلّفه حياته. وتم الاستيلاء على المعسكر عنوةً. وكان بين الذين سقطوا في المعركة من العدوّ دوميتيوس بالذات.

بعد هذا الاندحار راحت مدن تلك البلاد تسقط تباعاً بيد پومپي، وكان بعضها

يستسلم دون حرب، وبعضها يؤخذ بالقوة. ووقع في الأسر إيارباس Iarbas الملك، وهو حليف ونصير لدوميتيوس، وأعطيت مملكته لهيمپسال Hiempsal. ولم يسع پومپي أن يخلد إلى الراحة في هذا الموضع، كما أنه كان يريد استغلال صعود نجمه وحسن حظّه واندفاع جيشه، فدخل نوميديا وسار متوغّلاً عدّة أيام في قلب البلاد وأخضع كل بلد دخله، فابتعث مجدداً في شعوب البرابرة هيبة روما وسلطانها الذي كادت تنطمس معالمه. ويؤثر عنه قوله بهذه المناسبة: «حتى وحوش أفريقيا وضواريها لن تُترك آمنة إلاّ بعد أن تذوق طعم شجاعة الرومان وانتصاراتهم». لذلك قضى بضعة أيام في صيد الأسود والفيلة. وقيل إنه تمكن بفترة من الزمن لا تزيد عن أربعين يوماً من إيقاع الهزيمة التامّة بالعدوّ وإخضاع أفريقيا وتوطيد أمور الممالك واستتباب عروش ملوكها في سائر تلك البلاد. وهو لم يتجاوز الرابعة والعشرين من العمر.

ولما عاد إلى مدينة أوتيكا سُلّمت إليه رسائل وأوامر من سيلّلا يطلب منه تسريح كل وحدات جيشه خلا فرقة واحدة، ثم ينتظر قدوم جنرال آخر يخلفه في الحكم. وقد آلمه ذلك كثيراً، إلاّ أنه لم يفصح عن ألمه وأبقاه سِرّاً في نفسه. ولكن الجيش استنكر الأمر بصورة علنية ولما أخذ پومپي يرجوهم العودة إلى الوطن قبله راحوا يكيلون الشتائم لسيلّلا وصرّحوا على رؤوس الأشهاد بأنهم اتفقوا على أن يبقوا معه ولا يتركوه، وأنهم لا يرون من السلامة في شيء أن يثق بطاغية متحكم. حاول پومپي في بادئ الأمر تهدئتهم وتسكين ثائرهم بلطيف الكلام فلم تُجدِ محاولاته نفعاً فترك المنبر وعاد إلى خيمته، والدموع تجول في عينيه. فلحق به الجنود وأمسكوا به وأعادوه إلى المنبر رغم أنفه. ثم أجلسوه على منصّة الحكم وصرفوا القسم الأعظم من يومهم بالمناقشة وتبادل الرأي. وكان هو يلحّ عليهم بوجوب التمسّك بالنظام والطاعة ويحذّرهم من أخطار العصيان. ولمّا اشتدوا في إلحاحهم وأصرّوا على موقفهم حلف أن يبخع نفسه إذا حاولوا إرغامه. وبهذه الوسيلة استطاع أو كاد إقناع الجيش وتهدئته. على أن الأنباء الأولية التي بلغت سيلّلا كانت تشير إلى أنّ پومپي قد شقّ عليه عصا الطاعة وأعلن تمرّده، فزاد قلقه وانفرد بأحد أصدقائه قائلاً:

– هكذا إذن سيقدّر عليّ أن أقاتل أطفالاً في شيخوختي!

مشيراً في الوقت نفسه إلى ماريوس الذي كان قد أورثه كثيراً من الهمّ وانشغال البال، وهدّده بكيانه وهو بعد فتىً شاب مثل پومپي. لكن الأنباء الصحيحة وصلته بعدئذ. ووجد المدينة كلّها قد استعدت لاستقبال پومپي بكلّ مظاهر التقدير والحبّ. فقرّر هو أن يسبقهم جميعاً في التكريم فخرج في طليعتهم والتقى به وعانقه بكلّ حفاوة

ورحّب به مخاطباً إياه بلقب «ماگنوس» أي العظيم. وطلب من المستقبلين أن ينعتوه بهذا اللقب. ويقول آخرون إن هذا اللقب خلعه الجيش عليه بتصويت علنيّ حماسيّ في أفريقيا، إلاّ أنه لصق به رسمياً بمصادقة سيلّلا عليه. ومما هو مؤكد أن پومپي نفسه كان آخر من خطر بباله استخدام هذا اللقب لنفسه. فلم يذيّل رسائله وأوامره باسم پومپيوس ماگنوس بعد مرور زمن طويل عليه، عندما أُرسل بمنصب پروقنصل لقتال سرتوريوس في إسبانيا. إلاّ أن شيوع استعماله بين الشعب كان السبب في إزالة عوامل الحسد والغيرة فيه. والمرء هنا لا يسعهُ إلاّ أن يشعر بالاحترام للرومان القدماء والإعجاب بهم فهم لم يكتفوا بمكافأة الانتصارات وإدارة الحروب بنجاح بمثل هذه الألقاب العالية، وإنما كافأوا بها أصحاب المواهب والخدمات الجليلة من رجال الحكم المدنيين البارزين. وثمّ شخصان منحهما الشعب لقب «ماكسيموس» أو الأعظم، أولهما ڤاليريوس الذي حقق الصلح والسلام ما بين الشيوخ والعامّة. وثانيهما فابيوس رولّوس Fabius Rullus الذي أخرج من مجلس الشيوخ أبناء العبيد المحرّرين الذين ما قُبلوا أعضاءً فيه إلاّ لغناهم.

وطلب پومپي أن يُمنح شرف الدخول في موكب نصر، فعارض سيلّلا في الأمر محتجّاً بأن القانون لا يسمح بمنح هذا الشرف لغير القناصل والپريتورين. ولذلك فإن سكيپيو الأب الذي أخضع القرطاجنيين في إسبانيا بعد معارك وحروب أشدّ عنفاً وأخطر أثراً لم يتقدم بمثل هذا الطلب لأنه لم يتسنّم منصب قنصل أو پريتور. وقال لو أن پومپي الذي لم يكد يكمل نموّ لحيته، ولم يبلغ بعد السن القانونية التي تؤهّله لعضويّة مجلس الشيوخ، سيدخل المدينة في موكب نصرٍ فإن الألسنة الحسودة ستتطاوله لتنال من سُمعة حكمه هو، ومن شرف پومپي كذلك. وأضاف يقول أيضاً لپومپي إنه إذا بقي مصرّاً على طلبه فمعنى ذلك أنه يريد النيل من سلطته ويقصد إذلاله. فلم يتزحزح پومپي وتشبّث بمطلبه، وانثنى إلى سيلّلا يذكّره بأن أولئك الذين يعبدون الشمس الطالعة هم أكثر ممن يعبدون الشمس الغاربة، يريد بذلك أن سلطانه يتعاظم في حين أن سلطان سيلّلا آخذ في الأفول. ولم يلتقط سمع سيلّلا هذه العبارة مضبوطة. لكنه لحظ نوعاً من البهتة والبغتة ترتسم على أوجه ونظرات من كان قد سمعها. فسأله عَمّا قاله. ولمّا نُقِلت له الجملة صُعِق من جرأة پومپي، وصاح مرتين:

- دعوه يدخل في موكب نصر، دعوه يدخل في موكب نصر.

وقيل إن پومپي عندما جوبه باستنكار واستهجان أراد أن يزيد من حنق أولئك المنكرين المستهجنين، فرتّب أن يكون موكب نصره مؤلفاً من عجلةٍ تجرّها أربعة فيلة

(إذ كان قد جاء بعددٍ منها غنمها من ملوك أفريقيا). ولكن لما كانت أبواب المدينة ضيّقة فقد اضطر إلى العدول عن تدبيره، والاكتفاء بالخيول. ولما بدأ جنوده يثيرون الضجة ويعملون على عرقلة الموكب، بسبب خيبتهم في نيل ما توقّعوه من مكافآت، لم يكترث بهم، كشأنه في كل ما سبق، وصارحهم القول بأنه يفضّل أن يضيع من يديه موكب النصر على أن يخطب ودّهم يتملّقهم، الأمر الذي حدا بسرڤيليوس Servilius وهو شخصية بارزة، وممن كان في مقدمة المعارضين في موكب نصر پومپي، إلى القول: «الآن أدركت أن پومپي عظيم حقاً ومستحق موكب نصر». وواضحٌ أيضاً أنه كان يسهل عليه الفوز بعضوية مجلس الشيوخ لو رشّح نفسه، إلاّ أنه لم يطلب ذلك، بل كان كما يبدو يطمح إلى مراتب الشرف غير العادية. إذ ليس ثمّ غرابة في أن يتخذ مقعداً في مجلس الشيوخ قبل أن يحين الأجل، ولكن دخوله في موكب نصر قبل أن يصل إلى عضوية مجلس الشيوخ هو نهاية المجد في الحقيقة.

زد على هذا أن الحظوة التي نالها عند الشعب ليست بالقليلة عندما تبوّأ مكانه مرّة أخرى بين فرسان الرومان بعد موكب نصره، فقد سُرّ بهذا كثيراً في حين تزايد سخط سيلّلا وكرهه حين كان يتابع الخطوات السريعة إلى السؤدد والمجد التي يخطوها پومپي إلاّ أنه كان يخجل من العمل على إيقافه واعتراض سبيله، لذلك ظلّ ساكتاً. لكن لَمّا نجح پومپي في إيصال ليپيدوس Lepidus إلى منصب القنصلية بالدعاية له واستخدام نفوذه عند الشعب لترويج قضيّة مرشّحه هذا، خلافاً لرغبة سيلّلا فلم يسعه الاحتمال أكثر من هذا. وشاهده قادماً يتخطّر في أبهاء الفوروم ووراءه رتل طويل من الأشياع فبادره قائلاً:

- ألا أيها الفتى، إني أراك فرِحاً بما حُزته من النصر. إن إيصالك ليپيدوس إلى منصب القنصلية، وهو أحطّ البشر، أليس هو عملاً كريهاً منك حين فضّلته على كاتولوس Catulus خير الناس وأجدرهم به في المدينة؟ وكل ذلك تمّ بفضل قوة تأثيرك على الجمهور. أما وقد حصل، فيحسن بك منذ الآن فصاعداً أن تكون يقظاً، وأن تأخذ الحذر لنفسك وتهتّم بمصالحك، فقد جعلت عدوّك أقوى منك.

إلاّ أن ما كشف عن كره سيلّلا له بصورة تامّة هو وصيّته الأخيرة. فقد منح كلّ من اختصّ به ووالاه نصيباً من أمواله، وعيّن بعضهم أوصياء على ابنه، إلاّ أنه تخطّى پومپي ولم يذكره بشيء. ومع هذا فقد تحمّل پومپي الأمر برحابة صدرٍ، وتسامح حتى أنه حال دون رغبة ليپيدوس في حرمان جثمان سيلّلا من التكريم بدفنه في مقبرة العظماء

كامپوس مارتيوس Campus Martius وتشييعه رسمياً. وأبى إلاّ أن يقام مأتم وطني رسمي بكل ما يتضمّنه من مراسم وتكريم.

ولم يمرّ طويل وقت على وفاة سيلّلا حتى تحققت نبوءته. إذ طالب ليپيدوس بكلّ ما كان لمنصبه من سلطات وصلاحيات. وأصرّ على أن يكون خليفةً له. وفزع إلى السلاح مرّة أخرى في سبيل غايته، وجمّع مِن حوله كل ما تبقّى من الفئات الخطرة القديمة التي أفلتت من بطش سيلّلا وكان يزامله في منصب القنصلية كاتولوس الذي التفّ حوله الجانب الأكثر حصانةً والأسلم اتجاهاً من مجلس الشيوخ والعامة. فقد بوّأته حكمته وعدالته أرفع مكانة من الاحترام بين الرومان. وكانت مواهبه وكفاءاته في حقل السياسة والشؤون المدنية أكثر ظهوراً في الأمور العسكرية. وحيث كانت الحاجة تتطلب مواهب پومپي العسكرية لم يتردد طويلاً بين الفريقين، وانضمّ إلى فريق الأشراف بزعامة كاتولوس فعُيّن فوراً جنرالاً للجيش، وأمر بقتال ليپيدوس. وكان هذا قد دوّخ جزءاً كبيراً من إيطاليا وسيطر على بلاد الغال جنوب الألب بفضل جيشٍ كان تحت إمرة بروتوس. لكن پومپي تمكن من إخضاع كل حامياته بسهولة أثناء زحفه، إلاّ مدينة موتينا Mutina الغاليّة، فقد استعصت عليه في الحصار الذي ضربه حولها، واضطر إلى البقاء هناك وقتاً طويلاً بمواجهة بروتوس. فانتهز ليپيدوس الفرصة وزحف بجموع غفيرة على روما بأقصى سرعة، فبلغها وعسكر أمامها وملأ قلوب سكانها رُعباً. إلاّ أن قلق السكان سرعان ما تلاشى بوصول رسائل من پومپي. يبشّرهم فيها بأنه أنهى الحرب بدون قتال وأنه سيعود. وحثّهم على الوقوف بوجه مطلب ليپيدوس في منصب القنصلية. وكان بروتوس إمّا قد خان جيشه، وإمّا أن جيشه تمرّد عليه وخذله، فآثر الاستسلام لپومپي. فأمر أن يؤخذ بحراسة كوكبة من الخيّالة إلى بلدة صغيرة تقع على نهر الپو Po حيث نفّذ جيمينيوس Geminius أمر پومپي فيه وقتله في اليوم التالي لوصوله. وقد أوخذ پومپي على فعلته هذه، لأنه كتب إلى مجلس الشيوخ في المبدأ بأن برتوس استسلم له طائعاً مختاراً. وبعد أن فتك به بعث برسائل أخرى تتضمّن اتهامات له. والشيء بالشيء يذكر أن بروتوس هذا هو والد بروتوس الذي قتل قيصر بالتعاون مع كاسيوس. ولم يبرز بروتوس الابن في الحياة العامة وفي الحرب، ولم يشتهر حتى في موته مثله في ذلك مثل أبيه.

بعد أن تمّ طرد ليپيدوس من إيطاليا هرب إلى جزيرة سردينيا حيث اعتلّت صحّته ومات كمداً، لا لنكد حظه في حياته العامة، بل بسبب اكتشافه رسالة أثبتت له أن زوجه لم تكن مخلصةً له.

ولم يبقَ في الميدان غير سرتوريوس يحتلّ إسبانيا برمّتها ويهدّد روما بما وصل إليه من منعةٍ وجبروتٍ. وكان يختلف اختلافاً بيّناً عن ليپيدوس. ولهذا نُظر إليه وكأنه المرض الأخير الذي تجمّع من كل شرور الحروب الأهلية المبعثرة. لقد وُفّق پومپي حتى ذلك الحين إلى القضاء على القادة الصغار برمّتهم. وسرتوريوس الآن يناجز الجنرال ميتيللوس پيوس وهو جندي محنّك كفؤ ورجل طائر الصيت، وإن كان يبدو وقتئذ بطيئاً في نيل الانتصارات واستعادة المجد القديم الأسعد عن طريق الحرب بسبب تقدّمه في السنّ. وكان سرتوريوس يمتاز عليه بالسرعة، وهي الميزة التي تمكّنه من انتزاع حظوظ الحرب ببراعته في الكرّ والفرّ والتحليق والانقضاض المباغت على غير انتظار، مثل رئيس عصابة قُطّاع طُرق لا كقائد جيش. فتراه أبداً يُقلق راحة الجنرال الشيخ بنصب الكمائن له، والتعرّض له بمناوشات خفيفة لا يدري كيف يتفاداها لاعتياده الحرب النظامية، وقتال الصفوف المتراصّة في معركة أصولية بجنود كاملي العدّة والسلاح. وكان پومپي أبقى جيشه في حالة التهيؤ والاستعداد متوقّعاً أن يُطلب منه نجدة ميتللوس، ولم يعمل بأمر كاتالوس الذي أراد فيه تسريحه. وتوسّل پومپي بمختلف التّعِلّات والحِيَل لإبقائه بسلاحه قريباً من المدينة. إلى أن أزف الوقت الذي وجد فيه مجلس الشيوخ أن الضرورة تقضي بإرساله إلى إسبانيا بناء على اقتراح تقدّم به لوشيوس فيليپوس. وقيل إن أحد أعضاء المجلس نهض للردّ على اقتراح لوشيوس معبّراً عن استغرابه بتساؤله عمّا إذا كان قصد فيليپوس طلب إرسال پومپي إلى إسبانيا بمنصب پروقنصل؟ فأجابه فيليپوس: كلاّ بل بمنصب عِدّة پروقناصل. حتى لكأن القنصلين الحاكمين في تلك السنة لا فائدة ترجى منهما في رأيه!

ولما وصل پومپي إسبانيا ارتفعت معنويات الجنود وامتلأت صدورهم آمالاً كما هي العادة عند مجيء كل قائد جديد شهير. وبدأت تلك الشعوب التي لم يكن تحالفها وثيقاً مع سرتوريوس بالتملّص والتمرّد عليه. وقام سرتوريوس بحملة خطابية ضدّ پومپي حفلت بالسخرية منه وبالغرور والتيه، كأن قال مستهزأً إنه لا يحتاج لتأديب هذا الصبي إلى أكثر من مِقْرَعة وكرباج لو لم يكن يخشى تلك المرأة العجوز - يقصد ميتيللوس. على أنه في الواقع كان يخشى جانب پومپي ويحذر منه، كما بدا من سلوكه في تلك الحرب. إذ لوحظ في هذا الصدد أنه ازداد حذراً وحيطة أضعاف ما كان قبل مجيء سرتوريوس. مما لا مشاحة فيه أن ميتيللوس قد أفرط في الترف والعيش الرغد حتى لم يُبق زيادة لمستزيد، فاستسلم للهوّ واللذائذ وانقلب فجأة من رجل معتدل الرغبات مقلّ في الشهوات إلى إنسان ناعم ولوع بالأبهة، لا يشبع من أطايب الحياة.

وكان پومپي بعكسه تماماً فقد بدا مثالاً للتقشّف والعزوف عن اللهو. وكانت الفضيلة طبعاً فيه، لذلك لا تتطلّب ممارستها منه جهداً كبيراً وتمريناً لأنه يميل إلى الاعتدال ويجانب التطرّف في مُتعه. وهذا الاختلاف الكبير بين الرجلين هو الذي بنى سمعة پومپي وأكسبه الثقة العظمى. وكانت مطالع الوقعات الحربية متراوحة بين الجانبين مرةً لهذا ومرةً لذاك. ولم يتأثر پومپي قدر ما تأثر من استيلاء سرتوريوس على مدينة لاورون. فقد ظنّ أنه طوّق خصمه تماماً تطويقاً محكماً وأخذ يفخر علناً وجهراً بنوع ما، قائلاً إنه ألقى الحصار فإذا به يجد نفسه فجأةً وعلى غير انتظار مطوّقاً من كل جهة لا يجرؤ على الحركة خطوةً واحدةً خارج معسكره، وهكذا اضطر إلى البقاء فيه قعيداً. بينما أتمّ سرتوريوس الاستيلاء على المدينة وأحرقها أمام سمعه وبصره. إلاّ أنه تمكن فيما بعد من إلحاق هزيمة نكراء بكل من پرپنّا وهرينّيوس Herennius وهما قائدان كانا من أولئك اللاجئين الذين هربوا من إيطاليا وانضمّوا إلى سرتوريوس وأصبحا مساعدين له. وقد قُتل في هذه المعركة التي جرت بالقرب من ڤالنتيا Valentia عشرة آلاف من جيش سرتوريوس.

بعد أن ارتفعت معنويات پومپي بهذه النتيجة، وامتلأ ثقة بالنصر، سارع بأقصى ما أمكنه للاشتباك مع سرتوريوس بالذات حتى لا يتدخل ميتيللوس في المعركة وينال نصيباً من شرف النصر. وفي ساعةٍ متأخرةٍ من النهار، وعند مغرب الشمس، التحما في القتال بالقرب من نهر سوكرو وكلاهما يخشى قدوم ميتيللوس. فپومپي يريد أن يكون منفرداً في القتال وسرتوريوس، لا يرغب في مواجهة جيشين. ولم تكن النتيجة حاسمة. فقد تغلّب جناح كل جيش على الجناح الذين يواجهه من الجيش الآخر. غير أن سرتوريوس كان له شرف التبريز على خصمه في القيادة، إذ إنه صمد في مواضعه وهزم فرقةً كاملةً كانت تهاجمه، في حين أن پومپي كاد يقع هو نفسه أسيراً، إذ إنه تعرّض لهجمة مُقاتلٍ شديد البأس كان يقاتله راجلاً، (كان پومپي راكباً) وفيما كانا مشتبكين بقتال فرديّ أخذت ضربات سيفيهما تقع على اليدين دون أن ينال واحدهما من الآخر. فقد أصيب پومپي بجرح طفيف في يده لا غير في حين أنه قطع يد خصمه. ومهما يكن من امرٍ فالذي حصل هو أن الكثير من الرجال بدأوا يسقطون من حوله، وأصيبت قوّاته في هذا الوضع بالهزيمة، غير أنه تمكن من النجاة بصورة غير متوقعة بأن تخلّى عن حصانه ودفع به إلى صفوف الأعداء. ولما كانت عُدّة الحصان ذهبيّة، وعليه سرجٌ في غاية النفاسة، فقد راح الجنود يتنازعون فيما بينهم عليه. وبينما كانوا منشغلين في توزيع الغنيمة الثمينة أفلت من قبضتهم.

وفي أولى ساعات الفجر التالي أخرج كل منهما جيشه ووضعه في خط المعركة مدّعياً النصر لنفسه. إلاّ أن ميتيللوس ظهر على رأس جيشه. فما لبث سرتوريوس أن تلاشى كأن الأرض ابتلعته، فقد فرّق وحدات جيشه وانسحب بغاية السرعة. إذ كانت هذه استراتيجيته وطريقته في تحشيد جيوشه ثم تسريحها. فيُرى مرة متجولاً هنا وهناك وحيداً ليس معه تابع، ويُرى مرة أخرى يزحف إلى المعركة ويزجّ في ساحتها بما لا يقل عن مائة وخمسين الف محارب، وما هي إلا غمضة عين حتى يختفي كما يختفي مسيل ماءٍ في الشتاء.

وسار پومپي بعد المعركة للقاء ميتيللوس والترحيب به. ولما دنا أحدهما من الآخر أمر پومپي حرسه الخاص بخفض فؤوسهم تكريماً لميتيللوس بوصفه رئيسه وأقدم منه. إلاّ أن ميتيللوس أبى ذلك، وأبدى لپومپي كل لطف، وكان سلوكه بصورة عامة نحوه في غايةٍ من الرقة والمجاملة. ولم يطلب لنفسه امتيازاً واحتراماً بسبب منصبه القنصليّ أو لكونه القائد الأقدم، إلاّ شيئاً واحداً وهو أن كلمة السِرّ يجب أن تخرج منه للمعسكرين عندما يضرب كل منهما معسكره. وقد فعلا ذلك وضرب كل منهما خيامه على حِدة بسبب تهديد العدوّ الذي كان يتخذ في تحركاته كل شكلٍ متصوّر، ولا يستقر في مكان فهو دائب الحركة يبدو في أمكنة مختلفة في آن واحدٍ تقريباً، ويعمد إلى الحِيَل البارعة والمناورات بحيث منعهما من السلب واجتياح البلاد، وحقق سيطرته التامة على البحار. وتمكن من طردهما خارج كل الأقاليم الإسبانية الداخلة ضمن نفوذه وسلطانه، وأرغمهما بسبب شحّ الأرزاق الضرورية على الانسحاب إلى مناطق غريبة عنهما.

بعد أن استخدم پومپي الجزء الأكبر من وارداته الخاصة وأنفقها على الحرب أرسل إلى مجلس الشيوخ يطلب أموالاً، ويزيد قائلاً إنه سيضطر إلى سحب كل جيشه من إسبانيا والعودة به إلى إيطاليا في حالة عدم تحقيق طلبه. وكان لوكوللوس في ذلك الحين قنصلاً وهو على خلافٍ مع پومپي، إلاّ أنه سارع بتأمين وصول الأرزاق إليه. لأنه كان هو نفسه مرشحاً لتولّي القيادة في الشرق بمواجهة ميثريداتس، وكان يخشى أن يتذرّع پومپي بحجة نضوب أرزاقه للعودة إلى روما، والمطالبة بالقيادة الشرقية التي كان كثير الرغبة فيها، ولطالما أعرب عن رأيه في ترك سرتوريوس وشأنه وشنّ الحرب على ميثريداتس وهي حرب تشير كل البوادر إلى أنها أعلى شرفاً وأقل خطراً. وفي أثناء ذلك اغتيل سرتوريوس بمؤامرة دبّرها بعض أتباعه المقرّبين، وتسلّم پرپنّا زعيمهم القيادة العامة. وحاول مواصلة الحركات العسكرية التي بدأها سرتوريوس وكان تحت تصرّفه

عين القوات وعين الوسائل إلاّ أنه كان يفتقر إلى براعته وحنكته. ولذلك زحف پومپي نحوه مباشرة، وكان هذا يعاني اضطراباً في أموره ويخبط خبط عشواء، فوضع له طُعماً لاستدراجه بان أرسل قطعة من الجيش تتألف من عشر كتائب إلى أرضٍ سهلةٍ وأمرهم بأن يتقدموا ويتأخروا ويعرّضوا أنفسهم لأعين العدوّ، ويكشفوا عن ضعفهم. وهكذا ابتلع پرپنّا الطعم، وما إن تحوّل نحو هذه الفريسة وجدّ في مطاردتها حتى لاح له پومپي فجأة بكلّ قواته واشتبك معه في معركة عقد له فيها لواء نصر حاسم. وقُتل معظم ضباط پرپنّا في ساحة المعركة ووقع هو في الأسر، فجيء به إلى پومپي فأمر به فقُتل في الحال. وپومپي لا يؤاخذ على هذا بالجحود كما لا يمكن أن يقع مرة ثانية في غفلة. إذ سبق أن جرى له ذلك في صقلية وتعرّض للاتهام من قِبل بعض الفئات. على أنه كان يهتدي في الحقيقة بسياسةٍ حصيفة، وكان يعمل وفق رأي مدروس يستهدف سلامة بلاده، فپرپنّا الذي كان يحتفظ بكل أوراق سرتوريوس عرض أن يدفع إلى پومپي بعدد من رسائل أعاظم رجال روما، ممن كانوا قد كتبوا إلى سرتوريوس يدعونه إلى إيطاليا لرغبتهم في إحداث تغيير وانقلاب في الحكم. ولئلا يكون انفضاح هذه الرسائل سبباً في نشوب حروب أشدّ ضراوة من تلك التي خُتمت الآن وجد من الأفضل أن يقتل پرپنّا ويحرق الرسائل دون أن يقرأها فيدفن السرّ معه.

وبقي پومپي في إسبانيا بعد انتهاء الحرب الوقتَ الذي كان ضرورياً لإزالة آثار الفوضى والاضطراب في الإقليم وتوطيد الحكومة على أساس من الاستقرار والطمأنينة وإخماد الفتن العنيفة والقلاقل، ثم قفل راجعاً إلى إيطاليا بكلّ جيشه. وشاءت الصدف أن يصلها وقت كانت البلاد في أوج القلق من حروب العبيد التي بلغت ذروتها. وبوصوله قرر كراسوس القائد الذي كان يدير تلك الحرب أن يطوّح بنفسه في معركة محفوفة بالمخاطر غامضة النتائج. وأمكنه أن يُحرز نجاحاً عظيماً وفتك باثني عشر ألفاً وثلاثمائة متمرّد في ساحة القتال. إلاّ أنه لم يكن على قدر كبير من السرعة للاستئثار بكلّ الشرف. فإن الحظ ادّخر لپومپي نصيباً من شرف النصر في هذه الحروب فقد وقع في يده الخمسة آلاف منهم الذين نجوا في المعركة، فأبادهم عن بكرة أبيهم. وسارع يكتب إلى مجلس الشيوخ قائلاً: «إن كراسّوس هزم العبيد في المعركة، أمّا هو فقد استأصل حرب العبيد من جذورها». وقد رحّبت روما بهذه المقولة. وكان من المحبَّب أن تُسمع ومن المحبّب أن تُقال. والمسألة كلّها كانت متوقّعة من الحبّ الذي يكنّه الشعب له والنظرة التقديرية التي ينظره بها. على أنه ما كان أحد يستطيع أن يعزو شرف الغلبة في الحرب الإسبانية إلى أي أحدٍ آخر غيره ولو على سبيل المزاح. ومع هذا

كله، فهذا التقدير الكبير وتلك الرغبة الشديدة في عودته إلى الوطن كانا مشوبين ببعض القلق والشك منه لأنه لم يقم بتسريح جيشه ولأن ذلك قد يحمله على سلوك سبيله نحو السلطة العليا والكرسي الذي كان يحتلّه سيلّلا بالقوة، وعن طريق السلاح. لذلك فإن العدد الذي خرج إلى ظاهر المدينة لاسقباله وتهنئته على العودة بدافع الحبّ الخالص له كان مساوياً للعدد الذي خرج لاستقباله بدافع الخوف والرهبة. لكن پومپي ازال أسباب القلق والشك بإعلانه فور وصوله أنه لن يُبقي على الجيش وسيسرّحه بعد دخوله في موكب نصر. ولم يبقَ لأولئك الذين يبغضونه ويحسدونه من أسباب شكوى بعد هذا سوى قولهم إنه يرمي من وراء ذلك إلى كسب الحظوة والشعبية لدى الجماهير والنزول إلى رغائب العامة أكثر من كسبه جانب الأشراف، وإنه أعاد إحياء مناصب تريبيونات الشعب التي ألغاها سيلّلا متوخّياً رضا العامة عليه. وهذا هو الواقع فعلاً، فلم يكن ثمّ شيء أحبّ إلى أهالي روما وأرغب أكثر من إعادة هذا المنصب. وقد عَدّ پومپي نفسه محظوظاً للغاية لوجود هذه الفرصة للتقريب به من العامة، بعد أن أدركته الحيرة واليأس من الوصول إلى وسيلة كفيلة بالتعبير عن امتنانه لما حباه به الشعب والخسية لئلا يسبقه أحد آخر إلى هذه المكرمة.

ومع منحه موكب نصرٍ ثانٍ وانتخابه قنصلاً، وما إلى ذلك من الدلائل على سلطته ومجده، فليس بين هذه الدلائل ما بلغ شأو دليل آخر، وهو تقدّمه على كراسوس نفسه الذي كان أغنى من كل رجال الحكم في عهده، بل أعظمهم مقاماً وأفصحهم لساناً وأقواهم عارضة، قليل الاحتفال بپومپي نفسه، وبكلّ الرجال البارزين الأدنى منه. هذا الرجل لم يتجاسر على الظهور مرشحاً لمنصب القنصل قبل مفاتحة پومپي ومشاورته في الأمر، ولم يسع پومپي إلاّ أن يهتبل الفرصة والترحيب بالطلب لأنه كان يصبو منذ أمدٍ بعيد أن يَمنّ على كراسوس بفضل، وبمسعى من مساعي الصداقة. وأخذ يعمل لترويج ترشيح كراسوس ويحثّ الشعب على انتخابه بحمِيّة وإخلاص قائلاً للناخبين إن فضلهم عليه إذا انتخبوا كراسوس زميلاً له لن يقلّ بأية حال عن فضلهم عليه عندما اختاروه هو نفسه قنصلاً. وهكذا أصبحا قنصلين، إلا أنهما كانا دائماً على طرفي نقيض يعارض أحدهما الآخر بعد كل ما جرى من تعاون أثناء الترشيح. وكانت لكراسوس اليد الطولي والأمر النافذ في مجلس الشيوخ. في حين أن سلطان پومپي لم يكن بأقلّ منه عند العامة. لأنه هو الذي أعاد إليهم منصب التريبيون وسمح بإعادة جهاز القضاء المدني إلى أيدي الفرسان الرومان، كما كان بيدهم في السابق، بسنّه قانوناً جديداً. ثم أتحفهم هو نفسه بمشهدٍ من أعظم المشاهد تعبيراً عن الامتنان حين ظهر علناً أمام الحكام

ملتمساً الأمر بتسريحه من الخدمة العسكرية. إذ إن هناك عادة قديمة عند الرومان وهي أنه عندما يكمل الفرسان الرومان المدة المقررة للخدمة العسكرية ينبغي لهم أن يقودوا خيولهم إلى الساحة العامة، أمام موظفين عموميَّين كلٌّ منهما برتبة «چنصور». ويقدموا لهما تقريراً بأسماء القادة والجنرالات الذين خدموا تحت إمرتهم، وأسماء البلدان التي خدموا فيها، والمعارك التي خاضوها. ثم يتمّ تسريح كل شخص إمّا تسريحاً مشرّفاً وإمّا تسريحاً مُشيناً حسبما تستأهل خدمته. وكان كل من الچنصور جيليوس Gelius والنسطور لونتولوس Luntulus يتصدّران مجلس الحكم يفحصان قضايا الفرسان الذين كانوا يمرون في صفٍ متتابع امامهما حين شوهد پومپي يقبل إلى الفوروم وعليه كل شارات القنصل ورتبه، إلاّ أنه كان يقود حصانه بيده. وعندما بلغ مِنصّة الحكم طلب من حرسه اللكتور أن يتنحّى عن الطريق، ثم قاد حصانه إليهما. وكان الجمهور طوال ذلك المشهد مصاباً بذهولٍ تام، يسوده صمت مطبق. وكذلك كان الچنصوران أيضاً ينظران إلى المشهد بمزيج من الإجلال والامتنان. وبدأ الچنصور الأقدم باستجواب پومپي قائلاً:

- بومپيوس ماگنوس! أطلب أن تجيبني عما إذا كنت قد أكملت مدة الخدمة العسكرية في ميادين الحرب، بحسب ما يفرضه عليك القانون.

فأجاب پومپي بصوت مرتفع:

- أجل أكملتها وقد خدمتها كلها بوصفي جنرالاً.

وما إن سمع الجمهور جوابه حتى أطلق صيحة عظيمة، وأخذت هتافات السرور تتصاعد داوية حتى أصبح من المتعذر إسكاتها. ونهض الچنصوران من مجلس الحكم ورافقاه إلى منزله إرضاءً للجماهير الذين تبعوهم، وهم يصفقون ويهتفون.

وشارفت مدة پومپي في القنصلية على الانتهاء إلاّ أن خلافاته مع كراسوس كانت في ازدياد. وإذ ذاك قام المدعو كايوس أوريليوس، وهو فارس ظلّ معتزلاً عزوفاً عن السياسة والحكم طوال حياته، واعتلى المنبر وتوجّه بالخطاب إلى المجتمعين قائلاً إن جوپتر قد ظهر له في الحلم وأمره أن يطلب من القنصلين بأن لا يُخليا منصبيهما إلاّ بعد أن يتصافيا. وعلى أثر قوله هذا لم يبدر شيء من پومپي وظلّ صامتاً، إلاّ أن كراسوس قبض على يد پومپي وتكلّم بالآتي:

- ما أراني أيها الأخوة المواطنون سأفعل شيئاً دنيئاً أو سأقدم على عملٍ لا يشرّفني إن كنت البادئ في المصالحة مع پومپي الذي كان من دواعي سروركم أن تشرّفوه بلقب

«الأعظم» ولم تكد تنبت شعرة واحدة في وجهه، ومنحتموه شرف موكبين من مواكب النصر قبل أن يحرز مقعداً في مجلس الشيوخ.

وبهذا تصالحا وتصافيا، ثم نزلا عن منصبيهما. وعاد كراسوس يواصل أسلوب الحياة الذي اعتاده من الأول. أمّا بومبي فلأسباب تخرج عن حدود المناقشة عموماً أمسك عن الظهور إلى جهة دون أخرى، وأخذ ينسحب شيئاً فشيئاً من الفوروم. وكان يحتجب تماماً عن البروز إلى الجمهور، وان فعل ذلك في مناسبات نادرة فبرفقة بطانة كثيرة العدد تسير وراءه. كما لم يكن من السهل مقابلته أو زيارته بدون أن يُرى محاطاً بالعديد من الناس. وكان يُسرّ كثيراً إذا ظهر أمام الجموع من الناس كتلةً واحدة، كأنه يريد بهذه الوسيلة الإبقاء على هيبته ومكانته أو كأنما يريد أن تظلّ نفسه حريصة في المحافظة على جلاله من أن تتماسّ مع احاديث العامة ومناقشاتهم. ولا شك في أن الحياة المكتسبة برداء السلم لكفيلة بطمس شهرة المرء الذي بنى شهرته وعظمته بالسلاح. وهؤلاء عادة يجدون صعوبة كبيرة في تكييف أنفسهم إلى جوّ الحياة المدنية المشبع بالسلم والدَّعة والمساواة المدنية. إنهم بطبيعة الحال يتوقّعون أن يُعامَلوا في المدينة معاملة السادة الأوائل كما اعتادوا أن يُعاملوا في معسكراتهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن أولئك الذين لم يبرزوا في الحرب ولم يكونوا فيها شيئاً مذكوراً لا يحتملون قط المنافسة في الحياة المدنية، ويعملون جادّين على أن يتولّوا فيها زمام الأمور. ومهما يكن من أمرٍ، فعندما ينقلب المحارب ذو الانتصارات الرائعة والوقائع العظيمة إلى رجل مدنيّ ويدخل الفوروم لممارسة السياسة والقانون فإن زملاءه المدنيين هناك سيحاولون بأقصى ما في طوقهم تجميده، وحجبه عن الأنظار. أمّا لو انسحب من الحياة المدنية وتقاعد فلن يتعرّضوا لشرفه العسكري ولن ينالوا من مقامه بحسدهم. وقد برهنت الأحداث على صحّة هذا القول بعد زمن يسير.

بدأت شوكة القراصنة في كيليكيا أولاً بدايةً ضعيفة بحيث لم يشعر بها أحدٌ، إلاّ أن الروح والحياة والقوة ما لبثت أن سرت فيها أثناء حروب ميثيريداتس فقد أجروا أنفسهم له والتحقوا بخدمته. وقويت شوكتهم بحروب الرومان الأهلية. إذ انشغل هؤلاء بالتطاحن فيما بينهم حتى على أبواب روما نفسها، وتُركت البحار دون حراسة فأخذ هؤلاء القراصنة يزحفون إليها ويسيطرون عليها دون أن يعترض سبيلهم أحد بالتدريج حتى دانت لهم. وراحوا يستولون على السفن ويقبضون على التجار ويسلبونهم في عُرض البحر. وتمادوا في جسارتهم فأغاروا على الجزر والموانئ والثغور فأغروا بمشاركتهم أناساً اشتهروا بالغنى والنبل والكفاءات العظيمة. حتى لكأن

التبريز في هذه المهنة هو مما يليق ويجمُل بالإنسان السعي له. وأنشأوا لأنفسهم عدداً كبيراً من الأوكار والمستودعات، أو ما يُسمّى موانئ القراصنة، إلى أبراج مراقبة، وفنائر على طول السواحل، لاستقبال الأساطيل وتزويدها بأبرع البحّارة، وأكثر الملاحين خبرة واطّلاعاً على بناء أسرع السفن وأخفّها جِرماً مما يصلح لأعمالهم. ولم يكن استفحال أمرهم وتعاظم خطرهم بأكثر إثارة للسخط والكراهية من اغترارهم بقوّتهم، فقد كانت خيلاؤهم ومباهاتهم أدعى لبعضهم من الخوف منهم، فقد أثبتوا في مقدّمة سفنهم صواري مطليّة بالذهب ورفعوا عليها قلوعاً من نسيج الأرجوان، وصفّحوا مجاذيفها برقائق الفضة، حتى لكأن مصدر لذتهم ولهوهم هو التمادي في الظلم وارتكاب الآثام. وكان ديدنهم إقامة حفلات الغناء والرقص والولائم، والقصف على طول الساحل. وكانوا يأسرون القادة، ويفرضون الإتاوات على المدن، فيُلحقون بشرف السيادة الرومانية العارَ، ويمرّغون سُمعتها في التراب. وقُدّر ما يملك هؤلاء القراصنة من السفن بألف، كما بلغ عدد ما سيطروا عليه من المدن أربعمائة تقريباً. ولطالما ارتكبوا فيها المحرّمات، ودنّسوا معابد الآلهة، وأثروا من كنوزها، وأكثرها مما لم يجرؤ أحدٌ على تدنيسها من قبل. كما فعلوا في معابد كلاروس Glaros، وديديما Didyma، وساموثراقيا Samothrace، ومعبد «الأرض» في هرميون Hermione، ومعبد أيسكولاپيوس Aesculapius في إپيداورس Epidaurus ومعابد نپتون في المضايق Isthmus وفي تيناروس Tænarus وفي كالاوريا Calauria، ومعابد أپوللو في أكتيوم Actium وليوكاس Leucas ومعابد جونو في ساموس وأرغوس ولاچينيوم Lacinium. وكانوا هم أنفسهم يقرّبون قرابين غريبة في أوليمپس، ويؤدّون طقوساً غامضة معيّنة أو مراسم دينية سرّية، مما لا يزال أصحاب دين ميثرا Mithras يتبعونه إلى يومنا هذا، وقد أخذوه عنهم بدون شك.

وإلى جانب هذا الجبروت والطغيان الذي مارسوه في البحار كانوا لا يتورّعون عن تحقير الرومان وإذلالهم في البرّ. فقد يتوغّلون داخل البلاد ويهدّدون الطرق العامة، فينهبون الرومان ويدمّرون بيوتهم الريفية. ومرّة ألقوا القبض على الپريتورين الرومانيين سكستيليوس Sextilius وبللينوس Bellinus وكلاهما متوشّح بالرداء الأرجواني وأخذوهما مع ضباطهما وليكتورهما. كما خطفوا أيضاً بنت أنطونيوس الذي مُنح شرف موكب نصرٍ أثناء خروجها في رحلة إلى الريف، ولم يُطلق سراحها إلاّ بفدية كبيرة. وأعظم إهانة اعتادوا أن يوجّهوها إلى الرومان عندما يعلن الأسير أنه مواطن روماني، فيتظاهرون بالدهشة الكاذبة ويفتعلون الخوف والرهبة ويضربون أيديهم على أفخاذهم،

ويركعون تحت قدمي الأسير متوسّلين بكل ذِلّة وخضوع أن يتكرّم بالصفح عنهم.

وما إن يرى هؤلاء الأسرى المساكين هذا التذلّل والخضوع المزيّف حتى يتوهّموا أنه حقيقي، ويشرع بعضهم بوضع حذاء روماني في قدم الأسير، ويكسوه رداءً رومانياً، حتى لا يخطئوا في هويّته كما يزعمون له. وبعد كل هذه الأبهة الزائفة، وعندما يستوفون حظهم من السخرية به والتمويه عليه، ينزلون سلماً من سفينتهم وهي في عُرض البحر ثم يقولون للأسير إنه الآن مطلق السراح وله أن يذهب حيثما شاء ويتمنّون له سفرة سعيدة. فإذا قاومهم أمسكوا به وقذفوا به قسراً إلى أمواج البحر فيغرق. وهكذا اتسعت سلطة القراصنة فشملت كل البحر الأبيض المتوسط ولم يعد ثمّ مجال للملاحة والتجارة. وهذا ما ألجأ الرومان كافة إلى إرسال پومپي في مهمة تطهير البحار منهم وإعادة سلطتهم عليها بعد أن ضاقت بهم الحال وبارت تجارتهم وكسدت أسواقهم، وأصبحوا على شفا المجاعة والقحط كافةً. واقترح گابينيوس Gabinius وهو من أصدقاء پومپي سنَّ قانون يخوِّل به السلطان المطلق على البحار كأمير الأسطول، والحاكم المطلق المتفرّد على الناس جميعاً بعبارة صريحة ونصّ واضح المدلول، حيث جاء فيه أنه يعطى الحكم المطلق على كل البحار التي هي ضمن أعمدة هرقل (جبل طارق) وكل الأراضي التي تقع على سواحلها إلى عمق أربعمائة فرلنغ إلى الداخل. وبذلك لا يعود في الإمبراطورية الرومانية ما هو خارج عن دائرة حكم پومپي إلاّ القليل. في حين كانت أعظم الممالك وأشهر الملوك ضمن تلك الحدود. وخُوّل بموجب هذا القانون حق اختيار خمسة عشر مساعداً من أعضاء مجلس الشيوخ وأن يُسند إلى كلّ منهم الحكم في الإقليم الذي يخصّصه له. كما خُوّل أن يسحب من الخزانة العامة ويجبي من الأراضي الزراعية الخاضعة للضريبة أي مبلغ يشاء. وأُعطي مائتي سفينة حربية، مع صلاحية تجنيد واستخدام ايّ عدد من الجنود والبحارة يراه مناسباً. ولما قُرئت هذه اللائحة أيّدها العامة تأييداً مطلقاً. إلا أن الاشراف والوجهاء وذوي المراكز في الدولة من أعضاء مجلس الشيوخ وجدوا في القانون صلاحيات واسعة خليقة بإثارة مخاوفهم، لو غضضنا الطرف عن شعور الحسد منها. وقرّ رأيهم على أن هذه السلطة التي لا حدود لها خطرةً جداً. واتفقت كلمتهم جميعاً على معارضة اللائحة وصوّتوا كلهم ضدّها، باستثناء قيصر الذي أقرّها وأعطى صوته للقانون المقترح لا لأجل أن يحسُن في عين پومپي بل لأجل نيل الحظوة عند العامة الذين طالما خطب ودّهم في السرّ، مؤملاً أن يستأثر به لنفسه. وندّ باقي الأعضاء بپومپي وهاجموه هجوماً عنيفاً. حتى أن أحد القناصل وجّه إليه الكلام قائلاً: «إن كنت تطمح

إلى مركز رومولوس فإنك لملاق مصيره على أغلب الاحتمال». فهمّ به الشعب وكاد يمزّقه إرباً لأقواله هذه. إلا أن الجمهور سكت وأصغى احتراماً عندما نهض كاتولوس للكلام ضدّ اللائحة. وبعد أن أفاض في مدح پومپي مستخدماً أنبل عبارة وألطفها راح ينصح العامة نُصحاً لطيفاً بأن تعفي پومپي من هذه المهمة، وأن لا يعرّضوا رجلاً في مثل كفاءته للأخطار والحروب. وختم كلامه قائلاً: «فمن أين ستأتون عندئذ بپومپي آخر، ومن سيكون في عونكم إذا خسرتموه؟» فصرخوا جميعاً بصوت واحدٍ: «أنت!» فكفّ كاتولوس عن الكلام عندما وجد كلامه لايجدي نفعاً. وحاول روسكيوس Roscius الكلام إلاّ أن الضجة اكتنفته ولم يلقَ كلامه أذناً صاغية، فأخذ يعمل بأصابعه حركات في الهواء تفيد عبارة «ليس هو وحده» وإنّما قد يوجد هناك پومپي ثان، أو زميل آخر له يشاركه السلطة. ويقال إن الجمهور أطلق صيحة عظيمة عند هذا، بحيث إن غراباً كان يطير فوق الساحة العامة هوى في الحال بين الجموع كأنما أصيب بصاعقة. ومن هنا يبدو أن سبب سقوط الطيور أثناء تحليقها ليس مبعثه انشقاق، أو صدع في الهواء يحدث فراغاً، بل هو صدمة ذبذبات الصوت إذا خرج بعنف ومن جماعة كبيرة فإنه يُحدث نوعاً من العصف والهزيم يرتفع في طبقات الهواء العليا.

وانفضّ الاجتماع في ذلك اليوم دون أن يسفر عن نتيجة. وعندما أزف يوم الاقتراع على القانون ترك پومپي روما خلسةً إلى الريف. وبسماعه أن اللائحة صُدّقت وفازت قفل عائداً إلى المدينة تجنّباً للغيرة التي يثيرها تجمهر الناس لاستقباله مهنّئين. وفي صبيحة اليوم التالي لقدومه خرج وقدّم القرابين للآلهة وحضر اجتماعاً. وهنا عالج المسألة ببراعةٍ وحنكة، حتى حملهم على توسيع سلطته بإضافة الكثير على ما خوّلوه من قبل. فضاعفوا تقريباً مقدار التجهيزات والمعدّات المقررة له، وبذلك تمّ إمداده بخمسمائة سفينة وأُبلغ الجيش إلى مائة وعشرين ألفاً من الرّجالة وخمسة آلاف من الخيّالة. وأبلغ عدد مساعديه العسكريين إلى أربعة وعشرين جنرالاً سابقاً من أعضاء مجلس الشيوخ الحاليين، وزيدوا كويستورين اثنين. وقد شاءت الصدف أن يطرأ انخفاض كبير على أسعار الحاجات الضرورية مما جعل الجمهور المستبشر يقول إن مجرّد اسم پومپي كفل وضع نهاية للحرب. ومهما يكن من أمر فإنه باشر فوراً بتنفيذ ما أوكل به فقسم البحار كلها ومناطق البحر المتوسط كافة إلى ثلاثة عشر قسماً، وخصّص لكلّ قسم قوة من جيشه تحت قيادة واحد من ضباطه المساعدين. وهكذا انتشرت قطعاته في كلّ جزءٍ. وأكمل تطويق القراصنة في كلّ موضع، وبدأوا يقعون في أيديه أفواجاً وزرافات فيأتي بهم إلى الموانئ. على أن بعضهم أفلت من قبضته في الوقت

المناسب ونجا من مطاردته الشاملة. وقصدت جماعات منهم كيليكيا حيث أخفوا أنفسهم كما يخفي النحل نفسه في خلاياه. فانطلق پومپي بشخصه نحوهم بأفضل ستين بارجة عنده حال إتمامه تطهير وتمشيط كل البحار القريبة من روما والبحر التيراني Tyrrhenian[1] والبحر الأفريقي وكل مياه سردينيا وكورسكا وصقلية. كل هذا أنجزه في أربعين يوماً، بفضل همّته التي لا تعرف الكلل وبمثابرة مساعديه.

ولقي پومپي عراقيل في روما بسبب خُبث نوايا القنصل پيزو Piso وسوء طويّته. فقد عوّق أعماله بحبس الأرزاق عنه وتسريح بحّارته. فلم يكن منه إلاّ أن كرّ عائداً بأسطوله، وأرسى في برنديزيوم ثم نزل هو نفسه البرّ وتوجّه إلى روما بأقرب الطرق البرية: توسكاني. وما إن انتشر نبأ قدومه بين الأهالي حتى خرجوا بجموع غفيرة لاستقباله في الطريق، كأنهم لم يودّعوه قبل أيام قلائل. وكان سبب ثورة فرحهم الرئيس هو التحوّل المفاجئ غير المنتظر في أسعار الموادّ المعاشية، فقد باتت وفيرةً بصورة لا مثيل لها، وبهذا استهدف القنصل پيزو لخطر تنحيته من منصبه القنصلي. وكان گابينيوس قد أعدّ لائحة قانونٍ لخلعه إلاّ أن پومپي حال دون ذلك فبلغ بذلك من حُسن التصرّف وبُعد النظر الغاية القصوى، كما كان ديدنه في معالجة مختلف الشؤون الأخرى. وبعد أن اطمأنّ إلى كل شيء، وأزال كل عقبة، قفل راجعاً إلى برنديزيوم ومنها أقلع لمطاردة بقية القراصنة. ولم يشأ أن يمر بمدينة أثينا دون الوقوف فيها لتحيّة الآلهة مع أن كثيراً من الصعاب اكتنفته وأرغمته وهو في عجلة من أمره على أن يمرّ بالعديد من المدن ولا يرسي فيها. فنزل برّها وضحّى للآلهة ثم خطب في الجمهور المحتشد عند عودته إلى المدينة. وقرأ على مدخلها كتابتين منقوشتين:

الأولى من الداخل وهذه هي: «ان تواضعك يزيد من ألوهيّتك».

والثانية من الخارج وهي: «نستودعك الله نحن الذين رحّبنا بمقدمك».

وعامل پومپي فريقاً من القراصنة معاملة رحيمة، وهم أولئك الذين ظلوا هائمين جماعاتٍ وشراذم في أرجاء البحار. فقد عرضوا أن يستسلموا له ويقبلوا بحكمه، فاستولى على سفنهم وقبض على أشخاصهم فقط ووقف عند هذا الحدّ ولم يتخذ بحقهم إجراءات قاسية أخرى. ما لبثت هذه المعاملة الرفيقة أن أغرت رفاقهم الآخرين الذين كانوا تحت طائلة تعقيب قواده، فأتوه طائعين مستسلمين مع زوجاتهم وأطفالهم

(١) هو جزء من البحر الابيض المتوسط يقع بين ساحل إيطاليا الغربي وسردينيا وكورسيكا وصقلية [م].

ووضعوا أنفسهم في حِماه، فلم يبخل عليهم بالعفو. وجعل بابه مفتوحاً لكلّ من يُقبل إليه، ومتوخّياً اكتشاف أولئك الذين هربوا من أمامه وخرجوا عن دائرة يد عدالته مدركاً أنهم ما فعلوا ذلك إلاّ لأنّ جرائمهم مما لا يمكن الإغضاء عنه. وانتقل الجزء الأعظم والأكثر خطراً منهم، بأهلهم وأموالهم وذويهم ممن لا يصلح للحرب، إلى قلاع وحصون منيعة ومعاقل عاصية قريبة من جبال طوروس. وأما هم أنفسهم فقد ملأوا سفنهم بالمقاتلين وأقلعوا إلى قوراقيسيوم Coracesium في كليكيا حيث تصدّوا لپومپي وخاضوا معه معركة. وهناك أصيبوا باندحارهم النهائي وانسحبوا إلى البرّ حيث حوصروا، وضيّق عليهم الخناق فلم يروا بُدّاً من طلب الخضوع والطاعة بواسطة رُسُل بعثوا بهم إليه. ووضعوا أنفسهم تحت رحمته مع مدنهم وحصونهم وقلاعهم، تلك التي كانوا قد بذلوا أقصى جهودهم في تحكيمها بحيث صارت أمنع من عقاب الجوّ، وأصعب اقتحاماً.

وبهذا انتهت الحرب وتلاشت كُلّ قوة للقراصنة في كلّ طرف من أطراف البحر، خلال فترة ثلاثة أشهر فحسب تمكن فيها من أسر عدد عظيم من السفن بينها تسعون بارجة حربية كل منها ذات قيدوم من النحاس الأصفر، ووقع في يده من أسرى الحرب ما لا يقلّ عن عشرين ألفاً. وبخصوص معالجة أمر هؤلاء الأسرى فإنه لم يفكر قطّ بقتلهم وهي عقوبة رادعة خطيرة. إلاّ أنه عمد إلى إجراءٍ آخر لا يقلّ أثراً ونجاعة أعني تشتيت شملهم في البلاد. وخوفاً من احتمال إعادة لمّ شعثهم ورجوع سلطتهم لكثرة عددهم ولخبرتهم في فنون القتال ولفقرهم فقد وازن قضيّتهم على أساس أن الإنسان لم يولد مخلوقاً متوحّشاً غير مدني بطبعه، إنّما يجعل من نفسه ما هو مفطور عليه، لا بممارسة أعمال الشر. وهو من الجهة الأخرى حضري ويمكن نقله من حالة البداوة والخشونة إلى حالة المدنيّة والرقّة بتغيير مسكنه مثلاً أو مهنته أو طراز حياته، كالضواري التي خلقت وحشية فإنها لتنقلب أليفةً مدجّنة بالمعاملة الرقيقة وبتربيتها في البيوت. وعلى هذا الأساس واهتداءً بهذه الفكرة قرر پومپي تطوير حياة هؤلاء بنقلها من البحر إلى البرّ وأفسح لهم المجال لتذوّق حياة طاهرة نزيهة عن طريق العيش في المدن واستثمار الأرض بزراعتها. فأسكن طائفة منهم في مدن الكليكيين الصغيرة نصف المأهولة وكان هؤلاء يرغبون في مساكنتهم للاستعانة بهم على توسيع تخومهم. وأسكن قسماً آخر منهم في مدينة الصوليين Solians التي اجتاحها ديكران ملك الأرمن مؤخراً، ثم عاد إليها سكانها. على أن معظم القراصنة استوطنوا ديما Dyma المدينة الأخائية وكانت نصف مأهولة. وتمّ تمليكهم مساحات شاسعة من الأرض الخصبة.

على أن هذه الأعمال والإجراءات لم تمرّ دون إثارة حسد وأحقاد أعدائه؛ وكان الأسلوب الذي اتّبعه حيال ميتيللوس قد وضعه موضع نقدً شديدٍ حتى من جانب أبرز أصدقائه. وكان ميتيللوس هذا من أسرة زميل پومپي في إسبانيا أُرسل إلى جزيرة كريت بمنصب پريتور قبل دخول هذا الإقليم البحري ضمن سلطة پومپي. وكانت كريت آنذاك وكر القراصنة الثاني بعد كيليكا. وكان ميتيللوس قد حاصر جماعاتٍ منهم في معاقلهم وباشر بإخضاعهم واستئصال شأفتهم. فبعث المحصورون من بينهم رُسلاً إلى پومپي يعرضون الاستسلام والخضوع ويطلبون مقدمه إلى الجزيرة قائلين إنها جزءٌ من منطقة نفوذه لوقوعها برمّتها ضمن المسافة التي حدّدت لممارسة نشاطه. فما إن تسلّم عروضهم حتى بعث يطلب من ميتيللوس وقف الحرب. وبعث برسائل أخرى مماثلة إلى المدن يطلب فيها أن لا تتصل بميتيللوس ولا تعترف بسلطانه. ثم أرسل لوشيوس أوكتاڤيوس أحد مساعديه وهو برتبة جنرال إلى الجزيرة فدخل الاستحكامات المطوّقة وأخذ يقاتل دفاعاً عن القراصنة. فجعل نفسه في موضع استنكار وبغض فضلاً عن صيرورته موضع سخرية، لأنه استخدم اسمه بمثابة حارسٍ وحام لوكر لصوصٍ لايعرفون ديناً ولا قانوناً. واتخذ من سُمعته ونفوذه ستار حماية لهم، كلّ ذلك لشعوره بالغيرة والحسد من ميتيللوس ليس إلاّ. إن أخيل في رأي الأغلبية لم يتصرّف تصرُّف الرجال وإنّما تصرُّف الصبيان المفتونين بالمجد لمّا منع بإشارة منه بقية الإغريق من توجيه ضرباتهم إلى هكتور Hector:

«لئلا تقوم يدٌ أخرى غير يده بتوجيه الضربة. فيخسر هو شرف النصر الأوليّ».

وكذلك كانت الحال بپومپي فقد وصل الأمر به إلى حَدّ حماية أعداء الأمم كافةً، لا لشيء إلاّ ليحرم پريتوراً رومانياً شرف موكب نصرٍ بعد ما بذل من جهود وقاسى من متاعب. لكن عزيمة ميتيللوس لم تثبط وواصل الحرب ضدّ القراصنة وأخرجهم من معاقلهم وأنزل بهم العقاب، وطرد أوكتاڤيوس طرداً مشيناً، فخرج مشيّعاً باستنكار كل المعسكر.

وبوصول أنباء انتهاء حرب القراصنة إلى روما، وأن پومپي لا عمل لديه وأنه ينفق أوقاته في زيارات المدن، قام مانليوس وهو مفوّض (تريبيون) الشعب يقترح إصدار قانون يقضي بتسليم پومپي كل القوات التي هي تحت إمرة لوكوللوس وكل الأقاليم التي هي تحت حكمه مع بيثينيا التي كانت تحت قيادة كلابريو Clabrio، وأن يؤمر بشنّ الحرب فوراً على الملكين ميثيريداتس وديكران والاحتفاظ في الوقت عينه بالقوات

البحرية الموضوعة تحت تصرّفه، وإبقاء سيادته على البحار كالسابق. وكل هذا كان يعني بالفعل نصبه ملكاً مطلقاً على الإمبراطورية الرومانية. إذ إن الأقاليم التي كانت خارجة عن نطاق حكمه بموجب القانون الأول مثل فريجيا ولاقونيا وغلاطيا وكبادوكيا وكيليكيا وكلوخيس العليا باتت كلها خاضعة له مع جميع القوات والوحدات العسكرية بإمرة لوكوللوس التي حققت الغلبة على ميثريداتس وديكران. ومع أن لوكوللوس باستخلافه بشخص آخر قد حُرم من أمجاد الأعمال والمآثر التي قام بها لأجل أن يضيف هذا الشخص إلى موكب نصره شرفاً له آخر لا لأجل أن يدفع مخاطر حرب، فإن ذلك لم يكن موضع اهتمام الفئة الأرستوقراطية وإن صعُب عليها الإقرار بالظلم وإنكار فضل لوكوللوس. إلاّ أن الهمّ الأعظم الذي استولى عليهم هو خوفهم أن تتحوّل السلطة بيد پومپي إلى طغيان صريح، فراح يحث بعضهم بعضاً ويشجّعه سِرّاً لرصّ الصفوف وحشد القوى والوقوف موقف المعارض من هذا القانون، وأن لا يقبلوا تجريدهم من حرياتهم وهم ساكتون. ولكن ما إن أزف يوم الاقتراع على القانون حتى زايلتهم الشجاعة خوفاً من الشعب وسكتوا جميعاً باستثناء كاتولوس الذي ندّد بالقانون وبالذي اقترحه بكلّ جرأة. ولمّا لم يجد أذناً صاغية من العامة استدار نحو مجلس الشيوخ وصاح بأعضائه طالباً منهم أن يبحثوا لهم في أحد الجبال عن ملجأ مثلما فعل أسلافهم من قبل وأن يعتصموا بالصخور، لعلّهم يحافظون هناك على حريتهم. وقيل إنّ اللائحة أُبرمت قانوناً باقتراع عام لكلّ القبائل. فجُعل پومپي وهو غائب سيّد البلاد وامتد سلطانه تقريباً على كل ما أحرزه سيلّلا بقوّة السلاح، وبعد أن استولى على العاصمة نفسها عنوةً.

وقيل إن پومپي عندما أنبأته الرسائل بالمصادقة على القانون لم تظهر عليه أية علامة من علامات السرور في مجلس أصدقائه الذين أقبلوا ليزفّوا إليه التهاني وليباركوا له ما نال من شرف بل بدا مقطّب الأسارير، وضرب فخذه بيده قائلاً بلهجة المتعب من الحكم والضجر من أعبائه: «واحسرتاه! سلسلة من المتاعب فوق متاعبٍ لا تنتهي. وإن لم يتسنَّ لي إنهاء خدماتي العسكرية والتخلّص من هذه العظمة التي تثير حولي الحسد لأعيش في بيتي الريفي مع امرأتي لكان خيراً لي أن أبقى رجلاً مغموراً». إلاّ أن هذا القول والادّعاء لم يكن يُنظر إليه نظرةً جديّة، وأصدقاؤه أنفسهم كانوا ينزلونه هذه المنزلة لأنهم على يقين بأن شُعلة عداوته للوكوللوس أوقدت في تلك الساعة بالذات نارَ ميله إلى التحكّم وصَبْوته إلى المجد وهذا ما أشعره بفرح غير عادي.

وبدت هذه الحقيقة سافرة بعد قليل من أعماله التي حسرت القناع عمّا يبطنه

تماماً. فقد أسرع بتوجيه الأوامر إلى كل الأنحاء يأمر بها الجنود بالانضواء تحت لوائه. ويدعو كل الملوك التابعين والأمراء ضمن دائرة حكمه إلى الحضور. وبمختصر القول، ما إن وطئت قدماه أقاليم لوكوللوس حتى تناول بالتغيير كلّ ما قام به سلفه هنا أو أنشأه. فألغى وخفض العقوبات، وجرّد أناساً من عطاياهم. وأخذ يتصرّف في كل شيء، وهو يرمي بصورة صريحة لا لبس فيها إلى أن يُفهم المعجبين بلوكوللوس أن دولة هذا الحاكم قد دالت.

ونوقش پومپي من جانب أصدقائه فارتُئي أن يعقد اجتماع بين القائدين. وتمّ اللقاء في أراضي غلاطيا. ولما كان كلاهما جنرالاً شهيراً مظفّراً فقد كان لكتور كل واحدٍ منهما يحمل حُزمة العصيّ أمامهما وهي مزدانه بأغصان من شجر الغار. وكان لوكوللوس قد مَرّ بأرض تكسوها الأشجار المخضوضرة والغابات الوارفة، في حين كانت مسيرة پومپي في منطقةٍ قاحلةٍ يسودها برد زمهرير. ولما وجد رجال لكتور لوكوللوس أغصان الغار التي تزيّن حُزم لكتور پومپي قد ذبلت وجفّ عودها أعطوهم شيئاً مما كان عندهم منه، وزيّنوا وتوّجوا حزمهم بالغار الغضّ. فعُدّ هذا دليل شؤم أو بدا وكأن پومپي جاء لينتزع ثمرة انتصارات لوكوللوس والشرف الذي ناله منها. وكان للوكوللوس بحكم نظام القناصل الأسبقية عليه، في القِدَم والسنّ، إلاّ أن موكبي النصر اللذين مُنحا لپومپي جعلاه أعظم مقاماً من لوكوللوس. وبدأ الحديث في مقابلتهما هذه بداية ودّية مشبعةً بالرزانة والوقار، وانطلق كل واحد منهما يشيد بمآثر صاحبه، ويُزجي إليه التهانئ على ما أصابه من نجاح وتوفيق. ولكن ما إن دخلا في بحث ما جاءا لأجله وعقدا عليه مؤتمرهما حتى تبيّن تعذُّر وصولهما إلى أي اتفاق أو شروط مناسبة. وبلغ بهما الأمر إلى حدّ تبادل جارح القول: پومپي يتهم لوكوللوس بالجشع، ولوكوللوس يتهم پومپي بالطموح، واشتبكا في جدال عنيف حتى صعب على أصدقائهما التفريق فيما بينهما.

ومكث لوكوللوس في غلاطيا وباشر في توزيع الأراضي التي غنمها بفتوحاته ومنح العطايا والهبات لمن شاء. وعسكر پومپي في موضع لايبعد عنه كثيراً. وراح يبعث بأوامر الحظر والمنع، ونقض كل قرار يصدره لوكوللوس. وسحب منه كل جنوده ما خلا ألفاً وستمائة لم يجد فيهم نفعاً له لميلهم إلى التمرّد والشغب وعدم خضوعهم لنظام، ولمعرفته أنهم يكنّون البغض للوكوللوس. وزاد على هذه الإجراءات والأعمال خطباً ساخرة به تتضمّن الانتقاص الصريح من أمجاده ومآثره، كقوله إن معارك لوكوللوس ما هي إلاّ مشاهد مرسحيّة وصور تافهة تحفّ بها الأبهة الملكية، في حين

أن الحرب الفعلية ضدّ جيش حقيقي يهزم في قتالٍ عنيفٍ إنّما هي حق محفوظ له دون غيره، بعد أن تهيأ ميثريداتس واستعد بدروعه وسيوفه وخيالته. فيجيب لوكوللوس على سبيل المقابلة بأن پومپي إنما جاء ليشنّ حرباً على صورةٍ أو شبح للحرب. وهذا هو شأنه أبداً كالطير الجارح الكسلان الذي ينقضّ على الرّمة بعد أن يكون غيره قد قتلها، وهكذا يعمد إلى تمزيق رُفات الحرب إرباً إرباً، وبهذه الصورة عزا لنفسه كل الانتصارات على سرتوريوس ولِپيدوس وعلى المتمرّدين بقيادة سپارتكوس. فالانتصار الأخير حققه كراسوس فعلاً، والثاني انتزعه من كاتولوس والأول هو من حق ميتيللوس. فليس من العجيب أن يقوم مثل هذا الشخص الذي توسّل بكلّ ضروب الحِيَل ليحرز شرف النصر على شراذم من العبيد الهاربين، بانتزاع أمجاده وشرف نيله انتصارات الحرب البونطية والأرمنية.

بعد هذا رحل لوكوللوس. وقام پومپي باستنفار أسطوله ونشره في المياه الواقعة ما بين فينيقيا والبوسفور. ثم زحف بجيشه على ميثريداتس الذي كان قد عبّأ فلانكس مكوّناً من ثلاثين ألف راجل وألفين من الخيّالة إلاّ أنه لم يجرؤ على منازلته. وكان قد عسكر فوق جبل منيع تصعب مهاجمته إلاّ أنه لم يلبث فيه كثيراً وتركه لانعدام الماء فيه، فاحتله پومپي حالاً. ولاحظ أن النبات فيه يانع نامٍ، كما وجد فيه كثيراً من الوديان، فاستنتج أن أرضاً كهذه لايمكن أن تخلو من مياه جَوفية، فأمر رجاله بحفر آبار في كل ركن منها. وما هي إلا فترة وجيزةً حتى كان المعسكر يستمتع بماءٍ غزير، ولم يسعه إلاّ الاستغراب من جهل ميثريداتس بهذا طوال الفترة التي قضاها معسكراً. ثمّ ما لبث أن جَدّ في أثره وأدركه في معسكره الثاني، فتقدم منه بصفوف متراصّة وضرب حوله نطاقاً. إلاّ أن ميثيريداتس نجح بعد أربعين يوماً من الحصار في التسلل والنجاة بأفضل وحدات جيشه بعد أن فتك بكلّ المرضى والعاجزين منهم. فلاحقه پومپي وأدركه بعد قليل بالقرب من ضفاف نهر الفرات، فعسكر بالقرب منه إلاّ أنه خشي أن يعبر الفرات ويفلت منه هذه المرة أيضاً. فأعدّ جيشه للهجوم عليه في منتصف الليل.

وقيل إن ميثيريداتس في ذلك الوقت بالذات رأى رؤيا شبيهة بما كان سيحصل فعلاً. فقد رأى فيما يرى النائم أنه راكب سفينة في بحر المضايق Euxine وكانت الريح رخاء والبوسفور على مدى الرؤية، وهو يتحدث إلى رفاق السفينه مسروراً، كالذي يشعر بالسعادة لخلاصه من خطرٍ، وبالفرح لسلامته ونجاته. ثم يرى نفسه فجأةً وحيداً ليس معه أحدٌ وهو فوق لوح محطّم من ألواح السفينة يتقاذفه الموج تحت رحمة البحر. وفيما كان كذلك يعاني هذا الكابوس المفزع أقبل عليه أصدقاؤه وأيقظوه

لإبلاغه باقتراب پومپي الذي كان في الواقع بدرجة من القرب بحيث إن القتال كان سيدور لأجل الاستيلاء على المعسكر نفسه. فقام القوّاد بإخراج وحداتهم ووضعوها صفوفاً في خط القتال. ولما وجد پومپي مبلغ استعدادهم، وحُسن تهيّؤهم، داخله الشكّ في قراره وبدأ يتساءل في نفسه هل من الإصابة أن يخاطر في القتال ليلاً. وكان رأيه أن يُبقي الطوق المضروب حولهم لتأمين عدم فرارهم، ثم الاشتباك معهم في اليوم التالي لإحرازه التفوّق العددي عليهم. إلاّ أن الضباط المتقدّمين في السنّ خالفوه في الرأي وتمكنوا باللجاجة والتشجيع من استحصال موافقته على شنّ الهجوم فوراً. وكان القمر الذي يكاد يأفل ينشر نوراً كافياً لتميز الأجسام، والليل ليس بحالك السواد. ولم يكن هذا في مصلحة جيش الملك بطبيعة الحال. لأن الرومان كانوا يواجهونهم والقمر وراءهم، إذ لم يكن بينه وبين المحاق إلاّ قليل من الوقت، فصار نوره يلقي ظلالاً مديدةً أمام أجسام الرومان حتى تكاد تبلغ صفوف العدوّ الذي أصيب بخداع البصر، فلم يعد في وسعه تقدير المسافات تقديراً دقيقاً وتصوّر المهاجمين قريبين منه فراح يقذف الرماح على الظلال دون أن يصيب هدفاً أو ينال مأرباً. وما إن أدرك الرومان حقيقة الأمر حتى انقضّوا عليهم وهم يعدون عدواً بصيحة راعدةٍ. فأوقعوا الرعب في البرابرة، ووهت عزائمهم ولم يسعهم تحمّل الهجوم فداروا على أعقابهم منهزمين فأوقع فيهم مذبحة عظيمة وقتل منهم ما يربو على عشرة آلاف واستولى على المعسكر.

أمّا ميثيريداتس فقد قاد في أول المعركة ثمانمائة من الخيّالة وهجم مخترقاً صفوف الجيش الروماني وهكذا نجا. إلاّ أن هؤلاء ما لبثوا أن تفرّقوا عنه، قسمٌ توجّه في طريق، وقسم سلك آخر، ولم يبق معه غير ثلاثة أشخاص من بينهم محظيّته هپسيكراتيا Hypsicratia وهي فتاة لها شجاعة الرجال وإقدامهم. ولذلك سمّاها الملك «هپسيكراتوس» بالمذكر. وكانت تلبس لباس الفرسان وتركب الخيل. وقد صحِبت الملك في كلّ تنقلاته وهو فارّ دون أن يعتريها كلل ولا تردد حتى في أطول الرحلات وأشقها، ولم تكن تتعب من خدمة الملك بنفسها والاعتناء بجواده كذلك. وبلغت بهم خاتمة المطاف إينورا Inora وهي قلعة من قلاع الملك جمع فيها كلّ ذهبه وكنوزه. فأخرج أنفس الكسوة وفرّقها على من ظلوا معه. كما دفع إلى كل واحدٍ من أصدقائه بمقدارٍ من السمّ الزُّعاف، يتناولونه عندما تتعذر عليهم النجاة من يد العدوّ. واتصل من هناك بديكران وطلب اللجوء إليه فأباه عليه وأعلن عن مكافأة قدرها مائة تالنت لكل من يقبض عليه. فيمّم ميثريداتس جهة أعالي الفرات وسار بمحاذاته وفرّ إلى داخل بلاد كلوخيس. وشنّ پومپي في الوقت ذاته حملةً على أرمينيا، بدعوةٍ من تيكران الابن الذي

شق عصا الطاعة على أبيه الملك. واجتمع بيومبي في موضع ما بالقرب من نهر أراكس الذي ينبع قريباً من أعالي الفرات، إلاّ أنه يميل عنه شرقاً وينحرف في مجراه حتى يصب في بحر قزوين. فزحف كلاهما معاً وتوغّلا في البلاد وأخذت المدن تسقط في يديهما وتقدّم لهما الطاعة تباعاً. إلاّ أن ديكران الملك الذي كان قد عانى الكثير من حروبه مع لوكوللوس، ولسبق علمه بأن پومپي شخص رحيم ذو طبع رقيق، أفسح صدره للعسكر الروماني وسمح لهم بدخول قصوره الملكية وأخذ معه أصدقاءه وذويه وشخص بهم إلى پومپي ليسلّم نفسه إليه. وبلغ الخنادق الرومانية وهو على صهوة حصانه فاعترضه ليكتوران من حرس پومپي وأمراه بالترجّل والسير على قدميه، فالتقليد يحظر على أي كان دخول المعسكر الروماني راكباً. فلبّى ديكران طائعاً ولم يكتف بالنزول عن حصانه بل تخلّى عن سيفه أيضاً. وختم هذا التصاغر بنزع قلنسوته الملكية حال مثوله أمام پومپي ولمّا همّ بإلقائها تحت قدميه، لا بل عندما أراد هو نفسه أن يخرّ جاثياً تحت قدميه مستعطفاً، منعه پومپي، وأخذ بيده وأجلسه إلى جانبه، بينما وقف تيكران الابن إلى الجانب الآخر. وقال له إنه يجب أن يتحمّل كل الخسائر التي أوقعها به لوكوللوس فهو المسؤول عنها، وعليه وحده تقع تبعة تجريده من سورية وفينيقية وكيليكيا وغلاطيا وسوفيني Sophene. إلاّ أن كل ما احتفظ به خلاف هذه الأقطار حتى الساعة فهو ملك حلال له، من حقه التصرّف به كما يشاء وبكل أمان. ولكن عليه أن يدفع ستة آلاف تالنت كغرامةٍ أو كقصاصٍ لقاء الأضرار التي ألحقها بالرومان، وأن يتنزل لابنه عن بلاد سوفيني ليملك عليها مستقلاً. فسرّ الملك كثيراً بهذه الشروط وعقد الصلح، وبلغ به الفرح منتهاه عندما حيّاه الرومان تحية الملوك وهزّته الأريحية فأمر بأن يدفع لكلّ جندي نصف مينا من الفضة، ولكل سنتوريون عشراً، ولكل تريبيون تالنتاً واحداً. ولم يسرّ الابن بهذا الاتفاق، ولما دعي للعشاء أجاب رسول پومپي بقوله إنه ليس بحاجة إلى أن ينعم عليه پومپي بهذا الشرف، وسيجد رومانياً آخر غيره ليتناول معه العشاء. فلم يكن من پومپي إلاّ أن وضعه تحت الاعتقال محتفظاً به لموكب النصر. ولم يمرّ طويل وقت إلاّ وأرسل فراهاط ملك الپارثيين يطلب من پومپي ردّ الفتى تيكران إليه، لأنه ختنه. وأعلمه بأن نهر الفرات سيكون خط الحدود بين إمبراطوريتيهما. فأجابه پومپي يقول: أمّا بخصوص تيكران فوالده أقرب وأحق من حميّه بطلب ردّه، وأما بخصوص الحدود فيرى أن تكون وفقاً لمبادئ الحقّ والعدالة. ثم إنه ترك أرمينيا بعُهدة أفرانيوس وخرج هو لتعقيب ميثيريداتس واضطر أن يخترق عدداً من الشعوب والأمم التي كانت تسكن منطقة جبال القفقاس وأبرز تلك الشعوب اثنان: الألبان

Albanians والإيبريون Iberiaus. وكانت بلاد الشعب الأخير تمتد حتى الجبال الموسخيّة Moschian والبحر البونطي. في حين كانت بلاد الألبان تمتد شرقاً حتى قزوين. وسمح هؤلاء الألبان لپومپي بالمرور عبر أراضيهم بناء على طلبه في مبدأ الأمر، فلمّا أدرك الرومان الشتاء وهم في تلك البلاد وبينما كانوا منهمكين في الاحتفال بأعياد زُحل حشد هؤلاء قوة لا تقلّ عن أربعين ألف مقاتل وعبروا نهر قيرنوس Cyrnus الذي ينبع من جبال إيبريا ويرفد فيه نهر أراكس فور صدوره من أرمينيا، ليصبّ بعدئذ في بحر قزوين باثني عشر فم (يقول آخرون إن أراكس لا يصبّ فيه وإنما يجريان متحاذيين ويصبّان في البحر نفسه متجاورين). وبعد عبورهم باغتوا الرومان، وكان بإمكان پومپي أن يعترض سبيلهم ويحول دون عبورهم، لكنه آثر عدم التدخل، وتركهم يجتازون النهر بأمان ثم تحوّل عليهم بعسكره وفتك بعدد كبير منهم في ساحة القتال وكسرهم شرّ كسرة. وعندئذ بعث ملكهم وفداً إليه يعلن خضوعه فعفا عنه رجاء وتوسّلات، وعقد معه معاهدةً. ثم استدار فوراً نحو الإيبريين وهم لا يقلّون عدداً عن الألبان لكنهم يفوقونهم قوةً وبأساً، كما كانوا يرغبون جداً في إرضاء ميثيريداتس وطرد پومپي.

لم يكن هؤلاء الإيبريون يدينون بالطاعة للماديين أو الفرس، ونجحوا أيضاً في المحافظة على استقلالهم من الحكم المقدوني، وهذا يعود إلى سرعة الإسكندر الخاطفة في اجتيازه هركانيا Hercania. على أن پومپي أتمّ إخضاع هؤلاء أيضاً بعد معركة طاحنة قتل فيها تسعة آلاف منهم، وأخذ أكثر من عشرة آلاف أسير. وعبر من هذه البلاد إلى كلوخيس حتى التقى بسرفيليوس Serviluis على نهر فاسيس Phasis قادماً إليه بالأسطول الذي كان يحرس به البحر البونطي.

كان تعقيب ميثيريداتس الذي قذف بنفسه في أعماق قبائل البوسفور وسواحل البحر المايوتي Mæotian، يضع أمامه صِعاباً جمّةً هائلة. ولقد وردته أنباء ثورةٍ قام بها الألبانيون ثانية. وهذا ما حمله على أن يكرّ راجعاً وهو في أشدّ حالات الغيظ والعزم على كسر شوكتهم، وانثنى يعبر نهر قيرنوس مرة أخرى مستهدفاً لمخاطر عظيمة وعقبات جسيمة. وكان هذا الشعب البربري قد تولّى تحصين مسافة عظيمة من ضفّته الأخرى بالأوتاد الخشبية ونبات الشوك فاجتازها، ليعاني مسيرةً شاقّة بمروره في أرض وعرةٍ قاحلة لا ماء فيها، لكنه احتال على ذلك بأن ملأ عشرة آلاف قربة بالماء. واقترب من العدوّ ليجده مستعداً لخوض المعركة وقد اصطفّ عسكره بالقرب من نهر أباس Abas وكان عددهم ستين ألفاً من الخيّالة واثني عشر ألفاً من الرجّالة، إلاّ أن سلاحهم

لم يكن جيداً على العموم، ومعظمهم عُراة لايكسو جسمهم غير جلود الوحوش الضارية. وكان قائدهم أخو الملك ويدعى كوسيس Cosis الذي أخذ يجدّ في طلب پومپي عند بدء المعركة حتى انفرد به وبادره بطعنة رمح موجّهة إلى مفصل دروع صدره. وفي عين الوقت أصابه پومپي بطعنة رمح اخترقت جسمه فأرداه قتلاً. وقيل والعهدة على الراوي إن الأمازونات كنّ يقاتلن متطوّعاتٍ في صفوف البرابرة وقد انحدرن إليهم قادمات من الجبال المجاورة لنهر ثيرمودون Thermodon. إذ إن الرومان الذين أخذوا بعد انتهاء المعركة يجمعون الأسلاب والغنائم عن ساحتها وجدوا عدداً من التروس المدوّرة، والأحذية الأمازونية. إلاّ أنهم لم يعثروا من بين القتلى على جثة امرأة واحدة. والأمازونات يعشن في أنحاء من جبال القفقاس التي تنحدر سفوحها حتى بحر هركانيا وليست تجاور الألبانيين مباشرة، وإنما يكون بينهما شِعْباً كيلي Galæ وليغيس Leges. وهنّ يعاشرنَ هذه الشعوب شهرين فقط من كل عام بالقرب من نهر ثيرمودون ثمّ ينقلبنَ إلى ديارهنّ ويبقينَ وحيدات بقية العام.

واستولت على پومپي بعد هذه المعركة رغبة شديدة في التقدم نحو بحر هركانيا وقزوين لكنه اضطر إلى الارتداد عنه بعد أن أصبح فهو على مسافة ثلاثة أيام منه، بسبب وجود كثير من الأفاعي السامّة. وانسحب إلى أرمينيا السفلى. وفي أثناء وجوده هناك بعث ملكا الايليميين Elymæns والماديين بسفراء إليه فاستقبلهم لقتال ملك البارثيين الذي قام بعدّة غارات على گورداييني Gordyene، وسلب رعايا ديكران فأوقع به في معركة طاحنة ثم عقب فلوله تعقيباً لاهوادة فيه حتى إقليم أربيل Arbela.

ولم يحتفظ پومپي لنفسه بأية محظية من محظيات الملك ميثريداتس اللاتي جيء بهنّ من بنات أو زوجات الأمراء والقادة الكبار، ما خلا ستراتونيكي Stratonice التي كانت تتمتع عنده بأوسع السلطان والسطوة، ولهذا أودع لديها أفضل قلعة من قلاعه وأحفلها بالكنوز، فهي كما قيل ابنة مغنّ شيخ رقيق الحال اتفق أنها كانت تغني في مأدبةٍ أمام ميثريداتس فوقعت من نفسه موقعاً حسناً، فأدخلها حريمه وصرف والدها الشيخ دون أن يوجّه إليه كلمة طيّبة واحدة فخرج بائساً مغموماً. لكنه استيقظ في اليوم التالي بحالٍ مختلفةٍ، فقد وجد أمامه موائد فُرشت عليها أفخر الأغطية وفوقها صِحاف من الذهب والفضة، كما شاهد أفواجاً من الخدم والأتباع والوصائف والحجّاب يتقدمون إليه بأنفس الثياب ووجد حصاناً أمام عتبة الدار عليه أبدع سرج وأنفس الأغطية، بالاختصار حفّ به من المظاهر ما يحفّ عادة بكل مقرّبي الملك وذوي الحظوة لديه. فلم تصدّق عيناه وظنّها لعبة زائفة يراد بها التفكه عليه والاستهزاء به

وتحقيره. فقام يريد الهرب إلاّ أن الخدم والحجّاب أمسكوا بتلابيبه وتكاثروا عليه حتى أبقوه وأقنعوه بأن الملك قد أنعم عليه في الواقع بهذه الدار وبما فيها، وكانت من أملاك رجل توفّي مؤخراً، وأفهموه أن ما يراه الآن ما هو إلاّ مقدّمة العطايا والإنعامات، وأن ما سيُخلع عليه أكثر بكثير. فاقتنع وصدّقهم بعد لأيٍ. وارتدى الأرجوان وركب حصانه وخرج إلى أحياء المدينة وهو لايفتأ يردد صارخاً «كل هذا من مالي وحلالي!» وردّ على أولئك الذين سخروا منه قائلاً: «ليس العجيب هو ما يرونه من أمره، ولكن العجيب هو أنه لم يقذف من يلقاه بالحجارة» فقد كاد يجنُّ فرحاً في الواقع. وهذا هو أصل ستراتونيكي ومنبتها. وقد جاءت إلى پومپي وعرضت عليه أن تسلّمه القلعة، وقدّمت له كثيراً من الهدايا الغالية الثمن فلم يقبل منها إلاّ ما وجده صالحاً ليزيّن به معابد الآلهة، وليضفي به على موكب نصره المزيد من الروعة والفخامة، وترك الباقي لها تتمتع به وتتصرف كما تشاء.

وكان هذا شأنه بالهدايا التي قدّمها له ملك إيبريا. فقد أرسل إليه هذه الملك سريراً ومنضدةً وعرشاً كلها من الذهب. وطلب منه قبولها إلاّ أن پومپي أرسلها إلى بيت المال لتكون من الأموال العامة ولتُنفق في سبيل الجمهورية.

وفي حصنٍ آخر من حصون ميثريداتس وجد پومپي مخطوطات سرّية بقلم ميثريداتس فقرأها ملتذاً مستمتعاً وكانت تتضمّن الكثير مما أوضح له حقيقه شخصه. فمن الأمور الكثيرة التي حوتها مذكراته ما يوضح أنه فتك بابنه أريارتس بدسّ السمّ له. كذلك فتك بألكيوس Alcæus الساردسي Sardis لأنه أحرز قصب السبق عليه في مباراة طردٍ للخيلِ. وقرأ فيها أيضاً تفسيرات وأحكامٍ لرؤى وأحلام شاهدها هو بنفسه أو رآها بعض محظياته. وكانت ثمّ أيضاً مجموعة من الرسائل الغرامية الداعرة كتبتها إليه محظيته وكتبها اليها. كذلك عثر على رسالة موجّهة إليه من روتيليوس Rutilius يغريه فيها بقتل الرومان كافةً في آسيا، كما حدثنا تيوفانس، على أن الأغلبية تميل إلى الاعتقاد بأن هذا هو دَسّ من تيوفانس واختراع خبيث منه. ذلك لأنه - كما يرجح - كان يبغض روتيليوس، للفرق الكبير بين أخلاقهما. ومن يدري فلعلّه أراد بهذا الدسّ إرضاء پومپي الذي كتب روتيليوس عن أبيه قادحاً واصفاً إياه بأنه أحقر الأحياء وأنذلهم.

وترك پومپي هذه الأرجاء وجاء إلى مدينة أميسوس Amisus. وهناك أقدم على فعلٍ يمكننا القول بأنه كان بمثابة عقابٍ ذاتي أوقعه بنفسه، وكان الدافع إليه اندفاعه الشديد نحو الشهرة والمجد. ففي حين رأيناه يشتطّ في عيب لوكوللوس وينتقده أشد

انتقاد بقوله: «انه كان منصرفاً إلى إصدار المراسيم وتوزيع الجوائز والعطايا، كما اعتاده الفاتحون عند ختام كل حرب من الحروب، في الوقت الذي كانت الحرب قائمة فعلاً» نراه الآن يُقدم على ما انتقده في غيره. فقد استقرت مملكة ميثريداتس في البوسفور وبات حكمه هناك وطيد الأركان، وتحت إمرته جيش جرار. أما هو فقد انصرف إلى تنظيم أمور الأقاليم وتوزيع المكافآت، وجمع حوله بطانة كبيرة من كبار القوّاد والأمراء وما لا يقلّ عن اثني عشر ملكاً، كأن الحرب انتهت وعُفي عنها. ولكي يرضي هؤلاء الملوك لم يخاطب ملك البارثيين بلقب «ملك الملوك» في رسالة خطّية بعث بها إليه كما جرت العادة بمخاطبة هذا الملك.

وتملّكته فضلاً عن ذلك رغبة شديدةٌ وميلٌ لايقاوم للاستيلاء على سورية والوصول إلى سواحل البحر الأحمر عبر جزيرة العرب، وبذلك تمتدّ فتوحاته إلى كلّ طرف من أطراف الأرض حتى البحر المحيط الذي يدور بالمعمورة. ففي أفريقيا كان أول روماني بلغت انتصاراته حتى الأوقيانوس، وفي إسبانيا جعل المحيط الأطلسي حدوداً للإمبراطورية. وفي مطاردته الأخيرة للألبانيين لم يبق بينه وبين بحر هركانيا إلاّ مسافة بسيطة ، وبناء على ذلك فقد رفع أطناب معسكره وسار بجيشه تنفيذاً لخطته في جعل البحر الأحمر ضمن نطاق حملاته، بعد أن وجد من الصعوبة بمكان اللحاق بميثريداتس وتعقيبه بجيشه، وكيف كان هذا الملك خصماً عنيداً في الفرار أكثر منه في ساحة القتال. على أنه صرّح قائلاً إنه سيترك أمام ميثريداتس خصماً أشدّ وأنكى منه وهو المجاعة والقحط، يقصد بهذا أنه وضع قطعاً من أسطوله في فم البوسفور وجعله يلقي مراسيه فيه لإلقاء القبض على التجار القاصدين تلك البلاد ببضائعهم، وفرض عقوبة الموت على كل من يحاول نقل الأرزاق إلى هناك.

وسار متقدماً بالقسم الأعظم من قواته. وعثر وهو في زحفه على عدد من الجثث ملقاة على الأرض، وكانت جثث الجنود الذين قتلوا مع تياريوس Tiarius في معركته السيئة الحظّ مع ميثريداتس. فدفنها دفنةً لائقة وبالمراسم الواجبة. ويظنّ أن إهمال لوكوللوس القيام بهذا العمل كان أهمّ سبب من أسباب بغض الناس له وفقدانه محبة جنوده. وتمكنت وحدات جيش پومپي التي هي بإمرة أفرانيوس من إخضاع العرب القاطنين حوالي جبل أمانوس Amanus. أما هو فدخل البلاد السورية فلم يجد أميراً شرعياً يحكم فيها وإنما كان عرشها خالياً فجعلها إقليماً من الأقاليم الرومانية. كذلك أتمّ فتح بلاد اليهودية وأسر ملكهم أرسطوبولس Arisrobolus. وأعاد بناء بعض المدن وحرّر مدناً أخرى وعاقب الطغاة الذين استعبدوها. وأنفق معظم الوقت الذي قضاه في

تلك الربوع يفضّ نزاعات الملوك والدول، وكان يعهد بهذه المهمة إلى معتمديه وأصدقائه حيثما لايستطيع الحضور في التحكيم بنفسه. مثال ذلك النزاع الذي نشب بين الپارثيين والأرمن حول بعض الأصقاع، فقد أُحيل الموضوع إليه ليكون حكماً فعهد به إلى ثلاثة من المحكمين لسماع القضية بدلاً منه وفُضّ النزاع بقرار منهم. وهكذا كانت دائرة سطوته واسعةً، ولم تكن عدالته ورحمته بأقلّ صيتاً من نفوذه وسلطته. إلاّ أن تلكما العدالة والرحمة كانتا في الواقع ستاراً لما لا يُعدّ أو يحصى من الأخطاء التي ارتكبها أصدقاؤه والمقرّبون منه أو لم يكن من عادته إيقاف المخطئين عند حدٍ أو إنزالِ القصاص بهم. وكان دائماً يتخذ مع المتصلين به أسلوباً خاصاً يجعلهم به ساكتين صابرين على أعمال الاستغلال والاضطهاد التي يقوم بها الآخرون.

وكان بين خلصائه من يدعى ديمتريوس، يتمتع لديه بأكبر المكانة وأوسع النفوذ، وكان عبداً محرّراً وشاباً حسن الإدراك إلاّ أنه وقح صفيق الوجه وهو في مركزه الذي حباه به الحظّ. وتروى عنه الحكاية الآتية: «كان الفيلسوف كاتو قد طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته وهو بعد في غضارة شبابه لما امتاز به من العقل النبيل. قام هذا الفيلسوف برحلة إلى مدينة أنطاكية ترويحاً للنفس ووصلها في وقت لم يكن پومپي هناك. واشتاق للاطّلاع على معالم المدينة فسار إليها ماشياً كعادته في حين امتطى أصحابه ظهور الخيل برفقته. فشاهد عند أبواب المدينة عصبة من الناس يرتدون حُللاً بيضاء، وكان الشبان منهم على جانب من الطريق، والفتيان على الجانب الآخر. وظنّ أنهم يريدون الاحتفاء به بصورة غير رسمية فاستاء كثيراً لأنه كان زاهداً في مثل هذه التظاهرات كارهاً لها على الإطلاق. ومهما يكن فقد استسلم للأمر الواقع وطلب من أصحابه الترجّل والسير معه. وما إن اقتربوا من وفد الاستقبال حتى برز قائدهم وهو يحمل قلادة وعصا وتقدّم من كاتو ورفاقه مستفسراً عن ديمتريوس أين خلّفوه ومتى سيجيء؟ فقهقه رفاقه ضاحكين إلا أن كاتو لم يقل غير هذا «وأأسفي على المدينة البائسة» ومضى يغذّ السير من دون أن ينبس بكلمة أخرى. وعلى أية حال فإن تغاضي پومپي عن ديمتريوس جعل من هذا الأخير أخطر مصدرٍ من مصادر البغض والنفرة بسبب صبر پومپي على وقاحته وصفاقته وشدّة خيلائه. ويروي الناس على سبيل المقارنة كيف كان پومپي شديد الاحترام لضيوفه، وكيف يكون في غاية اللطف في استقبال أصدقائه عند دعوتهم إلى مأدبة، وكيف يظلّ قائماً حتى يكتمل عقدهم ولا يأخذ معقده إلاّ بعد جلوسهم جميعاً، في حين يكون ديمتريوس منبطحاً على سريره غير مكترثٍ بأحدٍ وقد غطّى رأسه بجبّته حتى تتدلّى حواشيها وتخفيه. ورأى كيف أنه

ابتاع قبل عودته إلى إيطاليا منزلاً ريفياً جميلاً بالقرب من روما، تزيّنه أبدع المماشي وساحات الرياضية والملاعب وأجمل الحدائق والرياض، أطلق عليه اسمه ديمتريوس، في حين كان پومپي سيّده مكتفياً حتى ما بعد موكب نصره الثالث بمنزل اعتيادي بسيط. صحيحٌ أنه عندما قام بتشييد ملعبه الشهير الفخم لأهالي روما بنى لصقه ما يشبه الملحق واتخذه لنفسه بيتاً وكان أفخم بكثير من منزله السابق، إلاّ أنه لم يصل به من الفخامة ما يمكن أن يثير به حسد الناس وتقوّلاتهم، لأن الشخص الذي امتلكه بعد پومپي لم يسعه إلاّ الاستغراب والتساؤل عن الموضع الذي اعتاد پومپي تناول طعامه فيه من المنزل. وهذا هو ملخّص للرواية التي وصلتنا.

لما أخذ القلق العظيم يساور ملك العرب في البتراء Petra (وكان حتى تلك الساعة يستخفّ بشوكة روما) سارع بإرسال رسائل إلى پومپي يعده فيها بإطاعة أوامره والبقاء رهن إشارته وتنفيذ كل طلباته. ومع أن پومپي كان واثقاً بأن هذا الملك سيبقى على وعده ويحافظ عليه فقد مضى في عزمه وتقدّم نحو البتراء. ولم يخلص عمله هذا من انتقاد الكثيرين، فقد وجدوا أنه لايعدو شكلاً من أشكال التهرّب عن الواجب الصائب وهو مطاردة ميثريداتس خصم روما العتيق اللدود الذي راح الآن يشعل نيران حربٍ أخرى ويستعدّ لخوضها، وأنه كما أوردت الأنباء ينوي قيادة جيشه عبر سكيثيا وپايونيا Pæonia إلى قلب ايطاليا. ولما كان پومپي قد توصل إلى الاعتقاد بأنه لأسهل عليه تدمير قوات ميثريداتس في معركةٍ من النجاح في القبض عليه في أثناء فراره من وجهه، ولهذا لم يشأ إنهاك قواته في مطاردة لا طائل تحتها، بل رأى أن يصرف وقته في مقارعة عدوّ آخر تزجيةً لوقت فراغه بنوع ما من العمل. ولكن الحظّ جاءه بالخبر اليقين المنشود، من حيث لايدري، فبينما كان على مسافة قريبة من البتراء ضارباً خيامه معسكراً للاستراحة، يقوم بإجراء بعض التمارين على ظهر جواده خارج المعسكر، إذ أقبل السُّعاة ينهبون الأرض بخيولهم قادمين من الپونطس يحملون البشائر والأنباء السارّة، ذلك لأنهم كانوا قد رفعوا على رؤوس رماحهم تيجاناً من أغصان الغار وهي إشارة الأنباء كما جرت العادة عليه. فما إن تبيّن الجنود العلامة حتى أخذوا يتقاطرون حيث كان پومپي وأحاطوا به ولم يكن يبدو عليه أيّ اهتمام بالأمر غير الاهتمام بإنهاء تمارينه. فبدأ ضجيجهم يتعالى وأصواتهم تجأر، فترجّل وتسلّم الرسائل وسار قاصداً المعسكر وهم وراءه. ولم يكن هناك رابية عسكريّة، حيث جرت العادة في كلّ معسكر أن يعمل بدل المنصّة المعهودة مرتفعٌ يتألف من طبقات سميكة من التربة المعشوشبة يُكدّس بعضها فوق بعضٍ. فدفعتهم اللهفة لسماع الأنباء إلى جلب سروج الخيل

وتكديسها حتى إذا تمّ ذلك صعد عليها پومپي وأبلغهم بنبأ موت ميثيريداتس وقرأ عليهم كيف أنه وضع حدّاً لحياته بعد أن ثار عليه ابنه فرناكيس Pharnaces وكيف أن فرناكيس هذا قد تسلّم مقاليد الحكم واستتبّ له الأمر فوضع الأمور كلها في نصابها لمصلحته ولمصلحة الرومان - كما تدل عليه الرسائل الواردة. فغمر الفرح الجنود وراحوا يعبّرون عنه كالعادة ينحر الذبائح وتقديم القرابين للآلهة وإقامة المهرجانات، حتى لكأن الآلاف المؤلّفة من الأعداء قد هلكوا بموت ميثيريداتس.

وبهذه الخاتمة غير المتوقّعة الخالية من العناء وُضعت نهاية للحرب في الشرق فلم يعد لپومپي ما يفعله وأسرع بالرحيل عن بلاد العرب ومرّ بالأقاليم الوسطى مروراً خاطفاً حتى بلغ مدينة أميسوس Amisus وكان ينتظره فيها كثير من الهدايا التي أرسلها إليه فرناكيس بينها عدد من جثث الأسرة الملكية، فضلاً عن جثة ميثيريداتس نفسه. وكان يصعب تبيُّن ملامح وجهه لأن الأطباء الذين تولّوا تحنيطه لم يجفّفوا مخّه. ولكنّ أولئك الذين غلبهم الفضول لرؤيته عرفوه من ندوب جسمه. إلاّ أن پومپي كره التطلّع إليه، وسارع بإرسال جثمانه إلى مدينة سينوپ Sinope تحاشياً لسخط الآلهة. وكانت دهشته لنفاسة ثيابه لا تقلّ عن دهشته من فخامة شِكّة سلاحه. إلاّ أن سيفه الذي بلغت قيمته أربعمائة تالنت، سرقه پوبليوس Publius وباعه من أرياراتس Ariarathes. وتاجه الذي كان يعتبر آية من آيات الدقة في الصناعة، فإن گايوس Gaius الذي هو أخ ميثيريداتس بالرضاعة دفع به سِرّاً إلى فاوستوس Faustus ابن سيلّلا بناء على طلبه. وكل هذا كان مجهولاً عند پومپي إلاّ أن فرناكيس لم يتردد في إنزال العقاب الصارم بالمختلس عندما انكشف له الأمر.

بعد أن وطّد پومپي شؤون الحكم في هذا الإقليم وأرسى قواعد الإدارة فيه، شرع برحلة العودة إلى الوطن بكثير من الأبّهة والفخفخة والعديد من المهرجانات والولائم التي كانت تقام على شرفه في الطريق. وعند وصوله مدينة ميتلين Mitylene منح أهلها الحرية بتوسطٍ من ثيوفانس. كما حضر فيها مباراة بين الشعراء جرت العادة بإقامتها دورياً. ولم يكن للمبتارين من موضوع يطرقونه ولا وترٍ يضربون عليه غير أعمال پومپي ومآثره. وأُعجب كثيراً بالملعب الذي جرت فيه المباراة وأمر بعمل أنموذج مصغّر له وفي نيّته تشييد مثيلٍ له في روما على أن يكون أوسعَ وأفخمَ منظراً. وبوصوله إلى رودس حضر دروس كلّ الفلاسفة، ومنح كل واحدٍ منهم تالنتاً من الذهب. وقد قام پوسيدونيوس Posidonius بنشر مناظرة له مع هرماگوراس Hermagoras النحوي في موضوع «الاستنباط» بصورة عامة، تمّت أمام پومپي هناك. وفي أثينا أبدى للفلاسفة

أيضاً كلّ كرمٍ وحفاوة فمنح المدينة خمسين تالنتاً تصرفها في ترميمها وتجميلها. والقصد من كل هذا أنه كان يريد أن يرافق دخوله إيطاليا دويٌّ فيه من الجلال والروعة ما لم يُتح لأيّ إنسان قبله، وكان يتوقع أن يجد في أسرته من الشوق لرؤيته قادماً إلى أرض الوطن قدرَ ما كان يحسّ به هو نفسه. إلاّ أن الإرادة التي تعلو على إرادة البشر والتي كان من طبعها ومن مهامّها أنها لا تترك الخير مهما عظم شأنه إلا وتشوبه بشيء من الشرور، إرادة الحظّ هذه كانت لمدّة من الزمن منشغلةً في بيته تُهيّئ له استقبالاً أليماً فزوجه موشيا Mucia دنّست فراشه أثناء غيبته. وكان وهو على بُعدٍ من البلاد يأبى أن يصدّق تلك الأنباء، لكنه أصبح أكثر انطلاقاً وحرية في التفكير عندما دنا من البرّ الإيطالي، فأخذ يكثر التأمل والتمعّن في التهمة. ثم ما لبث أن بعث إليها بكتاب طلاقٍ فحسب، ولم يعط فيما بعد أي سببٍ لاتخاذه هذه الخطوة لا بالقول ولا بالكتابة، على أن هذا السبب مذكور في رسائل شيشرون.

انتشر في الخارج مختلف ألوان الشائعات حول پومپي وسبقته إلى روما وثارت الخواطر وهاجت النفوس وازداد القلق بما شاع من أنه زاحف بجيشه على المدينة رأساً، وأنه سيدخلها عنوةً ويجعل من نفسه الحاكم الأوحد. وعمد كراسوس إلى الخروج من المدينة مع أولاده وكل أمواله إمّا لأنه كان خائفاً فعلاً مما سيحدث وإما أراد التظاهر بالخوف ليقوّي التهمة وليعطي للشائعات وزناً فيستفزّ سخط الشعب على پومپي وهذا هو أصوب الاحتمالين. إلاّ أن پومپي أمر بتجمّع عام لجنود الجيش حالما وطئت قدميه أرض إيطاليا. وبعد أن ألقى فيهم خطبة مناسبة وتبادل معهم عبارات الوداع الرقيقة، أمرهم بالرحيل كل واحدٍ منهم إلى بلده أو مسقط رأسه موصياً إياهم أن لا يتأخروا عن الاجتماع ثانية للسير في موكب نصره.

وهكذا أتمّ تسريح جيشه، وبعد أن انتشر الخبر وتنفّس الناس الصعداء كان ردّ الفعل عجيباً مدهشاً. فقد خفّت المدن إلى استقبال «پومپي الأكبر» وهو يمرّ بالأرياف أعزل لايحمل سلاحاً، مع بطانة صغيرة من أخلص أصدقائه ليس غير، كأنه عائد من سفرة ترويح عن النفس لا من حروب وفتوح، وراح أهالي تلك المدن يتجمّعون زرافات ووحداناً لإظهار مدى تعلّقهم به وللسير في ركابه نحو روما حتى بلغ عددهم أضعاف الجيش الذي سرّحه. فلو كان ينوي القيام بأية حركة سياسية أو تنفيذ مؤامرة على الحكومة لحققها بسهولة دونما حاجةٍ إلى جيش.

كانت الشرائع الرومانية لا تسمح للقائد بدخول المدينة قبل أن تتمّ مراسيم موكب نصره. فأرسل پومپي يطلب من مجلس الشيوخ أن يمنّ عليه بفضلٍ، وهو تأجيل موعد

انتخاب القنصلين الحاكمين للسنة القادمة، ليكون قادراً على الحضور بسبب رغبته في تقديم التأييد لبيزو أحد المرشحين، فعارض كاتو في الطلب ورفض رفضاً قاطعاً. فلم يسع پومپي إلاّ الإعجاب بحرية القول التي امتاز بها كاتو وبجرأته وحده على استعمالها محافظةً على الشريعة وقواعد العدالة، ولهذا تملّكته رغبة عظيمة في أن يكسبه إلى جانبه ويشتري صداقته بأي ثمن. وكانت لكاتو ابنتا أخت، فطلب پومپي واحدة لنفسه وطلب الأخرى لابنه. إلاّ أن هذه الخطبة لم تقع في نفس كاتو موقعاً حسناً، وعَدّها مخططاً ماكراً يرمي إلى تشويه سُمعته وإخلاصه وطريقة لرشوته باتحاد عائلي يربطه إليه. وأبى متعرّضاً للوم امرأته وأخته واستيائهما لرفضه مصاهرة پومپي الأكبر، وبعد هذا بقليل رغب پومپي في ترشيح أفرانيوس للمنصب القنصلي، وتحقيقاً لغايته هذه وزّع مبالغ من المال على القبائل شراءً لأصواتها، وكان الناس يجيئون حدائقه لتسلّمها. فأثار عمله هذا كثيراً من الاستنكار لجعله المنصب القنصلي سلعةً يتاجر بها، ولأنه يريد شراء منصب كان هو قد حصل عليه كأسمى وأثمن مكافأة له على مؤهّلاته إلى شخص لايستطيع الحصول عليه بكفاءته. وعندئذ رجع كاتو يذكّر أخته وامرأته بقوله «أرايتما؟ لو أننا عقدنا أواصر القربى مع پومپي لكنّا اليوم نعتبر شركاء له في هذا العار» فلم يسعهما إلاّ الإقرار بسلامة رأيه ورجاحة حكمه على حكمهما.

ولم يزد الوقت الذي استغرقه موكب پومپي على يومين إلاّ أنهما ضاقا تماماً عما هُيّئ للاحتفال، بحيث إن ما أرجئ كان يعادل ما عُرض، وهو ما كان يكفي لتهيئة وتزيين موكبٍ ثانٍ. كانت ثمّ أولاً ألواح نُقشت عليها أسماء وأوصاف الشعوب التي تغلّب عليها وهي الپونطس، وأرمينيا وكبدوكيا، وفلاگونيا وميديا وكلوخيس والإيبريون، والألبان، وسورية وكيليكا وبلاد ما بين النهرين، فضلاً عن فينيقيا، وفلسطين وبلاد اليهودية وبلاد العرب، وكل رؤساء القراصنة الذين أخضعهم في البرّ والبحر. كما ظهر في تلك الألواح ثبتٌ بالاستيلاء على ما لا يقلّ عن ألف موقع محصّنٍ وما لاينقص كثيراً عن تسعمائة مدينة في كلّ البلاد الوارد ذكرها، مع ثمانمائة سفينة من سفن القراصنة. وجاء ثبت ببناء تسع وثلاثين مدينة. وكُتِبت على الألواح أيضاً قوائم بكلّ ما جبي من الضرائب في كل أنحاء الإمبراطورية، فظهر منها أن الواردات كانت قبل هذه الفتوحات لا تزيد عن خمسين مليوناً، في حين أنها زادت بعد فتوحاته حتى بلغت خمسة وثمانين مليوناً. وأن ما حمله معه للخزينة العامة من النقد والذهب والفضة والحلى بلغ عشرين ألف تالنت. وهذا هو المتبقّي مما وزّع على الجنود. وكان سهم پومپي من كل هذا مائة وخمسين درهماً فقط وهو أقل ما نال أصغر

جنديّ. أما عن أسرى الحرب الذين عرضهم في الموكب فقد شوهد إلى جانب زعماء القراصنة ابن ديكران ملك أرمينيا مع زوجه وابنته، وزوسيما Zosima زوج الملك ديكران نفسه، وأرستوبولس ملك اليهودية، وأخت ميثريداتس الملك مع أبنائها الخمسة، وبعض النسوة السكيثيات، ورهائن من الألبانيين والإيبريين، ورهائن من ملك كومّاجيني Commagene، فضلاً عمّا لا يُحصى من الأنصاب التذكارية الحربية لكلّ معركة انتصر فيها، إما بشخصه أو بأحدِ قواده. إلاّ أن أعظم ما ميّز موكب نصره، وجعله متفرّداً به عن أي روماني آخر، هو كون موكب نصره الثالث مُنِح له عن انتصاراته في الطرف الثالث من المعمورة أعني أنه بزّ أقرانه بأن كان موكب نصره الأول عن أفريقيا والثاني عن أوروبا والثالث عن آسيا. فبدأ في هذه المواكب الثلاثة وكأنه يقود العالم كله أسيراً إلى روما.

وبخصوص عمره بعد فتوحاته هذه، فان أولئك الذين يريدون أن يجعلوا منه صِنواً للإسكندر الكبير لا يقرّون بأنه بلغ الرابعة والثلاثين، في حين كان آنذاك يشارف على الأربعين. وكان من الخير له إذ ذاك لو انتهت حياته هنا، وهو ما يزال يتمتّع بيُمن طالع الإسكندر. ذلك لأن حياته التي عقبت ذلك إما كانت مصدر ترف ورفاهٍ له وهو ما جعله مكروهاً مبغضاً، وإمّا جلبت مصائب أعظم مما كان يمكن معالجتها. فالمكانة العظيمة التي حصل عليها بمؤهّلاته في نفوس الرومان، لم يستخدمها إلاّ في مناصرة شرور الآخرين فضيّع مجده وأنقص من مقامه بزيادته من مقامات الآخرين. حتى آل الأمر به في الأخير إلى السقوط بقوة وعظمة شخصيته. والمسألة بينه وبين قيصر كانت أشبه بالحصن الأمنع أو القلعة العظمى في المدينة فهي تبدي عين الصمود والمدافعة بعد استيلاء العدوّ فيها. وكذلك كانت حالة قيصر فبعد أن عظم شأنه وقوى مركزه بمساعدة پومپي إلى الحدّ الذي بات معه يتحدّى بلاده سارع أخيراً إلى تحطيم وإزالة تلك القوة التي ساندته في وجه الآخرين. وإليك فيما يأتي تفصيلاً لما جرى من الأحداث.

عاد لوكوللوس من آسيا مقهوراً جرّاء المعاملة المهينة التي لقيها على يد پومپي فهرع مجلس الشيوخ إلى استقباله بحفاوة عظيمة نكاية بپومپي. وزادت تلك الحفاوة والمنزلة بعد عودة پومپي إلى الوطن. أرادوا وضع حَدٍّ لطموحه فدفعوه إلى تولّي مقاليد الحكم حتى آلت همّته إلى الفتور، وعدم الاهتمام بإدارة دفّة الحكم بانغماسه الشديد بمتع الحياة واستسلامه للراحة، واستمتاعه بحظه العظيم من الدنيا. على أنه بدا خصماً لپومپي فترةً من الزمن وهاجمه هجوماً عنيفاً بحيث نجح في تطبيق كل الإجراءات

والأوامر التي أصدرها في حينه وعمل پومپي على إلغائها. ثم أصبحت له الكلمة النافذة في مجلس الشيوخ بمساندة كاتو.

وخابت آمال پومپي في مجلس الشيوخ ويئس منه فالتجأ إلى تريبونات الشعب لحمايته وعمل على تقوية صلاته بهم. واختص من بينهم كلوديوس أحقر الأنذال في الدنيا، وأقلّ من عليها حياءً، وأكثرهم شرّاً. وراح يصحبه في جولاته ويقدّمه للناس ويحرّكه كما يشاء كألعوبة في يده ويسير به في الساحة العامة بين الجماهير جيئة وذهاباً كيما يستمدّ منه التأييد المعنوي لتلك الخطب التي كان يلقيها، والقوانين التي يبشّر بها، تزلّفاً للشعب وتوصّلاً للحظوة بتأييده. أخيراً طلب من پومپي على سبيل المكافأة - كان ما قدّمه إليه خدمة عظيمة لا عاراً ألصقه به - أن ينبذ صديقه شيشرون (وقد فعل) وهو ذلك الصديق الذي طوّق عنقه بأعظم الخدمات في شتّى المناسبات الوطنية. وتفصيل ذلك أنه لما حاق الخطر بشيشرون وسأل پومپي العون رفض حتى مقابلته، وأغلق باب منزله في وجه من جاء ليتشفّع فيه، وتسلّل من الباب الخلفي إلى الخارج. فاضطر شيشرون إلى الرحيل عن روما سرّاً خوفاً من نتيجة المحاكمة.

وفي غضون ذلك عاد قيصر بعد إنهاء حملته العسكرية وأخذ يتبع سياسة بلغت به الحظوة في أعين الجماهير، وزادت كثيراً من نفوذه في المستقبل، كما برهنت على أنها سياسة مدمّرة لكلّ من پومپي والجمهورية. فقد أقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي لأول مرة. ولمعرفته التامة بما بين پومپي وكراسوس من عداء، ولأنه كان على إدراك تامّ بأن انضمامه إلى أحدهما سيجعل من الثاني عدوّاً له، فقد جاهد بشتّى الوسائل لإصلاح ذات البين فيما بينهما. وهو هدف نبيل بحدّ ذاته لو كان رائده فيه المصلحة العامة كأنه وهو القائم به كان أشبه بالمؤامرة الماكرة الشريرة. فقد كان على علم تام بأن الأحزاب المتنازعة والفئات السياسية المتخاصمة في الجمهورية هي أشبه بركّابٍ في قارب وظيفتها تحقيق التوازن في حركات القوى غير الثابتة والمتقلبة بفعل الأمواج. فلو اتّحدت تلك الأحزاب وانحازت كلها إلى طرفٍ من القارب فإنها ستحدث هزّة تكون نتيجتها المحتومة اختلال توازن القارب وجرّ الجميع إلى أعماق اللّجة. لذلك كان كاتو حكيماً في قوله للذين حمّلوا كل مصائب ونكبات روما على عاتق النزاع بين پومپي وقيصر: إنهم مخطئون بأن يعزوا إليهما هذا الجرم كل ما حصل، فصداقتهما لا عداوتهما واتفاقهما لا اختلافهما هما اللذان أصابا الجمهورية بأوّل الضربات وأعظمها.

وهكذا انتُخب قيصر قنصلاً فشرع في الحال بالتزلّف إلى الكادحين والفقراء

وخطب ودّهم بسنّ وتنفيذ تلك القوانين المتعلقة باستغلال أراضي المستعمرات ، وتوزيع الأراضي الزراعية عليهم، وهكذا أنزل جلال منصبه القنصلي ليجعله أشبه شيء بمنصب التريبون. وعندما عارضه زميله في الحكم بيبولوس Bibolus، وتحفّز كاتو لعضد هذا ومساندته، دفع قيصر بپومپي إلى المنصّة وطلب منه أمام ملأ من الناس الإدلاء برأيه حول القوانين المقترحة فسارع پومپي بإظهار رضاه عنها وموافقته عليها. فقال قيصر:

- إذن فأنت مستعدّ للوقوف بجانب الشعب، إذا ما عمد أي شخص إلى مقاومة تنفيذ هذه القوانين بالعنف؟

فأجاب پومپي يقول:

- أي نعم إني سأكون مستعداً، أما بالنسبة إلى أولئك الذين يهدّدون بالاحتكام إلى السيف، فسأتصدّى لهم بالسيف والترس.

لم يؤثَر عن پومپي قطّ أنه تفوّه أو أقدم على شيء شبيه بهذا قبل ذلك اليوم، ولا ما يدانيه في التحدي والصلافة. مما دعا مشايعيه إلى بذل الجهود العظيمة في الاعتذار عمّا بدا منه فقالوا: «إنها زلّة لسان وعثرة غير مقصودة». إلاّ أن تصرّفاته التالية دلّت بوضوح أنه وضع نفسه في خدمة قيصر بصورة كليّة. فقد أقدم على غير انتظار، وخلافاً لكل متوقع، على الزواج من يوليا بنت قيصر، وكانت مخطوبةً لغيره؛ وعلى أهبة الزواج من خطيبها كيپيو Cipio في غضون أيامٍ قلائل. ولأجل تهدئة غضب كيپيو عمد پومپي إلى إعطائه ابنته التي كانت مخطوبةً من قبل لابن سيلّلا المدعوّ فاوستوس Faustus. وتزوّج قيصر في الوقت ذاته كالفورنيا Calphornia بنت پيزو Piso.

وبعد هذا ملأ پومپي مدينة روما بالجنود وفرض كل شيء أراده بالقوة. وفيما كان بيبولس القنصل متوجهاً إلى الفوروم برفقة لوكوللوس وكاتو انقضّ بعضهم فجأة عليهم وكسروا حُزم عصيّ الحرس الخاص وصبّوا على رأس بيبولوس إناءً مملوءاً بالغائط وجرحوا اثنين من تريبونات الشعب كانا في معيّتهما جراحاً بليغة في أثناء الاشتباك. وهكذا نظفا الفوروم من خصومهما كافة. وتمكنا من فرض لائحة قانون تقسيم الأراضي وشرعوها. ولم يقف الأمر بهما عند هذا الحَدّ، فبعد أن ابتلعت جماهير الشعب هذا الطعم، وبات الجميع قاطبةً رهن إشارتهما، لم تعد تسأل أو تستفسر عن أي أمرٍ أو إجراءٍ، وكانت تعطي أصواتها بالموافقة على كل مشروعات القوانين التي يقترحانها دون الاعتراض بكلمةٍ واحدةٍ. وهكذا ثبّتا كلّ المراسيم والإجراءات التي أصدرها پومپي وكانت موضع معارضة لوكوللوس. وقرّر الشعب تسليمه حكم إقليم

الغال جنوب الألب وشماله مع الليريكوم Illyricum لمدة خمس سنوات. كذلك أُمِّرَ على جيش قوامه أربع فرقٍ كاملة العدد والعُدّة، ثم نصب للسنة التالية القنصلين پيزو حمو قيصر وگابينيوس أعظم متملّقي پومپي وأكثرهم تزلّفاً إليه.

وعلى أثر هذه الإجراءات حبس بيبولوس نفسه في منزله ولم يظهر في الحياة العامة طوال ثمانية أشهر متوالية مع أنه كان قنصلاً. وإنما كان يرسل بيانات حافلة بالنقد الحاد والاتهامات ضدّهما. وكاتو الذي ظهر أن أقواله كانت بمنزلة النبوءات والوحي المنزل لم يفعل شيئاً في مجلس الشيوخ غير التكهن بما سيحلّ بالجمهورية وبپومپي من كوارث ومصائب. أمّا لوكوللوس فاعتزل الحياة العامة لتقدّمه في السنّ وتقاعد مستسلماً لدواعي الراحة، الأمر الذي أتاح لپومپي فرصة القول إن متاعب الترف ما كانت أكثر ملاءمة لشيخ من متاعب الحكم. والواقع أن هذا القول كان يعكس وضعه الشخصي، إذ لم يمرّ وقت طويل بعد هذا حتى تركت له شدّة تعلّقه بزوجته الفتيّة الحرّية لتُسلمه هو أيضاً إلى حياة التخنّث. فقد أوقف عليها كل وقته، ولازمها إلى المغاني الريفية والى الحدائق غير ملتٍ بالاً البتّة على ما يحصل في الفوروم إلى الحَدّ الذي حمل كلوديوس الذي كان آنذاك تريبون الشعب على ارتكاب أشد أعمال التهوّر والطيش. فبعد أن نُفي شيشرون، وأُرسل كاتو إلى قبرص بمهمةٍ عسكرية تخلّصاً منه، وخرج قيصر في حملته إلى بلاد الغال، ما لبث أن وجد هذا التريبون أن الجمهور ينظر إليه كزعيم يستطيع أن يحقق كل رغباتهم. فحاول مباشرةُ إبطال بعض مراسيم پومپي. وبدأ بأن أخرج من السجن الملك الأسير ديكران وضمّه إليه وجعله أحد المقرّبين. ثم اتخذ إجراءات ضدّ عددٍ من أصدقاء پومپي هادفاً في ذلك إلى توسيع سلطانه. ثم وفي مناسبة من المناسبات كان پومپي حاضراً في مرافعة قضائية. فوقف كلوديوس في موضع يعلو على الآخرين وحوله جمع من رعاع القوم وأوباشهم وراح يلقي على الجمهور أسئلة كالآتي:

- من هو الجنرال الذي انغمس في الملذات؟
- من هو ذلك الرجل الذي عشق رجلاً آخر؟
- من هو ذلك الذي يحّك رأسه بإصبع واحدة؟

وبإشارة منه إذ يهزّ معطفه يردّ الرعاع والسوقة على كلّ سؤال من هذه الأسئلة، كجوقٍ يرتّل ترتيلاً مع المنشد، بصيحة عظيمة «پومپي، پومپي».

لم يكن هذا بالشيء الهيّن على پومپي الذي لم يتعوّد مطلقاً سماع أي تجريح بشخصه. كما كان أيضاً يفتقر إلى التجربة في مواجهة مثل هذه الأمور. وقد تعاظم

غضبه وحنقه عندما وجد مجلس الشيوخ ينضّم إلى هذه المظاهرة الدنيئة، وعدّها جزاءً عادلاً نزل به، لغدره بشيشرون. ولكنّ الأمر تفاقم وبلغ حَدّ القتال ووقوع إصابات في الفوروم. وقُبض على أحد عبيد كلوديوس وهو يزحف نحو پومپي متسللاً من بين الجمهور وبيده سيف مسلول. فاتخذ پومپي من ذلك حجّةً لاحتجابه في بيته، أو لربما اتخذها ذريعة للاحتجاب والتخلص من إهانات كلوديوس وبذاءة أقواله، فلم يظهر قطّ في الفوروم طوال بقاء كلوديوس في منصبه. ولازم منزله وقضى وقته في التشاور مع الموالين والأصدقاء حول إيجاد أفضل الوسائل لتهدئة سخط الأشراف وأعضاء مجلس الشيوخ عليه. ومن المقترحات التي بُحثت اقتراح تقدّم به كولليو Culleo بطلاق يوليا وفصم عُرى صداقته مع قيصر استجلاباً لرضا مجلس الشيوخ، فلم يوافق عليه. واقترح آخرون استدعاء شيشرون من منفاه، وهو رجل كان على الدوام خصماً عنيداً لكلوديوس وموضع إعزاز واحترام مجلس الشيوخ. وسهُل على الناصحين إقناعه بهذا فاستدعى أخاً لشيشرون إلى الفوروم وأرسل بمعيّته ثلّة قويّةً لتقديم طلب إلغاء حكم النفي عن أخيه. فحصل اشتباك عنيف قُتِل فيه عددٌ وجرح كثيرون، وتمّ له التغلّب على كلوديوس. وما إن عاد شيشرون إلى داره بعد صدور المرسوم حتى خفّ باذلاً كل جهوده لإحلال الصلح بين پومپي ومجلس الشيوخ. وساند القانون الخاص باستيراد القمح وتمّ تشريعه وبذلك جعل پومپي السيدّ المهيمن على كل ممتلكات الرومان بَرّاً وبحراً ووضع تحت سيطرته المباشرة جميع الموانئ والأسواق والمستودعات، وبمختصر القول، كل مجال نشاط التجار والزراع. وهذا ما حمل كلوديوس على انتقاد القانون بقوله إنه لم يُسنّ بداعي قلّة القمح بل إن نُدرة القمح افتُعلت افتعالاً لأجل سِنّ قانون يؤدي إلى بعث الحياة في سلطان پومپي بعد أن تسرّب إليه الضعف والانحلال، ولكي يستعيد منصبه الإمبراطوري من جديد. واعتبره آخرون خدعة سياسية احتالها القنصل سبنثو الذي كان من خططه ضمان المزيد من السلطة لپومپي وبذلك يؤمّن لنفسه التعيين بمنصب قائد للحملة المزمع إرسالها لنجدة پطليموس الملك. على أن كانيديوس Canidius التريبون اقترح قانوناً آخراً يتمّ بموجبه إيفاد پومپي سفيراً دون جيش، بلا أكثر من لكتورين، ليتوسّط في حَلّ النزاع الناشب بين الملك پطليموس وأهالي الإسكندرية من رعاياه، إلاّ أن پومپي لم يقبل، مع أن مجلس الشيوخ وضعه في قالب مقبول ظاهراً، وطرحه بشكل معقول يتضمن أن المجلس إنْ يقرّر ذلك فلغاية وحيدة هي تحاشي تعريض پومپي للأخطار، ألاّ أنه عثر على رقاع مكتوبة - أُلقيت هنا وهناك في الفوروم وبالقرب من قاعة اجتماع مجلس الشيوخ - أورد كاتبوها تعليقات ساخرة حول هذا القانون المقترح

كقولهم: كم سيكون بطليموس شاكراً لو عيّنوا پومپي جنرالاً تحت إمرته!، حتى ديكران الملك الأسير فقد قال مؤكداً إن بطليموس ترك مصر لا مضطراً ولا مكرهاً وإنما نزولاً عند مشورة ثيوفانس ليس إلاّ، وكان هذا عند الإدلاء بنصحه يرمي إلى إتاحة الفرصة لپومپي كي يحصل على قيادة جديدة وبجمع المزيد من المال. إلاّ أن افتقار ثيوفانس إلى الإخلاص لا يذهب به بعيداً إلى الحدّ الذي يجعل هذه الحكاية معقولة، بقدر ما كان خُلق پومپي بعيداً عنها. إذ كان طبعه ينفر من كل عملٍ دنيء خدّاع. مما يجعل الحكاية بعيدة عن الحقيقة رغم ما عُرف عن پومپي من الطموح إلى المجد.

وهكذا عُيّن پومپي مديراً عمومياً للإعاشة والأرزاق واتّسع سلطانه ليشمل كل تجارة الحبوب، وبعث بنواب له ووكلاء إلى أطراف المعمورة. وقصد بشخصه كلاًّ من صقلية وسردينية وأفريقية وجمع كمّيات هائلة من الحبوب. وفيما هو يهمّ بالإبحار عائداً إلى أرض الوطن، هبّت على البحر عاصفة هوجاء كاسحة وشكّ قباطنة السفن في السلامة، فما كان من پومپي إلاّ أن تقدّمهم إلى السفينه فصعد إليها وطلب من البحارة رفع المرساة قائلاً بصوتٍ جمهوري، «لما كانت الضرورة تقتضي الإبحار فلأن ثمّ ضرورة للحياة». وبهذه الروح الوثّابة والإقدام وبعد أن حالفه اليمن والتوفيق أكمل رحلته إلى الوطن بسلام وملأ الأسواق بالقمح، والبحر بالسفن. ونجم عن توفير الأرزاق بمقادير عظيمة احتياطيّ كافٍ لا لمدينة روما وحدها بل للمدن الأخرى التي كان فيض الزرع يتمدّ إليها من كل طرف مثلما تتدفّق مياه الينبوع إلى كل جهة.

في تلك الأثناء تعاظمت قوة قيصر واشتهر أمره بحروبه الظافرة في بلاد الغال. وفي الوقت الذي بدا فيه بعيداً عن روما منشغلاً في قتال البلجيك والسيوڤيين Suevians والبريطون، كان في الواقع يعمل في السِرّ وبغاية الدهاء بين الجماهير على مناهضة نفوذ پومپي في كلّ القضايا السياسية الهامة. وكان يتمتّع بثقة جيشه الذي التفّ حوله كأنما هو جسدٌ له ودان له بالولاء المطلق أو كأنه لم يكن يستخدمه لأغراض الحرب وتحقيق الانتصارات على البرابرة، أو كأن قتاله مع البرابرة ليس غير تمارين رياضية وسباقات خيل وطراد. فقد بذل كل جهدٍ فيه وأفنى أوقاته في تدريبه وضبطه فجعله مصدر رهبةٍ لا يمكن أن يقهر. هذا من جهةٍ، ومن جهة أخرى كسب عطف الشعب بتوزيع الذهب والفضة التي اغتنمها مع الأسلاب والكنوز الأخرى عليه ومَدّ يد العون المالي «للإيديل والپريتورين والقناصل» وسَدّ حاجات زوجاتهم من النفقات. وبهذا تمكن من شراء ما يفوق الحصر من الأصدقاء والموالين. حتى أنه لما اجتاز

الألب عائداً، واتخذ مقرّه الشتويّ في مدينة لوكّا تقاطر عليه ما لا يحصيه العَدّ من الناس رجالاً ونساءً يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب ليحظوا بالتقرب منه، ومن بين مستقبليه هؤلاء مائتا عضوٍ من مجلس الشيوخ، بينهم پومپي نفسه وكراسوس. وشوهد أمام بابه مرة واحدة ما لا يقل عن مائة وعشرين لكيتوراً يحملون الفؤوس إشارة واضحة إلى من وجِد في مجلسه ممن يحملون رتبة «پروقنصل» و«پريتور». ولم يترك مستقبليه يعودون خالي الوفاض بل ودّعهم وهم مثقلون بالأموال مفعمون بالآمال. ثم إنه عقد مع پومپي وكراسوس اتفاقاً خاصاً على أن يقوما بترشيح نفسيهما للمنصب القنصلي للدورة القادمة. ووعدهما بإرسال عددٍ من جنوده وقت الاقتراع لمنح أصواتهم لهما، حتى إذا تمّ انتخابهما، وجب عليهما أن يستخدما نفوذهما ليفوزا بقيادة بعض الفرق الرومانية والأقاليم. ومقابل هذا يثبت قيصر في قيادته الحالية لمدة خمس سنوات أخرى.

ولما افتضح أمر هذه الصفقة وعرفه عموم الناس سبّب سخطاً عظيماً بين كبار الرومانيين في المدينة. ونهض مارچللينوس في اجتماع عام طالباً من پومپي وكراسوس الجواب عمّا إذا كانا قد قرّرا حقاً التقدم للمنصب القنصلي وراح الجمهور يسانده في ذلك بإلحاح. فتكلم پومپي أولاً وقال من المحتمل أن يرشّح نفسه وقد لا يرشّح، وكان كراسوس أكثر ليناً وأقل صلافةً من زميله فقد ردّ يقول إنه سيفعل ما يراه أكثر تمشّياً ومصلحة الجمهورية. ولكن مارچللينوس اشتدّ في هجومه على پومپي وصارحه بالرأي الذي استقرّ عليه الجميع في شخصه. وكان يتكلم بشيء غير قليل من الحرارة فردّ عليه پومپي قائلاً إن مارچللينوس هو أبعد الناس عن الإنصاف، لظهوره الآن بمظهر ناكر الجميل، بعد الذي صنعه له فجعله خطيباً وهو الأبكم العيّ، وارتفع به من حالة البؤس والجوع الذي كاد يميته إلى حالة التخمة والشبع، حتى أنه ما عاد قادراً على ضبط نفسه.

ومهما يكن من أمرٍ، فقد سحب معظم المرشحين للمنصب القنصلي ترشيحهم. إلاّ أن كاتو شجّع لوشيوس دوميتيوس وأقنعه بإبقاء ترشيحه قائلاً: إن القضية الآن ليست قضية منافسة على المنصب بل الحريّة لإنقاذها من الطغاة الغاصبين. فخشي أنصار پومپي أن يؤدي إصرار كاتو العنيد إلى تأليب كل أعضاء مجلس الشيوخ، وبالتالي إلى استمالة كل العناصر الطيّبة من طبقة العامة وجرّها وراءه، فقرّروا مقاومة دوميتيوس بدون إبطاء وعزموا على منعه من دخول الفوروم. وتحقيقاً لغرضهم هذا بعثوا بشرذمة من المسلحين إلى الفوروم واصطدموا بأتباع دوميتيوس وهو يريد الدخول

فقتلوا حامل مشعله الذي كان يتقدمه منيراً له الطريق وهزموا الباقين وآخرهم كاتو نفسه الذي أصيب بجرح في ذراعه اليمنى أثناء ما كان يدافع عن دوميتيوس. بهذا الوسائل والأفاعيل تمكنا من الفوز بالمنصب القنصلي، ولم تكن تصرّفاتهما اللاّحقة بالتي تقلّ عن هذا، ومن أبرزها أنه لما اتفقت كلمة الشعب على اختيار كاتو لمنصب الپريتور، وهمّ الناخبون بالإدلاء بأصواتهم له، عمد پومپي إلى فضّ الاجتماع متذرّعاً بحدوث إشارة سماوية تُنذر بالنحس، وبعدها نجح في شراء القبائل بالمال فانتخبوا ڤاتينيوس Vatinius پريتوراً بدلاً من كاتو.

وتقدّم القنصلان الجديدان إيفاءً منهما بتعهدهما لقيصر بعدّة قوانين اقترحها تريبنيوس Trebinius التريبون تضمّنت تجديد فترة حكم قيصر على إقليمه لمدة خمس سنوات أخرى، كما عهد إلى كراسوس بحكم سورية وقيادة الجيش في الحرب مع الفرثيين. وأنيط بپومپي حكم كلّ أفريقيا مع إقليمي إسبانيا، وسلّموه قيادة أربع فرقٍ عسكرية، ما لبث أن أعار اثنتين منها لقيصر بناء على طلبٍ منه، لاستخدامها في حروب الغاليين.

وما إن انتهت مدة قنصلية كراسوس حتى رحل إلى إقليمه سورية في حين تلكأ پومپي فترةً من الزمن في روما لافتتاح ملعبه، وقدّم فيه للجمهور كل ضروب الألعاب والتمثيل بضمنها التمارين الرياضية والموسيقى. وكان ثمّ مشاهد صيد الحيوانات الضارية ومصارعتها، حتى قيل إنه قُتل خلال ذلك خمسمائة أسدٍ. وكان أغرب ما فيها وأكثره هولاً قتال الفيلة. فزاد بهذه الحفلات شهرةً وعظم قدره عند الشعب. إلاّ أنه من الجهة الثانية خلق له من الحسّاد ما لا يقلّ عن المحبّين بتسليم حكم الأقاليم المنوطة به وقيادة فرقته التي أُمّر عليها إلى أصدقائه ومساعديه، في حين كان يتنقل هنا وهناك، ويقضي كل أوقاته مع امرأته في مغانيه التي لا يخلو منها مكان في إيطاليا. والأمر سواء، أكان شديد الحب لها، أم كانت هي شديدة التعلّق به، فتحاشى إيلامها بالرحيل عنها، فالمسألة واحدة من هذه الأمور كما أشيع. وكان الحبّ الذي خصّت به هذه الزوج الفتيّة بعلها الكبير السنّ موضع الملاحظة العامة، وقد عزي كما يبدو إلى إخلاص پومپي للحياة الزوجية ورصانة أخلاقه التي كانت تمتاز بقدر كبير من الدماثة واللطف في الروابط الخاصّة، كذلك كان هو بصورة خاصةً محبوباً عند النساء، ويمكن أن يُتخذ عن فلورا العاهرة خير دليل على ذلك.

واتفق أنه ثار نزاع دمويّ في الجمعية العامة أثناء عملية انتخاب الإيديل واقتتل الجمهور فيما بينه فسقط بعض ممن كان يحيط بپومپي. ولما وجد ثيابهم ملطخة

بالدماء، أمر أن يؤتى لهم بثياب أخرى. إلاّ أن الخدم الذين عادوا بثيابهم الملطخة أثاروا جلبة وضوضاء بركضهم في أرجاء المنزل. وصادف أن رأت السيدة الشابة التي كانت وقتئذ حاملاً تلك الثياب الدامية ففقدت وعيها ولم تعد إلى الحياة إلاّ بعد لأيٍ، وأدركها المخاض في غمرة رعبها ولشدّة وقع الصدمة فأجهضت.

ولم يكن أحد يستطيع لومه بسبب شدّة تعلّقه بهذه الزوج الوفيّة حتى أولئك الذين وقفوا ضدّه بسبب صداقته لقيصر. وقد حملت ثانية ووضعت بنتاً وقضت نحبها وهي في فترة النفاس ولم تعمر البنت بعدها غير أيام قلائل فماتت. وكان پومپي قد هيّأ كل شيء لدفن جثمانها في منزله. إلاّ أن الجمهور استولى عليه عنوةً وقام بالمراسم الدينية المقتضية لها في ساحة مارس تعبيراً عن شدّة تعلّقه بالسيّدة الصغيرة، وتفضيله لها على پومپي وقيصر. ومع هذا فإن الجمهور، على ما بدا، كأن وقتذاك يخصّ قيصر بنصيبٍ من التكريم في غيابه أوفر مما كان يخصّ به پومپي وهو حاضر.

وعلى حين غرّة أخذت المدينة تغلي وتفور فوراناً - كما يقال - باقتراب هبوب العاصفة، وساد الهرج والمرج في كل مكان وشاع القلق في النفوس، وذاعت الأحاديث التي تفوح منها رائحة التفرقة والشنآن. فقد وضع موت كراسوس نهاية لعلاقة كانت حتى تلك الساعة قناعاً زائفاً أكثر من كونها وسيلةً طغيان وأطماع الرجلين پومپي وقيصر. إذ ما مرّ طويل زمنٍ على ذاك الاتفاق الثلاثي، حتى جاءت الرسل من بلاد فارس تنعى كراسوس. فأزيل بهذا الموت حاجزٌ آخر من شأنه أن يمنع نشوب الحرب الأهلية، لأن قيصر وپومپي كانا شديدي الحذر من كراسوس، وكانت رهبتهما منه تشدّانهما بعضاً إلى بعض نوعاً ما وتجعلهما ضمن حدود التصرّفات المعقولة، طالما كان في الحياة. والآن وبعد أن هصرت آلهة الحرب هذا النصير الذي كان من الممكن أن يهبّ إقليمه لمقارعة الغالب والثأر للمغلوب، فلك أن تنشد قائلاً مع الشاعر الساخر:

«المحاربون ينتظرون البدء بالقتال.

وكل منهم قد عفّر يديه بالتراب ودهن بالزيت جسده».

لقد بلغ الحظّ من التفاهة أمام الطبع البشري وبلغ من عجزه عن إرضاء عقل الطمّاع أنّ إمبراطورية مترامية الأطراف عظيمة السلطان تقف عاجزةً عن إرضاء وإشباع أطماع رجلين فقط، ومع أنهما قرآ وأدركا جيداً:

«أن الآلهة عندما قسّمت هذا الكون الفسيح بين ثلاثة: السماء والبحر

وجهنم، جلس كل واحدٍ منهم على عرشه قانعاً، كل إله منهم يتمتّع بملكه دون منافسةٍ»

فإنهما وجدا الإمبراطورية الرومانية أضيق من أن تحتويهما معاً. . . وهما اثنان فقط!

مَرّةً ذكر پومپي في إحدى خطبه الشعبية أنه كان دائماً يتسلّم السلطة دون أن يتوقع وجوب ذلك وأنه كان كذلك يتخلّى عنها قبل أن يتوقع الناس تخلّيه عنها. ولا شك أن تسريح كل جنوده يدلّ على صحة قوله. ومع ذلك عندما وجد أن قيصراً لا يريد تسريح قواته حاول بكلّ ما في طاقته تقوية نفسه والاستظهار عليه بتولّي المناصب والقيادات في روما، ولم يُبد خلاف هذا أية رغبةٍ في إجراء أيّ تغيير. ولم يكن يظهر عليه أنه يشكّ فيه، بل كان بالأحرى يحتقره ويزدريه. وعندما تبيّن كيف كانوا يفرّقون المناصب الحكوميّة ويعيّنون خلافاً لرغبته تماماً بسبب الرشاوى التي كانت تعطى للناخبين، ترك للأمور الحبل على الغارب، وأرخى العنان للمدينة لتسير أمورها بدون حكومة. وإذ ذاك أخذ الحديث يدور حول وجوب تعيين دكتاتور. وكان أوّل الداعين إلى ذلك لوكوللوس أحد تريبونات الشعب فقد راح يحثّهم على نصب پومپي دكتاتوراً. إلاّ أن هذا التريبيون كاد يُعزل من منصبه للمعارضة التي لقيها اقتراحه من كاتو. أمّا پومپي فقد بدأ أصدقاء كثيرون له يعتذرون عن هذا الاقتراح قائلين إنه كان زاهداً بهذا المنصب ولم يكن ليريده قطّ. ولما ألقى كاتو خطبة ثناءٍ على پومپي، وحثّ على التمسّك بقضية الأمن والنظام في الجمهورية، انتاب پومپي الخجل من موقفه ورضخ. وبناء على ذلك انتّخب كل من دوميتيوس وميسالا Messala قنصلين لتلك الفترة. إلاّ أن الفوضى ما لبثت أن عمّت بعد ذلك بوقت وجيز، وحُلّ ما يدعى بالفراغ في الحكم، فزاد الكلام حول ضرورة تعيين دكتاتور وغدا أقوى كثيراً من السابق. وفكّر أنصار كاتو بحلّ آخر بخصوص پومپي، خلاف حَلّ تعينيه دكتاتوراً، ووجدوا الحكمة تقضي بإبعاده عن السلطة المطلقة المستبدة بمنحه منصباً يتضمّن سلطة واسعة إلاّ أنها مقيّدة بأحكام القانون. إن بيبولوس الذي كان خصماً لپومپي كان الأسبق بإعطاء صوته في مجلس الشيوخ على أساس تعيين پومپي قنصلاً أوحد، وقال في تبرير اقتراحه: إن الجمهورية ستواجه في هذه الحالة أمرين لا ثالث لهما، فإما ستزول الفوضى والاضطراب وإما ستخفّ وطأة عبوديتها باختيارها الأجدر والأفضل.

وعُدّت هذه الفكرة غريبة جداً من رجل كبيبولوس. لذلك كان الجميع يتوقّعون معارضة كاتو لها عندما نهض للكلام. ولما ران السكون قال إنه لم يكن ليرغب لنفسه

أن تتقدم بهذا الاقتراح. ولكن ما دام صدر من آخر غيره فمن الواجب الأخذ به. واستطرد يقول إن كل شكل من أشكال الحكم أفضل من عدم وجود حكم، ولا يرى شخصاً أكثر لياقة من پومپي ليتولاه في مثل هذا الظرف العصيب والفوضى السائدة. فتمّت الموافقة على الاقتراح بالإجماع وصدر مرسوم يقضي بأن ينصّب پومپي قنصلاً أوحد، بقيد واحد وهو أن له الحق في اختيار من يشاء ليحكم معه كقنصل ثانٍ إذا وجد ضرورة لذلك، على أنه لا يستطيع استخدام هذا الحق إلاّ بعد مرور شهرين من قنصليته.

وبهذا أُعلن پومپي قنصلاً أوحد من قبل سولپيشيوس الوصيّ على هذا المنصب الشاغر. وعندها أبدى امتنانه العميق لكاتو مصرّحاً بأنه مدين له شخصياً وراجياً منه أن يمحضه النصيحة في شؤون الحكم فأجابه كاتو قائلاً:

– لا داعي هناك لشكري لأن كل ما فعلته إنّما لمصلحة الجمهورية لا لمصلحتك الشخصيّة. إلاّ أني سأكون مستعداً على الدوام لتقديم نُصح شخصيّ إذا طلبت منيّ ذلك. فإن لم تطلب فإني لن أتردد أو أتاخر عن التصريح بما أراه حقاً...

كذا كان سلوك كاتو في جميع الظروف والمناسبات

* * *

وعند عودة پومپي إلى المدينة تزوّج من كرونيليا بنت ميتيللوس سكيپيو ولم تكن بكراً، بل كانت أرملة پوبليوس ابن كراسوس الذي توفّي حديثاً في بلاد الفرس. وقد جمعت هذه السيدة الصغيرة إلى شبابها وجمالها صفات أخرى، فقد امتازت بعلوّ الثقافة وإجادة العزف عن العود، وألمّت بالهندسة، واعتادت ارتياد دروس الفلسفة واستيعابها. وكل هذا كان قميناً بأن تتحلّى به الفتيات الطموحات العاطلات عن الجمال، بدرجات متفاوتة، كما يلاحظ المرء أحياناً في سلوكهن هذا السبيل من التبعات. ولم يكن ثمّ ما يشين أسرة أبيها ولا ما يشوب سمعته فضلاً عن ذلك. إلاّ أن الفارق الجسيم بين عمريهما لم يقع موقع رضى واستحسان من الجميع. وكانت كرونيليا من هذه الناحية أنسب للزواج من ابن پومپي. ورأى أصحاب الحَلّ والعقد الأوفر عقلاً أن فيه إهانة موجهةً للجمهورية بعد أن شاهدوا ذلك الذي أودعوا إليه وحده مصائرهم ومستقبلهم المدلهمّ. منتظرين منه ما ينتظرونه من طبيب يقوم بشفاء هذه المضاعفات والنكسات، وهو يتنقل من مكان إلى آخر متوّجاً بالزهر، يحيي مآدب عُرسه دون أن يفكر بأن القنصلية التي عُهدت إليه ما أعطيت له خلافاً للقواعد القانونية، لو كانت حالة البلاد مستقرة مزدهرة. ومهما يكن من أمرٍ فإنه بدأ بعد ذلك يهتمّ في

أمور أخرى فراح يتعقّب قضايا أولئك الذين وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الرشاوى والتقرّب بالعطايا وأصدر مراسيم تقضي بمحاكمتهم وأصول المرافعات التي تتبع فيها. ونظم ذلك بكلّ عدل ورزانة فأعاد بذلك إلى قاعات المحاكمة الهدوء والنظام. وكان يحضر تلك المحاكمات بنفسه مصحوباً بعدد من الجند.

ولكن لما اتهم سكيپيو حميّه استقدم إلى داره القضاة الثلاثمائة والستين وطلب منهم أن يكونوا إلى جانبه.

وعندما شاهد المشتكي سكيپيو المتهم قادماً إلى المحكمة برفقة قضاته لم يسعه إلاّ أن يسحب شكواه، واتهاماته له، الأمر الذي أثار الأقاويل الكثيرة على سلوك پومپي. والأنكى من هذا كله بما لا يقاس ما أقدم عليه في قضية پلانكوس Plancus. فقد أقبل إلى المحكمة بنفسه حيث يحاكم هذا الشخص وقام خطيباً يمدح المهتم ويطري أعماله في الوقت الذي كان هو نفسه قد أصدر قانوناً منع بموجبه إلقاء كلمات المديح والإطراء بحق المتهمين أثناء محاكمتهم؛ الأمر الذي حدا بكاتو الذي كان واحداً من القضاة آنذاك إلى أن يضع إصبعيه في أذنيه قائلاً إن ضميره يأبى عليه الإصغاء إلى إطراء ممنوع بحكم القانون. فعُزل كاتو ونُحّي عن مجلس القضاء في هذه الدعوى قبيل صدور الحكم. إلاّ أن بقية القضاة أدانوا پلانكوس مع هذا وهو ما ألحق پومپي العار. وبعد ذلك بفترة وجيزة وقف هيپسيوس Hypaseus وهو من القناصل السابقين ينتظر بباب پومپي عودته من الحمّام لتناول العشاء، وكان متهماً بقضية، فما إن رآه مقبلاً حتى خرّ جاثياً على قدميه متوسّلاً إليه ليتشفّع له في مسألته. إلاّ أنه اجتازه وتركه جاثياً باحتقار قائلاً له: «إنك بهذا أفسدت عليَّ عشائي ليس إلاّ».

لقد عُدّ هذا التحيّز وتلك المحاباة من پومپي نقصاً كبيراً فيه وحُمّل بسببه انتقاد الكثيرين. ومهما يكن من أمر فإن تصريفه للشؤون العامة الأخرى كان متّسماً بطابع الحكمة والتعقّل. فقد أرسى قواعد الحكم على أفضل النُّظم. واختار حميّه زميلاً له في القنصلية للأشهر الخمسة الأخيرة من فترته. وبقيت الأقاليم التي أنيط به حكمها لأربع سنوات تالية، مع تفويضه بحق سحب ألف تالنتٍ سنوياً من الخزانة العامة لدفع مرتّبات جيشه.

كل هذا أفسح المجال لبعض أصدقاء قيصر بأن يطالبوا لصاحبهم ببعض الاهتمام والرعاية أيضاً. قالوا إنه هو أيضاً قد أدّى خدمات جليلة في ميادين الحرب وخاض غمار معارك عديدة في سبيل الإمبراطورية. وزعموا أنه يستحق على أقل تقدير المنصب القنصلي لفترةٍ ثانية، أو أن تُجدّد له فترة حاكميته على إقليمه لتتسنّى له فرصة الحكم

والاستمتاع في وقت السلم بما أحرزه في الحرب. وليس من العدل في شيء أن يأتي خَلَفهُ ليجني ثمار مجهوداته وأتعابه وليسلبه مجد أعماله. وقد نجم عن هذه الأحاديث مناقشات ومداولات. وحمل پومپي على عاتقه مهمة ترويج الدعوة لقيصر بدافع العطف كابتاً أي شعور حسدٍ يحمله له. فأخذ يردد قائلاً إنه تسلّم من قيصر رسائل يعبّر له فيها عن رغبته بالاستقالة من القيادة ويطلب تعيين خلفٍ له، وإنه ليس من العدل في شيء أن تُلبّى هذه الرغبة فيه، بل من الحق أن يُسمح له بترشيح نفسه للمنصب القنصلي ولو كان غائباً. إلاّ أن أنصار كاتو عارضوا في هذا قائلين: إن كان قيصر يريد تقديراً من المواطنين على أعماله فينبغي له أن يتخلّى عن جيشه ويأتي إلى روما كأي شخصٍ اعتيادي لترشيح نفسه. فلم يردَّ پومپي على هذا القول، وتركه يمرّ دون تعليق، كأنما أُسقط في يده، وخُذِل اقتراحه. مما زاد في شكوك أولئك الذين كانوا يعتقدون بأنه يضطغن لقيصر، كما أنه أسرع في الوقت نفسه يستقدم الفرقتين اللتين كان قد أعارهما له متعلّلاً بالحرب الدائرة في بلاد فارس. ومع أن قيصراً كان على علم تامٍ بالدافع الذي حمل پومپي على استردادهما فلم يتلكّأ وأعادهما إلى الوطن مثقلتين بالعطايا والهبات السخية.

في حدود هذا الزمان أبلّ پومپي من مرضٍ خطير فوجئ به وهو في ناپلي. وباقتراح تقدم به پراكساگوراس Praxagoras قام أهالي المدينة كلهم بتقديم الضحايا ورفع صلوات الشكر للآلهة على سلامته. واحتذت البلدان المجاورة حذوَ ناپلي وقامت إيطاليا كلّها تقرّب إلى الآلهة بهذه المناسبة فلم تبقَ مدينة صغيرة كانت أم كبيرة إلاّ واحتفلت بذلك ولعدّة أيام.

وتقاطرت جموع غفيرة جداً لزياراته من جميع الأطراف حتى لم يكن ثمّ مكان لاستيعابها واكتظّت القُرى والثغور بل امتلأت الطرق الخارجية بالناس وكلهم يحتفل ويقرّب للآلهة. وقصدَه كثيرٌ منهم وقد توّجوا رؤوسهم بأكاليل الزهر وحملوا المشاعل وراحوا ينثرون عليه الورد وباقات الزهر أثناء مروره. وهكذا كانت مناسبة شفائه واستقباله واحدة من أبدع وأفخم ما يمكن للمرء أن يتخيّله. على أن هذا الأمر بالذات اعتُبر سبباً ليس بالصغير الشأن من الأسباب التي أدّت إلى وقوع الحرب الأهلية، ذلك لأن پومپي الذي تغلّب على نفسه الشعورُ بالعظمة والسؤدد، وأعماه عن تلمّس الاعتبارات الأخرى الأكثر ثباتاً ورجاحةً، فقدَ توازنه بمظاهر التمجيد الفخمة والفرح العام، واطّرح ذلك العقل الذي كان حتى تلك الساعة يهديه إلى أسلم استعمال لحظّه الحسن. واستسلم لتلك الثقة المفرطة بنفسه. واستخفّ بسطوة قيصر حتى لم يعد يفكر

بمدى قوة السلاح ولا يأخذ الحذر لنفسه وتوهّم أن بإمكانه أن يعتقله متى ما شاء ويقذف به من حالقٍ بأسهل مما كان قد رفعه. فضلاً عن هذا فإن أپيوس قائد الفرقتين اللتين أعادهما قيصر إلى پومپي من بلاد الغال راح يكلّم پومپي مستهيناً بأعمال قيصر هناك مزدرياً كل ما حققه. ونشر أخباراً شائنة وفضائح حوله. وكان لا يفتأ يردّد على مسامع پومپي متملّقاً أنه لا يدري كم هو قويّ حسن السمعة وسيفلح بذلك مهما كانت القوات التي يستخدمها ضدّ قوات قيصر، وأن بغض الجنود لقيصر يعادله حبهم له بحيث لن يترددوا في الانضمام إليه ساعة يبرز لهم شخصه. وهكذا انتفخت أوداج پومپي بما سمعه من إطراء ومداهنة وأدّى به ذلك إلى اطّراح جانب الحذر واللامبالاة وراح يضحك مستخفاً بأولئك الذين أخذوا يبدون تخوّفهم من الحرب. وقال بعضهم متسائلاً:

- أيّ قوىً ستقف في وجه قيصر لو شاء أن يزحف على روما؟

فأجابه پومپي مبتسماً مطيّباً الخواطر:

- إنعموا بالاً. ففي الوقت الذي أخبط بقدمي على أية أرض من إيطاليا نستخرج فوراً قوّات كافية من الخيّالة والرجّالة!

* * *

وكان قيصر من الجهة الأخرى يزيد من نشاطه وعنف إجراءاته فهو على الدوام قريب من الأرض الإيطالية. ولذلك عمد إلى إرسال جنوده باستمرار إلى المدينة ليحضروا الانتخابات ويدلوا بأصواتهم. كما أنه نجح في إفساد ضمائر عددٍ كبير من القضاة، ووضع أسماءهم في قوائم من يدفع لهم. ومن بين أولئك پاولوس القنصل الذي اشتراه وضمّه إلى حزبه برشوة قدرها ألف وخمسمائة تالنت، وكيوريو Curio تريبون الشعب الذي قام عنه بإيفاء كل ديونه المتكاثرة عليه، ومارك أنطوني Marc Antony الذي أصبح مرتبطاً به بعين الارتباطات التي شدّت إليه الآخرين، بسبب صداقته لكيوريو. ومن الوقائع المرويّة الثابتة أن سنتريوناً من جيش قيصر وقف عند باب قاعة مجلس الشيوخ منتظراً تجديد عقد خدمته سنة إضافية، وعندما سمع أن طلبه هذا قد رُفض مدّ يده إلى سيفه وضرب كفّها عليه قائلاً:

- هذا هو الذي سيجددها سنة أخرى.

والواقع أن كلّ أعمال قيصر ونشاطه كان يشير إلى نواياه ويُفصح عن أغراضه. على أن مقترحات كيوريو وطلباته لمصالح قيصر كانت تبدو في مظهرها شعبية، تتوخّى المنفعة العامة. فمما اقترحه هو أن يؤخذ بأحد أمرين: إما أن يُطلب كذلك من پومپي

التخلي عن قيادة جيشه، وإمّا أن يبقى لقيصر أيضاً جيشه. إذ لو عاد كلاهما مواطنين عاديين فسيرضخان لهذا التدبير العادل البسيط. ولو احتفظ كل منهما بسلطته الحالية فسيكون كل واحدٍ منهما نداً للآخر وسيقنعان كلّ بما في يده. لأن ما يُضعف أحدهما يقوّي الآخر وبذلك تطغى تلك السلطة التي كان يخشى منها في السابق. وكان كل ما أجاب مارچللوس عليه في هذا الصدد قوله إن قيصر لصّ، ويجب أن يعلن أنه عدوّ للدولة إن لم يسرّح جيشه. ومهما يكن من أمرٍ فقد نجح كيوريو في مسعاه بمساندة كل من أنطوني وپيزو، ووضع اقتراحه موضع تصويت في مجلس الشيوخ. وطلب من أولئك الذين يرون وجوب قيام قيصر بالتخلي عن جيشه وبقاء پومپي على رأس جيشه الانسحابَ، فانسحبت الأغلبية. لكن لما طلب انسحاب أولئك الذين يرون وجوب قيام كليهما بتسريح جيشيهما والتخلّي عن القيادة لم يصوّت لپومپي غير اثنين وعشرين أمّا الأغلبية فقد وقفوا إلى جانب كيوريو. وهنا قفز على قدميه فخوراً بنصره ونزل إلى المدينة بين الجماهير في موكب نصرٍ، فاستقبلته بأعظم مظاهر الفرح مصفّقةً مهلّلة وتوّجته بالغار والأزهار. ولم يكن پومپي أثناء ذلك كله موجوداً. إذ يقضي القانون أن يُمنع القوّاد المتسلّمون قيادات عسكرية الدخول إلى المدينة. إلاّ أن مارچللوس نهض من مقعده وقال وهو يهمّ بالخروج: «إنه لم يجلس هنا لسماع الخطب في حين تعبر عشر فرق جبال الألب زاحفةً نحو المدينة، وإنه بمقتضى السلطة التي يملكها سيقوم بإرسال أحد ما للتصدّي لها دفاعاً عن سلامة البلاد.

وعلى أثر ذلك خيّم الوجوم على المدينة وارتدت الحِداد كأن نكبة عامة وقعت عليها. وخرج مارچللوس يرافقه أعضاء مجلس الشيوخ بموكب مهيب إلى الفوروم لمقابلة پومپي ووجّه إليه العبارات الآتية:

- إني أعطيك يا پومپي الأمر بالدفاع عن بلادك، ولك أن تستخدم الجنود الذين هم الآن تحت إمرتك وأن تجنّد ما تَسْتنسبه.

وأعقبه لنتللوس القنصل المنتخب للفترة القادمة بنفس المآل. على أن أنطوني خلافاً لأمر مجلس الشيوخ خرج إلى الجمهور وتلا في اجتماع عام رسالة وردت من قيصر تتضمّن عروضاً معقولة في ظاهرها من شأنها اجتذاب البسطاء من الناس، كاقتراحه أن يتنازل هو وپومپي عن السلطة ويسرّحا جيشيهما ويخضعا لحكم الشعب، ويقدّما أمامه حساباً عن أعمالهما. وقد أدّى هذا إلى خيبة پومپي عندما بدأ في التجنيد فقد لبّى الدعوة نفر قليل بدون رغبة. أما البقية فلم يلبّوا الدعوة التي وجّهت إليهم بالأسماء. وطالبت أغلبية الشعب بالسلام. ولم يجمع لنتللوس مجلس الشيوخ مع أنه

أخذ يمارس الآن سلطاته القنصلية . إلاّ أن شيشرون الذي عاد مؤخراً من كيليكيا حاول جهده إجراء الصلح مقترحاً أن ينزل قيصر عن إقليم الغال، ويتخلّى عن قيادة الجيش المرابط فيه ويحتفظ بفرقتين فقط مع احتفاظه بحكم إقليم إيلليركوم، وأن يقدم على ترشيح نفسه للمنصب القنصلي مرة ثانية. ولم يعجب پومپي الاقتراح. أما أصدقاء قيصر فقد رضوا بأن يتخلّى صاحبهم عن واحدٍ من الاثنين. إلاّ أنّ لنتللوس ظلّ معارضاً. وأنشأ كاتو يهتف صائحاً أن پومپي ليرتكب زلّةً كبيرة، إذ سمح لنفسه أن يكون مخدوعاً للمرة الثانية. وهكذا فشلت محاولة الصلح.

وفي عين الوقت وردت أنباء مفادها أن قيصر قد استولى على أريمنيوم Ariminum وهي مدينة إيطالية كبيرة، وأنه يزحف رأساً إلى روما بكلّ ما لديه من قوّات. الا أن الجزء الثاني من النبأ لم يكن له أساس من الصحة. إذ لم يكن معه في ذلك الوقت أكثر من ثلاثمائة من الخيّالة، وخمسة آلاف من الرّجالة. ولم يكن يريد أن يتعوّق زحفه بانتظاره وحدات جيشه كلها التي كانت معسكرة وراء جبال الألب، مفضّلاً مفاجأة أعدائه وهم في حالة الاضطراب والفوضى، غير متوقعين مداهمته، على اعطائهم وقتاً كافياً لمنازلته وهم مستعدون. وعلى ما نعتقد فإن توقّفه برهة عند بلوغه ضفاف نهر روبيكون Rubicon - الذي يفصل ما بين إقليمه وإيطاليا - كان سببه تقليب رأيه في الأمر الجلل الذي يهّم بالإقدام عليه وإنعام النظر فيه. كأولئك الرجال الذين يقذفون بأنفسهم دون تردّد من شفا جرفٍ إلى هاوية لاقرار لها. لقد أغمض بصيرته، واطرّح جانباً كل فكرةً عن الخطر الذي قد يُحدق به، وسمعه من كان قريباً منه يقول باليونانية:

- Amerriphtho Kubos. لقد رُمِيَ النرد!

ثم سار في طليعة جيشه نحو روما.

ولما بلغت الأنباء أهلها هاج هائجهم وضجّ ضجيجهم بشكل لم تره المدينة من قبل، وهرع أعضاء مجلس الشيوخ جميعاً إلى پومپي فوراً ولحق بهم الحكام. وسأله توللوس Tullus عن فِرقه وقادته. فصمت پومپي بعض الوقت ثم أجابه بشيء من التردد أن لديه تلكما الفرقتين اللتين أعادهما إليه قيصر وهما مهيّئتان. كما أنه قادر على تجريد ما يناهز الثلاثين ألفاً ممن دعوا للخدمة. فصاح تللوس:

- آه لك يا پومپي، لقد غششتنا.

واقترح إرسال وفد مفاوض إلى قيصر. أمّا فاڤونيوس Favonuis وهو إنسان قويم الخلق، إلاّ أنه كان يحسب أن كلامه اللاذع القاسي مطابقاً لصراحة كلام كاتو، فقد

طلب من پومپي أن يضرب الأرض بقدمه لتخرج منها القوات التي وعدهم بها من قبل. ولكن پومپي احتمل وهو كاظمٌ هذا المزاح الذي لم يكن في محلّه. وعندما ذكّره كاتو بما كان قد تنبّأ به حول قيصر منذ البداية، لم يفلح من جواب على پومپي إلاّ قوله: إن كاتو قد نطق بوحي النبوءة فعلاً، لكن پومپي تصرّف بمثابة صديق. واقترح كاتو بعد هذا أن يُنصّب پومپي جنرالاً، وأن يُمنح صلاحيات وسلطات مطلقة، قائلاً إن أولئك الذين يرتكبون أكبر الشرور هم أدرى من غيرهم بكيفية إزالتها. ثم إنه غادر المدينة متوجّهاً رأساً إلى صقلية وهي الإقليم الذي كان قد أُنيط به حكمه. كذلك رحل كل الشيوخ الآخرين إلى مناطق وظائفهم.

وهكذا أمست إيطاليا في حالة حربٍ. وحار الناس فيما يختارون عمله؟ فمن كان لا يسكن المدينة هرع إليها من كل صوب محتمياً بها. ومن كان من قاطنيها صار يشاهد الفوضى والاضطراب اللذين ساداهما، ويرقب انفراط حبل الأمن والنظام وشقّ عصا الطاعة على الرؤساء وعصيان الأوامر، وهو ما كان أعظم وأخطر مما يتمكن الحكام من معالجته. فأخذوا يتركون المدينة بأسرع مما يدخلها القادمون، واستحال تبديد مخاوفهم وقلقهم، بحيث أنهم ما كانوا ليَدعوا پومپي يتبع ما يوحيه إليه ضميره، وراح كلٌّ من جانبه يلّح ويلحف عليه لتنفيذ ما يراه مناسباً وصحيحاً، وإن كان منشأ رأيه الشكّ أو الخوف أو الحزن أو أي عاطفة أخرى أدنى قدراً من هذه. فكان يتخذ قرارين مختلفين في يومٍ واحد.

وتعذّر أيضاً الحصول على أنباء صحيحة عن حركات العدوّ. وكان كل من سمع بالصدفة إشاعة طائرة. ينقلها ويتداولها باعتبارها حقيقة ثابتة، ويستنكر من پومپي عدم الأخذ بها على علاّتها. أخيراً بعد أن رأى پومپي مبلغ الفوضى التي تعمّ روما اعتزم في نفسه أن يضع حدّاً لها برحيله عنها. فأمر أن يلحق به أعضاء مجلس الشيوخ كلهم، وأعلن أنه يعتبر كل متخلّف منهم متواطئاً مع قيصر وصنيعة له. وعند الغسق - قبيل مغرب الشمس - خرج من المدينة وخلّفها وراءه وتبعه القنصلان فوراً دون أن يسمح لهما الاستعجال بالتقريب إلى الآلهة كما هي العادة قبل كل حرب. ولكنّ پومپي حاز الشرف بين الجميع إذ ظلّ وسط هذه المحن والشدائد محتفظاً بقلوب الرجال وثقتهم. ومع أن الكثير انتقدوه على سوء إدارته دفّة الحرب فإنه لم يكن ثمّ رجل واحد كره القائد. وعلينا هنا التمييز بين أولئك الذين خرجوا من روما لأنهم لايستطيعون التخلّي عن پومپي وبين أولئك الذي هربوا منها حُبّاً في حرياتهم.

بعد مرور أيام قلائل على خروج پومپي دخل قيصر روما وبسط نفوذه عليها وعامل

الجميع بقدر كبير من اللطف وهدّأ رَوعهم وأزال مخاوفهم، باستثناء ميتيللوس أحد التريبونات الذي رفض أن يمكّن قيصر من أموال الدولة، فهدّده قيصر بالموت، وزاد على تهديده هذا عبارات أشدّ وقعاً كان أسهل عليه أن يفعلها ممن أن يقولها. وطرد ميتيللوس وأخذ ما يحتاج إليه لتصريف أموره. وانطلق لتعقيب پومپي باذلاً قُصاراه لطرده بأسرع ما يمكن من إيطاليا قبل أن يلحق به جيشه المرابط في إسبانيا.

على أن پومپي وصل برنديزيوم وكان تحت تصرّفه عدد كبير من السفن منها. فطلب من القنصلين الإقلاع فوراً. ونقل معهما ثلاثين كتيبة من المشاة على أن يلحق بهم فيما بعد إلى ديراكيوم Dyrrhachium. كما بعث حميّه سكيپيو وابنه كينوس Cnaeus إلى سورية لإعداد أسطول. ووضع أخفّ مشاته حرساً على الأسوار وأصدر الأوامر المشددة بأن لا يغادر أهل المدينة منازلهم. وأخذ يحفر الخنادق ويقيم الموانع ويدقّ الأوتاد المدبّبة والعوارض في كل طرق المدينة باستثناء طريقين اثنين كانا يؤدّيان إلى ساحل البحر. وبهذا تمكن في ظرف ثلاثة أيام من إخلاء بقيّة جيشه بسهولة. ثم أعطى فجأة إشارته للجنود القائمين على حراسة الأسوار بالانسحاب فانسحبوا بسلام إلى السفن المعدّة لهم فركبوها وأقلعت بهم.

وفطن قيصر أثناء ذلك إلى رحيلهم حين وجد الأسوار خاليةً فأسرع وراءهم. ولكنه لم يصب من عجلته غير الوقوع في فِخاخ الخنادق، والموانع. إلاّ أن البرنديزيين أوضحوا له الخطأ الذي كاد يقع فيه، وأرشدوه إلى الطرق السليمة. فارتدّ على أعقابه ودار بالمدينة دورة منطلقاً نحو المرفأ، ليجد السفن قد أقلعت براكبيها تمخر عُباب البحر، خلا اثنتين وقعتا بيده، ولم يكن فيهما غير القليل من الجنود.

أجمعت الأكثرية على أن انسحاب پومپي من إيطاليا كان عملاً من أفضل إنجازاته العسكرية. إلا أن قيصر بالذات لم يتمالك نفسه من العجب لپومپي في تركه إيطاليا، وكان يحتمي خلف أسوار مدينة محصّنة منيعة، وينتظر قدوم قواته من إسبانيا، فضلاً عن كونه يسيطر سيطرة تامة على البحار جميعها. واتهمه شيشرون بأنه آثر أن يفعل فعل تميستوكلس لا فعل پريكلس في ظروف هي أقرب شبها بظروف پريكلس منها إلى ظروف تميستوكلس. وعلى أية حال فيبدو واضحاً من تصرفات قيصر أنه كان كثير الخوف من عامل التأخير، وأنه كان يتلهّف للاشتباك بپومپي. بدليل أنه أسرع يرسل نوميريوس Numerius صديق پومپي سفيراً إلى بريندزيوم حال وقوعه في أسره، وحمّله عروضاً للسلم والصلح بشروط كريمة عادلة. إلاّ أن نوميريوس لم يعد إليه وأبحر مع پومپي.

بعد أن تمّت لقيصر السيادة على كل إيطاليا في ظرف ستين يوماً دون إراقة قطرة دم واحدة استولت عليه رغبة شديدة في تعقيب پومپي دون رَيثٍ. الا أن السفن كانت تنقصه فاضطر إلى تغيير اتجاهه وزحف على إسبانيا متوخّياً استمالة قوّات پومپي إلى جانبه وضمّها إلى جيشه.

في الوقت عينه تمكن پومپي من حشد جيش جرّار، براً وبحراً. وأمّا عن أسطوله فلم يكن بمقدور أحدٍ أن يتصدّى له. فقد تألّف من خمسمائة بارجةٍ مع لا يُحصى من السفن الخفيفة المرافقة لها، ومع قوم الليبورنيين[٢] Liburnians وآخرين غيرهم.

وأمّا عن القوات البريّة فكانت خيّالته تُعدّ سبعة آلافٍ وهي زهرة خيّالة روما وإيطاليا من أفرادها ذوي الثروة والجاه والروح المتوثبة. إلاّ أن مُشاته كانت مزيجاً من جنودٍ غير مجرّبين سُحبوا من مختلف الأنحاء وجُمّعوا أشتاتاً غير متجانسة، فكان يتولّى أمر تدريبهم والإشراف على تمارينهم بالقرب من بيرويا Beræa حيث عسكر جيشه. ولم يتقاعس هو نفسه عن المشاركة في تلك التمارين وكان يمارسها كأنه في مَيعة صباه. وهو تصرّف رفع كثيراً من معنويات جنوده إذ لم يكن تشجيعاً هيّناً أن يروا پومپي الأكبر، البالغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، لابساً درعه وشِكّة سلاحه بين المشاة مرّة. وممتطياً حصانه تارةً أخرى ممتشقاً سيفه بسهولة وبطريقة نظامية تامة ومغمداً إياه بنفس السهولة. ولم يكن قذفه الرمح يدلّ على براعته وخفّته فحسب بل على إتقانه إصابة الهدف المتميّز بالقوة والنشاط والقذفات البعيدة. ولم يكن يطاوله في هذا إلاّ قليل من الشباب. وأقبل عليه عدّة ملوك وأمراء في مختلف الشؤون. وتحوّطته بطانة عظيمة من المواطنين الرومان الذين يحملون رُتب القضاة، حتى تألف منهم مجلس شيوخ كاملٍ. وترك لابينوس صديقه القديم قيصر الذي خدمه طوال فترة حروبه في بلاد الغال وانضمّ إليه. كما لحق به أيضاً بروتس ابن بروتس الذي كان قد حكم پومپي عليه بالموت، معلناً ولاءه له بوصفه مدافعاً عن حريّة نفسه، وكان رجلاً عالي الهمّة، لم يتبادل منذ يوم مقتل أبيه كلمة واحدة مع پومپي ولم يُقرئه تحية معتبراً إياه قاتلاً فعلياً لأبيه. وكذلك التحق به شيشرون وإن كان قد كتب ونصح الآخرين بخلاف ذلك، ثم بدّل رأيه خجلاً من أن يبقى في غير عداد أولئك الذين يخاطرون بحياتهم ومستقبلهم للمحافظة على بلادهم. وانضمّ إليه وهو في بلاد مقدونيا تديوس سكستيوس Tidius Sextius وهو رجل ذو ساق واحدة بلغ من العمر عِتيّاً، فكان ذلك مدعاة للتندّر

---

(٢) من الشعوب الكرواتية. [المترجم]

والضحك من منظره. إلاّ أن پومپي نهض وهرع للقائه حالما وقع نظره عليه، واحتفى به. عندما يفضّل المرء وهو في هذا العمر والعجز الجسماني أن يكون مع پومپي بمواجهة الأخطار على البقاء آمناً في بيته فهذه شهادة بحق پومپي ليست بالتي يمكن إغفالها.

واجتمع مجلس الشيوخ وأصدر، بناء على اقتراح كاتو، مرسوماً يقضي بأن لا يقتل أيّ روماني إلاّ في ساحة المعركة وأن لا تُنهب أو تُسلب أية مدينة كانت خاضعة للحكم الإمبراطوري الروماني. وهو قرار زاد من سُمعة حزب پومپي ورفع من مقامه، حتى انّ أولئك الذين لم يهتمّوا بالحرب لبُعد ديارهم عنها، أو اعتُبروا غير قادرين على إبداء المساعدة، ما لبثوا أن انحازوا إلى جانبه بإخلاص ورغبة. وساندوا بكلّ ما يملكون من فصاحة اللسان القضيّة العادلة أو الصالحة كما أطلقوا عليها. واعتبروا مناهضي پومپي أعداء للآلهة، ورجالاً لا يريدون لپومپي أي نصر.

ولم ينفرد پومپي بسماحته ورحمته. فقيصر نفسه أظهر سماحة ورحمة لا تقلّان عَمّا أظهره الأول عند استيلائه وتغلّبه على كل قوات پومپي في إسبانيا. فقد قبل استسلامهم بشروط سهلة للغاية وترك القادة أحراراً وضمّ الجنود منها إلى جيشه ودفع لهم أجورهم. ثم انثنى عائداً فعبر الألب وأسرع في مسيرة خاطفة قطع بها برّ إيطاليا طولياً حتى بلغ برنديزيوم في حدود الانقلاب الشتوي. ثم عبر البحرين هناك ونزل ميناء أوريكوم. وأرسل يوبيوس Jubius، وهو من أخلص أصدقاء پومپي وكان أسيراً عنده، يطلب أن يعقدا جلسةً يتداولان فيها أمر الصلح. وأن يسرّحا جيشيهما خلال ثلاثة أيام ويجدّدا صداقتهما القديمة ويوثّقانها بأغلظ الأيمان، ثم يعودان معاً إلى إيطاليا. إلاّ أن پومپي ظنّ هذه الدعوة حيلة جديدة لذلك انحدر بغاية السرعة إلى ساحل البحر واحتلّ كل القلاع والأماكن المحصّنة المناسبة للتعسكر، ولأجل أن يؤمّن سلامة قواته البريّة أيضاً لأنها كانت مثل سائر الموانئ والثغور صالحة لاستقبال كل ما يأتي بحراً، فكانت كل ريح مؤاتية له مهما كان اتجاهها، تزوّده إما بالأرزاق أو الرجال أو المال. في حين كان قيصر محصوراً من جهتي البحر والبرّ حتى أنه لم يرَ مناصاً من طلب القتال. فكان يستفزّ العدو يومياً ويغير عليه وهو في قلاعه فيكتب له النصر في معظم الاشتباكات الخفيفة. ولم يصبّ إلاّ مرة واحدة بنكسة خطيرة كاد يخسر بسببها كل جيشه تقريباً. في هذه المعركة أظهر پومپي شجاعة فائقة وهزم كل القوة التي جرّدها العدوّ له وفتك في ميدان القتال بألفين. لكنه إمّا عجز أو خاف التقدم إلى الأمام يشق طريقه بالقوة إلى معسكر العدوّ الذي كان يسرع للاحتماء به. وهنا قال قيصر عبارته المأثورة:

- في هذا اليوم كان النصر للعدوّ، لو وَجِد فيه شخص واحد يَحرزه!

واشتدّت معنويات جنود پومپي وتضاعفت شجاعتهم، حتى أصبحوا وهم مشوقين إلى تقرير مصير النزاع بمعركة حاسمة.

إلاّ أن پومپي الذي كان يتخذ لقب «الفاتح» عندما يكتب للملوك البعيدين والقريبين والدول المتحالفة معه خشي المخاطرة بالنجاح في معركةٍ واحدة مؤثراً التأخير وإنهاك قوى العدو ورجاله الذين لم يغلبوا بالسلاح من قبل، بنقص الأرزاق. إن جنود قيصر اعتادوا منذ زمن بعيد على القتال والنصر معاً في حين أن أعمارهم المتقدمة جعلتهم سريعي الإجهاد في مشاقّ الحروب التالية كالمسيرات الطويلة والنزوح عن المعسكرات الكثيرة وحفر الخنادق وبناء الاستحكامات. وهذا ما جعلهم توّاقين إلى الاشتباك مع العدوّ والمغامرة في معركة فاصلة بأسرع ما يمكن.

تمكن پومپي من تهدئة جائش جنوده وإقناعهم بعدم الدخول في معركة حتى تلك اللحظة. إلاّ أنه بات متعذراً عليه إطفاء جذوة تعطشهم للقتال بعد اضطرار قيصر بسبب نقص الأرزاق إلى تقويض معسكره والانتقال إلى «تسالي» عبر «أثامانيا» فهتف جميع جنود پومپي بصوت واحدٍ جهوري أن قيصر فَرّ هارباً، وارتأى بعضهم ومطاردته والضغط عليه، وفضّل بعضهم العودة إلى إيطاليا، واقترح بعضهم الآخر إرسال خدمهم وأصدقائهم إلى روما قبل وصولهم إليها لاستئجار بيوت قرب الفوروم حتى يكونوا أكثر استعداداً لترشيح أنفسهم هناك. وأبحر عددٌ منهم من تلقاء أنفسهم حالاً إلى ليسپوس ليحمل إلى كورنيليا - وكان قد جاء بها پومپي إلى هناك لتكون في مأمن - الأنباء السارّة بانتهاء الحرب. ودعي الشيوخ إلى الاجتماع ووضع الأمر موضع المناقشة فكان من رأي أفرانيوس أنه يجب استعادة إيطاليا أولاً لأنها الجائزة العظمى وتاج الحرب كلها. فمن كان سيّداً لإيطاليا سهلت عليه السيطرة على أقاليم صقلية، وسردينيا، وكورسيكا وإسبانيا وبلاد الغال. وأضاف يقول متسائلاً ترى ما هو أهمّ وأخطر شيء بالنسبة لپومپي غير موطنه ومسقط رأسه القريب الذي يمدّ إليه يده طالباً المعونة. ومما لا يستقيم مع شرفه بالتأكيد أن يتركه هكذا معرّضاً لكلّ التحقير وتحت عبودية العبيد أنفسهم ومتملّقي الطاغية.

إلاّ أن پومپي كان يرى خلاف ذلك. ففي عُرفه أنه ليس من الشرف في شيء أن يعمد إلى الفرار ثانيةً من أمام قيصر وأن يُطارَد عندما منحه الحظّ أفضلية المطاردة، كما أنه ليس من العدل فعلاً أمام الآلهة أن يترك سكيپيو ورجالاً كثيرين أخر من ذوي المراتب القنصلية مشتتين في أنحاء بلاد الإغريق وتسالي عُرضةً للوقوع في يديّ قيصر

مع مبالغ طائلة من المال وما لا يُحصى من القوات العسكرية. وأما عن اهتمامه بمدينة روما فهذا يبدو جدّ واضح من نقله مسارح الحرب إلى مسافة بعيدةٍ عنها وتركها خالية البال، من أي شعور بويلات الحرب وآلامها، بله سماع أصوات شرورها، منتظرةً فحسب وبكلّ طمأنينة عودة المنتصر من أحدهما إليها.

بعد اتخاذه هذا القرار شرع في مطاردة قيصر معتزماً بينه وبين نفسه أن لا يدخل معه في معركة بل يحاصره ويضيّق عليه الخناق ويتعقّبه عن كثبٍ ويقطع الطريق عليه ما أوتي ذلك. وكانت ثمّ أسباب أخرى تحمله على الاستمرار في تنفيذ قراره هذا، من أخصّها قولٌ تداوله الرومان الذين يخدمون في صنف الخيّالة، وهو أن الضرورة توجب تحقيق الغلبة على قيصر بأسرع ما يمكن، وبعدها يزاح پومپي.

وقال بعضهم إن عدم إناطة پومپي أيّ عملٍ ذي أهمية بكاتو خلال الحرب كلها كان هذا سببه. أمّا الآن وبعد مباشرته بمطاردة قيصر فقد ترك كاتو للإشراف على حراسة أثقاله من جهة البحر خوفاً من قيام كاتو بإرغامه على التخلي عن سلطته عندما يتمّ قهر قيصر.

وفي الوقت الذي كان پومپي يرصد حركات العدوّ بمثل هذا البطء والتراخي أخذ يتعرّض من جميع الجهات للانتقاد العلني والاتهام بأنه إنما يستخدم قيادته لا للتغلب على قيصر بل لقهر بلاده وتحقيق الغلبة على مجلس الشيوخ حتى يظلّ دائماً ممارساً سلطانه ومبقياً على سلطات حرسه وأتباعه الذين يدّعون أنهم يحكمون العالم! ودأب دوميتيوس أينوباربوس Domitius Aenobarbus على تسمية پومپي بـ«أغاممنون ملك الملوك» مثيراً عليه حساده ومبغضيه. ولم يكن الأذى الذي لحقه من فاڤونيوس Favonius بمزاحه الفجّ بأقلٍ من الأذى الذي لحقه من أولئك الذين كانوا يهاجمونه علناً. مثال ذلك عندما قال معرّضاً بپومپي:

- يا خير الأصحاب! إياكم أن تتوقّعوا قطف التين من توسكولوم Tusculum في هذه السنة.

إلا أن لوشيوس أفرانيوس الذي كان يرزح تحت تهمة الخيانة جرّاء خسرانه الجيش في إسبانيا صرّح علناً عندما وجد پومپي يتعمد التهرب من الاشتباك:

- لا يسعني إلاّ التساؤل معجباً لماذا يُحجم أولئك الذين جعلوا اتهامه ديدناً عن الذهاب هم بأنفسهم وقتال ذلك المتاجر ببلادهم وأقاليمهم؟

بهذه الأقوال وبكثير من أمثالها أثاروا پومپي الذي لم يكن في استطاعته احتمال اللوم أو مقاومة أمل أصدقائه فيه . حتى أرغموه على العدول عن رأيه ونبذ قراره

الحكيم، لاتباع آمالهم الكاذبة ورغباتهم الطائشة. وهو ضعف منه يستحق اللوم عليه ملّاح أية سفينة فكيف بقائد وسيّدٍ مطاع يملك مثل هذا الجيش الجرّار، وتخضع له هذه الشعوب العديدة. إن لومه ليبلغنّ أضعافاً مضاعفة وهو وإن كان قد أطرى ومدح أولئك الأطباء الذين لا يستجيبون لرغبات مرضاهم المتقلّبة ولا يصفون لهم ما يشتهونه من مآكل، تراه الآن ولا حيلة له الا الرضوخ لنزوات سَقم أعوانه وناصحيه بضرورة الحرب، غير مستخدم شيئاً من الصرامة لأجل شفائهم. والواقع هو أنه ما كان أحد ليجرؤ على القول بأن هؤلاء الناس لم يكونوا مرضى ولم يكن شفاؤهم متطلّباً، إذ تراهم يسيرون في أرجاء المعسكر غدوة ورواحاً، يرشّحون أنفسهم: هذا لمنصب القنصل وذاك لمنصب الپريتور. في حين كنت ترى سبنثر وسكيپيو ودوميتيوس يعملون على كسب الموالين وتأليف الأحزاب ويختصمون فيما بينهم على شخص من سيخلف قيصر في منصب الكاهن الأعلى. آخذين الأمور كلّها باستخفاف واستهانة كأن الحرب التي سيخوضونها ليست مع قيصر وجيشه المغوار الذي دوّخ ألف مدينة وأخضع أكثر من ثلاثمائة شعب، وخاض ما يفوق الحصر من المعارك مع الجرمان والغاليين وخرج من جميعها منتصراً وأخذ مليوناً من الأسرى وقتل ما يساوي ذلك في ميادين المعارك الحاسمة، بل مع ديكران ملك الأرمن أو مع واحدٍ من صغار الملوك النبطيين!

وتمادوا في رجائهم وإلحاحهم وصخبهم. وعند بلوغهم سهل تسالي اشتد ضغطهم وإلحاحهم على پومپي حتى أرغموه على عقد مجلس حربٍ. وهنا نهض قائد الخيّالة لابينوس Labienus أولاً، وأقسم أنه لن يترك ميدان المعركة إلاّ بعد أن يهزم العدوّ، وحلف البقية على ذلك أيضاً. وفي تلك الليلة رأى پومپي في الحلم حشوداً من الناس تستقبله بالهتافات العظيمة وهو يدخل الملعب، وأنه قام بنفسه بتزيين هيكل ڤينوس المنتصرة بكثيرٍ من أسلاب الحرب. وقد شجّعه هذا الحلم من ناحيةٍ، وثبّط همّته من ناحية أخرى. فقد خشي أن تلك العطايا والزينة المقدمة لڤينوس ستكون من الأسلاب التي سيحصل عليها قيصر منه. ذلك لأنّ أسرة قيصر انحدرت، على ما يؤثر، من نسل تلك الآلهة. كما أنه استيقظ من هذا الحلم على أثر ضجة عالية دوّت في كل المعسكر نشأت عن بعض المخاوف المرعبة ونداءات استغاثة مجهولة المصدر. كذلك ظهر نورٌ ساطعٌ فوق معسكر قيصر ساعة تجديد الحرّاس والخُفراء فجراً أثناء ماكان الكلّ نائماً، ومنه انتقلت كرة ملتهبة نارية إلى معسكر پومپي؛ ويقول قيصر في هذا إنه رأى تلك الكرة بعينه عندما كان يقوم بدوريّته الاعتيادية في أرجاء معسكره.

اعتزم قيصر رفع معسكره عند الصباح الباكر والانتقال إلى سكوتوسّا Scotussa

وبينما كان جنوده منشغلين في تقويض خيامهم وإرسال ماشيتهم وخدمهم بالأثقال والمهمّات، أقبلت كشّافة من عملية استطلاع لتنبئ بأنها لاحظت حركة أسلحة هنا وهناك في معسكر العدوّ وسمعت ضجةً وهرجلةَ أقدام تغدو وتروح كأن الرجال يتهيّأون للمعركة. وما لبثت أن أقبلت كشّافة أخرى لتنبئ بأنّ صفوف جيش العدوّ الأولى قد وُضعت في نسق المعركة. وهنا توجّه قيصر إلى جنوده قائلاً: «إن اليوم المنشود قد حَلّ أخيراً. وهم الآن سينازلون رجالاً، ولن ينازلوا الجوع والطوى كما كانوا». ثم أصدر على الفور الأمر برفع المعطف الأحمر أمام خيمته وهي إشارة المعركة عند الرومان. وما إن شاهدها الجنود حتى خرجوا من خيامهم وهرعوا إلى أسلحتهم وهم يصرخون فرحين جذلين. وظهر الضبّاط أيضاً في الحال ورتّبوا سراياهم بنسق المعركة واتخذ كل مقاتل موضعه دون ضجّةٍ أو ارتباك، بل بهدوءٍ وانتظام كأنما يدخلون في حلبة رقصٍ.

وقاد پومپي بنفسه الجناح الأيمن من جيشه بمواجهة أنطوني، كما وضع حميّه سكيپيو في القلب بمواجهة لوشيوس كالڤينوس. وأمّا الميسرة فقد أمّر عليها لوشيوس دوميتيوس تدعمها كتلة عظيمة من الخيّالة هي تقريباً كل ما لديه منها، أملاً بسحق قيصر وإبادة الفرقة العاشرة التي اشتهرت بكونها أقوى فرقة عُدّة وعدداً وكان قيصر عادة يقاتل بشخصه في صفوفها.

وعندما لاحظ قيصر أن ميسرة العدوّ قد عُزّزت ودُعّمت بهذا الاحتياط الضخم من الخيّالة أدركه القلق لمهابة المنظر وأرسل يستقدم قطعةً عسكرية من احتياطيه تتألف من ستّ كتائب فوضعها في موخرة الفرقة العاشرة وأمرها أن لاتأتي بحركة لئلا ينتبه العدوّ إليها، حتى تبدأ خيّالة العدوّ بالهجوم والتقدم، فعندئذ عليها أن تسرع بأقصى ما يمكن للتقدم إلى الأمام والوصول إلى الصفوف الأُوَل، على أن يكون تقدّمها هذا بشكل تسلّل من سائر القطعات ومن خلال الصفوف المتقدمة، وأن لا يقذفوا رماحهم على العدوّ وهم بعيدون كما هي عادة الجنود الشجعان، حيث يواصلون التقدم ليلتحموا بقتال الأيدي وبسيوفهم حالاً، بل عليهم أن يسدّدوها إلى الأقسام العليا، إلى أوجه الأعداء وأعينهم، «لأن هؤلاء الراقصين البارعين الصغار لن يستطيعوا تحمُّل بريق الفولاذ الصقيل يبهر أعينهم ويهدّد وجوههم الجميلة بالتشويه بل سيفرّون حرصاً عليها» على حَدّ قوله.

كانت تلك خطة قيصر في ذلك الوقت وكان على ضوء ذلك يوجّه الأوامر إلى جنوده. وفي أثناء ذلك راح پومپي يستعرض مواقع الجيشين ممتطياً جواده ولاحظ

الانتظام التام الذي يسود صفوف جيش خصمه وهي تنتظر بكلّ هدوء ورباطة جأش إشارة المعركة. كما لاحظ كم كان القلق ونفاد الصبر يسود رجاله وهم لا يستقرّون في صفوفهم يتحرّكون إلى الأمام والخلف دون اكتراث بالنظام لافتقارهم إلى المران والتجربة، فأدركه الخوف الشديد من أن تتحطم صفوفهم في أول هجمة. وسارع يعطي أمراً بتوقف الطلائع عن التقدم واستقبال كرّة العدوّ بصفوف منضمّة متكتّلة. وقد انتقد قيصر هذه الخطة انتقاداً شديداً بقوله:

- إنها سلبت الضربات كثيراً من قوّتها، ولولا ذلك لكانت ستتمّ بقفزةٍ، كما أنها فضلاً عن ذلك أفقدت الرجال قوة الاندفاع تلك التي تتملّك الجنود المهاجمين في لحظة التحامهم بالعدوّ وتملأهم بالحماسة والحافز الغريزي أكثر مما تملأهم بأيّ شيء آخر، فالصيحات والزعقات والخطى السريعة تزيدهم ضراوة وعنفاً. كلّ هذا جرّدتهم منه أوامر پومپي فقد أوقفتهم عن تقدّمهم وبرّدت حرارتهم.

كان جيش قيصر يتألف من اثنين وعشرين ألف مقاتل في حين كان جيش پومپي يربو على ضعف هذا العدد. ولما أُعطيت إشارة بدء القتال من الجانبين وراحت الأبواق تصدح بنفير الهجوم، انشغل معظم الرجال كلّ بأمره. ولم يكن يشاهَد خارج ساحة المعركة غير قليل من صفوة أشراف روما وبعض الإغريق، يقفون بعيداً كمتفرّجين. ولم يتمالك هؤلاء أنفسهم وهم يشاهدون الجيشين مستعدين للاشتباك إلاّ أن يفكروا في أنفسهم متسائلين: «إلى أيّ دركٍ ونهاية بلغت الأطماع والطموح الشخصي بالإمبراطورية. إن الأسلحة التي تشتبك الآن هي أسلحة واحدة والجموع المصطفّة للقتال هي أبناء الوطن الواحد تربطهم أواصر القربى. وكلهم يحارب تحت ألوية واحدةٍ. زهرة رجال المدينة الواحدة وقوتها تصطدم هنا بعضها ببعض لتقدم البرهان الساطع على العمى والجنون اللذين تُبتلى بهما الطبيعة البشرية عندما تجتاح العاطفة النفوس. لو كانت رغبتهما قاصرة على الحكم فحسب والتمتّع في ظروف السلم بما كسباه في الحرب فإن أعظم وأفضل جزءٍ من العالم كان تحت سيطرتهما براً أو بحراً. لكن إن كان طموحهما يشكو الظمأ فمن السهل إرواؤه بانتصارات أخرى ومكاسب وأنصاب ظفرٍ. إن الحروب الپارثية والجرمانية كانت ستقدّم من هذه المادة ما يكفي لإشباع أعظم شهوةٍ إلى الجاه والرفعة. زد على هذا أن بلاد الصيثيين لم تفتح بعد وكذلك قُل عن بلاد الهند. إن طموحهما في احتلال هذين البلدين يمكن طلاؤه بالحجّة الكاذبة: العمل على إدخال المدنية لتلك الشعوب البربرية! أية خيّالة حيثية، أو سهام پارثية، أو ثروات هندية، يمكنها مقاومة سبعين ألف جندي روماني مسلّحين

بأفضل سلاح وتحت قيادة جنرالين مثل پومپي وقيصر، سمعت تلك الشعوب باسميهما قبل سماعها باسم الرومان، وذاعت قصص شجاعتهما وقهرهما شعوباً بعيدة بدائية وحشية بربرية بأوسع من قصص الرومان أنفسهم.

إنهما اليوم يلتقيان كخصمين. بعد أن فشلت الجهود في إقناعهما بأن يرحما بلادهما ويبقيا عليها بل حتى أن يحترما أمجادهما أو أن يدركهما الخوف من خسران الاسم الذي ما زالا يحملانه حتى ذلك اليوم وهو أنهما لم يقهرا قطّ. أمّا عن روابطهما القديمة الخاصّة ومحاسن يوليا، والزواج الذي شدّ فيما بينهما أواصر القربى، فهذه كلّها بات يُنظر إليها الآن كحِيَلٍ سياسية أو مجرّد ضمانات لاتفاق جرى إبرامه ليخدم أغراضاً ما مناسبة للظروف وليس عهوداً ومواثيق لأي صداقة.

ما إن غُطّيت سهول فرساليا بالرجال والخيل والدروع وارتفعت إشارة البدء بالمعركة من الجهتين حتى كان كايوس كراسيانوس Caius Crassianus، وهو سنتوريون يقود سريّة مؤلفة من مائة وعشرين مقاتلاً، أول من تقدم للهجوم من صفوف جيش قيصر، ليحلّ نفسه من عهدٍ قطعه لقيصر. لقد كان أول رجل رآه قيصر يخرج من المعسكر صبيحة ذلك اليوم فسأله قيصر بعد أن أقرأه التحية:

- ما رأيك بالمعركة القادمة.

فأجاب بصوت مرتفع وهو يبسط يده اليمنى:

- سيكون النصر حليفك أي قيصر. ستنتصر انتصاراً مجيداً وسأكون أنا في هذا اليوم موضع ثنائك حياً بقيتُ أم ميتاً.

وتحقيقاً لعهده هذا خفّ مسرعاً إلى الصفوف الأمامية، فتبعه الكثير فقذف بنفسه في وسط العدوّ، وجرى الالتحام بالسيوف فأوقعوا بالعدوّ مقتلة عظيمة. وفيما هو يندفع إلى قلب العدوّ بزخمٍ شديد يحطّم صفوف طلائعهم، اعترضه أحد جنود پومپي وسدّد إلى فمه طعنة نجلاء اخترقت رقبته حتى خرجت ذبابة السيف من قذاله. وبمقتل كراسانيوس تعادلت كفّة المعركة واستمرت غامضة النتيجة في ذلك الجزء من الساحة.

حتى تلك اللحظة لم يبدأ پومپي القتال من ناحية الميمنة، بل بقي متربّصاً منتظراً ما ستحققه له خيّالته على الميسرة. كانت كتائب الخيّالة قد انتظمت وفي نيّتها الكرّ على جناح قيصر وليّه وإرغام خيّالته القليلة العدد التي وضعها في المقدمته على الانكفاء نحو فوج المشاة. إلاّ أن قيصر أعطى الإشارة فانسحبت مشاة إضافية وُضعت في المؤخرة كاحتياطٍ لتغطية الجناح فخرجت الآن إلى الأمام بعددها البالغ ثلاثة آلاف رجلٍ لمواجهة العدوّ. وعندما اقتربت من خيّالته وأصبحت على تماسّ بها وجّهت رماحها

إلى فوق حسب الأوامر المبلغة لها فأصابوا الفرسان الراكبين في وجوههم. ولما لم يكن لهؤلاء الخيّالة خبرة بأيّ فن من فنون القتال، وبخاصةٍ لما لم يكونوا يفهمون أو يتوقعون مثل هذا الأسلوب في القتال، فقد أعوزتهم الشجاعة وعجزوا عن تلقّي هذه الضربات على أوجههم فأداروا أقفيتهم وغطوا أعينهم بأيديهم ولاذوا بالفرار يلاحقهم العار. على أن مشاة قيصر لم يتعقّبوهم وإنما تحرّكوا نحو مشاة العدوّ وهاجموا الجناح الذي تركته هزيمة الخيّالة مكشوفاً لهم فآض معرّضاً للانثناء والهجوم عليه من الخلف. وهكذا حفّ الخطر بالجناح من قِبل هؤلاء المشاة، ومن هجوم جبهي قامت به الفرقة العاشرة، فعجز عن الصمود والمقاومة مدةً أطول بعد أن وجدوا أنفسهم مطوّقين ومحاصرين، على عين خطّتهم المبيّتة التي خُيّل لهم أنها ستنجح مع العدوّ، فلحقت بهم الهزيمة كسابقيهم ولاذوا بالفرار. وأدرك پومپي من مثار الغبار وتصاعده مصيرَ خيّالته. وهنا يصعب جداً على المرء أن يحزر ما كان يجول في رأسه من أفكار وماذا كان يعتزم. على أنه بدا كذلك الشخص الذي أثقله الهمّ وشتّت القلق ذهنه. وبدون أن يفكر أو يتذكر أنه پومپي الأكبر، انسحب إلى داخل معسكره ببطءٍ دون أن ينطق بحرف. فكان لأي راءٍ ممن ينطبق عليه محتوى الابيات التالية:

«على أن الإله من عليائه أصاب أجاكس بالخوف، فوقف المقدام أجاكس
هناك مصعوقاً ثم أردف تُرسه القوي ذا الطبقات السبع وراء ظهره، وحدّق
وهو يرتجف ذهولاً في أرجاء ساحة المعركة».

بهذه الحالة والوضع دخل پومپي خيمته وجلس دون أن ينبس بحرف، حتى اندفع بعض رجال العدوّ إلى داخل المعسكر مختلطين برجاله الفارّين إلى الداخل. وعندئذ فتح فمه بعبارة واحدة لا غير:

- أحتى في داخل المعسكر نفسه؟

ولم يزد على ذلك. وإنما نهض وارتدى ثياباً تناسب حظّه العاثر، وترك المعسكر سِرّاً.

في أثناء ذلك كانت بقية الجيش قد مُنيت بالهزيمة، وحصلت مقتلة عظيمة في المعسكر بين الخدم وحارسي الخِيَم. وأما من الجنود فلم يُقتل غير ستة آلاف حسب قول أسينيوس پوليو Asinius Pollio الذي كان يقاتل شخصياً في هذه المعركة إلى جانب قيصر. وعندما احتلّ جنود قيصر المعسكر شاهدوا أنفسهم أمام حُمق العدوّ وتصرّفاته العابثة. فقد وجدوا كل خِيَمه وسرادقاته ترفل في أجمل زينةٍ وأنفسها من أكاليل الزهر والآس ومن السجاجيد المطرّزة والستائر المنقوشة والموائد المنصوبة وقد

حفلت بأكواب الراح والى جانبها قِصاع كبيرة مملوءة خمراً. كان كلّ شيء مُعدّاً ومنتظماً بشكلٍ لا يسع المرء إلاّ أن يظنّها لأناس قرّبوا قرابينهم وهم يريدون الاحتفال بالعيد وليس جنوداً حملوا أسلحتهم وخرجوا للمعركة واثقين إلى حَدّ الإيمان بانتصارهم، في صباح هذا اليوم.

بعد أن ابتعد پومپي عن معسكره مسافةً مناسبة، ترجّل وتخلّى عن حصانه. ولم يكن معه غير حاشية صغيرة. ولما تأكد أن لا أحد يتعقّبه راح يسير على هَونه وقد استغرق في تلك الأفكار التي تستحوذ عادة على من هم في حالته. كان قد تعوّد طوال أربعة وثلاثين عاماً على الفتوح والنصر، وها هو الآن في شيخوخته يُلقّن لأول مرة درساً في الهزيمة والفرار، ولم تكن بالنكبة الصغيرة الهيّنة أن يخسر في ساعةٍ واحدة ما أنالته إياه الحروب والمعارك الدموية العديدة من مجدٍ وسلطان. قبل برهة وجيزة كان يكتنفه جيش جرّار من المشاة وعدد عظيم من الكتائب ويدعمه أسطول ضخم لا يُغلب. أما الآن فهو طريد يهرب من وجه عدوّه بحالة يُرثى لها وليس معه إلاّ نفر ضئيل من الأتباع. حتى أن أعداءه الذين قاتلوه ما كان بوسعهم تمييزه.

بعد أن اجتاز مدينة لاريسا Larissa عن مبعدة وبلغ تمپه Tempe شعر بظمأ شديدٍ فجثا على الأرض وشرب من ماء النهر ثم نهض وعبر ممر تمپه وسار حتى بلغ ساحل البحر. وهنا دخل كوخاً صغيراً لأحد صيادي السمك حيث استراح بقية الليل. وفي فجر اليوم التالي استقلّ قارباً نهرياً دون أن يأخذ معه ممن تبعه غير الأحرار منهم، وصرف خدمه ونصحهم بأن يذهبوا إلى قيصر دون وجلٍ. وفيما كان يجذّف بقاربه غدوةً ورواحاً بمحاذاة الشاطئ لمح صدفةً سفينة تجارية راسية إلاّ أنها كانت معدّة للإبحار وكان قبطانها مواطناً رومانياً يدعى پيتيشيوس Peticius لم يكن على معرفة جيدة بپومپي إلاّ أنه كان يستطيع تمييزه بالوجه. اتفق لپيتيشيوس هذا أنه رأي حلماً في الليلة السابقة ظهر فيه پومپي بشكل يختلف كثيراً عمّا عهده، رآه بحالة ذليلة يُرثى لها وأخذ يكلّمه وهو بهذه الحالة. ثم إنه قصّ حُلمه على كل من كان في السفينة كعادة كل امرئٍ في وقت راحة وليس لديه ما يعمله وبخاصة حلماً غريباً كهذا. فلم يلبث أن أقبل عليه أحد البحارة ليخبره بأن قارباً نهرياً بمجاذيف يغادر الشاطئ وأن بعض الرجال فيه طفقوا يهزّون معاطفهم ويرفعون أيديهم بإشارة من يريد ركوب السفينة. فراح پيتيشيوس يتفحّص القادمين بإمعان ووقع نظره على پومپي فعرفه بالهيئة التي ظهرت له في الحلم. فضرب جبهته بكفّه وأمر البحارة بإنزال قارب السفينة وأخذ يلوّح له بيده ويناديه باسمه وقد ميّزه، وأدرك ما حَلّ به من الزيّ الذي يرتديه. ثم أصعده على ظهر سفينة دون

ترتيب لمكالمة أو رجاء منه. وأفسح لعددٍ مناسب من أتباعه مكاناً معه في السفينة. وكان مع پومپي فردان من أسرة لنتولي Lentuli، وفافونيوس. وبعد برهة قليلة من الزمن شوهد ديوراتوس Deioratius الملك وهو مسرع إليهم من الشاطئ فتوقفوا وأخذوه معهم. وهيّأ لهم قبطان السفينة عشاء مما تيسّر من أرزاق السفينة. وراح پومپي يحلّ سيور حذائه بنفسه لعدم وجود من يقوم في خدمته. فلحظ فافونيوس ذلك منه فأسرع إليه وقام بحلّها عنه وعاونه في مسح جسده بالزيت. وظلّ بعد ذلك يواصل خدمته في كل شيء كالخادم، وبضمن ذلك غسل رجليه وإعداد عشائه. إن من شاهد ذلك التفاني والاحترام الذي لا تشوبه شائبة ما من التكلّف لا يسعه إلاّ أن يذكر قول القائل: «قسماً بالله! كل ما يفعله أولئك الذين تحلّوا بالنُبل هو لائق وجميل».

ومَرّ پومپي وهو على ظهر سفينته بمدينة أمفيپوليس Amphipolis ومنها إلى ميتيلين Mitylene معتزماً أن يأخذ كورنيليا امرأته وابنه، وما إن بلغ ذلك المرفأ في الجزيرة حتى بعث برسول وحمّله الأخبار التي ما كانت كورنيليا تتوقّعها. فقد دأبت آمالها في الارتفاع بالرسائل والكتب السابقة التي كان زوجها يبعث بها للتسرية عنها فصارت تؤمن إيماناً جازماً بأن الحرب قد انتهت في ديراكيوم Derrhachium وأنه لم يعد لپومپي ما يفعله غير تعقيب قيصر المندحر. هكذا وجدها الرسول فلم يقوَ على تحيّتها أو التحدث إليها. وأفصحت لها دموعه لا كلماته عن سوء حظها العظيم. ثم طلب منها أن تسرع إن شاءت لقاء پومپي على ظهر سفينة واحدة لا يملكها. وما إن وعت السيّدة الصغيرة ذلك حتى سقطت مغشياً عليها، وظلّت فاقدة الوعي معقولة اللسان مدة طويلة. ولما ثاب إليها الرشد وعادت إلى وعيها بعد لأيٍ وأدركت أن الوقت ليس وقت ندبٍ وبكاء، انطلقت خارج المدينة راكضة نحو الساحل فاستقبلها پومپي واحتضنها وهي تكاد تتهاوى على الأرض فأسندها بذراعيه فتهفت قائلة:

- إنه حظّي العاثر يا سيّدي، لا حظّك، أن أراك هكذا لاتملك غير سفينة صغيرة واحدة، أنت الذي كنت قبل زواجك بي تخرج إلى البحر وتجوب هذه المياه بأسطول تعداده خمسمائة بارجة! أكان ينبغي لك أن تأتي لترى تلك التي جلبت عليك المصائب بسوء حظها وروحها الشرير، ولا تتركها لمصيرها؟ لكم كنت سعيدة لو لفظتُ أنفاسي الأخيرة قبل أن يردنى نعي پوبليوس زوج شبابي من بلاد فارس، وكم كان من الحكمة لو نفّذت قراري في اللحاق به. إلاّ أني ادُّخِرت لمصيبة هي دمار پومپي الأكبر.

كان هذا ما أُثر من أقوال كورنيليا لپومپي. وإليك ما ذُكر عن جوابه لها:

- لم يكن لديك يا كورنيليا غير فترة واحدة من حسن الحظّ، الذي ربما أعطاك

آمالاً كاذبة بملازمته لي مدةً أطول من المعتاد. ونحن الذين وُلِدنا وقد كُتب علينا الفناء يجدر بنا تحمّل هذه الأحداث، وتجربة الحظّ مرّة أخرى. فاحتمال استعادتنا ما فقدناه ورجوعنا إلى ما كنا عليه ليس بأقلّ احتمالاً أبداً من سقوطنا من ذلك الارتفاع إلى هذا الدرك.

وأرسلت كورنيليا تستقدم خدمها ومتاعها من المدينة. وخرج سكان ميتيلين يحيّون پومپي ويدعونه إلى مدينتهم، فأبى ذلك ونصحهم بطاعة المنتصر، وبأن لا يخشوا أذى من قيصر لأنه رجل بالغ الطيبة واسع الرحمة. ثم التفت إلى قراتيپّوس Cratippus الفيلسوف الذي كان بين من خرج لتحيّته وشرع يوجّه بعض الملام للعناية الإلهية في محاورة مُقتضَبة حول ذلك. إلاّ أن قراتيپّوس راغ عن الحوار بكلّ تواضع، وراح يبثّ فيه الشجاعة لا غير، حتى لايبدو قاسياً أو نابياً. إذ كان بوسعه آنذاك أن يلقي بدوره على پومپي سؤالاً فيه دفاع عن تصرّفات العناية الإلهية. كان باستطاعته أن يثبت ضرورة تحوّل الإمبراطورية الرومانية إلى النظام الملكي بسبب سوء الحكم وفساد الدولة. وكان بإمكانه أن يتساءل قائلاً:

- كيف يا پومپي؟ وبأيّ دليل أو ضمان يمكننا أن نتأكد أنك ستستخدم حظك - إذا واتاك - بأفضل مما سيستخدمه قيصر لو حالفك النصر؟ علينا أن نترك العناية الإلهية لحالها وعملها كما كانت أبداً ودوماً.

أخذ پومپي زوجه وأصدقاءه إلى السفينة وأقلع ولم يقف في مرفأ أو يرسي إلاّ عندما تعوزه الأرزاق والماء النقيّ. ولذلك كانت مدينة أتاليا Attalia في پامفيليا Pamphylia أول مدينة دخلها. وهناك لحقت به بوراج حربية من كيليكيا مع وحدة صغيرة من الجنود. وانضمّ إليه حوالي ستين شيخاً من أشراف روما. ثم وردته الأنباء بسلامة أسطوله، وبأن كاتو قد أعاد تنظيم عدد لا يُستهان به من وحدات الجيش بعد الهزيمة وأنه يعبر بهم البحر إلى برّ أفريقيا. فبدأ يشكو ويلوم نفسه أمام أصدقائه لأنه نزل عن قراره وسمح لنفسه بأن يُرغَم على الدخول في معركة برية دون استخدام قواته الأخرى التي ما كان يفوقها شيء. كما أنه لم يضع أسطوله في مواقع قريبة من المعركة بحيث يستطيع إنزال نجدات منها إلى البرّ استدراكاً لفشله وبهذا يكون مرة أخرى على رأس قوة كافية لمقابلة العدوّ في ظروف متكافئة.

وإن شئنا قول الحقيقة فإن پومپي لم يقع في خطأ وقِصر نظرٍ خلال حروبه كلّها كما وقع هنا. وإن قيصر لم يستخدم استراتيجاً ماكراً كما استخدم هنا، بجرّه القتال إلى هذه المسافة البعيدة عن القوات البحرية.

كان على پومپي الآن أن يتخذ قراراً، وأن يرسم خطّة لنفسه تتفق مع إمكاناته. فبعث بوكلائه إلى المدن المجاورة وأبحر بنفسه يجول في المدن الأخرى مناشداً المعونة بالمال والرجال لسفنه. إلاّ أنه خشي أن يؤدّي تقدّم العدوّ السريع إلى إحباط كل مساعيه، فبدأ يفكر في ملجأ أمين يمنحه الوقت الكافي. وعقد مجلساً للتشاور في الأمر. وأجمعت الآراء على أنه ما كان يوجد في ذلك الوقت إقليم روماني أمين ومضمون تماماً. وأما بخصوص الممالك الأجنبية فقد كان رأى پومپي أن بلاد فارس هي الأصلح لقبولهم والدفاع عنهم وهم في حالتهم الحاضرة من الضعف. كما أنها أفضل البلاد الأخرى بمقدرتها على تزويدهم بمهمّات جديدة وتعزيزهم بقوّات كبيرة. وارتأى آخرون اللجوء إلى الملك يوبا Juba في أفريقيا. إلاّ أنّ ثيوفانس الليسبي كان يرى من الخطل والجنون إغفال اللجوء إلى مصر وهي لا تبعد عنهم أكثر من ثلاثة أيام بحراً. وقال إنه لخير لپومپي أن يفيد من پطليموس وهو بعدُ صبيّ يافع مدين له بالصداقة والأفضال التي أغدقها على أبيه. واستفظع أن يضع پومپي نفسه تحت رحمة الپارثيين، ويثق بمثل هذا الشعب الذي لا يفوقه شعب آخر في العالم خيانةً وغدراً، مفضّلاً إياه على تجربته لرحمة الرومان ولعلاقات القربى الخاصّة. وهو الذي لو رضي بالمنزلة الثانية فلربما حاز المنزلة الأولى وأصبح زعيماً للبقية، إن يذهب إلى أرشاق Arsaces لاجئاً ويضع نفسه تحت رحمته، في حين لم يقبل كراسوس أثناء حياته أن يذعن له؟ كيف يرضى بتعريض امرأته الصغيرة المنحدرة من أسرة سكيپيوس Scipios إلى نزوات شعبٍ بربري لا يحكم إلاّ بشهوته وغلظته ويقيس عظمته بمقدرته على الإهانات والأذى. إنها لم تتعرّض لأيّ أذى ومهانة حتى الآن، وهذا حق، ولكن أليس من المحتمل أن تتعرّض لذلك إن وقعت في أيدي من يقدر على فعله؟

قيل إن هذه المحاجّة الأخيرة وحدها هي التي حملت پومپي على نبذ فكرة اللجوء إلى البارثيين والتوجّه إلى الفرات. هذا إذا سلّمنا بأن العناية الإلهية لم تتدخّل في الموضوع وإنما كان القرار بتأثير من مشاورته ليس إلاّ.

ما إن اتخذ هذا القرار باللجوء إلى مصر حتى انطلق من قبرص على ظهر بارجة سلوقية ومعه كورنيليا. في حين أبحر بقية أتباعه بعضهم بسفن حربية وبعضهم بسفن تجارية تواكب سفينته وتجري على مقربة منها. ولم يقع له حادث في الطريق. وعندما علم أن پطليموس الملك قد أقبل بجيشه إلى مدينة پيلوسيوم Pelusius لقتال أخته، انحرف إليه وأرسل رسولاً يعمله بوصوله ويطلب منه الحماية. كان پطليموس صبيّاً يافعاً لا قِبَل له بمعالجة القضية. وكان پوثينوس Pothinus يتولّى الإدارة كلّها. فدعا

مجلس شورى من العظماء والرؤساء الكبار هم في الحقيقة أعظم من شاء هو أن يرفعهم إلى تلك المراكز.

وأمر كل واحدٍ منهم بأن يعرض رأيه حول قبول دخالة پومپي. وإنه ةالحق يقال لأمرٌ يورث الأسى ويحزّ في النفس أن يترك مصير پومپي الأكبر في يد پوثينوس الخصيّ وثيودوروس الخيوسيّ معلّم البلاغة المأجور وأخيلاس Achillas المصري. هؤلاء مع بقية الحجّاب والخدم الوضعاء الذين تألف منهم المجلس كانوا الرؤساء، وزعماء القوم! وپومپي الذي وجد طلب الأمان من قيصر إهانة لشرفه، يضطر الآن وهو يلقي المرسى على مبعدة من الساحل، إلى انتظار قرار هذه العصبة!

الظاهر أن الآراء كانت متنافرة جداً. فكان رأي بعضهم أن يؤمر بالعودة من حيث أتى. وحبّذ بعضهم قبوله والترحيب به. إلاّ أن ثيودوروس حُبّاً في استعراض بلاغته وفصاحته راح يوضح المسألة بقوله:

- إن المرء لا يمكن أن يأمن على نفسه باتخاذ أيّ من هذين القرارين، فلو نحن قبلناه بين ظهرانينا فمن المؤكد أن قيصر سيكون في صفّ أعدائنا، كما سيكون پومپي سيّداً علينا. وإذا صرفناه ولم نقبله فسنكون موضع سخطه الدائم بطردنا إياه طرداً خالياً من الكياسة، في الوقت الذي سنجلب علينا غضب قيصر لتركه يفلت منا سالماً. فأفضل وسيلة للتخلص من المأزق والحالة هذه هي أن نقبل وفادته، ثم نضع حدّاً لحياته. وبذلك سنفوز بالحظوة عند قيصر ولن يكون ثمّ أيّ موجب للخوف من پومپي بعد القضاء عليه (وقيل إنه ختم كلامه بالقول): «. . . لأن الميت لا يعضّ»!

وبالموافقة على هذا الرأي أنيط تنفيذه بأخيلاوس فانطلق متوجّهاً إلى سفينة پومپي مع شركاء منهم سپتيميسيوس وهو روماني كان يشغل منصب قائدٍ بإمرة پومپي، وسالڤيوس وهو ضابط آخر برتبة سنتوريون، يرافقهم ثلاثة أو أربعة من الخدم. وفي أثناء ذلك انتقل الأشراف والوجهاء الذين رافقوا پومپي من سفنهم إلى سفينةٍ ليقفوا بالتدريج على نتائج مساعيهم. لكنهم بدأوا يشكّون في الأمر من برودة الاستقبال ووضاعته. وبعد أن رأوا الطريقة التي استُقبلوا بها ولم يكن ظاهرها كريماً أو مشرّفاً أو بحسب ما كان ثيوفانس يأمل إذ لم يتقدم لاستقبال الوفد إلاّ قلة من الرجال في قوارب صيدٍ، وأنذروا پومپي بوجوب الإقلاع إلى عُرض البحر وهو ما يزال بعيداً عن متناول أيديهم. وفي تلك الأثناء دنا قارب المصريين ونهض سپتيميسيوس أولاً وحيّا پومپي باللغة اللاتينية وبلقب الإمبراطور. ثم أعقبه أخيلاوس وحيّاه باللغة الإغريقية طالباً منه أن ينزل إلى قاربه معلّلاً طلبه بأن الساحل ضحل جداً وأن بارجة كبارجته تنوء بما

تحمل قد يسوخ قاعها في الرمل. وشوهد في الوقت نفسه عدد من بوارج الملك ترفع رجالها إلى ظهرها كما شاهدوا الساحل كله مكتظاً بالجنود فلو عدلوا عن رأيهم وهمّوا بالفرار لاستحال عليهم ذلك، كما أن أيّ شكّ يظهرونه كان سيعطي القتلة حُجة للإقدام على فِعلتهم النكراء. وودّع پومپي زوجه كورنيليا وكانت تندب موته قبل أن يأتيه، وطلب من سنتورين في معيّته ومن خادم معتوق يدعى فيليب وعبد اسمه سكيثس Scuthes أن يسبقاه إلى النزول الي قارب الصيد القادم. وفي الوقت الذي كان بعض نوتية أخيلاوس يمدون أيديهم إليه لمساعدته أدار رأسه إلى امرأته وابنه مردّداً حكمة الشاعر سوفوكليس:

«من يدخل باب طاغية مرّةً صار عبداً وإن كان من قبلُ حرّاً».

تلك كانت آخر كلمات سمعها منه أصدقاؤه. ثم استقلّ القارب ولحظ أن مرافقيه لم يوجّهوا إليه كلمه لطف وترحاب طوال المسافة الكبيرة التي كانت تفصل بين بارجته والساحل فنظر إلى سبتيميسيوس مليّاً وقال:

- ما أراني مخطئاً في الظنّ بأنك كنت زميلاً من زملاء الجندية.

فلم يجبه بشيء، وإنما أحنى رأسه، ولم يبد منه شيء من المجاملة أكثر من هذا. وواصلوا السير صامتين، ثم تناول پومپي كُتيّباً فيه خطاب باللغة الإغريقية أعدّه لقراءته أمام پطليموس الملك، فانشغل باستذكاره. وعند الاقتراب من الساحل لم تعد كورنيليا تطيق صبراً هي وأتباعه وانتعشت آمالهم وتوثّبت قلوبهم فرحاً عندما رأوا أخيراً عدداً من رجال الحاشية الملكية تتقدم للترحيب به بمظهر يدلّ على التشريف والحفاوة... وفي الوقت نفسه مد پومپي يده ليعين فيليب الخادم على النهوض فسدّد سپتيميسيوس إليه طعنة من الخلف وعاجله أخيلاوس وسالڤيوس بطعنتين من سيفيهما. فرفع پومپي رداءه بكلتا يديه وغطى به وجهه ولم يقل شيئاً ولم يأتِ بحركة، متحمّلاً الطعنات التي وجّهت إليه بصمت ما خلا أنّةً قصيرة. وهكذا انتهت حياته في اليوم التالي لذكرى ميلاده وله من العمر تسعة وخمسون عاماً.

وشاهدت كورنيليا ومرافقوها ما حصل، فأطلقت صرخة عالية سُمعت من الساحل. ورُفِعت المراسي بسرعةٍ ونُشِرت القلوع، وساعدت ريح قوية هبّت من الساحل انطلاقهم إلى عُرض البحر، وكان المصريون يودّون اللحاق بهم لكنهم أدركوا عُقم المحاولة فعدلوا. وانشغلوا باحتزاز رأس پومپي ورموا بالجثة من القارب إلى الساحل عارياً ليشاهده كل من يدفعه الفضول لرؤية هذا المشهد الأليم. وبقي فيليب بالقرب منه مراقباً، حتى شبعت أعين المتفرّجين. فتقدّم وغسل الجثمان بماء البحر إذ

لم يكن ثمّ ماء آخر ثم لفّه بقميص له وكفّنه، ثم بحث بين الرمال فوجد بضعة ألواح خشبية متآكلة لقارب صيد لم تكن كثيرة إلاّ أنها كانت كافية لإعداد محرقة جنائزية للجسد العاري الذي كان ناقصاً. وفيما كان فيليب منهمكاً في جمع وتكديس هذه الألواح القديمة وترتيبها دنا منه مواطن روماني متقدّم في السن، كان في شبابه قد خاض عدة حروب تحت إمرة پومپي، وابتدره متسائلاً:

- ما اسم الرجل الذي يُعِدّ جنازة پومپي الأكبر؟

فردّ عليه فيليب بأنه معتوق له. فقال الروماني:

- إذن، فلن تستأثر بهذا الشرف وحدك. أرجو منك أن تسمح لي بمشاركتك في هذه الخدمة الطاهرة، كي لا يلحقني الندم التامّ على تغرّبي في بلاد أجنبية. بل سيتاح لي، على سبيل تعويضي عن كثير من الرزايا والمحن، سعادة لمس جسد پومپي بيدي، والقيام بالواجب الأخير لأعظم قائد بين الرومان.

على هذه الشاكلة تمّت مراسم إحراق جثمان پومپي. وفي اليوم التالي وصل لوشيوس لنتولوس قادماً من قبرص دون أن يدري ما حصل. وبلغ الساحل نفسه. وعندما شاهد المحرقة وفيليب واقفاً بالقرب منها هتف قائلاً قبل أن يراه أحدٌ:

- من هو هذا الذي لقي حتفه هنا؟

وأردف متنهّداً بعد فترة صمت قصيرة:

- ربما كنت أنت يا پومپيوس ماگنوس!

ثم نزل إلى الساحل فقُبض عليه في الحال وقُتل.

تلك كانت نهاية پومپي.

بعد زمن قصير، وصل قيصر إلى تلك البلاد التي دُنّس ثراها بهذا العمل الدنيء. وعندما مثل أمامه الرسول المصري الذي حمل له رأس پومپي ابتعد عنه متقزّزاً مشمئزّاً كأنه يبتعد عن قاتل سفّاك. ولما سلّموه ختم پومپي الذي كان قد حفر عليه رسم أسدٍ يحمل بمخلبه سيفاً، طفق يبكي وأمر بأخيلاوس وپوثينوس فقُتلا. أما بطليموس الملك، فبعد أن هُزم في معركة على ضفاف النيل هرب إلى جهة مجهولة ولم يُسمع عنه شيء بعدها. وهرب ثيودوروس أستاذ البيان من مصر. وأخطأته عدالة قيصر إلاّ أنه عاش في المنفى طريداً منبوذاً تتقاذفه الآفاق مُحتقَراً مُبغَضاً من جميع الناس، إلى أن عثر عليه ماركوس بروتوس بعد قتله قيصر فأذاقه أشنع ميتة في إقليمه بآسيا.

أوجُه المقارنة بين پومپي وأغيسيلاوس

بعد أن أجملنا تاريخ حياتي أغيسيلاوس وپومپي وجب علينا أن نقوم بمقارنتهما. ولأجل ذلك ينبغي لنا أن نلقي نظرةً خاطفة ثم نجمع معاً نقاط الخلاف الأساسية فيما بينهما وهي الآتية: أولاً، بلغ پومپي ما بلغه من الرفعة والمجد بأرفع الوسائل وأشرفها. وكان مديناً بارتفاعه لمجهوداته الخاصّة وللعون الكبير الهامّ الذي دعم به سيلّلا، فأنقذ به إيطاليا من طغاتها. في حين نرى أغيسيلاوس قد ظفر بالملك - على ما يبدو - بطريقة لا تخلو من انتقاص للآلهة واستحقار للناس. فبالنسبة للناس احتقرهم باستحصاله قراراً يقضي بكون ليوتيخيدس ابناً غير شرعي لأخيه، في حين أنّ أخاه كان قد اعترف جهراً وعلى ملأ من الأشهاد ببنوّته. وأما بالنسبة للآلهة فقد انتقصهم حين دسّ عبارة من عنده في نصّ النبوءة، وبقصد التخلّص من أثرها في العرج الذي يشكو منه.

والاختلاف الثاني هو أن پومپي ظلّ أبداً يوقّر سيلّلا ويحترمه في أثناء حياته ولم ينقطع عن ذلك بعد موته. فقد فرض فرضاً أن يُدفن جثمانه دفنة مشرّفة رغم معارضة ليپيدوس. وأعطى بنته زوجاً لفاوستوس ابن سيلّلا فيما وجدنا أغيسيلاوس يتخلّص بأتفه الحجج والمزاعم من ليساندر تخلّصاً يُستبان فيه التحقير والتأنيب. ونستدرك فنقول إن سيلّلا كان مديناً لپومپي بأكثر مما كان پومپي مديناً لسيلّلا في الواقع. في حين أن كل الفضل في نصب أغيسيلاوس ملكاً على سپارطا وقائداً عاماً للإغريق جميعاً كان يعود إلى ليساندر وحده.

والاختلاف الجوهري الثالث هو أن پومپي قام بانتهاك حُرمة العدالة والحق في سائر أدوار حياته السياسية ترويجاً لمصالح أقربائه وآخرين وبمساعٍ منهم. وكان لمعظم أخطائه بعض صلة بقيصر في زوجه وسكيپيو حميّه، فضلاً عمّا هو متعلّق بشخصه. إلاّ أن أغيسيلاوس رغبةً منه في إرضاء عاطفة حبّ ابنه أنقذ حياة سفورديياس باستخدام بعض العنف وكان يستحق الموت للجُرم الذي ارتكبه بحقّ الأثينيين. وعندما عكّر

فيوبيداس علاقات السلم مع ثيبه بسوء قصدٍ وبشكل غادر واضح مالأه وشجّعه على عمله بحماسةٍ حُبّاً بالعملية الظالمة نفسها. وبمختصر القول فإن الأذى الذي قيل إن بومبي قد أصاب به روما، بتحقيقه رغبات أصدقائه أو بإهمال منه، يمكن القول إن أغيسيلاوس قد جرّه على سپارطة بسبب عناده وسوء طويّته حينما أشعل نار الحرب البويوسية. زد على هذا، إذا وجب علينا أن نعزو أيّ جانبٍ من هذه الرزايا بخصوص بومبي إلى نكد حظ شخصيّ، فمن المؤكد أن ليس ثمّ أي مبرّر ليتوقّع الرومان أمراً كهذا . في حين أن أغيسيلاوس لم يتح للقيديميين فرصة اجتناب ما توقّعوه وما أُنذروا به وهو التحرّز من «الملك الأعرج». إذ لو تعرّض ليوتخيدس للاتهام عشرة آلاف مرة بأنه أجنبيّ دعيّ، فإن نسل اليوريپونتداي Eurypontidae باق، وبإمكانه أن يمنح سپارطا ملكاً شرعياً سليم الساقين لو لم يزيّف ليساندر ويطلي بانسجام المنطوق الأصلي للنبوءة ترويجاً لدعوى أغيسيلاوس بالعرش.

ويصعب علينا أن نجد مساوياً وقريناً لتلك المغالطة الكبرى والحيلة الماكرة التي استنبطها أغيسيلاوس أمام الحيرة العظمى التي استولت على الناس، بخصوص المعاملة التي يجب أن تُفرض على جبناء موقعة ليوكترا. فقد أعلن بعد تلك الهزيمة المشؤومة أن القوانين يجب أن تنام في هذا اليوم. وكان بومبي بعكس ذلك لا يجد أي بأس في إبطال أو خرق القوانين التي وضعها هو نفسه إرضاءً لصديق من أصدقائه، حتى لكأنه يريد إظهار متانة صداقته وعظمة قوّته في آن واحد. في حين حكمت الضرورة على أغيسيلاوس كما يبدو بالاختيار بين نقض القانون وإتلاف المواطنين فعمد إلى استنباط حيلة بها أبقى على تلك القوانين وعطّل سريانها على المواطنين في عين الوقت. وأراني مضطراً إلى الإشادة هنا بالعمل الجليل الفاضل الذي ينطوي على طاعة للقانون لا تُضاهى عندما أوقف الحرب في آسيا فور وصول الـ«سكيتالا» إليه، وقفل راجعاً إلى بلاده. ولم يكن مثل بومبي الذي حافظ على مصالح بلاده بمجهودات حافظت في الوقت نفسه على مصلحته الخاصة ومقامه ليس إلاّ. فقد ظلّ أغيسيلاوس أميناً على مصلحة بلاده ولأجلها عاف كثيراً من السلطان والمجد مما لم ينله أحدٌ قبله أو بعده خلا الإسكندر الكبير.

علينا الآن أن ننتقل إلى وجه آخر من المقارنة. لو جمعنا حملات بومبي العسكرية ووقائعه الحربيّة المشهورة وعدد انتصاراته وعظمة البلاد التي أخضعها لحكمه والمعارك الفائقة العدّ التي كسبها، فأنا مقتنع بأن گزينفون نفسه لن يضع انتصارات أغيسيلاوس في ميزان متكافئ معها. على أن لگزينفون ما يبرّر منح أغيسيلاوس علاوة هي بمثابة

مكافأة له على تبريزه وامتيازه في أمور أخرى ليست ذات طابع حربي، مما يعطيه الحق في أن يتكلم ويكتب في تفضيل بطله وترجيحه على صِنْوه قدر ما يشاء. وفي اعتقادي أنا أن هناك فرقاً كبيراً بين الرجلين في تسامحهما واعتدالهما إزاء الأعداء، ففي الوقت الذي حاول أغيسيلاوس استعباد أهل ثيبة واستئصال شأفة المسينيين (الأخيديون كانوا حلفاء بلاده القدماء، والأولى هي مسقط رأس أسرته المالكة)، كاد يفقد سپارطة نفسها كما كاد يفقد في الواقع حكمه على الإغريق. بينما ترى پومپي يقدّم مدناً برمّتها لأولئك القراصنة الذين أرادوا تغيير أسلوب حياتهم. كان بإمكانه أيضاً أن يسوق ديكران ملك الأرمن أسيراً في موكب ظفره، لكنه اختار أن يجعله حليفاً للرومان بقوله: «إن يوماً واحداً هو أقلّ قيمة من مستقبل الزمن».

أما إذا كان التفوّق بخصوص منصب القائد وفضائله فيجب أن يتحددّ بأعظم وأهمّ عمل ومأثرة من أعمال الحرب ومآثرها عند القائد. فإن ارتفاع أغيسيلاوس على پومپي في هذه الحالة لن يكون بالقليل. لأن أغيسيلاوس لم يترك وراءه مدينته وهي في حالة حصارٍ يطبق عليها جيش قوامه سبعون ألفاً وليس في داخلها إلاّ عدد قليل من المدافعين وهم الجنود المندحرون الذين تخلّفوا من موقعة ليوكترا. لكن پومپي ترك مدينة روما خائفاً من زحف قيصر في الوقت الذي لم يكن قيصر قد احتل من إيطاليا غير مدينة واحدة بثلّة من الجنود لا تزيد عن خمسة آلاف وثلاثمائة رجل، إمّا جُبناً منه أمام هذه القِلّة، وإما على أقلّ تقدير بسبب اعتقاد خاطئ زائف بوجود جنودٍ أكثر من هذا. غادرها مع زوجه وأولاده تاركاً بقيّة المواطنين وليس من يدافع عنهم. فرّ هارباً في حين كان عليه إمّا أن يقاتل دفاعاً عن بلاده حتى يقهر، وإمّا أن يرضخ لشروط فاتح هو ابن بلده وقريبه. غير أنه سلّم السلطة كلّها لعين الشخص الذي رفض أن يمدّد له حكمه، وأبى بشكلٍ قاطع أن يسمح له بفترة ثانية، كما تخلّى عن المدينة حتى قال ميتيلوس وسائر الآخرين بأنهم أصبحوا لا أكثر من أسرى له.

إن مهام الجنرال الأساسيّة هي إرغام العدوّ على القتال عندما يجد نفسه الأقوى، واجتناب الزجّ بقواته في معركة عندما يجد نفسه الأضعف. وهذه الميزة كانت بارزة في أغيسيلاوس على الدوام، وبها بقي لا يُغلَب. في حين كان قيصر الجانب الأضعف عند اشتباكه مع پومپي، فتحامى الخطر بنجاح. وكانت قوّته ترتكز على الجيش البرّي لذلك دفعه إلى تقرير مصير المعركة بتلك القوات فتمكن من وضع يده على كل أرزاق عدوّه وأمواله، وسيطرته على البحر أيضاً، وكلّها كانت في يد عدوّه وهي كفيلة بتحقيق النصر دون قتال بحدّ ذاتها. فما يزعمون أنه إعذار لپومپي ودليل البراءة له هو، لجنرالٍ في

مثل سِنّه ومقامه، عارٌ لا يفوقه عارٌ. إذ لو سلّمنا جدلاً بأن الصخب والضجيج والصياح قد تفقد قائداً صغيرَ الشأن مضاءَ عزمه وحضور بديهته، فيغدو مستضعفاً ويطير صوابه، وهو أمرٌ ليس بالعجيب، وليس بالخطأ الذي لا يُغتفر، إلاّ أنه ما لا يمكن التسامح فيه مطلقاً. وما لا يمكن احتماله هو خَور عزيمة قائد مثل پومپي الأكبر، كان الرومان يعدّون معسكره ملاذهم ووطنهم، وكانت ضحيّته مجلس شيوخ، مسمّياً القناصل والپريتورين وكل الحكام الآخرين الذين كانوا يديرون دفّة الحكومة في روما بأسماء ليست أفضل من ثوّار أو خوَنة. وكانوا يعلمون حق العلم أنهم لم يمارسوا القتال إلاّ تحت إمرته. ذلك الذي خاض كلّ حروبه بنفسه وبإمرة نفسه دون أن يشاركه أحدٌ في القيادة العليا، رأيته عند أقلّ استفزاز، كأن يسخر به فاڤونيوس وديميتيوس، وخوفاً من أن يلحق باسمه اسم أغاممنون تضعه نفسه أمام تأثير هذين الاثنين فيرغماه على المخاطرة بكلّ الإمبراطورية وبحرية روما، في رمية نردٍ واحدةٍ. لو كان يخشى على سُمعته الحاضرة بهذه الدرجة أفما كان الأحرى به أن يحمي روما ولا يتركها وراءه؟ وعندما أعلن – فضلاً عن ذلك – أن انسحابه من إيطاليا إنما هو مناورة على أسلوب تميستوكلس فإنه لم يخجل من تأخّره الحذر في القتال قبل نشوب معركة تسالي. إن إرادة السماء لم تعيّن السهول الفرسالية ساحةً ومرسحاً يتقرّر فوقها النزاع على إمبراطورية روما، كما لم يطلب متحدّ للنزال حضوره إلى تلك البقعة بالذات، معلناً أنه إمّا أن يختار خوض المعركة وإمّا أن ينزل عمّا بين يديه للتحدّي! هناك ميادين أخرى كثيرة، آلاف من المدن، بل رقعة الأرض كلّها كانت تحت تصرّفه وموضع اختياره، بحكم الأفضلية التي أمّنها له أسطوله وتفوّقه البحري، لو اتّبع خطى ماكسيموس وماريوس ولوكوللوس، بل حتى أغيسيلاوس نفسه الذي وقع تحت ضغط وإلحاح لا يقلّ عمّا تعرّض له پومپي عندما كان مُحاصَراً داخل سپارطة حين راح الثيبيّون يستفزّونه ويتحدّونه إن استطاع الخروج للقتال دفاعاً عن أراضي سپارطة. كذلك كابد أغيسيلاوس في مصر العديد من الاتهامات والإهانات ووقع تحت شكّ عظيم من الملك المصري لأنه أشار عليه بأن يتحاشى القتال، متبعاً دائماً قراره الذي صمّم عليه بعد التأمل الناضج، فحافظ على سلامة المصريين ضدّ إرادتهم! وأنقذ سپارطة بعمله هذا من سقوطٍ محتّم وانتشلها من وضع يائس، فضلاً عن إقامة أنصاب نصر في المدينة تخليداً لانتصاره على الثيبيين بإتاحة الفرصة لبني قومه في تحقيق الغلبة عليهم لا بقيادتهم إلى خارج الأسوار كما حاول عدوّه إرغامه لتدميرهم. ففاز أغيسيلاوس في الأخير بالثناء من عين أولئك الذين حاولوا إرغامه على القتال، بعد أن تبيّنوا كيف أنقذهم. أما پومپي

الذي كان الآخرون سبباً في خطأه، فقد كان هدفَ اتهام أولئك الذين ضلّلته مشورتهم. الحق يقال إن فريقاً يزعم أن حميّه سكيپيو هو الذي خدعه، فقد اعتزم هذا أن يخفي الجانب الأكبر من الكنوز التي جلبها ختنه پومپي من آسيا ليستأثر بها لنفسه، فألّح عليه بالاستعجال في دخول المعركة متعللاً بشحّ المال وقرب نفاده. مع هذا، فلو سلّمنا جدلاً بأن پومپي كان ضحية خداع فإن أي شخصٍ في موضعه كان ينبغي عليه ألاّ يتصرّف هكذا. ما كان يجب عليه أن يسمح لهذه الخدعة التافهة بأن تسبّب مخاطرته بتلك الإمبراطورية الجبّارة.

من هذا كله نستطيع أن نكوّن لنا فكرة عن كلّ من پومپي وأغيسيلاوس بمقارنة سلوكهما ومآثرهما الحربية.

أمّا بخصوص رحلة كلّ منهما إلى البلاد المصرية فإن پومپي ألجئ إلى التوجّه نحوها فراراً، أما الثاني فقد قصدها جندياً مرتزقاً ولم تلجئه الضرورة، ولا أسباب مشرّفة. فقد جنّد نفسه لخدمة شعب بربري لقاء أجرٍ أراد أن يستخدمه فيما بعد لشنّ حرب على الإغريق. ومن الجهة الأخرى فإن ما نتّهم به المصريين باسم پومپي الذي وثق بهم پومپي فغدروا به وقتلوه. أمّا أغيسيلاوس فقد وثق بهم ثقة پومپي ثم تخلّى عنهم وتحوّل إلى معاونة الأعداء الذين كان قد جاء بهم خصومهم لمساعدتهم في قهرهم.

محتويات الجزء الثاني

هذا الكتاب

إذا قرأ المرء بلوتارخ فعليه أن يتذكر النقاط التالية: إنه أخلاقي أكثر منه مؤرّخاً واهتمامه بالطبائع والشخصيات والأعمال الفردية والدوافع الخاصة إلى تلك الأعمال أكثر بكثير من اهتمامه بشؤون السياسة وبتغيير الإمبراطوريات. فعنده أن الواجب يؤدّى فيكافأ عليه مؤدّيه، والكبرياء تنال جزاءها، وسرعة الغضب سيّئةٌ يجب تقويمها، والنزعة الإنسانية والإنصاف والسماحة تنتصر في الحياة الدنيا أو تعوّض في الحياة الأخرى. وإنك لترى فكر بلوتارخ في سِيَره يتجه دائماً إلى الآراء الأرسطية في الأخلاق وإلى ونظريات أفلاطون السامية التي كانت مذهب الطبقة المثقفة في عصره.



